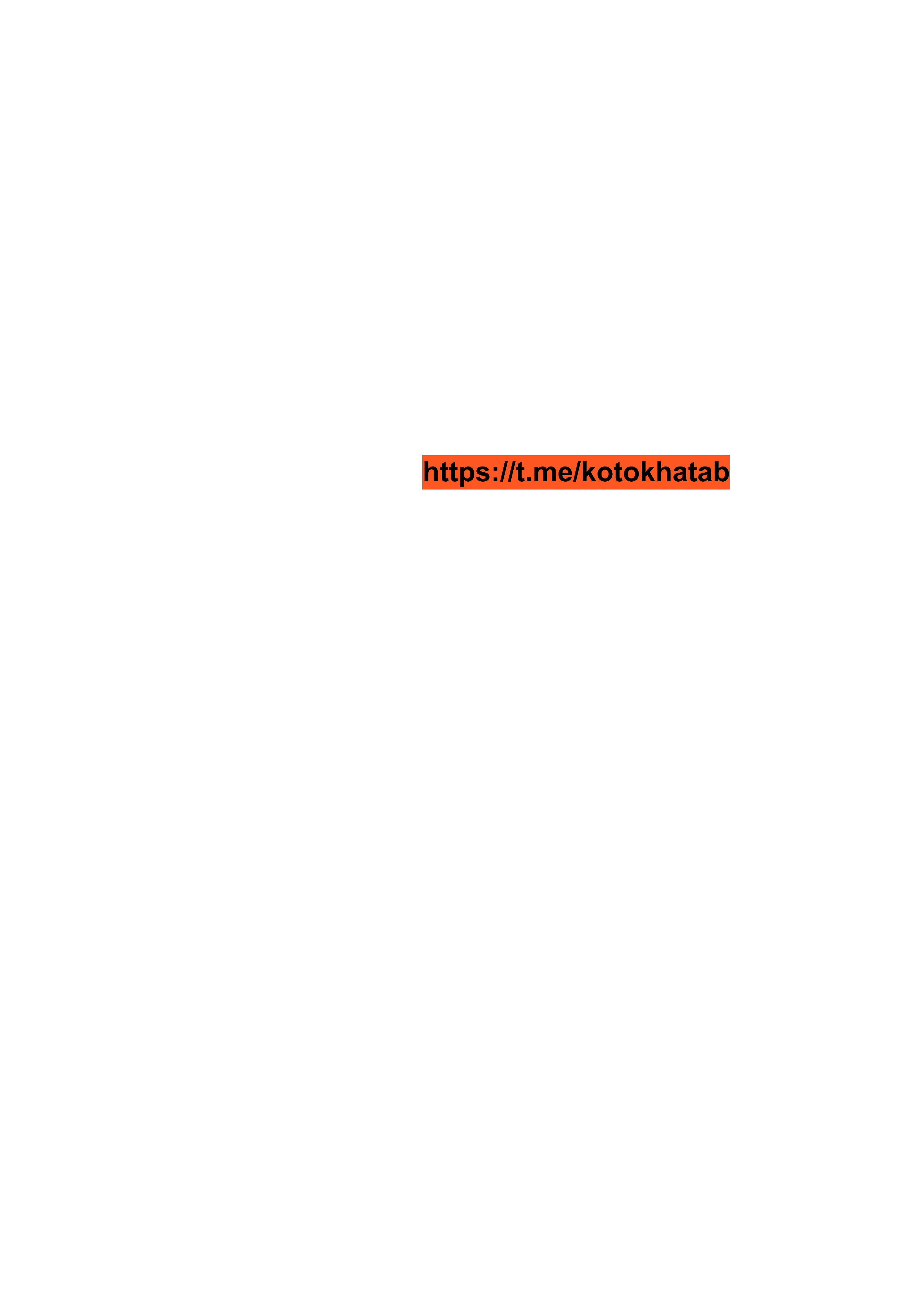
كارل ماركس فريدريك إنجلز

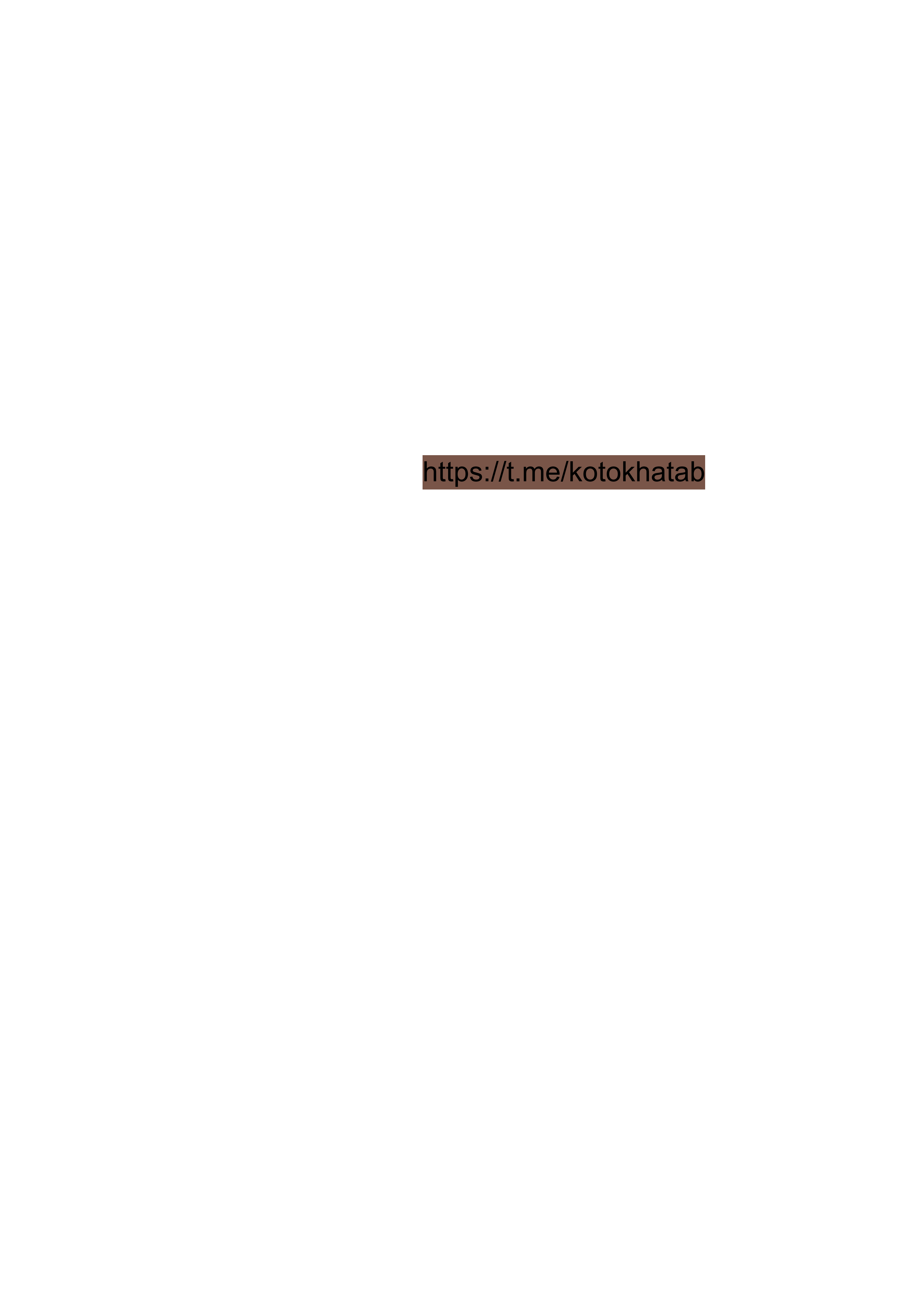
الإيديولوجية الألمانية

مصادر الاشتراكية العلمية




تليجرام
مكتبة سور الأزبكية


https://t.me/kotokhatab


https://t.me/kotokhatab

الإيديولوجية الألمانية

كارل ماركس فريدريك إنجلز

الإيديولوجية الألمانية

مصادر الاشتراكية العلمية

دار الفارابي

الكتاب: الإيديولوجية الألمانية

المؤلف: كارل ماركس/ فريدريك إنجلس

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-521-6

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

مقدمة

إن هذا المجلد الضخم الذي نضعه اليوم بين أيدي القراء العرب يشتمل على عدة مؤلفات:

١- **الإيديولوجيــة الألمانيــة**، وقـد اشـترك كارل ماركـس وفريديريـك إنجلـز فـي تأليفـه فـي ١٨٤٥-١٨٤٦، وهـو يتألـف مـن مجلديـن يبحـث أحدهمـا فـي نقـد الفلسـفة الألمانيـة بعـد الهيغليـة فـي أشـخاص ممثليهـا لودفيـغ فويربـاخ وبرونـو بـاور وماكـس شـترنر، ويبحـث ثانيهمـا فـي نقـد الاشـتراكية الألمانيـة التـي شـاعت فـي ذلـك الحيـن واكتسـبت نفـوذاً علـى بعـض الفئـات العماليـة فضـلاً عـن بعـض المثقفيـن الألمـان، والتـي أطلـق عليهـا أصحابهـا، وخصوصـاً غـرون وهيـس، اسـم "الاشـتراكية الحقيقيـة".

٢- **الاشـتراكيون الحقيقيـون**، وهـي دراسـة حررهـا إنجلـز فـي وقـت لاحـق، فـي عـام ١٨٤٧، ويبـدو أنهـا لـم تكتمـل، وتشـكل اسـتمراراً وتكملـة للمجلـد الثانـي مـن الإيديولوجيـة الألمانيـة.

٣- **موضوعـات عـن فويربـاخ**، وهـي سـابقة فـي وضعهـا للإيديولوجيـة الألمانيـة، إذ يعـود تاريخهـا إلـى ربيـع عـام ١٨٤٥، وكان أحـرى بنـا أن نضعهـا فـي مقدمـة الكتـاب لـولا أنهـا لا تشـكل جـزءاً أصيـلاً منـه، هـذا فضـلاً عـن فقـرات ونصـوص أخـرى ذات صلـة مباشـرة بالإيديولوجيـة الألمانيـة. وتنتسـب جميـع هـذه الكتابـات إلـى مرحلـة إعـداد الماديـة التاريخيـة وتمثـل لحظـة بالغـة الأهميـة فـي تطـور الأسـس الفلسـفية والنظريـة للشـيوعية العلميـة.

وكان ماركـس وإنجلـز قـد توصـلا قبـل ذلـك بوقـت قصيـر إلـى اتفـاق تـام فـي وجهـات

نظرهما، وكانا قد دخلا سوية حلبة الصراع وانخرطا في الحركة السياسية واكتسبا أنصاراً كثيرين في العالم المثقف، وبصورة خاصة في غرب ألمانيا، وأصبحا على اتصال متين بالبروليتاريا المنظمة كما يقول إنجلز في وقت لاحق.

"وكان من واجبنا أن نوفر أساساً علمياً لنظرتنا، لكنه كان لا يقل أهمية عن ذلك بالنسبة إلينا أن نكتسب إلى صفنا البروليتاريا الأوروبية، وفي المحل الأول البروليتاريا الألمانية".

وهكذا، فإنّه لم يكن لهما بداً من النضال ضد إيديولوجية البورجوازية وإيديولوجية فئة المالكين الصغار (البورجوازية الصغيرة) التي انتشرت ولاقت رواجاً في ذلك الحين بعد تهاوي النظام الهيغلي. إن أصل الفلسفة الهيغلية قد تطابق مع نهوض البورجوازية البروسية-الألمانية. لقد استيقظ الوعي الذاتي للطبقة البورجوازية مع نمو قوتها الاقتصادية وتعاظمها، وهو الوعي الذاتي الذي تمثل وتم التعبير عنه في النظام الهيغلي. وإن الموضوعة الكلاسيكية التي طرحها هيغل:

"كل ما هو واقعي عقلاني وكل ما هو عقلاني واقعي".

قد تحولت إلى مثل أعلى للدولة الدستورية التي خيل للبورجوازية أنها سوف تحقق المثل الأعلى الخلقي وقيام الحكم العقلاني المطلق.

ولقد انقضى عقدان كاملان على اكتمال الفلسفة الهيغلية سنحت الفرصة بصورة كافية خلالهما أمام الدولة البورجوازية والنظام الرأسمالي من أجل إثبات فعاليتهما في الممارسة. وكان من نتيجة هذا الإثبات أن الفكر والواقع، والعقل والوجود، برهنت على تناقضها التام. إن الحياة الواقعية لم تحقق تلك الحيلة الفلسفية التي أرادت من الفكر والوجود أن يشكلا وحدة متكاملة في العالم الميتافيزيقي. أما المثل الأعلى الأخلاقي المجسد في الدولة الملكية فقد دخل في نزاع متعاظم أبداً مع الحاجات الحيوية للبورجوازية النامية التي أخذت إذن في تطوير أفكارها الخاصة المتعارضة مع الوعي الأخلاقي الذي كانت هي نفسها تنادي به. وبالرغم من أن الملكية البروسية جعلت من الهيغلية فلسفتها الرسمية، فإنها لم تستطع أن ترتفع هي نفسها إلى مركز الدولة الواقعية بالمعنى الهيغلي. وفي الوقت نفسه كانت الأفكار الاشتراكية الطوباوية التي نادى بها سان سيمون في فرنسا وأوين في إنكلترا، والتي نشأت

وانتشرت وراء الحدود الألمانية، تجد لها أصداء متزايدة الحدة في وقائع الحياة البروسية - الألمانية.

عندئذ أخذت فئة من تلامذة المعلم الكبير ـ وكان ماركس وإنجلز في عدادها ـ على عاتقها مهمة نقد الفلسفة الهيغلية، وركزت في البداية - نظراً للظروف السائدة في ألمانيا، وبصورة خاصة تسلط الرقابة على المنشورات ـ على نقد عالم الدين . وانطلقت الشرارة الأولى من كتاب دايفيد شتراوس: حياة يسوع، الذي استقبلته تلك الجماعة ـ وقد عرفوا باسم الهيغليين الشباب - بحماسة فائقة، وإن اعتبرت أنه لم يكن وافياً بالغرض المطلوب.

وهكذا تصدى برونو باور للموضوع من جانبه، وكان مدرّساً في جامعة برلين، كما كان يعتبر من ألمع الوجوه بين الهيغليين الشباب، وعمد إلى القيام بنقد عميق ونافذ للأناجيل الأربعة، ساعياً في الوقت نفسه إلى كشف النقاب عن أصول الدين المسيحي. بيد أن لودفيغ فويرباخ، هذا التلميذ اللامع للمعلم الكبير، كان قد مضى خطوة أبعد منه في هذه الأثناء، فنزع منذ عام ١٨٣٩، في كتابه "نقد الفلسفة الهيغلية"، الأقنعة عن "الفكر المطلق" الذي نادى به هيغل، مبيناً أنه مجرد "شبح ميتافيزيقي"، "روح اللاهوت الراحل"، أو "اللاهوت الذي جعل منطقاً". فإذا كان هيغل يقول: إن الفكر يفترض الطبيعة، فليس ذلك بأكثر من رداء فلسفي لتعاليم التوراة القائلة أن الله خلق العالم. وما هو الفكر المطلق؟ ليس هو في واقع الأمر أكثر من الفكر الإنساني الذاتي المحدود وقد أخذ بعين الاعتبار بصورة مجردة. إن فويرباخ يقلب النظام الهيغلي بلا هوادة. فليس الواقع والطبيعة عنده بعد الآن "تظاهرتين" أو "ترديين" للفكرة، بل لقد أصبحا مستقلين، كينونتين تملكان قيمة خاصة بهما. وإن الإنسان ليحتل عنده مقدمة اللوحة، فهو عنصر فاعل من الآن فصاعداً، وإن يكن فعله مقصوراً على المجال الديني وحده. إن الإنسان الذي لم يكن حتى هذا الوقت سوى موضوع يصبح ذاتاً، وبذلك تقف المادية على قدميها، بل تتبوأ العرش الذي أنزلت المثالية عنه.

ولقد وفرت هذه المبادئ لفويرباخ قاعدة من أجل فلسفته الخاصة بالدين، فهو يدرس العلاقات التي تتداخل ويشكل لحمتها الدين ويستخلص النتائج التالية: إن الإنسان مستقل عن جميع الفلسفات. "الحقيقة هي الإنسان لا العقل المجرد، الحقيقة هي الإنسان لا الفكر

الباقـي علـى الـورق، الـذي يجـد علـى الـورق الوجـود الـذي يلائمـه". فالإنسـان الـذي هـو قمـة الكائنـات جميعـاً يشـكل بدايـة الديـن وأواسـطه ومنتهـاه، وليسـت الأفـكار سـوى انعكاسـات للطبيعـة، كمـا أن الآلهـة مخلوقـات ابتدعتهـا المخيلـة الإنسـانية، ومـا هـي سـوى تجسـيدات للصفـات والمشـاعر البشـرية المسـقطة فـي السـماء. وإن الديـن علاقـة عاطفيـة بيـن الإنسـان والإنسـان، كمـا أن قاعـدة كل أخـلاق هـي العلاقـة بيـن أنـا وأنـت.

وحيـن صـدر كتـاب فويربـاخ جوهـر المسـيحية الـذي يتضمـن هـذه الأفـكار عـام ١٨٤١ كان لـه فعـل السـحر الـذي حطـم طلسـم الفلسـفة الهيغليـة. لقـد حلـت التناقضـات جميعـاً فيمـا يبـدو، وهـؤلاء البشـر قـد هبطـوا مـن السـماء، مـن عالـم الأفـكار، ووقفـوا مـن جديـد علـى الأرض اليابسـة الصلبـة. ويقـول إنجلـز:

"كنا جميعاً فويرباخيين في ذلك الحين".

لكـن إسـقاط الآلهـة عـن عروشـها وتمزيـق الروابـط التـي تقيـد البشـر إلـى عالـم فـوق طبيعـي مـا كان يمكـن أن يقتصـرا علـى ميدانـي الديـن والفلسـفة. فحيـن يُقلـب عـرش العاهـل المطلـق فـي السـماء، لا بـد بالضـرورة أن يترنـح عـرش الملـك المطلـق علـى الأرض. وحيـن يتضـح أن سـيادة الفكـرة مجـرد عبـارة جوفـاء، فـإن تلـك الهالـة التـي تحيـط بالحـكام الزمنييـن الذيـن يسـتمدون سـلطانهم مـن السـماء تشـحب وتتبـدد. الآن، وقـد أتضـح للبشـر أن فـي مقدورهـم أن يخلقـوا الآلهـة، هـل يعقـل أن يتوانـوا عـن العمـل علـى خلـق شـروط حياتهـم الاجتماعيـة والسياسـية بأنفسـهم، ومـن دون أي تكريـس مـن فـوق؟

وهكـذا أصبـح الهيغيليـون الشـباب الذيـن اقتصـر نشـاطهم حتـى ذلـك الحيـن علـى ميـدان النظريـة نشـيطين فـي عالـم الحيـاة الواقعيـة مـن جـراء منطـق التطـور الفلسـفي الـذي اختـاروه، وقـد سـموا أنفسـهم الآن باسـم "الأحـرار". والواقـع أنهـم لـم يسـتهدفوا بـادئ الأمـر أي نشـاط ثـوري، بـل اقتصـر غرضهـم علـى التجـدد، علـى الانبعـاث العضـوي مـن الباطـن. كانـوا يريـدون للإصـلاح أن يسـتمر، وللأفـكار التقدميـة التـي بـرزت فـي الحقبـة الأخيـرة أن تتطـور، ولبروسـيا موطنهـم أن تماشـي الواقـع التاريخـي بحيـث تحقـق رسـالتها فـي التاريـخ الكلّـي، رسـالتها فـي إكمـال تحريـر الفكـر البشـري الـذي بـدأ مـع حركـة الإصـلاح واسـتمر مـع حركـة التنويـر. وكانـت خيبـة أمـل مريـرة

بانتظارهـم فـي هـذا المضمـار. إن الآمـال التـي عقدوهـا علـى قيـام مملكـة بروسـية للحريـة الفكريـة لم تكـن أفضـل نصيبـاً مـن الأحـلام التـي راودتهـم مـن قبـل بشـأن دسـتور بروسـي يتزعمـه ملـك ليبرالـي. وإن ذلـك القـدر الضئيـل مـن الحريـة الـذي منح إثـر ارتقـاء ملـك جديـد سـدة العـرش، والـذي تظاهـر فـي التخفيـف مـن حـدّة الرقابـة، وأثـار فـي حينـه فرحـة لا حـدود لهـا، قـد أعقبتـه مرحلـة مـن الرجعيـة السـوداء قضـت علـى كل أثـر للحريـة ولاحقـت الفكـر والمفكريـن وأجبرتهـم علـى الفـرار إلـى البلـدان المجاورة.

فلـم تكـد المجلـة الرينانيـة والحوليـات الألمانيـة ترتـدان عـن مواقـع الفلسـفة الصرفة وتنـزلان إلى ميـدان السياسـة حتـى صودرتـا وحظرتـا. تلـك كانـت "مجـزرة فكريـة" علـى حـد تعبيـر البعـض، لكـن الجماهيـر لـم تحـرك سـاكناً لمنعهـا، بـل اتخـذت موقـف اللامبـالاة منهـا. وإن برونـو بـاور لعلـى قناعـة تامـة إذن، بـأن التقـدم لا يمكـن أن يتحقـق فـي هـذا الاتجـاه الجديـد، اتجاه النشـاط العملـي، الاجتماعي والسياسـي، بـل إن الخـلاص يتمثـل فـي العـودة إلـى حظيـرة التأمـل، فـي الارتـداد إلـى ميـدان الفلسـفة الصرفـة والنظريـة الصرفـة والنقـد الصـرف. وممـا لا ريـب فيـه أن النقـد لعـب ويلعـب دوراً كبيـراً، وقـد تحـدث ماركـس فـي كتابـه إسـهام فـي نقـد فلسـفة الحـق عنـد هيغـل عـن "النقـد الـذي ينتـزع الأزهـار الوهميـة التـي تسـتر تلـك السلسـلة العتيقـة والبائسـة التـي تقيـد الإنسـان، بحيث يسـتطيع هذا الإنسـان أن يهـز السلسـلة ويقطـف الزهـرة الحيـة. وإن نقـد السـماء يتحـول إلـى نقـد الحـق، ونقـد اللاهـوت إلـى نقـد السياسـة". وعندئـذ فـلا بـد مـن مواصلـة الطريـق، ومـن الانخـراط فـي مهمـة سياسـية هدفهـا القضـاء علـى التعـارض القائـم فـي وجـود الإنسـان. لكـن بـاور يعتقـد أن النقـد، أو "النقـد النقـدي" كمـا يسـميه ماركـس، يكفـي مـن أجـل تنفيـذ كل المهمـات المطروحـة علـى بسـاط البحـث. فحين يتـم تبديد السـحب الإيديولوجيـة التـي تشـوِّش علـى البشـر وعيهـم، فلـن يكـون مـن العسـير إذن، تغييـر العالـم. أمـا الجماهيـر فليـس لهـا دور فـي هـذا العمـل، كمـا أن حركاتهـا - بمـا فـي ذلـك اليهوديـة، والمسـيحية، والاشـتراكية، والثـورة الفرنسـية، والصناعـة الإنكليزيـة - لا تسـتحق مـن الناقـد إلا كل احتقـار. إن الفكـرة المطلقـة تحيـا فـي قلـب الناقـد، وتتجسـد فيـه، وتقـف علـى طرفـي نقيـض مـع بقيـة الجنـس البشـري. وحيـن يسـتطيع الناقـد أن يقنـع النـاس بطـرد بعـض الأفـكار التـي حشـروها فـي رؤوسـهم، أو حشـرها

آخرون في هذه الرؤوس، فلا بد إذن، أن يغيروا العالم القائم. إن باور يحارب ضد أفكار، وضد أشباح، وبذلك فهو يتصارع مع ظل الواقع.

أما ماكس شترنر فيمضي إلى أبعد من ذلك، إذ لا وجود عنده إلَّا للأنا وحدها، وفي اعتقاده أن جميع البرامج والمثل العليا والنظريات سجون مصطنعة تأسر الفكر والروح، ووسائل لإخضاع الإرادة وإذلالها، أحابيل تخفي عن الفرد وجود قواه الخلاقة الخاصة. وإذن، فإنه من الواجب تدمير جميع الأنظمة، ليس لأنها رديئة أو ضارة، بل لمجرد كونها أنظمة، وبالتالي أغلالاً. فإذا ما تحقق ذلك أصبح في قدرة الإنسان، وقد تخلص من قيوده غيرالطبيعية، أن يصبح سيد نفسه، وأن يبلغ حجمه الحقيقي بوصفه كائناً "إنسانياً" فرداً، فهو "الأوحد"، والعالم كله ملكاً له.

وفي طرف آخر كانت جماعة أخرى لم تهجر الحياة كلياً. بل كانت ترى التناقضات القائمة في المجتمع، وتسعى إلى حلها من وجهة نظر اشتراكية خاصة بها، وقد أطلقت على اشتراكيتها صفة "الحقيقية". لقد كان "الاشتراكيون الحقيقيون" يكتبون عن الأوضاع القائمة، لكنهم كانوا يعطون الأولوية للمثل العليا على المصالح المادية. وصحيح أنهم كانوا يؤمنون بأن ما يعاني منه جيلهم من تفاوت اقتصادي وضيق عاطفي تعود أسبابه إلى التناقضات الاقتصادية التي لا يمكن نقضها إلَّا بنقض الملكية الفردية، لكنهم كانوا يؤمنون في الوقت نفسه بأنه ليس للفعل ما يبرره إلَّا العاطفة الأخلاقية وحدها، وأن اللجوء إلى القوة، مهما تكن غايته النبيلة، إنما يؤدي إلى هزيمة هذه الغاية بالذات، لأنَّه يجعل من الفريقين المتصارعين متوحشين، وبذلك يجعلهما عاجزين عن الحرية الحقيقية بعد انتهاء الصراع. وهكذا فإذا كان لا بد للبشر أن يتحرروا، فعليهم أن يستخدموا من أجل ذلك الوسائل السلمية والمتحضرة وحدها. وإن عليهم أن يفعلوا ذلك عاجلاً، قبل أن تنتشر الصناعة كثيراً، لأن مثل هذا الانتشار للصناعة سوف يجعل الحرب الطبقية أمراً لا مفر منه، ويجعل العنف محتماً، والعنف إنما يهزم ذاته في آخر الأمر. وإن مجتمعاً يقوم على حد السيف لا بد أن ينتهي إلى طغيان طبقة على أخرى، حتى إذا كان العدل إلى جانبه في بداية الأمر، وذلك الطغيان يتنافى مع المساواة الإنسانية التي ينشدها الاشتراكيون "الحقيقيون". ولذا فقد وقف

هـؤلاء الاشـتراكيون ضـد النضـال الطبقـي الصريـح، معتبريـن أن مثـل هـذا النضـال سـوف يعمـي العمـال عـن الحقـوق والمثـل التـي يقاتلـون مـن أجلهـا. إن اتفـاق المصالـح الدائـم لا يمكـن بلوغـه إلَّا بمعاملـة البشـر علـى أنهـم متسـاوون منـذ البدايـة، علـى أنهـم كائنـات إنسـانية، يعنـي بالتخلـي عـن العنـف وبالاسـتنجاد بذلـك الحـس الـذي يتحلـون بـه، حـس التضامـن الإنسـاني، والعدالـة، والكرامـة. والأهـم مـن ذلـك كلـه أن النيـر الـذي يثقـل كاهـل البروليتاريـا فـي الوقـت الحاضـر لا يجـوز نقلـه إلـى أكتـاف طبقـة أخـرى. أمـا ماركـس وأنصـاره فإنهـم يسـعون إلـى قلـب الأدوار الخاصـة بالطبقـات الراهنـة، وإلـى انتـزاع القـوة مـن البورجوازيـة بغـرض اسـتعبادها مـن قبـل الطبقـة العاملـة، وهـو أمـر مرفـوض مـن وجهـة النظـر الأخلاقيـة، لأنَّـه سـيجعل الحـرب الطبقيـة مسـتمرة، وسـيخفق إذن فـي القضـاء علـى التناقضـات القائمـة، هـذه التناقضـات التـي لا يمكـن رفعهـا إلَّا بطريقـة واحـدة، ألا وهـي صهـر المصالـح المتنازعـة فـي مثـل أعلـى مشـترك.

لقـد تصـدى ماركـس وإنجلـز لنظريـات البورجوازيـة وفئـة المالكيـن الصغـار(البورجوازيـة الصغيـرة)، وكشـفا عـن زيفهـا، فـي العائلـة المقدسـة بـادئ الأمـر، ثـم فـي الإيديولوجيـة الألمانيـة الـذي يـكاد أن يكـون مؤلفـاً كتبـاه لنفسـيهما فـي الدرجـة الأولـى، بغيـة توضيـح موقفهمـا النظـري بواسـطة نقـد المواقـف التـي اتخذهـا خصومهمـا، أو رفاقهمـا السـابقون فـي السـلاح. وهـذا مـا يوضحـه ماركـس بعـد أحـد عشـر عامـاً فـي مقدمـة إسـهام فـي نقـد الاقتصـاد السياسـي.

"قررنـا أن نعمـل معـاً لإظهـار التضـاد القائـم بيـن طريقتنـا فـي النظـر وبيـن التصـور الإيديولوجـي للفلسـفة الألمانيـة. والحقيقـة أننـا قررنـا أن نصفـي حسـابنا مـع وعينـا الفلسـفي السـابق".

لقـد كان الأمـر الهـام بالنسـبة إليهمـا أن "يريـا بوضـوح فـي نفسـيهما"، وهـو مـا حققـاه فـي الإيديولوجيـة الألمانيـة. ولـذا كان لهـذا الكتـاب أهميـة مزدوجـة، فهـو مـن جهـة واحـدة أول عـرض كامل للماديـة التاريخيـة، لكنـه يكشـف مـن جهـة ثانيـة عـن معالـم تقـدم فكـر ماركـس وإنجلـز. إنـه فـي وقـت واحـد نـص أساسـي مـن نصـوص الماركسـية ومرحلـة بالغـة الأهميـة فـي إعـداد الفكـر الماركسـي.

إن ماركـس وإنجلـز ينشـدان فـي الإيديولوجيـة الألمانيـة دراسـة الإنسـان الفعلـي، الإنسـان الحـي، الإنسـان فـي التاريـخ. وإنهمـا ليؤكـدان بـلا كلـل علـى فعاليـة الإنسـان العمليـة، الثوريـة، التـي

سوف تغير الإنسان نفسه من جراء تغيير الشروط الاجتماعية التي يحيا فيها. إن وجود البشر الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم الاجتماعي. ولذا فإن الواجب يدعونا لأن نبدأ بدراسة الواقع الاجتماعي الحسي، دراسة "العلاقات التجريبية"، لأن هذه العلاقات هي التي تفسر تصوراتنا وأفكارنا، وليس العكس كما يحسب أولئك الإيديولوجيون الذين "تصبح الفكرة المجردة عندهم القوة المحركة للتاريخ... بحيث يرتد التاريخ إلى تاريخ الفلسفة"، أو إلى "مجرد عملية تطور الوعي".

وإذ ما يرفضان هذا التصور، فإن ماركس وإنجلز يرسمان الخطوط الكبرى لتصور جديد للتاريخ. إنهما "يهبطان من السماء إلى الأرض"، وينطلقان في دراسة تاريخ البشر، ويستخلصان الفكرة الخصبة القائلة إن المحرك الفعلي للتاريخ هو، من دون الفكر، إنتاج الحاجات الإنسانية.

إن جميع الثورات وما آلت إليه من عواقب تحددها شروط وجود الناس وحاجاتهم المادية. ومن هنا فإن العمل، العمل المنتج، وأشكال تقسيمه هي التي تشكل "مسرح التاريخ الحقيقي". ولما كانت حاجات البشر تتغير باستمرار، وتتطور، وتتعدد، وتختلف من حقبة إلى أخرى، فإن هذه التبدلات هي التي تقوم في أصل التحولات الاجتماعية.

ولذا كانت بنية المجتمع وقفاً على نمط الإنتاج القائم تاريخياً. وإن كل نمط للإنتاج ينطوي على نمط معين للتعاون، وبالتالي على نمط معين للعلاقات الاجتماعية. وعلى العموم، فإن نمط الإنتاج مرتبط بطبيعة القوى المنتجة التي كوَّنها وطوَّرها التاريخ السابق للجنس البشري.

وإنه ليحدث في سياق التطور التاريخي، أن تصبح علاقات الإنتاج عائقاً في سبيل هذا التطور، وعندئذ يستعاض عنها بشكل آخر يتفق مع القوى المنتجة الأعظم تطوراً. وإن هذه التغيرات تستتبع على الدوام تغيرات اجتماعية، إذ تحل طبقة اجتماعية جديدة محل الطبقة السابقة السائدة. إن تاريخ المجتمع هو تاريخ صراع الطبقات.

ويكون البشر أسرى لعلاقات الإنتاج التي تعوق تطورهم الحر. إن تقسيم العمل الذي قام منذ فجر التاريخ، والذي يمكن أن نشاهد آثاره الأولى في العائلة، يفرض على كل فرد

نشاطاً محدوداً ومشوهاً ومنحرفاً. ولذا كان لا بد في سبيل نقض هذه الأوضاع الشاذة، وفي سبيل تمكين الفرد الإنساني من تطوير جميع قدراته الخلاقة، من نقض العمل، وبالتالي نقض تقسيم العمل والملكية الفردية، وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلّا بفضل نشاط الأفراد العملي لا بفضل تصوراتهم وأفكارهم. فليس المقصود أن نغير وعي البشر أولاً كي نتمكن من تغيير أوضاعهم، بل أن نغير الواقع الاجتماعي الذي يصدر ذلك الوعي عنه.

ولذا فإن ماركس وإنجلز يريدان أن يصنعا الثورة، لكنها ثورة من نمط جديد، ثورة لن تستبدل سيطرة طبقة واحدة بسيطرة طبقة أخرى كما فعلت جميع الثورات السابقة حتى هذا الحين، بل سوف تقضي على الطبقات جميعاً. وبذلك فإنهما يشددان للمرة الأولى على الدور التاريخي للبروليتاريا. إن كل طبقة تناضل من أجل السيادة، وحتى حين تفترض سيطرتها سلفاً نقض الشكل القديم للمجتمع بكليته، كما هو الأمر بالنسبة إلى البروليتاريا، فلا بد لها قبلاً من الاستيلاء على السلطة السياسية. وإذا لم يكن مبدأ دكتاتورية البروليتاريا مصاغاً هنا بكل وضوح، فإنه موجود بصورة ضمنية. وحين يؤكد المؤلفان هذه النتيجة، يرسمان الشروط الرئيسية، الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية، من أجل الثورة البروليتارية، ويشيران إلى الفرق الأساسي الذي يميز هذه الثورة من جميع الثورات السابقة لها: إن الثورة البروليتارية تنقض كل استثمار، بينما الثورات السابقة لم تفعل سوى استبدال شكل للاستثمار بشكل آخر. وفي النهاية فإنها تنقض حكم جميع الطبقات كما تنقض الطبقات نفسها.

وإن المؤلفين ليسلطان الضوء على الأسباب المؤدية إلى قيام التناقضات بين المدينة والريف، وبين العمل الجسدي والعمل الفكري، ويبينان أن هذه التناقضات سوف تنقض في سياق تحول المجتمع بفعل الثورة البروليتارية.

وبالرغم أن المؤلفين لم يكونا معنيين بتحليل العلاقات الاقتصادية بصورة خاصة، فإن كتابهما يشتمل على بعض البيانات التي تفيد كمنطلق للاقتصاد السياسي الماركسي. وفي رأي ماركس أن الإيديولوجية الألمانية كان:

"سيهيئ الجمهور الألماني لوجهة نظر اقتصاد سياسي معارض على طول الخط للعلم الألماني الذي كان قائماً حتى ذلك الحين".

وإنهما ليعارضان الاقتصاديين البورجوازيين الذين يعتبرون القوانين والمقولات الاقتصادية للمجتمع البورجوازي أزلية ثابتة لا تتبدل، ولا يريان فيها سوى التعبير النظري عن علاقات اجتماعية مؤقتة ومحددة تاريخياً:

"إن الربح والريع، الخ، هذه الأشكال الفعلية لوجود الملكية الخاصة، هي علاقات اجتماعية تقابل مرحلة معينة من الإنتاج".

ومن ثم يبينان أن علاقات الأفراد ببعضهم بعضاً، فيما يتعلق بمادة العمل وأداته ونتاجه، تتغير في المراحل المختلفة للتطور التاريخي، ويميزان أربع مراحل رئيسية تقابل كل منها تناسباً جديداً بين علاقات الإنتاج والقوى المنتجة : المجتمع البدائي، والعالم القديم، والنظام الإقطاعي، ونمط الإنتاج الرأسمالي. وإنهما ليرسمان في الوقت نفسه خطوط نظرية عن الدولة التي هي أداة قمع بين أيدي الطبقة السائدة، كما يرسمان الخطوط الأولى للمجتمع الشيوعي، حيث سوف يستخدم البشر بصورة واعية القوانين الاقتصادية الموضوعية ويتحكمون في علاقات الإنتاج بدلاً من أن يكونوا عبيداً لها، ينظرون إليها على أنها قوى سرية متعالية. وإن هذا المجتمع الشيوعي سوف يتيح لكل فرد فرصة تنمية إمكاناته ومواهبه بصورة كلية واستخدامها على أفضل صورة في خدمة الجماعة.

وفي خضم ذلك نصادف أفكاراً بالغة الأهمية بخصوص عدد من العلوم الاجتماعية. إن بعض الموضوعات تخدم كمنطلق من أجل إعداد القضايا اللغوية في منحى ماركسي. فالمؤلفان يبينان أن اللغة مرتبطة في الأصل ارتباطاً وثيقاً بحياة المجتمع المادية وما يقوم به البشر من عملية العمل، مؤكدين في الوقت نفسه الوحدة التي لا تنفصم عراها بين اللغة والفكر الإنساني.

وإنهما ليضعان، في نقدهما للآراء الجمالية التي نادي بها الهيغيليون الشباب، المبادئ الأساسية لعلم الجمال الماركسي، موضحين أن الفن وشخصية الفنان المبدعة رهن بحياة المجتمع الاقتصادية والسياسية في كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي.

وفيما عدا بعض المبادئ المتعلقة بالتربية وعلم النفس، فإننا نصادف تقديرات

بالغـة الأهميـة للفلاسـفة الماديـين الإغريـق القدامـى، ولآراء عـدد مـن المفكريـن مـن الأزمنـة المعاصرة، وللاشـتراكية والشـيوعية الطوباويتيـن، وذلـك كلـه مـن وجهـة نظـر الماديـة التاريخية.

***

إن الإيديولوجيـة الألمانيـة يشـكل، فـي عملية تكويـن المـادة التاريخيـة، لحظـة حاسـمة، انفصامـاً معرفيـاً حقيقيـاً يعتـرف بـه ماركـس بالـذات. لقـد كان عبـوراً مـن شـاطئ إلـى شـاطئ لا عـودة عنـه تاريخيـاً، العبـور مـن الإشـكال الفلسـفي لشـباب ماركـس المرتبـط بصـورة وثيقـة بالفلسـفة الكلاسـيكية الألمانيـة كمـا يمثلهـا كانـط وهيغـل وفويرباخ إلـى الـدرب الـذي سـيؤدي، بواسـطة نقـد الأسـس الفلسـفية العامـة لتلـك الفلسـفة الكلاسـيكية الألمانيـة، إلـى الماركسـية كمـا نعرفهـا اليـوم.

وإنَّـه لمـن الطبيعـي ألا يكـون ذلـك الانفصـام أمـراً يسـيراً. إن العبـور، مثلـه مثـل المخـاض، عمليـة شـاقة، لـه مراحلـه المتعـددة التـي لا بـد أن تسـتغرق ردحـاً مـن الزمـن يكفـي لنضوجهـا، وهـو بالنسـبة إلـى الماركسـية سـنوات عديـدة. وكمـا أنـه لا يمكـن الانتقـال، فـي التاريـخ الفعلـي، مـن نمـط للإنتـاج إلـى نمـط آخـر بيـن ليلـة وضحاهـا، بمثـل قفـزة مفاجئـة، كذلـك لا يمكـن الانتقـال فـي تاريـخ الأفـكار مـن نظريـة إلـى أخـرى بيـن ليلـة وضحاهـا، بـل لا بـد مـن وجـود مراحـل انتقاليـة ربمـا خيـم عليهـا بعـض الإبهـام والغمـوض.

ومـن هنـا كانـت بعـض الصعوبـات فـي قـراءة الإيديولوجيـة الألمانيـة وتحليلـه، مـن جـراء موقعـه الانتقالـي فـي تطـور أفـكار ماركـس وإنجلـز. إنـه نـص ربمـا أثـارت حرفيتـه بعـض الالتبـاس، لأن فيـه مـن الماضـي مـا يشـده إليـه، وإن يكـن هـو، فـي جوهـره، توقـع للمسـتقبل، توقـع جـريء، لكنـه يعـوزه بعـد، مـن جـراء طبيعـة الأمـور بالـذات، الشـيء الكثيـر مـن النضـوج، والدقـة، والتماسـك. ألا يقـول إنجلـز نفسـه عـام ١٨٨٨، وهـو يعيـد قـراءة مخطوطـة الإيديولوجيـة الألمانيـة:

"كم من المعارف في التاريخ الاقتصادي كانت ناقصة وقتذاك".

ولم يكن بد من انتظار رأس المال [Le Capital] حتى تتخذ المادية التاريخية شكلها النهائي.

وإنـه لمـا يزيـد صعوبـة قـراءة هـذا الكتـاب أن التعابيـر الجديـدة التـي يسـتخدمها ماركـس

وإنجلـز لـم تتخـذ شـكلها النهائـي، وهـي سـوف تتعـرض لتعديـلات كثيـرة، وعلـى الأخـص فـي موضـوع الاقتصـاد السياسـي، قبـل أن تصـل إلينـا فـي الصـورة التـي نعرفهـا اليـوم فيهـا.

إن مفهـوم العمـل غيـر واضـح كل الوضـوح بعـد، كمـا أن العلاقـات الاجتماعيـة فـي عصـر محـدد يطلـق عليهـا ماركـس تعبيـر "التعامـل"، وهـو التعبيـر الـذي يسـتبدله فـي وقـت لاحـق، فـي كتـاب رأس المـال، بعبـارة "علاقـات الإنتـاج" التـي هـي بـكل تأكيـد أعظـم شـمولاً.

ولنضـف إلـى ذلـك أن الإيديولوجيـة الألمانيـة، كمـا هـو بيـن أيدينـا اليـوم، مؤلـف يسـوده بعـض الاضطـراب. إن لدينـا بـادئ الأمـر عرضـاً للمبـادئ ("فويربـاخ") تتلـوه مناظـرة طويلـة. وإن ذلـك ليجـد لتفسـيره مـن وجهـة نظـر التاريـخ. إن ماركـس وإنجلـز يخضعـان لنقـد صـارم كتـاب شـترنر الأوحـد وخاصتـه، وبعـض المؤلفـات الأخـرى، ولا بـد لهمـا مـن أجـل ذلـك مـن إيـراد مقتطفـات عديـدة مـن أعمـال نحـن نجهلهـا الجهـل كلـه. وبالفعـل، مـن ذا يعـرف اليـوم مؤلفـات شـترنر أو بـاور أو غـرون أو كوهلمـان، وهـي المؤلفـات التـي تـدرس هنـا وتحلـل بدقـة بالغـة، وفـي بعـض الأحيـان كلمـة كلمـة؟ وإنهمـا ليسـحقان خصومهمـا بسـخريتهما، فيـوردان ويكـرران عبـارات لهـؤلاء الخصـوم هـي فـي الأغلـب سـخيفة وعديمـة المعنـى كليـاً، كمـا يطلقـان عليهـم الألقـاب المختلفـة الهازئـة، فهـم تـارة "آبـاء الكنيسـة"، وتـارة "دون كيخـوت" أو "سانتشـو"، وتـارة "القديـس ماكـس" أو "القديـس سانتشـو"، كمـا يزيـد مـن ضياعنـا أسـماء الكوكبـات التـي يسـتخدمها إنجلـز، خصوصـاً للدلالـة علـى بعـض الخصـوم الذيـن يهاجمهـم، وأغلبهـم كتـاب مغمـورون اليـوم لعلنـا لا نعرفهـم إلَّا مـن نقـد إنجلـز لهـم.

لكننـا نعـود فنقـول: إن لذلـك مـا يبـرره تاريخيـاً. إذ يجـب ألا ننسـى الظـروف التاريخيـة التـي كتـب فيهـا مؤسسـا الماركسـية هـذا المؤلـف، إذ كانـا يخوضـان صراعـاً عنيفـاً ضـد الفلسـفات العديـدة المشـتقة مـن النظـام الهيغلـي، أو ضـد بعـض الأفـكار الاشـتراكية الطوباويـة، محاوليـن فـي ذلـك خلـق مبـادئ قليلـة يسـتطيعان تجميـع الحركـة الشـيوعية فـي مختلـف أرجـاء أوروبـا حولهـا. ولا ننسـى أيضـاً أن الإيديولوجيـة الألمانيـة هـو تصفيـة حسـاب قـام بـه المؤلفـان مـع معتقداتهمـا السـابقة، ولـم يكـن فـي الأصـل معـداً للنشـر، وإن بذلـت لذلـك بعـض المحـاولات التـي أخفقـت، بحيـث كان فـي حالـة المخطوطـة حتـى بعـد وفـاة مؤلفيـه بوقـت طويـل. وممـا لا

ريب فيه أن ماركس وإنجلز كانا سيعدلان فيه حتى درجة ما لو سنحت لهما فرصة نشره في حياتهما.

وحين يقول ماركس إنَّه قرر مع إنجلز أن يتخليا عن "المخطوطة لنقد الفئران القارض"، فيجب أن نحمل قوله هذا على محمل الجد. وبالفعل، فإن صفحات عديدة من الكتاب تنقص هنا وهناك، وعلى الأخص في المجلد الأول، كما أن مقاطع عديدة قرضتها الفئران بحيث بات من المتعذر فك رموزها. وقد عمدت مؤسسة الماركسية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، عند نشر المخطوطة، إلى إعادة إنشاء عدد من هذه العبارات الضائعة، وقد أشير إليها في النص بأقواس كبيرة. وإن في المخطوطة فيما عدا ذلك فقرات عديدة مشطوبة، إما لأن المؤلفين تخليا عن التعبير عن هذه الفكرة أو تلك، وإما لأن ماركس قد استخدم بعض المقاطع، كما كان يفعل كثيراً، في مؤلفات أخرى، وعندئذ فقد كانت الخطوط العمودية تدله على أن المقطع قد استخدم في موضع آخر. وقد وضعت جميع هذه الفقرات المشطوبة في هوامش الكتاب، وكذلك بعض الملاحظات الهامشية لماركس وإنجلز كما هي واردة في المخطوطة.

ولقد ظل الإيديولوجية الألمانية في حالة المخطوطة حتى عام ١٩٣٢، باستثناء الفصل الرابع من المجلد الثاني ("كارل غرون") الذي صدر أثناء حياة ماركس، فضلاً عن بعض الصفحات التي ظهرت هنا وهناك في مجلات مختلفة. وإن مؤسسة الماركسية في موسكو هي التي أصدرت المخطوطة للمرة الأولى عام ١٩٣٢ في موسكو باللغة الألمانية. أما الترجمة العربية الراهنة فأنها تعتمد على الترجمة الإنكليزية الصادرة عن دار اللغات الأجنبية في موسكو عام ١٩٦٤ وعلى الترجمة الفرنسية الصادرة عن دار المنشورات الاجتماعية في باريس عام ١٩٦٨.

ولا بد كذلك من التنويه بأن الفقرات من الكتاب المقدس الواردة في الكتاب قد أخذت عن الترجمة العربية لهذا الكتاب الصادرة عن المطبعة الكاثوليكية في بيروت عام ١٩٦٦.

الدكتور فؤاد أيوب

الإيديولوجية الألمانية

المجلد الأول

نقد الفلسفة الألمانية الأحدث
في أشخاص ممثليها
لودفيغ فويرباخ وبرونو باور
وماكس شترنر

المقدمة

لقد كوَن البشر باستمرار حتى الوقت الحاضر أفكاراً خاطئة عن أنفسهم وعن ماهيتهم وعما يجب أن يكونوه. ولقد نظموا علاقاتهم وفقاً لأفكارهم عن الله، وعن الإنسان الطبيعي، الخ. ولقد كبرت منتجات عقولهم هذه حتى هيمنت عليهم، فإذا هم، الخالقون، ينحنون أمام مخلوقاتهم الخاصة . ألا فلنحررهم إذن، من الأوهام والأفكار والعقائد والكائنات الخيالية التي يرزحون تحت نيرها. ألا فلنتمرد على هيمنة هذه الأفكار. ألا فلنعلم البشر أن يستبدلوا هذه الأوهام بأفكار تطابق ماهية الإنسان كما يقول أحدهم، وأن يتخذوا منها موقفاً نقدياً كما يقول الآخر، وأن ينزعوها من رؤوسهم كما يقول الثالث[1]؛ و- إن الواقع القائم سوف ينهار.

إن هذه الأحلام الطاهرة والطفولية تشكل نواة الفلسفة الحديثة للهيغليين الشباب، التي لا يستقبلها الرأي الألماني باحترام مشوب بالهلع فحسب، بل يقدمها أبطالنا الفلسفيون أنفسهم بتلك القناعة المهيبة بأن هذه الأفكار ذات الفوعة الإجرامية تشكل بالنسبة إلى العالم خطراً ثورياً. إن المجلد الأول من هذا المؤلف يستهدف نزع الغطاء عن هؤلاء الخراف الذين يحسبون أنفسهم ويحسبهم الناس ذئاباً، وبيان أن ثغاءهم لا يفعل سوى ترديد مفاهيم البورجوازية الألمانية في لغة فلسفية، وأن تفاخرهؤلاء المعلقين الفلسفيين إنما يعكس سخريّة الواقع الألماني وفقره. إن غرضه هو أن يسخر من هذه المعركة الفلسفية ضد ظلال هذا الواقع، وكذلك يسخر من حياة الخمول التي تلائم الأمة الألمانية الحالمة والمضطربة الذهن.

ذات مرة تخيّل امرؤ شجاع أن البشر إنما يغرقون لأن فكرة الجاذبية تتملكهم . فإذا

هـم انتزعـوا هـذه الفكـرة مـن رؤوسـهم، مثـلاً بالإعـلان أنهـا خرافـة أو أنهـا مفهومـاً دينيـاً، فسـوف يصبحـون مـن الآن فصاعـداً آمنيـن مـن خطـر الغـرق. ولقـد ناضـل طـوال حياتـه ضـد وهـم الجاذبيـة الـذي كانـت جميـع الاحصائيـات تحمـل إليـه دلائـل جديـدة ومتعـددة الوجـوه عـن عواقبـه الضـارة[٢]. لقـد كان هـذا الإنسـان الشـجاع نموذجـاً للفلاسـفة الثورييـن الجـدد فـي ألمانيـا[*].

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة]. ليس هناك فروق نوعية تفصل المثالية الألمانية عن إيديولوجية جميع الشعوب الأخرى. فهذه الإيديولوجية ترى هي الأخرى أن العالم تهيمن عليه الأفكار، وأن الأفكار والمفاهيم هي المبادىء المقررة، وأن الأفكار المقررة هي لغز العالم المادي الذي هو في متناول الفلاسفة.

ولقد أكمل هيغل المثالية الوضعية، وبالنسبة إليه، لم يتحوّل العالم المادي كله إلى عالم من الأفكار، والتاريخ كله إلى تاريخ للأفكار فحسب، بل هو لا يقتصر على تسجيل حقائق الفكر، وإنما يسعى أيضاً إلى تحليل عملية الخلق.

إن الفلاسفة الألمان عندما يُهزّون ليوقظوا من عالمهم الوهمي، يحتجون ضد عالم الأفكار، الذي هم [...] ماهية [العالم] الحقيقي،[الما]دي...

إن جميع النقاد الفلسفيين الألمان يؤكدون أن الأفكار والتصورات والمفاهيم قد هيمنت حتى الآن على البشر الفعليين وعلى سيرتهم، وإن العالم الفعلي هو نتاج لعالم الأفكار. ولقد كانت تلك هي الحال حتى الوقت الراهن، لكن من الواجب تغييرها. وإنهم يختلفون عن بعضهم بعضاً في الطريقة التي ينوون بها تحرير الجنس البشري الذي يئن في رأيهم تحت ثقل أفكاره الثابتة الخاصة؛ وإنهم يختلفون كذلك بخصوص ما يصفونه بأنه أفكار ثابتة؛ وإنهم يتفقون في إيمانهم بهيمنة الأفكار، ويتفقون في الاعتقاد بأن محاكمتهم النقدية لا بد أن تؤدي أخيراً إلى دمار الأوضاع القائمة، سواء أكانوا يتوهمون أن فكرهم الفردي يكفي من أجل تحقيق هذه النتيجة، أم كانوا يبغون الوصول إلى الوعي الكلي .

إن الاعتقاد بأن العالم الفعلي هو نتاج العالم المثالي، الأفكار [...].

وأما ضلّ الفلاسفة الألمان بفعل عالم الأفكار الهيغلي الذي أصبح عالمهم، فإنهم يحتجون ضد هيمنة الأفكار والتصورات والمفاهيم التي في رأسهم، يعني وفقاً للوهم الهيغلي، أنتجت حتى الآن العالم الفعلي وقررته وسيطرت عليه. إنهم يرفعون احتجاجهم ويفنون [...].

إن الأفكار والتصورات والمفاهيم، وفقاً للنظام الهيغلي، قد أنتجت وحددت وهيمنت على حياة البشر الفعلية وعلى عالمهم المادي وعلاقاتهم الفعلية. وإن تلامذته العصاة ليأخذون هذا [...].

(١)

فويرباخ
تضاد النظرتين المادية والمثالية

[I]

اجتـازت ألمانيـا خـلال السـنوات القليلـة الأخيـرة، كمـا يخبرنـا الإيديولوجيـون الألمـان، ثـورة لـم يسـبق لهـا مثيـل. إن عملية تحلـل الفلسـفة الهيغلية التـي بـدأت مـع شـتراوس[٣] قـد تحولـت إلـى غليـان عـام شـمل كل "قـوى الماضـي". وفـي ظـل هـذه الفوضـى العامـة قامـت إمبراطوريـات جبـارة سـرعان مـا انتهـت إلـى الـزوال، وظهـر أبطـال عابـرون سـرعان مـا ألقـى بهـم فـي غياهـب الظلمـات خصـوم أشـد إقداماً وأصلـب عـوداً. كانـت تلـك ثـورة لا تبـدو الثـورة الفرنسـية مقارنـة معهـا سـوى أن تكـون لعـب أطفـال إلـى جانبهـا، وكان ذلـك صراعـاً عالميـاً تبـدو صراعـات الأوليـاء[٤] تافهـة حقيـرة إلـى جانبـه. إن المبـادئ تتنافـس، وأبطـال الفكـر يطيحـون بعضهـم ببعضهـم بعضـاً بسـرعة لا نظيـر لهـا، وفـي مـدى ثـلاث سـنوات، مـن ١٨٤٢ إلـى ١٨٤٥، أزيـل قـدر مـن الماضـي فـي ألمانيـا أضخـم مـن الـذي حصـل علـى مـدى ثلاثـة قـرون فـي أماكـن أخـرى.

وكان من المفروض أن كل هذه الأمور قد جرت في ميدان الفكر الصرف(*) .

ومن المؤكد أننا نعالج هنا حدثاً مدعاة للاهتمام، ألا وهو عملية تحلل الروح المطلق(**)، فما أن انطفأت شرارة في حياة هذه االبقايا(***) حتى أخذت مكوناتها المختلفة في التحلل، ودخلت في تراكيب جديدة، وشكلت مواد جديدة. ولقد انقض صناع الفلسفة على هذه التراكيب الجديدة، هؤلاء الصناع الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الحين على استغلال الروح المطلق. وشرع كل منهم يروج بأقصى ما يمكن من الرغبة والحماسة للجزء الذي كان من نصيبه، الأمر الذي أدى وبشكل طبيعي إلى نشؤ التنافس الذي جرى بادئ ذي بدء بطريقة بورجوازية ورصينة باعتدال. ولكن فيما بعد، عندما ازدحمت السوق بالسلع الألمانية، ولم يعد في الإمكان تصريف هذه السلع في السوق العالمية رغم كل الجهود التي بذلت، فقد أفسدت العملية، كما هي القاعدة المألوفة في ألمانيا، من خلال الإنتاج الرخيص والتافه، وتدني النوعية، وتزييف الخامات، وتزوير اللصاقات، والصفقات الوهمية، وسمسرة السندات، ونظام إئتمان مجرد من أي أساس فعلي. وتحول هذا التنافس إلى صراع مرير هو في الوقت الحاضر موضع إطراء ومديح على أنه ثورة ذات أهمية تاريخية سوف ينتج عنها أعظم المنجزات والنتائج.

لكن إذا شئنا أن نقيّم تقييماً حقيقياً كل هذه الشعوذة الفلسفية التي تستثير مشاعر من الكبرياء القومية حتى في صدر البورجوازي الألماني الشريف، وإذا شئنا أن نبيّن تفاهة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] من الطبيعي أن العالم الخارجي العادي لم يعرف شيئاً عن هذا الصراع، ذلك أن كل هذا الحدث الذي هز العالم لم يجرِ في حقيقة الأمر إلا في عملية تفسخ الفكر المطلق.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن النقد، هذا المنظم للأعراس والمآتم، ما كان يمكن بالطبع أن يكون غائباً، هو الذي، بوصفه بقايا لحروب التحرر الكبرى، قد..

(***) Caput Mortuum، باللاتينية في النص الأصلي، حرفياً: الرأس الميت . وهو تعبير يستخدم في الكيمياء للدلالة على البقايا المخلفة بعد التقطير. والبقايا residus, restes، هو المعنى المقصود هنا (المترجم).

وضيق كل هذه الحركة، حركة الهيغليين الشباب(*)، وبصورة خاصة التباين المضحك المبكي بين المآثر الفعلية لهؤلاء الأبطال وأوهامهم بشأن هذه المآثر بالذات، فإن علينا أن ننظر إلى المشهد برمته من وجهة نظر تتجاوز الحدود الألمانية(**).

(I)- الإيديولوجية بعامة والفلسفة الألمانية بخاصة

إننا نعرف علماً واحداً فقط ألا وهو علم التاريخ. ويستطيع المرء أن ينظر إلى التاريخ من طرفين وأن يقسمه إلى تاريخ الطبيعة وتاريخ البشر. وعلى كل حال،فالطرفان غير منفصلين: فتاريخ الطبيعة وتاريخ البشر يشرطان بعضهما بعضاً ما وجد البشر. وإن تاريخ الطبيعة، المسمى العلوم الطبيعة، لا يعنينا هنا؛ لكنه لا بد لنا أن ندرس تاريخ البشر، ما دامت الإيديولوجية بكاملها على وجه التقريب ترتد أما إلى تفسير خاطئ للتاريخ وإما تؤدي إلى تعليقه كلياً. فليست الإيديولوجية بالذات إلّا مظهراً واحداً من مظاهر هذا التاريخ.

[١- الإيديولوجية بعامة والإيديولوجية الألمانية بخاصة]

لم يغادر النقد الألماني، حتى في أحدث الجهود التي بذلها، ميدان الفلسفة قط. وليس في نيتنا أن ندرس هنا مقدماته الفلسفية العامة، لكن جميع الأسئلة التي طرحها على نفسه قد انبثقت بلا استثناء، على العكس من ذلك، من أرض منهج فلسفي معين، ألا وهو المنهج الهيغلي. وإن ثمة تضليلاً لا يطاول هذه الأجوبة عن هذه الأسئلة فحسب، بل يشمل هذه الأسئلة بحد ذاتها. وإن هذه التبعية حيال هيغل هي سبب هذا الواقع، فلم يقم أياً من هؤلاء النقاد الحديثي العهد حتى بمحاولة نقد شامل للمنهج الهيغلي من جوانبه كافة، رغم أن كل

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وروحها القومية.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] ولهذا نقدم للنقد الخاص بالممثلين الفرادى لهذه الحركة بعض الملاحظات العامة التي توضح المقدمات الإيديولوجية المشتركة بينهم جميعاً. ولسوف تكون هذه الملاحظات كافية للدلالة على وجهة نظر نقدنا بقدر ما يكون ذلك ضرورياً من أجل فهم الانتقادات الفردية اللاحقة وتبريرها، وإننا نقرن هذه الملاحظات بفويرباخ على وجه الدقة لأنَّه الوحيد الذي حقق على الأقل بعض التقدم والذي تمكن دراسة مؤلفاته بنية طيبة[آ].

(آ) de Bonne Foi، بالفرنسية في النص الأصلي.

منهم يقسم الإيمان المغلظة ويؤكد بأنه تجاوزحدود فلسفة هيغل. إن مناظراتهم ضد هيغل وضد بعضهم بعضاً تقتصرعلى ما يلي: إن كلاً منهم يعزل جانباً من المنهج الهيغلي ويحوله ضد المنهج كله وضد الجوانب المعزولة من قبل الآخرين على حد سواء. وبادئ ذي بدء، فقد عزلوا مقولات هيغلية صرفة غير مزورة مثل "الجوهر" و"الوعي الذاتي"؛ ومن ثم أقدموا على تدنيس هذه المقولات بأسماء أكثر دنيوية، مثل "النوع"، و"الأوحد"، و"الإنسان"،الخ.

إن مجمل النقد الفلسفي الألماني، بدءاً من شتراوس حتى شترنر، يقتصرعلى نقد التصورات الدينية(*). ولقد انطلق النقاد من الدين الحقيقي واللاهوت بالمعنى الفعلي للكلمة.أما ما يعينه الوعي الديني والتصور الديني حقاً وفعلاً فقد تعيّن بصورة مختلفة بقدرما كانوا يمضون قدماً. وكان التقدم يستقيم في تصنيف التصورات الميتافيزيقية والسياسية والحقوقية والأخلاقية وغيرها من التصورات التي تدعي هيمنتها في صنف التصورات الدينية أواللاهوتية، وكذلك في القول بأن الوعي السياسي والحقوقي والاخلاقي هو وعي ديني أولاهوتي. كانت هيمنة الدين تعتبرأمراً مفروغاً منه . وقد أخذوا يعلنون بشكل تدرجي أن كل علاقة مهيمنة هي علاقة دينية وحولوها إلى عبادة، عبادة الحق، عبادة الدولة،الخ. كانت المسألة، في كل حدب وصوب، مسألة العقائد والإيمان بالعقائد. وكان العالم يكرس على مدى متزايد الاتساع أبداً حتى بات في مقدور صاحبنا الفاضل القديس ماكس أن يمنحه صفة القداسة كتلة واحدة، وبذلك يتخلص منه دفعة واحدة.

كان الهيغليون الشيوخ يعتقدون أن كل شيء مفهوم في نظرهم بمجرد إرجاعه إلى إحدى مقولات المنطق الهيغلي. أما الهيغليون الشباب فقد انتقدوا كل الأشياء باستبدالها بتصورات دينية أو التسليم بأنها مادة لاهوتية. وقد شاطرالهيغليون الشباب الهيغليين الشيوخ في الإيمان، بهيمنة الدين، والمفاهيم، والمبدأ الكلي،في العالم القائم. إن الفرق

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:]... منادياً بأنه المخلّص المطلق للعالم، وبأنه يحرره من الشر. لقد كانت النظرة إلى الدين على أنه العدو الأكبر، على أنه السبب الأخير لجميع العلاقات التي تثير نفور هؤلاء الفلاسفة، وقد كان يعامل على هذا الأساس.

الوحيـد هـو أن فريقـاً منهـم كان يهاجـم هـذه الهيمنـة ويعتبرهـا اغتصابـاً، بينمـا الفريـق الآخـركان يمجدهـا ويعتبرهـا هيمنـة مشـروعة.

ومـا دام الهيغليـون الشـباب يعتبـرون المفاهيـم والأفـكار والتصـورات، وباختصـار جميـع منتجـات الوعـي الـذي ينسـبون إليـه وجـوداً مسـتقلاً، علـى أنهـا قيـود فعليـة تقيـد البشـر (تمامـاً كمـا كان يعلـن الهيغليـون الشـيوخ بأنهـا الروابـط الحقيقيـة للمجتمـع الإنسـاني)، فإنـه مـن البديهـي أن يترتـب علـى الهيغلييـن الشـباب النضـال تحديـداً ضـد هـذه الأوهـام الخاصـة بالوعـي(*). ومـا دامـت علاقـات البشـر، وجميـع أفعالهـم، وأغلالهـم وقيودهـم، هـي منتجـات لوعيهـم وفقـاً لأوهـام الهيغلييـن الشـباب، فـإن هـؤلاء قـد فرضـوا علـى البشـر بصـورة منطقيـة المسـلّمة الأخلاقيـة الداعيـة إلـى مقايضـة وعيهـم الحالـي بوعـي إنسـاني، نقـدي أو أنانـي، والتخلـص بذلـك مـن قيودهـم. وإن هـذا المطلـب القائـل بتغييـر الوعـي يقتصـر علـى المطالبـة بتفسـير مـا هـو موجـود بطريقـة مختلفـة، الأمـر الـذي يعنـي القبـول بـه بواسـطة تأويـل مختلـف. إن الإيديولوجييـن الهيغلييـن الشـباب، بالرغـم مـن بياناتهـم الطنانة التـي يزعمـون أنهـا "تقلـب العالـم"، هـم أشـد المحافظيـن صلابـة. وإن أحدثهـم قـد وجـدوا التعبيـر الصحيـح الـذي يصـف نشـاطهم حيـن أعلنـوا أنهـم يحاربـون ضـد "عبـارات طنانـة". وإنهـم لينسـون علـى أي حـال أنهـم هـم أنفسـهم لا يعارضـون هـذه العبـارات الطنانـة إلّا بعبـارات طنانـة أخـرى، وأنهـم لا يكافحـون العالـم الفعلـي القائـم فـي أي حـال مـن الأحـوال حيـن لا يفعلـون سـوى مكافحـة العبـارات الطنانـة لهـذا العالـم. وإن النتائـج الوحيـدة التـي فـي مقـدور هـذا النقـد الفلسـفي أن يحققهـا هـي بضعـة إيضاحـات (وهـي فضـلاً عـن ذلـك ضيقـة كليـاً) للمسـيحية مـن وجهـة نظـر التاريـخ الدينـي؛ وليسـت جميـع تأكيداتهـم الأخـرى إلّا طرقـاً جديـدة مـن أجـل تزييـن ادعاءاتهـم بأنهـم قـد حققـوا بهـذه الإيضاحـات التافهـة، اكتشـافات ذات مغـزى تاريخـي.

ولـم يخطرفـي بـال أي مـن هـؤلاء الفلاسـفة أن يتسـاءل عـن الرابطـة التـي تجمـع بيـن الفلسـفة الألمانيـة والواقـع الألمانـي، الرابطـة التـي تجمـع بيـن نقدهـم وبيئتهـم الماديـة بالـذات.

(*) إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة : وإن تعديلًا للوعي السائد هو الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه.

[٢- المقدمات المنطقية للمفهوم المادي للتاريخ]

ليسـت المقدمـات التـي ننطلـق منهـا أسسـاً اعتباطيـة، أو معتقـدات، بـل هـي أسـس واقعيـة لا يمكـن التجـرد منهـا إلا فـي الخيـال. أولئـك هـم الأفـراد الفعليـون، نشـاطهم وشـروط وجودهـم الماديـة، سـواء الشـروط التـي يجدونهـا قائمـة، أم تلـك الشـروط التـي يخلقونهـا بفعـل نشـاطهم بالـذات. وهكـذا يمكـن التحقـق مـن هـذه الأسـس بطريقـة تجريبيـة صرفـة.

أن الشـرط الأول لـكل تاريـخ بشـري، إنمـا هـو وجـود كائنـات بشـرية حيـة(*). فـأول حقيقـة يجـب تقريرهـا هـي إذن، جبلـة هـؤلاء الأفـراد الجسـدية والعلاقـات التـي تخلقهـا لهـم هـذه الجبلـة مـع بقيـة الطبيعـة. ونحـن لا نسـتطيع طبعـاً أن نقـوم هنـا بدراسـة عميقـة للخصائـص الفيزيولوجيـة للإنسـان بالـذات، ولا فـي دراسـة الشـروط الطبيعيـة التـي صادفهـا البشـر جاهـزة تمامـاً، كالشـروط الجيولوجيـة، والأوروغرافيـة، والهيدروغرافيـة، والمناخيـة وغيرهـا(**). وإن مـن واجـب كل تاريـخ أن ينطلـق مـن هـذه الأسـس الطبيعيـة بالـذات، ومـا يطـرأ عليهـا مـن تغيـرات مـن جـراء نشـاط البشـر فـي سـياق التاريـخ.

ويمكـن تمييـز البشـر مـن الحيوانـات بالوعـي، والديـن، وكل مـا يحلـو لنـا. وإنهـم ليبـدأون هـم أنفسـهم بتمييـز أنفسـهم مـن الحيوانـات حالمـا يباشـرون فـي إنتـاج وسـائل وجودهـم، وهـذه خطـوة تشـترطها بنيتهـم الجسـدية. فعندمـا ينتـج البشـر وسـائل وجودهم،فإنهـم ينتجـون بصـورة غيـر مباشـرة حياتهـم الماديـة بالـذات.

إن الطريقـة التـي ينتـج بهـا البشـر وسـائل وجودهـم تتوقـف قبـل كل شـيء علـى طبيعـة وسـائل الوجـود التـي يجدونهـا جاهـزة والتـي يجـب عليهـم تجديـد إنتاجهـا.

ولا يجـب اعتبـار هـذا النمـط فـي الإنتـاج مـن وجهـة النظـر هـذه وحدهـا، ألا وهـي أنـه تجديـد لإنتـاج وجـود الأفـراد الجسـدي. إنَّـه يمثـل علـى العكـس مـن ذلـك نمطـاً محـدداً لفعاليـة هـؤلاء

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن العمل التاريخي الأول الذي يقوم به هؤلاء الأفراد والذين يتميزون بفضله عن الحيوانات، لا يقوم في كونهم يفكرون، بل يقوم في كونهم يبدأون إنتاج وسائل وجودهم.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] والحال أن هذه الأوضاع لا تشترط التنظيم الذي يصدر عن الطبيعة فحسب، تنظيم البشر البدائي وعلى الأخص فروقهم العرقية؛ بل إنها تشترط كذلك كل تطورهم أو لاتطورهم اللاحق حتى الحقبة الحالية.

الأفراد ونمطاً محدداً للتعبير عن حياتهم ونمطاً محدداً للحياة . وكما يعبر الأفراد عن حياتهم كذلك يكونون بالضبط، بحيث تتطابق ماهيتهم مع إنتاجهم، سواء مع ما ينتجونه أم مع الطريقة التي ينتجونه بها. فماهية الأفراد تتوقف إذن، على شروط إنتاجهم المادية.

ولا يظهر هذا الإنتاج إلَّا مع زيادة السكان، وهو يفترض تعاملاً[٥] بين الأفراد. وإن شكل التعامل هذا- لمشروط بدوره بالإنتاج.

[٣- الإنتاج والتعامل ـ تقسيم العمل وأشكال الملكية : الملكية القبلية والملكية القديمة والملكية الإقطاعية]

إن علاقات الأمم فيما بينها تتوقف على مرحلة التطور التي بلغتها كل منها فيما يتعلق بالقوى المنتجة، وتقسيم العمل، والعلاقات الداخلية. إن هذا المبدأ معترف به عموماً. وعلى كل حال، فليست علاقات أمة معينة مع الأمم الأخرى فحسب، بل كل البنية الداخلية والخارجية لهذه الأمة نفسها أيضاً، هي رهن بمستوى تطور إنتاجها وبعلاقاتها الداخلية والخارجية. ونحن نعرف بأوضح طريقة درجة التطور التي بلغتها القوى المنتجة لأمة ما من درجة التطور التي بلغها تقسيم العمل عندها. وإن كل قوة منتجة جديدة، بقدر ما لا تكون مجرد توسع كمي للقوى المنتجة المعروفة من قبل (استصلاح الأراضي على سبيل المثال)، يترتب عليها أحكام جديدة لتقسيم العمل.

إن تقسيم العمل داخل أمة ما يؤدي بادئ الأمر إلى انفصال العمل الصناعي والتجاري من جهة، والعمل الزراعي من جهة ثانية؛ ومن جراء ذلك انفصال المدينة والريف وتعارض مصالحهما. ويؤدي التطور اللاحق لتقسيم العمل إلى انفصال العمل التجاري والعمل الصناعي. وتظهر في الوقت نفسه، من جراء تقسيم العمل داخل الفروع المختلفة، تقسيمات فرعية مختلفة تتطور بدورها بين الأفراد الذين يتعاونون في أعمال محددة في هذا الفرع أو ذاك من فروع العمل . وإن موقع هذه التقسيمات الفرعية الخاصة بالنسبة إلى بعضها بعضاً لمشروط بنمط استثمار العمل الزراعي والصناعي والتجاري (النظام البطريركي، والعبودية، والمراتب والطبقات). وتظهر الشروط نفسها (حين تكون علاقات التعامل أكثر تطوراً) في علاقات الأمم المختلفة بعضها ببعض.

إن المراحـل المختلفـة لتطـور تقسـيم العمـل تمثـل بالضبـط أشـكالاً مختلفـة للملكيـة؛ وبـكلام آخـر، فـإن كل مرحلـة جديـدة لتقسـيم العمـل تحـدد كذلـك علاقـات الأفـراد فيمـا بينهـم بخصـوص مـادة العمـل وأدواتـه وإنتاجيتـه.

إن الشـكل الأول للملكيـة هـو ملكيـة القبيلـة [Stammeigentum](٦). وإنـه ليقابـل تلـك المرحلـة البدائيـة للإنتـاج حيـث يعيـش شـعب مـن القنـص والصيـد وتربيـة الماشـية، أو بأكبرقـدر مـن الزراعـة، وفـي هـذه الحالـة الأخيـرة يفتـرض شـكل الملكيـة هـذا، رقعـاً شاسـعة مـن الأراضـي غيـر المزروعـة. ويكـون تقسـيم العمـل فـي هـذه المرحلـة بدائيـاً جـداً بعـد، ويقتصـر علـى اتسـاع أعظـم للتقسـيم الطبيعـي كمـا هـو قائـم فـي الأسـرة. وتقتصـر البنيـة الاجتماعيـة، مـن جـراء ذلـك، علـى اتسـاع الأسـرة: زعمـاء القبيلـة البطريركيـة، وأفـراد القبيلـة الخاضعيـن لهـم، وأخيـراً العبيـد. ولا تتطـور العبوديـة الكامنـة فـي الأسـرة إلا تدريجـاً مـع نموعـدد السـكان ونمـو الحاجـات، وكذلـك مـع توسـع العلاقـات الخارجيـة، سـواء بصـورة الحـرب أم بصـورة المقايضـة.

والشـكل الثانـي للملكيـة هـو الملكيـة المشـاعة وملكيـة الدولـة، هـذا الشـكل الـذي نصادفـه فـي الأزمنـة القديمـة والـذي ينشـأ بصـورة رئيسـية مـن اتحـاد عـدة قبائـل فـي مدينـة واحـدة، عـن طريـق الاتفـاق أو عـن طريـق الغـزو، وهـو يترافـق بالعبوديـة بعـد. وتنمـو إلـى جانـب الملكيـة المشـاعة الملكيـة الخاصـة، المنقولـة وغيـر المنقولـة فـي وقـت لاحـق، لكنهـا تنمـو علـى اعتبارهـا شـكلاً غيـر طبيعـي وخاضعـاً للملكيـة المشـاعة. ولا يمـارس المواطنـون سـلطانهم علـى العبيـد الذيـن يشـتغلون إلا بصـورة جماعيـة، الأمـر الـذي يربطهـم إذن، إلـى شـكل الملكيـة المشـاعة. إن هـذا الشـكل هـو الملكيـة الخاصـة الجماعيـة للمواطنيـن النشـيطين، الملتزميـن تجـاه عبيدهـم بالمحافظـة علـى هـذا الشـكل الطبيعـي للرابطـة. ولـذا فـإن كل البنيـة الاجتماعيـة القائمـة علـى هـذه الملكيـة المشـاعة، ومعهـا قـوة الشـعب، تتفـكك بالضبـط بقـدر مـا تنمـو، بالخاصـة، الملكيـة الخاصـة غيـر المنقولـة، ويصبـح تقسـيم العمـل فـي هـذه المرحلـة أكثـر تطـوراً مـن ذي قبـل، ونواجـه سـلفاً مظهـر التضـاد بيـن المدينـة والريـف، وفـي وقـت لاحـق التضـاد بيـن الـدول التـي

يمثـل بعضهـا مصالـح المـدن وبعضهـا الآخـر يمثـل مصالـح الأريـاف، ونجـد داخـل المـدن نفسـها التضاد بيـن التجـارة البحريـة والصناعـة. وتبلـغ العلاقـات الطبقيـة بيـن المواطنيـن والعبيـد تطورهـا الكامل[*].

وتظهـر مـع نمـو الملكيـة الخاصـة للمـرة الأولـى تلـك العلاقـات التـي سـوف نجدهـا مـن جديـد فـي الملكيـة الخاصـة الحديثـة ولكـن علـى نطـاق أكبـر. فمـن جهـة تركـز الملكيـة الخاصـة الـذي بـدأ فـي وقـت مبكـر جـداً فـي رومـا، كمـا يثبـت ذلـك قانـون ليسـينوس الزراعـي[٧]، والـذي تطـور بسـرعة بالغـة منـذ أيـام الحـروب الأهليـة، ولا سـيما فـي عهـد الأباطـرة؛ ومـن جهـة ثانيـة، وبالارتبـاط مـع هـذه الوقائـع، تحـول الفلاحيـن العامييـن الصغـار إلـى بروليتاريـا لـم تسـتطع تحقيـق تطـور مسـتقل بسـبب وضعهـا المتوسـط بيـن المواطنيـن المالكيـن والعبيـد.

إن شـكل الملكيـة الثالـث هـو شـكل الملكيـة الإقطاعيـة، أو ملكيـة المراتـب المختلفـة. فبينمـا كانـت المدينـة ودائرتهـا غيـر الكبيـرة نقطـة الانطـلاق بالنسـبة للأزمنـة القديمـة، شـكل الريـف نقطـة الانطـلاق بالنسـبة للحقبـة الوسـيطة. وإن تغيـر نقطـة الانطـلاق هـذه فرضـه العـدد القليـل مـن السـكان المشـتتين علـى رقعـة شاسـعة مـن الأرض، ولـم يـزد الغـزاة عددهـم كثيـراً. ولهـذا يبـدو أن التطـور الإقطاعـي، خلافـاً لمـا كان عليـه الحـال بالنسـبة إلـى اليونـان ورومـا، قـد انتشـر فـي البـدء علـى رقعـة أوسـع بكثيـر مـن الأراضـي التـي أمنتهـا الفتوحـات الرومانيـة ومـا اسـتتبعته مـن اتسـاع للزراعـة فـي الأصـل. إن القـرون الأخيـرة التـي شـهدت انحطـاط الأمبراطوريـة الرومانيـة وفتحهـا مـن قبـل البرابـرة قـد دمـرت كتلـة كبيـرة مـن القـوى المنتجـة: لقـد تدهـورت الزراعـة، وانحطـت الصناعـة مـن جـراء نقـص أسـواق التصريـف، وشـهدت التجـارة ركـوداً أو توقفـت بفعـل العنـف، وبفعـل النقـص فـي أعـداد السـكان، الريفييـن والحضرييـن علـى حـد سـواء. ولقـد تطـورت الملكيـة الإقطاعيـة انطلاقـاً مـن هـذه الظـروف، وأسـلوب تحقيـق الفتوحـات الـذي اشـترطته هـذه الظـروف، وذلـك تحـت تأثيـر التنظيـم العسـكري الجرمانـي. وإن هـذه الملكيـة، مثلهـا مثـل الملكيـة القبليـة والملكيـة المشـاعة، لترتكـز بدورهـا علـى الجماعـة التـي لا يشـكل العبيـد حيالهـا الطبقـة المنتجـة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] نصادف عند العاميين الرومان بادئ الأمر المالكين العقاريين الصغار ومن بعد طلائع بروليتاريا لن تتطور على أية حال، وذلك من جراء موقعها المتوسط بين المواطنين المالكين والعبيد.

بصورة مباشرة كما هي الحال في النظام القديم، بل الفلاحون الصغار الأقنان، ومع تطور الإقطاعية تطوراً كاملاً يظهر بصورة متوازية التضاد حيال المدن. إن البنية التراتبية للملكية العقارية والسيادة العسكرية التي تواكبها قد منحتا النبالة السلطة الكلية على الأقنان. ولقد شكلت هذه البنية الإقطاعية، مثلها مثل الملكية المشاعة القديمة، اتحاداً ضد الطبقة المنتجة السائدة مع هذا الفرق الصغير، ألا وهو أن شكل الاتحاد والعلاقات مع المنتجين كان مختلفاً بسبب اختلاف شروط الإنتاج.

يقابل هذه البنية الإقطاعية للملكية العقارية في المدن، ملكية الأصناف الحرفية، التي هي تنظيم إقطاعي للحِرف. فقد كانت الملكية هنا تقوم بصورة رئيسية في عمل كل فرد بمفرده: إن ضرورة الاتحاد ضد النبالة النهابة المتحدة، والحاجة إلى أسواق مغطاة مشتركة في وقت كان الصناعي فيه تاجراً أيضاً، والمنافسة المتعاظمة للأقنان الذين كانوا يهربون بأعداد كبيرة نحو المدن المزدهرة، والبنية الإقطاعية للبلاد بمجموعها، قد أدت إلى ظهور الأصناف الحرفية. وإن رؤوس الأموال الصغيرة التي اقتصدها شيئاً فشيئاً الحرفيون المنعزلون، وعدد هؤلاء الحرفيين الثابت بين سكان يتزايدون من دون انقطاع، قد طورت شرط العامل المياوم والمتمرن، هذا الأمر الذي خلق في المدن سلسلة تراتب شبيهة بالتراتب القائم في الريف.

فالملكية الرئيسية كانت تقوم إذن، أثناء المرحلة الإقطاعية في الملكية العقارية المكبل إليها عمل الأقنان من جهة، وفي العمل الشخصي بواسطة رأسمال صغير يتحكم بعمل العمال المياومين من جهة ثانية. وكانت بنية كل من هذين الشكلين مشروطة بعلاقات الإنتاج المحدودة- الزراعة البدائية والضيقة النطاق، والصناعة الحرفية: لقد كان تقسيم العمل في عهد ازدهار الإقطاعية ضئيلاً، وكان كل بلد يحمل في ذاته التضاد بين المدينة والريف. وفي الحقيقة إن التقسيم إلى مراتب كان بارزاً بشدة، لكن إذا تركنا جانباً الانفصال إلى أمراء حاكمين ونبالة وأكليروس وفلاحين في الريف، والانفصال إلى معلمين ومياومين ومتمرنين، وعاجلاً إلى حشد من العمال غير المنتظمين أيضاً، في المدن، فإنَّه لم يكن هناك ثمة تقسيم هام للعمل. ولقد زادت مصاعب تقسيم العمل هذا في الزراعة من جراء الاستثمار المجزأ الذي كانت الصناعة المنزلية للفلاحين أنفسهم تنمو إلى جانبه؛ أما في

الصناعة ذاتها، فلم يكن هناك تقسيم للعمل داخل كل حرفة، لقد كان هذا التقسيم محدوداً جداً بين مختلف الحرف. وكان التقسيم بين التجارة والصناعة في المدن الأقدم عهداً قائماً من قبل، لكنه لم يتطورإلا في وقت لاحق في المدن الحديثة، حين دخلت هذه المدن في علاقات بين بعضها البعض.

وكان تجمع البلدان الكبيرة المساحة في ممالك إقطاعية ضرورة بالنسبة إلى النبالة الأرضية وإلى المدن على حدٍ سواء. ولذا فقد قام ملك كل مكان على رأس تنظيم الطبقة المهيمنة، يعني النبالة.

[٤ - ماهية المفهوم المادي للتاريخ ـ الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي]

هذه هي الحقائق إذن: إن أفراداً محددين(*) يمارسون نشاطاً إنتاجياً وفق نمط محدد يدخلون في علاقات اجتماعية وسياسية محددة. ويجب في كل حالة على انفراد أن تبين المشاهدة التجريبية(**) في الحقائق ومن دون أي تأويل أو تضليل، الرابطة بين البنية السياسية والاجتماعية والإنتاج. إن البنية الاجتماعية والدولة تنبثقان باستمرار من التطور الحيوي لأفراد محددين، لكن هؤلاء الأفراد لا كما يمكن أن يظهروا في تصورهم الخاص أو تصور الغير، بل كما هم في الواقع، يعني كما يعملون وينتجون مادياً، وبالتالي كما يفعلون على أسس وفي ظروف وشروط وحدود مادية محددة ومستقلة عن إرادتهم(***).

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] في علاقات إنتاج محددة.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] التي تقتصر على المعطيات الواقعية وحدها.

(***) الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن التصورات التي يصنعها هؤلاء الأفراد هي أفكار، إما عن علاقاتهم مع الطبيعة، وإما عن علاقاتهم فيما بينهم، وإما عن طبيعتهم الخاصة. ومن البديهي أن هذه التصورات هي في جميع هذه الحالات التعبير- الفعلي أو الوهمي - عن علاقاتهم الفعلية وعن إنتاجهم، وعن تعاملهم، وعن تنظيمهم السياسي والاجتماعي. وليس في الإمكان إصدارالفرضية المعاكسة إلَّا إذا افترضنا أنه يوجد، خارج فكر الأفراد الفعليين، المشروطين مادياً، فكر آخر أيضاً، فكر خاص. وإذا كان التعبير الواعي لشروط هؤلاء الأفراد الحياتية الفعلية تعبيراً وهمياً، إذا هم وضعوا في تصوراتهم الواقع رأساً على عقب، فإن هذه الظاهرة هي أيضاً نتيجة لمحدودية نمط نشاطهم المادي ولضيق علاقاتهم الاجتماعية الناجمة عنه.

إن إنتـاج الأفـكار والتصـورات والوعـي مختلـط بـادئ الأمـر بصـورة مباشـرة ووثيقـة بالنشـاط المـادي والتعامـل المـادي بيـن البشـر، فهـو لغـة الحيـاة الفعليـة. إن التصـورات والأفـكار، والتعامـل الفكـري بيـن البشـر، تظهرهنـا علـى اعتبارهـا مظهـراً مباشـراً لسـلوكهم وأفعالهـم الماديـة. ينطبـق الأمـر نفسـه علـى الإنتـاج الفكـري كمـا يعبَرعنـه فـي لغـة السياسـة، ولغـة القوانيـن، والأخـلاق، والديـن، والميتافيزيقيـا، الـخ، عنـد شـعب بكاملـه. فالبشـر هـم الذيـن ينتجـون تصوراتهـم، وأفكارهـم(*)، الـخ، لكـن البشـر الفعليـون، الفاعلـون، المشـروطون بتطـور معيـن لقواهـم المنتجـة والعلاقـات التـي تقابلهـا، بمـا فـي ذلـك الأشـكال الأوسـع التـي يمكـن لهـذه العلاقـات أن تتخذهـا. فالوعـي [das Bewusstein] لا يمكـن قـط أن يكـون شـيئاً آخـر سـوى الوجـود الواعـي(**) ووجـود البشـر هـو تطـور حياتهـم الفعليـة. وإذا كان البشـر وجميـع علاقاتهـم يبـدون لنـا، فـي الإيديولوجيـة بكاملهـا، موضوعيـن رأسـاً علـى عقـب كمـا فـي غرفـة مظلمـة(***)، فـإن هـذه الظاهـرة تنجـم كذلـك عـن العمليـة التاريخيـة لتطـور حياتهـم، تمامـاً كمـا أن انقـلاب الأشـياء علـى الشـبكية ينجـم عـن عمليـة تطـور حياتهـم الفيزيولوجيـة بصـورة مباشـرة.

وعلـى النقيـض مـن الفلسـفة الألمانيـة التـي تهبـط مـن السـماء إلـى الأرض، فـإن الصعـود هنـا يتـم مـن الأرض إلـى السـماء. وبـكلام آخـر، فـإن الانطـلاق لا يتـم ممـا يقولـه البشـر، ويتوهمونـه، ويتصورونـه، ولا ممـا هـم عليـه فـي أقـوال الغيـر وفكرهـم وتخيلهـم وتصورهـم، كـي يتـم الوصـول فيمـا بعـد إلـى البشـر الذيـن هـم مـن لحـم ودم، إلـى البشـر الفعلييـن، بـل يتـم الانطـلاق مـن البشـر فـي فعاليتهـم الواقعيـة؛ وإن تصـور تطـور الانعكاسـات والأصـداء الإيديولوجيـة لهـذا التطـور الحياتـي يتـم انطلاقـاً مـن تطورهـم الحياتـي الواقعـي أيضـاً. وحتـى الأشـباح فـي العقـل البشـري هـي تسـام ناتـج بالضـرورة مـن تطـور حياتهـم الماديـة التـي يمكـن التحقـق منهـا تجريبيـاً والتـي تعتمـد علـى قواعـد ماديـة. ومـن جـراء ذلـك، تفقـد الأخـلاق، والديـن، والميتافيزيقيـا، وكل البقيـة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن البشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم،الخ...أي على وجه الدقة، البشر المشروطين بنمط إنتاج حياتهم المادية، وعلاقات تعاملهم المادي، وتطوره اللاحق في البنية الاجتماعية والسياسية.

(**) يحلل ماركس كلمة Bewusstsein (الوعي) إلى عنصريها Das Bewusste Sein (الوجود الواعي).

(***) Camera Obscura باللاتينية في النص الأصلي.

الباقية من الإيديولوجيا، وكذلك أشكال الوعي التي تقابلها، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الاستقلال الذاتي. فهي لا تملك تاريخاً، وليس لها أي تطور؛ إن الأمر على النقيض من ذلك، فالبشر إذ يطورون إنتاجهم وتعاملهم المادي هم الذين يحوِّلون فكرهم ومنتجاته على السواء مع هذا الواقع الذي هو خاصتهم. فليس الوعي هو الذي يحدد الحياة، بل الحياة هي التي تحدد الوعي. ففي الطريقة الأولى لاعتبار الأشياء يتم الانطلاق من الوعي على اعتباره الفرد الحي، أما في الطريقة الثانية التي تقابل الحياة الفعلية فإن الانطلاق يتم من الأفراد الفعليين والأحياء بالذات ويتم اعتبار الوعي بوصفه وعيهم هم بالذات (*).

وليست هذه الطريقة في اعتبار الأشياء مجردة عن المقدمات، بل هي تنطلق من مقدمات منطقية ولا تتخلى عنها لحظة واحدة. والبشر هم هذه المقدمات المنطقية، لا البشر المعزولون والجامدون بأية طريقة وهمية، بل البشر المأخوذون في عملية تطورهم الواقعية في ظل شروط محددة، وهو تطور ظاهر تجريبياً. وحالما تتمثل هذه العملية للفعالية الحيوية، يكف التاريخ عن كونه مجموعة من الحقائق التي لا حياة فيها، كما هو الأمر عند التجريبيين الذين هم تجريديون بعد، أو نشاطاً وهمياً لذوات وهمية كما هو الأمر عند المثاليين.

فحيث ينقطع التأمل، في الحياة الواقعية، يبدأ إذن، العلم الواقعي، الوضعي، يبدأ تحليل النشاط العملي، تحليل عملية التطور العملي للبشر. وتنقطع العبارات الجوفاء عن الوعي، لكي تحل مكانها المعرفة الحقيقية. وإن الفلسفة لتكف [die selbständige Philosophie]، مع دراسة الواقع، عن أن تكون لها بيئة توجد فيها بصورة مستقلة ذاتياً، ويمكننا على الأكثر أن نضع مكانها تركيباً للنتائج الأكثر عمومية التي يمكن تجريدها من دراسة تطور البشر التاريخي. ولا تحمل هذه التجريدات أية قيمة على الإطلاق إذا ما أخذت بحد ذاتها، بمعزل عن التاريخ الفعلي. إن في مقدورها على الأكثر أن تخدم في تصنيف المادة التاريخية بمزيد من السهولة، وفي الدلالة على تعاقب تطابقاتها الخاصة. ولكن، خلافاً للفلسفة، لا تعطي هذه التجريدات في أي حال من الأحوال وصفة أو مخططاً يمكن تصنيف الحقب التاريخية على أساسها. وعلى العكس، فإن الصعوبة لا تبدأ إلا حين يباشر في دراسة(**) هذه المادة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] في البحث عن الترابط الفعلي، العملي، لهذه التطابقات المختلفة.

(**) [صياغة أخرى في المخطوطة:] باعتباره وعي هؤلاء الأفراد الذين يملكون نشاطاً عملياً.

وتصنيفها سواء أكان المقصود حقبة مضت وانقضت أم زمننا الحاضر، وفي تحليلها بصورة واقعية. إن التخلص من هذه المصاعب يتوقف على المقدمات التي يستحيل علينا شرحها هنا، ذلك لأنها لاتنشأ إلا في سياق دراسة تطور الحياة الفعلية ودراسة نشاط الأفراد في كل حقبة. ولسوف نتناول هنا بعضاً من هذه التجريدات التي سنستخدمها في مواجهة الإيديولوجية ونفسرها بأمثلة تاريخية.

II

[١ - الشروط المسبقة للتحرر الفعلي للإنسان]

من المؤكد(*) أننا لن نكلف أنفسنا العناء(**) كي نفسر لعلمائنا الفلاسفة أنهم حين يحلون "في الوعي الذاتي" الفلسفة واللاهوت والجوهر وكل متاع الإنسان، حين يحررون "الإنسان" من الديكتاتورية التي لم تثقل عليه أبداً، لم يتقدموا خطوة واحدة "بتحرر"

(*) إن النص الذي سنطالعه الآن قد اكتشف أخيراً، مع بعض النصوص الأخرى التي سوف نشير إليها أدناه في الفصلين الثاني والثالث، ونشر للمرة الأولى عام ١٩٦٢ في المجلة الدولية للتاريخ الاجتماعي [International Review of social history]، المجلد الثالث، القسم الأول. وإن النص التالي ليمثل في صفحة مخطوطة، مرقمة ١ (الوجه) و٢ (الظهر). وتنقسم كل صفحة إلى قسمين في الاتجاه العمودي، وقد كتب النص ذاته في الجانب الأيسر، بينما احتفظ بالعمود الأيمن من أجل الإضافات والمذكرات والملاحظات. وإن هاتين الصفحتين هما الصفحتان الأوليان في دفتر يضم الصياغة الأولى للفصل الأول من الإيديولوجية الألمانية، وقد رقمه ماركس من ١ إلى ٧٢. وإن المذكرات الهامشية هي بخط ماركس، أما النص الوارد في اليسار فقد نسخه ويديميير (المترجم).

إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة، قبل كلمتي "من المؤكد":] في العائلة المقدسة دحضت مراراً وتكراراً الفكرة القائلة إن هؤلاء الفلاسفة واللاهوتيين القديسين قد خلقوا، إذ كتبوا بعض الترهات عن الروح المطلق، "لا ذاتية الأفراد". فكأن "الفرد"، يعني كل كائن إنساني، "يكف عن كونه ذاتياً"، ينحل بصورة فعلية "في الروح المطلق"، منذ يأخذ بعض أصحاب الدخل القليل من التأمل يروون هذه الترهات "للفرد"، مصدرين إليه الأمر بأن "ينحل" في الحال ومن دون أي تردد "في الروح المطلق"! ولنلاحظ أنه إذا كان هؤلاء البقالون قد تمكنوا هم أنفسهم من الوصول إلى هذه البدع الفلسفية، فليس ذلك بسبب "تبعية الفرد ولا ذاتيته"، بل بسبب بؤس الوضع الاجتماعي.

(**) [يكتب ماركس عند هذا المستوى، في العمود الأيمن:] فويرباخ .

"الإنسان"، وأنه لا يمكن تحقيق تحرر فعلي إلا في العالم الواقعي وبالوسائل الواقعية، وأنه لا يمكن نقض العبودية من دون الآلة البخارية والنول الآلي ودولاب الغزل، ولا نقض الرق من دون تحسين الزراعة، وأنه لا يمكن بصورة أعم للبشر أن يتحرروا ما داموا لا يتمكنون من الحصول بصورة كلية على المأكل والمشرب والمسكن والملبس بنوعية وكمية متناسبتين(*). إن "التحرر" هو فعل تاريخي وليس فعلاً ذهنياً، وهو يتحقق بفضل شروط تاريخية، [تقدم] الصناعة، والتـ[جارة] [والز]راعة(**)... ومن بعد، من جراء أطوار التطور المختلفة لديهم، [يثيرون(***)] هذه السخافات: الجوهر، والذات، والوعي الذاتي، والنقد الصرف، سواء بسواء مع اللامعقولية الدينية واللاهوتية، ثم يحذفونها من جديد عندما يبلغون مرحلة ثانية من تطورهم. ومن الطبيعي أنه في بلد مثل ألمانيا، حيث لا يجري سوى تطور تاريخي بائس، فإن هذا التطور الخاص للأفكار، وهذه التفاهات المؤمثلة والعاجزة، تحل مكان التطورات التاريخية الغائبة: إنها تتجذر وينبغي النضال ضدها. بيد أن هذا النضال لا يملك أهمية تاريخية عامة، بل إنه يتصف بأهمية محلية فحسب.(****)

(*) كتب ماركس بادئ الأمر بنوعية وكمية كافيتين؛ وقد شطب هذا النعت واستبدله بكلمة Vollstandib.

(**) تنتهي هنا الصفحة الأولى (الوجه). المخطوطة تالفة، وإن الكلمات الواردة بين أقواس كبيرة قد صححت وهي غير مقروءة في الأصل.

[ملاحظات ومذكرات في العمود الأيمن:] يعتقد فويرباخ مثله كمثل منافسيه الآخرين، أنه تجاوز الفلسفة، وأن النضال الذي خاضه الفرد حتى الوقت الراهن ضد العمومية يلخص مطامح النقد الفلسفي الألماني. أما نحن فنؤكد أن هذا النضال، كما هو دائر، يرتكز هو نفسه على أوهام فلسفية. بخصوص(؟) أن العمومية لم يتحقق بلوغها (أ). التحرر الفلسفي والتحرر الفعلي، الإنسان، الأوحد. الفرد. الشروط الجيولوجية والهيدروغرافية، الخ. الجسد الإنساني [الـ]حاجة و[الـ]عمل(ب).

أ- كل هذه الملاحظات غير مفسرة على وجه التقريب.

ب- هذه الملاحظات واردة بصورة حرفية في صفحة أخرى من المخطوطة (ص ٣٧، الهامش***).

(***) هذه الكلمة مضافة من قبل الناشر الفرنسي.

(****) إن بعض هذه الأفكار سوف ترد في النص في موضع لاحق.

=

[٢ - مادية فويرباخ التأملية غير المتماسكة]

[...(*)]. إن المسألة في الحقيقة هي بالنسبة إلى المادي العملي، أي بالنسبة إلى

= [صياغة أخرى في المخطوطة:] هذا نضال لا يحمل نتائج جديدة إلى كتلة البشر، ليس أكثر من النضال الذي يجابه الحضارة بالهمجية . نضال ألمانيا أ.

[إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] يعطينا القديس برونو"خصائص لودفيغ فويرباخ" . يعني صياغة مراجعة ومصححة كمقالة نشرت من قبل في [Norddeutsch Blätter] أوراق شمال ألمانيا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا الطابع المقدس حيث نحن أنفسنا (ب) ... يوصف فويرباخ على أنه "فارس الجوهر"بغرض إبراز" الوعي الذاتي" الباوري . وعلى أي حال فهذا أمر عاك، فمنذ بعض الوقت يقتصر هذا على أن يقول عن كل شيء وعن كل الناس على أنهم "الجوهر" . وفي سياق هذه الاستحالة التي يتعرض لها فويرباخ يقفز رجلنا القديس من كتابات فويرباخ بصورة مباشرة إلى جوهر المسيحية مارا"فوق بايلي وليبينيز، ولا يأتي على ذكر مقال فويرباخ ضد "الفلسفة الوضعية" الذي ظهر في مجلة حوليات هال الفصلية [Hallische Jahrbücher] لهذا السبب البسيط، ألا وهو أن فويرباخ يفضح فيه، في مواجهة الممثلين الوضعيين لـ "الجوهر"، كل علم الوعي الذاتي "المطلق" في حقبة كان يتأمل بعد فيها في موضوع الحبل بلا دنس ويعبر فيه عن نفسه بوضوح اكثر [...] مما [...] فعله قط [...] (ج)

[ملاحظات ومذكرات في العمود الأيمن:] صيغ جوفاء، وحر[كة] فعلية . أهم [ية] الصيغ بالنسبة إلى ألما [نيا] لغة [...](د) هي لغة الو[اقع].

[تحت الخط الأفقي :] فويرباخ، برونو. راجع برونو عن فويرباخ، بوصفه فارس الجوهر. كان هذا الإهمال "خطيئة"، "بالنسبة إلى الموضع" لأنه لم يكن منه بد.في هذه المقالة على وجه الدقة (هـ) يدرس فويرباخ الوعي الذاتي الذي لا يزال يشغل بال برونو مثل ل ...

[ابتداء من هذه النقطة لا يعدو النص كونه صياغة أخرى لفقرة من الفصل الثاني (القديس برونو، الفقرة الثانية، ويستطيع القارىء العودة إليها].

(أ) إن هاتين الجملتين الاخيرتين مشطوبتان في الأ صل بثلاثة خطوط مماثلة. اما بقية النص فمشطوب بصورة عمودية . ورسم بين القسمين خطاً افقياً على عرض الصفحة بكاملها .

(ب) مطلع الجملة مشطوب.

(ج) المخطوطة تالفة.

(د) كلمات غير مفسرة .

(هـ) تقع هذه الإضافة بالضبط في مواجهة النص، حيث تناقش مقالة فويرباخ التي ظهرت في حوليات هال .

إن الصفحات التي رقمها ماركس ٣ و٤ و٥ و٦ و٧ مفقودة.

الشـــيوعي، هي مســـألة تثوير العالم القائم، والنضال بشـــكل عملـــي ضد الأوضـــاع القائمة والعمل علـــى تغييرهـــا. وإذا كنا نجد أحيانـــاً عند فويرباخ وجهات نظـــر من هذا النوع، فإنهـــا لا تذهب قط أبعـــد من كونها هواجســـاً منعزلـــة، وتأثيرها زهيد في مجمـــل تصوره العام، بحيـــث لا يمكن أن يرى المرء فيها ســـوى بـــذرة قادرة على التطـــور. إن "تصور" العالم الحســـي لدى فويربـــاخ(*) يقتصر، من جهـــة، على مجرد تأمـــل هذا العالم، ومـــن جهة أخرى على العاطفـــة المجردة. إنه يقول "الإنســـان" بـــدلاً من أن يقول "البشـــر التاريخيين الفعليين". و"الإنســـان" هـــو في واقع الأمـــر "الألماني". وفي الحالـــة الأولـــى، في تأمـــل العالم الحســـي، يصطدم بالضـــرورة بأشـــياء هي في تناقـــض مع وعيه وعاطفته، تعكر تناســـق جميـــع أجزاء العالم الحســـي الذي افترضـــه بصورة مســـبقة، وعلى الأخص تناســـق الإنســـان والطبيعة. وكيمـــا يطرح هذه الأشـــياء، فإنه ملـــزم باللجؤ إلى أســـلوب مزدوج في النظـــر، فهـــو يتأرجح بين أســـلوب في النظـــر عامي لا يـــدرك إلّا "ما هـــو مرئي بالعيـــن المجردة" وأســـلوب في النظر أكثر رفعة، أســـلوب فلســـفي، يدرك "الماهيـــة الحقيقية" للأشـــياء(**). إنه لا يرى أن العالـــم الحســـي الذي يحيط به، ليس موضوعاً معطى بصورة مباشـــرة منذ الأزل ومشـــابه لنفســـه مـــن دون انقطـــاع، بل إنه نتـــاج الصناعـــة ونتاج حالـــة المجتمع، وهـــذا يعني أنه نتـــاج تاريخي، نتيجة لنشـــاط وفعالية مجموعـــة كاملة من الأجيـــال(***) كان كل جيل منها يرتفع علـــى أكتاف الجيل الســـابق، ويحكـــم صناعته وتجارتـــه ويعدِّل نظامـــه الاجتماعي وفقـــاً للحاجات المتغيرة. إن أشـــياء "اليقين الحســـي" الأبســـط ليســـت هي ذاتها معطاة لفويرباخ إلّا بفعل التطور الاجتماعي، والصناعة، والتبـــادل التجـــاري. ومن المعروف أن شـــجرة الكرز، مثلهـــا كمثل جميع الأشـــجار المثمرة على وجه التقريـــب، قد نقلت إلـــى أجوائنا بفعـــل التجارة، قبـــل عدد قليل مـــن القرون، وبالتالـــي فإنها لم

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] "التصور" النظري.

(**) [عند هذا المستوى، كتب إنجلز في العمود الأيمن:] لا تقوم خطيئة فويرباخ في أنه يخضع ما هو مرئي بالعين المجردة، المظهر الحسي، للواقع الحسي المقرر بفضل دراسة أعمق للأوضاع المشخصة، بل تقوم على العكس من ذلك في أنه لا يستطيع في آخر تحليل أن يتغلب على المادية من دون أن ينظر إليها "بالعينين"، يعني من خلال "منظار" الفيلسوف.

(***) [صياغة أخرى في المخطوطة:] إنها في كل حقبة تاريخية نتيجة فعالية مجموعة من الأجيال.

تعـــط "لليقين الحســـي" لفويربـــاخ إلَّابفضـــل هذا الفعـــل الذي مارســـه مجتمع محـــدد في حقبة محددة [*].

وعلـى أيـة حـال، ففـي هـذا التصور الـذي ينظـر إلـى الأشـياء كمـا هـي فعليـاً، وكمـا جـرت فعليـاً، فـإن أيـة قضيـة فلسـفية عميقـة تنحـل بـكل بسـاطة إلـى واقعـة تجريبيـة، كمـا سـنرى ذلـك بمزيـد مـن الوضـوح بعـد قليـل. فلنأخـذ علـى سـبيل المثـال مسـألة هامـة وهـي مسـألة علاقـات الإنسـان والطبيعـة (أو حتـى، كمـا يقـول لنـا ذلـك برونـو فـي الصفحـة ١١٠ [**]، "التناقضـات فـي الطبيعـة وفـي التاريـخ"، فـكأن ثمـة "شـيئين" منفصليـن هنـا، كأن الإنسـان لـم يواجـه علـى الـدوام طبيعـة هـي تاريخيـة، وتاريخـاً هـو طبيعـي). إن هـذه المسـألة، التـي انحـدرت مـن صلبهـا جميـع "الأعمـال العظيمـة التـي لا يسـبر غورهـا[***]" عـن "الجوهـر"و" الوعـي الذاتـي"، ترجـع مـن تلقـاء ذاتهـا إلـى فهـم الواقعـة التاليـة، ألا وهـي أن "وحـدة الإنسـان والطبيعـة" الذائعـة الصيـت قـد وجـدت قائمـة منـذ أقـدم الأزمنـة فـي الصناعـة وتمثلـت بطريقـة مختلفـة، فـي كل حقبـة، وفقـاً لتطـور الصناعـة الأعظـم أو الأقـل؛ وينطبـق الأمـر نفسـه علـى "نضـال" الإنسـان ضـد الطبيعـة، حتـى تمكنـت القـوى المنتجـة لهـذا الإنسـان مـن التطـور علـى أسـاس مناسـب. إن الصناعـة والتجـارة والإنتـاج وتبـادل الحاجـات الضروريـة، تشـترط مـن جانبهـا التوزيـع، وبنيـة الطبقـات الاجتماعيـة المختلفـة، كيمـا تكـون بدورهـا مشـروطة مـن قبـل هـذه الأخيـرة فـي نمـط عملهـا. وهـذا هـو السـبب فـي أن فويربـاخ لا يـرى، فـي مانشسـتر مثـلاً، سـوى فبـارك وآلات حيـث لـم يكـن يوجـد هنـاك، قبـل قـرن واحـد، سـوى دواليـب غـزال وأنـوال، أو أن لا يجـد إلا مـراعٍ ومسـتنقعات فـي الريـف الرومانـي فـي حيـن أنـه فـي حقبـة أوغسـطس مـا كان يمكـن أن يجـد، إلَّا كرومـاً وعِزبـاً للرأسـماليين الرومـان. إن فويربـاخ يتحـدث بصـورة خاصـة عـن تصـور علـم الطبيعـة، ويسـتحضر أسـراراً لا تنكشـف إلَّا لعيـون الفيزيائـي والكيميائـي: لكـن أيـن سـيصبح علم الطبيعـة من دون التجـارة والصناعـة؛ وحتـى هـذا العلـم الطبيعـي ذاتـه الـذي يسـمى "صرفـاً"، أليسـت التجـارة والصناعـة،

(*) [عند هذا المستوى، كتب كارل ماركس في العمود الأيمن:] فويرباخ.

(**) برونو باور: "خصائص لودفيغ فويرباخ"، المجلد الثالث.

(***) إشارة إلى بيت من فاوست لغوته (مقدمة في السماء).

والنشـاط البشـري المـادي، هـي التـي تعيِّـن لـه هدفـاً وتـزوده بالمـواد؟ وهـذا النشـاط، هـذا العمـل، هـذا الخلـق المـادي المتواصـل مـن جانـب البشـر، وباختصـار هـذا الإنتـاج، هوفـي كلمـة، يشـكل أساسـاً للعالـم الحسـي كلـه كمـا هـو موجـود فـي أيامنـا، بدليـل أنَّـه إذا توقـف، ولـو لسـنة واحـدة، فـإن فويربـاخ لـن يجـد تبـدلاً هائـلاً فـي العالـم الطبيعـي فحسـب، بـل سـوف يحـزن سـريعاً أيضـاً علـى فقـدان كل العالـم الإنسـاني وفقـدان قدرتـه بالـذات علـى التأمـل، بـل فقـدان حتـى وجـوده بالـذات. ومـن المفـروغ منـه أن أوليـة الطبيعـة الخارجيـة تظـل قائمـة مـع ذلـك، وهـذا كلـه لا يمكـن بالتأكيـد أن ينطبـق علـى البشـر الأوليـن الذيـن انبثقـوا بالتوالـد العفـوي(*)، لكـن هـذا التفريـق لا يملـك معنـى إلا بقـدر مـا ينظـر إلـى الإنسـان باعتبـاره متميـزاً عـن الطبيعـة. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن هـذه الطبيعـة التـي تسـبق تاريـخ البشـر ليسـت فـي أي حـال مـن الأحـوال الطبيعـة التـي يحيـا فويربـاخ فيهـا؛ إن هـذه الطبيعـة لا وجـود لهـا فـي أي مـكان فـي أيامنـا الحاضـرة، ربمـا باسـتثناء بعـض الجـزر المرجانيـة الاسـترالية الحديثـة التشـكل، وبالتالـي فأنـه لا وجـود لهـا بالنسـبة إلـى فويربـاخ أيضـاً.

ولنعتـرف بـأن فويربـاخ يتفـوق علـى الماديـين "الصرفيـن" تفوقـاً كبيـراً لإدراكـه أن الإنسـان هـو "شـيء حسـي" أيضـاً؛ لكـن فلنـدع جانبـاً حقيقـة أنـه يدركـه بوصفـه "شـيئاً حسـياً" فحسـب وليـس بوصفـه "فعاليـة حسـية"، ذلـك أنَّـه يتمسـك هنـا أيضـاً بالنظريـة ولا يـدرك البشـر فـي صلاتهـم الاجتماعيـة المحـددة، ولا فـي ظـروف الحيـاة المحيطـة بهـم، والتـي تجعلهـم مـن هـم عليـه فـي الواقـع ؛ ومـع ذلـك فإنـه لا يتوصـل فـي تحليلـه مطلقـاً إلـى البشـر الفعلييـن الموجوديـن واقعيـاً، بـل إنـه يتمسـك بتجريـد "الإنسـان"، ولا يتوصـل إلـى الاعتـراف بالإنسـان "الفعلـي، الفـردي، الـذي هـو مـن لحـم ودم" إلَّا فـي العاطفـة؛ وبـكلام آخـر فإنَّـه لا يعـرف أيـة "علاقـات إنسـانية" أخـرى "للإنسـان مـع الإنسـان" إلَّا الحـب والصداقـة، والحـب والصداقـة المصـوران بصـورة مثاليـة أيضـاً. وبالتالـي فإنَّـه لا يقـوم بنقـد شـروط حياتهـم الواقعيـة. وبالتالـي فإنَّـه لا يتوصـل قـط إلـى فهـم العالـم الحسـي مـن حيـث هـو حصيلـة الفعاليـة الحيـة والجسـدية للأفـراد الذيـن يشـكلونه؛ وحيـن يـرى، علـى سـبيل المثـال، بـدلاً مـن البشـر الأصحـاء، عصبـة مـن الجيـاع المجهديـن المصابيـن بـداء الخنازيـر، والمصابيـن بـداء السـل، فإنَّـه مجبـر بـأن يلتجـئ إلـى "تصـور أرفـع للأشـياء" وإلـى

(*) generatio acquivoca، باللاتينية في النص الأصلي.

"التعويض المثالي في النوع"؛ وبالتالي فإنه يسقط من جديد في أحضان المثالية، فيما يرى المادي الشيوعي، في وقت واحد، ضرورة وشرط تحويل الصناعة والبنية الاجتماعية تحويلاً جذرياً على حد سواء.

إن فويرباخ، في حدود كونه مادياً، لا يجعل التاريخ يتدخل قط، وفي حدود إدخاله التاريخ في حسابه، فهو ليس بمادي. إن التاريخ والمادية منفصلان كلياً عنده، الأمر الذي تفسره سلفاً، على أي حال، الأمور التي سبقت(*).

[٣- العلاقات التاريخية ـ أو المظاهرالأساسية للنشاط الاجتماعي:إنتاج وسائل العيش إنتاج حاجات جديدة وإعادة إنتاج البشر(العائلة) والتعامل الاجتماعي و الوعي]

وليس لنا بد، مع الألمان المجردين عن أية مقدمات، من أن نبدأ بتقرير المقدمة الأولى للوجود البشري بكامله، وبالتالي للتاريخ كله(**)، ألا وهي المقدمة القائلة أنه يجب أن تتوافرللبشر إمكانية العيش لكي يكون في مقدورهم أن "يصنعوا التاريخ"(***). بيد أن الحياة تشتمل قبل كل شيء على المأكل والمشرب والمسكن والملبس وأشياء عديدة أخرى. وهكذا فإن العمل التاريخي الأول هو إنتاج الوسائل الضرورية لأجل تلبية هذه الحاجات، إنتاج الحياة المادية ذاتها. علماً أن هذا العمل هو عمل تاريخي، وشرط أساسي للتاريخ بكامله، لا بد من تحقيقه في اليوم الحاضر وفي كل ساعة، مثلما كانت الحال قبل آلاف السنين،وذلك من أجل الإبقاء على الحياة الإنسانية. وحتى حين يرجع الواقع الحسي إلى

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إذا درسنا على أية حال التاريخ هنا بمزيد من الدقة فذلك لأن الألمان اعتادوا، عندما يسمعون كلمتي "تاريخ" و"تاريخي"، أن يتصوروا جميع الأمور الممكنة والمتخيلة، لكن من دون الواقع بصورة خاصة، وإن القديس برونو، "هذا الخطيب ذا البلاغة المقدسة"، يقدم لنا مثالاً لامعاً عن هذه العادة.

(**) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] تاريخ.

(***) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] هيغل، الظروف الجيولوجية، والهيدروغرافية، الخ، الأجسام البشرية، الحاجة. العمل.

الحـد الأدنـى، إلـى عصا كمـا هـي الحـال لـدى القديـس برونـو(*)، فإنـه يفتـرض بصـورة مسـبقة الفعاليـة التـي تنتـج هـذه العصـا. ولـذا كان لا بـد للمـرء قبـل كل شـيء، فـي أي تصـور للتاريـخ، أن يلاحـظ هـذه الحقيقـة الأساسـية فـي كل مغزاهـا وفـي جميـع محتوياتهـا، وأن يمنحهـا مـا تسـتحق مـن أهميـة. ومـن المعـروف جيـداً أن الألمـان لـم يفعلـوا ذلـك قـط، وبالتالـي فإنهـم لـم يملكـوا يومـاً أساسـاً دنيويـاً لأجـل التاريـخ، الأمـر الـذي ترتـب عليـه أنـه لـم يكـن لديهـم مـؤرخ واحـد قـط. وإن الفرنسـيين والإنكليـز، وإن كانـوا قـد أدركـوا بصـورة بالغـة الضيـق ووحيـدة الجانـب صلـة هـذه الحقيقـة بمـا يسـمى التاريـخ، وعلـى الأخـص بقـدر مـا ظلـوا أسـرى الإيديولوجيـة السياسـية، فقـد قامـوا مـع ذلـك بالمحـاولات الأولـى مـن أجـل إعطـاء كتابـة التاريـخ أساسـاً ماديـاً، وذلـك حيـن كانـوا السـباقين إلـى كتابـة تواريـخ المجتمـع المدنـي، والتجـارة، والصناعـة.

والنقطـة الثانيـة هـي أن تلبيـة الحاجـات الأولـى (عمـل التلبيـة وأداة التلبيـة التـي تـم اكتسـابها) تدفـع إلـى حاجـات جديـدة - وهـذا الإنتـاج لحاجـات جديـدة هـو الفعـل التاريخـي الأول. وإننـا لنتعرف هنـا فـي الحـال علـى المـادة التـي صنعـت منهـا الحكمـة التاريخيـة العظمـى التـي يتحلـى بهـا الألمـان، هـؤلاء الذيـن إذا افتقـروا إلـى المـادة الإيجابيـة أو لـم يتمكنـوا مـن المجادلـة فـي السـخافات اللاهوتيـة أو السياسـية أو الأدبيـة، راحـوا يؤكـدون أن هـذا ليـس بالتاريـخ فـي أي حـال مـن الأحـوال، بـل "حقـب مـا قبـل التاريـخ" ليـس إلَّا. وعلـى أيـة حـال، فإنهـم لا يفسـرون لنـا كيـف ننتقـل مـن هـذه السـخافة "لمـا قبـل التاريـخ" إلـى التاريـخ بـكل مـا للكلمـة مـن معنـى؛ هـذا بالرغـم مـن أن تأملهـم التاريخـي يتشـبث، مـن جهـة ثانيـة، "بمـا قبـل التاريـخ" هـذا بلهفـة خاصـة، متوهمـاً أنـه فـي مأمـن إذن، مـن تعديـات "الوقائـع الفجـة"، ولأنـه يسـتطيع هنالـك أن يطلـق فـي الوقـت ذاتـه العنـان لغريزتـه التأمليـة، وأن ينشـئ الفرضيـات بـالآلاف ويحطمهـا.

إن العلاقـة الثالثـة التـي تتدخـل هنـا فـي التطـور التاريخـي منـذ البدايـة هـي أن البشـر،الذين يصنعـون مـن جديـد حياتهـم الخاصـة فـي كل يـوم، يشـرعون فـي خلـق بشـر آخريـن، فـي التكاثـر: تلـك هـي العلاقـة بيـن الرجـل والمـرأة، بيـن الأهالـي والأولاد،العائلـة. وإن هـذه العائلـة التـي كانـت فـي الأصـل العلاقـة الاجتماعيـة الوحيـدة تصبـح فـي وقـت لاحـق، عندمـا تخلـق الحاجـات

(*) إشارة إلى نظرية لبرونو باور.

المتعاظمة علاقات اجتماعية جديدة وتخلق زيادة السكان حاجات جديدة، تصبح بالتالي علاقة ثانوية (إلّا في ألمانيا)، وبنتيجة ذلك فأنه يجب أن نعالج ونحلل موضوع هذه العائلة وفقاً للوقائع التجريبية القائمة، وليس وفقاً "لمفهوم العائلة" كما هي العادة في ألمانيا.

ومما لا ريب فيه أنه لا يجوز اعتبار هذه المظاهر الثلاثة للنشاط الاجتماعي على أنها ثلاث مراحل مختلفة، بل على أنها مظاهر ثلاثة فحسب، أو - إذا شئنا أن نستخدم لغة واضحة بالنسبة إلى الألمان - ثلاث "لحظات" توطدت منذ فجر التاريخ ومنذ البشر الأولين، وهي لا تزال تتجلى كظاهرة في التاريخ أيضاً.

إن إنتاج الحياة، سواء حياة المرء الخاصة بالعمل أم الحياة الخاصة بالتناسل، يتبدى مظهرها على أنها علاقة مزدوجة، كعلاقة طبيعية من جهة، وكعلاقة اجتماعية من جهة ثانية، وإننا نقصد بالعلاقة الاجتماعية هنا النشاط المشترك لأفراد عديدين، بصرف النظر عن ظروف هذا النشاط وطريقته وغايته. ويترتب على ذلك أن نمطاً معيناً للإنتاج، أو مرحلة صناعية معينة، تتداخل على الدوام مع نمط معين للتعاون، أو مرحلة اجتماعية معينة، وهذا النمط للتعاون هو بحد ذاته "قوة منتجة". ويترتب على ذلك أيضاً، أن كتلة القوى المنتجة التي هي في متناول البشر تحدد الحالة الاجتماعية، وبالتالي فإن "تاريخ البشرية" يجب أن يدرس ويعالج دائماً في علاقته بتاريخ الصناعة وعلاقات التعامل. بيد أنه من الواضح أيضاً أنه من المحال في ألمانيا كتابة مثل هذا التاريخ، لأن الألمان لا يفتقرون إلى القدرة على تصوره وإلى المواد فحسب، بل يفتقرون أيضاً إلى "اليقين الحسي"، ذلك أنه لا يمكن إجراء التجارب على هذه الأمور في الجانب الآخر من الراين ما دام التاريخ قد توقف هناك. وهكذا، فإنه من الجلي تماماً منذ البداية أن ثمة رابطة مادية تجمع البشر ببعضهم بعضاً تتحدد بحاجاتهم ونمط إنتاجهم، وهي قديمة قدم البشر ذاتهم- وإن هذه الرابطة لتتخذ على الدوام أشكالاً جديدة، وبذلك تمثل "تاريخاً" حتى من دون أن يوجد بعد أي هراء سياسي أو ديني يحقق علاوة على ذلك التماسك بين البشر.

الآن فقط، بعدما، أخذنا بعين الاعتبار أربع لحظات، أربعة مظاهر للعلاقات التاريخية الأولية، نجد أن الإنسان يملك "وعياً"(*) أيضاً؛ بيد أنه ليس على أي حال بالوعي الأصيل،

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] إن للبشر تاريخاً لأن عليهم أن ينتجوا حياتهم،=

ليس بالوعي "الصرف" منذ الوهلة الأولى. فمنذ البداية تثقل لعنة على "الروح"، لعنة "أثقال" المادة عليها، هذه المادة التي تتجلى ظاهرتها هنا في صورة طبقات مضطربة من الهواء، والأصوات، وباختصار في صورة اللغة. إن اللغة قديمة قدم الوعي، فاللغة هي الوعي الفعلي، العملي، الموجود أيضاً من أجل البشر الآخرين، وبالتالي موجود إذن، كذلك بصورة فعلية من أجلي فقط. فاللغة إنما تنشأ، مثلها مثل الوعي، من الحاجة، من الضرورة الملحة للتعامل مع البشر الآخرين(*). فهي موجودة بالنسبة إليَّ حيثما توجد علاقة؛ إن الحيوان "ليس في علاقة" مع أي شيء، لا يقيم أية علاقة على الإطلاق. فعلاقات الحيوان بالحيوانات الأخرى لا توجد بالنسبة إليه على أنها علاقات. وهكذا فإن الوعي، منذ البداية، نتاج اجتماعي، وهو يبقى كذلك طالما بقي البشر. ومن المفروغ منه أن الوعي هو، بادئ الأمر، مجرد إدراك للبيئة الحسية الأقرب وإدراك الرابطة المحدودة مع الأشخاص الآخرين والأشياء الموجودة خارج الفرد الذي بدأ يدرك ذاته. وفي الوقت ذاته، فإنه إدراك للطبيعة التي تنتصب بادئ الأمر في وجه البشر على أنها قوة غريبة كلياً، فائقة القدرة، تامة المنعة، يتصرف البشر حيالها بطريقة حيوانية صرفة، وهم يرهبون جانبها مثل الحيوانات. وبنتيجة ذلك فإنه وعي حيواني صرف للطبيعة (الدين الطبيعي(**)). وإن إدراك ضرورة الارتباط مع الأفراد من حوله يشكل من جهة أخرى، بالنسبة إلى الإنسان، بداية الوعي بأنه يحيا في

= وفضلاً عن ذلك لأن عليهم أن ينتجوها بطريقة محددة. وهذا ما يقرره تنظيمهم الجسدي : وإن وعيهم ليتحدد بالطريقة ذاتها على وجه الدقة.

[صياغة ثانية في المخطوطة:] إننا نجد أن الإنسان يملك فيما يملكه "الروح"، وإن هذا "الروح" "يتجلى كظاهرة" بوصفه وعياً.

(*) [إن الكلمات التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن وعيي هو علاقتي بالبيئة المحيطة بي.

(**) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] نرى في الحال أن هذا الدين الطبيعي، أو هذه العلاقات المعينة حيال الطبيعة، مشروطة بشكل المجتمع والعكس بالعكس. فهنا، كما هي الحال في كل مكان آخر، تظهر هوية الإنسان والطبيعة في هذا الشكل أيضاً، ألا وهو أن سلوك البشر المحدود حيال الطبيعة يشرط سلوكهم المحدود فيما بينهم، وأن سلوكهم المحدود فيما بينهم يشرط بدوره علاقاتهم المحدودة مع الطبيعة، بالضبط لأن الطبيعة تكاد ألاَّ تكون قد تعرضت لأي تغيير من قبل التاريخ، =

مجتمع. وإن هذه البداية تتسم بطابع حيواني مثلها مثل الحياة الاجتماعية ذاتها في هذه المرحلة. إنه وعي قطيعي (Tribale) صرف، ولا يتميز الإنسان عن الخروف في هذه النقطة إلَّا بالحقيقة التالية، ألا وهي أن الوعي يتخذ عنده مكان الغريزة، أو أن غريزته هي غريزة واعية. وإن هذا الوعي القطيعي أو القبلي يحقق تطوره وتوسعه اللاحقين من خلال الإنتاجية المتعاظمة، وازدياد الحاجات وزيادة السكان التي هي في أساس العنصرين السابقين. ويتطور مع هذه الأمور تقسيم العمل الذي لم يكن في الأصل سوى تقسيم للعمل على صعيد الفعل الجنسي، ومن بعد أصبح ذلك التقسيم للعمل يتطور تلقائياً و"طبيعياً" بفضل الصفات الطبيعية (القوة الجسدية على سبيل المثال)، والمصادفة والحاجات، الخ، الخ(*). ولا يصبح تقسيم العمل فعلياً إلاَّ انطلاقاً من اللحظة التي يحدث فيها تقسيم للعمل المادي والفكري(**) وابتداء من تلك اللحظة يستطيع الوعي أن يتباهى فعلاً بأنه شيء يختلف عن وعي الممارسة القائمة، وأنه يمثل فعلاً شيئاً ما من دون أن يمثل شيئاً فعلياً؛ إن الوعي هو من الآن فصاعداً في مركز يستطيع فيه أن يتحرر من العالم، وأن ينصرف إلى تكوين النظرية "الصرفة"، اللاهوت، والفلسفة، والأخلاق، الخ. لكن حتى إذا دخلت هذه النظرية، من لاهوت وفلسفة وأخلاق، الخ. في تناقض مع العلاقات القائمة، فإن هذا لا يمكن أن يحدث إلَّا لأن العلاقات الاجتماعية القائمة قد دخلت في تناقض مع القوى المنتجة القائمة؛ وإن هذا ليمكن أن يحدث، فضلاً عن ذلك، في مجال وطني معين من العلاقات لأن التناقض في هذه الحال يحدث ليس ضمن هذا المجال الوطني، بل بين هذا الوعي الوطني وممارسة الأمم الأخرى(***)، يعني بين الوعي الوطني والوعي العام لأمة ما (كما نرى ذلك في ألمانيا

(*) [ملاحظة مشطوبة بيد ماركس في العمود الأيمن:] يتطور وعي البشر في إطار التطور التاريخي الفعلي.

(**) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] ومع هذا يتطابق النمط الأول للإيديولوجيين الكهنة.

(***) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] الدين، الألمان والإيديولوجية في حد ذاتها.

[إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] النشاط والفكر يعني النشاط من دون فكر وفكر من دون نشاط.

حالياً)، ويبدو إذن، بالنسبة إلى هذه الأمة، بالضبط لأن التناقض لا يمثل في المظهر إلا بوصفه تناقضاً في أحشاء الوعي الوطني، أن الصراع يبدو على هذه القذارة الوطنية، بالضبط لأن هذه الأمة هي التعفن في ذاته. وفيما عدا ذلك، فلا أهمية على الإطلاق لما سوف يباشر الوعي صنعه من تلقاء ذاته.

إن كل ما نحصل عليه من هذا العفن كله هوالاستدلال بأن هذه المظاهرالثلاث، القوى المنتجة والحالة الاجتماعية والوعي، يمكن ويجب أن تدخل في تناقض فيما بينها، لأن تقسيم العمل يجعل من الممكن، وبالأحرى، من الواقعي أن يؤول النشاط الفكري والنشاط المادي المتعة والعمل، الإنتاج والاستهلاك- إلى أفراد مختلفين يقتسمونه فيما بينهم، ولأن الإمكانية الوحيدة لعدم قيام التناقض بين هذه العناصر تكمن في نقض تقسيم العمل من جديد. وفيما عدا ذلك، فإنه من البديهي أن "الأشباح" و"الروابط" و"الكائن الأعلى" و"المفهوم" و"الأوهام"(*)، هي مجرد تعبير ذهني مثالي، تأملي، تصور الظاهري للفرد المنعزل، تصور قيود وتحديدات تجريبية جداً يتحرك ضمنها نمط إنتاج الحياة وشكل التعامل المقترن به(**).

[٤- التقسيم الاجتماعي للعمل وعواقبه:الملكية الخاصة والدولة و"اغتراب" النشاط الاجتماعي]

إن هذا التقسيم للعمل، الذي تنطوي فيه جميع هذه التناقضات، والذي يرتكز بدوره على تقسيم العمل الطبيعي في العائلة وانفصال المجتمع إلى عائلات مفردة ومتعارضة فيما بينها، يتضمن بصورة متزامنة توزيع العمل ومنتجاته، وهو توزيع غير متكافئ في واقع الأمر، كمياً وكيفياً على حد سواء؛ وبالتالي فإنه يتضمن الملكية التي تقوم نواتها، شكلها الأول، في

(*) تعابير يستخدمها الهيغليون الشباب، وشترنر بصورة خاصة.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن هذا التعبير المثالي عن الحدود الاقتصادية القائمة ليس تعبيراً نظرياً صرفاً فحسب، بل هو قائم كذلك في الوعي الفعلي، يعني أن الوعي الذي يتحرر والذي يدخل في تناقض مع نمط الإنتاج القائم لا يشكل ديانات وفلسفات فحسب، بل دولاً أيضاً.

العائلـة حيـث الزوجـة والأولاد عبيـد الرجـل. إن هـذه العبوديـة، بالرغـم مـن أنهـا لا تـزال بدائيـة جـداً وكامنـة فـي العائلـة هـي الملكيـة الأولـى، التـي كانـت تتطابـق كليـاً، مـع ذلـك، حتـى فـي هـذا الشـكل، مـع تعريـف الاقتصادييـن المحدثيـن الذيـن يسـمونها القـدرة علـى التصـرف بقـوة عمـل الآخريـن. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن تقسـيم العمـل والملكيـة الخاصـة تعبيـران متماثـلان، يعبِّـر الأول فيمـا يتعلـق بالنشـاط عمـا يعبِّـر الثانـي عنـه فيمـا يتعلـق بنتـاج هـذا النشـاط.

وعـلاوة علـى ذلـك فـإن تقسـيم العمـل ينطـوي فـي الوقـت ذاتـه علـى التناقـض بيـن مصلحـة الفـرد المنعـزل أو العائلـة الفرديـة والمصلحـة الجماعيـة لجميـع الأفـراد الذيـن يقـوم تعامـل فيمـا بينهـم. والأكثـر مـن ذلـك أن هـذه المصلحـة الجماعيـة لا توجـد فـي المخيلـة وحدهـا مثـلاً بوصفهـا "مصلحـة عامـة" فحسـب، بـل أيضـاً، وفـي المقـام الأول، بوصفهـا تبعيـة متبادلـة بيـن أفـراد تـم تقسـيم العمـل فيمـا بينهـم.

وإن هـذا التناقـض بالـذات بيـن المصلحـة الفرديـة والمصلحـة الجماعيـة هـو الـذي يدفـع هـذه المصلحـة الجماعيـة لأن تتخـذ شـكلاً مسـتقلاً علـى اعتبارهـا الدولـة، وهـو شـكل مسـتقل عـن المصالـح الفعليـة الفرديـة والجماعيـة، ولأن تتخـذ فـي الوقـت ذاتـه صـورة الجماعـة الوهميـة، لكـن الجماعـة القائمـة بصـورة دائمـة على الأسـاس المشـخص للروابـط الموجودة في كل تجمـع عائلي وقبلـي - كروابط اللحـم والـدم، واللغـة، وتقسـيم العمـل علـى نطـاق واسـع، وغيـر ذلـك مـن المصالـح؛ وإننـا لنجـد بصورة خاصـة بيـن هـذه المصالـح، كمـا سنشـرح ذلـك أدنـاه، مصالـح الطبقـات المشـروطة مسـبقاً بتقسـيم العمـل، هـذه الطبقـات التـي تنفصـل فـي كل تجمـع مـن هـذا النـوع، والتـي تسـود إحداهـا علـى جميع الطبقـات الأخـرى. ويترتـب علـى ذلـك أن جميـع الصراعـات داخـل الدولـة، الصـراع بيـن الديموقراطيـة والأرسـتقراطية والملكيـة، والصـراع مـن أجـل حـق الاقتـراع، الـخ، الـخ، ليسـت سـوى الأشـكال الوهميـة التـي تجـري فيهـا الصراعـات الفعليـة للطبقـات المختلفـة فيمـا بينهـا (وليـس لـدى المنظريـن الألمـان أوهـى فكـرة عـن هـذا الأمـر، بالرغـم مـن حصولهـم علـى مدخـلٍ كافٍ إلـى الموضـوع فـي الحوليـات الألمانيـة الفرنسـية وفـي العائلـة المقدسـة[٨]). ويترتـب علـى ذلك أيضـاً أن كل طبقة تطمح إلى السـيادة، حتـى إذا كانـت سـيادتها تفتـرض، كمـا هـي الحـال بالنسـبة إلـى البروليتاريـا، نقـض الشـكل القديـم

للمجتمع بكليته ونقض هذه السيادة بالذات، يجب عليها وقبل كل شيء أن تظفر لنفسها بالسلطة السياسية، بدورها واعتبار مصلحتها على أنها المصلحة العامة، وهو أمر لا مناص من القيام به بادئ الأمر.

ولما كان الأفراد لا يطلبون إلا مصلحتهم الخاصة وحدها- التي لا تتطابق بالنسبة إليهم مع مصلحتهم الجماعية، نظراً لأن العمومي ليس في آخر الأمر سوى شكل وهمي للحياة الجماعية- فإن هذه المصلحة الأخيرة سوف تمثل، لهذا السبب بالضبط، على اعتبارها مصلحة "غريبة" عليهم و"مستقلة" عنهم، وهي بدورها مصلحة "عامة" خاصة وخصوصية؛ أو يجب عليهم أن يبقوا في إطار هذه الازدواجية، كما هي الحال في الديموقراطية. ومن جهة أخرى أيضاً، فإن الصراع العملي لهذه المصالح الخاصة، التي تتعارض باستمرار بصورة فعلية مع المصالح الجماعية والموهومة بأنها جماعية، مما يجعل التدخل العملي والكبح للمصالح المتميزة من جانب المصلحة "العامة" الوهمية التي تبرز قي شكل الدولة أمرين ضروريين.

وأخيراً، فإن تقسيم العمل يقدم لنا في الحال المثال الأول على الحقيقة التالية: ما دام البشر باقين في المجتمع الطبيعي، يعني ما دام هناك انشقاق بين المصلحة الخاصة والمصلحة المشتركة، وكذلك ما دام النشاط غير مقسم بصورة إرادية، بل بصورة طبيعية، فإن عمل الإنسان الخاص يتحول إلى قوة غريبة معارضة له، تستعبده بدلاً من أن تكون خاضعة لسيطرته. ذلك أنه حالما يقوم توزيع العمل، فإن كل امرئ يحصل على مجال محدد للنشاط، مجال حصري، وهو مجال يُفرض عليه ولا يستطيع الإفلات منه. إنه قناص، أو صياد، أو راع، أو ناقد نقدي[٩]، ولا بد له أن يثابر على ذلك إذا لم يكن راغباً في فقدان وسائل عيشه. أما في المجتمع الشيوعي، حيث لكل فرد نشاط محصور به وحده، بإمكانه أن يتطور في الميدان الذي يروق له، فالمجتمع ينظم الإنتاج العام، وبذلك يتيح لي أن أفعل هذا الشيء اليوم، وذلك الشيء الآخر في الغد؛ يمكنني القيام بالصيد البري ظهراً، وبصيد الأسماك بعد الظهر، والقيام بتربية الماشية مساءً، وأن أمارس النقد بعد العشاء، حسب ما يروق لي، من دون أن أصبح قط صياداً أو راعياً أو ناقداً.

إن هذا التثبيت للنشاط الاجتماعي، هذا التحجر لمنتجنا الخاص في قوة موضوعية تعلو وتفلت من رقابتنا، تخالف توقعاتنا وتفسد حساباتنا، هو أحد العوامل الرئيسية في عموم التطور التاريخي حتى يومنا الحاضر(*). وإن القوة الاجتماعية، يعني القوة المنتجة المتضاعفة، التي تنبثق من النشاط المشترك لأفراد مختلفين والذي يشترطه تقسيم العمل، وتبدو هذه القوة الاجتماعية بالنسبة لهؤلاء الأفراد، بحكم أن النشاط المشترك ذاته ينبثق عفوياً وليس بصورة طوعية واختيارية، لا كقوة موحدة خاصة بهم بل كسلطة غريبة قائمة خارجاً عنهم، هم جاهلون بأصلها وهدفها، وبالتالي فهم عاجزون عن التحكم فيها، بل هي على النقيض من ذلك تجتاز سلسلة خاصة من أطوار التطور ومراحله المستقلة جداً عن إرادة الإنسانية ومسيرتها، بحيث تتحكم في هذه المسيرة وتلك الإرادة. وكيف يمكن لولا ذلك أن يكون للملكية ـ على سبيل المثال ـ تاريخ في أي حال من الأحوال، وأن تكون اتخذت أشكالاً مختلفة؟ مثلاً كيف يمكن أن تكون الملكية العقارية، وفقاً للشروط المختلفة الماثلة، قد تقدمت في فرنسا من التجزئة إلى التمركز بين أيدي القليلين، وفي إنكلترا من التمركز بين أيدي القليلين إلى التجزئة، كما هي الحال فعلياً في الوقت الراهن؟ أو كيف يحدث أن التجارة، التي ليست هي في آخر الأمر شيئاً أكثر من تبادل منتجات أفراد مختلفين وبلدان مختلفة، تتحكم من خلال علاقة العرض والطلب في العالم كله - وهي علاقة تحوم فوق العالم، على حد تعبير اقتصادي إنكليزي، مثل قدر الأقدمين، وتوزع بيد خفية السعادة والتعاسة على البشر، وتنشىء أمبراطوريات وتدمر أخرى، وتسبب قيام الأمم وزوالها - بينما تنحل قوة العرض والطلب وتذهب هباء منثوراً مع نقض الأساس الذي هو الملكية الخاصة، وقيام التنظيم الشيوعي للإنتاج الذي ينقض عند الإنسان ذلك الشعور بأنه يقف حيال منتجه الخاص وكأنه يقف أمام قوة غريبة [Fremdheit]. وعندئذ يستعيد البشر السيطرة على التبادل والإنتاج ونمط العلاقة المتبادلة ما بينهم.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وفي الملكية، التي هي بادئ الأمر مؤسسة أنشأها البشر أنفسهم، سرعان ما تعطي المجتمع هيئة جديدة لم يردها في أي حال من الأحوال صناعها الأصليون، وهي واضحة بشكل مجرد أمام عيني كل من لم يتعثر بصورة نهائية في "الوعي الذاتي" أو "الأوحد".

[٥ - تطور القوى المنتجة كمقدمة مادية للشيوعية]

إن هـذا "الاغتـراب" [Entfremdung] (كـي نسـتخدم عبـارة مفهومـة لـدى الفلاسـفة) لا يمكـن طبعـاً نقضـه إلّا بتوافـر شـرطين عمليين. فحتـى يصبـح هـذا الاغتـراب قـوة "لا تطـاق"، يعنـي قـوة يقـوم البشـر بثـورة ضدهـا، ينبغـي أن يحـول السـواد الأعظـم من البشـرية إلـى كتلـة "محرومـة مـن الملكيـة" كليـاً، وبالتالـي تجـد نفسـها فـي الوقـت ذاتـه فـي تناقـض مـع عالـم مـن الثـراء والثقافـة قائـم فعليـاً، وهمـا شـيئان يفتـرض كلاهمـا نمـواً هائـلاً للقـوة المنتجـة، ودرجـة رفيعـة لتطورهـا. ومـن جهـة أخـرى، فـإن هـذا التطـور للقـوى المنتجـة (الـذي يتضمـن سـلفاً أن وجـود البشـر التجريبـي الفعلـي يجـري علـى صعيـد التاريـخ العالمـي بـدلاً مـن أن يجـري علـى صعيـد الحيـاة المحلـي)، وهـو شـرط ومقدمـة عمليـة ضروريـة مطلقـة، لأن الفاقـة هـي التـي تصبـح مـن دونـه عامـة، ولا بـد مـع الإمـلاق مـن تجـدد الصـراع مـن أجـل الضروريـات ومـن السـقوط مجـدداً فـي القمامـة القديمـة. وفضـلاً عـن ذلـك فإنـه شـرط عملـي لازم، لأن التعامـل الكلـي بيـن البشـر لا يمكـن أن ينشـأ إلّا بفعـل هـذا التطـور الكلـي للقـوى المنتجـة، ولأنـه يولـد مـن جهـة لـدى جميـع الأمـم بصـورة متزامنـة ظاهـرة الكتلـة "المحرومـة مـن الملكيـة" (التنافـس العـام)، ويجعـل مـن بعـد كل أمـة رهنـاً بثـورات الأمـم الأخـرى، وقـد وضـع أخيـراً البشـر الكلّييـن تجريبيـاً، الذيـن يحيـون التاريـخ العالمـي، مـكان الأفـراد الذيـن يحيـون علـى الصعيـد المحلـي. ومـن دون ذلـك، ١- لا يمكـن للشـيوعية أن توجـد إلّا علـى اعتبارهـا ظاهـرة محليـة؛ ٢- مـا كان يمكـن لقـوى التعامـل نفسـها أن تتطـور علـى أنهـا قـوى كليـة، وبالتالـي قـوى لا تحتمـل؛ لقـد كانـت تظـل "ظروفـاً" داخليـة مطوقـة بالأوهـام المحليـة؛ ٣- إن مثـل هـذا التوسـع للتعامـل سـوف ينقـض الشـيوعية المحليـة. فـلا تكـون الشـيوعية ممكنـة تجريبيـاً إلا علـى اعتبارهـا فعـلاً تقـوم بـه الأمـم السـائدة "دفعـة واحـدة" وبصـورة متزامنـة، الأمـر الـذي يفتـرض بصـورة مسـبقة التطـور الكلّـي للقـوة المنتجـة والتعامـل العالمـي الوثيـق الصلـة بالشـيوعية.

ليسـت الشـيوعية بالنسـبة إلينـا حالـة يجـب خلقهـا، مثـلاً أعلـى ينبغـي للواقـع أن يتطابـق معـه.

إننـا ندعـو الشـيوعية الحركـة الواقعيـة التـي تنقـض الأوضـاع القائمـة. وإن شـروط هـذه الحركـة(*) لتنتـج عـن المقدمـات الموجـودة فـي الوقـت الراهـن.

وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن كتلـة الشـغيلة المعدميـن - وهـم قـوة عمـل كتليـة منفصلـة عـن رأس المـال وعـن كل مجـال تلبيـة الحاجـات المحـدودة نفسـها- تفتـرض السـوق العالميـة، مثلمـا يفترضـه فقـدان هـذا العمـل بالـذات علـى اعتبـاره مصـدراً مأمونـاً للحيـاة، وهـو فقـدان ليـس مؤقتـاً، فقـدان ينتـج عـن التنافـس. وهكـذا فـإن البروليتاريـا(**) لا يمكـن أن توجـد إلاَّ علـى صعيـد التاريـخ العالمـي، تمامـاً كمـا أن الشـيوعية، التـي هـي نشـاطها، لا يمكـن أن تصـادف علـى الإطـلاق إلَّا مـن حيـث هـي وجـود "تاريخـي عالمـي". الوجـود التاريخـي العالمـي للأفـراد، وبـكلام آخـر وجـود الأفـراد المرتبـط مباشـرة بالتاريـخ العالمـي.

***

إن شـكل التعامـل المشـروط بالقـوى المنتجـة الموجـودة فـي جميـع المراحـل التاريخيـة السـابقة، والمعيـن بـدوره لهـذه المراحـل، هـو المجتمـع المدنـي. وإن لهـذا المجتمـع المدنـي، كمـا يتضـح ممـا قلنـاه أعـلاه، مقدماتـه وأسسـه فـي العائلـة البسـيطة والمركبـة، مـا يسـمى العشـيرة، وإن العوامـل المقـررة الأكثـر دقـة لهـذا المجتمـع قـد عـددت فـي ملاحظاتنـا أعـلاه. وإنـه لمـن الواضـح سـلفاً أن هـذا المجتمـع المدنـي يشـكل البـؤرة الحقيقيـة، المسـرح الحقيقـي للتاريـخ كلـه، كمـا يتبيـن مقـدار سـخف التصـور السـابق للتاريـخ، هـذا التصـور الـذي يهمـل العلاقـات الواقعيـة ويقتصـر علـى الأحـداث التاريخيـة والسياسـية الرنانـة(***).

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] يجب أن تقدر هي نفسها وفقاً للواقع المادي.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] نفترض إذن أن للتاريخ الكلي وجوداً تجريبياً عملياً.

(***) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] أخذنا بعين الاعتبار بصورة رئيسية حتى الآن مظهراً واحداً فقط للنشاط الإنساني، ألا وهو عمل البشر في الطبيعة. أما المظهر الآخر، عمل البشر في البشر(أ)...

أ [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] التعامل وقوة الإنتاج.

[٦ - استنتاجات من التصور المادي للتاريخ : التاريخ كعملية مستمرة وتحول التاريخ إلى تاريخ عالمي ـ ضرورة الثورة الشيوعية]

ليس التاريخ سوى تعاقب أجيال مختلفة يستثمر كل جيل منها المواد ورؤوس الأموال والقوى المنتجة التي تنقلها إليه الأجيال السابقة؛ ومن جراء ذلك، فإن كل جيل يواصل إذن، من جهة، نمط النشاط المنقول إليه، ولكن في ظروف متحولة جذرياً، ومن جهة ثانية، يعدل الظروف القديمة بانخراطه في نشاط مختلف جذرياً؛ وإن هذه الوقائع لتفسد في التصور التأملي حين يجعل التاريخ الأحدث هدفاً للتاريخ السابق. وهكذا ينسب إلى اكتشاف أميركا، على سبيل المثال، الهدف التالي: مساعدة الثورة الفرنسية على الانفجار؛ وبهذه الصورة يعين للتاريخ أهدافه الخصوصية ويصبح "شخصاً إلى جانب أشخاص آخرين" (ألا وهم "الوعي الذاتي، والنقد، والأوحد،" الخ). في حين أن ما يقصد بعبارات "التحديد" و"الهدف" و"البذرة" و"الفكرة" التاريخ المنصرم لا يعدو كونه تجريداً للتاريخ السابق، تجريداً من التأثير الفاعل الذي يمارسه التاريخ السابق على التاريخ الأحدث(*).

والحال أنه بقدر ما تتعاظم في سياق هذا التطور المجالات الفردية التي تتبادل التأثير، تتعرض لمزيد من الدمار العزلة البدائية للأمم المختلفة من جراء نمط الإنتاج المتقدم، وعلاقات التعامل، وما يترتب على ذلك بصورة عفوية من تقسيم للعمل بين الأمم، ويتحول التاريخ أكثر فأكثر إلى تاريخ عالمي ؛ بحيث إنه إذا اخترعت في إنكلترا آلة، تنتزع في الهند والصين من آلاف الشغيلة خبزهم وتقلب كل شكل وجود هاتين الامبراطوريتين، ويصبح هذا الاختراع حقيقة من حقائق التاريخ العالمي. وإن السكر والبن قد أثبتا بالطريقة عينها أهميتهما بالنسبة إلى التاريخ العالمي في القرن التاسع عشر من جراء أن النقص في هاتين المادتين، الناجم عن الحصار القاري الذي فرضه نابوليون، قد أدى إلى انتفاضة الألمان ضده، وبذلك أصبح الأساس المشخص لحرب التحرر المجيدة في عام ١٨١٣. ويترتب

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] لا شيء آخر سوى تجريد مستخرج من التاريخ اللاحق، مستخرج من نتيجة ونتاج الأحداث التي يبحث فيها على وجه الدقة عن هذه الأسرار.

علـى ذلـك أن هـذا التحـول للتاريـخ إلـى تاريـخ عالمـي ليـس مجـرد حقيقـة مجـردة "للوعـي الذاتـي" مثلاً، أو روح العالـم، أو أي شـبح ميتافيزيقـي آخـر، بـل فعـلٌ مـاديٌّ بصـورة خاصـة يمكـن التحقـق منـه بصـورة تجريبيـة، فعـلٌ يقـدم كل فـرد الدليـل عليـه، باعتبـار أنـه طاعـم وشـارب وكاس(*).

وفـي الحقيقـة أنـه مـن الحقائـق التجريبيـة فـي التاريـخ حتـى الوقـت الراهـن أن الأفـراد المنفصليـن قـد اسـتعبدوا بصـورة متعاظمـة، مـع توسـع نشـاطهم إلـى صعيـد التاريـخ العالمـي، لقـوة غريبـة عنهـم (وهـو ضغـط قـد حسـبوه لعبـة قـذرة مـن جانـب مـا يسـمى روح العالـم، الـخ،)، وهـي قـوة تضخمـت أكثـر فأكثـر، وتبيـن آخـر الأمـر أنهـا السـوق العالميـة. لكـن مـن المعلـل تجريبيـاً بصـورة لا تقـل عـن ذلـك أن هـذه القـوة، التـي تثيـر عنـد المنظريـن الألمـان البائسـين هـذه الحيـرة كلهـا، سـوف تُنقـض بفعـل قلـب الحالـة الاجتماعيـة القائمـة مـن قبـل الثـورة الشـيوعية (التـي سـيرد المزيـد عنهـا أدنـاه)، وتنقـض الملكيـة الخاصـة التـي تشـكل معهـا كلاً واحـداً؛ زد علـى ذلـك، إن تحـرر كل فـرد علـى حـدة سـوف يتحقـق عندئـذ بذلـك القـدر الـذي سـيتحول بـه التاريـخ كليـاً إلـى تاريـخ عالمـي(**). ويتضـح ممـا تقـدم أن غنـى الفـرد الفكـري الحقيقـي يتوقـف كليـاً علـى غنـى علاقاتـه الفعليـة. وبهـذه الطريقـة وحدهـا سـوف يتحـرر كل فـرد بصـورة خاصـة مـن الحواجـز القوميـة والمحليـة المختلفـة، ويصبـح علـى صلـة عمليـة بالإنتـاج المـادي والفكـري للعالـم كلـه، ويتمكـن مـن كسـب القـدرة علـى الاسـتمتاع بإنتـاج العالـم كلـه فـي جميـع الميادـين (إبداعـات الإنسـان). وإن التبعيـة الكليـة، هـذا الشـكل المتكـون عفويـاً لتعـاون الأفـراد علـى صعيـد التاريـخ العالمـي، سـوف تتحـول بفعـل هـذه الثـورة الشـيوعية إلـى رقابـة وسـيادة واعيتيـن علـى هـذه القـوى

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:]. إن القديس ماكس شترنر نفسه يتنزه حاملًا التاريخ العالمي على ظهره ويشربه ويأكله يومياً كما كان يصنع من قبل بجسد ودم سيدنا يسوع المسيح، والتاريخ العالمي بدوره ينتجه بصورة يومية، هو الأوحد، الذي هو نتاجه الخاص، ما دام مضطراً أن يأكل ويشرب ويكتسي؛ إن الاستشهادات في الأوحد (المؤلف)، الخ، مثلها كمثل مناظرة القديس ماكس ضد هيس وأشخاص آخرين بعيدين، تبين كيف ينتج، على الصعيد الروحي أيضاً، من قبل التاريخ العالمي. ويترتب على ذلك إذن، أن الأفراد في "التاريخ العالمي" هم تماماً نفس "المالكين" الذين نصادفهم في أية "رابطة" شترنرية من الطلاب والخياطات الأحرار.

(**) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] في إنتاج الوعي.

التـي ولـدت بفعـل تأثيـر البشـر فـي بعضهـم بعضـاً، لكنهـا أرهبتهـم وتحكمـت فيهـم حتـى الآن كمـا لـو كانـت قـوى غريبـة عنهـم كليـاً. وهـذه النظـرة يمكـن التعبيرعنهـا تعبيـراً - مثاليـاً تأمليـاً، يعنـي خياليـاً، علـى اعتبـاره "توالـد النـوع(*) الذاتـي" ("المجتمـع باعتبـاره ذاتـاً")، وبالتالـي فـإن السلسـلة المتعاقبـة للأفـراد أصحـاب العلاقـة المتبادلـة والمرتبطيـن ببعضهـم بعضـاً يمكـن تصورهـا علـى أنهـا فـرد واحـد يحقـق سـر توالـده الذاتـي. وإنـه ليتضـح مـن هنـا أن الأفـراد يصنعـون بعضهـم بعضـاً بـكل تأكيـد، جسـدياً ومعنوياً،لكنهـم لا يصنعـون أنفسـهم وفقـاً لهـراء القديـس برونـو(**)، ولا بمعنـى "الأوحـد"(***)، أو الإنسـان "الـذي صنـع نفسـه"(****).

وأخيراً، إن تصور التاريخ الذي شرحناه لتونا، يعطينا أيضاً، في الختام، النتائج التالية:

١- فـي سـياق تطـور وتوسـع القـوى المنتجـة تأتـي مرحلـة تولـد فيهـا قـوى منتجـة ووسـائل التعامـل لا يمكـن إلا أن تكـون ضـارة فـي إطـار العلاقـات القائمـة، فهـي ليسـت بعـد الآن قـوى منتجـة بـل قـوى هدامـة (الآلات والمـال)، كمـا تولـد - وهـذه واقعـة ترتبـط بالواقعـة السـابقة- طبقـة تتحمـل كل أعبـاء المجتمـع، مـن دون الاسـتمتاع بميزاتـه وهـي مطـرودة مـن المجتمـع بحيـث لا بـد لهـا أن تتخـذ مكانهـا فـي المعارضـة الأشـد صراحـة ضـد جميـع الطبقـات الأخـرى، طبقـة تشـكلها غالبيـة أعضـاء المجتمـع وينبثـق منهـا وعـي ضـرورة قيـام ثـورة جذريـة، وعـي هـو الوعـي الشـيوعي، ومـن المفـروغ منـه أنـه يمكـن أن يتشـكل أيضـاً عنـد الطبقـات الأخـرى عندمـا تـدرك وضـع هـذه الطبقـة.

(*) بالألمانية [Gattung]، ونترجمها "النوع"، بمعنى النوع البشري.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] ومن جراء ذلك فإن "مفهوم (١) الشخصية (٢) يتضمن (٣) بصورة عامة (٤) أنه يطرح نفسه مع تحديداته" (إنه يتوصل إلى ذلك بصورة مرموقة) "وأن ينقض(٥) من جديد (٦) هذا التحديد الذي يطرحه (٧)" (ليس من ذاته، ولا بصورة عامة، وكذلك ليس بواسطة مفهومه) "لكن بماهيته (٨) الكلية (٩)، باعتبار أن هذه الماهية ليست سوى نتيجة تمايزه الذاتي (١٠) الباطن (١١) فعاليته"، ص: ٨٧ – ٨٨.

[كتب ماركس في العمود الأيمن هذه الملحوظة المشطوبة:] (إن السيد برونو لا يصل إلى الاثني عشرية).

(***) ماكس شترنر.

(****) جزء من الجملة قد شطب في المخطوطة، ابتداء من "القديس برونو".

٢- إن الشروط التي يمكن فيها استخدام قوى منتجة معينة هي شروط سيطرة طبقة معينة على المجتمع(*): إن القوة الاجتماعية لهذه الطبقة، الناجمة عما تملكه، تجد بصورة منتظمة تعبيرها العملي في شكل مثالي في نمط الدولة الخاص في كل حقبة؛ وهذا هو السبب في أن كل نضال ثوري يتوجه ضد طبقة سادت حتى ذلك الحين(**).

٣ ـ كان نمط النشاط يبقى من دون أن يطرأ عليه أي تغيير في جميع الثورات السابقة، وكان المقصود مجرد توزيع آخر لهذا النشاط، تقسيم جديد للعمل بين أشخاص آخرين؛ بينما بالمقابل فإن الثورة الشيوعية موجهة ضد نمط النشاط السابق، وهي تنقض العمل(***) وتنقض سيطرة جميع الطبقات حين تنقض الطبقات نفسها، وذلك لأن من يقوم بها هي تلك الطبقة التي لا تعتبر البتة طبقة في مجتمع، التي لا يعترف بها على اعتبارها طبقة، والتي هي سلفاً التعبيرعن انحلال جميع الطبقات، وجميع القوميات، الخ، في إطار المجتمع الحالي.

٤ ـ يتضح أنه لا بد من تحقيق تحويل كتلي للبشر من أجل خلق هذا الوعي الشيوعي بصورة كتلية، وكذلك من أجل بلوغ الهدف نفسه؛ والحال أن مثل هذا التحويل لا يمكن أن يحدث إلّا بواسطة حركة عملية، بواسطة ثورة؛ وهكذا فإن هذه الثورة ليست هدفاً بحد ذاتها، بل لأنها الوسيلة الضرورية الوحيدة من أجل قلب الطبقة السائدة، بل هي ضرورية كذلك لأن الثورة وحدها يمكن أن تتيح للطبقة التي تقلب الطبقة الأخرى أن تكنس كل عفن النظام القديم الذي يعلق بها وأن تصبح قادرة على تأسيس المجتمع وفق قواعد جديدة(****).

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] ٢- تخدم كل مرحلة في تطور القوى المنتجة كأساس لسيادة طبقة معينة على المجتمع.

(**) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] لهؤلاء البشر مصلحة في الحفاظ على حالة الإنتاج الراهنة.

(***) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] ... الشكل الحديث للنشاط الذي في ظله تكون السيادة ل...

(****) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] منذ وقت لا بأس به يتفق جميع الشيوعيين، سواء في فرنسا أم في إنكلترا وألمانيا، على ضرورة هذه الثورة؛ ومع ذلك فإن القديس برونو يواصل بكل سكينة حلمه ويعتقد أن "الإنسانية الفعلية"، يعني الشيوعية، إنما توضع هنا "موضع الروحانية" (التي لا مكان لها على الإطلاق)، كيما تكسب مزيداً من الاحترام. وإنَّه ليواصل حلمه: إذن "يجب أن يأتي الخلاص، أن تنزل السماء على الأرض، وأن تكون الأرض السماء" (إن لاهوتينا العلامة عاجز =

[٧ - موجز عن التصور المادي للتاريخ]

إن هـذا التصـور للتاريـخ يتوقـف علـى قدرتنـا علـى توسـيع عمليـة الإنتـاج الفعلية،منطلقيـن مـن الإنتـاج المـادي للحيـاة بالـذات؛ إنـه يـدرك شـكل التعامـل المرتبـط بهـذا النمـط مـن الإنتـاج والمكـون مـن قبلـه (يعنـي المجتمـع المدنـي فـي مراحلـه المتنوعـة) علـى اعتبـاره أسـاس التاريـخ برمتـه، الأمـر الـذي يسـتقيم فـي إظهـار هـذا المجتمـع فـي عملـه مـن حيـث هـو دولـة، وكذلـك فـي تفسـير جميـع المنتجـات النظريـة وأشـكال الوعـي المختلفـة، مـن ديـن، وفلسـفة، وأخـلاق[*] الـخ،

= دائماً عن التسليم بحرمانه من السماء). "عندئذ سوف ينفجر، في ملء التناغمات السماوية، الفرح والحبور إلى الأبد" (ص: ١٤٠) (أ). إن الأب الكنائسي المقدس سوف يندهش كثيراً عندما ينهار عليه يوم الدينونة الأخير، اليوم الذي ستتم فيه هذه الأمور جميعاً - يوم سوف يكون فجره مصنوعاً من انعكاس المدن على السماء، ويتردد في أذنيه، في هذه "التناغمات السماوية"، لحن المارسيليز والكارمانيول بمصاحبة قصف المدافع، الذي لا بد منه في هذه المناسبة، في حين تعين المقصلة النغم بضرباتها، بينما تزمجر "الكتلة" الفاسقة Ca Ira, Ca ira، وتنقض "الوعي الذاتي" بواسطة عمود المصباح (ب). إن القديس برونو يملك الحق أقل من أي امرئ آخر في أن يرسم لوحة بناءة عن هذا "الفرح والحبور إلى الأبد". وعلى أي حال، فإن "أنصار دين المحبة الفويرباخي" يملكون فيما يبدو تصوراً خصوصياً عن هذا "الفرح" وهذا "الحبور" عندما يتحدثون عن ثورة تتقد فيها جميع الأشياء الأخرى ما عدا "التناغمات السماوية". ولن نمنح أنفسنا اللذة في أن نركب قبلياً كيف سيكون سلوك القديس برونو يوم الدينونة الأخيرة. وإنَّه لمن الصعب أيضاً أن نجزم ما إذا كان ينبغي تصوّر البروليتاريين الثائرين (ج) على أنهم "جمهور" يثور ضد الوعي الذاتي، على أنهم كتلة تستهدف قلب النقد، أم أنهم "فيض" من الروح الذي لا يزال يفتقر على أي حال إلى الصلابة الضرورية من أجل هدم الأفكار الباورية (د).

أ [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:]، العائلة المقدسة .

ب إشارة إلى لازمة أغنية Ca ira: "الأرستقراطيون إلى عمود المصباح" .

ج بالفرنسية في النص الأصلي .

د ليس من العسير علينا أن نفهم السبب في أن ماركس قد شطب أخيراً هذه الرؤيا القيامية عن الثورة، بالرغم من أنه لم يكن يتصور بعد، في ذلك الحين، الثورة إلَّا ثورة عنيفة، بل دامية. لقد كان في ذهنه إذن الثورة الفرنسية وعهد الإرهاب.

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] في تفسير المجتمع المدني في أدواره المختلفة وفي انعكاسه العملي -المثالي، الدولة، وكذلك جميع المنتجات المختلفة وأشكال الوعي، من دين وفلسفة وأخلاق، الخ.

الخ، بواسطته، ورسم أصوله ونموه انطلاقاً من هذه المنتجات؛ وبهذه الطريقة يمكن بكل تأكيد وصف الأمر بأسره في كلّيته (وبالتالي دراسة الفعل المتبادل لجوانبه المتعددة(*)). ولا حاجة به، مثل التصور المثالي للتاريخ، إلى البحث عن مقولة في كل مرحلة، بل هو يبقى باستمرار على أرض التاريخ الواقعية، وهو لا يفسر الممارسة انطلاقاً من الفكرة، بل يفسر تكوّن الأفكار من الممارسة المادية؛ ووفقاً لذلك، فإنه ينتهي إلى الاستنتاج بأن سائر أشكال الوعي ومنتجاته يمكن حلها ليس بالنقد الذهني، بالانحلال في "الوعي الذاتي" [self-consciousness] أو التحول إلى "أطياف" و"أشباح" و"أوهام"(**) الخ، بل فقط بواسطة القلب العملي للعلاقات الاجتماعية المشخصة التي ولد منها هذا الهراء المثالي؛ وإن الثورة لا النقد هي القوة المحركة للتاريخ، وكذلك للدين، والفلسفة، وكل نظرية أخرى. وإن هذا التصور ليبين أن نهاية التاريخ ليست في الانحلال في "الوعي الذاتي" على أنه "روح الروح"، بل إن نتيجة مادية تصادف فيه لدى كل مرحلة، ألا وهي حصيلة من القوى المنتجة، علاقة متكونة تاريخياً مع الطبيعة وبين الأفراد، وهي تسلم لكل جيل من الجيل السابق له؛ كتلة من قوى الإنتاج، ومن رؤوس الأموال، ومن الظروف، صحيح من جهة أنها تعدَّل من قبل الجيل الجديد، لكنها من جهة أخرى، تملي عليه شروطه الحياتية الخاصة وتمنحه تطوراً محدداً وطابعاً نوعياً؛ وبنتيجة ذلك فإن الظروف تصنع البشر بالضبط بقدر ما يصنع البشر الظروف.

إن هذه الحصيلة من القوى االمنتجة ورؤوس الأموال وأشكال التعامل الاجتماعية، التي يصادفها كل فرد وكل جيل على اعتبارها معطيات قائمة، هي الأساس المشخص لما تصوره الفلاسفة على أنه "جوهر الإنسان" و"ماهيته"، وما رفعوه إلى السحب وكافحوه، وهو أساس مشخص لا يتعرض لأدنى اضطراب على الإطلاق، في فعله وتأثيره في تطور البشر، من جراء أن الفلاسفة يثورون ضده على اعتباره "الوعي الذاتي" و"الأوحد". وإن هذه الشروط الحياتية، التي تجدها الأجيال المختلفة قائمة، هي التي تقرر كذلك ما إذا كان الاختلاج الثوري الذي يتكرَّر دورياً في التاريخ قوياً بصورة كافية أم لا، ليقلب كل أسس

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] فويرباخ.

(**) إشارة إلى نظريات باور وشترنر. أنظر أدناه.

النظـام القائـم. إن العناصـر الماديـة لثـورة كاملـة هــي مـن جهـة، قـوى الإنتـاج القائمـة، ومـن جهـة ثانيـة، تشـكل كتلـة ثوريـة تثـور لا ضـدَّ شـروط خاصـة للمجتمـع المنصـرم فحسـب، بـل ضـد "إنتـاج الحيـاة" بالـذات حتـى ذلـك الحيـن، ضـد "النشـاط الكلـي" [total activity] الـذي يقـوم عليـه هـذا الإنتـاج، إذا لـم تكـن هـذه الشـروط قائمـة، فـإن واقـع التعبيرمئـات المـرات عـن فكـرة هـذا الانقـلاب، لا يتسـم كمـا يبرهـن علـى ذلـك تاريـخ الشـيوعية، بأيـة أهميـة للتطـور العملـي .

[٨ - تضارب (لا تماسك) التصور المثالي للتاريخ بعامة والفلسفة الألمانية ما بعد هيغل بخاصة]

إن هـذا الأسـاس الحقيقـي للتاريـخ إمـا أهمـل كليـاً أو اعتبـر مسـألة ضئيلـة لا أهميـة لهـا مطلقـاً بالنسـبة إلـى مجـرى التاريـخ، وذلـك فـي كل تصـوّر التاريـخ السـائد حتـى الوقـت الراهـن. وهكـذا فإنـه مـن الواجـب أن يكتـب التاريـخ علـى الـدوام وفقـاً لمقيـاس يقـع خارجـاً عنـه : إن إنتـاج الحيـاة الفعلـي يظهـر فـي أصـل التاريـخ، بينمـا كل مـا هـو تاريخـي يظهـر وكأنـه منفصـل عـن الحيـاة العاديـة، شـيء خـارج الأرض وفوقهـا. ومـن هنـا فـإن العلاقـة بيـن الإنسـان والطبيعـة كانـت تسـتبعد مـن التاريـخ، الأمـر الـذي يترتـب عليـه التضـاد بيـن الطبيعـة والتاريـخ. وبنتيجـة ذلـك، فـإن أنصـار هـذا التصـور للتاريـخ لـم يتمكنـوا أن يـروا فـي التاريـخ إلَّا الأحـداث التاريخيـة والسياسـية الكبـرى، والصراعـات الدينيـة ومختلـف أنـواع الصراعـات النظريـة، ولـم يكـن لهـم بـدّ بصـورة خاصـة، فـي كل حقبـة تاريخيـة، مـن المشـاطرة فـي وهـم هـذه الحقبـة. ومثـال ذلـك أنـه إذا تخيلـت حقبـة مـا نفسـها خاضعـة لحوافـز "سياسـية" أو "دينيـة" خالصـة، بالرغـم مـن أن "الديـن" و"السياسـة" مجـرد شـكلين لحوافـزه الحقيقيـة، فـإن مؤرخـه يقبـل بهـذا الـرأي إذن. إن "وهـم "البشـر أصحـاب العلاقـة، و"تصورهـم" عـن ممارسـتهم الفعليـة يتحـول إلـى القـوة الوحيـدة والفاعلـة التـي تتحكـم فـي هـذه الممارسـة وتحددهـا. وحيـن يـؤدي الشـكل البدائـي الـذي يمثـل تقسـيم العمـل فيـه لـدى الهنـود والمصرييـن إلـى قيـام نظـام الطوائـف فـي دولتهـم وديانتهـم. فـإن المـؤرخ يعتقـد أن نظـام الطوائـف هـو القـوة التـي أنتجـت هـذا الشـكل الاجتماعـي البدائـي.

وبينما يتشبث الفرنسيون والإنكليز بالوهم السياسي على الأقل، الذي هو مع ذلك الأقرب إلى الواقع، فإن الألمان يتحركون في ميدان "الروح الصرف" ويجعلون من الوهم الديني القوة المحركة للتاريخ. إن فلسفة التاريخ عند هيغل هي النتيجة الحاسمة الأخيرة، المختزلة في "تعبيرها الأصفى"، لمجمل هذه الطريقة التي يتبعها الألمان في كتابة التاريخ والتي لا تولي الاهتمام للمصالح الفعلية، ولا حتى للمصالح السياسية، بل للأفكار المحضة؛ وبالتالي فلا بدَّ أن يظهر هذا التاريخ للقديس برونو على أنه سلسلة من "الأفكار" التي تلتهم بعضها بعضاً، والتي تتلاشى أخيراً في "الوعي الذاتي"(*)؛ وإن مجرى التاريخ ليظهر جيداً بمزيد من المنطق أيضاً، في نظر القديس ماكس شترنر الذي لا يعرف شيئاً على الإطلاق من التاريخ الفعلي، إلا أنه مجرد رواية عن "الفرسان" واللصوص والأشباح الذين لا يستطيع طبعاً أن ينجو من رؤاهم إلَّا "بالزندقة" وحدها. إن هذا التصور ديني حقاً وفعلاً؛ إنه يفترض أن الإنسان الديني هو الإنسان البدائي الذي ينطلق منه التاريخ كله؛ وإنه ليضع في مخيلته الإنتاج الديني للأوهام في مكان الإنتاج الفعلي لوسائل العيش ولجوهر الحياة بالذات.

إن هذا التصور للتاريخ كله، فضلاً عن انحلاله والوساوس والشكوك الناجمة عنه، هو قضية قومية [وطنية] صرفة تخص الألمان وحدهم ولا تملك إلا أهمية محلية محضة بالنسبة إلى ألمانيا، ومثال ذلك، المسألة الهامة التي عولجت مرات عديدة أخيراً: كيف "ننتقل من ملكوت الله إلى ملكوت البشر" بصورة فعلية- فكأنما "ملكوت الله" هذا قد وجد في أي وقت من الأوقات في أي مكان آخر غير مخيلة البشر، وكأنما السادة العالمون لا يعيشون باستمرار، من دون أن يعوا ذلك، في "ملكوت البشر" الذي يفتشون الآن عن السبيل إليه، وكأنما هذا اللهو العلمي (ذلك أنه ليس شيئاً أكثر من ذلك) الخاص بتفسير سر هذا الإنشاء النظري في السحب لا يقوم، على النقيض من ذلك، في إثبات نشوئه من الشروط

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] إن ما يسمى الطريقة الموضوعية في كتابة التاريخ كانت تستقيم بالضبط في معالجة الشروط التاريخية بصورة منفصلة عن النشاط. طابع رجعي.

الفعلية على الأرض(*). إن المسألة بالنسبة إلى هؤلاء الألمان هي دائماً مسألة إرجاع الهراء الذي يصادفونه إلى نزوة ما أخرى، يعني افتراض أن هذا العبث برمته يملك على العموم معنى خاصاً المقصود هو اكتشافه، بينما المسألة في الحقيقة هي تفسير هذا التشدق النظري بالشروط الفعلية القائمة. إن الحل العملي الحقيقي لهذا التشدق، استئصال هذه الأفكار من وعي البشر، ولن يتحقق كما قلنا أعلاه إلا بفعل تحول الظروف وليس بالاستدلالات النظرية. إن هذه الأفكار النظرية لا وجود لها بالنسبة إلى كتلة البشر، يعني البروليتاريا، وبالتالي فهي لا تتطلب أن تحذف بالنسبة إلى هذه الكتلة التي إذا كانت قد انطوت على أية تصورات نظرية في يوم من الأيام، مثلاً الدين الخ، فإن الظروف قد دمرتها منذ زمن طويل.

إن الطابع القومي الصرف لهذه المسائل وحلولها يتجلى كظاهرة مرة أخرى، في طريقة إيمان هؤلاء المنظرين بكل جدية بأن أوهاماً مثل "الله - الإنسان"، و"الإنسان"، الخ، قد سيطرت على الحقب المختلفة في التاريخ (بل إن القديس برونو يمضي حتى التأكيد بأن "النقد والنقاد وحدهم قد صنعوا التاريخ")، وإنهم حين ينصرفون هم أنفسهم إلى الإنشاءات التاريخية، فأنهم يقفزون بأعظم السرعة من فوق جميع المراحل السابقة وينتقلون من فورهم من "الحضارة المغولية" إلى التاريخ "الغني من حيث المحتوى" بكل ما للكلمة من معنى، يعني إلى تاريخ حوليات هال والحوليات الألمانية(١٠)، ويروون كيف انحلَّت المدرسة الهيغلية في ظل عراك عام. إنهم ينسون جميع الأمم الأخرى، وجميع الأحداث الواقعية، ويُقصر المسرح العالمي(**) على معرض كتاب لايبزيغ والمناظرات المتبادلة عن "النقد" و"الإنسان" و"الأوحد"(***). وإذا عالج هؤلاء المنظرون بصورة فعلية موضوعات تاريخية، القرن الثامن عشر على سبيل المثال، فإنهم يقتصرون على تقديم تاريخ لأفكار ذلك الزمان، منتزعة من الوقائع ومن التطورات العملية التي تشكل أساسها، والأكثر من ذلك أنهم لا

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] وكأنما لا يمكن أن يكون لهواً علمياً من درجة رفيعة جداً أن تفسر،حتى في التفاصيل، الظاهرة الغريبة التي شكلها هذا التكون للسحب النظرية انطلاقاً من العلاقات الأرضية الفعلية وتقديم البرهان على ذلك.

(**) Theatrum Mundi، باللاتينية في النص الأصلي.

(***) الإشارة بالتتالي إلى باور وفويرباخ وشترنر.

يقدمـون هـذا التاريـخ إلا بهـدف تصويـر تلـك المرحلـة علـى أنهـا مرحلـة أوليـة ناقصـة، البشـير المحـدود بعـد للحقبـة التاريخيـة الفعليـة، يعنـي حقبـة الصراع بيـن الفلاسـفة الألمـان مـن ١٨٤٠ إلـى ١٨٤٤. وكمـا يمكـن أن يكـون متوقعـاً عندمـا يكـون الهـدف مـن كتابـة تاريـخ حقبـة سـابقة زيـادة تألـق مجـد أحـد الأشـخاص غيـر التاريخييـن وتصوراتـه، فـلا يؤتـى علـى ذكـر كل الأحـداث التاريخيـه الفعليـه، بمـا فيهـا الغـزوات التاريخيـة الفعليـة للسياسـة فـي التاريـخ. وإننـا لنحصـل كتعويـض عـن ذلـك علـى قصـة لا تسـتند إلـى البحـث والاسـتقصاء الجدييـن، بـل إلـى الصـور التاريخيـة والثرثـرات الأدبيـة، كتلـك التـي زودنـا بهـا القديـس برونـو فـي تاريخـه عـن القـرن الثامـن عشـر المنسـي الآن[١١]. إن عطـاري الفكـر هـؤلاء، المملوئيـن صلفـاً والمنتفخيـن وقاحـة، الذيـن يتخيلـون أنهـم يتسـامون بصـورة لا متناهيـة فـوق جميـع الأحـكام القوميـة المسـبقة، هـم أكثـر قوميـة عمليـاً بصـورة لا تقـاس مـن أولئـك المنافقيـن المدمنيـن علـى الجعـة الذيـن يحلمـون بألمانيـا موحـدة. إنهـم يرفضـون كل صفـة تاريخيـة لأعمـال الأمـم الأخرى:إنهـم يعيشـون فـي ألمانيـا، ولألمانيـا، وفـي سـبيل ألمانيـا؛ إنهـم يحولـون أغنيـة الرايـن[١٢] إلـى نشـيد دينـي ويسـتولون علـى الإلـزاس بنهـب الفلسـفة الفرنسـية بـدلاً مـن نهـب الدولـة الفرنسـية، وبجرمنـة الأفكارالفرنسـية بـدلاً مـن جرمنـة الأقاليـم الفرنسـية. إن الهـر فينيـدي[١٣] كوسـموبوليتي بالمقارنـة مـع القديسـين برونـو وماكـس اللذيـن يناديـان بهيمنـة ألمانيـا حيـن يناديـان بهيمنـة النظريـة.

[٩ - التصور المثالي للتاريخ وشيوعية فويرباخ الظاهرية الناقصة]

وإنَّـه لمـن الواضـح أيضـاً مـن هـذه الحجـج كـم يخـدع فويربـاخ نفسـه بفظاظـة حيـن ينـادي بنفسـه شـيوعياً بمقتضـى صفـة "الإنسـان المشـاعي" مجلـة ويغـان الفلسـفية، ١٨٤٥، القسـم الثانـي[١٤] وكيـف يحـول الشـيوعي إلـى محمـول لـ"الإنسـان"، وبذلـك يحسـب أنـه فـي الإمـكان تبديـل كلمـة "شـيوعي"، التـي تعنـي فـي العالـم الواقعـي المنتمـي إلـى حـزب ثـوري معيـن، إلـى مقولـة بسـيطة مجـردة. إن مجمـل اسـتدلال فويربـاخ فـي مسـألة العلاقـة المتبادلـة بيـن البشـر، لا يذهـب أبعـد مـن مجـرد تقديـم البرهـان علـى أن البشـر يحتاجـون إلـى بعضهـم بعضـاً، وأن تلـك كانـت الحـال علـى الـدوام. وإنـه ليريـد أن ينشـئ وعيـاً بهـذه الحقيقـة، يعنـي أن ينتـج فحسـب، مثلـه

كمثـل المنظريـن الآخريـن، وعيـاً صحيحـاً عـن حقيقـة قائمـة، بينمـا المسـألة بالنسـبة إلـى الشـيوعي الفعلـي هـي قلـب هـذه الأوضـاع القائمـة. وفيمـا عـدا ذلـك فإننـا نقـدِّر كل تقديـر أن فويربـاخ، فـي جهـوده لتوليـد وعـي هـذه الحقيقـة بالضبـط، يتقـدم بقـدر مـا يسـتطيع منظـر أن يتقـدم مـن دون أن يكـفّ عـن كونـه منظـراً وفيلسـوفاً. وعلـى أي حـال، فـإن مـن الأمـور المميـزة أن القديـس برونـو والقديـس ماكـس يطبقـان علـى هـذا التصـور الفويرباخـي عـن الشـيوعي ويضعانـه مـكان الشـيوعي الفعلـي- وهمـا يفعـلان ذلـك، جزئيـاً، كيمـا يسـتطيعان محاربـة الشـيوعية أيضاًعلـى اعتبارهـا "روح الـروح"، وعلـى اعتبارهـا مقولـة فلسـفية، وعلـى اعتبارهـا خصمـاً متكافئـاً معهمـا- وهـو مـا يفعلـه القديـس برونـو مـن جانبـه، فضـلاً عـن ذلـك، لأسـباب ذرائعيـة.

وكيمـا نـورد مثـالاً عـن هـذا التسـليم بالأوضـاع القائمـة وإنكارهـا فـي الوقـت ذاتـه، وهمـا تسـليم وإنـكار لا يـزال فويربـاخ يشـاطر خصومنـا إياهمـا، نذكّـر بمقطـع مـن فلسـفة المسـتقبل[١٥] حيـث يشـرح الـرأي القائـل: إن وجـود شـيء مـا أو إنسـان مـا هـو فـي الوقـت ذاتـه ماهيتـه، وإن الشـروط المحـددة لوجـود فـرد حيوانـي مـا أو إنسـاني مـا، ونمـط حياتهمـا ونشـاطهما المحـدد هـي تلـك الشـروط التـي تشـعر "ماهيتهمـا" بالرضـى فيهـا. وإن كل اسـتثناء هنـا يتصـور بـكل وضـوح علـى أنـه مصادفـة مشـؤومة أو ظاهـرة شـاذة لا سـبيل إلـى تبديلهـا. وهكـذا فـإذا كان الملاييـن مـن البروليتارييـن لا يشـعرون فـي أي حـال مـن الأحـوال بالرضـى عـن شـروط عيشـهم، وإذا كان "وجودهـم"[*] لا يتطابـق علـى الإطـلاق مـع "ماهيتهـم"، فإنمـا تلـك كارثـة لا مفـرّ منهـا وفقـاً للمقطـع المستشـهد بـه، ولا بـدَّ مـن تحملهـا بـكل هـدوء. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن هـؤلاء الملاييـن مـن البروليتارييـن أو مـن الشـيوعيين لهـم رأيهـم المخالـف فـي هـذه المسـألة، وسـوف يثبتـون ذلـك فـي الوقـت المناسـب، عندمـا يجعلـون "وجودهـم" متناغمـاً مـع "ماهيتهـم" بطريقـة عمليـة، بواسـطة ثـورة. ولهـذا السـبب فـإن فويربـاخ لا يتحـدث قـط فـي مثـل هـذه الأحـوال عـن

(*) إن الفقرة التالية حتى كلمات "ذو أهمية محلية" هي من المقاطع التي كانت مجهولة حتى الآن، وقد نشرت للمرة الأولى، بعد اكتشاف عدد من صفحات الإيديولوجية الألمانية، للمرة الاولى عام ١٩٦٢ في المجلة الأممية للتاريخ الاجتماعي، المجلد السابع، القسم الأول، وقد سبق ذكرها. وإن هذا النص يطابق الصفحة المرقمة ٢٩ من قبل ماركس، العمود الأيمن. أما نص العمود الأيسر، فيرد أدناه، ص ١٢٦.

عالـم الإنسـان، بـل يلجـأ علـى الـدوام إلـى الطبيعـة الخارجية.والأكثـر مـن ذلـك إلـى طبيعـة لـم تقهـر بعـد مـن قبـل الإنسـان.بيد أن كل اختـراع جديـد، وكل تقـدم تحققـه الصناعـة، ينتزعـان قسـماً آخـر مـن هـذا الميـدان، بحيـث أن الأرض التـي تنبـت عليهـا الأمثلـة التـي تبرهـن علـى مثـل هـذه المقترحـات الفويرباخيـة تضيـق باسـتمرار. إن "ماهيـة" السـمك - كيـف نسـتأنف واحـدة مـن موضوعـات فويربـاخ - هـي "وجـوده" فـي المـاء. وإن "ماهيـة" سـمك النهـر هـي ميـاه النهـر. بيـد أن هـذه الميـاه تكـفُّ عـن كونهـا "ماهيـة" السـمك وتصبـح وسـطاً وجوديـاً لا يلائمـه حالمـا يوضـع النهـر فـي خدمـة الصناعـة، حالمـا يتلـوث بالأصبغـة وغيـر ذلـك مـن النفايـات وتمخـره المراكـب التجاريـة، أو حالمـا تحـوّل مياهـه إلـى أقنيـة حيـث يمكـن بمجـرد قطـع الميـاه أن يحـرم السـمك مـن وسـط وجـوده. وإن المنـاداة بـأن مثـل هـذه التناقضـات جميعـاً ظواهـر شـاذة لا تختلـف جوهريـاً عـن العـزاء الـذي يقدمـه القديـس ماكـس شـترنر إلـى المسـتائين، قائـلاً إن هـذا التناقـض هـو تناقضهـم الخـاص، وإن هـذا المـأزق هـو مأزقهـم الخـاص، وبالتالـي ينبغـي لهـم إمـا أن يمتنعـوا عـن الاحتجـاج، وأن يكتمـوا اسـتياءهم، وإمـا أن يثـوروا بطريقـة خياليـة مـا ضـد هـذا الوضـع. وإن هـذا "التفسـير" لا يختلـف أكثـر مـن ذلـك عـن اللـوم الـذي يوجهـه إليهـم القديـس برونـو عندمـا يقـول: إن هـذا المـأزق ناشـئ عـن حقيقـة أن أصحـاب العلاقـة ظلـوا غارقيـن فـي طيـن "الجوهـر" بـدلاً مـن أن يتقدمـوا إلـى "الوعـي الذاتـي المطلـق"، ولـم يـروا فـي هـذه الشـروط الحياتيـة الرديئـة روح روحهـم [spirit of their spirit].

[III]

[١ - الطبقـة السـائدة والأفـكار السـائدة ـ كيـف نشـأ التصـور الهيغلـي عـن هيمنـة الـروح فـي التاريـخ ؟]

إن أفـكار الطبقـة السـائدة هـي الأفـكار السـائدة أيضـاً في كل حقبـة تاريخيـة، يعنـي أن الطبقـة التـي هـي القـوة المادية السـائدة فـي المجتمـع هـي فـي الوقـت ذاتـه القـوة الفكريـة السـائدة .إن الطبقـة التـي تتصـرف بوسـائل الإنتـاج المـادي تملـك فـي الوقـت ذاتـه الإشـراف علـى وسـائل

الإنتاج الفكري، بحيث تخضع من جراء ذلك، أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج الفكري لهذه الطبقة السائدة. وليست الأفكار السائدة شيئاً آخر سوى التعبير المثالي عن العلاقات المادية المهيمنة، التي تجعل الطبقة وحدها طبقة سائدة؛ وبكلام آخر، فهي أفكار هيمنتها المادية. إن الأفراد الذين يؤلفون الطبقة السائدة يملكون فيما يملكون الوعي، وبنتيجة ذلك يفكرون، وبالتالي فبقدر ما يسودون على أنهم طبقة، ويحددون مدى اتساع حقبة تاريخية معينة، فمن البديهي أن هؤلاء الأفراد يسودون في كل النواحي والمعاني، وبالتالي فإنهم يسودون، ضمن أشكال سيطرتهم، على أنهم كائنات مفكرة أيضاً، على أنهم منتجون للأفكار. وهم ينظمون إنتاج وتوزيع أفكار حقبتهم، وهذا يعني أن أفكارهم هي أفكار الحقبة السائدة. ومثال ذلك أنه حيث تتنازع كل من السلطة الملكية والأرستقراطية والبورجوازية للهيمنة في حقبة محددة وبلد محدد، وبالتالي تصبح هذه الهيمنة متوزعة ومتقاسمة، فإن مذهب انفصال السلطات هو الذي يشكل الفكرة المهيمنة، ويتم التعبير عنه على أنه "قانون أبدي" [Loi éternelle].

إننا نصادف هنا تقسيم العمل، الذي سبق أنْ رأيناه أعلاه (ص ٤٦-٤٩) كإحدى القوى الرئيسية في التاريخ حتى وقتنا الحاضر. وإنه ليتظاهر كذلك في الطبقة السائدة على أنه تقسيم بين العمل الفكري والعمل المادي، بحيث تكون لدينا مقولتان من الأفراد داخل هذه الطبقة. من جهة، مظهر مفكري هذه الطبقة (إيديولوجيوها النشيطون، القادرون على التصور، الذين يجعلون من إعداد أوهام الطبقة عن ذاتها المصدرالرئيسي لعيشهم)، بينما موقف الآخرين حيال هذه الأفكار والأوهام موقف أشد انفعالية وأكثرتقبلاً، لأنهم في واقع الأمر أعضاء هذه الطبقة النشيطون، ووقتهم أقل اتساعاً من أجل صنع الأوهام والأفكار عن أنفسهم. ويمكن لهذا الانشقاق ضمن هذه الطبقة أن يتطور حتى يؤدي إلى قدر من التعارض والعداء بين القسمين، وهو انشقاق يسقط على أية حال من تلقاء ذاته حالما يقوم نزاع عملي تتعرض فيه الطبقة بأكملها للخطر، وهو مظهريتبدَّد فيه كذلك الوهم بأن الأفكار السائدة لم تكن أفكار الطبقة السائدة، وإنها أفكار تملك سلطاناً متميزاً من سلطان هذه الطبقة. إن وجود الأفكار الثورية في حقبة معينة يفترض مسبقاً وجود طبقة ثورية، وقد قلنا أعلاه كل ما يلزم عن الشروط المسبقة التي يفترضها هذا الأمر (ص [٤٤-٤٨]).

وإذا عمدنا لدى دراسة مجرى التاريخ، إلى فصل أفكار الطبقة السائدة عن الطبقة السائدة نفسها وعزونا إليها وجوداً مستقلاً، وإذا نحن اقتصرنا على القول إن هذه الأفكار أو تلك قد كانت مهيمنة في حقبة معينة، من دون أن نعنى بشروط إنتاج هذه الأفكار ومنتجيها، إذا نحن غضضنا النظر على هذا الغرار عن شروط إنتاج وعن منتجي هذه الافكار، كان في مستطاعنا أن نقول على سبيل المثال: إن مفاهيم الشرف والإخلاص، الخ، كانت مهيمنة إبان سيادة الأرستقراطية، وإن مفاهيم الحرية والمساواة، الخ، كانت مهيمنة إبان سيادة البورجوازية، الخ(*). وإن الطبقة السائدة بوجه الإجمال تتخيل أن تلك هي الحقيقة. إن هذا التصور للتاريخ، المشترك بين جميع المؤرخين منذ القرن الثامن عشر بصورة خاصة، سوف يصطدم بالضرورة بظاهرة أن الأفكار السائدة سوف تزداد تجريداً، يعني أنها سوف تتخذ أكثر فأكثر شكل العمومية. ذلك أن كل طبقة جديدة تحتل مكان طبقة كانت سائدة قبلها مضطرة، ولو لمجرد تحقيق أهدافها، إلى تمثيل مصلحتها على أنها المصلحة المشتركة لجميع أعضاء المجتمع، يعني أنه ينبغي لها، إذا شئنا أن نعبِّر عن ذلك على صعيد الأفكار، أن تعطي أفكارها شكل العمومية، وأن تمثلها على أنها الأفكار المنطقية الوحيدة، الأفكار الوحيدة الصالحة بصورة عامة. إن الطبقة الثورية تمثل منذ البداية، لمجرد أنها تعارض طبقة أخرى، ليس على أنها طبقة، بل على أنها ممثلة المجتمع بأسره؛ إنها تتجلى على أنها الكتلة الكاملة للمجتمع في مواجهة الطبقة السائدة(**). وإنها لتستطيع أن تفعل ذلك، بادئ ذي بدء، لأن مصلحتها أوثق ارتباطاً بعد بصورة فعلية بالمصلحة المشتركة لجميع الطبقات غير السائدة الأخرى،

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] (العمومية تقابل : ١- الطبقة في مواجهة المرتبة، ٢- التنافس، والتعامل على الصعيد العالمي، الخ، ٣- العدد الكبير لأفراد الطبقة السائدة، ٤- الوهم بصدد المصالح المشتركة. هذا الوهم هو حقيقي في البداية، ٥ - أضاليل الإيديولوجيين وتقسيم العمل).

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وسطياً، تتصور الطبقة السائدة نفسها أن هذه المفاهيم هي التي تسود ولا تميزها من الأفكار السائدة للحقب السابقة إلَّا بتقديمها على أنها حقائق أزلية. إن هذه المفاهيم السائدة سوف تتجلى بشكل يزداد عمومية وتعميماً بقدر ما تلزم الطبقة السائدة أكثر فأكثر بتمثيل مصالحها على أنها مصالح جميع أعضاء المجتمع.

وذلك لأن تلك المصلحة لم تسنح لها الفرصة بعد، تحت ضغط الأوضاع القائمة حتى ذلك الحين، كي تتطور على أنها المصلحة الخاصة لطبقة خاصة. وبالتالي فإن انتصارها يعود بالمنفعة أيضاً على أفراد كثيرين من الطبقات الأخرى التي لا تتوصل إلى السيادة، لكن بقدر ما تجعل هؤلاء الأفراد في حالة تمكنهم من الانضمام إلى الطبقة السائدة. حين قلبت البورجوازية الفرنسية سلطة الأرستقراطية، فقد أتاحت بذلك لعدد كبير من البروليتاريين أن يرتفعوا فوق البروليتاريا، لكن بقدر ما أصبحوا هم أنفسهم بورجوازيين. وهكذا فإن كل طبقة جديدة إنما تحقق هيمنتها على قاعدة أعرض من قاعدة الطبقة التي كانت سائدة من قبل، وبالمقابل يتطورالتعارض بين الطبقة التي تسود من الآن فصاعداً والطبقات غير السائدة بمزيد من الحدة والعمق في وقت لاحق. وإن كلا هذين الأمرين يقرران حقيقة أن الصراع الذي يجب أن يشن ضد هذه الطبقة السائدة الجديدة يستهدف بدوره إنكاراً أشد حسماً وجذرية للشروط الاجتماعية السابقة مما كان في قدرة كل الطبقات السائدة السابقة التي كانت تسعى من أجل تحقيق السيادة.

إن هذا المظهر كله، القائم في الاعتقاد بأن سيطرة طبقة معينة إنما هو سيطرة أفكار معينة، ينتهي من تلقاء نفسه بكل تأكيد حالما تكف السيادة الطبقية بصورة عامة عن كونها شكل النظام الاجتماعي، يعني حالما لا يبقى من الضرورة بمكان بعد الآن تمثيل مصلحة خاصة على أنها مصلحة عامة، أو "المصلحة العامة" على أنها مصلحة سائدة(*).

وحالما تنفصل الأفكار السائدة عن الأفراد السائدين، وفوق كل شيء عن العلاقات التي تنجم عن مرحلة معينة من نمط الإنتاج، ويتم الوصول بهذه الطريقة إلى الاستنتاج الذي ينص على أن التاريخ قد كان تحت هيمنة الأفكار بصورة دائمة، فإنه من اليسير جداً أن تجرد من هذه الأفكار المتنوعة "الفكرة"، يعني الفكرة بامتياز، الخ، كي تحول إلى القوة المهيمنة في التاريخ، وأن تعقل بذلك جميع هذه الأفكار والمفاهيم المنفصلة على أنها "أشكال لتقرير المصير" من جانب المفهوم المتطور في التاريخ. وعندئذ فإنه من الطبيعي أيضاً أن

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] تمثيل مصلحة خاصة، على الصعيد العملي، على أنها المصلحة المشتركة بين الجميع، وعلى الصعيد النظري على أنها المصلحة العامة.

تشتق جميع علاقات البشر من مفهوم الإنسان، الإنسان كما هو متصور، ماهية الإنسان، وبكلمة واحدة الإنسان. وهذا ما صنعه الفلاسفة التأمليون. وإن هيغل نفسه ليعترف في ختام فلسفة التاريخ [geschichtsphilosophie] إنه إنما "أخذ بعين الاعتبار تقدم المفهوم وحده"، ومثل في التاريخ "الثيوديسيا(*) الحقيقية" (ص ٤٤٦). وإن المرء ليستطيع الآن أن يرجع القهقرى إلى منتجي "المفهوم"، إلى المنظرين والإيديولوجيين والفلاسفة، وعندئذ فإنه ينتهي إلى النتيجة التالية، ألا وهي أن الفلاسفة، من حيث هم فلاسفة، قد هيمنوا على التاريخ في جميع الأزمنة، وهي النتيجة التي سبق لهيغل أن عبَّر عنها كما رأينا.

وهكذا فإن كل الحيلة الهادفة إلى البرهان على هيمنة الروح في التاريخ (يسميها شترنر التراتب) تقتصر على الجهود الثلاثة التالية:

١- ينبغي فصل أفكار أولئك الذين يحكمون لأسباب تجريبية، في شروط تجريبية، وعلى اعتبارهم أفراداً ماديين، عن هؤلاء البشر أنفسهم، وبذلك الاعتراف بأن الأفكار أو الأوهام هي التي تسود في التاريخ.

٢- ينبغي تنظيم هذه السيادة للأفكار، وإقامة رابطة صوفية [mystique] بين الأفكار السائدة المتعاقبة، ويتحقق ذلك من خلال فهمها على أنها "أعمال لتقرير المصير من جانب المفهوم" (وهذا ممكن لأن هذه الأفكار مرتبطة ببعضها بعضاً بشكل فعلي من جراء قاعدتها التجريبية؛ وفضلاً عن ذلك فهي تصبح تفاضلات، تمييزات ذاتية يقوم بها الفكر نفسه حين يتم تصورها على أنها مجرد أفكار) .

٣- يحوّل هذا "المفهوم الذي يقرر ذاته"، من أجل التخلص من مظهره الصوفي، إلى شخص- "الوعي الذاتي"- أو- من اجل الظهور بمظهر مادي تماماً- إلى مجموعة من الأشخاص الذين يمثلون "المفهوم" في التاريخ، إلى "المفكرين"، و"الفلاسفة"، والإيديولوجيين الذين يعتبرون بدورهم على أنهم صنّاع التاريخ، على أنهم "مجلس الحراس"، على أنهم السائدون(**). وهكذا، فإن جملة العناصر المادية تنتزع من التاريخ، بحيث يمكن الآن إطلاق العنان لجواد التأمل المطهم.

(*) علم وجود الله وصفاته (المترجم).

(**) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] الإنسان = "الروح الإنساني المفكر".

إن هـذا المنهـج التاريخـي الـذي سـاد فـي ألمانيـا بصـورة خاصـة- وإن لهـذه السـيادة أسـبابها - يجـب أن يفهـم انطلاقـاً مـن ارتباطـه بوهـم الإيديولوجييـن بصـورة عامـة، يعنـي أوهـام الحقوقييـن والسياسـيين (وفـي عدادهـم رجـال الدولـة العمليـون أيضـاً)، انطلاقـاً مـن الأحـلام العقائديـة والأفـكار المنحرفـة لهـؤلاء النـاس؛ وإن هـذا الوهـم ليفسـر ببسـاطة تامـة انطلاقـاً مـن مركزهـم العملـي فـي الحيـاة، ومهنتهـم، وتقسـيم العمـل.

وفيمـا يسـتطيع كل صاحـب دكان(*)، فـي الحيـاة العاديـة، أن يميـز جيـداً بيـن مـا يزعـم أي امـرئ أنهـا حقيقـة وبيـن حقيقـة هـذا المـرء الفعليـة، فـإن مؤرخينـا لـم يكتسـبوا بعـد هـذه البصيـرة المبتذلـة. إنهـم يصدقـون مزاعـم كل حقبـة عـن نفسـها، والأوهـام التـي تصنعهـا عـن ذاتهـا.

[IV]

[١- أدوات الإنتاج وأشكال الملكية]

... قـد وجـد(**). ويترتـب علـى النقطـة الأولـى تقسـيم متقـدم للعمـل وتجـارة واسـعة كشـرط مسـبق، بينمـا تترتـب الخاصيـة المحليـة علـى النقطـة الثانيـة. ويجـب فـي الحالـة الأولـى تجميـع الأفـراد؛ أمـا فـي الحالـة الثانيـة فإنهـم يصادفـون إلـى جانـب أداة الإنتـاج المعطـاة، مـن حيـث هـم بالـذات أدوات إنتـاج.

وهنـا يظهـر إذن، الفـرق بيـن أدوات الإنتـاج الطبيعيـة وأدوات الإنتـاج التـي خلقتهـا الحضـارة. إن الحقـل المـزروع (الميـاه، الـخ) يمكـن أن يعتبـر أداة إنتـاج طبيعيـة. وفـي الحالـة الأولـى، بالنسـبة إلـى أداة الإنتـاج الطبيعيـة، يخضـع الأفـراد لهيمنـة الطبيعـة؛ أمـا فـي الحالـة الثانيـة فيخضعـون لأحـد منتجـات العمـل. وفـي الحالـة الأولـى تظهـر الملكيـة أيضـاً، (وهـي الملكيـة العقاريـة هنـا)، علـى أنهـا هيمنـة مباشـرة وطبيعيـة؛ وفـي الحالـة الثانيـة تظهـر هـذه

(*) Shopkeeper، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(**) إن المقطع، الذي كان موجوداً في الدفتر الذي يحمل بخط إنجلز رقم ٣٣ وبخط ماركس الترقيم من ٣٦ إلى ٣٩، ضائع. وإن مجموع الصفحات الضائعة يبلغ أربع صفحات "المترجم".

الملكيـة علـى أنهـا هيمنـة العمـل، وهـو هنـا العمـل المتراكـم، رأس المـال. إن الحالـة الأولـى تفتـرض مسـبقاً أن الأفـراد موحـدون برابطـة مـا، سـواء أكانـت العائلـة، أم القبيلـة، أم الأرض بالـذات، الـخ. وتفتـرض الحالـة الثانيـة أنهـم مسـتقلون عـن بعضهـم بعضـاً ولا يجمـع بينهـم إلَّا التبـادل. وفـي الحالـة الأولـى يكـون التبـادل بصـورة جوهريـة تبـادلاً بيـن البشـر والطبيعـة، تبـادلاً تتـم فيـه مقايضـة عمـل البعـض بمنتـج البعـض الآخـر؛ أمـا التبـادل فـي الحالـة الثانيـة، بصـورة غالبـة، فهـو تبـادل بيـن البشـر أنفسـهم. وفـي الحالـة الأولـى يكفـي ذكاء متوسـط للإنسـان، فالنشـاط الجسـدي والنشـاط الفكـري لـم ينفصـلا بعـد مطلقـاً؛ أمـا فـي الحالـة الثانيـة لا بـد أن يكـون التقسـيم: العمـل الجسـدي والعمـل الفكـري قـد اكتمـل عمليـاً بصـورة مسـبقة. وفـي الحالـة الأولـى يمكـن لهيمنـة المالـك علـى غيـر المالكيـن أن ترتكـز علـى العلاقـات الشـخصية، علـى نـوع مـن الجماعـة المشـاعية [gemeinwesen]؛ أمـا فـي الحالـة الثانيـة فـلا بـد أن تكـون قـد اتخـذت شـكلاً ماديـاً، وتتجسـد فـي طـرف ثالـث هـو المـال. وفـي الحالـة الأولـى تكـون الصناعـة الصغـرى موجـودة، لكنهـا خاضعـة لاسـتخدام أداة الإنتـاج الطبيعيـة، ومـن جـراء ذلـك تفتقـر إلـى توزيـع العمـل بيـن مختلـف الأفـراد؛ أمـا فـي الحالـة الثانيـة، فـلا وجـود للصناعـة إلَّا فـي تقسـيم العمـل ولأغـراض هـذا التقسـيم.

لقـد انطلقنـا حتـى الآن مـن أدوات الإنتـاج وكانـت ضـرورة الملكيـة الخاصـة لبعـض المراحـل الصناعيـة واضحـة سـلفاً فـي هـذه الحالـة. أمـا فـي الصناعـة الاسـتخراجية[*]، فـإن الملكيـة الخاصـة لا تتطابـق كليـاً بعـد مـع العمـل؛ لقـد كانـت الملكيـة، فـي الصناعـة الصغـرى وفـي كل الزراعـة حتـى الآن، النتيجـة الضروريـة لأدوات العمـل المتوافـرة؛ أمـا فـي الصناعـة الكبـرى، فـإن التناقـض بيـن أداة الإنتـاج والملكيـة الخاصـة ليـس سـوى نتـاج لهـذه الصناعـة التـي لا بـدَّ أن تكـون قـد حققـت شـوطاً كبيـراً مـن التطـور كـي تسـتطيع خلقـه. وبنتيجـة ذلـك، فـإن نقـض قانـون الملكيـة الخاصـة غيـر ممكـن أيضـاً إلَّا مـع نقـض الصناعـة الكبـرى.

(*) Industrie extractive، بالفرنسية في النص الأصلي.

[٢- تقسيم العمل المادي والفكري وانفصال المدينة عن الريف ونظام الأصناف الحرفية]

إن التقسيم الأكبر للعمل المادي والفكري هو انفصال المدينة والريف. إن مظهر التضاد بين المدينة والريف يظهر مع الانتقال من الهمجية إلى الحضارة، من التنظيم القبلي إلى الدولة، من الإقليمية إلى الأمة، ويستمر عبر تاريخ الحضارة بأكمله حتى أيامنا الحاضرة (العصبة المناهضة لقانون الحبوب)(١٦). [The Anti-Corn Law League]. وإن وجود المدينة ليتضمن في الوقت ذاته ضرورة وجود الإدارة، والشرطة، والضرائب، الخ، وباختصار ضرورة التنظيم البلدي [Des gemeindewesens]، وبالتالي السياسة بصورة عامة. إن مظهر انقسام السكان للمرة الأولى إلى طبقتين كبيرتين، هو مظهر انقسام يعتمد بصورة مباشرة على تقسيم العمل وعلى أدوات الإنتاج. وإن المدينة هي إذن، نتيجة تمركز السكان، ورأس المال، والملذات، والحاجات، بينما يثبت الريف الحقيقة المضادة تماماً، أي العزلة والتشتت. ولا يمكن أن يكون للتضاد بين المدينة والريف من وجود إلَّا ضمن إطار الملكية الخاصة، وهو يشكل تعبيراً صارخاً عن خضوع الفرد لتقسيم العمل، خضوعه لنشاط محدد مفروض عليه - وهو خضوع يجعل من الإنسان الواحد حيواناً حضرياً محدوداً، ومن الإنسان الآخر حيواناً ريفياً محدوداً، ويولد من جديد، يومياً، التضاد بين مصالح كلا الطرفين. وإن العمل هو من جديد الشيء الرئيسي هنا، السلطان على الأفراد، وما دام لهذا السلطان وجود فلا بد من وجود الملكية الخاصة. إن نقض التضاد بين المدينة والريف هو أحد الشروط الأولى لحياة المشاعة [Gemeneide]، وهو شرط يتوقف بدوره على كتلة من المقدمات المادية ولا يمكن تحقيقه بالإرادة البسيطة المجردة، كما يستطيع أن يتبين كل امرئ من النظرة الأولى. (لا بدَّ بعد من شرح هذه الشروط). وإنه ليمكن فهم الانفصال بين المدينة والريف كذلك على أنه انفصال رأس المال عن الملكية العقارية، على أنه بداية وجود ونمو رأس المال بصورة مستقلة عن الملكية العقارية- بداية ملكية يقوم أساسها على العمل والتبادل وحدهما.

وفي المدن التي لم تتلقاها الحقبة الوسيطة من قبل التاريخ السابق بل أنشأت حديثاً

مـن قبـل الأقنـان الذيـن نالـوا حريتهـم، كان العمـل الخـاص لـكل امـرئ هـو ملكيتـه الوحيـدة، عـلاوة علـى رأسـماله الصغيـر الـذي جلبـه معـه، والـذي كان يتشـكل، علـى وجـه الحصـر تقريبـاً، مـن الأدوات الأشـد ضـرورة لحرفتـه. إن التنافـس بيـن الأقنـان الفاريـن الذيـن كانـوا يتدفقـون باسـتمرار إلـى المـدن، والحـرب المتواصلـة التـي كان يخوضهـا الريـف ضـد المـدن، وبالتالـي ضـرورة وجـود قـوة عسـكرية حضريـة منظمـة، والرابطـة المشـكلة مـن قبـل الملكيـة المشـتركة فـي نـوع محـدد مـن العمـل، وضرورة المبانـي المشـتركة بالنسـبة إلـى الحرفييـن مـن أجـل بيـع سـلعهم حيـن كان هـؤلاء الحرفيـون لا يزالـون تجـاراً، ومـا ترتـب علـى ذلـك مـن اسـتبعاد الأشـخاص غيـر المؤهليـن عـن هـذه المبانـي، والتضـاد بيـن مصالـح الحـرف المختلفـة، وضـرورة حمايـة البراعـة المكتسـبة فيهـا بـكل مشـقة، والتنظيـم الإقطاعـي للبلـد كلـه، هـذه جميعـاً قـد كانـت الأسـباب التـي دفعـت العمـال فـي كل حرفـة إلـى الاتحـاد فـي أصنـاف حرفيـة . وليـس لنـا فـي هـذا الموضـع أن نتعمـق فـي التعديـلات المتباينـة لنظـام الأصنـاف الحرفيـة، هـذه التعديـلات التـي نشـأت عبـر التطـور التاريخـي اللاحـق. إن هجـرة الأقنـان إلـى المـدن قـد اسـتمرت مـن دون انقطـاع عبـر الحقبـة الوسـيطة بأكملهـا. لقـد كان هـؤلاء الأقنـان، المضطهـدون فـي الريـف مـن قبـل أسـيادهم، يقصـدون بصـورة منفصلـة المـدن حيـث كانـوا يصادفـون جماعـة [Gemeinschaft] منظمـة كانـوا حيالهـا عاجزيـن. وكانـوا مضطريـن إلـى الركـون لوضعهـم الـذي كانـت تحـدده الحاجـة إلـى عملهـم ومصلحـة منافسـيهم الحضرييـن المنظميـن. ولـم يتمكـن هـؤلاء العمـال، القادمـون بصـورة منفصلـة، أن يشـكلوا قـط أيـة قـوة لأنهـم كانـوا أمـام أحـد أمريـن: فإمـا أن يكـون عملهـم مـن الصنـف الحرفـي الـذي لا بـدَّ مـن تعلمـه، وعندئـذ كان معلمـو هـذه الأصنـاف الحرفيـة يخضعونهـم لقوانينهـم وينظمونهـم وفقـاً لمصالحهـم الخاصـة، وإمـا أن عملهـم لـم يكـن يتطلـب تعلمـاً، وبالتالـي لـم يكـن يتسـم بطابـع حرفـي، وعندئـذ كانـوا يصبحـون عمـالاً مياوميـن، ولا يتمكنـون قـط فـي هـذه الحـال مـن تنظيـم أنفسـهم، فيظلـون غوغـاء عشـوائية. إن الحاجـة إلـى العمالـة المياومـة فـي المـدن قـد خلقـت الغوغـاء.

كانـت هـذه المـدن "رابطـات" حقيقيـة اقتضتهـا الحاجـة المباشـرة، والاهتمـام بتوفيـر الحمايـة للملكيـة، وكانـت قمينـة بالإكثـار مـن وسـائل الدفـاع عـن أعضائهـا كلاً علـى حـدة. وكانـت

غوغـاء هـذه المـدن تفتقـر بشـكل مطلـق إلـى القـوة، وهـي تتشـكل مـن أفـراد غربـاء عـن بعضهـم بعضـاً وقـد أمـوا المـدن منفصليـن، وهـم يجـدون أنفسـهم مـن دون تنظيـم فـي مواجهـة قـوة منظمـة، مجهـزة مـن أجـل الحـرب، تراقبهـم بـكل غيـرة. وكان العمـال الماهـرون والمتمرنـون منظميـن فـي كل حرفـة علـى أفضـل وجـه يلائـم مصالـح المعلميـن(*). وكانـت العلاقـة البطريركيـة القائمـة بينهـم وبيـن معلميهـم تمنـح هـؤلاء المعلميـن قـوة مزدوجـة - مـن جهـة بسـبب نفوذهـم علـى مجمـل حيـاة العمـال الماهريـن، ومـن جهـة أخـرى لأن هـذه العلاقـة كانـت تشـكل، بالنسـبة إلـى العمـال الماهريـن المشـتغلين مـع المعلـم نفسـه، رابطـة فعليـة تجمعهـم ضـد العمـال الماهريـن المشـتغلين مـع معلميـن آخريـن وتفصلهـم عـن هـؤلاء المعلميـن. وأخيـراً، فقـد كان العمـال الماهريـن مرتبطيـن بالنظـام لمجـرد مصلحتهـم فـي أن يصبحـوا معلميـن بدورهـم. وهكـذا فبينمـا قامـت الغوغـاء علـى الأقل بفتـن ضـد النظـام البلـدي كلـه، وهـي فتـن ظلـت مـن دون فعاليـة مـن جـراء عجزهـا، فـإن العمـال الماهريـن لـم يذهبـوا قـط إلـى أبعـد مـن أعمـال عصيـان صغيـرة ضمـن الأصنـاف الحرفيـة المنفصلـة، كمـا هـو الأمـر فـي طبيعـة كل نظـام الصنـف الحرفـي. وقـد انطلقـت كل الانتفاضـات العظمـى فـي الحقبـة الوسـيطة مـن الريـف، لكـن الإخفـاق كان مـن نصيبهـا كلهـا مـن جـراء عزلـة الفلاحيـن، ومـا يترتـب علـى هـذه العزلـة مـن جهالـة.

وكان رأس المـال فـي هـذه المـدن رأسـمالاً طبيعـي المصـدر يسـتقيم فـي مسـكن، وأدوات الحرفـة، والزبائـن العادييـن الموروثيـن؛ وكان هـذا العمـل يـورث أبـاً عـن جـد مـن جـراء تخلـف التجـارة ونقـص التـداول اللذيـن كانـا يجعـلان منـه ملـكاً غيـر قابـل للتحقيـق. لقـد كان رأس المـال هـذا مغايـراً للرأسـمال الحديـث الـذي يمكـن تقديـره بالمـال والـذي يمكـن اسـتثماره لا علـى التعييـن فـي هـذا المجـال أو ذاك، مرتبطـاً بصـورة مباشـرة بعمـل صاحبـه الخـاص، غيـر منفصـل عنـه، وضمـن هـذه الحـدود فهـو رأسـمال مرتبـط بطبقـة.

وفـي المـدن، كان يتحقـق تقسـيم العمـل بيـن الأصنـاف الحرفيـة الفردية،بصـورة عفويـة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] كانوا فيما بينهم على قدر كبير من الانقسام، نظراً لأن العمال الماهرين لدى مختلف المعلمين كانوا يناهضون بعضهم بعضاً ضمن الحرفة الواحدة.

تماماً بعد، ولم يكن قد نشأ على الإطلاق بين العمال الفرادى داخل الأصناف الحرفية نفسها. كان لا بدَّ لكل عامل أن يتقن دورة كاملة من المهمات، وكان عليه أن يصنع كل ما يمكن صنعه بأدواته. وإن التعامل المحدود والصلات الضعيفة بين المدن المفردة، ونقص السكان وضيق الحاجات، لم تشجع كذلك على قيام تقسيم أعلى من العمل. ولذا فقد كان على كل امرئ راغب في أن يصبح معلماً أن يكون بارعاً كل البراعة في حرفته برمتها. ومن هنا يصادف لدى الحرفيين المتوسطي الأعمار اهتمام في عملهم الخصوصي وفي البراعة فيه يمكن أن يرتفع إلى بعض الحس الفني الضيق. ومهما يكن من شيء، فقد كان كل حرفي متوسط العمر، لهذا السبب بالضبط، منصرفاً كل الانصراف إلى عمله الذي كانت تربطه به علاقة استعباد عاطفية، والذي كانت تبعيته حياله تفوق حتى درجة كبيرة تبعية العامل الحديث الذي يتخذ من عمله موقف اللامبالاة.

[٣ - التقسيم اللاحق للعمل وانفصال التجارة عن الصناعة وتقسيم العمل بين مختلف المدن ـ المانيفاكتورة]

وكان التوسع التالي لتقسيم العمل هو انفصال الإنتاج عن التجارة، وتشكل طبقة خاصة من التجار وهو انفصال كان يشكل حقيقة مكتسبة سلفاً في المدن المخلَّفة من حقبة سابقة (مع اليهود في عداد أشياء أخرى)، وما أسرع ما ظهر في المدن الحديثة النشوء. ولقد أعطيت مع هذا الانفصال إمكانية الصلات التجارية التي تجاوزت المحيط المباشر، وهي إمكانية كان تحقيقها رهناً بوسائط المواصلات القائمة، وبالحالة العامة للأمن في الأرياف، المحددة هي نفسها بالشروط السياسية (كان التجار يسافرون كما هو معروف، طوال الحقبة الوسيطة، في قوافل مسلحة)، وبحاجات المنطقة المفتوحة للتعامل، وهي الحاجات التي كانت تتعين، في كل حالة، بالمستوى الذي بلغته الحضارة.

ومع التجارة التي كانت امتيازاً لطبقة خاصة، ومع التوسع الذي طرأ- بفضل التجار- على التجارة التي تخطت المحيط المباشر للمدينة، ظهر على الفور تفاعل متبادل بين الإنتاج

والتجارة. ودخلت المدن في علاقات بين بعضها البعض، ومن مدينة إلى أخرى كانوا ينقلون أدوات جديدة للإنتاج، وسرعان ما استدعى الانفصال بين الإنتاج والتجارة تقسيماً جديداً للإنتاج بين المدن المختلفة، سرعان ما بدأ يهيمن في كل منها فرع وتستغل كل مدينة منها فرعاً ما متفوقاً من فروع الصناعة. وأخذت القيود المحلية الأولية بالاختفاء شيئاً فشيئاً(*).

وإنه ليتوقف على توسع التجارة كلياً ما إذا كانت القوى المنتجة المحققة في محلة ما، والاختراعات بصورة خاصة، سوف تفقد أو لا تفقد أهميتها بالنسبة إلى التطور اللاحق. فما دامت العلاقات التجارية التي تتجاوز الجوار المباشر معدومة، فلا بدَّ من صنع كل اختراع بصورة منفصلة في كل محلة، بحيث إن المصادفات الصرفة مثل غزوات الشعوب البربرية أوحتى الحروب العادية تكفي لتلزم بلداً ذا قوى منتجة وحاجات(**) متقدمة بأن يبدأ كل شيء من جديد من نقطة البداية. وكان لا بد لكل اختراع، في مطلع التاريخ، من أن يصنع من جديد يومياً وفي كل محلة على حدة. وإن مثال الفينيقيين(***) الذين ضاع القسم الأكبر من اختراعاتهم لمدة طويلة من الزمن من جراء طرد هذه الأمة من التجارة، واستيلاء الإسكندر الكبيرعليها، والانحطاط الذي نجم عن ذلك، يبين لنا إلى أي حد كانت ضمانة القوى المنتجة المتطورة من الدمار التام ضئيلة، حتى إذا أعطيت في ظل تجارة بالغة الاتساع نسبياً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرسم على الزجاج مثلاً في الحقبة الوسيطة. ولا يتأمن الحفاظ على القوى المنتجة المكتسبة بشكل مضمون إلا حين تكتسب التجارة طابعاً عالمياً وتكون الصناعة الكبرى قاعدة لها. وحين تكون الأمم جميعاً قد انجرفت في صراع التنافس.

لقد كانت العاقبة الأولى لتقسيم العمل بين المدن المختلفة قيام المانيفاكتورات، هذه الفروع للإنتاج التي تجاوزت نظام الأصناف الحرفية. ولقد ازدهرت المانيفاكتورات في إيطاليا بادئ الأمر، وفي فلاندر في وقت واحد، وكانت التجارة مع الأمم الأجنبية الشرط

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] تخرج من عزلتها.

(**) [صياغة أخرى في المخطوطة:] تكفي لتجعل كتلة من القوى المنتجة والاختراعات المكتسبة حتى زمن طويل...

(***) [ملحوظة هامشية من ماركس:] والرسم على الزجاج في الحقبة الوسيطة.

التاريخـي لهـذا الازدهـار. وفـي بلـدان أخـرى، إنكلتـرا وفرنسـا علـى سـبيل المثـال، اقتصـرت المانيفاكتـورات بـادئ الأمـر علـى السـوق الداخليـة. وعـلاوة علـى الشـروط المسـبقة الآنفـة الذكـر، فـإن ظهورالمانيفاكتـورات مرهـون باشـتداد تركـز السـكان - فـي الأريـاف بصـورة خاصـة - وبـرأس المـال الـذي تراكـم فـي أيـدي أعـدادٍ قليلـة، قسـم منـه فـي الأصنـاف الحرفيـة بالرغـم مـن التنظيمـات الإداريـة، وقسـم آخـر لـدى التجـار.

وإن ذلـك النـوع مـن العمـل الـذي كان يفتـرض منـذ البدايـة آلـة، حتـى الآلـة الأكثـر بدائيـة، سـرعان مـا أثبـت أنـه العمـل الأكثـر قابليـة للتطـور. إن الحياكـة، التـي كان الفلاحـون يمارسـونها حتـى ذلـك الحيـن فـي الأريـاف عـلاوة علـى عملهـم الأساسـي لكـي يؤمنـوا لأنفسـهم الألبسـة الضروريـة، قـد كانـت سـباقة إلـى الانطـلاق وإلـى تحقيـق تطـور واسـع بفعـل توسـع التجـارة. لقـد كانـت الحياكـة الفعاليـة المانيفاكتوريـة الأولـى، وظلـت المانيفاكتـورة الرئيسـية. إن ارتفـاع الطلـب علـى الألبسـة، بفعـل ازديـاد عـدد السـكان، وبدايـة التراكـم والتعبئـة للرأسـمال البدائـي بفضـل التـداول المتسـارع، والطلـب علـى الحاجـات الترفيهيـة الـذي نشـأ عـن هـذا التـداول والـذي شـجعه بصـورة خاصـة التوسـع المتـدرج للتجـارة، قـد منحـت الحياكـة زخمـاً كميـاً ونوعيـاً انتشـلها مـن إطـار شـكل الإنتـاج القائـم حتـى ذلـك الحيـن. وانبثقـت فـي المـدن، إلـى جانـب الفلاحيـن الذيـن كانـوا يمارسـون الحياكـة لمنفعتهـم الخاصـة والذيـن اسـتمروا ولا يزالـون مسـتمرين فـي هـذا النـوع مـن العمـل، انبثقـت طبقـة جديـدة مـن الحائكيـن كانـت معاملهـم وأقمشـتهم معـدة للسـوق الداخليـة بكليتهـا، وفـي معظـم الأحيـان للأسـواق الخارجيـة أيضـاً.

إن الحياكـة، وهـي نـوع مـن العمـل الـذي يتطلـب مهـارة ضئيلـة فـي معظـم الحـالات، سـرعان مـا انقسـمت إلـى فـروع لا حصـر لهـا، قـد قاومـت بفعـل طبيعتهـا بالـذات قيـد الأصنـاف الحرفيـة. وبنتيجـة ذلـك، فقـد انتشـرت الحياكـة علـى الأغلـب فـي القـرى والدسـاكر الخاليـة مـن تنظيـم الأصنـاف الحرفيـة، التـي أصبحـت مدنـاً بصـورة تدرجيـة، والمـدن الأكثـر ازدهـاراً حقـاً فـي جميـع البلـدان.

ومـع ظهـور المانيفاكتـورة الحـرة مـن القيـود الحرفيـة تبدلـت علاقـات الملكيـة سـريعاً أيضـاً. ولقـد تحققـت الخطـوة الأولـى علـى طريـق تجـاوز رأس المـال البدائـي المرتبـط بطبقـة

بفضل ظهور التجار الذين كان رأسمالهم منقولاً منذ البداية، وهو إذن، رأسمال بالمعنى الحديث بقدر ما يستطيع المرء أن يتحدث عنه إذا أخذت ظروف تلك الأزمنة بعين الاعتبار. وتحققت الخطوة الثانية مع المانيفاكتورة التي جندت بدورها كتلة من رأس المال البدائي، وبذلك زادت كتلة رأس المال المنقول مقارنة مع كتلة رأس المال البدائي.

و أصبحت المانيفاكتورة في الوقت ذاته ملجأ للفلاحين من الأصناف الحرفية التي كانت تستعبدهم أو تدفع لهم أجوراً متدنية، بالضبط كما [خدمت] مدن الأصناف الحرفية في وقت سابق كملجأ للفلاحين من [النبالة العقارية التعسفية].

وقد تزامنت مع بداية المانيفاكتورية مرحلة من التشرد نجمت عن اندثار الحاشيات المسلحة الإقطاعية، وتسريح الجيوش التي حُشدت والتي كان الملوك يستخدمونها ضد الأمراء من أتباعهم، وكذلك عن تحسن الزراعة، وتحويل مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية إلى مراعٍ. وإنه لواضح من هذا الأمر وحده مبلغ الارتباط الوثيق بين هذا التشرد وانحلال النظام الإقطاعي. وإننا لنصادف منذ القرن الثالث عشر بعض المراحل من هذا النوع، لكن التشرد لم يستقر بصورة عامة ودائمة إلا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر. لقد كان هؤلاء المشردون يشكلون أعداداً كبيرة جداً بحيث أقدم هنري الثامن ملك إنكلترا على شنق ٧٢,٠٠٠ واحد منهم على سبيل المثال، ولم يكن بدّ من البؤس المدقع لحملهم على العمل، الأمر الذي لم يكن يتحقق إلا بمشقة عظمى وبعد مقاومة طويلة. وإن النهوض السريع للمانيفاكتورة، وعلى الأخص في إنكلترا، قد امتصهم بصورة تدريجية.

ومع قيام المانيفاكتورات، وضعت الأمم المختلفة في علاقات تنافس، وانخرطت في صراع تجاري، هذا الصراع الذي احتدم بواسطة الحروب، ورسوم الحماية الجمركية، وحظر الاستيراد، بينما كانت الأمم فيما مضى، تعمد من قبل إلى التبادل السلمي عندما كانت تقيم صلات وعلاقات فيما بينها . لقد بات للتجارة من الآن فصاعداً مغزى سياسياً.

ومع قيام المانيفاكتورة تبدلت العلاقة بين العامل ورب العمل. إن العلاقة البطريركية بين العامل الماهر والمعلم قد استمرت في الأصناف الحرفية؛ أما في المانيفاكتورة، فقد

حلّت مكانها العلاقات النقدية بين العامل والرأسمالي - وهي علاقات احتفظت بصبغة بطريركية في الريف وفي المدن الصغرى، لكنها فقدت كل الملامح البطريركية على وجه التقريب في وقت مبكر في المدن الأكبر، المدن المانيفاكتورية حقاً وفعلاً.

وتلقت المانيفاكتورة وحركة الإنتاج بصورة عامة دفعة كبيرة من جراء توسع التجارة، هذا التوسع الذي تحقق مع اكتشاف أميركا والطريق البحرية إلى الهند الشرقية. إن المنتجات الجديدة المستوردة من هناك، وبصورة خاصة كتل الذهب والفضة التي وضعت قيد التداول، قد بدلت بشكل عميق مركز الطبقات حيال بعضها بعضاً، ووجهت صفعة شديدة إلى الملكية العقارية الإقطاعية وإلى العمال؛ وإن حملات المغامرين، والاستعمار، وفي المحل الأول اتساع الأسواق وتحولها إلى سوق عالمية باتت عملية ممكنة الآن وكانت تتحول أكثر فأكثر إلى حقيقة واقعة كل يوم، كل هذا قد أدى إلى ظهور مرحلة جديدة من مراحل التطور التاريخي ليس لنا هنا أن نتعمق فيها على العموم. إن صراع الأمم التجاري فيما بينها قد أعطي، بفضل استعمار البلدان المكتشفة حديثاً، غذاء جديداً، وبالتالي توسعاً أكبر وحدة أعظم.

وقد عجّل اتساع التجارة والمانيفاكتورة في تراكم رأس المال المنقول، بينما ظل رأس المال البدائي مستقراً أو تعرَّض للتدهور أيضاً في الأصناف الحرفية التي لم تكن تتلقى أي حافز من أجل زيادة إنتاجها. إن التجارة والمانيفاكتورة قد خلقت البورجوازية الكبيرة؛ أما في الأصناف الحرفية فقد تركزت فئة صغار المالكين، الذين لم يعودوا مهيمنين في المدن بعد الآن كما كان الأمر فيما مضى، بل لم يكن لهم بدّ من الانحناء أمام سلطان التجار والمانيفاكتوريين الكبار(*). ومن هنا كان انحطاط الأصناف الحرفية حالما دخلت في احتكاك مع المانيفاكتورات.

واتخذت العلاقات التجارية بين الأمم، في الحقبة التي كنا نتحدث عنها، مظهرين مختلفين: إن الكمية الضئيلة من الذهب والفضة المطروحة في التداول قد فرضت بادئ

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] فئة المالكين الصغار– المرتبة المتوسطة – البورجوازية الكبيرة.

الأمر حظراً على تصدير هذين المعدنين؛ ولم تستطع الصناعة التي أصبحت ضرورية من أجل توفير العمل لسكان المدن المتزايدة أعدادهم باستمرار، هذه الصناعة المستوردة من الخارج على الأغلب، والتي لم تكن تستطيع الاستغناء عن تلك الامتيازات التي كان من الممكن توجيهها ليس ضد التنافس الداخلي وحده بكل تأكيد، بل أيضاً في مواجهة التنافس الخارجي بصورة رئيسية. وإن الامتياز للأصناف الحرفية المحلية، في هذه المحظورات الأصلية، قد اتسع بحيث شمل الأمة كلها. ولقد نشأت الرسوم الجمركية من الجزية التي كان يجبيها الإقطاعيون من التجار الذين يعبرون أراضيهم على أساس أنها مكوس للحماية من السرقة، وأخذت المدن في وقت لاحق تجبي هذه الجزية، وأصبحت أنجع وسيلة لتحصيل المال بالنسبة إلى الخزينة مع قيام الدول الحديثة.

إن ظهور الذهب والفضة الأميركيين في الأسواق الأوروبية، والتطور التدريجي للصناعة، واتساع التجارة وما ترتب عليه من نهوض البورجوازية غير المرتبطة بالأصناف الحرفية وتعاظم أهمية المال، قد أعطت هذه التدابير مغزى آخر. إن الدولة، التي كان عجزها عن تدبير الأمور من دون المال يتفاقم يوماً بعد يوم، قد احتفظت بالحظر على تصدير الذهب والفضة لاعتبارات جبائية؛ وإن البورجوازيين، الذين كان هدفهم الرئيسي الآن الاستيلاء على هذه الكتل من المال المقذوفة حديثاً في السوق، قد كانوا راضين كل الرضى عن هذا الأمر؛ وقد أصبحت الامتيازات السابقة مصدراً للدخل بالنسبة إلى الحكومة، وكانت تباع لقاء المال؛ وظهرت في التشريع الجمركي ضريبة التصدير والتي كانت لأغراض جبائية صرفة ما دامت لم تفعل سوى [إقامة] العقبات في طريق الصناعة.

وبدأت المرحلة الثانية في منتصف القرن السابع عشر واستمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر على وجه التقريب. كانت التجارة والملاحة قد اتسعتا بصورة أسرع من اتساع المانيفاكتورة التي كانت تلعب دوراً ثانوياً؛ وكانت المستعمرات قد بدأت تتحول إلى مستهلكين هائلين؛ ولقد تقاسمت الأمم المختلفة فيما بينها، بعد نزاعات طويلة، السوق العالمية المفتوحة(*). ولقد بدأت هذه المرحلة مع قوانين الملاحة(١٧) والاحتكارات

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] لقد تم الاستيلاء على السوق العالمية المفتوحة من قبل الأمم المختلفة التي تنازعت على استثمارها.

المستعمرية. ولقد تحقق تفادي التنافس بين الأمم قدر الإمكان بفضل التعريفات، والموانع، والمعاهدات؛ وفي آخر الأمر كانت الحروب (وخصوصاً الحروب البحرية) هي التي عملت على خوض صراع التنافس وقررت نتيجته. وإن الأمة الإنكليزية، وهي الأمة البحرية الأقوى، قد احتفظت بالتفوق على صعيدي التجارة والمانيفاكتورة. وإننا لنصادف هنا، منذ ذلك الحين، التركز في بلد واحد.

وكانت المانيفاكتورة تحظى بالحماية طوال الوقت بفضل قوانين الحماية الجمركية في السوق الداخلية، وبفضل الاحتكارات في أسواق المستعمرات، وبالرسوم الجمركية التفاضلية قدر الإمكان في الخارج[١٨]. ولقد شجعت صناعة الخامات ذات الإنتاج المحلي (الصوف والكتان في إنكلترا، والحرير في فرنسا)، وحظر تصدير الخامات ذات الإنتاج المحلي (الصوف في إنكلترا)، وأهملت [صناعة] المواد المستوردة أو ألغيت (القطن في إنكلترا). وقد ضمنت الأمة المهيمنة على صعيد التجارة البحرية والقوة الاستعمارية لنفسها كذلك أكبر توسع كمي وكيفي للمانيفاكتورة. ولم يكن في مقدور المانيفاكتورة الاستغناء مطلقاً عن الحماية ما دام في الإمكان أن تفقد سوقها وتتعرض للدمارلأتفه تبدل يحدث في البلدان الأخرى: ذلك أنه كان في الإمكان، في شروط ملائمة حتى درجة ما، إدخالها بكل سهولة إلى بلد ما، لكنه في الإمكان تدميرها بكل سهولة للسبب عينه. ولقد كانت المانيفاكتورة في الوقت ذاته متداخلة حتى درجة كبيرة بظروف حياة كتلة كبيرة من الأفراد، من جراء الطريقة التي كانت مطبقة بها، وعلى الأخص في القرن الثامن عشر، في الريف، بحيث لم يكن أي بلد يجرؤ على تعريض وجوده للخطر من خلال السماح بالتنافس الحر. وهكذا فقد كان وجودها مرهوناً كلياً، بقدر ما كانت تتدبر أمرها كي تصدِّر، باتساع التجارة أو ضيقها، وكانت تمارس تأثيراً ضئيلاً جداً نسبياً [على هذه التجارة]. ومن هنا كانت [أهميتها] الثانوية [...][*] ونفوذ [التجار] في القرن الثامن عشر. لقد كان التجار، وعلى الأخص مجهزي السفن، هم الذين شددوا أكثر من أي شخص آخر على حماية الدولة والاحتكارات؛ ولقد طالب المانيفاكتوريون أيضاً بالحماية وحصلوا عليها حقاً، لكنهم كانوا

(*) فقرة تالفة في المخطوطة.

طوال الوقت من دون التجار من حيث الأهمية السياسية. وإن المدن التجارية، والمرافئ بصورة خاصة، قد بلغت درجة نسبية من الحضارة وأصبحت مدناً للبورجوازية الكبيرة، بينما استمرت روح فئة صغار المالكين المتطرفة قائمة في المدن الصناعية. راجع إيكن، الخ[١٩]. لقد كان القرن الثامن عشر قرن التجارة[*]، وهذا ما يقوله بنتو بكل وضوح[٢٠]: "لقد أصبحت التجارة هوس الحقبة" و" إن الاهتمام منصرف كلياً، منذ بعض الوقت، إلى التجارة والملاحة البحرية"[**].

كانت حركة رأس المال، على الرغم من تسارعها الشديد، لا تزال بطيئة نسبياً على أية حال. إن انشطار السوق العالمية إلى أقسام منعزلة تستغل كلاً منها أمة خاصة، ونقض التنافس بين الأمم، وخراقة الإنتاج نفسه، وحقيقة أن النظام المالي كان في مرحلة تطوره البدائية بعد، قد عرقلت التداول كثيراً. ولقد ترتب على ذلك روح مماحكة وحقيرة، وشحيحة، ظلت عالقة بجميع التجار وبكل نمط ممارسة التجارة. لقد كان التجار بكل تأكيد بورجوازيين كباراً مقارنة مع المانيفاكتوريين، وفي المحل الأول الحرفيين؛ وإنهم ليظلون مالكين صغاراً مقارنة مع التجار والصناعيين في المرحلة التالية. أنظر آدم سميث[٢١].

واتصفت هذه المرحلة أيضاً برفع الحظر عن تصدير الذهب والفضة ونشؤ التجارة بالنقد، والمصارف، وديون الدولة، والنقد الورقي، والمضاربة برؤوس الأموال والأسهم من مختلف الأصناف، وتطور النظام النقدي عامة. ولقد فقد رأس المال من جديد قسماً كبيراً من طابعه الطبيعي الأولي الذي كان ملازماً له بدرجة ما.

[٤ - التقسيم المتشعب للعمل ـ الصناعة الكبرى]

إن تركز [Konzentration] التجارة والمانيفاكتورة في بلد واحد، إنكلترا، كما تطورت من دون انقطاع في القرن السابع عشر، قد خلق بصورة تدرجية من أجل هذا البلد سوقاً عالمية

(*) Le commerce fait la marotte du siécle، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Dépuis quelque temps il n′est plus que de commerce, de navigation et de marine
الفرنسية في النص الاصلي .

نسبية، وكذلك طلباً على المنتجات المانيفاكتورية الإنكليزية لم تكن القوى المنتجة الصناعية المتوافرة حتى ذلك الحين قادرة على تلبيته. إن هذا الطلب الذي تجاوز القوى المنتجة قد كان القوة المحركة التي استدعت إلى الوجود، بإنتاجها الصناعة الكبرى - استخدام قوى الطبيعة لأغراض صناعية، والإنتاج الآلي، وتقسيم للعمل أكثر تقدماً - المرحلة الثالثة للملكية الخاصة منذ الحقبة الوسيطة. ولقد كانت الشروط الأخرى لهذه المرحلة الجديدة موجودة سلفاً في إنكلترا: حرية التنافس ضمن نطاق الأمة، وتطور الميكانيك النظري، الخ. (في الحقيقة إن علم الميكانيك الذي بلغ ذروته آنذاك، في أعمال نيوتن قد كان العلم الأكثر شعبية في فرنسا وإنكلترا في القرن الثامن عشر). (كان لا بد من ثورة في كل مكان من أجل الفوز بحرية التنافس- ضمن نطاق الأمة ١٦٤٠- ١٦٨٨ في إنكلترا، ١٧٨٩ في فرنسا).

وسرعان ما أجبر التنافس كل بلد لا يرغب في فقدان دوره التاريخي لأجل حماية مانيفاكتوراته على اللجوء إلى تنظيمات ضريبية متجددة (إن الضرائب القديمة لم تعد صالحة بعد الآن أمام الصناعة الكبرى) وعلى إدخال الصناعة الكبرى عاجلاً في ظل تعريفات الحماية. ولقد عممت الصناعة الكبرى التنافس بالرغم من هذه التدابير الحمائية (تلك هي حرية التجارة العملية، وليست الضرائب الحمائية إلا علاجاً مسكناً، إجراءً دفاعياً ضمن حدود حرية التجارة)، وأنشأت وسائل المواصلات والسوق العالمية الحديثة، وأخضعت التجارة لها، وحولت رأس المال كله إلى رأس مال صناعي، وبذلك أدت إلى التداول (تطور النظام النقدي) والتركز السريع لرأس المال. ولقد أجبرت جميع الأفراد، بواسطة التنافس العام، على شحذ طاقتهم حتى الدرجة القصوى. ولقد دمرت بقدر الإمكان الإيديولوجية، والدين، والأخلاق، الخ، وجعلت منها أكذوبة ملموسة حيثما لم تتوصل إلى تدميرها. لقد خلقت حقاً التاريخ العالمي للمرة الأولى، وذلك بقدر ما جعلت جميع الأمم المتحضرة وكل عضو فرد فيها رهناً بالسوق العالمية من أجل تلبية حاجاتها، مدمرة بذلك الانعزالية الطبيعية السابقة للأمم المختلفة. لقد جعلت العلوم الطبيعية خاضعة لرأس المال وانتزعت من تقسيم العمل آخر مظهر من مظاهر طابعه الطبيعي. لقد دمرت كل عنصر طبيعي بصورة

عامة، بقدر ما كان ذلك في حيز الإمكان داخل العمل، ونجحت في حل جميع العلاقات الطبيعية لتجعل منها علاقات نقدية. لقد خلقت مكان المدن النامية بصورة طبيعية المدن الصناعية العملاقة الحديثة التي انبثقت بين ليلة وضحاها. ولقد دمرت حيثما تغلغلت الحرف اليدوية، وعلى العموم جميع مراحل الصناعة السابقة. لقد أكملت انتصار المدينة التجارية على الريف. إن [شرطها الأول] هو النظام الآلي. ولقد أنتج [تطورها] كتلة من القوى المنتجة أصبحت [الملكية] الخاصة بالنسبة إليها قيداً بقدر ما كانت الأصناف الحرفية مثل هذا القيد بالنسبة إلى المانيفاكتورة، والمشغل الريفي بالنسبة إلى الحرفة المتنامية. ولقد تلقت هذه القوى المنتجة، في ظل نظام الملكية الخاصة، تطوراً وحيد الجانب فحسب، وأضحت في غالبيتها قوى مدمرة؛ والأكثر من ذلك أن قدراً كبيراً من مثل هذه القوى لم يكن يستطيع أن يجد تطبيقاً نافعاً على الإطلاق في إطار هذا النظام. وعلى العموم، فإن الصناعة الكبرى قد خلقت في كل مكان العلاقات ذاتها بين طبقات المجتمع، وبذلك دمرت الخصائص الفردية للقوميات المختلفة. وأخيراً، بينما كانت بورجوازية كل أمة تحتفظ بعد بمصالح قومية خاصة، فقد خلقت الصناعة الكبرى طبقة تملك المصلحة نفسها في جميع الأمم، وقد تم نقض العزلة القومية سلفاً بالنسبة إليها؛ طبقة قد تخلصت بالفعل من العالم القديم برمته، وهي تقف في الوقت ذاته في موقف التضاد معه. إن الصناعة الكبرى لا تجعل من العلاقات مع الرأسمالي فحسب، بل من العمل نفسه أيضاً، أمراً لا يحتمل بالنسبة إلى العامل.

لقد أصبح واضحاً أن الصناعة الكبرى لا تبلغ المستوى ذاته من التقدم(*) في جميع أقاليم البلد الواحد. ومهما يكن من أمر، فإن هذا لا يؤخر حركة البروليتاريا الطبقية،لأن البروليتاريين الذين خلقتهم الصناعة الكبرى يأخذون زمام القيادة في هذه الحركة ويجرفون الكتلة كلها معهم، ولأن العمال المبعدين من الصناعة الكبرى يوضعون من قبلها في وضعية أسوأ أيضاً، من وضعية العمال في الصناعة الكبرى ذاتها. وإن البلدان حيث تطورت الصناعة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] في جميع البلدان ولا.

الكبـرى تؤثـر بطريقـة مماثلـة فـي البلـدان التـي تفتقـر أكثـر أو أقـل إلـى الصناعـة، وذلـك بقـدر مـا تنجـرف هـذه البلـدان غيـر الصناعيـة بفعـل التجـارة العالميـة فـي تيـار صـراع التنافـس العـام.

***

إن هـذه الأشـكال المختلفـة هـي علـى وجـه الدقـة أشـكال مـن أجـل تنظيـم العمـل، وبالتالـي الملكيـة. ويحـدث فـي كل مرحلـة توحيـد للقـوى المنتجـة المتوافـرة، وذلـك بقـدر مـا تجعـل الحاجـات هـذا التوحيـد أمـراً ضروريـاً.

[٥ - التناقض بين القوى المنتجة وشكل التعامل بوصفه أساس الثورة الاجتماعية]

إن هـذا التناقـض بيـن القـوى المنتجـة وشـكل التعامـل، الـذي حـدث كمـا رأينـا مـرات عديـدة فـي التاريـخ الماضـي، مـن دون أن يعـرِّض القاعـدة الأساسـية للخطـر علـى أي حـال، قـد اندلـع بالضـرورة فـي ثـورة فـي كل مناسـبة، متخـذاً فـي الوقـت ذاتـه أشـكالاً ثانويـة متباينـة، مثـلاً نزاعـات شـاملة، أو صدامـات الطبقـات المختلفـة، أو تناقـض الوعـي، أو صـراع الأفـكار، الـخ، أو النـزاع السياسـي، الـخ. ويسـتطيع المـرء، مـن وجهـة نظـر ضيقـة، أن ينظـر إليـه كأسـاس لهـذه الثـورات . ومـن السـهل القيـام بذلـك خصوصـاً وأن الأفـراد أنفسـهم الذيـن انطلقـت منهـم هـذه الثـورات، قـد صنعـوا لأنفسـهم تبعـاً لدرجـة ثقافتهـم ولمرحلـة التطـور التاريخـي، أوهامـاً مـن كل طـراز ولـون بشـأن نشـاطهم الخـاص.

***

وهكـذا فـإن أصـل جميـع النزاعـات فـي التاريـخ، وفقـاً لتصورنـا، هـو فـي التناقـض بيـن القـوى المنتجـة وشـكل التعامـل. ولا حاجـة لهـذا التناقـض علـى أيـة حـال، كـي يـؤدي إلـى النزاعـات فـي بلـد مـا، أن يكـون قـد بلـغ بالضـرورة حـده الأقصـى فـي هـذا البلـد بالـذات. إن التنافـس مـع البلـدان الأكثـر تقدمـاً صناعيـاً، المترتبـة علـى توسـع التعامـل الدولـي، كاف لإنتـاج تناقـض مماثـل حتـى فـي بلـدان ذات صناعـة متخلفـة (ومثـال علـى ذلـك البروليتاريـا الكامنـة فـي ألمانيـا التـي أدت منافسـة الصناعـة الإنكليزيـة إلـى ظهورهـا).

[٦ - تنافس الأفراد وتشكل الطبقات والتناقض بين الأفراد وشروط عيشهم والوحدة الوهمية للأفراد كجماعة في ظل المجتمع البورجوازي والاتحاد الفعلي للأفراد في ظل الشيوعية وخضوع الشروط الاجتماعية للحياة لسلطة الأفراد المتحدين]

ويعزل التنافس الأفراد عن بعضهم بعضاً، ليس فقط البورجوازيون منهم، بل بصورة أشد من ذلك البروليتاريون أيضاً، بالرغم من كونه يجمع بينهم . لذلك ستنقضي حقبة طويلة من الزمن قبل أن يتحد هؤلاء الأفراد، بغض النظر عن الحقيقة التالية : ألا وهي أنه لا بد للصناعة الكبرى أن تنتج لأغراض هذا الاتحاد - إذا كان يجب ألا يكون محلياً صرفاً - الوسائل الضرورية، من مدن صناعية كبرى، ووسائل مواصلات رخيصة وسريعة . ولهذا لا يمكن، إلا بعد نضال طويل، التغلب على أية قوة منظمة في مواجهة هؤلاء الأفراد المنعزلين، الذين يعيشون في ظروف تعيد خلق هذه العزلة بشكل يومي . إن الدعوة إلى عكس ذلك تعني الدعوة إلى عدم وجود التنافس في هذه الحقبة المحددة من التاريخ، أو أن يستأصل هؤلاء الأفراد من أذهانهم الظروف التي لا يملكون أية سيطرة عليها من جراء عزلتهم.

***

بناء المنازل. من المفروغ منه أن لكل عائلة، لدى المتوحشين، كهفها أو كوخها الخاص، مثل خيمة الأسرة المنفصلة لدى البدو. وإن التطور اللاحق للملكية الخاصة يزيد من ضرورة هذا الاقتصاد المنزلي المنفصل. وإن الاقتصاد المنزلي المشاعي مستحيل لدى الشعوب الزراعية استحالة الزراعة المشاعة للأرض. وكان بناء المدن تقدماً كبيراً. ومهما يكن من أمر، فإن نقض [Abolition - Aufhebung] الاقتصاد الفردي الذي لم يكن ينفصل في جميع المراحل السابقة عن نقض الملكية الخاصة قد كان محالاً لهذا السبب الوحيد، إلا وهو انعدام الشروط المادية المتحكمة فيه. إن إقامة اقتصاد منزلي مشاعي يفترض مسبقاً تطور الآلات، واستخدام القوى الطبيعية، وقوى إنتاجية أخرى عديدة - وسائل تزويد المياه، والإنارة الغازية، والتدفئة البخارية، الخ...، والقضاء [Supersession-Aufhebung]

[على التضاد] بين المدينة والريف. وإن اقتصاداً مشاعاً لا يمكن أن يشكل بحد ذاته قوة منتجة جديدة من دون تلك الشروط؛ فإما كان يفتقر إلى أي أساس مادي ويستند إلى قاعدة نظرية صرفة، فإنه سوف يكون مجرد ضرب من الهوس وينتهي إلى اقتصاد رهباني ليس غير. ويمكن أن نرى الأمور التي كانت ممكنة في المدن التي نشأت عن التكاثف وبناء المباني العامة لأغراض متنوعة (السجون، البراكات، الخ.). أما أن نقض الاقتصاد الفردي لا ينفصل عن نقض العائلة، فذلك أمر بديهي.

***

(إن العبارة التي كثيراً ما نصادفها لدى القديس ماكس: "إن كل امرئ هو كل ما هو عليه بفضل الدولة"، ترجع في حقيقة الأمر إلى القول بأن البورجوازي ليس سوى نموذج للنوع البورجوازي، وهي عبارة تفترض أن طبقة البورجوازيين لا بد أنها وجدت قبل وجود الأفراد الذين يشكلونها)[*].

كان المواطنون في كل مدينة في الحقبة الوسيطة ملزمين بالاتحاد ضد النبالة العقارية إنقاذاً لجلودهم. وقد أدى توسع التجارة وإنشاء المواصلات إلى تعرف المدن المنفصلة إلى مدن أخرى دافعت عن المصالح ذاتها في النضال ضد الخصم ذاته[**]. ولم تنشأ الطبقة البورجوازية إلّا بصورة تدرجية انطلاقاً من البورجوازيات المحلية العديدة لمختلف المدن. ولقد أصبحت الشروط الحياتية للبورجوازيين الفرادى، من جراء تناقضها مع العلاقات القائمة ومن جراء نمط العمل المقرر بفعل هذه العلاقات، شروطاً مشتركة بينهم جميعاً ومستقلة عن كل فرد على حدة[***]. إن البورجوازيين قد خلقوا هذه الشروط بقدر

(*) [وضع ماركس هذه العبارة بين قوسين كبيرين وكتب في العمود الأيمن هذه الملاحظة:] الوجود المسبق للطبقة عند الفلاسفة.

(**) [صياغة أخرى في المخطوطة:] أدى إلى اتحاد مدن متعددة، الأمر الذي تفسره هوية مصالحها حيال السادة الإقطاعيين.

(***) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن اتحاد هذه الشروط الحياتية الفردية قد أصبح من الشروط الوجودية المشتركة لطبقة.

مـا تحـرروا بالقـوة مـن القيـود الإقطاعيـة، ولكـن هـذه الشـروط خلقتهـم بقـدر مـا كان يقـرره تضادهـم مـع النظـام الإقطاعـي الـذي وجـدوه قائمـاً. مـع الصـلات بيـن المـدن المختلفـة تحوَّلـت هـذه الشـروط المشـتركة إلـى شـروط طبقيـة. وإن الشـروط نفسـها، والتضـاد نفسـه، والمصالـح نفسـها، قـد اسـتدعت بشـكل فطـري، علـى وجـه الإجمـال، أعـراف متماثلـة فـي كل مـكان. وإن البورجوازيـة بالـذات لا تتطـور إلَّا بصـورة تدرجيـة فـي الوقـت ذاتـه مـع شـروطها الخاصـة، وتتـوزع وفقـاً لتقسـيم العمـل إلـى فئـات متعـددة، وتمتـص أخيـراً، جميـع الطبقـات المالكـة التـي تصادفهـا قائمـة[*] (بينمـا تحـوّل غالبيـة الطبقـات غيـر المالكـة السـابقة وقسـماً مـن الطبقـات المالكـة حتـى ذلـك الحيـن إلـى طبقـة جديـدة هـي البروليتاريـا) بالقـدر الـذي تتحـول وفقـاً لـه كل الملكيـة القائمـة إلـى رأسـمال صناعـي أو تجـاري.

إن مختلـف الأفـراد لا يشـكلون طبقـة إلا بقـدر مـا يتوجـب عليهـم أن يخوضـوا معركـة مشـتركة ضـد طبقـة أخـرى؛ وفيمـا عـدا ذلـك فهـم فـي حالـة عـداء متبـادل فـي التنافـس. ومـن جهـة أخـرى، فـإن الطبقـة بدورهـا تحقـق وجـوداً مسـتقلاً إزاء الأفـراد، بحيـث يجـد هـؤلاء الأفـراد أن شـروط وجودهـم مقـررة سـلفاً، وبالتالـي فـإن مركزهـم فـي الحيـاة وتطورهـم الشـخصي محـددان لهـم مـن قبـل طبقتهـم، فيصبحـون مصنفيـن فـي عدادهـا. وتلـك هـي نفـس ظاهـرة خضـوع الأفـراد المنعزليـن لتقسـيم العمـل، ولا يمكـن الخـلاص مـن هـذه الظاهـرة إلَّا بنقـض الملكيـة الخاصـة ونقـض العمـل نفسـه. ولقـد أشـرنا مـرات عديـدة مـن قبـل إلـى الكيفيـة التـي يـؤدي بهـا خضـوع الأفـراد لطبقتهـم إلـى خضوعهـم فـي الوقـت ذاتـه لمختلـف أنـواع الأفـكار، الـخ.

وإذا مـا أخـذ المـرء بعيـن الاعتبـار، مـن وجهـة نظـر فلسـفية، هـذا التطـور للأفـراد فـي[**] الشـروط المشـتركة لوجـود المراتـب والطبقـات، التـي تتعاقـب تاريخيـاً، وفـي التصـورات العامـة المرافقـة التـي فرضـت عليهـا، فمـن المؤكـد أنـه يسـتطيع حقـاً أن يتخيـل أن "النـوع"، أو "الإنسـان"،

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] تمتص بادئ ذي بدء فروع العمل التي تخص الدولة بصورة مباشرة، ومن بعد جميع (أكثر أو أقل) الفئات الإيديولوجية.

(**) [إن هذه الفقرة قد شطبت في المخطوطة:] في شروط وجودهم المعطاة جزئياً أو الناتجة جزئياً عن تطور هذه الشروط المعطاة.

قد تطور في هؤلاء الأفراد، أو أن الأفراد قد طوروا "الإنسان" - ويستطيع المرء بهذه الطريقة أن يوجه إلى التاريخ بضع صفعات قاسية على الأذن. إن في مستطاع المرء أن يتصور هذه المراتب والطبقات المتباينة على أنها تخصيصات للتعبير العام، تقسيمات فرعية، لِـ"النوع"، أو أطوار تطورية "للإنسان".

إن هذا التصنيف للأفراد ضمن طبقات محددة لا يمكن أن ينقض حتى تتطور طبقة لا تملك بعد أية مصلحة طبقية خاصة تؤكدها ضد الطبقة السائدة.

***

إن تحول القوى الشخصية (العلاقات) إلى قوى موضوعية بفعل تقسيم العمل لا يمكن نقضه بمجرد محو فكرته العامة من ذهن المرء، بل لا يصبح نقضه ممكناً إلا إذا عمد الأفراد من جديد إلى اخضاع هذه القوى الموضوعية وإلى نقض تقسيم العمل(*). وليس هذا ممكناً من دون الجماعة [Gemeinschaft](**). ففي الجماعة فقط [مع الآخرين] يملك [كل] فرد وسائل تنمية مواهبه بكل معانيها؛ وبالتالي فإن الحرية الشخصية لا تكون ممكنة إلا في الجماعة. وفي الأنظمة السابقة البديلة عن الجماعة، في الدولة، الخ، لم يكن للحرية الشخصية وجود إلا بالنسبة إلى الأفراد الذين تطوروا ضمن علاقات الطبقة السائدة، وبقدر ما كانوا أفراداً من هذه الطبقة فقط. وإن مظهر الجماعة الوهمية التي تجمع فيها الأفراد حتى الوقت الراهن قد اتخذ على الدوام وجوداً مستقلاً بالقياس إليهم، وكانت تمثل في الوقت ذاته، من جراء أنها تمثل تجمع طبقة واحدة ضد طبقة أخرى، لا جماعة وهمية تماماً فحسب، بل قيداً جديداً أيضاً. إن الأفراد، في الجماعة الحقيقية، ينالون حريتهم بصورة متوافقة مع ترابطهم، وبفضل هذا الترابط وفيه.

لقد انطلق الأفراد من أنفسهم دائماً، لكنهم انطلقوا طبعاً من أنفسهم ضمن شروطهم وعلاقاتهم التاريخية المحددة، وليس من الفرد "الصرف" بالمعنى الذي يقصده

(*) [كتب إنجلز عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] (فويرباخ: الوجود والماهية).

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] ومن دون ما تتضمنه من تطور تام وحر للفرد.

الإيديولوجيون. لكن في سياق التطور التاريخي، وعلى وجه الدقة من جراء الاستقلال الذي تتخذه العلاقات الاجتماعية، وهو الثمرة الحتمية لتقسيم العمل، يظهر الفرق ضمن حياة كل فرد، وذلك بقدر ما هي حياة شخصية وبقدر ما هي خاضعة لفرع ما من فروع العمل وللشروط الملازمة لهذا الفرع. (ولسنا نقصد من ذلك أن يُفهم أن صاحب الدخل والرأسمالي مثلاً يكفان عن أن يكونا شخصين؛ بيد أن شخصيتهما مشروطة ومحددة بعلاقات طبقية محددة تماماً، ولا يظهر ذلك الفرق المشار إليه إلا في التضاد مع طبقة أخرى، وبالنسبة إليهما لا يظهر إلا عندما يفلسان فقط)؛ وفي المرتبة (وأكثر من ذلك في القبيلة) تكون هذه الواقعة مستترة بعد؛ ومثال ذلك أن النبيل يظل نبيلاً دائماً، والعامي عامياً أبداً، بصورة منفصلة عن علاقاته الأخرى، تلك صفة غير منفصلة عن فرديته. إن الفرق بين الفرد الشخصي المناهض للفرد من حيث هو عضو في طبقة، والطابع العرضي لشروط الحياة بالنسبة إلى الفرد، لا يظهران إلا مع ظهورالطبقة التي هي نفسها نتاج للبورجوازية. ولا ينشأ هذا الطابع العرضي بحد ذاته ويتطور إلا بفعل التنافس وصراع الأفراد فيما بينهم. وبنتيجة ذلك يبدو الأفراد، في المخيلة، أكثر حرية تحت سيطرة البورجوازية مما كانوا عليه من قبل، لأن شروطهم الحياتية تبدو عرضية؛ وإنهم لأقل حرية طبعاً في الواقع، لأنهم أكثر خضوعاً لقوة موضوعية. إن الفرق مع المرتبة يبرز بصورة خاصة في التضاد بين البورجوازية والبروليتاريا. فحين برزت مرتبة مواطني المدن، والاصناف الحرفية، الخ، في تضاد مع النبالة العقارية، فإن شروطهم الحياتية - الملكية المنقولة والعمل الحرفي، اللذان كانا موجودين من قبل بصورة كامنة قبل انفصالهم عن الروابط الإقطاعية - ظهرت على أنها أمر إيجابي يؤكّد ضد الملكية العقارية الإقطاعية، وبالتالي فقد اتخذ بادئ الأمر، على طريقته الخاصة، شكلاً إقطاعياً. ومن المؤكد أن الأقنان الفارين قد عاملوا قنهم السابق على أنه أمر عرضي بالنسبة إلى شخصيتهم، لكنهم تصرفوا في هذا المجال كما تتصرف كل طبقة تحرر نفسها من القيود؛ وهم لم يحرروا أنفسهم كطبقة إذن، بل بصورة منفصلة. والأكثر من ذلك أنهم لم يرتفعوا فوق نظام المراتب، بل كل ما فعلوه هو تشكيل مرتبة جديدة، محتفظين بنمط عملهم السابق حتى في ظل

وضعيتهم الجديدة، وعاملين على تطويره محررينه من القيود السابقة التي لم تعد تتطابق بعد الآن مع درجة التطور التي تم بلوغها سلفاً.

أما بالنسبة إلى البروليتاريين من جهة ثانية، فإن العمل الذي هو شرط وجودهم، ومعه جميع شروط الوجود التي تتحكم في المجتمع الحديث، قد أصبحت أمراً عرضياً، شيئاً لا يملكون عليه أي إشراف بوصفهم أفراداً منفصلين، ولا يستطيع أي تنظيم اجتماعي أن يمنحهم الإشراف عليه(*). إن التناقض بين [...](**) شخصية كل بروليتاري على حدة وشروط الحياة المفروضة عليه، يعني العمل، يصبح واضحاً في نظره بالذات بقدر ما قدم تضحية منذ شبابه، ولأنه ليس لديه ضمن حدود طبقته، أية حظوظ لكي يؤمن لنفسه الشروط التي تجعل من الممكن انتقاله إلى طبقة أخرى.

ملاحظة: لا يجوز أن ننسى أن ضرورة الحفاظ على وجود الأقنان واستحالة الاستثمار الكبير التي أدت إلى توزيع الحصص بين الأقنان، سرعان ما أرجعت واجبات الأقنان حيال سيدهم إلى متوسط من المدفوعات العينية وأعمال السخرة. ولقد أتاح هذا للقن أن يراكم الملكية المنقولة، وبالتالي سهل إفلاته من حيازة سيده ووفر له الأمل في شق طريقه على اعتباره مواطناً في المدينة؛ وبالنتيجة أدى أيضاً إلى خلق تراتب بين الأقنان، وهكذا غدا الأقنان الفارون نصف بورجوازيين سلفاً. وإنه لمن الجلي أيضاً أن الأقنان الذين كانوا معلمين في حرفة يدوية كان يتوافر لديهم أكثر من غيرهم حظ الحصول على الملكية المنقولة.

وهكذا، فبينما كان كل ما يريده الأقنان الفارون هو أن يكونوا أحراراً في تطوير وتأكيد شروطهم الحياتية التي كانت قائمة سلفاً، ولكنهم لم يتوصلوا آخر الأمر سوى إلى العمل الحر، فإن البروليتاريين ملزمون، إذا أرادوا أن يؤكدوا أنفسهم على أنهم أفراد، بأن ينقضوا الشرط الخاص لوجودهم بالذات حتى ذلك الحين، (هذا الشرط الذي هو في الوقت نفسه

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] وهو ما لا يستطيع لأي تنظيم اجتماعي أن يعطيهم أي إشراف عليه.

(**) فقرة تالفة في المخطوطة.

شـرط كل المجتمـع حتـى الوقـت الراهـن)، ألا وهـو العمـل(*). وهكـذا يجـدون أنفسـهم فـي تضـاد مباشـر حيـال ذلـك الشـكل الـذي اختـاره حتـى ذلـك الحيـن الأفـراد الذيـن يتشـكل المجتمـع منهـم مـن أجـل التعبيـر عـن أنفسـهم تعبيـراً موحـداً، يعنـي فـي موقـف التضـاد مـع الدولـة. ولـذا فإنـه لا بـد لهـم، كـي يؤكـدوا شـخصيتهم كأفـراد، مـن أن يطيحـوا هـذه الدولـة.

***

ويترتـب علـى كل التطـور التاريخـي حتـى أيامنـا الراهنـة أن(**) العلاقـات الجماعيـة التـي انخـرط فيهـا أفـراد طبقـة مـا، والتـي كانـت محـددة علـى الـدوام بمصالحهـم المشـتركة ضـد طـرف ثالـث، قـد كانـت علـى الـدوام جماعـة لـم يكـن هـؤلاء الأفـراد ينتسـبون إليهـا إلا علـى أنهـم أفـراد متوسـطون، وبقـدر مـا كانـوا يحيـون ضمـن الشـروط الحياتيـة لطبقتهـم - وهـي علاقـات اشـتركوا فيهـا ليـس علـى أنهـم أفـراد، بـل مـن حيـث هـم أعضـاء فـي طبقـة. وبالمقابـل، فـإن الأمـر علـى النقيـض مـن ذلـك تمامـاً فـي جماعـة البروليتاريـين الثوريـين، الذيـن يجعلـون شـروط وجودهـم وشـروط جميـع أعضـاء المجتمـع تحـت إشـرافهم؛ فالأفـراد إنمـا يشـتركون فيهـا علـى أنهـم أفـراد: إن الأفـراد يسـهمون فيهـا مـن حيـث أنهـم أفـراد. إن هـذا التجمـع للأفـراد (بشـرط أن يتـم تجمـع الأفـراد طبعـاً فـي إطار القـوى المنتجـة التي يفتـرض الآن أنهـا قـد تطـورت) هـو علـى وجـه الدقـة الـذي يضـع شـروط تطورالأفـراد الحـر وحركتهـم تحـت إشـرافه - وهـي شـروط كانـت فيمـا مضـى متروكـة للمصادفـة، وقـد اكتسـبت وجـوداً مسـتقلاً فـي مواجهـة الأفـراد المنفصليـن بالضبـط مـن جـراء انفصالهـم كأفـراد، ومـن جـراء ضـرورة تجمعهـم التـي تقـررت بفعـل تقسـيم العمـل والتـي أصبحـت مـن خـلال انفصالهـم مـن حيـث هـم أفـراد رابطـة غريبـة عنهـم. إن التجمـع المعـروف حتـى الوقـت الراهن لم يكـن تجمعاً اعتباطيـاً في أي حال مـن الأحوال (كما هـو معـروض علـى سـبيل المثـال فـي العقـد الاجتماعـي)[٢٢]، بـل تجمعـاً ضروريـاً علـى أسـاس الشـروط التـي كان الأفـراد ضمنهـا أحـراراً فـي الاسـتمتاع بنـزوات المصادفـة والحـظ (قـارن مثـلاً تشـكل الدولـة

(*) في وقت لاحق سوف ينادي ماركس، وهو يحدد مفهوم العمل هذا، بنقض العمل المأجور وحده.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] الأفراد الذين تحرروا في كل حقبة تاريخية لم يفعلوا سوى مواصلة تطوير شروط الوجود القائمة من قبل، والتي كانت معطاة لهم سلفاً.

الأميركيـة الشـمالية والجمهوريـات الأميركيـة الجنوبيـة). إن هـذا الحـق فـي الاسـتمتاع الرخيـم، ضمـن بعـض الشـروط، بنـزوات المصادفـة والحـظ قـد سـمي حتـى وقتنـا الراهـن حريـة شـخصية. ومـن المؤكد أن شـروط الوجـود هـذه ليسـت سـوى القـوى المنتجـة وأشـكال التعامـل فـي كل حقبـة.

تختلـف الشـيوعية عـن جميـع الحـركات التـي سـبقتها حتـى الآن فـي أنهـا تقلـب أسـاس جميـع علاقـات الإنتـاج والتعامـل السـابقة، وتعالـج بـكل وعـي، للمـرة الأولـى، جميـع الشـروط السـابقة الطبيعيـة علـى أنهـا مـن صنـع الأجيـال السـابقة مـن البشـر، وتجردهـا مـن طابعهـا الطبيعـي وتخضعهـا لسـلطان الأفـراد المتحديـن. ولـذا فقـد كان تنظيمهـا اقتصاديـاً بصـورة جوهريـة، ألا وهـو الإنتـاج المـادي لشـروط هـذه الوحـدة؛ إنهـا تحـوِّل الشـروط القائمـة إلـى شـروط الوحـدة. وإن الأوضـاع التـي تخلقهـا الشـيوعية هـي علـى وجـه الدقـة الأسـاس الحقيقـي الـذي يجعـل مـن المحـال وجـود أي شـيء كان بصـورة مسـتقلة عـن الأفـراد، - لكـن علـى أي حـال بقـدر مـا لا تعـدو هـذه الأوضـاع القائمـة نتاجـاً بسـيطاً وصرفـاً للتعامـل السـابق للأفـراد أنفسـهم. وهكـذا فـإن الشـيوعيين يعالجـون فـي الممارسـة الشـروط التـي خلقهـا الإنتـاج والتعامـل حتـى الوقـت الراهـن علـى أنهـا شـروط غيـر عضويـة، مـن دون أن يتوهمـوا علـى أيـة حـال أنـه كان مـن خطـة الأجيـال السـابقة أن تمنحهـم المـواد، مـن دون أن يعتقـدوا مسـبقاً أن هـذه الشـروط قـد كانـت غيـر عضويـة بالنسـبة إلـى الأفـراد الذيـن كانـوا يخلقونهـا.

[٧- التناقض بين الأفراد وشروط عيشهم بوصفه تناقضاً بين القوى المنتجة وشكل التعامل وتطور القوى المنتجة وتغير أشكال التعامل]

إن الفـرق بيـن الفـرد بوصفـه شـخصاً والفـرد التصادفـي ليـس بالفـرق المفهومـي، بـل حقيقـة تاريخيـة. وإن لهـذا التفريـق مغـزى مختلفـاً فـي أزمنـة مختلفة،ومثـال ذلـك المرتبـة مـن حيـث هـي شـيء تصادفـي بالنسـبة إلـى الفـرد فـي القـرن الثامـن عشـر، والأسـرة أكثـر أو أقـل(*). أيضـاً، وليـس هـذا تفريقـاً يجـب علينـا القيـام بـه لـكل حقبـة، بـل تفريـق تقـوم بـه كل حقبـة بنفسـها مـن بيـن

(*) Plus ou Moins، بالفرنسية في النص الأصلي.

العناصر المختلفة التي يصادفها عند مجيئها إلى الوجود، وفي واقع الأمر لا يقوم بذلك وفقاً لأية فكرة على الإطلاق، بل تحت ضغط النزاعات المادية للحياة.

إن ما يظهر على أنه تصادفي بالنسبة إلى الحقبة اللاحقة في تعارضها مع الحقبة السابقة - وهذا ما ينطبق أيضاً على العناصر الموروثة عن حقبة سابقة - هو شكل التعامل الذي كان يقابل مرحلة معينة من تطور القوى المنتجة. إن علاقة القوى المنتجة وأشكال التعامل هي العلاقة بين شكل التعامل و...(*) عمل الأفراد أو نشاطهم. (ومن المؤكد أن الشكل الأساسي لهذا النشاط شكل مادي يتوقف عليه كل شكل آخر فكري، وسياسي، وديني، الخ. ومن المفروغ منه أن الشكل المختلف الذي تتخذه الحياة المادية يتوقف في كل حالة على الحاجات المتطورة بصورة مسبقة، وعلى إنتاج هذه الحاجات، تماماً كما أن تلبية هذه الحاجات هي عملية تاريخية لا تصادف عند النعجة أو الكلب[حجة شترنر العنيدة الرئيسية ضد الإنسان (**) التي يقف لها شعرالرأس]، على الرغم من أن النعاج والكلاب في شكلها الراهن هي بكل تأكيد، لكن رغماً عنها(***)، منتجات عملية تاريخية). إن الشروط التي يقيم الأفراد فيها تعاملًا فيما بينهم هي، ما دام التناقض الآنف الذكر معدوماً، شروط لفرديتهم، وليست شيئاً ما خارجياً بالنسبة لهم؛ إنها الشروط التي لا يستطيع هؤلاء الأفراد المحددون، الذين يعيشون في ظل علاقات محددة، إلا أن ينتجوا في ظلها حياتهم المادية وما يرتبط بها، هي إذن، شروط فعاليتهم الذاتية، وتكون منتجة من قبل هذه الفعالية الذاتية(****). وهكذا فإن الشرط المحدد الذي ينتجون فيه يطابق، ما دامت التناقضات لم تظهر بعد، واقع طبيعتهم المشروطة، ووجودهم الفطري الذي لا تتجلى ظاهرة محدوديته إلا عندما تدخل التناقضات إلى المسرح، وبذلك تصبح موجودة بالنسبة إلى الجيل اللاحق. وعندئذ يظهر هذا الشرط على أنه قيد عارض، كما يظهر الوعي على أنه قيد ينسب كذلك إلى الحقبة السابقة.

(*) [كلمة مشطوبة في المخطوطة:] الفعالية الذاتية.

(**) Odversus Hominem، باللاتينية في النص الأصلي.

(***) Malgré eux، بالفرنسية في النص الأصلي.

(****) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] إنتاج شكل التعامل ذاته .

وتظهر هذه الشروط المتفاوتة، بادئ الأمر على أنها شروط للفعالية الذاتية، وفي وقت لاحق تظهرعلى أنها قيود مفروضة عليها، تشكل في كل تطور التاريخ سلسلة متماسكة من أشكال التعامل يستقيم تماسكها فيما يلي: إن شكلاً جديداً من التعامل يحل مكان شكل سابق قد بات قيداً، وهذا الشكل الجديد يطابق القوى المنتجة الأكثر تطوراً، وبالتالي الشكل المتقدم لفعالية الأفراد الذاتية - وهو شكل يصبح بدوره قيداً ويستبدل إذن، بشكل آخر. وما دامت هذه الشروط تطابق في كل مرحلة التطور المتزامن للقوى المنتجة، فإن تاريخها هو في الوقت ذاته تاريخ القوى المنتجة النامية التي يرثها كل جيل جديد، ومن جراء ذلك فهو تاريخ تطور قوى الأفراد أنفسهم.

وما دام هذا التطور يجري بصورة طبيعية، يعني أنه لا يخضع لخطة عامة للأفراد المتضامنين بصورة حرة، فإنه ينطلق من أماكن وقبائل وأمم وفروع عمل متباينة ومختلفة، الخ، يتطور كل منها بادئ ذي بدئ بصورة مستقلة عن البقية ولا يدخل في صلات معها إلا بصورة تدرجية. وفيما عدا ذلك، فإنه لا يحدث إلا ببطء شديد: إن المراحل والمصالح المتباينة لا يتم التغلب عليها بصورة تامة قط، بل تخضع فحسب للمصلحة المتفوقة وتتجرجر إلى جانبها طوال قرون بعد. ويترتب على ذلك أن الأفراد أنفسهم، ضمن الأمة الواحدة، حتى بصورة مستقلة عن ظروفهم الحالية، يمرون بتطور مختلف تماماً، وإن المصلحة السابقة حين يكون الشكل الخاص لتعاملها قد أزيح سلفاً من قبل شكل التعامل الذي يتناسب مع المصلحة اللاحقة، تظل لفترة طويلة من الزمن فيما بعد في حيازة سلطة تقليدية في الجماعة الوهمية (الدولة، القانون)، هذه السلطة التي اكتسبت وجوداً مستقلاً عن الأفراد، وهي سلطة لا يمكن في آخر الأمر تحطيمها إلا بثورة. وإن هذا ليفسر لماذا يمكن للوعي أحياناً، فيما يتعلق بنقاط مفردة تتيح إجراء تركيب أعم، أن يظهر متقدماً على العلاقات التجريبية المعاصرة، بحيث يستطيع المرء في صراعات حقبة لاحقة أن يستند إلى منظِّرين سابقين بصفتهم مراجع موثوقة.

ومن جهة ثانية، فإن التطور يتقدم بسرعة كبيرة في بلدان بدأت في حقبة تاريخية متقدمة سلفاً، كما هي الحال بالنسبة إلى أميركا الشمالية. فليس لمثل هذه البلدان مقدمات طبيعية

أخـرى غيـر الأفـراد الذيـن اسـتقروا هنـاك والذيـن سـيقوا إليهـا نتيجـة لعـدم التطابـق بيـن حاجاتهـم وأشـكال التعامـل القائمـة فـي البلـدان القديمـة. وهكـذا فـإن هـذه البلـدان تبـدأ بالأفـراد الأكثـر تقدمـاً مـن العالـم القديـم، وبالتالـي بشـكل التعامـل الأكثـر تقدمـاً المطابـق لهـم، وذلـك قبـل أن يتمكـن هـذا الشـكل مـن التعامـل مـن توطيـد نفسـه فـي البلـدان القديمـة. وتلـك هـي الحـال بالنسـبة إلـى جميـع المسـتعمرات، وذلـك بقـدر مـا لا تكـون مجـرد محطـات عسـكرية أو تجاريـة. إن قرطاجـة، والمسـتعمرات الإغريقيـة، وإيسـلندا فـي القرنيـن الحـادي عشـر والثانـي عشـر، تزودنـا بأمثلـة علـى ذلـك. وإن علاقـة مماثلـة تنشـأ عـن الفتـح، حيـن يحمـل شـكلاً جاهـزاً لعلاقـات تعامـل تطـور علـى أرض أخـرى إلـى البلـد الـذي جـرى فتحـه؛ فبينمـا كان لا يـزال شـكل التعامـل فـي وطنـه مثقـلاً بالمصالـح وشـروط الحيـاة المتخلفـة عـن مراحـل سـابقة، فإنـه يسـتطيع ويجـب أن يسـتقر بصـورة تامـة ومـن دون أيـة عقبـات، وذلـك علـى الأقـل، لضمـان سـيادة سـلطة الفاتحيـن (إنكلتـرا ونابولـي بعـد الفتـح النورمانـدي، حيـث عرفتـا الشـكل الأكمـل للتنظيـم الإقطاعـي).

[٨ - دور العنف (الفتح) في التاريخ]

يظهـر أن واقـع الفتـح يتناقـض مـع مجمـل هـذا التصـور للتاريـخ. فحتـى الآن جعـل العنـف والحـرب والسـلب واللصوصيـة، الـخ، القـوة المحركـة للتاريـخ. ولا بـد لنـا هنـا مـن الاقتصـار علـى النقـاط الرئيسـية، ولـذا فلـن نأخـذ سـوى مثـال بـارز تمامـاً، ألا وهـو دمـار حضـارة قديمـة علـى يـد شـعب بربـري ومـا يترتـب علـى ذلـك مـن تكـون بنيـة اجتماعيـة جديـدة تنطلـق مجـدداً مـن نقطـة الصفـر. (رومـا والبرابـرة، والإقطاعيـة وبـلاد المغـول، والامبراطوريـة البيزنطيـة والأتـراك).

إن الحـرب نفسـها عنـد الشـعب البربـري الفاتـح،لا تـزال كمـا أشـرنا أعـلاه، أسـلوباً طبيعيـاً فـي العلاقـات يمـارس بمزيـد مـن اللهفـة بقـدر مـا تخلـق زيـادة السـكان بطريقـة أشـد إلزامـاً، مـع نمـط الإنتـاج التقليـدي والبدائـي الـذي هـو النمـط الوحيـد الممكـن بالنسـبة إلـى هـذا الشـعب، الحاجـة إلـى وسـائل جديـدة للإنتـاج. وبالمقابـل فإننـا نشـاهد فـي إيطاليـا تركـزاً للملكيـة العقاريـة يتحقـق بالوراثـة، وبالشـراء والاسـتدانة أيضـاً؛ ذلـك أن الانحـلال الشـديد الـذي أصـاب الأخـلاق ونـدرة الـزواج قـد أديـا إلـى اضمحـلال العائـلات تدريجيـاً وسـقوط أملاكهـا

(بين أيدي عدد قليل من الناس). وفضلاً عن ذلك، فقد حوّلت هذه الملكية العقارية إلى مراعٍ، وهو تحوّل تسبب،(فيما عدا الأسباب الاقتصادية العادية التي لا تزال صالحة في أيامنا، عن استيراد الحبوب المسلوبة أو المحصلة كجزية، وكذلك عما أعقب ذلك من قلة المستهلكين للحبوب الإيطالية). ولقد اختفى السكان الأحرار بصورة تامة تقريباً من جراء هذه الظروف، وكان العبيد أنفسهم قد أخذوا يندثرون من دون انقطاع، بحيث كان لا بد من الاستعاضة عنهم باستمرار. وظلت العبودية تشكل أساس الإنتاج برمته، ولم يتوصل العاميون أبداً، وكان موضعهم بين الأحرار والعبيد، إلى الارتفاع ما فوق شرط البروليتاريا الرثة [Lumpenproletariat] وفيما عدا ذلك، فإن روما لم تتجاوز مرحلة المدينة؛ كانت مرتبطة بالأقاليم بروابط تكاد أن تكون سياسية محضة بوجه الحصر تقريباً، بحيث تستطيع الأحداث السياسية بكل سهولة أن تفصمها بدورها.

***

ليس أكثر شيوعاً من الفكرة القائلة إن المسألة لم تكن في التاريخ حتى يومنا هذا سوى مسألة استيلاء. فالبرابرة استولوا على الامبراطورية الرومانية، وبهذا الاستيلاء يفسر الانتقال من العالم القديم إلى النظام الإقطاعي. ومهما يكن من أمر، فإن المقصود من هذا الاستيلاء من قبل البرابرة هو معرفة ما إذا كانت الأمة المستولى عليها قد طورت قوى منتجة صناعية، كما هي الحال بالنسبة إلى الشعوب الحديثة، أو ما إذا كانت قواها المنتجة ترتكز في قسمها الأعظم على أساس تركزها وعلى الجماعة فحسب. وفيما عدا ذلك، فإن الاستيلاء محدد بالشيء المستولى عليه. فثروة المصرفي، المستقيمة في أوراق نقدية، لا يمكن الاستيلاء عليها مطلقاً من دون أن ينصاع المستولي لشروط الإنتاج والتعامل في البلد المستولى عليه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى رأس المال الصناعي الإجمالي لبلد صناعي حديث. وأخيراً، فلا بد في كل مكان من نهاية عاجلة للاستيلاء، وحين لا يتبقى شيء يستولى عليه، فلا بدَّ من الانصراف إلى الإنتاج. ويترتب على ضرورة الإنتاج هذه، التي سرعان ما تؤكد نفسها، أن

شكل الجماعة الذي يتبناه الفاتحون المستقرون يجب أن يطابق مرحلة تطور القوى المنتجة التي يجدونها قائمة، وإذا لم يكن هذا التطابق متوافراً منذ البداية، فلا بد أن يتغير هذا وفقاً للقوى المنتجة المتوافرة. وبهذا أيضاً تفسر الحقيقة التالية التي يزعم البشر أنهم لاحظوها في كل مكان في المرحلة التالية لهجرات الشعوب. ألا وهي أن الخادم كان سيداً، وأن الفاتحين سرعان ما اعتمدوا لغة البلدان المستولى عليها وثقافتها وأعرافها.

إن النظام الإقطاعي لم يحمل في أي حال من الأحوال جاهزاً من ألمانيا، بل كان أصله قائماً، بقدر ما يتعلق الأمر بالفاتحين، في التنظيم العسكري للجيش إبان الفتح الفعلي، ولم يتحول هذا التنظيم إلى إقطاعية حقيقية إلا بعد الفتح، تحت تأثير القوى المنتجة الموجودة في البلدان التي جرى فتحها. أما إلى أي مدى كان هذا الشكل مشروطاً بالقوى المنتجة، فهذا ما يبينه فشل المحاولات المبذولة من أجل فرض أشكال أخرى مستقاة من ذكريات روما القديمة (شارلمان).. الخ.

للبحث صلة -

[٩ - التناقض بين القوى المنتجة وشكل التعامل في ظل الصناعة الكبرى والتنافس الحر والتضاد بين العمل ورأس المال]

في الصناعة الكبرى والتنافس، تذوب جميع شروط الأفراد الحياتية وتحديداتهم وقيودهم في الشكلين الأبسط: الملكية الخاصة والعمل. ومع المال يطرح كل شكل من التعامل والتعامل ذاته، بالنسبة إلى الأفراد، على أنها أمور تبدو تصادفية. وبالتالي فإنه من طبيعة المال بالذات أن كل التعامل السابق لم يكن سوى تعامل بين أفراد يعيشون في ظل شروط محددة، وليس تعاملاً بين أفراد من حيث هم أفراد. وإن هذه الشروط لترد حالياً إلى شرطين فقط: العمل المتراكم والملكية الخاصة من جهة، والعمل الفعلي من جهة ثانية. وإذا ما زال أحد هذين الشرطين توقف التعامل. وإن الاقتصاديين المحدثين أنفسهم، سيسموندي مثلاً، وشيربولييه[٢٣]، الخ، يعارضون تجمع رؤوس الأموال بتجمع الأفراد[*]. ومن جهة

(*) L'association des Individus à L'association des capitaux، بالفرنسية في النص الأصلي.

ثانيــة، فـإن الأفـراد أنفســهم خاضعــون كليــاً لتقسـيم العمــل، وبذلــك فهــم فــي تبعيــة كليــة حيــال بعضهــم بعضــاً. وإن الملكيــة الخاصــة، بقــدر مــا تتعــارض ضمــن العمــل مــع العمــل، تولــد وتتطــور بفعـل ضـرورة التراكـم وتسـتمر بـادئ الأمـر فـي المحافظـة علـى الشـكل المشـاعي، كيمـا تقتـرب مـع ذلـك أكثـر فأكثـر مـن الشـكل الحديـث للملكيـة الخاصـة فـي سياق تطورهـا اللاحـق. وينطـوي تقسـيم العمـل أيضـاً علـى تقسـيم شـروط العمـل، الأدوات والخامـات، وينطـوي هـذا التقسـيم بالتالـي علـى تجزئـة رأس المـال المتراكـم بيـن مالكيـن مختلفيـن، وبالتالـي التجزئـة بيـن رأس المـال والعمـل، وكذلـك الأشـكال المتنوعـة للملكيـة بالـذات. وبقـدر مـا يـزداد تقسـيم العمـل تقدمـاً بقـدر مـا يـزداد التراكـم، وتتحـدد هـذه التجزئـة بمزيـد مـن البـروز . وإن العمـل نفسـه لا يمكـن أن يسـتمر فـي الوجـود إلا علـى أسـاس هـذه التجزئـة.

***

(الطاقـة الشـخصية للأفـراد مـن أمـم مختلفـة - الألمـان والأميركيـون - وهـي طاقـة قائمـة سـلفاً مـن جـراء تصالـب العـروق. ومـن هنـا بلاهـة الألمـان الذيـن هـم بلهـاء حقيقيـون - فـي فرنسـا، وفـي إنكلتـرا، الـخ، شـعوب أجنبيـة نقلـت إلـى أرض متطـورة سـلفاً، وإلـى أرض جديـدة كل الجـدة فـي أميـركا، فـي ألمانيـا لـم يتحـرك السـكان الأصليـون قيـد أنملـة علـى الإطـلاق).

***

وهكـذا تنكشـف حقيقتـان هنـا(*). أولًا تمثـل القـوى المنتجـة علـى أنهـا مسـتقلة كل الاسـتقلال عــن الأفــراد ومنفصلــة عنهــم، علــى أنهــا عالــم علــى حــدة، قائــم إلــى جانــب الأفــراد؛ وإن الســبب فــي ذلــك، هــو أن الأفــراد، التــي هــي قواهــم مشــتتون، ومتناهضــون، بينمــا هــذه القــوى، مــن جهــة ثانيــة، لا تكــون قــوى فعليــة إلا فــي تعامــل هــؤلاء الأفــراد وترابطهــم. وهكــذا فــإن لدينــا، مــن جهــة، كليــة [Totalité] مــن القــوى المنتجــة اتخــذت فــي حقيقــة الأمــر شــكلاً ماديــاً ولــم تعــد بعــد الآن بالنسـبة إلــى الأفــراد قــوى الأفــراد أنفســهم بــل قــوى الملكيــة الخاصــة، وبالتالــي قــوى الأفــراد بقــدر مــا يكــون هــؤلاء الأفــراد أنفســهم مالكيــن خاصيــن. لــم تتخــذ القــوى المنتجــة

(*) [كتب إنجلز عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] سيسموندي.

أبـداً، فـي أي حقبـة سـابقة، شـكلاً علـى هـذا القـدر مـن اللامبـالاة حيـال علاقـات تعامـل الأفـراد علـى اعتبارهـم أفـراداً، لأن تعاملهـم ذاتـه كان فيمـا مضـى تعامـلاً محـدوداً. ومـن جهـة أخـرى فـإن لدينـا، فـي مواجهـة هـذه القـوى المنتجـة، غالبيـة الأفـراد الذيـن انتزعـت هـذه القـوى منهـم، والذيـن أصبحـوا، وقـد سـرقوا علـى هـذا الغرارمحروميـن مـن كل محتـوى فعلـي للحيـاة، أفـراداً مجرديـن، لكـن هـذه الحقيقـة وحدهـا قـد وضعتهـم، علـى أيـة حـال، فـي مركـز يمكنهـم مـن إقامـة العلاقـات بيـن بعضهـم البعـض علـى اعتبارهـم أفـراداً.

إن العمـل، وهـو الرابطـة الوحيـدة التـي لا تـزال تصلهـم بالقـوى المنتجـة، ومـع وجودهـم بالذات، فقـد عندهـم كل مظهـر للفعاليـة الذاتيـة، وهـو لا يبقـي علـى حياتهـم إلا بإنهاكهـا. وبينمـا كانـت الفعاليـة الذاتيـة وإنتـاج الحيـاة الماديـة منفصليـن فـي المراحـل السـابقة، مـن جـراء وقوعهمـا علـى عاتـق أشـخاص مختلفيـن، وبينمـا كان إنتـاج الحيـاة الماديـة يعتبـر، مـن جـراء الطابـع المحـدود للأفراد أنفسـهم، نمطـاً ثانويـاً للفعاليـة الذاتيـة، فإنهمـا ينفصـلان فـي الوقـت الحاضـر انفصـالاً شـديداً بحيـث تظهـر الحيـاة الماديـة علـى أنهـا الهـدف الأخيـر، فـي حيـن أن إنتـاج هـذه الحيـاة الماديـة، أي العمـل (الـذي هـو فـي الوقـت الحاضـر الشـكل الوحيـد الممكـن، لكـن الشـكل السـلبي للفعاليـة الذاتيـة كمـا نـرى) يظهـر علـى أنـه الواسـطة ليـس غيـر.

[١٠ - الشروط الضرورية المسبقة وعواقب نقض الملكية الخاصة]

لقـد بلغـت الأمـور فـي الوقـت الحاضـر حـداً لا بـد عنـده للأفـراد أن يسـتملكوا كليـة القـوى المنتجـة المتوافـرة، لا فـي سـبيل تحقيـق الفعاليـة الذاتيـة فحسـب، بـل قبـل كل شـيء مـن أجـل ضمـان وجودهـم بالـذات(*).

وإن هـذا الاسـتملاك مشـروط بـادئ الأمـر بالشـيء المقصـود اسـتملاكه، وهـو هنـا القـوى المنتجـة التـي تطـورت إلـى درجـة الكليـة والتـي لا وجـود لهـا إلا ضمـن تعامـل كلـي. وهكـذا فإنـه

(*) [صياغة أخرى في المخطوطة:] وهكذا فقد بلغت الأمور في الوقت الحاضر حداً بحيث لا يستطيع الأفراد بعد الآن أن يستملكوا القوى المنتجة التي تطورت حتى شكلت كلية(Totalité)، والتي هي مرتبطة بالتعامل (Verkehr) الكلي.

لا بـد أن يكـون لهـذا الاسـتملاك، مـن هـذه الزاويـة، طابـع كلـي يقابـل القـوى المنتجـة والتعامـل. وإن مجـرد اسـتملاك هـذه القـوى لا يعـدو هـو نفسـه مـن أن يكـون أكثـر مـن تطويـر القـدرات الفرديـة المتطابقـة مـع الإنتـاج المـادي. ولهـذا السـبب بالـذات فـإن اسـتملاك كليـة أدوات الإنتـاج هـو تطويـر لكليـة مـن القـدرات فـي الأفـراد أنفسـهم.

وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن هـذا الاسـتملاك مشـروط بالأشـخاص الذيـن يسـتملكون. وإن بروليتاريـي الحقبـة الراهنـة، المحرومـين كليـاً مـن أيـة فعاليـة ذاتيـة، هـم وحدهـم فـي مركـز يمكنهـم مـن تحقيـق فعاليـة ذاتيـة كاملـة لا قيـود عليهـا بعـد الآن، وهـي فعاليـة ذاتيـة تسـتقيم فـي اسـتملاك كليـة مـن القـوى المنتجـة وفيمـا يترتـب علـى ذلـك مـن تطويـر كليـة مـن القـدرات.

لقـد كانـت جميـع الاسـتملاكات الثوريـة السـابقة محـدودة؛ فالأفـراد الذيـن كانـت فعاليتهـم الذاتيـة محـدودة بفعـل أداة الإنتـاج المحـدودة وبفعـل التعامـل المحـدود قـد كانـوا يسـتملكون هـذه الأداة المحـدودة للإنتـاج، وبذلـك لا يحققـون إلا تحديـداً جديـداً. لقـد أصبحـت أداتهـم الإنتاجيـة ملكيـة لهـم، لكنهـم كانـوا يظلـون هـم أنفسـهم خاضعيـن لتقسـيم العمـل وأداتهـم الإنتاجيـة الخاصـة. وفـي كل اسـتملاكات الملكيـة حتـى الوقـت الراهـن، كانـت كتلـة مـن الأفـراد تظـل تابعـة لأداة إنتاجيـة وحيـدة؛ أمـا فـي الاسـتملاك مـن قبـل البروليتارييـن، فـلا بـد مـن أن تجعـل كتلـة مـن أدوات الإنتـاج خاضعـة لـكل فـرد، وأن تجعـل الملكيـة خاضعـة للجميـع. إن التعامـل الكلـي الحديـث لا يمكـن بالتالـي أن يخضـع للأفـراد إلا فـي حـال خضوعـه للجميـع.

وإن هـذا الاسـتملاك محـدد كذلـك بالأسـلوب الـذي يجـب أن يتـم بـه. وليـس فـي الإمـكان تحقيقـه إلا مـن خـلال اتحـاد لا يمكـن بـدوره، مـن جـراء طابـع البروليتاريـا بالـذات، إلا أن يكـون اتحـاداً كليـاً، ومـن خـلال ثـورة يطـاح فيهـا، مـن جهـة واحـدة، بسـلطان النمـط السـابق للإنتـاج والتعامـل والتنظيـم الاجتماعـي، وينمـو فيهـا مـن جهـة ثانيـة، طابـع البروليتاريـا الكلّـي وطاقتهـا التـي لا يمكـن إنجـاز الثـورة مـن دونهـا، وتتخلـص البروليتاريـا فيهـا، فيمـا عـدا ذلـك، مـن كل مـا لا يـزال عالقـاً بهـا مـن وضعهـا السـابق فـي المجتمـع.

ولا تتطابـق الفعاليـة الذاتيـة مـع الحيـاة الماديـة إلا فـي هـذه المرحلـة التـي تطابـق تطـور الأفـراد إلـى أفـراد كاملـين وطـرح كل تحديـد فرضتـه الطبيعـة فـي الأصـل. ويقابـل هـذه المرحلـة تحـول

العمـل إلـى فعاليـة ذاتيـة وتحـول العلاقـات المحـددة حتـى ذلـك الحيـن إلـى علاقـات بيـن الأفـراد مـن حيـث هـم أفـراد. وبنتهـي أمـر الملكيـة الخاصـة مـع اسـتملاك القـوى المنتجـة الكليـة مـن قبـل الأفـراد المتحديـن. وبينمـا كان يظهرهـذا الشـرط أو ذاك علـى الـدوام علـى أنـه عرضـي فيمـا مضـى مـن التاريـخ، فـإن مـا يصبـح عرضيـاً فـي الوقـت الحاضـر، إنمـا هـو عزلـة الأفـراد أنفسـهم، والربـح الخـاص لـكل امـرىء.

إن الأفـراد، الذيـن لـم يبقـوا خاضعيـن لتقسـيم العمـل، قـد تصورهـم الفلاسـفة علـى أنهـم مثـالاً أعلـى، تحـت اسـم "الإنسـان". لقـد تصـوروا كل العمليـة التـي رسـمناها علـى أنهـا عمليـة تطوريـة "للإنسـان"، بحيـث كان "الإنسـان" يحـل فـي كل مرحلـة تاريخيـة محـل الأفـراد الفعلييـن ويمثـل علـى أنـه القـوة المحركـة للتاريـخ. وهكـذا فـإن العمليـة بكاملهـا قـد تـم تصورهـا علـى أنهـا عمليـة ضيـاع ذاتـي "للإنسـان"، وكان السـبب الجوهـري فـي ذلـك أن الفـرد المتوسـط للمرحلـة اللاحقـة قـد أُحِـل علـى الـدوام محـل فـرد المرحلـة السـابقة، كمـا كان وعـي الحقبـة اللاحقـة يعـزى إلـى أفـراد حقبـة سـابقة(*). ولقـد كان فـي الإمـكان، مـن خـلال هـذا الانقـلاب، الـذي يغـض النظـر مـن الوهلـة الأولـى عـن الشـروط الفعليـة، تحويـل التاريـخ بأكملـه إلـى عمليـة تطوريـة يجتازهـا الوعـي.

***

يشـتمل المجتمـع المدنـي علـى مجمـل علاقـات الأفـراد الماديـة ضمـن مرحلـة معينـة مـن تطـور القـوى المنتجـة. إنـه يشـتمل علـى مجمـل الحيـاة التجاريـة والصناعيـة لمرحلـة معينـة، وبذلـك يتجـاوز الدولـة والأمـة، بالرغـم مـن أنـه لا بـد لـه، علـى أيـة حـال، مـن تأكيـد ذاتـه، فـي الخـارج مـن حيـث هـو دولـة، وفـي الداخـل مـن حيـث هـو قوميـة. ولقـد ظهـرت عبـارة "المجتمـع المدنـي"(**) [Burgerliche gesellschalt] فـي القـرن الثامـن عشـر، حالمـا تملصـت علاقـات الملكيـة مـن الجماعـة القديمـة والوسـيطة. إن المجتمـع المدنـي بصفتـه هـذه لا يتطـور إلا مـع

(*) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] اغتراب ذاتي.

(**) "المجتمع البورجوازي" أو "المجتمع المدني" (ملاحظة من الناشر).

البورجوازيـة؛ ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن التنظيـم الاجتماعـي المشـتق بصـورة مباشـرة مـن الإنتـاج والتعامـل، والـذي يشـكل فـي جميـع الأزمنـة البنيـة التحتيـة وكل البقيـة الباقيـة مـن البنيـة الفوقيـة المثاليـة قـد سـمي علـى الـدوام بهـذا الاسـم نفسـه.

[١١ - علاقات الدولة والحق بالملكية]

إن شـكل الملكيـة الأول، فـي العالـم القديـم وفـي الحقبـة الوسـيطة علـى حـد سـواء، هـو الملكيـة القبليـة، المحـددة بصـورة رئيسـية بالحـرب عنـد الرومـان وتربيـة الماشـية عنـد الجرمـان. وتظهـر الملكيـة القبليـة، عنـد الشـعوب القديمـة(*) حيـث تتسـاكن قبائـل عديـدة فـي المدينـة ذاتهـا، علـى اعتبارهـا ملكيـة الدولـة، ويظهـر حـق الفـرد فـي هـذه الملكيـة علـى اعتبـاره حيـازة (**) بسـيطة تقتصـر مـع ذلـك، مثلهـا مثـل الملكيـة القبليـة علـى أيـة حـال، علـى الملكيـة العقاريـة وحدهـا. إن الملكيـة الخاصـة الفعليـة تبـدأ، عنـد القدمـاء وعنـد الشـعوب الحديثـة علـى حـد سـواء، مـع الملكيـة المنقولـة. (العبوديـة والجماعـة المشـاعية) (ملكيـة المواطـن الرومانـي الأصيـل(***)). وهكـذا فـإن الملكيـة القبليـة، عنـد الشـعوب الخارجـة مـن الحقبـة الوسـيطة، تتطـور بمرورهـا فـي مراحـل مختلفـة - الملكيـة العقارية الإقطاعيـة، والملكيـة المنقولـة للأصنـاف الحرفيـة، ورأس المـال المانيفاكتـوري - حتـى رأس المـال الحديـث، المشـروط بالصناعـة الكبـرى والتنافـس العـام، الـذي يمثـل الملكيـة الخاصـة فـي حالتهـا الصرفـة، وقـد تجـردت عـن كل مظهـر مـن مظاهـر الجماعـة المشـاعية، واسـتبعدت أي فعـل مـن جانـب الدولـة علـى تطـور الملكيـة. وإن هـذه الملكيـة الخاصـة الحديثـة هـي التـي تقابلهـا الدولـة الحديثـة التـي حقـق المالكـون الخاصـون امتلاكهـا شيئاً فشـيئاً بواسـطة الضرائـب، والتـي سـقطت بيـن أيديهـم كلياً بفعـل نظـام المديونيـة العـام، وإن وجـود هـذه الدولـة ذاتهـا كليـاً، يضبطـه ارتفـاع أرصـدة الدولـة وهبوطهـا فـي سـوق الأوراق الماليـة، علـى التسـليف التجـاري الـذي يمنحهـا إيـاه المالكـون الخاصـون،

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] (روما وسبارطة بصورة خاصة).

(**) Possessio، باللاتينية في النص الأصلي.

(***) Dominium ex jure Quiritum، باللاتينية في النص الأصلي.

أي البورجوازيـون. إن البورجوازيـة ملزمـة، لمجـرد كونهـا طبقـة وليـس مرتبـة، بـأن تنظـم نفسـها ليـس علـى الصعيـد المحلـي فحسـب، بـل علـى الصعيـد القومـي أيضـاً، وبـأن تضفـي علـى مصالحهـا المشـتركة شـكلاً عامـاً. وإذ مـا حـررت الدولـة الملكيـة الخاصـة مـن الجماعـة، فقـد اكتسـبت وجـوداً خاصـاً إلـى جانـب المجتمـع المدنـي وخارجـاً عنـه؛ بيـد أن هـذه الدولـة ليسـت شـيئاً آخر سـوى الشـكل التنظيمـي الـذي يتخـذه البورجوازيـون بالضـرورة كـي يضمنـوا بصـورة متبادلـة ملكيتهـم ومصالحهـم فـي الخـارج والداخـل علـى حـد سـواء. فـلا وجـود اليـوم لاسـتقلال الدولـة إلا فـي تلـك البلـدان حيـث لـم تتوصـل المراتـب بعـد بصـورة تامـة إلـى مرحلـة الطبقـات فـي تطورهـا، فهـي لا تـزال تلعـب دوراً بعـد، بينمـا هـي قـد حذفـت فـي البلـدان الأكثـر تطـوراً، وبالتالـي فـي تلـك البلـدان حيـث لا يـزال يقـوم وضـع مختلـط، وحيـث لا يسـتطيع نتيجـة ذلـك أي قسـم مـن السـكان أن يتوصـل إلـى السـيطرة علـى الأقسـام الأخـرى. وتلـك هـي الحـال فـي ألمانيـا علـى الأخـص. تشـكل أميـركا الشـمالية مثـالاً علـى الدولـة الحديثـة الأكمـل. وإن الكتّـاب الفرنسـيين والإنكليـز والأميركييـن ينتهـون جميعـاً مـن دون أي اسـتثناء إلـى الإعـلان بـأن الدولـة لا توجـد إلا بسـبب مـن الملكيـة الخاصـة، حتـى أن هـذه القناعـة قـد تغلغلـت فـي الوعـي العـام.

وهكـذا، لمـا كانـت الدولـة الشـكل الـذي يؤكـد بـه أفـراد طبقـة سـائدة مصالحهـم المشـتركة والـذي يلخـص فيـه كل المجتمـع المدنـي لحقبـة محـددة، فإنـه يترتـب علـى ذلـك أن جميع المؤسسـات المشـتركة تمـر بوسـاطة الدولـة وتتلقـى شـكلاً سياسـياً. ومـن هنـا كان الوهـم بـأن القانـون يرتكـز علـى الإرادة، والأكثـر مـن ذلـك علـى إرادة حـرة، منفصلـة عـن قاعدتهـا المشـخصة. وبالطريقـة ذاتهـا، فـإن الحـق يـرد بـدوره إلـى القانـون.

إن انحـلال الجماعـة المشـاعية الطبيعيـة يولـد الحـق الخـاص كمـا يولـد الملكيـة الخاصـة، وكلاهمـا يتطـوران بصـورة متزامنـة. وعنـد الرومـان لـم يترتـب علـى تطـور الملكيـة الخاصـة والحـق الخـاص أيـة نتيجـة صناعيـة أو تجاريـة أخـرى، لأن نمـط إنتاجهـم بأسـره قـد ظـل علـى حالـه(*). أمـا عنـد الشـعوب الحديثـة التـي أدت الصناعـة والتجـارة عندهـا إلـى حـدوث انحـلال الجماعـة الإقطاعيـة، فـإن ولادة الملكيـة الخاصـة والحـق الخـاص سـجلا بدايـة حقبـة جديـدة قابلـة لتطـور

(*) [كتب إنجلز عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] (الربا!).

[إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وهذا التطور لم ينشأ عن توسع الصناعة والتجارة.

لاحق. إن أمالفي[٢٤]، وهي أول مدينة في الحقبة الوسيطة حققت تجارة بحرية واسعة، وقد كانت سباقة أيضاً إلى صياغة الحق البحري. ولم تكد التجارة والصناعة تحققان تطوراً أعظم للملكية الخاصة، في إيطاليا أولاً، وفي بلدان أخرى فيما بعد، حتى تمت العودة في الحال إلى الحق الخاص الذي كان الرومان قد أعدوه من قبل، فرفع إلى رتبة المرجع النافذ النص. وفيما بعد، حين كانت البورجوازية قد اكتسبت ما يكفي من البأس كي يأخذ الأمراء مصالحها على عاتقهم، مستخدمين هذه البورجوازية كأداة من أجل إسقاط الطبقة الإقطاعية، بدأ تطور القانون بكل معنى الكلمة في جميع البلدان - في فرنسا في القرن السادس عشر - وقد تحقق هذا التطور في جميع البلدان، باستثناء إنكلترا، على أسس القانون الروماني. ولم يكن من بد في إنكلترا من إدخال مبادئ من القانون الروماني، (وخصوصاً من أجل الملكية المنقولة) بغرض الاستمرار في أحكام القانون المدني (لا ننسَ أن القانون لا يملك، أكثر من الدين، تاريخاً خاصاً به) .

وفي القانون المدني، يعبّر عن علاقات الملكية القائمة على اعتبارها نتيجة لإرادة عامة. وإن حق الاستعمال وسؤ الاستعمال[*] بالذات ليؤكد من جهة على حقيقة أن الملكية الخاصة قد أصبحت مستقلة كل الاستقلال عن الجماعة، ومن جهة ثانية عن الوهم بأن الملكية الخاصة ترتكز على الإرادة الخاصة وحدها، وعلى حرية التصرف بالأشياء. إن لحق سوء الاستعمال[**]، عملياً، حدوداً اقتصادية محددة جداً بالنسبة إلى المالك الخاص، إذا لم يكن راغباً في مشاهدة ملكيته، وحق سوء الاستعمال[***] معها، ينتقلان إلى أيدٍ أخرى؛ ذلك أن الشيء بوجه عام، المنظور إليه من حيث علاقاته بإرادته فحسب، ليس هو في حقيقة الأمر شيئاً على الإطلاق، بل يصير في التعامل فحسب، وبصورة مستقلة عن القانون، شيئاً أو ملكية فعلية (علاقة، أو ما يسميه الفلاسفة فكرة)[****].

(*) Jus utendi et abutendi، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) abuti

(***) abutendi

(****) [كتب ماركس عند هذا المستوى في العمود الأيمن:] عند الفلاسفة العلاقة = الفكرة. إنهم لا يعرفون إلا علاقة "الإنسان" بنفسه، ولذا فإن جميع العلاقات الفعلية تصبح أفكاراً بالنسبة إليهم.

إن هـذا الوهـم الحقوقـي، الـذي يرجـع الحـق إلـى الإرادة وحدهـا، ينتهـي بصـورة جبريـة فـي حـال تطـور علاقـات الملكيةلاحقـاً، إلـى واقـع أن امـرءاً مـا، يمكـن أن يملـك الحـق القانونـي فـي شـيء ما،مـن دون أن يملـك الشـيء بصـورة فعليـة. فلنفتـرض علـى سـبيل المثـال أن ريـع قطعـة مـن الأرض قـد فقـد مـن جـراء التنافـس: يظـل مالـك هـذه الأرض محتفظـاً حقـاً بحقـه القانونـي فيهـا كمـا يحتفـظ بحقـه فـي الاسـتعمال وسـؤ الاسـتعمال، لكنـه لا يسـتطيع أن يصنـع شـيئاً بـه، فهـو لا يملـك شـيئاً بوصفـه مالـكاً عقاريـاً إذا لـم يكـن يملـك فضـلاً عـن ذلـك مـا يكفـي مـن رؤوس الأمـوال لزراعـة أرضـه. إن هـذا الوهـم نفسـه الـذي يعانـي رجـال القانـون منـه يفسـر أيضـاً الحقيقـة التاليـة، ألا وهـي أنـه يتـراءى لهـم كمـا يتـراءى لـكل مدونـة قانونيـة أنـه مـن قبيـل المصادفـة الصرفـة أن أفـراداً يدخلـون فـي علاقـات فيمـا بينهـم، بواسـطة عقـد علـى سـبيل المثـال؛ وإن علاقـات مـن هـذا النـوع هـي فـي نظرهـم مـن تلـك العلاقـات التـي [يمكـن] للمـرء أن يلتـزم أو لا يلتـزم بهـا علـى هـواه، وهـي علاقـات يرتكـز محتواهـا كليـاً علـى التعسـف الفـردي للأطـراف المتعاقديـن.

وفـي كل مـرة كان تطـور الصناعـة والتجـارة يخلـق فيهـا أشـكالاً جديـدة للتعامـل (شـركات الضمان وغيرهـا علـى سـبيل المثـال)، فقـد كان القانـون ملزمـاً بصـورة منتظمـة باحتوائهـا فـي أسـاليب اكتسـاب الملكية.

[١٢ - أشكال الوعي الاجتماعي(*)]

تأثير تقسيم العمل على العلم.

دور القمع فيما يتعلق، بالحق، والأخلاق، الخ...

ينبغـي علـى البورجوازييـن أن يمنحـوا أنفسـهم فـي القانـون صفـة المعبـر عـن المصالـح العامـة لأنهـم يسـودون كطبقـة.

(*) هذه الملاحظات كتبها ماركس في الصفحتين الاخيرتين من الفصل الأول من المجلد الأول من مخطوطة الإيديولوجية الألمانية [الناشر].

علم الطبيعة والتاريخ.

لا يوجد تاريخ للسياسة، والقانون والعلم، الخ، للفن، للدين، الخ.(*)

***

لماذا يقلب الإيديولوجيون كل شيء رأساً على عقب.

رجال الدين، الحقوقيون، السياسيون.

بسبب هذا التقسيم الفرعي الإيديولوجي ضمن الطبقة الواحدة:

١- تتخذ المهنة وجوداً مستقلاً بفعل تقسيم العمل. كل امرىء يحسب أن مهنته هي المهنة الحقيقية . وبصدد صلة مهنتهم بالواقع، يخلقون لأنفسهم، بمزيد من الحتمية، وهماً مفاده أن هذا مشروط بطبيعة المهنة المعنية. تصبح العلاقات في الممارسة الحقوقية، والسياسية، والخ. - في الوعي - مفاهيم، وتتحول هذه المفاهيم بما أنها لا تعلو فوق هذه العلاقات في عقولهم إلى مفاهيم جامدة. ومثال ذلك أن القاضي يطبق القانون، وبالتالي فإنه يعتبر التشريع القوة المحركة والفاعلة والفعلية. الاحترام لمنتجاتهم، لأن مهنتهم تتعامل مع الأغراض العامة.

فكرة الحق . فكرة الدولة. إن الموضوع يقلب رأساً على عقب في الوعي العادي.

***

الدين هو منذ البداية وعي للتعالي،[الناشىء] من القوى الموجودة فعلياً.

هذا بصورة أكثر شعبية .

***

العرف، فيما يتعلق بالقانون، بالدين، الخ.

***

(*) ملاحظة هامشية بقلم ماركس: الجماعة المشاعية ["dem"Gemeinwesen] بالصورة التي تظهر فيها في الدولة القديمة، والملكية المطلقة، هذه الصلة تناسبها على الأخص المفاهيم الدينية (الكاثوليكية).

إن الأفـراد قـد انطلقـوا علـى الـدوام، وهـم ينطلقـون علـى الـدوام، مـن أنفسـهم. إن علاقاتهـم هـي المسـار الواقعـي لحياتهـم . كيـف يحـدث أن علاقاتهـم تتخـذ وجـوداً مسـتقلاً ضدهـم ؟ وإن قـوى حياتهـم بالـذات تصبـح قـوى متفوقـة عليهـم؟

وباختصـار : تتوقـف درجـة تقسـيم العمـل علـى درجـة تطـور القـوى المنتجـة فـي أي وقـت محـدد.

***

الملكية العقارية، الملكية المشاعية . الإقطاعية . الحديثة.

ملكية المراتب . الملكية المانيفاكتورية . رأس المال الصناعي .

مجلس لايبزيغ[٢٥]

إن المعركـة الفعليـة ضـد الهـان التـي أعطـى كولبـاخ[٢٦] صـورة تنبوئيـة عنهـا، تجـري فعليـاً فـي المجلـد الثالـث مـن (مجلـة ويغـان الفصليـة) لعـام ١٨٤٥. إن أرواح الأبطـال القتلـى الذيـن لـم تهـدأ ثائرتهـم حتـى بعـد المـوت مشـبعة بغضـب شـديد، تتـردد أصـداؤه مثـل رعـود المعـارك، وصرخـات الحـرب، وصليـل السـيوف، وطقطقـة الـدروع والعربـات الحديديـة. لكـن المعركـة لا تـدور رحاهـا مـن أجـل الأمـور الدنيويـة. لـم تندلـع الحـرب الحـرب المقدسـة حـول تعريفـات الحمايـة، والدسـتور، وآفـة البطاطـا، والنظـام المصرفـي، والسـكك الحديديـة، بـل اندلعـت باسـم أقـدس مصالـح الـروح، باسـم "الجوهـر"، و"الوعـي الذاتـي"، و"النقـد"، و"الأوحـد"، و"الإنسـان الحقيقـي". إننـا نحضـر مجلسـاً لآبـاء الكنيسـة. ولمـا كان هـؤلاء الآبـاء النمـاذج الأخيـرة مـن نوعهـم، ولمـا كان مـن المرجـو أن المرافعـة فـي قضيـة الكائـن الأسـمى، بلـه المطلـق، تجـري ههنـا للمـرة الأخيـرة، فـإن الأمـر يسـتأهل محضـراً حرفيـاً عـن هـذا الاجتمـاع.

هـذا أولاً القديـس برونـو الـذي يسـهل التعـرف إليـه بواسـطة عصـاه ("صـر. طبيعـة حسـية، صـر. عصـا"، أنظـر مجلـة ويغـان، ص ١٣٠). إن رأسـه متوج بهالـة من "النقد الصـرف"، وإما كان يطفـح بالازدراء تجـاه العالـم، فإنـه يلتـف فـي "وعيـه الذاتي" الخـاص. لقد "حطـم الديـن بكليتـه والدولة فـي تظاهراتها" (ص ١٣٨)، بانتهاكـه مفهـوم "الجوهـر" باسـم الوعي الذاتي للكائن الأسـمى. إن خرائب الكنيسـة و"أنقاض" الدولـة تسـتلقي عنـد قدميـه، فـي حيـن أن نظرتـه "تسـحق" "الكتلـة" وتمرغهـا فـي التـراب. إنـه أشـبه باللـه، فـلا أب لـه ولا أم، فهـو "خليقتـه الخاصـة، صنيعتـه الخاصـة" (ص ١٣٦). وباختصار، فإنـه "نابوليون" الـروح، وهـو "نابوليـون" فـي الـروح. إن جوهـر تمارينـه الروحية "اسـتجوابه لذاتـه" باسـتمرار، و"هو يجد فـي هـذا الاسـتجواب الذاتـي الحافـز إلـى تقريـر المصيـر" (ص١٣٠)، ومـن البديهـي أنـه ينحـل ويـذوب

كنتيجة لتسجيل محضر هذا الاستجواب الذاتي المنهك. وفضلاً عن ذلك، فإننا سنرى أنه "يستجوب" أيضاً المركب البخاري الويستفالي[٢٧] من حين لآخر.

ويقف قبالته القديس ماكس الذي استحق خدمة ملكوت الله لأنه أنشأ وأكد هويته في -حوالى ٦٠٠ صفحة مطبوعة- وهو ليس كائناً من كان، وليس "زيداً أو عمرواً"، بل القديس ماكس على وجه الدقة من دون أي أحد آخر. وإن شيئاً واحداً فقط يمكن أن يقال عن الهالة التي تحيط به وعلاماته الأخرى الفارقة، ألا وهو إنها: "موضوعه وبالتالي ملكيته"، إنها "نسيج وحدها" و"لا مثيل لها"، وإنها "عصية على التعبير" (ص ١٤٨). إنه "العبارة" و"صاحب العبارة" في وقت واحد، سانتشو بانزا ودون كيخوت في وقت واحد. وإن تمارينه النسكية تستقيم في الإعداد العسير لأفكار عن عدم التفكير، وفي البحث عبر صفحات عديدة بشأن الأمور التي لا يطاولها الشك، وفي تكريس الدنس. وأخيراً، فإنه لا حاجة بنا إلى إكثار الحديث عن فضائله، لأنه يتلطف فضلاً عن جميع الصفات المعزوة إليه- حتى إذا كان عددها أعظم من عدد أسماء الله الحسنى عند المسلمين -فيقول لنا: إنني الكل وأكثرأيضاً. أنا كل هذا العدم وعدم هذا الكل. وإنه ليتميز بصورة محظوظة من خصمه العابس ببعض "الجذل" المهيب، و"بمرحى نقدية" يقطع بها من حين لآخر تأملاته الجدية.

إن هذين الكبيرين في محاكم التفتيش المقدسة يقاضيان فويرباخ الهرطوقي. الذي ينبغي له أن يدافع عن نفسه ضد التهمة الخطيرة بالأدرية. وإن الهرطوقي فويرباخ "يتوعد" القديس برونو، ويمسك في يده المادة (Hylé)، الجوهر، ويرفض أن يسلمها مخافة أن ينعكس فيها الوعي الذاتي اللامتناهي. ولا بد للوعي الذاتي أن يضرب على وجهه هائماً مثل شبح حتى يسترد إلى ذاته جميع الأشياء التي أصلها فيه والتي تتدفق إلى داخله. لقد سبق أن ابتلع العالم كله، باستثناء هذه المادة، الجوهر، التي يحتفظ بها الأدري فويرباخ أسيرة ويرفض تسليمها.

وإن القديس ماكس يتهم الأدري بأنه يرتاب في العقيدة الموحى بها بلسان القديس ماكس نفسه، العقيدة القائلة أن "الأوز والكلاب والخيول" "كائنات إنسانية كاملة، أو - إذا كان المرء يفضل أفضل التفضيل - الكائنات الإنسانية الأكمل" (ويغان، ص ١٨٧[٢٨]).

إن السـابق الذكـر يفوتـه أن يضفـي أي صفـة مـن الصفـات التـي تجعـل مـن الإنسـان إنسـاناً. وفـي الحقيقـة، فـإن الشـيء ذاتـه ينطبـق أيضـاً علـى الأوز والـكلاب والخيـول.

وفيمـا عـدا الاسـتماع إلـى هـذه الاتهامـات الهامـة، فقـد لفـظ الحكـم أيضـاً فـي القضيـة المرفوعـة مـن قبـل القديسـين ضـد موزيـس هيـس وفـي القضيـة المرفوعـة مـن قبـل القديـس برونـو ضـد مؤلفـي العائلـة المقدسـة. لكـن لمـا كان هـذان المتهمـان مشـغولين فـي ذلـك الحيـن "بشـؤون دنيويـة"، وبالتالـي لـم يظهـرا أمـام المحكمـة المقدسـة[٢٩]، فقـد حكـم عليهمـا غيابيـاً بالنفـي المؤبـد مـن عالـم الـروح حتـى تنتهـي حياتهمـا الطبيعيـة.

وأخيـراً فـإن المعلميـن الكبيريـن يباشـران مـن جديـد بعـض المكائـد الغريبـة معـاً وكذلـك الواحـد ضـد الآخر[*].

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] يظهر في المؤخرة الدكتور غرازيانو (٣٠)، يعني أرنولد روج، الذي يزعم أنه "عقل سياسي داهية بصورة رهيبة" (ويغان، ص:١٩).

(٢)

القديس برونو

١ ـ "الحملة" ضد فويرباخ

قبل أن ننصرف إلى المناقشة المهيبة حيث يتنازع وعي باور الذاتي مع نفسه ومع العالم، يجب علينا أن نكشف عن سر واحد. إذا كان القديس برونو قد أطلق صيحة القتال وأشعل شرارة الحرب، فإن السبب في ذلك أنه كان لزاماً عليه "حماية" نفسه ونقده المر والتافه ضد عقوق الجمهور ونسيانه، ولأنه كان لزاماً عليه أن يبين أن النقد لما يبرح، في الشروط المتغيرة لعام ١٨٤٥، متكافئاً مع نفسه بصورة غير معوجة من دون أن يطرأ عليه أي تبدل. ولقد كتب إذن، المجلد الثاني من كتابه القضية الصالحة وقضيته الخاصة [٣١]. إنه صامد في مكانه، يقاتل دفاعاً عن داره وأرضه[*]. ومهما يكن من أمر، فإنه يخفي هذا الغرض الأناني، على الطريقة اللاهوتية الحقيقة، بمظهر "خصائص" فويرباخ المزعومة. ولقد كان برونو المسكين موضع النسيان التام، الأمر الذي أثبتته على أفضل وجه المساجلة بين فويرباخ وشترنر التي لم يرد له ذكر فيها على الإطلاق. ولهذا السبب على وجه الدقة أطبق على هذه المساجلة كي يكون قادراً على المناداة بنفسه، بوصفه نقيض القطبين المتضادين، ووحدتهما العليا، الروح القدس.

(*) Pro Aris et Focis، باللاتينية في النص الأصلي.

ويفتتح القديس برونو "حملته" برشقة من نيران المدفعية ضد فويرباخ، يعني(*) بطبعة جديدة منقحة وموسعة لمقالة سبق أن ظهرت في مجلة أوراق شمال المانيا [Norddeutsche Blätter](٣٢). إن فويرباخ يحوّل إلى أحد فرسان "الجوهر" كيما يسلط النور بصورة أفضل على"الوعي الذاتي" [self-consciousness] لباور. وإن قديسنا ليقفز دفعة واحدة، بفضل هذه الاستحالة لفويرباخ التي يزعم أن جميع مؤلفات هذا الأخير تثبتها، من كتابات فويرباخ عن ليبنيز وبايلي إلى جوهر المسيحية، مهملاً المقالة ضد "الفلاسفة الوضعيين" في حوليات هال [Hallische Jahrbücher](٣٣). وإن هذا "السهو" ليقع "في الموقع المناسب". ذلك أن فويرباخ يميط اللثام فيه عن كل حكمة "الوعي الذاتي" بصورة متعارضة مع الممثلين الوضعيين "للجوهر"، وذلك في الوقت الذي كان فيه القديس برونو لا يزال منخرطاً في التأمل في موضوع الحبل بلا دنس.

ولا حاجة بنا تقريباً إلى التنويه بأن القديس برونو لا يزال يواصل التبختر على حصانه الحربي الهيغلي القديم. اصغوا إلى الفقرة الأولى من مستوحياته الأخيرة من ملكوت الله:

> "لقد صنع هيغل تركيباً لـ "جوهر" سبينوزا وأنا فيخته في وحدة واحدة؛ وإن هذه الوحدة، وهذا الجمع بين هذين المجالين المتعارضين، الخ، تشكل الأهمية الخاصة لفلسفة هيغل وضعفها في الوقت ذاته [...] إن هذا التناقض الذي يتعثر نظام هيغل فيه يجب حله وتدميره. بيد أنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا حظر إلى الأبد طرح قضية العلاقات بين الوعي الذاتي والروح المطلق... وكان هذا ممكناً بطريقتين: فإما يجب أن يحترق الوعي الذاتي مرة أخرى في نيران الجوهر، يعني أنه يجب عليه أن يتخذ ويحافظ بكل حزم على العلاقة الجوهرية الصرفة، وإما يجب أن يبين أ ن الشخصية هي خالقة صفاتها الخاصة وماهيتها الخاصة، وإن مفهوم الشخصية بحد ذاته يتضمن أن يضع حدوده الخاصة" (حدود "المفهوم" أم "الشخصية"؟) "وأن يلغي مرة أخرى هذا التحديد المفترض الذي تطرحه ماهيته العامة، لأن هذه الماهية على وجه

(*) C’est - à - dire، بالفرنسية في النص الأصلي.

الـــدقة هـــي مجرد نتيجـة تمايـزه الذاتـي الباطـن، نتيجـة فعاليتـه" (ويغـان، ص٨٧ - ٨٨)[*].

لقـد قدمـت الفلسـفة الهيغليـة فـي العائلـة المقدسـة (ص٢٢٠)[٣٤] علـى أنهـا وحـدة سـبينوزا وفيختـه، وقـد أكـد المؤلفـان فـي الوقـت ذاتـه علـى مـا تنطـوي عليـه هـذه الوحـدة مـن تناقـض. وإن الأصالـة الخاصـة بالقديـس برونـو تسـتقيم فـي أنـه، خلافـاً لمؤلفـي العائلـة المقدسـة، لا يعتبـر مسـألة علاقـة الوعـي الذاتـي بالجوهـر علـى أنهـا "نقطـة خـلاف ضمـن التأمـل الفلسـفي الهيغلـي"، بـل مسـألة تتعلـق بالتاريـخ العالمـي، لا بـل مسـألة مطلقـة. وذلـك هـو الشـكل الوحيـد الـذي يسـتطيع أن يعبّـر بـه عـن نزاعـات الحقبـة الحاضـرة. وإنـه ليؤمـن بالفعـل أن انتصـار الوعـي الذاتـي علـى الجوهـر سـيكون لـه تأثيـر جوهـري تمامـاً لا علـى التـوازن الأوروبـي فحسـب، بـل كذلـك علـى التطـور المقبـل لقضيـة أوريغـون[٣٥]. أمـا إلـى أي مـدى يتوقـف عليـه إبطـال قانـون الحبـوب فـي إنكلتـرا، فهـذا مـا لـم يتضـح بعـد إلا بصـورة ضئيلـة جـداً!.

إن هيغـل يعطـي عـن الصراعـات الفعليـة تعبيـراً مجـرداً وسـديمياً يشـوهها بـه حيـن يضعهـا فـي السـماء، وهـذا المفكـر "النقـدي" يأخـذ ذلـك التعبيـر علـى أنـه الصـراع الفعلـي. فبرونـو يرضـى بالتناقـض التأملـي ويدافـع عـن أحـد حديـه ضـد الحـد الآخـر. وعنـده إن العبـارة، الصياغـة الفلسـفية للمسـألة الفعليـة هـي المسـألة الفعليـة بالـذات. وبنتيجـة ذلـك، فـإن لديـه مـن جهـة، بـدلاً مـن البشـر الفعلييـن ووعيهـم الفعلـي عـن علاقاتهـم الاجتماعيـة التـي تجابههـم فـي مظهرهـا علـى أنهـا أمـر مسـتقل، عبـارة مجـردة صرفـة، الوعـي الذاتـي، بالضبـط كمـا أن لديـه، بـدلاً مـن الإنتـاج الفعلـي، الفعاليـة المؤقنمـة [activité hypostasiée] لهـذا الوعـي الذاتـي. ومـن جهـة ثانيـة، فـإن لديـه، بـدلاً مـن الطبيعـة الواقعيـة والعلاقـات الاجتماعيـة الفعليـة القائمـة، الخلاصـة الفلسـفية لجميـع المقـولات أو التسـميات الفلسـفية لهـذه العلاقـات فـي هـذه الصيغـة الجوفـاء: الجوهـر؛ ذلـك أن برونـو، جنبـاً إلـى جنـب مـع سـائر الفلاسـفة والإيديولوجييـن، يعتبـر بصـورة خاطئـة الأفـكار - هـذا

(*) إن التبدلات الطفيفة التي أجراها المؤلفان على الفقرات التي يستشهدان بها، مثلًا تغيير زمن الأفعال وصيغة الفاعل، والترتيب المختلف للكلمات، وكذلك التشديد المتباين، قد أهملت الإشارة إليها هنا.

التعبير الفكري المؤقنم عن العالم القائم - على أنها أساس هذا العالم القائم. ومن البديهي أنه يستطيع بهذين التجريدين، اللذين أفرغا من كل محتوى ومعنى، أن يقوم بمختلف أنواع الحيل من دون أن يعرف أي شيء على الإطلاق عن البشر الفعليين وعلاقاتهم (أنظر من أجل مزيد من المعلومات ملاحظات فويرباخ عن الجوهر، وكذلك ملاحظات القديس ماكس عن الليبرالية الإنسانية... والأقدس). وهكذا، فإنه لا يتخلى عن الأساس التأملي كيما يحل تناقضات التأمل؛ إنه يناور وهو لا يزال متمسكاً بهذا الأساس، وهو نفسه لا يزال صامداً جداً على الأساس الهيغلي نوعياً بحيث أن علاقة "الوعي الذاتي" "بالروح المطلق" لا تكف عن إقلاق راحته. وباختصار، فإننا نجابه هنا فلسفة الوعي الذاتي المعلنة في نقد الأناجيل المطور في المسيحية المنزلة [Das entdeckte]Christenthum[٣٦]، والمعروضة لسوء الحظ قبل وقت طويل في كتاب هيغل علم الظواهر [Phänomenologie][٣٧]. ولقد فندت هذه الفلسفة الباورية الجديدة بصورة كاملة في العائلة المقدسة في الصفحة ٢٢٠ وما يليها وفي الصفحات ٣٠٤ - ٣٠٧[٣٨]. ومهما يكن من أمر، فإن باور قد نجح هنا في رسم نفسه كاريكاتورياً بإعادة إدخال "الشخصية" خلسة، كيما يكون في مقدوره، مع شترنر، أن يصورا الفرد الواحد على أنه "عمله الخاص"، وشترنر نفسه على أنه عمل برونو. وإن هذه الخطوة إلى الأمام تستحق ملاحظة مقتضبة.

قبل كل شيء، فليقارن القارئ هذه الصورة الكاريكاتورية بالأصل، عرض الوعي الذاتي في المسيحية المنزلة، ص١١٣، ومن بعد فليقارن هذا العرض بدوره بأصله الحقيقي، علم الظواهر لهيغل، الصفحتين ٥٧٥ و٥٨٣، وقس على ذلك. (إن كلا هذين المقطعين قد أوردا من جديد في العائلة المقدسة، الصفحات ٢٢١ و٢٢٣ و٢٢٤[٣٩]. ولكن فلنلتفت الآن قليلاً إلى الصورة الكاريكاتورية! "الشخصية بحد ذاتها"! "المفهوم"! "الماهية العامة"! "يضع بذاته حدوده الخاصة ومن بعد يبطل هذا التحديد الذاتي"! "التمايز الذاتي الباطن"! يا لها من "نتائج" باهرة! "الشخصية بحد ذاتها"! إما أن هذه الفكرة هراء "بحد ذاته"، وإما أنها تشير إلى مفهوم الشخصية المجرد. وبالتالي فإنه جزء من "مفهوم" مفهوم الشخصية أن "تضع بذاتها حدودها الخاصة". إن هذا التحديد اللاحق "بمفهوم" مفهومها تضعه ارتجالاً

"بفعل ماهيتها العامة". وبعد أن تبطل مرة أخرى تحديدها الخاص، يتضح أن "هذه الماهية" ليست بالضبط إلا "نتيجة تمايزها الذاتي الباطن". وهكذا فإن كل النتيجة العظيمة لهذا اللغو المعقد تساوي حيلة هيغل المألوفة بتمايز الإنسان الذاتي في الفكر، وهو تمايز ذاتي ينادي به برونو التاعس الحظ بكل عناد على أنه الفعالية الوحيدة "للشخصية بحد ذاتها". ولقد أوضح للقديس برونو قبل زمن طويل جداً بأنه لا سبيل إلى تحصيل أي شيء من هذه "الشخصية" التي تحددت فعاليتها على هذه السلوكيات المنطقية التي باتت مبتذلة في الوقت الحاضر. وفي الوقت ذاته فإن الفقرة الموردة تحتوي على الاعتراف الساذج بأن ماهية "الشخصية" الباورية هي مفهوم المفهوم، تجريد التجريد [L´abstraction d'une abstraction].

وإن النقد الذي يوجهه باور إلى فويرباخ يقتصر، بقدر ما يأتي بعناصر جديدة، على أن يبسط بصورة منافقة مآخذ شترنر على فويرباخ وباور على أنها مآخذ باور على فويرباخ. إذ يأخذ على سبيل المثال التأكيد بأن "ماهية الإنسان هي الماهية المطلقة والأقدس"، وإن "الإنسان هو إله الإنسان"، وإن الجنس البشري هو "المطلق"؛ إذ يأخذ عليه أنه يشطر الإنسان "إلى أنا جوهرية وأنا غير جوهرية" (على الرغم من أن باور يجعل على الدوام من التجريد الشيء الجوهري ويقدم عن هذا الانشطار)، في التضاد الذي يصطنعه بين النقد والجمهور، تصوراً أشد هولاً حتى درجة كبيرة من تصور فويرباخ؛ وإذ يقول إنه يجب خوض النضال ضد "صفات الله"، الخ. وفي مسألة الحب الأناني والحب المنزه يعمد باور، في مساجلته ضد فويرباخ، إلى نسخ شترنر بصورة حرفية على وجه التقريب طوال ثلاث صفحات (ص ١٣٣ - ١٣٥)، بالضبط كما ينسخ بكل خراقة عبارات شترنر الجوفاء: "كل إنسان هو خليقته الخاصة" و"الحقيقة شبح"، وهكذا دواليك. وفضلاً عن ذلك، فإن "الخليقة" قد حوّلت إلى "نتاج" عند برونو. ولسوف نعود إلى هذا الاستغلال لشترنر من قبل القديس برونو.

وهكذا فإن العنصر الأول الذي نكتشفه عند القديس برونو هو تبعيته المستمرة حيال هيغل. ونحن لن نتوقف بالطبع أكثر من هذا عند الاعتبارات التي نسخها عن هيغل، بل سوف نقتصر على جمع بضع عبارات أخرى تبين بكل وضوح مبلغ إيمانه الراسخ بسلطان الفلاسفة وحتى أية درجة يتقاسم وإياهم إيمانهم الوهمي بأن تعديلاً في الوعي وتوجهاً

جديداً في تعليل العلاقات القائمة يستطيعان أن يؤديا إلى انقلاب ثوري للعالم كما هو موجود حتى الوقت الحاضر. ولقد حمل القديس برونو كذلك، وهو مشرّب بهذا الإيمان، أحد تلامذته على أن يشهد (في العدد الرابع من مجلة ويغان الفصلية، ص ٣٢٧) بأن عباراته الجوفاء الشخصية، المعلنة من قبل في العدد الثالث، "أفكار تثوِّر العالم"[٤٠].

يقول القديس برونو (ويغان، ص ٩٥):

"لم تكن الفلسفة قط شيئاً آخر سوى اللاهوت المرجع إلى شكله الأعم والمعطى تعبيره الأكثر عقلانية".

إن هذه الفقرة، الموجهة ضد فويرباخ، منسوخة بصورة حرفية تقريباً عن كتاب فويرباخ فلسفة المستقبل [philosophie derZunkunft] (ص ٢).

"إن الفلسفة التأملية هي اللاهوت الحقيقي، الحازم والعقلاني".

ويستطرد برونو:

"إن الفلسفة نفسها، بالتحالف مع الدين، قد سعت على الدوام إلى تبعية الفرد المطلقة، وقد حققت ذلك فعلياً بمطالبتها وحصولها على امتصاص الحياة الفردية في الحياة العامة، والعرضي في الجوهر، والإنسان في الروح المطلق".

فكأنما "فلسفة" برونو، "بالتحالف مع" الهيغلية، وتعاملها المحظور، لكن المستمر بعد، مع اللاهوت، لم "تطالب"، إن لم "تحصل"، لامتصاص الإنسان في فكرة أحد "جوانبه العرضية"، ألا وهو الوعي الذاتي، المقدم على أنه "الجوهر"! وفيما عدا ذلك، فإن هذه الفقرة بكاملها تبين فرحة هذا الأب الكنسي، "ببلاغته المنبرية المقدسة"، وهو يواصل المناداة بإيمانه "الثوري" بفضيلة اللاهوتيين والفلاسفة المقدسين الحبلى بالوعود السرية؛ وذلك كله، بكل تأكيد، في مصلحة "قضية الحرية الصالحة وقضيته الخاصة".

وإن الوقاحة لتبلغ بصاحبنا المقدس أن يوجه إلى فويرباخ هذا النقد في الصفحة ١٠٥:

"لم يصنع فويرباخ من الفرد، من إنسان المسيحية المجرد من الصفات الإنسانية إنساناً حقيقياً" (!) "فعلياً" (!!) "شخصياً" (!!!) (هذه الصفات

تديــن بأصلهــا العائلــة المقدســة وشــترنر)، "بــل جعــل الكائــن الإنســاني، عاجــزاً، مســتعبداً".

عندئـذ فإنـه ينطـق، فيمـا ينطـق بـه مـن سـخافات، بالهـراء القائـل إنـه يسـتطيع، هـو القديـس برونـو، أن يصنـع بشـراً بواسـطة الذهـن.

ويقول بعد قليل في الفقرة ذاتها:

"فـي رأي فويربـاخ أن علـى الفـرد أن ينصاع للنـوع، وأن يخدمـه. إن النـوع الـذي يتحـدث فويربـاخ عنـه هـو المطلـق الهيغلـي، وهـو كذلـك لا وجـود لـه فـي أي مـكان".

ههنـا، كمـا فـي سـائر الفقـرات الأخـرى، لا يحـرم القديـس برونـو نفسـه مجـد جعـل علاقـات الأفـراد الفعليـة رهنـاً بالتعليـل الفلسـفي المعطـى لهـذه العلاقـات. إنـه لا يملـك أدنـى فكـرة عـن العلاقة الفعليـة القائمـة بيـن أفـكار "الـروح المطلـق" الهيغلـي و"النـوع" الفويرباخـي مـع العالـم القائـم.

وفـي الصفحـة ١٠٤، يغتـاظ الأب المقـدس بصـورة رهيبـة مـن جـراء الهرطقـة الفويرباخيـة التـي تحـول الثالـوث الأقـدس: العقـل - الحـب - الإرادة إلـى شـيء مـا "هـو فـي الأفـراد وفـوق الأفـراد"، فكأنمـا كل ميـل طبيعـي وكل حافـز وكل حاجـة لا تؤكـد ذاتهـا فـي أيامنـا هـذه علـى إنهـا قـوة "فـي الأفـراد وفـوق الأفـراد" حالمـا تعتـرض الظـروف إرضاءهـا. ومثـال ذلـك، أنـه إذا جـاع الأب المقـدس مـن دون أن تتوافـر لـه وسـائل إشـباع جوعـه، فـإن معدتـه سـوف تصبـح إذن، قـوة "فيـه وفوقـه". وإن خطيئـة فويربـاخ لا تكمـن فـي مناداتـه بهـذه الحقيقـة، بـل فـي أقنمتهـا بطريقـة مثاليـة بـدلاً مـن اعتبارهـا نتاجـاً لمرحلـة محـددة مـن التطـور التاريخـي يمكـن التغلـب عليهـا.

ص ١١١:

"إن فويربـاخ خـادم وطبيعـة العبوديـة تعوقـه عـن إنجـاز عمـل إنسـان، عـن تمييـز ماهيـة الديـن" (يـا لـه بالفعـل مـن "عمـل إنسـان" رائـع!)... "إنـه لا يميـز ماهيـة الديـن لأنـه يجهـل الجسـر الـذي سـيؤدي بـه إلـى مصـادر الديـن".

فـلا يـزال القديـس برونـو يؤمـن جـاداً بـأن للديـن "ماهيتـه" الخاصـة. وأمـا "الجسـر" الـذي

"يـؤدي" إلـى "مصـادر الديـن"، فـلا يمكـن أن يكـون جسـر الحميـر هـذا إلا قنـاة [aqueduct] وفـي الوقـت ذاتـه، فـإن القديـس برونـو يقـدم نفسـه كشـارون عصـري مضحـك، أحيـل إلـى الاسـتيداع مـن جـراء وجـود الجسـر، يقـوم بوظيفـة مـكاس(*) يطلـب نصـف فلـس كرسـم للمـرور مـن كل شـخص يعبـر الجسـر إلـى مملكـة الديـن الشـبحية(٤١).

وفي الصفحة ١٢٠ يقدم القديس هذه الملاحظة:

"كيـف يمكـن أن يوجـد فويربـاخ إذا لـم تكـن الحقيقـة موجـودة، وإذا كانـت الحقيقـة مجـرد شـبح" (النجـدة، يـا شـترنر!) "قـد تراجـع الإنسـان أمامـه هلعـاً حتـى الوقـت الحاضـر؟".

إن هـذا "الإنسـان" الـذي يخـاف "شـبح" "الحقيقـة" ليـس هـو غيـر برونـو الفاضـل نفسـه. وقبـل عشـر صفحـات، فـي الصفحـة ١١٠، انطلقـت منـه أمـام "شـبح" الحقيقـة صيحـة الرعـب التاليـة التـي هـزت العالـم:

"إن الحقيقـة التـي لا تصـادف قـط مـن تلقـاء ذاتهـا مـن حيـث هـي موضـوع مكتمـل لا تتطـور وتبلـغ الوحـدة إلا فـي ازدهـار الشـخصية فقـط".

وهكـذا فـإن الحقيقـة، هـذا الشـبح، تسـتحيل شـخصاً يتطـور ويبلـغ الوحـدة؛ وفضـلاً عـن ذلـك فـإن هـذه الحيلـة تتحقـق فـي شـخصية ثالثـة خارجـة عنهـا، علـى طريقـة الـدودة الشـريطية. تلـك هـي النتيجـة التـي نحصـل عليهـا هنـا. أمـا بشـأن علاقـات الحـب السـابقة التـي كانـت للرجـل المقـدس مـع الحقيقـة، حيـن كان لا يـزال شـاباً وكانـت شـهوات الجسـد قويـة فيـه بعـد، فانظـر العائلـة المقدسـة، ص ١١٥، ومـا يليهـا(٤٢).

أمـا مبلـغ نقـاوة رجلنـا القديـس مـن جميـع الشـهوات الجسـدية والرغبـات الدنيويـة حاليـاً، فأمـر يتضـح مـن مسـاجلته العنيفـة ضـد حسـية فويربـاخ. ولا تسـتهدف هجمـات برونـو فـي أي حـال مـن الأحـوال الطابـع المحـدود جـداً لاعتـراف فويربـاخ بـدور الحـواس. إن محاولـة فويربـاخ الفاشـلة، حتـى كمجـرد محاولـة للفـرار مـن الإيديولوجيـة، هـي بالنسـبة إليـه... خطيئـة. بـكل تأكيـد! إن الحسـية شـهوة العيـن، وشـهوة الجسـد وغطرسـة - أمـر بغيـض ورجـس فـي نظـر

(*) Tollkeeper، بالإنكليزية في النص الأصلي.

الـرب. أفـلا تعرفـون أن التفكيـر فـي الجسـد يجلـب مـوت النفـس، بينمـا الاهتمـام بالـروح يعنـي الحيـاة والسـلام؟ ذلـك أن الاهتمـام بالجسـد يعنـي معـاداة النقـد، وكل مـا هـو جسـدي هـو مـن هـذا العالـم. وألا تعرفـون أنـه مكتـوب: إن أعمـال الجسـد معروفـة، فهـي الزنـا، والفسـق، والدنـس، والفحـش، والوثنيـة، والسـحر، والشـحناء، والشـقاق، والحسـد، والغضـب، والمشاكسـة، والفتنـة، والعصيـان، والحقـد، والجريمـة، والإدمـان، والشـراهة، ومـا شـابه؟ لكننـي تنبـأت لكـم وأتنبـأ لكـم مـن جديـد بـأن أولئـك الذيـن يأتـون مثـل هـذه الأفعـال لـن يرثـوا ملكـوت النقـد؛ الويـل لهـم لأنهـم يسـلكون سـبيل قاييـن [Caïn] وسـعيهم إلـى اللـذة يوقعهـم فـي خطيئـة بلعـام [Balaam]، وسـوف يفنـون فـي العصيـان كمـا حـدث لقـارون [Korah] . إن هـؤلاء الفاسـقين يحيـون حيـاة فاجـرة، مسـتغلين مـن دون خجـل صدقاتكـم. إنهـم خـراف ترعـى مـن دون راعٍ؛ سـحب لا مـاء فيهـا تطردهـا الريـح؛ أشـجار عاريـة، عقيمـة، قـد ماتـت مرتيـن واقتلعـت جذورهـا؛ أمـواج محيـط متوحشـة تزبـد بعارهـا؛ كواكـب هائمـة محكـوم عليهـا بكآبـة الظلمـة إلـى الأبـد. ذلـك أننـا قرأنـا أن أوقاتـاً رهيبـة سـتأتي فـي الأيـام الأخيـرة، وسـوف يظهـر بشـر يكبِّـرون أنفسـهم جـداً، ذمامـون وفاسـقون يفضلـون اللـذة علـى النقـد، بشـر يتمـردون، وباختصـار عبيـد للجسـد. إن مثـل هـؤلاء البشـر يبغضهـم القديـس برونـو، الـذي تتوجـه أفـكاره نحـو الـروح والـذي يطـارد بكراهيتـه غطـاء الجسـد الملـوث؛ ولهـذا السـبب فهـو يحكـم علـى فويربـاخ، الـذي يعتبـره قـارون العصيـان، بالبقـاء فـي الخـارج جنبـاً إلـى جنـب مـع الـكلاب، والسـحرة، والفاسـقين، والقتلـة. "الحسـية"- ويـلاه! إن هـذه الكلمـة لا تثيـر عنـد أب الكنيسـة القديـس أعنـف الاختلاجـات فحسـب، بـل تدفعـه إلـى الغنـاء أيضـاً، فـإذا هـو فـي الصفحـة ١٢١ يغنـي "نشـيد النهايـة ونهايـة النشـيد". الحسـية - أتعـرف أيهـا الإنسـان البائـس مـا الحسـية؟ إن الحسـية... "عصـاً" (ص ١٣٠). بـل إن القديـس برونـو نفسـه، وهـو يعانـي رعـب اختلاجاتـه، يتصـارع مـع إحـدى عباراتـه، مثلـه كمثـل يعقـوب الطيـب الذكـر مـع المـلاك، مـع هـذا الفـرق الوحيـد، ألا وهـو أن اللـه خلـع ورك يعقـوب، فـي حيـن أن مصروعنـا المقـدس لا يفعـل سـوى خلـع جميـع أطـراف عبارتـه وأربطتهـا، الأمـر الـذي يتيـح لـه، بعـدد مـن الأمثلـة الباهـرة، أن يوضـح لنـا هويـة الـذات والموضـوع.

"يسـتطيع فويربـاخ أن يقـول مـا يحلـو لـه... فهـو علـى أي حـال يدمـر" (!)

"الإنسـان... ذلـك أنـه يحـوّل كلمـة إنسـان إلـى مجـرد عبـارة جوفـاء... ذلـك أنـه لا يصنع" (!) "ولا يخلـق" (!) الإنسـان فـي كليتـه، بـل يرفـع الجنـس البشـري بأسـره إلـى المطلـق، لأن عضـو المطلـق علـى أي حـال ليـس الجنـس البشـري بالنسـبة إليـه، بـل علـى العكـس مـن ذلـك الحـواس؛ إنـه يدمـغ موضـوع الحـواس، الحـدس، الإدراك الحسـي - المحسـوس، علـى أنـه المطلـق، المعرفـة الأكيـدة، اليقيـن الفـوري. وبذلـك فـإن فويربـاخ- وذلـك هـو رأي القديـس برونـو - "ربمـا يسـتطيع أن يهـز طبقـات الهـواء، لكنـه سـيكون عاجـزاً عـن أن يسـحق تجليـات ظاهـرة الماهيـة الإنسـانية، لأن ماهيتـه الأعمـق" (!) "وروحـه الغنـي [...] يدمـران سـلفاً الطنيـن الخارجـي" (!) "ليـرداه إلـى كلمـات جوفـاء وضـارة" (ص ١٢١).

وإن القديس برونو ليقدم بنفسه إيضاحات عجيبة لكن حاسمة عن أسباب موقفه الأحمق:

"فـكأن أنـاي لا تملـك أيضـاً هـذا الجنـس المعيـن والفريـد الـذي يميزهـا مـن الآخريـن جميعـاً، وهـذه الأعضـاء الجنسـية المعينـة والفريدة!".(فإلـى جانـب "الأعضـاء الجنسـية الفريـدة"، يملـك هـذا الفاضـل أيضـاً "جنسـاً فريـداً فـذاً!).

وإن هذا الجنس الفريد ليفسر في الصفحة ١٢١ بمعنى أن:

"الحسـية، مثـل الخفـاش، تمتـص كل المـخ والـدم مـن الحيـاة الإنسـانية؛ إنهـا الحاجـز المنيـع الـذي لا بـد للإنسـان أن يوجـه إلـى ذاتـه عنـده ضربـة قاضيـة".

ولكـن أقـدس البشـر ليـس هـو نفسـه طاهـراً! إنهـم خطـاة جميعـاً ويفتقـرون إلـى المجـد الـذي كان يجـب أن يكـون فـي حوزتهـم فـي أنظـار "الوعـي الذاتـي"! إن القديـس برونـو، الـذي يتعـارك فـي حجرتـه المنعزلـة فـي منتصـف الليـل مـع "الجوهـر"، تسـتلفت الكتابـات الطائشـة للهرطوقـي فويربـاخ انتباهـه إلـى المـرأة والجمـال الأنثـوي. وإنـه ليستسـلم إلـى الكآبـة بصـورة مفاجئـة؛ إن الوعـي الذاتـي النقـي قـد تدنـس، وهـذه نـزوة خاطئـة، حسـية، تتراقـص حـول الناقـد المذعـور بصـورة داعـرة. إن الـروح يقـظ، لكـن الجسـد ضعيـف. ويترنـح برونـو، ويسـقط، وينسـى أنـه القـوة التـي "تعقـل العالـم وتحـرره وتسـوده بجبروتهـا"؛ وينسـى أن هـذه المنتجـات لمخيلتـه

هـي "روح روحـه"؛ ويفقـد كل "وعـي ذاتـي"، ويتمتـم نشـواناً بقصيـدة مديـح يقـرظ فيهـا جمـال المـرأة، "الطافحـة حنانـاً ورقـة وأنوثـة"، يقـرظ فيهـا "الوركيـن المليئيـن والمدوريـن"، و"الخطـوط الجياشـة، المتموجـة، المضطربـة، الدفاقـة، المرتعشـة، الأشـبه بمـوج البحـر"[٤٣]. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن البراءة تنكشـف دائمـاً - حتـى حيـث تخطـيء. فمـن ذا يجهـل أن "الخطـوط الجياشـة، المتموجـة، الأشـبه بمـوج البحـر"، شـيء لـم تقـع عليـه العيـن قـط، أو تسـمعه قـط؟ وبالتالـي- صـه أيتهـا النفـس الحبيبـة، فالـروح سـوف يسـترد عاجـلاً سـلطانه علـى الجسـد المتمـرد ويرفـع "حاجـزاً" منيعـاً فـي وجـه الشـهوات المتدفقـة والمضطربـة التـي "سـرعان مـا "سـوف توجـه "عنـده" إلـى ذاتهـا "الضربـة القاضيـة".

"إن فويربـاخ" - إلـى هنـا ينتهـي القديـس أخيـراً مـن خـلال تفهمـه النقـدي للعائلـة المقدسـة - "نصيـراً للمادية،الماديـة المشـربة بالإنسـانية والمفسـدة بهـا، يعنـي أن المـادي عنـده عاجـز عـن الصمـود، عـن الحيـاة علـى الأرض وعلـى وجودهـا" (إن القديـس برونـو يعـرف وجـوداً لـلأرض متميـزاً مـن الأرض ذاتهـا، ويعـرف كيـف يجـب أن يتصـرف المـرء كـي "يصمـد علـى وجـود الأرض"!) "إنـه يريـد، علـى النقيـض مـن ذلـك، أن يصبـح روحـاً وأن يصعـد إلـى السـماء؛ وإنـه فـي الوقـت ذاتـه إنسـاني، لا يسـتطيع أن يفكـر ويبنـي عالمـاً روحيـاً، فيلتجـىء إلـى الماديـة باعتبارهـا عنصـراً مخصبـاً"، وهكـذا دواليـك (ص ١٢٣).

وإذا كانـت الإنسـانية عنـد القديـس برونـو، وفقـاً لمـا تقـدم، تسـتقيم فـي أن "يفكـر" وأن "يبنـي عالمـاً روحيـاً"، فـإن تعريفـه للماديـة هـو كمـا يلـي:

"لا يسـلم المـادي إلا بالوجـود الفعلـي والواقعـي، المـادة (فـكأن الإنسـان بـكل خصائصـه، بمـا فـي ذلـك الفكـرة، ليـس "وجـوداً فعليـاً وواقعيـاً) والطبيعـة، المـادة الفاعلـة التـي تتحقـق وتنتشـر فـي التعـدد" (ص ١٢٣).

أولاً، المـادة وجـود فعلـي وواقعـي، لكـن فـي ذاتهـا فحسـب، بصـورة سـرية؛ وحيـن "تصبـح فعالـة بانتشـارها وتحققهـا فـي التعـدد" (إن هـذا "الوجـود الفعلـي والواقعـي" "يتحقـق"!!)، تصيـر عندئـذ فقـط طبيعـة. أولاً يوجـد مفهـوم المـادة، الفكـرة المجـردة، التصـور، الـذي يتحقـق فيمـا بعـد

فـي طبيعـة واقعيـة. تلـك هـي، بصـورة حرفيـة، النظريـة الهيغليـة عـن الوجـود المسـبق للمقـولات الخلاقـة. ويصبـح مفهومـاً مـن وجهـة النظـر هـذه أيضـاً أن القديـس برونـو يأخـذ بصـورة خاطئـة الصيـغ الفلسـفية للماديين بشـأن المـادة علـى أنهـا النـواة والمحتـوى الفعليـان لنظرتهـم عـن العالـم.

٢ ـ آراء القديس برونو عن الصراع بين فويرباخ وشترنر

بعـد أن نطـق القديـس برونـو علـى هـذا الغـرار ببضـع كلمـات خطيـرة ضـد فويربـاخ، فإنـه يلقـي نظـرة علـى الصـراع القائـم بيـن فويربـاخ والأوحـد [Unique]. وإن البينـة الأولـى علـى اهتمامـه بهـذه المبـارزة هـي ابتسـامة منهجيـة تتجلـى ظاهـرة علـى شـفتيه ثـلاث مـرات متكـررة.

"إن الناقـد يواصـل طريقـه بصـورة لا تقـاوم، واثقـاً بالنصـر، بلـه ظافـراً. إنهـم يفتـرون عليـه - فيبتسـم. إنهـم يتهمونـه بالهرطقـة- فيبتسـم. إن العالـم القديـم يخـرج فـي حملـة صليبيـة ضـده - فيبتسـم".

إن القديـس برونـو - وهـذا أمـر محقـق فـي الوقـت الحاضـر - يواصـل طريقـه إذن، لكنـه لا يمشـي مثـل كل البشـر، بـل يسـلك مسـلكاً نقديـاً، وينجـز هـذا العمـل الهـام وعلى شـفتيه ابتسـامة.

"إن ابتسـامته ترسـم علـى محيـاه خطوطـاً أكثـر ممـا فـي خارطـة العالـم، مـع جـزر الهنـد الشـرقية والغربيـة...إن الآنسـة سـتصفعه؛ فـإذا فعلـت، فسـوف يبتسـم، ويأخـذ ذلـك علـى أنـه فـن عظيم"[٤٤]،[مثـل بطـل شكسـبير مالفوغليـو [Malvoglio].

ولا يرفـع القديـس برونـو نفسـه أصبعـه الصغيـر ليدحـض خصميـه، فهـو يعـرف طريقـة أفضـل للتخلـص منهمـا، فيدعهمـا - فـرق تسـد[*] - لخصومتهمـا الخاصـة. إنـه يجابـه شـترنر بإنسـان فويربـاخ (ص ١٢٤). ويجابـه فويربـاخ بأوحـد شـترنر (ص ١٢٦ ومـا يليهـا)؛ إنـه يعـرف أنهمـا يتبـادلان السـخط بقـدر قطتـي كيلكنـي [Kilkenny] فـي إيرلنـدا اللتيـن التهمتـا بعضهمـا بعضـاً حتـى لـم يتبـق منهمـا أخيـراً سـوى الذيليـن. وإن القديـس برونـو ليصـدر الحكـم علـى هذيـن الذيليـن، معلنـاً أنهمـا "الجوهـر"، وبالتالـي محكـوم عليهمـا بالهـلاك الأبـدي.

(*) Divide et impera، باللاتينية في النص الأصلي.

وفـي المواجهـة الحاسـمة بيـن فويربـاخ وشـترنر لا يفعـل سـوى تكـرار مـا قالـه هيغـل عـن سـبينوزا وفيختـه. ومـن المعـروف أن هيغـل يقـول: إن الآنـا المرجعـة إلـى نقطـة واحـدة مظهـر واحـد مـن مظاهرالجوهـر، والأكثـر مـن ذلـك إنهـا المظهـر الأقصـى. وكائنـاً مـا كان غضـب برونـو السـابق ضـد الأنانيـة، التـي يبلـغ الأمـر بـه أن يجعلهـا الرائحـة النوعيـة(*) للجماهيـر، فإنـه يرضـى فـي الصفحـة ١٢٩ بالأنانيـة مـن شـترنر، مـع هـذا التحفـظ الوحيـد، ألا وهـو أن هـذه الأنانيـة يجـب "ألا تكـون أنانيـة ماكـس شـترنر"، بـل بالطبـع أنانيـة برونـو بـاور. وإنـه يسـم أنانيـة شـترنر باسـم الأخـلاق، "لأن أنـاه تتطلـب مـن أجـل دعـم أنانيتـه النفـاق والكـذب والعنـف الجسـدي". وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه يؤمـن (أنظـر ص ١٢٤) بالمعجـزات النقديـة للقديـس ماكـس ويـرى فـي نضـالات هـذا الأخيـر (ص ١٢٦) "جهـداً حقيقيـاً مـن أجـل تدميـر الجوهـر بصـورة جذريـة". وبـدلاً مـن أن يعالـج نقـد شـترنر "للنقـد الصـرف" لبـاور، فإنـه يؤكـد فـي الصفحـة ١٢٤ أن نقـد شـترنر لا يؤثـر فيـه مـن قريـب أو بعيـد، مثلـه كمثـل أي نقـد آخـر، "مـا دام هـو نفسـه الناقـد".

وأخيـراً يدحضهمـا القديـس برونـو معـاً، القديـس ماكـس وفويربـاخ، مطبقـاً بصـورة حرفيـة تقريبـاً علـى فويربـاخ وشـترنر نقيضـة قررهـا شـترنر بيـن الناقـد برونـو بـاور والعقائـدي(**).

(*) Odor Specificus، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) من بين الصفحات المخطوطة المكتشفة أخيراً، من الإيديولوجية الألمانية والمنشورة للمرة الأولى عام ١٩٦٢ في المجلة الأممية للتاريخ الاجتماعي، المجلد الثالث، القسم آ، تمثل وريقة مكتوبة على الوجهين تحمل على الصفحة الأولى، بقلم ماركس، رقم ٢٩. تلك هي الصفحة ٢٩ من النص الأول للفصل الأول، المرقم من قبل ماركس من ١- ٧٢. ونعطي هنا نص العمود الأيسر، المشطوب برمته بخط عمودي، وهو يشكل مجرد صياغة أخرى للنص الذي قرأناه لتونا. وعلى أية حال، فإن نهاية النص بكاملها، ابتداء من اقتباس برونو باور "لا يجب ولا يمكن أن تفهم النقد"، ص ١٢٨، حتى نهاية الاقتباس من التوراة(Bible)، مماثلة للنص الحالي، باستثناء موضعين: ففي هذه المخطوطة، ترد في الشواهد، جميع الأسماء، أو جميعها، على وجه التقريب، بالرومانية؛ وفي الاقتباس التوراتي، أضاف ماركس بعد بعل(Baal)، بين قوسين، فويرباخ.

أما النص الوارد في العمود الأيمن فقد أورد أعلاه.

[الصفحة الثانية المخطوطة، الوجه، العمود الأيسر:] ... قطتي كيلكني في إيرلندا اللتين التهمتا=

ويغان، ص ١٣٨:

"يضـع فويربـاخ نفسـه فـي تعـارض مـع، وبالتالـي" (!) "ينهـض فـي تعـارض مـع الأوحـد. إنـه شـيوعي ويريـد أن يكـون شـيوعياً. هـذا أنانـي ويريـد أن يكـون أنانيـاً؛ أمـا ذاك فهـو الأقـدس... هـذا هـو المدنـس؛ أمـا ذاك فهـو الصالـح، اللـه. هـذا هـو الشـرير، الإنسـان. وكلاهمـا... عقائـدي".

فالقضية معي، وبناء عليه، إنه يتهمهما كليهما بالجمود العقائدي.

الأوحد وخاصته [Der Einzige und sein Eigenthum]، ص ١٣٤:

= بعضهما بعضاً بصورة تامة حتى لم يتبق في النهاية سوى الذيلين منهما.وعندئذ جاء القديس برونو، الذي لفظ كلمته: "إنه يقول عن هذين الذيلين إنهما "الجوهر"، وبالتالي فهما معطيان حتى الأبد. وأخيراً فإن فكرة تهدئ السيد برونو: هو، الناقد، لن يتمكن أي نقد من بلوغه "ما دام هو نفسه الناقد"" (ص ١٢٤).

وعندما انتهى قديسنا، بالطريقة المذكورة، من شترنر وفويرباخ، وفضلاً عن ذلك عندما "قطع كل إمكانية للتقدم" أمام "الأوحد"، فإنه يستدير الآن نحو العواقب المزعومة لفويرباخ: الشيوعيون الألمان. وكان لا بد بالطبع أن ينتظر الأب القديس مناسبة مثل هذه كي يبرىء على هواه الشيوعية وممثليها النظريين في ألمانيا، وكي يتمكن في الوقت ذاته من حذفهم. ولقد كان هذا بالنسبة إليه ضرورياً بقدر ما نظم الموقعون أدناه محضراً [...]* عن عذابه الفكري و[...](آ) في العائلة المقدسة قرر قيمة الشيوعية، وبصورة خاصة حيال "النقد النقدي"، الحد الأقصى للنظرية الألمانية(ب).

وقد كان للعائلة المقدسة بادئ الأمر تأثير عميق في أبينا الكنسي المحترم وأغرقته في كآبة خطيرة ومتسامحة في الوقت ذاته. وإن الحسنة الوحيدة للكتاب هي أنه يبين "ما سوف يؤول إليه فويرباخ بالضرورة، وكيف يمكن لفلسفته أن تمثل، عندما تريد أن تناضل ضد النقد" (ص ١٣٩)، لكن حقيقة الجمع بكل سهولة بين الضرورة والإمكانية والإرادة لا تعوض عن الجوانب المؤسفة العديدة في الكتاب.

إن أحزان القديس برونو بهذا الشأن أشبه ما تكون بأحزان يهوه العجوز الذي ينطلق، بأصوات أنبيائه الأربعة الكبار والإثني عشر الصغار، مزمجراً في أعقاب اسرائيل (Israël)، شعبه المرتد، كيما يتفادى أن يتخلى عنه هذا الشعب كلياً.

إن فلسفة فويرباخ، كما تفترض هنا بصورة اعتباطية تماماً...(ج)

(آ) كلمات غير واضحة.

(ب) إن نهاية هذه الجملة، ابتداء من "قدر قيمة"، مشطوبة في المخطوطة.

(ج) ابتداء من هنا، حتى نهاية الاقتباس من يهوه، كما أعلاه. وتتوقف الورقة المخطوطة بعد كلمة ماء المطر (Re-gemwasser).

"يخـاف الناقـد أن يسـقط فـي الجمـود العقائـدي أو أن يوضـع مـع العقائـدي. ومـن البديهـي أنـه سـيصبح إذن، نقيـض الناقـد، أي عقائديـاً؛ وإن ذلـك الـذي كان الخيـر بصفتـه ناقـداً سـوف يصبـح الآن الشـر، أو سـوف يتحـول مـن كونـه غيريـاً" [unselfish] (شـيوعياً) "إلـى أنانـي، الـخ. ولا عقيـدة واحـدة! - تلـك هـي عقيدتـه".

٣- القديس برونو ضد مؤلفي العائلة المقدسة

بعـد أن تخلـص القديـس برونـو مـن فويربـاخ وشـترنر بالطريقـة المشـار إليهـا "وقطـع علـى الأوحـد طريـق التقـدم"، ينصـرف الآن إلـى "عواقـب فويربـاخ" المزعومـة، الشـيوعيين الألمـان، وعلـى الأخـص مؤلفـي العائلـة المقدسـة. وإن تعبيـر، "الإنسـانية المشـخصة" الـذي يصادفـه فـي مقدمـة هـذه الوثيقـة السـجالية يـزوده بالأسـاس الرئيسـي لفرضيتـه. وممـا لا ريـب فيـه أنـه تذكـر فقـرة مـن الكتـاب المقـدس:

"وأنـا أيهـا الأخـوة مـا كنـت أسـتطيع أن أتحـدث إليكـم كمـا إلـى روحانييـن، بـل كمـا إلـى جسـديين" (كان الأمـر فـي حالتنـا النقيـض مـن ذلـك تمامـاً)" بـل كمـا إلـى أطفـال فـي المسـيح. لقـد غذيتكـم بالحليـب وليـس باللحـم؛ لأنكـم مـا كنتـم حتـى هـذا الحيـن قادريـن علـى احتمالـه". (الرسـالة الأولـى إلـى أهـل كورنثـوس، الإصحـاح الثالـث٣ : ١- ٢)[٤٥].

إن الانطبـاع الأول الـذي تركتـه العائلـة المقدسـة فـي شـيخ الكنيسـة الفاضـل، كان انطباعـاً مـن الأسـى العميـق والأسـف الجـدي، كمـا يليـق أن يصـدر عـن رجـل صالـح. إن الحسـنة الوحيـدة للكتـاب هـي أنـه:

"يبيـن مـا كان يجـب أن يـؤول فويربـاخ إليـه بالضـرورة، وكيـف كان يمكـن لفلسـفته أن تمثـل إذا كانـت تريـد أن تناضـل ضـد النقـد" (ص ١٣٨).

وإنـه يجمـع بنتيجـة ذلـك بطريقـة سلسـة "الإرادة" مـع "الإمكانيـة" و"الواجـب"، لكـن هـذا المظهـر الجيـد لا يمكـن أن يعـوض عـن المظاهـر المؤسـفة العديـدة فيـه. إن فلسـفة فويربـاخ، المقصـودة هنـا بصـورة سـاخرة.

"لا يجـب ولا تسـتطيع أن تفهـم النقـد - لا يجـب ولا تسـتطيع أن تعـرف النقـد وتسـلم بـه

فـي تطـوره، لا يجـب ولا تسـتطيع أن تعـرف أن النقـد، بصـورة متعارضـة مـع كل تعـالٍ، صـراع وانتصـار متواصـلان، دمـار وخلـق دائمـان، المبـدأ الوحيـد"(!) "القـوة الخلاقـة والخصبـة. لا يجـب ولا تسـتطيع أن تعـرف أي جهـد قدمـه الناقـد، ولا يـزال يقدمـه، كـي يفضـح القـوى المتعاليـة التـي سـحقت الجنـس البشـري حتـى الوقـت الراهـن ومنعتـه مـن التنفـس والعيـش، وذلـك بـأن تجعـل"(!) "منهـا مـا هـي عليـه حقـاً وفعـلاً، روحـاً مـن روح، قـدس الأقـداس، عنصـراً مألوفـاً"(!) "انبثـق مـن التربـة الوطنيـة وهـو مقيـم فيهـا، نتـاج وخليقـة الوعـي الذاتـي. لا يجـب ولا تسـتطيع أن تعـرف أن الناقـد والناقـد وحـده قـد حطـم الديـن بكليتـه، والدولـة بتظاهراتهـا المتباينـة، الـخ" (ص ١٣٨، ١٣٩).

أليسـت هـذه نسـخة مضبوطـة عـن يهـوه العجـوز الراكـض وراء شـعبه الـذي تخلـى عنـه بصـورة مفاجئـة ووجـد سـروراً أعظـم فـي الآلهـة الوثنيـة المرحـة، هاتفـاً بـه:

"اسـمعني يـا اسـرائيل، ولا تسـد أذنيـك يـا يهـوذا! ألسـت أنـا الـرب إلهـك، الـذي أخرجـك مـن أرض مصـر إلـى الأرض التـي تتدفـق بالحليـب والعسـل؟ وهـذا أنـت منـذ شـبابك الباكـر قـد ارتكبـت الإثـم أمـام ناظـري وأثـرت غضبـي بمـا صنعـت يـداك وأدرت ظهـرك لـي مـن دون وجهـك، بينمـا أرشـدتك أنـا علـى الـدوام؛ ولقـد حملـت المكروهـات إلـى بيتـي كـي تلوثـه، وشـيدت هيـكلاً لبعـل فـي وادي ابـن حيمـون لـم آمـر أنـا بـه، ولـم يخطـر قـط فـي بالـي أنـك ترتكـب مثـل هـذه المكروهـات؛ ولقـد أرسـلت إليـك خادمـي إرميـا، الـذي عـرف كلمتـي، بـدءاً مـن السـنة الثالثـة عشـرة لحكـم الملـك يوشـع، ابـن عمـون، حتـى اليـوم الراهـن- وقـد مضـى عليـه ثلاثـة وعشـرون عامـاً يبشـرك بحميـة، لكنـك لـم تشـأ أن تصغـي. لـذا يقـول الـرب الإلـه: مـن سـمع قـط بـأن مثـل اسـرائيل العـذراء ترتكـب مثـل هـذا الفحـش. ذلـك إن مـاء المطـر لا ينفـذ فـي التربـة بمثـل سـرعة نسـيان شـعبي لـي. إيـه، أيتهـا الأرض، أيتهـا الأرض، اسـمعي كلمـة الـرب!".

وهكـذا فـإن القديـس برونـو يؤكـد، فـي خطـاب مطـول عـن "الواجـب" و"المسـتطاع"، أن خصميـه الشـيوعيين أسـاءا فهمـه - إن الطريقـة التـي يصـف النقـد بهـا مـرة أخـرى مفصـلاً فـي خطابـه الأخيـر، الطريقـة التـي يحـول بهـا القـوى التـي كانـت تقمـع حتـى الآن "حيـاة الجنـس البشـري" إلـى "قـوى متعاليـة"، وهـذه القـوى المتعاليـة إلـى "روح الـروح"، الطريقـة التـي يمثـل

بها "النقد" على أنه الفرع الوحيد للإنتاج، تثبت أن هذه الخطيئة المزعومة في الفهم ليست سوى فهم لم يحل له.

لقد أثبتنا أن نقد باور من دون كل نقد، وبذلك أصبحنا بالضرورة عقائديين. بل إنه ليمضي حتى يأخذ علينا بكل جدية جحودنا الوقح بعباراته القديمة. إن كل الميثولوجيا الخاصة بالمفاهيم المستقلة، وعلى رأسها زوس [Zeus] الراعد - الوعي الذاتي - تستعرض ههنا مرة أخرى على أصداء "العبارات الرنانة لجوقة انكشارية كاملة من المقولات الشائعة". (المجلة الأدبية العامة؛ راجع العائلة المقدسة، ص (٢٣٤[٤٦]). وهذا في المحل الأول، كما هو متوقع، أسطورة خليقة العالم، يعني أسطورة "العمل" الشاق للناقد، هذا العمل الذي هو "المبدأ الوحيد الخلاق والخصب، صراع وانتصار متواصلان، دمار وخلق دائمان"، "جهد اليوم" و"جهد الأمس". وبالفعل، فإن الأب الفاضل يأخذ على العائلة المقدسة عدمفهمها "النقد" بالطريقة نفسها التي يفهمه هو نفسه بها في رده الحالي. فبعد أن احتوى "الجوهر" من جديد و"طرحه في أرض مولده، الوعي الذاتي، فإن الإنسان الناقد" و(منذ العائلة المقدسة أيضاً) "المنتقد" (أن الوعي الذاتي يبدو هنا في دور حجرة سقط المتاع الإيديولوجية)، يستطرد:

"إنها" (فلسفة فويرباخ المزعومة) "لا تستطيع أن تعرف أن النقد والنقاد، منذ وجودهم"(!) "هم الذين صنعوا التاريخ وأرشدوه؛ وإنهم صنعوا حتى خصومهم بالذات وجميع الحركات التي تضطرب بها الحقبة الراهنة؛ وإنهم وحدهم يمسكون بزمام القوة في أيديهم، لأن القوة تقوم في وعيهم، ولأنهم يستمدون السلطان من أنفسهم، من أعمالهم، من النقد، من خصومهم، من مخلوقاتهم؛ إنها لا تستطيع أن تعرف أن حرية الإنسان، وبالتالي حرية البشر، لا تبدأ إلا مع فعل النقد الذي بذلك يخلق" (!) "الإنسان، ويخلق البشر في الوقت ذاته".

وهكذا، فإن النقد والنقاد هما بادئ ذي بدء موضوعان متمايزان كل التمايز، قائمان وفاعلان بصورة منفصلة عن بعضهما بعضاً. إن الناقد ذات مختلفة عن النقد، والنقد ذات مختلفة عن الناقد. إن هذا النقد المشخص، النقد من حيث هو ذات، هو بالضبط ذلك "النقد النقدي" الذي كان هدف هجمات العائلة المقدسة. "إن النقد والنقاد، منذ وجودهم، قد

صنعوا التاريخ وأرشدوه". ومن الواضح أنهم ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا ذلك "ما داموا غير موجودين" كما أنه من الواضح بصورة لا تقلّ عن ذلك أنهم "منذ وجودهم" قد "صنعوا التاريخ" على طريقتهم الخاصة. وأخيراً فإن القديس برونو يقطع شوطاً بعيداً بحيث "يجب ويريد" أن يقدم لنا أحد الإيضاحات الأكثر عمقاً عن سلطان النقد الثوري، فيقول لنا إن "النقد والنقاد يمسكون بزمام القوة في أيديهم" لأن (يا لها من "لأن" جميلة!) "القوة تقوم في وعيهم". وإنه ليضيف أن صانعي التاريخ العظام هؤلاء "يمسكون فضلاً عن ذلك بزمام القوة في أيديهم" لأنهم "يستمدون السلطان من أنفسهم ومن النقد" (يعني من أنفسهم مرة أخرى) - الأمر الذي لا يبرهن من تلقاء نفسه، لسوء الحظ، على أن فيهم، "في أنفسهم"، "في النقد"، أشياء يمكن أن "تستمد". فوفقاً لما يقوله النقد بالذات، لا بد للمرء أن يعتقد على الأقل أنه يجب أن يكون من الصعب أن "يستمد" منه أي شيء أكثر من مقولة "الجوهر" الذي "قذفه" إليه. وأخيراً فإن النقد "يستمد" كذلك "من النقد" "القوة" على النطق بنبوءة خارقة تماماً. إنه يكشف لنا بالفعل عن سر كان خفياً عن آبائنا ومجهولاً من أجدادنا، ألا وهو أن "خلق الإنسان، وبالتالي خلق البشر، لا يبدأ إلا بفعل النقد"، بينما كان النقد معتبراً بصورة مغلوطة حتى الآن على أنه فعل يقوم به الناس الذين وجدوا سلفاً بفضل أفعال ذات طبيعة مختلفة كلياً. وهكذا يترتب على ذلك أن القديس برونو جاء "إلى العالم، من العالم، وإلى العالم" عبر "النقد"، يعني بالتوالد العفوي(*). ولعل هذا كله مجرد تفسير مختلف للفقرة التالية من كتاب التكوين: وعرف آدم، يعني انتقد، زوجته حواء، فحملت، الخ...

وهكذا نرى أن كل النقد النقدي، بملامحه المألوفة التي انتقدت من قبل بما فيه الكفاية في العائلة المقدسة [Die heilige Familie]، يواجهنا من جديد بكل حيله فكأن شيئاً لم يكن. ولا عجب في ذلك، لأن القديس نفسه يشكو، في الصفحة ١٤٠، من أن العائلة المقدسة "منعت النقد من أي تقدم على الإطلاق". إن القديس برونو يأخذ على مؤلفي العائلة المقدسة، وهو في أوج الاستياء، أنهما انتقلا بالنقد الباوري، بواسطة عملية كيميائية، بالاستبخار، من حالته "المائعة" المتجانسة إلى مادة "متبلورة".

(*) Generatio Aequivoca، باللاتينية في النص الأصلي.

ويترتب على ذلك أن "مؤسسات التسول"و"شهادة المعمودية لسن البلوغ" و"مناطق العاطفة الجياشة والمظاهر الراعدة" و"التكلف المفهومي الاسلامي" (العائلة المقدسة، الصفحات ٢، ٣، ٤[٤٧] وفقاً للمجلة الأدبية النقدية) - هذا كله غير معقول إلا عند تفسيره بالطريقة "المتبلورة". والأخطاء التاريخية الثماني والعشرون البلهاء التي ثبت أن النقد ارتكبها في نزهته إلى "المسائل الإنكليزية المحلية"[٤٨]- أليست هي أخطاء عندما تؤخذ بعين الاعتبار بطريقة "مائعة"؟ أيصر النقد على أنه، ومن وجهة النظر المائعة، قد تنبأ بصورة قبلية بنزاع نوفيرك[٤٩] - بعد وقت طويل من حدوث ذلك أمام ناظريه - ولم ينشئه بصورة بعدية[*]؟ ألا يزال مصراً على ذلك أن كلمة (Maréchal) يمكن أن تعني "بيطاراً"، من وجهة النظر المتبلورة، لكن لا يمكن على كل حال من وجهة النظر "المائعة" أن تعني "مشيراً"؟ أو أنه على الرغم من عبارة (Un fait Physique) قد تعني في التصور "التبلوري" "حقيقة فيزيائية"، فإن الترجمة "المائعة" الحقيقية يجب أن تكون "حقيقة من حقائق الفيزياء" (Un fait, une rèalité de la physique)؟ أو أن "سوء النية لدى بورجوازيينا المرائين"[**] لا تزال تعني بالتأكيد، إذا ما أخذت بعين الاعتبار في الحالة "المائعة"، "الطبيعة الجذلة لمواطنينا الصالحين"؟ وهل يصرُّ، من وجهة النظر "المائعة"، على أن "الطفل الذي لا يصبح بدوره أباً أو أماً هو بنت بصورة جوهرية"؟ وإنه يمكن لامرئ ما أن يأخذ على عاتقه مهمة أن "يصور إذا جاز التعبير آخر دموع الماضي المريرة"؟ وإن مختلف البوابين، والأسود، والعاملات الشابات، والماركيزات، والأوغاد، والأبواب الخشبية في باريس ليسوا في شكلهم "المائع" بأكثر من أطوار في السر "الذي يتضمن مفهومه بحد ذاته أن يضع حدوده الخاصة، ومن ثم يبطل هذا التحديد الذي يضعه بفعل ماهيته العامة، لأن هذه الماهية على وجه الدقة ليست سوى نتيجة تفاضله الذاتي الباطن، نتيجة فعاليته"؟ وإن النقد النقدي بمعناه "المائع" "يواصل طريقه بصورة لا تقاوم، ظافراً وواثقاً بالنصر"، حين يؤكد بادئ الأمر، عندما يعالج مسألة ما، أنه كشف عن "مغزاها الحقيقي والعام"، ومن ثم يعترف بأنه "لا يريد ولا يستطيع أن يتجاوز

(*) Post Festum، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) La Malveillance de nos Bourgeois Juste – Milieux، بالفرنسية في النص الأصلي.

حدود النقد"، وينتهي إلى الاعتراف "بأنه كان عليه أن يقوم بخطوة أخرى، لكن هذه الخطوة كانت مستحيلة لأنها - كانت... مستحيلة" (العائلة المقدسة، ص ١٨٤)[٥٠]؟ وإنه من وجهة النظر "المائعة" "لا يمكن أن يكون المستقبل إلا من عمل" النقد"، كائنة "ما كانت اختيارت القدر"[٥١]؟ وإن النقد لم يحقق من وجهة النظر المائعة أي عمل فوق إنساني عندما "عارض عناصره الحقيقية في تناقض وجد بصورة مسبقة حله في هذه العناصر بالذات"[٥٢]؟

إن مؤلفي العائلة المقدسة قد ارتكبا في حقيقة الأمر عملاً طائشاً حين تصورا هذه العبارات ومئات غيرها على أنها عبارات تعبِّر عن لامعقولية ثابتة، "متبلورة"... وصحيح أن المرء يجب أن يقرأ الأناجيل بطريقة "مائعة"، يعني للمعنى الذي يقصده مؤلفوها، وليس بطريقة "متبلورة" في أي حال من الأحوال، يعني وفقاً للامعقوليتها الفعلية، إذا كان راغباً في بلوغ الإيمان الحقيقي والإعجاب بالتناغم المنزلي للنقد.

"فإنجلز وماركس لا يعرفان إذن، سوى نقد المجلة الأدبية" [Literatur zeitung] .

وهذه كذبة مقصودة، تثبت بأية "ميوعة" قرأ قديسنا كتاباً يصف مؤلفاته الأخيرة على أنها قمة كل "جهده السابق". بيد أن أبانا الكنسي قد افتقر إلى راحة البال اللازمة من أجل القراءة بطريقة متبلورة، ذلك أنه يخشى معارضيه كمنافسين ينازعانه التكريس، و"يريدان حرمانه من قداسته كيما يتقدسا هما بالذات".

ولنسجل بالمناسبة الحقيقة التالية، ألا وهي أنه وفقاً لبيان القديس برونو الراهن، لم تستهدف مجلته الأدبية في أي حال من الأحوال أن تؤسس "المجتمع الاجتماعي" أو أن "تصور" "إذا جاز التعبير آخر الدموع المريرة" للإيديواوجية الألمانية، كما أنها لم تستهدف أن تنشئ التعارض الأشد إطلاقاً بين الروح والجمهور، ولا أن تشرح النقد النقدي في كل نقاوته وكماله، بل "استهدفت فقط - أن تصور كل ما كانت تتصف به ليبرالية وراديكالية عام ١٨٤٢ من ضيق ولغو وأصدائهما الأخيرة"، وبالتالي أن تكافح "الأصداء المختلفة" لشيء تلاشى واختفى منذ زمن طويل. كثير من الضوضاء من أجل بيضة مقلية(*). وبالمناسبة، فإن مثل هذه العبارات تبين على وجه الدقة مرة أخرى تصور التاريخ الخاص في نوره "الأنقى"

(*) Tant de bruit pour une omlette، بالفرنسية في النص الأصلي.

فـي النظريـة الألمانيـة. إن عـام ١٨٤٢ ليعتبـر مرحلـة أوج الليبراليـة فـي ألمانيـا، لأن الفلسـفة شـاركت فـي ذلـك الحيـن فـي الحيـاة السياسـية. وإن نهايـة الليبراليـة بالنسـبة إلـى الناقـد تتطابـق مـع توقـف الحوليـات الألمانيـة [Deutshe Jahrbücher] والمجلـة الرينانيـة [Rheinische Zeitung](٥٣)، الناطقتيـن باسـم النظريـة الليبراليـة والراديكاليـة. ويقـول بـاور إن الليبراليـة لـم تخلـف سـوى "الأصـداء" - فـي حيـن أن الليبراليـة فـي ألمانيـا لا تملـك فـي حقيقـة الأمـر وجـوداً فعليـاً، وبالتالـي حظـاً فـي بعـض النجـاح، إلا فـي الوقـت الحاضـر، إذ تشـعر البورجوازيـة الألمانيـة بصـورة فعليـة بالحاجـة، الناشـئة عـن الشـروط الاقتصاديـة، إلـى السـلطة السياسـية وتسـعى إلـى تحقيقهـا.

إن الأسـى العميـق الـذي ينتـاب القديـس برونـو بشـأن العائلـة المقدسـة لـم يسـمح له بـأن ينقـد هـذا المؤلـف "مـن ذاتـه عبـر ذاتـه وبذاتـه". فـلا بـد لـه، كـي يتمكـن مـن التحكـم فـي ألمـه، أن يحصـل قبـلاً علـى المؤلـف فـي شـكل "مائـع". ولقـد عثـر علـى هـذا الشـكل "المائـع" فـي تقريـر مشـوش وملـيء بالمغالطـات ظهـر فـي المركـب البخـاري الويسـتفالي، عـدد أيار/مايـو، ص ٢٠٦ - ٢١٤. إن كل اقتباسـاته مأخـوذة عـن فقـرات مـن المركـب البخـاري الويسـتفالي، وليـس الشـاهد شـاهداً إذا لـم يقتبـس مـن هـذه المجلـة.

وإن أسـلوب الناقـد القديـس محـدد بأسـلوب الناقـد الويسـتفالي. إنـه ينقـل بـادئ ذي بـدء جميـع عبـارات المقدمـة التـي يوردهـا الويسـتفالي (المركـب البخـاري، ص ٢٠٦) إلـى مجلـة ويغـان الفصليـة (ص ١٤٠ - ١٤١)، وإن هـذا النقـل ليشـكل القسـم الرئيسـي مـن نقـد بـاور، وفقـاً للمبـدأ القديـم الـذي سـبق أنْ أوصـى بـه هيغـل:

"الثقـة بالحـس السـليم، وفيمـا عـدا ذلـك، علـى الأقـل بغيـة مجـاراة الزمـن والتقـدم مـع الفلسـفة، قـراءة التقاريـر النقديـة للمؤلفـات الفلسـفية، وكذلـك مقدماتهـا وفقراتهـا التقديريـة عندمـا تسـنح الفرصـة؛ ذلـك أن هـذه الفقـرات التقديريـة تقـدم المبـادئ العامـة التـي يتوقـف عليهـا كل شـيء، بينمـا تلـك المقدمـات تقـدم، فضـلاً عـن اللمحـة التاريخيـة، تقويمـاً قـد يمضـي، مـن حيـث هـو تقويـم، مـا وراء المؤلـف الـذي يقوِّمـه. إن هـذا السـبيل المشـترك يمكـن أن يسـلكه

المـرء وهـو يرتـدي مبذلـة [robe du chambre]؛ بيـد أن الشـعور السـامي بالأزلـي، وبالمقـدس، وباللامتناهـي، يسـلك مسـاره فـي رداء الكاهـن الأعلى.وهـو طريـق يعـرف القديـس برونـو أيضـاً، كمـا رأينـا مـن قبـل، كيـف "يسـلكه" وهـو "يقـذف الحمـم" (هيغـل، علـم الظواهـر، ص ٥٤).

إن الناقد الويستفالي، بعد أن يعرض بعض الاقتباسات القليلة من المقدمة، يستطرد قائلاً:

"وهكذا فإن المقدمة ذاتها تؤدي إلى ميدان قتال الكتاب"، الخ. (ص ٢٠٦).

وإن الناقـد القديـس، بعدمـا نقـل الاقتباسـات إلـى مجلـة ويغـان الفصليـة، يقـوم بتمييـز أدق ويقـول:

"ذانك هما الميدان والعدو اللذان اختارهما إنجلز وماركس من أجل القتال".

أمـا مناقشـة الموضوعـة النقديـة: "العامـل لا يخلـق شـيئاً"، فـإن الناقـد الويسـتفالي لا يعطـي منهـا سـوى التلخيـص الختامي.

وإن الناقـد القديـس ليعتقـد حقـاً أن ذلـك هـو كل مـا قيـل عـن الموضوعـة، وينسـخ الاقتبـاس الويسـتفالي فـي الصفحـة ١٤١، ويغتبـط لأنـه اكتشـف، فيمـا يحسـب، أنـه لـم يقـدم سـوى "مزاعـم" فـي معارضـة النقـد.

وأمـا تمحيـص الاتهامـات النقديـة عـن الحـب، فـإن الناقـد الويسـتفالي يقتطـف أولاً فـي الصفحـة ٢٠٩ الواقعـة الرئيسـية(*) بصـورة جزئيـة، ومـن ثـم يقتطـف مـن النقـد بعـض الجمـل المفككـة التـي يرغـب فـي اسـتخدامها علـى أنهـا استحسـان لعاطفيتـه السـديمية، العذبـة بصـورة مريضـة.

وفـي الصفحتيـن ١٤١ - ١٤٢ ينسـخ الناقـد القديـس هـذا كلـه كلمـة كلمـة وجملـة جملـة، بنفـس الترتيـب الـذي يقتبـس سـلفه الاقتباسـات بـه.

ويهتـف الناقـد الويسـتفالي، وقـد انحنـى فـوق جثمـان الهـر جوليـوس فوشـر: "ذلـك هـو مصيـر الجمـال علـى هـذه الأرض الدنيـا"(٥٤).

(*) Corpus Delicti، باللاتينية في النص الأصلي.

ولا يستطيع الناقد القديس أن ينهي "عمله الشاق" من دون أن يتملكه في الصفحة ١٤١ ذلك الهتاف، ومن دون مناسبة على الإطلاق.

وفي الصفحة ٢١٢ يقدم الناقد الويستفالي خلاصة مزعومة للحجج الموجهة ضد القديس برونو نفسه في العائلة المقدسة.

وإن الناقد القديس لينسخ مغتبطاً، بصورة حرفية، كل هذه الأشياء، بما فيها سائر هتافات الويستفالي. إنه لا يملك أدنى فكرة عن أن أحداً لا يأخذ عليه، في أي مكان عن كل هذه المناظرة، إنه "يحول قضية التحرر السياسي إلى قضية التحرر البشري"، وأنه "يريد أن يمحق اليهود"، وأنه "يحول اليهود إلى لاهوتيين"، وأنه "يحول هيغل إلى الهر هنريكس"[٥٥] الخ. إن الناقد القديس يكرر بكل سذاجة إدعاءات الناقد الويستفالي القائلة إن ماركس يتطوع في العائلة المقدسة ليقدم نوعاً من البحث المدرسي الصغير "رداً على التأليه الذاتي الأحمق لباور". والحال أن كلمات "التأليه الذاتي الأحمق"، التي يقدمها القديس برونو كشاهد، لا وجود لها في أي مكان في العائلة المقدسة، لكنها تصادف عند الناقد الويستفالي. وكذلك فإن البحث الصغير لا يقوم كرد على "التبرير الذاتي" للنقد في الصفحات ١٥٠ - ١٦٣ من العائلة المقدسة، بل في المقطع التالي فقط في الصفحة ١٦٥[٥٦]، بخصوص هذه المسألة التاريخية العالمية: "لماذا كان لا بدّ للهر باور من الانخراط في السياسة؟".

وأخيراً فإن القديس برونو يقدم في الصفحة ١٤٣ ماركس على أنه "مهرج مسل"، متأثراً هنا أيضاً خطى نموذجه الويستفالي الذي حول "المأساة التاريخية العالمية للنقد النقدي"، في الصفحة ٢١٣، إلى "هزلة مسلية جداً".

وهكذا يرى المرء كيف أن خصوم النقد النقدي "يجب عليهم ويستطيعون" "أن يعرفوا كيف كان الناقد يعمل وكيف يعمل بعد".

٤ - تأبين "السيد هيس"

"لقد أنجز السيد هيس ما لم يكن بعد في مقدور إنجلز وماركس أن يفعلاه".

ذلك هو الانتقال الإلهي العظيم الذي بقي - بفعل "القدرة" و"اللاقدرة" النسبيتين

اللتيـن ورثهمـا رجلنـا القديـس عـن الإنجليـين - عالقـاً بصـورة ثابتـة جـداً بأصابعـه بحيـث لا بـد أن يجـد لـه مكانـاً، بمناسـبة أو مـن دون مناسـبة، فـي كل مقالـة مـن مقالاتـه.

"لقـد أنجـز السـيد هيـس مـا لـم يكـن بعـد فـي مقـدور إنجلـز وماركـس أن يفعـلاه". ولكـن مـا هـو "الشـيء الـذي لـم يكـن بعـد فـي مقـدور إنجلـز وماركـس أن يفعـلاه"؟ فـي الحقيقـة أنـه لا شـيء أكثـر أو أقـل مـن - نقـد شـترنر. ومـا السـبب فـي أن إنجلـز وماركـس "لـم يكـن بعـد فـي مقدورهمـا" أن ينقـدا شـترنر؟ لهـذا السـبب البسـيط، ألا وهـو - أن كتـاب شـترنر لـم يكـن قـد ظهـر بعـد عندمـا كتبـا العائلـة المقدسـة.

إن هـذه الحيلـة التأمليـة - إنشـاء الأشـياء جميعـاً بصـورة قبليـة وإقامـة علاقـة سـببية مزعومـة بيـن العناصـر الأشـد تباينـاً - قـد خرجـت مـن دمـاغ قديسـنا فـي الحقيقـة كـي تقيـم فـي أصابعـه. وحيـن ينسـاق معهـا الخـواء التـام ويتخـذ هيئـة تهريجيـة وهـو يتفـوه باللغـو فـي مظهـر الخطـورة. ومثـال ذلـك أننـا نقـرأ مـن قبـل، فـي المجلـة الأدبيـة العامـة، (I، ٥):

"إن الفـرق بيـن عملـي والصفحـات التـي يغطيهـا فيليبسـون مثـلاً بالكتابـة" (يعنـي الصفحـات البيـض التـي يكتـب "فيليبسـون مثـلاً" عليهـا) "يجـب بالضـرورة أن تكـون لـه الصفـة التـي يملكهـا فـي واقـع الأمـر"!!

إن "السـيد هيـس"، الـذي لا يتحمـل إنجلـز وماركـس أيـة مسـؤولية علـى الإطـلاق عـن كتاباتـه، يبـدو ظاهـرة مرموقـة جـداً فـي نظـر الناقـد القديـس بحيـث لا يسـتطيع إلا أن ينسـخ مقتطفـات طويلـة مـن الفلاسـفة الأخيـرون [Die letzten philosophen](٥٧)، وأن يزعـم بـأن "هـذا النقـد لـم يفهـم فويربـاخ فـي بعـض النقـاط أو أيضـاً" (يـا للاهـوت!) "يريـد الإنـاء أن يتمـرد علـى الخـزاف". راجـع الرسـالة إلـى الرومانييـن، ٩: ٢٠ - ٢١. وأمـا وقـد قـام ناقدنـا القديـس مـرة أخـرى "بالعمـل الشـاق" الـذي هـو إيـراد الشـواهد، فإنـه ينتهـي أخيـراً إلـى الاسـتنتاج بـأن هيـس ينسـخ عـن هيغـل مـا دام يسـتخدم كلمتـي "الموحـد" و"التطـور". ومـن المؤكـد أنـه لا بـدَّ للقديـس برونـو أن يجـرب بطريقـة ملتويـة أن يقلـب ضـد فويربـاخ البرهـان فـي العائلـة المقدسـة عـن تبعيتـه التامـة حيـال هيغـل.

"انظـروا، هكـذا كان لا بـد أن ينتهـي بـاور لقـد حـارب بـكل قـواه وبجميـع الوسـائل ضـد

جميع المقولات الهيغلية"، باستثناء الوعي الذاتي - على الأخص في الصراع المجيد الذي خاضته المجلة الأدبية ضد الهر هنريكس[٥٨]. أما كيف حاربها وانتصر عليها، فهذا ما رأيناه من قبل. وإذا شئنا المزيد من البراهين، فلنستشهد بهذه الفقرة من ويغان، صفحة ١١٠، حيث يؤكد أن:

"الحل"(١) "الحقيقي"(٢) "للتناقضات"(٣) "في الطبيعة والتاريخ"(٤)، "الوحدة الحقيقية"(٥) "للعلاقات المنفصلة"(٦)، "الأساس"(٧) و"العمق"(٨) "الحقيقيين"(٩) "للدين، الشخصية"(١٠) "الحقيقة، اللامتناهية"(١١)، "الخلاقة ذاتياً، التي لا تقاوم"(١٢) "لم تصادف بعد".

إن هذه الأسطر الثلاثة لا تحتوي على مقولتين هيغليتين ملتبستين، كما هو الأمر في حالة هيس، بل على اثنتي عشرية كاملة من المقولات الهيغلية "الحقيقية، اللامتناهية، التي لا تقاوم"، والتي تنكشف بهذه الصورة بفضل "الوحدة الحقيقية للعلاقات المنفصلة" - "انظروا، هكذا كان لا بد أن ينتهي باور!" وإذا كان الرجل القديس يحسب أنه اكتشف في هيس مؤمناً مسيحياً، ليس لأن هيس "يترجى" - كما يقول برونو- بل لأنه لا يترجى ولأنه يتحدث عن "القيامة"، فإن أبانا الكنائسي الكبير يمكننا إذن، على أساس هذه الصفحة ١١٠ بالذات، أن نبرهن على يهوديته البارزة جداً. إنه يعلن هناك:

"إن الإنسان الحقيقي، الحي، الإنسان بلحمه ودمه، لم يولد بعد"!!! (إيضاح جديد عن المصير المقبل "للجنس الأوحد") "وإن الهجين المولود" (برونو باور؟؟) "لم يتمكن بعد من التحكم في جميع الصيغ العقائدية، الخ".

وهذا يعني أن المسي [Messie][٥٩] لم يولد بعد، وأن ابن الإنسان يجب أن يأتي إلى العالم أولاً، وأن هذا العالم، مثله كمثل عالم العهد القديم، لا يزال تحت سلطان الناموس، سلطان الصيغ العقائدية".

وكما أن القديس برونو، كما بيّن أعلاه، قد استخدم "إنجلز وماركس" من أجل الانتقال إلى هيس، فإن هيس يخدمه كذلك الآن ليقيم أخيراً علاقة سببية بين فويرباخ، بدوره، واستطراداته الخاصة بشأن شترنر، والعائلة المقدسة، والفلاسفة الأخيرون .

"انظـروا، هكـذا كان لا بـد أن ينتهـي فويربـاخ!" "كان لا بـد للفلسـفة أن تنتهـي بـورع"، الـخ. (ويغــان، ص١٤٥).

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن العلاقـة السـببية الحقيقيـة هـي أن هـذا الهتـاف انتحـال لفقـرة مـن كتـاب هيـس الفلاسـفة الأخيـرون موجهـة ضـد بـاور، فـي عـداد أنـاس آخريـن (المقدمـة، ص ٤).

"هكـذا [...] مـن دون أيـة طريقـة أخـرى، كان لا بـد للذريـة الأخيـرة للنسـاك المسـيحيين [...] أن تسـتأذن مـن العالـم".

***

يختتـم القديـس برونـو مرافعتـه ضـد فويربـاخ وشـركائه المزعوميـن بتأنيـب موجـه إلـى فويربـاخ: إنـه يأخـذ عليـه أن كل مـا كان فـي وسـعه عملـه هـو أن "يبـوق"، "أن ينفـخ فـي بـوق"، بينمـا السـيد بـاور أو السـيد النقـد "ينطلـق قدمـاً فـي عربتـه الظافـرة ويحصـد انتصـارات جديـدة" (ص ١٢٥)، (كـي لا نقـول شـيئاً عـن ذلـك "الهجيـن المولـود" وعـن عملـه "الهـدَّام" المتواصـل)، و"يخلـع عـن العـرش" (ص ١١٩)، و"يمحـق" (ص ١١١)، و"يصعـق" (ص ١١٥)، و"يسـحق بصـورة ماحقـة" (ص ١٢٠)، و"يحطـم" (ص ١٢١)، ولا يسـمح للطبيعـة إلا "بالخمـول" (ص ١٢٠)، ويبنـي "زنزانـات" "أقسـى" (!) (ص ١٠٤)، وأخيـراً، ببلاغتـه الأكليريكيـة "السـاحقة"، يسـهب فـي الصفحـة ١٠٥، بعفويتـه الجريئـة وتقـواه الجـذل، عـن "العالـم الموجـود، الثابـت والراسـخ والوطيـد"، ويمطـر علـى رأس فويربـاخ (ص ١١٠) "صوانـاً وصخـراً"، وختامـاً ينقلـب بهجمـة جانبيـة علـى القديـس ماكـس أيضـاً، بإضافتـه فـي الصفحـة ١٢٤ "التجريـد الأشـد تجريـداً" و"القسـوة الأشـد قسـوة" "إلـى النقـد النقـدي" و"المجتمـع الاجتماعـي" و"الصـوان والصخـر".

هـذا كلـه حققـه القديـس برونـو "مـن خـلال نفسـه وفـي نفسـه ومـع نفسـه"، ذلـك أنـه "هـو نفسـه"؛ والأكثـر مـن ذلـك أنـه "هـو نفسـه الأعظـم دائمـاً ويسـتطيع دائمـاً أن يكـون الأعظـم" (هـو ويسـتطيع أن يكـون!) "مـن خـلال نفسـه وفـي نفسـه ومـع نفسـه" (ص ١٣٦). أوافـق (Tope là)(*).

(*) Sela، باللاتينية في النص الأصلي.

مما لا ريب فيه أن القديس برونو سيشكل خطراً على الجنس الضعيف - طالما أنه "شخصية لا تقاوم"- لولا أنه يخشى "من جهة ثانية حتى درجة مساوية الحسية على أنها الحاجز الذي يوجه الإنسان عنده إلى نفسه بصورة محتومة الضربة القاضية". ولذا فإنه لن يقطف على الأرجح "من خلال نفسه ومع نفسه" أية أزهار بكر، بل بالأحرى سيدعها تذبل في حنين لامتناه وشوق لاهب إلى "الشخصية التي لا تقاوم" التي "تملك الجنس الفريد وهذه الأعضاء الجنسية الفريدة والمتميزة"(*).

٥- القديس برونو في "عربته الظافرة"

قبل أن نغادر أبانا الكنائسي "ظافراً وواثقاً بالنصر"، فلنختلط لبرهة بذلك الحشد من المتسكعين الذي يتدفق راكضاً عندما "يندفع في عربته الظافرة ويحصد انتصارات جديدة" بمثل تلك اللهفة التي يتدفق بها عندما يقدم الجنرال عقلة الأصبع(٦٠) مشهداً مسلياً بجياده الأربعة. ولا عجب إذا سمعنا ترديد بعض أغاني الشارع لأن "مفهوم" الظفر "بحد ذاته" يتضمن أن يستقبل المرء بأغاني الشارع.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:]

(٣)

القديس ماكس

"ما الأشجار الخضر بالنسبة لي؟"[٦١]

إن القديس ماكس يستغل و"يستخدم" و"يستعمل" المجلس كي يلقي تعليقاً تبريرياً طويلاً عن "الكتاب" الذي ليس هو أي كتاب لا على التحديد، بل "الكتاب"، الكتاب بحد ذاته، الكتاب بامتياز، يعني الكتاب الكامل، الكتاب المقدس، الكتاب بوصفه شيئاً مقدساً، الكتاب الذي هو قدس الأقداس، الكتاب السماوي، أي (الأوحد وخاصته). إن "الكتاب"، كما نعلم، قد سقط من السماوات حوالى أواخر عام ١٨٤٤، واتخذ صورة العبد عند أ. ويغان في لايبزيغ[٦٢]. وبالتالي فقد كان تحت رحمة تقلبات الحياة الأرضية وهوجم من قبل "الثلاثة الأوحدين" شيليغا الشخصية العجيبة، وفويرباخ الأدري، وهيس[٦٣]. ومهما يكن من أمر، فمهما تعالى القديس ماكس باستمرار، بصفته خالقاً، فوق ذاته بصفته خليقة، كما يفعل بالنسبة إلى جميع مخلوقاته الأخرى، فقد أخذته الشفقة على أية حال على خديجه الواهن، وكيما يدافع عنه ويضمن سلامته أطلق "مرحى نقدية" بأعلى صوته. وكيما نسبر أغوار كلا هذه "المرحى النقدية" و"شخصية شيليغا العجيبة في كل مغزاهما، لا بد لنا هنا أن ندرس حتى درجة ما تاريخ الكنيسة وننظر إلى "الكتاب" عن كثب أعظم. أو، إذا شئنا أن نستخدم لغة القديس ماكس: يجب علينا أن نحشر "في هذا الموضع" "تأملاً" عن الأوحد

وخاصتـه هـو فصـل مـن تاريـخ الكنيسـة، "لهـذا السـبب الوحيـد"، ألا وهـو "أنـه يمكـن فـي رأينـا أن يسـهم فـي أيضـاح النـص".

"ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد.

"من هو هذا ملك المجد؟ الرب القدير الجبار، الرب الجبار في القتال.

"ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد.

"مـن هـو هـذا ملـك المجـد؟ الـرب الأوحـد(*) هـو ملـك المجـد" (كتـاب المزاميـر([Ps[aume))، ٢٤: ٧- ١٠).

(*) في التوراة "رب الجنود"(c'est le seigneur zebaoth) .

١ـ الأوحد وخاصته

إن الرجل الذي "أسس قضيته على لا شيء"(٦٤)، بوصفه رجلاً ألمانياً صالحاً، يبدأ في الحال "مرحاه النقدية" المطولة بمرثاة: "أي شيء في واقع الأمر يمكن ألا يكون قضيتي؟" (ص ٥ من الكتاب). ويستمر نائحاً بصورة تقطع أوصال القلب: "لا بد أن تكون الأشياء جميعاً قضيته"، وقد ألقيت على عاتقه "قضية الله، وقضية الجنس البشري، والحقيقة والحرية، وفضلاً عن ذلك قضية شعبه، قضية أميره"، وآلاف من القضايا الصالحة الأخرى. يا للرجل المسكين! إن البورجوازيين الفرنسيين والإنكليز يشكون من نقص الأسواق، ومن الأزمات الاقتصادية، ومن الإفلاسات في سوق الأوراق المالية، ومن الأوضاع السياسية السائدة في هذا الحين، الخ؛ وإن المالك الصغير الألماني، الذي لم يسهم بصورة فعالة في الحركة البورجوازية إلا على صعيد الأفكار وحدها، والذي لم يفعل فيما عدا ذلك سوى عرض حياته على من يدفع أكثر، يتوهم بكل سذاجة أن قضيته الخاصة وحدها هي "القضية الصالحة"، "قضية الحرية، والحقيقة، والجنس البشري" الخ.

إن صاحبنا معلم المدرسة الألماني يؤمن بكل سذاجة(*) بهذا الوهم لدى المالك الصغير الألماني، وينكب على امتداد ثلاث صفحات على تحليل أولي لجميع هذه القضايا الصالحة.

إنه يستقصي "قضية الله" و"قضية الجنس البشري" (ص ٦ و٧) ويجد أن هاتين "قضيتان أنانيتان بصورة صرفة"، وإن كلا الله والجنس البشري لا يعنيان إلا بمصالحهما، وإن "الحقيقة والحرية والإنسانية والعدالة" "معنية بذواتها فقط وليس بذواتنا، برفاهيتها فحسب من دون رفاهيتنا" - الأمر الذي يستخلص منه أن جميع هؤلاء الأشخاص "هم إذن، في وضع ميسور حتى الدرجة القصوى". وإن الأمر ليبلغ أن يحول هذه العبارات المثالية -الله، الحقيقة، الخ - إلى بورجوازيين موسرين هم "في وضع ميسور بشكل استثنائي"،

(*) Tout Bonnement، بالفرنسية في النص الأصلي.

ويستمتعون "بأنانية مريحة". لكن فكرة هذا الأمر تضايق هذا الأناني المقدس، فيهتف: "وأنا؟".

"أنـا، مـن جهتـي، اسـتخلص مـن هـذا درسـاً، وأفضّـل بعـد الآن أن أصبـح أنـا نفسـي أنانيـاً، بـدلاً مـن الاسـتمرار فـي خدمـة هـؤلاء الأنانييـن الكبـار!" (ص ١٧).

وهكـذا نـرى أيـة حوافـز مقدسـة ترشـد القديـس ماكـس فـي اعتناقـه الأنانيـة. ليسـت المزايـا الصالحـة لهـذا العالـم، الكنـوز التـي يفسـدها العفـن والصـدأ، رأسـمال أصحابـه الأوحديـن، هـي التـي تصدُّ النـوم عـن عينيـه، بـل الكنـز السـماوي، رؤوس أمـوال اللـه، والحقيقـة، والحريـة، والجنـس البشـري، الـخ.

ولـولا أنـه كان متوقعـاً منـه أن يخـدم مثـل هـذه القضايـا الصالحـة جميعـاً لمـا اكتشـف قـط أن لـه، هـو الآخـر، قضيتـه "الخاصـة"، وبالتالـي مـا "اتخـذ" "أي شـيء" (يعنـي "الكتـاب") علـى أنـه أسـاس قضيتـه.

ولـو أن القديـس ماكـس نظـر بصـورة أكثـر تمعنـاً بعـض الشـيء إلـى هـذه "القضايـا" المتنوعـة وإلـى "أصحابهـا"، يعنـي اللـه، والجنـس البشـري، والحقيقـة، لـكان انتهـى إلـى النتيجـة المناقضـة: إن الأنانيـة، المؤسسـة علـى النمـط الأنانـي الفعلـي لهـؤلاء الأشـخاص فـي العمـل، لا بـد أن تكـون وهميـة بقـدر هـؤلاء الأشـخاص أنفسـهم.

وبـدلاً مـن ذاك، فقـد قـرر قديسـنا الدخـول فـي مبـاراة مـع "اللـه" و"الحقيقـة"، وأن يؤسـس قضيتـه علـى ذاتـه:

"علـيَّ، علـى هـذه الأنـا نفسـها التـي هـي، بقـدر اللـه تمامـاً، عـدم كل شـيء آخـر، أنـا الـذي أنـا كلـي، أنـا الـذي أنـا الأوحـد... أنـا لسـت العـدم بمعنـى الفـراغ، بـل علـى النقيـض مـن ذلـك، العـدم الخـلاق، العـدم الـذي أنـا ذاتـي، بصفتـي خالقـاً، أخلـق كل شـيء انطلاقـاً منـه".

لقـد كان فـي مقـدور الأب الكنائسـي المقـدس أن يصـوغ كذلـك هـذه الجملـة الأخيـرة كمـا يلـي: أنـا كل شـيء فـي فـراغ اللغـو، "بـل علـى النقيـض مـن ذلـك"، أنـا هـو الخالـق التافـه، الـكل الـذي أنـا نفسـي، خالقـاً، أبـدع العـدم انطلاقـاً منـه.

ولسـوف يتضـح فيمـا بعـد أي مـن هاتيـن القراءتيـن هـي القـراءة الصحيحة.ويكفينـا هـذا بشـأن المقدمـة.

إن "الكتـاب" نفسـه مقسـم، مثلـه مثـل الكتـاب القديـم، إلـى عهـد قديـم وعهـد جديـد - يعنـي إلـى التاريـخ الأوحـد للإنسـان (النامـوس والأنبيـاء) والتاريـخ اللاإنسـاني للأوحـد (إنجيـل ملكـوت اللـه). والكتـاب الأول هـو التاريـخ فـي إطـار المنطـق، الكلمـة المقيـدة إلـى الماضـي؛ والكتـاب الثانـي هـو المنطـق فـي التاريـخ، الكلمـة المحـررة، التـي تناضـل ضـد الحاضـر وتتغلـب عليـه بصـورة ظافـرة.

العهد القديم: الإنسان

١ ـ كتاب التكوين أو حياة إنسان

يتظاهرالقديـس ماكـس هنـا بأنـه يكتـب سيرة عـدوه المميـت، "الإنسـان"، لا سـيرة "الأوحـد" أو "الفـرد الفعلـي". وإنـه ليتعثـر مـن جـراء ذلـك فـي تناقضـات مسـلية.

وكمـا يليـق بـكل كتـاب تكويـن طبيعـي، فإن"حيـاة إنسـان" تبـدأ مـن البدايـة[*]، مـع "الطفـل". وكمـا يكشـف لنـا فـي الصفحـة ١٣، فـإن الطفـل:

"مـن البدايـة يعيـش حيـاة صـراع ضـد العالـم بأسـره، فيقـاوم كل شـيء وكل شـيء يقاومـه". "كلاهمـا يظـلان عدويـن". لكـن كلاً منهمـا يضمـر للآخـر "الاعتبـار والاحتـرام"، و"همـا فـي حالـة تيقـظ أبـداً، يبحثـان عـن نقـاط الضعـف عنـد بعضهمـا بعضـاً".

وإنه ليفسر لنا فيما بعد، في الصفحة ١٤،

"إننـا نسـعى"، بوصفنـا أطفـالاً، "إلـى سـبر أعمـاق الأشـياء أو إلـى اكتشـاف مـا يكمـن خلفهـا؛ وبالتالـي" (ليـس بدافـع العـداوة إذن) "فإننـا نترصـد جميـع نقـاط الضعـف عندهـا". (إن إصبـع شـيليغا، بائـع الأسـرار، واضحـة هنـا).

(*) ab ovo، باللاتينية في النص الأصلي.

وهكذا فإن الطفل يصبح منذ البداية ميتافيزيقياً يسعى إلى سبر "أعماق الأشياء".

إن هـذا الطفـل المتأمـل، الـذي "طبيعـة الأشـياء" أعـز علـى قلبـه مـن لعبـه، ينجـح أحيانـاً فـي التغلـب علـى "عالـم الأشـياء"، فيسـتولي عليـه، ومـن بعـد أن يدخـل طـوراً جديـداً، سـن المراهقـة، حيـث لا بـد لـه أن يخـوض صراعـاً "صراعـاً حياتيـاً شـاقاً" جديـداً، الصـراع ضـد العقـل، ذلـك أن "أول اكتشـاف ذاتـي يسـمى الـروح" و"نحـن نتسـامق فـوق العالـم، نحـن روح" (ص ١٥). إن وجهـة نظـر المراهـق "وجهـة نظـر سـماوية"، فالطفـل قـد "تعلـم" فحسـب، وهـو "لـم يتوقـف عنـد قضايـا منطقيـة أو لاهوتيـة صرفـة" - بالضبـط كمـا أن (الطفـل) "بيلاطـس"(Pilate) تجـاوز علـى عجـل السـؤال: "مـا هـي الحقيقـة؟" (ص ١٧). إن المراهـق "يحـاول أن يتحكـم فـي الأفـكار"، فهـو يفهـم "الأفـكار، الـروح" و"يبحـث عـن الأفـكار"؛ إنـه "يكـرس نفسـه لأفـكاره" (ص ١٦)، وهـو يملـك "أفـكاراً مطلقـة، يعنـي أفـكاراً ليسـت شـيئاً آخـر سـوى أفـكار، أفـكار منطقيـة". إن المراهـق الـذي "يتصـرف" علـى هـذا الغـرار، بـدلاً مـن ملاحقـة الفتيـات والأشـياء الدنيويـة الأخـرى، ليـس سـوى "شـترنر" المراهـق، الطالـب المراهـق البرلينـي المجتهـد، المنشـغل فـي المنطـق الهيغلـي والمحـدق بإعجـاب فـي ميشـيليه العظيـم. وإنـه ليقـال بـكل حـق عـن هـذا المراهـق، فـي الصفحـة ١٧:

> "إخـراج الفكـر الصـرف إلـى النـور وتكريـس الـذات لـه - فـي هـذا تقـوم فرحـة المراهقـة، وإن جميـع صـور عالـم الفكـر البراقـة - الحقيقـة، الحريـة، الجنـس البشـري، الإنسـان، الـخ، - تشـع علـى النفـس المراهقـة وتلهمهـا".

ومن ثم فإن هذا المراهق يرمي جانباً "الموضوع" أيضاً كي "يعنى" "بأفكاره" وحدها؛ إنه:

> "يشـمل تحـت الاسـم الحقيـر للمظاهـر السـطحية كل مـا ليـس بروحانـي، وإذا هو مـع ذلـك تعلـق بمثـل هـذه المظاهـر، مثـل عـادات الطـلاب، الـخ، فذلـك لا يحـدث إلا عندمـا ولأنـه يكتشـف الـروح فيهـا، يعنـي حيـن تصبـح رمـوزاً بالنسـبة إليـه" (مـن ذا لا "يكتشـف" شـيليغا هنـا؟).

يـا للمراهـق البرلينـي الشـجاع! إن جلسـات احتسـاء الجعـة فـي الجمعيـات الطلابيـة لـم تكـن

بالنسبة إليه سوى "رمز"، وإذا هو سكر في كثير جداً من الأحيان حتى تدحرج تحت الطاولة، فما ذلك إلا حباً "بالرمز". ومما لا ريب فيه أنه كان يرغب كذلك أن "يكتشف الروح" هناك تحت الطاولة! - أما قدر ما يتمتع به هذا المراهق الطيب من فضيلة، فهو الذي كان في مقدور إيوالد (Ewald) العجوز، الذي كتب مجلدين عن الشباب الفاضل، أن يتخذه نموذجاً له، فهذا ما يتضح من الحقيقة التالية أيضاً، ألا وهي أنه "اطلع" على ما يلي (ص ١٥): "يجب التخلي عن الأب والأم، واعتبار جميع السلطات الطبيعية محطمة". فبالنسبة إليه، "هو الإنسان العقلاني، لا وجود للعائلة على أنها سلطة طبيعية؛ إنه ينكر ذويه، وإخوته، وأخواته، الخ". بيد أن هؤلاء جميعاً يولدون من جديد "على أنهم قوى روحانية، عقلانية". وبفضل ذلك يوفق المراهق الصالح طاعة الوالدين والاحترام لهما مع وعيه الأخلاقي التأملي، وتظل الأشياء جميعاً كما كانت من قبل. وبالطريقة نفسها "قيل" في الوقت الحاضر (ص ١٥): "يجب على المرء أن يطيع الله بالأحرى من البشر". أجل، إن المراهق الصالح قد بلغ قمة المناقبية في الصفحة ١٦، حيث "يقال في الوقت الحاضر": "يجب على المرء أن يطيع ضميره الخاص بالأحرى من الله". وإن هذا الشعور الأخلاقي الرفيع يرفعه حتى فوق "العذارى المنتقمات"، وحتى فوق "غضب بوزيدون(٦٥) - إنه لا يخشى شيئاً قدر خشيته من - "ضميره".

وأما أنه اكتشف أن "الروح هو الجوهري"، فإنه لا يخاف بعد الآن النتائج التالية المحفوفة بالأخطار:

> "ومهما يكن من أمر، فإذا اعترف بالروح على أنه الجوهري، فذلك يشكل فارقاً بعد، حسبما يكون الروح فقيراً أم غنياً، وبالتالي"(!) "فإن المرء يجهد لأن يصبح غنياً بالروح؛ إن الروح يسعى لأن يوسع حدوده، وأن يقيم ملكوته، وهو ملكوت ليس من هذا العالم الذي انتصر عليه للتوّ واللحظة. وبهذه الطريقة إذاً، يجهد الروح لأن يكون الكل في الكل" (أية طريقة هي هذه؟) "يعني على الرغم من أنني روح، فأنا لست مع ذلك روحاً كاملاً ويجب علي" (؟) "قبل كل شيء أن أنشد الروح الكامل" (ص١٧).

"ذلـك يشـكل فرقـاً" - "ذلـك"، مـا هـذا؟ مـا هـو "ذلـك" الـذي يشـكل فرقـاً؟ سـوف نصـادف فـي كثيـر مـن الأحيـان "ذلـك" العجيبـة هـذه عنـد رجلنـا المقـدس، وسـوف يتبيـن عندئـذ أنهـا الأوحـد مـن جهـة نظـر الجوهـر، بدايـة المنطـق "الأوحـد"، وبهـذه الصفـة الهويـة الحقيقيـة "للوجـود" و"العـدم" الهيغلييـن. وبالتالـي فإننـا سـنلقي مسـؤولية كل مـا تفعلـه "ذلـك" هـذه أو تقولـه وتجترحـه علـى عاتـق قديسـنا، الـذي علاقتـه بهـا هـي علاقـة خالقهـا. وقبـل كل شـيء، فـإن "ذلـك" هـذه، كمـا رأينـا، تشـكل فرقـاً بيـن الفقيـر والغنـي. ولمـاذا؟ لأن "الـروح اعتـرف بـه علـى أنـه الجوهـري". مسـكينة "ذلـك"، التـي مـا كانـت تتوصـل قـط مـن دون هـذا الاعتـراف إلـى إدراك الفـرق بيـن الفقيـر والغنـي! "وبالتالـي فـإن المـرء يجهـد"، الـخ. "المـرء"! إن لدينـا ههنـا الشـخص اللاشـخصي الثانـي الـذي يعمـل، جنبـاً إلـى جنـب مـع "ذلـك" التـي كانـت موضـع البحـث لتوهـا، فـي خدمـة شـترنر ولا بـد لـه أن ينجـز أشـد أعمـال السـخرة إرهاقـاً مـن أجلـه. وإننـا لنـرى بوضـوح هنـا كيـف اعتـاد هـذان الإثنـان أن يتكاتفـا. فمـا دامـت "ذلـك" تشـكل فرقـاً فيمـا إذا كان الـروح فقيـراً أم غنيـاً، فـإن "المـرء" يجهـد إذن، (أيمكـن لأي امـرئ باسـتثناء خـادم شـترنر المخلـص أن يتصـور هـذه الفكـرة؟)- والمـرء، بالتالـي، يجهـد لأن يصبـح "غنيـاً بالـروح". تعطـي "ذلـك" الإشـارة، وفـي الحـال ينضـم "المـرء" إليهـا بأعلـى صوتـه. إن تقسـيم العمـل ينفـذ حسـب القواعـد الكلاسـيكية.

ومـا دام "المـرء يجهـد لأن يصبـح غنيـاً بالـروح"، إذن "فالـروح يرغـب فـي أن يوسـع حـدوده، وفـي أن يقيـم ملكوتـه"، الـخ. "والحـال أنـه إذا" لـم يكـن ذلـك كلـه متهافتـاً، "فذلـك يشـكل فرقـاً بعد" حسـبما "يريـد المـرء أن يصبـح غنيـاً بالـروح"، أو مـا إذا كان "الـروح يرغـب فـي أن يقيـم ملكوتـه". وحتـى الآن لـم يرغـب الـروح فـي أي شـيء كان، لـم يمثـل "الـروح" بعـد علـى أنـه شـخص- كانـت المسـألة مسـألة روح "المراهـق"، لا مسـألة "الـروح" فـي ذاتـه، الـروح بصفتـه ذاتـاً. بيـد أن كاتبنـا القديـس يحتـاج الآن روحـاً مختلفـاً عـن روح المراهقـة، روحـاً غريبـاً، وفـي آخـر الأمـر روحـاً قدسـاً، يسـتطيع أن يضعـه فـي تعـارض مـع الـروح الأول. الشـعوذة رقـم ١.

"وبهـذه الطريقـة يجهـد الـروح لأن يصبـح الـكل فـي الـكل"، وهـذه صيغـة غامضـة تفسـر بعدئـذ كمـا يلـي:

"علـى الرغـم مـن أننـي روح، فأنـا لسـت مـع ذلـك روحـاً كامـلاً ويجـب علـيَّ

قبـل كل شـيء أن أنشـد الـروح الكامـل". والحـال أنـه إذا كان القديـس ماكـس "روحـاً ناقصـاً"، "فذلـك يشـكل فارقـاً" حسـبما يتوجـب عليـه أن ينشـد "إكمـال" روحـه أو ينشـد "الـروح الكامـل".

لقـد كان يعالـج قبـل أسـطر قليلـة الـروح "الفقيـر" أو "الغنـي" عامـة - وهـذا فـرق كمـي ودنـس - وهـا هـو يتعامـل علـى حيـن غـرة مـع الـروح "الناقـص" و"الكامـل" - وهـذا فـرق كيفـي وسـري. إن السـعي إلـى تطويـر روح المـرء الخـاص يمكـن أن يتحـول الآن إلـى نشـدان "الـروح الكامـل" بواسـطة "الـروح الناقـص". إن شـبح الـروح القـدس يجـوس فـي الأرجـاء. الشـعوذة رقـم ٢.

ويستطرد الكاتب القديس:

"لكـن بهـذه الوسـيلة" (يعنـي بتحويـل الطمـوح إلـى "كمـال" روحـي، إلـى نشـدان "الـروح الكامـل") "فإننـي، أنـا الـذي وجـدت نفسـي لتـوي بصفتـي روحـاً، أفقـد نفسـي مـن جديـد فـي الحـال، إذ أنحنـي أمـام الـروح الكامـل بصفتـه روحـاً ليـس خاصتـي، بـل يتعالـى علـيَّ، وأحـسُّ بـكل خوائـي" (ص ١٨).

ليـس هـذا شـيئاً سـوى تطويـر لاحـق للشـعوذة رقـم ٢. فبعدمـا افتـرض "الـروح الكامـل" علـى أنـه كائـن واقعـي ووضـع فـي تعـارض مـع "الـروح الناقـص"، يتضـح أن "الـروح الناقـص"، يحـس "خـواءه" بصـورة أليمـة حتـى أعمـاق نفسـه. ولنتابـع:

"حقـاً إن المسـألة تتوقـف علـى الـروح، لكـن هـل كل روح هـو الـروح الحـق؟ إن الـروح الحـق والحقيقـي هـو المثـل الأعلـى للـروح، "الـروح القـدس". ليـس هـو روحـي أو روحـك، بـل علـى وجـه الدقـة" (!) "روح مثالـي، روح مـن العالـم الآخـر- اللـه. إن اللـه روح" (ص ١٨).

إن الـروح "الكامـل" قـد حـوِّل هنـا علـى نحـو مفاجـىء إلـى الـروح "الحـق"، وعلـى الفـور بعدئـذ إلـى "الـروح الحـق والحقيقـي"؛ ويعـرف هـذا الـروح الأخيـر بصـورة أوثـق علـى أنـه "المثـل الأعلـى للـروح، الـروح القـدس"، الأمـر الـذي تثبتـه الحقيقـة التاليـة، ألا وهـي أنـه "ليـس روحـي أو روحـك، بـل علـى وجـه الدقـة روح مثالـي، روح مـن العالـم الآخـر، اللـه"! إن الـروح الحقيقـي هـو المثـل الأعلـى للـروح، "علـى وجـه الدقـة" لأنـه روح مثالـي! إنـه الـروح القـدس "علـى وجـه

الدقـة" لأنـه - اللـه. يـا لهـا مـن "براعـة فكريـة"! ولنلاحـظ أيضـاً بصـورة عابـرة أن "روحـك" لـم تطـرح حتـى الآن علـى بسـاط البحـث مطلقـاً. الشـعوذة رقـم ٣.

وهكـذا حيـن أنشـد أن أطـوِّر، أو كمـا يعبـر القديـس ماكـس عـن ذلـك، أن أبلـغ "الكمـال" فـي ثقافتـي الرياضيـة (mathématician)، فإننـي أنشـد إذن، الرياضـي "الكامـل"، يعنـي الرياضـي "الحـق والحقيقـي"، "المثـل الأعلـى" للرياضـي، أنشـد الرياضـي "القديـس" الـذي هـو متميـز منـي ومنـك (علـى الرغـم مـن أنـك قـد تكـون فـي نظـري الرياضـي الكامـل، بالضبـط كمـا كان أسـتاذ الفلسـفة الـروح الكامـل بالنسـبة إلـى المراهـق البرلينـي): "علـى العكـس مـن ذلـك، فإننـي أنشـد علـى وجـه الدقـة [رياضيـاً] مثاليـاً، مـن العالـم الآخـر"، هـو رياضـي فـي السـماوات، "اللـه". إن اللـه رياضـي.

وينتهـي القديـس ماكـس إلـى هـذه النتائـج العظيمـة جميعـاً لأن "ذلـك يشـكل فرقـاً حسـبما يكـون الـروح فقيـراً أم غنيـاً"، يعنـي فـي اللغـة الصريحـة حسـبما يكـون المـرء غنيـاً أم فقيـراً بالـروح، وكذلـك لأن "مراهقـه" اكتشـف هـذه الحقيقـة المرموقـة.

ويستطرد القديس ماكس في الصفحة ١٨:

"إن ما يميز الرجل من المراهق أنه يأخذ العالم كما هو"، الخ.

وبنتيجـة ذلـك، فإننـا لا نعلـم كيـف ينتهـي المراهـق علـى حيـن غـرة لأن يأخـذ العالـم "كمـا هـو"، كمـا أننـا لا نشـاهد جدلينـا (dialectician) القديـس يتدبـر أمـر الانتقـال مـن المراهـق إلـى الرجـل، بـل كل مـا نعلمـه هـو أن "ذلـك" يجـب أن تحقـق هـذه الخدمـة و"تميـز" المراهـق مـن الرجـل. لكـن حتـى "ذلـك" هـذه لا تكفـي بحـد ذاتهـا كـي تحـرك الشـاحنة الثقيلـة لهـذه الأفـكار الفريـدة. فبعـد أن عمـدت "ذلـك" إلـى "تمييـز الرجـل مـن المراهـق"، فـإن الرجـل يسـقط مـن جديـد فـي حالـة المراهقـة علـى أيـة حـال، ويأخـذ فـي الانشـغال مجـدداً "فـي الأمـور الروحانيـة وحدهـا"، ولا يأخـذ فـي الحركـة حتـى يسـرع "المـرء" إلـى مسـاعدته بجيـاد بديلـة. "عندمـا يأخـذ المـرء فـي حـب جسـده الخـاص، الـخ" (ص ١٨)، "عندئـذ فقـط" تتقـدم الأمـور جميعـاً برفـق مـن جديـد، ويكتشـف الرجـل أن لـه مصلحـة شـخصية وينتهـي إلـى "اكتشـاف ذاتـه مـرة ثانيـة". إنـه لا "يجـد نفسـه بصفتـه روحـاً" فحسـب، علـى غـرار المراهـق، "كـي يفقـد نفسـه مـن جديـد فـي الحـال

باستسلامه للروح الكلّي"، بل على العكس من ذلك يجد نفسه "من حيث هو روح يملك جسداً" (ص ١٩). وإن هذا "الروح الذي يملك جسداً" ينتهي هو الآخر إلى أن "يعنى لا في روحه الخاص فحسب" (مثل المراهق)، "بل في الإرضاء الكلي، في إرضاء الفرد كله" (اهتمام في إرضاء الفرد كله!) - إنه ينتهي إلى الاستمتاع "بنفسه، وبجسده، وبالحياة التي يعيش". إن الألماني الذي هو "رجل" شترنر يصل على الدوام متأخراً جداً. لقد كان يستطيع أن يرى مئات من "المراهقين" المتأنقين يمشون الهوينى على طول شوارع باريس أو في شارع ريجنت في لندن، من أولئك الذين لم يكتشفوا بعد أن لهم "روحاً تملك جسداً"، ومع ذلك فهم يستمتعون "بأنفسهم وبالحياة التي يعيشون"، واهتمامهم الرئيسي ينصب على "إرضاء الفرد كله".

إن هذا "الاكتشاف الذاتي" الثاني يملأ جدلينا القديس بحماسة بالغة بحيث ينسى دوره على حين غرة ويأخذ في التحدث لا عن الإنسان، بل عن نفسه، ويكشف لنا أنه هو نفسه، الأوحد، هو "الإنسان"، وأن "الإنسان" = "الأوحد". وهذه شعوذة جديدة.

> "كما أجد نفسي" (يجب أن نقرأ: "كما يجد المراهق نفسه") "وراء الأشياء، على أنني روح، كذلك يجب بالضرورة أن أجد نفسي أيضاً في وقت لاحق" (يجب أن نقرأ: "الرجل يجب أن يجد نفسه") "وراء الأفكار، بصفتي خالقها ومالكها. ففي مرحلة الأرواح كانت الأفكار، على الرغم من كونها ذرية دماغي، تسبقني أنا نفسي" (تسبق المراهق)، و"تموج حواليَّ مثل أوهام هذيانية وتلقي في نفسي اضطراباً عظيماً، مثل قوة مرعبة. لقد اتخذت الأفكار هيئة جسدية، وكانت أشباحاً مثل الله، والأمبراطور، والبابا، والوطن الأم، الخ؛ وإذا دمرت هيئتها الجسدية أعاود احتواءها في جسدي الخاص، وأقول: أنا وحدي أملك هيئة جسدية. وإنني لآخذ العالم من الآن فصاعداً كما هو بالنسبة إليَّ، على أنه لي، على أنه خاصتي. إنني أنسب جميع الأشياء إلى ذاتي".

وهكذا فإن الرجل، الموحد ههنا مع "الأوحد"، بعدما أعطى الأفكار بادئ الأمر وجوداً

جسـدياً، يعنـي بعدمـا حولهـا إلـى أشـباح، يدمـر الآن هـذا الوجـود الجسـدي مـن جديـد، وذلـك بإعـادة احتوائهـا فـي جسـده الخـاص، الـذي يجعلـه مـن جـراء ذلـك جسـد الأشـباح. إنـه لا يقتنـع بوجـوده الجسـدي الخـاص إلا بفعـل هـذا الإنـكار للأشـباح، الأمـر الـذي يبيـن الطبيعـة الحقيقيـة لهـذا الإنشـاء التجريـدي: جسـدية الرجـل التـي لا بـد لـه أن "يخبـر نفسـه" بشـأنها بـادئ الأمـر كيمـا يؤمـن بهـا. بيـد أن مـا "يخبـر بـه نفسـه" لا "يقولـه" بصـورة صحيحـة أيضـاً. وبمـا أنـه لا يوجـد فـي رأسـه، فيمـا عـدا هـذا الجسـد "الأوحـد"، أنـواع متباينـة مـن الأجسـام المسـتقلة، مـن النطـف، فإنـه يحـوِّل هـذه الواقعـة إلـى "خرافـة": أنـا وحـدي أملـك هيئـة جسـدية. وهـذه شـعوذة أخـرى.

وفضـلاً عـن ذلـك، فـإن الرجـل الـذي حشـا رأسـه، فـي أيـام مراهقتـه، بمختلـف أنـواع السـخف عـن القـوى والعلاقـات القائمـة، مثـلاً، الأمبراطـور، والوطـن الأم، والدولـة، الـخ، ولـم يعرفهـا فـي تصـوره إلا علـى اعتبارهـا "أوهامـه الهذيانيـة" الخاصـة - هـذا الرجـل، وفقـاً للقديـس ماكـس، يدمـر حقـاً جميـع هـذه القـوى إذ يطـرد مـن رأسـه رأيـه الخاطـئ عنهـا. وعلـى النقيـض مـن ذلـك، فأمـا أنـه لا ينظـر بعـد الآن إلـى العالـم مـن خـلال منظـار مخيلتـه الـذي يشـوه الأمـور، فـلا بـد لـه مـن أن يفكـر فـي البيئـة العمليـة لهـذا العالـم، وأن يعمـل علـى معرفتهـا وعلـى الاسترشـاد بهـا. وحيـن يدمـر الوجـود المـادي الوهمـي الـذي كان العالـم يملكـه بالنسـبة إليـه، فإنـه يكتشـف وجـوده المـادي الفعلـي خـارج مخيلتـه. ومـع زوال الوجـود الجسـدي الشـبحي للأمبراطـور، فليـس الأمبراطـور الموجـود جسـدياً هـو الـذي يـزول بالنسـبة إليـه، بـل طابعـه الشـبحي فقـط، وهـو يسـتطيع أخيـراً الآن أن يقـدر قوتـه الفعليـة فـي كل مداهـا. الشـعوذة رقـم ٣ .

إن المراهــق الــذي أصبــح رجــلاً لا يتخــذ موقفــاً نقديــاً حتــى تجــاه الأفــكار التــي يتبناهــا الآخـرون أيضـاً والمتداولـة فـي صـورة مقـولات، بـل يتخـذ الموقـف النقـدي حيـال تلـك الأفـكار التـي هـي "مـن صنـع دماغـه" فقـط، أي التـي هـي نسـخة بسـيطة ينقلهـا دماغـه عـن الآراء العامـة بشـأن الأشـياء كمـا هـي قائمـة. وهكـذا، علـى سـبيل المثـال، لا يحـل حتـى مقولـة "الوطـن الأم"، بـل رأيـه الشـخصي فقـط فـي هـذه المقولـة، وبعـد ذلـك فـإن المقولـة الصالحـة عمومـاً تظـل باقيـة، وحتـى فـي مجـال "الفكـر الفلسـفي" لا يـزال العمـل فـي بدايتـه بعـد. وعلـى أيـة حـال، فإنـه يريـد أن يحملنـا علـى الاعتقـاد بأنـه دمـر المقولـة نفسـها لأنـه دمـر علاقتـه الشـخصية المريحـة التـي كانـت

تربطه بها - مثلما أراد أن يحملنا على الاعتقاد قبل قليل بأنه دمر سلطان الامبراطور باستغنائه عن تصوره الوهمي عنه. الشعوذة رقم ٤.

ويستطرد القديس ماكس:

"وهكذا فإنني آخذ العالم على أنه ما هو لي، على أنه عالمي، على أنه خاصتي".

إنه يأخذ العالم على أنه ما هو له، يعني كما هو ملزم بأخذه، وبذلك فهو قد استملك العالم، جعله خاصته- وهي وسيلة للاستملاك من المؤكد أن أحداً من الاقتصاديين لم يأتِ على ذكرها، لكن "الكتاب" سوف يكشف لنا عن طريقتها ونجاحاتها بمزيد من التأكيد والترف. ولكن ما "يأخذه" في حقيقة الأمر على أنه له ويستملكه ليس هو "العالم" بل هو "الأوهام الهذيانية" التي يثيرها هذا العالم فيه. إنه يأخذ العالم على أنه تصوره عنه، وبهذه الصفة فإن العالم هو ملكيته المتصورة، ملكية تصوره؛ تصوره على أنه ملكية، ملكيته على أنها تصور، تصوره الخاص، أو تصوره عن الملكية، وهذا كله يعبر عنه في هذه الجملة الفريدة: "إنني أنسب جميع الأشياء إلى ذاتي".

فبعدما اعترف الرجل، كما يقر القديس نفسه بذلك، بأن العالم لم يكن مأهولاً إلا بالأشباح، لأن المراهق قد راودته الرؤى، فإنه يجد نفسه، بعدما زال بالنسبة إليه العالم الوهمي الخاص بالمراهق، في عالم واقعي، مستقل عن أوهام المراهق.

وهكذا يجب أن نقرأ إذن: وهكذا فإنني آخذ العالم كما هو بصورة مستقلة عن ذاتي، في الشكل الذي يخص به ذاته (إن "الرجل" نفسه "يأخذ" - أنظر ص ١٨ - "العالم كما هو"، وليس كما يحبه أن يكون). وآخذه قبل كل شيء على أنه ليس ملكيتي (لم يكن ملكيتي حتى الآن إلا في شكله الشبحي): إنني أنسب ذاتي إلى جميع الأشياء وبهذه الصفة وحدها أنسب جميع الأشياء إلى ذاتي.

"إذا أنا، كروح، رفضت العالم الذي أكنُّ له أعمق الاحتقار، فإنني إذن، كمالك، أرفض الأشباح أو الأفكار في هوة بطلانها. ليس لها سلطان عليَّ بعد

الآن، بالضبط كما أن أية "قوة دنيوية" لا تملك سلطاناً على الروح" (ص ٢٠).

نـرى هنـا أن المالـك، رجـل شـترنر، يسـتملك فـي الحـال مزايـا المراهـق المثاليـة الـذي يتألـف (Sine beneficio deliberandi atque inventraii)[*][٦٦]، كمـا يقـول هـو نفسـه، مـن "أوهـام هذيانيـة" و"أشـباح" فقـط. وإنـه ليتوهـم أنـه، فـي عمليـة التغيـر مـن طفـل إلـى مراهـق، قـد انتهـى حقـاً مـن عالـم الأشـياء، وفـي عمليـة التغيـر مـن مراهـق إلـى رجـل قـد انتهـى حقـاً مـن عالـم الـروح، وإنـه يملـك الآن، بوصفـه رجـلاً، العالـم كلـه رهـن إشـارته وليـس ثمـة مـا يقلقـه علـى الإطـلاق. وإذا كان صحيحـاً أنـه ليـس لأيـة قـوة خارجـة عنـه، كمـا يقـول هـو نفسـه مكـرراً ثرثـرة المراهـق، أيـة سـلطة علـى الـروح، وبالتالـي فالـروح هـو السـلطة العليـا علـى الأرض - وإذا كان صحيحـاً أنـه، هـو الرجـل، قـد أخضـع هـذا الـروح الكلـي القـدرة- أفليـس هـو إذن كلـي القـدرة تمامـاً؟ وإنـه لينسـى أنـه لـم يدمـر سـوى الشـكل الوهمـي والشـبحي الـذي تتخـذه أفـكار "الوطـن الأم"، الـخ، فـي دمـاغ "المراهـق"، لكنـه لـم يمـس بعـد هـذه الأفـكار بقـدر مـا تعبِّـر عـن العلاقـات الفعليـة. ولمـا كان فـي منـأى عـن الوصـول إلـى التحكـم فـي الأفـكار - فقـد أصبـح الآن قـادراً فقـط علـى الحصـول عليهـا.

"إنـه لواضـح الآن - وتلـك سـتكون خاتمـة حديثنـا" (ص ١٩٩) إن رجلنـا القديـس قـد تابـع حججـه الواهيـة عـن زمـر الأعمـار حتـى الهـدف المنشـود والمقـدر سـلفاً. وإنـه لينقـل إلينـا النتيجـة المحققـة فـي عبـارة هـي ظـل شـبحي سـوف نقارنـه الآن بجسـده المفقـود.

(*) Sans bénefice d'inventaire.

العبارة الفريدة (ص ٢٠)	مالك الظل المحرر المرافق
"إن الطفل، بوصفه واقعياً، قد ظل أسيراً لأشياء هذا العالم، حتى نجح شيئاً فشيئاً في اكتشاف الطبيعة الحقيقية لهذه الأشياء بالذات. وكان المراهق مثالياً، تلهمه الأفكار، حتى سما إلى مرتبة الرجل، هذا الأناني الذي يتصرف بالأشياء والأفكار كما يحلو له ويضع مصلحته الشخصية فوق جميع الأمور. وأخيراً الشيخ؟ إذا ما أصبحت شيخاً فسوف يحين الأوان للحديث عنه".	كان الطفل، فعلياً، أسيراً لعالم أشيائه، حتى نجح شيئاً فشيئاً (كي نستخدم تعبيراً احتيالياً عن التطور) في تجاوز هذه الأشياء بالذات. وكان المراهق خيالياً، طائشاً من جراء حماسته المفرطة، حتى أعيد إلى أسفل من قبل هذا الرجل، البورجوازي الأناني، الذي تتصرف به الأشياء والأفكار كما يحلو لها، لأن مصلحته الشخصية تضع جميع الأمور فوقه. وأخيراً الشيخ؟ - "ما لي ولك، يا امرأة؟"

وهكذا فإن هذا التاريخ عن "حياة إنسان" يرجع، إذاً "وتلك ستكون خاتمة حديثنا"، إلى ما يلي:

يعتبر شترنر مراحل الحياة المتباينة على أنها مجرد "اكتشافات ذاتية" للفرد، وهذه "الاكتشافات الذاتية" ترتد أبداً إلى علاقة معينة للوعي. وهكذا فإن حياة الفرد هنا هي الفروق في درجة وعيه، ومن المؤكد أن التبادلات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يتعرض لها الأفراد والتي تنتج درجات الوعي المختلفة لا تعني شترنر على الإطلاق. وبالتالي فعنده أن الطفل والمراهق والرجل يجدون على الدوام العالم جاهزاً، قياساً على الطريقة التي "اكتشفوا" بها "أنفسهم"؛ ولا يفعلون أي شيء على الإطلاق ليخلصوا إلى مصادفة أي شيء موجود. وأما علاقة الوعي بالذات، فإنها لم تدرك هي الأخرى بصورة صحيحة، بل بصورة مغلوطة فحسب، في الشكل التأملي وحده. ولذا كان موقف جميع هذه الأشكال من العالم فلسفياً أيضاً - "واقعياً عند الطفل"، "مثالياً عند المراهق"، وإن الرجل لهو الوحدة السالبة لكليهما، على اعتباره سلبية مطلقة، كما يتبين من العبارة الختامية الآنفة الذكر. وهكذا يماط اللثام عن سر "حياة إنسان"، فيتضح الآن أن "الطفل" لم يكن سوى تنكر للواقعية"، وأن

"المراهـق" لـم يكـن سـوى تنكـر "للمثاليـة"، وأن "الرجـل" لـم يكـن سـوى محاولـة مـن أجـل حـل هـذا التناقـض الفلسـفي. وليـس هـذا الحـل، هـذه "السـلبية المطلقـة"، ممكنـاً - كمـا يتبيـن منـذ الآن - إلا لأن الرجـل يتبنـى بصـورة عميـاء أوهـام الطفـل والمراهـق علـى حـد سـواء، متوهمـاً أنـه بذلـك قـد سـيطر علـى عالـم الأشـياء وعلـى عالـم الـروح.

مـا دام القديـس ماكـس لا يعيـر انتباهـاً "لحيـاة" الفـرد الفيزيولوجيـة والاجتماعيـة، إذ لا يقـول شـيئاً البتـة عـن "الحيـاة" بـكل بسـاطة، فإنـه يصـرف الانتبـاه - مخلصـاً بذلـك لنفسـه - عـن الحقـب التاريخيـة، والقوميـات، والطبقـات، الـخ، أو يعمـد - وهـذا يعـود إلـى الشـيء ذاتـه- إلـى تضخيـم الوعـي السـائد للطبقـة الأقـرب إليـه فـي بيئتـه المباشـرة حتـى يجعـل منـه الوعـي الطبيعـي "لحيـاة إنسـان". وكيمـا يرتفـع فـوق هـذا التفكيـر الضيـق لمعلـم المدرسـة المحـدود، فإنـه لا يحتـاج لأكثـر مـن مقارنـة "مراهقـة" مـع أول بقـال مراهـق يصادفـه، مـع عامـل مراهـق فـي مصنـع إنكليـزي أو مراهـق مـن أميـركا الشـمالية، كـي لا نأتـي علـى ذكـر الكيرجبييـن (Kirghiss) المراهقيـن.

ولا يكتفـي صاحبنـا القديـس فـي سـذاجته الهائلـة - وذلـك هـو الـروح الـذي يتغلغل فـي كل كتابه - بـأن يعيـر مراهقـه إيمانـاً أعمـى بطفلـه، ورجلـه نفـس الإيمـان بمراهقـة. إنـه يخلـط هـو نفسـه، مـن دون أن يلاحـظ ذلـك، الأوهـام التـي يملكهـا أو يزعـم امتلاكهـا بعـض "المراهقيـن"، و"الرجـال"، الـخ، عـن أنفسـهم مـع "حيـاة"، ومـع واقـع هـؤلاء المراهقيـن والرجـال الملتبسـين حتـى درجـة عاليـة.

إن نمـوذج كل هـذه الحجـج الواهيةعـن زمـر الأعمـار قـد وصـف مـن قبـل فـي القسـم الثالـث مـن كتـاب هيغـل الموسـوعة[٦٧] وفـي "تحـولات متنوعـة" فـي مواضـع أخـرى عنـد هيغـل أيضـاً. ومـن الطبيعـي أنـه لا بـد للقديـس ماكـس، الـذي يلاحـق أغراضـه "الخاصـة"، مـن أن يعمـد إلـى بعـض "التحـولات" هنـا أيضـاً. فحيثمـا يقيـم هيغـل مثـلاً اعتبـاراً كبيـراً للعالـم التجريبـي بحيـث يصـور المواطـن الألمانـي علـى أنـه عبـد العالـم مـن حولـه، لا بـد لشـترنر أن يجعـل منـه سـيد هـذا العالـم، الأمـر الـذي لـم يبلغـه حتـى فـي المخيلـة. وكذلـك يزعـم القديـس ماكـس أنـه لـم يتحـدث عـن الشـيخ لأسـباب تجريبيـة؛ إنـه يريـد علـى حـد قولـه أن ينتظـر حتـى يصبـح هـو نفسـه شـيخاً (وبالتالـي فـإن "حيـاة إنسـان" = حيـاة إنسـانه الأوحـد هنـا). وإن هيغـل ينشـيء بـكل نشـاط أعمـار

الحيـاة الأربعـة لأنـه يـرى أن الإنـكار يفـرض نفسـه فـي شـكل مـزدوج فـي العالـم الواقعـي، كقمـر وكمذنـب (أنظـر: فلسـفة الطبيعـة[٦٨] لهيغـل)، وبالتالـي فـإن الرباعيـة هنـا تحـل محـل الثلاثيـة. وإن أصالـة شـترنر الوحيـدة لتقـوم بجعـل القمـر والمذنـب يتزامنـان، الأمـر الـذي يتيـح لـه أن يحـذف الشـيخ البائـس مـن "حيـاة إنسـان". وإن السـبب فـي هـذه الشـعوذة سـوف يتضـح لنـا عندمـا نـدرس بصـورة منفصلـة بنيـة التاريـخ الأوحـد للإنسـان.

٢ ـ اقتصاد العهد القديم

لا بـد هنـا أن نتـرك، لبرهـة، كتـاب "النامـوس" كـي ننتقـل إلـى كتـاب "الأنبيـاء"، مميطيـن اللثـام منـذ الآن عـن سـر الاقتصـاد المنزلـي الأوحـد فـي السـماء وعلـى الأرض. ومنـذ العهـد القديـم - حيـث النامـوس، الإنسـان، لا يـزال معلـم مدرسـة مكلفـاً بالأوحـد (أهـل غلاطيـة (Gallater)، ٣: ٢٤) - يتبـع تاريـخ مملكـة الأوحـد خطـة حكيمـة مقـررة منـذ الأزل. لقـد قـدر كل شـيء وأعطيـت الأوامـر بصـورة مسـبقة كيمـا يسـتطيع الأوحـد أن يظهـر فـي العالـم، عندمـا يحيـن الوقـت، ليفتـدي النـاس القديسـين بتحريرهـم مـن قداسـتهم.

ولـذا فـإن الكتـاب الأول، "حيـاة إنسـان"، قـد سـمي كذلـك كتـاب التكويـن، لأنـه يتضمـن بصـورة ضمنيـة كل الاقتصـاد الأوحـد، ولأنـه يعطينـا نموذجـاً عـن كل التطـور اللاحـق حتـى اللحظـة التـي يحيـن فيهـا الأوان والتـي تحـلُّ فيهـا نهايـة العالـم. إن هـذا التاريـخ الأوحـد بكاملـه يـدور حـول ثـلاث مراحـل: الطفـل، والمراهـق، والرجـل، الذيـن يعـودون مـن دون انقطـاع "فـي تحـولات متنوعـة" وفـي صـورة دوائـر متزايـدة الاتسـاع أبـداً حتـى الأوان الـذي ينحـل فيـه تاريـخ عالـم الأشـياء وعالـم الـروح فـي هـذه العناصـر الثلاثـة: "الطفـل والمراهـق والرجـل". ولـن نصـادف فـي أي مـكان سـوى التنكـرات المختلفـة "للطفـل والمراهـق والرجـل"، بالضبـط كمـا اكتشـفنا مـن قبـل أنهـم عبـارة عـن ثـلاث مقـولات متنكـرة.

تحدثنـا أعـلاه عـن التصـور الفلسـفي الألمانـي للتاريـخ. وإننـا لنجـد ههنـا، فـي القديـس ماكـس، مثـالاً لامعـاً عليـه. إن الفكـرة التأمليـة، التصـور التجريـدي، تصبـح القـوة المحركـة فـي التاريـخ، بحيـث يرتـد التاريـخ إلـى مجـرد تاريـخ الفلسـفة. وفضـلاً عـن ذلـك، فـإن هـذا التاريـخ

نفســه لا يتصــور كمــا قــد جــرى فعــلاً، وفقــاً للمصــادر المتوافــرة - وأقــل مــن ذلــك بوصفــه نتيجــة العلاقــات التاريخيــة الفعليــة - بــل كمــا تصــوره الفلاســفة الألمــان المحدثــون، وعلــى الأخــص هيغــل وفويربــاخ. ولا يحتفــظ حتــى مــن هــذه العــروض نفســها إلا بالعناصــر التــي يمكــن تكييفهــا مــع الهــدف المعيــن والتــي يــزود التقليــد قديســنا بهــا. وهكــذا يصبــح التاريــخ مجــرد تاريــخ الأفــكار كمــا تصنعهــا المخيلــة، تاريــخ أرواح وأشــباح، فــي حيــن أن التاريــخ التجريبــي والفعلــي الــذي يشــكل أســاس ذلــك التاريــخ الشــبحي لا يســتخدم إلا مــن أجــل توفيــر الأجســام لتلــك الأشــباح؛ فمنــه تســتعار الأســماء المطلوبــة مــن أجــل إلبــاس هــذه الأشــباح بمظهــر الواقــع. وعلــى أي حــال، فــإن قديســنا، فــي ســياق هــذه التجربــة، كثيــراً مــا ينســى دوره ويكتــب قصصــاً عــن الأشــباح مــن دون قنــاع علــى الإطــلاق.

وإننــا لنجــد عنــده هــذه الطريقــة فــي صنــع التاريــخ فــي شــكلها الأعظــم بســاطة والأكثــر ســذاجة والأكثــر كلاســيكية. إنــه يشــيد التاريــخ كلــه علــى هــذه المقــولات الثــلاث - : الواقعيــة والمثاليــة والســلبية المطلقــة علــى أنهــا وحــدة الاثنتيــن (وقــد عمــدت هنــا باســم "أنانيــة") - وقــد ســبق لنــا الالتقــاء بهــا فــي صــورة الطفــل والمراهــق والرجــل مزينــاً إياهــا بلافتــات تاريخيــة متنوعــة؛ وإنهــا لتشــكل، مــع حاشــيتها المتواضعــة مــن المقــولات الملحقــة، محتــوى جميــع الأطــوار شــبه التاريخيــة الوهميــة التــي يعرضهــا لنــا، والتــي تشــكل التاريــخ بالنســبة إليــه. وإن القديــس ماكــس ليقــدم لنــا ههنــا مــرة أخــرى برهانــاً علــى ســذاجته غيــر المحــدودة، إذ يدفــع إلــى حــدود قصــوى أعظــم مــن أي مــن ســابقيه الإيمــان بالمحتــوى التأملــي للتاريــخ، المعــد مــن قبــل الفلاســفة الألمــان. وهكــذا فــإن ســر هــذا الإنشــاء المهيــب والشــاق للتاريــخ هــو التمكيــن مــن إيجــاد سلســلة فخمــة مــن الأســماء الرنانــة لثــلاث مقــولات قــد ابتذلــت جــداً بحيــث لا تجــرؤ بعــد الآن علــى الظهــور علنــاً بأســمائها الخاصــة. ولقــد كان فــي مقــدور مؤلفنــا الممســوح بالزيــت أن ينتقــل بســهولة مــن "الإنســان" (ص ٢٠) إلــى "الــذات" (ص ٢٠١)، أو حتــى إلــى "الأوحــد" (ص ٤٨٥)؛ لكــن مثــل هــذا الانتقــال ســيكون إذن، أمــراً بالــغ البســاطة، والأكثــر مــن ذلــك أن التنافــس الشــديد القائــم بيــن الأنصــار الألمــان للتأمــل الفلســفي يفــرض علــى كل منافــس جديــد أن ينفــخ فــي البــوق معلنــاً عــن ســلعه.

إن "طاقة التطور الحقيقي"، كي نستخدم كلمات الدكتور غرازيانو، "تجري بمزيد من العنف" في "التحولات" التالية:

الأساس:

١- الواقعية.

٢- المثالية.

٣- الوحدة السالبة لكلتيهما. "الإنسان" (ص ٤٨٥).

التسمية الأولى:

الطفل، رهن بالأشياء (الواقعية).

المراهق، رهن بالأفكار (المثالية).

الرجل، (على أنه الوحدة السالبة).

التعبير الإيجابي: مالك الأفكار والأشياء } الأنانيون

التعبير السلبي: طليق من الأفكار والأشياء } الأنانيون

التسمية التاريخية الثانية:

الزنجي (الواقعية، الطفل).

المغولي (المثالية، المراهق).

٣- القوزاقي (الوحدة السالبة للواقعية والمثالية، الرجل).

التسمية الثالثة الأعم:

١- الأناني الواقعي (الأناني بالمعنى العادي) - الطفل، الزنجي.

٢- الأناني المثالي (المضحي بالذات) - المراهق، المغولي.

٣- الأناني الحقيقي (الأوحد) - الرجل، القوزاقي.

التسمية التاريخية الرابعة: تكرار المراحل السابقة ضمن مقولة القوزاقي.

الأقدمون. القوزاقيون من النمط الزنجي - رجال صبيانيون - وثنيون - رهن بالأشياء - واقعيون- العالم.

الانتقال (الطفل الذي أدرك "أشياء هذا العالم"): الصوفيون، الريبيون، الخ.

المحدثـون. القوزاقيـون مـن النمـط المغولـي - رجـال مراهقـون - مسـيحيون - رهـن بالأفـكار- مثاليـون - الـروح.

١- تاريخ الأرواح النقي(*)، المسيحية من حيث هي روح "الروح".

٢- تاريخ الأرواح الدنس، الروح في علاقته مع الآخرين - "الممسوسون".

آ- تاريخ الأرواح الدنس بلا دنس.

(آ) الأطيـاف، الشـبح، الـروح فـي الحالـة الزنجانيـة، مـن حيـث هـو روح مشـيئ وشـيء روحـي- الماهيـة الموضوعيـة بالنسـبة إلـى المسـيحي، الـروح مـن حيـث هـو طفـل.

(ب) النـزوة، الفكـرة الثابتـة، الـروح فـي الحالـة المغوليـة، فـي الحالـة الروحيـة فـي الـروح، تحديـد فـي الوعـي، الماهيـة المتصـورة فـي المسـيحي - الـروح مـن حيـث هـو مراهـق.

ب- تاريخ الأرواح الدنس بدنس (التاريخي).

(آ) الكاثوليكية - الحقب الوسيطة (الزنجي، الطفل، الواقعية، الخ).

(ب) البروتسـتانتية - الأزمنـة الحديثـة فـي الزمـن الحديـث – (المغولـي، المراهق، المثاليـة، الخ).

ويمكن إجراء تقسيمات أخرى في إطار البروتستانتية، مثال ذلك:

(a) الفلسفة الإنكليزية - الواقعية، الطفل، الزنجي.

(b) الفلسفة الألمانية - المثالية، المراهق - المغولي.

ج التراتـب- الوحـدة السـالبة لكليهمـا ضمـن وجهـة النظـر المغوليـة - القوزاقيـة. ومثـل

(*) في الأصل الألماني Geistergeschichte، يعني "قصة الشبح" (Geister تعني الأشباح أو الأرواح، Geschichte تعني القصة أو التاريخ). ونترجمها هنا على أي حال على أنها "تاريخ الأرواح"، لأن هذا يوضح الارتباط بالكلمات السابقة لها واللاحقة بها.

هـذه الوحـدة تظهـر حيـث تتحـول العلاقـات التاريخيـة إلـى علاقـات قائمـة فعليـاً أو حيـث تمثـل النقائـض علـى أنهـا موجـودة. وبالتالـي فـإن لدينـا ههنـا مرحلتيـن موجودتيـن:

(آ) "الأميـون" (الأشـرار، البورجوازيـون، الأنانيـون، بالمعنـى العـادي للكلمـة) = الزنـوج، الأطفـال، الكاثوليكيـون، الواقعيـون، الـخ.

(ب) "المثقفـون" (الصالحـون، المواطنـون، الغيريـون، الكهنـة، الـخ) = المغوليـون، المراهقـون، البروتسـتانتيون، المثاليـون.

وتوجـد كلتـا هاتيـن المرحلتيـن، الأمـر الـذي يترتـب عليـه "بـكل سـهولة" أن "المثقفيـن" يسـودون "الأمييـن" - وهـذا هـو التراتـب. وفـي سـياق التطـور التاريخـي .

يصبح الأميون غير الهيغليين

ويصبح المثقفون هيغليين(*)،

الأمرالـذي يترتـب عليـه أن الهيغلييـن يسـودون غيـر الهيغلييـن. وبهـذه الطريقـة يقلـب شـترنر التصـور التأملـي لسـيطرة الفكـرة التأمليـة فـي التاريـخ إلـى تصـور سـيطرة الفلاسـفة التأملييـن أنفسـهم. وإن تصـور التاريـخ كمـا يديـن بـه حتـى ذلـك الحيـن - هيمنـة الفكـرة - يتحـول فـي هـذا "التراتـب" إلـى علاقـة واقعيـة قائمـة فعليـاً، إلا وهـي السـيطرة العالميـة للإيديولوجييـن. ويبيـن هـذا إلـى أي مـدى غـاص شـترنر فـي التأمـل. وإن هـذه السـيطرة للفلاسـفة والإيديولوجييـن تنتهـي أخيـراً، "ذلـك أن الأوان قـد حـان" لهـا، إلـى التسـميات التاليـة:

(آ) **الليبراليـة السياسـية**، رهـن بالأشـياء، مسـتقلة عـن الأشـخاص - الواقعيـة، الطفـل، الزنجـي، الإنسـان القديـم، المرحلـة الشـبحية، الكاثوليكيـة، "الأمـي"، مـن دون سـيد.

(ب) الليبراليـة الاجتماعيـة، مسـتقلة عـن الأشـياء، رهـن بالـروح، بـلا موضـوع - المثاليـة، المراهق، المغولـي، الإنسـان الحديـث، النـزوة، البروتسـتانتية، "المثقـف"، مـن دون ملكية.

(ج) الليبراليـة الإنسـانية، مـن دون سـيد ومـن دون ملكيـة، وبنتيجـة ذلـك مـن دون إلـه، ذلـك أن اللـه هـو فـي الوقـت ذاتـه السـيد الأسـمى والخيـر الأسـمى، التراتـب - الوحـدة السـالبة فـي

(*) "إن الشامان(Chamane) والفيلسوف التأملي يرمزان إلى النقطة الدنيا والنقطة العليا في سلم الإنسان الباطن (The inner man)، المغولي (ص ٤٥٣).

مجـال الليبراليـة، وبهـذه الصفـة السـيطرة علـى عالـم الأشـياء والأفـكار؛ وفـي الوقـت ذاتـه الأنانـي الكامـل فـي نقـض(*) الأنانيـة - وإن نقـض التراتـب يشـكل فـي الوقـت ذاتـه الـ انتقـال (المراهـق الـذي أدرك عالـم الفكـر) إلـى

٣- الـ "أنـا" - يعنـي المسـيحي الكامـل، الإنسـان الكامـل، القوزاقـي والأنانـي الحـق؛ وكمـا أن المسـيحي أصبـح الـروح بفعـل تجـاوز العالـم القديـم، كذلـك تصبـح الأنـا جسـمانية بفعـل دمـار مملكـة الأرواح، بقطافهـا، مزايـا المراهـق المثاليـة، (Sine Beneficio Deliberandi Atque (Inventarii (**)، المراهـق، المغولـي، الإنسـان الحديـث، المسـيحي، الممسـوس، صاحـب النـزوة، البروتسـتانتي، "المثقـف"، الهيغلي والليبرالـي الإنسـاني.

حاشية:

١- "أحيانـاً" يمكـن كذلـك أن "نحشـر بصـورة عرضيـة"، عندمـا تسـنح الفرصـة، "المقـولات الفويرباخية وغيرهـا، مثـل الفهـم، والقلـب، الـخ، وذلـك لتقويـة بريـق هـذه اللوحـة ولإحـداث تأثيـرات جديـدة. ولا حاجـة إلـى القـول إن هـذه التأثيـرات الجديـدة لا تعـدو كونهـا هـي الأخـرى تنكـرات جديـدة للمثاليـة والواقعيـة الحاضرتيـن أبـداً.

٢- إن القديـس ماكـس الـورع والسـاذج (وبعبـارة أخـرى جـاك المغفـل Jacques le bonhomme[٦٩])، لا يملـك شـيئاً واقعيـاً ودنيويـاً يقولـه عـن التاريـخ الدنيـوي، عـن التاريـخ الواقعـي، سـوى أنـه يعارضـه دائمـاً تحـت اسـم "الطبيعـة"، و"عالـم الأشـياء"، و"عالـم الطفـل"، بالوعـي؛ ذلـك أنـه يتصـور التاريـخ مـن حيـث هـو موضـوع تأمـل بالنسـبة إلـى هـذا الوعـي، مـن حيـث هـو عالـم لا يـزال موجـوداً فـي ظلمـة صوفيـة، علـى الرغـم مـن تعرضـه المتواصـل للدمـار، كيمـا يعـاود الظهـور فـي أول فرصـة سـانحة؛ لمـن الأرجـح أنـه لمـا كان الأطفـال والزنـوج يسـتمرون فـي البقـاء، فـإن عالمهـم أيضـاً، عالـم الأشـياء المزعـوم، يسـتمر "بـكل سـهولة" فـي البقـاء. وفيمـا يتعلـق بالإنشـاءات التاريخيـة وغيـر التاريخيـة مـن هـذا

(*) نترجم بكلمة "نقض" العبارة الهيغلية (Aufhebung) التي تعني التجاوز مع الإلغاء.

(**) Sans bénéfice d'inventaire.

النمط، كتب هيغل العجوز الطيب بشأن شيلينغ - نموذج جميع المنشئين - ما يجب أن يقال في هذه المناسبة:

"ليس استعمال أداة هذه الصورية الرتيبة بأصعب من استعمال ملون رسام ليس عليه سوى لونين، مثلاً الأسود "(الواقعي، الطفولي، الزنجي، الخ) "والأصفر" (المثالي، المراهق، المغولي، الخ) "كيما يستخدم اللون الأول من أجل رسم سطح حين يكون المطلوب أمراً تاريخياً" ("عالم الأشياء") و"اللون الثاني حين يتطلب الأمر مشهداً طبيعياً" ("السماء"، الروح، القداسة، الخ) (علم الظواهر، ص ٣٩).

وإن "للوعي العادي" إنشاءات من هذا النوع هي موضع السخرية بصورة أرهف في الأغنية التالية :

أرسل السيد خادمه حنا

كي يحصد الشعير،

لكن حنا لم يحصد الشعير

ولم يرجع إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد كلبه

كي يعض حنا،

لكن الكلب لم يعض حنا

وحنا لم يحصد الشعير،

ولم يرجعا إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد العصا

كي تضرب الكلب،

لكن العصا لم تضرب الكلب

والكلب لم يعض حنا

وحنا لم يحصد الشعير.

ولم يرجعوا إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد النار

كي تحرق العصا،

لكن النار لم تحرق العصا

والعصا لم تضرب الكلب

والكلب لم يعض حنا

وحنا لم يحصد الشعير

ولم يرجعوا إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد المياه

كي تطفئ النار،

لكن المياه لم تطفئ النار

والنار لم تحرق العصا

والعصا لم تضرب الكلب

والكلب لم يعض حنا

وحنا لم يحصد الشعير

ولم يرجعوا إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد الثور

كي يشرب المياه،

لكن الثور لم يشرب المياه

والمياه لم تطفئ النار
والنار لم تحرق العصا
والعصا لم تضرب الكلب
والكلب لم يعض حنا
وحنا لم يحصد الشعير
ولم يرجعوا إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد الجزار
كي يذبح الثور،
لكن الجزار لم يذبح الثور
والثور لم يشرب المياه
والمياه لم تطفئ النار
والنار لم تحرق العصا
والعصا لم تضرب الكلب
والكلب لم يعض حنا
وحنا لم يحصد الشعير
ولم يرجعوا إلى البيت.

عندئذ أرسل السيد الجلاد
كي يشنق الجزار،
وشنق الجلاد الجزار
وذبح الجزار الثور
وشرب الثور المياه
وأطفأت المياه النار

وأحرقت النار العصا

وضربت العصا الكلب

وعض الكلب حنا

وحصد حنا الشعير

ورجعوا جميعاً إلى البيت[٧٠].

ولسـوف نـرى الآن بأيـة "براعـة فكريـة" وبأيـة طريقـة تلميذيـة ينفـذ جـاك المغفـل هـذا المخطـط.

٣ ـ الأقدمون

كان يجـب فـي الحقيقـة أن نبـدأ هنـا بالزنـوج؛ لكـن القديـس ماكـس، الـذي جلـس بصـورة لا ريبـة فيهـا فـي "مجلـس الحـرس" فـي حكمتـه التـي لا يسـبر غورهـا، لا يدفـع بالزنـوج إلـى خشـبة المسـرح إلا فـي وقـت لاحـق، وحتـى وقتئـذ "مـن دون أن يزعـم معالجـة الموضـوع بعمـق وصلابـة". وبالتالـي، فـإذا نحـن جعلنـا الفلسـفة الإغريقيـة تتقـدم علـى الحقبـة الزنجانيـة، يعنـي قبـل حمـلات سيوسـتريس(Séostris)[٧١] وحملـة نابوليـون علـى مصـر، فذلـك لأننـا واثقـون مـن أن مؤلفنـا القديـس قـد رتـب الأشـياء جميعـاً بحكمـة.

"فلنلق إذن نظرة على نشاطات" قدماء شترنر.

"يقـول فويربـاخ: "كان العالـم حقيقـة بالنسـبة إلـى الأقدميـن"؛ لكنـه ينسـى أن يضيـف هـذا التحديـد الهـام: حقيقـة جربـوا أن يتغلغلـوا وراء لا حقيقتهـا، وقـد انتهـوا بالفعـل إلـى اكتشـافها" (ص ٢٢).

"بالنسـبة إلـى الأقدميـن"، كان "عالمهـم" (لا العالـم) "حقيقـة" - وهـذه صيغـة لا تقـرر بالطبـع أيـة حقيقـة عـن العالـم القديـم، بـل تقـرر فقـط أن موقـف الأقدميـن حيـال عالمهـم قـد كان موقفـاً غيـر مسـيحي. وحالمـا تغلغلـت الـلا حقيقـة فـي عالمهـم (يعنـي حالمـا تحلـل هـذا العالـم ذاتـه نتيجـة النزاعـات العمليـة- ولقـد كان البرهـان علـى هـذا التطـور المـادي فـي الممارسـة

الشيء الوحيد اللائق بالاهتمام)، حاول الفلاسفة القدماء أن يتغلغلوا وراء عالم الحقيقة أو حقيقة عالمهم، وعندئذ وجدوا بالطبع أن هذا العالم قد انقطع عن كونه حقيقياً. ولقد كان بحثهم بالذات علامة على الانهيار الباطن لهذا العالم. ويجعل جاك المغفل من العلاقة الإيديولوجية السبب المادي لذلك الانهيار، وبوصفه أباً كنائسياً ألمانياً يقدم العالم القديم كما لو كان هو نفسه ينشد إنكاره الخاص، المسيحية. ولم يكن له مناص من أن يحمل العالم القديم على اتخاذ هذا الموقف، لأن الأقدمين "أطفال" يحاولون التغلغل ما وراء "عالم الأشياء". وإن جاك المغفل يستطيع بالطبع "من دون مزيد من الصعوبة"، إذ يستعيض عن العالم القديم بالوعي الذي حققه البشر في وقت لاحق عن هذا العالم، أن يقفز في وثبة واحدة من العالم القديم المادي إلى عالم الدين، إلى المسيحية. وإن "كلمة الله" لتنبثق الآن من فورها تعارض العالم الواقعي للأزمنة القديمة؛ وينبثق المسيحي المتصور على أنه الريبي (scéptique) الحديث يعارض الإنسان القديم المتصور على أنه فيلسوف. إن مسيحيه "لا يستطيع قط أن يقتنع ببطلان كلمة الله"، وبما أنه لا يستطيع الاقتناع بذلك فإنه "يؤمن" "بحقيقتها الأبدية والراسخة" (ص ٢٢). وكما أن إنسان شترنر القديم قديم لأنه غير المسيحي، لم يصبح مسيحياً بعد، أو مسيحي مستتر، كذلك مسيحيه البدائي مسيحي لأنه غير الملحد، لم يصبح ملحداً بعد، أو ملحد مستتر. وهكذا ففي رأي شترنر أن الأقدمين إنكار المسيحية، والمسيحيين البدائيين إنكار الإلحاد (L'athéisme) الحديث، وليس العكس من ذلك. إن جاك المغفل، مثله كمثل جميع الفلاسفة التأمليين من أشباهه، يقبض على الأشياء جميعاً من ذيلها الفلسفي. وإليكم بعض الأمثلة الأخرى عن هذه السذاجة الصبيانية:

> "لا يستطيع المسيحي إلا أن يشعر أنه "غريب على الأرض" (الرسالة إلى العبرانيين، ١١: ١٣) (ص ٢٣).

وعلى النقيض من ذلك، فإن أولئك الذين كانوا غرباء على الأرض (ولأسباب طبيعية حتى الدرجة القصوى، مثلاً التمركز العملاق للثروات في كل الأمبراطورية الرومانية الخ، الخ) ما كانوا يستطيعون إلا أن يشعروا أنهم مسيحيون. فليست مسيحيتهم هي التي جعلتهم مشردين، بل تشردهم هو الذي جعلهم مسيحيين. وفي الصفحة ذاتها يقفز الأب القديس

باستقامة من مسرحية أنتيغونا (Antigone) لسوفوكليس(sophoklis) والطابع القدسي الذي يتخذه دفن الموتى، وهو ما يفسر المسرحية، إلى انجيل القديس متى Matthew، ٨: ٢٢ (دعوا الموتى يدفنوا موتاهم)، بينما يحتاط هيغل في علم الظواهر بحيث ينتقل بصورة تدريجية من أنتيغونا، الخ، إلى الامبراطورية الرومانية. ولقد كان في مقدور القديس ماكس أن ينتقل بمثل ذلك اليسر، دفعة واحدة، إلى الحقب الوسيطة، ومع هيغل أن يعارض الصليبيين بنفس هذه الكلمة من الكتاب المقدس، أو أيضاً - كي يبرهن على الأصالة - أن يقيم توازياً بين دفن بولينيسوس(Polynice) من قبل أنتيغونا ونقل رفات نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة إلى باريس.

ونقرأ بعد قليل:

> "في المسيحية توصف الحقيقة الحرام للروابط العائلية" (المصنفة في الصفحة ٢٢ في عداد "حقائق" الأقدمين) "على أنها لا حقيقة يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن (انجيل مرقص Marc، ١٠: ٢٥)، وكذلك في جميع الأمور" (ص ٢٣).

إن هذه العبارة، التي قلب بها الواقع من جديد رأساً على عقب، يجب أن تقوَّم كما يلي: إن اللاحقيقة الفعلية للروابط العائلية (أنظر بهذا الشأن، بين العديد من الأشياء الأخرى، الوثائق المتوافرة بعد للتشريع الروماني قبل الكنسي) توصف في المسيحية على أنها حقيقة حرام، "وكذلك في جميع الأمور".

إن هذه الوثبة تبين لنا إذن، بصورة بالغة الغزارة كيف أن جاك المغفل، الذي يجهد "للتخلص بأسرع ما يمكن" من التاريخ التجريبي، يوقف الحقائق على رؤوسها، ويجعل من التاريخ المادي نتاجاً لتاريخ الأفكار، "وكذلك في جميع الأمور". فمنذ البداية نطلع فقط على الموقف المزعوم للأقدمين حيال عالمهم؛ إنهم يجعلون، العالم القديم، بوصفهم عقائديين، في تعارض مع عالمهم الخاص، بدلاً من إظهار [*]كيف خلقوا عالمهم الخاص؛ إن مدار البحث هو إذن، علاقة الوعي بالموضوع، بالحقيقة، من دون أي شيء آخر؛ وبالتالي

العلاقة الفلسفية للأقدمين بعالمهم - فبدلاً من التاريخ القديم لدينا تاريخ الفلسفة القديمة، والأكثر من ذلك إنها مجرد الفكرة التي يصنعها القديس ماكس وفقاً لهيغل وفويرباخ.

وهكذا فإن تاريخ اليونان، بما فيه حقبة بيركليس (Périclés)، يرجع إلى صراع بين تجريدات: العقل، الروح، القلب، الوجود الدنيوي، الخ. هؤلاء هم الفرقاء المتجابهون في اليونان، وفي هذا العالم الشبحي الذي يقدم على أنه العالم الإغريقي "يفعل" كذلك أشخاص مجازيون، كالسيدة طهارة القلب مثلاً، وتجد صور صوفية مثل بيلاطس (Pilates) (الذي يجب ألا يفتقد قط حيث يكون ثمة أطفال) مكاناً لها بصورة جدية تماماً جنباً إلى جنب مع تيمون الفيليوسي (Timon le phliasien) .

وبعد أن يقدم لنا القديس ماكس بعض الكشوف المذهلة عن السفسطائيين (Sophists) وسقراط (Socrates) يقفز في الحال إلى الريبيين. وإنه ليكتشف فيهم الفلاسفة الذين اكملوا العمل الذي باشره سقراط. وهكذا فإن فلسفة الإغريق الوضعية التي تعقب السفسطائيين وسقراط مباشرة، وبصورة خاصة العلم الموسوعي لأرسطو (Aristotle)، لا وجود لها على الإطلاق بالنسبة إلى جاك المغفل. إنه يجهد "للتخلص بأسرع ما يمكن" من الفلاسفة الأسبقين ويتعجل الانتقال إلى "المحدثين"، واجداً هذا الانتقال عند الريبيين، والرواقيين، والأبيقوريين. فلنرَ ما في جعبة الأب القديس من خبايا يكشفها عنهم.

> "يريد الرواقيون أن يحققوا المثل الأعلى للرجل الحكيم... الرجل الذي يعرف فن الحياة... ويجدون هذا المثل الأعلى في ازدراء العالم، في حياة من دون تطور حي [...]، من دون تعامل ودي مع العالم، يعني حياة العزلة [...] وليس الحياة مع العالم؛ إن الرواقي وحده يحيا، وكل شيء آخر ميت بالنسبة إليه. وبالمقابل، فإن الأبيقوريين يطلبون حياة فعالة" (ص ٣٠).

إننا نحيل جاك المغفل - الرجل الذي يريد أن يحقق ذاته والذي يعرف فن الحياة - إلى ديوجينوس لايرتوس، وهو واحد من كثيرين؛ ولسوف يجد أن الرجل الحكيم، (Sophos)، ليس عنده سوى الشكل المؤمثل (idéalisée) للرواقي، وليس الرواقي تحقيقاً للرجل الحكيم؛ ولسوف يجد عنده أن الرجل الحكيم ليس الرواقي وحده في أي حال

من الأحوال، بل يصادف بصورة لا تقل عن ذلك بين الأبيقوريين، والأكاديميين الجدد، والريبيين. وبالمناسبة، فإن الرجل الحكيم هو الصورة الأولى التي يجابهنا محب الحكمة(*) الإغريقي بها؛ إنه يمثل في مظهر أسطوري في الحكماء السبعة، وفي مظهر عملي في سقراط، وعلى أنه مثل أعلى بين الرواقيين والأبيقوريين والأكاديميين الجدد والريبيين. ومما لا ريب فيه أن لكل مدرسة من هذه المدارس حكيمها الخاص(**)، بالضبط كما أن للقديس برونو "جنسه الأوحد" الخاص. وفي الحقيقة أن القديس ماكس يستطيع أن يجد "الحكيم"(***) مرة أخرى في القرن الثامن عشر في فلسفة التنوير، وحتى في جان بول في صورة "الحكماء" مثل عمانوئيل(Emmanuel)، الخ. وإن الحكيم الرواقي لا ينطوي في ذهنه في أي حال من الأحوال على "الحياة من دون تطور حي"، بل على حياة فعالة بصورة مطلقة، الأمر الذي ينشأ عن تصوره عن الطبيعة الذي هو تطور هيراقليطسي، ديناميكي، متطور وحي، في حين أن مبدأ تصور الطبيعة عند البقوريين، كما يقول لوكريسيوس (Lucréce)، هو الموت الخالد(****)، الذرة، كما أن الفراغ الإلهي يحل مكان الحياة الفعالة، صائراً مثلاً أعلى يتعارض مع الطاقة الإلهية لأرسطو.

> "إن أخلاق الرواقيين (وهي علمهم الوحيد، لأنهم لم يكونوا قادرين على أن يقولوا شيئاً عن الروح فيما عدا الطريقة التي يجب أن يتصرف بها حيال العالم، ولم يكونوا قادرين أن يقولوا شيئاً عن الطبيعة - الفيزياء - فيما عدا أنه يجب على الحكيم أن يؤكد ذاته ضدها) ليست مذهباً للروح، بل مجرد مذهب يعلن رفض العالم وتأكيد الذات ضد هذا العالم" (ص ٣١).

لقد كان الرواقيون قادرين على أن "يقولوا عن الطبيعة" ما يلي: إن الفيزياء هي أحد العلوم الأهم بالنسبة إلى الفيلسوف، وبنتيجة ذلك فقد بلغ بهم الأمر أن يتجشموا عناء تطوير فيزياء هيراقليطس قدماً؛ ولقد كانوا "فيما عدا ذلك قادرين على أن يقولوا" إن الجمال

(*) Philosophos، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) الكلمة واردة هنا بالإغريقية في النص الأصلي.

(***) "Le Sage"، بالفرنسية في النص الأصلي.

(****) Mors Immortalis، باللاتينية في النص الأصلي.

المذكر[*] هو التصور الأسمى الذي يمكن حصوله عن الفرد، ولقد مجدوا الحياة المتناغمة مع الطبيعة، على الرغم من أن ذلك قادهم إلى التناقضات. وعند الرواقيين تقسم الفلسفة إلى ثلاثة مذاهب: "الفيزياء والأخلاق والمنطق".

"إنهم يشبّهون الفلسفة بالحيوان والبيضة: فالمنطق عظام الحيوان، وأوتاره قشرة البيضة الخارجية؛ والأخلاق لحم الحيوان أو آح البيضة؛ والفيزياء نفس الحيوان أو مح البيضة". (ديوجينوس لايرتوس، زينون[٧٢]).

ويتضح من هذا وحده كم يبعد عن الصواب القول بأن "الأخلاق علم الرواقيين الوحيد". ويجب أن يضاف إلى ذلك أيضاً أنهم كانوا، فضلاً عن أرسطو، المؤسسين الرئيسيين للمنطق الصوري وعلم مناهج البحث.

أما أن "الرواقيين لم يكونوا قادرين على أن يقولوا شيئاً عن الروح" فأمر أبعد ما يكون عن الصواب بحيث نشاهد لديهم الرؤى الأولى؛ ولذا فإن أبيقور، الذي كان يعاملهم بكل سخرية على أنهم "عجائز"، يتخذ حيالهم صورة نصير التنوير، بينما استعار منهم الأفلاطونيون الجدد، على النقيض من ذلك، قسماً من رواياتهم عن الأطياف. إن أصل هذا الممارسات عند الرواقيين يقوم من جهة واحدة، في استحالة إعداد تصور ديناميكي عن الطبيعة من دون المواد التي توفرها العلوم الطبيعية التجريبية وحدها، ومن جهة ثانية، في الجهد الذي يبذلونه من أجل تفسير العالم الإغريقي القديم وحتى الدين بطريقة تأملية وتمثيلها بالروح المفكر.

إن "أخلاق الرواقيين" "مذهب يعلن رفض العالم وتأكيد الذات ضد هذا العالم" حتى درجة بعيدة، بحيث كان يعد من الفضائل الرواقية على سبيل المثال: أن يكون للمرء "وطن قوي وصديق أمين"، وأن "الجميل" وحده قد نودي به على أنه "الخير"، وأن الرجل الحكيم الرواقي مسموح له أن يختلط بالعالم بمختلف الطرق، وأن يرتكب الحرام على سبيل المثال، الخ، الخ. إن الحكيم الرواقي لأسير "حياة من العزلة وليس الحياة مع العالم" حتى درجة حملت زينون على القول:

(*) بالاغريقية في النص الأصلي.

"ألا لا يعجبـن الرجـل الحكيـم مـن أي شـيء يبـدو مثـاراً للعجـب، لكـن الرجـل الفاضـل لـن يعيـش فـي عزلـة، لأنـه بطبيعتـه اجتماعـي ونشـيط فـي الممارسـة" (ديوجينـوس لايرتـوس، الكتـاب السـابع، ١).

وعلـى أي حـال، فأنـه مـن قبيـل المبالغـة أن نطالـب بنشـر أخـلاق الرواقييـن البالغـة التعقيـد والتناقـض فـي سـبيل دحـض هـذه الحكمـة التلميذيـة عنـد جـاك المغفـل.

ولا بـد لجـاك المغفـل أن يسـلم، بصـدد الرواقيـن، بوجـود الرومانييـن أيضـاً ص ٣١)، لكنـه لا يسـتطيع بالتأكيـد أن يقـول عنهـم شـيئاً، لأنـه لـم تكـن لهـم فلسـفة. وإن الشـيء الوحيـد الـذي نسـمعه عنهـم هـو أن هـوراس(Horace) (!) "لـم يتجـاوز حكمـة الرواقييـن الدنيويـة" (ص ٣٢). ذلـك الـذي حياتـه نقيـة الذيـل، الطاهـر مـن الخطيئـة(*).

وبصـدد الرواقييـن، يـرد ذكـر ديموقريطـس(Démocrite) أيضـاً بالطريقـة التاليـة: إنـه ينسـخ عـن كتـاب مـا فقـرة مختلطـة مـن ديوجينـوس لايرتـوس (ديموقريطـس، الكتـاب التاسـع، ٧، ٤٥)، وهـي فضـلاً عـن ذلـك مترجمـة بصـورة مغلوطـة، ويؤسـس عليهـا قدحـاً مطـولاً لديموقريطـس ويتحلـى هـذا القـدح بصفـة مرموقـة، ألا وهـي كونـه فـي تناقـض مباشـر مـع الوثيقـة التـي كانـت أساسـاً، يعنـي مـع الفقـرة الآنفـة الذكـر، المختلطـة والمترجمـة بصـورة مغلوطـة، وهـو يقلـب "طمأنينـة النفـس" [Gemüstruhe] - (ترجمـة شـترنر للكلمـة الإغريقيـة التـي تعنـي فـي الألمانيـة الواطئـة "Wellmuth") إلـى "رفـض العالـم". وواقـع الأمـر أن شـترنر يتوهـم أن ديموقريطـس قـد كان رواقيـاً، لكنـه رواقـي وفقـاً للصـورة التـي يتخليها الأوحـد ووعيـه التلميـذي المبتـذل. وعنـد شـترنر أن "نشـاط ديموقريطـس بأسـره يعـود إلـى الجهـد الـذي يبذلـه مـن أجـل الانفصـال عـن العالـم"، "وبالتالـي مـن أجـل رفـض هـذا العالـم". وإن شـترنر ليسـتطيع بعدئـذ أن يدحـض الرواقييـن فـي شـخص ديموقريطـس. إمـا أن حيـاة ديموقريطـس الزاخـرة بالأحـداث وارتحالاتـه فـي أرجـاء العالـم تشـكل التكذيـب الأشـد لذعـاً لهـذه الفكـرة عنـد القديـس ماكـس؛ وإمـا أن المصـدر الفعلـي الـذي يجـب أن نسـتقي منـه بشـأن فلسـفة ديموقريطـس هـو أرسـطو لا بعـض الأقاصيـص التـي يوردهـا ديوجينـوس لايرتـوس؛ وإمـا أن ديموقريطـس أبعـد مـا يكـون عـن رفض

(*) Integer vitae scelerisque purus، باللاتينية في النص الأصلي.

العالـم، بـل كان علـى النقيـض مـن ذلـك عالمـاً طبيعيـاً تجريبيـاً وأول فكـر موسـوعي بيـن الإغريـق؛ وإمـا أن أخلاقـه المجهولـة علـى وجـه التقريـب تقتصـر علـى بعـض الملاحظـات التـي كتبهـا فيمـا يقـال حيـن أصبـح رجـلاً عجـوزاً متمرسـاً بالأسـفار؛ وإمـا أن تكـون أعمالـه فـي مجـال علـوم الطبيعـة لا يمكـن أن تسـمى فلسـفة إلا تجـاوزاً(*) فحسـب، لأن الـذرة بالنسـبة إليـه، بصـورة متعارضـة مـع أبيقـور(Épicure)، قـد كانـت مجـرد فرضيـة فيزيائيـة، ذريعـة مـن أجـل تفسـير الحقائـق، تمامـاً كمـا هـي فـي التراكيـب الخلائطيـة للكيميـاء الجديـدة (دالتـون وآخـرون) - هـذا كلـه لا يعنـي جـاك المغفـل. إنـه فـي حاجـة إلـى تصـور "أوحـد" عـن ديموقريطـس، فديموقريطـس يتحـدث عـن سـكينة الـروح، وإذن، عـن طمأنينـة النفـس، وإذن، عـن الانطـواء علـى الـذات، وإذن، عـن رفـض العالـم. إن ديموقريطـس رواقـي، وهـو لا يختلـف عـن الفقيـر الهنـدي الـذي يغمغـم "براهمـا" كان يجـب أن تكـون الكلمـة "أوم" (om) إلا كمـا تختلـف الصفـة عـن صيغـة التفضيـل، يعنـي "فـي الدرجـة فقـط".

وإن صاحبنـا ليعـرف عـن الأبيقورييـن قـدر مـا يعـرف عـن الرواقييـن بالضبـط، يعنـي الحـد الأدنـى الإلزامـي لتلميـذ المدرسـة. إنـه يعـارض "المتعـة" الأبيقوريـة "بأتاراكسـيا" (ataraxia)(**) الرواقييـن والريبييـن، غيـر عالـم بـأن هـذه "الأتاراكسـيا" تصـادف أيضـاً عنـد أبيقـور الـذي يضعهـا فـوق "المتعـة" - وبنتيجـة ذلـك فـإن نقيضتـه برمتهـا تتهـاوى أرضـاً. وإنـه ليخبرنـا بـأن الأبيقورييـن "إنمـا يعلمـون موقفـاً حيـال العالـم مختلفـاً "عـن موقـف الرواقييـن؛ ولكـن فليظهرنـا علـى الفيلسـوف (غيـر الرواقـي) فـي "الأزمنـة" القديمـة أو الحديثـة" الـذي لا يفعـل "إلا" هـذا فقـط. وأخيـراً فـإن القديـس ماكـس يغنينـا بقـول مأثـور جديـد للأبيقورييـن: "يجـب أن أخـدع العالـم، لأنـه عـدوي". لـم يكـن معروفـاً عـن الأبيقورييـن حتـى الآن إلا أنهـم عبّـروا عـن أنفسـهم بمعنـى أن العالـم يجـب أن يحـرر مـن الأوهـام، يعنـي أن يحـرر مـن الخـوف مـن الآلهـة، لأن العالـم صديقـي.

وكيمـا نعطـي قديسـنا بعـض الدلائـل علـى الأسـاس الفعلـي الـذي تقـوم عليـه فلسـفة أبيقـور،

(*) per abusum ، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) رباطة الجأش، والاتزان، والجسارة.

يكفـي أن نشـير إلـى أن الفكـرة القائلـة إن الدولـة تقـوم علـى اتفـاق متبـادل بيـن النـاس، علـى عقـد اجتماعـي(*)، تصـادف للمـرة الأولـى عنـد أبيقـور.

وأمـا أن إيضاحـات القديـس ماكـس عـن الريبييـن لا تخـرج عـن هـذا الخـط نفسـه، فهـذا مـا يتضـح سـلفاً مـن حقيقـة أنـه يعتبـر فلسـفتهم أكثـر جذريـة مـن فلسـفة أبيقـور. لقـد أرجـع الريبيـون العلاقـة النظريـة للبشـر بالعالـم إلـى المظهـر الوهمـي، وتركـوا فـي الممارسـة كل شـيء كمـا كان مـن قبـل، مسترشـدين بذلـك المظهـر بقـدر مـا كان الآخـرون يسترشـدون بالأمـر الواقـع؛ كل مـا فعلـوه أنهـم أعطـوه اسـماً آخـر. وأمـا أبيقـور فقـد كان علـى العكـس مـن ذلـك النصيـر الراديكالـي الحقيقـي الوحيـد للتنويـر فـي الأزمنـة القديمـة؛ لقـد هاجـم بصـورة علنيـة الديـن القديـم، وكان فـي أصـل الإلحـاد فـي رومـا بقـدر مـا كان لهـذا الإلحـاد وجـود. ولهـذا السـبب يمجـد لوكريسـيوس أبيقـور علـى اعتبـاره البطـل الـذي كان سـباقاً إلـى الإطاحـة بالألهـة عـن عروشـها وإلـى دوس الديـن بالأقـدام؛ ولهـذا السـبب اشـتهر أبيقـور دائمـاً بيـن جميـع آبـاء الكنيسـة، مـن بلوتـارك إلـى لوثـر، بأنـه الفيلسـوف الملحـد بامتيـاز(**)، وقـد سـمي الخنزيـر؛ ولهـذا السـبب أيضـاً يقـول كليمانـس الاسـكندري أن بولـس الرسـول (Saint Paul) حيـن يهاجـم الفلسـفة فإنمـا يعنـي الفلسـفة الأبيقوريـة وحدهـا (Stromatum، الكتـاب، [الفصـل الحـادي عشـر]، ص ٢٩٥، طبعـة كولونيـا، ١٦٨٨). وإننـا لنـرى مـن هنـا كل مـا كان يبديـه هـذا الملحـد الصريـح مـن "مكـر ونفـاق" و"حـذر" فـي موقفـه حيـال العالـم، هـو الـذي كان يهاجـم مـن دون لـف أو دوران ديانـة حقبتـه، بينمـا كان الرواقيـون يسـتهدفون تكييـف الديـن القديـم، علـى الصعيـد الفلسـفي، وتـذرع الشـاكون "بمظهـره الوهمـي" كـي لا يصـدروا بشـأنه أي حكـم مـن دون أن يصحبـوه دائمـاً ببعـض التحفظـات الذهنيـة(***).

وهكـذا، فـي رأي شـترنر، انتهـى الفكـر الرواقـي أخيـراً إلـى "ازدراء العالـم" (ص ٣٠)،

(*) Contrat Social، بالفرنسية والإغريقية في النص الأصلي.

(**) Par excellence، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) Reservatio Mentalis، باللاتينية في النص الأصلي.

وفكـر أبيقـور إلـى "نفـس الحكمـة العمليـة التـي للرواقييـن" (ص ٣٢)، وفكـر الريبييـن إلـى حيـث "تركـوا العالـم وشـأنه ولـم يأبهـوا لـه البتـة". وهكـذا تنتهـي هـذه الفلسـفات الثلاث، فـي رأي شـترنر، إلـى موقـف اللامبـالاة مـن العالـم، موقـف "ازدراء العالـم" (ص ٤٨٥). ولقـد عبّـر هيغـل عـن ذلـك، قبلـه بوقـت طويـل، بهـذه الطريقـة: إن الرواقيـة والريبيـة والأبيقوريـة "اسـتهدفت إذن، أن تجعـل الفكـر لا مبالياً حيـال جميـع الأشـياء التـي يمكـن للواقـع القائـم تقديمهـا"، تاريـخ الفلسـفة [Geschichte der Philosophie]، (ص ٣٢٧).

ويكتـب القديـس ماكـس، ملخِصـاً نقـده لعالـم الأفـكار القديـم: "مـن الواضـح أنـه كانـت للأقدميـن أفـكار، لكنهـم كانـوا يجهلـون الفكـرة" (ص ٣٠). وبهـذا الصـدد، "فلنتذكـر مـا قلنـاه أعـلاه عـن أفكارنـا الصبيانيـة" (المصـدر نفسـه)،

إن علـى تاريـخ الفلسـفة القديمـة أن يتطابـق مـع محطـات شـترنر. وكيمـا يحتفظ الإغريـق بالدور المعيـن لهـم كأطفـال، فإنـه ينبغـي ألا يكـون أرسـطو قـد عـاش، كمـا ينبغـي ألا نصـادف عنـده مبـادئ الفكـر فـي ذاتـه ومـن أجـل ذاتـه، والعقـل الـذي يفكـر بذاتـه، والفكـر الـذي يفكـر ذاتـه؛ وعلـى العمـوم لا كتابـه الميتافيزيقيـا (metaphysique)، ولا الكتـاب الثالـث مـن مؤلفـه علـم النفـس(psychologie) .

ولقـد كان فـي مقـدور القديـس ماكـس، بمثـل الصـواب الـذي ذكرنـا بـه هنـا "بمـا قيـل أعـلاه عـن طفولتنـا"، أن يقـول بخصـوص "طفولتنـا" مـا يلـي: فليبحـث القـارئ عمـا سـوف يقـال أدنـاه عـن الأقدميـن والزنـوج ومـا لـن يقـال عـن أرسـطو.

وكيمـا يقـدر جـاك المغفـل المغـزى الحقيقـي للفلسـفة القديمـة الأخيـرة إبـان انحـلال العالـم القديـم يكفيـه أن ينظـر إلـى الأوضـاع الفعليـة التـي عاشـها أنصارهـا فـي ظـل الامبراطوريـة الرومانيـة. وإنـه ليسـتطيع أن يجـد، فيمـا يجـده، عنـد لوسـيان وصفـاً مفصـلاً عـن الكيفيـة التـي كان فيهـا النـاس ينظـرون إليهـم علـى أنهـم مهرجـون عامـون، وكيـف كان الرأسـماليون الرومـان وحـكام المقاطعـات الـخ، يسـتأجرونهم علـى أنهـم ماجنـون فـي البـلاط مكلفـون بتسـليتهم؛ وهكـذا بعـد أن يتشـاجروا علـى المائـدة مـع العبيـد علـى بضعـة عظـام وكسـرة مـن خبـز، وبعـد أن يعطـوا

خمرة مُرَّة مدخرة لهم، كان دورهم تسلية سيد الدار وضيوفه بإلقاء بعض الصيغ المضحكة مثل "أتاراكسيا" (Ataraxie) و"أفازيا" (Aphasie)(*)، و"هيدون" (Hédoné)(**)، الخ(***).

وفيما عدا ذلك، فإذا كان هدف رجلنا الطيب أن يجعل تاريخ الفلسفة القديمة تاريخاً للأزمنة القديمة، فقد كان عليه إذن، كنتيجة طبيعية لذلك أن يرى في الأفلاطونيين الجدد مآل الرواقيين والأبيقوريين ووالريبيين، ذلك أن فلسفتهم لا تعدو كونها ترتيباً غريباً من مذاهب الرواقيين والأبيقوريين والريبيين مع مضمون فلسفة أفلاطون وأرسطو. وبدلاً من ذلك، فإنه يدمج هذه المذاهب بصورة مباشرة بالمسيحية(****).

"ليس شترنر" هو الذي "تجاوز" الفلسفة الإغريقية، بل الفلسفة الإغريقية هي التي تجاوزت "شترنر" (أنظر ويغان، ص ١٨٦). فبدلاً من أن يخبرنا كيف تتوصل "الأزمنة القديمة" إلى عالم الأشياء و"تتغلب" عليه، فإن صاحبنا معلم المدرسة الجاهل يجعله يتلاشى بكل لطف في السلام الأبدي بمعونة شاهد من تيمون(Timon) ؛ وإن هذا ليتيح للأزمنة القديمة أن "تبلغ أغراضها" بصورة طبيعية تماماً بقدر ما "يجد الأقدمون أنفسهم"، وفقاً للقديس ماكس، وقد "وضعتهم الطبيعة" في "الجماعية" القديمة، وهو "أمر بديهي جداً، "وتلك سوف تكون خاتمة حديثنا"، إذا ما سميت هذه الجماعة العائلة، الخ، أي ما يسمى "الروابط الطبيعية" (ص ٣٣). إن الطبيعة هي التي تخلق "عالم الأشياء" للأزمنة القديمة،

(*) الحبسة، أي الامتناع عن أي رأي محدود.

(**) المتعة.

(***) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:]... بالضبط مثلما أصبح الأرستقراطيون الفرنسيون، بعد الثورة، معلمي الرقص لأوروبا بأسرها، وسوف يجد اللوردات الإنكليز عامة المكان المناسب لهم في العالم المتحضر كأجراء اصطبلات ومربي كلاب.

(****) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وبالمقابل، كان ينبغي لشترنر أن يبين لنا أن الهلينية قد استمرت في الوجود لفترة طويلة من الزمن حتى بعد انحلال العالم الإغريقي؛ وإن الرومان حققوا بعدها السيطرة العالمية، وما صنعوه بصورة فعلية في العالم، وكيف تطورت الحضارة الرومانية وانحطت، وأخيراً أن الحضارتين الهلينية والرومانية فنيتا، وقد امتصتهما المسيحية على صعيد الأفكار، والغزوات الكبرى على صعيد الوقائع المادية.

وتيمون وبيلاطس (ص ٣٢) هما اللذان دمراه. وبدلاً من أن يصف لنا "عالم الأشياء" الذي يوفر القاعدة المادية للمسيحية، فإنه يغني "عالم الأشياء" هذا ويبتلعه في عالم الروح، في المسيحية.

إن الفلاسفة الألمان قد اعتادوا أن يجابهوا الأزمنة القديمة، على أنها حقبة الواقعية، بالمسيحية والأزمنة الحديثة، على أنها حقبة المثالية، بينما اعتاد الاقتصاديون والمؤرخون ورجال العلم الفرنسيون والإنكليز أن يتصوروا الأزمنة القديمة على أنها مرحلة المثالية، ويجابهونها بمادية وتجريبية الحقب الحديثة. ويمكن بالطريقة ذاتها أن تعتبر الأزمنة القديمة مثالية بقدر ما يمثل الأقدمون في التاريخ المواطن"(*)، رجل السياسة المثالي، في حين أن المحدثين قد انتهوا في التحليل الأخير إلى "البورجوازي" (bourgeois)، هذا الإنسان الواقعي الذي هو صديق التجارة(**)، وإنه ليمكن من جهة ثانية وصف الأزمنة القديمة بالواقعية، لأن الجماعية كانت "حقيقية" بالنسبة إلى الأقدمين، بينما هي "كذبة" مثالية بالنسبة إلى المحدثين. وهكذا فلن تجنى إلا فائدة ضئيلة من جميع هذه المجابهات والإنشاءات التاريخية المجردة.

إن "الشيء الأوحد" الذي نتعلمه من كل هذه اللوحة عن الأقدمين هو أن شترنر، لأنه "يعرف" "أشياء" قليلة جداً عن العالم القديم، فإنه قد "سبرها بصورة أفضل" (راجع ويغان، ص ١٩١).

في الحقيقة أن شترنر هو ذلك "الرجل الطفل" نفسه الذي وردت عنه في رؤيا القديس يوحنا (Saint Jean)، ١٢، ٥، النبوءة القائلة إنه "يرعى جميع الأمم بعصا من حديد". ولقد رأينا كيف هاجم الوثنيين التاعسين بعصا جهله الحديدية. ولن يكون حظ "المحدثين" أفضل في أي حال من الأحوال.

٤ ـ المحدثون

"إذا كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً" (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (Corinthiens، ٥: ١٧) (ص ٣٣).

(*) "Citoyen"، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Ami du commerce، بالفرنسية في النص الأصلي.

إن العالـم القديـم، بواسـطة هـذه الآيـة مـن التـوراة، قـد "مضـى" الآن حقـاً، أو كمـا يريـد القديـس ماكـس أن يقـول فعـلاً "لـم يبـق لـه وجـود"، وهـؤلاء نحـن بقفـزة واحـدة قـد دخلنـا "عالـم الـروح"، العالـم الجديـد، المسـيحي، المراهـق، المغولانـي. ولسـوف نـرى أن هـذا العالـم أيضـاً سـوف "يتلاشـى" فـي فتـرة قصيـرة جـداً مـن الزمـن.

"لقـد قلنـا أعـلاه: "كان العالـم حقيقـة بالنسـبة إلـى الأقدميـن"، كذلـك يجـب أن نقـول هنـا: "الـروح حقيقـة بالنسـبة إلـى المحدثيـن"، لكـن يجـب فـي كلتـا الحاليـن ألا ننسـى أن نضيـف هـذا التحديـد الهـام: "حقيقـة حاولـوا أن يتغلغلـوا مـا وراء لا حقيقتهـا، وقـد انتهـوا إلـى اكتشـافها" (ص ٣٣).

إذا كنـا لا نريـد أن نصنـع مخططـات علـى طريقـة شـترنر، فإنـه "يجـب أن نقـول هنـا": كانـت الحقيقـة روحـاً بالنسـبة إلـى المحدثيـن، ألا وهـي الـروح القـدس . وإن جـاك المغفـل ليتنـاول مـرة أخـرى المحدثيـن هنـا ليـس فـي ارتباطهـم التاريخـي الفعلـي "بعالـم الأشـياء" - الـذي علـى الرغـم مـن أنـه "لـم يبـقَ لـه وجـود" فهـو بـاق مـع ذلـك - بـل فـي سـلوكهم النظـري، والدينـي علـى وجـه الخصـوص. وليـس لتاريـخ الحقـب الوسـيطة والأزمنـة الحديثـة، هـو الآخـر، وجـود بالنسـبة إليـه إلا علـى اعتبـاره تاريـخ الديـن والفلسـفة؛ وإنـه ليؤمـن مخلصـاً بجميـع الأوهـام السـائدة فـي هـذه الحقـب وكذلـك بأوهـام الفلاسـفة عـن هـذه الأوهـام. وهكـذا، فـإذ مـا أسـبغ القديـس ماكـس علـى تاريـخ الحداثييـن الصبغـة نفسـها التـي أسـبغها علـى تاريـخ الأقدميـن، فليـس مـا يمنعـه إذن، عـن أن "يبيـن" فيـه "تطـوراً مماثـلاً لتطـور الأزمـان القديمـة"، وينتقـل مـن الديـن المسـيحي إلـى الفلسـفة الألمانيـة الحديثـة بمثـل سـرعة انتقالـه فيمـا مضـى مـن الفلسـفة القديمـة إلـى الديـن المسـيحي. وفـي الصفحـة ٣٧ يسـم هـو نفسـه أوهامـه التاريخيـة حيـن يكتشـف أن "الأقدميـن لـم يكـن لديهـم مـا يقدمـون لنـا غيـر الحكمـة الدنيويـة"، وأن "المحدثيـن لـم يتجـاوزوا اللاهـوت قـط، اليـوم والأمـس علـى حـد سـواء"، وحيـن يطـرح هـذا السـؤال بـكل وقـار: "مـا الـذي يسـعى المحدثـون إلـى اكتشـافه إذن؟". إن الأقدميـن والمحدثيـن علـى حـد سـواء لا يفعلـون فـي التاريـخ شـيئاً سـوى "السـعي إلـى اكتشـاف شـيء مـا" - فالأقدميـن عالـم الأشـياء، والمحدثيـن عالـم الـروح. وينتهـي الأقدمـون إلـى

"فقدان العالم" والحداثيون "إلى فقدان الروح"؛ ولقد أراد الأقدمون أن يصبحوا مثاليين، والمحدثون أن يصبحوا واقعيين (ص ٤٨٥)، وكان اهتمامهم الوحيد ينصب على الإلهي فقط (ص ٤٨٨) - ليس "التاريخ حتى الوقت الحاضر" سوى "تاريخ الإنسان الروحي" (يا له من وهم!) (ص ٤٤٢) وباختصار- فإن لدينا من جديد الطفل والمراهق، والزنجي والمغولي، وكل المصطلحات الباقية "للتحولات المتنوعة".

إن هذا التعليق يستأنف بصورة أمينة الطريقة التأملية التي تجعل الأولاد ينجبون آباءهم، وتجعل اليوم علة الأمس. فمنذ البداية يجب على المسيحيين أن "يسعوا إلى اكتشاف لا حقيقة حقيقتهم"، يجب أن يكونوا في الحال ملحدين ونقاداً مستترين، كما سبقت الإشارة إليه بشأن الأقدمين. ولكن القديس ماكس، الذي لم يرضه ذلك، يقدم مثالاً لامعاً آخر على "براعته في الفكر" (التأملي) (ص ٢٣٠).

> "والآن، بعدما نادت الليبرالية بالإنسان، يستطيع المرء أن يعلن أن هذه النتيجة ليست سوى الإنجاز الأمين للمسيحية، وإن المسيحية لم تتخذ مهمة أخرى في الأصل سوى... تحقيق الإنسان".

إذا كانت المسيحية حققت إنجازها الأخير فيما يزعم، فإن "المرء" يستطيع بكل تأكيد أن يعلن أن هذا الانجاز تحقق. وحالما يكون المتأخرون قد أعادوا صنع ماضيهم، فإن "المرء يستطيع أن يعلن" أن السابقين "في الأصل"، يعني "في الحقيقة"، في ماهيتهم، في السماء، من حيث هم يهود مستترون، "لم يتخذوا مهمة أخرى" سوى إعادة صنعهم على يد المتأخرين. إن المسيحية بالنسبة إلى جاك المغفل هي الذات التي تفترض ذاتها، الروح المطلق، الذي "في الأصل" افترض نهايته بوصفها بدايته (أنظر الموسوعة لهيغل، الخ).

> "وبالتالي"، (يعني لأن المرء يستطيع أن يعزو هذه المهمة الوهمية إلى المسيحية) "يترتب على ذلك الوهم" (بالطبع، فقبل فويرباخ كان من المحال معرفة أية مهمة "اتخذت المسيحية في الأصل") "إن المسيحية تنسب قيمة لامتناهية إلى الأنا، كما ينجم مثلاً من نظرية الخلود والعناية التي تقفها على

خـلاص النفـس. لا، إنهـا تنسـب هـذه القيمـة إلـى الإنسـان وحـده، فالإنسـان وحـده خالـد، ولأننـي إنسـان، فأنـا لهـذا السـبب وحـده خالـد أيضـاً".

وبالتالـي، فـإذا اتضـح بمـا فيـه الكفايـة مـن كل مخطـط شـترنر وطرحـه للقضايـا أن المسـيحية لا تسـتطيع أن تضفـي الخلـود الأعلـى إلا علـى "إنسـان" فويربـاخ وحـده، فإننـا نعلـم هنـا بالإضافـة إلـى ذلـك أن هـذا إنمـا يحـدث أيضـاً لأن المسـيحية لا تنسـب هـذا الخلـود - إلـى الحيوانـات كذلـك.

فلنحاول مرة أن نفكر على طريقة (*) القديس ماكس.

"والآن، بعدمـا نـادت" الملكيـة العقاريـة الكبيـرة الحديثـة، التـي نشـأت عـن عمليـة تجزئـة الأرض، بحـق البكـر بصـور عمليـة، فـإن "المـرء يسـتطيع أن يعلـن" أن هـذه النتيجـة "ليسـت سـوى الإنجـاز الأخيـر" لتجزئـة الملكيـة العقاريـة، وأن "هـذه التجزئـة" لـم تتخـذ فـي الحقيقـة فـي الأصـل هدفـاً آخـر سـوى تحقيـق" حـق البكـورة،، حـق البكـورة الحقيقـي. "وبالتالـي يترتـب علـى ذلـك الوهـم" أن التجزئـة "تنسـب قيمـة لا متناهيـة" إلـى الحقـوق المتسـاوية لأفـراد العائلـة جميعـاً "كمـا ينجـم مثـلاً" مـن قوانيـن الإرث فـي مدونـة نابوليـون. "لا، إنهـا تنسـب هـذه القيمـة" إلـى الابـن البكـر فقـط: إن الابـن البكـر، المالـك بحـق البكـورة، سـوف يصبـح "وحـده" مالـكاً عقاريـاً كبيـراً، "ولأننـي" الأبـن البكـر، "فأنـا لهـذا السـبب وحـده سـوف أكـون أيضـاً مالـكاً عقاريـاً كبيـراً.

وبهـذه الطريقـة، فإنـه مـن اليسـير بصـورة لا متناهيـة إعطـاء التاريـخ اتجاهـات "فريـدة"، مـا دام الأمـر لا يتطلـب مـن المـرء سـوى وصـف النتيجـة الأخيـرة بالضبـط علـى أنهـا "المهمـة" التـي "اتخذهـا التاريـخ فـي الأصـل فـي الحقيقـة". وبذلـك تكتسـب الأزمنـة السـابقة مظهـراً عجيبـاً لـم يسـبق لـه مثيـل حتـى هـذا الحيـن. إنهـا تحـدث انطباعـاً بـارزاً، مـن دون أن تكلـف نفقـات إنتاجيـة كبيـرة. مثـال ذلـك أنـه يمكـن أن يقـال: إن "المهمـة" الفعليـة التـي "اتخذهـا فـي الأصـل" نظـام الملكيـة العقاريـة قـد كانـت إبعـاد النـاس لإحـلال الخـراف مكانهـم - وهـي نتيجـة اتضحـت أخيـراً فـي اسـكوتلندا، الـخ، أو أن قيـام السـلالة المالكـة الكابيتيـة (capétiens) "اتخـذ فـي الحقيقـة فـي

(*) à la، بالفرنسية في النص الأصلي.

الأصل مهمة" إرسال لويس السادس عشر إلى المقصلة والسيد غيزو إلى الحكم. والأمر الهام أن ينطق المرء بهذه الأقوال المأثورة بلهجة مهيبة، قدسية، كهنوتية، فيسحب نفساً عميقاً، ثم يهتف عالياً على حين غرة: "الآن، أخيراً، يستطيع المرء أن يعلن".

ليس ما يقوله القديس ماكس عن المحدثين في القسم أعلاه (ص ٣٣ - ٣٧) سوى المقدمة إلى تاريخ الروح الذي يجب أن نتطرق إليه هذه الآونة. وإننا لنشاهد ههنا أيضاً كيف يحاول "التخلص بأسرع ما يمكن" من الحقائق التجريبية ويستعرض أمامنا المقولات نفسها كما في حالة الأقدمين - الذكاء، القلب، الروح، الخ - لكن بأسماء أخرى فقط. إنه يستخرج من السفسطائيين المدرسيين المتحذلقين، و"الإنسانية والمكيافيلية" (machiavélisme) (فن الطباعة، العالم الجديد، الخ)؛ راجع كتاب هيغل فلسفة التاريخ (III، ص ١٢٨) الذين يمثلون الذكاء؛ ويحول سقراط إلى لوثرالذي يمجد القلب (هيغل، المصدر ذاته، ص ٢٢٧)، وأما مرحلة ما بعد الإصلاح فنعلم عنها أن فحواها كانت "عاطفية فارغة" (سميت في القسم عن الأقدمين "نقاوة القلب"، راجع هيغل، المصدر ذاته، ص ٢٤١). وهذا كله (في الصفحة ٣٤). وبهذه الطريقة "يثبت" القديس ماكس "في المسيحية اتجاهاً للتطور مماثلاً لاتجاه الأزمنة القديمة". وبعد لوثر لا يتجشم مطلقاً عناء إعطاء الأسماء لمقولاته؛ إنه يحث الخطى في حذاء عملاق إلى الفلسفة الألمانية الحديثة. إن أربعة تراكيب ("حتى لا يتبقى شيء سوى العاطفة الفارغة، ومحبة الجنس البشري في شكلها العام، وحب الإنسان، ووعي الحرية، والوعي الذاتي"، ص ٣٤، هيغل، المصدر ذاته، ص ٢٢٨، ٢٢٩)، أربع كلمات تكفي لملء الهوة التي تفصل بين لوثر وهيغل، و "بهذه الطريقة وحدها تكتمل المسيحية". وإن هذه العبارة البارعة التي تشتمل على رافعات من نمط "أخيراً- "ومنذ ذلك الحين" - "ما دام المرء"- "كذلك" - "من يوم إلى آخر" - "حتى أخيراً"، الخ، تكفي للتخلص من ذلك التطور بأكمله، وهي عبارة يستطيع القارئ أن يتحقق منها شخصياً في الصفحة ٣٤ الآنفة الذكر التي باتت بعد الآن صفحة كلاسيكية.

وأخيراً يقدم لنا القديس ماكس أيضاً بعض النماذج عن إيمانه؛ إنه لبعيد جداً عن أن يحمّر خجلاً من الإنجيل بحيث يستطيع أن يؤكد: "إننا نحن وحدنا الروح فعلياً ويؤكد من دون أن يتراجع عن رأيه مطلقاً أن "الروح" في نهاية العالم القديم، "بعد جهود طويلة"، قد

"تخلص من العالم" بصورة فعلية. وإنه ليفضح ههنا مرة أخرى سر تراكيبه التأملية حين يقول عن الروح المسيحي إنه "يضع الخطط من أجل تحسين العالم أو إنقاذه، كما يفعل المراهقون". هذا كله في الصفحة ٣٦.

"فمضى بي بالروح إلى برية فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزي مملوء أسماء تجديف... وعلى جبهتها اسم مكتوب: السر، بابل العظيمة... ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين"، الخ (رؤيا القديس يوحنا، ١٧، ٣، ٥، ٦).

إن نبوءة القديس يوحنا لم تصح هذه المرة. الآن أخيراً، بعدما نادى شترنر بالإنسان، يستطيع المرء أن يعلن أنه كان عليه أن يصوغ نبوءته كما يلي: ومضى بي إلى برية الروح. ورأيت رجلاً جالساً على وحش قرمزي، مملوء تجديف أسماء... وعلى جبهته اسم مكتوب: السر، الأوحد... ورأيت الرجل سكراناً من دم القديس، الخ.

وهكذا نسقط الآن في برية الروح.

١ ـ الروح (تاريخ الأرواح النقي)

إن أول شيء نعلمه عن الروح هو أنه ليس الروح بل "ملكوت الأرواح الشاسع الأبعاد" (le royaume des esprits qui est immeusément graud). وليس لدى القديس ماكس ما يقوله في الحال عن الروح سوى أن ثمة "ملكوتاً للأرواح شاسع الأبعاد" - بالضبط كما أن كل ما يعرفه عن الحقب الوسيطة هو أنها "مرحلة طويلة من الزمن". وبعدما افترض بصورة مسبقة وجود "ملكوت الأرواح" هذا، فأنه يبرهن على وجوده بصورة تالية بواسطة الموضوعات العشر التالية:

١ ـ ليس الروح روحاً حراً ما دام معنياً بذاته وحدها، ما دام "اهتمامه الوحيد" عالمه الخاص، العالم "الروحي" (أولاً ذاته وحدها ومن بعد عالمه الخاص).

٢ ـ "ليس هو روحاً حراً إلا في عالم خاص به".

٣ ـ "ليس الروح روحاً فعلياً إلا بواسطة عالم روحي".

٤ ـ "ليس الروح روحاً ما دام لم يخلق عالمه من الأرواح".

٥ ـ "مخلوقاته تجعله روحاً".

٦ ـ "مخلوقاته هي عالمه".

٧ ـ "الروح خالق عالم روحي".

٨ ـ "ليس الروح روحاً إلا عندما يخلق الروحي".

٩ ـ ليس هو واقعياً إلا جنباً إلى جنب مع الروحي الذي هو خليقته".

١٠ ـ "لكن أعمال الروح أو ذريته ليست شيئاً آخر سوى – أرواح" (ص ٣٨ – ٣٩).

إنـه ليفتـرض بصـورة مسبقة منـذ الموضوعـة الأولـى، مـرة أخـرى، أن "العالـم الروحـي" موجـود، بـدلاً مـن البرهـان علـى وجـوده، ولا تفعـل الموضوعـات الثانيـة حتـى التاسـعة سـوى اجتـرار تلـك الموضوعـة الأولـى فـي ثمانـي روايـات مختلفـة. وفـي نهايـة الموضوعـة التاسـعة نجـد أنفسـنا حيـث كنـا بالضبـط فـي نهايـة الموضوعـة الأولـى - ومـن ثـم، فـي الموضوعـة العاشـرة، تدخلنـا "لكـن" بصـورة مفاجئـة إلـى "الأرواح" التـي لـم يقـل عنهـا شـيئاً حتـى الآن.

"مـا دام الـروح لا يوجـد إلا بقـدر مـا يخلـق الروحـي، فلنبحـث إذن، حوالينـا عـن مخلوقاتـه الأولـى" (ص ٤٠).

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن الـروح وفقـاً للموضوعـات الثالثـة والرابعـة والخامسـة والثامنـة والتاسـعة هـو خليقتـه الخاصـة. وهـذا مـا يعبـر عنـه حاليـاً كمـا يلـي: إن الـروح، يعنـي الخليقـة الأولـى للـروح،

"يجـب أن ينشـأ مـن العـدم"- "يجـب أن يخلـق نفسـه بـادئ الأمـر"- "خليقتـه الأولـى هـي ذاتـه، الـروح" (المصـدر نفسـه). "وحيـن ينهـي هـذا العمـل الخـلاق يترتـب علـى ذلـك بـدءاً مـن ذلـك الحيـن تكاثـر طبيعـي للمخلوقـات بالضبـط كمـا أنـه، وفقـاً للأسـطورة، لـم تكـن ثمـة حاجـة إلـى خلـق الكائنـات البشـرية الأولـى، وقـد تكاثـرت الأجيـال التاليـة للجنـس البشـري مـن نفسـها إذن" (المصـدر نفسـه).

"ومهمـا تـردد صـدى ذلـك بصـورة صوفيـة، فإنـه حقيقـة نختبرهـا مـع ذلـك فــي الحيــاة اليوميــة. أتكــون أنــت نفســك شــخصاً مفكــراً قبــل أن تفكــر؟ حيــت تخلـق فكرتـك الأولـى تخلـق نفسـك بوصفـك كائنـاً مفكـراً، ذلـك لأنـك لا تفكـر حتـى

تفكر فكرة، يعني" - يعني - "تكون لك هذه الفكرة. أليس غناؤك وحده هو الذي يجعل منك مغنياً، والكلام الذي تنطق به هو الذي يجعل منك إنساناً ناطقاً؟ كذلك فإن الجوهر الروحي الذي هو وحده الذي يجعلك روحاً".

إن ساحرنا القديس يبدأ بأن يفترض أن الروح يخلق الجوهر الروحي كيما يستخلص من ذلك أن الروح يخلق ذاته على أنه روح؛ ومن جهة ثانية، فإنه يفترضه على أنه روح كيما يمنحه فرصة الوصول إلى مخلوقاته الروحية؟ التي ("وفقاً للأسطورة تتكاثر من تلقاء ذاتها" وتصبح أرواحاً). وحتى الآن كانت جميع هذه العبارات هي العبارات الهيغلية المستقيمة المألوفة منذ زمن طويل. وإن العرض الأصيل "الأوحد" لما يريد القديس ماكس قوله لا يبدأ إلا مع المثال الذي يعطيه. وبالفعل، فحين لا يستطيع جاك المغفل أن يمضي إلى أبعد من ذلك، وحين يعجز "المرء" و"ذلك" عن تعويم سفينته الجانحة، فإن "شترنر" يدعو عبده الثالث ليمد له يد العون، وذلك هو "أنت" الذي لا يتخلى عنه في المآزق مطلقاً والذي يستطيع الاعتماد عليه حتى في أحلك الأزمنة. وإن "أنت" هذا امرؤ لسنا نصادفه للمرة الأولى، عبد وديع أمين رأيناه يتجشم المصاعب الشاقة، عامل في كرم (vigne) سيده، وهو لا يخاف شيئاً على الإطلاق... وباختصار فإنه شيليغا[*]. وحين يكون "شترنر" في أشد المآزق حرجاً في عرضه يهتف: النجدة، يا شيليغا! فإذا بشيليغا هذا، مثله كمثل إيكارت (Eckart)[٧٣] المخلص، يسرع ليضع كتفه في الحال على العجلة ويخرج العربة من الوحل. ولسوف نقول المزيد فيما بعد عن علاقة القديس ماكس بشيليغا.

إن المقصود إذن، روح يخلق ذاته من العدم وبالتالي عدم يجعل نفسه روحاً من العدم. هكذا يعمد القديس ماكس إلى خلق روح شيليغا انطلاقاً من شيليغا. ومن ذا غير شيليغا يستطيع "شترنر" أن يعتمد عليه في إحلال نفسه محل العدم بالطريقة المشار إليها أعلاه؟ من ذا يمكن أن ينخدع بمثل هذه الشعوذة غير شيليغا الذي يشعر بأنه قد حصل على شرف

(*) راجع العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي حيث عرضت من قبل المآثر السابقة لرجل الله هذا.

رفيع إذ أتيح له أن يظهر بوصفه بطلاً من أبطال المأساة(*)؟ ولم يكن على القديس ماكس أن يبرهن على أن "أنت" معيناً، يعني شيليغا بالذات، يصبح كائناً مفكراً وناطقاً ومغنياً منذ اللحظة التي يبدأ فيها بالتفكير والنطق والغناء - لقد كان عليه أن يبرهن على أن المفكر يخلق ذاته من العدم إذ يباشر التفكير، وأن المغني يخلق ذاته من العدم إذ يباشر الغناء، الخ. على أن الفكر والغناء، بوصفهما موضوعين، هما اللذان يخلقان ذاتيهما من العدم إذ يباشران التفكير والغناء. وفيما عدا ذلك، فإن "شترنر لا يفعل سوى تقديم ملاحظة بسيطة جداً ولا يتفوه إلا بموضوعة "مبتذلة جداً (أنظر ويغان، ص ١٥٦) حين يقول: إن شيليغا يطور إحدى صفاته بتطويره إياها. ومن المؤكد أنه ليس هناك شيء "يثير العجب" على الإطلاق في أن القديس ماكس لا "يقدِّم" حتى بصورة مضبوطة "ملاحظات بسيطة من هذا النمط"، بل يتفوه بها بصورة مغلوطة كيما يتمكن بذلك من البرهان على موضوعات أشد خطراً أيضاً بمساعدة المنطق الأعظم خطراً في العالم.

أنه لبعيد عن الصواب أنني أصنع نفسي "من العدم"، على سبيل المثال كائناً "ناطقا"، ذلك أن العدم الذي يشكل الأساس هنا هو شيء متعدد الجوانب: الفرد الفعلي، أعضاء النطق عنده، ومرحلة معينة من التطور البدني، واللغة واللهجات القائمة، وآذان قمينة تسمع، وبيئة إنسانية تصدر أصواتاً مسموعة، الخ، الخ. وبالتالي فإنه في تطور خاصية معينة يخلق شيئاً ما انطلاقاً من شيء وبفعل شيئاً ما ولا يأتي في أي حال من الأحوال، كما هو الأمر في المنطق الهيغلي، من العدم عبر العدم إلى العدم.

والآن، وقد أصبح شيليغا الأمين في متناول يد القديس ماكس، فإن الأمور جميعاً تتقدم بكل نشاط. ولسوف نرى كيف يحوّل من جديد، بواسطة "أنت" الخاص به، الروح إلى المراهق، بالضبط كما حوّل من قبل المراهق إلى روح؛ ولسوف نصادف هنا من جديد كل تاريخ المراهق يتكرر كلمة فكلمة على وجه التقريب، مع بعض التعديلات التمهيدية فحسب، بالضبط كما أن "ملكوت الأرواح الشاسع الأبعاد" للصفحة ٣٧ لم يكن شيئاً آخر سوى "ملكوت الروح" الذي كان روحاً "يستهدف" تأسيسه وتوسيعه (ص ١٧).

(*) Dramatis Personnae، باللاتينية في النص الأصلي.

وبالضبط كما تميز أنت نفسك على أية حال من الكائن المفكر والمغني والناطق، كذلك أنت تميز نفسك بصورة لا تقل عن ذلك من الروح وتحس بيقين تام أنك شيء آخر غير الروح. ومهما يكن من أمر، فبالضبط كما أن الرؤية والسمع يخونان بسهولة الأنا المفكر في حماسة التفكير، كذلك أخذك الروح أنت أيضاً، وأنت الآن تطمح بكل قواك كي تصبح روحاً كلياً ومندمجاً بالروح. إن الروح مثلك الأعلى، الهدف الذي لم يتم بلوغه، شيء من العالم الآخر: الروح يعني - إلهك. "الله روح"... وأنك لتثور ضد نفسك، أنت الذي لا تستطيع التخلص من بقية من اللاروحي . وبدلاً من أن تقول: أنا أكثر من روح، فإنك تقول منسحق الفؤاد: أنا أقل من روح، وكل ما أستطيعه هو تصور الروح، الروح النقي، أو الروح الذي ليس هو شيئاً غير روح، لكنني لست هو، وما دمت لست هو، فهو إذن آخر، وهو موجود على أنه آخر، وهذا الآخر اسميه "الله".

بعدما شغلنا أنفسنا من قبل لزمن طويل بالحيلة التي تستقيم في استخراج شيء من العدم، نأتي الآن على حين غرة، "بصورة طبيعية" تماماً، إلى فرد هو شيء آخر غير الروح، وبنتيجة ذلك فهو شيء ما، ويريد أن يصبح روحاً نقياً، يعني لا شيئاً. إن القضية الأيسر جداً على الحل، يعني تحويل شيء ما إلى لا شيء، تطرح من جديد كل قصة المراهق الذي "لا بد له من أن ينشد الروح الكامل"، ولا يحتاج المرء لأكثر من تكرار العبارت القديمة الواردة في الصفحتين ١٧- ١٨ كي يتملص من جميع المصاعب، وعلى الأخص حين يكون للمرء خادم مطيع وساذج جداً مثل شيليغا، يستطيع "شترنر" أن يفرض عليه فكرة أنه بالضبط كما أن "الرؤية والسمع يخونانه بسهولة"، هو شترنر، "في حماسة التفكير"، كذلك هو شيليغا قد "أخذته حماسة الروح"، وهو شيليغا "يطمح بكل قواه كي يصبح روحاً"، بدلاً من أن يطمح لاكتساب الروح، يعني أن عليه الآن أن يلعب دور المراهق كما ورد في الصفحة ١٨. ويؤمن شيليغا بذلك، ويطيع وفرائصه ترتعد خوفاً؛ إنه يطيع عندما يرعد القديس ماكس فيه: إن الروح مثلك الأعلى- إلهك. إفعل هذا من أجلي، إفعل ذاك من أجلي. تارة "أستبسل"، وتارة "أتكلم"، وتارة أخرى "تستطيع أن تتصور" الخ. وحين يفرض "شترنر" عليه فكرة أن "الروح النقي هو آخر، لأنه" (هو شيليغا)، "ليس هذا الروح"، فإن شيلغيا في

الحقيقـة هـو وحـده القـادر عندئـذ علـى تصديقـه، وهـو يهـرف بـكل هـذا الهـراء بعـده، كلمـة فكلمـة. وبالمناسـبة، فـإن الطريقـة التـي يصنـع بهـا جـاك المغفـل كل هـذا الهـراء قـد حللـت مـن قبـل بصـورة مفصلـة بخصـوص المراهـق. فمـا دمـت تشـعر بصـورة أكيـدة تمامـاً أنك شـيء آخر غيـر العالـم الرياضي، فإنـك تطمـح كـي تصبـح عالمـاً رياضيـاً بصـورة كليـة، كـي تندمـج فـي الرياضيـات، والعالـم الرياضـي مثلـك الأعلـى، العالـم الرياضـي إلهـك. وإنـك لتقـول منسـحق الفـؤاد: أنـا أقـل مـن عالـم رياضـي، وكل مـا أسـتطيعه هـو تصـور العالـم الرياضـي، ومـا دمـت لسـت هـو، فهـو إذن آخـر، وهـو موجـود علـى أنـه آخـر، وهـذا الآخـر أسـميه "اللـه". إن امـرئً آخـر فـي مـكان شـيليغا سـوف يقـول: أراغـو[٧٤].

"الآن، أخيـراً، بعدمـا" أثبتنـا أن موضوعـة شـترنر ليسـت سـوى تكـرار "للمراهـق"، "يسـتطيع المـرء أن يعلـن" أنـه "فـي الحقيقـة لـم يتخـذ فـي الأصـل مهمـة أخـرى" غيـر توحيـد روح النسـك المسـيحي مـع الـروح عامـة، وتوحيـد الظـرف الروحـي والطائـش للقـرن الثامـن عشـر علـى سـبيل المثـال مـع العـدم الروحـي للمسـيحية.

وبالتالـي فليسـت حقيقـة أن "الأنـا والـروح اسـمان مختلفـان لشـيئين مختلفيـن، وأن الأنـا ليسـت الـروح، والـروح ليـس الأنـا" (ص ٤٢) هـي التـي تفسـر أن الـروح يقيـم فـي العالـم الآخـر، يعنـي أنـه اللـه كمـا يزعـم شـترنر. إن التفسـير هـو هـذه "الحماسـة الروحيـة" المعـزوة مـن دون سـبب البتـة إلـى شـيليغا، وإن هـذه الحماسـة لتجعـل منـه ناسـكاً، يعنـي رجـلاً يريـد أن يصبـح اللـه (الـروح النقـي)، وبمـا أن هـذا أمـر مسـتحيل، فإنـه يفتـرض اللـه خارجـاً منـه. لكـن ألـم يكـن الغـرض إثبـات كيـف أن الـروح يبـدأ بـأن يخلـق ذاتـه مـن العـدم، كـي يخلـق فيمـا بعـد الأرواح انطلاقـاً مـن ذاتـه؟ وبـدلاً مـن ذلـك، فـإن شـيليغا هـو الـذي ينتـج الآن اللـه (الـروح الأوحـد موضـع البحـث هنـا) ليـس لأنـه، هـو شـيليغا، الـروح، بـل لأنـه شـيليغا، يعنـي روحـاً ناقصـاً، روحـاً غيـر روحـي، وبالتالـي الـلاروح. بيـد أن القديـس ماكـس لا ينطـق بكلمـة واحـدة عـن كيفيـة قيـام التصـور المسـيحي للـروح علـى أنـه اللـه، علـى الرغـم مـن أن هـذا ليـس بعـد الآن مأثـرة فـذة: إنـه يفتـرض وجـود هـذا التصـور بصـورة مسـبقة، ويقـوم هـذا الافتـراض مقـام التفسـير عنـده.

إن تاريخ خلق الروح "لم يتخذ في الحقيقة في الأصل مهمة أخرى" غير نقل معدة شترنر إلى ما بين النجوم.

"بالضبط لأننا لسنا الروح الذي يقيم في داخلنا، لهذا السبب بالذات لا بد لنا أن"

"بالضبط لأننا لسنا عضو الهضم الذي يقيم في داخلنا، لهذا السبب بالذات لا بد لنا أن"

"نضعه في الخارج من أنفسنا؛ إنه لم يكن نحن، وبالتالي فإننا لم نكن نستطيع أن نتصوره على أنه موجود إلا في الخارج من أنفسنا، ما وراءنا، في العالم الآخر" (ص ٤٨).

لقد كانت القضية إثبات كيف يبدأ الروح بأن يخلق ذاته ومن بعد يخلق شيئاً ما غير ذاته انطلاقاً من ذاته؛ ولقد كان السؤال: ما هو هذا الشيء الآخر؟ ولا يعطى أي جواب عن هذا السؤال، لكن شترنر يقلبه على سائر وجوهه بحيث يتحول بعد "مختلف أنواع التحولات" والالتواءات الواردة الذكر أعلاه إلى هذا السؤال الجديد:

"إن الروح شيء ما غير الأنا. لكن، ما هو هذا الشيء الآخر؟" (ص ٤٥).

وبالتالي فإن السؤال يطرح الآن كما يلي: ما الروح الذي غير الأنا؟ بينما كان السؤال الأصلي كما يلي: ما الروح الذي هو غير ذاته من جراء خلقه من العدم؟ وبهذا يثب القديس ماكس إلى "التحول" التالي.

٢ - الممسوسون (تاريخ الأرواح الدنس)

لم يفعل القديس ماكس حتى الآن، بصورة لا شعورية، سوى إعطائنا طريقة من أجل رؤية الأرواح، وذلك بتصور العالمين القديم والحديث على أنهما مجرد "صورة جسدية لروح"، على أنهما ظاهرة شبحية لم يكن فيها إلا صراعات الأرواح. وعلى أية حال، فإنه يعطينا الآن بصورة شعورية، وعمداً[*]، طريقة من أجل رؤية الأشباح.

طريقة من أجل رؤية الأشباح. يجب قبل كل شيء أن يتحول المرء إلى أحمق صرف،

(*) Ex professo، باللاتينية في النص الأصلي.

يعني يتخيل نفسه أنه شيليغا، ومن بعد يخاطب نفسه، كما يخاطب القديس ماكس شيليغا هذا بالذات: "أنظر حواليك في العالم وقل أنت نفسك ما إذا كنت لا تحس روحاً يتطلع إليك من سائر الجهات!". إذا استطاع المرء أن يحمل نفسه على تخيل ذلك، فإن الأرواح سوف تتراكض "بسهولة" إذن، من تلقاء نفسها؛ لا يرى المرء في "الزهرة" إلا "الخالق"، ولا يرى في الجبال إلا "روح الشموخ"، ولا يرى في الماء إلا "روح الحنين"، إن لم يكن حنين الروح، والمرء يسمع كيف "تتحدث ملايين الأرواح من خلال أفواه الناس". إذا ما بلغ المرء هذه المرحلة، فإنه يستطيع أن يهتف مع شترنر: "أجل، إن العالم أجمع يغص بالأشباح"، ومن ثم "ليس من الصعب المضي قدماً إلى الروح" (ص ٩٣) حيث يند عن المرء هذا الهتاف الآخر: "يغص فقط؟ كلا، فالعالم نفسه شبح" (ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا، لأن كل شيء آخر من الشيطان، يعني تحولاً منطقياً). "تلك هي أشكال الظواهر المتنوعة التي يرتديها الروح، إنها شبح". وبعد ذلك، من دون خوف، "أنظر حواليك أو مد بصرك إلى الأفق، فأنت مطوق بعالم من الأشباح... إنك ترى أرواحاً". إذا كنت شخصاً عادياً يمكنك أن ترضى بذلك، لكن إذا كنت تفكر في أن تضع نفسك في مصاف شيليغا، فإنك تستطيع إذن، أن تنظر في نفسك أيضاً، وعندئذ "يجب ألا تدهش" إذا اكتشفت أيضاً في هذه الظروف من أعالي الشيليغانية أن "روحك أيضاً شبح يسكن جسدك" وأنك أنت نفسك شبح "ينتظر بفارغ الصبر الخلاص، يعني روحاً". وإن هذا الاكتشاف يتيح لك أن ترى "الأرواح" و"الأشباح" في "جميع" الناس، وعندئذ فإن رؤية الأرواح "تبلغ هدفها الأخير" (ص ٤٦- ٤٧).

إننا نجد أساس هذا الطريقة، لكن في صياغة أصح بما لا يقاس، عند هيغل: تاريخ الفلسفة (Geschichte der Philosophie III، ص ١٢٤، ١٢٥ وغيرها من الصفحات).

وإن لدى القديس ماكس إيماناً عظيماً بطريقته الخاصة بحيث يتحوّل هو نفسه بنتيجة ذلك إلى شيليغا، ويؤكد أنه:

"منذ أصبحت الكلمة جسداً، تحول العالم إلى روح، صار مسحوراً، فهو شبح" (ص ٤٧).

إن "شترنر" "يشاهد الأرواح".

إن في نية القديس ماكس أن يقدم لنا علم ظواهر الفكر المسيحي، لكنه على طريقته المعهودة لا يتناول إلا مظهراً واحداً من المسألة، فبالنسبة إلى المسيحي لم يحوّل العالم إلى روح فحسب، بل لقد جعل كذلك في اغتراب عن الروح كما يعترف هيغل مثلاً بصواب تام في الفقرة المذكورة، حيث يجعل كلا هذين المظهرين في علاقة متبادلة، الأمر الذي كان على القديس ماكس أن يفعله هو الآخر لو كانت لديه الرغبة في تطبيق طريقة تاريخية.وأما في معارضة اغتراب العالم عن الروح في الوجدان المسيحي، فإنه يمكن بما لا يقل عن ذلك صواباً اعتبار الأقدمين "الذين شاهدوا الآلهة في كل مكان" على أنهم دعاة تسويغ روحنة العالم - وهو تصور يرفضه جدلينا القديس مع هذا التحذير الحسن النية: "إن الآلهة، يا عزيزي الرجل الحداثي، ليست أرواحاً" (ص ٤٧). إن ماكس المؤمن لا يعترف إلا بالروح القدس وحده على أنه روح.

لكنه حتى إذا زودنا بعلم الظواهر هذا (وهو أمر نافل تماماً بعد هيغل)، فإنه لن يكون على أية حال قد زودنا بأي شيء على الإطلاق. إن وجهة النظر التي تحمل البشر على القبول بمحتوى مثل هذه الأقاصيص عن الأرواح هي ذاتها وجهة نظر دينية لأن البشر الذين يتخذونها مستكينين للدين، وهم يعتبرون الدين سبباً في ذاته[*] لأن كلا "الوعي الذاتي" و"الإنسان" لا يزالان هما أيضاً من طبيعة دينية)- بدلاً من تفسيره انطلاقاً من الشروط التجريبية وبيان كيف أن علاقات معينة للصناعة والتجارة ترتبط بالضرورة بشكل معين للمجتمع، وبالتالي بشكل معين للدولة، وبالتالي بشكل معين للوعي الديني. ولو أن شترنر نظر إلى تاريخ الحقب الوسيطة الفعلي لكان في إمكانه أن يجد لماذا اتخذ المفهوم المسيحي عن العالم هذا الشكل بالضبط في الحقب الوسيطة، وكيف حدث أن انتقل في وقت لاحق إلى شكل مختلف؛ كان في إمكانه أن يكتشف أنه ليس "للمسيحية" تاريخ مطلقاً وأن جميع الأشكال المتباينة التي اتخذها تصورها في أزمنة مختلفة لم تكن "تقريرات مصير" و"تطورات لاحقة" "للروح الديني"، بل نجمت عن أسباب تجريبية كلياً ليست رهناً في أي حال من الأحوال بأي تأثير للروح الديني.

(*) Causa Sui، باللاتينية في النص الأصلي.

وما دام شترنر "لا يمضي بمثل دقة الساعة" (ص ٤٥)، فإنه يمكن إذن، أن يقال هنا منذ الآن، قبل معالجة رؤية الأرواح بمزيد من التفصيل، إن "التحولات" المتنوعة لإنسان شترنر وعالمه لا تعدو كونها التاريخ العالمي الذي صب في قالب الفلسفة الهيغلية، التاريخ العالمي المتحول إلى أشباح ليست هي "وجوداً آخر" لأفكار الأستاذ البرليني إلا بصورة ظاهرية. إن علم الظواهر، التوراة الهيغلية، "الكتاب"، يبدأ بأن يجعل من الأفراد "الوعي" [و] من العالم "الموضوع"، وبذلك فإن التنوع المتعدد الأشكال للحياة والتاريخ يرجع إلى علاقات متنوعة "للوعي" تجاه "الموضوع". وإن هذه الأشكال الوجودية المتنوعة لترجع بدورها إلى ثلاث علاقات أساسية:

١- علاقة الوعي بالموضوع من حيث هو الحقيقة، أو بالحقيقة من حيث هي مجرد موضوع (مثال ذلك الوعي الحسي، والدين الطبيعي، والفلسفة الإيونية[٧٥]، والكاثوليكية، والدولة المتسلطة، الخ)؛

٢- علاقة الوعي، من حيث هو الحقيقة، بالموضوع (العقل، الدين الروحي، سقراط، البروتستانتية، الثورة الفرنسية)؛

٣- العلاقة الحقيقية للوعي بالحقيقة من حيث هي موضوع، أو بالموضوع من حيث هو حقيقة (الفكر المنطقي، الفلسفة التأملية، الروح لذاته).

وبهذه الطريقة يتصور هيغل العلاقة الأولى على أنها الله الأب، والعلاقة الثانية على أنها المسيح، والعلاقة الثالثة على أنها الروح القدس، الخ. ولقد استخدم شترنر من قبل هذه التحولات عند الحديث عن الطفل والمراهق، عن القديم والحديث، وهو يستأنفها فيما بعد بصدد الكاثوليكية والبروتستانتية، والزنجي والمغولي، الخ، وهذا هو الآن يتبنى بكل نية صادقة هذه السلسلة من تمويهات فكرة، معتبراً إياها العالم الذي لا بد له، هو "الفرد الموهوب جداً"، أن يؤكد ذاته ضده ويحافظ عليها.

الطريقة الثانية من أجل رؤية الأرواح. كيف السبيل إلى تحويل العالم إلى شبح للحقيقة، وتحويل الذات إلى كائن مكرس أو شبحي؟ حوار بين القديس ماكس وخادمه شيليغا (ص ٤٧، ٤٨).

القديس ماكس: "إن لك روحاً، لأن لك أفكاراً. ما هي أفكارك؟".

شيليغا: "كائنات روحية".

القديس ماكس: "فهي ليست أشياء إذن؟".

شيليغا: "كلا، بل هي روح الأشياء، الشيء الجوهري في جميع الأشياء، ماهيتها الأعمق، فكرتها".

القديس ماكس: "فما تفكره ليس هو إذن، مجرد فكرتك؟".

شيليغا: "على النقيض من ذلك، فهو الشيء الأكثر واقعية، الشيء الحقيقي الوحيد في العالم؛ إنه الحقيقة عينها؛ يكفيني أن أفكر بصورة حقيقية كي أفكر الحقيقة، وقد أخطئ على نحو لا يمكن إنكاره بشأن الحقيقة وأخفق في إدراكها، لكنني حين أدركها بصورة حقيقية، فإن موضوع إدراكي هو الحقيقة إذن".

القديس ماكس: "وهكذا فأنت تطمح في كل حين إلى إدراك الحقيقة".

شيليغا: "إن الحقيقة مقدسة عندي... ولا أستطيع إلغاء الحقيقة؛ في الحقيقة أؤمن، ولذا فأنا أستقصي عميقاً فيها؛ وليس في الإمكان تجاوزها، فهي أبدية. إن الحقيقة مقدسة، أبدية، إنها المقدس، الأبدي".

القديس ماكس: (باستياء): "لكنك أنت، إذا ما أصبحت مرة مليئاً بهذه القداسة، فإنك تصبح أنت نفسك مقدساً!".

وهكذا، فعندما يدرك شيليغا بصورة حقيقية موضوعاً، فإن الموضوع يكف عن كونه موضوعاً ويصبح "الحقيقة". ذلك هو الإنتاج الأول للأشباح على نطاق واسع-. فليس المقصود بعد الآن إدراك الموضوعات، بل إدراك الحقيقة: فأولاً يدرك الموضوعات بصورة حقيقية، الأمر الذي يعرِّفه على أنه حقيقة الإدراك وتتحول بعدها إلى إدراك الحقيقة. إن تهديدات القديس ماكس قد حملت شيليغا إذن، على ازدراد هذا التصور للحقيقة الشبح، وهذا سيده المتجهم يطارده الآن ويطرح عليه هذه المشكلة الضميرية، ما إذا كان ممتلئاً "في كل حين" بالحنين إلى الحقيقة، وعندئذ فإن شيليغا، الذي أسقط في يده كلياً، يتمتم بهذا الجواب بصورة سابقة للأوان: "إن الحقيقة عندي مقدسة". لكنه يلاحظ خطيئته في الحال ويحاول أن يصححها، وذلك بأن يحول الموضوعات، بكل خجل، ليس إلى الحقيقة

مـن الآن فصاعـداً، بـل إلـى حقائـق مختلفـة. وإنـه ليسـتخلص بعدئـذ "الحقيقـة" التـي لـم يعـد فـي مقـدوره بعـد الآن نقضهـا، مـن حيـث هـي حقيقـة هـذه الحقائـق، بعـد أن ميزهـا مـن الحقائـق المعزولـة القمينـة بالنقـض، وبذلـك فإنهـا تصبـح "أبديـة". لكنـه إذ لا يكتفـي بـأن يضفـي عليهـا نعوتـاً مثـل "المقدسـة والأبديـة"، فإنـه يحولهـا إلـى ذات: فهـي المقـدس، والأبـدي. ومـن الطبيعـي أن القديـس ماكـس يسـتطيع بعـد هـذا أن يفسـر لشـيليغا أنـه بعدمـا صـار "مليئـاً" بهـذه القداسـة فإنـه "يصبـح هـو نفسـه مقدسـاً"، و"يجـب ألا يدهـش" إذا هـو الآن "لـم يجـد شـيئاً آخـر غيـر شـبح" فـي نفسـه. وعندئـذ يباشـر قديسـنا فـي إلقـاء عظـة: "وإن المقـدس أيضـاً لا وجـود لـه مـن أجـل حواسـك"، ويسـتنتج بصـورة منطقيـة تمامـاً، بواسـطة حـرف العطـف "و":

"لـن تحـس أنـت حضـوره قـط، بوصفـك كائنـاً حسـياً"؛ وهـذا يعنـي أنـه بعدمـا "تبخـرت" الموضوعـات الحسـية "جميعـاً واسـتبدلت "بالحقيقـة"، "الحقيقـة المقدسـة" - "المقـدس" - "علـى النقيـض مـن ذلـك" - هـذا أمـر بديهـي! -"فإنـه موجـود بالنسـبة إلـى قدرتـك علـى الإيمـان، أو بصـورة أدق روحـك" (افتقـارك إلـى الـروح)، "لأنـه هـو نفسـه كائـن روحـي" (بالإبـدال)، "روح" (بالإبـدال[*] مـرة أخـرى)، "هـو روح مـن أجـل الـروح".

ذلـك هـو فـن تحويـل العالـم المـادي، "الموضوعـات"، بواسـطة سلسـلة حسـابية مـن الإبـدالات، إلـى "روح مـن أجـل الـروح". ولا يسـعنا هنـا إلا الاسـتمرار فـي الإعجـاب بهـذه الطريقـة الجدليـة التـي تعمـل بالإبـدالات- ولسـوف تسـنح لنـا الفرصـة فيمـا بعـد مـن أجـل دراسـتها بصـورة أعمـق ووصفهـا فـي كل نقائهـا الكلاسـيكي.

وإن طريقـة الإبـدالات يمكـن قلبهـا أيضـاً - ومثـال ذلـك أننـا بعدمـا انتجنـا هنـا "المقـدس" مـرة فإننـا لا نضـم إليـه المزيـد مـن الإبـدالات، بـل نجعـل منـه بـدلاً لتعريـف جديـد؛ وهـذا هـو الجمـع بيـن المتواليـة والمعادلة.ووفقـاً لهـذه الطريقـة، فـإن "البقيـة الباقيـة" مـن عمليـة جدليـة مـا، "فكـرة شـيء آخـر"، "يجـب علـيَّ أن أخدمـه بإخـلاص أكثـر مـن نفسـي" (بالإبـدال)، "وهـو يجـب أن يكـون بالنسـبة إلـيَّ أهـم مـن كل مـا عـداه" (بالإبـدال)، "وباختصـار- شـيء مـا يجـب

(*) Per Appositionem، باللاتينية في النص الأصلي.

أن أنشد فيه خلاصي الحقيقي"، تصبح هنا (الإبدال الأخير والعودة إلى السلسلة الأولى) "شيئاً مقدساً" (ص ٤٨). إن لدينا ههنا متواليتين متعادلتين، الأمر الذي يوفر الإمكانية من أجل عدد كبير من المعادلات المتنوعة. ولسوف نعالج هذا الأمر فيما بعد. وبفضل هذه الطريقة أيضاً، فإن "المقدس" الذي لم نعرفه حتى الآن إلا في صورة تحديد نظري صرف لعلاقات نظرية صرفة يكتسب معنى عملياً جديداً كل الجدة على أنه "شيء ما يجب أن أنشد فيه خلاصي الحقيقي"، الأمر الذي يسمح بجعل المقدس نقيضاً للأناني. وفيما عدا ذلك، فإننا نكاد لا نحتاج إلى الإشارة إلى أن هذا الحوار بكامله، مع العظة التي تتلوه، ليس شيئاً آخر سوى تكرار آخر لقصة المراهق الذي صادفناه من قبل ثلاث أو أربع مرات.

وهنا، وقد وصلنا إلى "الأناني"، نفصم "الأوتار الرئيسية" لشترنر، لأنه لا بد لنا بادئ الأمر أن نعرض مخططاته في نقاوتها التامة، صرفة من أية فواصل دخيلة، وثانياً، لأن هذه الفواصل على أية حال، سوف ترد من جديد في أقسام أخرى من الكتاب. ذلك أن شترنر أبعد ما يكون، عما يزعم، عن "الانطواء من دون انقطاع على ذاته"، بل هو على النقيض من ذلك يريق نفسه باستمرار فيما حوله. ولسوف نشير فقط إلى أن السؤال الذي طرح في الصفحة ٤٥: من هو هذا الكائن المتميز من "الأنا"، هذا الكائن الذي هو روح؟ يعطي الآن الجواب بمعنى أنه المقدس، يعني ما هو غريب عن "الأنا"، وأن كل شيء غريب عن "الأنا" يعتبر وفقاً لذلك ومن دون مزيد من الضوضاء على أنه روح - وذلك بفضل بعض الإبدالات غير المقررة، الإبدالات "في ذاتها". إن الروح، والمقدس، والآخر، هي أفكار متماثلة يعلن الحرب عليها بالطريقة نفسها، وكلمة فكلمة على وجه التقريب، التي اتبعها في البداية بصدد المراهق والرجل ونتيجة لذلك، فإننا لم نتقدم خطوة واحدة أبعد مما كنا عليه في الصفحة ٢٠.

(آ) الأشباح

ينصرف الآن القديس ماكس بصورة جدية إلى معالجة "الأرواح" التي هي "ذرية صالحة" (ص ٣٩)، والطبيعة الشبحية لجميع الكائنات (ص ٤٧). هذا ما يتخيله على الأقل.

ومهما يكن من أمر، فإنه لا يفعل في حقيقة الأمر سوى استبدال اسم جديد لنظرته السابقة إلى التاريخ التي تنص على أن الناس هم، بصورة قبلية (a priori)، ممثلو مفاهيم عامة. وإن هذه المفاهيم العامة تبدأ بأن تمثل هنا في الحالة الزنجانية. يعني بوصفها أرواحاً موضوعية تملك بالنسبة إلى الناس طابع الموضوعات، وهي تسمى عند هذا المستوى الأطياف أو - الأشباح. إن الشبح الرئيسي لهو طبعاً "الإنسان" ذاته، لأن الناس، وفقاً لما سبق قوله، لا وجود لهم الواحد بالنسبة إلى الآخر إلا في صورة ممثلي العمومية (Généralité)، الماهية، المفهوم، المقدس، الآخر، الروح، يعني في صورة كائنات شبحية، في صورة أشباح. وإننا لنعرف من قبل أن الروح، وفقاً لعلم الظواهر لهيغل (ص ٢٥٥ وفي مواضع أخرى)، بقدر ما يملك بالنسبة إلى الإنسان شكل "الشيئية"، هو إنسان آخر (أنظر أدناه عن "الإنسان").

وهكذا، فإننا نرى هنا السموات تنفتح والأنواع المتباينة من الأشباح تمر أمامنا الواحد تلو الآخر. سوى أن جاك المغفل ينسى أنه استعرض أمامنا من قبل الأزمان القديمة والحديثة، هذه الأشباح العملاقة التي ليست جميع الأوهام غير المؤذية عن الله، الخ، إلا مجرد تفاهات بالمقارنة معها.

الشبح رقم ١: الكائن الأسمى، الله. (ص ٥٣). وكما هو متوقع مما سبق، فإن جاك المغفل، الذي ينقل إيمانه جميع جبال التاريخ العالمي، يؤمن بأن "الناس اتخذوا طوال آلاف السنين هذه المهمة"، إنهم "تعذبوا سعياً إلى تحقيق هذا العمل البغيض، المستحيل، اللامتناهي، هذا العمل الجدير ببنات داناوس(Danaos)[٧٦]" - "إثبات وجود الله" ولا حاجة بنا إلى إضاعة مزيد من الوقت في الحديث عن هذا الايمان الذي لا يصدق.

الشبح رقم ٢: الكائن. يقتصر ما يقوله رجلنا الطيب عن الكائن - باستثناء ما نسخ عن هيغل - على "كلمات طنانة وأفكار بائسة" (ص ٥٣). "وليس أيسر" من الانتقال من الكائن إلى "الكائن العالمي". وهذا الكائن العالمي هو طبعاً إلى "الكائن الورع"،

الشبح رقم ٣: غرور العالم. وليس ثمة ما يقال عنه سوى أنه يصدر عنه "بسهولة".

الشبح رقم ٤: الكائنات الصالحة والطالحة. وفي الحقيقة أنه يمكن أن يقال لنا شيء في هذا الشأن، لكن لا يقال لنا شيء - ويتم الانتقال في الحال إلى ما يليه.

الشبح رقم ٥: الكائن وملكوته. ويجب ألا نندهش البتة لأننا نصادف هنا الكائن للمرة الثانية. إن مؤلفنا الشريف الذي يدرك "خرافته" جيداً (ويغان، ص ١٦٦)، يكرر كل ما يقوله عدة مرات حتى لا يُساء فهمه. وإن أول تعريف نعطاه عن الكائن هنا هو أنه يملك "ملكوتاً"، ومن بعد يقال لنا إنه "الكائن" (ص ٥٤)، وبعدئذ يتحول بقدرة قادر إلى

الشبح رقم ٦: "الكائنات". إن معرفتها والاعتراف بها، وبها وحدها، ذلك هو الدين. إن "ملكوتها (الكائنات)- ملكوت كائنات" (ص ٥٤) ويظهر هنا على حين غرة ومن دون سبب ظاهر.

الشبح رقم ٧: الله - الإنسان، المسيح. وإن شترنر لقادر أن يقول عنه إنه كان "يملك جسداً". وإذا لم يكن القديس ماكس يؤمن بالمسيح، فإنه يؤمن على الأقل "بجسده الفعلي". ووفقاً لشترنر، فقد أدخل المسيح مصائب كبرى إلى التاريخ، ويروي لنا قديسنا العاطفي وعيناه تغصان بالدموع "ما عاناه المسيحيون الأقوى من الألم حتى يفهموه" – أجل،

> "لم يعذب شبح من قبل قط النفوس بهذا القدر، والشامان الذي يجلد نفسه كي يأخذه الورع ويبلغ حالة من الاختلاجات الصاعقة لم يعانِ قط الآلام التي احتملها المسيحيون من أجل هذا الشبح الأشد إبهاماً".

ويذرف القديس ماكس دمعه حناناً على قبر ضحايا المسيح ومن ثم ينتقل إلى "الكائن الورع".

الشبح رقم ٨: الإنسان. ههنا يتملك "هلع" فوري كاتبنا المقدام - "إنه مذعور من نفسه"، فهو يرى في كل إنسان "شبحاً رهيباً"، "شبحاً مشؤوماً" و"مسكوناً" (ص ٥٥، ٥٦). وإنه ليشعر بضيق عظيم. إن الانشقاق بين الظاهرة والوجود لا يترك له مجالاً للراحة على الإطلاق. إنه مثل نابال (Nabal)، زوج أبيغايل (Abigail)، الذي تقول التوراة عنه أن وجوده منفصلاً عن مظهره الظاهري. "وكان رجل في معون (Maon) وأملاكه في الكرمل"

(صموئيل الأول ٢٥: ٢)(*). لكن في اللحظة المناسبة، وبالضبط قبل أن يضع القديس ماكس "المعذب حتى أعماق النفس" رصاصة في رأسه بدافع يأسه، يتذكر على حين غرة الأقدمين الذين "ما كانوا يأبهون لأي أمر من هذا النوع في أشخاص عبيدهم". ويؤدي هذا به إلى الشبح رقم ٩: روح الشعب [L'esprit du peuple] (ص ٥٦) الذي يتوهم القديس ماكس بشأنه أشياء "مرعبة". وليس في الإمكان الآن رده عن تحويل

الشبح رقم ١٠: "الكل" إلى طيف. وأخيراً، ما دام التعداد يتوقف هنا، يقذف "بالروح القدس"، والحقيقة، والعدالة، والقانون، والقضية الصالحة (التي لا يستطيع نسيانها بعد)، ونصف اثني عشرية من الأشياء الأخرى التي لا تملك أي شيء مشترك على الإطلاق، في كيس واحد - ألا وهو صنف الأشباح.

وفيما عدا ذلك، فليس في الفصل كله ما يستلفت النظر، باستثناء أن القديس ماكس يحرك بإيمانه جبلاً تاريخياً، يعني أنه يتفوه بهذا الرأي (ص ٥٦): "لم يكن كائن ما موضع العبادة قط إلا إكراماً لكائن أسمى، ولم يعتبر شخصاً مقدساً إلا بوصفه شبحاً، يعني (يعني!) "شخصاً محمياً ومعترفاً به". وإذا نقلنا هذا الجبل الذي يحركه الإيمان وحده، وأعدناه إلى مكانه الحقيقي، فإن "النص يقرأ" إذن: إنما إكراماً لأشخاص محميين، يعني يخلقون بأنفسهم حمايتهم الخاصة وأصحاب امتيازات، يعني يستولون على الامتيازات لأنفسهم، قد كانت كائنات أسمى موضع العبادة، وكانت أشباح موضع التكريس. ومثال ذلك أن القديس ماكس يتخيل أنه في الأزمان القديمة، حين كان تماسك كل شعب مضموناً بفعل العلاقات والمصالح المادية المشتركة، مثلاً العداء المتبادل بين القبائل المختلفة، الخ؛ وحين كان لا بد لكل امرئ، من جراء نقص القوى المنتجة، أن يكون إما عبداً وإما مالكاً للعبيد، الخ، الخ، وبالتالي حين كانت "المصلحة الأكثر طبيعية" (ويغان، ص [١٦٢]) تقتضي الانتساب إلى

(*) Und sein Wesen zu Carmel . كان هناك رجل في ماعون وأملاكه في الكرمل. وثمة هنا تورية على كلمة Wesen، لأن كلمة Wesen (الكينونة، الماهية) قد استخدمت في ترجمة لوثر للتوراة بمعناها القديم، ملكية أو أملاك.

شعب خاص - يتخيل القديس ماكس إذن، مفهوم "الشعب بوصفه كائناً هو وحده الذي أنجب في ذلك الحين هذه المصالح انطلاقاً من ذاته؛ وكذلك في الحقب الحديثة، حيث ينجب التنافس الحر والتجارة العالمية النزعة الكوسموبوليتية البورجوازية المنافقة وفكرة الإنسان، - يقلب القديس ماكس الأمور ويتخيل أن الإنشاء الفلسفي اللاحق لفكرة الإنسان هو الذي أتى بهذه العلاقات على أنها "صنائع وحيه" (ص ٥١). وينطبق الأمر نفسه على الدين، ملكوت الماهيات الذي يعتبره الملكوت الوحيد. أما عن الكائن، ماهية الدين، فإنه لا يعرف شيئاً، وإلا فإنه يجب عليه أن يعرف أن الدين، من حيث هو دين (en tant que religion)، لا يملك ماهية ولا ملكوتاً. ففي الدين يحوّل الناس عالمهم التجريبي إلى نتاج صرف للفكر، إلى تصور يتراءى لهم واقعاً غريباً. ولا يجوز هنا أيضاً تفسير هذه الحقيقة، في أي حال من الأحوال، انطلاقاً من المفاهيم، ولا انطلاقاً من "الوعي الذاتي" أو أي هراء مشابه، بل من مجمل نمط الإنتاج والتعامل الاجتماعي كما كان قائماً حتى ذلك الحين، والذي هو مستقل عن الفكرة المحضة قدر استقلال اختراع النول الآلي واستخدام الخطوط الحديدية عن الفلسفة الهيغلية. وإذا كان يتمسك بالحديث عن "ماهية" الدين، يعني عن أساس مادي لهذه اللاماهية، فإن من واجبه إذن، أن يبحث عنه لا في "ماهية الإنسان"، ولا في صفات الله، بل في العالم المادي الذي تصادفه أي مرحلة للتطور الديني قائماً بصورة مسبقة (راجع أعلاه فويرباخ).

إن جميع الأشباح التي استعرضناها كانت تصورات. وإن هذه التصورات - إذا تركنا جانباً أساسها المادي (الذي يتركه شترنر جانباً على كل حال) - المتصورة على أنها تصورات داخل الوعي، على أنها فكر في رؤوس الناس تشكل، إذا ما أخرجت من حالتها كموضوعات ودمجت من جديد في الذات، ورفعت من الجوهر إلى الوعي الذاتي - الهاجس أو الفكرة الثابتة.

وفيما يتعلق بأصل قصص الأشباح عند القديس ماكس، أنظر المؤلفات [Anekdota]، المجلد الثاني، ص ٦٦، حيث يرد[٧٧]:

"إن اللاهوت هو الإيمان بالأشباح. وعلى أية حال، فإن للاهوت

المبتــذل أشـباحه فــي المخيلــة الحســية، وللاهــوت التأملــي أشــباحه فــي التجريــد اللاحســي".

ومـا دام القديـس ماكـس يقاسـم جميـع الفلاسـفة التأمليين النقديين للحقـب الحديثـة إيمانهـم بـأن الأفـكار المسـتقلة عـن الواقـع، الأفـكار المجسـدة - هـذه الأشـباح- قـد سـادت العالـم ولا تـزال تسـوده، وأن كل التاريـخ حتـى يومنـا الحاضـر قـد كان تاريخ اللاهـوت، فليـس أسـهل عليـه مـن تحويـل التاريـخ إلـى أشـباح. وبالتالـي فـإن تاريخ الأشـباح عنـد سانتشـو يرتكـز علـى الإيمـان التقليـدي بالأشـباح عنـد الفلاسـفة التأمليـين.

(ب) الهاجس

"أيهـا الإنسـان، إن فـي رأسـك أطيافـاً! - إن لديـك فكـرة ثابتـة!"، هـذا مـا يقصـف القديـس ماكـس بـه وفـي وجـه عبـده شـيليغا. وإنـه ليتوعـده: "لا تحسـب إننـي أمـزح". لا تجسـر علـى الحسـبان أن "ماكـس شـترنر" المهيـب يمكـن أن يمـزح.

إن رجـل اللـه يحتـاج مـن جديـد إلـى خادمـه الأميـن شـيليغا كـي ينتقـل مـن الموضـوع إلـى الـذات، مـن الطيـف إلـى النـزوة.

إن الهاجـس هـو التراتـب فـي الفـرد الأوحـد، سـيطرة الفكـرة "فيـه وعليـه". فعندمـا وجـد المراهـق (ص ٢٠) فـي مواجهتـه عالمـاً ليـس هـو إلا عالـم "أوهامـه المحمومـة"، عالـم أشـباح، فإنـه يـرى، وهـو فريسـة الهذيـان، "الكائنـات المولـودة فـي رأسـه" تتجـاوز رأسـه وهـي لا تـزال فـي رأسـه. إن عالـم أوهامـه المحمومـة - وهـذه خطـوة إلـى الأمـام قـام بهـا - هـو الآن عالـم ذهنـه المشـوش. ولا بـد بالضـرورة للقديـس ماكـس - الرجـل الـذي يجابـه "عالـم المحدثيـن" فـي صـورة المراهـق فريسـة الهذيـان - أن يعلـن أن "كل الجنـس البشـري علـى وجـه التقريـب يتألـف مـن مجانيـن حقيقييـن، نـزلاء مصـح عقلـي" (ص ٥٧).

إن الهاجـس الـذي يكتشـفه القديـس ماكـس فـي رؤوس النـاس ليـس سـوى هاجسـه الخـاص - حبـة الجنـون عنـد "القديـس" الـذي يعايـن العالـم مـن وجهـة نظـر الأزليـة[*] والـذي يأخـذ

(*) sub specie œterni، باللاتينية في النص الأصلي.

عبارات الناس المرائية وأوهامهم على السواء على أنها الحوافز الحقيقية لأفعالهم؛ وهذا السبب في أن رجلنا البسيط الساذج ينطق بكل ثقة بالموضوعة الكبرى: إن الجنس البشري بكامله على وجه التقريب يتعلق بكائن أسمى" (ص ٥٧).

إن "الهاجس" "فكرة ثابتة"، يعني "فكرة أخضعت الإنسان لسلطانها"، أو كما سوف يقول فيما بعد بطريقة أكثر شعبية - جميع أنواع الحماقات التي "حشرها الناس في رؤوسهم". ويصل القديس ماكس بأقصى اليسر إلى الاستنتاج بأن كل شيء أخضع الناس- ومثال ذلك الحاجة إلى الإنتاج في سبيل الحياة والعلاقات المترتبة على ذلك - هو مثل هذه "الحماقة" أو هذه "الفكرة الثابتة". ولما كان عالم الطفل هو "عالم الأشياء" الوحيد، كما علمنا من أسطورة "حياة إنسان"، فإنه يترتب على ذلك أن كل الأشياء التي توجد "بالنسبة إلى الطفل" (وأحياناً بالنسبة إلى الحيوان أيضاً) هي بكل تأكيد "فكرة" و"بكل سهولة أيضاً" "فكرة ثابتة". إننا لا نزال بعيدين جداً عن التخلص من المراهق والطفل.

إن الفصل الذي يتحدث عن الهاجس لا يستهدف إلا التحقق من وجود هذه المقولة في تاريخ "الإنسان". وأما النضال الفعلي ضد الهواجس، فإنه يمتد على "الكتاب" بأسره، لكنه يحتل بصورة خاصة القسم الثاني. ولذا فإن أمثلة قليلة عن الهواجس يمكن أن تكفينا هنا.

في الصفحة ٥٩ يعتقد جاك المغفل أن:

> "صحفنا طافحة بالسياسة لأنها في قبضة الوهم الذي ينص على أن الإنسان خلق كي يصبح "إنساناً اجتماعياً""(*).

وبالتالي فإن البشر في رأي جاك المغفل ينخرطون في السياسة لأن صحفنا طافحة بها. ولو أن أحد آباء الكنيسة ألقى نظرة على أخبار البورصة المنشورة في صحفنا لما أمكنه أن يصدر حكماً يختلف عن حكم القديس ماكس، وكان لا بد أن يقول: إن هذه الصحف تطفح بأخبار البورصة لأنها في قبضة الوهم الذي ينص على أن الإنسان خلق كي ينخرط في المضاربة المالية. وهكذا فليست الصحف هي المصابة بالهاجس، بل الهاجس هو الذي أصاب "شترنر".

(*) "zoom Politican"، باللاتينية في النص الأصلي.

ويفسر شترنر خطر مضاجعة المحارم ونظام وحدانية الزواج انطلاقاً من "المقدس"، "إنها المقدس". وإذا كانت مضاجعة المحارم غير محرمة بين الفرس، وإذا كان الأتراك يمارسون تعدد الزوجات، فإن مضاجعة المحارم وتعدد الزوجات هي "المقدس" في تلك البلدان إذن. وليس في الإمكان أن نرى أي فرق بين هذين النوعين من "المقدس" سوى أن الفرس والأتراك "حشروا رؤوسهم" بحماقات مختلفة عن حماقات الشعوب الألمانية المسيحية. تلك هي طريقة الأب الكنائسي في "الانفصال" عن التاريخ "في الوقت المناسب. إن لدى جاك المغفل معرفة طفيفة جداً بالأسباب الحقيقية لتحريم تعدد الزوجات ومضاجعة المحارم في بعض الشروط الاجتماعية بحيث يعتبر هذا التحريم مجرد عقيدة في دستور للإيمان ويتخيل بصورة مشتركة مع جميع المالكين الصغار أنه عندما يسجن رجل لجريمة من هذا النوع فهذا يعني أن "الناقد الأخلاقي" يحجزه في "دار للإصلاح الأخلاقي" (ص ٦٠) - بالضبط مثلما تبدو السجون عامة في نظره دوراً للإصلاح الأخلاقي- وبهذا الشأن فهو في مستوى أدنى من البورجوازي المثقف الذي يملك إعلاماً أفضل في الموضوع - راجع الأدبيات عن السجون. إن "سجون" "شترنر"، هي الأوهام الأشد حقارة للبورجوازي البرليني، لكن لا يمكن مطلقاً، فيما يخصه، أن توصف بأنها "دور للإصلاح الأخلاقي".

وبعدما اكتشف شترنر، بفضل "تأمل تاريخي"، "مدرج بصفة حادث عارض"، أنه:

"كان من المحتوم أن يتوصل الإنسان إلى إظهار طبيعته الدينية مع سائر قدراته" (ص ٦٤)، يجب "في الحقيقة ألا ندهش" - "ما دمنا، نحن أيضاً، مشربين بالدين حتى أعماقنا"... لأن قسم أعضاء لجنة المحلفين يحكم علينا بالموت ولأن رجل الشرطة، بوصفه مسيحياً صالحاً، يحبسنا في زنزانة بفضل "القسم الرسمي".

وحين يوقفه دركي بتهمة التدخين في حديقة تييرغارتن [Tiergarten][٧٨]، فليس دركي صاحب الجلالة البروسي هو الذي ينتزع السيجارة من فمه بصفعة من كفه، بالرغم من أنه يتناول أجراً ليقوم بهذا العمل ويتناول حصته من الغرامات، بل "القسم الرسمي" هو الذي يتصرف على هذا الغرار. وإن السلطة الممنوحة لبورجوازيي هيئة المحلفين تخضع

للتحوّل نفسه وتتحوّل بالنسبة إلى شترنر- بفضل المظهر المقدس الكاذب الذي يتخذه أصدقاء التجارة(*) حين يجلسون في هذه الهيئة، إلى السلطة التي يمنحها فعل القسم إلى سلطة القسم، إلى "المقدس". الحق الحق أقول لكم: إنني لم أجد مثل هذا الإيمان العظيم، حتى في إسرائيل" (إنجيل القديس متى ٨: ١٠).

"تتحول الفكرة إلى حكمة بالنسبة إلى العديد من الناس، بحيث ليسوا هم الذين يملكون الحكمة، بل الأحرى الحكمة هي التي تملكهم، ومع الحكمة يكتسبون من جديد نقطة استناد وطيدة". لكن، "ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم". (رسالة القديس بولس إلى أهل روميه [epitre aux Romains]، ٩: ١٦).

وبالتالي فإن على القديس ماكس في الصفحة ذاتها أن يتلقى أشواكاً عديدة في جسده ويجب عليه أن يعطينا عدداً من الحِكم من لونه: الحكمة الأولى -لا حكم على الإطلاق؛ الحكمة الثانية - لا نقاط استناد وطيدة على الإطلاق؛ الحكمة الثالثة - "على الرغم من أنه يجب علينا أن نملك الروح، فإن الروح يجب ألا يملكنا"؛ الحكمة الرابعة - يجب أن نصغي أيضاً إلى صوت جسدنا، "لأن الإنسان لا يفهم نفسه كلياً إلا إذا استمع إلى صوت جسده، ولا يكون مدركاً أو عقلانياً إلا إذا فهم نفسه كلياً".

٣ ـ تاريخ الأرواح الدنس بدنس

آ – الزنوج والمغوليون

نعود الآونة إلى بداية المخطط التاريخي والتسمية "الفريدة". إن الطفل يصبح الزنجي، والمراهق يصبح المغولي. أنظر "اقتصاد العهد القديم".

"في هذا التأمل التاريخي عن حالتنا كمغوليين، الذي أدرجه هنا بمثابة حادث عارض، لا أزعم الشمول، أو حتى الأصالة. إنني لا أفعل ذلك إلالأنه

(*) Amis du commerce، بالفرنسية في النص الأصلي.

يتراءى لي أنه يمكن أن يسهم في إيضاح البقية" (ص ٨٧).

يحاول القديس ماكس أن "يوضح" لنفسه عباراته الجوفاء عن الطفل والمراهق بإعطائها أسماء عالمية جامعة، ويحاول أن "يوضح" هذه الأسماء العالمية الجامعة بأن يدس عليها عباراته عن الطفل والمراهق. "إن النمط الزنجي يجسد الأزمنة القديمة، التبعية للأشياء ("طفل"؛ "والنمط المغولي يجسد مرحلة التبعية للأفكار، الحقبة المسيحية" المراهق). "راجع اقتصاد العهد القديم". "إن الكلمات التالية محتفظ بها للمستقبل: إنني مالك عالم الأشياء، وأنا مالك عالم الأفكار" (ص ٨٧، ٨٨). ولقد تحقق هذا المستقبل مرة من قبل في الصفحة ٢٠، بصدد الإنسان، ولسوف يتحقق مرة أخرى في وقت لاحق، بدءاً من الصفحة ٢٢٦.

"التأمل التاريخي" الأول:

"الذي لا يزعم الشمول أو حتى الأصالة"؛ ما دامت مصر تشكل قسماً من أفريقيا حيث الزنوج، فإنه يترتب على ذلك أن "حملات سيسوستريس" (sésostris) التي لم تحدث قط، و"أهمية مصر" (حتى أيام حكم البطالسة، وحملة نابوليون على مصر، ومحمد علي، والمسألة الشرقية، وكراسات دوفرجيه دي هوران، الخ)، "وشمالي أفريقيا عامة" (وبالتالي قرطاجة، وحملة هنيبعل على روما، و"بسهولة أيضاً" سيراكوز وأسبانيا، والفانداليون، وتيرتوليان، والمغاربة، والحسين أبو علي بن عبدالله بن سينا، والدول القرصنية، والفرنسيون في الجزائر، وعبد القادر، والأب أنفانتان، والعلاجمة الأربعة الجدد لشاريفاري) "تشكل جزءاً (ص ٨٨) من "الحقبة الزنجانية". وهكذا فإن شترنر "يوضح" حملات سيسوستريس، الخ، بإدراجها في الحقبة الزنجانية، بينما يوضح الحقبة الزنجانية بأن يحشرها "بمثابة حادث عارض" ومثال تاريخي، في أفكاره الفريدة "عن سنوات طفولتنا".

"التأمل التاريخي" الثاني:

"إن حملات الهان والمغول حتى الروس تشكل جزءاً من الحقبة المغولية" (والبولونيين في سيليزيا العليا)[٧٩]. وهكذا يجري الشيء ذاته هنا، فحملات الهان والمغول، وكذلك حملات الروس، "توضح" من جراء تصنيفها في "الحقبة المغولية"، بينما توضح "الحقبة المغولية" بالإشارة إلى أنها الحقبة التي تنطبق فيها صيغة "التبعية للأفكار" التي صادفناها من قبل في سيماء المراهق.

"التأمل التاريخي" الثالث:

في الحقبة المغولية "لا يمكن أن تقدر أناي حق قدرها لأن الماس القاسي للأنا عالي السعر جداً، وهو لا يزال بالغ القسوة والمنعة بحيث لا تستطيع أناي ابتلاعه وتمثله. وعلى النقيض من ذلك لا يفعل الناس إلا أن يزحفوا بقدر فائق من الهرج فوق هذا العالم السكوني، هذا الجوهر، مثل دويبات طفيلية على جسد تمتص الغذاء من عصاراته، لكن من دون أن تستطيع التهامه من جراء ذلك. إن هذا النشاط للحشرات المؤذية يشكل كدح المغول. وعند الصينيين، كما هو معروف، لم يطرأ أي تغيير البتة، الخ. - وبالتالي" (من جراء أن الأشياء لا تتغير) عند الصينيين) "فإن جميع التغيرات في حقبتنا المغولية قد كانت مجرد إصلاحات وتحسينات جزئية، لا انقلابات هدامة، ومفترسة، أو ماحقة. إن الجوهر، الموضوع، يبقى. وليس كدحنا بأسره سوى نشاط نحل ووثب براغيث... شعوذة على الحبل المشدود للكائن الموضوعي"، الخ (ص ٨٨، راجع هيغل، فلسفة التاريخ، ص ١١٣، ١١٨، ١١٩ (الجوهر غير الموهن)، ص ١٤٠، الخ، حيث تفهم الصين على أنها "التجوهر").

وهكذا فإننا نعلم هنا أن الناس في الحقبة القوزاقية الحقيقية سوف يسترشدون بالحكمة التي تنص على ابتلاع، و"التهام" و"إفناء" و"امتصاص" و"تدمير" الأرض و"الجوهر" و"الموضوع" و"الكائن السكوني". وجنباً إلى جنب مع الأرض والنظام الشمسي غير المنفصل عنها. إن "شترنر" هذا الذي يبتلع العالم قد عرّفنا من قبل في الصفحة ٣٦ على "الفعالية الإصلاحية والتصحيحية" للمغول على أنها "خطط من أجل خلاص العالم وكماله"، يضعها المراهق والمسيحي. وهكذا فإننا لم نتقدم بعد خطوة واحدة. وإنه لمما يميز كل هذا التصور "الأوحد" للتاريخ أن المرحلة العليا لهذه الفعالية المغولية توصف بأنها "علمية"- الأمر الذي يمكن منذ الآن أن نستخلص منه النتيجة التي يرويها لنا القديس ماكس في وقت لاحق، ألا وهي أن قمة السماء المغولية هي مملكة الأرواح الهيغلية.

"التأمل التاريخي" الرابع:

إن العالم الذي يزحف على سطحه المغول يتحول الآن بفضل "وثبة برغوث" إلى "الوضعي"، ويتحول هذا الأخير إلى "النظام الأساسي"، ويتحول النظام الأساسي بفضل

فقرة في الصفحة ٨٩ إلى "الفضيلة". "تظهر الفضيلة في شكلها الأول على أنها عُرف" - وبالتالي فهي تمثل على أنها شخص، لكنها تتحوّل في مثل لمح البصر إلى مكان:

"إن تصرُّف المرء وفقاً لعادات بلده وأعرافه يعني هنا" (أي في مجال الفضيلة) "أن يكون المرء فاضلاً". "وبالتالي" (لأن هذا الواقع يشكل عادة في مجال الفضيلة) "فإن السلوك الفاضل الصرف في شكله الأبسط يمارس في... الصين!".

إن القديس ماكس قليل الحظ في انتقاء أمثلته. في الصفحة ١١٦ ينسب بالطريقة نفسها إلى الأميركيين الشماليين "دين الاستقامة". إن أوغد شعبين على ظهر البسيطة، هما: الصينيون الذين هم محتالون من النمط البطريركي، واليانكيون الذين هم محتالون من النمط المتحضر، هما في نظره أناس "متواضعون" و"فاضلون" و"مستقيمون". ولو أنه راجع أوراقه المنتحلة لوجد أن الأميركيين الشماليين مصنفون كمحتالين في الصفحة ٨١ من فلسفة التاريخ، وكذلك الصينيين في الصفحة ١٣٠.

إن "المرء" - هذا الصديق المخلص - يمد لرجلنا الصالح القديس يد المعونة الآن كي ينتقل إلى الابتكار، ومن الابتكار ترده "و" إلى "العادة"، وبذلك تكون المواد قد هيأت من أجل تحقيق ضربة معلم في

"التأمل التاريخي" الخامس:

"في الحقيقة أنه ليس ثمة شك في أن الإنسان يحمي نفسه بواسطة العادة من المضايقات المزعجة للأشياء والعالم" - من الجوع على سبيل المثال.

"و"- وهذه نتيجة طبيعية تماماً -

"يؤسس عالماً خاصاً به" - "شترنر" في حاجة إليه الآن -

"عالماً مألوفاً لديه يشعر هو وحده أنه في بيته"، - "وحده"، بعدما أقام بادئ الأمر "كما في بيته"، بفضل "العادة"، في "العالم" القائم -

"أي يشيد لنفسه سماء" - ما دامت الصين تسمى امبراطورية السماء؛

"ذلك أنه ليس للسماء في الحقيقة من معنى آخر سوى كونها الوطن الحقيقي للإنسان" - بينما ليست هي في معناها الفعلي على النقيض من ذلك، سوى تصور للإنسان الذي يأخذ وطنه الخاص على أنه وطن ليس خاصاً به؛-

"الوطـن حيـث لا يخضـع بعـد الآن لأيـة قـوة غريبـة عنـه" - يعنـي حيـث يخضـع فـي حقيقـة الأمـر لقـواه الخاصـة التـي تلـوح فـي عينيـه غريبـة عنـه. وإننـا لنعـرف بقيـة القصـة القديمـة. "علـى النقيـض مـن ذلـك"، كـي نسـتخدم كلمـات القديـس برونـو، أو "إنـه لمـن السـهولة بـكل تأكيـد"، كـي نسـتخدم كلمـات القديـس ماكـس، أن تصـاغ هـذه العبـارة بالطريقـة التاليـة:

عبـارة شـترنر التـي تزعـم الشـمول أو حتـى فـي الأصالـة

"فـي الحقيقـة أنـه ليـس ثمـة شـك فـي أن الإنسـان يحمـي نفسـه بواسـطة العـادة مـن المضايقـات المزعجـة للأشـياء والعالـم، ويؤسـس عالمـاً خاصـاً بـه، عالمـاً مألوفـاً لديـه حيـث يشـعر هـو وحـده أنـه فـي بيتـه، الـخ. أي يشـيد لنفسـه سـماء. ذلـك أنـه ليـس "للسـماء" فـي الحقيقـة مـن معنـى آخـر سـوى كونهـا الوطـن الحقيقـي للإنسـان، حيـث لا يخضـع بعـد الآن لأيـة قـوة غريبـة عنـه أو أيـة سـيطرة خارجيـة، ولا يجعلـه أي تأثيـر دنيـوي بعـد الآن مغترباً عن ذاتـه، وباختصـار حيـث ترفـض حثـالات الحيـاة الدنيويـة، وحيـث لا حاجـة بـه بعـد الآن إلـى النضـال ضـد العالـم، وبالتالـي حيـث لا ينكـر عليـه فـي هـذا العالـم أي شـيء بعـد الآن" (ص ٨٥).

العبارة ذاتها بعد تنقيحها

"فـي الحقيقـة أنـه ليـس ثمـة شـك" أن الصيـن تسـمى امبراطوريـة السـماء، ولأن "شـترنر" يتحـدث عـن الصيـن بالضبـط، ولأنـه "اعتـاد" بواسـطة الجهـل "أن يحمـي نفسـه مـن المضايقـات المزعجـة للأشـياء والعالـم، وأن يؤسـس عالمـاً خاصـاً بـه، عالمـاً مألوفـاً حيـث يشـعر هـو وحـده أنـه فـي بيتـه"- لهـذا السـبب "يشـيد لنفسـه سـماء" انطلاقـاً مـن امبراطوريـة السـماء الصينيـة. "ذلـك أنـه فـي الحقيقـة ليـس" للمضايقـات المزعجـة للعالـم والأشـياء "مـن معنـى آخـر سـوى" كونهـا الجحيـم "الحقيقـي" للأوحـد "حيـث" كل القـوى تسـود عليـه وتتحكـم فيـه" علـى أنهـا شـيء "غريـب عنـه"، لكنـه جحيـم يعـرف هـو كيـف يحولـه إلـى "سـماء" بـأن "يجعـل نفسـه مغتربـاً" عـن جميـع "التأثيـرات الدنيويـة"، وبـأن يتملـص - مـن جميـع الحقائـق والقرائـن التاريخيـة، وبالتالـي فهـو لا يحسـبها بعـد الآن غريبـة؛ "وباختصـار"، جحيـم "حيـث ترفـض حثـالات الوجـود الدنيـوي" والتاريـخ، وحيـث شـترنر لا يكتشـف فـي "نهايـة العالـم" مزيـداً مـن "النضـال"- وبذلـك يكـون كل شـيء قـد قيـل.

"التأمل التاريخي" السادس:

يتخيل شترنر في الصفحة ٩٠ أنه:

"في الصين اتخذت الاحتياطات لجميع الأمور؛ فمهما كانت الأحداث، فإن الرجل الصيني يعرف دائماً ما يجب عليه أن يفعل، ولا حاجة به إلى اتخاذ القرار وفقاً للظروف؛ فليس ثمة حادث غير متوقع يعكر هدوءه السماوي".

حتى ولا قصف المدفعية البريطانية - إنه يعرف على وجه الدقة "ما يجب عليه أن يفعل"، وبصورة خاصة في مواجهة المراكب البخارية والقنابل المتفجرة التي لم يشاهدها قط[٨٠].

لقد استخلص القديس ماكس هذا من فلسفة التاريخ لهيغل، الصفحتان ١١٨ و١٢٧، اللتان كان لا بد له طبعاً أن يضيف إليهما شيئاً "أوحد" كيما يكمل فكرته كما هي واردة أعلاه.

ويستطرد القديس ماكس:

"وبنتيجة ذلك فإن الجنس البشري يرتقي الدرجة الأولى من سلم الحضارة بفضل العادة، وما دام الجنس البشري يتخيل أنه إذا تسلق الحضارة فقد ارتقى إلى السماء، إلى مملكة الحضارة أو الطبيعة الثانية، فإنه يرتقي فعلياً الدرجة الأولى - من السلم السماوي" (the heavenly ladder) (ص ٩٠).

"بنتيجة ذلك"، أي لأن هيغل يبدأ التاريخ بالصين، ولأن "الرجل الصيني لا يفقد أعصابه"، فإن "شترنر" يحول الجنس البشري إلى شخص "يرتقي الدرجة الأولى من سلم الحضارة"، ويفعل ذلك في حقيقة الأمر "بفضل العادة"، لأن المعنى الوحيد للصين بالنسبة إلى شترنر هو كونها تجسيد العادة. ومنذ الآن، فإن هدف صاحبنا المتحمس للمقدس هو تحويل هذا "السلم" إلى "سلم سماوي"، ما دامت الصين تسمى أيضاً امبراطورية السماء. "وما دام الجنس البشري يتخيل"، ولكن "من أين" لشترنر "المعرفة الجيدة بكل الأشياء" التي يتخيلها الجنس البشري، (أنظر ويغان، ص ١٨٩) - هذا ما كان ينبغي لشترنر إثباته – أولاً، أنه يحوِّل "الحضارة" إلى "سماء الحضارة"، وثانياً أنه يحوِّل "سماء الحضارة" إلى "حضارة السماء" - (وهي فكرة تنسب إلى الجنس البشري، لكن يتبين لنا في الصفحة ٩١ إنها فكرة

لشترنر، الأمر الذي يمنحها صياغتها الحقيقية) -ومن جراء ذلك يرتقي فعلياً الدرجة الأولى من "السلم السماوي". ومادام يتخيل أنه يرتقي الدرجة الأولى من السلم السماوي، فإنه - من جراء ذلك - يرتقيها فعلياً! "ما دام" "المراهق" "يتخيل" أنه يصبح روحاً نقياً، فإنه يصبح كذلك فعلياً! أنظر "المراهق" و"المسيحي" بشأن الانتقال من عالم الأشياء إلى عالم الروح حيث ترد الصيغة البسيطة لهذا السلم السماوي للفكر "الأوحد".

"التأمل التاريخي" السابع: (ص ٩٠).

"إذا كانت المغولية" التي تأتي مباشرة بعد السلم السماوي، هذا السلم الذي أتاح "لشترنر"، بفضل الفكرة المنسوبة إلى الجنس البشري، أن يقرر وجود كائن روحي، "إذا كانت المغولية قد قررت وجود الكائنات الروحية" (بالأحرى - إذا كان "شترنر" قد نصب أوهامه بشأن الماهية الروحية للمغول على أنها حقيقة واقعة [wesen])، "فإن القوزاق قاتلوا إذن، آلاف السنوات ضد هذه الكائنات الروحية، كيما يستطيعوا أن يسبروا غورها" (المراهق الذي يصبح رجلاً و"يسعى طوال الوقت" "لأن يتغلغل خلف الأفكار"، والمسيحي الذي "يسعى طوال الوقت" "لأن يستقصي أعماق الألوهية"). وما دام الصينيون قد لاحظوا وجود ـ يعلم الله ـ أية كائنات روحية (إن "شترنر"، من جهته، لا يتحقق من وجود كائن واحد، باستثناء سلمه السماوي) - فلا بد للقوزاقيين أن يتخاصموا آلاف السنوات مع "هذه الكائنات الروحية" الصينية الأصل؛ والأكثر من ذلك أن شترنر يسجل بعد سطرين أنهم فعلياً "اجتاحوا السماء المغولية، التيين". ويستطرد: "متى يدمرون هذه السماء، متى يصبحون أخيراً قوزاقاً حقيقيين ويجدون أنفسهم؟" إن لدينا ههنا الوحدة السالبة، التي ظهرت من قبل في هيئة الإنسان، وقد تجسدت الآن في "القوزاقي الحقيقي"، أي القوزاقي القوزاقي الذي ليس هو من النمط الزنجي ولا من النمط المغولي. إنه هنا مجرد مفهوم، كائن متميز من القوزاقيين الفعليين ومعارض لهم من حيث هو "المثل الأعلى للقوزاقي"، من حيث هو "دعوى"، "رسالة"، من حيث هو "المقدس"، من حيث هو القوزاقي "المقدس"، القوزاقي "الكامل"، "الذي ليس هو غير "القوزاقي" "في السماء - الله".

"في سياق النضال الكدود (diligente) للعرق المغولي، شيد الناس سماء" - ذلك

هـو إيمـان "شـترنر" (ص ٩١)، الـذي ينسـى أن المغوليين الحقيقيين معنيون بالخراف أكثر بما لا يقاس من عنايتهم بالسماء(*) - "عندما انصرف أولئك الذين من العرق القوزاقي، شأن بالسماء... إلى مهمة اجتياح السماء". شيدوا سماء عندما... بقدر ما كان لهم... انصرفوا. إن هذه "الفكرة عن التاريخ" يعبّر عنها بكل تواضع في متتالية من الأزمنة(**) لا "تدعي" هي الأخرى حقاً في شكل كلاسيكي، "أو حتى" في الصواب النحوي؛ أن إنشاءاته النحوية صورة عن الإنشاء التاريخي. "وعلى هذا تقتصر" "مزاعم" "شترنر" التي "تبلغ بذلك هدفها الأخير".

"التأمل التاريخي" الثامن:

الذي هو تأمل التأملات، الألف والياء (L'alpha et l'omêga) في كل التاريخ بحسب شترنر: إن جاك المغفل لا يرى في تطور الشعوب، كما جرى حتى الآن، وهو ما أثبتناه منذ البداية، أكثر من سلسلة متعاقبة من السموات (ص ٩١) يمكن التعبير عنها كذلك كما يلي: إن أجيال العرق القوزاقي التي تعاقبت الواحد تلو الآخر حتى يومنا الحاضر لم تفعل شيئاً أكثر من المماحكة بشأن مفهوم الفضيلة (ص ٩٢)، وقد "اقتصر نشاطها على هذا" (ص ٩١)، ولو أنها انتزعت من رأسها هذه الفضيلة التاعسة، هذا الشبح، فلعلها كانت تتوصل إلى تحقيق بعض الأشياء؛ وعلى ما كانت الأمور، فإنها لم تتوصل إلى تحقيق أي شيء، أي شيء على الإطلاق، ولم يكن لها بد من القبول بالقصاص الذي فرضه عليها القديس ماكس كما لو كانت تلامذة (comme des écoliers) مدارس . وإنه لمما يتفق كل الاتفاق مع مفهومه عن التاريخ أن يستحضر في النهاية (ص ٩٢) الفلسفة التأملية كيما "تجد فيها هذه المملكة السماوية، مملكة الأرواح والأشباح، نظامها اللائق" - وهي تتصور في فقرة لاحقة على أنها "ملكوت الأرواح الكامل".

ما الذي يوجب على أولئك الذين يفهمون التاريخ بالطريقة الهيغلية أن ينتهوا - آخر الأمر، كنتيجة لكل التاريخ السابق- إلى ملكوت الأرواح هذا الذي يجد الكمال والنظام في الفلسفة التأملية؟ لقد كان في إمكان "شترنر" أن يجد حلاً لهذا السر ببساطة تامة عند هيغل

(*) تورية في الألمانية تعتمد على الكلمات (Hämmeln) "الخراف" و(Himmeln) (السموات).

(**) Consecutio Temporum، باللاتينية في النص الأصلي. والمقصود أزمنة الأفعال.

بالـذات. ففـي سـبيل الوصـول إلـى هـذه النتيجـة "يجـب أن تؤخـذ فكـرة الـروح علـى أنهـا الأسـاس، ومـن بعـد يجـب أن يبيـن أن التاريـخ هـو عمليـة الـروح نفسـه" (فلسـفة التاريـخ، [Geschichte der Philosophie]، III، ص ٩١). وبعدمـا تفـرض "فكـرة الـروح" علـى التاريـخ كأسـاس لـه، فإنـه مـن اليسـير جـداً، بالطبـع، أن "يبيـن" أنهـا تصـادف مـن جديـد فـي كل مـكان، ومـن بعـد أن تحمـل علـى "إيجـاد النظـام اللائـق" بفضـل وصـف هـذا السـياق كلـه علـى أنـه عمليـة (procés).

وبعدمـا يحمـل القديـس ماكـس جميـع الأشـياء علـى "أن تجـد نظامهـا اللائـق"، فـإن فـي مقـدوره الآن أن يهتـف بـكل حماسـة: "إن الرغبـة فـي كسـب الحريـة للـروح، تلـك هـي المغوليـة"، الـخ، (راجـع ص ١٧. "إن اخـراج الفكـر الصـرف إلـى النـور، الـخ، - تلـك هـي فرحـة المراهـق"، الـخ) - وأن يعلـن بـكل مـراءاة أيضـاً: "وبالتالـي فإنـه مـن الواضـح أن المغوليـة تمثـل... اللاحسـية والـلا طبيعيـة" الـخ - فـي حيـن كان مـن واجبـه أن يقـول: إنـه لمـن الواضـح أن المغولـي ليـس سـوى المراهـق المقنـع الـذي يمكـن، باعتبـار أنـه إنـكار عالـم الأشـياء، تسـميته أيضـاً "اللاطبيعيـة" و"اللاحسـية"، الـخ.

لقـد بلغنـا مـن جديـد النقطـة حيـث يسـتطيع "المراهـق" أن يتحـول إلـى "الرجـل": "لكـن مـن ذا يحـوِّل الـروح إلـى عدمـه؟ هـو، الـذي مثـل الطبيعـة بواسـطة الـروح علـى أنهـا ميـدان العـدم، المحـدود، الانتقالـي" (أي تخيلها بهـذه الصفـة - ووفقـاً للصفحـة ١٦ ومـا يليهـا، فقـد تـم ذلـك مـن قبـل المراهـق، وفيمـا بعـد المسـيحي، ومـن ثـم المغولـي، فالقوزاقـي المغولـي، لكـن بـكل معنـى الكلمـة من قبـل المثاليـة وحدهـا)، "يسـتطيع هـو وحـده أيضـاً أن يحـط الـروح" (يعنـي فـي مخيلتـه) "إلـى هـذه الدرجـة ذاتهـا مـن العدميـة" (وبالتالـي المسـيحي أيضـاً، الـخ). ويهتـف "شـترنر" كلا، عامـداً إلـى الحيلـة ذاتهـا التـي طبقهـا فـي الصفحـات ١٠-٢٠ بصـدد الرجـل، "أسـتطيع أن أفعـل ذلـك، وكل واحـد منكـم يعمـل ويتصـرف بوصفـه الأنـا غيـر المحـدودة يسـتطيع أن يفعـل ذلـك" (ص ٩٣)، أي الإنسـان، القوزاقـي، الـذي هـو بالتالـي المسـيحي الكامـل، المسـيحي الحقيقـي، القديـس، تجسـيد المقـدس.

وقبـل أن نعالـج المصطلحـات اللاحقـة، نحـن أيضـاً "نحـب عنـد هـذه النقطـة" أن نـدرج

"تأملاً تاريخياً" عن أصل "تأمل شترنر التاريخي عن مغوليتنا"، وتفكيرنا يختلف على أي حال عن تفكير شترنر في أنه "يزعم حقاً الشمول والأصالة" بصورة جازمة. إن جميع تأملاته في التاريخ، وكذلك تأمله بشأن "الأقدمين"، هي مزيج استمدت عناصره من هيغل.

إن الزنجي هو "الطفل" لأن هيغل يقول في الصفحة ٨٩ من كتابه فلسفة التاريخ:

"أفريقيا هي بلد طفولة التاريخ". "حين نعرف الروح الأفريقي" (الزنجي) "لا بد أن نتخلى كلياً عن مقولة العمومية" (ص ٩٠) - أي على الرغم من أن للطفل أو الزنجي أفكاراً، فإنهما لا يملكان الفكرة بعد. "عند الزنوج لم يبلغ الوعي بعد الموضوعية الثابتة، مثلاً الله، والقانون، حيث يملك الإنسان حدس ما هيته"... "الأمر الذي يترتب عليه أن معرفة الماهية المطلقة معدومة هنا كلياً. إن الزنجي يمثل الإنسان الطبيعي في كل افتقاره إلى التقييد" (ص ٩٠). "على الرغم من أنه لا بد أن يكونوا واعين لتبعيتهم للعوامل الطبيعية" (للأشياء كما يقول "شترنر") "فإن هذا الشعور لا يؤدي بهم على أية حال إلى وعي كائن أعلى" (ص ٩١).

إننا نصادف هنا من جديد تحديدات شترنر للطفل والزنجي: التبعية للأشياء، والاستقلال بالنسبة إلى الأفكار، وعلى الأخص "الفكر"، و"الماهية"، و"الماهية المطلقة" (المقدسة)، الخ.

لقد وجد أيضاً المغول، والصينيين بصورة خاصة، عند هيغل الذي يرى فيهم بداية التاريخ، وما دام التاريخ عند هيغل أيضاً هو تاريخ أرواح (لكن ليس بذلك القدر من الصبيانية (puérile) الذي نصادفه عن "شترنر")، فإنه من البديهي أن المغول هم الذين أدخلوا الروح إلى التاريخ وهم الممثلون الأصليون لكل شيء "مقدس". وبصورة خاصة يصف هيغل في الصفحة ١١٠ "المملكة المغولية" (للدالاي لاما Dalai Lama) على أنها "المملكة الروحية"، على أنها "مملكة الحكم الثيوقراطي"، مملكة الروح والدين - بصورة متعارضة مع مملكة الصينيين الدنيوية. وبالطبع فإنه لا بد "لشترنر" أن يوحد الصين مع المغول. وإنه لترد في هيغل، في الصفحة ١٤٠، كلمتا "المبدأ المغولي" اللتان اشتق "شترنر" منهما "مغوليته". وعلى أي حال، فلو أراد حقاً أن يرجع المغول إلى مقولة "المثالية"، فقد كان في مقدوره أن يجد في نظام الدالاي لاما والبوذية "ماهيات روحية مقررة" مختلفة اختلافاً كلياً

عـن "سـلمه السـماوي الهـش". بيـد أن الوقـت لـم يتسـع لـه حتـى للنظـر بصـورة لائقـة فـي فلسـفة التاريـخ لهيغـل. إن خاصيـة موقـف شـترنر مـن التاريـخ وفرادتـه تسـتقيمان فـي أن الأنانـي عنـده يتحـول إلـى ناسـخ "أخـرق" لهيغـل.

ب- الكاثوليكية والبروتستانتية

(راجع "اقتصاد العهد القديم")

إن مـا نسـميه الكاثوليكيـة هنـا يسـميه "شـترنر" "الحقبـة الوسـيطة"، لكـن بمـا أنـه يخلـط (كمـا "فـي جميـع الأشـياء") المحتـوى الدينـي المقـدس للحقبـة الوسـيطة، ديانـة الحقبـة الوسـيطة، مـع الحقبـة الوسـيطة الفعليـة، الدنيويـة، بلحمهـا ودمهـا، فإننـا نفضـل أن نعطـي المسـألة اسـمها الصحيـح فـي الحـال.

كانـت "الحقبـة الوسـيطة مرحلـة طويلـة كان النـاس فيهـا راضيـن بوهـم حيازتهـم الحقيقـة" (لـم يكونـوا يملكـون مطالـب أو نشـاطات أخـرى)، "ومـن دون أن يفكـروا بصـورة جديـة مـا إذا كان يجـب علـى المـرء أن يكـون حقيقيـاً هـو نفسـه كيمـا يمتلـك الحقيقـة"... "فـي الحقبـة الوسـيطة كان البشـر (يعنـي الحقبـة الوسـيطة بأكملهـا) يعذبـون الجسـد، كيمـا يصبحـوا قادريـن علـى أن يأخـذوا المقـدس فـي ذواتهـم" (ص ١٠٨).

يُعرِّف هيغل علاقة الإنسان بالإلهي في الكنيسة الكاثوليكية كما يلي:

"علاقـة بالمطلـق المرجـع إلـى شـيء خارجـي صـرف" (المسـيحية فـي شـكل الوجـود الخارجـي) (تاريـخ الفلسـفة، III، ص ١٤٨، وفـي مواضـع أخـرى). صحيـح أنـه يجـب علـى الفـرد أن يتطهـر كـي يتنـاول الحقيقـة، لكـن "هـذا يجـري أيضـاً بطريقـة خارجيـة: الغفرانـات مدفوعـة الثمـن، الصـوم، وتعذيـب الـذات، وزيـارة الأماكـن المقدسـة، والحـج" (المصـدر ذاتـه، ص ١٤٠).

ويقوم "شترنر" بهذا الانتقال بقوله:

"كمـا يجـب علـى البشـر أن يجهـدوا عيونهـم كـي يشـاهدوا شـيئاً بعيـداً... كذلـك كانـوا يعذبـون الجسـد"، الـخ.

وبما أن الحقبة الوسيطة تتوحد مع الكاثوليكية بالنسبة إلى "شترنر"، فمن الطبيعي أن ينتهي مع لوثر (ص ١٠٨)، وإن لوثر نفسه ليرجع إلى التعريف المفهومي التالي الذي سبقت مصادفته بصدد المراهق، في الحوار مع شيليغا وفي مواضع أخرى:

"إن الإنسان، إذا أراد أن يبلغ الحقيقة، يجب أن يصبح حقيقياً مثل الحقيقة بالذات. إن ذلك الذي يملك الحقيقة بصورة مسبقة في الإيمان يستطيع وحده المشاركة فيها".

ويقول هيغل فيما يتعلق باللوثرية:

"ليس ثمة حقيقة للإنجيل [...] إلا في العلاقة الحقيقية التي تربط الفرد بهذا الإنجيل نفسه... إن العلاقة الجوهرية للروح توجد بالنسبة إلى الروح فقط ... ومن هنا كانت علاقة الروح بهذا المحتوى كما يلي: إن المحتوى جوهري طبعاً، لكن ما لا يقل جوهرية عن ذلك أن الروح المقدس والتكريسي يجب أن يملك علاقة به". (تاريخ الفلسفة، III، ص ٢٣٤). "والحال أن هذا هو الإيمان اللوثري - أنه يطلب منه (أي من الإنسان) "إيماناً هو وحده يمكن أن يؤخذ حقاً بعين الاعتبار" (المصدر ذاته، ص ٢٣٠). "إن لوثر... يؤكد أن الإلهي لا يكون إلهياً إلا بقدر ما يدرك في هذه الروحانية الذاتية للإيمان" (المصدر ذاته، ص ١٣٨). "إن عقيدة الكنيسة" (الكاثوليكية) "هي الحقيقة على أنها حقيقة كائنة" (فلسفة الدين، II، ص ٣٣١).

ويستطرد "شترنر":

"وفقاً لذلك، تنشأ عند لوثر المعرفة بأن الحقيقة، لأنها فكر، لا توجد إلا بالنسبة إلى الإنسان المفكر، وهذا يعني أن على الإنسان أن يتبنى وجهة نظر مغايرة بصورة جذرية، وجهة نظر الإيمان" (بالإبدال) "وجهة النظر العلمية، أو أيضاً وجهة نظر الفكر تجاه موضوعه، الفكرة (idée)" (ص ١١٠).

وإذا تركنا التكرار الذي "يحشره" "شترنر" هنا مرة ثانية، فإن الانتقال من الإيمان إلى الفكر يستأهل وحده الانتباه. ويقوم هيغل بهذا الانتقال على الوجه التالي:

"بيد أن هذا الروح" (ألا وهو الروح المقدس والتكريسي). "هو ثانياً، لكن بصورة

جوهريـة أيضـاً، روح مفكـر. وإن الفكـر، مـن حيـث هـو فكـر، يجـب أن يكـون لـه تطـوره فيـه"، الـخ، (ص ٢٣٤).

ويستطرد شترنر:

"إن هـذه الفكـرة" ("إننـي روح، وروح فقـط") "تتخلـل تاريـخ الإصـلاح حتـى يومنـا الحاضـر" (ص ١١١).

فانطلاقـاً مـن القـرن السـادس عشـر، لا وجـود بالنسـبة إلـى "شـترنر" لأي تاريـخ آخـر غيـر تاريـخ الإصـلاح – وفضـلاً عـن ذلـك فهـو لا يملـك عـن هـذا التاريـخ إلا التصـور الهيغلـي وحـده.

لقـد قـدم القديـس ماكـس مـرة أخـرى برهانـاً علـى إيمانـه العمـلاق. لقـد أخـذ مـرة أخـرى جميـع أوهـام الفلسـفة التأمليـة الألمانيـة علـى أنهـا حقيقـة حرفيـة؛ والحقيقـة أنـه جعلهـا أكثـر تأمليـة وأكثـر تجريـداً أيضـاً. فـلا وجـود بالنسـبة إليـه إلا لتاريـخ الديـن والفلسـفة - وهـذا التاريـخ لا وجـود لـه عنـده إلا مـن خـلال وسـاطة هيغـل، الـذي أصبـح مـع مـرور الزمـن المـذود العـام، المرجـع بالنسـبة إلـى جميـع الألمـان الذيـن ينخرطـون فـي الوقـت الحاضـر فـي التأمـل بشـأن المبـادئ وفـي صناعـة الأنظمـة،

الكاثوليكية = العلاقة بالحقيقة من حيث هي موضوع، الطفل، الزنجي، "الأقدمون".

البروتستانتية = العلاقة بالحقيقة في الروح، المراهق، المغولي، "المحدثون".

وكان المخطط نافلاً برمته، ما دام هذا كله قد توافر من قبل في القسم عن "الروح".

وكمـا نـوه مـن قبـل فـي "اقتصـاد العهـد القديـم"، فإنـه فـي الإمـكان الآن فـي إطـار البروتسـتانتية إظهـار الطفـل والمراهـق علـى المسـرح مـن جديـد فـي "أشـكال" جديـدة، كمـا يفعـل "شـترنر" فعليـاً فـي الصفحـة ١١٢، حيـث الفلسـفة التجريبيـة الإنكليزيـة تمثـل الطفـل، بصـورة متعارضـة مـع المراهـق الـذي يجسـد الفلسـفة التأمليـة الألمانيـة. وإنـه لينهـب هنـا هيغـل مـن جديـد، الـذي يظهـر فـي هـذا الموضـع، كمـا فـي أماكـن أخـرى عديـدة مـن "الكتـاب"، علـى أنـه "المـرء".

"طـرد المـرء" - أي هيغـل - "بيكـون مـن مملكـة الفلسـفة". "وفـي الحقيقـة إن ما يسـمى الفلسـفة الإنكليزيـة لـم تمـض فيمـا يبـدو إلـى أبعـد مـن الاكتشـافات التـي حققهـا مفكـرون نيِّـرون فيمـا يقـال مـن أمثـال بيكـون وهيـوم" (ص ١١٢).

ويعبِّر هيغل عن هذا كما يلي:

"إن بيكـون هـو فـي الحقيقـة الزعيـم الحقيقـي والممثـل الفعلـي لمـا يسـمى الفلسـفة فـي إنكلتـرا، ولـم يتجـاوزه الإنكليـز بعـد فـي أي حـال مـن الأحـوال" (تاريـخ الفلسـفة، III، ص ٢٥٤).

إن البشـر الذيـن يسـميهم "شـترنر" "مفكريـن نيريـن" يسـميهم هيغـل (المصـدر ذاتـه، ص ٢٥٥) "الرجـال المثقفيـن فـي العالـم"، الذيـن يحولهـم القديـس ماكـس فـي إحـدى المناسـبات إلـى "بسـاطة الطبيعـة الطفوليـة"، ذلـك أنـه يجـب علـى الفلاسـفة الإنكليـز أن يمثلـوا الطفـل. وإن بيكـون ليحظـر عليـه، لهـذا السـبب السـخيف ذاتـه، أن يكـون قـد "عنـي بقضايـا اللاهـوت ومسـائله الرئيسـية"، كائنـة مـا كانـت شـهادة مؤلفاتـه (وعلـى الأخـص De Augmentis scientiarum Novum Organum، والدراسـات et les essais). وبالمقابـل، فـإن "الفكـر الألمانـي... هـو الـذي يكتشـف فـي المحـل الأول الحيـاة فـي... المعرفـة بالـذات" (ص ١١٢)، ذلـك أنـه المراهـق. وهـذا كريسـبينوس مـن جديـد [٨١]!

أمـا كيـف يحـول شـترنر ديـكارت إلـى فيلسـوف ألمانـي، فيسـتطيع القـارئ أن يـرى ذلـك بنفسـه فـي "الكتـاب"، ص١١٢.

٤ - التراتب

لـم يـرَ جـاك المغفـل فـي التاريـخ، فـي كل عرضـه السـابق، إلا نتـاج الأفـكار المجـردة - أو بالأحـرى نتـاج أفـكاره الخاصـة عـن هـذه الأفـكار المجـردة - إن التاريـخ بالنسـبة إليـه مسـيّر بهـذه الأفـكار التـي تنحـل جميعـاً، فـي آخـر تحليـل، فـي "المقـدس". وإن هـذه السـيطرة "للمقـدس"، للفكـر، للفكـرة المطلقـة الهيغليـة، علـى العالـم التجريبـي هـي التـي سـيعمد الآن إلـى وصفهـا، ممثـلاً إياهـا علـى أنهـا علاقـة تاريخيـة قائمـة فـي الوقـت الحاضـر، علـى أنهـا هيمنـة القديسـين، هيمنةالإيديولوجييـن علـى العالـم المبتـذل- ذلـك هـو التراتـب (Hiérarchie) . وإننـا لنجـد فـي هـذا التراتـب أن مـا كان مـن قبـل متتاليـة (succession) يصبـح الآن متزامنـاً (simultané)، بحيـث أن أحـد الشـكلين الموجوديـن للتطـوّر يسـود الشـكل الآخـر. وهكـذا فـإن المراهـق يسـود

الطفـل، والمغولـي يسـود الزنجـي، والحديـث يسـود القديـم، والأنانـي الـذي يضحـي بنفسـه (المواطن[*]) يسـود الأنانـي بالمعنـى العـادي للكلمـة (البورجـوازي[**])، الـخ - أنظـر: اقتصـاد العهـد القديـم. مـن قبـل كان "عالـم الأفـكار" "يدمـر" "عالـم الأشـياء"؛ أمـا هنـا فـإن "عالـم الأفـكار" يسـود "عالـم الأشـياء". ومـن الطبيعـي أن الحصيلـة لا بـد أن تكـون الهيمنـة التـي يمارسـها "عالـم الأفـكار" منـذ البدايـة فـي التاريـخ تمثـل كذلـك فـي نهايـة هـذا التاريـخ علـى أنهـا هيمنـة المفكريـن الحقيقيـة - وفـي آخـر تحليـل، كمـا سـيتبين لنـا، هيمنـة الفلاسـفة التأمليـن - علـى عالـم الأشـياء، بحيـث لا يتبقـى أمـام القديـس ماكـس إلا أن يقاتـل ضـد أفـكار الإيديولوجييـن وتصوراتهـم وأن يتغلـب عليهـا كيمـا يجعـل نفسـه "مالـكاً لعالـم الأشـياء وعالـم الأفـكار".

"التراتـب هوهيمنـة الفكـر، هيمنـة الـروح. ونحـن لا نـزال خاضعيـن للتراتـب حتـى يومنـا الحاضر، خاضعيـن لنيـر أولئـك الذيـن يعتمـدون علـى الأفـكار، والأفـكار" - مـن ذا لـم يلاحـظ ذلـك منـذ زمـن طويـل؟ - "هـي المقـدس" (ص ٩٧). (لقـد حـاول شـترنر أن ينفـي هـذه التهمـة بأنـه لـم ينتـج فـي كتابـه برمتـه سـوى "الأفـكار"، أي "المقـدس"، بعـدم إنتاجـه فعليـاً أيـة أفـكار فـي أي موضـع منـه علـى الإطـلاق. وصحيـح أنـه ينسـب إلـى نفسـه فـي مجلـة ويغـان الفصليـة "البراعـة فـي التفكيـر"، (أي حسـب تفسـيره الخـاص البراعـة فـي صنـع "المقـدس" - وهـذا مـا نعتـرف لـه بـه) -"إن التراتـب هـو الهيمنـة الأسـمى للـروح" (ص ٤٦٧). -"لـم يكـن التراتـب فـي الحقبـة الوسـيطة إلا تراتبـاً ضعيفـاً، ذلـك أنـه كان ملزمـاً بـأن يسـمح لبربريـة العالـم الدنـس بالوجـود معـه مـن دون قيـد فـي جميـع أشـكالها" (سـوف نـرى آجـلاً "مـن أيـن يعـرف شـترنر مثـل هـذه المعرفـة الجيـدة كل مـا كان التراتـب ملزمـاً بـأن يفعلـه") "والإصـلاح وحـده قـد وطـد سـلطان التراتـب" (ص ١١٠). فـي الحقيقـة أن "شـترنر" يحسـب أن "هيمنـة الأرواح لـم تكـن مـن قبـل قـط علـى هـذا القـدر مـن الشـمول والقـدرة الكليـة" كمـا هـي الحـال بعـد الإصـلاح؛ إنـه يحسـب أن هـذه الهيمنـة لـلأرواح "بـدلاً مـن أن تفصـل الفـن والدولـة والعلـم عـن المبـادئ الدينيـة فقـد أخرجتهـا مـن الواقـع كليـاً ورفعتهـا إلـى ملكـوت الـروح بفضـل تشـريبها بالديـن".

(*) Citoyen، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Bourgeois، بالفرنسية في النص الأصلي.

إن هـذه النظـرة إلـى التاريـخ الحديـث لا تفعـل سـوى أن تكـرر أيضـاً "بإسـهاب[*] الوهـم القديـم للفلسـفة التأمليـة بشـأن هيمنـة الـروح فـي التاريـخ. وفـي الحقيقـة أن هـذه الفقـرة لتبيـن أيضـاً بـأي إيمـان أعمـى يأخـذ جـاك المغفـل السـاذج النظـرة إلـى العالـم المسـتمدة مـن هيغـل، التـي باتـت تقليديـة بالنسـبة إليـه، علـى أنهـا العالـم الواقعـي، و"ينـاور" علـى هـذا الأسـاس. وإن كل مـا يمكـن أن يتـراءى علـى "خاصتـه" و"أوحـده" فـي هـذه الفقـرة إنمـا هـو هـذا التراتـب الـذي يشـكل تصـوره الشـخصي عـن هيمنـة الأرواح - وههنـا أيضـاً سـوف "نـدرج" "تأمـلاً" تاريخيـاً مقتضبـاً عـن أصـل "التراتـب عنـد شـترنر".

يقول هيغل آراءه عن فلسفة التراتب "بالأشكال" التالية:

"شـاهدنا فـي جمهوريـة أفلاطـون الفكـرة بـأن علـى الفلاسـفة أن يحكمـوا العالـم؛ وإن هـذه اللحظـة مـن التاريـخ" (الحقبـة الوسـيطة الكاثوليكيـة) "هـي الحقبـة التـي يتـم التأكيـد فيهـا أن الروحـي يجـب أن يهيمـن؛ بيـد أن الروحـي اكتسـب معنـى دقيقـاً: السـلطة الإكليريكيـة[**]، رجـال الأكليـروس، هم الذيـن يجـب أن يهيمنـوا. وهكـذا فـإن الروحـي قـد جعـل كائنـاً خصوصيـاً، فـرداً". (تاريـخ الفلسـفة، III، ص ١٣٢) -"وبذلـك فـإن الواقـع، الحيـاة الدنيويـة، قـد نبذهمـا اللـه... فبعـض الأشـخاص الفـرادى وحدهم مقدسـون، والآخـرون دنيويـون" (المصـدر ذاتـه، ص ١٣٦). وأنـه ليحـدد بصـورة أدق "النبـذ الإلهـي" كمـا يلـي: "إن جميـع هـذه الأشـكال" (الأسـرة، العمـل، الحيـاة العاملـة، الـخ) "تعتبـر باطلـة، دنيويـة" (فلسـفة الديـن، II، ص ٣٤٢). "إن هـذه الأشـكال هـي اتحـاد مـع الدنيويـة الشرسـة، الدنيويـة فـي ذاتهـا، فـي الحالـة الخـام" (ويسـتخدم هيغـل لهـا فـي مـكان آخـر كلمـة "بربريـة" (راجـع مثـلاً تاريـخ الفلسـفة، III، ص ١٣٦)، "وهـذه الدنيويـة، فـي الحالـة الخـام، لا يمكـن إلا أن تكـون مهيمنـة" (فلسـفة الديـن، II، ص ٣٤٢، ٣٤٣). -"وبالتالـي فـإن هـذه الهيمنـة" (تراتـب الكنيسـة الكاثوليكيـة) "هـي هيمنـة الهـوى، علـى الرغـم مـن ادعائهـا بأنهـا هيمنـة الروحـي" (تاريـخ الفلسـفة، III، ص ١٣٤). - "والحـال إن هيمنـة الـروح الحقيقيـة لا يمكـن أن تكـون هيمنـة حيـث العنصـر المضـاد فـي حالـة الخضـوع أبـداً"

(*) in extenso ، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) إن العبارتين متقاربتان في الألمانية Das Geistige (الروحي) وDas Geisscliche (الأكليريكي).

(المصدر ذاته، ص ١٣١). - "إن المعنى الحقيقي هو أن الروحي بصفته هذه" ("المقدس" حسب "شترنر") "يجب أن يكون العنصر الحاسم، وهذا هو ما جرى حتى زمننا؛ وهكذا فإننا نرى في الثورة الفرنسية" (وهذا ما يراه "شترنر" وهو يتأثر خطى هيغل) "إن الفكرة لمجردة يحب أن تهيمن: فهي التي يجب أن تقرر دساتير الدولة وقوانينها؛ وهي التي يجب أن تشكل الرابطة بين البشر، ويجب أن يكون البشر واعين لأن القيم القائمة فيما بينهم هي أفكار مجردة، الحرية، المساواة، الخ،" (تاريخ الفلسفة، III، ص ١٣٢). ويحدد هيغل هيمنة الروح الحقيقية كما أتت البروتستانتية بها، بصورة متعارضة مع شكلها الناقص في التراتب الكاثوليكي، بالعبارات التالية: "إن الحياة الدنيوية في ذاتها تصيَّر روحية" (تاريخ الفلسفة، III، ص ١٨٥). "إن الإلهي يتحقق في مجال الحياة الواقعية" (وبالتالي فإن الواقع لا يظل منبوذاً من الله كما في الكاثوليكية - فلسفة الدين، II، ص ٣٤٣)؛ إن "التناقض" بين القداسة والدنيوية "ينحل في الحياة الأخلاقية" (فلسفة الدين، II، ص ٣٤٣)؛ "إن المؤسسات الأخلاقية" (الزواج، الأسرة، الدولة، النشاط الحرفي، الخ) "إلهية، مقدسة" (فلسفة الدين، II، ص ٣٤٤).

ويعبّر هيغل عن هذه الهيمنة الحقيقية للروح في شكلين مختلفين:

"الدولة، الحكومة، القانون، الملكية، النظام المدني" (وكذلك الفن والعلم، الخ، كما نعرف من مؤلفاته الأخرى)، "هذه جميعاً هي العنصر الديني... معيناً نفسه في شكله المحدود" (تاريخ الفلسفة، III، ص ١٨٥).

وأخيراً، فإن هذه الهيمنة للعنصر الديني، الروحي، الخ، يعبّر عنها على أنها هيمنة الفلسفة:

"إن وعي الروحي هو الآن" (في القرن الثامن عشر) "الأساس الجوهري، وبذلك انتقلت الهيمنة إلى الفلسفة" (فلسفة التاريخ، ص ٤٤٠).

وهكذا فإن هيغل ينسب إلى التراتب الكاثوليكي للحقب الوسيطة النية في "أن تكون هيمنة الروح"، بدليل أنه يعتبره شكلاً محدوداً ومنقوصاً لهذه السيطرة للروح والتي تشكل البروتستانتية كما يزعم ذروة تطورها اللاحق. ومهما يمكن أن تكون وجهة النظر هذه

مناقضة للتاريخ، فإن هيغل ليتحلى على أية حال بقدر كافٍ من الذهنية التاريخية بحيث لا يتمادى في بسط عبارة "التراتب" ما وراء حدود الحقب الوسيطة. لكن القديس ماكس تعلم، عند هيغل نفسه، أن الحقبة اللاحقة هي "حقيقة" الحقبة السابقة؛ وبالتالي فإن هيمنة الروح الكاملة تشكل حقيقة تلك الحقبة التي كانت هيمنة الروح فيها منقوصة بعد حتى درجة كبيرة، بحيث كانت البروتستانتية حقيقة التراتب، وبالتالي كانت التراتب الحقيقي. وعلى أية حال، فما دام التراتب الحقيقي وحده يستحق أن يدعى تراتباً، فإنه من الواضح أن تراتب الحقب الوسيطة لا بد أن يكون "ضعيفاً"، وكان من الأيسر على شترنر أن يثبت ذلك بقدر ما كان هيغل يصف هيمنة الروح في الحقب الوسيطة بالمنقوصة، في الفقرة الواردة وفي مئات الفقرات الأخرى. ولم تكن به حاجة لأكثر من أن ينسخ هذه الفقرات جميعاً، فكل عمله "الخاص" يستقيم في استبداله كلمة "تراتب" بكلمة "هيمنة الروح". ولم تكن به حاجة حتى إلى صياغة الحجة البسيطة التي تمكن هيمنة الروح من التحول من دون مزيد من الضوضاء إلى تراتب. ألم يكن رأياً شائعاً بين المنظرين الألمان أن يعطوا النتيجة اسم السبب بحيث يردون مثلاً إلى مقولة اللاهوت جميع الأمور التي نشأت عن اللاهوت والتي لم ترتفع بعد على وجه الدقة إلى مستوى مبادئ هؤلاء المنظرين- مثلاً فلسفة هيغل التأملية ووحدانية الوجود عند شتراوس، الخ- وهي حيلة سادت بصورة خاصة عام ١٨٤٢. وإنه ليترتب كذلك على الفقرات الواردة أعلاه أن هيغل:

١- يعتبر الثورة الفرنسية طوراً جديداً وأكثر كمالاً لهيمنة الروح هذه؛

٢- يرى في الفلاسفة حكام العالم في القرن التاسع عشر؛

٣- يؤكد إن الأفكار المجردة وحدها تملك قيمة بين الناس في الوقت الحاضر؛

٤- إن الزواج والأسرة والدولة والنشاط الحرفي والنظام المدني والملكية، الخ، تعتبر بصورة مسبقة "إلهية ومقدسة" بوصفها "العنصر الديني"؛

٥- إنه يقدم الأخلاق، بوصفها القداسة الدنيوية أو الدنيوية المقدسة، على أنها الشكل الأعلى والأخير لهيمنة الروح على العالم - وهي جميعاً أمور تتكرر كلمة فكلمة عند "شترنر".

ووفقـاً لذلـك، فليـس ثمـة حاجـة إلـى قـول المزيـد أو إثباتـه بشـأن تراتـب شـترنر باسـتثناء - السـبب فـي أن القديـس ماكـس نسـخ هيغـل - وهـي حقيقـة لا بـد علـى أيـة حـال مـن أجـل تفسـيرها مـن المزيـد مـن المعطيـات الماديـة، وبالتالـي فهـي لهـذا السـبب بالـذات غيـر قابلـة للتفسـير إلا بالنسـبة إلـى أولئـك الذيـن ألفـوا الجـو البرلينـي جيـداً. أمـا كيـف نشـأت الفكـرة الهيغليـة عـن هيمنـة الـروح، فتلـك مسـألة أخـرى، وبهـذا الشـأن أنظـر مـا قيـل أعـلاه.

إن السـبب فـي أن القديـس ماكـس يتبنـى الفكـرة الهيغليـة عـن هيمنـة الفلاسـفة علـى العالـم ويحولهـا إلـى تراتـب يكمـن فـي الانعـدام المطلـق للفكـر النقـدي لـدى قديسـنا وفـي سـذاجته، وكذلـك فـي جهالتـه "المقدسـة" أوغيـر المقدسـة(*) إنـه يكتفـي بإلقـاء نظـرة سـريعة علـى محتـوى التاريـخ (يعنـي فـي حقيقـة الأمـر برؤيـة التاريـخ مـن خـلال(**) مؤلفـات هيغـل التاريخيـة) مـن دون أن "يعـرف" "الشـيء" الكثيـر عنـه. وبالفعـل، فلـم يكـن لـه بـد أن يخشـى أنـه حالمـا "يعلـم" شـيئاً مـا، فإنـه سـيكون عاجـزاً عـن "النقـض بواسـطة الحـل" (ص ٩٦)، وأنـه سـوف يبقـى إذن، يتخبـط فـي "نشـاط الحشـرة الصاخـب" - وهـو سـبب كافٍ كـي لا يعمـد إلـى "نقـض" جهالتـه الخاصـة "بواسـطة حلهـا".

إن ذلـك الـذي ينصـرف للمـرة الأولـى، مثـل هيغـل، إلـى إنشـاء مثـل هـذا المخطـط الـذي ينطبـق علـى التاريـخ بكاملـه وعلـى عالـم اليـوم الراهـن فـي كل اتسـاعه، لا يسـتطيع بالتأكيـد أن يفعـل ذلـك مـن دون المعـارف الوضعيـة الجامعـة، ومـن دون طاقـة عظيمـة وبصيـرة نافـذة، كمـا أنـه لا يمكـن أن يسـتغني عـن معالجـة التاريـخ التجريبـي فـي بعـض الفقـرات علـى الأقـل. ومـن جهـة أخـرى، فـإذا كان المـرء راضيـاً باسـتثمار مخطـط قائـم مـن قبـل وتحويلـه لأغراضـه الخاصـة، وبيـان هـذا المفهـوم "الشـخصي" بواسـطة أمثلـة معزولـة (كالزنـوج والمغـول، والكاثوليكييـن والبروتسـتانتيين، والثـورة الفرنسـية، الـخ)- وهـذا هـو بالضبـط مـا يفعلـه مقاتلنـا (zélateur) ضـد المقـدس - فـإن أيـة معرفـة بالتاريـخ ليسـت ضروريـة علـى الإطـلاق إذن. وإن نتيجـة هـذا الاسـتغلال لا يمكـن إلا أن تكـون مضحكـة: وإن كومبـل (le comble) المضحـك يطفـح

(*) تورية لفظية تصعب ترجمتها: مقدسة (Heilig). وعضالة (Heillos).

(**) تورية لفظية أخرى: durchschauen (ألقى نظرة سريعة)، وdurchschaueng (نظر من خلال).

عندما يقفز المرء من الماضي إلى صلب الحاضر المباشر، وقد شاهدنا من قبل أمثلة على ذلك بخصوص "الهاجس".

أما بالنسبة إلى التراتب الفعلي في الحقبة الوسيطة، فسوف نكتفي هنا بالإشارة إلى أنه لم يكن له وجود على الإطلاق بالنسبة إلى الشعب، إلى الجمهرة الكبرى من الكائنات البشرية. فبالنسبة إلى الكتلة الكبرى من البشر لم يكن ثمة وجود سوى للإقطاعية، ولم يكن التراتب موجوداً إلا بقدر ما كان هو نفسه إقطاعياً أو ضد إقطاعي (ضمن إطار الإقطاعية). ولقد كان للإقطاعية نفسها علاقات تجريبية كلياً بأساسها. وليس التراتب ونضالاته ضد الإقطاعية (نضالات إيديولوجيي طبقة ضد هذه الطبقة بالذات) سوى التعبير الإيديولوجي للإقطاعية وللنضالات النامية ضمن الإقطاعية بالذات- وهي تشتمل أيضاً على النضالات المحتدمة بين الأمم المنظمة إقطاعياً. إن التراتب هو الشكل المثالي للإقطاعية؛ والإقطاعية هي الشكل السياسي لعلاقات الإنتاج والتعامل السائدة في الحقبة الوسيطة. وبنتيجة ذلك، فإنه لا يمكن تفسير نضال الإقطاعية ضد التراتب إلا بتحليل هذه العلاقات المادية العملية. وإن هذا الشرح ليضع من تلقاء ذاته حداً لتصور التاريخ السائد حتى الوقت الراهن، الذي كان يأخذ أوهام الحقبة الوسيطة على أساس الثقة، وبشكل خصوصي تلك الأوهام التي عمل الامبراطور والبابا على نشرها في نضالهما ضد بعضهما بعضاً.

وما دام القديس ماكس لا يفعل سوى إرجاع التجريدات الهيغلية عن الحقبة الوسيطة والتراتب إلى "كلمات طنانة وأفكار تافهة"، فليس هناك حافز لدراسة التراتب الفعلي، التراتب التاريخي، بمزيد من التفصيل.

وإنه ليتضح الآن مما سبق أن الخدعة يمكن قلبها أيضاً، فتعتبر الكاثوليكية ليس على أنها مرحلة أولية فحسب، بل على أنها إنكار للتراتب الحقيقي أيضاً؛ وهكذا فإن الكاثوليكية = إنكار الروح، اللا روح، الحسية، ويستغل جاك المغفل هذه الفرصة ليقذفنا بموضوعته العظمى عن اليسوعيين (Jésuites) الذين "أنقذونا من اضمحلال الحسية وانحطاطها" (ص ١١٨). ما عساه كان يحدث "لنا" لو أن "انحطاط" الحسية تحقق، هذا ما لا نعلمه. إن مجمل الحركة المادية منذ القرن السادس عشر، التي لم "تنقذنا" من "اضمحلال" الحسية، بل على

النقيض من ذلك أعطت هذه "الحسية" أشكالاً أكثر تطوراً حتى درجة عظيمة، لا وجود لها بالنسبة إلى "شترنر" -إن اليسوعيين هم الذين فعلوا ذلك كله. وعلى أي حال، قارن مع فلسفة التاريخ لهيغل، ص ٤٢٥.

وأما نقل القديس ماكس الهيمنة القديمة للإكليريكيين إلى الحقب الحديثة، فإنه ينتهي إلى تعريف هذه الحقب على أنها "الإكليريكية"؛ ومن بعد، إذ يعيّن من جديد الفرق الذي يفصل بين هذه الهيمنة للإكليريكيين المنقولة إلى الحقب الحديثة عن هيمنة الكهنة في الحقبة الوسيطة، فإنه يصورها على أنهاهيمنة الإيديولوجيين، على أنها "المدرسية". وهكذا فإن الإكليريكية = التراتب من حيث هو هيمنة الروح، والمدرسية = هيمنة الروح من حيث هي التراتب.

ويحقق "شترنر" هذا الانتقال البسيط إلى الإكليريكية - الذي ليس هو انتقالاً على الإطلاق - بواسطة ثلاث تحولات جسيمة.

أولاً، إن "لديه" "مفهوم الإكليريكية" في أي امرئ "يحيا من أجل فكرة عظيمة، من أجل قضية صالحة" (القضية الصالحة بعد!)، "من أجل عقيدة الخ".

ثانياً، إن شترنر في عالمه من الوهم "يصطدم ضد" "الوهم القديم" جداً لعالم لم يتعلم بعد أن يستغني عن "الكهنة"، يعني لا يزال "يحيا ويعمل في سبيل فكرة، الخ".

ثالثاً، تلك هي "هيمنة الفكرة، يعني الإكليريكية"، ذلك أن "روبسبيير على سبيل المثال" (على سبيل المثال!)، "وسان جوست، وهكذا دواليك" (هكذا دواليك!) "قد كانوا كهنة حتى الصميم"، الخ. إن هذه التحولات الثلاثة حيث "تُكتشف" الإكليريكية، و"تُسبر"، و"تُستحضر" (هكذا كله في الصفحة ١٠٠)، لا تعبّر بالتالي عن أي شيء أكثر مما أخبرنا به القديس ماكس من قبل عدة مرات، ألا وهو هيمنة الروح، الفكرة، المقدس، على "الحياة" (المصدر ذاته).

وبعدما تفرض "هيمنة الفكرة أو الإكليريكية" كأساس على التاريخ بهذه الصورة، فإن في مقدور القديس ماكس طبعاً، من دون مشقة، أن يجد هذه "الإكليريكية" من جديد في كل التاريخ السابق، وبذلك يصور "روبسبيير على سبيل المثال وسان جوست وهكذا دواليك" على أنهم كهنة ويوحدهم مع أنوسان الثالث (Innocent III) وغريغوريوس السابع

(Grégoire VII)، بحيث أن كل الأوحدية تتلاشى في مواجهة الأوحد. أليسوا جميعاً، بمعنى الكلمة الصحيح، مجرد أسماء مختلفة، أقنعة مختلفة لشخص واحد، "الإكليريكية" التي صنعت التاريخ كله منذ أوائل المسيحية؟ أما كيف "تصبح القطط جميعاً رمادية اللون" في هذه الطريقة لتصور التاريخ، ما دامت جميع الفروق التاريخية قد "نقضت" و"حلّت" في "فكرة الإكليريكية" - فإن القديس ماكس يعطينا في الحال مثالاً باهراً عنه في "روبسبيير على سبيل المثال وسان جوست وهكذا دواليك".إنه يبدأ هنا بإيراد روبسبيير بادئ الأمر على أنه "مثال" عن سان جوست، ومن بعد سان جوست - على أنه "وهكذا دواليك" لروبسبيير. ومن ثم يضيف:

"إن هؤلاء الممثلين للمصالح المقدسة" يجابهون عالماً من المصالح "الشخصية"، "الدنيوية"، "التي لا حصر لها".

وبالفعل، من كان يجابههم؟ الجيرونديون والتيرميدوريون[٨٢] الذين كانوا يأخذون باستمرار على هؤلاء الممثلين الحقيقيين للقوى الثورية، أي للطبقة التي كانت وحدها ثورية حقاً! الكتلة "التي لا حصر لها" (أنظر "على سبيل المثال" مذكرات ر. لوفاسور[٨٣]، "وهكذا دواليك"، "أي" تاريخ السجون لنوغاريه[٨٤]، وصديقان للحرية (والتجارة[*]) لبارير[٨٥]، وتاريخ فرنسا لمونتغايار[٨٦]، ونداء إلى الأجيال القادمة[٨٧] لمدام رولان، ومذكرات ج. ب. لوفيه[٨٨]، وحتى الأبحاث التاريخية المقرفة لبوليو[٨٩]، الخ، وكذلك جميع محاضر جلسات المحكمة الثورية، "وهكذا دواليك") - يأخذون عليهم إذن، انتهاكهم "المصالح المقدسة"، للدستور، والحرية، والمساواة، وحقوق الإنسان، والمؤسسات الجمهورية، والقانون، والملكية المقدسة[**]، "على سبيل المثال" تقسيم السلطات، والإنسانية، والأخلاق، والاعتدال، "وهكذا دواليك". لقد كان يعارضهم جميع الكهنة، الذين اتهموهم بانتهاك جميع البنود الرئيسية والثانوية لكتاب التعليم المسيحي الديني والخلقي (أنظر "على

(*) et du commerce، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) sainte propriété، بالفرنسية في النص الأصلي.

سبيل المثال" تاريخ إكليروس فرنسا أثناء الثورة، بقلم م. ر.[٩٠] باريس، كتبي كاثوليكي، ١٨٢٨، "وهكذا دواليك"). إن التفسير البورجوازي القائل إنه خلال حكم الإرهاب[*] عمد "روبسبيير على سبيل المثال وسان جوست وهكذا دواليك" إلى قطع رؤوس بشر شرفاء[**] (أنظر "على سبيل المثال" الكتابات العديدة للكاتب السيد بيلتييه، مؤامرة روسبيير بقلم مونجوا[٩١]، "وهكذا دواليك"). يستأنفه القديس ماكس الذي يعطيه التحول التالي:

"لما كان الكهنة والمؤدبون الثوريون يخدمون الإنسان، فقد قطعوا أعناق البشر".

وإن هذا ليوفرعلى القديس ماكس بالطبع عبء إضاعة حتى كلمة صغيرة "وحداء" عن الأسباب التجريبية الفعلية الداعية إلى قطع الرؤوس - وهي أسباب قائمة على مصالح دنيوية حتى الدرجة القصوى، وإن لم تكن بالطبع مصالح المضاربين في سوق الأوراق المالية[***]، بل مصالح الكتلة "التي لا حصر لها". وإن "كاهناً سابقاً، سبينوزا ، قد وجد في القرن السابع عشر الوقاحة على أن يلعب دور "الناقد الصارم" المتوقع للقديس ماكس حين قال: "ليست الجهالة حجة". ومن هنا كان الحقد العظيم الذي يضمره القديس ماكس لسبينوزا الكاهن بحيث يتبنى الكاهن ليبيني على أنه النقيض الإكليريكي لسبينوزا ويجد "أسباباً كافية" لجميع تلك الظواهر الغريبة كالإرهاب "على سبيل المثال"، والمقصلة، "وهكذا دواليك"، ألا وهي أن "الناس الروحانيين حشوا رؤوسهم بشيء من هذا القبيل" (ص ٩٨).

يا لماكس السعيد الذي يجد أسباباً كافية لجميع الأمور ("لقد وجدت الآونة القاع الذي سترسو فيه مرساتي إلى الأبد")[٩٢]. وأين يمكن أن يكون هذا القاع إن لم يكن في الفكرة، "على سبيل المثال" في "الإكليريكية"، و"هكذا دواليك" "لروبسبيير، على سبيل المثال، وسان جوست وهكذا دواليك"، وجورج صاند، وبرودون[٩٣]، فضلاً عن الخياطة البرلينية العفيفة، الخ) - إن ماكس السعيد إذن، "لا يأخذ على طبقة البورجوازية أنها استشارات

(*) règne du terreur، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) honnêtes gens، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) agioteurs، بالفرنسية في النص الأصلي.

أنانيتها الخاصة لتعرف حتى أي مدى يمكن أن تفسح المجال للفكرة الثورية". فعند القديس ماكس أن "الفكرة الثورية" التي ألهمت الثياب الزرق(*) والبشر الشرفاء(**) لعام ١٧٨٩ هي "الفكرة" نفسها التي كانت تلهم اللا متسرولين(٩٤) في عام ١٧٩٣، الفكرة نفسها التي يتساءل بشأنها ما إذا كان يجب "إفساح المجال" لها- لكن لا يمكن "إفساح المجال" بعد الآن لأية "فكرة" مهما كانت استناداً إلى تلك التأكيدات.

نأتي الآن إلى تراتب اليوم الحاضر، إلى هيمنة الفكرة في الحياة العادية. لقد غاص كل القسم الثاني من "الكتاب" في النضال ضد هذا "التراتب"، ولذا فسوف نعالجه مفصلاً حين نصل إلى هذا القسم الثاني. لكن مادام القديس ماكس يغتبط، كما هو الأمر في الفصل عن "الهاجس"، في أن يستبق أفكاره هنا ويقول في البداية ما لن يرد إلا لاحقاً، كما يكرر لاحقاً ما سبق أن قاله في البداية، فإننا ملزمون بأن نسجل منذ الآن بعض النماذج عن تراتبه. إن طريقته في تأليف كتاب لا تذهب ما وراء "الأنانية" التي تصادف في الكتاب برمته. وإن غبطة شترنر الذاتية وسرور القارئ لفي تناسب عكسي.

إن البورجوازيين الذين يطالبون بالحب من أجل مملكتهم، من أجل نظامهم(***)، يريدون، وفقاً لجاك المغفل، أن "يشيدوا مملكة الحب على الأرض" (ص ٩٨). وإنهم ليطالبوا الناس باحترام هيمنتهم والشروط التي تمارس هذه الهيمنة في ظلها، ويريدون إذن، أن يغتصبوا الهيمنة على الاحترام، الأمر الذي يستنتج صاحبنا الساذج منه أنهم يطالبون بهيمنة الاحترام بصفته هذه، وموقفهم حيال الاحترام هو نفس موقفهم حيال الروح القدس المقيم فيهم (ص ٩٥). إن صديقنا جاك المغفل، بإيمانه الذي يزحزح الجبال، يأخذ على أنه الأساس الأرضي والفعلي للعالم البورجوازي ذلك الشكل المشوه الذي تجاهر به إيديولوجية البورجوازيين المنافقة والكاذبة بمصالحهم الخاصة جداً على أنها مصالح عامة.

(*) habits bleu، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) honnêtes gens، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) régime، بالفرنسية في النص الأصلي.

أما لماذا يتخذ هذا الوهم الإيديولوجي هذا الشكل بالضبط عند قديسنا، فهذا ما سوف نراه بصدد "الليبرالية السياسية".

ويعطينا القديس ماكس مثلاً جديداً في الصفحة ١١٥، حين يتحدث عن العائلة. إنه ليعلن: مما لا شك فيه أنه من السهولة البالغة أن يتحرر المرء من هيمنة عائلته الخاصة، لكن "رفض الولاء يثير بكل سهولة وخزات الضمير"، ولذا يتمسك الناس بحب العائلة، وبمفهوم العائلة، وهكذا يحصلون على "تصور العائلة المقدس"، على "المقدس" (ص ١١٦).

إن رجلنا الصالح يرى هنا من جديد هيمنة المقدس حيث لا تسود إلا الشروط التجريبية كلياً. إن موقف البورجوازي من مؤسسات نظامه مثل موقف اليهودي من الناموس: إنه ينتهكها بقدر ما يكون هذا الانتهاك ممكناً، في كل حالة فردية، لكنه يريد من الآخرين جميعاً التقيد بها. وإذا كان البورجوازيون جميعاً سوف يعمدون، في كتلة واحدة وفي الوقت نفسه، إلى انتهاك المؤسسات البورجوازية، فإنهم سيكفون عن كونهم بورجوازيين - وهو سلوك من المؤكد أنه لا يخطر في بالهم مطلقاً ولا يتوقف في أي حال من الأحوال على رغباتهم أو إرادتهم. إن البورجوازي المنحل ينتهك نظام الزواج ويرتكب الزنا سراً؛ وإن التاجر ينتهك مؤسسة الملكية بحرمانه الآخرين من الملكية بواسطة المضاربة، والإفلاس، الخ؛ وإن البورجوازي الشاب يستقل عن عائلته الخاصة، إذا استطاع في الممارسة - ملغياً الروابط العائلية لمصلحته الخاصة. بيد أن الزواج والملكية والعائلة تظل نظرياً أموراً حصينة، لأنها الأسس العملية التي أقامت البورجوازية سيطرتها عليها، ولأنها في شكلها البورجوازي الشروط التي تجعل من البورجوازي بورجوازياً، بالضبط كما أن الناموس المنتهك أبداً يجعل من اليهودي المتدين يهودياً متديناً. إن الأخلاق البورجوازية تشكل أحد المظاهر العامة لهذا الموقف الذي يتخذه البورجوازي حيال شروط وجوده. فالمرء لا يستطيع عموماً أن يتحدث عن العائلة "بصفتها هذه". إن التاريخ يبين أن البورجوازية تسبغ على العائلة طابع العائلة البورجوازية حيث الملل والمال يشكلان الرابطة الوحيدة، وهو الطابع الذي يتضمن أيضاً الانحلال البورجوازي للعائلة، الأمر الذي يمنع العائلة نفسها من

الاستمرار في الوجود دائماً. إن البورجوازي يعيش نمطاً للحياة يبعث على القرف، يقابله في التشدق الرسمي والمراءاة العامة (Hypocrisie Générale) المفهوم المقدس، وحين تنحل العائلة فعلياً، كما هو الأمر بالنسبة إلى البروليتاريا، فإن ما يجري هو نقيض ما يحسبه "شترنر" بالضبط. فهناك لا وجود لمفهوم العائلة على الإطلاق، لكن من المؤكد أننا نصادف هناك ميلاً إلى الحياة العائلية يقوم على علاقات واقعية كلياً. وفي القرن الثامن عشر انحل مفهوم العائلة بفعل هجمات الفلاسفة، لأن العائلة الفعلية كانت قد دخلت مسبقاً عملية الانحلال في الدوائر العليا للمجتمع المتحضر. إن الرابطة العائلية الداخلية قد انحلت، والعناصر المنفصلة التي تشكل مفهوم العائلة قد انحلت، ومثال ذلك الطاعة، والولاء للأسرة، والإخلاص في الزواج، الخ؛ لكن جسد العائلة الفعلي، وشروط الملكية، وحق العائلة المقتصر عليها بالنسبة إلى العائلات الأخرى، والتساكن الإلزامي - وهي علاقات ناجمة عن وجود الأولاد، وبنية المدن الحديثة، وتشكل رأس المال، الخ - قد استمرت في الوجود جميعاً، وإن تكن تعديلات عديدة قد طرأت عليها، لأن وجود العائلة قد جعل ضرورياً من جراء الأواصر التي تربطها بنمط الإنتاج القائم بصورة مستقلة عن إرادة المجتمع البورجوازي. ولقد اتضح هذا الطابع الضروري على أبرز صوره خلال الثورة الفرنسية، حين كانت العائلة على الصعيد القانوني، لفترة من الزمن، في حكم الملغاة. وتستمر العائلة في الوجود حتى في القرن التاسع عشر، سوى أن عملية انحلالها أصبحت أكثر شمولاً، لا من جراء المفهوم، بل من جراء تطور الصناعة والتنافس؛ ولا تزال العائلة موجودة بالرغم من أن الاشتراكيين الفرنسيين والإنكليز قد أعلنوا انحلالها منذ زمن طويل، ومن أن الروايات الفرنسية قد انتهت إلى تعريف آباء الكنيسة الألمان بهذه الحقيقة.

ومثل آخر على هيمنة الفكرة في الحياة اليومية. فقد يحدث أن يعزى معلمو المدارس عن أجورهم الهزيلة بالحديث عن قداسة القضية التي يخدمونها (الأمر الذي لا يمكن أن يحدث إلا في ألمانيا)، لكن جاك المغفل يعتقد فعلياً أن هذا اللغو هو السبب في أجورهم المنخفضة (ص ١٠٠). إنه يعتقد أن "المقدس" في العالم البورجوازي الحالي يملك

قيمـة نقديـة فعليـة، ويعتقـد أن الاعتمـادات الهزيلـة للدولـة البروسـية "أنظـر براوننـغ فـي هـذا الموضـوع"[٩٥] سـوف تـزداد حتـى درجـة كبيـرة مـن جـراء نقـض "المقـدس" بحيـث أن كل معلـم مدرسـة فـي أيـة قريـة يمكـن أن يتنـاول علـى حيـن غـرة مرتـب وزيـر.

هذا هو تراتب السخف.

إن "حجـر زاويـة" التراتـب، "هـذه الكاتدرائيـة النائفـة"- حسـب تعبيـر ميشـيليه العظيـم[٩٦]- هـو "أحيانـاً" مـن عمـل "المـرء".

"يقسِّـم المـرء أحيانـاً الناس إلـى صنفيـن، المثقفيـن والأمييـن" (يقسـم المـرء أحيانـاً القـرود إلـى صنفيـن، المذنّبيـن وغيـر المذنّبيـن). "وإن الأوليـن، بقـدر مـا كانـوا جديريـن باسـمهم، قـد عنـوا بالأفـكار، بالـروح". لقـد "هيمنـوا فـي الحقبـة مـا بعـد المسـيحية وطالبـوا... بالاحتـرام لأفكارهـم". إن الأمييـن (الحيـوان، الطفـل، الزنجـي) "عاجـزون" فـي مواجهـة الأفـكار و"خاضعـون لهـا. هـذا هـو معنـى التراتـب".

وبالتالـي فـإن "المثقفيـن" (المراهـق، المغولـي، الحديـث) هـم مـرة أخـرى معنيـون فقـط "بالـروح"، بالفكـر الصـرف، الـخ؛ إنهـم ميتافيزيقيـون بحكـم مهنتهـم، وفـي آخـر تحليـل هيغليـون. و"مـن هنـا"، فـإن "الأمييـن" هـم غيـر الهيغلييـن. ومما لا ريـب فيـه أن هيغـل قـد كان الهيغلـي الأكثـر ثقافـة، وبالتالـي فـلا بـد فـي حالتـه أن "يتضـح الحنيـن العظيـم إلـى الأشـياء التـي يحسـها الإنسـان الأكثـر ثقافـة علـى وجـه الدقـة". والنقطـة الأساسية هـي أن "المثقـف" و"الأمـي" يتصادمـان الواحـد فـي الآخـر؛ وفـي الحقيقـة أن "الأمـي" هـو فـي كل إنسـان فـي نـزاع مـع "المثقـف". ومـا دام الحنيـن الأعظـم إلـى الأشـياء، وهـو الحنيـن الـذي يدفعـه إذن، نحـو مـا يخـص "الأمييـن"، يتضـح فـي هيغـل، وكذلـك يتضـح هنـا أن الإنسـان "الأكثـر ثقافـة" هـو فـي الوقـت ذاتـه الإنسـان "الأكثـر أميـة".

"هنـاك" (فـي هيغـل) "يجـب أن يقابـل الواقـع الفكـر بصـورة مطلقـة وألا يكـون أي مفهـوم مـن دون واقـع".

ويجـب أن يقـرأ هـذا كمـا يلـي: هنـاك يجـب أن تجـد الفكـرة العاديـة عـن الواقـع التعبيـر الفلسـفي الدقيـق عنهـا؛ والحـال أن هيغـل يتوهـم، علـى النقيـض مـن ذلـك، أن كل تعبيـر فلسـفي

يخلق "بنتيجة ذلك" الواقع الذي يطابقه. إن جاك المغفل يأخذ وهم هيغل عن فلسفته الخاصة على أنه النقد الحقيقي للفلسفة الهيغلية.

إن الفلسفة الهيغلية التي تتوج هذا التراتب في شكل سيطرة الهيغليين على غير الهيغليين تستولي الآن على الامبراطورية العالمية الأخيرة.

"لقد كان نظام هيغل الاستبداد والأوتوقراطية الإسميين للفكر، القدرة المطلقة للروح وجبروته" (ص ٩٧).

وبالتالي، فإننا نجد أنفسنا هنا في المملكة الروحية للفلسفة الهيغلية التي تمتد من برلين حتى هال وتوبنغن، مملكة الأرواح التي كتب تاريخها الهر بايروهوفر[٩٧] والتي جمع لها ميشيليه العظيم المعطيات الإحصائية.

وكانت الثورة الفرنسية قد مهدت لمملكة الأرواح هذه، تلك الثورة التي "لم تفعل شيئاً سوى تحويل الأشياء إلى أفكار عن الأشياء" (ص ١١٥)؛ (راجع أعلاه ما يقوله هيغل عن الثورة، ص [١٨٥]).

"وهكذا بقي البشر مواطنين" (من المؤكد أن "شترنر" يقول هذا في وقت أبكر، لكن "ما يقوله شترنر ليس هو ما يفكر فيه، وما يفكر فيه لا يمكن أن يقال"، ويغان، ص ١٤٩) و"عاشوا في التفكير، إذ كان لديهم موضوع يفكرون فيه، وكانوا أمامه" (بالإبدال) "يحسون الروعة والرهبة". يقول "شترنر" في فقرة الصفحة ٩٨: "إن الطريق إلى الجحيم معبدة بالنوايا الحسنة". لكننا نقول: إن الطريق إلى الأوحد معبدة بالعبارات الختامية السيئة، بالإبدالات، التي هي "سلمه السماوي" المستعار من الصينيين و"حبل الموضوعي" عنده (ص ٨٨)، هذا الحبل الذي يقوم عليه "بوثباته البرغوثية". ووفقاً لذلك، فإنه من السهل بالنسبة إلى "الفلسفة الحديثة أو إذا شئنا الأزمنة الحديثة" - فالحقيقة أن الأزمنة الحديثة ليست منذ قيام مملكة الأرواح شيئاً آخر سوى الفلسفة الحديثة - "تحويل الموضوعات القائمة إلى أفكار عن الموضوعات، أي إلى مفاهيم"، ص ١١٤، وهو عمل يواصله القديس ماكس.

لقد رأينا من قبل فارسنا الفاجع المحيا، حتى "قبل قيام الجبال" التي نقلها بإيمانه في وقت لاحق، في بداية كتابه بالضبط، يندفع بعنان مطلق نحو النتيجة العظمى "لكاتدرائيته

النائفة". لكن "حماره"، الإبدال، ما كان يستطيع أن يعدو بالسرعة التي تروقه؛ وهذا هو الآن، في الصفحة ١١٤، قد بلغ هدفه وحوّل بواسطة "أو" جبارة الأزمنة الحديثة إلى الفلسفة الحديثة.

وبذلك فإن الأزمنة القديمة (أي القديم والحديث، الزنجي والمغولي، لكن بكل معنى الكلمة الأزمنة قبل الشترنرية فقط) "قد بلغت هدفها الأخير". وإننا لنستطيع الآن أن نميط اللثام عن السبب الذي حدا بالقديس ماكس إلى إعطاء عنوان "الإنسان" إلى كل القسم الأول من كتابه وإلى جعل أقاصيصه عن السحرة والأشباح والفرسان تاريخاً "للإنسان". إن أفكار وآراء البشر قد كانت، بكل تأكيد، أفكاراً وآراء تراودهم عن أنفسهم وعن شروط وجودهم؛ لقد كانت الوعي الذي حصلوا عليه عن أنفسهم وعن البشر عموماً - ذلك أنه لم يكن وعياً مقصوراً على فرد وحيد، بل وعياً للفرد في علاقات التبعية التي تربطه بالمجتمع بأسره ووعي المجتمع بأسره الذي يعيشون فيه. إن الشروط المستقلة عنهم، التي ينتجون حياتهم في إطارها، وأشكال علاقات التعامل المرتبطة بها بالضرورة، وما تتضمنه من العلاقات الشخصية والاجتماعية، لا بد أن تتخذ - بقدر ما يتم التعبير عنها في أفكار- شكل شروط مثالية وعلاقات ضرورية، أي لا بد أن يتم التعبير عنها في الوعي في شكل تحديدات ناشئة (determinations issues) عن مفهوم الإنسان بصفته هذه، عن الماهية الإنسانية، عن الطبيعة الإنسانية، عن الإنسان بصفته هذه. إن واقع البشر وواقع علاقاتهم يتخذ في الوعي شكل تصور للإنسان بصفته هذه، تصور أنماط حياته أو تحديداته المفهومية الأكثر دقة. لقد أكد الإيديولوجيون أن الأفكار والآراء سادت التاريخ حتى اليوم الحاضر، وأن تاريخ هذه الأفكار والآراء يشكل كل التاريخ حتى اليوم الحاضر؛ ولقد توهموا أن العلاقات الفعلية تطابقت مع الإنسان بصفته هذه ومع علاقاته المثالية، يعني تحديداته المفهومية؛ ولقد اتخذوا تاريخ وعي الناس لأنفسهم أساساً لتاريخهم الفعلي. وبعد هذا كله ليس أيسر من أن نسمي تاريخ الوعي، والأفكار، والمقدس، والتصورات الجامدة تاريخ "الإنسان" وأن نحله محل التاريخ الفعلي. وإن الفرق الوحيد بين القديس ماكس وجميع السابقين له هو أنه لا يعرف شيئاً عن هذه الأفكار- حتى حين تفصل بصورة اعتباطية عن الحياة الفعلية

التـي هـي منتجـات لهـا - وإنـه يقصـر مسـاهمته، التـي لا وجـود لهـا علـى أيـة حـال، علـى انتحـال للإيديولوجيـة الهيغليـة يشـهد علـى مبلـغ جهلـه بمـا ينتحلـه. وإنـه لمـن الجلـي سـلفاً ممـا تقـدم كيـف يسـتطيع أن يجابـه هـذا التصـور الوهمـي للتاريـخ الإنسـاني بتاريـخ الفـرد الفعلـي الـذي سـوف يكـون تاريـخ الأوحـد.

إن التاريـخ الأوحـد قـد جـرى فـي البدايـة عنـد سـتويا أثينـا[٩٨]، وفـي وقـت لاحـق فـي ألمانيـا بصـورة كليـة علـى وجـه التقريـب، وأخيـراً فـي كوبفرغرابـن[٩٩] فـي برليـن حيـث طاغيـة "الفلسـفة، أو إذا شـئنا الأزمنـة الحديثـة"، قـد بنـى قصـره. وإن هـذا ليبيـن سـلفاً الطابـع القومـي والمحلـي علـى وجه الحصـر الـذي تتحلـى بـه المـادة المعالجـة. فبـدلاً مـن أن يتحـدث عـن التاريـخ العالمـي، يقـدم لنـا القديـس ماكـس شـروحاً قليلـة، والأكثـر مـن ذلـك أنهـا شـروح خاطئـة وهزيلـة حتـى الدرجـة القصـوى، عـن تاريـخ اللاهـوت والفلسـفة الألمانييـن. وإذا غادرنـا ألمانيـا صدفـة، بصـورة شـكلية، فمـا ذلـك إلا لكـي نمكـن أعمـال الشـعوب الأخـرى وأفكارهـا، الثـورة الفرنسـية مثـلاً، مـن "بلـوغ هدفهـا الأخيـر" فـي ألمانيـا، وبصـورة أدق فـي كوبفرغرابـن. إن الحقائـق الألمانيـة القوميـة هـي وحدهـا المعطـاة، وإنهـا لتعالـج وتفسـر مـن وجهـة نظـر ألمانيـة قوميـة، والنتيجـة لا تتجـاوز الإطـار الألمانـي القومـي. لكـن حتـى هـذا ليـس كافيـاً. إن تصـورات قديسـنا وثقافتـه ليسـت ألمانيـة فحسـب، بـل هـي مـن طبيعـة برلينيـة مئـة بالمئـة. إن الـدور المسـند إلـى الفلسـفة الهيغليـة هـو الـدور ذاتـه الـذي تلعبـه فـي برليـن، وشـترنر يخلـط برليـن مـع العالـم وتاريخـه. إن "المراهـق" برلينـي، والبورجوازييـن الصالحيـن الذيـن نصادفهـم عبـر الكتـاب برمتـه هـم بورجوازيـون برلينيـون مـن شـاربي الجعـة البيضـاء. وإذا كانـت مثـل هـذه المقدمـات هـي المنطلـق، فمـن الطبيعـي أن تكـون النتيجـة التـي يتـم الوصـول إليهـا مجـرد نتيجـة محصـورة ضمـن الإطـار القومـي والمحلـي. إن "شـترنر" وأخويتـه الفلسـفية بكاملهـا، وهـو فيهـا العضـو الأشـد ضعفـاً والأعظـم جهـلاً، يشـكلون تعليقـاً عمليـاً علـى الأسـطر الجريئـة التـي كتبهـا المقـدام هوفمـان فـون فالرسـليبن:

"في ألمانيا وحدها، في ألمانيا وحدها،

هناك أود أن أحيا إلى الأبد"[١٠٠].

إن النتيجة المحلية التي حصل عليها قديسنا المقدام في برلين، ألا وهي أن العالم قد ابتلعته بأسره الفلسفة الهيغلية - سوف تتيح له الآونة من دون نفقات كبيرة أن يؤسس امبراطورية عالمية "خاصة" به. إن الفلسفة الهيغلية قد حولت جميع الأمور إلى أفكار، إلى مقدس، إلى أطياف، إلى روح، إلى أرواح، إلى أشباح. ولسوف يقاتل "شترنر" ضدها، وسوف يهزمها في مخيلته الخاصة، وسوف يرفع على أجسادها الميتة امبراطوريته "الخاصة"، "الفريدة"، "الجسدية"، امبراطورية "الفرد بكامله".

"فإن مصارعتنا ليست من لحم ودم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماوات" (الرسالة إلى أهل أفسس Épitre aux Éphésiens، ٦: ١٢).

إن "شترنر" الآن قد "شمّر عن ساعديه تأهباً" لخوض النضال ضد الأفكار، ولا حاجة به أولاً لأن "يتناول درع الإيمان"، ذلك أنه لم يخلع هذا الدرع قط. إنه يمضي إلى المعركة مسلحاً "بخوذة" الكارثة و"سيف" التفاهة (أنظر المصدر ذاته). "وأعطي أن يصنع حرباً مع المقدس"، لكن لم يُعْطَ "أن يغلبه". (رؤيا يوحنا Apocalypse selon saint jean ، ١٣: ٧).

٥- "شترنر" المغتبط بمخططه

لقد بلغنا مرة أخرى بالضبط حيث كنا في الصفحة ١٩ بصدد المراهق الذي أصبح بطلاً، وفي الصفحة ٩٠ بصدد القوزاقي المغولي الذي تحوّل إلى القوزاقي القوزاقي و"وجد نفسه". وبالتالي فإننا عند الاكتشاف الذاتي الثالث لذلك الفرد العجيب الذي يصف لنا القديس ماكس "صراعه الشاق من أجل الحياة". لكننا بلغنا الآن نهاية هذه القصة برمتها، ونظراً للمواد الكثيفة التي اشتغلنا بها فلا بد أن نلقي نظرة مراجعة على الحدث العملاق للإنسان الهالك.

وإذا كان القديس ماكس يؤكد في صفحة لاحقة، وقد نسي قصته منذ زمن طويل، أنه "من المسلم به منذ زمن طويل أن العبقرية هي التي تخلق إبداعات تاريخية عالمية جديدة" (ص ٢١٤)، فقد رأينا من قبل أن ألد أعدائه بالذات لا يستطيعون أن يأخذوا شيئاً على

تاريخه في هذا المضمار، ما دام أبطاله ليسوا أشخاصاً، فكم بالحري عباقرة، بل مجرد أفكار متعظمة، مقعدة، وتصورات خاطئة هيغلية.

إن التكرار أم المعرفة (La répétition est la mère de la pédagogie)(*). إن القديس ماكس، الذي لم ينتج كل تاريخه عن "الفلسفة، أو عن الحقبة إذا شئنا"، إلّا كي يجد الفرصة ليقرأ هيغل قراءة عاجلة، يكرر أخيراً مرة أخرى تاريخه الأوحد برمته. ومهما يكن من أمر، فإنه يفعل ذلك مع لمحة علمية طبيعية، مقدماً إلينا معلومات هامة عن العلم الطبيعي "الأوحد"، والسبب في ذلك أن "العالم" عنده، كلما كان عليه أن يلعب دوراً هاماً، يتحول في الحال إلى الطبيعة. إن العلم الطبيعي "الأوحد" يبدأ في الحال مع الاعتراف بعجزه. إنه لا يستقصي علاقة الإنسان الفعلية بالطبيعة، المعينة بالصناعة والعلم الطبيعي، بل ينادي بعلاقة وهمية للإنسان بالطبيعة.

"ما أضأل قوة الإنسان! إن الشمس ترسم مسيرتها، والبحر يدحرج أمواجه، والجبال تتعالى(se dressent) إلى السماء، والإنسان لا يستطيع شيئاً ضد ذلك". (ص ١٢٢).

إن القديس ماكس الذي يحب المعجزات، مثله مثل جميع القديسين، لكنه لا يستطيع أن ينجز إلا معجزة منطقية، يتبرم لأنه لا يستطيع أن يحمل الشمس على الرقص، ويأسى لأنه لا يستطيع أن يجمد المحيط، ويستاء لأنه لا يستطيع أن يمنع الجبال من أن تتعالى إلى السماء. وعلى الرغم من أن العالم يصبح مسبقاً، في الصفحة ١٢٤، "عتيقاً" منذ نهاية الأزمنة القديمة، فإنه لا يزال بالنسبة إلى قديسنا شاعرياً حتى درجة رفيعة. وعنده أن "الشمس" لا الأرض هي التي لا تزال تجتاز طريقها، ويحزنه أنه لا يستطيع على طريقة أشعيا (josué) أن يأمر الشمس بأن تقف ساكنة. وفي الصفحة ١٢٣ يكتشف شترنر:

أن "الروح" في نهاية العالم القديم قد "أرغى وأزبد من جديد بصورة لا تقاوم لأن غازات" (أرواحاً) "قد نشأت في باطنه، وبعدما فقدت الصدمة الميكانيكية الآتية من الخارج فعاليتها جعلت التوترات ذات الطبيعة الكيميائية التي هاجت في الباطن تلعب لعباً رائعاً".

إن هذه العبارة تتضمن أهم المعطيات عن الفلسفة الطبيعية "الوحداء" (unique) التي

(*) Repetitio est mater studiorum، بالفرنسية في النص الأصلي.

سبق أن توصلت في الصفحة السابقة إلى الاستنتاج بأن الطبيعة هي بالنسبة إلى الإنسان "العنصرالذي لا يغلب". إن الفيزياء الدنيوية لا تعرف شيئاً عن الصدمة الميكانيكية التي تفقد فعاليتها - إن الفضل في اكتشافها يعود إلى الفيزياء الوحداء وحدها. وإن الكيمياء الدنيوية لا تعرف "غازات" تحرض "توترات من طبيعة كيميائية"، وفضلاً عن ذلك "في الباطن". إن الغازات التي تدخل في تركيبات جديدة، في علاقات كيميائية جديدة، لا تحرض أية "توترات"، بل تقود على الأكثر إلى انخفاض في التوتر، وذلك بقدر ما تنتقل إلى حالة مائعة من التجمع، وبذلك ينقص حجمها إلى ما هو دون جزء من ألف جزء من حجمها السابق. وإذا كان القديس ماكس يحس "توترات" "في" "باطنه" الخاص من جراء وجود "غازات"، فإن هذه الغازات "صدمات ميكانيكية" على الأكثر، وليست "توترات من طبيعة كيميائية" في أي حال من الأحوال. إنها تنتج عن تحوّل كيميائي، مسبب من أسباب فيزيولوجية، لبعض التركيبات إلى تركيبات أخرى، بحيث أن قسماً من مركبات المزيج السابق يصبح غازياً، وبالتالي فهو يشغل حجماً أكبر، ونظراً لانعدام المكان اللازم له فإنه يسبب "صدمة ميكانيكية" أو ضغطاً نحو الخارج. أما أن هذه "التوترات ذات الطبيعة الكيميائية" غير الموجودة تلعب "لعباً رائعاً" حتى الدرجة القصوى في "باطن" القديس ماكس، يعني في رأسه هذه المرة، فهذا "ما نراه" من الدور الذي يلعبه في العلم الطبيعي "الأوحد". وبالمناسبة، فإنه من المرغوب فيه ألا يمنع القديس ماكس بعد الآن عن العلماء الطبيعيين الدنيويين ما ينطوي عليه ذهنه من هراء عندما يستعمل هذه العبارة الهوجاء: "التوترات ذات الطبيعة الكيميائية" التي هي فضلاً عن ذلك "فعالة في الباطن" (فكأن "صدمة ميكانيكية" على المعدة لا "تفعل في الباطن" أيضاً).

لقد كتب القديس ماكس علمه الطبيعي "الأوحد" لمجرد أنه كان عاجزاً في هذه المناسبة عن أن يلمح إلى الأقدمين بطريقة لائقة من دون أن يطلق في الوقت ذاته بضع كلمات عن "عالم الأشياء" (monde de choses) عن الطبيعة.

وإننا لنحصل هنا على التأكيد بأن الأقدمين جميعاً، في ختام العالم القديم، قد تحولوا إلى رواقيين "لا يستطيع أي انهيار للعالم" (كم من مرة ينهار العالم إذن؟) "أن يخرجهم

عـن طورهـم" (ص ١٢٣). وهكـذا يصبـح الأقدمـون صينييـن هـم أيضـاً "لا يمكـن أن يسـقطوا مـن سـموات طمأنينتهـم بفعـل أي حـدث غيـر متوقـع" (أو أيـة نـزوة مـن شـترنر)(*) (ص ٩٠). وفـي الحقيقـة، إن جـاك المغفـل يؤمـن جدياً بـأن "الصدمـة الميكانيكيـة الآتيـة مـن الخـارج تفقـد فعاليتهـا" فـي الأقدميـن الأخيريـن. أمـا إلـى أي مـدى يطابـق هـذا الـرأي الوضـع الفعلـي للرومـان والإغريـق فـي نهايـة العالـم القديـم، ويطابـق افتقارهـم التـام إلـى الاسـتقرار والأمـن، الـذي يـكاد لا يسـتطيع أن يجابـه "الصدمـة الميكانيكيـة" بـأي بقيـة مـن القصـور الذاتـي(**) - فإننـا نسـتطيع أن نرجـع فـي هـذه النقطـة إلـى لوسـيان وغيـره. إن الصدمـات الميكانيكيـة الجبـارة التـي تعرضـت لهـا الامبراطوريـة الرومانيـة بنتيجـة انقسـامها بيـن قياصـرة شـنوا الحـرب ضـد بعضهـم بعضـاً، وبنتيجـة التركـز الهائـل للملكيـة، وعلـى الأخـص الملكيـة العقاريـة، فـي رومـا، والانخفـاض الناجـم عـن ذلـك فـي عـدد سـكان إيطاليـا، وأخيـراً بنتيجـة ضغـط الهـان والجرمـان - إن هـذه الصدمـات "تفقـد فعاليتهـا" فـي رأي مؤرخنـا القديـس؛ إن "التوتـرات ذات الطبيعـة الكيميائيـة"، "الغـازات" التـي كانـت المسـيحية "تحرضهـا فـي الباطـن"، هـي وحدهـا التـي أدت إلـى انهيـار الامبراطوريـة الرومانيـة. إن الهـزات الأرضيـة الكبـرى [فـي الغـرب] والشـرق، بمـا فيهـا تلـك الهـزات التـي دفنـت بفعـل "الصدمـات الميكانيكيـة" مئـات الألـوف مـن البشـر تحـت [خرائـب] مدنهـم والتـي لـم تتـرك فـي أي حـال مـن الأحـوال وجـدان البشـر ثابتـاً لـم يطـرأ عليـه أي اضطـراب، مـن المسـلم بـه أنهـا كانـت هـي الأخـرى "غيـر فعالـة" فـي رأي "شـترنر" أو "أنهـا كانـت "توتـرات مـن طبيعـة كيميائيـة". و"بالفعل"(!)فـإن نتيجـة التاريـخ القديـم هـي مـا يلـي: إننـي جعلـت العالـم ملكيتـي" - الأمـر الـذي يثبتـه القـول التوراتـي: "إن جميـع الأشـياء قـد أعطيـت لـي" (أي المسـيح) "مـن قبـل أبـي". وبالتالـي فـإن أنـا = المسـيح هنـا. وبهـذا الشـأن، فإنـه لا بـد طبعـاً لجـاك المغفـل أن يصـدق المسـيحي عندمـا يقـول إنـه يسـتطيع أن ينقـل الجبـال، الـخ، إذا هـو "أراد ذلـك فقـط". وبوصفـه مسـيحياً، فإنـه ينـادي بنفسـه سـيداً للعالـم، لكنـه ليـس بهـذا السـيد إلا علـى اعتبـاره مسـيحياً؛ وإنـه لينـادي بنفسـه "مالـكاً للعالـم": "إذ رفعـت أنـاي إلـى مرتبـة مالكـة العالـم"، فقـد ربحـت الأنانيـة

(*) في الأصل الألماني: "Einfall"، وهي يمكن أن تعني فكرة مفاجئة، أو نزوة.

(**) Vis inertiae، باللاتينية في النص الأصلي.

"انتصارها التام الأول". (ص ١٢٤). وليس على أنا شترنر، كيما ترتفع إلى مرتبة المسيحي الكامل، سوى أن تخوض الصراع كي تصبح مسكينة بالروح أيضاً (وهو ما نجح في القيام به حتى قبل أن تنهض الجبال). "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات". لقد مضى القديس ماكس حتى نهاية المسكنة بالروح، بل هو يتباهى بذلك، في فرحته العظمى، أمام الرب.

إن القديس ماكس، المسكين بالروح، يؤمن بالإصدارات الغازية الخيالية التي انتجها المسيحيون إبان انحلال العالم القديم. لم يكن المسيحي البدائي يملك شيئاً في هذا العالم، وبالتالي فقد كان راضياً بملكه السماوي الوهمي وبحقه الإلهي في الملكية. وبدلاً من أن يجعل العالم ملكية الشعب، فقد نادى بنفسه وبأخويته من الحفاة "ملكية الله الخاصة" (رسالة بطرس الأولى، ٢: ٩). وفي رأي "شترنر" أن الفكرة المسيحية عن العالم هي فعلياً العالم كما ينشأ عن انحلال العالم القديم، على الرغم من أن هذا ليس على الأكثر سوى [عالم] من الوهم [انحل] فيه عالم الأفكار القديمة كي يفسح المجال لعالم آخر يستطيع المسيحي فيه [بالإيمان] أن ينقل الجبال، أن يحس [القدرة الكلية] وأن يتوصل إلى "انعدام فعالية الصدمة الميكانيكية". وما دام البشر، بالنسبة إلى "شترنر"، لا يحددهم بعد الآن العالم [الخارجي]، لا تدفعهم قدماً بعد الآن الصدمة الميكانيكية الخاصة بضرورة الإنتاج، وما دامت الصدمة الميكانيكية على العموم، ومعها الاتصال الجنسي أيضاً، قد توقفت عن العمل، فإن المرء يتساءل كيف يمكنهم الاستمرار في الوجود إلا بفضل معجزة. ومن المؤكد أنه من الأيسر حتى درجة كبيرة، بالنسبة إلى المتزمتين والمعلمين الألمان الذين من الصنف الغازي الخاص "بشترنر"، أن يرضوا بالوهم المسيحي عن الملكية - التي ليست في الحقيقة شيئاً آخر سوى ملكية الوهم المسيحي(la propriété de l'immagination chrétienne) - من أن يحللوا علاقات الملكية الفعلية وعلاقات الإنتاج في العالم القديم.

وحقيقة الأمر أن هذا المسيحي البدائي نفسه الذي كان، في مخيلة جاك المغفل، مالك العالم القديم قد كان على الأغلب ملكية عالم المالكين؛ لقد كان عبداً وكان في الإمكان بيعه في السوق. بيد أن "شترنر"، المغتبط بمخططه، لا يني يتهلل مع ذلك:

"إن الملكية الأولى، المجد الأول، قد تم اكتسابه!" (ص ١٢٤).

وتواصل "أنا" شترنر بالطريقة نفسها كسب الملكية والمجد وتحقيق "الانتصارات التامة". إن الموقف اللاهوتي للمسيحي البدائي حيال العالم القديم هو النموذج الكامل لكل ملكيته وكل مجده.

وهذه هي الأسس المعطاة لهذه الملكية الخاصة بالمسيحي:

"لقد فقد العالم طابعه الإلهي ... لقد أصبح مبتذلاً، لقد أصبح ملكيتي التي أتصرف بها كما يحلو لي (يعني كما يحلو للروح)" (ص ١٢٤).

وهذا يعني بالفعل: لقد فقد العالم طابعه الإلهي، وبالتالي فقد تحرر من أوهام وعيي الخاص؛ لقد أصبح مبتذلاً، وبنتيجة ذلك فإن علاقته بي مبتذلة، وهو يتصرف بي بالطريقة المبتذلة التي تحلو له، وليس كما يحلو لي في أيّ حال من الأحوال. وفيما عدا كون "شترنر" يحسب هنا فعلياً أن العالم المبتذل في الأزمنة القديمة لم يكن له وجود وأن المبدأ الإلهي كان يملك الهيمنة في العالم، فإنه يدحض(falsifier) أيضاً تصور المسيحي الذي يأسى باستمرار لعجزه بالقياس إلى العالم، والذي يجعل من انتصاره على العالم، حتى في الوهم، مجرد انتصار مثالي يؤجله إلى يوم الدينونة. وحين استولت السلطة الدنيوية الفعلية على المسيحية واستغلتها، ومن جراء ذلك كفت المسيحية عن كونها منفصلة عن العالم، عندئذ فقط بات في مقدورها أن تتخيل نفسها مالكة العالم. إن القديس ماكس يقيم بين المسيحي والعالم القديم العلاقة الكاذبة نفسها التي يقيمها بين المراهق و"عالم الطفل"؛ إنه يقيم بين الأناني وعالم المسيحي العلاقة التي يقيمها بين الرجل وعالم المراهق.

وليس للمسيحي الآن ما يفعله أكثر من أن يصبح مسكيناً بالروح بأسرع وقت ممكن ويعترف ببطلان عالم الروح - بالضبط كما فعل بالنسبة إلى عالم الأشياء - كيما يكون في مقدوره أن "يتصرف كما يحلو له" بعالم الروح أيضاً، وبذلك يصبح مسيحياً كاملاً، أنانياً. إن موقف المسيحي من العالم القديم يخدم إذن، كمقياس لموقف الأناني من العالم الحديث. وإن التهيئة لهذه المسكنة الروحية تشكل محتوى حياة "انقضى عليها قرابة ألفي سنة"- وهي حياة جرت حقبها الرئيسية في ألمانيا وحدها طبعاً.

"بعدما اتخذ أشكالاً متنوعة، أصبح الروح القدس في سياق الزمن الفكرة المطلقة التي انشطرت من جديد في انكسارات متعددة الأشكال إلى أفكار متنوعة عن محبة الجنس البشري، والفضيلة المدنية، والعقلانية، الخ." (ص ١٢٥، ١٢٦).

إن مقعدنا الألماني يقلب الأمر من جديد رأساً على عقب. إن أفكار محبة الجنس البشري، الخ - وهي نقود قد أمحت نقوشها سلفاً بصورة كلية، وعلى الأخص من جراء تداولها الكبير في القرن الثامن عشر- قد سكبت من جديد وصُعِّدت من قبل هيغل الذي جعل منها الفكرة المطلقة، لكنها ظلت بعد هذا الشك الجديد عاجزة عن الاحتفاظ بقيمتها في الخارج قدر عجز الأوراق النقدية البروسية.

إن الاستنتاج المنطقي - الذي صودف من قبل مراراً وتكراراً - لنظرة شترنر إلى التاريخ هو كما يلي:

"يجب أن تلعب المفاهيم الدور الحاسم في كل مكان، يجب أن تنظم المفاهيم الحياة، يجب أن تسود المفاهيم. ذلك هو العالم الديني الذي أعطاه هيغل التعبير المنهجي" (ص ١٢٦)،

والذي يخلط صاحبنا الصالح حتى درجة كبيرة بينه وبين العالم الفعلي بحيث يمضي إلى القول في (الصفحة التالية ١٢٧):

"لا يهيمن شيء في العالم حالياً سوى الروح".

وأما إذا غاص بشكل سريع في هذا العالم الوهمي، فإنه يستطيع (في الصفحة ١٢٨) أن يبني أول الأمر "مذبحاً"، ومن ثم "يشيد كنيسة" "حول هذا المذبح"، كنيسة تملك "جدرانها" أرجلاً كي تتقدم و"تمضي أبعد فأبعد". و"سرعان ما أحاطت هذه الكنيسة بالعالم بأسره". وإنه، هو الأوحد، وشيليغا خادمه، يقفان خارجاً، "يطوفان حول هذه الجدران، ويدفعان حتى الحد الأقصى". وإن القديس ماكس، "وهو يطلق صيحات صادرة عن جوع قاتل"، يهتف في خادمه: "خطوة أخرى وينتصر عالم المقدس". بيد أن شيليغا على حين غرة "يهوي في الهاوية الأبعد" التي تقوم فوقه - معجزة أدبية! وبالفعل، فقد كانت الأرض كرة، وحالما تحوط الكنيسة بالأرض أجمع، فإن الهاوية لا يمكن أن توجد إلا فوق شيليغا. وهكذا فإنه

يقلب قوانين الجاذبية، ويرتفع هبوطاً إلى السماء، وبذلك يمجد العلم الطبيعي "الأوحد"، الأمر الذي يزداد يسراً بالنسبة إليه ما دام "شترنر"، وفقاً للصفحة ١٢٦، يسخر من "طبيعة الشيء ومن مفهوم العلاقة" اللذين "لا يرشدانه في طريقته في معالجة الشيء أو أسلوبه في إقامة العلاقة"؛ وعلى أية حال، فإن "العلاقة التي تربط" شيليغا بالجاذبية، وهي أبعد من أن تكون "رهناً بطبيعة الجاذبية أو بالباب الذي "يصنفها الآخرون فيه"، العلماء الطبيعيون على سبيل المثال، هي نفسها علاقة "وحداء" من جراء "وحدانية" شيليغا. وأخيراً فإن "شترنر" يصر على أنه لا يجوز للمرء أن "يفصل" "معالجة" شيليغا عن شيليغا "الفعلي" ولا "يقدره بمقياس القيم البشرية".

ولما رتب الأمور على هذا المنوال بحيث يؤمن الراحة اللائقة في السماء لخادمه الأمين، فإن القديس ماكس ينخرط في طريقه الخاص إلى الجلجلة. وإنه ليكتشف في الصفحة ٩٥ أن "للمشنقة" نفسها "لون المقدس"؛ إن "الناس يرتعشون لدى ملامستها، ففيها شيء مشؤوم، يعني شيئاً غريباً، غير مألوف". وفي سبيل التخلص من غرابة المشنقة هذه، فإنه يحولها إلى مشنقته الخاصة، الأمر الذي لن ينجح فيه إلا إذا شنق نفسه عليها. إن أسد يهوذا يقدم هذه التضحية القصوى إلى الأنانية. إن يسوع المسيح، المخلّص القديس، قد رضي بأن يسمّر على الصليب، لا ابتغاء خلاص الصليب، بل افتداء للبشر من كفرهم؛ وإن مسيحنا الذي لا شفاء له ليشنق نفسه على المشنقة ابتغاء إنقاذ المشنقة من طابعها المقدس أو ابتغاء إنقاذ نفسه من غرابة هذه المشنقة.

***

"إن المجد الأول - الملكية الأولى قد تم اكتسابها، وتحقق النصر التام الأول". إن بطلنا المقدس قد انتصر الآن على التاريخ، وحوله إلى أفكار، أفكار صرفة، ليست هي شيئاً آخر سوى أفكار- وفي ختام الزمن لا يجابهه إلا حشد من الأفكار. وهكذا فإن القديس ماكس، وقد حمل "مشنقته" على ظهره مثلما يحمل الحمار صليباً، وخادمه شيليغا الذي استقبل في السماء بركلة قدم وعاد إلى معلمه مطاطئ الرأس، قد خرجا يقاتلان هذا الحشد من الأفكار، أو بالأحرى يقاتلان مجرد هالة هذه الأفكار. وإن سانتشو بانزا، المليء بالأقوال

والحكـم والأمثـال الأخلاقيـة، هـو الـذي يأخـذ علـى نفسـه هـذه المـرة النضـال ضـد المقـدس، بينمـا يلعـب دون كيخـوت دور خادمـه المطيـع والأميـن. وإن سانتشـو الشـريف ليقاتـل بمثـل الشـجاعة التـي قاتـل بهـا فـارس المانشـا(*) فـي الأيـام القديمـة، ويخطـئ مثلـه فيأخـذ أكثـر مـن مـرة قطيعـاً مـن الخرفـان المغوليـة علـى أنـه جماعـة مـن الأشـباح. إن ماريتورنـا(**) السـمينة قـد تحوّلـت "فـي سـياق الزمـن، بعـد تحـولات متنوعـة وفـي أعقـاب انكسـارات متعـددة الأشـكال"، إلـى خياطـة برلينيـة عفيفـة، تمـوت مـن فاقـة الـدم، وهـي مناسـبة كـي ينظـم القديـس سانتشـو مرثـاة، وهـي مرثـاة تذكـر جميـع الشـباب الخريجيـن وملازمـي الحـرس بعبـارة رابليـه التاليـة: "إن أول أسـلحة الجنـدي محـرر العالـم فتحـة بنطالـه".

إن سانتشـو بانـزا يحقـق مآثـره البطوليـة لأنـه يـدرك أن جماعـة الأفـكار التـي تواجهـه تافهـة وباطلـة. إن مآثـره العظمـى بكاملهـا لا تتجـاوز إذن، مجـرد الإدراك الـذي يتـرك حتـى نهايـة الحقـب كل شـيء قائمـاً كمـا كان مـن قبـل، ويقتصـر علـى تعديـل تصـوره، لا تصـوره عـن الأشـياء، بـل عـن العبـارات الفلسـفية عـن الأشـياء.

وهكـذا فبعدمـا وجـد الأقدمـون فـي مظاهـر الطفـل، والزنجـي، والقوزاقـي، والقوزاقـي الزنجـي، والحيـوان، والكاثوليكييـن، والفلسـفة الإنكليزيـة، والأمييـن، واللاهيغلييـن، وعالـم الأشـياء، والواقعيـة، والمحدثيـن فـي مظاهرالمراهـق، والمغولـي، والقوزاقـي المغولـي، والرجـل، والبروتسـتانتيين، والفلسـفة الألمانيـة، والمثقفيـن، والهيغلييـن، وعالـم الأفـكار، والمثاليـة؛ بعدمـا تمـت جميـع الأمـور التـي تقـررت منـذ الأزل فـي مجلـس الحـرس، آن الأوان أخيـراً. إن الوحـدة السـالبة لـكلا القديـم والحديـث، التـي مثلت مـن قبـل فـي مظاهـر الرجـل، والقوزاقـي، والقوزاقـي القوزاقـي، والمسـيحي الكامـل، وفـي ثيـاب خـادم، التـي "تنظـر فـي مـرآة علـى سـبيل اللغـز" (الرسـالة الأولـى إلـى أهـل كورنثـوس، ١٣:١٢)- هـذه الوحـدة السـالبة يمكـن الآن، بعـد آلام شـترنر وموتـه علـى المشـنقة وصعـود شـيليغا إلـى السـماء فـي هالـة مـن

(*) Caballero Manchego، بالإسبانية في النص الأصلي.

(**) Maritornes، ويقصد بها امرأة قذرة.

نور، بفعل العودة إلى أبسط المصطلحات، أن تظهر في سحب السماء متمتعة بسلطة ومهابة عظيمتين. "وهكذا قيل": إن ما كان "المرء" من قبل (أنظر: اقتصاد العهد القديم) قد أصبح "الأنا" - الوحدة السالبة للواقعية والمثالية، لعالم الأشياء وعالم الروح. ويسمي شيلينغ هذه الوحدة السالبة للواقعية والمثالية "لامبالاة"، أو إذا أرجعت إلى اللهجة البرلينية [Jleichjiltigkeit](*)؛ إنها لتصبح عند هيغل الوحدة السالبة التي يتم فيها احتواء وتجاوز اللحظتين جميعاً. وإن القديس ماكس، الذي تمنعه "وحدة الأضداد" من النوم، هو النصير المخلص للفلسفة الألمانية التأملية، لا يرضى بذلك؛ إنه يريد أن تكون هذه الوحدة منظورة بالنسبة إليه في شكل "كائن جسدي"، في "فرد كامل"، الأمر الذي ساعده فويرباخ فيه بواسطة مؤلفه: فلسفة المستقبل [Philosophie der Zukunlt Anekdota] إن "أنا" شترنر هذه، التي هي النتيجة الأخيرة لكل التاريخ السابق، ليست هي إذن، "فرداً جسدياً"، بل مقولة منشأة على الطريقة الهيغلية ومدعومة بالإبدالات، ولسوف نتأثر بـ"قفزاتها البرغوثية" التالية في العهد الجديد. سوف نقتصر هنا على الملاحظة بأن الأنا ترى النور في آخر تحليل لأنها تملك، الأوهام نفسها عن عالم المسيحي التي يملكها المسيحي عن عالم الأشياء. وكما أن المسيحي يمتلك عالم الأشياء بفعل هذا الهراء الوهمي الذي "يحشو رأسه به"، كذلك تمتلك "الأنا" العالم المسيحي، عالم الأفكار، بفعل سلسلة من الأفكار الوهمية عنه. وإن أوهام المسيحي بشأن علاقته الخاصة بالعالم يصدقها "شترنر" بكل نية طيبة، ويجد أنها ذات حقيقة مجربة، ويكررها من بعده بسلامة نية.

"إذن لأننا نحسب الإنسان إنما يتسوغ بالإيمان من دون الأعمال".) رسالة بولس إلى أهل رومية Épitres aux Romans، ٣: ٢٨).

إن هيغل، الذي انحل العالم الحديث بالنسبة إليه في عالم الأفكار المجردة أيضاً، يعرِّف مهمة الفيلسوف الحديث، بصورة متعارضة مع مهمة الفيلسوف القديم، كما يلي:

(*) ترجمة صوتية في اللهجة البرلينية لكلمة [Gleichgültigkeit]، أي لا مبالاة.

بـدلاً مـن أن يتحـرر، مثـل الأقدميـن، مـن "الوعـي الطبيعـي" و"يطهـر الفـرد مـن طريقـة المباشـرة الحسـية ليجعـل منـه مـادة متصـورة ومفكـرة" (روحـاً)، فـإن مـن واجبـه أن "يتجـاوز الأفـكار الثابتـة، المحـددة، الجامـدة". ويضيـف، أن ذلـك هـو دور "الجـدل" (علـم ظواهر الفكـر، ص ٢٦، ٢٧). إن "شـترنر" يتميـز مـن هيغـل فـي أنـه يتوصـل إلـى النتيجـة ذاتهـا مـن دون أي جـدل علـى الإطـلاق.

٦ - الأحرار

إن الـدور الـذي يجـب علـى "الأحـرار" أن يلعبـوه هنـا مقـرر فـي اقتصـاد العهـد القديـم. ولا حيلـة لنـا إذا كانـت الأنـا، التـي اقتربنـا منهـا حتـى درجـة كبيـرة، تتقهقـر مـن جديـد عنـا فـي المنتـأى السـديمي. ليـس الذنـب ذنبنـا فـي أي حـال مـن الأحـوال إذا كنـا لـم ننتقـل فـي الحـال، ابتـداء مـن الصفحـة ٢٠ مـن "الكتـاب"، إلـى الأنـا.

آ - الليبرالية السياسية

إن المفتـاح الـذي يقدمـه القديـس ماكـس وأسـلافه مـن أجـل نقـد الليبراليـة هـو تاريـخ البورجوازيـة الألمانيـة. فلنقـدم إذن، بعـض مراحـل هـذا التاريـخ منـذ الثـورة الفرنسـية.

إن حالـة ألمانيـا فـي نهايـة القـرن الماضـي تنعكـس بصـورة تامـة فـي كتـاب كانـط نقـد العقـل العملـي (Critik der practishen vernunft) فبينمـا كانـت البورجوازيـة[*] الفرنسـية، بواسـطة أضخـم ثـورة عرفهـا التاريـخ، ترتفـع إلـى السـلطة وتغـزو القـارة الأوروبيـة، وكذلـك الحـال بالنسـبة إلـى البورجوازيـة الإنكليزيـة التـي سـبق أن تحـررت سياسـياً وهـي تقـوم بتثويـر الصناعـة وقامـت بإخضـاع الهنـد سياسـياً، وفـي الوقـت نفسـه تخضـع بقيـة العالـم تجاريـاً، لـم يذهـب البورجوازيـون الألمـان، فـي عجزهـم، إلـى أبعـد مـن "الإرادة الطيبـة" (bonne volonté). كان كانـط راضيـاً "بـالارادة الطيبـة" وحدهـا، حتـى إذا بقيـت مـن دون أي نتيجـة علـى الإطـلاق، وقـد نقـل تحقيـق

(*) Terme souvent employé par Marx et Engels qui parlent de la misère allemande, non pas dans le sens de misère physique, mais de misère, stagnation morale, intellectuelle, politique، باللغة الفرنسية في النص الأصلي.

هـذه الإرادة الطيبـة، والتناغـم بينهـا وبيـن حاجـات الأفـراد وحوافزهـم، إلـى العالـم الآخـر. إن إرادة كانـط الطيبـة هـي الانعـكاس التـام للعجـز والهمـود والمسـكنة لـدى البورجوازييـن الألمـان الذيـن لـم تكـن مصالحهـم الحقيـرة (mesquins) قـادرة قـط علـى التطـور بحيـث تجسـد المصالـح القوميـة المشـتركة لطبقـة، الأمـر الـذي قادهـم إلـى أن يكونـوا مسـتثمرين باسـتمرار مـن قبـل بورجوازيـي جميـع الأمـم الأخـرى. وإن هـذه المصالـح المحليـة الحقيـرة قـد كان لهـا نظيرهـا، مـن جهـة واحـدة، فـي الضيـق الفكـري الإقليمـي والمحلـي حقـاً وفعـلاً لـدى البورجوازييـن الألمـان، ومـن جهـة ثانيـة، فـي بلاهتهـم الكوسـموبوليتية المنتفخـة الأوداج. وعلـى العمـوم، فـإن التطـور الألمانـي قـد اتسـم فـي جميـع الميادين، منـذ أيـام الإصـلاح، بطابـع وروح المالـك الصغيـر كليـاً. إن الأرسـتقراطية الإقطاعيـة القديمـة قـد قضـت بمعظمهـا فـي حـروب الفلاحيـن؛ ومـا تبقـى منهـا إمـا كانـوا أمـراء صغـاراً تابعيـن للأمبراطـور بصـورة مباشـرة، وقـد حققـوا بصـورة تدريجيـة بعـض الاسـتقلال وقلـدوا الملكيـة المطلقـة علـى نطـاق ضيـق يقتصـر علـى مدنهـم الصغيـرة، وإمـا أصحـاب أمـلاك ضئيلـة، قـد بـدد بعضهـم ثروتـه الهزيلـة فـي البلاطـات الإقليميـة ليكسـبوا مـن بعـد عيشـهم مـن مراكـز حقيـرة فـي الجيـوش الدمـى أو الإدارات الحكوميـة - وبقـي بعضهـم الآخـر فرسـاناً إقطاعييـن فـي المناطـق النائيـة يعيشـون حيـاة يخجـل منهـا أكثـر المالكيـن الإنكليـز أو النبـلاء الإقليمييـن الفرنسـيين تواضعـاً. وكانـت الزراعـة تمـارس بطريقـة لاتسـتطيع أن تقـول هـل هـي الإنتـاج بالقطعـة أم هـي الإنتـاج الكبيـر، ولـم تدفـع بالفلاحيـن قـط للسـعي إلـى التحـرر بالرغـم مـن الإبقـاء علـى التبعيـة الإقطاعيـة وأعمـال السـخرة، وذلـك نظـراً لأن هذه الطريقـة فـي الزراعـة بالـذات لـم تسـمح بقيـام أي طبقـة ثوريـة نشـيطة مـن جهـة، إضافـة إلـى انعـدام البورجوازيـة الثوريـة المقابلـة لمثـل هـذه الطبقـة الفلاحيـة مـن جهـة ثانيـة.

وأمـا فيمـا يتعلـق بالبورجوازيـة، فإننـا لا نسـتطيع هنـا سـوى التشـديد علـى بعـض العوامـل المميـزة. إنـه لمـن الأمـور ذات المغـزى أن صناعـة الكتـان الحرفيـة، يعنـي الصناعـة القائمـة علـى الغـزل اليـدوي والنـول اليـدوي، قـد بلغـت بعـض الأهميـة فـي ألمانيـا بالضبـط حيـن كانـت هـذه الأدوات المزعجـة قـد نحيـت جانبـاً مـن قبـل الآلات فـي إنكلتـرا. وإن أعظـم الأمـور مغـزى هنـا هـو موقـف البورجوازييـن الألمـان حيـال هولنـدا. إن هولنـدا، وهـي القسـم الوحيـد مـن

العصبـة الهانسـية (Hanse) الـذي اكتسـب أهميـة تجاريـة، قـد انفصلـت عـن هـذه العصبـة طلبـاً للحريـة، وقطعـت ألمانيـا عـن التجـارة العالميـة باسـتثناء مينـاءي هامبـورغ وبريمـن، واسـتطاعت منـذ ذلـك الحيـن أن تسـيطر علـى التجـارة بأسـرها. وكانـت البورجوازيـة الألمانيـة أعجـز مـن أن تضـع حـداً لاسـتغلالها مـن قبـل الهولندييـن. إن مالكـي هولنـدا الصغـار، بمصالحهـم الطبقيـة الناميـة جيـداً، كانـوا أقـوى مـن البورجوازيـة الألمانيـة ذاتهـا التـي تتفـوق عليهـم عـدداً حتـى درجـة بعيـدة بقصورهـا ومصالحهـا الحقيـرة المنقسـمة. كان انقسـام المصالـح يقابـل انقسـام التنظيـم السياسـي إلـى إمـارات صغيـرة ومـدن امبراطوريـة حـرة. كيـف يمكـن للتركـز السياسـي أن يقـوم فـي بلـد يفتقـر إلـى جميـع الشـروط الاقتصاديـة اللازمـة لـه؟ إن العجـز الـذي يتصـف بـه كل مـن مجـالات الحيـاة المنفصلـة (إن المـرء لا يسـتطيع أن يتحـدث هنـا عـن مراتـب أو طبقـات، بـل علـى الأكثـر عـن مراتـب زائفـة وطبقـات لـم تولـد بعـد) لـم يكـن يتيـح لأي مجـال منهـا الاسـتيلاء علـى السـلطة التامـة. وكانـت العاقبـة المحتومـة، أن المجـال الخـاص الـذي كان مسـؤولاً، مـن جـراء تقسـيم العمـل، عـن إدارة المصالـح العامـة قـد اكتسـب أثنـاء مرحلـة الملكيـة المطلقـة (وهـو النظـام الـذي ظهـر فـي ألمانيـا فـي شـكل ضامـر جـداً ونصـف بطريركـي) اسـتقلالاً شـاذاً جـاءت البيروقراطيـة الحديثـة لتضاعـف منـه. وهكـذا تشـكلت الدولـة فـي قـوة مسـتقلة ظاهريـاً، وقـد حافظـت فـي ألمانيــا حتـى أيامنـا الراهنـة علـى هـذا المركـز الـذي لـم يكـن إلا مركـزاً انتقاليـاً فـي البلـدان الأخـرى - مجـرد مرحلـة انتقاليـة. وإن هـذا الوضـع الـذي كانـت الدولـة فيـه هـو الـذي يفسـر إخـلاص الموظفيـن ووجدانهـم المسـلكي اللذيـن لا نصادفهمـا إلا عنـد الألمـان، وكذلـك جميـع الأوهـام الشـائعة فـي ألمانيـا بخصـوص الدولـة، والاسـتقلال الظاهـري للمنظِّريـن الألمـان بالقيـاس إلـى البورجوازييـن - التناقـض الظاهـري بيـن الشـكل الـذي يعبِّـر فيـه هـؤلاء المنظـرون عـن مصالـح البورجوازييـن وعـن هـذه المصالـح نفسـها.

إننـا نجـد مـرة أخـرى لـدى كانـط الشـكل المميـز الـذي اتخذتـه فـي ألمانيـا الليبراليـة الفرنسـية القائمـة علـى مصالـح طبقيـة فعليـة . ولـم يلاحـظ كانـط ولا البورجوازيـون الألمـان الذيـن كان الناطـق الممـوه باسـمهم،أن هـذه الأفـكار النظريـة للبورجوازيـة تقـوم علـى أسـاس مصالـح ماديـة وإرادة مشـروطة ومحـددة بالشـروط الماديـة للإنتـاج (par les conditions matérielles de

production). وهـذا هـو السـبب فـي أن كانـط عـزل هـذا التعبيـر النظـري عـن المصالـح التـي يعبِّـر عنهـا؛ لقـد جعـل مـن إرادة البورجوازييـن الفرنسـيين وتحديداتهـا المشـروطة بالأوضـاع الماديـة تحديـدات ذاتيـة محضـة "للإرادة الحـرة"، للإرادة فـي ذاتهـا ولذاتهـا، للإرادة البشـرية، وبذلـك حولهـا إلـى تحديـدات مفهوميـة إيديولوجيـة صرفـة ومسـلمات أخلاقيـة. ولهـذا فقـد ارتـد المالكـون الألمـان الصغـار بهلـع عـن ممارسـة هـذه الليبراليـة البورجوازيـة النشـيطة حالمـا تجلـت ظاهـرة هـذه الممارسـة سـواء فـي حكـم الإرهـاب أم فـي طلـب الربـح الـذي لا يقيـم للشـرف أي معنـى.

وفـي ظـل حكـم نابوليـون، اسـتمر البورجوازيـون الألمـان أكثـر مـن ذي قبـل منصرفيـن إلـى تجارتهـم الحقيـرة ومنسـاقين مـع أوهامهـم العظمـى. أمـا فيمـا يتعلـق بالـروح التجاريـة الحقيـرة التـي سـادت فـي ألمانيـا فـي ذلـك الحيـن، فيسـتطيع القديـس سانتشـو أن يسـتنجد بجـان بـول وسـواه، هـذا كـي لا نسـمي لـه سـوى مصـادر أدبيـة فـي متنـاول يـده. إن البورجوازييـن الألمـان، الذيـن كانـوا يرغـون ويزبـدون ضـد نابوليـون لأنـه أكرههـم علـى شـرب عصيـر الهندبـاء[١٠١] ولأنـه عكـر صفوهـم بإيـواء الجنـود فـي منازلهـم وبالتجنيـد، قـد أغدقـوا عليـه كل حقدهـم كمـا أغدقـوا علـى إنكلتـرا كل إعجابهـم، فـي حيـن كان نابوليـون يقـدم إليهـم أعظـم الخدمـات بتنظيـف الاسـطبلات الإيجيـة الألمانيـة وإنشـاء وسـائل مواصـلات جديـرة ببلـد متحضـر، فيمـا لـم تفعـل إنكلتـرا سـوى تحيّـن الفرصـة لاسـتغلالهم بـلا هـوادة[*]. ولقـد كان الأمـراء والمالكـون الصغـار الألمـان يتوهمـون بالـروح، عينهـا، أنهـم يقاتلـون فـي سـبيل مبـدأ الشـرعية وضـد الثـورة، فـي حيـن أنهـم لـم يكونـوا سـوى المرتزقـة المأجوريـن للبورجوازيـة الإنكليزيـة (les mercentaires de la bourgeoisie anglais). وفـي جـو هـذه الأوهـام العامـة كان مـن طبيعـة الأمـور تمامـاً أن المراتـب التـي تحتكـر امتيـاز الوهـم - الإيديولوجييـن، ومعلمـي المـدارس، والطلبـة، وأعضـاء عصبـة الفضيلـة[١٠٢] - كانـت تتحـدث بكلمـات فخمـة وتعطـي تعبيـراً طنانـاً ملائمـاً للمـزاج العـام علـى الوهـم واللا مبـالاة.

لقـد فرضـت ثـورة تمـوز (يوليـو)[١٠٣] -إننـا لا نأتـي سـوى علـى ذكـر بعـض النقـاط الرئيسـية

(*) à tort et à travers، بالفرنسية في النص الأصلي.

وبالتالي سقط المرحلة المتوسطة - على الألمان من الخارج البنى السياسية المطابقة لبورجوازية متطورة. ولما كانت العلاقات الاقتصادية الألمانية لم تبلغ في أي حال من الأحوال مستوى التطور الذي تطابقه تلك البنى السياسية، فإن البورجوازية لم تتبناها إلا في شكل أفكار مجردة، مبادئ صالحة في ذاتها ولذاتها، رغبات تقية وعبارات جوفاء، تحديدات ذاتية كانطية (Kantian self-determinations) للإرادة وللبشر كما يجب أن يكونوا. وبالتالي فقد كان موقفها من هذه البنى أكثر أخلاقية وأكثر اختلافاً حتى درجة كبيرة من موقف الأمم الأخرى، أي أنها أظهرت ضيقاً في التفكير فريداً حتى درجة عالية، ولم تؤد جميع جهود البورجوازيين الألمان إلى أدنى نتيجة على الإطلاق.

وأخيراً، فإن الضغط المتعاظم أبداً للتنافس الأجنبي والتجارة العالمية، الذي كانت إمكانية التهرب منه تتضاءل أكثر فأكثر بالنسبة إلى ألمانيا - قد ألزم المصالح المحلية المبعثرة للألمان بالاتحاد في نوع ما من التناغم. وأخذ البورجوازيون الألمان، وعلى الأخص منذ عام ١٨٤٠، يفكرون في الحفاظ على هذه المصالح المشتركة، وأصبح موقفهم قومياً وليبرالياً، وأخذوا يطالبون بالحماية الجمركية والدساتير. وهكذا فقد بلغوا في الوقت الحاضر، على وجه التقريب، المرحلة التي وصلت إليها البورجوازية الفرنسية في عام ١٧٨٩.

وإذا أراد المرء ان يحكم، على طريقة الإيديولوجيين البرلينيين، على الليبرالية والدولة ضمن إطار تجلي ظاهراتها المحلية في ألمانيا، أو قصر نفسه على مجرد نقد الأوهام البورجوازية الألمانية عن الليبرالية، بدلاً من أن يدرسها في ارتباطاتها بالمصالح الفعلية التي صدرت عنها والتي لا ينفصل عنها وجودها الفعلي - فإنه ينتهي بكل تأكيد إلى أشد الاستنتاجات ابتذالاً. ليست هذه الليبرالية الألمانية كما رأينا، حتى في شكلها الشعبي، كما كانت تعبر بعد عن نفسها حتى تاريخ قريب، سوى هذيان حالم، سوى انعكاس إيديولوجي لليبرالية الفعلية. لشدة ما يصبح من اليسير إذن، تحويل محتواها كلياً إلى فلسفة، إلى تحديدات مفهومية صرفة، إلى "إدراك عقلاني"! وهكذا فإذا كان المرء على درجة كبيرة من التعاسة حقاً بحيث لا يعرف حتى هذه الليبرالية من الأسلوب البورجوازي إلا في الشكل

المتعالـي الـذي أعطـاه إيـاه هيغـل ومعلمـو المـدارس المرتهنـون بـه، فإنـه ينتهـي بـكل تأكيـد إلـى الاسـتنتاجات التـي تخـص علـى وجـه الحصـر مجـال المقـدس. وإن سانتشـو سـوف يزودنـا بمثـال بائـس علـى ذلـك.

"لقـد قيـل الشـيء الكثيـر أخيـراً" فـي الدوائـر النشـيطة عـن حكـم البورجوازييـن، "بحيـث ليـس ممـا يبعـث علـى الاسـتغراب أي أنبـاء عنـه"، ولوعـن طريـق لويـس بـلان الـذي ترجمـه البرلينـي بوهـل[١٠٤] الـخ، "قـد تسـربت حتـى إلـى برليـن" واجتذبـت هنالـك انتبـاه معلمـي المـدارس المتسـاهلين (ويغـان، ص ١٩٠). وعلـى أي حـال، فإنـه لا يمكـن أن يقـال إن "شـترنر"، بطريقتـه فـي تملـك الأفـكار الرائجـة، قـد "تبنـى طريقـة جديـدة مريحـة ومفيـدة بصـورة خاصـة" (ويغـان، الصفحـة ذاتهـا). إن طريقتـه فـي نهـب هيغـل قـد فضحتـه، وهـو مـا سـوف يـرد مزيـد مـن الأمثلـة عليـه فيمـا يلـي.

ولـم يفـت صاحبنـا معلـم المدرسـة أن يسـجل مـا تـم أخيـراً مـن خلـط بيـن الليبرالييـن والبورجوازيـة. وبمـا أن القديـس ماكـس يخلـط البورجوازيـة مـع المواطنيـن الصالحيـن، مـع المالكيـن الصغـار الألمـان، فإنـه لا يفهـم الحقائـق التـي نقلـت إليـه حسـب مغزاهـا الفعلـي، المطابـق لمـا قالـه عنهـا جميـع المؤلفيـن الكفوئيـن - يعنـي بحيـث يميـز فـي الصيـغ الليبراليـة التعبيـر المثالـي عـن مصالـح البورجوازيـة الفعليـة - بـل علـى العكـس مـن ذلـك، ففـي رأيـه أن هـدف البورجـوازي الأخيـر هـو أن يصبـح ليبراليـاً كامـلاً، مواطنـاً فـي الدولـة. فعنـد القديـس ماكـس ليـس البورجـوازي حقيقـة المواطـن، بـل المواطـن حقيقـة البورجـوازي. وإن هـذا التصـور، الـذي هـو مقـدس بقـدر مـا هـو ألمانـي، ليمضـي بعيـداً بحيـث يحـول "المواطنيـة" (يجـب أن نقـرأ: هيمنـة البورجوازيـة) فـي الصفحـة ١٣٠ إلـى "فكـرة، ولا شـيء سـوى فكـرة"، ويعطـي الدولـة دور "الرجـل الحقيقـي" الـذي باسـم "حقـوق الإنسـان" يمنـح لـكل بورجـوازي فـرد حقـوق "الإنسـان"، وبذلـك يضفـي عليـه التكريـس الحقيقـي. وإن هـذه الأمـور جميعـاً تحـدث بعدمـا فضحـت الأوهـام عـن الدولـة وحقـوق الإنسـان بصـورة كافيـة فـي الحوليـات الألمانيـة الفرنسـية[*]، وهـي حقيقـة يلاحظهـا

(*) تـم هـذا فـي الحوليـات الألمانيـة – الفرنسـية، بالنظـر إلـى سـياق الموضـوع، فيمـا يتعلـق بحقـوق الإنسـان التـي أعلنتهـا الثـورة الفرنسـية فقـط. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن هـذا التصـور للتنافـس علـى أنـه "حقـوق =

القديس ماكس أخيراً في "تعليقه التبريري" لعام ١٨٤٥. وهكذا فإنه يستطيع أن يحوّل البورجوازي - وقد فصل البورجوازي بوصفه ليبرالياً عن نفسه بوصفه بورجوازياً تجريبياً - إلى ليبرالي مقدس، تماماً مثلما يحوّل الدولة إلى "المقدس"، وعلاقة البورجوازي بالدولة الحديثة إلى علاقة مقدسة، إلى عبادة (ص١٣١) - وبذلك يختتم فعلاً نقده لليبرالية السياسية. لقد حولها إلى "المقدس".(*)

وهذه الآن بعض الأمثلة عن طريقة القديس ماكس في تزيين هذه الملكية الخاصة به بنقوش عربية تاريخية. وإنه ليستخدم لهذا الغرض الثورة الفرنسية التي هي ضمن سمساره (courtier) التاريخي، القديس برونو، عقداً صغيراً لتزويده ببعض المعطيات المتعلقة بها.

على أساس كلمات قليلة من بايلي، والأكثرمن ذلك أنها مأخوذة عن الأحداث المأثورة [Den kwürdigkeiten] للقديس برونو، تتيح دعوة مجلس الطبقات الثلاث "الأولئك الذين كانوا رعايا حتى ذلك الحين، أن يتوصلوا إلى الوعي بأنهم مالكون" (ص ١٣٢). على العكس من ذلك، يا صاحبي(**)! إن أولئك الذين كانوا مالكين حتى ذلك الحين يبرهنون، من خلال دعوة مجلس الطبقات الثلاث، على وعيهم بأنهم ليسوا- رعايا بعد الآن - وهو وعي توصلوا إليه منذ زمن طويل، في مؤلفات الفيزيوقراطيين(١٠٥) على سبيل المثال، وفي مناظرات لينغيه ضد البورجوازيين (نظرية القوانين المدنية، ١٧٦٧)، وفي كتابات مرسييه، ومابلي، وعلى العموم في الكتابات الموجهة ضد الفيزيوقراطيين. وعلى أي حال فقد تم الاعتراف بأهمية هذه المؤلفات منذ مطلع الثورة - مثلاً من قبل بريسو، وفوشيه، ومارا، وفي الحلقة الاجتماعية [cercle social](١٠٦)، ومن قبل جميع الخصوم الديمقراطيين للافاييت.

= الإنسان" يمكن أن يصادف قبل قرن من الزمن عند الناطقين باسم البورجوازية (جون هامبدن، بيتي، بواغيللبير، تشايلد، الخ). وفيما يتعلق بعلاقة منظري الليبرالية بالبورجوازيين، قارن ما قيل أعلاه عن علاقة إيديولوجي طبقة ما بهذه الطبقة بالذات.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وبذلك فإن النقد ككل "يحقق هدفه الأخير" بالنسبة إليه وتنقلب جميع القطط رمادية اللون، وبذلك فهو أيضاً يعترف بجهله الأساس الفعلي والمحتوى الفعلي لهيمنة البورجوازية.

(**) mon brave، بالانكليزية في النص الأصلي.

ولـو أن القديـس ماكـس فهـم الموضـوع كمـا حـدث، بصـورة مسـتقلة عـن سمسـاره التاريخـي، فإنـه مـا كان يدهـش لأن "كلمـات بايلـي تـرن بـكل تأكيـد[*] [كمـا لـو أن كل إنسـان بـات مالـكاً فـي الوقـت الحاضـر". و[أن] البورجوازييـن [...] حكـم المالكيـن [...] أن [...] [...المالكيـن...] أصبحـوا حاليـاً بورجوازييـن بامتيـاز[**]، وهـو المأخـذ الـذي أخـذ عليهـم حتـى قبـل الثـورة [...].

[...] "منـذ الثامـن مـن تمـوز (يوليـو) ١٧٨٩ [...] بيـان الأسـقف [أوتـون][١٠٧] وباريـر [بـدد] الوهـم بـأن [لـكل إنسـان]، الفـرد، أهميـة فـي التشـريع، لقـد [أثبـت] عجـز الموكليـن التـام. إن أغلبيـة النـواب أصبحـت سـائدة" [ص ١٣٢، و].

إن "بيـان أسـقف أوتـون وبارير"هـو اقتـراح[١٠٨] وضعـه الأسـقف فـي جـدول الأعمـال فـي الرابـع مـن تمـوز (يوليـو) (لا الثامـن منـه) وليـس لباريـر أي علاقـة بـه سـوى أنـه أيـده فـي "الثامـن مـن تمـوز" مـع كثيريـن غيـره. ولقـد أقـر فـي التاسـع مـن تمـوز (يوليـو)، بحيـث أنه ليـس مـن الواضح علـى الإطلاق لمـاذا يتحـدث القديـس ماكـس عـن "الثامـن مـن تمـوز (يوليـو)". ولـم "يبـدد هـذا الاقتـراح فـي أي حـال مـن الأحـوال الوهـم بـأن لـكل إنسـان، الفـرد، أهميـة" الـخ؛ بيـد أنـه نقـض التفويـض الملـزم للكراسـات (cahiers)[١٠٩] المعطـى إلـى النـواب، يعنـي نفـوذ و"أهميـة" لا "كل إنسـان، الفـرد"، بـل المحاكـم المئـة والسـبع والسـبعون والدوائـر الأربعمئـة والإحـدى والثلاثـون[١١٠]؛ وحيـن أقـرت الجمعيـة الاقتـراح، فقـد طرحـت طابـع الأحـوال العامـة[***] الإقطاعـي القديـم. وعـلاوة علـى ذلـك، فلـم تكـن المسـألة فـي ذلـك الحيـن، فـي أي حـال مـن الأحـوال، مسـألة النظريـة الصحيحـة للتمثيـل القومـي، بـل مسـألة قضايـا جوهريـة، عمليـة حتـى درجـة رفيعـة. كان جيـش بروغلـي يهـدد باريـس ويقتـرب أكثـر فأكثـر كل يـوم؛ وكانـت العاصمـة فـي حالـة مـن الاضطـراب الشـديد؛ لـم يكـد ينقضـي أسـبوعان علـى لعبة التنس وسـرير العدالـة[١١١]؛ وفيمـا عـدا ذلـك، فقـد كان البـلاط يتآمـر مع كتلة النبـلاء والأكليـروس ضد الجمعيـة الوطنية؛

(*) إن الفقرة التالية، حتى هذه الكلمات: "... وذلك من جراء الحواجز الجمركية..."، هي من المقاطع التي كانت حتى الآن مجهولة، وهي تنشر هنا للمرة الأولى.

(**) par excellence، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) états généraux، بالفرنسية في النص الأصلي.

وأخيراً، فقد كانت معظم الأقاليم في قبضة المجاعة، وكان النقد نادراً جداً، وذلك من جراء الحواجز الجمركية الاقليمية الإقطاعية القائمة بعد، وكنتيجة للنظام الزراعي الإقطاعي بمجموعه. وكانت المسألة في ذلك الحين مسألة جمعية نشيطة بصورة جوهرية(*)،على حد تعبير تاليران نفسه، بينما كانت الكراسات [الخاصة] بالأرستقراطية والجماعات الرجعية الأخرى تعطي البلاط الفرصة من أجل إعلان قرار الجمعية [باطلاً بالاستناد] إلى رغبات الناخبين. وأعلنت الجمعية استقلالها بإقرار اقتراح تاليران واستولت على السلطة التي كانت في حاجة إليها، الأمر الذي لم يكن في الإمكان تحقيقه طبعاً على الصعيد السياسي إلا ضمن إطار الشكل السياسي وبالاستناد إلى نظريات روسو القائمة، الخ. [راجع: بزوغ النهار (le point de jour)، بقلم بارير دي فيوزاك، ١٧٨٩، العددان ١٥ و١٧]. ولم يكن بد للجمعية الوطنية من اتخاذ هذه الخطوة تحت ضغط الجماهير الفقيرة الواقفة خلفها. وحين فعلت ذلك لم تتحول في أي حال من الأحوال إلى "مجلس أناني كلياً، منفصل تماماً عن الحبل السري وقاسٍ لا يرحم" [ص ١٤٧]؛ إن الأمر على النقيض من ذلك، إذ تحوّلت بذلك فعلياً إلى الأداة الفعلية للغالبية العظمى من الفرنسيين الذين كان في مقدورهم لولا ذلك أن يدوسوها بالأقدام، وهو ما حدث بالفعل في وقت لاحق لأولئك النواب "الأنانيين كلياً الذين "انفصلوا تماماً عن الحبل السري". بيد أن القديس ماكس، بمساعدة سمساره التاريخي لا يرى هنا أكثر من حسم لمسألة نظرية، إنه لا يرى في الجمعية التأسيسية، قبل ستة أيام من الاستيلاء على الباستيل، سوى مجلس لآباء الكنيسة يناقش أحد بنود العقيدة! وفيما عدا ذلك، فإن المسألة المتعلقة "بأهمية كل إنسان، الفرد"، لا يمكن أن تطرح إلا من خلال هيئة تمثيلية منتخبة بصورة ديموقراطية، وهي لم تعرض للمناقشة خلال الثورة إلا في الجمعية التأسيسية، وكان ذلك لأسباب تجريبية صرفة كما هي حال الكراسات في وقت سابق. (لكن بما أن شترنر لا يتطرق إلى هذه المسألة، فليست بنا حاجة كذلك إلى الحديث عنها مفصلاً). إن القضية التي حسمتها الجمعية التأسيسية من وجهة نظرية هي

(*) Assemblée éssentiellement active، بالفرنسية في النص الأصلي.

أيضاً، التمييز بين الهيئة التمثيلية لطبقة سائدة والهيئة التمثيلية لمرتبة سائدة؛ وإن هذه السيادة السياسية للطبقة البورجوازية كانت مشروطة بأوضاع كل فرد، لأنها كانت مشروطة بعلاقات الإنتاج السائدة في ذلك الحين. إن النظام التمثيلي هو نتاج نوعي جداً للمجتمع البورجوازي الحديث وهو لاصق بهذا المجتمع قدر التصاق الفرد المنعزل به.

وكما أن القديس ماكس يعتبر هنا المحاكم المئة والسبع والسبعين والدوائر الأربعمئة والإحدى والثلاثين على أنها "أفراد"،كذلك يرى فيما يرى بعد في الملك (monarque) المطلق وعبارته كذلك أن تلك هي رغبتنا(*)، حكم "الفرد" المناهض للملك الدستوري، "حكم الشبح ["] (ص ١٤١)، ويرى من جديد في النبل وعضو الصنف الحرفي "الفرد" صورة متعارضة مع المواطن (ص ١٣٧).

"لم تكن الثورة موجهة مباشرة ضد الواقع، لكن ضد هذا الواقع، ضد هذه الأوضاع المعينة" (ص ١٤٥).

وبالتالي لم تكن موجهة ضد النظام القائم فعلياً للملكية العقارية، والضرائب، والرسوم الجمركية التي كانت تعوق التجارة لدى كل منعطف، و...[...] شترنر... .

[(**) يحسب "شترنر"] أنه يستوي ["بالنسبة إلى البورجوازيين الصالحين" أن يدافع عنهم]، هم ومبادئهم، ملك مطلق أو ملك دستوري أو جمهورية، الخ". - مما لا ريب فيه أن هذا "يستوي" بالنسبة إلى البورجوازيين الصالحين "الذين يشربون جعتهم البيضاء(١١٢) في حانة برلينية؛ بيد أن هذا الأمر ليس في أي حال من الأحوال موضوع لامبالاة بالنسبة إلى البورجوازيين التاريخيين. إن "البورجوازي الصالح" "شترنر" يتخيل هنا من جديد - كما يفعل في هذا الفصل بأسره -إن البورجوازي الفرنسي والأميركي والإنكليزي هم مالكون صغار برلينيون صالحون من شاربي الجعة البيضاء. وإذا ترجم المرء العبارة الواردة أعلاه من لغة الوهم السياسي إلى الألمانية الصالحة فإنها تعني: بالنسبة إلى البورجوازيين

(*) car tel est notre plaisir، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) فجوة في المخطوطة.

"يستوي" أن يملكوا زمام السلطة أو أن تعدل طبقات أخرى سلطتهم السياسية والاقتصادية. ويعتقد القديس ماكس أن ملكاً مطلقاً، أو أي واحد غيره، يستطيع أن يدافع عن البورجوازية بالضبط بمثل النجاح الذي تدافع به عن نفسها. والأكثر من ذلك أن يدافع عن "مبادئها" التي تستقيم في اخضاع سلطة الدولة لمبدأ "كل واحد لذاته وكل واحد في ذاته(*) واستغلالها لهذا الغرض - كيف يستطيع "ملك مطلق"؟ أن يفعل ذلك؟ فليسم القديس ماكس لنا بلداً واحداً تعهد البورجوازية فيه، في شروط متطورة للتجارة والصناعة، وفي مواجهة التنافس القوي، بالدفاع عنها إلى "ملك مطلق"؟

بعد هذا التحويل للبورجوازيين التاريخيين إلى مالكين صغار ألمان خارج التاريخ، فمن المؤكد أنه ليست "لشترنر" حاجة بعد الآن إلى معرفة أية بورجوازية أخرى خلاف "البورجوازيين الناعمين والموظفين الشرفاء"(!!) - شبحان لا يجسران على الظهور إلا فوق الأرض الألمانية "المقدسة" - الأمر الذي يتيح له أن يكوم هذه الطبقة برمتها تحت عبارة "خدم مطيعين" (ص ١٣٨). ألا فليلق نظرة واحدة على هؤلاء الخدم المطيعين في سوق الأوراق المالية في لندن، ومانشستر، ونيويورك، وباريس. وما دام القديس ماكس ماضياً في سبيله، فإنه يستطيع أن يقطع المسافة بكاملها(**)، وأن يصدق أحد المنظرين الضيقي التفكير من الوريقات الإحدى والعشرين [Einundzwanzig Bogen] عندما يقول إن "الليبرالية هي إدراك عقلاني مطبق على ظروفنا القائمة"[(١١٣)]، وأن يعلن أن "الليبراليين مقاتلون في سبيل العقل". وإنه لمن الواضح من هذه [...] العبارات كيف أن الألمان لم يشغلوا إلا قليلاً جداً [من] أوهامهم الأصلية الليبرالية. إن ابراهيم (Abraham) "على خلاف الرجاء آمن على الرجاء" ... وإيمانه "حسب له برا" .(الرسالة إلى أهل رومية، ٤: ١٨، ٢٢).

"تدفع الدولة جيداً، بحيث يستطيع مواطنوها الصالحون في كل طمأنينة أن يدفعوا بشحٍ، وبذلك تتزود بخدم تشكل منهم قوة - الشرطة - من أجل حماية المواطنين الصالحين

(*) chacun pour soi, chacun chez soi، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) the whole hog، بالإنكليزية في النص الأصلي.

تدفع لهـم أجـوراً جيـدة؛ وإن المواطنيـن الصالحيـن يدفعـون عـن طيبـة خاطـر ضرائـب مرتفعـة للدولـة كيمـا يسـتطيعون بالمقابـل أن يدفعـوا أجـوراً أقـل لعمالهـم" (ص ١٥٢).

ويجـب أن يُقـرأ هـذا كمـا يلـي: إن البورجوازييـن يدفعـون جيـداً لدولتهـم ويحملـون الأمـة علـى أن تتحمـل نفقاتهـا كيمـا يكـون فـي مقدورهـم بـكل طمأنينـة أن يدفعـوا بشـحٍ؛ وبالمدفوعـات الجيـدة يضمنـون أن تكـون لهـم بيـن خـدم الدولـة قـوة تحميهـم - الشـرطة، وهـم يدفعـون عـن طيبـة خاطـر، ويجبـرون الأمـة علـى أن تدفـع ضرائـب عاليـة بحيـث يكـون فـي مقدورهـم بـكل طمأنينـة أن يحولـوا المبالـغ التـي يدفعونهـا للعمـال علـى أنهـا جزيـة (علـى أنهـا حسـميات مـن الأجـور). إن "شـترنر" يحقـق هنـا هـذا الاكتشـاف الاقتصـادي الجديـد: إن الأجـور جزيـة، ضريبـة، يدفعهـا البورجـوازي إلـى البروليتـاري؛ فـي حيـن أن الاقتصادييـن الآخريـن، الدنيوييـن، يعتبـرون الضرائـب جزيـة يدفعهـا البروليتـاري إلـى البورجـوازي.

وينتقـل الأب القديـس الآن مـن البورجوازيـة المقدسـة إلـى بروليتاريـا شـترنر "الوحـداء" (ص ١٤٨). إن هـذه البروليتاريـا تتألـف مـن "أوغـاد، وعاهـرات، ولصـوص، وقطاعـي طـرق، وقتلـة، ومقامريـن، وأنـاس لا ملكيـة لهـم ولا عمـل، وأفـراد عابثيـن" (المصـدر ذاتـه). إنهـم يشـكلون "البروليتاريـا الخطيـرة". ويرجعهـم "شـترنر" لبرهـة مـن الزمـن إلـى "صياحيـن منعزليـن"، ومـن بعـد أخيـراً إلـى "مشـردين" خلاصتهـم "المشـردون بالـروح" (les vagabonds de l'esprit) الذيـن يرفضـون البقـاء "ضمـن حـدود فكـر معتـدل"...

ذلـك هـو المعنـى العريـض لمـا يسـمى البروليتاريـا أو (بالإبـدال) "الإمـلاق (paupérisme)!" (ص ١٤٩).

وفـي الصفحـة ١٥١، [مـن جهـة أخـرى] "تمتـص الدولـة دمـاء" البروليتاريـا. وبالتالـي فـإن البروليتاريـا بأكملهـا تتألـف مـن بورجوازييـن مفلسـين وبروليتارييـن مملقيـن، مـن مجموعـة مـن الصعاليـك الذيـن وجـدوا فـي كل حقبـة والذيـن سـبق وجودهـم الكتلـي بعـد انحطـاط الحقـب الوسـيطة التكـون الكتلـي للبروليتاريـا العاديـة، وهـو مـا يسـتطيع القديـس ماكـس أن يتأكـد منـه بمراجعـة التشـريع والأدب فـي إنكلتـرا أو فرنسـا. إن قديسـنا يملـك عـن البروليتاريـا بالضبـط ذات الفكـرة التـي يملكهـا "البورجوازيـون الصالحـون الناعمـون"، وعلـى الأخـص "الموظفـون المخلصـون". وإنـه لمنطقـي مـع نفسـه أيضـاً حيـن يوحـد البروليتاريـا مـع الإمـلاق، فـي حيـن أن

الإملاق هو حالة البروليتاريا المملقة وحدها. المستوى الأحط الذي يهوي إليه البروليتاري الذي أصبح عاجزاً عن مقاومة ضغط البورجوازية، وإن البروليتاري الذي فقد طاقته بأكملها هو وحده المملق(*) (راجع سيسموندي، وويد)(١١٤)، الخ.. ومثال ذلك أن "شترنر" وأشباحه يمكن أن يعدوا مملقين في نظر البروليتاريين في بعض الظروف، لكن لا يمكن أن يعدوا بروليتاريين أبداً.

تلك هي آراء القديس ماكس "الخاصة" عن البورجوازية والبروليتاريا. لكن ما دامت هذه التخيلات عن الليبرالية، والمواطنين الصالحين، والمشردين، لا تؤدي به بالتأكيد إلى أي مكان على الإطلاق، فأنه يجد نفسه ملزماً، كيما يقوم بالانتقال إلى الشيوعية، بأن يأتي بالبورجوازيين والبروليتاريين العاديين والفعليين بقدر ما يعرف عنهم شيئاً عن طريق السمع. ويحدث هذا في الصفحتين ١٥١ و١٥٢، حيث تتحول البروليتاريا الرثة إلى "شغيلة"، إلى البروليتاريا الدنسة، في حين أن البورجوازيين "في سياق الزمن" يمرون أحياناً بسلسلة من "الطفرات المتنوعة" و"الانكسارات المتعددة الأشكال". ونقرأ في أحد الأسطر: "إن المالكين يقبضون على زمام السلطة"، يعني البورجوازيين الدنسين؛ ونقرأ بعد ستة أسطر: "إن البورجوازي هو ما هو بنعمة الدولة"، يعني البورجوازيين المقدسين؛ ومع ذلك، بعد ستة أسطر: "إن الدولة هي نظام البورجوازية الأساسي"، يعني البورجوازيين الدنسين، وهي صيغة تفسر لنا بالمناداة بأن "الدولة تعطي المالكين" "أملاكهم في شكل الإقطاعات" وأن "مال الرأسماليين وملكيتهم" هما إحدى "هذه الملكيات الخاصة بالدولة" التي تنازلت عنها الدولة في شكل "إقطاعات" - يعني البورجوازيين المقدسين. وأخيراً فإن هذه الدولة الكلية القدرة تتحول من جديد إلى "دولة المالكين"، يعني البورجوازيين الدنسين، وهي صيغة يقابلها مقطع لاحق: "بفضل الثورة أصبحت البورجوازية مهيمنة" (ص ١٥٦). إن القديس ماكس نفسه ما كان يستطيع قط أن يحقق هذه التناقضات "الرهيبة" و"الموجعة"، على الأقل ما كان ليجسر قط على إذاعتها، لولا مساعدة الكلمة الألمانية Bûrger ["مواطن مديني"] التي يفسرها كما يحلو له بمعنى "مواطن" أو بمعنى "بورجوازي" أو بمعنى "البورجوازي الصالح" الألماني.

(*) Poor، بالإنكليزية في النص الأصلي.

وقبـل أن نمضـي قدمـاً، يجـب أن نسـجل اكتشـافين سياسـيين اقتصاديـين عظيمـين آخريـن "يكشـفهما" صاحبنـا المغفـل "فـي أعمـاق قلبـه" ويملـكان شـيئاً مشـتركاً مـع "فرحـة المراهـق" فـي الصفحـة ١٧: إنهمـا "فكرتـان نقيتـان" أيضـاً.

ففـي الصفحـة ١٥٠ ترجـع كل شـرور الوضـع الاجتماعـي القائـم إلـى حقيقـة أن "البورجوازييـن والعمـال يؤمنـون "بحقيقـة" المـال". إن جـاك المغفـل يتخيـل أن فـي مقـدور "البورجوازييـن" و"العمـال" المبعثريـن بيـن جميـع دول العالـم المتحضـرة أن يسـجلوا علـى حيـن غـرة، ذات صبـاح رائـع، "كفرهـم "بحقيقـة المـال"؛ وحتـى إذا افترضنـا أن هـذا السـخف ممكـن، فإنـه يعتقـد أنـه سـيحقق تغييـراً مـا. إنـه يعتقـد أن فـي إمـكان أي رجـل أدب برلينـي أن يبطـل "حقيقـة المـال" بمثـل السـهولة التـي يبطـل بهـا فـي ذهنـه "حقيقـة" اللـه أو الفلسـفة الهيغليـة. أمـا أن المـال هـو النتـاج الضـروري لعلاقـات محـددة للإنتـاج والتعامـل، وأنـه يبقـى "حقيقـة" مـا اسـتمرت هـذه العلاقـة قائمـة - فمـن المؤكـد أن هـذا الأمـر لا يعنـي البتـة إنسـاناً قديسـاً مثـل القديـس ماكـس الـذي يرفـع عينيـه صـوب السـماء ويديـر قفـاه الدنـس إلـى العالـم الدنـس.

ويتـم الاكتشـاف الثانـي فـي الصفحـة ١٥٢: إن "العامـل لا يسـتطيع أن يحـوّل عملـه إلـى ربـح" لأنـه "سـقط فـي أيـدي أولئـك الذيـن" حصلـوا علـى "نـوع مـا مـن الملكيـة العامـة" "فـي شـكل إقطـاع". وإن هـذا لمجـرد تفسـير للعبـارة الـواردة فـي الصفحـة ١٥١ والمـوردة أعـلاه حيـث الدولـة تمتـص دمـاء العامـل. ولا بـد هنـا أن تـراود كل امـرئ فـي الحـال هـذه "الفكـرة البسـيطة" - أمـا أنهـا لا تـراود "شـترنر" البتـة فأمـر "يجـب ألا يثيـر الدهشـة" - كيـف حـدث أن الدولـة لـم تعـطِ "العمـال" أيضـاً نوعـاً مـا مـن "الملكيـة العامـة" فـي "شـكل إقطـاع"؟ ولـو أن القديـس ماكـس طـرح علـى نفسـه هـذا السـؤال، فلعلـه كان يوفـر علـى نفسـه عنـاء إنشـاء مخططـه عـن البورجوازيـة "المقدسـة" إذ كان لا بـد لـه إذن أن يتبيـن منهـا طبيعـة العلاقـة القائمـة بيـن المالكيـن والدولـة الحديثـة.

إن التضـاد بيـن البورجوازيـة والبروليتاريـا - إن "شـترنر" نفسـه يعـرف ذلـك - يمهـد السـبيل للوصـول إلـى الشـيوعية. لكـن كيـف يتوصـل المـرء إليهـا. هـذا مـا يعرفـه "شـترنر" وحـده.

"إن العمـال يملكـون بيـن أيديهـم السـلطة الأضخـم... مـا عليهـم سـوى أن يتوقفـوا عـن

العمـل ويعتبـروا نتـاج عملهـم ملكيتهـم ويسـتمتعوا بـه. هـذا هـو معنـى الاضطرابـات العماليـة المتفجـرة هنـا وهنـاك" (ص ١٥٣).

إن الاضطرابات العماليـة التـي كانـت، فـي أيـام حكـم الأمبراطـور البيزنطـي زينـون (Zénon)، سـبباً فـي صـدور قانـون (زينـون، مرسـوم عـن الأعمـال الجديـدة)(*)، والتـي "تفجـرت" فـي القـرن الرابـع عشـر فـي صـورة العاميـة)[١١٥] وعصيـان وات تايلـر[١١٦]، وفـي ١٥١٨ فـي يـوم أول أيـار (مايـو) المشـؤوم[١١٧] فـي لنـدن، وفـي شـكل الانتفاضـة العظمـى للدبـاغ كيـت[١١٨]، وكانـت السـبب فـي المرسـومين الثانـي والثالـث اللذيـن أصدرهمـا إدوارد السـادس، وفـي المرسـوم رقـم ١٥، ومجموعـة مـن القوانيـن البرلمانيـة المماثلـة؛ والاضطرابـات التـي سـرعان مـا حدثـت فـي وقـت لاحـق، فـي ١٦٤٠و١٦٥٩ (ثمانـي انتفاضـات فـي سـنة واحـدة) فـي باريـس والتـي لا بـد أنهـا كانـت متواتـرة مـن قبـل منـذ القـرن الرابـع عشـر فـي فرنسـا وإنكلتـرا إذا مـا أخذنـا بعيـن الاعتبـار تشـريع تلـك الأيـام؛ والحـرب المسـتمرة التـي خاضهـا العمـال بقـوة وذكاء منـذ عـام ١٧٧٠ فـي إنكلتـرا ومنـذ الثـورة فـي فرنسـا ضـد البورجوازيـة - هـذه الأمـور جميعـاً لا وجـود لهـا بالنسـبة إلـى القديـس ماكـس إلا "هنـا وهنـاك"، فـي سـيليزيا، وبولونيـا، وماغدبـورغ، وبرليـن، "حسـب المعلومـات المنشـورة فـي الصحـف الألمانيـة".

إن جـاك المغفـل يتخيـل أن نتـاج العمـل، بوصفـه موضـوع "اعتبـار" و"متعـة"، سـوف يسـتمر فـي الوجـود ويعـاد إنتاجـه حتـى إذا توقـف المنتجـون عـن العمـل.

وكمـا فعـل أعـلاه بخصـوص المـال، فـإن صاحبنـا البورجـوازي الصالـح يحـوِّل مـن جديـد "العمـال"، المبعثريـن فـي أرجـاء العالـم المتحضـر، إلـى رابطـة متماسـكة مـن الأفـراد ليـس عليهـا إلا أن تتخـذ قـراراً كيمـا تتخلـص مـن جميـع المصاعـب. ومـن المؤكـد أن القديـس ماكـس يجهـل أن خمسـين محاولـة علـى الأقـل جـرت فـي إنكلتـرا منـذ عـام ١٨٣٠ فقـط، وثمـة محاولـة أخـرى تجـري فـي الوقـت الحاضـر، فـي سـبيل جمـع العمـال جميعـاً، فـي إنكلتـرا وحدهـا، فـي رابطـة واحـدة، وأن أسـباباً تجريبيـة حتـى درجـة كبيـرة قـد عطلـت نجـاح جميـع هـذه المشـروعات. وهـو يجهـل أنـه حتـى أقليـة مـن العمـال، إذا اتحـدوا للتوقـف عـن العمـل، سـوف يجـدون أنفسـهم ملزميـن بشـكل

(*) de novis operibus constitutuo، باللاتينية في النص الأصلي.

عاجلٍ جداً لاتخاذ موقف ثوري - وهي حقيقة كان يستطيع الاطلاع عليها من انتفاضة من عام ١٨٤٢ في إنكلترا[١١٩] ومن انتفاضة ويلش السابقة لها في عام ١٨٣٩[١٢٠]، وهي السنة التي بلغ فيها الفوران الثوري بين العمال للمرة الأولى نسبة عالية، ابتداء من "الشهر المقدس" الذي أعلن بصورة متزامنة مع تسليح الشعب العام. وإننا لنجد هنا من جديد كيف يحاول القديس ماكس باستمرار أن يجد إنساناً يقنعه بأن لهرائه "معنى" الحقائق التاريخية (وهي عملية ينجح فيها على الأكثر مع صاحبه "المرء" غير الشخصي) - حقائق تاريخية "ينسب إليها معناه الخاص، بحيث لا بد بذلك أن تنتهي إلى الهراء" (ويغان، ص ١٩٤). وفيما عدا ذلك، فأنه لا يمكن قط أن يخطر في بال أي بروليتاري أن يستشير القديس ماكس طبعاً بشأن "معنى" الحركات البروليتارية أو ما يجب فعله في الوقت الحاضر ضد البورجوازية.

وبعد مثل هذه الحملة الكبرى، يعود قديسنا سانتشو إلى صاحبته ماريتورنا بالجعجعة التالية:

"تقوم الدولة على عبودية العمل. فإذا أصبح العمل حراً، ضاعت الدولة" (ص ١٥٣).

إن الدولة الحديثة، حكم البورجوازية، تقوم على حرية العمل. إن القديس ماكس نفسه - أكثر من مرة واحدة! وطبعاً في شكل كاريكاتوري جداً!- قد استخلص من الحوليات الألمانية الفرنسية الفكرة القائلة إنه جنباً إلى جنب مع حرية الدين، والدولة، والفكر، الخ، وبالتالي "أحياناً"، "أيضاً، "ربما"، مع حرية العمل، لا أصبح أنا حراً، بل واحد فقط من الطغاة الذين يستعبدونني. إن حرية العمل هي حرية العمال في التنافس فيما بينهم. إن القديس ماكس لتعيس الحظ جداً في الاقتصاد السياسي كما في المجالات الأخرى جميعاً. إن العمل حر في جميع البلدان المتحضرة! فليس المقصود تحرير العمل، بل نقضه[١٢١].

ب- الشيوعية

يسمي القديس ماكس الشيوعية "الليبرالية الاجتماعية"، لأنه يعرف جيداً السمعة السيئة التي كانت تتصف بها كلمة ليبرالية في عام ١٨٤٢ بين الراديكاليين وأكثر" المفكرين الأحرار" البرلينيين تقدماً[١٢٢]. وإن هذا التحويل ليمنحه بصورة متزامنة الفرصة والشجاعة

ليضع في أفواه هؤلاء "الليبراليين الاجتماعيين" مختلف أنواع الأشياء التي لم ينطق بها إنسان قط قبل "شترنر" والتي يقصد أن يكون دحضها دحضاً للشيوعية في الوقت ذاته.

ويتحقق هذا النصر على الشيوعية بواسطة سلسلة من الإنشاءات بعضها منطقي وبعضها تاريخي.

الإنشاء المنطقي الأول:

لأننا "نجد أنفسنا نتحول إلى خدم للأنانيين"، "يجب" ألا "نصبح أنانيين" أنفسنا... بل يجب بالأحرى أن نجعل الأنانيين مستحيلين. يجب أن نحوِّلهم جميعاً إلى صعاليك، فلا يملك أي منهم شيئاً، كيما يكونون "جميعاً" مالكين- هذا ما يقوله الليبراليون الاجتماعيون. من هو هذا الشخص الذي تسمونه "جميعاً"؟ إنه "المجتمع" (ص ١٥٣).

إن سانتشو يحوِّل هنا بمعونة بعض علامات الاقتباس "الجميع" إلى شخص، المجتمع على أنه شخص، على أنه ذات = المجتمع المقدس. وإن قديسنا ليعرف الآن ما يقصده، ويستطيع أن يطلق العنان لكل تيار غضبه اللاهب ضد "المقدس"، الأمر الذي يترتب عليه، بالطبع، محق(aneàntit) الشيوعية.

أما أن القديس ماكس يضع هنا من جديد هراءه الخاص في فم "الليبراليين الاجتماعيين" على أنه معنى كلماتهم، فليس ذلك بالأمر "الذي يبعث على الدهشة". إنه يوحد بادئ الأمر "التملك" من حيث هو مالك خاص "بالتملك" عامة. وبدلاً من أن يدرس العلاقات المحددة للملكية الخاصة بالإنتاج، بدلاً من أن يدرس "التملك" من حيث هو مالك عقاري، من حيث هو صاحب ريع(*)، من حيث هو تاجر(**)، من حيث هو صاحب مصنع، من حيث هو عامل - وبذلك يتضح أن "التملك" تملك خصوصي كلياً، الحق في التصرف بعمل الناس الآخرين- فإنه يحوِّل جميع هذه العلاقات إلى "التملك بصفته هذه"(***) [...].

(*) Rentier، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Commerçant، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) إن أربع صفحات من المخطوطة هنا مفقودة، أي نهاية الإنشاء المنطقي الأول وبداية الإنشاء المنطقي الثاني.

الإنشاء المنطقي الثاني:

الليبرالية السياسية التي جعلت "الأمة" المالك الأسمى. وهكذا فليس على الشيوعية بعد الآن أن "تنقض" أية "ملكية شخصية"، بل على الأكثر أن تجعل توزيع "الإقطاعات" متساوياً وأن تدخل إليه المساواة(*). وبصدد المجتمع بوصفه "المالك الأسمى"وبصدد "الصعلوك"، يجب على القديس ماكس أن يراجع، فيما يراجعه، مجلة المساواة (L'égalitaire)(١٢٣) لعام ١٨٤٠:

"إن الملكية الاجتماعية تناقض، لكن الثروة الاجتماعية عاقبة للشيوعية. إن فورييه، بصورة متعارضة مع الأخلاقيين البورجوازيين المتواضعين، يكرر مئة مرة أن الشر الاجتماعي لا يستقيم في أن البعض يملك كثيراً، بل في أن يملك الجميع قليلاً جداً"، وبالتالي يستلفت الانتباه أيضاً إلى "فقر الأغنياء" في الصناعة الزائفة، باريس، ١٨٣٥، ص ٤١٠.

وكذلك فمنذ عام ١٨٣٩ - وبالتالي قبل كتاب ويتلينغ، ضمانات التناسق والحرية [Garatien der Harmonie und Feiheit] - ورد في مجلة شيوعية ألمانية وهي: صوت الشعب [Die Stimme des Volks] (العدد الثاني، ص ١٤) تصدر في باريس:

"إن الملكية الخاصة، "الربح الخاص" البريء، الوافي، الكدود، الممتدح جداً، يسيئ بصورة جلية إلى ثروة الوجود".

إن القديس سانتشو يخلط هنا بين الشيوعية وبين المفهوم الذي شكله عنها بعض الليبراليين الميالين إلى الشيوعية، ومصطلحات بعض الشيوعيين الذين يعبِّرون عن أنفسهم، لأسباب عملية جداً، في شكل سياسي.

وبعدما نقل "شترنر" الملكية إلى "المجتمع"، فإن جميع أعضاء هذا المجتمع المتضامنين يصبحون في نظره في الحال مملقين وصعاليك، على الرغم من أنهم - حتى وفقاً لمفهومه الخاص عن النظام الشيوعي - "يملكون" "المالك الأسمى"- وإن الاقتراح الصادق النية الذي يقدمه إلى الشيوعيين - "من أجل رفع كلمة [Lump (**)] إلى مرتبة

(*) Égalite، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) صعلوك.

التخاطب الفخري، بالضبط كما فعلت الثورة بكلمة "مواطن" - لمثال بارز على طريقته في الخلط بين الشيوعية وبين شيء انقضى منذ زمن طويل. إن الثورة "قد رفعت إلى مرتبة التخاطب الفخري" حتى كلمة اللامتسرول، بصورة مضادة لعبارة "البشر الشرفاء"(*) التي يترجمها بصورة خاطئة تماماً بعبارة البورجوازيين الصالحين. وإن القديس سانتشو يفعل ذلك كيما تتحقق الكلمات الواردة في كتاب النبي مرلين بشأن الصفعات الثلاثة آلاف والثلاثمئة التي لا بد أن يوجهها الإنسان الذي سيأتي إلى نفسه:

"يجب أن ينهال حامل سلاحك سانتشو بانزا،

بثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة

على وركيه العريضين جداً،

وهما عاريان تماماً بحيث ينتابه من جراء ذلك

ألم لاسع، مرير، فيثور غضبه أيما ثورة"(**) (دون كيخوت، المجلد الثاني، ص ٣٥)

ويسجل القديس سانتشو أن "ارتفاع المجتمع إلى مرتبة المالك الأسمى" سرقة ثانية للملكية الخاصة في مصلحة الإنسانية، بينما الشيوعية مجرد "سرقة الملكية الخاصة" وقد رفعت إلى مرتبة "الإنجاز التام". و"لما كان يعتبر السرقة أمراً بغيضاً بصورة لا جدال فيها"، فإن القديس سانتشو "يعتقد على سبيل المثال" "أنه قد وسم" الشيوعية "سلفاً بالاقتراح" الوارد أعلاه. (الكتاب، ص ١٠٢) وإذا كان صحيحاً أن "شترنر" قد "استشم" في الشيوعية "السرقة الصرفة" فكيف يمكنه الا يستشعر حيالها بـ"الاشمئزاز العميق" "والاستياء العادل"؟! (ويغان، ص ١٥٦). إننا نتحدى "شترنر" الآن أن يسمي لنا بورجوازياً واحداً كتب عن

(*) Honnêtes Gens، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Es menester, que sancho tu es udera

Se dé trés mil azotes, y tre cientos

En ambas sur valientes posaderas

Al aire descu biertas, y de modo

Que le escuezan, le amargence y le enfaden، الأبيات باللغة الإسبانية في النص الأصلي.

الشـيوعية (أو الميثاقيـة)[١٢٤] ولـم يسترسـل فـي مثـل هـذه السـخافات بمـا لا يقـل عـن ذلـك مـن تشـدق. ومـن المؤكـد أن الشـيوعية سـوف "تسـرق" مـا يعتبـره البورجـوازي "ملكيـة شـخصية".

النتيجة الأولى:

ص ٣٤٩: "مثلـت الليبراليـة معلنـة فـي الحـال أن ماهيـة الإنسـان هـي ألّا يكـون ملكيـة، بـل صاحـب ملكيـة . ولمـا كان الإنسـان هـو المقصـود هنـا، لا الفـرد، فـإن مسـألة المقـدار، التـي كانـت تشـكل علـى وجـه الدقـة مصلحـة الأفـراد الخاصـة، قـد تركـت لحريـة تصرفهـم. وهكـذا، فقـد احتفظـت أنانيـة الأفـراد بحريـة العمـل التامـة فـي مسـألة هـذا "المقـدار"، وانصرفـت إلـى تنافـس لا يـكل ولا يتعـب".

وهــذا يعنــي: إن الليبراليــة، أي المالكيــن الخاصيــن الليبرالييــن، قــد أعطــوا الملكيــة الخاصــة فـي مطلـع الثـورة الفرنسـية مظهـراً ليبراليـاً حيـن نـادوا بهـا بأنهـا إحـدى حقـوق الإنسـان. ولقـد كانـوا ملزميـن بـأن يفعلـوا ذلـك ولـو مـن جـراء مركزهـم كحـزب ثـوري؛ بـل لقـد كانـوا مكرهيـن أن يعطـوا كتلـة السـكان [الريفييـن] الفرنسـيين لا الحـق فـي الملكيـة فحسـب، بـل [أيضـاً] أن يتيحـوا لهـذه الكتلـة الاسـتيلاءعلى الملكيـات الفعليـة، وقـد كان فـي مقدورهـم أن يفعلـوا ذلـك كلـه لأن "مقدارهـم" الخـاص، الـذي كانـوا يعنـون بـه قبـل أي شـيء آخـر، ظـل سـليماً، بـل بـات مضمونـاً. وإننـا لنجـد هنـا فضـلاً علـى ذلـك أن التنافـس بالنسـبة إلـى القديـس ماكـس يصـدر عـن الليبراليـة، وهـي صفعـة يوجهها إلـى التاريـخ انتقامـاً للصفعـات التـي كان عليـه أن يوجهها إلـى نفسـه أعـلاه. إن "تفسـيراً أدق للبيـان الـذي سـاعد الليبراليـة فـي رأيـه علـى أن "تمثـل فـي الحـال" نجـده عنـد هيغـل، الـذي عبـر عـن نفسـه عـام ١٨٢٠ كمـا يلـي:

"باعتبـار الأشـياء الخارجيـة فأنـه مـن العقلانـي" (أي يناسـبني بوصفـي عقـلاً، بوصفـي إنسـاناً) "أن أحـرز ملكيـة... وانطلاقـاً مـن ذلـك فـإن مـا أملكـه ومقـداره مسـألة إمكانيـة قانونيـة". "فلسـفة الحـق"، (الفقـرة ٤٩).

إنـه لمـا يميـز هيغـل أنـه يجعـل مـن عبـارة البورجـوازي المفهـوم الحقيقـي للملكيـة، ماهيتهـا، وهـو مـا يقلـده "شـترنر" فيـه بـكل إخـلاص. ويسـتطيع القديـس ماكـس الآن، علـى أسـاس التحليـل الـوارد أعـلاه، أن يؤكـد فضـلاً عـن ذلـك أن الشـيوعية "طرحـت مسـألة مقـدار الملكيـة وأجابـت

عنها بمعنى أنه يجب على الإنسان أن يحصل على القدر الذي يحتاجه. أيمكن لأنانيتي أن ترضى بذلك؟... كلا، إذ يجب عليَّ بالأحرى أن أحصل على القدر الذي يمكنني أن أتملكه". (ص ٣٤٩).

يجب أن يلاحظ هنا أن الشيوعية لم تنشأ في أي حال من الأحوال من الفقرة ٤٩ من فلسفة الحق [Rechtsphilosophie] لهيغل وما ورد فيها من "ما وكم". ثانياً، لا ترتأي "الشيوعية" أنها تريد إعطاء "الإنسان" شيئاً ما، ذلك أن "الشيوعية" لا ترتأي أن "الإنسان" "يحتاج" أي شيء فيما عدا إيضاحاً نقدياً مقتضباً. ثالثاً، ينسب شترنر إلى الشيوعية مفهوم "الحاجات" الذي ينادي به البورجوازيون الحاليون؛ وبالتالي فإنه يدخل تمييزاً لا يمكن أن تكون له أهمية، من جراء تفاهته، إلا في المجتمع الحالي وصورته الفكرانية [ideell] - الرابطة الشترنرية "للصياحين الفرديين" والخياطات الحرائر. لقد حقق "شترنر" مرة أخرى "نفاذاً" عظيماً إلى ماهية الشيوعية. وأخيراً، فإن القديس ماكس، في مطلبه بالحصول على القدر الذي يمكنه تملكه (إن لم ترتد هذه الصيغة إلى تأكيد البورجوازيين المبتذل بأنه يجب على كل امرئ أن يحصل على القدر الذي تتيحه له كفاءته [Vermögen (*)]، يعني الحق في تحقيق الكسب الحر)، يفترض أن الشيوعية قد تحققت كيما يكون قادراً بملء الحرية على تطوير "كفاءته" ووضعها موضع العمل، الأمر الذي لا يتوقف عليه وحده في أي حال من الأحوال، أكثر مما تتوقف عليه "كفاءاته" بالذات، بل يتوقف أيضاً على علاقات الإنتاج والتعامل التي يحيا فيها. (راجع أدناه الفصل الخاص بالرابطة). وعلى أي حال، فإن القديس نفسه لا يتصرف وفقاً لعقيدته الخاصة، لأنه في مجرى "كتابه" بكامله يستخدم ويسيء استخدام أشياء لم يكن "قادراً على تملكها".

النتيجة الثانية:

"لكن المصلحين الاجتماعيين يبشروننا بحق اجتماعي. وهذا ما يجعل من الفرد

(*) إن الكلمة الألمانية Vermögen لا تعني الكفاءة أو القدرة فحسب، بل كذلك الثروة، والغنى، والملكية.

عبداً للمجتمع" (ص ٢٤٦). "في رأي الشيوعيين أنه يجب على كل أمرئ أن يتمتع بحقوق الإنسان الأزلية" (ص ٢٣٨).

إننا سنتحدث عن تعابير "الحق" و"العمل"، الخ، وكيف تستخدم من قبل الكتاب البروليتاريين وما يجب أن يكون موقف النقد حيالها، عندما نتحدث عن الاشتراكية الحقيقية (أنظر المجلد الثاني[*]). وبقدر ما يتعلق الأمر بالحقوق، فقد أكدنا مع كثيرين غيرنا على معارضة الشيوعية للحق، سواء الحق السياسي والخاص، أم في الشكل الأعم لحقوق الإنسان. أنظر الحوليات الألمانية الفرنسية حيث الامتياز، الحق الخصوصي، يعتبرمقابلاً للملكية الخاصة المرتبطة بطبقة، والحق مقابلاً لشروط التنافس، الملكية الخاصة الحرة (ص ٢٠٦ ومواضع أخرى)؛ وكذلك فإن حقوق الإنسان نفسها تدرس على اعتبارها امتيازاً، والملكية الخاصة على اعتبارها احتكاراً. وفيما عدا ذلك، فإن نقد الحق مرتبط بالفلسفة الألمانية ومقدم على أنه عاقبة نقد الدين (ص ٧٢)؛ وفضلاً على ذلك، فقد قرر بكل وضوح أن البديهيات الشرعية التي يفترض أنها تؤدي إلى الشيوعية هي بديهيات للملكية الخاصة، كما أن حق الملكية المشتركة مقدمة وهمية لحق الملكية الخاصة (ص ٩٨، ٩٩)[١٢٥].وبالمناسبة نجد في كتابات الشيوعيين الألمان مقاطع أو فقرات ظهرت بشكل مبكر، وعلى سبيل المثال في كتابات هيس وبوغن، ١٨٤٣ ص ٣٢٦وفي مواضع أخرى وهي فقرات استطاع "شترنر" أن يستولي عليها ويشوهها في نقده للحق.

وفيما عدا ذلك، فإن استخدام الفكرة الواردة أعلاه ضد بابوف واعتباره الممثل النظري للشيوعية أمر لا يمكن أن يخطر إلا في بال معلم مدرسة برليني. ومهما يكن من أمر، فإن "شترنر" يملك الوقاحة ليؤكد في الصفحة ٢٤٧ أن الشيوعية، التي تفترض

"إن البشر كلهم يملكون بفعل الطبيعة حقوقاً متساوية، تدحض موضوعتها الخاصة عندما تؤكد أن البشر بفعل الطبيعة لا يملكون حقوقاً على الإطلاق. ذلك أنها لا تريد، على سبيل المثال، أن تقر بأن للأهل حقوقاً على أولادهم؛إنها تنقض العائلة.وعلى العموم، فإن

(*) المجلد الثاني من الإيديولوجية الألمانية، وقد نشر هنا مع المجلد الأول في كتاب واحد.

هـذا المبـدأ الثـوري أو البابوفـي برمتـه (أنظـر: [الشـيوعيون فـي سويسـرا، تقريـر اللجنـة][١٢٦]، ص ٣) يرتكـز علـى نظـرة دينيـة خاطئـة".

إن يانكيـاً يأتـي إلـى إنكلتـرا، فيمنعـه قاضـي الصلـح مـن جلـد عبـده، فيهتـف مسـتاء: "أتسـمون هـذا بلـد الحريـة حيـث يمنـع الرجـل مـن جلـد زنجيـه؟"[*].

إن القديـس سانتشـو يرتكـب هنـا خطيئـة مزدوجـة. فـأولاً، يـرى أن نقـض "حقـوق الإنسـان المتسـاوية" هـو فـي الاعتـراف "بالحقـوق المتسـاوية بفعـل الطبيعـة" لـلأولاد بالنسـبة إلـى ذويهـم، بحيـث يمنـح الأولاد حقـوق الإنسـان نفسـها التـي للأهـل. ثانيـاً، يـروي جـاك المغفـل قبـل صفحتيـن أن الدولـة لا يحـق لهـا أن تتدخـل حيـن يضـرب الأب ابنـه، لأنهـا تعتـرف بحـق العائلـة. وهكـذا فـإن مـا يقدمـه مـن جهـة واحـدة علـى أنـه حـق خصوصـي (حـق العائلـة) يشـمله مـن جهـة ثانيـة فـي مقولـة "حقـوق البشـر المتسـاوية بفعـل الطبيعـة". وأخيـراً فإنـه يقـر لنـا بأنـه لا يعـرف بابـوف إلا مـن تقريـر بلونتشـلي، فـي حيـن أن هـذا التقريـر يقـر بـدوره (ص ٣) بأنـه استقى كل علمـه لـدى الفاضـل ل. شـتاين، دكتـور فـي القانـون[١٢٧]. إن معرفـة القديـس سانتشـوالعميقة بالشـيوعية واضحـة مـن هـذا الشـاهد. فكمـا أن القديـس برونـو سمسـاره فيمـا يتعلـق بالثـورة، فـإن القديـس بلونتشـلي سمسـاره فيمـا يتعلـق بالشـيوعية. ويجـب علينـا ألا ندهـش، فـي مثـل هـذه الأوضـاع، إذا مـا عمـد صاحبنـا الـذي هـو كلمـة اللـه السـاذجة، بعـد بضعـة أسـطر، إلـى إرجـاع أخـوة[**] بالثـورة [الفرنسـية] إلـى "مسـاواة أبنـاء اللـه" (أيـن نجـد حديثـاً عـن المسـاواة[***] فـي أيـة عقيـدة مسـيحية؟).

النتيجة الثالثة:

ص ٤١٤: "بمـا أن مبـدأ الجماعـة يبلـغ أوجـه فـي الشـيوعية، إذن فالشـيوعية = تمجيـد الدولـة المبنيـة علـى المحبـة".

ومـن الدولـة المبنيـة علـى المحبـة، التـي هـي مـن صنـع القديـس ماكـس نفسـه، يشـتق هنـا

(*) Do you call this a land of liberty, where a man can't larrup his nigger?، بالإنكليزيـة فـي النص الأصلي.

(**) Fraternité، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) Égalité، بالفرنسية في النص الأصلي.

الشيوعية التي تبقى إذن، بالطبع، شيوعية شترنرية صرفة. إن القديس سانتشو لا يعرف من جهة واحدة إلا الأنانية، ومن جهة ثانية الادعاء في الحصول على خدمات الناس الفردية وشفقتهم وصدقاتهم. وليس لأي شيء وجود على الإطلاق بالنسبة إليه خارج هذا اللغز وفوقه.

الإنشاء المنطقي الثالث:

"لما كانت أفدح العيوب تتجلى ظاهرة في المجتمع، فإن "المظلومين"(!) "بصورة خصوصية"(!) "يفكرون أن اللوم في ذلك يقع على المجتمع ويأخذون على أنفسهم مهمة اكتشاف المجتمع العادل" (ص ١٥٥).

إن الأمر على النقيض من ذلك، "فشترنر" هو الذي "يأخذ على نفسه مهمة" اكتشاف "المجتمع العادل" له، المجتمع الذي يناسبه، المجتمع المقدس، المجتمع على أنه تجسيد المقدس. إن "المظلومين" في هذه الأيام "في المجتمع" لا "يفكرون" إلا في إقامة المجتمع العادل الذي يناسبهم هم، الأمر الذي يستقيم قبل كل شيء في نقض المجتمع الراهن وبناء المجتمع على أساس القوى المنتجة القائمة. وإذا تظاهرت ("عيوب فادحة" في آلة على سبيل المثال)، لأنها ترفض العمل مثلاً، ووجد أولئك الذين يحتاجون الآلة "كيما يربحوا مالاً على سبيل المثال" العيب في الآلة وحاولوا أن يعدِّلوها، الخ - ففي رأي القديس سانتشو أنهم لا يأخذون إذن، على أنفسهم مهمة ملاءمة الآلة مع حاجاتهم، بل اكتشاف الآلة العادلة، الآلة المقدسة، الآلة على أنها تجسيد المقدس، المقدس على أنه آلة، الآلة في السموات. وينصحهم "شترنر" أن يبحثوا عن الذنب في ذلك "في أنفسهم". أليس ذنبهم على سبيل المثال أنهم يحتاجون معزقة ومحراثاً؟ أفما كانوا يستطيعون أن يزرعوا البطاطا في التربة بأيديهم العارية ثم ينبشوها في هذه التربة فيما بعد؟ إن القديس، في الصفحة ١٥٦، يعظهم كما يلي:

"هذه إذن، مجرد ظاهرة لموقف قديم جداً وهو أن المرء يسعى قبل كل شيء إلى التفتيش عن الذنب في أي مكان عدا نفسه - وبالتالي في الدولة، في أنانية الأثرياء، بينما الذنب في حقيقة الأمر ذنبنا نحن".

إن "المظلوم" الذي يفتش في "الدولة" عن "الذنب" في الإملاق ليس هو، كما رأيناه

أعلاه بصورة عابرة، سوى جاك المغفل نفسه. ثانياً، إن "المظلوم" الذي يعزّي نفسه بأن يجد "الذنب" في "أنانية الأثرياء" ليس هو مرة أخرى سوى جاك المغفل نفسه. وفيما يتعلق بغيره من المظلومين، فقد كان في حقائق وأوهام [Facts and Fictions] لجون واتس، الخياط والدكتور في الفلسفة، وفي رفيق الإنسان المسكين [Poor′s Man′s Companion] لهوبسون[١٢٨]، الخ، ما يبدد أوهامه. وثالثاً، من هو الشخص الذي يقع "الذنب" على كاهله؟ لعله الطفل البروليتاري الذي جاء إلى العالم مصاباً بداء الخنازير، والذي ربي على الأفيون وأرسل إلى المصنع وهو في السابعة من العمر - أو لعله العامل المنعزل الذي يتوقع منه أن "يثور" ضد السوق العالمية بقبضتيه وحدهما؟ أو لعلها الفتاة التي لا بد لها أن تموت جوعاً وإما أن تمارس العهر؟ كلا، ليس هؤلاء، بل ذلك الذي يفتش "في ذاته" عن "الذنب كله" يعني "ذنب" حالة العالم الراهنة بكاملها، يعني مرة أخرى، جاك المغفل من دون أي امرئ سواه. "هذه إذن، مجرد ظاهرة لموقف قديم جداً للطريقة المسيحية في انسحاق القلب وفعل الندامة في شكل تأملي ألماني، موقف التشدق المثالي، الذي ينص على أنني، أنا الإنسان الفعلي، لا ينبغي لي أن أبدل الواقع القائم الذي لا أستطيع أن أبدله إلا متعاضداً مع الآخرين، بل ينبغي لي أن أبدل نفسي"، في أعماق نفسي. "إنه الصراع الباطن للكاتب مع نفسه" (العائلة المقدسة، ص ١٢٢، راجع الصفحات ٧٣ و١٢١ و٣٠٦[١٢٩]).

وهكذا، وفقاً للقديس سانتشو، فإن أولئك الذين يظلمهم المجتمع يبحثون عن المجتمع العادل. ولو أنه كان صادقاً مع نفسه، فقد كان من واجبه أن يقول عن أولئك الذين "يبحثون عن الذنب في الدولة" - ووفقاً له فهم نفس الأشخاص - إنهم يسعون إلى الدولة العادلة. بيد أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، لأنه سمع أن الشيوعيين يريدون أن ينقضوا الدولة، فعليه الآن أن ينشئ بصورة تجريدية هذا النقض للدولة، وهو ما يحققه قديسنا سانتشو مرة أخرى بفضل "حماره"، الإبدال، بطريقة "تبدو بسيطة جداً".

"لما كان العمال في حالة الضيق" [nostand] "فإن الحالة القائمة" [Stand der Dinge] [*]، "أي الدولة" [status = état] "يجب نقضها" (المصدر ذاته).

(*) تعني الكلمة الألمانية "Stand" المركز، والظرف، والمرتبة (مثلًا المراتب الثلاث) – وقد فسرت هنا على الأغلب بحالة (حالة الضيق، الحالة القائمة، الخ).

وهكذا:

حالة الضيق = الحالة القائمة[stand der dinge]

الحالة القائمة = الحالة [Stand](آ).

الحالة [Stand] = الوضع القانوني [Status].

الوضع القانوني = الدولة.

النتيجة: حالة الضيق = الدولة.

ما الذي يمكن أن "يبدو أبسط" من ذلك؟ "إنه لما يبعث على الدهشة فقط" إن البورجوازي الإنكليزي في عام ١٦٨٨ والبورجوازي الفرنسي في عام ١٧٨٩ لم يقدما "الأفكار البسيطة" نفسها ولم يضعا المعادلات ذاتها بالرغم من أن معادلة الحالة [Stand] = الوضع القانوني [Status der dinge] = الدولة [der Staat] كانت تنطبق على حقبتهما أكثر مما تنطبق على الوقت الراهن. ويترتب على ذلك أنه أينما قامت "حالة ضيق"، فإن "الدولة"، التي يعرف جميع الناس أنها واحدة في بروسيا وأميركا الشمالية، يجب أن تنقض.

وكما هي عادته، فإن القديس سانتشو يقدم لنا الآن بعض حِكم سليمان.

الحكمة رقم ١ لسليمان:

> ص ١٦٣: "إن المجتمع ليس أنا قادرة على العطاء، الخ، بل أداة نرغب في استدرار الربح منها؛ وإنه ليست لنا واجبات اجتماعية، بل مصالح فقط؛ وإننا لا ندين بأية تضحيات للمجتمع، بل إذا كنا نضحي بشيء ما فإننا نضحي به من أجل أنفسنا - هذا كله يغيب عن نظر الليبراليين الاجتماعيين، لأنهم أسرى المبدأ الديني وهم يتوقون بكل حمية إلى... مجتمع مقدس".

ويترتب على ذلك "النظرات النافذة" التالية إلى ماهية الشيوعية:

١- لقد نسي القديس سانتشو تماماً أنه هو نفسه الذي حوّل "المجتمع" إلى "أنا"، وأنه يجد نفسه بنتيجة ذلك في "مجتمعه" الخاص فقط.

٢- إنه يعتقد أن الشيوعيين ينتظرون من "المجتمع" أن "يعطيهم" شيئاً ما، في حين أنهم لا يريدون على الأكثر سوى أن يعطوا أنفسهم مجتمعاً.

٣- إنـه يحـوِّل المجتمـع، حتـى قبـل وجـوده، إلـى أداة يريـد أن يسـتدر الفائـدة منهـا مـن دون أن يعمـد هـو والنـاس والآخـرون، بفعـل علاقاتهـم الاجتماعيـة المتبادلـة، إلـى خلـق مجتمـع، وبالتالـي تلـك "الأداة".

إنـه يعتقـد أنـه يمكـن أن تقـوم فـي المجتمـع الشـيوعي مسـألة "الواجبـات" و"المصالـح"، وهمـا قطبـان متكامـلان لتناقـض يخـص المجتمـع البورجـوازي وحـده (عندمـا يتعلـق الأمـر بالمصلحـة، فـإن البورجـوازي الـذي يفكـر، يحشـر علـى الـدوام حـداً ثالثـاً بينـه وبيـن نمـط عمـل-ه وهـي عمليـة تتخـذ شـكلاً كلاسـيكياً حقـاً عنـد بنتـام الـذي لا بـد أن يكـون لأنفـه مصلحـة مـا قبـل أن يقـرر أن يشـم أي شـيء كان. (أنظـر "الكتـاب" بشـأن حـق المـرء فـي أنفـه [On the right to one′s nose]، ص ٢٤٧).

٤- يعتقـد القديـس ماكـس أن الشـيوعيين يريـدون أن "يقدمـوا التضحيـات" إلـى "المجتمـع"، فـي حيـن أنهـم يريـدون علـى الأكثـر أن يضحـوا بالمجتمع القائـم - لا إذا كان يسـمى تضحيـة يقدمونها إلـى أنفسـهم وعيهـم بـأن نضالهـم هـو نضـال مشـترك بيـن جميـع النـاس الذيـن تجـاوزوا النظـام البورجوازي.

٥- إن [الليبراليين] الاجتماعيين أسرى المبدأ الديني و

٦- إنهـم ينشـدون مجتمعـاً مقدسـاً. ولقـد عالجنـا هـذا التأكيـد أعـلاه. لقـد رأينـا بأيـة "حميـة" "ينشـد" القديـس سانتشـو "مجتمعـا مقدسـاً"، بحيـث يكـون فـي مقـدوره دحـض الشـيوعية بواسـطته.

الحكمة رقم ٢ لسليمان:

ص ٢٧٧: "لـو أن الاهتمـام بالقضيـة الاجتماعيـة كان أقـل هـوى وعمـى، فـإن المـرء... سـيوافق علـى أنـه لا يمكـن الحصـول علـى مجتمـع جديـد مـا دام أولئـك الذيـن يتألـف منهـم والذيـن يشـكلونه، لا يزالـون كمـا كانـوا فيمـا مضـى".

يعتقـد "شـترنر" أن البروليتارييـن الشـيوعيين الذيـن يثـورِّون المجتمـع ويضعـون علاقـات الإنتـاج وشـكل التعامـل علـى أسـاس جديـد - أي علـى أنفسـهم باعتبارهـم بشـراًجدداً، علـى نمـط حياتهـم الجديـد - أن هـؤلاء البروليتارييـن، والمناقشـات التـي ينظمونهـا فيمـا بينهـم بصـورة

يومية، تثبت بصورة كافية مبلغ عدم رغبتهم في البقاء "كما كانوا فيما مضى" ومبلغ عدم رغبتهم في بقاء البشر على العموم "كما كانوا فيما مضى". لقد كانوا يبقون "كما كانوا فيما مضى" لو أنهم، مع سانتشو، "بحثوا عن الذنب في أنفسهم"؛ بيد أنهم يعرفون أفضل المعرفة أنهم لن يكفوا عن كونهم "كما كانوا فيما مضى" إلا حين تتغير الظروف، وبالتالي فهم عازمون على تغيير هذه الظروف في أول فرصة. ففي النشاط الثوري يتفق تغيير المرء لذاته مع تغيير الظروف - إن هذه الحكمة العظيمة تفسر بواسطة مثال يضاهيها في العظمة مأخوذ من جديد، طبعاً، من عالم "المقدس".

"لو أنه قامت على سبيل المثال من الشعب اليهودي جمعية تنشر إيماناً جديداً في أرجاء العالم، فإن هؤلاء الرسل لا يمكن إذن، أن يظلوا فريسيين".

المسيحيون الأولون	=	جمعية من أجل نشر الإيمان
		(تأسست سنة ١ (*))
	=	جماعة نشر الإيمان(١٣٠)
		(تأسست سنة١٦٤٠)
سنة ١	=	١٦٤٠
الجمعية التي يجب أن تقوم	=	هؤلاء الرسل
هؤلاء الرسل	=	غير اليهود
الشعب اليهودي	=	الفريسيون
المسيحيون	=	غير الفريسيين
		لا الشعب اليهودي

ما الذي يمكن أن يبدو أبسط من ذلك؟

وأما أن هذه المعادلات قد شدت من عزيمة القديس ماكس، فإنه يتفوه بهدوء بالكلمة التاريخية العظمى التالية:

"إن البشر، وليس في نيتهم في أي حال من الأحوال أن ينساقوا مع تطورهم الخاص، لقد أرادوا دائماً أن يشكلوا مجتمعاً".

(*) anno، بالإسبانية في النص الأصلي

إن البشر، غير الراغبين في أي حال من الأحوال في تشكيل مجتمع، لم يفعلوا مع ذلك سوى تحقيق تطور المجتمع، لأنهم أرادوا على الدوام أن يتطوروا بوصفهم كائنات فردية فقط، وبالتالي لم يحققوا تطورهم الخاص إلا في المجتمع ومن خلاله. وعلى أية حال، فإنه لا يمكن أن يخطر إلا في بال قديس من عيار صاحبنا سانتشو أن يفصل تطور "البشر" عن تطور "المجتمع" الذي يعيش فيه أولئك البشر، وأن يواصل بعدئذ هذياناته على هذا الأساس الخيالي. وعلى أي حال، فقد نسي عبارته التي أوحاها إليه القديس برونو، والتي فرض فيها على البشر قبل بضعة أسطر المطلب الأخلاقي الخاص بتغيير أنفسهم، وبذلك تغيير مجتمعهم - وبنتيجة ذلك كان يوحد تطور البشر مع تطور مجتمعهم.

الإنشاء المنطقي الرابع:

الصفحة ١٥٦: حين يجعل الشيوعيين في تعارض مع مواطني الدولة، فإنه يضع في أفواههم العبارة التالية:

"إن ماهيتنا" (!) "لا تستقيم في كوننا جميعاً أبناء متساوين للدولة" (!) "بل في كوننا نوجد جميعاً من أجل بعضنا بعضاً". إننا متساوون جميعاً في هذه النقطة: "إننا نوجد جميعاً من أجل بعضنا بعضاً، وكل منا يعمل من أجل الغير، كل واحد منا عامل". ويبلغ الأمر به أن يفترض أن "الوجود بصفة العامل" = "وجود كل واحد منا من أجل الغير فقط"، بحيث إن الغير "على سبيل المثال يعمل كي يكسيني، وأنا كي ألبي حاجته إلى التسلي، هو من أجل طعامي وأنا من أجل تعلمه.

وهكذا فإن المشاركة في العمل هي كرامتنا ومساواتنا في وقت واحد. ماهي الميزة التي نحصل عليها من المواطنية؟ الأعباء. وما هي القيمة التي تعطى لعملنا؟ أدنى قيمة ممكنة... ما الذي تستطيعون أن تعارضونا به؟ لا شيء سوى العمل أيضاً! "إننا لا ندين لكم بمكافأة(*) إلا من أجل العمل وحده"؛ "ليس لكم أي حق علينا" "إلا بقدر ما تنتجون أشياء تكون نافعة لنا". "إننا نريد أن تكون جدارتنا في نظركم مساوية لما ننتجه لكم؛ لكننا سنطبق

(*) Récompense، بالفرنسية في النص الأصلي.

عليكم المقياس نفسه بالضبط". "إن الأعمال التي تحظى ببعض القيمة في نظرنا، أي العمل النافع عموماً، تحدد القيمة... إن ذلك الذي يصنع شيئاً نافعاً لا يتقدم عليه أحد من البشر، أو - أن جميع العمال (العاملين للمصلحة العامة) متساوون. لكن لما كان العامل يساوي أجوره، فلتكن جميع الأجور متساوية أيضاً" (ص ١٥٧، ١٥٨).

عند "شترنر" تبدأ "الشيوعية" بالبحث عن "الماهية" ؛ إن غرضه مرة أخرى، مثله مثل ذلك "المراهق" الصالح، أن "يتغلغل خلف الأشياء". أما إن الشيوعية حركة عملية تماماً، تلاحق أهدافاً عملية بوسائط عملية، وإنها لا تستطيع أن تنصرف إلى الاهتمام "بالماهية" لحظة واحدة إلا في ألمانيا وحدها، في مواجهة الفلاسفة الألمان - فهذا لا يعني طبعاً قديسنا في أي حال من الأحوال. إن هذه "الشيوعية" الشترنرية التي تتوق بهذا القدر إلى "الماهية" لا تتجاوز من جراء ذلك مستوى مقولة فلسفية بسيطة، "الإيثار[L'altruisme]، التي تقترب بعدئذ من العالم المادي بواسطة بعض المعادلات الإلزامية:

الإيثار	=	الوجود من خلال الغير فقط.
	=	الوجود بصفة العامل.
	=	صفة العامل عموماً.

وإننا لنود، فضلاً عن ذلك، أن نتحدى القديس سانتشو كي يبرهن على وجود فقرة واحدة تتضمن أدنى عنصر من هذه العبارات الواردة أعلاه عن "الماهية" وصفة العامل عموماً، الخ، عند أوين مثلاً (ذلك أن أوين، الذي يمثل الشيوعية الإنكليزية، يمكن أن يجسد "الشيوعية" بصورة مساوية مثلاً لغير الشيوعي وبرودون(*) الذي استخلص شترنر من كتاباته القسم الأكبر من العبارات الواردة أعلاه، معدلاً إياها على طبيعته الخاصة). وعلى أي حال، فإنه لا حاجة بنا إلى العودة القهقرى حتى هذا المدى. إن العدد الثالث من: صوت الشعب، المجلة الشيوعية الألمانية التي سبق الاستشهاد بها أعلاه، يقول:

(*) [إن هذا الهامش قد شطب من المخطوطة:] برودون الذي انتقدته بقوة الصحيفة العمالية الشيوعية الأخوة منذ عام ١٨٤١ لموضوعاته عن الأجور المتساوية، وصفة العامل عموماً، وكذلك المستبقيات الاقتصادية الأخرى التي تمكن مصادفتها في أعمال هذا المؤلف البارز، والذي لم يتبن الشيوعيون منه أي شيء على الإطلاق، باستثناء نقده للملكية.

"إن ما يسمى العمل اليوم ليس سوى جزء يسير وتافه من عملية الإنتاج الواسعة الجبارة؛ والحال أن الدين والأخلاق لا يشرفان باسم العمل إلا ذلك القسم من الإنتاج الباعث على النفور والمحفوف بالخطر، وبالإضافة إلى ذلك يجدان الجرأة على تزيين مثل هذا العمل بمختلف أنواع - كما كان هناك كلمات تبريك حقيقية (إلا إذا كان المقصود صيغاً سحرية): "اعمل بعرق جبينك- بحيث يصبح العمل محنة فرضها الله"؛ "العمل عذوبة الحياة"، وهي صيغة للتشجيع، الخ. إن أخلاق العالم الذي نحيا فيه تمتنع بكل حكمة عن أن تسمي أيضاً عملاً المظاهر الجذابة والطليقة للتعامل بين البشر. إنها تحتقر مثل هذه المظاهر، بالرغم من أنها تشكل هي الأخرى قسماً من الإنتاج. إن الأخلاق تحب أن تصفه بكل احتقار على أنه غرور، ولذة باطلة، وشهوانية. ولقد فضحت الشيوعية من جانبها هذه الأخلاق الحقيرة التي تلقي على الناس المواعظ المنافقة".

إن القديس ماكس يرجع الشيوعية بأسرها، على اعتبارها المشاركة العمومية في العمل، إلى أجور متساوية - وهو اكتشاف يكرره في "الانكسارات" الثلاثة التالية، في الصفحة ٣٥١: "ضد التنافس ينهض مبدأ مجتمع الصعاليك - التقاسم. أمن الممكن أذن، أنني، أنا المؤهل جداً(*)، لا أملك أي فضل على ذلك الذي يفتقر إلى المؤهلات جميعاً؟". وفيما بعد، في الصفحة ٣٦٣، يتحدث عن "ضريبة عامة على النشاط البشري في المجتمع الشيوعي". وأخيراً، في الصفحة ٣٥٠، يعزو إلى الشيوعيين الرأي بأن "العمل" هو "الملكية الوحيدة" للإنسان. وهكذا فإن القديس ماكس يُدخل من جديد إلى الشيوعية الملكية الخاصة في شكلها المزدوج - التوزيع والعمل المأجور. وكما كان الأمر من قبل بصدد "السرقة"، فإن القديس ماكس يبرهن هنا من جديد على أن "نظراته النافذة" "الخاصة" إلى الشيوعية ليست سوى الأفكار الأشد ابتذالاً والأعظم ضيقاً التي تنطوي عليها البورجوازية بشأنها. إنه يثبت كل جدارته بشرف كونه تلميذاً لبلونتشلي. ولما كان مالكاً صغيراً حقيقياً، فإنه يخشى كذلك،

(*) Der Vielvermögende، يتلاعب شترنر بالمعنى المزدوج لكلمة Vermögen (الخيرات المادية، المؤهلات).

وهـو "المؤهـل جـداً"، "ألا يملـك أي فضـل علـى ذلـك الـذي يفتقـر إلـى المؤهـلات جميعـاً" - بالرغـم مـن أن كل مـا يمكنـه أن يخافـه إنمـا هـو الانسـياق مـع "مؤهلاتـه" الخاصـة.

وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن صاحبنـا "المؤهـل جـداً" يتوهـم أن المواطنيـة هـي موضـع اللامبـالاة بالنسـبة إلـى البروليتارييـن، بعدمـا افتـرض قبـلاً أنهـم يملكونهـا مبدئيـاً، بالضبـط مثلمـا توهـم أعـلاه أن شـكل الحكـم هـو موضـع اللامبـالاة بالنسـبة إلـى البورجوازييـن. إن العمـال يعلقـون أهميـة عظمـى علـى المواطنيـة، يعنـي المواطنيـة الفاعلـة، بحيـث أنهـم حيـث يملكونهـا، فـي أميـركا علـى سـبيل المثـال، "يفيـدون" منهـا، وحيـث لا يملكونهـا يناضلـون فـي سـبيل الحصـول عليهـا. قـارن مفاوضـات عمـال أميـركا الشـمالية فـي اجتماعـات لا حصـر لهـا، وتاريـخ الميثاقيـة الإنكليزيـة بكاملهـا، والشـيوعية والإصلاحيـة فـي فرنسـا.

النتيجة الأولى

"لمـا كان العامـل يعـي أن الشـغيل هـو الشـيء الجوهـري فيـه، فأنـه يتقـي الأنانيـة ويخضـع لسـيادة مجتمـع عمالـي، تمامـاً مثلمـا يتمسـك البورجـوازي بإخـلاص" (!) "بالدولـة القائمـة علـى التنافـس" (ص ١٦٢).

إذا كان العامـل يعـي شـيئاً مـا، فإنـه يعـي علـى الأكثـر أن الشـغيل هـو الشـيء الجوهـري فيـه بالنسـبة إلـى البورجـوازي، ولـذا فإنـه يسـتطيع أن يؤكـد نفسـه بهـذه الصفـة فـي مواجهـة البورجـوازي. وإن كلا اكتشـافي القديـس سانتشـو، "إخـلاص البورجـوازي" و"الدولـة القائمـة علـى التنافـس"، يمكـن أن يسـجلا كدليليـن جديديـن علـى "أهليـة" صاحبنـا "المؤهـل جـداً".

النتيجة الثانية

"يجـب علـى الشـيوعية أن تسـتهدف "رخـاء الجميـع". وفـي الحقيقـة فإنـه ليقـال فـي هـذه الحالـة أنـه لا حاجـة لأي امـرئ لأن يتخلـف عـن الركـب. لكـن مـا عسـى أن يكـون هـذا الرخـاء إذن؟ هـل للجميـع الرخـاء الواحـد ذاتـه؟ هـل يتمتـع كل البشـر برخـاء متسـاوٍ فـي الظـروف الواحـدة ذاتهـا؟... إذا كان الأمـر كذلـك، فالمسـألة هـي إذن، مسـألة "رخـاء حقيقـي". أفلسـنا نصـل بذلـك بالضبـط إلـى النقطـة حيـث بـدأ طغيـان الديـن؟... لقـد رسـم المجتمـع أن رخـاء معينـاً هـو

"الرخـاء الحقيقـي". ولنفتـرض أن هـذا الرخـاء، علـى سـبيل المثـال، هـو المتعـة المكتسـبة بصـورة شـريفة بواسـطة العمـل، وأنـك تفضـل، مـن جانبـك، الملـذات العديـدة التـي يوفرهـا الكسـل؛ إذن، فالمجتمـع... سـوف يمتنـع بـكل حـذر عـن اتخـاذ الترتيبـات مـن أجـل مـا يلـذك أنـت. إن الشـيوعية، إذ تنـادي بالرخـاء للجميـع، تدمـر فـي الوقـت ذاتـه رخـاء أولئـك الذيـن عاشـوا حتـى الآن علـى ريوعهـم" الـخ.. (ص ٤١١، ٤١٢).

"وإذا كان الأمر كذلك"، فإن المعادلات التالية تترتب عليه:

رخاء الجميع	=	الشيوعية.
	=	إذا كان الأمر كذلك.
	=	نفس الرخاء الواحد للجميع.
	=	الرخاء المتساوي في الظروف الواحدة نفسها.
	=	الرخاء الحقيقي.
	=	(الرخاء المقدس، حكم المقدس، التراتب)(*).
	=	طغيان الدين.
الشيوعية	=	طغيان الدين.

"فـي الحقيقـة إنـه ليقـال" إن "شـترنر" قـال هنـا عـن الشـيوعية الشـيء ذاتـه الـذي قالـه مـن قبـل عـن شـيء آخـر.

إن مـدى العمـق الـذي "تغلغـل" إليـه قديسـنا فـي ماهيـة الشـيوعية يتضـح كذلـك مـن الحقيقـة التاليـة، ألا وهـي أنـه ينسـب إلـى الشـيوعية الرغبـة فـي فـرض "المتعـة المكتسـبة بصـورة شـريفة بواسـطة العمـل" علـى أنهـا "الرخـاء الحقيقـي". مـن ذا يفكـر فـي "المتعـة المكتسـبة بصـورة شـريفة بواسـطة العمـل(*) باسـتثناء "شـترنر" وبعـض الإسـكافيين والخياطيـن البرلينييـن! والأكثـر مـن

(*) إن القوسين الموضوعين هنا هما من وضع ماركس نفسه.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] من يستطيع، باستثناء شترنر، أن يضع مثل هذه السخافات الأخلاقية في أفواه البروليتاريين الثوريين اللاأخلاقيين، الذين يعرف كل العالم المتحضر (وصحيح أن برلين لا تنتسب إلى العالم المتحضر؛ فالإنسان في برلين مثقف فحسب) إنهم ينطوون على النية الشريرة لا في "كسب لذتهم بصورة شريفة"، "بواسطة العمل"، بل في الاستيلاء عليها عنوة!

ذلك، إنه يضع مثل هذه العبارات في فم الشيوعيين الذين يسقط عندهم أساس كل هذا التعارض بين العمل - والمتعة. ألا فليطمئن أخلاقياً القديس بهذا الصدد. إن "الكسب الشريف" سوف يترك له ولأولئك الذين يمثلهم وإن كانوا مجهولين منه - لحرفييه الصغار الذين قضت عليهم حرية الصناعة والذين اجتاحهم "الاستياء" الأخلاقي. وإن "الملذات العديدة التي يوفرها الكسل" تنتسب كذلك كلياً إلى المفاهيم البورجوازية الأشد ابتذالاً. بيد أن ذروة الفقرة بكاملها هي تلك الملاحظة الماكرة التي يوجهها ضد الشيوعيين: إنهم يريدون أن ينقضوا "رخاء" أصحاب الريع ومع ذلك يتحدثون عن "رخاء الجميع". وبنتيجة ذلك، فإنه يعتقد أنه سوف يكون هناك بعد في المجتمع الشيوعي أصحاب ريع لا بد من نقض "رخائهم". وإنه ليؤكد أن "رخاء" صاحب الريع بصفته ريع لاصق بالأفراد الذين هم أصحاب ريع في الوقت الحاضر، وإنه غير منفصل عن فرديتهم. وإنه ليتوهم أنه لا يمكن أن يوجد بالنسبة إلى هؤلاء الأفراد أي "رخاء" غير ذلك الذي يقرره وجودهم من حيث هم أصحاب ريع. وإنه ليعتقد فيما عدا ذلك أن المجتمع قد نظم سلفاً بطريقة شيوعية وهو مضطر بعد لأن يخوض الصراع ضد أصحاب الريع وأشباههم(*). وصحيح أنه لن ينتاب الشيوعيين أي تردد بشأن قلب حكم البورجوازية ونقض "رخائها" حالما يصبح ذلك في مقدورهم(**) وهم لا يأبهون مطلقاً لما إذا كان هذا "الرخاء" المشترك لأعدائهم، المحدد

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وأخيراً يتقدم إلى الشيوعيين بالمطلب الأخلاقي التالي: إنه يتوقع منهم الاستمرار إلى الأبد بالسماح لأصحاب المداخيل والتجار والصناعيين، الخ، باستغلالهم بكل طمأنينة، لأنهم لا يستطيعون إلغاء الاستغلال من دون أن يدمروا في الوقت ذاته "رخاء" هؤلاء السادة. إن جاك المغفل، إذ ينادي بنفسه الآونة مدافعاً عن البورجوازيين الكبار، يستطيع أن يوفر على نفسه عناء إلقاء المواعظ الأخلاقية على الشيوعيين، الذين يستطيعون في كل يوم أن يستمعوا إلى مواعظ أفضل بكثير من أفواه هؤلاء "البورجوازيين الصالحين".

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] ولن يكون لديهم أوهام بهذا الشأن بالضبط لأن "رخاء الجميع" من حيث هم "أفراد من لحم ودم" هو بالنسبة إليهم أهم من "رخاء" الطبقات الاجتماعية الحالية. إن "الرخاء" الذي يستمتع به صاحب الريع بصفته صاحب ريع، ليس هو "برخاء" الفرد من حيث هو فرد، بل رخاء صاحب الريع، ليس هو برخاء فردي، بل رخاء عام ضمن إطار الطبقة.

بالعلاقات الطبقية، يستنجد كذلك، في شكل "الرخاء الشخصي"، بعاطفية يفترض وجودها بكل بلاهة.

النتيجة الثالثة

في الصفحة ١٩٠، في المجتمع الشيوعي،

"ينبعث القلق في شكل العمل".

إن البورجوازي الصالح "شترنر"، الذي يغتبط سلفاً لأنه سيصادف من جديد "قلقه" المفضل في الشيوعية، قد أخطأ التقدير مع ذلك هذه المرة. ليس "القلق" شيئاً آخر سوى ذلك الشعور من الضيق والغم الذي يشكل في الظروف البورجوازية الرفيق الضروري للعمل، هذا النشاط الحقير من أجل كسب الرزق بكل عناء. وإن "القلق" ليزدهر في شكله الأنقى بين البورجوازيين الألمان الصالحين، حيث هو مزمن و"متماثل مع ذاته في كل الأوقات"، حقير وباعث على النفور، في حين أن بؤس البروليتاري يتخذ شكلاً حاداً، قاسياً، ويدفعه إلى صراع حياة أو موت، ويجعل منه ثورياً، وبالتالي لا يولد "القلق"، بل الهوى. فإذا كانت الشيوعية راغبة في نقض[*] "قلق" البورجوازي وبؤس البروليتاري على حد سواء، فمن المفروغ منه أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك من دون نقض سبب هذا وذاك، أي "العمل".

ونصل الآن إلى الإنشاءات التاريخية للشيوعية.

الإنشاء التاريخي الأول

"طالما كان الإيمان كافياً من أجل شرف الإنسان وكرامته، فإنه ما كان في الإمكان رفع أي اعتراض ضد أي عمل، حتى العمل الأشق" - "لم يكن في مقدور الطبقات المضطهدة أن تتحمل بؤسها إلا بقدر ما كانت تتألف من مسيحيين". (إن أقصى ما يمكن أن يقال إنها لم تكن تتألف من مسيحيين إلا بقدر ما كانت تتحمل وضعها البائس)، "ذلك أن المسيحية" (التي كانت تقف خلفهم تلوح بالعصا) "لم تكن تتيح لتذمرهم واستيائهم أن يحرزا تقدماً" (ص ١٥٨).

(*) Aufheben، (المترجم).

أما "كيف يعرف شترنر جيداً" ما كان في مقدور الطبقات المضطهدة أن تفعله، فهذا ما نعرفه عندما نقرأ الدفتر الأول من المجلة الأدبية الجديدة [L′Allgemeine Literature Zeitung]، حيث "النقد في هيئة مجلد حاذق"[١٣١] يستشهد بالفقرة التالية من كتاب تافه:

"إن الإملاق الحديث قد اتخذ طابعاً سياسياً؛ فبينما كان المتسول القديم يتحمل مصيره بكل استسلام معتبراً إياه إرادة الله، فإن الصعلوك الحديث يسأل ما إذا كان ملزماً بأن يحيا حياة بائسة بمجرد أن الصدفة شاءت أن يولد في الأسمال".

وبفضل هذه القوة التي تملكها المسيحية، فإن الصراعات الأكثر دموية ومرارة التي قامت إبان تحرير الأقنان قد كانت على وجه الدقة تلك الصراعات التي جرت ضد الإكليريكيين الإقطاعيين، وقد تحقق تحرير الأقنان بالرغم من كل احتجاجات وثورات المسيحية كما كانت مجسدة في أولئك الكهنة (راجع: أيدن، تاريخ الفقراء [history of poor][١٣٢]، الكتاب الأول؛ وغيزو، تاريخ الحضارة في فرنسا [histoire de la civilisation on france]؛ ومونتي، تاريخ الفرنسيين من مختلف الطبقات [histoire des français des divers état][١٣٣]، الخ)، في حين كان الكهنة الصغار من جهة أخرى، وعلى الأخص في مطلع الحقبة الوسيطة، يحرضون الأقنان على "الاحتجاج" و"الثورة" ضد السادة الإقطاعيين العلمانيين (laïques) (راجع على الأخص مجموعة التشريعات الشهيرة لشارلمان). راجع كذلك ما كتب أعلاه بشأن "الطبقات المضطهدة" وثوراتها في القرن الرابع عشر بصدد "الاضطرابات العمالية التي اندلعت هنا وهناك".

إن الأشكال الباكرة للانتفاضات العمالية كانت مرتبطة بدرجة تطور العمل في حقبتها وبنية الملكية المترتبة عنه؛ وإن الانتفاضات الشيوعية المباشرة أو غير المباشرة مرتبطة بالصناعة الكبرى. وبدلاً من أن يدخل القديس ماكس في دقائق هذا التاريخ الشامل، يقوم بانتقال مقدس يقودنا من الطبقات المضطهدة الصابرة إلى الطبقات المضطهدة المتبرمة.

"الآن، حين يجب على كل امرئ أن يتثقف كي يصبح إنساناً" ("كيف"، على سبيل المثال، "يعرف" العمال الكاتالونيون أنه "يجب على كل امرئ أن يتثقف كي يصبح إنساناً"؟)، "يتطابق إلزام الإنسان بالعمل الآلي مع العبودية" (ص ١٥٨).

وبالتالـي، فقبـل سـبارتاكوس(Spartacus) وانتفاضـة العبيـد، كانـت المسـيحية هـي التـي منعـت "إلـزام الإنسـان بالعمـل الآلـي" مـن "التطابـق مـع العبوديـة"؛ وفـي أيـام سـبارتاكوس، فـإن فكـرة "الإنسـان" وحدهـا هـي التـي نقضـت هـذه العلاقـة وأتـت بالعبوديـة -"أو لعـل" شـترنر سـمع "حتـى" شـيئاً مـا عـن العلاقـة بيـن الانتفاضـات العماليـة الحديثـة والإنتـاج الآلـي وأراد أن يلمـح إليهـا هنـا؟ وفـي هـذه الحالـة، فليـس إدخـال العمـل الآلـي هـو الـذي حـوّل العمـال إلـى عصـاة، بـل إدخـال فكـرة "الإنسـان" هـو الـذي حـوّل العمـل الآلـي إلـى عبوديـة. "وإذا كان الأمـر كذلـك"، فإنـه "فـي الحقيقـة ليقـال إذن": إن لدينـا هنـا تاريخـاً "أوحـد" للحـركات العماليـة.

الإنشاء التاريخي الثاني

"لقـد بشـرت البورجوازيـة بإنجيـل المتعـة الماديـة، وهـي مندهشـة الآن لأن هـذا المذهـب يجـد مؤيديـن لـه بيننـا، نحـن البروليتارييـن" (ص ١٥٩).

لقـد كان العمـال راغبيـن لتوهـم فـي تحقيـق فكـرة "الإنسـان"، المقـدس؛ والآن فإنهـا "المتعـة الماديـة"، الدنيويـة؛ ولقـد كانـت المسـألة أعـلاه مسـألة "حقـارة" العمـل، أمـا الآن فليسـت المسـألة سـوى مسـألة عمـل المتعـة. إن القديـس سانتشـو يوجـه هنـا صفعتيـن إلـى ردفيـه الأعرضيـن(*)- وتصيب الصفعـة الثانيـة تاريـخ شـترنر، التاريـخ المقـدس. وحسـب التاريـخ المـادي، فـإن الأرسـتقراطية هـي التـي كانـت سـباقة إلـى وضـع إنجيـل المتعـة الدنيويـة فـي مـكان متعـة الإنجيـل؛ وإن البورجوازييـن الواقعييـن قـد كرسـوا أنفسـهم بـادئ ذي بـدء للعمـل مـن أجلهـا، متخليـن لهـا بـكل خبـث عـن الملـذات التـي حرمـوا هـم أنفسـهم منهـا بفعـل قوانيـن مناسـبة (وبذلـك فـإن قـوة الأرسـتقراطية انتقلـت، فـي شـكل المـال، إلـى جيـوب البورجوازييـن).

وحسـب تاريـخ شـترنر، فقـد اقتصـرت البورجوازيـة راضيـة علـى السـعي إلـى "المقـدس"، علـى الخلـود إلـى عبـادة الدولـة وعلـى الدولـة "تحويـل جميـع الأشـياء الموجـودة إلـى أشـياء وهميـة"، ولـم يكـن بـد مـن اليسـوعيين مـن أجـل "إنقـاذ الحسـية مـن الانحطـاط التـام". ووفقـاً لهـذا التاريـخ الشـترنري ذاتـه، فـإن البورجوازيـة قـد اسـتولت علـى كل السـلطة لنفسـها بواسـطة الثـورة،

(*) ambas sus valientes posaderas، بالإسبانية في النص الأصلي.

وبنتيجة ذلك استولت على إنجيل أصحاب السلطة، إنجيل المتعة المادية، بالرغم من أننا بلغنا الآن، حسب التاريخ الشترنري ذاته، النقطة حيث "الأفكار وحدها تهيمن في العالم". وهكذا يجد تراتب شترنر نفسه "بين ردفيه"(*).

الإنشاء التاريخي الثالث

ص ١٥٩: "بعدما حررت البورجوازية البشر من استبداد وتعسف هذا المرء أو ذاك، يبقى ذلك النمط من التعسف الذي ينشأ من وضعية العلاقات التي يمكن أن تسمى مصادفة الظروف. تبقى - السعادة وأولئك الذين وافتهم السعادة(**).

ومن ثم يجعل القديس سانتشو الشيوعيين "يكتشفون قانوناً ونظاماً يضعان حداً لهذه التذبذبات" (التذبذبات من هذا النمط)؛ وإن كل ما يعرفه في هذا الشأن هو أنه ينبغي على الشيوعيين أن ينادوا الآن: "فليكن هذا النظام مقدساً من الآن فصاعداً!" (بينما كان ينبغي له بالأحرى أن ينادي الآن: "فليكن اضطراباً توهماتياً نظام الشيوعيين المقدس". "هنا الحكمة" (رؤيا القديس يوحنا، ١٣: ١٨) "من له فهم فليحسب عدد" السخافات التي يحشرها شترنر هنا - وهو بالغ الإطناب عادة ويكرر نفسه - في [أسطر] قليلة.

إن العبارة الأولى، في شكلها الأعم، تقرر ما يلي: بعدما نقضت البورجوازية الإقطاعية، بقيت البورجوازية. أو: بعدما نقضت هيمنة الأفراد في مخيلة "شترنر"، بقي أن يصنع العكس على وجه الدقة. "في الحقيقة أنه ليقال" إن المرء يستطيع أن يجعل الحقبتين التاريخيتين الأشد تباعداً على علاقة هي العلاقة المقدسة، العلاقة بصفتها المقدس، العلاقة في السماء.

وفيما عدا ذلك، فإن هذه العبارة للقديس سانتشو لا تكتفي بالأسلوب البسيط(***) السابق الذكر للامعقولية، بل لا بد لها أن تحوله إلى الأسلوب المركب والثنائي التركيب(****) للامعقولية. ذلك أن القديس ماكس، أولاً، يصدق البورجوازيين الذين يتحررون حين

(*) ambas posaderas، بالإسبانية في النص الأصلي.

(**) إن المؤلفين قد عدّلا قليلًا في هذا الاستشهاد من شترنر.

(***) mode simple، بالفرنسية في النص الأصلي.

(****) mode composé et bicomposé، بالفرنسية في النص الأصلي.

يقولـون إنهـم، إذا تحـرروا مـن اسـتبداد وتعسـف هـذا المـرء أو ذاك، فإنهـم يكونـون قـد حـرروا كتلـة المجتمـع بصفتـه كلاً مـن هـذه الشـرور. ثانيـاً، فـي الحقيقـة أنهـم لـم يتحـرروا مـن "اسـتبداد الأفـراد وتعسـفهم"، بـل مـن هيمنـة الأصنـاف الحرفيـة، والطوائـف الحرفيـة، والمرتبـة، وبالتالـي كانـوا الآن للمـرة الأولـى، بصفتهـم بورجوازييـن فردييـن فعلييـن، فـي مركـز يفرضـون منـه "التعسـف والاسـتبداد" علـى العمـال. ثالثـاً، إنهـم لـم ينقضـوا سـوى المظهـر الأكثـر أو الأقـل مثاليـة لتعسـف الأفـراد واسـتبدادهم السـابقين، كيمـا يقيمـوا فـي مكانهمـا هـذا التعسـف وهـذا الاسـتبداد الجديديـن فـي كل قسـوتهما الماديـة. لـم يكـن يريـد، هـو البورجـوازي، أن يكـون "تعسـفه واسـتبداده" مقيديـن بعـد الآن "بالتعسـف والاسـتبداد" الخاصيـن بالسـلطة السياسـية السـابقة المركـزة فـي الملكيـة والنبـلاء والطوائـف الحرفيـة، بـل مقيديـن علـى الأكثـر بالمصالـح العامـة فقـط للطبقـة البورجوازيـة بكاملهـا كمـا يعبّـر عنهـا فـي التشـريع البورجـوازي. إنـه لـم يفعـل شـيئاً أكثـر مـن نقـض التعسـف والاسـتبداد اللذيـن يقفـان حجـر عثـرة فـي وجـه تعسـف واسـتبداد البورجوازييـن الفردييـن (أنظـر "الليبراليـة السياسـية").

فبـدلاً مـن أن يقـوم القديـس سانتشـو بتحليـل واقعـي لحالـة العلاقـات التـي أصبحـت، مـع حكـم البورجوازيـة، حالـة مختلفـة كل الاختـلاف لعلاقـات مختلفـة الشـروط كليـاً، يتركهـا قائمـة فـي شـكل المقولـة العامـة "حالـة، الـخ"، ويسـبغ عليهـا الاسـم الأكثـر غموضـاً "لمصادفـة الظـروف"، فـكأن "تعسـف واسـتبداد هـذا الفـرد أو ذاك" ليسـا بحـد ذاتهمـا "حالـة مـن العلاقـات". وأمـا إذا تخلـص هكـذا مـن القاعـدة الواقعيـة للشـيوعية، أي الحالـة المحـددة للعلاقـات فـي ظـل النظـام البورجـوازي، فإنـه يسـتطيع الآونـة أيضـاً أن يحـوّل هـذه الشـيوعية الهوائيـة إلـى شـيوعية مقدسـة.. "فـي الحقيقـة إنـه ليقـال" إن "شـترنر" هـو "إنسـان ثروتـه" التاريخيـة "مثاليـة صرفـة"، وهميـة - "الصعلـوك الكامـل" (أنظـر "الكتـاب"، ص ٣٦٢).

إن هـذا الإنشـاء العظيـم، أو بالأحـرى مقدماتـه، يكـرر مـرة أخـرى فـي الصفحـة ١٨٩ بتأكيـد كبيـر فـي الشـكل التالـي:

"إن الليبراليـة السياسـية قـد نقضـت التفـاوت بيـن السـادة والخـدم؛ لقـد انتجـت انعـدام

السلطة، الفوضى" (!)؛ "إن السيد قد فصل عن الفرد، عن الأناني، كي يصبح شبحاً: القانون أو الدولة".

هيمنة الأشباح = (التراتب) = انعدام السلطة، المعادل لهيمنة البورجوازي "الكلّي القدرة". وكما نرى، فإن هيمنة الأشباح هذه هي، على النقيض من ذلك، هيمنة السادة الفعليين العديدين؛ وبالتالي فإنه يمكن اعتبار الشيوعية، بتبرير مساوٍ، على أنها التحرر من هيمنة هؤلاء السادة العديدين. وعلى أي حال، فإن هذا ما لا يستطيع القديس سانتشو أن يسمح به، لأن إنشاءاته المنطقية للشيوعية وكل نظامه عن "الأحرار" سوف تضطرب إذن. لكن تلك هي الحال عبر "الكتاب" برمته. إن نتيجة واحدة من مقدمات قديسنا الخاصة، حقيقة تاريخية واحدة، تكفي من أجل إسقاط سلسلة كاملة من النظرات النافذة والنتائج.

الإنشاء التاريخي الرابع

في الصفحة ٣٥٠ يشتق القديس سانتشو الشيوعية بصورة مباشرة من نقض القنانة.

١ ـ الموضوعة الرئيسية

"لقد تحقق تقدم فائق عندما فرض البشر أن يعتبروا" (!) "مالكين. وبذلك نقضت العبودية الإقطاعية، وجميع الذين لم يكونوا يعتبرون حتى ذلك الحين سوى ملكية أصبحوا من الآن فصاعداً أسياداً".

(إن هذه اللامعقولية، وفقاً للأسلوب البسيط، تعني ما يلي: لقد نقض الرق حالما تم نقضه). وإن هذه اللامعقولية، وفقاً للأسلوب المركب، هي أن القديس سانتشو يعتقد أن البشر قد أصبحوا "مالكين" بفضل التأمل المقدس، بفعل "الاعتبار"، من جراء "أنهم يعتبرون"، في حين أن الصعوبة كانت تستقيم في التحوّل إلى "مالكين"، ثم جاء الاعتبار من تلقاء ذاته في وقت لاحق؛ أما الأسلوب الثنائي التركيب أخيراً: حين بدأ نقض الرق، الذي كان محلياً بعد بادئ الأمر، في تطوير عواقبه، وبذلك أصبح عمومياً، توقف البشر عن القدرة على فرض "الاعتبار" بأن التملك جدير بالعناء (بالنسبة إلى المالك أصبح أولئك الذين يملكهم باهظي التكاليف)؛ وبنتيجة ذلك فإن الكتلة العريضة لأولئك "الذين لم يكونوا حتى

ذلـك الحيـن سـوى ملكيـة، أي عمـالاً إجباريين، قـد أصبحـوا مـن جـراء ذلـك لا "سـادة" بـل عمـالاً أحـراراً.

٢ ـ الموضوعـة التاريخيـة الصغـرى، التـي تشـمل حوالـى ثمانيـة قـرون، والتـي مـن المؤكـد أن المـرء "لـن يـدرك مبلـغ خطورتهـا" (راجـع ويغـان، ص ١٩٤).

"وعلـى أيـة حـال، فمـن الآن فصاعـداً ملكيتـك [Dein haben] ومـا تملكـه [Deine habe] لا يكفيـان بعـد الآن، ولا يعتـرف بهمـا بعـد الآن؛ ومـن جهـة أخـرى، فـإن قدرتـك علـى العمـل وعملـك يـزدادان قيمـة. إننـا الآن نأخـذ فـي الحسـاب سـيادتك علـى الأشـياء كمـا مـن قبـل" (؟) "ملكيتـك لهـا". إن عملـك ثروتـك. إنـك الآن سـيد أو مالـك مـا تبدعـه بعملـك وليـس مـا تحصـل عليـه بـالإرث" (المصـدر ذاتـه).

"مـن الآن فصاعـداً" - "بعـد الآن" - "مـن جهـة أخـرى" - "الآن" "كمـا مـن قبـل" - "الآن"- "أوليـس" - ذلـك هـو محتـوى هـذه الموضوعـة.

وعلـى الرغـم مـن أن "شـترنر" توصـل "الآن" إلـى حيـث أنـك (يعنـي شـيليغا) سـيد مـا تبدعـه بعملـك وليـس مـا تحصـل عليـه مـن الإرث، فإنـه يخطـر "الآن" لـه علـى حيـن غـرة أن العكـس بالضبـط هـو مـا يحـدث - وبذلـك يجعـل الشـيوعية تولـد كمسـخ مـن تـزاوج هاتيـن المقدمتيـن المشـوهتين.

٣ ـ النتيجة الشيوعية

"لكـن بمـا أن جميـع الأشـياء يتـم الحصـول عليهـا الآن بـالإرث وكل فلـس تملكـه لا يحمـل طابـع العمـل، بـل طابـع الإرث"، (قمـة اللامعقوليـة) "فإنـه مـن الواجـب إذن، إعـادة صهـر جميـع الأمـور".

وعلـى هـذا الأسـاس، فإنـه فـي مقـدور شـيليغا أن يتوهـم أنـه توصـل إلـى كلا نهـوض وسـقوط الكومونـات الوسـيطة وشـيوعية القـرن التاسـع عشـر فـي الوقـت ذاتـه. أمـا القديـس ماكـس، فبالرغـم مـن كل عباراتـه عـن "مـا تبدعـه بالعمـل" و"مـا تحصـل عليـه بـالإرث"، فإنـه لا يتوصـل مطلقـاً إلـى "السـيادة علـى الأشـياء"، بـل علـى الأكثـر إلـى "تملـك" اللامعقوليـة.

ويسـتطيع عشـاق الإنشـاءات أن يشـاهدوا فضـلاً عـن ذلـك فـي الصفحـة ٤٢١ كيـف ينشـئ

القديس ماكس الشيوعية من جديد، بعد إنشائها من نظام الرق، في شكل الرق في ظل سيد يتمتع بحق الولاء الإقطاعي: المجتمع - وذلك وفقاً للمخطط ذاته الذي أتاح أعلاه أن يحوّل إلى "المقدس"، الذي بنعمته تتلقى شيئاً ما، الواسطة التي تخدمنا في الحصول عليه. الآن، في الختام، سوف لا نعالج بالإضافة إلى ذلك سوى بعض "النظرات النافدة" إلى "ماهية" الشيوعية، التي تترتب على المقدمات المعطاة أعلاه.

وقبل كل شيء، يزودنا "شترنر" بنظرية جديدة للاستغلال، تستقيم فيما يلي:

"إن العامل في مصنع للدبابيس لا ينجز إلا قطعة واحدة من العمل، فهو لا يعمل إلا كي يهيئ عمل رجل آخر يستخدمه إذن، ويستغله" (ص ١٥٨).

وهكذا فإن "شترنر" يكتشف هنا أن العمال في المصنع يستغلون بعضهم بعضاً بصورة متبادلة، لأن كل واحد منهم "يهيئ عمل الآخر" في حين أن صاحب المصنع، الذي لا تعمل يداه إطلاقاً، لا يستطيع إذن، أن يستغل العمال. ويقدم "شترنر" هنا مثالاً بارزاً على الوضع المحزن الذي وضعت الشيوعية المنظرين الألمان فيه. إن عليهم الآن أن يعنوا كذلك بالأمور الدنيوية مثل مصانع الدبابيس، الخ، التي يتصرفون حيالها مثل برابرة فعليين، مثل هنود أوجيبوي[١٣٤] والزيلنديين البدائيين.

"وعلى النقيض من ذلك"، فإن الشيوعية الشترنرية "تنادي" (المصدر ذاته):

"كل عمل يجب أن يستهدف إرضاء "الإنسان"، و"بالتالي فإنه يجب على" ("الإنسان") "أن يصبح سيداً في عمله أيضاً، يعني أن يكون قادراً على خلقه بصفته الكلية".

يجب أن يصبح "الإنسان" سيداً!- إن "الإنسان" باقٍ صانع رؤوس دبابيس، لكنه يملك عزاء معرفة أن رأس الدبوس جزء من الدبوس وإنه يستطيع أن يصنع الدبوس بكامله. وإن التعب والقرف الناتجين عن صنع رؤوس الدبابيس بصورة متكررة إلى الأبد يتحولان، بفضل هذه المعرفة، إلى "إرضاء الإنسان". [أواه، يا] برودون!

وهذه نظرة نافذة أخرى:

"بما أن الشيوعيين يعلنون أن الفعالية الحرة هي وحدها ماهية" (iterum Crispinus)[*]

(*) هذا كريسبينوس من جديد، والمقصود إنها اللازمة.

"الإنسـان، فهـم، مثـل أي مذهـب مؤسـس علـى أيـام العمـل يحتاجـون يـوم أحـد، وقتـاً للتمجيـد والعبـادة إلـى جانـب عملهـم الـذي لا روح فيـه".

فلنـدع جانبـاً "ماهيـة الإنسـان" التـي حشـرت هنـا بالقـوة. إن سانتشـو البائـس ملـزم فيمـا عـدا ذلـك بـأن يحـوّل "الفعاليـة الحـرة"، يعنـي مـا يسـميه الشـيوعيون الوجـود الخـلاق كمـا ينشـأ عـن التطـور الحـر بجميـع الإمكانـات التـي يتحلـى بهـا "الفـرد الكامـل" (نقـول هـذا كـي يفهمنـا "شـترنر")، إلـى "العمـل الـذي لا روح فيـه"، وذلـك لأن صاحبنـا البرلينـي يلاحـظ أن المسـألة هنـا ليسـت مسـألة "عمـل الفكـر الشـاق". ويمكـن الآن أيضـاً بفضـل هـذا التحويـل البسـيط، أن يحـوَّل الشـيوعيون إلـى "مذهـب مؤسـس علـى أيـام العمـل". وبمـا أن يـوم عمـل المواطـن يصـادف هنـا، فمـن الطبيعـي عندئـذ أن يصـادف يـوم أحـده فـي الشـيوعية مـن جديـد.

ص ١٦١ – "إن المظهـر الأحـدي [dimanche] للشـيوعية يسـتقيم فـي أن الشـيوعي يشـاهد فيـك الإنسـان، الأخ".

وهكـذا يظهـر الشـيوعي هنـا بصفتـه "إنسـاناً" وبصفتـه "عامـلاً". وهـذا مـا يسـميه القديـس سانتشـو (المصـدر ذاتـه) "وظيفـة مزدوجـة يسـندها الشـيوعيون إلـى - وظيفـة كسـب مـادي ووظيفـة كسـب أخلاقـي".

وهاهـو يُدخـل إلـى الشـيوعية حتـى "الكسـب" والبيروقراطيـة: وإن الشـيوعية "تبلـغ هدفهـا الأخيـر" بذلـك طبعـاً، إذ تكـف عـن كونهـا شـيوعية. وعلـى أي حـال، فـإن شـترنر ملـزم بهـذا التصـرف لأن كل فـرد يعطـى فـي "رابطتـه"، التـي سـوف ينشـئها فـي وقـت لاحـق، "وظيفـة مزدوجـة" - بصفتـه إنسـاناً وبصفتـه "الأوحـد"- وكمقدمـة لذلـك، إنـه يبـرز هـذه الازدواجيـة بـأن ينسـبها إلـى الشـيوعية، وهـي طريقـة سـوف نصادفهـا مـن جديـد فـي نظريتـه عـن الإقطاعيـة وعـن الانتفـاع.

ويعتقـد "شـترنر" فـي الصفحـة ٣٤٤ أن "الشـيوعيين" يريـدون "أن يسـووا بصـورة وديـة مسـألة الملكيـة"، بـل يجعلهـم فـي الصفحـة ٤١٣ يسـتنجدون بتفانـي البشـر وبالاسـتعداد لنكـران الـذات

عند الرأسماليين(*)! إن الشيوعيين(١٣٥) القلائل الذين ظهروا منذ حقبة بابوف والذين لم يكونوا ثوريين يعدون على أصابع اليد؛ إن الأغلبية العريضة من الشيوعيين في جميع البلدان هي ثورية. ولقد استطاع القديس ماكس أن يكتشف وجهة النظر الشيوعية من "الاستعداد لنكران الذات عند الغني" و"تفاني البشر" من مقاطع قليلة عند كابيه، وهو بالضبط الشيوعي الذي يعطي أكثر من أي شيوعي آخر الانطباع بأنه يستنجد بالتفاني (dévoûment)(**). إن هذه المقاطع موجهة ضد الجمهوريين، وعلى الأخص ضد الهجمات على الشيوعية من قبل السيد بوشيه، الذي لا يزال يسيطر على جماعة ضئيلة من العمال في باريس:

"ينطبق الأمر نفسه على التفاني (dévoûment)؛ ذلك هو مذهب السيد بوشيه، لكن المجرد من شكله الكاثوليكي، لأنه مما لا ريب فيه أن السيد بوشيه يخشى أن تنفِّر كاثوليكيته كتلة العمال وتصدهم عنه. ويقول بوشيه(***): "كيما ينجز المرء واجبه (devoir) (****) بجدارة، لا بد من التفاني (dévoûment)" - فليفهم من يستطيع! وليميز من يستطيع بين(devoir) و(dévoûment). - "إننا نطلب التفاني من كل امرئ، سواء من أجل

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] ههنا يدعي القديس ماكس من جديد حكمة الاستيلاء على قلوب الناس والأخذ بألبابهم، فكأن كل حديثه عن البروليتاريا المتمردة لم يكن سوى تزييف فاشل لويتلينغ وبروليتارياه اللصوصية - إن ويتلينغ هو واحد من الشيوعيين القلائل الذين يعرفهم بفعل نعمة بلونتشلي.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن جميع الشيوعيين في فرنسا يأخذون على أتباع سان سيمون وفورييه نزعتهم السلمية ويختلفون عنهم في أنهم تخلوا كلياً عن أي أمل في "تسوية ودية"، بالضبط. كما أن المقياس ذاته يميز في بريطانيا بصورة رئيسية الميثاقيين من الاشتراكيين.

(***) يحدث أن يدخل ماركس بعض التعديلات أثناء الترجمة، وهي على أية حال تعديلات طفيفة لا تغير في المعنى مطلقاً. مثلاً يكتب هنا (ويقول بوشيه) حيث في الأصل (تقول الورشة). وقد أسقط جزءاً من الجملة: "كي لا يسيء استخدام حقه". وقد ترجم قبل قليل فعل (rebuter) عند كابيه بفعلين: نفر، وصد.

(****) يكتب ماركس (Aufopferung)ويضع الترجمة الفرنسية بين قوسين كما كانت تكتب في ذلك الحين. كذلك الأمر بالنسبة إلى pflicht (واجب). وفي هذه الفقرة من دحض مذاهب الورشة لكابيه، الصادر في باريس عام ١٨٤٢، لم يستخدم ماركس الأحرف المائلة أو الكبيرة كما وردت جميعاً في الأصل.

الوحدة الوطنية الكبرى أم من أجل الرابطة العمالية... يجب أن نكون متحدين دائماً، متفانين (dévoûés) دائماً لبعضنا بعضاً" - يجب، يجب! من السهل أن يقال ذلك، والناس يقولونه منذ زمن طويل، ولسوف يقولونه بعد لفترة طويلة من الزمن من دون أي مزيد من النجاح، إذا لم يستطيعوا أن يجدوا علاجاً آخر! "إن بوشيه(*) يشكو من أنانية الأغنياء، لكن ما جدوى مثل هذه الشكاوى؟ وأن بوشيه يقول إن جميع الذين يرفضون التفاني هم أعداء".

ويقول(**): "إذا رفض إنسان، تحدوه الأنانية، أن يتفانى للآخرين [...] فما العمل؟ إننا لا نتردد لحظة واحدة(***) في الجواب: إن المجتمع يملك الحق دائماً في أن يأخذ منا ما يفرض علينا واجبنا أن نضحي به من أجله... إن التفاني هو الوسيلة الوحيدة من أجل انجاز الواجب. ويجب على كل واحد منا أن يتفانى، دائماً وفي كل مكان. وإن ذلك الذي يرفض بدافع الأنانية أن ينجز واجبه في التفاني يجب أن يكره على القيام به" - هكذا يهتف بوشيه(****) بالجميع: "تفانوا، تفانوا، ضحوا بأنفسكم! لا تفكروا إلا في التضحية بأنفسكم"! أفلا يعني هذا إساءة فهم الطبيعة البشرية ودوسها بالأقدام؟ [...] أليست هذه... نظرة خاطئة، بل نكاد - نظرة صبيانية مضحكة، وحمقاء(*****)" (كابيه دحض مذاهب الورشة [Refutation des doctrines de l'atelier]، ص ١٩، ٢٠). وإن كابيه ليبرهن إذن، في الصفحة ٢٢، للجمهوري بوشيه أنه ينتهي بالضرورة إلى "أرستقراطية للتفاني" ذات درجات مختلفة، ومن ثم يسأل بصورة سافرة: "ماذا يحدث إذن للتفاني (dévoûment)؟ ماذا يتبقى من التفاني إذا كان البشر لا يتفانون إلا من أجل بلوغ أعلى قمم التراتب(******)؟ ... إن

(*) في الأصل : الورشة.

(**) كلمة "ويقول" مضافة من ماركس.

(***) كلمتا "لحظة واحدة" مضافتان من ماركس.

(****) في الأصل الورشة.

(*****) التشديد هنا من ماركس.

(******) في الأصل: إذا كان الناس يتفانون من أجل...

مثـل هـذا النظـام يمكـن أن ينشـأ(*) فـي ذهـن رجـل يـود أن يصبـح البابـا أو الكاردينـال!- لكـن فـي أذهـان العمـال!!" -"إن السـيد بوشـيه(**) لا يريـد أن يصبـح العمـل تسـلية سـارة، ولا أن يعمـل الإنسـان مـن أجـل إرضـاء نفسـه ويخلـق ملـذات جديـدة لنفسـه. إنـه يؤكـد... "إن الإنسـان موجـود علـى الأرض كـي ينجـز وظيفـة فقـط كـي ينجـز، واجبـاً (une fonction, un devoir) وإنـه يبشـر الشـيوعيين قائـلاً: "لا، إن الإنسـان، هـذه القـوة العظمـى، لـم يخلـق مـن أجـل نفسـه،تلك فكـرة فظـة. إن الإنسـان عامـل (ouvrier) فـي العالـم، ويجـب عليـه أن ينجـز العمـل (œuvre) الـذي تفرضـه الأخلاقيـة علـى فعاليتـه، ذلـك هـو واجبـه... ألا لا يغـب عـن أنظارنـا حقيقـة أن علينـا أن ننجـز وظيفـة عاليـة - وظيفـة بـدأت مـع اليـوم الأول لوجـود الإنسـان ولـن تنتهـي إلا مـع البشـرية [...]"- (لكـن مـن الـذي كشـف جميـع هـذه الأشـياء الرائعـة [للسـيد] بوشـيه) - وهـو مـا كان شـترنر يترجمـه كمـا يلـي: مـن أيـن لبوشـيه أن يعـرف مثـل هـذه المعرفـة الجيـدة عـن مـا ينبغـي للإنسـان أن يصنعـه؟ [...] وعلـى أي حـال فليفهـم مـن يسـتطيع الفهـم(***). ويسـتطرد بوشـيه(****): "مـاذا! أكان علـى الإنسـان أن ينتظـر آلاف القـرون كيمـا يتعلـم منكـم أنتـم الشـيوعيون أنـه قـد خلـق مـن أجـل نفسـه، وأنـه لا هـدف آخـر لـه سـوى أن يحيـا فـي جميـع المسـرات الممكنـة... لكـن يجـب ألا يقـع المـرء فـي مثـل هـذا الخطـأ. يجـب علـى المـرء ألا ينسـى أننـا خلقنـا كيمـا نعمـل (faits pour travailler) كـي نعمـل دائمـاً، وأن الشـيء الوحيـد الـذي يمكننـا أن نطلبـه هـو الكفـاف (la suffisants vie) أي الرخـاء الـذي يكفينـا كيمـا ننجـز دعوتنـا بصـورة مناسـبة. وكل شـيء يتجـاوز هـذه الحـدود [...] لامعقـول وخطـر(absurde et dangereux)". لكـن برهـن علـى ذلـك، برهـن ولا تكتـف بالتأكيـد والبـت مثـل نبـيّ! فمنـذ البدايـة تحدثـت عـن آلاف القـرون(*****)!

(*) في الأصل: يمكن أن يعقل.

(**) في الأصل: الورشة.

(***) Du reste, comprenne qui pouurra، بالفرنسية في النص الأصلي.

(****) في الأصل: وقبل شيء، لماذا تتحدث عن آلاف القرون.

(*****) هاتان الكلمتان إضافة من ماركس.

ومـن بعـد، مـن ذا يؤكـد أنهـم انتظرونـا فـي جميـع القـرون(*)؟ لكـن أنـت، لعلهـم انتظـروك مـع جميـع نظرياتــك عــن dévoûment (**) وdevoir وnationalité francaise وassociation ouvrière؟ ويقــول بوشــيه: "ختامـاً، نسـألكم ألا تسـتاؤوا(***) ممـا قلنـاه"، [...] إننـا فرنسـيون مؤدبـون مثلكـم تمامـاً، ونسـألكم أيضـاً ألا تسـتاؤوا(****)" (ص ٣١) ويقـول بوشـيه: "صدقونـا، أن هنـاك جماعـة(*****) أنشـئت منـذ زمـن طويـل وأنتـم أعضـاء فيهـا أيضـاً". ويختتـم كابيـه قائـلاً: "يـا بوشـيه صدقنـا، صـر شـيوعياً(******)".

"التفانـي"، "الواجـب"، "الالـزام الاجتماعـي"، "حـق المجتمـع"، "الدعـوة، مصيـر الإنسـان"، "العمـل، دعـوة الإنسـان"، "العمـل الأخلاقـي"، "الرابطـة العماليـة"، "خلـق مـا لا غنـى عنـه مـن أجـل الحيـاة" - أليسـت تلـك هـي الأشـياء التـي يلـوم القديـس سانتشـو الشـيوعيين عليهـا، والتـي يلـوم السـيد بوشـيه الشـيوعيين علـى تجاهلهـا، وهـو اللـوم المهيـب الـذي يسـخر كابيـه بـدوره منـه؟ أفلسـنا نصـادف هنـا حتـى "تراتـب" شـترنر؟

وفـي الختـام، يوجـه القديـس سانتشـو إلـى الشـيوعية الضربـة القاضيـة(*******) وفـي الصفحـة ١٦٩، إذ يتفـوه بالعبـارة التاليـة:

"إن الاشــتراكيين، إذ ينتزعــون أيضــاً الملكيــة" (!) "لا يأخــذون فــي حســابهم أن هــذه الملكيــة تسـتمر فـي الوجـود فـي طبيعـة البشـر بالـذات. أيكـون المـال والأشـياء ملكيـة وحدهـا، أم أن كل رأي هـو لـي هـو شـيء أملكـه أنـا؟ وبالتالـي، فـإن كل رأي يجـب أن يبطـل أو يجعـل لا شـخصياً".

(*) في الأصل: لم ينتظرونا ليقولوا ذلك في جميع الأزمنة.

(**) التفاني، الواجب، القومية الفرنسية، الرابطة العمالية، بالفرنسية في النص الأصلي. انطلاقاً من هنا، العبارة بالفرنسية في النص الألماني. والعبارة من ماركس. فالأصل يقول: "وأخيراً، لقد انتظروكم جيداً، أنتم، كي يتعلموا منكم ما هي القومية الفرنسية، الخ، الخ".

(***) كلمتان "ويقول بوشيه" مضافتان من ماركس.

(****) في الأصل "ونحن أيضاً! وإننا لنود ألا نسيء إلى أي إنسان!".

(*****) communaute، بالفرنسية في النص الأصلي.

(******) إن كلمات: "ويختتم كابيه قائلًا"، إضافة من ماركس.

(*******) coup de grace، بالفرنسية في النص الأصلي.

أو هل رأي القديس سانتشو، بقدر ما لا يصبح رأي الآخرين أيضاً، يملك سلطاناً على أي شيء كان، حتى على رأي إنسان آخر؟ وإذ يدفع القديس ماكس إلى الميدان برأسمال رأيه ضد الشيوعية فإنه لا يفعل من جديد أكثر من أن يستأنف ضدها الاعتراضات البورجوازية الأعتق، والأكثر تفاهة، وهو يحسب أنه قال شيئاً جديداً لأن هذه الآراء المبتذلة جديدة بالنسبة إليه، هو البرليني "المثقف". إن ديستوت دو تراسي، من بين أناس آخرين عديدين، وفي أعقابهم، قد قال الشيء ذاته بصورة أفضل بكثير قبل ثلاثين عاماً، وفي وقت لاحق أيضاً، في الكتاب الذي سوف نستشهد به، مثال ذلك:

"لقد عقدت محاكمة الملكية بكل الشكليات الواجبة، وقدمت الحجج معها وضدها، فكأنه يتوقف علينا إن كانت الملكية أو لم تكن في هذا العالم؛ الأمر الذي يعني، على أية حال، إساءة فهم طبيعتنا بصورة أفضل (أطروحة في الإرادة(*)، باريس، ١٨٢٦، ص ١٨):

ومن ثم يعمد السيد ديستوت دو تراسي إلى البرهان على أن الملكية والفردية والشخصية(**) متماثلة، وأن "الأنا" [moi] تتضمن "لي" [mien]، ويجد كقاعدة طبيعية للملكية الخاصة أن:

"الطبيعة وهبت [الإنسان] ملكية حتمية وغير قابلة للنقل، ملكية في شكل فرديته الخاصة". (ص ١٧) - إن الفرد "يرى بوضوح أن هذه الأنا هي المالك الحصري للجسد الذي تحييه، والأعضاء التي تحركها، وجميع إمكاناتها، وجميع قواها، وجميع الآثار التي تنتجها، وجميع أهوائها وأفعالها؛ ذلك أن هذه الأمور جميعاً تبدأ وتنتهي مع هذه الأنا، لا توجد إلا من خلالها ولا تتحرك إلا بأفعالها؛ وليس ثمة شخص آخر يستطيع أن ينتفع بهذه الأدوات نفسها أو أن يتأثر بها بالطريقة نفسها" (ص ١٦). "إن الملكية توجد، إن لم يكن على وجه الدقة في كل مكان يوجد فيه فرد واع، فعلى الأقل في كل مكان يوجد فيه فرد صاحب إرادة" (ص ١٩).

وأما جعل الملكية الخاصة والشخصية متماثلتين على هذه الصورة. فإن ديستوت دو

(*) Traité de la volonté، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) propriété, individualité et personnalité، بالفرنسية في النص الأصلي..

تراسي، متلاعبـاً بكلمتي propre وpropriété [*]، مثله مثـل "شترنر" بتلاعبه بكلمـات Mein [**]، وMeinung [***]، وEigentum [****]، وEigenheit [*****]، ينتهـي إلـى النتيجـة التاليـة:

"وبالتالـي فإنـه مـن اللامعقـول بشـكل كلـي النقـاش فيمـا إذا كان مـن الأفضـل لأي منـا ألا يكـون لـه شـيء يخصـه. وعلـى أيـة حـال، فذلـك يضاهـي السـؤال مـا إذا لـم يكـن مـن المرغـوب فيـه بالنسـبة إلينـا أن نكـون مغايريـن تمامـاً لمـا نحـن عليـه، وحتـى البحـث فيمـا إذا لـن يكـون مـن الأفضـل لنـا ألا نوجـد مطلقـاً" (ص ٢٢).

"تلـك" اعتراضـات علـى الشـيوعية "شـائعة حتـى الدرجـة القصـوى"، وقـد أصبحـت الآن تقليديـة، ولهـذا السـبب بالضبـط " ليـس ممـا يبعـث علـى الدهشـة أن "شـترنر" يكررهـا.

إذا كان البورجـوازي الضيـق التفكيـر يخاطـب الشـيوعيين قائـلاً: إذ تنقضـون الملكيـة، أي وجـودي كرأسـمالي، كمالـك عقـاري، كصناعـي، ووجودكـم كعمـال[******]، فإنكـم تنقضـون فرديتـي وفرديتكـم؛ إذ تمنعوننـي مـن اسـتغلالكم، أنتـم العمـال، ومـن تحصيـل أرباحـي وفوائـدي ومداخيلـي، فإنكـم تمنعوننـي مـن الوجـود كفـرد. وبالتالـي، فـإذا كان البورجـوازي يعلـن للشـيوعيين: إذ تنقضـون وجـودي كبورجـوازي فإنكـم تنقضـون وجـودي كفـرد؛ وإذا كان بالتالـي يوحـد نفسـه كبورجـوازي مـع نفسـه كفـرد، فـلا بـد للمـرء علـى الأقـل أن يعتـرف بصراحـة هـذا الإعـلان. ذلـك هـو الحـال بصـورة فعليـة بالنسـبة إلـى البورجـوازي، فهـو يعتقـد أنـه ليـس فـرداً إلا بقـدر مـا هـو برجـوازي.

وعلــى أي حــال، فــلا يــكاد منظــرو البورجوازيــة يتدخلــون كــي يعطــوا تعبيــراً عامــاً لهــذا

(*) ملكية وخاص.

(**) لي.

(***) رأي، نظرة.

(****) ملكية.

(*****) فردية.

(******) سوف يحدد ماركس فيما بعد قصده فيقول: عمال مأجورون.

التوكيـد، راغبيـن فـي أن يوحـدوا علـى الصعيـد النظـري الملكيـة البورجوازيـة والفرديـة وأن يسـوغوا هـذا التوحيـد، حتـى يأخـذ هـذا الهـراء إذن، فـي الصيـرورة مهيبـاً ومقدسـاً.

لقـد دحـض "شـترنر" أعـلاه النقـض الشـيوعي للملكيـة الخاصـة بتحويلـه أولاً، الملكيـة الخاصـة إلـى "تملـك"(avoir)، ومـن ثـم إعلانـه فعـل "تملك" كلمـة لا غنـى عنهـا، حقيقـة أزليـة، لأنـه حتـى فـي المجتمـع الشـيوعي يمكـن أن يحـدث أن "يتملـك" شـترنر ألـم فـي المعـدة. وبالطريقـة ذاتهـا بالضبـط يؤسـس خلـود الملكيـة الخاصـة بتحويلهـا إلـى مفهـوم الملكيـة، وذلـك باسـتثماره الاشـتقاق اللغـوي لكلمتـي Eigentum وEigen (*) وإعلانـه أن كلمـة Eigen (خـاص) تشـكل حقيقـة أزليـة، لأنـه حتـى فـي ظـل النظـام الشـيوعي يمكـن أن يحـدث أن يكـون هنـاك ألـم فـي المعـدة خاصـاً بـه. إن هـذا الهـراء النظـري كلـه، الـذي يبحـث عـن ملجـأ له فـي الأتيمولوجيـا، ليكـون محالاً لـو أن الملكيـة الخاصـة الفعلية التـي يريـد الشـيوعيون نقضهـا لـم تحـول إلـى هـذه الفكـرة المجـردة: "الملكيـة". إن هـذا التحويـل يوفر علـى المـرء مـن جهـة واحـدة، عنـاء الاضطـرار إلـى القـول أي شـيء كان، أو حتـى مجـرد معرفـة أي شـيء كان، عـن الملكيـة الخاصـة الفعليـة، ومـن جهـة ثانيـة، يجعـل مـن السـهل اكتشـاف تناقض في الشـيوعية طالمـا أنـه مـن اليسـير طبعـاً، بعـد نقـض الملكيـة (الفعليـة)، أن يكتشـف بعـد، مختلـف أنـواع الأشـياء التـي يمكـن تصنيفهـا فـي صنـف: "الملكيـة". ومـن المؤكـد أن مـا يجـري فـي الواقـع هـو العكـس مـن ذلـك تمامـاً(**) ففـي واقـع الأمـر أننـي لا أملـك الملكيـة الخاصـة إلا بقـدر مـا أملـك شـيئاً قابـلًا للبيـع، فـي حيـن أن فرديتـي [Meine Eigenheit] قـد لا تكـون قابلـة للبيـع علـى الإطـلاق. ليـس معطفـي ملكيـة خاصـة لـي بقـدر مـا أسـتطيع مقايضتـه أو رهنـه أو بيعـه. بقـدر [مـا] هـو [قابـل للتسـويق]. أمـا إذا هـو فقـد هـذه الخاصيـة، إذا أصبـح باليـاً، مـن الممكـن أن يحتفـظ بالعديـد مـن الصفـات التـي تجعلـه ذا قيمـة بالنسـبة إلـيّ، بـل يمكـن أيضـاً أن يصبـح صفـة لـي، وأن يحولنـي إلـى شـخص فـي الأسـمال.

(*) ملكية وخاص.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن الملكية الخاصة الفعلية شيء عام حتى الدرجة القصوى وليس له صلة على الإطلاق بالفردية، بل هو في حقيقة الأمر يبطل الفردية بصورة مباشرة. فأنا لست فرداً إلا بقدر ما لا أكون مالكاً خاصاً - وهي إفادة تؤيدها في كل يوم زيجات المال.

بيد أنه ليس ثمة رجل اقتصاد واحد يمكن أن يفكر في تصنيفه على أنه ملكيتي الخاصة، طالما أنه لا يمكنني من التحكم في أي قدر من عمل البشرالآخرين، مهما يكن هذا القدر ضئيلاً. إن محامياً، إيديولوجياً للملكية الخاصة، ربما يستطيع أن ينخرط في مثل هذا الهذر. إن الملكية الخاصة لا تغرب [entfremdet] فردية البشر فحسب، بل فردية الأشياء أيضاً. ليس للأرض صلة بالريع العقاري، وليس للآلة صلة بالربح. وبالنسبة إلى المالك العقاري، فليس للأرض إلا معنى واحد: الريع العقاري؛ إنه يؤجر أملاكه العقارية ويتلقى ريعاً؛ وإن هذا الريع صفة يمكن للأرض أن تفقدها من دون أن تفقد صفة واحدة من صفاتها الأصلية، مثلاً من دون أن تفقد أي جزء من خصوبتها؛ تلك صفة يتوقف مداها وحتى وجودها على الشروط الاقتصادية التي تتكوّن وتضمحل من دون أي إسهام فعال من جانب المالكين العقاريين الفرادى. وينطبق الأمر ذاته على الآلات. إما أن الرابطة القائمة بين المال، وهو الشكل الأعم للملكية، والخصائص الشخصية ضئيلة جداً، وإما أنهما متعارضان بصورة مباشرة حتى درجة كبيرة، فهذا ما عرفه شكسبيرمن قبل بصورة أفضل من مالكينا الصغار(petits bourgeois) المولعين بالنظرية:

إن قدراً كبيراً من هذا سوف يجعل من الأسود أبيض،

ومن القبيح وسيماً، ومن الخطأ صواباً، ومن الدنيء نبيلاً،

ومن الشيخ فتى، ومن الرعديد شجاعاً.

هذا العبد الأصفر...

سوف يكرس المجذوم...

هذا هو ما يجعل الأرملة البالية تتزوج من جديد

فهي التي يتقيأ المرء لدى مشاهدة منزلها القذر

وقروحها المتورمة، يضمخها ويطيبها،

من أجل يوم العرس الجديد...

أيه أيها الإله المنظور

الذي تسبك لحمة المستحيلات،

وتجعلها في عناق وثيق!(١٣٦)

وبكلمة واحدة، فإن الريع العقاري، والربح، الخ، هذه الأشكال الفعلية لوجود الملكية الخاصة، علاقات اجتماعية تقابل مرحلة معينة من الإنتاج، وليست علاقات "فردية" إلا بقدر ما لم تصبح أغلالاً تقيد القوى المنتجة القائمة.

ووفقاً لديستوت دو تراسي، لا بد أن أغلبية الناس، البروليتاريين، قد فقدوا كل فردية منذ زمن طويل، وإن كان يبدو اليوم أن الفردية هي على أكبر قدر من التطور فيما بينهم على وجه الدقة. وبالنسبة إلى البورجوازي، فإن من الأيسر جداً عليه أن يبرهن، مستخدماً اللغة الخاصة به، على هوية العلاقات التجارية والفردية، بل العلاقات الإنسانية على العموم، ما دامت هذه اللغة هي نفسها نتاجاً للبورجوازية، وبالتالي جعلت علاقات البيع والشراء، في الواقع الفعلي وفي اللغة على حد سواء، أساس جميع العلاقات الإنسانية الأخرى. ومثال ذلك أن propriété تعني في وقت واحد [Eigentum] الملكية المادية و[Eigenschaft] صفة، وملكية(*): [Eigentum] ملكية و[Eigentumlichkeit] خاصية فردية [Eigen] ["خاص"] - بالمعنى التجاري وبالمعنى الفردي؛ Valeur، قيمة، Wert (**)- تجارة، Verkehr (***)؛ echange، تبادل، Austausch (****)، الخ، وهي جميعاً تعابير تستخدم سواء للعلاقات التجارية أم للصفات والعلاقات بين الأفراد من حيث هم أفراد. وتلك هي الحال أيضاً في اللغات الحديثة الأخرى. وإذا انكب القديس ماكس بصورة جدية على استغلال هذا الالتباس اللغوي، فإنه يستطيع أن ينجح بكل يسر في التوصل إلى سلسلة براقة من الاكتشافات الاقتصادية الجديدة، من دون أن يعرف شيئاً عن الاقتصاد السياسي؛ ذلك

(*) Property ، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(**) جدارة، قيمة.

(***) التعامل، التجارة، المواصلات.

(****) تبادل، مقايضة.

أن حقائقـه الاقتصاديـة الجديـدة تقـع كليـاً فـي حقيقـة الأمـر، كمـا سـنرى فـي وقـت لاحـق، فـي إطـار هـذا التـرادف.

إن صاحبنـا جـاك الطيـب، السـاذج، يتنـاول التلاعـب البورجـوازي بكلمتـي Eigentum [ملكيـة] و Eigenschaft [صفـة] بصـورة حرفيـة جـداً وبلهفـة مقدسـة فائقـة، بحيـث يجـازف بـأن يسـلك سـلوك مالـك خـاص حيـال صفاتـه الأخلاقيـة الخاصـة، كمـا سـنرى فيمـا بعـد.

وأخيراً، في الصفحة ٤٢١، يلقن "شترنر" الشيوعية ما يلي:

"في الحقيقة إنها "(يعني الشيوعية)" لا تهاجم الملكية، بل ضياع الملكية".

ولا يفعـل القديـس ماكـس، فـي كشـفه الجديـد هـذا، إلا أن يكـرر قـولاً مأثـوراً قديمـاً اسـتخدمه مـن قبـل وتكـراراً أتبـاع سـان سـيمون علـى سـبيل المثـال. راجـع مثـلاً: دروس عـن الصناعـة والماليـة [lécons sur l'industrie et les finances]، باريـس، ١٨٣٢[١٣٧]، حيـث نسـتطيع أن نقـرأ فيمـا نقـرأه:

"ليسـت الملكيـة هـي التـي نقضـت بـل إن شـكلها هـو الـذي عـدل... سـوف تصبـح إذن، للمـرة الأولـى تشـخيصاً حقيقيـاً... سـوف تكتسـب إذن، للمـرة الأولـى طابعهـا الفـردي الحقيقـي" (ص ٤٢، ٤٣).

مـا دامـت هـذه العبـارة، التـي ابتدعهـا الفرنسـيون وزاد فـي إطنابهـا بصـورة خاصـة بييـر لـورو، قـد تناولهـا بسـرور عظيـم الاشـتراكيون الألمـان المولعـون بالتأمـل، واسـتخدموها مـن أجـل مزيـد مـن التأمـل، حتـى انتهـت أخيـراً إلـى إفسـاح المجـال للمنـاورات الرجعيـة، وفـي الممارسـة للعمليـات الماليـة الدنيئـة، فإننـا لـن نعالجهـا هنـا حيـث لا تقـول شـيئاً، لكـن في وقـت لاحـق، بصـدد الاشـتراكية الحقيقية.

إن القديـس سانتشـو، [متبعـاً] مثـال فونيغـر، الـذي [اسـتغله] ريـكاردت، يغتبـط بتحويـل البروليتارييـن، [وإذن] الشـيوعيين أيضـاً، إلـى "صعاليـك". وإنـه ليعـرِّف "صعلوكـه" فـي الصفحـة ٣،٢ كمـا يلـي: "إنسـان ثروتـه مثاليـة صرفـة" وإذا أسـس "صعاليـك" شـترنر مملكـة للصعاليـك يومـاً، كمـا فعـل متسـولو باريـس فـي القـرن الخامـس عشـر، فـإن القديـس سانتشـو سـوف يكـون

ملك الصعاليك إذن، لأنه "الصعلوك" الكامل، الإنسان الذي لا يملك حتى الثروة المثالية المحضة، وبالتالي يحيا على فائدة رأسمال رأيه.

ج- الليبرالية الإنسانية(*)

بعدما رتب القديس ماكس الليبرالية والشيوعية على هواه وجعل منهما نمطين ناقصين لوجود "الإنسان" الفلسفي، وكذلك للفلسفة الألمانية الحديثة على العموم (وقد كان له بمعنىً ما الحق في ذلك: فقد اتخذت الشيوعية، فضلاً عن الليبرالية، في ألمانيا شكل مالك صغير وصوفي إيديولوجي في الوقت ذاته)، فإنه يستطيع الآن من دون صعوبة أن يصف الأشكال الأحدث للفلسفة الألمانية، ما سماه "الليبرالية الإنسانية"، على أنها كمال ونقد الليبرالية والشيوعية في الوقت ذاته.

ونحصل الآن، بمساعدة هذا الإنشاء المقدس، على الطفرات الثلاث التالية، وهي طفرات مسلية جداً (راجع أيضاً: اقتصاد العهد القديم):

١- ليس الفرد المنفصل الإنسان، وبالتالي لا قيمة له - إنه لا يملك الإرادة الشخصية، ولا القوة على الأمر والنهي - "الذي اسمه سوف يسمى": "من دون سيد" - الليبرالية السياسية، التي عالجناها أعلاه.

٢- لا يملك الفرد المنفصل شيئاً إنسانياً، وبالتالي لا يساوي ما لي أو لك أو أي ملكية: "معدم" - تلك هي الشيوعية، والتي عالجناها كذلك من قبل.

٣- في النقد يجب على الفرد المنفصل أن يخلي المكان للإنسان، الذي اكتشف للمرة الأولى: "من دون إله" - هوية "من دون سيد" و"معدم" - تلك هي الليبرالية الإنسانية (ص ١٨٠-١٨١)- وفي عرض أكثر تفصيلاً لهذه الوحدة السلبية الأخيرة، تبلغ سذاجة جاك الراسخة القمة التالية (ص ١٨٩):

"إن أنانية الملكية فقدت ملكيتها الأخيرة حتى إذا كانت كلمة "إلهي" قد فقدت كل

(*) الأنسية أو ذات النزعة الإنسانية أو الإنسانوية.

معنـى، ذلـك" (يـا لهـا مـن "ذلـك" سـامية!) "إن اللـه لا يوجـد إلا إذا كان ينطـوي علـى خـلاص كل فـرد، بالضبـط كمـا يسـعى الفـرد إلـى خلاصـه فـي اللـه".

وفقـاً لذلـك، فـإن البورجـوازي الفرنسـي سـوف "يفقـد" "ملكيتـه" "الأخيـرة" حالمـا تنقـض كلمـة adieu [*] مـن اللغـة. وبصـورة متفقـة كليـاً مـع الإنشـاءات السـابقة، فـإن الملكيـة فـي اللـه، الملكيـة المقدسـة فـي السـماء، ملكيـة الوهـم، وهـم الملكيـة، ينـادي بهـا هنـا الملكيـة الأسـمى ومـلاذ الملكيـة الأخيـر.

انطلاقـاً مـن هـذه الأوهـام الثلاثـة عـن الليبراليـة والشـيوعية والفلسـفة الألمانيـة، يلفـق الآن انتقالـه الجديـد -والأخيـر هـذه المـرة، شـكراً "للمقـدس" - إلـى "الأنـا". وقبـل أن نتتبعـه فـي هـذا الـدرب، فلنلـق نظـرة أخيـرة علـى "نضالـه" الحياتـي "الشـاق" الأخيـر ضـد "الليبراليـة الإنسـانية".

بعدمـا اجتـاز صاحبنـا الفاضـل سانتشـو التاريـخ بأسـره فـي دوره الجديـد كفـارس تائـه[**] وبصـورة أدق الفـارس الفاجـع الملامـح[***]، مقاتـلًا فـي كل مـكان الأرواح والأشـباح، و"بنـات أوى وبنـات النعـام، والعفاريـت والغيـلان، ووحـوش القفـر والطيـور الجارحـة، والقـوق والقنفـذ" (راجـع: أشـعيا، ٣٤: ١١- ١٤) "ومطيحـاً بهـا"، لشـدة مـا سـوف يكـون سـعيداً الآن، بعـد متاهاتـه عبـر جميـع هـذه الأراضـي المختلفـة، إذ يبلـغ أخيـراً جزيرتـه باراتاريـا[١٣٨]، "الأرض" فـي ذاتهـا، حيـث يتنقـل "الإنسـان" فـي الحالـة الطبيعيـة الصرفـة[****]! فلنتذكـر مـرة أخـرى عبارتـه الكبـرى، العقيـدة المفروضـة عليـه، التـي يرتكـز عليهـا كل إنشـائه التاريخـي، والتـي معناهـا أن:

"الحقائـق التـي تنشـأ عـن مفهـوم الإنسـان تبجـل بوصفهـا رؤيـا... مقدسـة لهـذا المفهـوم بالذات": "إن رؤيـا هـذا المفهـوم المقـدس"، حتـى "مـع نقـض عـدد مـن الحقائـق التـي يظهرهـا هـذا المفهـوم، لا تجـرد مـن قداسـتها" (ص ٥١).

ولا حاجـة بنـا تقريبـاً إلـى تكـرار مـا سـبق لنـا أن أثبتنـاه لكاتبنـا المقـدس عنـد تحليـل جميـع هـذه الأمثلـة، ألا وهـو أن العلاقـات التجريبيـة، التـي يخلقهـا البشـر الفعليـون فـي تعاملهـم الفعلـي

(*) وداعاً. ثمة تلاعب بالألفاظ هنا: الله Dieu، وداعاً Adieu.

(**) Caballero andante، باللاتينية في النص الأصلي.

(***) Caballero de la tristisima figura، بالإسبانية في النص الأصلي

(****) ni puris naturalibus، باللاتينية في النص الأصلي

ولا يخلقها في أي حال من الأحوال مفهوم الإنسان المقدس، تُنشأ بصورة لاحقة وتُصَّوَر وتتخيل وتوطد وتسوّغ من قبل البشر على اعتبارها الهامات لمفهوم "الإنسان"، ويمكن للمرء أن يتذكر أيضاً، "تراتب" القديس ماكس. والآن هيا إلى الليبرالية الإنسانية.

في الصفحة ٤٤، حيث القديس ماكس "باختصار" "يجابه وجهة نظر فويرباخ اللاهوتية بوجهة نظرنا"، لا يُعارض فويرباخ في أول الأمر إلا بمجرد عبارات. وكما رأينا من قبل بصدد صناعة الأرواح، حيث يضع "شترنر" معدته في عالم النجوم (ديوسكوروس[١٣٩] الثالث، النصير، المنجد ضد داء البحر)، لأنه هو ومعدته "اسمان مختلفان لشيئين مختلفين كل الاختلاف" (ص ٤٢)، وكذلك هنا أيضاً تتراءى الماهية،[*] وقبل كل شيء على أنها شيء موجود، و"هكذا يقال الآن" (ص ٤٤).

"إن الوجود الأسمى هو، في الحقيقة، ماهية الإنسان، لكن بالضبط لأنها ماهية، وليست الإنسان نفسه، فإنه لا فرق على الإطلاق إذا ما رأينا هذه الماهية خارج الإنسان بوصفها "الله" أو وجدناها في "الإنسان" وسميناها "ماهية الإنسان" أو "الإنسان"؛ أنا لست الله ولا الإنسان، لست الوجود الأسمى ولا ماهيتي- وبالتالي فإنه لا فرق، على الأغلب، ما إذا فكرت بهذه الماهية على أنها في باطني أو في خارجي".

وهكذا فإن "ماهية الإنسان" تفترض بصورة مسبقة هنا على أنها شيء موجود، فهي "الوجود الأسمى"، وهي ليست "الأنا"، وبدلاً من أن يقول القديس ماكس شيئاً عن "الماهية" يقتصر على البيان البسيط بأنه لا فرق "ما إذا فكرت بها على أنها في باطني أو في خارجي"، في هذه المحلة أو تلك. أما إن هذه اللامبالاة بالماهية ليست مجرد إهمال إنشائي، فهذا ما يتضح سلفاً من حقيقة أنه يميز هو نفسه بين الجوهري واللاجوهري، وأننا نستطيع أن نجد عنده حتى "الماهية النبيلة للأنانية" (ص ٧٢). وفيما عدا ذلك، فإن ما قاله المنظرون الألمان حتى الآن عن الماهية واللاماهية يصادف برمته سلفاً، وبصورة أفضل حتى درجة بعيدة عند هيغل في كتابه "المنطق" [Logik].

وإن "شترنر" ليتقاسم، بحس غير محدود من الاستقامة، أوهام الفلسفة الألمانية:

(*) "Wesen"، يمكن أن تعني إما الماهية إما الوجود.

وتتضح حدة هذا الوهم في استبداله التاريخ "بالإنسان". إنه يجعل من الإنسان الشخصية الفاعلة(*) الوحيدة ويعتقد أن "الإنسان" قد صنع التاريخ. ولسوف نصادف من جديد هذا التصورعند فويرباخ الذي يقبل "شترنر" أوهامه مغمض العينين كيما يبني المزيد على أسسها.

ص ٧٧: "على العموم لا يفعل فويرباخ سوى قلب الحامل والمحمول، مفضلاً الأخير بينهما. لكن بما أنه يقول هو نفسه: "ليس الحب مقدساً لأنه من صفات الله (ولا اعتبره البشر قط مقدساً لهذا السبب)، لكنه من صفات الله لأنه إلهي بذاته ولذاته"، فقد كان في مقدوره أن يستنتج أنه من الواجب خوض النضال ضد المحمولات نفسها، ضد الحب وكل ما هو مقدس. أيان له أن يأمل في تحويل البشر بعيداً عن الله إذا ترك الإلهي لهم؟ وإذا كان الشيء الرئيسي بالنسبة إلى البشر، كما يقول فويرباخ، لم يكن الله قط، بل صفاته فحسب، فقد كان في مقدوره أن يستمر في ترك هذا البهرجان لهم، ما دامت الدمية، يعني النواة الفعلية، باقية بعد".

وبالتالي، فما دام فويرباخ نفسه يقول هذا، فإن هذا السبب كافٍ لجاك المغفل كي يصدق أن الناس قدروا الحب لأنه "إلهي بذاته ولذاته". وإذا كان نقيض ما يقوله فويرباخ بالضبط قد حدث - وإننا "نتجرأ على هذا القول" (ويغان، ص ١٥٧) - إذا لم يكن الله ولا صفاته في يوم من الأيام الشيء الجوهري بالنسبة إلى البشر، وإذا لم يكن ذلك أيضاً سوى الوهم الديني للنظرية الألمانية - فإنه يحدث إذن، لسانتشو بالضبط ما حدث له قبلاً عند سرفانتس حين وضعت أربع أرجل خشبية تحت سرجه أثناء رقاده واختطف حماره من تحته.

ويباشر سانتشو، معتمداً على هذه البيانات الصادرة عن فويرباخ، معركة كان سرفانتس يتوقعها سلفاً كذلك في الفصل التاسع عشر، حيث هيدلجنا البارع(**) يقاتل ضد المحمولات، هؤلاء الممثلين المتنكرين الذين يحملون جدث العالم إلى القبر، لكنهم يتعثرون بأثوابهم

(*) Dramatis persona، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) engenioso hidalgo، بالإسبانية في النص الأصلي. والهيدلج هو أحد النبلاء الإسبان من الطبقة الفقيرة.

وأكفانهم التي تقيد حركتهم، وبذلك يسهلون على هيدلجنا أن يقلبهم بضربة من رمحه وأن يجلدهم جلداً عنيفاً. وإن المحاولة الأخيرة من أجل الاستمرار في هذا النقد للدين المعتبر مجالاً مستقلاً (وهو نقد بلغ حد الإنهاك)، المحاولة الأخيرة من أجل البقاء في إطار مقدمات النظرية الألمانية والتظاهر في الوقت ذاته بتجاوزها، المحاولة الأخيرة لاستخراج مادة من هذه العظمة المجرومة لصنع حساء مائع من أجل "الكتاب" - هذه المحاولة الأخيرة استقامت في مكافحة الشروط المادية، لا في شكلها الفعلي، ولا حتى في سيماء الأوهام الدنيوية التي يشارك بعد فيها أولئك الذين يرسفون عملياً في أغلال العالم الراهن، بل مكافحتها في الخلاصة السماوية لشكلها الدنيوي على اعتبارها محمولات، انبثاقات من الله، على اعتبارها ملائكة. وهكذا فإن السماء قد أهلّت من جديد وخلقت مواد جديدة غزيرة من أجل الطريقة القديمة لاستغلال هذه المملكة السماوية. وهكذا فإن النضال ضد الأوهام الدينية، ضد الله، قد أحل من جديد محل الصراع الفعلي. إن القديس برونو، الذي يكسب خبزه باللاهوت، يقوم في "نضاله الحياتي الشاق" ضد الجوهر بالمحاولة ذاتها لمصلحته الخاصة(*) كي يخرج بصفته لاهوتياً من حدود اللاهوت. ليس "جوهره" شيئاً آخر سوى صفات الله المكثفة في اسم واحد؛ وإذا استثنينا "الشخصية" التي يحتفظ بها لنفسه، فليست صفات الله هذه بدورها سوى أسماء مؤلهة لأفكار البشر عن علاقاتهم التجريبية المحددة، وهي أفكار يتعلقون بها في وقت لاحق بصورة منافقة لأسباب عملية. ومن الطبيعي أنه من المحال حتى فهم السلوك التجريبي والمادي لهؤلاء البشر بواسطة الجهاز النظري الموروث عن هيغل. وحين برهن فويرباخ على أن العالم الديني ليس سوى الانعكاس الوهمي للعالم الدنيوي الذي لا يظهر عنده إلا في مظهر صيغة مجردة فحسب، فإن النظرية الألمانية قد جوبهت بصورة عفوية بالسؤال الذي بقي من دون جواب: كيف حدث أن الناس "حشروا في رؤوسهم" هذه الأوهام؟ وحتى بالنسبة إلى المنظرين الألمان، فإن هذا السؤال قد عبد الطريق إلى النظرة المادية إلى العالم، وهي نظرة لا تتجرد عن المقدمات، لكنها تتقيد تجريبياً بالمقدمات المادية الفعلية بصفتها هذه، ولهذا السبب كانت، للمرة الأولى، نظرة نقدية إلى

(*) in aris et focis، باللاتينية في النص الأصلي.

العالـم بصـورة فعليـة. ولقـد أشـير إلـى هـذا التطـور مـن قبـل فـي الحوليـات الألمانيـة – الفرنسـية - فـي مدخـل إلـى نقـد فلسـفة الحقعنـد هيغـل [Einleitung zurKritik de Hegelschen Rechtphilosophie] وفـي المسـألة اليهوديـة [Zurjudenfrege]. لكـن بمـا أن هـذه الإشـارة تمـت بواسـطة الأسـلوب الفلسـفي التقليـدي، فـإن التعابيـر الفلسـفية التقليديـة التـي تسـربت إلـى هذيـن المؤلفيـن، مـن نمـط "الماهيـة الإنسـانية" و"النـوع" (genre)، الـخ، قـد أعطـت المنظريـن الألمـان الحجـة اللازمـة مـن أجـل إسـاءة فهـم منحـى التطـور الفعلـي والاعتقـاد بـأن المقصـود فـي هـذه الحـال إنمـا هـو مـرة أخـرى إعطـاء صيغـة جديـدة لكسـوتهم النظريـة المتهرئـة – بالضبـط، كمـا أن الدكتـور أرنولـد روج، الدكتـور غرازيانـو(*) للفلسـفة الألمانيـة، قـد توهـم أن فـي مقـدوره الاسـتمرار كمـا كانـت الحـال مـن قبـل فـي التلويـح فيمـا حولـه بذراعيـه الأخرقيـن وإظهـار قناعـه المتحذلـق المضحـك فـي كل مـكان. يجـب علـى المـرء أن "يتـرك الفلسـفة جانبـاً" (ويغـان، ص ١٨٧؛ راجـع هيـس: الفلاسـفة الأخيـرون [Die letzten philosophen]، ص ٨)، يجـب علـى المـرء أن يتخلـص منهـا بقفـزة واحـدة ويكـرس نفسـه كرجـل عـادي لدراسـة الواقـع الفعلـي، هـذه الدراسـة التـي تتوافـر لهـا أيضـاً مقاديـر هائلـة مـن المـواد الأدبيـة، المجهولـة طبعـاً مـن الفلاسـفة. وحيـن يصـادف المـرء بعـد ذلـك، مـن جديـد، بشـراً مـن طـراز كروماخـر أو "شـترنر"، فإنـه يكتشـف أنـه قـد خلَّفهـم منـذ زمـن طويـل "وراءه" وتحتـه. إن الفلسـفة بالنسـبة إلـى دراسـة العالـم الفعلـي كالاسـتمناء بالنسـبة إلـى الحـب الجنسـي. إن القديـس سانتشـو الـذي يظـل متمسـكاً بحـزم بعالـم الأفـكار الصرفـة بالرغـم مـن انعـدام الفكـر عنـده - وهـو مـا أشـرنا إليـه بـكل صبـر وأشـار هـو إليـه بـكل تشـديد - لا يسـتطيع بالطبـع أن يخـرج منـه إلا بواسـطة مسـلمة أخلاقيـة، مسـلمة "انعـدام الفكـر" (ص ١٩٦ مـن "الكتـاب"). إنـه البورجـوازي الـذي يفلـت مـن التجـارة بواسـطة الإفـلاس الفوضـوي(١٤٠)، الأمـر الـذي لا يجعـل منـه بروليتاريـاً بالطبـع، بـل بورجوازيـاً مفلسـاً لا يملـك شـروى نقيـر. إنـه لا يصبـح رجـلاً مـن العالـم، بـل فيلسـوفاً مفلسـاً مـن دون أفـكار.

إن صفـات اللـه المنقولـة عـن فويربـاخ الـذي يجعـل منهـا قـوى واقعيـة فـوق البشـر، كهنـة كبـاراً، هـي نفـس الهولـة التـي يكتشـف "شـترنر" وجودهـا والتـي اسـتبدلت بالعالـم التجريبـي. وإنـه

(*) Dottore Graziano، بالإيطالية في النص الأصلي.

لصحيح جداً أن "فرديته الخاصة" بكاملها لا تقوم إلا على ما "حشر في رأسه". وإذا كان "شترنر" (أنظر أيضاً: ص ٦٣) يأخذ على فويرباخ أنه لم يتوصل إلى أية نتيجة لأنه، كما يقول شترنر، يجعل من المحمول حاملاً والعكس بالعكس، فهو نفسه أعجز حتى درجة كبيرة من التوصل إلى أي شيء، [لأنه] يقبل مغمض العينين بهذه المحمولات الفويرباخية، المحوّلة إلى حاملات، معتبراً إياها شخصيات تسود [العالم]، يقبل مغمض العينين بهذه الصيغ الفويرباخية عن العلاقات على أنها علاقات فعلية، لاصقاً بها محمول "المقدس"، محوّلاً هذا المحمول إلى الحامل، "المقدس"، أي صانعاً بالضبط نفس الشيء الذي يأخذه على فويرباخ. والآن، بعد أن يتخلص كلياً على هذا الغرار من المحتوى الفعلي الذي كان موضوع البحث، بمقايضته لقاء "المقدس" الذي يبقى بالطبع أزلياً وثابتاً، فإنه ينخرط في نضاله، أي يكشف عن "نفوره". إن فويرباخ يملك بعد الوعي "بأن المقصود بالنسبة إليه تدمير وهم ليس إلا" - وهذا ما يأخذه عليه القديس ماكس (ص ٧٧ من "الكتاب")- بالرغم من أن فويرباخ يعلق بعد أهمية كبيرة جداً على النضال ضد هذا الوهم. وعند "شترنر" "رحل" هذا الوعي أيضاً بصورة نهائية، فهو يؤمن فعلياً بهيمنة الأفكار المجردة للإيديولوجية في العالم الحالي؛ وهو ليعتقد، أنه في نضاله ضد "المحمولات"، ضد المفاهيم، لا يهاجم وهماً بعد الآن، بل القوى التي تتحكم في العالم بصورة فعلية. ومن هنا كانت طريقته في قلب جميع الأشياء رأساً على عقب، ومن هنا كانت السذاجة الهائلة التي تجعله يأخذ جميع الأوهام المنافقة، وجميع رياءات البورجوازية، على أنها نقد حقيقي. وفيما عدا ذلك، فإنه يتضح من مقال "شترنر" و"دميته" الخاصة، "الكتاب"، إن هذه "الدمية" أبعد ما تكون عن كونها "النواة الفعلية" "للبهرجان"، وإن هذه المقارنة الجميلة عرجاء تماماً. إن "الكتاب" لا يحوي أي نوع من "النواة"، سواء أكانت "فعلية" أم غير "فعلية"، وحتى الترهات المتوافرة في صفحاته التي تعد ٤٩١ صفحة تكاد لا تستحق حتى اسم "البهرجان". - وعلى أية حال، فإذا كان يجب أن نكتشف نوعاً ما من "النواة" فيه، فهذا النواة هي إذن، المالك الصغير (البوراجوازي الصغير) الألماني.

وعلى أي حال، فإن القديس ماكس في "التعليق التبريري" ينيرنا بكل سذاجة عن

أصول حقده على "المحمولات". إنه يستشهد بالفقرة التالية من جوهر المسيحية [Das Wesen des Christenthums] (ص ٣١): "إن ذلك المرء" الذي لا تشكل محمولات الكائن الإلهي، أي الحب والحكمة والعدالة، شيئاً بالنسبة إليه هو وحده الملحد الحقيقي، من دون ذلك المرء الذي هو الحامل لهذه المحمولات هو وحده لا شيء بالنسبة إليه" - ومن ثم يهتف ظافراً: "ألا ينطبق هذا على شترنر؟"- "هنا حكمة". إن القديس ماكس يجد في الفقرة الواردة أعلاه تنويهاً عن الكيفية التي يجب أن يتصرف المرء بها كي يذهب "أبعد من الجميع". وإنه ليصدق فويرباخ، معتقداً أن ما قاله هذا الأخير لتوه يكشف عن "ماهية" "الملحد الحقيقي"، ويترك لفويرباخ أن يكلفه بهذه "المهمة": أن يصبح "الملحد الحقيقي". إن "الأوحد" هو "الملحد الحقيقي".

وإنه "يعالج" الأمور بصدد القديس برونو أو "النقد" بسذاجة أعظم منه بصدد فويرباخ. ولسوف نرى بصورة تدريجية جميع الأمور التي تسمح "للنقد" بأن يفرضها عليه، وكيف يضع نفسه تحت رقابته البوليسية، وكيف يترك له أن يملي عليه أسلوبه في الحياة، "دعوته". ويكفي حالياً أن نذكر كنموذج عن إيمانه بالنقد أنه يعامل في الصفحة ١٨٦ "النقد" و"الجمهور" على أنهما شخصان يتقاتلان و"يسعيان" إلى التحرر من "الأنانية"، بينما في الصفحة ١٨٧ "يأخذهما" كليهما "كما... يعتبران نفسيهما".

ومع النضال ضد الليبرالية الإنسانية ينتهي النضال الطويل للعهد القديم، حين كان الإنسان مؤدباً للأوحد! لقد اكتمل الزمن، وهذا إنجيل النعمة والغبطة تبشر به الإنسانية الخاطئة.

***

إن الصراع على "الإنسان" هو تحقيق الكلمة، كما هو مكتوب عند سرفانتس في الفصل الحادي والعشرين الذي يعالج "المغامرات النبيلة والثمن الغالي لخوذة مامبرينو". إن صاحبنا سانتشو، الذي يقلّد في كل شيء سيده السابق الذي أصبح خادمه حالياً، "قد أقسم أن يستولي على خوذة مامبرينو" - الإنسان. وبعدما بحث عبثاً، في "جولاته"(*)

(*) الكلمة الأصلية "Auszűge" المستخدمة في النص يمكن أن تعني رحلات، وحملات، كما يمكن أن تعني مقتطفات.

المختلفة، عن الخوذة المرغوبة عند الأقدمين والمحدثين، والليبراليين والشيوعيين، "وقع بصره على رجل يمتطي جواداً يحمل على رأسه شيئاً يتألق مثل الذهب". وخاطب دون كيخوت - شيليغا كما يلي: "إذا لم أكن مخطئاً، فإن هناك امرءاً يقترب منا، يحمل على رأسه تلك الخوذة التي تخص مامبرينو التي أقسمت بشأنها القسم الذي تعرفه". ورد عليه دون كيخوت، الذي اكتسب في هذه الأثناء مزيداً من الحكمة: "احترس جيداً مما تقول، يا صاحب السعادة، واحترس أكثر أيضاً مما تفعل". "قل لي، ألا تستطيع أن ترى ذلك الفارس القادم نحونا على جواد رمادي أرقش وعلى رأسه خوذة ذهبية؟". ويرد دون كيخوت: "كل ما أراه وأتبينه رجلاً على حمار أغبر مثل حمارك وعلى رأسه شيء يلمع". ويقول سانتشو: "حسناً، تلك هي خوذة مامبرينو".

ويقترب منه في هذه الأثناء، يخب خبباً وئيداً، الحلاق المقدس برونو على حماره، النقد وعلى رأسه طست الحلاق. ويندفع القديس سانتشو نحوه موجهاً إليه رمحه، فيقفز القديس برونو عن حماره، ويلقي بالطست من يده (ولقد شاهدناه بالفعل يظهر بدونه هنا، في المجلس) وينطلق عبر الحقول، "ذلك أنه هو النقد ذاته". ويلتقط القديس سانتشو بضربة عظيمة خوذة مامبرينو، وحين يشير دون كيخوت إلى أنها تشبه طست حلاق كل الشبه يردعليه قائلاً: "إن هذه الخوذة الشهيرة، المسحورة، التي أصبحت "شبحية"، قد وقعت من دون ريب بين يدي رجل عاجز عن تقدير قيمتها، وهكذا فقد صهر نصفها وطرق النصف الآخر بطريقة أشبهت معها، كما تقول، طست الحلاق؛ وعلى أية حال، فكيفما ظهرت في نظر العين المبتذلة، فذلك أمر لا أبالي به ما دمت أعرف قيمتها".

"إن المجد الثاني، الملكية الثانية، قد اكتسبت الآن!".

"والآن،قد استولى على خوذته"، "الإنسان"، فإنه يضع نفسه في مواجهته، يتصرف حياله كما يتصرف حيال "ألد أعدائه"، ويعلن بكل صراحة (وسوف نرى فيما بعد السبب في ذلك) أنه هو (القديس سانتشو) ليس "بالإنسان" بل "اللاإنسان، اللاإنساني". وفي قناع هذا "اللاإنساني" يتسلق سييرا مورينا[١٤١] كيما يتهيأ بأعمال التكفيرمن أجل إشراق العهد الجديد. وهناك يجرد نفسه من ثيابه ليصبح "عارياً تماماً" (ص ١٨٤) كيما يتوصل إلى

فرديته الخاصة ويتخطى ما يفعله سلفه في الفصل الخامس والعشرين من سرفانتس: "وأما نزع بنطاله على وجه السرعة، فقد ظل نصف عارٍ، في سرواله. ومن ثم، من دون مزيد من التفكير، قفز في الهواء مرتين مثل عنزة، جاعلاً رأسه في الأسفل وقدميه في الأعلى، مظهراً بذلك أشياء دفعت حامل درعه الأمين أن يدير حماره روسينانت جانباً، بحيث لا يرى تلك الأشياء". إن "اللاإنساني" قد تجاوز نموذجه الدنيوي حتى درجة بعيدة. إنه "يدير بحزم ظهره لنفسه وبذلك يستدير أيضاً عن الناقد المزعج"، "ويتركه جانباً". ومن ثم يدخل "اللاإنساني" في جدال مع النقد الذي "ترك جانباً" ؛ إنه "يحتقر نفسه" و"يتصور نفسه بالمقارنة مع الغير"، و"يأمر الله"، و"يبحث عن ذاته الفضلى خارج ذاته"، ويكفرعن ذنبه لأنه لم يصر الأوحد بعد، وينادي بنفسه الأوحد، "الأناني والأوحد" - على الرغم من أنه لم تكن به حاجة على وجه التقريب إلى تقرير ذلك بعدما أدار هو نفسه بكل حزم ظهره لنفسه. وإن هذه المآثر جميعاً قد حققها "اللاإنساني" بجهوده الخاصة (أنظر بفيستر، تاريخ الألمان [Geschichte der Teutschen])، وهذا هو الآن على حماره، نقياً وظافراً، يدخل راكباً إلى مملكة الأوحد.

نهاية العهد القديم

العهد الجديد: "الأنا"

١ ـ اقتصاد العهد الجديد

بينما كان موضوع تهذيبنا في العهد القديم المنطق "الأوحد" في إطار الماضي، فإننا نواجه الآن الحاضر في إطار المنطق "الأوحد". ولقد ألقينا سابقاً ما يكفي من الضوء على "الأوحد" في "انكساراته" المتعددة السابقة للطوفان -بصفته رجلاً، وقوزاقياً، ومسيحياً كاملاً، وحقيقة الليبرالية الإنسانية، والوحدة السلبية للواقعية والمثالية، الخ، الخ. وإن "الأنا" نفسها تنهار مع انهيار إنشائها التاريخي. إن هذه "الأنا"، وهي الحد الأخير للإنشاء التاريخي، ليست أنا "جسدية"، مولودة من جسد رجل وامرأة، وفي غنى عن أي إنشاء من أجل وجودها؛ إنها "أنا" مولودة روحياً من مقولتين، "المثالية"و"الواقعية"، ولا تملك سوى وجود تصوري صرف.

إن العهد الجديد، الذي يضمحل سلفاً مع العهد القديم باعتباره مقدمة له، يبرهن بصورة حرفية على قدر مساوٍ من الحكمة في اقتصاده، يعني على الاقتصاد نفسه مع "تحولات متنوعة"، كما يتضح من اللائحة التالية:

الفردية الخاصة - الأقدمون، الطفل، الزنجي، الخ، في حقيقتهم، أي الخروج من "عالم الأشياء" في سبيل التوصل إلى حدس "خاص" وإلى تملك "خاص" لهذا العالم. وإنه ليترتب على ذلك: عند الأقدمين الانفصال عن العالم، وعند المحدثين الانفصال عن الروح، وعند الليبراليين الانفصال عن الشخصية، وعند الشيوعيين الانفصال عن الملكية، وعند الليبراليين الإنسانيين الانفصال عن الله، وباختصار، فإن ثمة هدفاً وحيداً: مقولة

الانفصال (الحرية). إن إنكار مقولة الانفصال هي الفردية الخاصة التي من المؤكد أنها لا تملك مضموناً آخر سوى هذا الانفصال. إن الفردية الخاصة هي الصفة الخاصة لجميع صفات فرد شترنر، الحاصلة بواسطة إنشاء فلسفي مجدد.

المالك - وبهذه الصفة تغلغل شترنر ما وراء لا حقيقية عالم الأشياء وعالم الروح؛ ومن هنا المحدثون، طور المسيحية في إطار التطور المنطقي: المراهق، المغولي. وكما أن المحدثون ينقسمون حسب تحديدهم إلى ثلاثة أنواع من الأحرار، كذلك ينقسم المالك إلى ثلاثة تحديدات جديدة:

آ - قوتي، المقابلة لليبرالية السياسية، حيث تبين حقيقة الحق، وحيث الحق، قوة "الإنسان"، ينحل في القوة بصفتها حق "الأنا". الصراع ضد الدولة من حيث هي دولة.

ب- تعاملي، المقابلة للشيوعية، حيث تبين حقيقة المجتمع، وحيث المجتمع بصفته متعاملاً وسيطه "الإنسان" (وفي أشكاله الخاصة بالمجتمع الإصلاحي والعائلة والدولة والمجتمع المدني، الخ)، ينحل في علاقات "الأنا".

ج - متعتي الذاتية، المقابلة لليبرالية الإنسانية، النقد، حيث تبين حقيقة النقد، استهلاك الوعي الذاتي المطلق وانحلاله وحقيقته، من حيث هي استهلاك ذاتي، وحيث يتحول النقد، على اعتباره انحلالاً في مصلحة الإنسان، إلى الانحلال في مصلحة "الأنا".

إن خاصية الأفراد قد انحلت، كما رأينا، في المقولة العامة للفردية الخاصة، التي كانت إنكار التجرد، إنكار الحرية عامة.. وبالتالي فإن وصفاً لصفات الفرد النوعية لا يمكن، مرة أخرى، أن يستقيم إلا في إنكار هذه "الحرية" في "انكساراتها" الثلاثة؛ إن كلاً من هذه الحريات السالبة الثلاث يتحول الآن بفعل إنكارها إلى صفة إيجابية. ومن الواضح أنه كما اعتبر سلفاً التجرد البسيط من عالم الأشياء وعالم الأفكار، في العهد القديم، على أنه تملك لكلا هذين العالمين، كذلك من المفروغ منه هنا أيضاً أن هذه الفردية الخاصة أو تلك الأشياء والأفكار تمثل بدورها على أنها تجرد كامل.

إن "الأنا" مع ما تملكه، عالمها، المستقيم في الصفات "المشار إليها" تواً، هي مالك . ولما كانت تستمتع بذاتها وتلتهم ذاتها، فهي "الأنا" مرفوعة إلى القوة الثانية، مالك المالك

الذي تتجرد منه بقدر ما تنتسب إليه: وبنتيجة ذلك فهي "سلبية مطلقة" في تحديدها المزدوج على أنها لا مبالاة، لا اهتمام، وعلامة سالبة بنفسها: مالك. إن تملكها للعالم وتجردها من العالم يتحولان الآن إلى هذه العلامة السالبة للمالك بذاته، إلى هذا الانحلال الذاتي وهذا التملك الذاتي. إن الأنا المحددة على هذا الغرار، هي...

الأوحد، الذي لا يملك إذن، هو الآخر، محتوى غير محتوى المالك زائداً التحديد الفلسفي "للعلاقة السالبة بذاته". إن جاك العميق يتظاهر بأنه لا يملك ما يقوله عن هذا الأوحد، لأنه فرد جسدي لا يمكن إنشاؤه بصورة تجريدية. بيد أن المسألة هنا مثلها في حالة فكرة هيغل المطلقة في ختام المنطق أو الشخصية المطلقة في ختام الموسوعة، اللتين لم يكن ثمة ما يقال عنهما كذلك، لأن كل ما يمكن أن يقال عن مثل هذه الشخصيات المنشأة متضمن بصورة مسبقة في إنشائهما. ويعرف هيغل هذا الأمر جيداً ولا يضايقه الاعتراف به، في حين أن شترنر يصر بكل مراءاة على أن "أوحده" شيء آخر غير الأوحد المنشأ بصورة تجريدية، شيء لا يمكن التعبير عنه، يعني فرداً من لحم ودم. وإن هذا المظهر المنافق يتلاشى إذا ما قلب الأمر، إذا حدد الأوحد على أنه مالك، وقيل عن المالك أنه يملك المقولة العامة للفردية الخاصة على أنها تحديده العام. ولا يستنفد هذا "كل ما يمكن أن يقال" عن الأوحد فحسب، بل كذلك "ماهيته" في حقيقة الأمر - ناقصاً فكرة جاك المغفل عنه.

"إيه، يا لها من ثروة عميقة من الحكمة ومعرفة الأوحد على حد سواء! ما أصعب غور أفكاره وما أشدَّ غموض طرقه!".

"تلك أدنى طرقه، وهمس خفيف نسمعه من كلامه!" (سفر أيوب (job) ١٤:٢٦).

٢ ـ ظواهرية الأناني المتفق مع ذاته أو نظرية التسويغ

كما رأينا من قبل في "اقتصاد العهد القديم" وفيما بعد، يجب ألا نخلط في أي حال من الأحوال بين الأناني الحقيقي للقديس سانتشو، الأناني المتفق مع ذاته، وبين الأناني اليومي المبتذل، "الأناني بالمعنى العادي". إن هذا الأخير (الذي هو أسير عالم الأشياء؛ الطفل،

الزنجي، القديم، الخ)، والأناني المتفاني (الذي هو أسير عالم الأفكار، المراهق، المغولي، الحديث، الخ) ليسا على تعارض من ذلك إنما مقدمة له. ومهما يكن من أمر، فإنه من طبيعة أسرار الأوحد أن هذا التعارض والوحدة السالبة التي تترتب عليه- "الأناني المتفق مع ذاته" - لا يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار إلا هنا، في العهد الجديد.

وبما أن القديس ماكس ينوي أن يقدم لنا "الأناني الحقيقي" على أنه شيء جديد كل الجدة، على أنه مآل كل التاريخ السابق، فلا بد له، من جهة واحدة، أن يثبت للمتفانين، رسل التفاني، إنهم أنانيون رغماً عنهم، ومن جهة ثانية، للأنانيين بالمعنى العادي أنهم يملكون روح التفاني، إنهم ليسوا أنانيين حقيقيين، أنانيين مقدسين - فنبدأ بالأولين، أولئك الذين يملكون روح التفاني.

ولقد رأينا من قبل مرات لا حصر لها أن كل امرئ في عالم جاك المغفل شغوف بالمقدس. "وعلى أية حال فإن ثمة فرقاً" بين أن يكون "المرء مثقفاً أو أمياً". إن المثقفين المعنيين بالفكر الخاص يظهرون هنا أنهم "الشغوفون" بالمقدس بامتياز(*). وإنهم ليشكلون في الممارسة "أولئك الذين يملكون روح التفاني".

"من هو المتفاني إذن؟ بالتمام" (!) "أليس كذلك"(!!) "من دون ريب"(!!!) "هو ذلك الذي يضحي بكل شيء آخر في سبيل شيء واحد، هدف وحيد، إرادة وحيدة، هوى وحيد... إنه هذا الهوى الذي يتحكم فيه، ويضحي من أجله بجميع الأهواء الأخرى. ولعل هؤلاء المتفانين ليسوا أنانيين؟ بما أنهم لا يملكون سوى هوى وحيد يتحكم فيهم، فهم معنيون بإشباع رغبة وحيدة فقط،، لكنهم يسعون إليها لهذا السبب بمزيد من الحمية. إن جميع أعمالهم وأفعالهم أنانية، لكنها أنانية وحيدة الجانب، مغلقة، ضيقة؛ إنها مس (ص ٩٩).

وبالتالي، وفقاً للقديس سانتشو، فإنهم لا يملكون إلا هوى وحيداً يتحكم فيهم؛ أيجب عليهم أن يعنوا أيضاً بالأهواء التي لا يملكونها هم، بل الآخرون، كيما يرتفعون إلى أنانية جامعة، منفتحة، غير مقيدة، كيما يستجيبون لهذا المقياس الغريب للأنانية "المقدسة"؟

(*) par excellence، بالفرنسية في النص الأصلي.

وبالمناسبة، يرد في هذه الفقرة أيضاً "الشحيح" و"الفاسق" (على الأرجح لأن شترنر يحسب أنه يطلب "اللذة" لذاتها، اللذة المقدسة، لا اللذة الفعلية من مختلف الأنواع)، وكذلك "روبسبيير، على سبيل المثال، وسان جوست، وقس على ذلك" (ص ١٠٠) على أنهم أمثلة عن "الأنانيين الشغوفين الذين يملكون روح التفاني". "من وجهة نظر أخلاقية معينة يجري الجدال" (يعني أن صاحبنا المقدس "الأناني المتفق مع ذاته" يجادل من وجهة نظره الخاصة، في خلاف بالغ مع الأشياء الأخرى التي يقولها) "على وجه التقريب كما يلي":

"ولكن إذا ضحيت أنا بالأهواء الأخرى من أجل هوى واحد، فإنني بعد لا أضحي بذاتي من جراء ذلك لهذا الهوى، ولا أضحي بأي شيء أكون حقاً أنا ذاتي بفضله" (ص ٣٨٦).

إن القديس ماكس مكره بفعل هاتين الموضوعتين "المتخالفتين" على إجراء هذا التمييز "التافه": إن في استطاعة المرء تماماً أن يضحي بستة أهواء "على سبيل المثال"، أو بسبعة، "الخ"، من أجل هوى آخر وحيد من دون أن يكف عن كونه "حقاً هو ذاته"، لكن لا عشرة أهواء أو نيفاً في أي حال من الأحوال. ومن المؤكد أنه لا روبسبيير ولا سان جوست كان "حقاً هو ذاته"، كما أن أياً منهما لم يكن حقاً "الإنسان"، بل كان حقاً روبسبيير وسان جوست، ذينك الفردين الأوحدين، اللذين لا مثيل لهما.

إن الحيلة التي تقوم في البرهان لأولئك "المتفانين" على أنهم مجرد أنانيين، حيلة قديمة استغلها من قبل على نطاق واسع هيلفيتيوس وبنتام. إن أصالة القديس سانتشو تستقيم في تحويل "الأنانيين بالمعنى العادي"، البورجوازيين، إلى غير أنانيين. وعلى أية حال، فإن هيلفيتيوس وبنتام يبرهنان للبورجوازيين على أنهم يسيئون إلى أنفسهم في الممارسة من جراء ضيق تفكيرهم، لكن حيلة القديس ماكس "الخاصة" تستقيم في البرهان على أنهم لا يقابلون "المثل الأعلى"، "المفهوم"، "الماهية"، "الدعوة"، الخ، الخاصة بالأناني، وإن موقفهم حيال ذواتهم ليس موقف الإنكار المطلق. وهنا أيضاً لا يخطر في باله إلا مالكه

الصغيـر الألمانـي. ولنشـر بالمناسـبة إلـى أنـه بينمـا يمثـل "الشـحيح" فـي الصفحـة ٩٩ فـي عـداد أولئـك "الذيـن يملكـون روح التفانـي"، فـإن قديسـنا يحشـر فـي الصفحـة ٧٨ "الجشـع" بيـن "الأنانييـن بالمعنـى العـادي"، بيـن "الدنسـين، غيـر المقدسـين".

إن هذه الطبقة الثانية من الأنانيين السابقين تحدد في الصفحة ٩٩ كما يلي:

"إن هـؤلاء البشـر" (البورجوازييـن) "لا يملكـون إذن، روح التفانـي"، وهـم مجـردون عـن الإلهـام، وعـن المثـل الأعلـى، وعـن المنطـق، وعـن الحماسـة؛ إنهـم أنانيـون بالمعنـى العـادي، أصحـاب مصلحـة، لا يفكـرون إلا بمصالحهـم الخاصـة، مقتصـدون، ماكـرون، الـخ".

وبمـا أن "الكتـاب" لا يتبـع خطـاً صارمـاً، فقـد سـنحت لنـا الفرصـة مـن قبـل، بصـدد "الهاجـس" و"الليبراليـة السياسـية"، كـي نـرى كيـف ينجـز شـترنر خدعـة تحويـل البورجوازييـن إلـى غيـر أنانييـن، وذلـك بصـورة رئيسـية مـن جـراء جهلـه العظيـم بالبشـرالفعليين وبالشـروط الفعليـة. وإن هـذا الجهـل نفسـه يخدمـه هنـا كرافعـة.

"إن الدمـاغ الصلـب لرجـل العالـم يعتـرض علـى هـذا" (أي وهـم شـترنر عـن الغيريـة)، "ولكنـه لـم يكـن لـه بـد خـلال هـذا الصـراع المسـتمر منـذ آلاف السـنين أن يسـلم علـى الأقـل بحيـث يحنـي رقبتـه العنيـدة ويعبـد قـوى أعلـى" (ص ١٠٤). إن الأنانييـن بالمعنـى العـادي "يتصرفـون بنصـف إكليريكيـة ونصـف دنيويـة، فهـم يخدمـون اللـه ومامـون(Mammon) علـى حـد سـواء" (ص ١٠٥).

ونعلـم فـي الصفحـة ٧٨: "إن مامـون السـماء وإلـه الأرض يتطلبـان علـى وجـه الدقـة الدرجـة ذاتهـا مـن إنـكار الـذات، وبذلـك فإنـه مـن المحـال أن نفهـم كيـف يمكـن مجابهـة إنـكار الـذات حيـال مامـون بإنـكار الـذات حيـال اللـه بوصفهمـا أنهمـا "دنيويـان" و"إكليريكيـان".

وفي الصفحة [١٠٥-١٠٦]، يسأل جاك المغفل نفسه:

"كيـف يحـدث إذن، أن أنانيـة أولئـك الذيـن يؤكـدون مصلحتهـم الشـخصية فـي جميـع الأوقـات يستسـلمون مـع ذلـك بصـورة دائمـة لمصلحـة إكليريكيـة أو تربويـة، أي مثاليـة؟".

(هنـا، بالمناسـبة، يجـب علينـا أن "نشـير" إلـى أن البورجوازييـن فـي هـذه الفقـرة يوصفـون بممثلـي المصالـح الشـخصية). والجـواب هـو:

"إن شخصيتهم تتراءى لهم ضئيلة جداً، تافهة حتى درجة بالغة - كما هي في واقع الأمر- كيما تدعي الحق في كل شيء وتكون قادرة على فرض نفسها كلياً. وإن دلالة أكيدة على ذلك هي حقيقة كونهم منقسمين إلى شخصين، شخص أزلي وشخص زمني، فهم في أيام الأحد معنيون بالأزلي وفي الأيام العادية معنيون بالزمني. إنهم يحملون الكاهن في باطنهم، ولذلك فهم لا يستطيعون منه خلاصاً قط".

وتنتاب سانتشو بعض الشكوك هنا؛ إنه يسأل في قلق ما إذا كان "الشيء ذاته يصح" بالنسبة للفردية الخاصة، للأنانية بمعنى الكلمة فوق العادي.

لسوف نرى أن هذا القلق لا يفتقر إلى الأسباب الموجبة، فقبل أن يصيح الديك مرتين، سيكون القديس يعقوب (جاك المغفل) قد "أنكر" نفسه ثلاث مرات.

إنه يكتشف - وهذا ما يثير فيه أعظم الاستياء - أن الجانبين البارزين في التاريخ، مصلحة الأفراد الخاصة وما يسمى المصلحة العامة، يترافقان بصورة دائمة. وكما هي العادة، فإنه يكتشف ذلك في شكل كاذب، في شكله المقدس، في منظور المصالح المثالية، منظور المقدس والوهم. وإنه ليسأل كيف يحدث أن الأنانيين العاديين، ممثلي المصالح الشخصية، يرضون في الوقت ذاته بسيطرة المصالح العامة، سيطرة معلمي المدارس، وبأن يكونوا تحت حكم التراتب؟ وإنه ليرد على ذلك بأن البورجوازيين، الخ، "يتراءون لأنفسهم ضئيلين جداً"، ويعتبر أن من "الدلائل الأكيدة" على ذلك، سلوكهم الديني، انقسامهم إلى شخصين، زمني وأزلي، يعني أنه يفسر سلوكهم الديني بسلوكهم الديني، بعد أن يحوّل بادئ الأمر الصراع بين المصالح الشخصية والعامة إلى صورة عاكسة للصراع، إلى انعكاس بسيط في إطار التخيل الديني.

أما بشأن سيطرة المثل الأعلى، فانظر أعلاه في قسم التراتب.

وإذا ترجم سؤال سانتشو من شكله الصوفي إلى اللغة اليومية، فإنه "يعطينا إذن":

كيف يحدث أن المصالح الشخصية تتحوّل على الدوام، بالرغم من إرادة الأفراد، إلى مصالح طبقية، إلى مصالح مشتركة تكتسب وجوداً مستقلاً حيال الأشخاص الفرادى، وتتخذ في مظهرها المستقل شكل المصالح العامة؟ كيف يحدث أنها تدخل، بصفتها هذه،

فـي تناقـض مـع الأفـراد الفعلييـن، وهـي فـي هـذا التناقـض الـذي تحـدد بـه علـى أنهـا مصالـح عامـة يمكـن أن تتخـذ بالنسـبة إلـى الوعـي شـكل مصالـح مثاليـة، بـل دينيـة ومقدسـة؟ كيـف يحـدث أن سـلوك الفـرد الشـخصي، فـي إطـار هـذه العمليـة حيـث تكتسـب المصالـح الخاصـة وجـوداً مسـتقلاً بتحولهـا إلـى مصالـح طبقيـة، لا بـد أن يجتـاز التحـوّل والضيـاع، وأن يوجـد فـي الوقـت ذاتـه خـارج الفـرد علـى أنـه قـوة مسـتقلة عنـه، يخلقهـا[١٤٢] التعامـل بيـن البشـر؟ كيـف يحـدث أن يتحـوّل هـذا السـلوك إلـى علاقـات اجتماعيـة. إلـى مجموعـة مـن القـوى التـي تحـدد الفـرد وتخضعـه، وتتخـذ فـي مخيلتـه مظهـر قـوى "مقدسـة"؟ لـو أن سانتشـو فهـم بعـض الفهـم الحقيقـة التاليـة، ألا وهـي أنـه فـي إطـار بعـض أنمـاط الإنتـاج المسـتقلة بصـورة طبيعيـة عـن إرادة البشـر، تتقـدم قـوى عمليـة غريبـة، موضوعيـة، لا عـن الأفـراد المنفصليـن فحسـب، بـل مسـتقلة عـن كليتهـم أيضـاً، لتعلـو علـى البشـر- فلقـد كان فـي مقـدوره إذن، أن يكـون لا مباليـاً تمامـاً بشـأن مـا إذا كانـت هـذه الحقيقـة تمثـل فـي شـكل دينـي فـي تصـور البشـر أو تشـوَّه فـي مخيلـة الأنانـي، الـذي تعلـو فـي تصـوره جميـع الأشـياء عليـه، فيسـتقي منهـا الوهـم بـأن ليـس ثمـة شـيء يعلـو عليـه. وعندئـذ كان سانتشـو يهبـط مـن مملكـة التأمـل إلـى مملكـة الواقـع، وينتقـل ممـا يتوهـم البشـر أنـه ماهيتهـم إلـى ماهيتهـم حقـاً وفعـلاً، ممـا يخطـر فـي فكرهـم إلـى مـا يفعلونـه فعليـاً ومـا لا بـد لهـم أن يفعلـوه فـي ظـروف معينـة. ولقـد كان يفهـم إذن، أن مـا يبـدو فـي نظـره نتاجـاً للفكـر إنمـا هـو نتـاج للحيـاة . وعندئـذ فلـن ينتهـي بـه الأمـر إلـى اللامعقوليـة الجديـرة بـه - تفسـير الخـلاف بيـن المصالـح الشـخصية والعامـة بحقيقـة أن البشـر يتصـورون هـذا الانقسـام بطريقـة دينيـة أيضـاً، ويبـدون لأنفسـهم بهـذه الطريقـة أو تلـك، وهـو مـا لا يشـكل إلا أسـلوباً آخـر للقـول "يصنعـون هـذا التصـور أو ذاك".

وعلـى أيـة حـال، فحتـى فـي الشـكل المبتـذل للمالـك الصغيـر الألمانـي الـذي يـدرك فيـه سانتشـو التناقـض بيـن المصالـح الشـخصية والمصلحـة العامـة كان لا بـد أن يتحقـق مـن أن الأفـراد قـد انطلقـوا علـى الـدوام مـن ذواتهـم، ومـا كان فـي وسـعهم أن يفعلـوا غيـر ذلـك، وبالتالـي، أن كلا المظهريـن اللذيـن يقررهمـا وجهـان لتطـور الأفـراد الشـخصي ناجمـان علـى حـد سـواء عـن ذات الشـروط التجريبيـة للحيـاة، وكلاهمـا مجـرد تعبيريـن مختلفيـن عـن ذات تطـور البشـر الشـخصي، وبالتالـي، فـإن التناقـض بينهمـا هـو تناقـض ظاهـري ليـس إلّا. وأمـا بخصـوص المركـز الـذي يـؤول

إلـى الفـرد بفعـل ظـروف تطـوره الخاصـة وبفعـل تقسـيم العمـل، مـا إذا كان يجسـد بالأحـرى هـذا المظهـر أو ذاك مـن التناقـض، ومـا إذا كان يتخـذ ملامـح الأنانـي بالأحـرى مـن ملامـح رجـل التفانـي - فقـد كانـت تلـك مسـألة ثانويـة تمامـاً، مـا كان يمكـن أن تكتسـب أيـة أهميـة علـى الإطـلاق إلا إذا طرحـت بالنسـبة إلـى أفـراد محدديـن فـي إطـار تاريخـي محـدد. وإلا فـإن هـذه المسـألة لا يمكـن أن تـؤدي إلا إلـى عبـارات جوفـاء، إلـى كلام تهذيبـي معسـول. بيـد أن سانتشـو العقائـدي يقـع فـي الخطـل هنـا ولا يجـد مخرجـاً آخـر غيـر المنـاداة بـأن سانتشـو بانـزا ودون كيخـوت قـد خلقـا علـى هـذا الغـرار، وأن أمثـال سانتشـو يرضـون أن تحشـى رؤوسـهم بمختلـف أنـواع الهـراء مـن قبـل أمثـال دون كيخـوت؛ إنـه يتنـاول، بصفتـه عقائديـاً صالحـاً، مظهـراً واحـداً يتصـوره علـى طريقـة معلـم المدرسـة، ويعلـن أنـه يخـص الأفـراد مـن حيـث هـم أفـراد، ويعبِّـر عـن نفـوره مـن المظهـر الآخـر. وعندئـذ فإنـه لا يـرى فـي هـذا المظهـر الآخـر، باعتبـاره عقائديـاً صالحـاً، إلا مجـرد حالـة ذهنيـة، تفـانٍ، أو أيضـاً مجـرد "مبـدأ"، لا علاقـة تنشـأ بالضـرورة عـن كل النمـط الطبيعـي السـابق لحيـاة الأفـراد. وبالتالـي فليـس علـى المـرء إلا أن "يخـرج هـذا المبـدأ مـن رأسـه"، بالرغـم مـن أنـه يخلـق، وفقـاً لإيديولوجيـة سانتشـو، مختلـف أنـواع الأشـياء الماديـة. وهكـذا علـى سـبيل المثـال، فـي الصفحـة ١٨٠، فـإن "مبـدأ الحيـاة أو المبـدأ الاجتماعـي" قـد "خلـق"... "الحيـاة الاجتماعيـة، والعلاقـات الإنسـانية، والتضامـن، وقـس علـى ذلـك". إنـه مـن الأفضـل أن نقـول علـى العكـس مـن ذلـك: إن الحيـاة هـي التـي خلقـت المبـدأ.

إن الشـيوعية عصيـة علـى فهـم قديسـنا بـكل بسـاطة، لأن الشـيوعيين لا يقيمـون الأنانيـة ضـد التفانـي أو التفانـي ضـد الأنانيـة، كمـا أنهـم لا يعبِّـرون عـن هـذا التناقـض نظريـاً سـواء فـي شـكله العاطفـي أو فـي شـكله الإيديولوجـي الطنـان؛ إن الأمـر علـى النقيـض مـن ذلـك، إذ هـم يبينـون أساسـه المـادي، بحيـث يتلاشـى مـن تلقـاء نفسـه. إن الشـيوعيين لا يبشـرون بالأخـلاق فـي أي حـال مـن الأحـوال، وهـي مـا يبشـر بـه شـترنر علـى نطـاق واسـع جـداً. إنهـم لا يطرحـون علـى البشـر المطلـب الأخلاقـي: أحبـوا بعضكـم بعضـاً، لا تكونـوا أنانييـن، الـخ؛ وعلـى النقيـض مـن ذلـك، فهـم يدركـون جيـداً أن الأنانيـة، مثلهـا مثـل التفانـي بالضبـط، هـي فـي ظـروف محـددة شـكل ضـروري للتوكيـد الذاتـي للأفـراد. وهكـذا فـإن الشـيوعيين لا يريـدون فـي أي حـال مـن الأحـوال،

كمـا يعتقـد القديـس ماكـس، وكمـا يـردد صاحبـه المخلـص الدكتورغرازيانـو (أرنولـد روج) بعـده (ولـذا يسـميه القديـس ماكـس "ذهنـاً سياسـياً وماكـراً بصـورة فائقـة"، ويغـان، ص ١٩٢)، أن ينقضـوا "الفـرد الخـاص" فـي مصلحـة الإنسـان المتفانـي، "العـام". ذلـك اختـلاق للمخيلـة كان فـي مقـدور كليهمـا أن يبحثـا مـن قبـل عـن الأضـواء الضروريـة عنـه فـي الحوليـات الفرنسـية الألمانيـة. إن المنظريـن الشـيوعيين، الوحيديـن الذيـن يملكـون وقتـاً يكرسـونه لدراسـة التاريـخ، يتميـزون بالضبـط لأنهـم وحدهـم قـد اكتشـفوا كيـف أن الأفـراد، بوصفهـم "بشـراً خاصيـن"، قـد كانـوا عبـر التاريـخ بأسـره فـي أصـل "المصلحـة العامـة". وإنهـم ليعرفـون أن هـذا التناقـض ليـس سـوى تناقـض مظهـري لأن طرفـاً واحـداً منـه، الطـرف المسـمى "عامـاً"، ينتـج باسـتمرار مـن قبـل الطـرف الآخـر، المصلحـة الخاصـة، ولا يعـارض هـذه المصلحـة الأخيـرة فـي أي حـال مـن الأحـوال علـى أنهـا قـوة مسـتقلة ذات تاريـخ مسـتقل - بحيـث إن هـذا التناقـض يتلاشـى ويتولـد فـي الممارسـة بصـورة متصلـة. وهكـذا فليـس المقصـود "الوحـدة السـالبة" الهيغليـة لطرفـي التناقـض، بـل التلاشـي الناشـئ عـن تناقضـات ماديـة، عـن نمـط الحيـاة السـابق للأفـراد، المشـروط ماديـاً، وهـو تـلاشٍ يـؤدي إلـى زوال هـذا التناقـض وتجـاوزه فـي وقـت واحـد.

وهكـذا نـرى كيـف أن "الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه"، بوصفـه معارضـاً "للأنانـي بالمعنـى العـادي" و"للأنانـي المتفانـي"، يقـوم منـذ البدايـة علـى وهـم يتنـاول هذيـن النمطيـن معـاً مـن الأنانييـن ويتنـاول العلاقـات الواقعيـة للبشـرالواقعيين فـي الوقـت ذاتـه. إن ممثـل المصالـح الشـخصية ليـس "أنانيـاً بالمعنـى المألـوف" إلا بسـبب تعارضـه الضـروري مـع المصلحـة المشـتركة التـي أصبحـت مسـتقلة والتـي اتخـذت فـي إطـار نمـط الإنتـاج والتعامـل السـابق والحالـي شـكل المصلحـة العامـة، ومثلـت فـي المخيلـة وفرضـت نفسـها فـي شـكل مصلحـة مثاليـة. إن ممثـل المصلحـة المشـتركة ليـس "متفانيـاً" إلا مـن جـراء تعارضـه مـع المصلحـة الشـخصية، المحـددة مـن حيـث هـي مصلحـة خاصـة، ومـن جـراء تحديـد المصلحـة المشـتركة علـى أنهـا مصلحـة عامـة ومثاليـة.

إن كلا "الأنانـي المتفانـي" و"الأنانـي بالمعنـى العـادي" يتطابقـان فـي التحليـل الأخيـر فـي إنـكار الـذات.

ص ٧٨: "وهكذا فإن إنكار الذات مشترك بين كلا القديس وغير القديس، والطاهر والنجس: فالنجس ينكر جميع المشاعر الرفيعة، وكل حياء، وحتى الخجل الطبيعي، ولا يتبع إلا الأهواء التي تتحكم فيه. إن الطاهر ينكر علاقته الطبيعية بالعالم... إن الجشع ينكر، بدافع من التعطش إلى المال، جميع حوافز الوجدان، وكل إحساس بالشرف، وكل رقة في القلب وشفقة؛ إنه أعمى عن جميع الاعتبارات، وهواه يسوقه قدماً. ويتصرف القديس بصورة مماثلة؛ إنه يجعل من نفسه أضحوكة في نظر العالم، وهو "قاسي الفؤاد" و"عدالته حازمة" لأن مطامحه تجرفه".

إن "الجشع"، الذي يظهر هنا في سيماء الأناني النجس، غير القديس، وبالتالي الأناني بالمعنى العادي، ليس أكثر من صورة تصادف كثيراً في الروايات وكتب المطالعة الأخلاقية للأطفال، وبالمقابل فهي صورة ليست طبيعية تماماً في الواقع، ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن تجسد البورجوازيين الجشعين. إن هؤلاء الأخيرين، على العكس، لا حاجة بهم إلى إنكار "حوافز الوجدان" و"الإحساس بالشرف" الخ، أو أن يقتصروا على هوى الجشع وحده. إن جشعهم يترافق، على النقيض من ذلك، بسلسلة من الأهواء الأخرى - السياسية وغيرها - التي لا يتخلى البورجوازيون في أي حال من الأحوال عن إرضائها. ومن دون أن نمضي إلى أعمق من ذلك في هذا الموضوع، فلنلتفت في الحال إلى "الإنكار الذاتي" لشترنر.

إن القديس ماكس يستبدل هنا الذات التي تنكر ذاتها بذات أخرى لا وجود لها إلا في مخيلته وحدها. إنه يجعل "النجس" يضحي بصفات عامة مثل "المشاعر الرفيعة" و"الخجل" و"الحياء" و"الإحساس بالشرف"، الخ، ولا يسأل البتة ما إذا كان النجس يملك هذه الصفات فعلياً. لكأنه يفترض في "النجس" أن يمتلك بالضرورة جميع هذه الصفات! لكن حتى إذا كان "النجس" يملكها جميعاً، فإن التضحية بهذه الصفات لن تكون مع ذلك إنكاراً للذات، لكنها تقرهذه الحقيقة فقط - المسوغة حتى في إطار أخلاق "متفقة مع ذاتها" - ألا وهي أن

أهـواء متعـددة يضحـى بهـا علـى مذبـح هـوى واحـد. وأخيـراً، وفقـاً لهـذه النظريـة فـإن كل مـا يفعلـه القديـس سانتشـو أو لا يفعلـه هـو "إنـكار الـذات". وليفعـل ذلـك بهـذه الطريقـة أو تلـك [...][*].

وعلى الرغم[**] من أن القديس ماكس يقول الآن في الصفحة ٤٢٠:

(*) [ثمة فجوة هنا. إن صفحة كبيرة قد شطبت وأفسدتها الفئران حتى درجة كبيرة، تتضمن ما يلي:]... إنه أناني، إنكاره الذاتي الخاص. إذا بحث عن مصلحة، فإنه ينكر اللامبالاة حيال هذه المصلحة، وإذا عمل شيئاً، فإنه ينكر حقيقة أنه لا يفعل شيئاً. لا شيء أسهل [...] على سانتشو من أن يبرهن "للأناني بالمعنى العادي" - حجر العثرة الدائم بالنسبة إليه -إنه لا يكف عن إنكار ذاته، لأنه ينكر دائماً عكس ما يفعله ولا ينكر قط مصلحته الفعلية.

وفي اتفاق مع نظرية الإنكار الذاتي هذه يستطيع سانتشو أن يهتف في الصفحة ٨٠: "لعل النزاهة غير واقعية ولا وجود لها في أي مكان؟ على النقيض من ذلك، فليس ما هو أكثر شيوعاً منها!".

إننا في واقع الأمر سعداء جداً [بشأن "النزاهة"] لوجدان [المالك] الصغير الألماني... وإنه ليعطي في الحال مثالاً جيداً عن هذه النزاهة: [الاستشهاد بشخص يدعى فرانك، مؤسس] دار للأيتام - [أوكونيل، القديس بونيفاس، روبسبيير، تيودور كورنر...].

أوكونيل [...]، كل [طفل] في بريطانيا يعرف هذا. في ألمانيا وحدها، وعلى الأخص في برلين، لا يزال من الممكن تخيل أن أوكونيل "منزَّه". أوكونيل، الذي "يعمل بلا كلل" كي يوظف أولاده غير الشرعيين وكي يكبِّر ثروته، والذي لم يبدل عمله المربح كمحام (١٠,٠٠٠ جنيه سنوياً) بعمل الدعاية الأكثر ربحاً (٢٠,٠٠٠ - ٣٠,٠٠٠ جنيه سنوياً) (بصورة خاصة في إيرلندا، حيث لا منافس له)! أوكونيل الذي يستغل "بقلب صلد" الفلاحين الايرلنديين، عاملاً كوسيط[١٤٣]، جاعلاً إياهم يحيون مع خنازيرهم، بينما هو، الملك دان، يقيم بلاطه الأميري في قصره في ميريون سكوير من دون أن يكف في الوقت ذاته عن الأسى بشأن بؤس هؤلاء الفلاحين، "ذلك أن مطامحه تجرفه"؛ أوكونيل، الذي لا يدفع الحركة قط إلا بقدر ما هو ضروري من أجل ضمان جزيته الوطنية ومركزه كزعيم، متخلياً في كل سنة، بعد أن يجمع جزيته، عن كل تحريض كيما يمضي ويشبع رغباته في ملكيته في درينيان. وبسبب من شعوذته القانونية الممارسة طوال سنوات واستغلاله الصفيق حتى درجة كبيرة لكل حركة أسهم فيها، فقد استحق أوكونيل احتقار البورجوازيين الإنكليز أنفسهم، حتى إذا كانوا يرون فيه أداة ينتفعون بها في مواضع أخرى.

وإنه لمن الواضح فضلاً عن ذلك أن القديس ماكس، مكتشف الأنانية الحقة، معني كل العناية بالبرهان على أن النزاهة قد تحكمت في التاريخ السابق برمته. وبالتالي فإنه يقرر الموضوعة الكبيرة التالية (ويغان، ص ١٦٥)، ألا وهي أن العالم "لم يكن أنانياً لقرون خلت". وعلى الأكثر فإنه يقبل بأن "الأناني" قد ظهر من حين لآخر على أنه نذير شترنر كي "يقود الأمم إلى خرابها".

(**) [سجل ماركس الملاحظة التالية في هذه الصفحة:] III -الوعي(conscience) .

لم تكتب على بوابة [حقبتنا] الكلمات التالية... "اعرف نفسك"، [لكن] "انتفع بقدراتك" .

(إن صاحبنـا معلـم المدرسـة يحـول هنـا مـرة أخـرى حقيقـة معطـاة: كل امـرئ ينتفـع بقدراتـه، إلـى إلـزام أخلاقـي بذلـك). ومـع ذلـك، فـإن "الحكمـة الأبولينيـة" [الشـهيرة] تخاطـب "الأنانـي بالمعنـى العـادي" وليـس "الأنانـي المتفانـي" كمـا كانـت الحـال حتـى الوقـت الراهـن.

"اعـرف نفسـك إذن. أدرك ماهيتـك فعليـاً وتخـل عـن محاولتـك الغبيـة لأن تكـون شـيئاً مختلفـاً عمـا أنـت عليـه!".

[ذلك]:

"أن هـذا يـؤدي إلـى ظاهـرة الأنانيـة المخدوعـة، التـي لا أرضـي فيهـا نفسـي، بـل إحـدى رغباتـي فقـط، مثـلاً التعطـش إلـى الغبطـة. إن جميـع أفعالكـم أنانيـة مكتومـة، مقنعـة... أنانيـة غيـر واعيـة؛ ولهـذا السـبب بالـذات لا أنانيـة، بـل عبوديـة، خضـوع، إنـكار للـذات. أنتـم أنانيـون وفـي الوقـت ذاتـه غيـر أنانييـن، ذلـك أنكـم أنكرتـم الأنانيـة" (ص ٢١٧).

"ليـس ثمـة خـروف، أو كلـب، يحـاول أن يصيـر أنانيـاً حقـاً" (ص ٤٤٣)؛ "ليـس ثمـة حيوان يسـتنجد بالآخريـن: "لكـن اعرفـوا أنفسـكم إذن، أدركـوا ماهيتكـم فعليـاً". "إن طبيعتكـم أن تكونـوا" أنانييـن، "أنتـم طبائـع" أنانيـة، "أي" أنانيـون. "لكـن بالضبـط لأنكـم أنانيـون مسـبقاً، فـلا حاجـة بكـم بـادئ الأمـرلأن تصبحـوا كذلـك" (المصـدر ذاتـه). وإن وعيكـم يشـكل جـزءاً مـن ماهيتكـم، ومـا دمتـم أنانييـن فإنكـم تملكـون أيضـاً الوعـي الـذي يسـاير أنانيتكـم، وبالتالـي فليـس ثمـة أسـاس مطلقـاً لإعارتكـم أدنـى اهتمـام إلـى مـا يبشـر بـه شـترنر مـن وعـظ أخلاقـي بـأن تنظـروا إلـى قلوبكـم وأن تتوبـوا.

إن شـترنر يسـتغل هنـا، مـرة أخـرى، الحيلـة الفلسـفية القديمـة التـي سـوف نعـود إليهـا فـي وقـت لاحـق. إن الفيلسـوف لا يقـول بصـورة مباشـرة: أنتـم لسـتم بشـراً. لقـد كنتـم بشـراً علـى الـدوام، لكـن كنتـم تفتقـرون إلـى وعـي ماهيتكـم، ولهـذا السـبب بالضبـط لـم تكونـوا قـط، حتـى فـي الواقـع، بشـراً حقيقييـن. ولهـذا السـبب فـإن مظهركـم لـم يكـن يقابـل ماهيتكـم. لقـد كنتـم بشـراً ولـم تكونـوا بشـراً .

إن الفيلسـوف يعتـرف هنـا بطريقـة ملتويـة بـأن "بشـراً محدديـن وظروفـاً محـددة أيضـاً يطابقون وعيـاً محـددا". بيـد أنـه يتوهـم فـي الوقـت ذاتـه أن إنـذاره الأخلاقـي إلـى البشـر بوجـوب تعديـل وعيهـم سـوف يولـد هـذا الوعـي المعـدل (conscience modifiée)، وهـو لا يـرى فـي البشـر الذيـن تغيـروا مـن جـراء تغيـر الشـروط التجريبيـة والذيـن سـيتغير الآن وعيهـم بالطبـع شـيئاً آخـر سـوى [وعـي] متغيـر. -كذلـك الأمـر بالنسـبة لـ [الوعـي الـذي] تتوقـون [إليـه سـراً]؛ [ففيـه] أنتـم أنانيـون [مكتومـون، غيـر واعيـن] -يعنـي أنكـم أنانيـون فعـلاً، بقـدر مـا أنتـم غيـر واعيـن، لكنكـم غيـر أنانييـن، بقـدر مـا أنتـم واعـون. أو: فـي جـذر [وعيكـم] الراهـن [يكمـن] وجـود محـدد، وهـو ليـس [الوجـود] الـذي أطلبه: إن وعيكـم هـو وعـي الأنانـي كمـا يجـب ألا [يكـون]، وبالتالـي فإنـه برهـان علـى أنكـم أنانيـون كمـا يجـب ألا تكونـوا - وبـكلام آخـر علـى أنكـم يجـب أن تكونـوا غيـر مـا أنتـم واقعيـاً. إن هـذا الانفصـال التـام هـو بيـن الوعـي وبيـن الأفـراد فـي علاقاتهـم الواقعيـة، الذيـن يشـكلون أسـاس ذلـك الوعـي، ومـن جهـة ثانيـة، فهـذه الفكـرة الوهميـة بـأن أنانـي المجتمـع البورجـوازي الراهـن لا يملـك الوعـي المقابـل لأنانيتـه، هـي مجـرد بدعـة فلسـفية قديمـة يقبلهـا جـاك المغفـل وينسـخها بـكل بلاهـة هنـا(*). فلنعالـج "المثـال المؤثـر" لشـترنر عـن الجشـع. إنـه يريـد أن يقنـع هـذا الجشـع الـذي ليـس هـو "الجشـع" عامـة، بـل "زيـداً أو عمـراً أو خالـداً"، جشـعاً فرديـاً تمامـاً، محـدداً و"أوحـد"، ليـس جشـعه مقولـة "الجشـع" (إنـه تعبيـر تجريـدي ينقـل إليـه القديـس ماكـس سـلوكاً حيـاً، متعـدد الأشـكال، معقـداً و "أوحـد") و "لا يتوقـف هـذا علـى العنـوان الـذي يصنفـه تحته النـاس الآخـرون" (القديـس ماكـس على سـبيل المثـال) أن -القديـس ماكـس يريـد أن يلقـن هـذا الجشـع بأنـه "لا يرضـي نفسـه بـل إحـدى رغباتـه". لكـن "أنـت في [اللحظـة] التـي تكـون فيهـا أنـت لا توجـد فعليـاً إلا علـى أنـك كائـن" [لتلـك اللحظـة] فقـط. إن مـا [هـو متميـز عنـك] "الكائـن الموجـود آنيـاً"، سـلطة أعلـى بصـورة مطلقـة [مثـلاً المـال. أمـا مـا إذا] كان المـال

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] تصبح هذه البدعة على أعظم قدر من السخف في التاريخ حيث إن وعي الحقبة اللاحقة عن العصر السابق يختلف بصورة طبيعية عن الوعي الذي تملكه هذه الحقبة الأخيرة عن ذاتها؛ ومثال على ذلك: إن الإغريق شاهدوا أنفسهم من خلال أعين الإغريق وليس كما نراهم نحن حالياً؛ أما أن نلومهم لأنهم لم يروا أنفسهم من خلال أعيننا - أي "لأنهم لم يعوا أنفسهم كما هم فعلياً" - فهذا يضاهي ملامتهم لأنهم كانوا إغريقاً.

"بالنسبة إليك" [متعة أعلى أم] لا، ما إذا كان بالنسبة إليك [سلطة "أعلى بصورة مطلقة"] [...][*] لعلني ["أنكر" ذاتي؟ - أنه] يجد أن [الجشع] يتملكني ليل نهار، [لكنه] لا يفعل ذلك إلا في تفكيره فقط. إنه هو الذي يجعل "الليل والنهار" من جميع اللحظات التي أكون فيها دائماً الكائن الموجود آنياً، أكون أنا ذاتي دائماً، بالضبط كما أنه هو وحده يلخص في حكم أخلاقي واحد اللحظات المختلفة لسلوكي الحي، مؤكداً أنها إرضاء الجشع. وحين يعلن القديس ماكس إنني أرضي واحدة من رغباتي فقط ولا أرضي ذاتي، فإنه يضعني من حيث إنني كائن كامل وكلي في تعارض مع ذاتي بالذات. "وفيما يستقيم هذا الكائن الكامل والكلي؟ من المؤكد أنه ليس في وجودك الآني، ليس في ماهيتك في لحظة معينة" وبالتالي -فإنه يستقيم، وفقاً للقديس ماكس نفسه، في "الكائن" المقدس. (ويغان، ص ١٧١). وحين يقول "-" إن عليَّ أن أغيِّر وعيي، فإنني أعرف إذن، أعرف من جهتي أن وعيي الآني ينتسب أيضاً إلى وجودي الآني، وحين ينازع في امتلاكي هذا الوعي، فإن القديس ماكس، الأخلاقي المقنع، يتهجم على وجودي بأسره[**]. وعندئذ "ألست موجوداً إذن، إلا حين تفكر في ذاتك، ألست موجوداً إذن، إلا بفضل وعيك أنك أنت؟" (ويغان، ص ١٥٧، ١٥٨). كيف لي أن أكون أي شيء إلا أنانياً؟ كيف لشترنر على سبيل المثال أن يكون أي شيء إلا أنانياً سواء أنكر الأنانية أم لم ينكرها؟ "أنتم أنانيون وأنتم غير أنانيين، بقدر ما تنكرون الأنانية"، هذا ما تبشر به.

أيها المعلم البريء، "المخدوع"، "المتكتم"! إن الأمور هي على عكس ذلك تماماً. نحن الأنانيين بالمعنى المألوف، أو البورجوازيين، نعرف جيداً أن الأقربين أولى بالمعروف[***]، وقد وجدنا منذ زمن طويل تفسيراً لشعارنا: أحب قريبك كنفسك، بمعنى أن كل امرئ قريب نفسه. بيد أننا ننكر أن نكون أنانيين قساة، مستغلين، أنانيين عاديين، لا يمكن أن ترتفع قلوبهم إلى المشاعر النبيلة التي تجعل من مصالح أشباههم البشر مصالحهم الخاصة - الأمر الذي

(*) الفقرة التالية تالفة.

(**) [يكرر ماركس هنا الملاحظة]: III (الوعي).

(***) Charité bien ordonnée commence par soi – même، بالفرنسية في النص الأصلي.

لا يعنـي - ولنقـل ذلـك فيمـا بيننـا - سـوى أننـا نؤكـد بـأن مصالحنـا هـي مصالـح أشـباهنا البشـر. أنـت تنكـر [الأنانيـة] العاديـة للأنانـي الأوحـد [لمجـرد] أنـك ["تنكـر"] علاقاتـك "[الطبيعيـة] مـع [العالـم]". ولـذا فإنـك لا تفهـم لمـاذا نبلـغ بالأنانيـة العمليـة حـد الكمـال بإنكارنـا علـى وجـه الدقـة صيغـة الأنانيـة - نحـن المعنييـن بتحقيـق المصالـح الأنانيـة الفعليـة وحدهـا مـن دون المصلحـة المقدسـة للأنانيـة. وعلـى أي حـال فقـد كان مـن المقـدر - وهنـا يديـر البورجـوازي ظهـره بـكل بـرودة للقديـس ماكـس - إنكـم إذا تصديتـم مـرة للدفـاع عـن الأنانيـة، أنتـم معلمـو المـدارس الألمـان، فسـوف تنـادون ليـس بالأنانيـة الفعليـة، "الدنيويـة والتـي فـي مـا تنـاول اليـد" ("الكتـاب"، ص ٤٥٥)، يعنـي "ليـس مـا يسـمى" الأنانيـة إذن، بـل الأنانيـة بالمعنـى فـوق المألـوف، بالمعنـى الـذي يقصـده معلـم المدرسـة، الأنانيـة الفلسـفية أو أنانيـة الصعاليـك.

وهكـذا فـإن الأنانـي بالمعنـى فـوق المألـوف "يُكتشـف أخيـراً". "فلنـدرس إذن، هـذا الاكتشـاف الجديـد بمزيـد مـن الدقـة" (ص ١١).

ممـا سـبق قولـه للتـو واللحظـة يتبيـن مسـبقاً أنـه ليـس علـى الأنانييـن الموجوديـن سـوى أن يغيـروا وعيهـم كيمـا يصبحـوا أنانييـن بالمعنـى فـوق المألـوف، وبالتالـي، فـإن الأنانـي المتفـق مع نفسـه لا يتميـز مـن الأنانييـن السـابقين إلا بالوعـي وحـده، أي بالمعرفـة علـى اعتبـاره فيلسـوفاً. وإنـه ليترتـب كذلـك علـى النظـرة التاريخيـة الإجماليـة للقديـس ماكـس، أنـه لمـا كان الأنانيـون قـد خضعـوا حتـى الآن لسـلطان "المقـدس" وحـده، فليـس علـى الأنانـي الحقيقـي إلا أن يقاتـل "المقـدس" إذن. ولقـد أظهـر لنـا التاريـخ "الأوحـد" كيـف حـوّل القديـس ماكـس العلاقـات التاريخيـة إلـى أفـكار، وحـوّل مـن بعـد الأنانـي إلـى آثـم ضـد هـذه الأفـكار؛ وكيـف أن كل نمـط أنانـي لتأكيـد الـذات قـد حـوّل إلـى خطيئة [ضـد هذه] الأفـكار، و[سـلطة] أصحـاب الامتيـاز إلـى خطيئـة [ضـد فكـرة] المسـاواة، إلـى خطيئـة الاسـتبداد. [وفيمـا يتعلـق] بفكـرة حريـة [التنافـس] إذن، فقـد أمكنـه أن [يقـول فـي "الكتـاب"] إن [الملكية الخاصـة تعتبر] فـي نظـره (ص ١٥٥) علـى أنهـا "[...] الشـخصية"، [...] الكبيـرة، [...] الأنانيـة [المتفانيـة]، [...] الجوهريـة وغيـر المغلوبـة، التـي لا يمكـن مكافحتهـا إلا بتحويلهـا إلـى "مقدسـات"، ومـن بعـد يؤكـد أنـه يحـلّ هذا

الطابع المقدس فيها، يعني فكرته المقدسة عنها، يعني إن ما يبطلها بقدر ما هي موجودة فيه، هو الكائن المقدس(*).

ص ٥٠:(**) "كما أنت في كل لحظة تكون خليقتك، وفي هذه الخليقة بالضبط، أنت الخالق لن تضيع نفسك. وبالمقارنة مع نفسك أنت نفسك كائن أعلى، أي أنك لست خليقة فحسب، بل الخالق بصورة لا تقل عن ذلك، وهذا هو ما تغض النظر عنه باعتبارك أنانياً غير إرادي، ولهذا السبب يظل الكائن الأعلى غريباً عنك".

وتقرر هذه الحكمة نفسها، في شكل مختلف حتى درجة ما، في الصفحة ٢٣٩ من "الكتاب":

"ليس النوع شيئاً" (سوف يصبح فيما بعد أنواعاً كثيرة من الأشياء، أنظر "المتعة الذاتية"). "وعندما يرتفع فوق حدود فرديته، فإنه يصير بالضبط بصورة أفضل هو نفسه من حيث هو فرد؛ إنه لا يوجد إلا بقدر ما يرتفع، لا يوجد إلا بقدر ما لا يبقى على ما هو عليه، وإلا انتهى، مات".

ويأخذ شترنر في الحال، فيما يتعلق بهذه الصيغ التي هي "مخلوقاته"، يتصرف على أنه "خالق"، "لا يضيع نفسه فيها في أي حال من الأحوال":

وإنما أنت أنت للحظة واحدة، وأنت لا توجد فعلياً إلا على أنك كائن آني...في كل برهة أنا كلياً ما هو أنا... إن ما يتميز عنك، الكائن الآني، هو "شيء أسمى بصورة مطلقة"...(ويغان، ص ١٧٠)؛ وفي الصفحة ١٧١،المصدر ذاته، "إن وجودك" محدد على أنه "وجودك الآني".

وفيما يقول القديس ماكس في "الكتاب" إنه يملك، إلى جانب الوجود الآني، وجوداً آخر وأسمى، فإن "الوجود الآني" لفرده يوجد في التعليق التبريري" مع "وجوده [الكامل] والكلي"، ويحول كل [وجود] على أنه "وجود آني" [إلى] "وجود أسمى بصورة مطلقة". ويترتب على ذلك أنه في "الكتاب"، في كل لحظة، وجود أسمى مما هو في اللحظة الراهنة،

(*) [كتب ماركس في قمة هذه الصفحة:] II (الخالق والخليقة).

(**) إن هذه الفقرة قد تعرضت لقدر كبير من التلف.

فـي حيـن نجـد فـي "التعليـق" أن مـا ليـس هـو بصـورة مباشـرة فـي هـذه اللحظـة هـو "وجـود أسـمى بصـورة مطلقـة"، وجـود مقـدس. -وعـن هـؤلاء نحـن نقـرأ، بصـورة منافيـة لـكل هـذه الفـروق، فـي الصفحـة ٢٠٠ مـن "الكتـاب":

"لا أعلم شيئاً عن انقسام إلى أنا "ناقصة" وأنا "كاملة".

ليـس مـا يدعـو بعـد الآن "الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه" لأن يضحـي بذاتـه لوجـود أسـمى لأنـه هـو ذاتـه هـذا الوجـود الأسـمى، وقـد نقـل إلـى ذاتـه هـذا التعـارض بيـن "أعلـى" و"أدنـى". وهكـذا، فـي واقـع الأمـر (القديـس سانتشـو ضـد فويربـاخ، "الكتـاب"، ص ٢٤٣)، فـإن الكائـن الأسـمى لـم يجتـز سـوى تحـوّل واحـد". إن الأنانيـة الحقيقيـة للقديـس ماكـس تسـتقيم فـي موقـف أنانـي مـن الأنانيـة الفعليـة، مـن نفسـه كمـا هـو عليـه "فـي كل لحظـة". وإن هـذا الموقـف الأنانـي مـن الأنانيـة هـو التفانـي. ومـن وجهـة النظـر هـذه فـإن القديـس ماكـس بوصفـه خليقـة أنانـي بالمعنـى العـادي؛ وبوصفـه خالقـاً أنانيـاً متفانيـاً. ولسـوف نتعـرف كذلـك إلـى المظهـر المضـاد، ذلـك أن كلا هذيـن المظهريـن مشـروعان علـى أنهمـا تحديـدان حقيقيـان منعكسـان باعتبـار أنهمـا يتجـاوزان الجـدل المطلـق حيـث كل منهمـا هـو نقيـض ذاتـه.

وقبـل أن نتغلغـل إلـى أعمـق مـن ذلـك فـي هـذا اللغـز فـي شـكله السـري، فسـوف ندرسـه فـي بعـض مراحـل صراعـه الحياتـي [الشـاق].

[مـن وجهـة نظرعالـم] الـروح، فـإن المقصـود جعـل [الأنانـي] فـي [اتفـاق] مـع ذاتـه، علـى اعتبـاره خالقـاً؛ وإن هـذه الصفـة العامـة جـداً [يحققهـا شـترنر فـي الصفحتيـن ٨٢ و٨٣]:

["اسـتهدفت المسـيحية] أن [تحررنـا مـن التحديـدات الطبيعيـة (التحديـدات بفعـل الطبيعـة)، ومـن حوافـز رغباتنـا، وبنتيجـة ذلـك فقـد كان غرضهـا ألا] ينسـاق [الإنسـان مـع رغباتـه. ولا يعنـي هـذا أنـه يجـب] ألا [تكـون لـه أيـة رغبـات]، بـل يجـب ألا تتحكـم فيـه [الرغبـات] وإنهـا يجـب ألا تصبـح ثابتـة، لا يمكـن السـيطرة عليهـا، غيـر قابلـة للاختـزال. ألا يمكننـا إذن، أن نحـوّل مـا دبرتـه المسـيحية ضـد الرغبـات ضـد مبدئهـا الخـاص الـذي ينـص علـى أن الـروح يجـب أن يحددنـا...؟ ... عندئـذ يسـاوي هـذا انحـلال الـروح، انحـلال جميـع الفكـر. وعندئـذ نحصـل، بـدلاً مـن الصيغـة القديمـة المفروضـة، على مـا يلـي: لا بـد لنـا بالتأكيـد أن نمتلـك الـروح، لكـن يجـب ألا يمتلكنـا الـروح".

"والذين للمسيح صلبوا أجسادهم مع الآلام والشهوات" (رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية ٥: ٢٤) ـ إنه ليتبين أنهم، في رأي شترنر، يتعاملون مع آلامهم وشهواتهم المصلوبة مثل مالكين حقيقيين. إنه يقبل المسيحية بالأقساط، لكنه لن يتوقف عند الجسد المصلوب وحده، بل يريد أن يصلب الروح أيضاً، وباختصار "الإنسان بأكمله".

إن السبب الوحيد الذي حدا بالمسيحية إلى الرغبة في تحريرنا من سيطرة الجسد و"حوافز الرغبات" هو أنها تعتبر جسدنا ورغباتنا أموراً غريبة عنا؛ هي إنما أرادت أن تحررنا من التحديد بالطبيعة لأنها كانت تعتبر أن طبيعتنا الخاصة ليست جزءاً من أنفسنا. ذلك أنني إذا لم أكن أنا نفسي الطبيعة، إذا كانت رغباتي الطبيعية، ووجودي الطبيعي بكامله، لا تشكل جزءاً مني - وتلك هي عقيدة المسيحية - فإن كل تحديد بالطبيعة إذن - سواء أكان مصدره وجودي الطبيعي أو ما يسمى بالطبيعة الخارجية - يتراءى في نظري تحديداً غريباً، قيداً، إلزاماً مطبقاً عليَّ، إكراهاً بالتعارض مع استقلال الروح. ويقبل شترنر هذه الجدلية المسيحية مغمض العينين، ومن ثم يطبقها على فكرنا بالذات. وعلى أي حال، فإن المسيحية لم تنجح قط في حقيقة الأمر في تحريرنا من سيطرة الرغبات، حتى بالمعنى الوسطي المعتدل الذي ينسبه إليها القديس ماكس بصورة اعتباطية. إنها لا تذهب إلى أبعد من وصايا أخلاقية تظل عديمة الفعالية في الحياة العملية. ويأخذ شترنر الوصايا الأخلاقية على أنها سلوك واقعي ويزودها الأمر الحازم الأخير: "لا بد لنا بالتأكيد أن نمتلك الروح، لكن يجب ألا يمتلكنا الروح"، - وبنتيجة ذلك فإن كل أنانيته المتفقة مع ذاتها ترجع "لدى التمحيص الأدق"، كما كان هيغل يقول، إلى فلسفة أخلاقية سارة بقدرما هي بناءة وتأملية.

أما ما إذا كانت رغبة ما تصبح ثابتة، أي ما إذا كانت [تتسلط علينا] على وجه الحصر، الأمر الذي [لا] ينفي على أي حال [تقدماً لاحقاً]، فهذا ما يتوقف على ما إذا كانت الظروف المادية، شروط العالم "الشريرة"، تتيح إرضاء هذه الرغبة بصورة طبيعية، وتطوير مجموعة من الرغبات من جهة أخرى. وإن هذه المجموعة الأخيرة لتتوقف بدورها على ما إذا كنا نحيا في ظروف تتيح لنا الفعالية الشاملة أم لا، وبالتالي النمو التام لجميع إمكاناتنا الكامنة. ويتوقف على هذه الشروط الفعلية أيضاً، وإمكانية التطور التي تمنحها لكل فرد، ما إذا كانت

أفكاره تصبح ثابتة أم لا - بالضبط مثلاً، كما أن الأفكار الثابتة للفلاسفة الألمان، "ضحايا المجتمع" هؤلاء الذين يثيرون شفقتنا(*)، لا تنفصل عن الشروط القائمة في ألمانيا. وعلى أي حال، فإن سيطرة الرغبات هي عند شترنر مجرد عبارة تمنحه علامة القديس المطلق. وهكذا نقرأ، ونحن لا نزال ملازمين "المثال المؤثر" عن الجشع:

"وليس الجشع مالكاً، بل خادماً، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً لمصلحته الخاصة من دون أن يفعله في الوقت ذاته لمصلحة سيده" (ص ٤٠٠).

ليس في إمكان أي امرئ أن يفعل شيئاً من دون أن يفعله في الوقت ذاته لمصلحة هذه أو تلك من حاجاته أو لمصلحة عضو هذه الحاجة - وبالنسبة إلى شترنر فإن هذه الحاجة وعضوها يتسلطان عليه في الحال، بالضبط كما تسلطت عليه من قبل الوسيلة التي تؤدي إلى إرضاء حاجة ما (راجع الفصلين عن الليبرالية السياسية والشيوعية). لا يستطيع شترنر أن يأكل من دون أن يأكل في الوقت ذاته لمصلحة معدته. وإذا كانت أوضاع العالم تمنعه من إرضاء معدته، فإن معدته تتسلط عليه إذن، وتصبح الرغبة في الطعام ثابتة، وفكرة الأكل فكرة ثابتة - الأمر الذي يعطيه في الوقت نفسه مثالاً جيداً على تأثير الظروف العالمية في تثبيت رغباته وأفكاره. إن "ثورة" سانتشو ضد تثبيت الرغبات والأفكار ترجع هكذا إلى وصية أخلاقية عاجزة عن ضبط النفس وتوفر إثباتاً جديداً على أنه لا يفعل سوى إعطاء تعبير رنان إيديولوجياً لأكثر عواطف المالك الصغير ابتذالاً(**).

(*) qui nous font pitié، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة]: بما أن الشيوعيين يهاجمون الأساس المادي الذي يرتكز عليه الثبات الحتمي حتى الآن للرغبات والأفكار، فإنهم الناس الوحيدون الذين ردت حقاً فعاليتهم التاريخية هذه الأفكار والرغبات الثابتة إلى ميوعتها الطبيعية. إن هذه الحركية التي تتصف بها الرغبات تكف بفضلهم عن كونها وصية أخلاقية عاجزة، كما كان الأمر حتى الوقت الحاضر عند الأخلاقيين "حتى" شترنر. إن للتنظيم الشيوعي تأثيراً مزدوجاً في الرغبات الناشئة في الفرد بفعل الشروط القائمة: إن بعضاً من هذه الرغبات -ألا وهي تلك الرغبات المتوافرة في جميع الشروط، والتي تغير شكلها واتجاهها فقط في ظل شروط اجتماعية مختلفة - لا تتبدل في هذا النظام الاجتماعي الشيوعي إلا لأنها تمنح الفرصة من أجل التطور بصورة طبيعية؛ ومهما يكن من أمر، فإن رغبات أخرى - ألا وهي تلك الرغبات الناجمة عن بنية اجتماعية محددة، في ظل شروط محددة=

وهكـذا فإنـه يقاتـل فـي هـذا المثـال الأول ضـد رغباتـه الجسـدية مـن جهـة وضـد أفـكاره الروحيـة مـن جهـة ثانيـة -ضـد جسـده مـن جهـة، وضـد روحـه مـن جهـة ثانيـة - عندمـا يريـدان، وهمـا خليقتـاه، أن يصبحـا مسـتقلين عنـه، هـو خالقهمـا. أمـا كيـف يديـر قديسـنا هـذا الصـراع، كيـف يتصـرف علـى أنـه خالـق خليقتـه، فهـذا مـا سـوف نـراه الآن:

عند المسيحي "بالمعنى الحقيقي"، عند المسيحي "البسيط"(*) كي نستخدم تعبير فورييه،

"يكـون الـروح كلـي القـوة ولا يلقـي بـالاً إلـى أي اعتـراض مـن قبـل "الجسـد". ومهمـا يكـن مـن أمـر، فإننـي لا أسـتطيع أن أحطـم طغيـان الـروح إلا بواسـطة "الجسـد"، لأن الإنسـان لا يفهـم ذاتـه كليـاً إلا حيـن يفهـم جسـده أيضـاً، ولا يصبـح قـادراً علـى الفهـم أو عقلانيـاً إلا حيـن يفهـم

= [للإنتاج] وعلاقات التعامل - تحرم بصورة جذرية من شروطها البورجوازية. أما أي [من الرغبات] سوف تتبدل فحسب و[أي منها سوف تمتص] في [مجتمع] شيوعي، فهذا ما لا يمكن [الحكم عليه إلا] بالوسائل [العملية]، بفعل [تغير الرغبات الواقعية]، العملية، [وليس بالمقارنة مع بنى تاريخية سابقة].

أن التعبيرين: ["ثابتة" و "رغبات"]، اللذين [استخدمناهما لتونا كي نتمكن] من دحض [هذه الحقيقة "الوحداء"] لشترنر [هما بكل تأكيد] غير مناسبين على الإطلاق. إن حقيقة أن رغبة واحدة من رغبات الفرد في المجتمع الحديث يمكن إرضاؤها على حساب جميع الرغبات الأخرى، وأن هذا "لا ينبغي أن يكون"، وأن تلك هي الحال أكثر أو أقل مع جميع الأفراد في العالم اليوم، الأمر الذي يجعل من التطور الحر للفرد الكلي أمراً مستحيلاً - هذه الحقيقة يعبرعنها شترنر، الذي يجهل كل شيء عن العلاقة التجريبية القائمة بين الأوضاع ونظام العالم كما هو قائم، كما يلي: "تصبح الرغبات ثابتة" عند الأناني غير المتفق مع ذاته. إن الرغبة تصبح مسبقة، بفعل وجودها وحده، شيئاً "ثابتاً"، ولا يمكن أن يخطر إلا في بال القديس ماكس وأشباهه فقط ألا يسمح لغريزته الجنسية على سبيل المثال أن تصبح "ثابتة"؛ إنها ثابتة سلفاً، ولن تكف عن كونها ثابتة بنتيجة الخصي أو العنانة. إن كل حاجة تقوم في أساس "رغبة" ما،هي كذلك شيء "ثابت"، ومهما حاول القديس ماكس فإنه لن يستطيع أن يبطل هذا "الثبات" وأن ينتهي مثلاً إلى التحرر من ضرورة تناول الطعام ضمن فترات زمنية "ثابتة" وليس لدى الشيوعيين أية نية في نقض ثبات رغباتهم وحاجاتهم، وهي نية يعزوها شترنر، الغارق في عالمه الوهمي، إليهم وإلى جميع البشر الآخرين؛ إنهم يسعون فقط إلى تحقيق تنظيم للإنتاج والتعامل يضمن لهم الإرضاء الطبيعي لجميع الحاجات، يعني إرضاء لا يحده إلا الحاجات نفسها.

(*) "chrétien" simple، بالفرنسية في النص الأصلي.

ذاتـه كليـاً... لكنـه حالمـا يتكلـم الجسـد وبلهجـة متقـدة - كمـا لا يمكـن أن يكـون الأمـر خـلاف ذلـك... فإنـه "(المسـيحي البسـيط) "يعتقـد أنـه يسـمع أصـوات الشـيطان، أصواتـاً ضـد الـروح... فيثـور عليهـا وإلـى جانبـه الحـق كلـه. إنـه لـن يكـون مسـيحياً إذا أصغـى إليهـا مـن دون معارضـة" (ص ٨٣).

وهكـذا فحيـن يريـد أن يتحـرر روحـه فـي مواجهتـه، يسـتنجد القديـس ماكـس بجسـده، وحيـن يتمـرد جسـده يتذكـر أنـه روح كذلـك. إن مـا يصنعـه المسـيحي فـي اتجـاه واحـد يصنعـه القديـس ماكـس فـي كلا الاتجاهيـن. إنـه المسـيحي "المركـب"[*]، وهـو يكشـف عـن نفسـه مـرة أخـرى بوصفـه المسـيحي الكامـل.

هنـا، فـي هـذا المثـال، لا يظهـر القديـس ماكـس، الـروح، علـى أنـه الـروح خالـق جسـده ولا العكـس بالعكـس؛ إنـه لا يفعـل سـوى التحقـق مـن أن لـه جسـداً وروحـاً حاضريـن معـاً، وحيـن يثـور الطـرف الواحـد يتذكـر إذن، أن الطـرف الآخـر تحـت تصرفـه أيضـاً، وينـادي هـذا الطـرف الآخـر، أنـاه الحقيقيـة، للعمـل ضـده. وبالتالـي ليـس القديـس ماكـس خالقـاً هنـا إلا بقـدر مـا هـو كائـن "محـدد بصـورة مغايـرة أيضـاً"، بقـدر مـا يملـك بعـد صفـة أخـرى إلـى جانـب تلـك الصفـة التـي يحلـو لـه، فـي تلـك اللحظـة بالـذات، أن يصنفهـا فـي مقولـة "الخليقـة". إن فعاليتـه الخلاقـة بأكملهـا تتلخـص هنـا فـي النيـة الحميـدة بـأن يـدرك نفسـه، وفـي الحقيقـة أن يـدرك نفسـه كليـاً أيضـاً أو أن يكـون عاقـلاً[**]، أن يـدرك نفسـه علـى أنـه "كائـن كامـل وكلـي"، علـى أنـه كائـن مختلـف عـن "كائنـه الآنـي"، بَلْـه فـي تناقـض جـذري مـع ذلـك النـوع مـن الكائـن الـذي هـو "آنيـاً".

[فلنلتفت الآن إلى فصل من] "النضال الحياتي" [الشاق"لقديسنا]":

[إن حميتـي] لا تتطلـب [أن تكـون أقـل] مـن الأكثـر هوسـاً، [لكـن فـي ذات] الوقـت [أظـل]

(*) chrétien "composé"، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) وبالتالي فإن القديس ماكس يبرر هنا بصورة تامة "المثال المؤثر" لفويرباخ عن العاهرة العشيقة. ففي الحالة الأولى لا "يدرك" الرجل إلا جسده الخاص أو جسدها هي، وفي الحالة الثانية يدرك ذاته، أو يدركها كلياً. (أنظر: ويغان، ص ١٧٠ - ١٧١).

حيالها [بارداً مثل الجليد، ريبيا"]، و[العدو الألد] لها، أظل [قاضيها، لأنني] مالكها" (ص ٨٠ - ٨١).

[إذا كانت لدى المرء رغبة في أن] يضفي [معنى] على ما يقوله القديس [سانتشوٍ] عن ذاته، فهو أن فعاليته الخلاقة تقتصر على احتفاظه في أوار حميته بوعي هذه الحمية، على التفكير فيها، على اتخاذ موقف الأنا حيال ذاته على اعتباره الأنا الواقعية. إنه يمنح الوعي بصورة اعتباطية اسم "الخالق". فهو ليس "خالقاً" إلا بقدر ما يكون واعياً .

"وبذلك فإنك تنسى نفسك في سلوان لطيف... لكن أيجب كي تكون أن تفكر في ذاتك، وهل تتلاشى ذاتك حين تنساها؟ من ذا لا ينسى ذاته في كل لحظة، من ذا لا يسلو عن ذاته ألف مرة في كل ساعة؟" (ويغان، ص ١٥٧، ١٥٨).

ومن المؤكد أن القديس سانتشو لا يمكن أن يسامح "سلوانه" عن هذا الأمر، وبالتالي "يظل في الوقت ذاته عدوه الألد".

إن القديس ماكس، الخليقة (créature)، يلتهب بحمية هائلة في الوقت ذاته الذي يكون فيه القديس ماكس، الخالق (créateur)، قد تجاوز حميته بفضل تفكيره؛ أو أن القديس ماكس الحقيقي يضطرم حمية، بينما القديس ماكس المفكر يتوهم أنه تجاوز هذه الحمية. إن هذا التجاوز بالتفكير لما هو كائن فعلياً يوصف حالياً بصورة مسلية وجسورة بعبارات روائية مفادها أنه يسمح لحميته بالبقاء، أي أنه لا يستخلص أية نتائج جدية من عدائه لها، بل يقتصر على أن يتخذ حيالها موقفاً "بارداً مثل الجليد"، "ريبياً"، موقف "عدوها الألد".

وبقدر ما يضطرم القديس ماكس حمية، أي بقدر ما تشكل الحمية صفته الحقيقية، فإن موقفه منها ليس موقف الخالق؛ وبقدر ما يكون موقفه موقف الخالق، فإنه لا يضطرم حمية في واقع الأمر، بل تكون حميته غريبة عنه، فهي ليست صفة من صفاته. فبقدر ما يضطرم حمية لا يكون مالكاً لهذه الحمية، وحالما يصبح هذا المالك يكف عن الاضطرام حمية. وبما أنه مركب معقد، فهو في كل لحظة يملك قدرة الخالق والمالك، ويكون حصيلة جميع صفاته، باستثناء الصفة الواحدة التي يجعلها في تعارض مع ذاته التي هي حصيلة جميع الصفات الأخرى، بحيث يجعل منها خليقته وملكيته - بحيث أن تلك الصفة الغريبة عنه هي بالضبط الصفة التي يؤكد عليها على اعتبارها خاصته.

ومهمـا تـرددت أصـداء قصـة القديـس ماكـس الحقيقيـة عـن مآثـره البطوليـة ضمـن ذاتـه، فـي وعيـه الخـاص، بالغـة التطـرف والتهـور، فإنهـا حقيقـة شـهيرة علـى أي حـال أنـه يوجـد أفـراد مفكـرون يتوهمـون أنهـم قـد تجـاوزوا بالفكـر ومـن خلالـه جميـع الأشـياء[*]، لأنهـم فـي واقـع الأمـر لا يخرجـون قـط مـن تفكيرهـم.

إن هـذه الحيلـة - المسـتقيمة فـي منـاداة المـرء بنفسـه مناهضـاً لصفـة معينـة مـا علـى أنـه كائن "محـــدد بصـورة مغايـرة أيضـاً"، ألا وهـو فـي المثـال الراهـن علـى أنـه مالـك وعـي الصفـة المناقضـة - هـذه الحيلـة يمكـن أن تطبـق بالتحـولات المـرادة علـى أيـة صفـة تختارهـا. ومثـال ذلـك أننـي قـد لا أظهـر مبـالاة مـن دون لا مبـالاة أكثـر الأشـخاص ضجـراً [**] لكننـي أظـل فـي الوقـت ذاتـه حيالهـا أنضـح حميـة، ريبيـاً، وعدوهـا الألـد.

[ويجـب] ألا ينسـى أن المركـب [الكلـي] لجميـع [صفاتـه، المالـك]- مثلمـا [القديـس] سانتشـو [يعـارض بالتفكيـر] صفـة [واحـدة منهـا] - ليـس فـي هـذه [الحالـة شـيئاً آخـر سـوى تفكيـر سانتشـو] الخالـص والبسـيط [فـي هـذه] الصفـة الواحـدة، [التـي] حولهـا [إلـى أنـاه حيـن] أبـرز، بـدلاً مـن [المركـب] الكلـي، [الصفـة] المفكـرة وحدهـا، معارضـاً كلا مـن صفاتـه [وكذلـك] حصيلـة هـذه الصفـات [بهـذه] الصفـة الواحـدة للتفكيـر، التـي أصبحـت الأنـا، ومعارضـاً نفسـه علـى اعتبـاره الأنـا التجريديـة.

إن هــذا الموقــف العدائــي حيــال ذاتــه، هــذا الانتحــال المهيــب لأسـلوب بنتـام فــي إدراج حســابات[١٤٤] مصالحــه الخاصــة وصفاتــه الخاصــة، يعرضــه شــترنر الآن شــخصياً كمــا يلــي:

ص ١٨٨: "مهمـا تكـن الغايـة التـي تتوجـه نحوهـا مصلحـة مـا، فإنهـا تجعلنـي عبـداً لهـا إذا

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] هذا كله في حقيقة الأمر مجرد وصف طنان لسلوك البورجوازي الذي يتحكم في كل من عواطفه بحيث لا تسيء إليه، ومن جهة ثانية، يتفاخر بصفات متعددة، مثلاً الحمية المتفائلة التي يجب أن يظل حيالها "بارداً مثل الجليد، ريبياً، وعدواً لدوداً"، كيما لا يفقد نفسه فيها على أنه مالك حميته المتفائلة، بل كي يبقى مالك التفاؤل. وبينما لا يضحي البورجوازي بميوله ورغباته قط إلا على مذبح مصلحة واقعية معينة، فإن القديس ماكس يضحي على أية حال بالصفة التي يتخذ حيالها "العدو الألد" في مصلحة أناه المفكرة، في مصلحة تفكيره.

(**) blasé، بالفرنسية في النص الأصلي.

لـم أكـن قـادراً علـى التخلـص منهـا؛ ليسـت هـي بعـد الآن ملكيتـي، بـل أنـا ملكيتهـا. فلنقبـل إذن، إيعـاز النقـد بـأن مـن واجبنـا نحـن ألا نشـعر بالسـعادة إلا فـي التمـرد فقـط".

"نحـن"! - مـن هـم "نحـن"؟ أمـا "نحـن" فإنـه لا يخطـر لنا علـى الإطـلاق أن "نقبـل" "إيعـاز النقد". وهكـذا فـإن القديـس ماكـس، الـذي هـو فـي الوقـت الحاضـر تحـت المراقبـة البوليسـية "للنقـد"، يطلـب هنـا "الرخـاء ذاتـه للجميـع"، "الرخـاء المتسـاوي لـكل [واحـد]"، "الهيمنـة المباشـرة للدين".

إن اهتمامه، بالمعنى فوق العادي، يتخذ هنا مظهر لا مبالاة سماوية.

وعلـى أي حـال، فـلا حاجـة بنـا هنـا إلـى معالجـة مطولـة للحقيقـة التاليـة، ألا وهـي أنـه لا يتوقف علـى الإطـلاق، فـي المجتمـع القائـم، علـى القديـس سانتشـو مـا إذا كانـت "مصلحـة" مـا "تجعـل منـه عبـداً لهـا" ومـا إذا "لـم يكـن قـادراً علـى التخلـص منهـا". إن تثبيـت المصالـح لأشـد وضوحـاً حتـى درجـة بعيـدة مـن "تثبيـت الرغبـات" و"الأفـكار".

وكيمـا يزايـد علـى النقـد النقـدي، كان يجـب علـى قديسـنا علـى الأقـل أن يمضـي بعيـداً حتـى تجـرد التجـرد، وإلا بقـي التجـرد مصلحـة لا يسـتطيع التخلـص منهـا، وهـي قـد جعلـت منـه عبـداً لهـا. ليـس التجـرد بعـد الآن ملكيتـه، بـل هـو ملكيـة التجـرد. ولـو أنـه أراد أن يكـون حازمـاً فـي المثـال المعطـى أعـلاه، [فقـد كان يجـب] عليـه [أن يـرى فـي حميتـه ضـد] حميتـه الخاصـة ["مصلحـة"، ويتخـذ منهـا موقـف "العـدو] الألـد". [لكنـه كان يجـب عليـه أيضـاً أن يعتبـر [لا مبالاتـه "البـاردة كالجليـد" فـي ارتبـاط مـع] [حميتـه "البـاردة كالجليـد"] ويصبـح هـو ذاتـه ["بـارداً كالجليـد" بصـورة لا تقـل عـن ذلـك] - وبذلـك [كان يوفـر بـكل وضـوح] علـى ذاتـه وعلـى ["مصلحتـه"] الأصليـة "الاتهـام" بأنـه يـدور [فـي دائـرة] علـى [عقبـى] التأمـل. - وبـدلاً مـن ذلـك فإنـه يسـتطرد بـكل طمأنينـة [المصـدر ذاتـه]:

"لـذا لـن أعنـى إلا بالحفـاظ علـى ملكيتـي الخاصـة لذاتـي" (أي الحفـاظ علـى ذاتـي مـن ملكيتـي) "وكيمـا أحافـظ عليهـا اسـترجعها فـي كل لحظـة. إننـي أدمـر فيهـا كل ميـل نحـو الاسـتقلال وابتلعهـا قبـل أن تتثبـت وتصبـح فكـرة ثابتـة أو هـوى ثابتـاً".

كيف "يبتلع" شترنر الأشخاص الذين هم ملكيته؟

لقد حصل شترنر في التو واللحظة على "مهمة" من جانب "النقد". وإنه ليؤكد أنه سوف يبتلع في الحال هذه "المهمة" إذ يقول في الصفحة ١٨٩:

"ومهما يكن من أمر، فإنني لا أفعل ذلك استجابة لمهمتي الإنسانية، بل لأنني أعطي ذاتي هذه المهمة شخصياً".

وإذا لم أعطِ ذاتي هذه المهمة فأنا، كما سمعنا لتونا، عبد، ولست مالكاً، ولا أنانياً حقيقياً. إنني لا أتصرف حيال ذاتي بصفتي خالقاً، كما كان يجب أن أفعل بوصفي أنانياً حقيقياً؛ وبالتالي فإذا كنت تريد أن تصبح أنانياً حقيقياً، فإن من واجبك أن تعفي ذاتك من تلك المهمة التي كلفك بها "النقد" في التو واللحظة. وهكذا فهي مهمة عامة، مهمة للجميع، وليست هي مهمته هو وحده، بل كذلك مهمته.

ومن جهة أخرى، فإن الأناني الحقيقي يتراءى هنا على أنه مثل أعلى لا تستطيع غالبية الأفراد بلوغه، لأن (ص ٤٣٤) "الأذهان البليدة فطرياً تؤلف بصورة لا يتطرق الشك إليها الطبقة الأكثر عدداً من الجنس البشري" - وكيف يمكن لهذه "الأذهان البليدة" أن تكون قادرة على النفاذ إلى سر الابتلاع غير المحدود للذات والعالم.

وبالمناسبة فإن جميع هذه التعابير الرهيبة - التدمير، الابتلاع، الخ - ليست سوى صيغة جديدة "للعدو الألد، البارد كالجليد"، الذي صادفناه أعلاه.

وها نحن، أخيراً، في موقف نحصل منه على بعض الأضواء عن اعتراضات شترنر ضد الشيوعية. لم تكن هذه الاعتراضات شيئاً سوى تسويغ مؤقت ومستتر لأنانيته المتفقة مع ذاتها، حيث تبعث إلى الحياة في الجسد. إن "الرخاء المتساوي لكل واحد" يبعث في المطلب بأن "علينا ألا نشعر بالسعادة إلا في [التجرد]". إن "[القلق]" ينبعث [في شكل "القلق" الأوحد] بشأن الحفاظ [على ملكية أناه]، [لكن "مع مرور الزمن]" ينهض من جديد ["القلق"] بخصوص "كيف يستطيع المرء أن يتوصل] إلى [وحدة -]، يعني وحدة [الخالق والخليقة]". وأخيراً فإن الإنسانية تعاود [الظهور، وهي في شكل الأناني الحقيقي] تجابه الأفراد التجريبيين على أنها مثل أعلى لا يمكن بلوغه. وهكذا فإن الصفحة ١١٧ من "الكتاب" يجب أن تقرأ كما يلي: إن الأنانية المتفقة مع ذاتها تريد فعلياً أن تحوّل كل إنسان

إلـى "شـرطي حكومـي سـري". إن "التفكيـر" بـأن الجاسـوس والعميـل السـري يراقـب كل حركـة للـروح والجسـد، وكل عمـل وكل فكـرة، وكل تظاهـرة للحيـاة هـي بالنسـبة إليـه موضـوع للتفكيـر، أي قضيـة بوليسـية. وفـي هـذه التجزئـة للإنسـان إلـى "غريـزة طبيعيـة" و"تفكيـر" (العامـة الباطنـة - الخليقـة، والشـرطي الداخلـي - الخالـق) تسـتقيم ماهيـة الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه(*).

إن هيس (الفلاسفة الأخيرون، ص ٢٦) يأخذ على قديسنا ما يلي:

"إنـه بصـورة دائمـة تحـت المراقبـة البوليسـية السـرية لوجدانـه النقـدي... إنـه لـم ينـس "إيعـاز النقـد... بـألا يشـعر بالسـعادة إلا فـي التجـرد فقـط". إن الأنانـي - وهـذا مـا يذكّـره وجدانـه النقـدي بـه علـى الـدوام - يجـب ألا يصبـح قـط معنيـاً بـأي أمـر كان بحيـث يكـرس ذاتـه بشـكل كلـي لموضوعـه المفضـل"، وقـس علـى ذلـك.

وإن القديس ماكس "يفوض نفسه" ليرد كما يلي:

حيـن "يقـول هيـس عـن شـترنر إنـه بصـورة دائمـة، الـخ - مـاذا يعنـي هـذا سـوى أنـه حيـن ينقـد لا يريـد أن ينقـد كيفمـا اتفـق" (أي بهـذه المناسـبة: بالأسـلوب "الأوحـد") "ولا أن ينطـق هـذراً، بـل ينقـد بصـورة فعليـة؟" (يعني إنسـانية).

"إن مـا يعنيـه" هيـس حيـن يتحـدث عـن الشـرطة السـرية، الـخ، واضـح كل الوضـوح مـن الفقـرة المقتطفـة مـن هيـس أعـلاه بحيـث إن "المعنـى" الأوحـد الـذي يضفيـه القديـس ماكـس عليهـا لا يمكـن أن يفسـر إلا علـى اعتبـاره سـوء فهـم مقصـوداً. إن "براعتـه الفكريـة" تتحـول هنـا إلـى براعـة فـي الكـذب لسـنا نلومـه عليهـا مـا دامـت السـبيل الوحيـد أمامـه للخـلاص - لكنهـا لا تتفـق إلا بـكل صعوبـة مـع تلـك الفـروق الصغيـرة الدقيقـة عـن حـق الكـذب التـي ينشـئها فـي موضـع آخـر مـن "الكتـاب". وعلـى أي حـال، فقـد برهنـا سـابقاً - بصـورة أشـد تطويـلاً ممـا يسـتحق - إن سانتشـو "حيـن ينقـد" لا "ينقـد بصـورة فعليـة" فـي أي حـال مـن الأحـوال، بـل "ينقـد كيفمـا اتفـق" و"ينطـق هـذراً".

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] وعلى أي حال، إذا حمل القديس ماكس "ضابطاً بروسياً ذا رتبة عالية" على أن يقول: "إن كل بروسي يحمل دركيه (gendarme) في صدره"، فإنه يجب أن نفهم من ذلك: دركي الملك، لأن "الأناني المتفق مع ذاته" هو وحده الذي يحمل دركيه الخاص في صدره.

وهكـذا، فـإن موقـف الأنانـي الحقيقـي بوصفـه خالقـاً حيـال ذاتـه كخليقـة قـد حـدد بـادئ ذي بـدء بالطريقـة التاليـة: فـي تعـارض مـع تحديـد يثبـت فيـه ذاتـه علـى أنـه خليقـة - مثـال ذلـك فـي تعـارض مـع ذاتـه علـى أنـه كائـن مفكـر، علـى أنـه روح، يؤكـد ذاتـه علـى أنـه كائـن "محـدد بصـورة مغايـرة أيضـاً"، يؤكـد ذاتـه علـى أنـه جسـد. وفـي وقـت لاحـق لا يؤكـد ذاتـه البتـة علـى أنـه "محـدد بصـورة مغايـرة أيضـاً" فعليـاً، بـل علـى أنـه مجـرد تصـور كونـه محـدداً بصـورة مغايـرة أيضـاً بعامـة - وبالتالـي فـي المثـال المذكـور أعـلاه يؤكـد ذاتـه علـى أنـه كائـن غيـر مفكـر أيضـاً، عديـم التفكيـر أو لا مبـالٍ حيـال الفكـر، وهـي فكـرة سـخيفة يتخلـى عنهـا مـن جديـد حالمـا يتضـح عبثهـا. أنظـر أعـلاه بشـأن الـدوران علـى عقبـي التأمـل. وهكـذا فقـد كانـت فعاليتـه الخلاقـة تسـتقيم فـي التفكيـر بـأن صفة معينـة، التفكيـر هنـا، يمكـن كذلـك أن يكـون موضـع اللامبـالاة بالنسـبة إليـه، أي أنـه يسـتقيم فـي فعـل التفكيـر عامـة، الأمـر الـذي يترتـب عليـه بـكل تأكيـد أنـه لا يخلـق بعـد الآن سـوى تحديـدات تفكيريـة، إذا هـو خلـق أي شـيء كان (مثـلاً فكـرة التناقـض، التـي تقنـع بنيتهـا البسـيطة بمختلـف أنـواع الزخـارف الناريـة).

أمـا بشـأن محتـوى ذاتـه بوصفـه خليقـة، فقـد شـاهدنا أنـه لا يخلـق فـي أي مـكان علـى الإطـلاق هـذا المحتـوى، هـذه الصفـات المحـددة، مثـلاً فكـره، حميتـه، الـخ، بـل فقـط التحديـد الانعكاسـي لهـذا المحتـوى بوصفـه خليقـة، الفكـرة بـأن هـذه الصفـات المعينـة هـي مخلوقاتـه. إن جميـع صفاتـه موجـودة فيـه، وهـو لا يأبـه بالمصـدر الـذي تصـدر عنـه. وبالتالـي فليسـت بـه حاجـة إلـى تطويرهـا - مثـال ذلـك: أن يتعلـم الرقـص كيمـا يحصـل علـى التحكـم فـي قدميـه، أو أن يمـارس فكـره علـى مـواد غيـر معطـاة لـكل البشـر، وغيـر متوافـرة لـدى جميـع البشـر، وذلـك حتـى يصبـح مالـك فكـره - كمـا أنـه ليسـت بـه حاجـة لأن يقلـق بخصـوص الشـروط الماديـة التـي تتوقـف عليهـا، فـي الواقـع، الفـرص المتوافـرة للفـرد مـن أجـل التطـور.

فـي الحقيقـة أن شـترنر لا يعـرف أن يتخلـص مـن صفـة واحـدة إلا بفضـل صفـة أخـرى (أي مـن السـيطرة التـي تمارسـها علـى صفاتـه الأخـرى هـذه الصفـة "الأخـرى"). ولكـن هـذا ليـس ممكنـاً فـي الممارسـة، كمـا [شـاهدنا مـن قبـل] إلا بقـدر مـا تبقـى هـذه الصفـة الأخـرى مجـرد اسـتعداد، بـل تكـون قـد تطـورت بمـلء الحريـة، وعلـى الأخـص بقـدر مـا أتاحـت الشـروط الماديـة لـه، هـو شـترنر،

إن يطور بمقدار متساوٍ كلية (من الصفات [يعني بالتالي] بفضل تقسيم [العمل، وبذلك] [يتوافر له الانسياق مع] [هوى وحيد مثلاً]، هو هوى [تأليف] الكتب.[وعلى العموم]، فإنه [من السخف أن] نفترض، كما [يفعل ماكس] القديس، أن المرء يستطيع أن يرضي [هوى] منفصلاً عن جميع الأهواء الأخرى، إن المرء يستطيع أن يرضيه من دون أن يرضي في الوقت ذاته ذاته، الفرد الحي بأكمله. وإذا اتخذ هذا الهوى طابعاً مجرداً، منفصلاً، إذاً هو جابهني في صورة قوة غريبة، وإذا بدأ بالتالي إرضاء الفرد على أنه الإرضاء المقصور على هوى وحيد- فليس الذنب في ذلك في أي حال من الأحوال ذنب الوعي أو "الإرادة الطيبة"، وأقل من أي شيء آخر نقص التفكير في مفهوم الصفة، كما يتوهم ذلك القديس ماكس.

لا يتوقف ذلك على الوعي، بل على الوجود؛ ليس على الفكر بل على الحياة؛ إنه يتوقف على تطور الفرد وسلوكه التجريبيين، اللذين يتوقفان بدورهما على الشروط الكلية السائدة في العالم. فإذا كانت الظروف التي يحيا المرء فيها لا تتيح له إلا التطور [الوحيد] الجانب لصفة وحيدة على حساب جميع الصفات الباقية، إذا لم تزوده إلا بالمواد والوقت ليطور تلك الصفة فقط، فإن هذا الفرد لا يحقق إذن، سوى تطور مشوه، وحيد الجانب، ولا ينفع هنا أي وعظ أخلاقي. وإن الطريقة التي تتطور بها هذه الصفة المميزة تتوقف بدورها على المواد المتوافرة من أجل تشكلها من جهة، وعلى درجة وطريقة كبح جميع الصفات الأخرى من جهة ثانية. وبالضبط لأن الفكر، على سبيل المثال، هو فكر فرد خاص محدد، فإنه يظل فكره المحدد، المحدد بفعل فرديته والشروط التي يحيا فيها؛ ومن هنا فإن الفرد المفكر لا يحتاج لأن يلجأ إلى التفكير الطويل بشأن الفكر في ذاته كيما يعلن أن فكره هو بالفعل فكره الخاص، ملكيته؛ إنه خاصته منذ البداية، فكر محدد بصورة خصوصية؛ ولكن الفردية الخاصة [في حالة القديس] سانتشو قد [تبينت أنها] "نقيض" ذلك، فردية "في ذاتها". وفي حالة فرد ما، على سبيل المثال، تضم حياته حلقة عريضة من الفعاليات المتنوعة والعلاقات العملية بالعالم، وبالتالي فهو يحيا حياة متعددة الجوانب، يملك الفكر طابع العمومية نفسه مثله كمثل أيّ تجلي ظاهرات أخرى لحياته. وبنتيجة ذلك، فإنه لا يصبح ثابتاً في شكل الفكر المجرد، ولا يحتاج ذلك الفرد إلى حيل التفكير المعقدة حين ينتقل من

الفكـر إلـى تجلـي ظاهـرة أخـرى للحيـاة. إن الفكـر منـذ البدايـة عامـل فـي حيـاة الفـرد الكليـة بصـورة دائمـاً، عامـل يـزول ويتجـدد حسـب المطلـوب.

وعلـى أيـة حـال، ففـي حالـة معلـم مدرسـة أو مؤلـف لـم يخـرج مـن حـدود برليـن، ويقتصـر نشـاطه علـى العمـل الشـاق مـن جهـة، وعلـى ملـذات الفكـر مـن جهـة ثانيـة، ويمتـد عالمه مـن موابيت (Moabit) إلـى كوبينيـك(Köpenick) وينتهـي عنـد بوابـة هامبـورغ[١٤٥]، فـكأن المتاريـس تنهـض فـي وجهـه، وترجـع علاقاتـه بالعالـم إلـى حـد أدنـى بفعـل أحوالـه الماديـة البائسـة، مـن المحتـم فـي حالـة مثـل هـذا الفـرد، إذا مـا شـعر بالحاجـة إلـى التفكيـر، أن يصبـح فكـره مجـرداً بقـدر تجريـد هـذا الفـرد ووجـوده بالـذات، وأن يتخـذ فـي مواجهتـه، هـو العاجـز كليـاً عـن المقاومـة، شـكل قـوة ثابتـة توفـر فعاليتهـا للفـرد إمكانيـة الخـلاص للحظـة مـن الزمـن مـن "عالمـه الـرديء"، والاسـتمتاع بلـذة مؤقتـة. وفـي حالـة مثـل هـذا الفـرد فـإن الرغبـات القليلـة الباقيـة، التـي لا تنشـأ عـن التعامـل مـع البشـر بقـدر نشـوئها عـن البنيـة الجسـدية، لا تتجلـى كظاهـرة إلا مـن خـلال الترجيـع، أي أنهـا تتخـذ فـي تطورهـا الضيـق ذات الطابـع الوحيـد الجانـب والقاسـي الـذي يتخذه فكـره، ولا تظهـر إلا في فواصـل طويلة فقط، يحرضهـا الفيـض البالـغ للرغبـة السـائدة (التـي تقويهـا أسـباب طبيعيـة مباشـرة، مثـلاً تشـنج [المعـدة]) وتتجلـى كظاهـرة عندئـذ بصـورة عاصفـة وعنيفـة، كاسـحة بأقصـى العنـف الرغبـة [الطبيعيـة] العاديـة، [التـي تـؤدي إلـى مزيـد مـن] سـيطرتها علـى [الفكـر]. ومـن المفـروغ منـه أن معلـم المدرسـة [يعكـس فكـره ويطـور الأوهـام عـن هـذه الحقيقـة] التجريبيـة بأسـلوب معلمـي المـدارس. [لكـن مجـرد تقريـر] أن شـترنر علـى العمـوم "يخلـق" [هـذه الصفـات] لا يكفـي كـي [يفسـر] تطورهـا النوعـي. أمـا مـدى تطـور هـذه الصفـات علـى النطـاق العـام أو المحلـي، ومـدى تسـاميها علـى الحـدود المحليـة أو بقائهـا فـي قبضتهـا، فهـذا مـا لا يتوقـف علـى شـترنر، بـل علـى تطـور التعامـل العالمـي وعلـى الـدور الـذي يلعبـه فيـه هـو والمحلـة حيـث يعيـش. أمـا أن بعـض الأفـراد قـادرون فـي ظـروف ملائمـة علـى التخلـص مـن ضيـق تفكيرهـم المحلـي فليـس السـبب فيـه فـي أي حـال مـن الأحـوال أن هـؤلاء الأفـراد يتوهمـون فـي تفكيرهـم أنهـم تخلصـوا أو ينـوون أن يتخلصـوا مـن ضيـق التفكيـر المحلـي هـذا؛ إن السـبب

فـي ذلـك أنهـم توصلـوا، فـي واقعهـم التجريبـي، ومـن جـراء حاجـات تجريبيـة، لأن ينشـئوا نظامـاً للتعامـل علـى نطـاق عالمـي(*).

إن الأمـر الوحيـد الـذي يحققـه قديسـنا بمساعدة تفكيـره الشـاق بشـأن صفاتـه وأهوائـه هـو أنـه ينتهـي، بفعـل قلقـه وحرجـه المسـتمرين بخصوصهـا، إلـى تسـميم الاسـتمتاع بهـا وإشـباعها.

إن القديـس ماكـس، كمـا سـبق أن قلنـا، لا يخلـق نفسـه إلا بوصفـه خليقـة، أي يقتصـر علـى الانضـواء فـي مقولـة الخليقـة هـذه. إن نشـاطه [بوصفـه] خالقـاً يسـتقيم فـي اعتبـار نفسـه كخليقـة، وهـو لا يمضـي حتـى إلغـاء هـذا الانقسـام الـذي طـرأ عليـه إلـى [خالـق و] خليقـة، وهـو انقسـام مـن [إنتاجـه] الخـاص علـى أي حـال. إن التقسـيم [إلـى "جوهـري" و] "غيـر جوهـري" يصبـح [بالنسـبة إليـه] عمليـة حياتيـة دائمـة، [وبالتالـي مظهـراً صرفـاً]، أي أن حياتـه الخاصـة لا توجـد إلا فـي التفكيـر ["الخالـص"]، بـل [ليسـت] هـي وجـوداً فعليـاً، [لأنـه مـا دام هـذا الوجـود الأخيـر فـي كل] لحظـة خارجـاً [منـه ومـن تفكيـره]، فإنـه يجهـد [عبثـاً أن] يقـدم هـذا [التفكيـر علـى أنـه] جوهـري.

"لكـن [بمـا أن] هـذا العـدو "(يعنـي الأنانـي الحقيقـي بوصفـه خليقـة) "ينجـب نفسـه فـي الهزيمـة، وبمـا أن الوعـي، إذ يصبـح مثبتـاً فيـه، لا يتحـرر منـه، بـل يعتمـد عليـه دائمـاً بـدلاً مـن ذلـك ويـرى نفسـه ملـوث السـمعة فيـه دائمـاً، وبمـا أن هـذا المحتـوى الـذي هـو موضـع اجتهـاده هـو فـي الوقـت ذاتـه أحقـر الأشـياء جميعـاً، فإننـا لا نواجـه إلا شـخصية مقصـورة علـى نفسـها وعلـى فعاليتهـا الحقيـرة" (انعـدام فعاليتهـا)، "تتأمـل فـي نفسـها، تعيسـة بقـدر مـا هـي بائسـة" (هيغـل).

إن مـا قلنـاه حتـى الآن عـن انقسـام سانتشـو إلـى خالـق وخليقـة، يعبِّـر عنـه هـو ذاتـه أخيـراً الآن فـي شـكل منطقـي: إن الخالـق والخليقـة يتحـولان إلـى الأنـا المفترِضـة والأنـا المفترَضـة،

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] يعترف القديس ماكس في فقرة دنيوية لاحقة بأن الأنا تتلقى "حافزاً" (بمعنى فيخته) من العالم. أما إن الشيوعيين ينوون أن يحققوا التحكم في هذا "الحافز" الذي يصبح في واقع الأمر حافزاً بالغ التعقيد ومتعدد الأنواع حتى الدرجة القصوى إذا لم يكتفِ المرء بالعبارة المجردة - فذلك ما يشكل طبعاً بالنسبة إلى القديس ماكس فكرة فائقة الجسارة بحيث لا سبيل إلى الانخراط في هذا السبيل.

أو (بقدر ما يكون افتراضه [لأناه] وضعاً (Position) إلى الأنا الواضعة (Posant) والأنا الموضوعة (Posé).

"أنا من جانبي أنطلق من افتراض معين ما دمت أفترض نفسي، لكن افتراضي لا يسعى إلى كماله" (يسعى القديس ماكس بالأحرى إلى تحقيره)، "لكنه يخدمني فقط كشيء أستمتع به وأستهلكه" (يا له من استمتاع يحسد عليه!). "إنني أتغذى بافتراضي هذا وحده، ولا أوجد إلا بفعل استهلاكي إياه. لكن لهذا السبب" (يا لها من عبارة "لهذا السبب" طنانة!) "فإن هذا الافتراض ليس افتراضاً في أي حال من الأحوال؛ ذلك أنه طالما" (يا لها من "طالما" عظيمة!) "إنني الأوحد" (فلنفهم من ذلك الأناني الحقيقي المتفق مع ذاته) "فإنني لا أعرف بالتالي شيئاً عن ازدواجية أنا مفترضة ومفترضة [عن أنا، أو إنسان، ناقصة وأنا كاملة]" -يجب أن نقرأ ذلك كما يلي: إن كمال أناي يستقيم في هذه الحقيقة وحدها، ألا وهي أنني في كل لحظة أعرف نفسي بوصفي أنا ناقصة، بوصفي خليقة -"لكن" (يا لها من "لكن" رائعة!) "حقيقة أنني أستهلك ذاتي تعني فقط أنني كائن" (يجب أن نقرأ: أن حقيقة أنني كائن تعني هنا فقط أنني في ذاتي أستهلك، في المخيلة، مقولة المفترَض). "إني لا أفترض ذاتي، لأنني في كل لحظة لا أفعل على العموم إلا أن أضع أو أخلق ذاتي فقط" (يعني أضع وأخلق ذاتي بوصفي المفترَض والموضوع والمخلوق) "وأنا كائن لأنني لست مفترَضاً بل موضوعاً" (يجب أن نقرأ: وأنا لست كائناً إلا لأنني مفترض موجود بصورة سابقة لحقيقة كوني موضوعاً) "ومن جديد أنا موضوع في اللحظة التي أضع ذاتي بها فقط، يعني أنني خالق وخليقة في شخص واحد".

إن شترنر "إنسان موضوع"(*) طالما أنه أنا موضوعه على الدوام، وأناه هي" إنسان أيضاً (ويغان، ص ١٨٣). "لهذا السبب" هو إنسان موضوع؛ "ذلك أنه طالما" لا تتجاوز به أهواؤه الحدود، فهو "بالتالي" ما يسميه البورجوازيون إنساناً رصيناً، "لكن" حقيقة كونه إنساناً رصيناً تعني فقط "أنه يحتفظ على الدوام بمحاسبة وثيقة عن تحولاته وانكساراته الخاصة".

(*) في الأصل الألماني تلاعب في الألفاظ: ففي الألمانية يمكن لعبارة "Gesetzer Mann" أن تعني "الإنسان الرصين" أو "الإنسان الموضوع".

إن مـا لـم يكـن حتـى الآن صالحـاً إلا "لنـا" وحدنـا - كـي نسـتخدم نحـن أيضـاً، كمـا يفعـل شـترنر، لغـة هيغـل- ألا وهـو أن فعاليتـه الخلاقـة برمتهـا لا تملـك أي محتـوى آخـر سـوى تحديـدات تجريديـة عامـة، هـذا شـترنر نفسـه "يضعـه" الآن. إن نضـال القديـس ماكـس ضـد "الماهيـة" يبلـغ هنـا "هدفـه الأخيـر" فـي أنـه يوحـد ذاتـه مـع الماهيـة، وفـي الحقيقـة مـع الماهيـة التأمليـة الصرفـة. إن علاقـة الخالـق والخليقـة تتحـول إلـى تفسـير لفعـل الافتـراض الذاتـي، أي أن [شـترنر يحـوّل] إلـى [فكـرة] "خرقـاء" ومشوشـة حتـى الدرجـة القصـوى مـا [يقولـه] هيغـل عـن التفكيـر فـي "[نظريـة الماهيـة]". [وبمـا أن] القديـس ماكـس يتنـاول [لحظـة] واحـدة مـن تفكيـره، [لحظـة التفكيـر الـذي يضـع، فـإن أوهامـه تصبـح] "سـلبية"، [لأنـه] يتحـوّل إذن، هـو ذاتـه إلـى ["افتـراض] ذاتـي"، الـخ [إذ يميـز] بين[ذاتـه علـى اعتبـاره واضعـاً] وذاتـه علـى اعتبـاره موضوعـاً، [و] يتحـول التفكيـر إلـى النقيضـة الصوفيـة للخالـق والخليقـة. ويجـب أن نلاحـظ، بالمناسـبة، أن هيغـل يحلـل، فـي هـذا القسـم مـن المنطـق، "آليـات" هـذا "العـدم الخـلاق"، الأمـر الـذي يفسـر دوافـع القديـس ماكـس إلـى أن "يضـع" ذاتـه بالضـرورة، منـذ الصفحـة ٨، علـى اعتبـاره ذلـك "العـدم الخـلاق".

سـوف "نحشـر عرضـاً الآن بعـض المقاطـع مـن تفسـير هيغـل للافتـراض الذاتـي بمقارنتهـا مـع إيضاحـات القديـس ماكـس. لكـن لمـا كان هيغـل لا يكتـب بمثـل هـذا القـدر مـن التشـويش و"كيفمـا اتفـق" مثـل جـاك المغفـل، فـلا بـد لنـا أن نجمـع هـذه الفقـرات مـن صفحـات مختلفـة مـن المنطـق كيمـا نجعلهـا تتفـق مـع موضوعـة سانتشـو العظمـى.

"يفتـرض الوجـود نفسـه وهـو نفسـه تجـاوز هـذا الافتـراض. وبمـا أنـه رفـض لذاتـه أو لا مبـالاة حيـال ذاتـه، علاقـة سـالبة بذاتـه، فإنـه يضـع نفسـه إذن، فـي مواجهـة نفسـه... ولا يملـك هـذا الوضـع أي افتـراض... فالآخـر لا يوضـع إلا مـن خـلال الوجـود ذاتـه... وهكـذا فـإن التفكيـر لا يوجـد إلا بوصفـه إنـكاراً لذاتـه. وبوصفـه تفكيـراً مفترضـاً، فإنـه تفكيـر واضـح بـكل بسـاطة. وبالتالـي فإنـه يسـتقيم فيمـا يلـي، إنـه ذاتـه وليـس بذاتـه فـي "وحـدة" (الخالـق والخليقـة فـي "شـخص واحـد"). (هيغـل، المنطـق، المجلـد الثانـي، ص ٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٢).

ولقـد كان المـرء يتوقـع مـن "براعـة الفكـر" لـدى شـترنر أن يمضـي إلـى أبعـد مـن ذلـك فـي أبحاثـه فـي منطـق هيغـل. لكنـه امتنـع بحكمـة عـن القيـام بذلـك، لأنـه لـو فعـل لوجـد أنـه، بوصفـه

مجـرد أنـا "موضوعـة"، بوصفـه خليقـة، أي بقـدر مـا يملـك وجـوداً، لا يعـدو كونـه أنـا ظاهريـة، ولا يصبـح "ماهيـة"، خالقـاً، إلا بقـدر مـا لا يوجـد، بـل يتخيـل نفسـه فحسـب. ولقـد رأينـا سـابقاً، وسـوف نـرى فيمـا بعـد، أن جميـع صفاتـه، نشـاطه بأسـره، وكل سـلوكه حيـال العالـم، ليسـت سـوى مظهـر بسـيط يمثلـه علـى نفسـه، لا شـيء سـوى "حيـل لاعـب علـى الحبـل المشـدود للموضوعـي". إن أنـاه هـي علـى الـدوام "أنـا" خرسـاء ومختبئـة، مختبئـة فـي أنـاه الأخـرى المتصـورة علـى أنهـا ماهيـة.

وبالتالـي، فمـا دام الأنانـي الحقيقـي فـي نشـاطه الخـلاق مجـرد صياغـة جديـدة للتفكيـر التأملـي أو الماهيـة الصرفـة، فإنـه يترتـب علـى ذلـك، "وفقـاً للأسـطورة"، "بفعـل التكاثـر الطبيعـي"، كمـا سـبق الكشـف عنـه عنـد دراسـة "المعـارك الحياتيـة الشـاقة"، للأنانـي الحقيقـي، أن مخلوقاتـه متصـورة، علـى أبسـط التحديـدات الفكريـة، مثـل الهويـة، والفـرق، والمسـاواة، والتفـاوت، والتعـارض، الـخ. -تحديـدات [فكريـة] [يحـاول] إيضاحهـا فـي ["ذاتـه"]، وقـد "[بلغـت] أصداؤهـا حتـى [برليـن]". [وفيمـا يتعلـق بأنـاه] المجـردة عـن الافتـراض، [سـوف] تسـنح لنـا الفرصـة كـي "نسـمع كلمـة [صغيـرة]" عنهـا فـي وقـت لاحـق. أنظـر "الأوحـد" وغيـر ذلـك.

وكمـا هـي الحـال فـي الإنشـاء التاريخـي لـدى سانتشـو، فـإن الأحـداث التاريخيـة المتأخـرة تتحوّل، حسـب الطريقـة الهيغليـة، إلـى السـبب، خالـق الأحـداث السـابقة، كذلـك فـي حالـة الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه يتحـول شـترنر اليـوم الراهـن إلـى خالـق شـترنر الأمـس، علـى الرغـم مـن أن شـترنر اليـوم، كـي نسـتعمل لغتـه، هـو خليقـة شـترنر الأمـس. وصحيـح أن التفكيـر يقلـب هـذا كلـه، وفـي التفكيـر يكـون شـترنر الأمـس خليقـة شـترنر اليـوم، بوصفـه نتاجـاً للتفكيـر، بوصفـه فكـرة - بالضبـط كمـا أن الشـروط الماديـة الخارجيـة، فـي إطـار التفكيـر، هـي مخلوقـات تفكيـره.

ص ٢١٦: "لا تبحثـوا فـي "إنـكار الـذات" عـن الحريـة، التـي تقتلكـم أنتـم ذاتكـم فعليـاً، بـل ابحثـوا عـن ذاتكـم" (أي ابحثـوا عـن ذاتكـم فـي إنـكار الـذات)، "أصبحـوا أنانييـن، وكل منكـم سـوف يصبـح أنـا كلية القــدرة!".

بعدمــا ســبق يجــب ألا نندهــش إذا كان موقــف القديــس ماكــس مــن هــذه الصيغــة هــو مــن جديــد، فــي وقــت لاحــق، موقــف الخالــق والعــدو الألــد، وهــو "يحــل" مســلماته الأخلاقيــة

الرفيعة: "أصبح أنا كلية القدرة" في الصيغة التالية: إن كل امرئ، في أية حالة، يفعل ما يستطيع، ويستطيع ما يفعل، وبالتالي فهو طبعاً، بالنسبة إلى القديس ماكس، "كلي القدرة".

وعلى أي حال، فإن هراء الأناني المتفق مع ذاته يتلخص في الصيغة الواردة أعلاه. أولاً، تأتي الوصية الأخلاقية بالبحث، والأكثر من ذلك البحث عن الذات. ويعرف هذا بمعنى أن من واجب الإنسان أن يصير إلى ما ليس هو عليه حتى الآن، أن يصير أنانياً، وهذا الأناني يعرف على أنه "أنا كلية القدرة"، حيث تسامت الإمكانات الفعلية لكل فرد متحولة إلى الأنا، إلى القدرة الكلية، إلى وهم الإمكانات. وبالتالي فإن البحث عن الذات يضاهي الصيرورة شيئاً مختلفاً عن ماهية المرء، الصيرورة كلي القدرة، أي لا شيئاً، شيئاً لا وجود له، وهماً صرفاً.

***

لقد تقدمنا الآن بعيداً بحيث نستطيع أن نكشف ونحل أحد الأسرارالأعمق للأوحد، وفي الوقت ذاته قضية احتفظت بالعالم المتحضر لفترة طويلة من الزمن في حالة من الحيرة القلقة.

من هو شيليغا؟ منذ ظهور المجلة الأدبية النقدية (أنظر: العائلة المقدسة) طرح هذا السؤال جميع أولئك الذين تتبعوا تطور الفلسفة الألمانية: من هو شيلغيا؟ إن كل امرئ يسأل، وكل امرئ يصغي بكل انتباه إلى الصدى الهمجي لهذا الاسم - لكن ليس هناك من يجيب.

من هو شيليغا ؟ إن القديس ماكس يعطينا مفتاح "سرالأسرار" هذا.

إن شيليغا هو شترنر بوصفه خليقة، وشترنر هو شيليغا بوصفه خالقاً. إن شترنر هو "الأنا"، وشيليغا "الأنت"، في "الكتاب". ومن هنا فإن شترنر، الخالق، يتصرف حيال شيليغا، خليقته، كما لو أنه "عدوه اللدود". فلا يكاد شيليغا يرغب في التحرر وتحقيق استقلاله حيال شترنر- لقد قام بمحاولة بائسة في هذا الاتجاه ـ حتى "يسترده القديس ماكس إلى نفسه" في الحال، وهي تجربة كيميائية حقيقية جرت في الصفحات ١٧٦ - ١٧٩ من التعليق التبريري في ويغان، ووضعت حداً نهائياً لمحاولة شيليغا.إن نضال الخالق ضد الخليقة، شترنر ضد شيليغا،ليس على أية حال سوى صراع ظاهري. وهذا شيليغا يلوح

[الآن] ضد خالقه بعبارات هذا [الخالق ذاته] -مثلاً التوكيد "بأن الجسد العاري [الصرف] هو [انعدام] الفكر". (ويغان، ص ١٤٨). ولقد كان القديس [ماكس]، كما رأينا، [يتخيل] [الجسد العاري]، الجسد قبل [تكوينه]، وقد عرّفه [بهذه المناسبة] على أنه "العنصر الآخر للفكر، لا فكراً ولا مفكراً، وبالتالي انعدام الفكر؛ والأكثر من ذلك أنه يعلن صراحة في فقرة لاحقة أن انعدام الفكر وحده [كما من قبل الجسد وحده- وهكذا فإن كلا التصورين يتوحدان[يستطيع أن ينقذه من الأفكار (ص ١٩٦) .

ونجد إثباتاً أبرز على هذه الرابطة السرية بين شترنر وشيليغا في ويغان. لقد شاهدنا من قبل في الصفحة ٧ من "الكتاب" أن "الأنا"، أي شترنر، هو "الأوحد". وفي الصفحة ١٥٣ من "التعليق" يخاطب "أنته" [you] : "أنت...محتوى هذه الصيغ الجوفاء" يعني محتوى "الأوحد"، وفي الصفحة ذاتها يرد ما يلي: "لقد غض النظر عن حقيقة أنه هو ذاته، شيليغا، محتوى هذه الصيغ". إن "الأوحد" هو الصيغة الجوفاء، كما يقول القديس ماكس بصورة حرفية. وإذا أخذ بعين الاعتبار على أنه "الأنا"، أي على أنه خالق، فهو مالك الصيغة - هذا هو القديس ماكس. وإذا أخذ بعين الاعتبار على أنه "أنت"، أي على أنه خليقة، فأنه محتوى الصيغة- يعني شيليغا، وكما أخبرنا لتونا، أن شيليغا الخليقة يظهر في صورة الأناني المتفاني، في صورة دون كيخوت منحل؛ وإن شترنر الخالق هو الأناني بالمعنى العادي، على أنه القديس سانتشو بانزا.

وبالتالي، فإن لدينا ههنا المظهر الآخر لنقيض الخالق والخليقة، حيث كل واحد من المظهرين يحمل نقيضه في ذاته. هنا سانتشو بانزا شترنر، الأناني بالمعنى العادي، ينتصر على دون كيخوت شيليغا، الأناني المتفاني والوهمي، ينتصر عليه بالضبط بوصفه دون كيخوت، بفضل إيمانه بالسيطرة العالمية للمقدس. من كان حقاً أناني شترنر بالمعنى [العادي] إن لم يكن سانتشو [بانزا]، ومن أنانية المتفاني [لم يكن] دون كيخوت. وماذا كانت علاقتهما [المتبادلة] في [الشكل الذي وجدت فيه حتى الآن إن] لم تكن علاقة [سانتشو بانزا شترنر] بدون كيخوت [شيليغا؟ ذلك أنه ليس الآن أمام]سانتشو بانزا [شترنر أن يكون] سانتشو إلا [كي يحمل شيليغا بوصفه] دون كيخوت [على الاعتقاد] بأنه يتجاوزه في الدون [كيخوتية]

و[بصورة متفقة مع هذا الدور، بوصفه] الدون [كيخوت] العام المفترض، لا يتخذ [أية خطوات] ضد [دون كيخوتية] سيده السابق، [الذي يقسم على الولاء له بكل الإخلاص الحار الذي يتحلى به الخادم]، وبذلك يبرهن على المكر الذي وصفه سرفانتس من قبل. وبالتالي فإنه، إذا أخذنا المحتوى الفعلي بعين الاعتبار، المدافع عن المالك الصغير العملي، لكنه يكافح في الوقت ذاته الوعي المطابق لهذا المالك الصغير، وهو وعي يقتصر في آخر تحليل على التصور المثالي الذي يحققه هذا المالك عن البورجوازية التي لا يستطيع إليها بلوغاً.

وهكذا فإن دون كيخوت الآن، في ملامح شيليغا، يقوم بوظيفة الخادم أمام حامل سلاحه السابق.

أما حتى أي قدر احتفظ سانتشو في "تحوّله" الجديد بعاداته القديمة، فهو ما نستطيع أن نتبينه في كل صفحة. إن "الابتلاع" و"الاستهلاك" يشكلان على الدوام إحدى صفاته الرئيسية. و"حياؤه الطبيعي" لا يزال يتحكم فيه، بحيث أن ملك بروسيا والأمير هنري الثاني والسبعين يتحولان في نظره إلى "أباطرة صينيين"، أو "سلاطين"، وهو لا يغامر بالحديث إلا عن "المجالس الأ..."(*)؛ إنه يستمر في إخراج الأمثال والحكم الأخلاقية من مزودته، ولا يكف عن الخوف من "الأشباح" بل يؤكد أنها الشيء الوحيد الذي يجب أن يخشى جانبه؛ وأن الفرق الوحيد هو أن سانتشو قد خدع في حالته غير المقدسة من قبل الفلاحين في الحانة، بينما هو الآن، وقد أصبح في حالة القداسة، يخدع نفسه بصورة متواصلة.

لكن فلنعد إلى شيليغا. من ذا لم يتبين منذ زمن بعيد إصبع شيليغا في جميع "الصيغ" التي يضعها القديس سانتشو في فم "أنته" [you] ؟ وإنه لمن الممكن على الدوام اكتشاف آثار لشيليغا ليس في صيغ هذه "الأنت" فحسب، بل كذلك في الصيغ التي يظهر شيليغا فيها كخالق، أي صفة شترنر. لكن بما أن شيليغا خليقة، فإنه ما كان يمكن أن يمثل في العائلة المقدسة إلا على أنه "لغز". وكان كشف هذا اللغز مهمة شترنر الخالق. أما نحن، فقد كنا نستشعر طبعاً أنه كان في أساس هذا الأمر كله مغامرة مقدسة عظمى. ولم يخب

(*) الألمانية.

أملنا. إن المغامرة الفريدة في الواقع لم تشاهد قط أو يسمع بها قط وهي تتجاوز المغامرة مع الطواحين الهوائية في الفصل العشرين من كتاب سرفانتس.

٣ ـ رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي أو "منطق الحكمة الجديدة"

في البدء كانت الكلمة، اللوغوس. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور البشر، ولقد أضاء النور في الظلمة، والظلمة لم تدركه. كان النور الحقيقي، وكان في العالم، والعالم لم يعرفه. لقد جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله. لكن أولئك الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً كي يصبحوا أصحاب ملكية يؤمنون باسم الأوحد. [لكن من] هو الذي [شاهد] الأوحد قط؟

[فلندرس] الآن "نور [العالم" هذا في] "منطق الحكمة الجديدة ["لأن القديس] سانتشو لا يريد أن يكتفي بكل ما [دمره] من قبل.

[بالنسبة إلى] مؤلفنا "الأوحد"، من المفروغ منه [بالطبع أن] أساس [عبقريته يقوم] في [المجموعة] المتألقة من الفضائل [الشخصية التي تؤلف براعته] الفكرية الخاصة. [وما دامت] جميع هذه الفضائل قد اثبتت من قبل بصورة وافية، فإنه يكفي هنا أن نعطي خلاصة مقتضبة لأهمها: المجون الفكري- الاضطراب - التشوش - الخراقة المعترف بها - التكرارات التي لا تنتهي - التناقض المتصل مع نفسه - المقارنات التي لا نظير لها - محاولات الاستعمال الأخرق لعبارات العطف: من أجل، بالتالي، لهذا السبب، لأن، وفقاً لذلك، لكن، الخ. - الجهل - التأكيدات الخرقاء - الطيش المهيب - العبارات الثورية الرصينة- البلاغة المتبجحة - الابتذال الطنان واللامعقولية والبذاءة الرخيصة - الارتفاع بحِكم إيسكنتهر نانت[١٤٦] إلى مرتبة المفاهيم المطلقة - التبعية الفكرية للتقاليد الهيغلية والشعارات البرلينية الشائعة- وباختصار الصناعة الكاملة للحساء الشعبي الرقيق (٤٩١ صفحة منه) على طريقة رومفورد.

إن مجموعة كاملة من الانتقالات تسبح مثل العظام في هذا الحساء الشعبي، وسوف نقدم الآن بعض النماذج منها لتسلية الجمهور الألماني الذي تنتابه الكآبة:

"أفلسنا نستطيع - والحال أنه من الواجب - يشاطر المرء أحياناً يستطيع المرء إذن، من

أجل فعالية... ينتسب إلى ذلك على الأخص ما... يسمع المرء نداءه على الأغلب - وهذا يعني - ختاماً - يمكن أن يكون واضحاً الآن- في غضون ذلك - وهذا يمكن، بالمناسبة، أن يقال هنا - لولا أنه - أو ربما لم يكن - التقدم إلى النقطة حيث... ليس من الصعب - من وجهة نظر معينة، تجري المناقشة على هذا الغرار تقريباً - مثال ذلك"، الخ، الخ، و"يستقيم فيه" في جميع "التحولات الممكنة".

يمكننا في الحال أن نأتي هنا على ذكر حيلة [منطقية] [من المحال] بشأنها تقرير ما إذا كانت تدين بوجود [ها] إلى قوة سانتشو [الشهيرة] [أو إلى] العجز الذي تعاني منه [أفكاره]. إن هذه [الحيلة تستقيم] في الإطباق على [مظهر واحد] من فكرة [أو] مفهوم [يملك عدة] مظاهر محددة جيداً لتحويله إلى المظهر الواحد [والأوحد]، ومن بعد إحلاله محل [المفهوم ذاته بوصفه] تحديده الأوحد، ومن ثم معارضته [بأي مظهر آخر] تحت [اسم جديد، على أنه] شيء أصيل. ذلك هو شأننا، [كما] سوف نرى في وقت لاحق، مع مفهومي الحرية والخصوصية.

من بين المقولات التي لا تدين بأصلها لشخصية سانتشو بقدر ما تدين للمحنة العامة التي يعاني منها المنظرون الألمان في الوقت الحاضر، يحتل المكانة الأولى التمييز التافه، الذي هو كمال التفاهة حقاً. ولما كان قديسنا منغمساً في تناقضات [معذبة النفس] مثل الفردي والعام، والمصلحة الخاصة والمصلحة العامة، والأنانية العادية وإنكار الذات، الخ، فإنه ينتهي في آخر تحليل إلى التنازلات والتعاقدات المتبادلة الأشد تفاهة بين المظهرين، التي تستند بدورها إلى أشد التمييزات دقة - التمييزات التي تعبرعن وجود حدودها بكلمة "كذلك" والتي تحافظ من بعد على ازدواجيتها بواسطة "بقدر ما" بائسة. وهذه أمثلة عن هذه التمييزات التافهة: كيف يستغل البشر بعضهم بعضاً، لكن أحداً لا يفعل ذلك على حساب الآخر؛ حتى أي مدى يكون شيء ما فيَّ خاصاً بي أو موحى به من الغير؛ إنشاء عمل إنساني وعمل أوحد قائمين جنباً إلى جنب؛ ما هو لا غنى عنه من أجل حياة إنسانية وما هو لا غنى عنه من أجل حياة وحداء؛ ما يشكل جزءاً من الشخصية الخالصة وما هو عرضي موضوعياً، الأمر الذي لا يملك القديس ماكس من أجل تقريره أي مقياس من وجهة نظره الخاصة؛ ما يخص

الخـرق والأسـمال ومـا يخـص جلـد الفـرد؛ مـا يتملكـه ومـا يتخلـص منـه نهائيـاً بالإنـكار؛ إلـى أي مـدى يضحـي بمجـرد حريتـه أو بمجـرد فرديتـه الخاصـة؛ وفـي هـذه الحالـة فـإن ثمـة تضحيـة أيضـاً، لكـن فقـط بقـدر مـا لا يضحـي بـأي شـيء بـكل معنـى الكلمـة؛ مـا يجعـل منـي رابطـة مـع الغيـر ومـا يصلنـي بالآخريـن فـي صـورة علاقـة شـخصية. إن بعـض هـذه التمييـزات تافهـة بصـورة مطلقـة، وبعضهـا الآخـر- فـي حالـة سانتشـو علـى الأقـل - لا تملـك أي معنـى أو أسـاس. ويسـتطيع المـرء أن يعتبـر قمـة هـذه التمييـزات التافهـة ذلـك التمييـز بيـن خليقـة العالـم مـن قبـل الفـرد والزخـم الـذي يتلقـاه هـذا الفـرد مـن العالـم. فـإذا تعمـق هنـا فـي هـذا الزخـم، فـي كل مـدى وتعـدد تأثيراتـه فيـه، فـلا بـد مـن أن يكتشـف آخـر الأمـر التناقـض بأنـه [رهـن] العالـم بصـورة عميـاء بقـدر مـا هـو خالقـه [بصـورة أنانيـة] وبصـورة إيديولوجيـة. (أنظـر: "متعتـي الذاتيـة"). وإنـه [لـن يضـع عندئـذ] جنبـاً إلـى جنـب "كذلـك" و" بقـدر مـا"، [أكثـر ممـا يضـع] العمـل "الإنسـاني" والعمـل "الأوحـد"؛ إنـه لـن يجـرؤ إذن، علـى [معارضـة] الواحـد مـع الآخـر؛ [لـن يجعـل- الواحـد] يهاجـم الآخـر [مـن الخلـف] وبذلـك لـن يكـون [قـد أخضـع لذاتـه كليـاً "الأنانـي المتفـق [مـع ذاتـه"] لكننـا [نعـرف] أن هـذا الأخيـر لا يحتـاج لأن [يخضـع] لأي شـيء كان، لأنـه كان مـن البـدء نقطـة الانطـلاق.

إن هـذه اللعبـة التافهـة بالتمييـزات تجتـاز "الكتـاب" بأسـره؛ وإنهـا لتشـكل فيمـا عـدا ذلـك الرافعـة الرئيسـية للحيـل المنطقيـة الأخـرى وتتخـذ بصـورة خاصـة شـكل ذمامـة(*) مغـرورة بنفسـها بقـدر مـا هـي رخيصـة بصـورة تبعـث علـى السـخرية. وهكـذا يتضـح لنـا بواسـطة الأمثلـة إلـى أي مـدى يحـق للأنانـي الحقيقـي أن يـروي الأكاذيـب وإلـى أي مـدى لا يملـك مثـل هـذا الحـق؛ إلـى أي مـدى تكـون خيانـة الثقـة "بغيضـة" وإلـى أي حـد لا تكـون كذلـك؛ إلـى أي مـدى يملـك الامبراطـور سيغسـموند والملـك الفرنسـي فرنسـوا الأول الحـق فـي الحنـث بإيمانهمـا وإلـى أي حـد كان سـلوكهما فـي هـذا المجـال "مخزيـاً"، وبعـض الأمثلـة التاريخيـة البارعـة الأخـرى مـن النمـط ذاتـه. وبعـد كل هـذه التمييـزات الشـاقة والمسـائل الحقيـرة يتخـذ صاحبنـا سانتشـو مظهـراً رفيعـاً حقـاً فـي لامبالاتـه، إذ إن الأمـر سـواء بالنسـبة إليـه، وهـو يرفـض جميـع الفـروق الفعليـة والعمليـة والإيديولوجيـة. وعلـى العمـوم نسـتطيع أن نقـول فـي الحـال إن قدرتـه علـى التمييـز

(*) casuistique، أو علم قضايا الذمة والضمير.

تتخلف حتى درجة بعيدة عن قدرته على عدم التمييز، على رؤية جميع القطط سوداء في ظلمة المقدس، وعلى إرجاع كل شيء إلى لا شيء - وهو فن يجد التعبير الملائم عنه في الإبدالات .

عانق "حمارك" يا سانتشو، فقد وجدته من جديد هنا! أنه يخب بكل مرح لملاقاتك، من دون أن يأبه البتة للرفسات التي تلقاها، ويحييك بصوته الرنان. اركع أمامه، عانق عنقه، وانجز المهمة التي دعاك إليها سرفانتس في الفصل الثلاثين!

إن الإبدال حمار سانتشو، قاطرته المنطقية والتاريخية، القوة المحركة "للكتاب" وقد أرجعت إلى تعبيرها الأبسط والأشد اختصاراً. وفي سبيل تحويل الفكرة الواحدة إلى الأخرى، أو البرهان على هوية شيئين مختلفين كل الاختلاف، فإنه لا بد من بعض الحلقات المتوسطة التي يمكن استخدامها، بمعناها جزئياً، وباشتقاقها اللغوي جزئياً، وبصداها جزئياً، بل في سبيل إقامة رابطة مظهرية بين فكرتين أساسيتين. ومن ثم تلحق هذه الحلقات بالفكرة الأولى في شكل إبدال، وبطريقة يمضي المرء معها أبعد عن نقطة الانطلاق ويقترب أكثر فأكثر من الهدف المرجو. وإذا كانت سلسلة الإبدالات قد مضت بعيداً جداً بحيث يستطيع المرء أن يخلص إلى نتيجة من دون أيما مخاطر، ألحقت الفكرة الأخيرة أيضاً في شكل إبدال بواسطة خط، وبذلك تكون الحيلة قد تمت. هذه طريقة يوصى بها تماماً في تهريب الأفكار القائم على الشعوذة، وتشتد فاعليتها بقدر ما تجعل رافعة الحجج الرئيسية. وعندما تستخدم هذه الخدعة بنجاح مرات عديدة، فإن في إمكان المرء، على طريقة سانتشو، أن يحذف بصورة تدرجية بعض الحلقات المتوسطة ويرجع آخر الأمر سلسلة الإبدالات إلى بعض الأقواس الضرورية بصورة مطلقة.

ويمكن أن يقلب الإبدال أيضاً، كما رأينا أعلاه، وبذلك يؤدي إلى خدع جديدة أشد تعقيداً، بل إلى نتائج أبعث على الدهشة. ولقد شاهدنا هناك أيضاً أن الإبدال هو الشكل المنطقي للسلسلة غير المتناهية في الرياضيات.

ويستخدم القديس سانتشو الإبدال بطريقتين: من جهة على صعيد المنطق الخالص،

في تكريس العالم، حيث يمكنه من تحويل أي شيء دنيوي إلى "المقدس"، ومن جهة أخرى على صعيد التاريخ، في شرح الرابطة بين حقب مختلفة وفي تلخيص هذه الحقب، إذ تختصر كل مرحلة تاريخية في كلمة وحيدة، وتكون النتيجة النهائية أن الحلقة الأخيرة للسلسلة التاريخية لم تتقدم بنا شعرة واحدة أبعد من الحلقة الأولى، وفي النهاية تلخص حقب السلسلة جميعاً في مقولة مجردة وحيدة مثل المثالية، والتبعية للأفكار، الخ. وإذا كان لا بد من إعطاء السلسلة التاريخية للإبدالات مظهر التقدم، فإن هذا الأمر يتحقق بإعطاء العبارة الختامية معنى اكتمال الحقبة الابتدائية للسلسلة، والحلقات المتوسطة معنى المراحل الصاعدة للتطور المؤدي إلى العبارة الأخيرة في نهاية المطاف.

وإن لدينا التراد فجنباً إلى جنب مع الإبدال، يستغله سانتشو بكل طريقة ممكنة. فإذا كان ثمة علاقة لغوية بين كلمتين أو كانتا متشابهتين صوتاً فقط، جعلتا في الحال مسؤولتين عن بعضهما بعضاً، أو إذا كان للكلمة الواحدة معنى مختلف، فإنها تستخدم إذن، حسب الحاجة، بمعنى واحد أولاً، ومن ثم بمعنى آخر، بينما يتظاهر القديس سانتشو بأنه يتحدث عن الشيء الواحد نفسه في "انكساراته" المختلفة. وفيما عدا ذلك، فإن فرعاً خاصاً من الترادف يستقيم في الترجمة، حيث يستعاض عن تعبير فرنسي أو لاتيني بتعبير ألماني لا يعبِّر عنه إلا بصورة نصفية، أو هو يعني شيئاً مختلفاً كل الاختلاف؛ مثال ذلك، كما رأينا أعلاه، حين ترجمت كلمة "Respektieren" كما يلي: "الإحساس بالتبجيل والوجل"، وقس على ذلك. فلنتذكر كلمات Staat، و Status، وStand، وNotstand، الخ. وفي القسم عن الشيوعية سنحت لنا الفرصة لملاحظة أمثلة عديدة عن استخدام هذه التعابير الملتبسة. فلندرس باقتضاب مثالاً عن هذا الترادف اللغوي:

"إن كلمة " Gesellschaft " (*) مشتقة من كلمة Sal. فإذا كان ثمة عدد كبير من البشر في Saal (**)، فإنSaal إذن، هي التي جعلتهم في مجتمع. إنهم في مجتمع وهم يشكلون على الأكثر مجتمعاً صالونياً ويعبرون عن ذاتهم بالعبارات الصالونية الشائعة الاستعمال.

(*) المجتمع(société) .

(**) قاعة، صالون.

وحيـن يتـم الوصـول إلـى التعامـل الحقيقـي، فيجـب أن يؤخـذ بعيـن الاعتبـار علـى أنـه مسـتقل عـن المجتمـع" (ص ٢٨٦).

مـا دامـت "كلمـة Gesellschaft مشـتقة مـن Sal" (ولنقـل بالمناسـبة أن ذلـك غيـر صحيـح لأن الجـذور الأصليـة لجميـع الكلمـات هـي الأفعـال)، فـإن Sal يجـب إذن، أن تعـادل Saal. لكـن Sal فـي الألمانيـة العليـا القديمـة تعنـي بنـاء. وإن Geselle، Kisello - التـي اشـتقت Gesellschaft منهـا - تعنـي رفيقـاً منزليـاً؛ وهكـذا فـلا شـأن للكلمـة Saal هنـا. لكـن ليـس لهـذا الأمـر أهميـة كبيـرة: إن Saal تحـوّل فـوراً إلـى Salon، فـكأن ليـس هنـاك هـوة تبلـغ حوالـى ألـف سـنة ومسـافة تبلـغ مئـات الأميـال بيـن الكلمـة الألمانيـة العليـا القديمـة Sal والكلمـة الفرنسـية الجديـدة Salon. وهكـذا يحـوّل المجتمـع إلـى مجتمـع صالونـي لا يمكـن أن تقـوم فيـه، وفقـاً للفكـرة البورجوازيـة الألمانيـة الجيـدة عنـه، سـوى علاقـات تعامـل شـفهية صرفـة، ويسـتبعد منهـا كل علاقـات تعامـل فعليـة. - وعلـى أي حـال، فمـا دام القديـس ماكـس لا يسـتهدف إلا تحويـل المجتمـع إلـى "المقـدس"، فقـد كان فـي وسـعه بلـوغ ذلـك مـن سـبيل أقصـر جـداً لـو أنـه قـام بدراسـة أعمـق نوعـاً مـا لفقـه اللغـة واستشـار أي قامـوس لجـذور الكلمـات. ويـا لهـا مـن لقيـة بالنسـبة إليـه إذن، لـو أنـه اكتشـف هنـاك الرابطـة اللغويـة بيـن كلمتـي Gesellschaft وSelig[(*)]؛ Gesellschaft - Selig - Heilig[(**)] أثمـة مـا يمكـن أن يبـدو أبسـط مـن ذلـك؟

لـو أن التـرادف والاشـتقاق اللغـوي "لشـترنر" كان صحيحـاً، فـإن الشـيوعيين إذن يسـعون إلـى الكونتيـة الحقيقيـة، الكونتيـة(counté)[(***)] بوصفهـا المقـدس. فكمـا أن Gesellschaft [مجتمـع] تصـدر عـن Sal [بنـاء]، فـإن كلمـة Graf (بالغوطيـة (Garâvjo)) تصـدر كذلـك عـن الكلمـة الغوطيـة Râvo [منـزل]. Sal البنـاء = Râvo، المنـزل إذن؛ وبنتيجـة ذلـك فـإن [مجتمـع] (société) = [كونتيـة]. إن الجـذور فـي أول الكلمتيـن وآخرهمـا هـي نفسـها، ومقاطـع الجـذور

(*) مبارك.

(**) مجتمع مبارك - مقدس - المقدس.

(***) كونتية (counté) .

تملك المعنى ذاته - وبالتالي فإن المجتمع المقدس للشيوعيين هو الكونتية المقدسة، الكونتية بوصفها المقدس - أثمة ما يمكن أن يبدو أبسط من ذلك؟ ولقد كان القديس سانتشو يستشعر ذلك عندما رأى في الشيوعية اكتمال النظام الإقطاعي، يعني نظام الكونتيات.

إن الترادف يخدم قديسنا من جهة واحدة في تحويل العلاقات الفعلية إلى علاقات تأملية، حين يستخدم الكلمة الواردة في الحياة العملية والتأمل الفلسفي على السواء بمعناها التأملي وحده، متفوهاً بعبارات قليلة عن هذا المبنى التأملي، زاعماً من بعد أنه قد انتقد بذلك علاقات التعامل الفعلية التي تفيد هذه الكلمة أيضاً في الدلالة عليها. وإنه يفعل ذلك بكلمة تأمل. ففي الصفحة ٤٠٦ "يظهر" "التأمل" في مظهرين بوصفه وجوداً أوحد يملك "مظهراً مزدوجاً"- إيه، يا شيليغا! إنه يرعد ضد التأمل الفلسفي ويظن أنه بذلك صفى حساباته مع المضاربة التجارية(*) [التي] يجهل كل شيء عنها. - ومن جهة ثانية، فإن هذا الترادف يخدمه، هو المالك الصغيرالمقنع، في تحويل العلاقات البورجوازية (أنظر ما قيل أعلاه في معالجة "الشيوعية" بشأن الصلة بين اللغة والعلاقات البورجوازية) إلى علاقات شخصية وفردية لا يستطيع المرء مهاجمتها من دون أن يهاجم الفرد في فرديته، في "خصوصيته" و"أوحديته". هكذا، على سبيل المثال، يستغل سانتشو الرابطة اللغوية بين Geld (**) وVermôgon ،(***) eltung (****) وVermôgen (*****)، الخ.

إن الترادف، متحداً مع الإبدال، يشكل الرافعة الرئيسية لحيله السحرية التي سبق لنا عرضها في مناسبات عديدة، وكيما نقدم مثالاً على السهولة الكبيرة لهذا الفن، فلننفذ كذلك حيلة سرية على طريقة سانتشو.

(*) ثمة تلاعب بالكلمات هنا، فكلمة spéculation تعني في الوقت ذاته التأمل في الفلسفة والمضاربة في التجارة.

(**) النقد.

(***) قيمة، صلاحية.

(****) ثروة، ملكية، قدرة، إمكانية.

(*****) أن يكون قادراً.

إن Wechsel (*)، بوصفه تغيراً (changement)، هو قانون الظاهرات كما يقول هيغل. ويستطيع "شترنر" أن يستطرد: ومن هنا كانت ظاهرة شدة القانون المناهض للكمبيالات (Wechsel) المزورة، لأننا نجد هنا القانون المتسامي على الظاهرات، القانون من حيث هو قانون، القانون المقدس، القانون على أنه المقدس، المقدس ذاته، الذي هو ضحية التدنيس والذي يثأر له في العقاب. وبكلام آخر: إن Wechsel في "تجلي ظاهرته المزدوجة"، بوصفه كمبيالة (letter de change) وبوصفه تغيراً (changement) تؤدي إلى échéance)(**) Verfall و(décadence). إن الانحطاط بوصفه نتيجة للتغير يشاهد في التاريخ، فيما يشاهد، إبان سقوط الامبراطورية الرومانية، وفي ظل الإقطاعية، والامبراطورية الجرمانية، وسيطرة نابوليون. إن "الانتقال من" هذه الأزمات التاريخية العظمى "إلى" الأزمات الاقتصادية لزمننا الحاضر "يتم من دون صعوبة"، وهو يفسر كذلك السبب في كون الأزمات التجارية مشروطة دائماً باستحقاق الكمبيالات.

أو أنه يستطيع، كما هي حال عبارتي"الملكية" و"النقد"، أن يبرر كلمة "الكمبيالة" لغوياً بأن "يجادل، من وجهة نظر معينة، كما يلي على وجه التقريب": إن الشيوعيين يريدون فيما يريدون أن ينقضوا Wechsel (الكمبيالة). لكن، أفلا تقوم لذة العالم الرئيسية على وجه الدقة في Wechsel (التغير)؟ وبالتالي فهم يريدون ما هو مائت، ما هو جامد، الصين - وهذا يعني أن الصيني الكامل شيوعي. "ومن هنا" كانت البيانات الشيوعية المناهضة لـ (Wechsler(***) Wechselbrief (****). فكأن كل رسالة ليست Wechselbrief رسالة تغير، رسالة تسجل تغيراً، وكل إنسان ليس هو Wechsel، Wechselncher(*****).

ولا بد للقديس سانتشو، كي يضفي مظهر التنوع العظيم، على بساطة إنشائه وحيله

(*) تغير، كمبيالة.

(**) استحقاق الكمبيالية؛ انحطاط، تفسخ.

(***) كمبيالات.

(****) صراف، وسيط صرافة.

(*****) شخص متغير.

المنطقيـة، مـن الحـدث العرضـي. فهـو يحشـر مـن وقـت لآخـر "بصـورة عرضيـة" فقـرة تنتسـب إلـى قسـم آخـر مـن الكتـاب، أو كان يمكـن إهمالهـا كليـاً، فيقطـع بذلـك مـرة أخـرى خيـط مـا يسـمى حجته، هـذا الخيـط الـذي انقطـع مـن قبـل مئـة مـرة. وإنـه ليعطـي عـن ذلـك إذن، هـذا التفسـير السـاذج: "إننـا" "لا نسـير مثـل السـاعة"، ويثيـر مـع الوقـت عنـد القـارئ، الـذي صـادف مـن قبـل هـذه العمليـة عـدة مـرات، بعـض اللاحساسـية حتـى حيـال التشـوش الأعظـم. وحيـن يقـرأ المـرء "الكتـاب"، فإنـه يعتـاد علـى كل شـيء، بـل ينتهـي أخيـراً، إلـى قبـول أسـوأ الأمـور بـكل طيبـة خاطـر. وعلـى أي حـال، فـإن هـذه الأحـداث العرضيـة، (كمـا كان [يجـب] أن يتوقـع مـن القديـس سانتشـو، إنمـا هـي وهميـة فقـط ومجـرد تكـرارات تحـت [أقنعـة أخـرى] مـن العبـارات التـي قُـرأت [مـن قبـل] مئـات المـرات).

وبعـد عمـل القديـس ماكـس [علـى إظهـار ذاتـه بهـذه الطريقـة فـي] صفاتـه الشـخصية، ومـن بعـد كشـفه عـن ذاتـه بوصفـه [" مظهـراً" و] بوصفـه "ماهيـة" فـي التمييـز و[فـي] التـرادف وفـي الحـدث العرضـي، [فإننـا] ننتهـي [إلـى] القمـة الحقيقيـة وكمـال المنطـق، "المفهـوم".

المفهـوم هـو "الأنـا" (أنظـر: المنطـق لهيغـل، القسـم الثالـث)، المنطـق [بوصفـه الأنـا]. هـذه هـي العلاقـة المحضـة للأنـا بالعالـم، علاقـة [مجـردة] مـن جميـع العلاقـات الفعليـة المتعلقـة بهـا؛ [صيغـة] صالحـة لجميـع المعـادلات التـي يُرجِـع الإنسـان [المقـدس إليهـا المفاهيـم] الدنيويـة. ولقـد سـبق أن [بيّنـا] أعـلاه كيـف "يسـعى" سانتشـوعبثاً، بواسـطة هـذه الصيغـة، إلـى إيضـاح مختلـف التحديـدات التجريديـة الخالصـة، مثـل الهويـة، والتناقـض، الـخ، بإرجاعهـا إلـى جميـع الأشـياء الفعليـة الممكنـة والقابلـة للتخيـل.

فنبدأ في الحال بمثال محدد، مثلاً العلاقة بين "الأنا" والشعب.

الأنا ليست الشعب،

الشعب = غير الأنا

الأنا = غير الشعب

وبالتالي فإنني إنكر الشعب، والشعب ينحل في أناي.

ويمكن التعبير كذلك عن المعادلة الثانية بالمعادلة الملحقة التالية:

أنا الشعب غير موجودة

أو:

أنا الشعب هي الصورة السلبية لأناي .

وهكـذا فـإن الحيلـة كلهـا تسـتقيم فيمـا يلـي: ١- إن الإنكارالـذي يخـص الصلـة فـي البدايـة يرتـد أولاً إلـى الحامـل ومـن بعـد إلـى المحمـول؛ ٢- إن الإنـكار، "الغيـر"، يتخـذ حسـب الحاجـة معنـى الغيريـة (altérité)، أو الفـرق، أو التعـارض، أو الانحـلال المباشـر. وإنـه ليعتبـر فـي المثـال الراهـن مـن حيـث هـو انحـلال مطلـق، مـن حيـث هـو إنـكار كلـي؛ ولسـوف نجـد أن القديـس ماكـس يسـتخدمه كذلـك بمعـانٍ أخـرى حسـبما يناسـبه. وهكـذا فـإن هـذه القضيـة التـي هـي تحصيـل الحاصـل: أنـا لسـت الشـعب، تتحـول إلـى هـذا الاكتشـاف الجديـد الهائـل: أنـا انحـلال الشـعب.

وبخصـوص المعـادلات المعطـاة أعـلاه، فإنـه لـم يكـن حتـى مـن الضـروري بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو أن يكـون لديـه أيـة فكـرة عـن الشـعب؛ كان يكفيـه أن يعـرف أن أنـا والشـعب "اسـمان مختلفان كليـاً لشـيئين مختلفيـن كليـاً"؛ كان يكفـي ألا يكـون للكلمتيـن حـرف مشـترك واحـد، وإذا كان لا بـد الآن مـن مزيـد مـن التأمـل عـن الشـعب، مـن وجهـة نظـر المنطـق الأنانـي، فإنـه يكفـي أن يلصـق بالشـعب و"بالأنـا"، مـن الخـارج، أي نـوع مـن التحديـد التافـه، المأخـوذ مـن التجربـة اليوميـة، الأمـر الـذي يهيـئ لقيـام معـادلات جديـدة. وإن المـرء ليتخـذ فـي الوقـت ذاتـه مظهـر نقـد التحديـدات المختلفة بأسـاليب مختلفـة. ولسـوف نشـاهد الآن تأمـلاً مـن هـذا النمـط بخصـوص الحريـة والسـعادة والثـروة.

المعادلات الأساسية:	الشعب	=	غير الأنا
المعادلة رقم ١:	حرية الشعب	=	غير حريتي
	حرية الشعب	=	لا حريتي
	حرية الشعب	=	عبوديتي

(ولكننا نستطيع أن نقلب هذا أيضاً، فننتهي إلى الصيغة الكبرى:

عبوديتي = استرقاقي هو حرية الشعب).

	سعادة الشعب	=	غير سعادتي
المعادلة رقم٢:	سعادة الشعب	=	لا سعادتي
	سعادة الشعب	=	تعاستي

(المعادلة المقلوبة: تعاستي، بؤسي، هو سعادة الشعب)

	ثروة الشعب	=	غير ثروتي
المعادلة رقم ٣:	ثروة الشعب	=	لا ثروتي
	ثروة الشعب	=	فقري

(المعادلة المقلوبة: فقري هو ثروة الشعب).ويمكن الاستمرار في هذا على هوى المرء(*) وتوسيعه بحيث يشمل تحديدات أخرى.

وكل ما هو مطلوب من أجل تشكيل مثل هذه المعادلات، فيما عدا الإلمام العام جداً بمثل تلك الأفكار التي يستطيع شترنر أن يصنع منها كلمة مركبة مع كلمة "الشعب"، هي معرفة التعبير الإيجابي للنتيجة الحاصلة في شكلها السلبي، مثلاً "الفقر" - من أجل "لا الثروة"، الخ. وهذا يعني أن ذلك القدر من المعرفة باللغة الذي يتطلبه المرء في الحياة اليومية كافٍ تماماً من أجل الوصول بهذه الطريقة إلى الاكتشافات الأبعث على الذهول.

وهكذا، فإن الحيلة بأكملها هنا تكمن في أن غير ثروتي وغير سعادتي وغير حريتي تتحول إلى لا ثروتي ولا سعادتي ولا حريتي. إن "غير" التي هي في المعادلة الأولى إنكار عام يمكن أن يعبِّر عن جميع أشكال الخلاف، مثلاً ينطوي بكل بساطة على فكرة أن تلك ثروتنا المشتركة، وليست ثروتي على سبيل الحصر - تتحول في المعادلة [الثانية] إلى إنكار ثروتي، سعادتي، الخ، وتنسب إلى [لا السعادة]، التعاسة، العبودية. [وطالما] ينكر عليَّ شكل معين من الثروة، ثروة [الشعب]، لكن لا [الثروة] عامة في أي حال من الأحوال، فإن [سانتشو يعتقد أن الفقر] يجب أن يكون من نصيبي. وإن هذا [يتحقق] من جراء أن

(*) ad libitum، باللاتينية في النص الأصلي.

لا حريتـي تتخـذ [هـي الأخـرى] شـكلاً إيجابيـاً وبذلـك تتحـول إلـى ["عبوديتـي"]. بيـد أن [لا حريتـي] يمكــن، طبعــاً، أن تعنــي [كذلــك] مئــة شــيء آخــر [غيــر هــذه العبوديــة]- مثــلاً يمكــن أن تكــون ["عبوديتــي"] غيــر حريــة جســدي، الــخ.

لقـد انطلقنـا لتونـا مـن المعادلـة الثانيـة: الشـعب = غيـر الأنـا. ولقـد كان فـي مقدورنـا كذلـك أن ننطلـق مـن المعادلـة الثالثـة: الأنـا = غيـر الشـعب، وعندئـذ، فـي حالـة الثـروة علـى سـبيل المثـال، وفقـاً للأسـلوب ذاتـه، يتقـرر فـي نهايـة الأمـر أن "ثروتـي هـي فقـر الشـعب". ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن القديـس سانتشـو لـن يمضـي هنـا بهـذه الطريقـة، بـل سـوف يحـل كليـاً علاقـات ملكيـة الشـعب عامـة، ومـن بعـد الشـعب بالـذات، كـي ينتهـي إلـى النتيجـة التاليـة: إن ثروتـي هـي دمـار لا ثـروة الشـعب فحسـب، بـل الشـعب بالـذات أيضـاً. ويتضـح هنـا إذن، بـأي اعتبـاط تصـرف القديـس سانتشـو عندمـا حـوّل غيـر الثـروة إلـى الفقـر. وإن قديسـنا ليطبـق هـذه الطـرق المختلفـة خبـط عشـواء ويسـتغل الإنـكار بالمعنـى الواحـد أولاً وبالمعنـى الآخـر ثانيـاً. وإن الاضطـراب الـذي يترتـب علـى ذلـك "يسـتطيع أن يـراه "حتـى" مـن لـم يقـرأ كتـاب شـترنر". (ويغـان، ص ١٩١).

و"تعمل" "الأنا" بالطريقة عينها ضد الدولة.

أنا لست الدولة.

الدولة = غير الأنا.

أنا = ليس من الدولة.

عدم الدولة = أنا.

أو بكلام آخر: إنني "العدم الخلاق" الذي تنقض الدولة فيه.

وإن هذا اللحن البسيط ليمكن إنشاؤه في أي موضوع.

وإن القضيـة الكبـرى التـي تشـكل أسـاس جميـع هـذه المعـادلات هـي: أنـا لسـت غيـر الأنـا. وإن غيــر الأنــا هــذه تعطــى أســماء متنوعــة يمكــن أن تكــون منطقيــة صرفــة مــن جهــة واحــدة، مثـلاً الوجـود فـي ذاتـه، الوجـود الآخـر، أو مـن جهـة أخـرى، أسـماء تصـورات عينيـة مثـل الشـعب، والدولـة، الـخ. ويمكـن أن نحصـل بهـذه الطريقـة علـى وهـم التطـور الفكـري بالانطـلاق مـن هـذه التسـميات وبإرجاعهـا بصـورة تدرجيـة، بواسـطة سلسـلة مـن المعـادلات أو الإبـدالات، إلـى غيـر

الأنـا التـي كانـت فـي الواقـع أساسـاً لهـا منـذ البدايـة. ولمـا كانـت العلاقـات الفعليـة المدخلـة علـى هـذا الغـرار تمثـل علـى اعتبارهـا مجـرد تعديـلات متنوعـة لغيـر الأنـا (ومجـرد تعديـلات إسـمية فضـلاً عـن ذلـك)، فـلا حاجـة علـى الإطـلاق لأن يقـال أي شـيء عـن هـذه العلاقـات الفعليـة نفسـها. وإن هـذا ليبعـث علـى مزيـد مـن السـخرية مـا دامـت العلاقـات [الفعليـة] هـي علاقـات الأفـراد أنفسـهم، والمنـاداة بهـا علـى أنهـا علاقـات [لغيـر] الأنـا إنمـا يثبـت أن المـرء لا يعـرف شـيئاً عنهـا. وعندئـذ تبسـط القضيـة حتـى درجـة كبيـرة بحيـث يسـتطيع حتـى "الغالبيـة العظمـى للأذهـان البليـدة فطريـاً" أن تتمثـل الحيلـة فـي أقـل مـن عشـر دقائـق. وإن هـذا ليعطينـا فـي الوقـت ذاتـه المقيـاس الفعلـي "لأوحديـة" القديـس سانتشـو.

ويعـرِّف القديـس سانتشـو فيمـا بعـد غيـر الأنـا المناهضـة للأنـا علـى أنهـا مـا هـو غريبعـن الأنـا، علـى أنهـا الغريـب بـكل بسـاطة. و"هكـذا" فـإن علاقـة غيـر الأنـا بالأنا هـي علاقة الاغتـراب؛ ولقـد أعطينا لتونـا الصيغـة المنطقيـة التـي يقـدم بهـا القديـس سانتشـو أي موضـوع أو علاقة لا علـى التعييـن على أنه مـا هـو غريـب عـن الأنـا، علـى أنـه اغتـراب الأنـا؛ ومـن جهـة أخـرى، يسـتطيع القديـس سانتشـو، كمـا سـوف نـرى فيمـا بعـد، أن يقـدم كذلـك أي موضـوع أو علاقـة علـى أنـه شـيء خلقتـه الأنـا وهـو يخصهـا. وإذا تركنـا جانبـاً بـادئ ذي بـدء الطريقـة الاعتباطيـة التـي يقـدم بهـا، أو لا يقـدم، أيـة علاقـة علـى أنهـا علاقـة اغتـراب (ذلـك أن الأشـياء جميعـاً يمكـن أن تتـلاءم مـع المعـادلات المذكـورة أعـلاه)، فإننـا نـرى هنـا منـذ الآن أنـه معنـي فقـط بإعلان جميـع العلاقـات الفعليـة، [وكذلـك] الأفـراد الفعلييـن، [المغرَبين] (كـي نحتفـظ مؤقتـاً بهـذا [التعبيـر] الفلسـفي)، كـي [يحوّلهـم] إلى عبـارة مجردة كليـاً: الاغتـراب. وهكذا [فبـدلاً] مـن أن يأخـذ علـى عاتقـه مهمـة وصف الأفـراد [الفعليين] فـي اغترابهـم [الفعلي] وفي الشـروط التجريبيـة لهـذا الاغتـراب، نجـد هنـا أنـه يكـرر تلـك العمليـة نفسـها التـي تسـتقيم فـي [إحـلال] [مجـرد فكـرة] الاغتـراب، فكـرة [الغريـب]، فكـرة المقـدس، محـل تطـور جميـع العلاقـات [التجريبيـة الخالصـة]. إن إحـلال مقولـة الاغتـراب [التـي هـي مـن جديـد تحديـد فكـري يمكـن اعتبـاره بمعنـى التناقـض، أو الفـرق، أو اللاهويـة (Non-identité)، الـخ] يجـد تعبيـره الأخيـر والأعلـى فـي كـون "الآخـر" يتحـول مـرة أخـرى إلـى "المقـدس"، والاغتـراب إلـى علاقـة الأنـا بـأي شـيء كان مأخـوذاً علـى أنـه المقـدس.

ونفضل أن نوضح العملية المنطقية في علاقة القديس سانتشو بالمقدس، ما دامت تلك هي الصيغة السائدة، وأن نلاحظ بصورة عابرة أن "الآخر" يعتبر كذلك بمعنى "الموجود" (بالإبدال)، بمعنى ما يوجد بصورة منفصلة عني، بصورة مستقلة عني، أو بالإبدال أيضاً بمعنى ما يملك الاستقلال من جراء تبعيتي، بحيث يستطيع القديس سانتشو أن يصف كل ما هو موجود بصورة مستقلة عنه على أنه المقدس، مثلاً بلوكسبرغ(١٤٧).

ولما كان المقدس شيئاً غريباً، فإن كل ما هو غريب يتحول إلى المقدس؛ ولما كان كل مقدس رباطاً وقيداً، فإن جميع القيود وجميع الروابط تتحول إلى المقدس. ولقد حصل القديس سانتشو من قبل بهذه الطريقة على أن كل ما هو غريب قد أصبح بالنسبة إليه مظهراً خالصاً، فكرة خالصة يتحرر منها بمجرد إنكارها والمناداة بأنه لا يملك هذه الفكرة. وكما رأينا لتونا بخصوص الأناني غير المتفق مع نفسه: يكفي أن يغير الناس وعيهم كي يصبح كل ما في العالم على خير ما يرام(*).

إن عرضنا بكامله قد بين كيف ينقد القديس سانتشو جميع الشروط الفعلية بتحويلها إلى "المقدس"، ويكافحها بمكافحة فكرته المقدسة عنها. إن هذه الحيلة البالغة البساطة، القائمة على تحويل الأشياء جميعاً إلى المقدس، قد تحققت، كما رأينا أعلاه بصورة مفصلة، من جراء قبول جاك المغفل لأوهام الفلسفة بكل نية مخلصة، من جراء اعتباره التعبير التأملي الإيديولوجي عن الواقع، المنفصل عن أساسه التجريبي على أنه الواقع بالذات، بالضبط كما اعتبر أوهام [المالك] الصغير [بشأن] البورجوازية على أنها ["الماهية المقدسة"] للبورجوازية، وبالتالي كان في مقدوره أن يتوهم أنه لا يعالج سوى أفكار وتصورات ليس غير. ولقد تحول البشر أيضاً إلى "مقدسين" بما لا يقل عن ذلك يسراً، لأنه بعد فصل أفكارهم عنهم وعن شروط وجودهم التجريبية، فقد صار في الإمكان اعتبارهم مجرد آنية (réceptacles) لهذه الأفكار، وبذلك يحوّل البورجوازي على سبيل المثال إلى الليبرالي المقدس.

إن العلاقة الإيجابية لسانتشو- الذي هو في آخر تحليل [كائن مؤمن جداً -] بالمقدس،

(*) all right، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(وهـي علاقـة يسـميها احترامـاً) تمثـل كذلـك [تحـت] اسـم "الحـب". إن "الحـب" علاقـة تعتـرف ["بالإنسـان"]، بالمقـدس، بالمثـل الأعلـى، بالكائـن الأسـمى، أو بمثـل هـذه العلاقـة الإنسـانية، المقدسـة، المثاليـة، الأساسـية. وإن أي شـيء يعبِّـر عـادة عـن وجـود المقـدس، مثـلاً الدولـة، السـجون، التعذيـب، الشـرطة، التجـارة، المقايضـة وتقلباتهـا الـخ، يسـتطيع سانتشـو أن يعتبـره "مثـالاً آخـر" عـن "الحـب". وإن هـذا الاصطـلاح الجديـد يمكنـه مـن كتابـة فصـول جديـدة عمـا سـبق لـه أن رفضـه بصـورة كليـة تحـت لصاقـة (étiquette) المقـدس والاحتـرام. تلـك هـي، فـي شـكل المقـدس، القصـة القديمـة لعنـزات الراعيـة تورالفـا[١٤٨] التـي ينخـدع بهـا الآن هـو وجمهـوره فـي سـياق الكتـاب بأسـره، كمـا خـدع بهـا سـيده مـن قبـل، لكـن مـن دون أن يضـع لهـا حـداً بمثـل ذلـك الدهـاء الـذي أظهـره فـي تلـك الأيـام، حيـث كان لا يـزال حامـل دروع دنيويـاً. وعلـى العمـوم، فـإن سانتشـو فقـد منـذ تكريسـه (canonisation) كل دهـاءه الأصلـي.

ويبـدو أن الصعوبـة الأولـى تظهـر مـن أن هـذا المقـدس هـو بحـد ذاتـه شـديد التنـوع، بحيـث لا بـد للمـرء، فـي نقـد شـيء مقـدس محـدد، أن ينقـد المحتـوى المحـدد ذاتـه مـن دون أي اعتبـار لطابعـه المقـدس. ويتفـادى القديـس سانتشـو الجنـوح علـى هـذه الصخـرة بـأن يجعـل مـن كل الأشـياء المحـددة التـي يأتـي علـى ذكرهـا مجـرد "المثال"علـى المقـدس، بالضبـط كما أنـه ليس بذي بـال في منطـق هيغل مـا إذا أوردت الـذرة أو الشـخصية مـن أجـل تفسـير "الوجـود لذاتـه"، أو النظـام الشمسـي والمغناطيسـية أو الحـب الجنسـي كمثـال علـى الجاذبيـة. وبالتالـي فـإذا كان "الكتـاب" يفـور بالأمثلـة، فليـس بمحـض المصادفـة فـي أي حـال مـن الأحـوال، بـل تمتد جـذوره في أعمـاق ماهيـة منهج العـرض الوارد فيـه. ذلك كان الإمـكان "الأوحـد" بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو مـن أجـل إحـداث مظهـر لنـوع مـا مـن المحتـوى، الـذي يمكـن أن نصـادف نموذجـه فـي سـرفانتس، حيـث يتحـدث سانتشـو، هـو الآخـر بالأمثلـة طـوال الوقـت. وهكـذا فـإن فـي مقدورسانتشـو أن يقول:"مثال آخـر على المقـدس" (غير الباعث علـى الاهتمام) "هـو العمـل". ولقـد كان فـي مقـدوره أن يسـتطرد: ومثـال آخـر هـو الدولـة، ومثـال آخـر هـو العائلـة، ومثـال آخـر هـو الريـع العقـاري، ومثـال آخـر هـو القديـس يعقـوب (القديـس جـاك المغفـل)، ومثـال آخـر هـي القديسـة أورسـولا وعذراواتهـا الإحـدى عشـرة ألفـاً. وفـي الحقيقـة، فـإن جميـع هـذه الأمـور،

فـي مخيلتـه، تملـك هـذا الشـيء المشـترك: إنهـا تجسـيد "المقـدس". بيـد أنهـا متغايـرة بصـورة جذريـة فـي الوقـت ذاتـه، وهـذا هـو بالضبـط مـا يحددهـا. فليـس فـي الإمـكان [الحديـث عنهـا] وفقـاً لطابعهـا النوعـي إلا [بقـدر] مـا [لا] يأتـي ذكرهـا مـن زاويـة "المقـدس".

ليـس [العمـل] الريـع العقـاري، وليـس [الريـع العقـاري] الدولـة؛ وبالتالـي فـإن الأمـر الهـام هـو أن يعيّـن [حتـى أيـة درجـة] توجـد الدولـة والريـع العقـاري والعمـل [بصـورة مسـتقلة] عـن فكـرة المـرء عـن طابعهـا المقـدس. وإن [القديـس] ماكـس يحقـق ذلـك بالطريقـة التاليـة. [إنـه يزعـم أنـه] يتحـدث عـن الدولـة، و[العمـل]، الـخ، ومـن ثـم يعـرِّف ["الدولـة"] علـى اعتبارهـا واقـع [فكـرة مـا] - الحـب، [التضامـن]، الموجـود، السـلطة علـى [الأفـراد]، و - بواسـطة قفـزة سـريعة - واقـع "المقـدس"، وهـي نتيجـة [كان فـي مقـدوره] اسـتخلاصها [منـذ] البدايـة. أو إنـه [يقـول] عـن العمـل إنـه يعتبـر مهمـة حياتيـة، [دعـوة]، رسـالة - "المقـدس"! وهـذا يعنـي أن الدولـة والعمـل يصنفـان بـادئ الأمـر فـي نـوع خـاص للمقـدس قـد هيـىء سـلفاً بالطريقـة ذاتهـا، ومـن ثـم فـإن هـذا المقـدس الخـاص يحـل مـن جديـد فـي "المقـدس" عامـة، وهـذا كلـه يمكـن أن يتحقـق مـن دون أن يقـال أي شـيء عـن العمـل والدولـة. وإن اللقمـة نفسـها ليمكـن عندئـذ اجترارهـا مـن جديـد فـي أيـة فرصـة ملائمـة، لأن كل شـيء هـو فـي المظهرموضـوع للنقـد يخـدم صاحبنـا سانتشـو كمجـرد ذريعـة مـن أجـل المنـاداة بـأن الأفـكار المجـردة والمحمـولات المحوّلـة إلـى حامـلات (التـي ليسـت شـيئاً سـوى حلي للمقـدس، وفـي الاحتياطي مخـزون كاف منهـا بصـورة دائمـة) هـي مـا جعلهـا إيـاه منـذ البدايـة، يعنـي المقـدس. وفـي الحقيقـة أنـه أرجـع كل شـيء إلـى تعبيـره الكلاسـيكي الجامـع حيـن قـال عنـه إنـه "مثـال آخـر علـى المقـدس". إن التعريفـات التـي التقطهـا سـماعاً، والتـي يفتـرض أنهـا مضافـة إلـى المحتـوى، نافلـة كليـاً، ويتبيـن كذلـك عنـد دراسـتها عـن كثـب أنـه لا تأتـي بـأي تعريـف أو محتـوى، وإنهـا لا تعـدو كونهـا مبتـذلات جاهلـة. وطبيعـي أن أي امـرئ يسـتطيع أن يتقـن هـذه "البراعـة الفكريـة" الرخيصـة التـي تتخلـص عاجلاً مـن أي موضـوع كائنـاً مـا كان حتـى قبـل أن تعـرف أي شـيء عنـه، لا فـي عشـر دقائـق هـذه المـرة كمـا قيـل أعـلاه، بـل فـي خمـس دقائـق فقـط. ويهددنـا القديـس سانتشـو فـي "تعليقـه" "بالأبحـاث" عـن فويربـاخ، والاشـتراكية، والمجتمـع البورجـوازي، وأشـياء أخـرى لا يعرفهـا إلا قديسـنا وحـده. ونسـتطيع هنـا أن نُرجِـع، بصـورة مؤقتـة، منـذ الآن، هـذه الأبحـاث إلـى أبسـط تعبيـر عنهـا كمـا يلـي:

البحث الأول: مثال آخر على المقدس فويرباخ.

البحث الثاني: مثال آخر على المقدس: الاشتراكية.

البحث الثالث: مثال آخر على المقدس: المجتمع البورجوازي.

البحث الرابع: مثال آخر على المقدس: "البحث" على الطريقة الشترنرية.

الخ، إلى ما لا نهاية(*).

إن الصخرة الثانية التي كان لا بد للقديس سانتشو، لو فكَّر قليلاً، من الجنوح بمركبه عليها بصورة محتومة هي مسلمته الخاصة بأن كل فرد متميز كلياً من أي فرد آخر، شيء ما أوحد. ولما كان كل فرد مختلفاً كلياً عن أي فرد آخر، لما كان الآخر، فإنه ليس من الضروري في أي حال من الأحوال أن يكون ما هو غريب، مقدس، بالنسبة إلى الفرد الواحد، غريباً ومقدساً بالنسبة إلى الفرد الآخر؛ بل إنه لا يمكن أن يكون كذلك. وإن الأسماء المشتركة: الدولة، والدين، والأخلاق، الخ، الخ، يجب ألا تضللنا، لأن هذه الأسماء ليست سوى تجريدات انطلاقاً من الموقف الفعلي لأفراد منفصلين، وإن هذه الموضوعات لا تصبح موضوعات وحداء بالنسبة إلى كل واحد من هؤلاء الأفراد إلا بنتيجة الموقف المختلف كلياً حيالها للأفراد الأوحدين، وبالتالي موضوعات مختلفة كلياً لا تملك شيئاً مشتركاً باستثناء اسمها. وبنتيجة ذلك فقد كان القديس سانتشو يملك على الأكثر الحق في أن يقول: بالنسبة إليَّ، أنا القديس سانتشو، فإن الدولة، والدين، الخ. هي الغريب، المقدس: وبدلاً من ذلك فإن عليه أن يجعلها المقدس المطلق، المقدس من أجل جميع الأفراد - وإلا كيف كان يستطيع أن يصنع أناه المنشأة، أنانية المتفق مع ذاته، الخ، وإلا كيف كان يستطيع أن يكتب "كتابه" بأكمله؟ أما إنه لا يخطر في باله لحظة واحدة أن يجعل كل "أوحد" مقياساً "لأوحديته" الخاصة، وأما مقدار ما يستخدم "أوحديته" الخاصة كمقياس، كقاعدة أخلاقية يجب أن تطبق على جميع الأفراد الآخرين الذين يقحمهم، هو الداعية الصالح للأخلاق، في فراش بروكرست[١٤٩] الخاص به، فهذا ما يتضح سلفاً، فيما يتضح منه، من حكمه على

(*) in infinitum، باللاتينية في النص الأصلي.

كلوبستوك الراحل الذي طواه النسيان. إنه يعارض كلوبستوك بهذه الحكمة الأخلاقية؛ كان يجب عليه أن يتخذ "موقفاً شخصياً كلياً من الدين"، وعندئذ ما كان ينتهي إلى دين شخصي، كما يمكن للمرء أن يستنتج منطقياً (وهذا ما يفعله "شترنر" نفسه مرات لا تحصى، مثلاً بخصوص المال)، بل إلى "انحلال وابتلاع الدين" (ص ٨٥)، وبالتالي إلى نتيجة عامة بدلاً من النتيجة الشخصية الوحداء . فكأن كلوبستوك لم يحصل من جانبه على "انحلال وابتلاع الدين"، وهو في الحقيقة انحلال شخصي وأوحد كلياً، بحيث أن كلوبستوك الأوحد هذا، يستطيع وحده، أن "يحققه"، انحلال كان في مقدور "شترنر" أن يقيس أوحديته بكل سهولة من التقليدات العديدة الفاشلة له. وفي رأيه أن موقف كلوبستوك من الدين لم يكن "شخصياً"، بالرغم من أنه كان خصوصياً كلياً، وقد جعل منه، هو كلوبستوك، كلوبستوك الذي نعرفه. ما كان يمكن لهذا الموقف من الدين أن يكون "شخصياً" بالنسبة إلى شترنر إلا إذا تصرف الشاعرحياله ليس بوصفه كلوبستوك، بل بوصفه فيلسوفاً ألمانياً حديثاً.

إن "الأناني بالمعنى العادي"، الذي ليس طيعاً بقدر شيليغا والذي سبق أن طرح أعلاه جميع أنواع الاعتراضات، يقدم هنا الرد التالي ضد قديسنا: ليس لي من هدف في الواقع، وإنني لمتأكد من ذلك - لا شيء في سبيل المجد(*) - سوى مصلحتي الخاصة ولا شيء آخر. وفيما عدا ذلك فإنني أستمتع بالتفكير بأنني خالد ويمكن أن تكون لي مصلحة في السماء أيضاً. أينبغي لي أن أضحي بهذه الأفكار الأنانية في مصلحة الأناني المتفق مع ذاته وفي مصلحة وعيه فقط، الأمر الذي لا يدرعليَّ فلساً واحداً؟ يقول لي الفلاسفة: هذا لا إنساني. ماذا يهمني؟ ألست كائنا إنسانياً؟ أليس كل ما أفعله إنسانياً، وإنسانياً لأنني أفعله، وهل يعنيني "تحت أي عنوان" يصنف "الآخرون" أفعالي؟ أنت، يا سانتشو، وأنت فيلسوف بكل تأكيد، لكنك فيلسوف مفلس - وأنت لا تستحق بسبب فلسفتك أي اعتماد مالي، ولا تستحق بسبب إفلاسك أي اعتماد إيديولوجي - تقول لي إنني لا أملك موقفاً شخصياً من الدين. وبالتالي، فإن ما تقوله هو نفس ما يقوله لي الفلاسفة الآخرون، لكنه يفقد في

(*) rien pour la gloire، بالفرنسية في النص الأصلي.

حالتك كل معنى كما هي العادة، ما دمت تسمي "شخصياً" ما يسمونه هم "إنسانياً". أيمكنك من دون ذلك أن تتحدث عن أية "فردية" أخرى غير فرديتك الخاصة وتحوّل من بعد هذا الموقف الشخصي إلى سلوك عام؟ إنني أملك أنا الآخر، إذا شئت، على طريقتي الخاصة موقفي من الدين، وهو موقف نقدي أيضاً. أولاً، لا أتردد مطلقاً في التضحية به حالما يسعى إلى التدخل في تجارتي وعرقلتها؛ ثانياً، إنه لما ينفعني في أعمالي أن أعتبر متديناً (كما ينفع صاحبي البروليتاري أن يأكل على الأقل في السماء الفطيرة التي آكلها على هذه الأرض الدنيا)؛ وأخيراً، إنني أحول السماء إلى ملكيتي. إن السماء ملكية مضافة إلى الملكية(*)، بالرغم من أن مونتسيكيو، الذي كان على أية حال نمطاً مختلفاً كلياً من الرجال عنك، قد حاول أن يقنعني بأنها إرهاب مضاف إلى الإرهاب(**). إن موقفي من السماء لا يشبه موقف أي شخص آخر، وبفعل الموقف الأوحد الذي اتخذه حيالها، هذا العقد الذي أبرمه معها، فهي موضوع أوحد، سماء وحداء. وهكذا فأنت تنقد على الأكثر فكرتك عن سمائي، لكن لا تنقد سمائي. والآن الخلود! أنت تصبح هنا مضحكاً بكل بساطة. إنني أنكر أنانيتي - كما تؤكد كي تسِّر الفلاسفة - لأنني أخلدها وأعلن أن قوانين الطبيعة والفكر لاغية وجوفاء حالما تريد أن تفرض على وجودي تحديداً لا يصدر عني ذاتياً وهو يضايقني حتى درجة فائقة، ألا وهو الموت. إنك تسمي الخلود "استقراراً بائساً" - فكأنني لا أستطيع أن أحيا باستمرار حياة "زاخرة بالأحداث" ما دامت الأعمال مزدهرة في هذا العالم أو العالم الآخر وأستطيع أن أتاجر بأشياء أخرى غير "كتابك". وما الذي يمكن أن يكون "أكثر استقراراً" من الموت، الذي يضع حداً لحركتي رغماً عن إرادتي ويغرقني في الكلّي، في الطبيعة، في النوع، في - المقدس؛ والآن لنتحدث عن الدولة، والقانون، والشرطة! لعلها تظهر في نظر عدد لا يحصى من "الأنا" قوى غريبة؛ أما أنا فأعرف أنها قواي الخاصة. وعلى أي حال - وعند هذه النقطة يدير صاحبنا البورجوازي ظهره من جديد إلى صاحبنا القديس، وذلك

(*) une propriété ajoutée à la propriété، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) une terreur ajoutée à la terreur، بالفرنسية في النص الأصلي.

بحركة لطيفة من رأسه هذه المرة - بقدر ما يتعلق الأمر بي، فإنك تستطيع إذا كان الأمر يحلو لك أن تواصل وعيدك ضد الدين، والسماء، والله، وهكذا دواليك، فإنني أعرف في واقع الأمر أنك في جميع الأمور التي تهمني - الملكية الخاصة، والقيمة، والسعر، والنقد. والبيع والشراء - سوف تجد على الدوام ما هو "خاص" بي.

لقد رأينا لتونا كيف يختلف الأفراد الواحد عن الآخر. لكن كل فرد هو بدوره متنوع في ذاته. وهكذا يستطيع القديس سانتشو، إذ يعكس ذاته في إحدى هذه الصفات، أي إذ يفهم ذاته، يحدد "أناه" من خلال أحد هذه التحديدات، أن يحدد وعلى المنوال نفسه بذلك موضوع الصفات، وهذه الصفات بالذات على أنها الغريب والمقدس؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى جميع الصفات الأخرى. هكذا، فإن ما هو موضوع لجسده مثلاً يصبح المقدس لروحه، أو ما هو موضوع لحاجته إلى الراحة يصبح المقدس لحاجته إلى الحركة. إن ما وصف أعلاه من تحويله لكل ما يمكن وما لا يمكن فعله إلى إنكار للذات قائم على هذه الحيلة. والأكثر من ذلك أن أناه ليست أنا فعلية، بل أنا المعادلات السابقة فحسب، الأنا نفسها التي تمثل في المنطق الصوري (Logique formelle)، في نظرية الأحكام (Théorie des jugements)، تحت اسم كايوس(càius) [١٥٠].

"ومثال آخر"، ألا وهو مثال عام على تكريس العالم، هو تحويل النزاعات العملية، أي النزاعات بين الأفراد وشروطهم الحياتية الفعلية، إلى نزاعات مثالية، أي نزاعات بين هؤلاء الأفراد والأفكار التي يشكلونها أو يقحمونها في رؤوسهم. وإن هذه الحيلة لبسيطة حتى الدرجة القصوى أيضاً. فكما جعل القديس سانتشو من قبل أفكار الأفراد شيئاً قائماً بصورة مستقلة، كذلك يفصل هنا الانعكاس المثالي للنزاعات الفعلية عن هذه النزاعات نفسها ويمنحها وجوداً مستقلاً. إن التناقضات الفعلية التي هي تناقضات الفرد نفسه تتحول إلى تناقضات بين الفرد وفكرته الخاصة، أو كما يعبر القديس سانتشو عن ذلك بمزيد من البساطة إلى تناقضات مع الفكرة بصفتها هذه، مع المقدس. وهكذا ينجح في تحويل النزاع الفعلي، المصدر الأصلي لانعكاسه المثالي، إلى نتيجة لهذا المظهر الإيديولوجي. وها هو

ينتهي بهذه الطريقة إلى النتيجة التالية: ليس المقصود اللإبطال العملي للنزاع العملي، بل مجرد التخلي عن فكرة هذا النزاع، وهو التخلي الذي يستحث البشر بكل إصرارعلى تنفيذه، وذلك بوصفه داعياً أخلاقياً صالحاً.

وبعدما حول القديس سانتشو على هذا الغرار جميع التناقضات والنزاعات التي يجد الفرد نفسه فيها إلى مجرد تناقضات ونزاعات بين الفرد وفكرة واحدة من أفكاره استقلت عنه وهيمنت عليه، وبالتالي فإنه من "السهل" جداً تحويلها إلى الفكرة، الفكرة المقدسة، المقدس - بعد هذا ليس أمام الفرد إلا أن يصنع شيئاً واحداً: أن يرتكب الخطيئة ضد الروح القدس، أن يجرد هذه الفكرة ويعلن أن المقدس شبح. إن هذه الشعوذة المنطقية التي يمارسها الفرد بحق نفسه يعتبرها قديسنا أحد الجهود الأسمى للأناني. وعلى أية حال، فإن في مقدور كائن من كان من جهة أخرى، أن يرى كم من السهل بهذه الطريقة أن ينادي من وجهة النظر الأنانية بأن جميع النزاعات والحركات الحادثة تاريخياً ثانوية، وذلك من دون معرفة أي شيء عنها. ولا يحتاج المرء في سبيل ذلك لأكثر من أن يستخلص بعضاً من الصيغ المعتمدة عادة في مثل هذه الحالات، وأن يحوِّلها بالطريقة المبينة إلى "المقدس"، وأن يصف الأفراد على أنهم عبيد لهذا المقدس، وأخيراً، أن يؤكد نفسه على أنه امرؤ يحتقر "المقدس في ذاته".

وإن فرعاً آخر لهذه الحيلة المنطقية، وهي في الحقيقة مناورة قديسنا المفضلة، هو استغلال كلمات المصير، والدعوة، والواجب، الخ، الذي يسهل عليه بصورة لا متناهية تحويل كل ما يحلو له إلى المقدس. وبالفعل، فإن الفرد يظهر في الدعوة، والمصير، والواجب، الخ، في مخيلته الخاصة على أنه شيء مختلف عما هو في حقيقة الأمر، على أنه الغريب، وبالتالي على أنه المقدس، وهو يفرض حيال وضد وجوده الخاص فكرته عما يجب أن يكون، ويمنحها الشرعية، ويجعل منها المثل الأعلى، المقدس. وهكذا يستطيع القديس سانتشو، حين يكون ذلك ضرورياً له، أن يحوّل أي شيء إلى المقدس بواسطة السلسلة التالية من الإبدالات: أن يعد المرء نفسه، أي يختار مصيراً (أقحم هنا أي محتوى يحلو لك) لنفسه؛ أن يختار هذا المصير من حيث هو مصير، أن يختار مصيراً مقدساً، أن

يختار المصير بوصفه المقدس، أي أن يختار المقدس بوصفه مصيراً. أو: أن يعد المرء، أي أن يكون له مصير، أن يكون له المصير، المصير المقدس، المصير بوصفه المقدس، المقدس بوصفه مصيراً، المقدس من أجل المصير، مصير المقدس.

والآن لا يتبقى له طبعاً إلا أن يستحث الناس بكل حمية كي يختاروا لأنفسهم مصير انعدام أي مصير، دعوة انعدام أي دعوة، واجب انعدام أي واجب - بالرغم من أنه لا يفعل شيئاً عبر "الكتاب" بأسره، "حتى وبما فيه" "التعليق"، إلا أن يختار المصائر للناس، ويكلفهم بواجبات متنوعة، ويدعوهم مثله كمثل رسول جديد في البرية إلى إنجيل الأنانية الحقيقية الذي صح عنه القول المأثور: أن المدعوين كثرة، لكن واحداً - إيه، يا أوكونيل- مُصطفى.

لقد سبق لنا أن رأينا أعلاه كيف يفصل القديس سانتشو أفكار الأفراد عن شروطهم الحياتية، عن نزاعاتهم وتناقضاتهم العملية، كي يحوّلها بعدئذ إلى المقدس. ولذا تتخذ هذه الأفكار هنا شكل المصير والدعوة والواجب. وإن للدعوة عند القديس سانتشو مظهراً مزدوجاً: فهي أولاً الدعوة التي يختارها آخرون لي - وقد حصلنا من قبل على أمثلة عليها بخصوص الصحف الملأى بالسياسة والسجون التي أخطأ قديسنا بشأنها فظنها بيوتاً للإصلاح الأخلاقي(*). ومن بعد فإن الدعوة تظهر على أنها دعوة يؤمِّن الفرد نفسه بها. وإذا كانت الأنا منفصلة عن جميع شروطها الحياتية التجريبية، عن فعاليتها، عن شروط وجودها، وإذا كانت منفصلة عن العالم الذي يشكل أساسها وعن جسدها الخاص، فإنه ليس لها إذن، بكل تأكيد، أية دعوة أخرى سوى أن تمثل دور كايوس الأحكام المنطقية، الأمر الذي يتيح للقديس سانتشو أن يضع المعادلات المعطاة أعلاه. وفي العالم الواقعي، من جهة أخرى، حيث للأفراد حاجات، فإن لديهم بنتيجة ذلك، بصورة مسبقة، دعوة وواجباً ؛ ولا أهمية بادئ الأمر لما إذا كانت تظهر في مخيلتهم كذلك على أنها دعوتهم. وعلى أية

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] لقد سبق لنا من قبل أن ناقشنا مطولًا هذا النوع من الدعوة، حيث ينتقى واحد من شروط حياة طبقة ما من قبل الأفراد الذين يشكلون هذه الطبقة ويطرح على أنه مطلب عام قابل للتطبيق على جميع البشر، حيث يصنع البورجوازي من السياسة والأخلاق، التي لا غنى عن وجودها بالنسبة إليه، دعوة جميع البشر.

حال، فإنه من المفروغ منه أن الأفراد، لأنهم يملكون وعياً، يشكلون فكرة عن هذه الدعوة التي أعطاهم إياها وجودهم التجريبي، وبذلك يوفرون للقديس سانتشو فرصة التشبث بكلمة "دعوة"، يعني التعبير الذهني لشروط الحياة الفعلية، وغض النظر عن هذه الشروط الحياتية الفعلية بالذات. ومثال ذلك أن البروليتاري، الذي هو مدعو مثله مثل أي شخص آخر لتلبية حاجاته، والذي ليس في وضع يمكنه من تلبية حتى الحاجات التي يشترك فيها مع الناس الآخرين، والذي تدنيه ضرورة العمل ١٤ ساعة يومياً إلى مستوى حيوان الجر، والذي يجعل منه التنافس شيئاً وسلعة تجارية، والذي يطرد من مركزه كمجرد قوة منتجة، وهو المركز الوحيد الباقي له، من قبل القوى المنتجة الأخرى الأشد بأساً منه - هذا البروليتاري يواجه، من جراء هذه الأسباب وحدها، الواجب الفعلي الذي يفرض عليه قلب شروط وجوده. ومن المؤكد أنه يستطيع أن يتخيل هذا الواجب على أنه "دعوته"، ويستطيع كذلك، إذا شاء أن ينخرط في الدعاية، أن يعبر عن "دعوته" بالقول إن دعوة البروليتاري الإنسانية هي أن يفعل هذا الأمر أو ذاك، وبالأحرى ما دام مركزه لا يتيح له حتى تلبية الحاجات الناجمة عن طبيعته الإنسانية المباشرة. إن القديس سانتشو لا يعنى بالواقع الذي تقوم عليه هذه الفكرة، ولا بالهدف العملي للبروليتاري - إنه يتشبث بحزم بكلمة "دعوة" وينادي بها على أنها المقدس، وبالبروليتاري على أنه عبد للمقدس - وهي الطريقة الأسهل من أجل الإحساس بالتفوق و"الاستطراد قدماً".

وعلى الأخص في الظروف التي كانت قائمة حتى هذا الحين، حين كانت طبقة واحدة تحكم دائماً، حين كانت شروط حياة الفرد تتطابق دائماً مع شروط حياة طبقة. وحين كان الواجب العملي لكل طبقة صاعدة حديثاً لا بد أن يتراءى في نظر كل واحد من أفرادها على أنه واجب عام، وحين لم يكن في مقدور كل طبقة أن تطيح فعلياً الطبقة السابقة لها إلا بتحرير أفراد جميع الطبقات من الأغلال الخصوصية التي كانت تقيدهم حتى ذلك الحين - في ظل هذه الظروف كان من الأمور الجوهرية أن يوصف واجب الأعضاء الفرادى لطبقة تسعى إلى الهيمنة على أنه واجب مشروع لجميع البشر.

وعلى أي حال، فحين يؤكد البورجوازي للبروليتاري على سبيل المثال، أن واجبه

الإنساني، هو البروليتاري، هو أن يشتغل أربع عشرة ساعة يومياً، فإن البروليتاري على حق تام إذن، في الرد باللغة نفسها، أن واجبه على النقيض من ذلك هو أن يطيح النظام البورجوازي بأسره.

ولقد سبق لنا أن رأينا مراراً وتكراراً القديس سانتشو يطرح سلسلة كاملة من الواجبات التي تنصهر جميعاً في الواجب النهائي الواقع على كاهل جميع البشر، ألا وهو واجب الأنانية الحقيقية. لكن القديس سانتشو حتى في فواصل انعدام التفكير، حين لا يملك الوعي بأنه خالق وخليقة في وقت واحد، يتدبر أمره كي يقيم واجباً بفضل التمييز التافه التالي:

ص ٤٦٦: "إذا ما كنت تريد أن تستمر في طريق التفكير فهو من شأنك الخاص. إذا أردت أن تتوصل، أنت، إلى أي شيء هام في طريق التفكير، إذن"، (إن الشروط والقيود تبدأ بالنسبة إليك) "إذن... أي امرئ يريد أن يفكر يملك واجباً بكل تأكيد، هو يحدده لنفسه إذن، بصورة شعورية أو لا شعورية: لكن أحداً لا يملك واجب التفكير عامة".

أولاً، إذا تركنا جانباً أي محتوى آخر لهذه العبارة، فإنها مغلوطة حتى من وجهة نظر القديس سانتشو الخاصة، بمعنى أن الأناني المتفق مع ذاته، سواء أراد ذلك أم رفضه، يملك "واجب" التفكير بصورة لا يطاولها الشك. فلا بد له أن يفكر، من جهة واحدة، كي يلجم الجسد الذي لا يمكن أن يروّض ألا من خلال الروح، من خلال الفكر، ومن جهة ثانية، كي يكون قادراً على تلبية تحديده الفكري بوصفه خالقاً وخليقة. وبنتيجة ذلك، فإنه يحدد لكل عالم الأنانيين المخدوعين "واجب" وعي ذواتهم - وهو "واجب" لا شك أن إنجازه غير ممكن من دون عناء التفكير.

وكيما يحوّل المرء هذه الصيغة من شكل التمييز التافه إلى موضوعة منطقية لا بد له بادئ الأمر أن يتخلص من كلمة "هام". إن الشيء "الهام" الذي يسعى كل شخص إلى تحقيقه في الفكر يختلف وفقاً لدرجة ثقافته، وشروط حياته، وهدفه في حينه. وبالتالي فإن القديس ماكس لا يعطينا هنا أي مقياس حازم من أجل تقرير متى يصبح فعل التفكير واجباً يفرضه المرء على نفسه وإلى أي مدى يستطيع المرء أن يمضي في الفكر من دون أن يفرض على نفسه أي واجب - إنه يقصر نفسه على التعبير النسبي "هام". بيد أن كل شيء يكون

"هاماً" بالنسبة إليَّ إذا كان يلتمس مني التفكير، وكل شيء أفكر فيه يكون "هاماً". وبالتالي فبدلاً من "إذا أردت أن تتوصل أنت إلى أي شيء هام في طريق التفكير"، يجب أن يقال: "إذا أردت أن تفكر بكل بساطة". ومهما يكن من أمر، فإن هذا لا يتوقف في أي حال من الأحوال على رغبتك أو على انعدامها، لأنك تملك شعوراً ولا تستطيع أن تلبي حاجاتك إلا بواسطة فعالية لا بد لك فيها أن تستعمل كذلك شعورك. وفيما عدا ذلك،فإنه من الواجب حذف الشكل الشرطي. "إذا أردت أن تفكر" - إذن فأنت تفرض على نفسك بصورة قبلية (a priori) "واجب" التفكير: ولا حاجة للقديس سانتشو أن يعلن هذا اللغو بمثل هذه الأبهة: إن الصيغة بكاملها لم تتخذ على أي حال هذا الشكل من التميز التافه واللغو الأبهى إلا في سبيل تغطية المحتوى: بوصفك كائناً محدداً، فعلياً، فإن لك تحديداً، واجباً، سواء أكنت واعياً له أم لا(*). إنه ينشأ من حاجتك ومن روابط هذه الحاجة بالعالم القائم. إن حكمة سانتشو الحقيقية كلها تكمن في أنه يجعل فعل التفكير، والحياة، والتحديد بأي شيء كان، رهناً بإرادتك. وإنه ليخشى أن يكف التحدد لولا ذلك عن أن يكون تحددك الذاتي. وحين توحد نفسك مع تفكيرك، أو حسب الحاجة مع إرادتك، فإنه من المفروغ منه إذن، أن كل شيء في هذا التجريد لا يطرحه تفكيرك أو إرادتك ليس هو تحدداً ذاتياً- وكذلك بالتالي، على سبيل المثال، تنفسك، ودورتك الدموية، وفكرك، وحياتك، الخ. وعلى أية حال، فعند القديس سانتشو أن التحدد الذاتي لا يستقيم حتى في الإرادة، بل كما رأينا سابقاً بشأن الأناني الحقيقي في التحفظ الذهني(**) من اللا مبالاة حيال أي نوع من التحدد - وهي لا مبالاة نصادفها من جديد هنا في صورة انعدام التحدد. وإن هذا ليجب أن يتخذ، حسب طريقته "الشخصية" تماماً في العمل بالإبدالات، الشكل التالي: إنه يطرح في مواجهة كل تحدد فعلي انعدام التحدد على أنه تحدد، ويرسم في كل لحظة تمييزاً بين ذاته وذاته على

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] أنت لا تستطيع أن تعيش وتأكل وتنام، أنت لا تستطيع أن تتحرك أو تصنع أي شيء كان من دون أن تفرض على نفسك في الوقت ذاته واجباً، تحديداً - وبالتالي فهذه نظرية بدلاً من أن تتخلص كما تزعم من تحديد الواجبات والدعوات، الخ، تجعل على النقيض من ذلك كل تجلي الظاهرة للحياة، وحتى من الحياة ذاتها، "دعوة".

(**) reservatio memtalis، باللاتينية في النص الأصلي.

أنه انعدام التحدد، وبذلك فهو في كل لحظة غير ما هو، شخص ثالث، وفي الحقيقة الآخر بصورة ممتازة، الآخر المقدس، الآخر المعارض لكل أوحدية، المفتقر إلى التحدد، العام، العادي(*) - الصعلوك.

وإذا كان القديس سانتشو ينجو من التحديد بواسطة وثبة إلى انعدام التحديد (الذي هو تحديد أيضاً، وفي الحقيقة أسوأ التحديدات على الإطلاق)، فإن المحتوى العملي، الأخلاقي، لكل هذه الحيلة هو إذن، فيما عدا ما قيل أعلاه بشأن الأناني الحقيقي، دفاع عن الدعوة المفروضة على كل فرد في إطار العالم الراهن. ومثال ذلك، أنه إذا أكد العمال في دعايتهم الشيوعية إن دعوة ومصير وواجب كل شخص هو أن يحقق التطور الشامل لجميع قدراته، بما في ذلك، على سبيل المثال، القدرة على التفكير، فإن القديس سانتشو لا يرى في هذا إلا الدعوة إلى شيء غريب، لا يرى فيه إلا توليد "المقدس". وإنه ليسعى إلى تحرير العامل من ذلك بأن ينحاز، ضد حاجة هذا العامل الخاصة إلى تغيير شروط حياته، وهي الحاجة المعلنة أو المميزة التي نادى بها الآخرون على أنها دعوته، إلى جانب الفرد كما أصبح، على حساب قدراته الخاصة، مشوهاً وخاضعاً لدعوة ضيقة بفعل تقسيم العمل. إن ما يؤكد هنا في شكل دعوة ومصير هو على وجه الدقة إنكار الدعوة التي نشأت حتى الآن في الممارسة من تقسيم العمل، أي الدعوة الوحيدة الموجودة بصورة فعلية - وبالتالي إنكار الدعوة(**) كلياً. إن التحقيق الكامل للفرد لن يكف عن الظهور بوصفه مثلاً أعلى، بوصفه دعوة، الخ، إلا حين ينتقل الحافز الدنيوي الذي يحرض التطور الفعلي لقدرات الفرد إلى إشراف الأفراد أنفسهم، وهو ما يرغب الشيوعيون فيه.

وأخيراً، فإن كل الثرثرة عن الدعوة لا تستهدف، في المنطق الأناني، إلا تمكين صاحبنا القديس من النظر إلى أعماق الأشياء ومن بعد تدميرهامن دون الحاجة إلى المساس بها. هكذا، على سبيل المثال، يعتبر هذا الشخص أو ذاك العمل، والأعمال التجارية، الخ، على

(*) إنه لمن السهل لغوياً، في الألمانية، الانتقال من "العمومي" (Allgemein) إلى "العادي" (Gemein).

(**) إن كلمة (beruf) التي نترجمها هنا بكلمة "دعوة" تعني أيضاً ممارسة الدعوة، أو الحرفة.

أنها دعوته، وبذلك فإنها تصبح عملاً مقدساً، أعمالاً تجارية مقدسة، المقدس. وإن الأناني الحقيقي لا يعتبرها بوصفها دعوته؛ وبذلك فإن العمل المقدس، الأعمال التجارية المقدسة، تبطل دفعة واحدة. والحال، إنها لاتزال كما كانت عليه، ولم يزل هو نفسه على ما كان عليه. ولا يخطر في باله أن يتقصى ما إذا كان العمل، والأعمال التجارية، الخ، هذه الأنماط لوجود الأفراد، بمحتواها الواقعي وعملية تطورها، تؤدي بالضرورة إلى تلك الأفكار الإيديولوجية التي يحاربها هو، يعني يكرسها، على أنها كائنات ذات استقلال ذاتي.

وكما أن القديس سانتشو يكرس الشيوعية كيما يستطيع بصورة أفضل في وقت لاحق، في القسم عن "الرابطة"، أن يفرض فكرته المقدسة عنها على أنها ابتكاره "الخاص"، كذلك لا يتوعد بالطريقة ذاتها "الدعوة والمصير والواجب" إلا كي يقدمها من جديد في كتابه في صورة أوامر جازمة . فكيفما نشأت المصاعب شق القديس سانتشو طريقه عبرها بواسطة أمر جازم من هذا النوع: "استغل مواهبك"، "اعرف نفسك"، "فليصبح كل واحد أنا كلية القدرة"، الخ. بخصوص الأمر الجازم، أنظر القسم عن "الرابطة"؛ وبخصوص "الدعوة"، الخ، أنظر القسم عن "المتعة الذاتية" .

لقد استعرضنا هذه المرة الحيل المنطقية الرئيسية التي يستخدمها سانتشو كي يكرس العالم القائم وبذلك ينقده ويلتهمه. ومهما يكن من أمر، فإنه لا يلتهم فعلياً من هذا العالم إلا المقدس، من دون أن يمس شعرة واحدة من العالم نفسه. وهكذا فإنه من الطبيعي أن يكون سلوكه العملي محافظاً تماماً. وإذا أراد أن ينقد حقاً، فإن النقد الدنيوي سوف يبدأ إذن، بالضبط حيث تسقط الهالة المقدسة المزعومة. فبقدر ما تزداد حدة تناقضات الشكل الطبيعي للتعامل ضمن الطبقة الحاكمة نفسها وكذلك الهوة التي تفصل بينها وبين الطبقة المحكومة، فإن الوعي الذي كان يقابل في الأصل هذا الشكل من التعامل ينأى أكثر فأكثر عن الحقيقة (أي أنه يكف عن كونه الوعي المقابل لهذا الشكل من التعامل)، كما أن الأفكار التقليدية السابقة عن التعامل هذه، هذه الأفكار التي كانت المصالح الخاصة الفعلية، الخ، ممثلة فيها على أنها مصالح عامة، تتردى أكثر فأكثر إلى مستوى عبارات مثالية مجردة، إلى وهم واعٍ، إلى نفاق مقصود. لكن بقدر ما تفضح الحياة زورها أكثر فأكثر، وبقدر ما يتقلص

معناها بالنسبة إلى الوعي ذاته، فإنها تؤكد بمزيد من الحزم، كما أن لغة هذا المجتمع العادي تصبح منافقة وأخلاقية ومقدسة أكثر فأكثر. وبقدر ما يزداد هذا المجتمع نفاقاً، تتعاظم السهولة بالنسبة إلى مثل هذا الإنسان الساذج الذي هو سانتشو في اكتشاف فكرة المقدس والمثالي في كل مكان. وإنه ليستطيع هو الساذج أن يستخلص، من نفاق المجتمع العام، الإيمان العام بالمقدس، بسيطرة المقدس، بل يستطيع أن يأخذ هذا المقدس على أنه قاعدة المجتمع القائم. إنه ضحية هذا النفاق الذي كان يجب أن يستخلص منه النتيجة المناقضة على وجه الدقة.

إن عالم المقدس يختصر في التحليل الأخير في "الإنسان". وكما رأينا من قبل خلال العهد القديم بأسره، فإن سانتشو يجعل من "الإنسان" الذات الفعالة التي يضعها في أساس كل التاريخ حتى أيامنا الحاضرة؛ وفي العهد الجديد يوسع سيطرة "الإنسان" هذه بحيث تشمل كل العالم الراهن، الطبيعي والروحي على حد سواء، وكذلك خصائص الأفراد الموجودين حالياً. إن جميع الأشياء تخص "الإنسان"، وبذلك يحوّل إلى "عالم الإنسان". إن المقدس المشخص هو "الإنسان" الذي ليس بالنسبة إلى سانتشو إلا اسماً آخر للمفهوم، للفكرة. إن مفاهيم الناس وأفكارهم، المنفصلة عن الأشياء الفعلية، لا حاجة بها إلى الأفراد الفعليين كأساس لها، بل إلى فرد التصور الفلسفي، الفرد المنفصل عن واقعيته، والمتصور في الفكر وحده، "الإنسان" في ذاته، فكرة الإنسان. وبهذا فإن إيمانه بالفلسفة يبلغ الكمال.

الآن وقد تحوّل كل شيء إلى "المقدس" أو إلى ما يخص "الإنسان". فإن قديسنا يملك القدرة على الذهاب قدماً إلى مرحلة التملك بواسطة التخلي عن فكرة "المقدس" أو "الإنسان" بوصفه قوة تسيطر عليه.وبما أنه حوّل ما هو غريب عنه إلى المقدس، إلى فكرة خالصة، فإن هذه الفكرة عن الغريب التي يظنها خطأ هي بكل تأكيد ملكيته الشخصية. إن الصيغ الأساسية من أجل تملك عالم الإنسان (الطريقة التي تحصل الأنا بها على ملكية العالم بعدما فقدت كل احترام للمقدس)، محتواة مسبقاً في المعادلات أعلاه.

وكما رأينا، فإن القديس سانتشو قد أصبح سلفاً سيداً لصفاته بوصفه الأناني المتفق مع نفسه، وكيما يصبح سيداً للعالم، فإن كل ما ينبغي له عمله هو أن يجعل هذا العالم إحدى

صفاته. وإن أبسط طريقة لذلك هي بالنسبة إلى سانتشو أن ينادي مباشرة بصفة "الإنسان"، بكل الهراء المتضمن فيها، على أنها صفته الخاصة. وهكذا فإنه يدعي لنفسه مثلاً، من حيث هي صفة للأنا، العاطفة السخيفة التي هي الحب الكلي للجنس البشري، زاعماً أنه يحب "جميع الناس" (ص ٣٨٧) وذلك بالوعي الأناني التام، لأن "الحب يسعده". وحين يملك المرء هذه الطبيعة الهنية، فمما لا شك فيه أنه ينتسب إلى أولئك الذين قيل عنهم: الويل لكم إذا أسأتم إلى واحد من هؤلاء الصغار!

وتستقيم الطريقة الثانية بالنسبة إلى القديس سانتشو في محاولته الاحتفاظ، على أنها صفة خاصة به، بهذا الشيء أو ذاك، بينما هو - إذا تراءت له بالضرورة هذه الصفة من حيث هي علاقة بالعالم - يحوّلها إلى علاقة، إلى أسلوب لوجود "الإنسان"، إلى علاقة مقدسة، وبذلك يرفضها دفعة واحدة. ويفعل القديس سانتشو ذلك حتى حين تصبح الصفة، المنفصلة عن العلاقة بالعالم الذي تتحقق من خلاله، سخيفة بصورة جذرية. هكذا يريد على سبيل المثال، في الصفحة ٣٢٢، أن يحافظ على الكبرياء القومية بالمناداة بأن "القومية إحدى صفاته الخاصة، بينما الأمة مالكته وسيدته". وكان في مقدوره أن يستطرد على هذا الغرار: إن الذهنية الدنيئة صفة من صفاتي، وليس في نيتي التخلي عنها من حيث هي إحدى صفاتي - أما الدين فهو سيدي، إنه المقدس. إن الحب العائلي صفة من صفاتي، والعائلة سيدتي. إن العدالة صفة من صفاتي، والحق سيدي؛ إن السياسة صفة من صفاتي، والدولة سيدتي.

وتستخدم الطريقة الثالثة للتملك حين يرفض بصورة جذرية، من حيث هي مقدس، سلطة غريبة يختبر قوتها في الممارسة من دون أن يتملكها. وفي هذه الحالة يفضل أن يرى عجزه في السلطة الغريبة ويعترف بهذا العجز على أنه صفته، خليقته، يتجاوزه في كل حين بوصفه خالقاً. تلك هي الحال، على سبيل المثال، مع الدولة. وإنه ليسعفه الحظ هنا أيضاً، إذ لا يضطر إلى التعامل مع عالم غريب، بل مع صفة من صفاته فقط، لا يحتاج إلا أن يضع نفسه حيالها بوصفه خالقاً كيما يتغلب عليها. وهكذا فإن انعدام صفة ما يمكن أن يخدمه كذلك، عند الحاجة الملحة، على أنه صفة من صفاته. إذا مات القديس سانتشو جوعاً فليس

مـرد ذلـك إلـى نقـص فـي الطعـام، بـل إلـى جوعـه الخـاص، صفتـه مـن حيـث هـو جائـع. وإذا هـو سـقط مـن النافـذة ودق عنقـه، فـلا يحـدث ذلـك لأن قـوة الجاذبيـة تدفعـه إلـى الأسـفل، بـل لأن انعـدام الأجنحـة وعـدم القـدرة علـى الطيـران، صفـة مـن صفاتـه الشـخصية.

وإن الطريقـة الرابعـة التـي يسـتخدمها بأعظـم النجـاح لتسـتقيم فـي المنـاداة بـأن كل مـا هـو موضـوع إحـدى صفاتـه الخاصـة هـو موضوعـه الخـاص، ملكيتـه، لأنـه ينتسـب إليـه بفعـل إحـدى صفاتـه، مـن دون أي اعتبـار لطبيعـة هـذه العلاقـة. وهكـذا، فـإن مـا سـمي حتـى الوقـت الراهـن الرؤيـة والسـمع والحـس، الـخ، يسـميه هـذا المسـتأثر مـن دون خبـث: اكتسـاب الملكيـة. إن المخـزن الـذي انظـر إليـه هـو، علـى اعتبـاره شـيئاً مرئيـاً منـي، موضـوع عينـي، وانعكاسـه علـى شـبكيتي ملكيـة عينـي. والآن فـإن المخـزن، بصـورة خارجـة عـن علاقتـه بالعيـن، يصبـح ملكيتـه وليـس ملكيـة عينـه فحسـب - ملكيتـه المقلوبـة بقـدر انقـلاب صـورة المخـزن علـى شـبكيته. وعندمـا ينـزل صاحـب المخـزن المغلـق (أو علـى حـد تعبيـر شـيليغا "المصاريـع والسـتائر")[١٥١]، فـإن ملكيتـه تختفـي فـلا يملـك، مثلـه مثـل بورجـوازي مفلـس، سـوى الذكـرى الأليمـة لعـزٍ متـلاشٍ. وإذا مـر "شـترنر" بالمطبـخ الملكـي، فممـا لا ريـب فيـه أنـه سيكتسـب ملكيـة رائحـة الفـراخ المشـوية هنـاك، وأمـا الفـراخ فلـن يـرى لهـا ظـلاً علـى الإطـلاق. وإن الملكيـة الباقيـة الوحيـدة التـي تقـع مـن نصيبـه هـي قرقعـة أكثـر أو أقـل صراخـاً فـي معدتـه. وعلـى أي حـال، فـإن مـا يعـرض أمـام ناظريـه، كمـاً وكيفـاً، لا يتوقـف فحسـب علـى الأوضـاع القائمـة فـي العالـم، الـذي لـم يخلقـه هـو فـي أي حـال مـن الأحـوال، بـل كذلـك علـى محفظتـه ومركـزه الاجتماعـي الـذي منحـه إيـاه تقسـيم العمـل، والـذي ربمـا حظـر عليـه أشـياء كثيـرة، مهمـا كانـت عينـاه وأذنـاه جشـعة إلـى الاسـتئثار.

لـو أن القديـس سانتشـو قـال بـكل بسـاطة وصراحـة: إن كل مـا هـو موضـوع لتصـوره، مـن حيـث هـو موضـوع متصـور مـن قبلـه، يعنـي مـن حيـث هـو تصـوره لهـذا الموضـوع أو ذاك، هـو فكرتـه، يعنـي ملكيتـه (وينطبـق الشـيء ذاتـه علـى النظـر إلـى شـيء مـا، الـخ)، فإنـه مـا كان يمكـن لنـا أن نعجـب للسـذاجة الصبيانيـة عنـد رجـل يعتقـد أنـه حقـق اكتشـافاً واكتسـب ثـروة بمثـل هـذا الابتـذال. لكـن حقيقـة أنـه يلـزم هـذه الملكيـة التأمليـة كملكيـة عامـة وبسـيطة، بـكل تأكيـد، أن تسـبب انطباعـاً سـحرياً علـى الإيديولوجييـن الألمـان الذيـن لا يملكـون شـيئاً.

إن كل إنسـان يقـع فـي متناولـه هـو أيضـاً موضـوع لـه، و"مـن حيـث هـو موضوعـه – ملكيتـه"، خليقتـه. إن كل أنـا تقـول للأخـرى (أنظـر: ص ١٨٤):

"أنـت لسـت فـي نظـري إلا مـا أنـت بالنسـبة لـي" (مثـلاً مسـتغلي(*))، "يعنـي موضوعـي، ولأنـك موضوعـي فأنـت ملكيتـي".

وبالتالـي خليقتـي كذلـك، التـي أسـتطيع فـي أيـة لحظـة بوصفـي خالقـاً أن ألتهمهـا وأردهـا إلـى نفسـي. وهكـذا فـإن كل أنـا تـرى فـي الأنـا الأخـرى لا صاحبـة ملكيـة، بـل ملكيتهـا الخاصـة، "أنـا" (أنظـر: ص ١٨٤)، بـل كائنـاً مـن أجلهـا، موضوعـاً، لا كائنـاً يخـص نفسـه، بـل يخصهـا هـي، يخـص الأخرى، بوصفهـا مغتربـة عـن ذاتهـا. "فلنأخذهمـا إذن، كلتاهمـا كمـا تدعيـان أن تلـك حقيقتهمـا" (ص ١٨٧)، علـى أنهمـا صاحبتـا ملكيـة، علـى أنهمـا شـخصان يخصـان نفسـيهما، "وكمـا تأخـذ كل منهمـا الأخـرى"، علـى أنهمـا ملكيـة، علـى أنهمـا شـخصان يخصـان الغريـب. إنهمـا صاحبتـا ملكيـة، وفـي الوقـت ذاتـه ليسـتا صاحبتـي ملكيـة (أنظـر: ص ١٨٧). لكـن الشـيء الهـام بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو علـى أي حـال، فـي جميـع العلاقـات بالآخريـن، هـو ألا يأخـذ العلاقـات الفعليـة، بـل مـا يسـتطيع كل واحـد أن يتخيلـه، مـا هـو عليـه فـي تفكيـره الذاتـي.

ومـا دام كل شـيء يشـكل موضوعـاً بالنسـبة إلـى "الأنـا" هـو فـي الوقـت ذاتـه، بفضـل هـذه أو تلـك مـن صفاتـه، موضوعـه كذلـك، يعنـي ملكيتـه- كـذا علـى سـبيل المثـال الجلـدات التـي تلقاهـا علـى أنهـا موضـوع أعضائـه، ومشـاعره وذهنـه، هـي موضوعـه، يعنـي ملكيتـه - فـإن فـي مقـدوره أن ينـادي بنفسـه مالـك كل موضـوع يوجـد بالنسـبة إليـه، وإنـه لفـي مقـدوره بهـذه الطريقـة أن ينـادي علنـاً بـأن العالـم المحيـط بـه ملكيتـه وينـادي بنفسـه مالـكاً لـه - ولـو أن هـذا العالـم أسـاء معاملتـه أيمـا إسـاءة وحـط مـن قـدره إلـى مسـتوى "الصعلـوك، الرجـل الـذي لا يملـك إلا ثـروة مثاليـة". ومـن جهـة أخـرى، فمـا دام كل موضـوع بالنسـبة إلـى "الأنـا" ليـس بموضـوع لـي فحسـب، بـل موضوعـي أيضـاً، فإنـه يسـتطيع أن ينـادي بـأي موضـوع، بنفـس اللامبـالاة حيـال محتـواه، علـى أنـه اللاشـخصي، الغريـب، المقـدس. إن الموضـوع الواحـد نفسـه والعلاقـة الواحـدة نفسـها يمكـن إذن، بسـهولة متسـاوية ونجـاح متسـاوٍ، أن ينـادي بهمـا علـى أنهمـا المقـدس وملكيتـي. إن جميـع

(*) exploiteur، بالفرنسية في النص الأصلي.

الأمور تتوقف على ما إذا كان التأكيد يقع على كلمة "لي" أو كلمة "موضوع". وليست طريقتا التملك والتكريس إلا "انكسارين" مختلفين "لتحوّل واحد".

ليست جميع هذه الطرق إلا تعبيراً إيجابياً عن إنكار ما طرح على أنه الغريب عن "الأنا" في المعادلات الواردة أعلاه، باستثناء أن الإنكار سيؤخذ من جديد، كما هي الحال أعلاه، في تحديدات متنوعة. فالإنكار يمكن أولاً، أن يحدد بطريقة صورية صرفة بحيث لا يؤثر البتة في المحتوى - كما رأينا أعلاه في حالة حب الجنس البشري وفي جميع الحالات حيث يقتصر تبدله على إضافة وعي اللامبالاة. أو أن المجال الكلي للموضوع أو المحمول، المحتوى الكلي، يمكن أن ينكر كما هي حال الدين والدولة. أو ثالثاً، الصلة وحدها، علاقتي الغريبة حتى الآن بالمحمول، هي التي تنكر ويوضع التأكيد على كلمة "لي" بحيث يكون موقفي مما هو خاصتي موقف صاحب الملكية - مثلاً في حالة المال الذي يصبح نقداً من سكي الخاص. وفي هذه الحالة الأخيرة فإن كلتي صفة الإنسان وعلاقته يمكن أن يفقدا كل معنى. إن كل صفة من صفات الإنسان، إذ ترد إلى ذاتي، تمتص بذلك في أناي. وليس في الإمكان بعد الآن أن يقال ما هي الصفة. إنها تبقى ما كانت عليه بصورة إسمية فقط. أما بوصفها "خاصتي"، بوصفها تحدداً منحلاً فيَّ، فإنها لا تملك بعد الآن أي تحدد سواء في العلاقة مع الآخرين أم في العلاقة معي. إنها موضوعة من قبلي فقط، فهي طيف صفة ليس غير. كذلك فكري على سبيل المثال. ويصبح الأمر نفسه بالنسبة إلى الأشياء التي هي في علاقة معي والتي ليست هي بصورة أساسية إلا صفاتي كما رأينا أعلاه - كما هي الحال مثلاً بالنسبة إلى المخزن الذي أنظر إليه. [وبالتالي]، فبقدر ما يكون الفكر فيَّ [مختلفاً] كلياً عن جميع الصفات [الأخرى]، بالضبط مثلاً كما يختلف مخزن الصائغ اختلافاً كلياً عن مخزن بائع المقانق، الخ - فإن [الفرق] يدخل من جديد على أنه فرق في المظهر ويؤكد ذاته من جديد خارجياً في التعبير الذي أعطيه بالنسبة إلى الآخرين. وبذلك فإن هذا التحدد المقضي عليه ينبعث لحسن الحظ، وبقدر ما تتوافر الإمكانية للتعبير عنه في كلمات، فإنه يجب كذلك تجديده في الصيغ القديمة. (وفيما عدا ذلك، فسوف نسمع المزيد بعد فيما يتعلق بأوهام القديس سانتشو غير اللغوية عن اللغة).

إن المعادلـة البسـيطة المصادفـة أعـلاه تسـتبدل هنـا بالنقيضـة التـي سـيكون شـكلها الأبسـط كمـا يلـي:

فكر الإنسان – فكري، الفكر الأناني،

حيـث ضميـر المتكلـم "اليـاء" لا يعنـي سـوى أن المؤلـف يسـتطيع كذلـك أن يكـون مـن دون أفـكار، بحيـث أن الضميـر "اليـاء" يلغـي الفكـر. وإن النقيضـة لتتعقـد فـي المثـال التالـي:

النقد من حيث هو وسيلة التبادل عند الإنسان } - { النقـد مـن سـكي الخـاص مـن حيـث هـو وسـيلة التبـادل عنـد الأنانـي،

حيث تنكشف اللامعقولية من دون قناع.

وتـزداد النقيضـة تعقيـداً أكثـر فأكثـر عندمـا يدخـل القديـس ماكـس تحديـداً بمظهـر كمـن يوسـع شـرحه. عندئـذ تتحـول النقيضـة البسـيطة إلـى مجموعـة مـن النقائـض. فقبـل كل شـيء، علـى سـبيل المثـال، يقـرر مـا يلـي:

الحق عامة من حيث هو حق الإنسان } - { الحق هو ما هو حق بالنسبة لي(*)،

حيـث كان يمكـن اسـتبدال الحـق بأيـة كلمـة أخـرى، مـا دامـت لا تملـك بعـد الآن، علـى نحـو لا يمكـن إنـكاره، أي معنـى. وعلـى الرغـم مـن أن هـذا الهـراء يتكـرر باسـتمرار فـي سـياق البحـث، فإنـه لـم يكـن لـه بـد، كيمـا يذهـب قدمـاً، مـن إدخـال تحديـد شـهير آخـر للحـق يمكـن أن يسـتخدم بالمعنـى الشـخصي الصـرف، وبالمعنـى الإيديولوجـي علـى حـد سـواء - مثـال ذلـك القـوة بوصفهـا قاعـدة الحـق. والآن فقـط، حيـث الحـق المذكـور فـي القضيـة الأولـى قـد اكتسـب تحديـداً آخـر يحتفـظ بـه فـي النقيضـة، فـإن هـذه النقيضـة تسـتطيع أن تقـدم محتـوى مـا. إننـا نحصـل الآن علـى مـا يلـي"

الحق - قوة الإنسان } – { القوة - حقي،

الذي يرجع من جديد بكل بساطة إلى ما يلي:

القوة من حيث هي حقي = قوتي

(*) يقول النص الألماني: was Mir Recht، ويمكن أن تترجم أيضاً كما يلي: "ما يلائمني".

ليست هذه النقائض سوى إنقلابات إيجابية للمعادلات السلبية آنفة الذكر، حيث يتبين على الدوام أن النقيضة متضمنة مسبقاً في النتيجة. إلا أنها تتجاوز تلك المعادلات في عظمتها البسيطة وفي بساطتها العظيمة.

وكما كان في مقدور القديس سانتشو قبلاً أن يعتبر جميع الأمور غريبة، موجودة خارجاً عنه، مقدسة، فإنه يستطيع كذلك الآن، بسهولة متساوية، أن يعتبر جميع الأمور من صنعه الخاص، غير موجودة إلا بفضله، على أنها ملكيته الخاصة. وبما أنه يحوّل في الحقيقة الأشياء جميعاً إلى صفاته الخاصة، فإنه لا يبقى أمامه إلا أن يتصرف حيالها كما كان يتصرف من قبل حيال صفاته الأصلية، في قدرة الأناني المتفق مع ذاته، وهي عملية لا جدوى من تكرارها هنا. وبهذه الطريقة فإن صاحبنا معلم المدرسة البرليني يصبح سيد العالم المطلق -"وصحيح أن تلك هي حالة أية أوزة، وأي كلب، وأي حصان" (ويغان، ص ١٨٧).

إن التجربة المنطقية الحقيقية التي تشكل أساس جميع أشكال التملك هذه ليست سوى شكلٍ للنطق، ألا وهو الإسهاب، الذي يصف العلاقة الواحدة على أنها تعبير أو أسلوب وجود العلاقة الأخرى. ولقد رأينا لتونا أن كل علاقة يمكن أن تخدم كمثال على علاقة الملكية، لكن يمكن بالطريقة نفسها على وجه الدقة أن تكون مثالاً على علاقة الحب، والقوة، والاستغلال، الخ. ويجد القديس هذه الطريقة الخاصة بالإسهاب جاهزة في التأمل الفلسفي حيث تلعب دوراً رئيسياً. أنظر أدناه "نظرية الاستغلال".

إن المقولات المتنوعة للتملك تصبح مقولات عاطفية حالما يراد إدخال مظهر للممارسة وبالتالي يكون من الواجب أخذ التملك جدياً. إن الشكل العاطفي لتأكيد الأنا حيال الغريب، حيال المقدس، حيال عالم "الإنسان"، هو التبجح (fanfaronnade). إن الاحترام ينكر على المقدس (الاحترام، الاعتبار، الخ - هذه المقولات العاطفية تميز بالنسبة إليه العلاقة بالمقدس أو بشيء ما ثالث على أنه المقدس(، وهذا الرفض الدائم يحوّل إلى مأثرة، وهي مأثرة تبدو أبعث على السخرية لأن سانتشو يقاتل طوال الوقت ضد شبح فكرته التقديسية الخاصة. ومن جهة أخرى، فما دام العالم، بالرغم من أن شترنر رفض تبجيل المقدس، يعامله بطريقة أبعد ما تكون عن القداسة، فإنه يثأر لنفسه بالحصول على الرضا

الباطني المترتب على إعلانه للعالم بأنه ما كان ليتوصل إلى السلطة إلا كي يعامل من دون أي تبجيل. إن هذا الوعيد، بذهنيته المحافظة(*) المنذرة بالكوارث العالمية، يبلغ بالجانب الهزلي أوجه. وينتسب إلى هذه المقولة الأولى من التبجح صيغ القديس سانتشو في الصفحة ١٦: "لا أخشى غضب بوزيدون، ولا انتقام الجنيات المنتقمات" [Eumendies]، وص ٥٨: "لا أخشى اللعنة"، وصفحة ٢٤٢: "لا أريد غفراناً" الخ، وتأكيده الأخير بأنه يرتكب "انتهاكاً لا حدود له" بحق المقدس. وينتسب إلى المقولة الثانية الوعيد الموجه إلى القمر (ص ٢١٨):

"لو أنني كنت أستطيع فقط أن أمسك بك لما توانيت عن ذلك مطلقاً، ولو أنني كنت أستطيع فقط أن أجد وسيلة للبلوغ إليك، فإنك لن تستطيع أن ترهبني في أي حال من الأحوال. إنني لا أستسلم لك، لكنني أنتظر الفرصة الملائمة فقط. وحتى إذا كنت في الوقت الحاضر أمتنع عن إضمار المكائد لك، فإنني لا أزال أنطوي على ضغينة ضدك".

وهي مناجاة يهوي قديسنا فيها دون مستوى الكلب النافق في الخندق في خرافة بفيفل (pfeffel). وكذلك الأمر في الصفحة ٤٢٥، حيث "لا يتخلى عن السلطان على الحياة والموت"، الخ.

وأخيراً، فإن ممارسة التبجح [يمكن] من جديد أن تصبح مجرد [ممارسة] في النظرية [من جراء] أن رجلنا القديس [يزعم] في عبارات [بالغة] التباهي أنه أنجز أعمالاً لم ينجزها قط، محاولاً [في الوقت ذاته] بواسطة صيغ طنانة أن يهرِّب تفاهات تقليدية [على أنها] مخلوقاته الأصلية. وفي واقع الأمر، إن هذا ينطبق على الكتاب بكامله، وعلى الأخص إنشاءه التاريخي - الذي يفرض علينا على اعتباره عرضاً لفكره، بينما ليس هو أكثر من عمل منسوخ رديء - كما ينطبق على التأكيد بأن "الكتاب" "كتب فيما يبدو ضد الإنسان" (ويغان، ص ١٦٨)، ومجموعة من التأكيدات المنفصلة، مثل: "بنغمة واحدة من أناي الحية أطيح بشعوب كاملة" (ص ٢١٩ من "الكتاب")، "انصرفت بجرأة إلى العمل" (ص ٢٥٤)، "لقد مات الشعب" (ص ٢٨٥)، وفيما بعد الادعاء المهيب بأنه "ينقب في أحشاء الحق" (ص

(*) Reservatio mentalis، باللاتينية في النص الأصلي.

٢٧٥)، وأخيراً التحدي المزخرف بالاستشهادات والأقوال المأثورة والموجه ضد "خصم من لحم ودم" (ص ٢٨٠).

إن التبجح بحد ذاته عاطفي سلفاً. لكن العاطفية، فضلاً عن ذلك، ترد في "الكتاب" على أنها مقولة تلعب دوراً محدداً في التملك الإيجابي الذي يتجاوزه بعد الآن تأكيد الذات ضد الغريب. ومهما تكن طرق التملك التي درست حتى الآن بسيطة، فلا بد أقله، مع تقدم العرض من إعطاء المظهر بأن الأنا تكتسب بذلك ملكية "بالمعنى العادي" أيضاً، وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلا بنفخ هذه الأنا بصورة اصطناعية، وبإحاطة نفسه بصفات "الإنسان" على أنها خاصته - عندما يؤكد على سبيل المثال، أنه "يحب" "جميع الناس" "بدافع الأنانية" - وبذلك يضفي على صفاته طنيناً ضخماً. وهكذا يجعل في الصفحة ٣٥١ من "ابتسامة الطفل" "ملكيته"، ويصور لنا بأشد التعابير تأثيراً، في الفقرة ذاتها، مرحلة الحضارة التي لم يعد الشيوخ يقتلون فيها على أنها مأثرة هؤلاء الشيوخ أنفسهم، الخ. وإن موقفه من ماريتورن يتأثر كذلك كلياً بهذه العاطفية نفسها.

وإن العصيان هو وحدة العاطفية والتبجح. إنه التبجح إذا كان موجهاً إلى الخارج، ضد الآخرين؛ أما إذا كان موجهاً إلى الباطن، في مظهر الغمغمة، فهو عاطفية. إنه التعبير النوعي عن الاستياء العاجز لدى المالك الصغير. إنه يزيد استياءً ضد فكرة الإلحاد، والإرهاب، والشيوعية، وقتل الملوك، الخ. إن موضوع تمرد القديس سانتشو هو المقدس؛ ولذا كان العصيان، الذي يعطي أيضاً، في حقيقة الأمر، اسم الجريمة، خطيئة في آخر تحليل. وبذلك فإن العصيان لا يحتاج في أي حال من الأحوال أن يتخذ شكل الفعل، لأنه ليس سوى "الخطيئة" ضد "المقدس". وبالتالي فإن القديس سانتشو يكتفي "بأن ينتزع من رأسه" "ماهية المقدس" أو "روح الاغتراب" كيما ينجز على خير وجه تملكه الإيديولوجي. لكنه، كما أن الحاضر والمستقبل مختلطان معاً في رأسه، هو الذي يؤكد تارة أنه قد تملك سلفاً جميع الأشياء، وتارة أخرى أن عليه بعد أن يستأثر بكل شيء، كذلك يخطر له أحياناً بصورة عارضة تماماً، في حالة العصيان، أنه لا يزال يواجه الغريب الموجود فعلياً حتى بعدما قضى على الهالة المقدسة التي تلف كل ما هو غريب. وفي هذه الحال، أو بالأحرى في حالة هذه

الفكـرة المباغتـة، يتحـول العصيـان إلـى فعـل وهمـي، والأنـا إلـى "نحـن". ولسـوف نـدرس هـذا بمزيـد مـن التفصيـل فـي وقـت لاحـق (أنظـر القسـم عـن "العصيـان").

إن الأنانـي الحقيقـي الـذي يبرهـن الوصـف المعطـى حتـى الآن علـى أنـه أعظـم المحافظيـن يجمـع أخيـراً فتـات "عالـم الإنسـان" فـي اثنتـي عشـرة سـلة مليئـة؛ ذلـك أنـه "حـذار أن يكـون أي شـيء قـد ضـاع!" وبمـا أن فعاليتـه بأسـرها تقتصـر علـى تجربـة بعـض الحيـل المبتذلـة علـى عالـم الأفـكار التـي يـزوده بهـا التقليـد الفلسـفي، فإنـه مـن المفـروغ منـه أن العالـم الواقعـي لا يوجـد بالنسـبة إليـه البتـة، الأمـر الـذي لا يمنعـه مـن الوجـود كمـا كانـت الحـال مـن قبـل. وإن محتـوى العهـد الجديـد سـوف يزودنـا ببراهيـن أكثـر تفصيـلاً علـى ذلـك.

وهكذا "نظهر عند عتبة رشدنا ويُنادى بنا راشدين" (ص ٨٦ من الكتاب).

٤ - الفردية الخاصة

"أن يؤسس المرء عالمه الخاص، هذا يعني تشييد سماء لنفسه" (ص ٨٩ من "الكتاب")(*).

لقـد سـبق لنـا أن "تغلغلنـا" إلـى أعمـق أعمـاق هيـكل هـذه السـماء، وسـوف نحـاول الآن أن نتعلـم "مزيـداً مـن الأشـياء" عنهـا. والحـال أننـا سـوف نصـادف مـن جديـد فـي العهـد الجديـد النفـاق نفسـه الـذي تشـرَّب بـه العهـد القديـم. وكمـا أن المعطيـات التاريخيـة فـي هـذا العهـد كانـت مجـرد تدويـن لبضـع مقـولات بسـيطة جـداً، كذلـك ليسـت جميـع العلاقـات الدنيويـة فـي العهـد الجديـد

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] حتى الآن عرف الفلاسفة الحرية بطريقتين: من جهة واحدة، على أنها قوة هيمنة على الأوضاع والظروف التي يحيا الفرد فيها - من قبل جميع الماديين؛ ومن جهة أخرى، على أنها تقرير للمصير، وانفصال عن العالم الواقعي، على أنها مجرد حرية وهمية للروح -من قبل جميع المثاليين، وعلى الأخص الألمان .

وبعدما رأينا في "علم الظواهر" أعلاه كيف أن الأناني الحقيقي للقديس ماكس ينشد أنانيته في الانحلال، في تحقيق الانفصال، تحقيق الحرية المثالية، فإنه يبدو غريباً جداً أن نراه يدافع في الفصل عن "الفردية الخاصة" عن التعريف الآخر، أي الهيمنة على الظروف التي تحددها، الحرية المادية، ضد "الانفصال".

أيضاً سوى تسميات مجازية للمحتوى الهزيل الذي سلطنا الضوء عليه في "علم الظواهر" و"المنطق". ولا يتحدث القديس سانتشو قط، متظاهراً بالحديث عن العالم الواقعي، إلا عن هذه المقولات الهزيلة.

"ليس ما تريده حرية تملك جميع هذه الأشياء الجيدة الرائعة... بل تملكها بالذات بصورة فعلية... أن تحصل عليها بوصفها ملكيتك... إنه يتعين عليك أن تكون ليس شخصاً حراً فحسب، بل مالكاً أيضاً" (ص ٢٠)

إن إحدى الصيغ الأقدم التي توصلت إليها الحركة الاجتماعية في أوائلها - التناقض بين الاشتراكية الأكثر بدائية والليبرالية - ترفع هنا إلى مرتبة دستور إيمان "الأناني المتفق مع ذاته". أما إن هذا التناقض قديم جداً حتى بالنسبة إلى برلين، فهذا ما كان في مقدور رجلنا القديس أن يتحقق منه ولو من قراءة كتاب رانك، الاستعراض التاريخي السياسي [Historisch Politisch Zeitschrift]، برلين ١٨٣١، حيث يرد ذكره في هلع:

"إن انتفاعي بها" (الحرية) "رهن بفرديتي" (ص ٢٠٥).

ويستطيع الجدلي الكبير أن يقلب هذه الصيغة ويقول: "إن انتفاعي بفرديتي رهن بحريتي" – ومن ثم يستطرد:

"حر – ولكن ممَّ؟".

هذه الحرية تتحول إذن، بواسطة خط، إلى الحرية من شيء ما، وبالإبدال الحرية من "كل شيء". وعلى أية حال، فإن الإبدال يتخذ في هذه الحال شكل عبارة توفر تحديداً أدق في المظهر. وإذ ما حقق سانتشو هذه النتيجة الكبرى، فإنه يصبح عاطفياً.

"أواه، ما أكثر الأشياء التي يمكن نبذها!" أولاً "نير العبودية"، ومن ثم مجموعة كاملة من الأنيار الأخرى التي تؤدي بالمرء بصورة غير محسوسة إلى ألا يرى "في الإنكار الذاتي الأكمل شيئاً سوى الحرية، الحرية... من أناه الخاصة، وأن يقرر الطموح إلى الحرية على أنها المطلق... قد جردنا من فرديتنا".

من نير إلى نير، حسب سلسلة خرقاء كلياً، فإن التحررمن العبودية، الذي كان يشكل بالنسبة إلى الأقنان تأكيد فرديتهم وفي الوقت ذاته الإطاحة بحاجز مادي محدد، يوحد هنا

مع حرية تسبقه بوقت طويل، الحرية المسيحية المثالية التي تتحدث عنها الرسالتان إلى الرومانيين وأهل كورنثوس، إن الحرية في ذاتها تتحول إلى إنكار الذات. وبذلك يكون حسابها قد سوي ما دامت شكلاً لا جدال فيه من "المقدس". إن القديس ماكس يحوّل عملاً تاريخياً محدداً للتحرر التاريخي إلى مقولة مجردة "للحرية"، ومن بعد تحدد هذه المقولة بصورة أوثق بفعل ظاهرة تاريخية مختلفة كلياً يمكن أن تحشر بدورها تحت عنوان "الحرية". تلك هي كل الحيلة التي يتم بها تحويل نهاية نيرالرق إلى إنكار للذات.

ويباشر سانتشو الآن، كي يجعل نظريته عن الحرية واضحة مثل شمس النهار بالنسبة إلى البورجوازي الألماني، الخطابة بلغة البورجوازي الخاصة، وعلى الأخص لغة البورجوازي البرليني.

"لكن بقدر ما أزداد حرية، فإن الالزام يتراكم أكثر فأكثر أمام عيني، ويزداد إحساسي بالعجز. إن ابن المناطق المتوحشة غيرحر، لكنه لا يستشعر كذلك أياً من القيود التي تثقل على الإنسان "المتحضر"، وهو يحسب نفسه أكثر حرية من هذا الأخير. وبقدر ما أحقق حريتي، أبتدع لنفسي حدوداً جديدة وواجبات جديدة؛ فما كدت أخترع الخطوط الحديدية حتى أحسستني ضعيفاً من جديد لأنني لا أستطيع بعد أن أبحر عبر الهواء مثل عصفور، ولا أكاد أحل قضية كانت تقلق ذهني حتى تكون قضايا أخرى لا حصر لها في انتظاري" الخ (ص ٢٠٥، ٢٠٦).

إيه، أيها الروائي "الأخرق" من أجل الحضريين والقرويين!

ليس "أبن المناطق المتوحشة" هو الذي يحسب نفسه غير حر، بل "البشر المتحضرون" هم الذين "يحسبون" الهمجي أكثر حرية من الإنسان المتحضر. أما إن "ابن المناطق المتوحشة" (الذي جاء به ف. هالم إلى المسرح)[١٥٢] جاهل بقيود الإنسان المتحضر لأنه لا يستطيع اختبارها، فهذا واضح تماماً بقدر كون البورجوازي البرليني "المتحضر" الذي لا يعرف "ابن المناطق المتوحشة" إلا من المسرح، لا يعرف شيئاً عن قيود الهمجي. إن الأمر لفي غاية البساطة. إن قيود الهمجي ليست بقيود الإنسان المتحضر. إن المقارنة التي يرسمها قديسنا بينهما ليست سوى المقارنة الوهمية لبرليني "متحضر" تستقيم ثقافته كلها

فـي عـدم معرفـة أي شـيء عـن كليهمـا. أمـا إنـه لا يعـرف شـيئاً عـن قيـود الهمجـي، فهـذا مـا يمكـن تفسـيره، بالرغـم مـن أنـه ليـس ثمـة حاجـة إلـى براعـة كبـرى لمعرفـة بعـض الأشـياء عنهـا بعـد هـذا العـدد الكبيـر مـن كتـب الرحـلات الجديـدة؛ لكـن كونـه جاهـلاً أيضـاً بقيـود الإنسـان المتحضـر، فهـذا مـا يثبتـه مثالـه عـن الخطـوط الحديديـة والطيـران. إن المالـك الصغيـر غيـر المتبلورالـذي سـقطت الخطـوط الحديديـة مـن السـماء بالنسـبة إليـه، والـذي يتوهـم لهـذا السـبب عينـه أنـه قـد اخترعهـا بنفسـه، يحلـم فـي الحـال فـي السـفر عبـر الهـواء حالمـا يسـافر مـرة واحـدة بالخطـوط الحديديـة. والحقيقـة الواقعـة أن المنطـاد سـبق الخطـوط الحديـدة. لكنـه لـم يكـن بـد للقديـس سانتشـو أن يقلـب الأمـور، وإلا تبيـن للبشـر جميعـاً أن اختـراع المنطـاد لـم يكـن فـي أي حـال مـن الأحـوال شـرطاً مسـبقاً لاختـراع الخطـوط الحديديـة، فـي حيـن أن العكـس يسـهل تخيلـه. وعلـى العمـوم يقلب سانتشـو العلاقـات التجريبيـة رأسـاً علـى عقـب. وحيـن لـم تعـد العربـات والطنابـر التـي تجرهـا الـدواب كافيـة مـن أجـل حاجـات النقـل المتعاظمـة، وحيـن تطلبـت مركـزة الإنتـاج الناشـئة عـن الصناعـة الكبـرى فـي عـداد أمـور أخـرى، طرقـاً جديـدة مـن أجـل تعجيـل وتوسـيع نقـل كتلتهـا مـن المنتجـات، فـإن القاطـرة قـد اخترعـت إذن، ومـن بعـد اسـتخدام الخطـوط الحديديـة مـن أجـل النقـل علـى نطاق واسـع. وكان المختـرع والمسـاهمون مهتميـن بأرباحهـم، والتجـارة بصـورة عامـة بإنقـاص تكاليـف الإنتـاج؛ إن إمكانيـة هـذا الاختـراع، بـل ضرورتـه المطلقـة، تقـوم فـي الشـروط الماديـة. وإن تطبيـق الاختـراع الجديـد فـي البلـدان المختلفـة كان رهنـاً بالشـروط الماديـة المختلفـة؛ فـي أميـركا مثـلاً بالحاجـة إلـى توحيـد الولايـات المفـردة لتلـك المنطقـة الشاسـعة وربـط النواحـي نصـف المتحضـرة فـي الداخـل بالبحـر وبالمسـتودعات الخاصـة بمنتجاتهـا. (أنظـر مـن بيـن مؤلفـات عديـدة، السـيد شـوفالييه، رسـائل عـن أميـركا الشـمالية[١٥٣]). وفـي بلـدان أخـرى، ألمانيـا مثـلاً، حيـث يحمـل كل اختـراع جديـد البشـر على الأسـف لأنـه ليـس الاختـراع الأخيـر- فـي مثـل هـذه البلـدان، بالرغـم مـن كل النفـور الـذي تثيـره هـذه الخطـوط الحديديـة البغيضـة التـي لا تسـتطيع أن تزودهـم بالأجنحـة، فـإن البشـرملزمون أخيـراً باتخاذهـا مـن جـراء التنافـس والاسـتغناء عـن العربـات والطنابـر التـي تجرهـا الأحصنـة، كمـا فعلـوا بـدولاب الغـزل الـذي كان موضـع احتـرام طويـل. وإن انعـدام أي توظيـف آخـر للرأسـمال يـدر الربـح قـد جعـل

مـن بنـاء الخطـوط الحديديـة الفـرع السـائد للصناعـة فـي ألمانيـا. إن تطـور بنـاء خطوطهـا الحديديـة قـد سـار جنبـاً إلـى جنـب مـع انتكاسـاتها فـي السـوق العالميـة. لكـن الخطـوط الحديديـة لا تبنـى فـي أي مـكان حبـاً بمقولـة "الحريـة مـن شـيء مـا"، الأمـر الـذي كان القديـس ماكـس يسـتطيع أن يتحقـق منـه حيـن يـرى أن أحـداً لا يشـيد الخطـوط الحديديـة كيمـا يصبـح حـراً مـن محفظـة نقـوده الخاصـة. إن الأسـاس الإيجابـي لـلازدراء الإيديولوجـي الـذي يضمـره البورجـوازي للخطـوط الحديديـة، الناجـم عـن حنينـه إلـى التحليـق فـي الهـواء مثـل الطيـر، يصـادف فـي تفضيلـه لعربـات الجـر، والسـفر بالعربـات، والطرقـات الريفيـة. إن سانتشـو يحـن إلـى "عالمـه الخـاص" الـذي هـو السـماء كمـا رأينـا أعـلاه. ولـذا فإنـه يريـد أن يسـتعيض عـن القاطـرة بعربـة النبـي اليـاس الناريـة التـي سـوف تحملـه صـوب السـماء.

بعدمـا حـول النقـض الفعلـي للقيـود، الـذي يشـكل فـي الوقـت ذاتـه تطـوراً إيجابيـاً جـداً للقـوة المنتجـة، وطاقـة فعليـة، وتلبيـة للحاجـات الملحـة، وبالتالـي امتـداداً لقـوى الأفـراد - بعدمـا حـوّل هـذا النقـض فـي أنظـار المشـاهد المنفعـل والجاهـل إلـى مجـرد تحـرر مـن قيـد - وهـو مـا يسـتطيع تكييفـه منطقيـاً فـي مسـلمة عـن التحـرر مـن كل قيـد - نصـادف فـي ختـام العـرض بأكملـه مـا كان يشـكل منـذ البدايـة مقدمتـه الأساسـية..

"أن يكـون المـرء حـراً مـن شـيء مـا لا يعنـي إلا أن يكـون خالصـاً مـن شـيء مـا أو يتخلـص منـه" (ص ٢٠٦).

وإنـه ليقـدم فـي الحـال مثـالاً بائسـاً حتـى الدرجـة القصـوى: "أن يكـون حـراً مـن الصـداع يضاهـي القـول: إنـه تخلـص منـه"؛ فـكأن هـذا "الخـلاص" مـن الصـداع لـم يكـن يعنـي القـدرة الإيجابيـة كليـاً علـى التصـرف برأسـي، حـق الملكيـة علـى رأسـي، فـي حيـن أننـي مـا دمـت أشـكو الصـداع فإننـي أنـا الـذي كنـت ملكيـة رأسـي المريـض.

"مـع فكـرة "الخـلاص" هـذه نكمـل الحريـة التـي توصـي بهـا المسـيحية - إذ نتخلـص مـن الخطيئة، مـن اللـه، من الأخـلاق، الـخ" (ص ٢٠٦).

وهكـذا، فـإن "مسـيحينا الكامـل" لا يجـد فرديتـه أيضـاً إلا فـي "الخـلاص" مـن "الفكـر"، مـن "التحـدد"، مـن الواجـب، مـن "الدعـوة"، مـن "القانـون"، الـخ، ويدعـو إخوتـه فـي المسـيح

إلى "الشعور بالسعادة في الانحلال فقط"، أي في إنجاز "الخلاص" و"الحرية المسيحية" "الكاملة".

ويستطرد:

"أيجب أن نتخلى عن الحرية لأنه يتبين أنها مثل أعلى مسيحي؟ كلا، يجب ألا نترك شيئاً يضيع منا" (هذا صاحبنا المحافظ قد وجد كلياً(*)) "بما في ذلك الحرية، بل يجب أن تصبح خاصتنا، وهو ما لا تستطيعه في شكل الحرية" (ص ٢٠٧).

هنا ينسى "صاحبنا الأناني" (دائماً وفي كل مكان(**)) "المتفق مع ذاته" أننا أصبحنا سلفاً في العهد القديم، بفضل المثل الأعلى المسيحي عن الحرية، يعني بفضل وهم الحرية، "مالكين" "لعالم الأشياء"؛ وإنه لينسى أيضاً أنه ليس علينا، وفقاً لذلك، إلا أن نتخلص من "عالم الأفكار" كي نصبح "مالكين" لذلك العالم أيضاً، وإن "الفردية" الخاصة كانت إذن، بالنسبة إليه نتيجة للحرية، للخلاص.

وإن قديسنا ليستطيع، وقد كيفت الحرية مع الحرية من شيء ما، وهذه الحرية بدورها مع "الخلاص"، وهذا بدوره مع المثل الأعلى المسيحي عن الحرية، وبذلك المثل الأعلى لحرية "الإنسان" عامة، أن يلقي، بالمواد المهيأة على هذا الغرار، درساً عملياً في المنطق. إن النقيضة الأولى والأبسط هي التالية:

حرية الإنسان - حريتي.

حيث تكف الحرية، من جراء النقيضة، عن الوجود "في شكل الحرية". أو:

الخلاص في مصلحة الإنسان - الخلاص في مصلحتي.

إن كلا هاتين النقيضتين، مع حاشية عديدة من الخطابات، تجتازان كل الفصل عن الفردية، لكن صاحبنا سانتشو الفاتح العالمي لن يستطيع، بمساعدتهما وحدهما، أن يبلغ إلا القليل جداً، بل إنه لن يبلغ حتى جزيرة باراتاريا. وفي وقت أبكر، حين كان يلاحظ سلوك البشر من "عالمه الخاص"، من علياء "سمائه"، فقد وضع جانباً، وهو يضع تجريده عن

(*) voilà notre conservateur tout trouvé، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) toujours et partout، بالفرنسية في النص الأصلي.

الحريـة، عامليـن للتحـرر الفعلـي. وكان العامـل الأول أن الأفـراد فـي تحررهـم الذاتـي يلبـون حاجـة معينـة يختبرونهـا بصـورة فعليـة. وإن التخلـي عـن هـذا المنظـور المشـخص قـد أدى إلـى إحـلال "الإنسـان" محـل الأفـراد الفعلييـن، وإحـلال السـعي إلـى مثـل أعلـى وهمـي، - الطمـوح إلـى الحريـة فـي ذاتهـا، إلـى "حريـة الإنسـان"، - محـل تلبيـة الحاجـات الفعليـة.

وأمـا العامـل الثانـي فهـو أن قـدرة لـم يكـن لهـا وجـود حتـى ذلـك الحيـن إلا بالقـوة، تتخـذ عنـد الأفـراد الذيـن هـم فـي سـبيل تحريـر أنفسـهم فعاليـة، قـوة فعليـة، أو أن قـوة كانـت قائمـة مـن قبـل تنمـو مـن جـراء حـذف قيـد مـا. ومـن المؤكـد أن حـذف القيـد، الـذي هـو مجـرد نتيجـة لهـذه القـوة الجديـدة، يمكـن أن يعتبـر الشـيء الرئيسـي. بيـد أن هـذا الوهـم لا ينشـأ إلا إذا أخـذ المـرء السياسـة علـى أنهـا أسـاس التاريـخ التجريبـي، أو إذا جـرب المـرء، مثلـه كمثـل هيغـل، أن يبرهـن فـي كل مـكان علـى إنـكار الإنـكار، أو إذا شـرع المـرء أخيـراً - بعـد أن تكـون القـوة الجديـدة قـد خلقـت - يفكـر مثـل بورجـوازي برلينـي طيـب وجاهـل فـي الخليقـة الجديـدة. وإذ مـا يضـع القديـس سانتشـو هـذا العامـل الثانـي جانبـاً لاسـتخدامه الخـاص، فإنـه يملـك فـي متنـاول يـده تحديـداً يسـتطيع أن يجابـه بـه البقايـا(*) التجريديـة "للحريـة". وهكـذا، فإنـه يصـل إلـى النقائـض الجديـدة التاليـة:

الحرية، النبذ الأجوف لقوة غريبة	-	الفردية، التملك الفعلي لقوة المرء الخاصة.

أو كذلك:

الحرية، رد فعل دفاعي ضد القوة الغريبة	-	الفردية، تملك قوتي الخاصة.

وكـي نبيـن إلـى أي مـدى تلاعـب القديـس سانتشـو بهـذه "القـوة" الخاصـة، التـي يجابـه بهـا الحريـة هنـا، مسـتخرجاً إياهـا مـن هـذه الحريـة بالـذات ومقحمـاً إياهـا فـي ذاتـه، فإننـا لا ننـوي أن نحيلـه علـى الماديـن أو الشـيوعيين، بـل علـى قامـوس الأكاديميـة(**) حيـث سـوف يجـد أن كلمـة

(*) caput mortuum، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) Dictionnaire de l'académie، بالفرنسية في النص الأصلي.

حريـة[*] غالبـاً مـا تسـتخدم بمعنـى قـوة[**]. وإذا كان القديـس سانتشـو يريـد علـى أيـة حـال أن يؤكـد أنـه لا يكافـح "liberté"، بـل "Freileit"[***] فـإن عليـه إذن، أن يستشـير هيغـل طالبـاً منـه النصـح بشـأن الحريـة السـلبية والحريـة الإيجابيـة. ولا بـد أن يسـتمتع، بوصفـه مالـكاً صغيـراً ألمانيـاً، بالملاحظـة الختاميـة فـي هـذا الفصـل.

ويمكن التعبير كذلك عن النقيضة كما يلي:

الحرية، السعي المثالي إلى الخلاص والنضال ضد الكائن الآخر	} - {	الفردية، الخلاص الفعلي والاستمتاع بوجودي الخاص.

وبعـد أن ميـز علـى هـذا الغـرار، بواسـطة تجريـد رخيـص، الفرديـة مـن الحريـة، يزعـم سانتشـو أنـه لا يفعـل سـوى المباشـرة فـي تحليـل هـذا الفـرق ويهتـف:

"يا له من فرق بين الحرية والفردية!" (ص ٢٠٧).

ولسـوف نـرى أنـه لـم يحقـق مـن هـذا كلـه شـيئاً باسـتثناء هـذه النقائـض القليلـة العامـة، وإن الفرديـة "بالمعنـى العـادي" تسـتمر بصـورة أبعـث مـا تكـون علـى السـخرية فـي التسـلل فـي سـياق الكتـاب بأكملـه جنبـاً إلـى جنـب مـع هـذا التعريـف للفرديـة.

"يسـتطيع المـرء أن يكـون حـراً باطنيـاً بالرغـم مـن حالـة العبوديـة، وإن يكـن، بـكل تأكيـد، حيـال أشـياء متنوعـة، لكـن ليـس حيـال جميـع الأشـياء، بيـد أن العبـد لا يسـتطيع أن يكـون حـراً حيـال السـوط، حيـال المـزاج الاسـتبدادي لسـيده، الـخ".

"ومـن جهـة أخـرى، فـإن الفرديـة هـي ماهيتـي ووجـودي الكامـلان، هـي أنـا نفسـي. إننـي حـر ممـا تخلصـت منـه؛ وإننـي مالـك مـا هـو فـي قبضتـي أو مـا أتصـرف بـه. إننـي خاصتـي فـي جميـع الأوقـات وفـي جميـع الظـروف، إذا كنـت فقـط أعـرف كيـف أكـون لنفسـي ولا أتخلـى عـن نفسـي للآخريـن. إننـي لا أسـتطيع أن أريـد حقـاً حالـة الحريـة، نظـراً لإننـي لا أسـتطيع... تحقيقهـا؛ إن كل مـا أسـتطيع هـو الرغبـة فيهـا والطمـوح إليهـا، ذلـك أنهـا تظـل مثـلاً أعلـى؛ شـبحاً. إن قيـود الواقـع

(*) Liberté، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) puissance، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) كلمة ألمانية تعني "الحرية".

تمـزق جسـدي عميقـاً فـي كل لحظـة. بيـد أنـني أظـل ملكيتـي الخاصـة. وإذا كنـت أخـص سـيداً مـا بوصفـي قنـاً، فإننـي لا أفكـر إلا فـي نفسـي، وفـي مصلحتـي الخاصـة؛ وصحيـح أن ضرباتـه تصيبنـي: فأنـا لسـت حـراً منهـا؛ بيـد أننـي لا أتحملهـا إلا فـي مصلحتـي الخاصـة، إمـا كـي أخدعـه بمظهـر الصبـر وأهدهـده بحيـث يأمـن، وإمـا أيضـاً، كـي لا أجلـب علـى نفسـي بمقاومتـي معاملـة أسـوأ. لكنني مـا دمـت أضـع فـي ذهنـي بصـورة دائمـة ذاتـي ومصلحتـي" (بينمـا الضربـات تحتفـظ بسـلطانها عليـه وعلـى مؤخرتـه) "فإننـي أنتهـز أول فرصـة سـانحة" (يعنـي "يرغـب"، "يطمـح" إلـى أول فرصـة سـانحة تظـل علـى أيـة حـال "مثـلاً أعلـى، شـبحاً") "كـي أسـحق صاحـب العبيـد. أمـا إننـي أصبـح بعدئـذ حـراً منـه وأتخلـص مـن سـوطه، فتلـك لـن تكـون إلا نتيجـة لأنانيتـي السـابقة. ولعلـه يقـال لـي إننـي كنـت حـراً حتـى فـي حالـة العبوديـة، حـراً "فـي ذاتـي" أو "باطنيـاً"؛ ومـن سـوء الحـظ أن "حريـة المـرء فـي ذاتـه "ليسـت" الحريـة فعليـاً"، كمـا أن "باطنيـاً" ليـس "خارجيـاً". ومـن جهـة أخـرى، فقـد كنـت ذاتـي، خاصتـي كليـاً وبصـورة تامـة، باطنيـاً وخارجيـاً علـى حـد سـواء. وليـس جسـدي "حـراً" مـن آلام التعذيـب ولسـعات السـوط تحـت سـيطرة سـيد قـاس؛ بيـد أن عظامـي هـي التـي تطقطـق تحـت التعذيب،وعضلاتـي هـي التـي تنتفـض تحـت الضربـات، وأنـا الـذي أتـأوه لأن جسـدي يتألـم. إن حقيقـة أننـي أتنهـد وأرتجـف تبيـن أننـي مـا زلـت أخـص ذاتـي، أننـي ملكيتـي الخاصـة". (ص ٢٠٧، ٢٠٨).

إن صاحبنـا سانتشـو، الـذي يمثـل هنـا مـرة أخـرى دور القـاص مـن أجـل المالكيـن الصغـار والقروييـن، يثبـت هنـا أنـه ظـل علـى الـدوام، بالرغـم مـن جميـع الجلـدات التـي تلقاهـا مـن قبـل عنـد سـرفانتس، "مالـك" ذاتـه، وإن تلـك الصفعـات تشـكل بالأحـرى جـزءاً مـن "فرديتـه". إنـه "ملكيتـه الخاصـة" "فـي جميـع الأوقـات وفـي جميـع الظـروف" بشـرط أن يعـرف كيـف يكـون لنفسـه. وبالتالـي فـإن الفرديـة هنـا شـرطية ورهـن بذكائـه، وهـي عبـارة يقصـد منهـا ذمامـة قمينـة بالعبيـد. وإن هـذا الـذكاء ليصبـح فـي وقـت لاحـق الفكرعندمـا يباشـر"التفكير" فـي ذاتـه وفـي "مصلحتـه" - هـذا التفكيـر وهـذه "المصلحـة" الوهميـة اللـذان همـا "ملكيتـه" الوهميـة مـن الآن فصاعـداً. وإن هـذا الـذكاء ليسـتقيم فيمـا عـدا ذلـك فـي تحمـل الضربـات "فـي مصلحتـه الخاصـة"، حيـث تكمـن الفرديـة مـرة أخـرى فـي فكـرة "المصلحـة"، وحيـث لا "يتحمـل" الشـر إلا كيـلا يصبـح "مالـك"

"الأسوأ". وإن مظهراً ثانياً لهذا الذكاء هو "ملكية" الاحتفاظ "بالفرصة السانحة الأولى"، وبالتالي مجرد تحفظ ذهني(*)، والمظهرالأخير هو "سحق" "صاحب العبيد" بواسطة توقع ذهني، وفي هذه الحالة فإنه "مالك" هذا التوقع، في حين أن صاحب العبيد هو الذي يسحقه بالفعل في الوقت الحاضر. وبالتالي فبينما هو يوحد نفسه هنا مع وعيه، الذي يسعى إلى الاطمئنان بواسطة مختلف الحِكم الحصيفة، فإنه يوحد في النهاية مع جسده، بحيث يكون "ملكيته الخاصة" كلياً، خارجياً وباطنياً على حد سواء، ما أحتفظ بشرارة من حياة، حتى إذا كانت حياة لا شعورية صرفة. إن ظواهر من نمط طقطقة "عظامه" وارتعاش عضلاته، الخ، وهي ظواهر نقلت من لغة العلم الطبيعي الأوحد إلى لغة الأمراض، وتمكن إثارتها بواسطة الغالفانية في جسده المنزل حديثاً عن المشنقة حيث شنق نفسه، كما رأينا أعلاه، أو حتى في جسد ضفدع ميت - هذه الظواهر تشكل هنا في نظره برهاناً على أنه لا يزال "ملكيته الخاصة" "كلياً وبصورة كاملة" "باطنياً وخارجياً على حد سواء"، وأنه لا يزال يملك زمام نفسه. إن الحقيقة نفسها التي تثبت قوة صاحب العبيد وفرديته، ألا وهي أنه هو بالضبط من يجلد وليس شخصاً آخر، إن عظامه هو بالضبط التي "تطقطق"، وعضلاته هو هي التي ترتعش، دون أن يكون في مقدوره أن يفعل شيئاً - هذه الحقيقة بالذات تثبت لقديسنا هنا فرديته الخاصة وقوته الخاصة. وهكذا فإنه حين يقيد إلى عذاب سبانسو بوتشو[١٥٤] لسورينام، حيث يعجز عن تحريك يده أو قدمه، أو أي عضو آخر من أعضائه، ولا بد له أن يتحمل كل ما يصنع له من دون مقاومة، في مثل هذه الظروف لا تستقيم فرديته وقوته في كونه قادراً على استخدام أعضائه، بل في حقيقة كونها أعضاءه بالذات. لقد أنقذ هنا مرة أخرى، فرديته باعتباره ذاته بصورة دائمة على أنه محدد بصورة مغايرة - أحياناً وعياً صرفاً، وأحياناً جسداً لاشعورياً (أنظر علم الظواهر).

وعلى أية حال، فإن القديس سانتشو "يتحمل" نصيبه من الضربات بمزيد من الكرامة بالمقارنة مع العبيد الفعليين. فمهما أخبر المرسلون العبيد، في مصلحة مالكو العبيد، بأن من واجبهم أن "يتحملوا" الضربات "في مصلحتهم الخاصة"، فإن العبيد لا ينخدعون بمثل

(*) reservatio mentalis، باللاتينية في النص الأصلي.

هـذا الهـراء. إنهـم لا يفكـرون بـكل بـرودة وجبـن بأنهـم لـولا ذلـك "سـيجرون علـى أنفسـهم معاملـة أسـوأ"، كمـا أنهـم لا يتوهمـون أنهـم "يخدعـون مالكـو العبيـد بمظهرالصبـر" - علـى النقيـض مـن ذلـك، فهـم يسـخرون مـن جلاديهـم، ويهـزأون مـن عجزهـم، هـذا العجـز الـذي لا يسـتطيع حتـى أن يجبرهـم علـى إذلال أنفسـهم، وهـم يكبتـون كل "تـأوه"، مـا سـمح لهـم الألـم الجسـدي بذلـك. (أنظـر شـارل كونـت، أطروحـة فـي التشـريع [traité de législation]). وهكـذا، فإنهـم ليسـوا "مالكيهـم" الخاصيـن لا "باطنيـاً" ولا "خارجيـاً"، بـل مالكـو "تحديهـم" فحسـب، الأمـر الـذي يمكـن التعبيـر عنـه كذلـك بالقـول إنهـم ليسـوا أحـراراً لا "باطنيـاً"، ولا "خارجيـاً" بـل أحـرار فقـط مـن وجهـة نظـر واحـدة، ألا وهـي أنهـم أحـرار "باطنيـاً" مـن الإذلال الذاتـي، وهـو مـا يثبتونـه "خارجيـاً" أيضـاً. وبقـدر مـا يتعـرض "شـترنر" للضربـات، فإنـه يكـون مالـك الضربـات، وبذلـك حـراً مـن كونـه لا يتلقاهـا، وهـذه الحريـة وهـذا الخـلاص يشـكلان فرديتـه.

يـرى القديـس سانتشـو ميـزة خاصـة لفرديتـه فـي تحفظـه الذهنـي بشـأن هروبـه عنـد "الفرصـة السـانحة الأولـى"، ولا يـرى فـي "التحـرر" الـذي يتـم الحصـول عليـه بذلـك إلا "نتيجـة أنانيتـه السـابقة" (أنانيتـه الخاصـة، أي الأنانيـة المتفقـة مـع ذاتهـا)؛ ويترتـب علـى ذلـك أنـه يتوهـم أن الزنـوج الثائريـن فـي هاييتـي[١٥٥] والزنـوج الفاريـن فـي جميـع المسـتعمرات كانـوا لا يريـدون أن يحـرروا أنفسـهم، بـل أن يحـرروا "الإنسـان". إن العبـد الـذي يحـزم أمـره علـى التحرريجـب أن يكـون قبـلاً قـد تجـاوز وجهـة النظـر القائلـة إن العبوديـة تشـكل "فرديتـه". يجـب أن يكـون "حـراً" مـن هـذه "الفرديـة". ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن "الفرديـة" بالنسـبة إلـى مثـل هـذا الفـرد يمكـن أن تسـتقيم فـي "تحقيـر" نفسـه. أمـا أن يؤكـد "المـرء" العكـس فمعنـاه أن يطبـق "مقياسـاً غريبـاً" علـى هـذه الفرديـة.

وختامـاً فـإن القديـس سانتشـو يثـأر للضربـات التـي تلقاهـا بمخاطبـة "مالـك" "فرديتـه"، مالـك العبيـد، بالعبـارات التاليـة:

"ليسـت سـاقي "حـرة" مـن عصـا السـيد، لكنهـا سـاقي، ولا يمكـن انتزاعهـا منـي. فلينتزعهـا منـي ويـرَ مـا إذا كان يملـك سـاقي بعـد! إنـه لـن يجـد فـي يديـه سـوى جثـة هـذه السـاق، التـي ليسـت بسـاقي إذن، بأكثـر ممـا يكـون الكلـب الميـت كلبـاً" (ص ٢٠٨).

لكـن، "فليـرَ" - هـو سانتشـو الـذي يحسـب هنـا أن مالـك العبيـد يريـد أن يحصـل علـى سـاقه الحيـة، علـى الأرجـح لاسـتعماله الخـاص - "فليـرَ" مـا يتبقـى لـه بعْـد مـن سـاقه التـي "لا يمكـن انتزاعها". إنـه لا يحتفـظ بشـيء سـوى خسـارة سـاقه، وقـد أصبـح المالـك وحيـد السـاق لسـاقه المنتزعـة. وإذا كان لا بـد لـه أن يديـر الطاحـون ثمانـي سـاعات يوميـاً[١٥٦]، فإنـه هـو الـذي سـيصبح فـي سـياق الزمـن أبلهـاً، وسـوف تكـون البلاهـة "ملكيتـه" إذن. و"ليـرَ" القاضـي الـذي سـيحكم عليـه بذلـك مـا إذا كان يملـك بعـد دمـاغ سانتشـو "فـي قبضـة يـده". ولكـن هـذا لـن يعـود علـى سانتشـو المسـكين إلا بفائـدة ضئيلـة.

إن الملكية الأولى، الجلالة الأولى قد اكتسبت!

وبعدمـا أمـاط قديسـنا اللثـام، بواسـطة هـذه الأمثلـة الكفيلـة بناسـك، وبمـدد كبيـر مـن الأدب، عـن الفـررق بيـن الحريـة والفرديـة، فإنـه يعلـن بصـورة مباغتـة تامـة فـي الصفحـة ٢٠٩ أن

"بين الفردية والحرية هوة أعمق أيضاً من هذا الفرق الشفهي البسيط".

إن هـذه "الهـوة الأعمـق" تسـتقيم فـي اسـتئناف التعريـف الـوارد أعـلاه عـن الحريـة بمختلـف أنـواع "التحـولات" و"الانكسـارات" وبواسـطة حشـر "بيانـات عرضيـة" متعـددة. إن قضايا عديدة تنشـأ من تعريـف "الحريـة" علـى أنهـا "الخـلاص": ممَّ يجـب أن يكـون البشـر أحـراراً (ص ٢٠٩)؛ الـخ، ومناقشـات بشـأن "ممَّ" هـذه (المصـدر ذاتـه). (هنـا أيضـاً لا يـرى، باعتباره مالـكاً صغيـراً ألمانيـاً، في صـراع المصالح سـوى مشـاحنة بشـأن تعريـف "ممَّ" يجـب أن يكـون البشـر أحـراراً، وفـي هـذا المجـال مـن الطبيعـي أن يبـدو مـن المسـتغرب جـداً فـي نظـره أن "المواطـن" لا يرغـب فـي أن يكـون حـراً "مـن المواطنيـة"، (ص ٢١٠). ومـن ثـم، مـرة أخـرى، التأكيـد بـأن رفـع حاجزهـو وضـع قيـد جديـد، الأمـر الـذي يـؤدي إلـى أن "الطمـوح إلـى حريـة معينـة يتضمـن علـى الـدوام النيـة فـي سـيطرة جديـدة"، (ص ٢١٠) (حيـث نعلـم بهـذا الشـأن أن البورجوازييـن لـم يقاتلـوا فـي الثـورة فـي سـبيل هيمنتهـم الخاصـة، بـل فـي سـبيل "سـيادة القانـون" - أنظـر أعـلاه بشـأن الليبراليـة)؛ ومـن بعـد النتيجـة بـأن المـرء لا يرغـب فـي أن يتخلص ممـا "هـو علـى هـواه، مثـلاً نظـرة الحبيبـة التـي لا تقـاوم"، (ص ٢١١). وهـذه نتيجـة أخـرى: إن الحريـة "خيـال" (ص ٢١١)، "حلـم" (ص ٢١٢)، ومـن ثـم نعلـم بصـورة عابـرة أن "صـوت الطبيعة" يمكـن أن يصبح

هـو الآخـر فـي بعـض الأحيـان "فرديـه" (ص ٢١٣)، لكـن مـن الواجـب مـن جهـة أخـرى، أن يعتبـر "صـوت اللـه والضميـر" مـن "عمـل الشـيطان"، وهـذا هـو يتباهـى: "إن مثـل هـؤلاء الزنادقـة" (الذيـن يـرون ذلـك مـن عمـل الشـيطان) "موجـودون: كيـف سـوف تتعاملـون معهـم؟" (ص ٢١٣، ٢١٤). بيـد أن طبيعتـي ليسـت هـي التـي يجـب أن تحددنـي، بـل أنـا الـذي يجـب أن أحـدد طبيعتـي. هكـذا يتكلـم الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه. وإن وعيـي هـو كذلـك "صـوت للطبيعـة".

ويتبيـن لنـا كذلـك بهـذه المناسـبة أن الحيـوان "يتصـرف بصـورة عاقلـة جـداً" (ص ٢١٣). ونعلـم فيمـا بعـد أن "الحريـة خرسـاء بشـأن مـا يجـب أن يحـدث بعدمـا أصبـح حـراً" (ص ٢١٥) (أنظـر: "نشـيد الإنشـاد لسـليمان"). ويختتـم القديـس سانتشـو العـرض عـن "الهـوة الأعمـق" الآنفـة الذكـر بيـن الفرديـة والحريـة بتكـرار مشـهد الجلـد بالعصـا، وهـو يعبـر هـذه المـرة عـن نفسـه بوضـوح أعظـم بشـأن الفرديـة:

"حتـى إذا لـم أكـن حـراً، وحتـى إذا كنـت مقيـداً بألـف غـلٍ، فإننـي موجـود مـع ذلـك، وأنـا لا أوجـد فـي مسـتقبل مـا أو رجـاء أمـر مـا، كالحريـة، كلا، بـل أنـا حاضـر - حتـى فـي جلـد العبـد الأكثـر حقـارة" (ص ٢١٥).

وبالتالـي، فإنـه يقابـل هنـا بيـن نفسـه و"الحريـة" علـى أنهمـا شـخصان مختلفـان، وتصبـح الفرديـة مجـرد الوجـود الراهـن، الحاضـر، وفـي الحقيقـة الحاضـر "الأكثـر حقـارة". إن الفرديـة هنـا تسـجيل بسـيط للهويـة الشـخصية. إن شـترنر، الـذي نصـب نفسـه أعـلاه "الشـرطة السـرية للدولـة"، يجعـل مـن نفسـه هنـا مصلحـة الجـوازات. "حاشـا" أن "يفقـد أي شـيء" مـن "عالـم الإنسـان!" (أنظـر: نشـيد الإنشـاد لسـليمان).

ووفقـاً للصفحـة ٢١٨، يسـتطيع المـرء كذلـك أن "يعتـزل" فرديتـه مـن خـلال "التفانـي"، "الخنـوع"، علـى الرغـم مـن أن الفرديـة، وفقـاً للصفحـة السـابقة، غيـر قابلـة للدمـار مـادام المـرء موجـوداً قـط، حتـى فـي شـكل الوجـود الأكثـر "حقـارة" أو "خنوعـاً". وأليـس العبـد "الأكثـر حقـارة" هـو العبـد "الأكثـر خنوعـاً"؟ وفقـاً لأحـد الأوصـاف السـابقة عـن الفرديـة، لا يسـتطيع المـرء أن "يعتزلهـا" إلا إذا اعتـزل حياتـه.

وفـي الصفحـة ٢١٨، تنتصـب الفرديـة مـرة أخـرى بوصفهـا أحـد مظاهـر الحريـة، بوصفهـا

قوة، ضد الحرية بوصفها خلاصاً! وفي عداد الوسائل التي يزعم سانتشو أنه يؤمن فرديته بها يرد ذكر "النفاق" و"الاحتيال" (وسائل تستخدمها فرديتي لأنه لا بد لها أن "تذعن" لشروط العالم)، الخ،

"ذلك أن الوسائل التي استعملها تتحدد بماهيتي".

ولقد رأينا من قبل أن بين هذه الوسائل يلعب انعدام أية وسيلة دوراً رئيسياً، كما اتضح كذلك من قبل من إجراءاته ضد القمر (أنظر أعلاه "المنطق"). ومن ثم، طلباً للتغيير، تقدم إلينا الحرية على اعتبارها "تحرراً ذاتياً" "يعني أنني لا أستطيع أن أتزود من الحرية إلا بالقدر الذي تزودني به فرديتي"، وهي صيغة نصادف فيها من جديد تعريف الحرية على أنها تقرير المصير، على أنها فرديه، وهو التعريف الذي يرد عند جميع الإيديولوجيين، وعلى الأخص الإيديولوجيين الألمان. وإن هذا ليبرهن لنا بتقرير أن "الخراف" لا "تكسب" شيئاً "إذا أعطيت حرية الكلام" (ص ٢٢٠). أما تفاهة هذا المفهوم عن الفردية بوصفها تحرراً ذاتياً فيتضح ولو من مجرد طريقته في تكرار الصيغ الأكثر ابتذالاً عن الحرية الممنوحة، والعتق، وفعل التحرر الذاتي، الخ، (ص ٢٢٠، ٢٢١). ويلي ذلك تصور شاعري للتضاد بين الحرية بوصفها خلاصاً والفردية بوصفها إنكاراً لهذا الخلاص:

"تثير الحرية غضبك ضد جميع الأشياء التي لست إياها" (وبالتالي فهي فردية غاضبة، أو أن الطبائع الصفراوية، غيزو مثلاً، لا تملك "فردية" في رأي القديس سانتشو؟ وهل أنا لا أستمتع بذاتي في غضبي ضد الآخرين؟)، "والأنانية تدعوك إلى الفرح بنفسك، إلى المتعة الذاتية" (وإذن فالأنانية هي الحرية السعيدة؛ وعلى أي حال، فقد سبق لنا أن اختبرنا الفرح والمتعة الذاتية للأناني المتفق مع نفسه). "إن الحرية هي وتبقى حنيناً" (فكأن الحنين لم يكن كذلك سمة مميزة للمتعة الذاتية لأفراد من تكوين خاص، وعلى الأخص التكوين المسيحي -الألماني - وهل يجب أن "نضيع" مثل هذا الحنين؟) "إن الفردية حقيقة تبطل من ذاتها كل الإلزام الذي يمكن أن يكون عقبة في طريقك الشخصي".

(وفي هذه الحالة إذن، حتى إلغاء الإلزام، كانت فرديتي فردية مسدودة. وإنه لما يميز مرة أخرى المالك الصغير الألماني أن جميع العوائق والقيود تسقط بالنسبة إليه "من تلقاء

ذاتهـا"، مـا دام هـو ذاتـه لا يحـرك إصبعـاً صغيـراً قـط، وبقـوة العـادة يحـوّل تلـك العقبـات التـي لا تسـقط "مـن تلقـاء ذاتها" إلـى فرديتـه الخاصـة. ويمكـن أن نلاحـظ بصـورة عابـرة إن الفرديـة تظهرهنـا بوصفهـا شـخصاً فاعـلاً، بالرغـم مـن أنهـا تـتردى درجـة فيمـا بعـد إلـى مرتبـة الوصـف البسـيط للمالـك) (ص ٢١٥).

وتظهر النقيضة نفسها مرة أخرى، في الشكل التالي:

"باعتبـارك مالـكاً، فإنـك حـر فعليـاً مـن كل شـيء، ومـا بقـي عالقـاً بـك قـد قبلتـه أنـت نفسـك، بمحـض اختيـارك وبـكل طيبـة خاطـر. إن المالـك إنسـان مولـود حـراً، أمـا الإنسـان الحـر، مـن جهـة أخـرى، فليـس سـوى إنسـان راغـب فـي الحريـة".

وعلى أية حال، فإن القديس سانتشو "يعترف" في الصفحة ٢٥٢:

"إن كل امرئ يولد إنساناً، وبالتالي من وجهة النظر هذه فإن جميع المواليد متساوون".

إن مـا "لـم تتخلـص منـه" بوصفـه مالـكاً هـو "بمحـض اختيـارك وبـكل طيبـة خاطـر"، كمـا فـي حالـة جلـدات العبـد الـوارد ذكـره أعـلاه - إسـهاب مبتـذل! - وبالتالـي فـإن الفرديـة الخاصـة ترتـد هنـا إلـى الفكـرة الوهميـة بـأن القديـس سانتشـو بمحـض إرادتـه تبنـى واحتفـظ بـكل شـيء لـم "يتخلـص" منـه، مثـلاً الجـوع حيـن لا يملـك مـالاً. وإذا تركنـا جانبـاً عـدداً كبيـراً مـن الأمـور، مثـلاً اللهجـة، وداء الخنازيـر، والبواسـير، والفقـر، والعـرج، وإلـزام التفلسـف المفـروض عليـه مـن قبـل تقسـيم العمـل، الـخ، الـخ - وإذا تركنـا جانبـاً حقيقـة أنـه لا يتوقـف عليـه فـي أي حـال مـن الأحـوال مـا إذا كان "يقبـل" هـذه الأمـور أو لا يقبلهـا، فإنـه لا يملـك بعـد - حتـى لـو قبلنـا مقدماتـه للحظـة واحـدة - إلا الاختيـار بيـن أمـور محـددة موجـودة فـي مجـال وجـوده؛ ولـم تنشـئها فرديتـه الخاصـة فـي أي حـال مـن الأحـوال. ومثـال ذلـك أنـه لا يملـك، بوصفـه فلاحـاً ايرلنديـاً، إلا أن يختـار بيـن تنـاول البطاطـا أو المـوت جوعـاً، وهـو ليـس حـراً دائمـاً فـي القيـام بهـذا الاختيـار. وفـي الصيغـة المستشـهد بهـا أعـلاه يجـب علـى المـرء أن يسـجل أيضـاً ذلـك الإبـدال الجميـل الـذي يوحـد بصـورة مباشـرة، كمـا فـي الحقـوق، "القبـول" مـع "الاختيـار" و"طيبـة الخاطـر". وبالمناسـبة، فـإن شـيئاً فـي سـياق الكتـاب أو خارجـه لا يتيـح لنـا أن نؤكـد مـا يقصـده القديـس سانتشـو بالإنسـان "المولـود حـراً".

أليـس الشـعور المقبـول منـه شـعوراً مغروسـاً فيـه أيضـاً؟ أوَلسـنا نعلـم (منـذ الصفحتيـن ٨٤ و٨٥) أن المشـاعر "المغروسـة" ليسـت فـي أي حـال مـن الأحـوال مشـاعر "شـخصية"؟ وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه يتبيـن هنـا، كمـا رأينـا مـن قبـل بخصـوص كلوبسـتوك (الـذي يـورد كمثـال)، أن السـلوك "الشـخصي" لا يتفـق فـي أي حـال مـن الأحـوال مـع السـلوك الفـردي، بالرغـم مـن أن المسـيحية قـد "وافقـت" كلوبسـتوك جيـداً فيمـا يبـدو ولـم تقـف "حجـر عثـرة فـي طريقـه" فـي أي حـال مـن الأحـوال.

"إن المالـك لا يحتـاج لأن يتحـرر، مـا دام يرفـض منـذ البدايـة كل شـيء مـا عـدا نفسـه"... وحتـى حيـن كان تحـت سـلطان احتراماتـه الصبيانيـة السـاذجة، فإنـه مـع ذلـك يعمـل سـلفاً كـي "يتحـرر مـن هـذا السـلطان".

وهكـذا فـإن المالـك الـذي لا يحتـاج لأن يتحـرر يعمـل سـلفاً، منـذ طفولتـه، كـي يتحـرر، وهـذا كلـه، كمـا رأينـا، لأنـه إنسـان "مولـود حـراً". "وتحـت سـلطان احتراماتـه الصبيانيـة" يفكـر سـلفاً، بـكل حريـة، أو أيضـاً بصـورة شـخصية، فـي هـذا السـلطان الخـاص بـه. لكـن هـذا يجـب ألا يدهشـنا: لقـد رأينـا مـن قبـل فـي بدايـة العهـد القديـم أي طفـل معجـزة هـو الأنانـي المتفـق مـع نفسـه.

"تعمل الفردية في أحشاء الأناني الصغير وتزوده بما يرغب فيه، الحرية".

ليـس شـترنر هـو الـذي يحيـا، بـل "الفرديـة" هـي التـي تحيـا، و"تعمـل"، و"تـزود" فـي باطنـه. وإننـا لنـرى هنـا أن الفرديـة ليسـت وصفـاً للمالـك، بـل المالـك هـو إسـهاب الفرديـة.

وكمـا رأينـا، فقـد كان "الخـلاص" فـي أوجـه خلاصـاً مـن الـذات، إنـكاراً للـذات. ورأينـا كذلـك مـن جهـة أخـرى، أنـه عارضـه "بالفرديـة" بوصفهـا تأكيـداً للـذات، بوصفهـا مصلحـة شـخصية. بيـد أننـا رأينـا كذلـك أن هـذه المصلحـة الشـخصية لـم تكـن بدورهـا إلا إنـكاراً للـذات.

ولقـد شـعرنا بصـورة أليمـة طـوال فتـرة مـن الزمـن أن "المقـدس" مفتقـد. بيـد أننـا نكتشـفه مجـدداً بصـورة مباغتـة، وهـو فـي حالـة شـديدة مـن الاضطـراب، فـي الصفحـة ٢٢٤، فـي نهايـة القسـم عـن الفرديـة، حيـث يثبـت هويتـه بهـذه الصيغـة الجديـدة.

"إن موقفـي مـن أمـر أنـا معنـي بـه بصـورة أنانيـة" (أو غيـر معنـي علـى الإطـلاق) "يختلـف عـن موقفـي مـن أمـر أنـا أخدمـه" (أو أنـا معنـي بـه) "بصـورة منزهـة".

بيـد أن القديـس ماكـس غيـر راضٍ عـن هـذه القطعـة المرموقـة مـن اللغـو التـي "قبلهـا" "بمحـض اختيـاره وبـكل طيبـة خاطـر". إن "المـرء" الـذي طـواه النسـيان طويـلاً يعـاود ظهـوره بصـورة مباغتـة علـى المسـرح فـي هيئـة الحـارس الليلـي المكلـف بالتحقـق مـن هويـة المقـدس، ويعلـن أنـه:

"يسـتطيع أن يقـدم العلامـة المميـزة التاليـة: حيـال الأول أسـتطيع أن أخطـئ أو أرتكـب خطيئـة" (يـا لـه مـن لغـو مرمـوق!) "أمـا الآخـر فـلا أسـتطيع سـوى أن أبـدده، أحـرم نفسـي منـه، يعنـي أفعـل شـيئاً سـخيفاً"، (يترتـب علـى ذلـك أنـه يمكـن أن يبـدد نفسـه، يمكـن أن يحـرم نفسـه مـن نفسـه، يمكـن أن يحـرم مـن الحيـاة). "إن كلا هذيـن المنظوريـن يمكـن أن يطبقـا علـى حريـة التجـارة" نظـراً لأنهـا تعتبـر تـارة علـى أنهـا المقـدس وتـارة لا تعتبـر علـى هـذا الغـرار، أو كـي نسـتأنف تعابيـر القديـس سانتشـو الأكثـر تعقيـداً "لأنهـا تعتبـر جزئيـاً علـى أنهـا حريـة يمكـن منحهـا أو سـحبها وفقـاً للظـروف، وجزئيـاً علـى أنهـا حريـة مقدسـة فـي جميـع الظـروف" (ص٢٢٤، ٢٢٥).

إن سانتشـو يثبـت هنـا مـرة أخـرى "تفهمـه" "الشـخصي" فـي مسـألة حريـة التجـارة وتعريفـات الحمايـة (tarifs protecteurs) . وإن هـذا ليلقـي علـى عاتقـه "رسـالة" إيـراد حالـة وحيـدة اعتبـرت حريـة التجـارة فيهـا "مقدسـة"(١) لأنهـا "حريـة"، و(٢) "فـي جميـع الظـروف". إن المقـدس لنافـع لجميـع الأغـراض.

وبعدمـا أنشـئت الفرديـة بصـورة مصطنعـة كمـا رأينـا سـابقاً، بواسـطة نقائـض منطقيـة والحيلـة الظواهريـة عـن "التحـدد بصـورة مغايـرة"، انطلاقـاً مـن "حريـة" نسـجت سـابقاً مـن أجـل هـذه الغايـة - وبهـذه المناسـبة فـإن القديـس سانتشـو "طـرح" فـي الفرديـة جميـع الأشـياء التـي ناسـبته (الجلـدات مثـلاً)، وفـي الحريـة جميـع الأشـياء التـي لـم تناسـبه - نعلـم أخيـراً أن هـذا كلـه ليـس الفرديـة الحقيقيـة بعـد.

إنه ليقرر في الصفحة ٢٢٥:

"ليسـت الفرديـة فكـرة فـي أي حـال مـن الأحـوال، كمـا هـي حـال الحريـة، الـخ، فهـي ليسـت سـوى وصـف للمالـك".

ولسـوف نـرى أن هـذا "الوصـف للمالـك" يسـتقيم فـي إنـكار الحريـة فـي الانكسـارات

الثلاثة التي ينسبها القديس سانتشو إليها - الليبرالية والشيوعية والإنسانية - متفهماً إياها في حقيقتها، ومن بعد مسمياً هذه المحاكمة، البسيطة جداً وفقاً لقواعدها المنطقية، وصف الأنا الحقيقية.

***

إن كل الفصل عن الفردية الخاصة يتقلص إلى مجموعة من التقريظات الذاتية الأشد تفاهة التي يعزِّي المالك الصغير الألماني نفسه بها عن عجزه الخاص. وإنه ليفكر، مثله كمثل سانتشو بالضبط، أن جميع الأشياء في صراع المصالح البورجوازية ضد بقايا الإقطاعية والملكية المطلقة في البلدان الأخرى لا تدور إلا حول مسألة مبدئية: ممَّ يجب أن يتحرر "الإنسان"؟ (أنظر أعلاه "الليبرالية السياسية"). وبالتالي فإنه لا يرى في حرية التجارة إلا حرية بين الحريات، ويسهب في الحديث على طريقة سانتشو بقدر عظيم من الأبهة عما إذا كان ينبغي "للإنسان" أن يستمتع بحرية التجارة "في جميع الظروف" أم لا. وحين تتعرض مطامحه إلى الحرية لانهيار يائس، كما هو محتوم في مثل هذه الشروط، فإنه يعزي نفسه إذن، مثل سانتشو أيضاً، بأن "الإنسان"، أو هو نفسه، لا يستطيع "أن يصبح حراً من جميع الأشياء"، وأن الحرية تصور مبهم حتى الدرجة القصوى، وأنه حتى مترنيخ وشارل العاشر استطاعا أن يستنجدا "بالحرية الحقيقية" (ص ٢١٠ من "الكتاب")؛ ويكفي أن يشار هنا إلى أن الرجعيين بالضبط، وعلى الأخص المدرسة التاريخية والرومانسيين[١٥٧] - مرة أخرى مثل سانتشو تماماً - هم الذين يرون الحرية الحقيقية في الفردية - فردية الفلاحين التيروليين على سبيل المثال، وعلى العموم في خصوصية الأفراد، وعلى صعيد أوسع خصوصية الأماكن والأقاليم والمراتب الاجتماعية). - وإن المالك الصغير ليعزي نفسه كذلك بأنه سوف يعوض، بوصفه ألمانياً، حتى إذا لم يكن حراً، عن جميع الآلام بفرديته الخاصة التي لا جدال فيها. ومرة أخرى مثل سانتشو لا يرى في الحرية قوة يمكنه الحصول عليها، وبالتالي يجعل من عجزه الخاص قوته الوحيدة.

إن ما يهمس به البورجوازي الألماني في أعماق نفسه الهادئة كي يحصل على العزاء

يبـوِّق بـه صاحبنـا البرلينـي بصـوت مرتفـع علـى أنـه لفتـة فكريـة عبقريـة. إنـه فخـور بفرديتـه الخاصـة التافهـة وبتفاهتـه الخاصـة.

٥- المالك

بشـأن "إنكسـارات" المالـك الثلاثـة: "قوتـي"، و"تعاملـي"، و"متعتـي الذاتيـة"، أنظـر: اقتصـاد العهـد الجديـد. سـوف ننتقـل مباشـرة إلـى أول هـذه الانكسـارات.

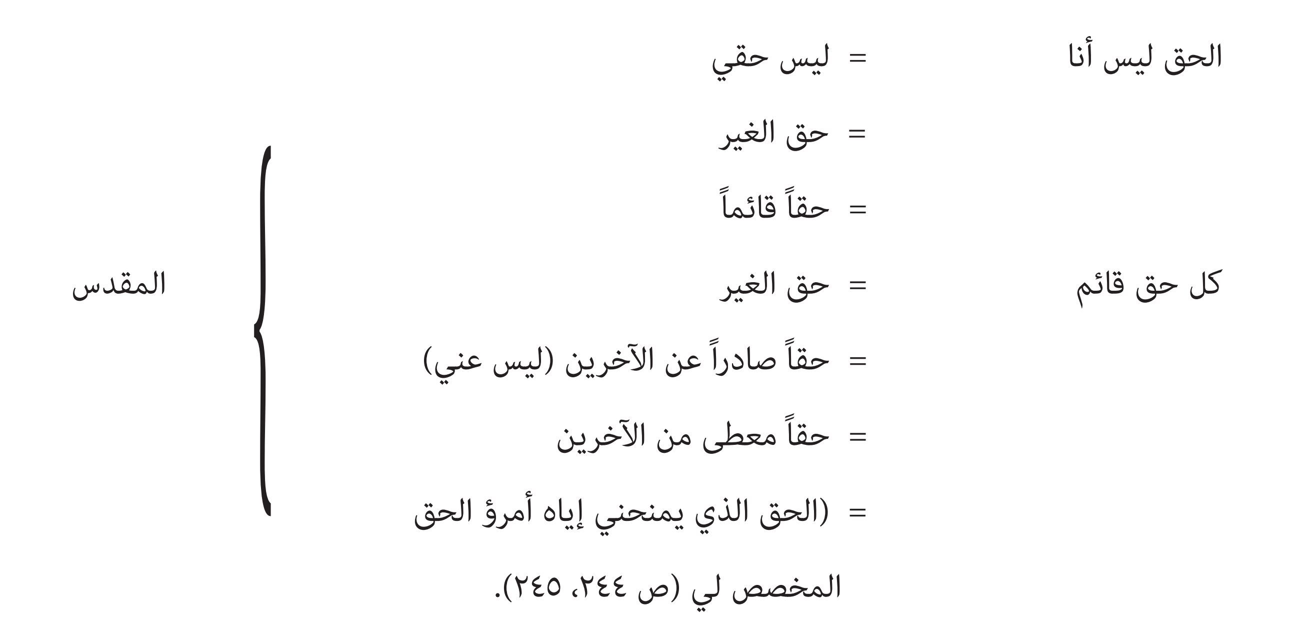
أ – قوتي

إن للفصـل عـن القـوة، بـدوره، بنيـة ثلاثيـة الأجـزاء، حيـث يعالـج: ١- الحـق، ٢- القانـون، ٣- الجريمـة. وكيمـا يخفـي هـذه الطبيعـة الثلاثيـة الأجـزاء، يلجـأ سانتشـو علـى الأغلـب، فـي كثيـر مـن المعانـاة، إلـى "الحـدث العرضـي" وإننـا نقـدم هنـا المحتـوى الكامـل فـي شـكل جـدول، مـع الإدراجـات العرضيـة الضروريـة.

١ ـ الحق

آ – التكريس عامة

مثال آخر على المقدس هو الحق.



الحق ليس أنا = ليس حقي
= حق الغير
= حقاً قائماً
كل حق قائم = حق الغير
= حقاً صادراً عن الآخرين (ليس عني)
= حقاً معطى من الآخرين
= (الحق الذي يمنحني إياه أمرؤ الحق المخصص لي (ص ٢٤٤، ٢٤٥).

} المقدس

ملاحظـة رقـم ١- سـوف يعجـب القـارئ بسـبب ظهـور الطـرف الثانـي مـن المعادلـة رقـم ٤ بصـورة مفاجئـة فـي المعادلـة رقـم ٥علـى أنهـا الطـرف الأول المتعلـق بالطـرف الثانـي مـن المعادلـة رقـم ٣، بحيـث يظهـر فـي مـكان "الحـق" بصـورة مفاجئـة، فـي الطـرف الأول، "كل حـق قائـم". ويقصـد القديـس سانتشـو مـن ذلـك التظاهـر بأنـه يتحـدث عـن الحـق القائـم الفعلـي، بينمـا هـولا يفكـر فـي ذلـك فـي أي حـال مـن الأحـوال. إنـه لا يتحـدث عـن الحـق إلا بقـدر مـا هـو ماثـل علـى أنـه "محمـول" مقـدس.

ملاحظـة رقـم ٢ - بعدمـا حـدد الحـق علـى أنـه "حـق الغيـر"، يمكـن أن يعطـى الأسـماء التـي تحلـو لـك مثـل "حـق السـلطان"، "حـق الشـعب"، الـخ، وفقـاً لرغبـة القديـس سانتشـو فـي تحديـد الغريـب الـذي يتلقـى منـه الحـق موضـع البحـث. ويتيـح هـذا لسانتشـو أن يمضـي إلـى القـول إن "الحـق الغريـب ممنـوح مـن الطبيعـة، مـن اللـه، مـن الاقتـراع الشـعبي، الـخ" (ص ٢٥٠)، وبالتالـي "ليـس منـي". وإن السـذاجة الوحيـدة فـي كل ذلـك هـي الطريقـة التـي يحـاول قديسـنا بهـا، مـن خـلال اسـتخدام التـرادف، أن يعطـي بعـض مظاهـر التطـور للمعـادلات الـواردة أعـلاه.

"فليعتبرنـي بعـض الحمقـى علـى حـق" (مـاذا لـو كان هـو نفسـه الأحمـق الـذي يعتبـر نفسـه علـى حـق؟)، "فـإذا حقـي يصبـح موضـع الشـبهة فـي الحـال بالنسـبة إلـيَّ" (إنـه ليكـون مـن المرغـوب فيـه، فـي مصلحـة "شـترنر" نفسـه، أن يكـون الأمـر كذلـك). "لكـن حتـى إذا اعتبرنـي رجـل حكيـم علـى حـق، فـإن هـذا لا يعنـي بعـد أننـي علـى حـق. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فإننـا حتـى الآن قـد سـعينا إلـى هـذا الحـق(*). إننـا ننشـد الحـق، ولهـذه الغايـة نتوجـه إلـى المحكمـة... لكـن مـا الـذي أطلبـه مـن المحكمـة العليـا للرقابـة، حـق الرقابـة" (ص ٢٤٤، ٢٤٥).

لا بـد للمـرء أن يعجـب بالاسـتخدام الماكـر للتـرادف فـي هـذه الجملـة البارعـة. إن الاعتـراف بالحـق بالمعنـى الحـواري العـادي يوحـد مـع الاعتـراف بالحـق بالمعنـى القضائـي. وإن مـا هـو أكثـر

(*) بالألمانية تعني كلمة Recht "الحق" – لكن Recht haben تعني "على صواب". ويستخدم شترنر في هذه الفقرة بأسرها كلمة recht بالمعنيين.

أهلاً للإعجاب الإيمان القادر على نقل الجبال في الفكرة بأن المرء "يتوجه إلى المحكمة" طلباً للذة إثبات حقه - وهو إيمان يفسر المحاكم بهوس المقاضاة(*).

وأخيراً، فانه مما يسترعي الانتباه أيضاً، البراعة التي يهرِّب بها سانتشو بادئ الأمر- كما هي الحال في المعادلة رقم ٥ أعلاه - الاسم الأكثر تشخيصاً، "حق السلطان" في هذه الحال، كيما يكون قادراً بمزيد من الحسم فيما بعد على إقحام مقولته العامة "حق الغير".

الحق الغريب	= ليس حقي
أن يكون لي حقي الغريب	= ألا أكون على حق (صواب)
	= ألا يكون لي أي نوع من الحق
	= أن أكون عديم الحق. (ص ٢٤٧).
حقي	= ليس حقك
	= باطلك
حقك	= باطلي.

ملاحظة: "إنك ترغب في أن تكون على حق ضد الآخرين" (يجب أن يقرأ: أن تكون في حقك). "لكن هذا مستحيل، فبالنسبة إليهم سوف تظل على الدوام في "الباطل"، لأنهم

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت من المخطوطة:] إن الفكرة التي يملكها القديس جاك المغفل عامة عن المحكمة يمكن استخلاصها من حقيقة أنه يستشهد بالمحكمة العليا للرقابة كمثال، وهي التي لا يمكن على الأكثر إلا لذهن بروسي أن يعتبرها محكمة حقيقية - محكمة لا تستطيع أن تتخذ سوى الإجراءات الإدارية، لكنها عاجزة سواء عن إنزال العقوبات أو عن تسوية الدعاوى المدنية. وماذا يهم قديسنا الذي لا يعنى قط بالأفراد الواقعيين أن يكون القضاء والإدارة، المنفصلان أو المتطابقان على نمط رعوي، مقابلين لمرحلتين للإنتاج مختلفتين كل الاختلاف بالنسبة إلى الأفراد.

إن المعادلات المذكورة أعلاه تحوّل هنا إلى "دعوة" و"مصير" و"واجب"، وهي الوصايا الأخلاقية التي غرسها القديس ماكس في الضمير القلق لخادمه الأمين شيليغا. ومثله مثل ضابط صف بروسي (أن "دركيه" الخاص ينطق بفمه)، يخاطب القديس ماكس شيليغا بصفة الغائب: إنه سيهتم بأن يظل حقه في الأكل غير منقوص الخ. إن حق البروليتاريين في الأكل لم "ينقص" قط، ومع ذلك فإنه يحدث "بصورة طبيعية تماماً" أن يكونوا على الأغلب عاجزين عن "ممارسة" هذا الحق.

لـن يكونـوا خصومـك إذا لـم يكونـوا كذلـك فـي "حقهـم". لسـوف "يعتبرونـك" بصـورة دائمـة "علـى باطـل"... إذا تمسـكت بمبـادئ الحـق، فإنـك لـن تفلـت إذن، مـن... المنازعـات القضائيـة" (ص ٢٤٨، ٢٥٣).

"فلنـدرس فـي هـذه الأثنـاء الموضـوع مـن زاويـة أخـرى". إن فـي مقـدور القديـس سانتشـو الآن، وقـد قـدم علـى هـذا الغـرار إثباتـاً بينـاً علـى معرفتـه بالحـق، أن يقتصـر علـى تعريـف الحـق مـرة أخـرى علـى أنـه المقـدس، ويسـتأنف بهـذه المناسـبة بعـض النعـوت المعطـاة للمقـدس مـن قبـل أن يقرنهـا بكلمـة "حـق".

"أليس الحق مفهوماً دينياً، يعني شيئاً مقدساً؟" (ص ٢٤٧).

"من يستطيع أن يسأل عن "الحق" إن لم يفعل من وجهة نظر دينية؟" (المصدر ذاته).

"الحـق فـي ذاتـه ولأجـل ذاتـه". وبالتالـي مـن دون علاقـة بـي؟ "الحـق المطلـق"! وبالتالـي المنفصـل عنـي - شـيء كائـن "فـي ذاتـه ولأجـل ذاتـه!" - مطلـق! حـق أزلـي، مثـل "الحقيقـة الأزليـة" - المقـدس (ص ٢٧٠).

"إنـك ترتـد فـي هلـع أمـام الآخريـن لأنـك تحسـب أنـك تـرى شـبح الحـق ينتصـب إلـى جانبهـم!" (ص ٢٥٣).

"إنك تزحف كيما تكتسب حظوة الشبح" (المصدر ذاته).

"إن الحق هاجس يوحي به شبح" (تركيب القضيتين السابقتين). (ص ٢٧٦).

"إن الحق... فكرة ثابتة" (ص ٢٧٠).

"إن الحق روح..." (ص ٢٤٤).

"لأن الحق لا يمكن أن يعطى إلا من قبل روح" (ص ٢٧٥).

ويوضـح القديـس سانتشـو الآن مـرة أخـرى مـا أوضحـه مـن قبـل فـي العهـد القديـم، أي مـا هـي "الفكـرة الثابتـة"، مـع هـذا الفـرق الوحيـد، ألا وهـو أن "الحـق" يظهـر هنـا فـي كل مـكان بوصفـه "مثـالاً آخر"عـن "الفكـرة الثابتـة".

"الحـق فـي الأصـل فكـري، يعنـي أن هـذا الفكـر" (!) "يملـك أصلـه فـيَّ. لكـن حالمـا انبثـق

منـي" (فـي الحديـث الشـائع أفلـت مـن بيـن أصابعـي)، و"حالمـا تكـون "الكلمـة" قـد لفظـت، فـإن الكلمـة تصبـح جسـداً إذن"، (ويسـتطيع القديـس سانتشـو أن يـأكل منـه حتـى الشـبع)، "فكـرة ثابتـة" - (ولهـذا السـبب فـإن كتـاب شـترنر يتشـكل مـن "أفـكار ثابتـة" "انبثقـت" "منـه"، لكننـا أمسـكنا نحـن بهـا وأوقفناهـا فـي "دار الإصـلاح" الذائعـة الصيت)."عندئـذ" (بعدمـا انفصـل الفكـر عنـه) "لا أسـتطيع الانفصـال عنـه؛ فمهمـا تلويـت وتلفـت، فإنـه ينتصـب أمامـي" (إن الضفيـرة ذاتهـا تتدلـى خلـف ظهـره)[١٥٨]. "وهكـذا كان النـاس عاجزيـن عـن اسـتعادة التحكـم فـي هـذه الفكـرة عـن "الحـق" التـي خلقوهـا بأنفسـهم. إن خليقتهـم قـد جمحـت. ذلـك هـو الحـق المطلـق، الـذي حـل رباطـه" (يـا للتـرادف!) و"فصـل عنـي. ومـا دمنـا نبجلـه علـى أنـه مطلـق، فإننـا لا نسـتطيع أن نلتهمـه مـن جديـد، وهـو يجردنـا مـن قوتنـا الخلاقـة؛ إن الخليقـة أكثـر مـن الخالـق، وهـي توجـد فـي ذاتهـا ولأجـل ذاتهـا. لا تسـمحوا للحـق أن يذهـب حـراً بعـد الآن...".

(سوف نتبع هذه النصيحة في الحال ونقيد هذه العبارة حتى إشعار آخر) (ص ٢٧٠).

وأمـا سـحب القديـس سانتشـو الحـق مـن خـلال كل المعانـاة الممكنـة للتكريـس بالنـار والمـاء، بتقديسـه، فهـو قـد أعـدم هـذا الحـق فـي الوقـت ذاتـه.

"مـع الحـق المطلـق، يـزول الحـق نفسـه، وفـي الوقـت ذاتـه تلغـى سـيطرة مفهـوم الحـق" (التراتـب)، "ذلـك أنـه يجـب ألا ينسـى أن المفاهيـم والأفـكار والمبـادئ قـد سـادت علينـا حتـى الآن، وأن يبيـن هـؤلاء السـادة لعـب مفهـوم الحـق أو مفهـوم العدالـة أحـد الأدوار الرئيسـية" (ص ٢٧٦).

أمـا أن تتخـذ الحقائـق الحقوقيـة هنـا، مـرة أخـرى، مظهـر سـيطرة مفهـوم الحـق، وأن شـترنر يقضـي علـى الحـق سـلفاً حيـن يجعـل منـه مفهومـاً، وبالتالـي المقـدس، فذلـك أمـر قـد اعتدنـاه مـن قبـل. أنظـر بهـذا الشـأن "التراتـب". وعنـد شـترنر أن الحـق لا ينشـأ عـن الشـروط الماديـة التـي يحيـا فيهـا البشـر ومـا ينجـم عـن ذلـك مـن نزاعـات، بـل عـن صراعهـم ضـد مفهومهـم الخـاص الـذي يجـب أن "ينزعـوه مـن رؤوسـهم". أنظـر القسـم عـن "المنطـق".

إن هذا الشكل الأخير لتكريس الحق يتضمن كذلك الملاحظات الثلاث التالية:

الملاحظة الأولى:

"ما دام هذا الحق الغريب يتطابق مع حقي، فمن الطبيعي أن أجد هذا الأخير فيه أيضاً" (ص ٢٤٥).

ولندع القديس سانتشو يتأمل هذه العبارة لفترة من الزمن.

الملاحظة الثانية:

"إذا تسربت إليه مصلحة أنانية، فسد المجتمع في الحال... كما كانت مثلاً، حال المجتمع الروماني بقانونه المدني المعد على أكمل وجه" (ص ٢٧٨).

ووفقاً لذلك، فلا بد أن المجتمع الروماني كان منذ البداية مجتمعاً فاسداً، ما دامت المصلحة الأنانية واضحة في "الجداول العشرة"(١٥٩) بصورة أكثر حدة مما هي عليه في "القانون المدني المعد على أكمل وجه" للحقبة الامبراطورية. وهكذا فإن القانون المدني، في هذه الذكرى التاعسة من هيغل، يعتبر عرضاً للأنانية وليس للمقدس. وإنه لفي مقدور القديس سانتشو هنا أيضاً، أن يفكر جيداً بمدى ارتباط القانون المدني [Privaterecht] بالملكية الخاصة [privateigentum] وما يحتويه فضلاً عن ذلك من العلاقات الحقوقية العديدة الأخرى (راجع الملكية الخاصة والدولة والحق) التي لا يملك القديس ماكس ما يقوله عنها سوى أنها المقدس.

الملاحظة الثالثة:

"على الرغم من أن الحق مشتق من المفهوم، فإنه مع ذلك لا يأتي إلى الوجود إلا لأنه يخدم حاجاتنا".

هذا ما يقوله هيغل (فلسفة الحق، الفقرة ٢٠٩، الملحق)، الذي ورث عنه قديسنا تراتب المفاهيم في العالم الحديث. وهكذا فإن هيغل يفسر وجود الحق بالحاجات التجريبية للأفراد ولا ينقذ المفهوم إلا بواسطة تأكيد بسيط. وإن المرء ليستطيع أن يرى كيف أن هيغل يتقدم بصورة أكثر مادية بصورة لا متناهية من القديس سانتشو، هذه "الأنا من لحم ودم".

ب- التملك بالنقيضة البسيطة

أ) حق الإنسان - حقي.

ب) الحق الإنساني - الحق الأناني.

ج) حق الغير = الحصول على الحق من الآخرين. } - { حقي = الحصول على حقي من نفسي.

د) الحق هو ما يعتبره الإنسان صالحاً. } - { الحق هو ما أعتبره أنا صالحاً.

"هـذا هـو الحـق الأنانـي: هـذا صالـح لـي، وبالتالـي فـإن هـذا هـو الحـق" (فـي مواضـع مختلفـة، والعبـارة الأخيـرة واردة فـي الصفحـة ٢٥١).

الملاحظة الأولى:

"أمـا فإننـي أعطـي نفسـي الحـق فـي القتـل مـا دمـت أنـا لا أحظـر علـى نفسـي الجريمـة، ولا أتراجـع أمامهـا كمـا لـو كانـت باطـلاً" (ص ٢٤٩).

ويجـب أن يقـرأ هـذا: إننـي أقتـل مـا دمـت لا أحظـر علـى نفسـي هـذا الفعـل، مـا دمـت لا أتراجـع أمـام الجريمـة. وإن هـذه العبـارة بأكملهـا إسـهاب متبجـح للمعادلـة الثانيـة فـي النقيضـة (جــ)، حيـث عبـارة "الحصـول علـى الحـق" قـد فقـدت معناهـا.

الملاحظة الثانية:

"إننـي أقـرر مـا إذا كان الحـق فـي باطنـي؛ فخارجـاً منـي لا وجـود لأي حـق" (ص ٢٤٩) - "هـل نحـن مـا هـو فينـا؟ كلا، ليـس أكثـر ممـا هـو خارجـاً منـا... بالضبـط لأننـا لسـنا الـروح الـذي يسـكن فينـا، لهـذا السـبب بالـذات يجـب علينـا أن نسـقطه خارجـاً منـا... نفكـر بـه علـى أنـه موجـود خارجـاً منـا... فـي العالـم الآخـر" (ص ٤٣).

وهكـذا، وفقـاً لصيغتـه الخاصـة فـي الصفحـة ٤٣، لا بـد للقديـس سانتشـو أن يُسـقط مـرة أخـرى الحـق الـذي كان "فيـه" "خارجـاً منـه"، وفـي الحقيقـة "فـي العالـم الآخـر". لكـن إذا مـا أراد مـرة أن يتملـك الأشـياء بهـذه الطريقـة، فإنـه يسـتطيع إذن، أن يسـقط "فـي ذاتـه" الأخـلاق والديـن

وكل شيء "مقدس"، ويقرر ما إذا كان ذلك "فيه" الأخلاقي والديني والمقدس - "خارجاً منه لا وجود لأي" أخلاق أو دين أو قداسة - كيما يُسقط بعد ذلك، وفقاً للصفحة ٤٣، هذه الأمور خارجاً منه، في العالم الآخر. وبذلك يتحقق "إحياء جميع الأشياء" وفقاً للنموذج المسيحي.

الملاحظة الثالثة:

"خارجاً مني لا وجود لأي حق. إن ما أعتبره صالحاً لي هو حق. ومن الممكن أنه لا يزال بعد، لهذا السبب، حقاً بالنسبة إلى الآخرين" (ص ٢٤٩).

ويجب أن يقرأ هذا: إن ما أعتبره صالحاً لي هو حق بالنسبة إليَّ، لكنه ليس لهذا السبب حقاً بالنسبة إلى الآخرين. ولقد صار لدينا حالياً ما يكفي من الأمثلة على "وثبات البرغوث" الترادفية التي يقوم بها القديس سانتشو بكلمة "حق". الحق والصواب، و"الحق" الحقوقي، وما هو "حق" أخلاقياً، وما يعتبره، "حقاً"، الخ، - هذا كله يستخدم خبط عشواء، مثلما يلائمه. فليجرب القديس سانتشو أن يترجم فرضياته عن الحق إلى أية لغة أخرى، فيتضح لغوه كل الوضوح في الحال. وما دام هذا الترادف قد عولج بصورة وافية في القسم عن "المنطق"، فإنه يكفينا هنا أن نحيل القارئ إليه.

إن الصيغة المذكورة أعلاه تقدم كذلك إلينا في "الاستحالات " الثلاث التالية:

أ- "ما إذا كنت على حق أم لا، هذا ما لا يمكن أن يكون عليه حكم آخر سواي. إن كل ما يستطيع الآخرون أن يقرروه هو ما إذا كانوا يوافقون على حقي، وما إذا كان يملك قيمة بالنسبة إليهم أيضاً". (ص ٢٤٦).

ب- "مما لا ريب فيه أن المجتمع يريد أن يبلغ كل شخص حقه، لكن الحق المكرس من المجتمع فقط، الحق الاجتماعي، ليس الحق الخاص بكل شخص" (يجب أن يقرأ هذا: "ملكية كل شخص" - فكلمة "حق" لا معنى لها على الإطلاق هنا. ومن بعد يستطرد بكل تبجح): "أنا، على أية حال، أمنح نفسي الحق أو أستولي عليه من سلطتي المطلقة الصلاحية... مالك وخالق حقي" ("خالق" بقدر ما يعلن أولاً الحق على أنه فكرة ومن بعد

يزعـم أنـه عـاد فامتصـه). "إننـي لا أعتـرف بـأي مصـدر آخـر للحـق سـوى نفسـي - لا اللـه، ولا الدولـة، ولا الطبيعـة، ولا الإنسـان، ولا الحـق الإلهـي ولا الحـق الإنسـاني". (ص ٢٦٩).

ج - "مـا دام الحـق الإنسـاني هـو علـى الـدوام حـق معطـى، فليـس المقصـود قـط فـي واقـع الأمـر إلا منحـة، يعنـي تنـازلاً يقدمـه البشـر لبعضهم بعضـاً" (ص ٢٥١).

ومن جهة أخرى، فإن الحق الأناني هو الحق الذي أمنحه لنفسي أو أستولي عليه.

ومهمـا يكـن مـن أمـر، "لنقـل فـي الختـام أنـه يمكـن أن يتبيـن" إنـه فـي الحقبـة الألفيـة لسانتشـو- ليـس الحـق الأنانـي الـذي يتفـق البشـر بشـأنه مـع بعضهـم بعضـاً مختلفـاً اختلافـاً كبيـراً عـن ذلـك الحـق الـذي "يمنحـه" البشـرأو "يتسـامحون بـه" الواحـد إلـى الآخـر.

الملاحظة الرابعة:

"ختاماً بقـي لـي أن أمتـص هـذا التعبيـر الهجيـن الـذي لـم أشـأ استخدامه إلا حيـن كنـت أنقـب فـي أحشـاء الحـق ولـم أتمكـن إلا أن أسـمح علـى الأقـل للكلمـة بالبقـاء. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن الكلمـة تفقـد فـي الواقـع معناهـا جنبـاً إلـى جنـب مـع المفهـوم. إن مـا سـميته حقـي ليـس بعـد الآن حقـاً علـى الإطـلاق" (ص ٢٧٥).

يمكـن لأي امـرئ أن يـرى مـن أول نظـرة السـبب فـي أن القديـس سانتشـو سـمح "لكلمـة" الحـق بالبقـاء فـي النقائـض الـواردة أعـلاه. فمـا دام لا يعالـج مطلقـاً مضمـون الحـق، وبالأحـرى أن ينقـده، فإنـه لا يسـتطيع أن يتظاهـر بأنـه يتحـدث عـن الحـق إلا إذا احتفـظ علـى الأقـل بكلمـة حـق. ولـو أن كلمـة حـق حذفـت مـن النقيضـة، فـإن كل مـا يتبقـى إذن، هـو "أنـا" (Moi)، و"لـي" (Mien) والأشـكال الصرفيـة الأخـرى لضميـر المتكلـم. وعلـى أي حـال، فقـد كانـت الأمثلـة وحدهـا تدخـل فـي كل مـرة نوعـاً مـن المضمـون الـذي لـم يكـن، كمـا رأينـا، سـوى لغـو صـرف مـن نمـط: إذا قتلـت فإننـي أقتـل إذن، الـخ، حيـث لا مـكان لكلمـات "حـق"، و"علـى حـق"، الـخ، إلا بهـدف إخفـاء اللغـو الخـاص وإعطائـه نوعـاً مـن الارتبـاط بالنقيضـة. ولقـد كان التـرادف لا يسـتهدف منـه أيضـاً، إلا خلـق مظهـر معالجـة نـوع مـا مـن المضمـون. وعلـى أي حـال، فـإن المـرء يسـتطيع أن يـرى فـي الحـال المصـدر الثـري للتبجّـح الـذي توفـره هـذه الثرثـرة الجوفـاء عـن الحـق.

وهكـذا فـإن كل "التنقيـب فـي أحشـاء الحـق" يرتـد بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو إلـى "اسـتخدام التعبيـر الهجيـن" و"السـماح" علـى الأقـل للكلمـة "بالبقـاء"، لأنـه كان عاجـزاً عـن

قول أي شيء عن الموضوع ذاته. وإذا كان لا بد أن يكون للنقيضة أي معنى، يعني أنه إذا أراد "شترنر" بكل بساطة أن يبرهن فيها على نفوره من الحق، فإن على المرء أن يقول إذن، بالأحرى إنه ليس هو الذي "نقب في أحشاء الحق"، بل إن الحق "نقب" في أحشائه وإنه لم يفعل سوى تسجيل الحقيقة التالية، ألا وهي: إن الحق ليس على هواه. "احتفظ بهذا الحق كاملاً غير منقوص"، يا جاك المغفل!

ولم يكن للقديس سانتشو بد، كي يدخل نوعاً من المضمون إلى هذا الفراغ، من أن يقوم بمناورة منطقية أخرى، يشوشها بقدر كبير من "البراعة" العظيمة إذ يخلطها مع التكريس والنقيضة البسيطة، مقنعاً كل شيء بفصول عديدة بحيث لا يستطيع الجمهور الألماني ولا الفلاسفة أن يروا شيئاً من خلاله.

جـ - التملك بالنقيضة المركبة

لا بدَّ "لشترنر" الآن أن يدخل تعريفاً تجريبياً للحق يستطيع أن يبرره في نظر الفرد، أي لا بدَّ له أن يعترف في الحق بشيء آخر إلى جانب القداسة. وبهذا الشأن فقد كان في وسعه أن يوفر على نفسه كل هذه الحيل الخرقاء ما دامت القوة قد مثلت على اعتبارها أساس الحق منذ ماكيافيللي وهوبس وسبينوزا وبودينوس وآخرين من الحقب الحديثة، هذا إذا غضضنا الطرف عن ذكر الحقب الأسبق. وبذلك فإن المفهوم النظري للسياسة قد تحرر من الأخلاق، الأمر الذي أدخل بكل بساطة المسلمة التالية: إن السياسة يجب أن تعالج بصورة مستقلة. وفي وقت لاحق، في القرن الثامن عشر في فرنسا وفي القرن التاسع عشر في إنكلترا، أرجع الحق كله إلى القانون المدني (الذي لا يأتي القديس ماكس على ذكره مطلقاً) وهذا الأخير إلى قوة معينة تماماً، قوة المالكين الخاصين. وفيما عدا ذلك، فإن القضية لم تترك في أي حال من الأحوال عند مجرد الصيغ.

وهكذا يستخلص القديس سانتشو تعريف القوة من الحق ويفسرها كما يلي:

"لقد درجنا على عادة تصنيف الدول وفقاً للطرق المتنوعة التي توزع حسبها فيها "القوة العليا"... القوة العليا! القوة على من؟ على الفرد المنفصل... ضد من تستخدم الدولة العنف؟ ضد الفرد... إن سلوك الدولة هو ممارسة العنف، وهي تسمي هذا العنف حقاً...

إن المجتمع ككل... يملك قوة توصف بأنها قائمة على الحق، أي هي الحق". (ص ٢٥٩، ٢٦٠).

إن قديسنا يتوصل بفضل "عادتنا" إلى قوته التي طال حنينه إليها ويستطيع الآن أن "يعنى" بنفسه من جديد(*).

الحق، قوة الإنسان – لقوة، حقي.

المعادلات المتوسطة:

أن يكون له الحق = أن تكون له السلطة.

أن يخوّل نفسه الحق = أن يمنح نفسه السلطة.

النقيضة:

أن يخوّل الحق من قبل الإنسان - أن يتلقى السلطة من قبلي.

النقيضة الأولى:

الحق، قوة الإنسان –القوة، حقي.

تنقلب الآن إلى:

حق الإنسان - { قوة مني
قوتي

ما دام للحق والقوة هوية واحدة في القضية، لا بدَّ من "امتصاص" "التعبير الهجين" في النقيضة، نظراً لأن الحق، كما رأينا، قد "فقد كل معنى".

الملاحظة الأولى: أمثلة على الإسهابات الطنانة والمتبجحة للنقائض والمعادلات المذكورة أعلاه:

"إن ما تملك السلطة على أن تكونه، تملك الحق في أن تكونه". "إنني أشتق كل حق وكل سلطان من نفسي وحدها، إنني مخوّل أن أفعل كل ما أملك القوة على فعله" - "إنني لا أطالب بأي حق، وبالتالي ليست بي حاجة إلى الاعتراف بأي حق. إن ما أستطيع أن أحصل

(*) في الأصل الألماني تلاعب لفظي بكلمة "pflegen" التي يمكن أن تعني الاعتياد كما يمكن أن تعني الاهتمام والعناية.

عليه عنوة، أحصل عليه عنوة، وما لا أستطيع الحصول عليه عنوة، فإنني لا أملك فيه أي حق، الخ... وإنه لسواء عندي أن أكون مخوّلاً أو لا، إذا كنت أملك القوة فقط... فإنني مفوض إذن، بصورة مفروغ منها وليست بي حاجة إلى أي تفويض أو تسويغ آخر". (ص ٢٤٨، ٢٧٥).

الملاحظة الثانية: أمثلة على الطريقة التي يحلل القديس سانتشو بها القوة على اعتبارها الأساس الفعلي للحق.

"وهكذا، يقول الشيوعيون" (كيف بربكم يعرف "شترنر"كل ما يقوله الشيوعيون طالما أنه لم يقع بصره على أي شيء يتعلق بهم باستثناء تقرير بلونتشلي وكتاب بيكر: [الفلسفة الشعبية La philosophie populaire] وبعض الترهات الأخرى؟): "العمل المتساوي يعطي الناس حقاً في المتعة المتساوية... لا، إن العمل المتساوي لا يمنحك هذا الحق، بل إن المتعة المتساوية وحدها تمنحك الحق في المتعة المتساوية. استمتع، وإن لك الحق في المتعة إذن... إذا أخذت المتعة، فهي حقك إذن؛ أما من جهة أخرى، إذا طمحت إليها فقط، من دون أن تأخذها، فإنها سوف تبقى كما كانت من قبل "الحق المكتسب" لأولئك الذين يملكون امتياز المتعة. إنها حقهم، بالضبط كما أنها سوف تصبح حقك إذا استوليت عليها". (ص ٢٥٠).

قارنوا ما وضع هنا على أفواه الشيوعيين مع ما قيل من قبل في فصل "الشيوعية". إن القديس سانتشو يرى هنا مرة أخرى، في البروليتاريين "جمعية مغلقة"ما عليها إلا أن تتخذ قرار "الاستيلاء" كي ترتب وتصفي بين ليلة وضحاها كل النظام الذي كان قائماً حتى هذا الحين. بيد أن واقع الأمر أن البروليتاريين لا يتوصلون إلى هذه الوحدة إلا من خلال عملية طويلة للتطور تلعب فيها مناشدة حقهم دورها أيضاً. وعلى أي حال، فإن هذه المناشدة لحقهم إنما هي وسيلة لتحويلهم إلى "أنفسهم"، لجعلهم طبقة ثورية موحدة. - أما بخصوص الصيغة الواردة أعلاه بالذات، فإنها تشكل من أولها إلى آخرها مثالاً لامعاً على اللغو، كما يتضح في الحال إذا حذف المرء عبارتي القوة والحق على السواء، الأمر الذي يمكن القيام به من دون إلحاق أي أذى بالمحتوى. ثانياً، إن القديس سانتشو نفسه يميِّز بين القدرة الشخصية والقدرة

الموضوعيـة[*]، وبالتالـي يميِّـز بيـن الاسـتمتاع والقـوة علـى الاسـتمتاع. قـد يكـون لـي قـوة (قـدرة) شـخصية كبيـرة علـى الاسـتمتاع مـن دون أن أملـك بالضـرورة مـا يقابـل ذلـك مـن قـوة ماديـة (المـال، الـخ). وهكـذا فـإن متعتـي الفعليـة تظـل شـرطية دائمـاً.

ويستطرد صاحبنا معلم المدرسة، مستخدماً أمثلة تلائم كتب الأطفال على الأكثر:

"أمـا أن ابـن الملـك يضـع نفسـه فـوق الأولاد الآخريـن، فذلـك فعلـه بصـورة مسـبقة، فعـل يضمـن تفوقـه علـى الآخريـن! وأمـا أن الأولاد الآخريـن يعترفـون بهـذا الفعـل ويوافقـون عليـه، فذلـك فعلهـم، الـذي يجعلهـم مسـتحقين أن يكونـوا رعايـا". (ص ٢٥٠).

فـي هـذا المثـال، تعتبـر العلاقـة الاجتماعيـة التـي تربـط بيـن ابـن الملـك والأولاد الآخريـن علـى أنهـا القـوة، وفـي الحقيقـة علـى أنهـا القـوة الشـخصية لابـن الملـك هـذا حيـال عجـز الأولاد الآخريـن. وإذا كانـت حقيقـة أن الأولاد الآخريـن يسـمحون لأنفسـهم بـأن يأتمـروا بأوامـر ابـن الملـك التـي تعتبـر علـى أنهـا "فعـل" الأولاد الآخريـن، فـإن هـذا يثبـت علـى الأكثـر أنهـم أنانيـون. "إن الفرديـة تنشـط فـي الأنانييـن الصغـار" وتلهمهـم أن يسـتغلوا ابـن الملـك، أن ينتزعـوا منـه بعـض المزايـا.

"يقـال" (أي يقـول هيغـل): "إن العقوبـة هـي حـق المجـرم. لكـن الإفـلات مـن العقوبـة حقـه أيضـاً بصـورة لا تقـل عـن ذلـك. فـإذا هـو نجـح فـي مشـاريعه، فإنـه ينـال مـا يسـتحقه، وإذا أخفـق فإنـه يسـتحق ذلـك بصـورة لا تقـل عـن ذلـك. إذا تعـرض امـرؤ بصـورة غيـر هيابـة للمخاطـر ولقـي حتفـه قتـلاً نقـول: إنـه يسـتحق ذلـك، فقـد سـعى إليـه. أمـا إذا تغلـب علـى الخطـر، أي إذا ظفـرت قوتـه عليـه، فإنـه يظهـر أنـه كان علـى حـق فـي المخاطـرة. إذا لعـب صبـي بموسـى حلاقـة وجـرح نفسـه، فإنـه يسـتحق ذلـك؛ وإذا لـم يجـرح نفسـه. فـإن ذلـك حـق أيضـاً. وبالتالـي فـإن المجـرم يسـتحق مـا يلقـاه إذا مـا عانـى العقوبـة التـي خاطـر بهـا: لمـاذا خاطـر، وهـو يعـرف العواقـب التـي يمكـن أن تترتـب علـى عملـه؟" (ص ٢٥٥).

فـي الكلمـات الختاميـة للعبـارة الأخيـرة، حيـث يسـأل المجـرم لمـاذا خاطـر، يكمـن الهـراء

(*) في الأصل الألماني يمكن أن تعني كلمة "Vermögen" القدرة والأهلية والقوة، كما تعني الثروة أو الملكية.

المتحذلق للفقرة بكاملها. فأما إذا كان المجرم يستحق ما يصيبه عندما يسقط أثناء سطوه على أحد المنازل فيكسر ساقه، أو الطفل الذي يجرح نفسه - أن جميع هذه الأسئلة الهامة التي لا يقدر على الانشغال بها إلا رجل مثل القديس سانتشو تؤدي إلى هذه النتيجة فقط، ألا وهي أن تجعل المصادفة قوتي. وهكذا كانت أفعالي في المثال الأول، والعلاقات الاجتماعية المستقلة عني في المثال الثاني، والمصادفة في المثال الثالث، هي "قوتي". غير أننا صادفنا من قَبْل هذه التحديدات المتناقضة بشأن الفردية.

ويحشر القديس سانتشو بين هذه الأمثلة الجديرة بكتاب مزين بالرسوم للأطفال، هذا الفاصل الصغير المسلي:

"وإلا كان الحق خديعة. إن النمر الذي يهاجمني على حق، وأنا الذي أرديه على حق أيضاً. إنني لا أحمي حقي ضده، بل أحمي نفسي". (ص ٢٥١).

في القسم الأول من هذه الفقرة، يضع القديس سانتشو نفسه في علاقة حقوقية مع النمر؛ لكن يخطر له في القسم الثاني منها أنه لا وجود هنا لأية علاقة حقوقية بصورة أساسية على الإطلاق. ولهذا السبب فإن "الحق" "خديعة". إن حق "الإنسان" ينحل في حق "النمر".

وهكذا ينتهي نقد الحق. إن مئات الكتّاب السابقين قد أخبرونا منذ زمن طويل أن الحق يصدر عن القوة، وهذا القديس سانتشو يخبرنا الآن أن "الحق" "قوة الإنسان". وبذلك فقد حذف بكل هناءة جميع المشاكل بشأن الرابطة بين الحق والناس الفعليين ونمط حياتهم، وأنشأ نقيضته. إنه ليكفيه أن ينقض الحق كما طرحه هو نفسه، يعني على أنه المقدس، الأمر الذي يعود إلى نقض المقدس من دون المساس بالحق.

وفيماعدا ذلك، فإن هذا النقد للحق يزخرف بجمهرة من الفصول - مختلف أصناف الأمور التي اعتاد الناس على مناقشتها عند ستيهلي[١٦٠] بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر.

الفصل الأول: "حق الإنسان" و "الحق المقرر"

"عندما دمغت الثورة "المساواة" بخاتم "الحق"، ألجأتها إلى المجال الديني، إلى مجال المقدس، المثل الأعلى. وبالتالي فقد نشب صراع منذ ذلك الحين بشأن حقوق الإنسان المقدسة والثابتة. وبصورة طبيعية تماماً، وبمبررات متساوية، جعل "الحق المقرر

للأوضـاع القائمـة" فـي تعـارض مـع حـق الإنسـان الأزلـي؛ حـق ضـد حـق، وكل مـن هذيـن الحقيـن يديـن الآخـر طبعـاً علـى أنـه باطـل. كذلـك كان النـزاع بشـأن الحـق منـذ الثـورة". (ص ٢٤٨).

إن سانتشـو يـردد هنـا قبـل كل شـيء أن حقـوق الإنسـان هـي "المقـدس"، وإن الصـراع بشـأن حقـوق الإنسـان منـذ ذلـك الحيـن قـد نشـب مـن هنـا، وبذلـك فإنـه لا يفعـل إلا أن يثبـت أن الأسـاس المـادي لهـذا الصـراع لا يـزال مقدسـاً بالنسـبة إليـه، يعنـي غريبـاً.

وبمـا أن "حـق الإنسـان" و"الحـق المقـرر" حقـان علـى قـدم المسـاواة، فإنهمـا "مسـوغان على قدم المسـاواة"، وهمـا هنـا فـي الحقيقـة "مسـوغان" بالمعنـى التاريخـي. ومـا دام كلاهمـا "حقيـن" بالمعنـى القانونـي، فإنهمـا "مسـوغان علـى قـدم المسـاواة" بالمعنـى التاريخـي. وبهـذه الطريقـة يسـتطيع المـرء أن يتخلـص مـن جميـع الأشـياء فـي أقصـر وقـت ممكـن مـن دون أن يعـرف شـيئاً البتـة عـن الموضـوع الـذي يتحـدث عنـه. وهكـذا يمكـن، علـى سـبيل المثـال، أن يلخـص الصـراع بشـأن قوانيـن الحبـوب فـي إنكلتـرا كمـا يلـي: "بصـورة طبيعيـة تمامـاً وبمبـررات متسـاوية" جعـل الريـع، الـذي هـو كذلـك ربـح (كسـب)، فـي تعـارض مـع ربـح (كسـب) الصناعييـن، ربـح ضـد ربـح، و"كل مـن هذيـن الربحيـن يديـن الآخـر طبعـاً. وذلـك هـو كل الصـراع" بشـأن قوانيـن الحبـوب فـي إنكلتـرا منـذ ١٨١٥[١٦١].

وعلـى أي حـال، فقـد كان فـي وسـع شـترنر أن يقـول منـذ البدايـة: الحـق القائـم هـو حـق الإنسـان، الحـق الإنسـاني. ولقـد "اعتـاد" بعـض المؤلفيـن أن يسـموه أيضـاً "الحـق المقـرر". أيـن هـو إذن، الفـرق بيـن "حـق الإنسـان" و"الحـق المقـرر"؟

وإننـا لنعـرف مـن قبـل أن الحـق الغريـب، المقـدس، هـو مـا أعطيتـه مـن قِبَـل الآخريـن. لكـن مـا دامـت حقـوق الإنسـان تسـمى كذلـك حقوقـاً طبيعيـة وفطريـة، ومـا دام الاسـم بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو يعـادل الشـيء بالـذات، فإنـه يترتـب علـى ذلـك أنهـا كذلـك الحقـوق المعطـاة لـي مـن قبـل الطبيعـة - أي مـن قبـل الـولادة. لكـن "الحقـوق المقـررة تسـاوي الشـيء ذاتـه، يعنـي الطبيعـة، التـي تمنحنـي حقـاً، أي ولادة، ومـن بعـد ميراثـا" وقـس علـى ذلـك. "إننـي مولـود إنسـاناً، يضاهـي القـول: إنني مولـود ابنـاً لملـك".

يـرد هـذا فـي الصفحتيـن ٢٤٩ و٢٥٠، حيـث يؤخـذ علـى بابـوف افتقـاره إلـى هـذه الموهبـة الجدليـة مـن أجـل حـل الفـروق. ومـا دامـت "الأنـا" هـي "أيضـاً" إنسـان "فـي جميـع الظـروف"، كمـا يسـلم بذلـك القديـس سانتشـو فـي وقـت لاحـق، وبالتالـي فإنهـا تنتفـع "أيضـاً" بمـا تملكـه بوصفهـا إنسـاناً، بالضبـط كمـا بوصفهـا أنـا، مثـلاً كمـا ينتفـع البرلينـي بتييرغارتـن برليـن[١٦٢]، فـإن الأنـا "أيضـاً" تنتفـع بحـق الإنسـان "فـي جميـع الظـروف". لكـن طالمـا أنـه لـم يولـد "ابنـاً لملـك" "فـي جميـع الظـروف" فـي أي حـال مـن الأحـوال، فإنـه لا يملـك فـي أي حـال مـن الأحـوال الانتفـاع "بالحـق المقـرر" "فـي جميـع الظـروف". وبالتالـي، فـإن هنـاك فـي مجـال الحـق فرقـاً جوهريـاً بيـن "حـق الإنسـان" و"الحـق المقـرر". ولـو أنـه لـم يكـن مـن الضـرورة بمـكان بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو أن يخفـي منطقـه، فقـد "كان يجـب أن يقـال هنـا": بعدمـا حللـت، فـي رأيـي، مفهـوم الحـق بالطريقـة التـي "درجـت" عليهـا عامـة فـي حـل المفاهيـم، فـإن الصـراع بشـأن هذيـن الحقيـن الخصوصييـن يصبـح صراعـاً ضمـن مفهـوم قـد حُـلَّ مـن قِبلـي، فـي رأيـي، و"بالتالـي"، لا حاجـة إلـى التطـرق إليـه بعـد الآن مـن قبلـي علـى الإطـلاق.

ولقـد كان فـي مقـدور القديـس سانتشـو، طلبـاً لمزيـد مـن الكمـال، أن يضيـف طريقـة التعبيـر الجديـدة التاليـة: إن حـق الإنسـان مكتسـب هـو الآخـر، وبالتالـي مكتسـب جيـداً، والحـق المكتسـب جيـداً (يعنـي المقـرر) هـو الحـق الإنسـاني الـذي يملكـه البشـر، حـق الإنسـان.

أمـا إن مثـل هـذه المفاهيـم، إذا فصلـت عـن الواقـع التجريبـي الكامـن خلفهـا، يمكـن قلـب داخلهـا خارجهـا مثـل القفـاز، فهـذا مـا اتضـح مـن قبـل بصـورة مفصلـة عند هيغـل الـذي كان اسـتخدامه لهـذه الطريقـة مسـوغاً فـي مواجهـة الإيديولوجييـن التجريدييـن. وبالتالـي فـلا حاجـة بالقديس سانتشـو إلـى الاسـتهزاء بهـا "بحيلـه" "الخرقـاء" الخاصـة.

حتـى الآن كان الحـق المقـرر وحـق الإنسـان "يعـادلان الشـيء ذاتـه"، بحيـث يسـتطيع القديـس سانتشـو أن يُرجـع إلـى لا شـيء صراعـاً قائمـاً بصـورة فعليـة، لكـن خـارج ذهنـه، فـي التاريـخ. وإن قديسـنا ليبرهـن الآن علـى أنـه حصيـف فـي رسـم التمييـزات بقـدر مـا هـو كلّـي القـوة فـي تكويـم الأشـياء وخلطهـا، فيختـرع صراعـاً رهيبـاً جديـداً فـي "العـدم الخـلاق" لدماغـه.

"إننـي مسـتعد كذلـك للاعتـراف" (يـا لسانتشـو الشـهم!) "بـأن كل امـرئ قـد ولـد إنسـاناً"

(وبالتالي، وفقاً للمأخذ المذكور أعلاه على بابوف، "ابناً لملك")، "وبنتيجة ذلك فإن الولدان متساويان في هذا الاعتبار... لهذا السبب الوحيد، ألا وهو أنهم لا يكشفون بعد عن أنفسهم ويتصرفون إلا بوصفهم أبناء بشر، كائنات بشرية صغيرة عريانة". ومن جهة أخرى، فإن الراشدين "أبناء فعاليتهم الخلاقة الخاصة". إنهم "يملكون أكثر من مجرد حقوق فطرية، إنهم يملكون حقوقاً مكتسبة".

(أيعتقد شترنر أن الوليد يخرج من أحشاء أمه من دون أي فعل خاص به،، فعل يكتسب به "الحق" في الوجود خارج أحشائها؛ وهل لا يكشف كل طفل، منذ البداية بالضبط، عن نفسه ويتصرف على أنه طفل "أوحد"؟).

"يا له من تناقض، يا له من ميدان قتال! القتال القديم بين حقوق الإنسان الفطرية وحقوقه المكتسبة!" (ص ٢٥٢).

يا له من قتال يخوضه رجال ملتحون ضد أطفال رضع!

وفيما عدا ذلك، فإن القديس سانتشو لا يتهجم على حقوق الإنسان إلا أنه قد أصبح من "المألوف" من جديد "في الأزمنة الأخيرة" أن تنكر هذه الحقوق. وفي الحقيقة أنه قد "اكتسب" أيضاً هذه الحقوق الفطرية للإنسان. ولقد صادفنا من قبل، في الفردية، الإنسان "المولود حراً" الذي كانت الفردية الخاصة بالنسبة إليه حقاً فطرياً للإنسان الحر من جراء حقيقة ولادته بالذات. وفيما عدا ذلك: "كل أنا هي سلفاً منذ الولادة مجرم ضد الدولة"، الأمر الذي يجعل من الجريمة ضد الدولة حقاً فطرياً للإنسان: إن الطفل ينتهك سلفاً ما لا يملك بعد وجوداً بالنسبة إليه، لكنه يوجد هو، سلفاً، من أجله. وأخيراً، فإن "شترنر" ينتهي إلى الحديث عن "الأذهان المحدودة فطرياً"، و"الشعراء الفطريين" و"الموسيقيين الفطريين"، الخ. وما دامت القوة (القدرة الموسيقية أو الشعرية أو المحدودة) فطرية هنا وما دام الحق = القوة، فإن المرء يتبين كيف ينادي "شترنر" "للأنا" بحقوق الإنسان الفطرية، حتى إذا كانت المساواة لا تمثل هذه المرة بين هذه الحقوق.

الفصل الثاني: الامتياز والحقوق المتساوية

إن صاحبنا سانتشو يحوّل قبل كل شيء الصراع على الامتيازات والمساواة في الحقوق

إلى صراع حول "المفهومين" البسيطين: الامتيازوالحق المتساوي. وبذلك فإنه يتملص من ضرورة معرفة أي شيء عن نمط الإنتاج الوسيطي، الذي كان الامتياز التعبير السياسي عنه، ونمط الإنتاج الحديث الذي يشكل الحق الصرف، الحق المتساوي، التعبير عنه، أو عن العلاقة بين هذين النمطين للإنتاج بالعلاقات الحقوقية التي تقابلهما. بل إنه ليستطيع أن يرجع كلا "المفهومين" المذكورين أعلاه إلى تعبيريهما المبسط: المتساوي والمتفاوت، وأن يثبت أن علاقة المرء بالشيء ذاته (مثلاً البشر الآخرين، أو كلب، الخ،) يمكن أن تكون، وفقاً للظروف، لا مبالية - أي متساوية، أو غير لامبالية، أي مختلفة، متفاوتة وتفضيلية، الخ، الخ.

٢ – القانون

"دع الأخ المتواضع يفره في تعاليه" (القديس جاك المغفل[١٦٣]، [رسالة القديس يعقوب، ١: ٩].

يجب أن نكشف هنا للقارئ عن سر عظيم لرجلنا القديس، ألا وهو أنه يبدأ بحثه بأكمله عن الحق بتعريف عام للحق "يفلت" منه ما دام يتحدث عن الحق، ولا يستطيع أن يمسك به من جديد إلا حين يباشر الحديث عن موضوع مختلف الاختلاف كله، ألا وهو القانون. وفي ذلك الحين ناشد الإنجيل قديسنا: لا تدينوا كي لا تدانوا - وفتح قديسنا فمه، وعلم، قائلاً:

"إن الحق روح المجتمع" (وعلى أية حال، فالمجتمع هو المقدس). "إذا كان للمجتمع إرادة، إذن، فهذه الإرادة هي الحق على وجه الدقة؛ إن المجتمع لا يوجد إلا بفضل الحق. لكن ما دام لا يوجد إلا بفضل هذه الحقيقة" (ليس بفضل الحق، بل فقط الحقيقة)، "ألا وهي أنه يمارس سيطرته على الأفراد، فإنه يترتب على ذلك أن الحق إرادته المسيطرة" (ص ٢٤٤).

وهذا يعني: "الحق... هو... كان... إذن... على وجه الدقة... لا يوجد إلا... ما دام... لا يوجد إلا بفضل الحقيقة... ألا وهي أن... يترتب على ذلك... إرادة مسيطرة". إن سانتشو بأكمله هو في هذه الفقرة.

وقد "أفلتت" هذه الفقرة في ذلك الحين من قديسنا لأنها لم تكن ملائمة لموضوعاته، وقد استعيدت هنا من جديد بصورة جزئية لأنها باتت الآن ملائمة بصورة جزئية."

"تقوم الدول ما قامت إرادة مسيطرة، وما اعتبرت هذه الإرادة المسيطرة معادلة لإرادة المرء الخاصة. إن إرادة السيد هي القانون". (ص ٢٥٦).

إرادة المجتمع المسيطرة	= الحق.
الإرادة الإرادة المسيطرة	= القانون.
الحق	= القانون.

"من حين إلى حين"، بمثابة علامة مسجلة "لبحثه" عن القانون، سوف يبرز مع ذلك تمييز بين الحق والقانون، وهو تمييز يكاد - بصورة تدعو إلى الدهشة - لا تكون له "ببحثه" عن القانون إلا علاقة ضئيلة بقدر علاقة تعريف الحق الذي "أفلت" منه "بالمبحث" عن "الحق".

"والحال أن ما هو حق في مجتمع، ما هو مشروع، يجد كذلك تعبيراً شفهياً – في القانون" (ص ٢٥٥).

إن هذه الصيغة نسخة "خرقاء" عن هيغل:

"إن ما يتفق مع القانون هو مصدر معرفة ما هو حق، أو بصورة أدق ما هو مشروع".

إن ما يسميه القديس سانتشو "يجد التعبير الشفهي"، يسميه هيغل أيضاً: "موضوعاً"، "معروفاً"، الخ. (فلسفة الحق، الفقرة ٢١١ وما يليها).

إنه لمن اليسير جداً أن نفهم لماذا كان على القديس سانتشو أن يستبعد مفهوم الحق على اعتباره "الإرادة" أو "الإرادة المسيطرة" للمجتمع من "مبحثه" عن الحق. فلم يكن في وسعه أن يسترد الحق على أنه قوته إلا بقدر ما يعرِّف هذا الحق على أنه قوة الإنسان. وبالتالي فإنه لم يكن له بد، من جراء نقيضته، من أن يتشبث بحزم بالتعريف المادي "للقوة" ويترك التعريف المثالي "للإرادة" "يفلت" منه. أما لماذا يسترد "الإرادة" وهو يتحدث الآن عن "القانون"، فهذا ما سوف نتبينه بخصوص نقائضه عن القانون.

وفي التاريخ الفعلي، كان أولئك المنظرون الذين اعتبروا القوة أساس الحق في تناقض

مباشر مع أولئك الذين اتخذوا الإرادة أساساً للحق - وهو تناقض كان يمكن أن يكون أيضاً، بالنسبة إلى القديس سانتشو التناقض بين الواقعية (الطفل، القديم، الزنجي، الخ)، والمثالية (المراهق، الحديث، المغولي، الخ). وإذا اتخذت القوة أساساً للحق، كما يفعل هوبس وآخرون، فلن يكون الحق والقانون، الخ، إلا عَرَضاً، التعبير عن علاقات أخرى تقوم عليها قوة الدولة. إن حياة الأفراد المادية التي لا تتوقف في أي حال من الأحوال على "إرادتهم" وحدها، ونمط إنتاجهم وأشكال علاقات تعاملهم اللذين يشرطان بعضهما بعضاً - هذا هو الأساس الفعلي للدولة، وهو باقٍ أيضاً، في جميع المراحل التي لا يزال تقسيم العمل والملكية الخاصة ضروريين فيها، بصورة مستقلة تماماً عن إرادة الأفراد. إن هذه الشروط الفعلية لا تخلقها قوة الدولة في أي حال من الأحوال؛ إن الأمر على النقيض من ذلك، فإنها هي التي تخلق تلك القوة. وإن الأفراد الذين يمارسون السلطة في هذه الشروط، فيما عدا اضطرارهم إلى إنشاء قوتهم في شكل الدولة، لا بد لهم أن يعطوا إرادتهم، التي تتحدد بفعل هذه الشروط المعينة، التعبير العام لإرادة الدولة، للقانون - وهو تعبير يتجدد محتواه على الدوام بشروط طبقتهم، كما يتضح بجلاء تام من دراسة القانون المدني وقانون العقوبات. وكما أن ثقل أجسادهم ليس رهناً بإرادتهم المثالية أو أهوائهم المتقلبة، كذلك حقيقة أنهم يفرضون إرادتهم الخاصة في شكل القانون، ويجعلونها في الوقت ذاته مستقلة عن الأهواء الشخصية المتقلبة لكل واحد منهم على انفراد، ليست رهناً بهم في أي حال من الأحوال. إن سيطرتهم الشخصية لا يمكن إلا أن تتشكل في الوقت ذاته على اعتبارها السيطرة الوسطية. وإن سيطرتهم الشخصية تعتمد على شروط حياتية مشتركة بين عدد كبير من الناس، ولا بد لهم، بوصفهم أفراداً حاكمين، من المحافظة على استمرارها ضد أنماط حياتية أخرى، والتأكيد في الوقت ذاته أنها صالحة للجميع. إن التعبير عن هذه الإرادة المحددة بمصالحهم المشتركة هو القانون. وإن انتصار الأفراد الذين هم مستقلون عن بعضهم بعضاً وانتصار إرادتهم الشخصية، وهو انتصار لا يمكن على هذا الأساس إلا أن يكون أنانياً فيما يتعلق بسلوكهم الاجتماعي، هو بالضبط الذي يجعل إنكار الذات ضرورياً في القانون والحق. إن إنكار الذات هو في الواقع الحالة الاستثنائية، والتشديد على المصلحة الشخصية هو القاعدة

العامة (ولذا فهم لا يرون فيه إنكاراً للذات، بل "الأناني المتفق مع نفسه" وحده يمكن أن يرى فيه ذلك). وينطبق الأمر ذاته على الطبقات المحكومة التي تلعب إرادتها دوراً ضئيلاً جداً في تقرير وجود القانون والدولة. ومثال ذلك: إنه ما دامت القوى المنتجة لم تبلغ ذلك الحد من التطور الذي يجعل التنافس نافلاً، وبالتالي لا بد لها أن تتسبب في قيام التنافس مراراً وتكراراً، فإن الطبقات المحكومة سوف تظل طوال هذا الوقت راغبة في المستحيل إذا كانت تملك "الإرادة" في نقض التنافس، ومع التنافس الدولة والقانون. وفيما عدا ذلك، فإن هذه "الإرادة" لا تنهض قبل أن تكون الشروط الاجتماعية قد تطورت حتى درجة كافية بحيث تنتجها فعلياً إلا في مخيلة الإيديولوجي وحده. وحين تنمو الشروط الكفيلة بإنتاجها بصورة كافية، فإن في وسع الإيديولوجي أن يتصور هذه الإرادة بوصفها اعتباطية صرفة، وبالتالي على أنها قابلة للتصور في جميع الأوقات وفي سائر الظروف.

وإن الجريمة، يعني صراع الفرد المنعزل ضد الأوضاع السائدة، مثلها كمثل الحق، لا تنشأ عن الهوى البسيط. إن الأمر على العكس من ذلك، إذ هي خاضعة للشروط نفسها التي يخضع لها الحكم القائم. إن نفس الحالمين الذين يرون في الحق والقانون سيطرة إرادة عامة قائمة بصورة مستقلة يستطيعون وحدهم أن يروا في الجريمة مجرد انتهاك للحق وللقانون. والحال، إن الدولة لا توجد بفضل الإرادة السائدة، لكن الدولة التي تنشأ من النمط المادي لحياة الأفراد هي التي تتخذ أيضاً، شكل إرادة سائدة. وإذا فقدت هذه الأخيرة سلطانها، فليست الإرادة وحدها هي التي تتغير، بل الوجود المادي للأفراد وحياتهم يتغيران أيضاً،ولم تتغيرإرادتهم إلا بسبب هذا التغير. وإنه ليمكن أن تكون الحقوق والقوانين "موروثة"[١٦٤]، لكنها ليست إذن، بعد الآن قوة سائدة، بل هي لا تملك إلا قيمة إسمية، وهو ما يزودنا تاريخ القانون الروماني القديم والقانون الإنكليزي بأمثلة باهرة عنه. ولقد رأينا من قبل كيف يمكن لنظرية وتاريخ للفكر الصرف أن ينهضا بين الفلاسفة من جراء الانفصال الذي يقيمونه بين أفكار الأفراد وعلاقاتهم التجريبية التي تخدم كأساس لهذه الأفكار. وبالطريقة ذاتها يستطيع المرء هنا أن يفصل الحق عن أساسه الواقعي، وبذلك يستخلص منه "إرادة سائدة" تتبدل في حقب مختلفة بطرق متنوعة وتملك تاريخها المستقل الخاص في مخلوقاتها التي هي

مجموعـات القوانيـن. ومـن جـراء ذلـك، فـإن التاريـخ السياسـي والمدنـي ينصهـر إيديولوجيـاً فـي تاريـخ خـاص يسـيطر علـى القوانيـن المتعاقبـة. وهـذا هـو الوهـم النوعـي للفقهـاء والسياسـيين الـذي يتبنـاه جـاك المغفـل بـلا كلفـة(*). إنـه يستسـلم للوهـم ذاتـه الـذي ينسـاق معـه علـى سـبيل المثـال، فريدريـك غويلـوم الرابـع الـذي كان يعتبـر هـو الآخـر القوانيـن تعبيـراً صرفـاً عـن الإرادة السـائدة، ومـن ثـم يعجـب لأنهـا تخفـق أبـداً إذ تصطـدم بهـذا "الشـيء الأخـرق"(١٦٥) الـذي هـو العالـم. إن [أيـاً] مـن نزواتـه العديمـة الضـرر تمامـاً لـم يبلـغ علـى وجـه التقريـب مرحلـة مـن الإنجـاز أبعـد مـن مراسـيم الـوزارة. فليصـدر أمـراً بقـرض قيمتـه خمسـة وعشـرون مليونـاً، أي جـزء مـن مائـة وعشـرة أجـزاء مـن الديـن الوطنـي الإنكليـزي، وسـوف يـرى مـن أيـن تصـدر الإرادة السـائدة. وعلـى أي حـال، فسـوف نجـد فـي وقـت لاحـق أيضـاً أن جـاك المغفـل يسـتخدم أشـباح زميلـه وسـيده البرلينـي وأفـكاره المجنونـة علـى أنهـا وثائـق ينسـج منهـا نزواتـه النظريـة الخاصـة عـن الحـق، والقانـون، والجريمـة، الـخ. ولسـوف يسـبب لنـا هـذا دهشـة أقـل مـا دام حتـى شـبح الصحافـة الوطنيـة "يعـرض" عليـه شـيئاً مـا بصـورة متكـررة، مثـلاً الدولـة الدسـتورية: إن الدراسـة الأكثـر سـطحية للتشـريع، مثـلاً، قوانيـن الفقـراء فـي جميـع البلـدان، تبيـن إلـى أي مـدى مضـى الحـكام حيـن توهمـوا أن فـي مقدورهـم تحقيـق شـيء مـا بواسـطة "إرادتهـم السـائدة" وحدهـا، أي بفعـل إرادتهـم وحدهـا. وعلـى أي حـال، فإنـه لـم يكـن بـد للقديـس سانتشـو مـن أن يقبـل وهـم الفقهـاء والسياسـيين بشـأن الإرادة السـائدة كيمـا يتيـح لإرادتـه الخاصـة أن تنكشـف بصـورة رائعـة فـي المعـادلات والنقائـض التـي سـوف يبتهـج بهـا فـي الحـال، وكيمـا يتوصـل أخيـراً، إلـى تنظيـف رأسـه مـن أيـة فكـرة حشـرها فيـه.

"احتسـبوا كل سـرور أيهـا الأخـوة أن تقعـوا فـي تجـارب مختلفـة" (القديـس جـاك المغفـل [رسـالة القديـس يعقـوب] ١: ٢).

القانون = الإرادة المسيطرة للدولة،

= إرادة الدولة.

(*) "sans facon"، بالفرنسية في النص الأصلي.

نقائض:

إرادة الدولة، الإرادة الغريبة	- إرادتي، الإرادة الخاصة.
الإرادة السائدة للدولة	- إرادتي الخاصة.
	- إرادتي الذاتية.
رعايا الدولة الذين ينفذون قانون الدولة	- رعايا ذاتهم (الأوحدون) الذين يحملون قانونهم الخاص في ذاتهم .(ص ٢٦٨)

معادلات:

آ) إرادة الدولة	= لا إرادتي
ب) إرادتي	= لا إرادة الدولة.
جـ) الإرادة	= الرغبة
د) إرادتي	= لا إرادة الدولة
	= إرادة ضد الدولة.
	= إرادة سيئة حيال الدولة.
هـ) إرادة لا الدولة	= الإرادة الذاتية.
الإرادة الذاتية	= عدم إرادة في الدولة.
و) إرادة الدولة	= عدم إرادتي.
	= افتقاري إلى الإرادة.
ز) افتقاري إلى الإرادة	= وجود إرادة الدولة.

(نعرف سلفاً مما سبق أن وجود إرادة الدولة يساوي وجود الدولة، الأمر الذي تترتب عليه المعادلات الجديدة التالية):

ح) افتقاري إلى الإرادة	= وجود الدولة.
ط) إنكار افتقاري إلى الإرادة	= لا وجود الدولة.
ي) الإرادة الذاتية	= عدم الدولة.
ك) إرادتي	= لا وجود الدولة.

الملاحظة الأولى

وفقاً للصيغة الآنفة الذكر في الصفحة ٢٥٦:

"تقوم الدول طالما اعتبرت الإرادة المسيطرة معادلة لإرادة المرء الخاصة".

الملاحظة الثانية

"إن ذلك الذي كي يوجد" (هذا موجه إلى وعي الدولة) "يكون ملزماً بالاعتماد على الافتقار إلى الإرادة عند الغير هو خليقة للآخرين، بالضبط كما أن السيد خليقة الخادم". (ص ٢٥٧).

(المعادلات و، ز، ح، ط).

الملاحظة الثالثة

"إن إرادتي الخاصة هدامة الدولة. وبالتالي فإنها توسم من قبل هذه الأخيرة على أنها إرادة أنانية. إن الإرادة الخاصة والدولة هما قوتان عدوتان مميتتان يستحيل قيام السلام الأزلي بينهما". (ص ٢٥٧). "ولذا فإن الدولة تراقب الجميع حقاً، لأنها ترى في كل امرئ أنانياً". (الإرادة الأنانية) "وهي تخاف الأناني". (ص ٢٦٣). "إن الدولة... تعارض المبارزة... بل إن أي شجار يعاقب عليه" (حتى إذا لم تستدع الشرطة) (ص ٢٤٥).

الملاحظة الرابعة

"بالنسبة إليها، بالنسبة إلى الدولة، من الأساسي بصورة مطلقة ألا تكون لأي امرئ إرادته الخاصة؛ إذا كان لأي امرئ مثل هذه الإرادة، فلا بد للدولة أن تطرده" (تحبسه، تنفيه)؛ "إذا كان الجميع يملكون إرادة خاصة" ("من هو هذا الشخص الذي تسميه الجميع"؟) "فإنهم سوف ينقضون الدولة إذن". (ص ٢٥٧).

ويمكن التعبير عن ذلك بصورة بلاغية أيضاً:

"ما هو نفع قوانينكم إذا لم يكن أحد يطيعها، وما هي فائدة أوامرك إذا لم يكن هناك امرؤ يقبل بها؟" (ص ٢٥٦)(*).

الملاحظة الخامسة

النقيضة البسيطة: "إرادة الدولة - إرادتي" تتلقى تعليلاً ظاهرياً في الفقرة التالية: "حتى إذا توهم المرء حالة يعبر فيها كل فرد في الأمة عن الإرادة نفسها، وبذلك فإن إرادة عامة" (!) "كاملة ترى النور، فإن الأمور ستظل على حالها. أفلن أكون اليوم وفيما بعد مرتبطاً بإراداتي بالأمس؟... إن فعل إرادة محدداً، يعني صنيعتي، سيصبح سيدي، لكنني أنا... الخالق، سوف أعوّق في مسيرتي وفي انحلالي... لأنني كنت أملك الإرادة بالأمس، فإنني أحرم اليوم من الإرادة؛ لقد كنت حراً في الإرادة بالأمس، وأنا اليوم ملزم" (ص ٢٥٨).

إن المبدأ الذي نادى به مرات عديدة الثوريون والرجعيون على حدّ سواء، ألا وهو إن الأفراد في الديمقراطية لا يمارسون سيادتهم إلا بصورة عابرة ومن ثم يتخلون عن السلطة في الحال - هذا المبدأ يسعى القديس سانتشو إلى استملاكه هنا بطريقة "خرقاء" بأن يطبق عليه نظريته الظواهرية عن الخالق والخليقة. والحال، إن نظرية الخالق والخليقة تنتزع من هذا المبدأ كل معنى. ووفقاً لهذه النظرية الخاصة به، فليس القديس سانتشو من دون إرادة

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت من المخطوطة:] الملاحظة الخامسة. "يجرب البشر التمييز بين القانون والأمر الاعتباطي، أو الإيعاز... ومهما يكن من أمر، فإن كل قانون ينظم الأفعال البشرية... هو إعلان إرادة، وبالتالي أمر (إيعاز) "(ص ٢٥٦)... "يستطيع امرؤ ما، طبعاً، أن يعلن أن هذا الشيء يناسبه، ونتيجة ذلك يحظر بفعل قانون أن يفرض العكس عليه، معلناً أنه سوف يعامل كعدو كل من ينتهك هذا القانون... إنني مجبر على التكيف مع حقيقة أنه يعاملني كعدوه، لكن لن أسمح له قط بأن يعاملني كأنني صنيعته وأن يفرض حجته أو ربما جهالته قاعدة أتقيد بها" (ص ٢٥٦). وهكذا لا يرفع القديس سانتشو أية اعتراضات ضد القانون بشرط أن يعامل هذا القانون كل من ينتهكه كعدو. إن عداوته حيال القانون لا تستهدف إلا الشكل وحده وليس المحتوى. إن أي قانون قمعي يهدده بالموت والعذاب مقبول عنده إذا كان في مقدوره أن يرى فيه إعلاناً للحرب. إن القديس سانتشو يرضى بشرف اعتباره عدواً لا صنيعة. وفي الحقيقة إنه في أفضل الأحوال عدو "الإنسان"، لكنه صنيعة الأوضاع القائمة في برلين.

اليوم إذا هو غيّر إرادته بالأمس، وإذا عمد اليوم، إذ هو يملك إرادة معينة بصورة مختلفة، لأن يفرض على هذه الإرادة الراهنة، الأكثر استنارة، ثقل وإلزام الحماقات التي مجدها البارحة فجعل منها قانوناً لأنها كانت إذن، تعبيراً عن إرادته. وعلى العكس من ذلك، وفقاً لنظريته، فإن إرادته اليوم يجب أن تكون إنكاراً لإرادته بالأمس، لأنه ملزم بوصفه خالقاً بأن ينقض إرادته بالأمس. إنه ليس خالقاً إلا بقدر ما هو "بلا إرادة"، أما بوصفه كائناً قادراً على الإرادة فعلياً فإنه الخليقة على الدوام. (أنظر علم الظواهر). ومهما يكن من أمر، فإنه لا يترتب مطلقاً في هذه الحال أنه "بلا إرادة" اليوم "لأنه امتلك الإرادة بالأمس، بل بالأحرى، إنه ينطوي على إرادة سيئة حيال إرادته بالأمس، سواء اتخذت هذه الإرادة الأخيرة شكل القانون أم لا. وفي كلتا الحالتين يستطيع أن يلغيها كما اعتاد أن يفعل عموماً، يعني بوصفها إرادته. وبذلك يكون قد أعطى الأنانية المتفقة مع ذاتها حقها الكامل. وعلى أي حال، فإن الأمر سيان هنا ما إذا كانت إرادته بالأمس قد اتخذت أو لم تتخذ، خارج رأسه، شكلاً للوجود بوصفها قانوناً، على الأخص إذا تذكرنا أن "الكلمة التي أفلتت منه" قد تصرفت حياله من قبل بما لا يقلّ عن التمرد. وفي الصيغة الواردة الذكر أعلاه، يرغب القديس سانتشو فضلاً عن ذلك، في الحفاظ ليس على نزوته، على إرادته الخاصة حقاً، بل على إرادته الحرة، حرية إرادته، حريته التي هي إهانة خطيرة بحق القانون الأخلاقي للأناني المتفق مع نفسه. وإذ يرتكب القديس سانتشو هذه الإهانة، فإنه يمضي بعيداً جداً بحيث يجعل من الحرية الباطنية التي ما أشدّ ما أدينت أعلاه، حرية الانطواء على الإرادة السيئة، الفردية الحقيقية.

ويهتف سانتشو:

"كيف يمكن تغيير هذا؟ بطريقة واحدة فقط، بعدم الاعتراف بأي واجب، أي عدم الارتباط وعدم السماح لنفسي بالارتباط – ومهما يكن من أمر، فسوف يربطونني! لا يستطيع أحد أن يقيد إرادتي، وسوف تظل إرادتي السيئة حرة أبداً". (ص ٢٥٨).

"الطبول والأبواق تحيي!".

"سناه الربيعي!"[١٦٦].

وينسى القديس سانتشو هنا "أن يقوم بهذا التفكير البسيط"، ألا وهو أن "إرادته هي حقاً" مقيدة بقدر ما هي، بصورة منافية لإرادته، "إرادة سيئة".

إن الصيغة الواردة أعلاه عن الإلزام المطبق على الإرادة الفردية من قبل الإرادة العامة المعبّر عنها في شكل القانون تكمل، على أي حال، الطريقة المثالية في النظر إلى الدولة، التي تنص على أن المسألة مسألة إرادة فقط، والتي قادت الكتّاب الفرنسيين والألمان إلى التفلسف الأكثر حذقاً(*).

وعلى أي حال، فإذا كان المقصود مجرد "رغبة" وليس "قدرة" وفي أسوأ الأحوال مجرد "إرادة الرفض"، فإننا لا نرى السبب في أن القديس سانتشو يريد أن ينقض كلياً هذا الموضوع الذي لا ينضب "للإرادة" و"الرفض" الذي هو قانون الدولة.

"القانون عامة، الخ. تلك هي المرحلة التي بلغناها اليوم". (ص ٢٥٦).

أهنالك شيء لا يصدقه جاك المغفل؟

***

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت من المخطوطة:] ما إذا كانت الإرادة الشخصية لفرد ما ستشعر أم لا غداً بأنها مضطهدة من قبل القانون الذي أسهم هو نفسه بالأمس في صنعه، فهذا يتوقف على تدخل ظروف جديدة: إن مصالحه يمكن أن تكون قد تغيرت حتى درجة كبيرة بحيث لم يعد قانون الأمس يقابلها مطلقاً. إذا كانت الظروف الجديدة تؤثر في مصالح الطبقة الحاكمة ككل، فإن هذه الطبقة سوف تغير القانون؛ وإذا أثرت في أفراد قلائل فقط، فإن الغالبية بالطبع سوف تغض الطرف عن إرادتهم السيئة.

إن سانتشو يستطيع الآن، مسلماً بحرية الرفض هذه، أن يقيم من جديد القيد المفروض على إرادة الشخص الواحد من قبل إرادة الآخرين، وهو بالضبط ما يشكل أساس تصور الدولة المثالي المذكور أعلاه. "إن كل شيء سينقلب رأساً على عقب إذا كان في وسع كل امرئ أن يفعل ما يحلو له... لكن من يقول إن كل امرئ يستطيع أن يفعل أي شيء؟" (إن "ما يحلو له" محذوف هنا بكل حذر).

"فليصبح كل واحد منكم أنا كلية القدرة!"، هذا ما أعلنه الأناني المتفق مع ذاته.

ويستطرد: "لماذا أنت موجود هناك، وما حاجتك إلى تحمل جميع الأشياء؟ دافع عن نفسك، وعندئذ لن يؤذيك أحد" (ص ٢٥٩) وكي يمحو آخر مظهر للخلاف يترك "بضعة ملايين" يقفون "كحماية" خلف الواحد "أنت"، بحيث أن المناقشة بأسرها يمكن أن تخدم جيداً كبداية "خرقاء" لنظرية عن الدولة من وحي روسو .

إن المعادلات التي درسناها حتى الآن كانت تستهدف الهدم الصرف للدولة والقانون. ولم يكن للأناني الحقيقي بدّ من أن يتخذ موقفاً صرفاً من كليهما. لقد أسفنا لأنه لم يتملكهما، ومن جهة أخرى، فرحنا بمشاهدة القديس سانتشو يحقق مأثرة تدمير الدولة بمجرد تغيير للإرادة - وهو تغيير يتوقف بدوره، طبعاً، على مجرد الإرادة. ومهما يكن من أمر، فإن التملك غير مفتقد هنا أيضاً، بالرغم من أنه يتبع مجراه في الظل تماماً، ولا يمكنه أن يحقق نتائج إلا في وقت لاحق، "من حين إلى حين". إن النقيضتين السابقتين:

إرادة الدولة، الإرادة الغريبة – إرادتي، الإرادة الخاصة.

الإرادة المهيمنة للدولة – إرادتي الخاصة.

يمكن تلخيصها كما يلي:

سيطرة الإرادة الغريبة – سيطرة الإرادة الخاصة.

وفي هذه النقيضة الجديدة، التي كانت تشكل على أي حال، طوال الوقت، الأساس الخفي لتهديمه الدولة بالإرادة الخاصة، يتملك شترنرالوهم السياسي بشأن حكم الهوى المتقلب، المشيئة الإيديولوجية. ولقد كان في وسعه أيضاً أن يعبّر عن ذلك كما يلي:

اعتباطية القانون – قانون الاعتباطية.

وعلى أي حال، فإن القديس سانتشو لا يبلغ مثل هذه البساطة في التعبير.

وفي النقيضة الثالثة حصلنا من قبل على "قانون يحمله في نفسه"، لكنه يمتلك القانون بصورة أكثر مباشرة أيضاً في النقيضة التالية:

القانون، إعلان } - { القانون، إعلاني إرادتي، إعلاني للإرادة

إرادة الدولة.

"يستطيع أمرؤ ما، طبعاً، أن يعلن أن هذا الشيء يناسبه، وبنتيجة ذلك يحظر بفعل قانون أن يفرض العكس عليه"، الخ. (ص ٢٥٦).

وإن هذا الحظر يترافق بالضرورة بالتهديدات. وإن النقيضة الأخيرة هامة من أجل القسم الخاص بالجريمة.

فصول. أخبرنا في الصفحة ٢٥٦ أنه ليس ثمة فرق بين "القانون" و"الأمر الاعتباطي،

الإيعـاز"، لأن كليهمـا - "إعـلان إرادة"، وبنتيجـة ذلـك "أمـر". وتحـت قنـاع التحـدث عـن "الدولـة"، فـي الصفحـات ٢٥٤ و٢٥٥ و٢٦٠ و٢٦٣، يتحـدث شـترنر عـن الدولـة البروسـية ويعالـج مسـائل ذات أهميـة عظمـى بالنسـبة إلـى الصحافـة الوطنيـة [Vossische Zeitung]، مثـل الدولـة الدسـتورية، وإمكانيـة اسـتدعاء الموظفيـن، والغطرسـة البيروقراطيـة، وموضوعـات سـخيفة مماثلـة. وإن الشـيء الهـام الوحيـد هنـا هـو اكتشـاف أن البرلمانـات الفرنسـية القديمـة أصـرّت علـى حقهـا فـي تسـجيل المراسـيم الملكيـة لأنهـا أرادت أن "تقضـي وفقـاً لحقهـا الخـاص". إن تسـجيل القوانيـن مـن قبـل البرلمانـات الفرنسـية شـاهد الوجـود إبّـان صعـود البوجوازيـة وبالتالـي الضـرورة التـي وجـد الملـوك أنفسـهم فيهـا، وقـد أصبحـوا فـي الوقـت ذاتـه ملـوكاً مطلقـي السـلطة، كـي يتذرعـوا حيـال النبالـة الإقطاعيـة والـدول الأجنبيـة علـى حـدّ سـواء بوجـود إرادة غريبـة تتوقـف إرادتهـم الخاصـة عليهـا فيمـا يزعمـون، مـع إعطـاء البورجوازييـن نوعـاً مـن الضمـان فـي الوقـت ذاتـه. ويسـتطيع القديـس ماكـس أن يعلـم المزيـد عـن ذلـك مـن تاريـخ محبوبـه فرانسـوا الأول؛ وفيمـا عـدا ذلـك فـإن فـي مقـدوره، قبـل أن يتحـدث عـن هـذه المسـألة مـرة أخـرى، أن يستشـير المجلـدات الأربعـة عشـر لكتاب:بشـأن مـا أرادتـه البرلمانـات الفرنسـية ومـا لـم تـرده ومـا كانـت تمثلـه [Des Etats géneraux et autres assembblees nationales، باريـس ١٧٨٨]. وعلـى العمـوم، فإنـه مـن المناسـب أن نحشـر هنـا فصـلاً قصيـراً عـن مطالعـات قديسـنا التـواق جـداً إلـى الفتوحـات. ففيمـا عـدا المؤلفـات النظريـة مثـل كتابـات فويربـاخ وب. بـاور، وكذلـك التقليـد الهيغلـي الـذي يشـكل مصـدره الرئيسـي، فيمـا عـدا هـذه المصـادر النظريـة المقتصـرة علـى الحـد الأدنـى، يسـتخدم صاحبنـا سانتشـو ويستشـهد بالمصـادر التاريخيـة التاليـة: بخصـوص الثـورة الفرنسـية كتـاب روتنبـرغ [مقـالات سياسـية] Politische Reder، وكتـاب بـاور Denkwurdigkeiten [مذكـرات]؛ وبخصـوص الشـيوعية- بـرودون، كتـاب أ. بيكـر ,Einundzwenzig Bogen Volks Philosophie [فلسـفة الشـعب] وتقريـر بلونتشـلي؛ وبخصـوص الليبراليـة - Vossische Zeitung و Vaterlandsblätter [الصحافـة الوطنيـة] السكسـونية، وبروتوكـولات مجلس بـادن، وEinunpzwangig Bogen، [الأوراق الإحـدى والعشـرون] مـرة أخـرى وكتـاب بـاور الذائـع الصيـت[١٦٧]، وبالإضافـة إلـى ذلـك، هنـا

وهنـاك، كمراجـع تاريخيـة، يستشـهد كذلـك بالتـوراة، وكتـاب سـكلوزر [القـرن الثامـن عشـر] Islahundert[١٦٨]، وكتـاب لويـس بـلان [تاريـخ عشـر سـنوات] histoire de dix ans، وكتـاب هنريـخ [المحاضـرات السياسـية] PolitischeVerlesungen، وكتـاب بيتينـا [هـذا الكتـاب يخـص الملـك] Dies Bush Gehort Den Konig، وكتـاب هيـس [١٦٩] Triarchie، والحوليـات الألمانيـة الفرنسـية، وAnekdeta [حكايـات] زوريـخ، ومورينركارييـز بخصـوص كاتدرائيـة كولونيـا، وجلسـة مجلـس باريـس للأعيـان بتاريـخ ٢٥ نيسـان (أبريـل) ١٨٤٤[١٧٠]، وكارل نويـرك[١٧١] وEmilia Salettii [١٧٢]، والتـوراة، وباختصـار قاعـة مطالعـة برليـن بأكملهـا بالإضافـة إلـى صاحبهـا، ويليبالـد الكسـيس كابانيـس. وبعـد هـذه المسـطرة عـن دراسـات سانتشـو المعمقـة، يسـتطيع المـرء أن يفهـم بـكل سـهولة لمـاذا يجـد بعـد، فـي هـذه الأرض الدنيـا، أشـياء غريبـة، يعنـي مقدسـة، بصـورة لا حصـر لهـا.

٣ ـ الجريمة

الملاحظة الأولى

"إذا سـمحت لإنسـان آخـر أن يعتبـرك علـى حـق، فإنـه يملـك إذن، بصـورة مسـاوية أن تقبـل بـأن يعتبـرك علـى باطـل. وإذا حصلـت منـه علـى الاستحسـان والمكافـأة، فتوقـع إذن، الاتهـام والعقـاب منـه. إن الحـق يترافـق بالباطـل، والشـرعية بالجريمـة. مـن أنـت؟ أنـت - مجـرم!" (ص ٢٦٢).

إن القانـون المدنـي يترافـق بقانـون العقوبـات، وقانـون العقوبـات بقانـون التجـارة. مـن أنـت؟ أنـت تاجـر!

ولقـد كان فـي وسـع القـدس سانتشـو أن يوفـر علينـا هـذه المفاجـأة وهـذه الصدمـة. وليـس لهـذه الصيغـة: "إذا سـمحت لإنسـان آخـر أن يعتبـرك علـى حـق، فـإن عليـك إذن، بصـورة مسـاوية أن تقبـل بـأن يعتبـرك علـى باطـل"، أي معنـى عنـده إذا كان المقصـود منهـا إضافـة تعريـف جديـد؛ ذلـك أن إحـدى معادلاتـه السـابقة تقـرر مـن قبـل: إذا سـمحت لإنسـان آخـر أن يعتبـرك علـى حـق،

فإنـك تسـمح إذن، بـأن تـدان مـن قبـل حـق غريـب، يعنـي مـا ليـس هـو بحقـك، وبالتالـي أن تعتبـر علـى باطـل.

١ - التكريس البسيط للجريمة والعقاب

آ ـ الجريمة

فيمـا يتعلـق بالجريمـة، نعـرف مـن قبـل أنهـا الاسـم المعطـى لمقولـة عامـة مـن الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه، إنـكار المقـدس، الخطيئـة. وفـي النقائـض والمعـادلات المعطـاة سـابقاً بشـأن أمثلـة علـى المقـدس (الدولـة، الحـق، القانـون)، كان فـي الإمـكان إطـلاق اسـم الجريمـة علـى العلاقـة السـلبية للأنـا بهـذه المقدسـات، أو بصلـة الوصـل؛ بالضبـط كمـا فـي المنطـق الهيغلـي - الـذي هـو أيضـاً مثـال علـى المقـدس، يسـتطيع القديـس سانتشـو أن يقـول أيضـاً: أنـا لسـت المنطـق الهيغلـي، أنـا خاطـئ ضـد المنطـق الهيغلـي. ومـا دام يتحـدث عـن الحـق، والدولـة، الـخ، فقـد كان مـن واجبـه هـذه المـرة أن يسـتطرد: مثـال آخـر علـى الخطيئـة أو الجريمـة هـو مـا يسـمى الجرائـم الحقوقيـة أو السياسـية. وبـدلاً مـن ذلـك، فإنـه يخبرنـا مـن جديـد بصـورة مفصلـة: بـأن هـذه الجرائـم تشـكل:

الخطيئة ضد المقدس،

الخطيئة ضد الفكرة الثابتة،

الخطيئة ضد الشبح،

الخطيئة ضد الإنسان،

"ليس للمجرم وجود إلا ضد شيء ما مقدس". (ص ٢٦٨).

"ليس ثمة مبرر لوجود قانون العقوبات إلا بفضل المقدس". (ص ٣١٨).

"تنشأ الجرائم من الفكرة الثابتة". (ص ٢٦٩).

"يـرى المـرء هنـا أن "الإنسـان" مـرة أخـرى هـو الـذي يخلـق كذلـك مفهـوم الجريمـة، والخطيئـة، وبذلـك الحـق أيضـاً". (كان العكـس مـن قبـل)."إن إنسـاناً لا أعـرف الإنسـان فيـه خاطـئ". (ص ٢٦٨).

الملاحظة الأولى

"أيمكنني أن أفترض أن امرئاً ما يرتكب جريمة ضدي" (إن هذا يستهدف معارضة موقف الشعب الفرنسي والتأكيد على أن تلك كانت الحال بالنسبة إلى الثورة)، "دون الافتراض أيضاً بأن عليه أن يتصرف كما اعتبر أنه حق؟" وإن أفعالاً من هذا النوع أسميها الحق، والخير، الخ، وأسمي جريمة تلك الأفعال التي تنحرف عن ذلك. وبالتالي فإنني أفكر بأن على الآخرين أن ينشدوا الهدف ذاته الذي أنشده... بوصفهم كائنات يجب أن تطيع نوعاً من القانون "العقلاني". (الدعوة! المصير! الواجب! المقدس...) "إنني أقرر ما معنى الإنسان وما معنى السلوك الإنساني حقاً، وأطلب من كل واحد أن يصبح هذا القانون بالنسبة إليه القاعدة والمثل الأعلى، وإلا فإنه يبرهن على أنه خاطئ ومجرم..." (ص [٢٦٧]، ٢٦٨).

وفي الوقت ذاته يذرف دمعة ثقيلة وباعثة على القلق عند قبر أولئك "الناس الخاصين" الذي ذبحوا باسم المقدس في حقبة الإرهاب على يد الشعب السيد . وفيما عدا ذلك، يبين بواسطة مثال جديد كيف يمكن من وجهة النظر هذه للمقدس أن تحدد لائحة الجرائم الفعلية بصورة اعتباطية.

"إذا اتخذ هذا الشبح، الإنسان، كما في الثورة، على أنه نموذج "المواطن الصالح"، فإن جميع "الجرائم والجنح السياسية" المعهودة سوف تتسبب عن هذا المفهوم عن الإنسان". (وكان يجب عليه أن يقول: هذا المفهوم، الخ، يسبب من تلقاء نفسه الجرائم المعهودة). (ص ٢٦٨).

إن السذاجة هي صفة سانتشو الرئيسية في الفصل عن الجريمة. وإن لدينا على ذلك مثالاً لامعاً في تحويله لامتسرولي (sans-culottes) الثورة إلى "مواطنين صالحين" برلينيين، وذلك بفعل إساءة استعمال ترادفية لكلمة مواطن. فعند القديس ماكس أن "المواطنين الصالحين والموظفين المخلصين" عبارتان غير قابلتين للانفصال. وبالتالي فإن "روبسبيير، على سبيل المثال، وسان جوست، وهلم جراً" سوف يكونون "الموظفين المخلصين"، في

حيـن كان دانتـون مسـؤولاً عـن العجـز المالـي وقـد بـذّر أمـوال الدولـة. لقـد بـدأ القديـس سانتشـو بذلـك بدايـة جيـدة مـن أجـل وضـع تاريـخ للثـورة لاسـتعمال البورجـوازي والمـزارع البروسـيين.

الملاحظة الثانية

بعدما وصف لنا على هذا الغرار الجريمة السياسية الحقوقية على أنها مثال على الجريمة عامـة - يعنـي مقولتـه عـن الجريمـة، والخطيئـة، والإنـكار، والعـداوة، وانتهـاك المقـدس واحتقـاره، والسـلوك الشـائن حيـال المقـدس - يسـتطيع القديـس سانتشـو أن يعلـن الآن بـكل ثقـة:

"في الجريمة، أكد الأناني ذاته حتى الآن وسخر من المقدس". (ص ٣١٩).

إن جميـع الجرائـم التـي ارتكبـت حتـى الآن تسـجل فـي هـذا المقطـع فـي الرصيـد الدائـن للأنانـي المتفـق مـع ذاتـه، وإن كان لا بـد لنـا فـي وقـت لاحـق مـن تسـجيل عـدد قليـل منهـا فـي رصيـده المديـن. إن سانتشـو يعتقـد أن جميـع الجرائـم التـي ارتكبـت حتـى الآن لـم يكـن لها سـبب إلا السـخرية مـن "المقـدس" وتأكيـد الـذات ليـس ضـد الأشـياء، بـل ضـد المقـدس فـي مظهرالأشـياء. ولمـا كانـت السـرقة التـي يرتكبهـا مسـكين بائـس يتملـك فلسـاً يخـص امـرئً آخـر يمكـن أن توضـع فـي مقولـة الجريمـة ضـد القانـون، فـإن هـذا يكفـي كـي يكـون هـذا المسـكين البائـس قـد ارتكـب السـرقة لمجـرد اللـذة فـي انتهـاك القانـون. تمامـاً مثلمـاً تخيـل جـاك المغفـل، فـي فقـرة سـابقة، أن القوانيـن لـم تعمـل واللصـوص لـم يسـجنوا إلا إكرامـاً للمقـدس.

ب ـ العقاب

مـا دمنـا نعالـج الجرائـم الحقوقيـة والسياسـية علـى وجـه الدقـة، فإننـا نعلـم بهـذا الشـأن أن مثـل هـذه الجرائـم "بالمعنـى العـادي" تتضمـن عقابـاً عـادة، أو كمـا هـو مكتـوب فـإن "المـوت ثمـن الخطيئـة". وإنـه لمـن المفـروغ منـه، بعـد مـا عرفنـاه مـن قبـل عـن الجريمـة، أن العقـاب يشـكل رد فعـل الدفـاع الذاتـي مـن جانـب المقـدس ضـد أولئـك الذيـن يدنسـونه.

الملاحظة الأولى

"ليــس للعقــاب معنــى إلا حيــن يكــون تكفيــراً عــن انتهــاك شــيء مــا مقــدس". (ص ٣١٦).

في العقاب "نرتكب جنون الرغبة في إرضاء الحق، الشبح" (المقدس). "إن المقدس يجب "هنا" أن يدافع عن نفسه ضد الإنسان". (إن القديس سانتشو هنا "يرتكب جنون" الخلط بين "الإنسان" و"الأوحدين"، "الأنوات الخاصة"، الخ، (ص ٣١٨).

الملاحظة الثانية

"إن قانون العقوبات لا يوجد إلا بفضل المقدس ويزول من تلقاء ذاته حين يتخلى عن العقاب". (ص ٣١٨).

إن ما يريد القديس سانتشو أن يقوله فعلياً هو: إن العقاب يزول من تلقاء ذاته إذا جرى التخلي عن قانون العقوبات، أي أن العقاب لا يوجد إلا بفعل قانون العقوبات. "لكن أليس" لا يوجد قانون للعقوبات إلا بسبب العقاب "هراء صرفاً، وأليس" العقاب الذي لا يوجد إلا بفعل قانون العقوبات "هراء صرفاً أيضاً"؟ (سانتشو ضد هيس، ويغان، ص ١٨٦). إن سانتشو هنا يخطئ فيأخذ قانون العقوبات على أنه مبحث في الأخلاق اللاهوتية.

الملاحظة الثالثة

هذا مثال على كيفية نشوء الجريمة من الفكرة الثابتة:

"إن قداسة الزواج فكرة ثابتة. وعلى القداسة يترتب أن الخيانة الزوجية جريمة، وبالتالي فإن قانوناً معيناً عن الزواج" (الأمر الذي يثير ضجراً عظيماً لدى "المجلسين إلا...[*] و"أمبراطور جميع الر...[**]، هذا إذا تركنا جانباً "أمبراطور اليابان" و "أمبراطور الصين"، وبصورة خاصة "السلطان") "يفرض على الزنا عقوبة تطول مدتها أو تقصر". (ص ٢٦٨).

إن فريدريك غويلوم الرابع، الذي يحسب أنه قادر على إصدار القوانين المتفقة مع المقدس، وبالتالي فهو في خصام على الدوام مع العالم كله، يستطيع أن يعزي نفسه بفكرة أنه وجد في صاحبنا سانتشو على الأقل رجلاً واحداً مشرباً بالإيمان بالدولة. فليقارن

(*) يقصد الألمانيين.

(**) يقصد الروس.

القديس سانتشو قانون الزواج البروسي، الذي لا وجود له إلا في رأس مؤلفه، مع فقرات القانون المدني السارية المفعول في الممارسة، وسوف يكون في مقدوره أن يكتشف الفرق بين قوانين الزواج المقدسة والدنيوية. ففي مجموعة الأوهام البروسية، يجب أن تفرض قداسة الزواج من قبل الدولة على الرجال والنساء على حد سواء، وفي الممارسة الفرنسية، حيث تعتبر الزوجة الملكية الخاصة لزوجها، الزوجة وحدها هي التي تعاقب على الزنا، وفي هذه الحال بناء على طلب الزوج وحده، الذي يمارس إذن، حقوقه الخاصة بالملكية.

٢ ـ تملك الجريمة والعقاب بواسطة النقيضة

الجريمة بمعنى الإنسان	=	انتهاك قانون الإنسان. (انتهاك إعلان إرادة الدولة، انتهاك سلطة الدولة (ص ٢٥٩ وما يليها)
الجريمة بمعناي	=	انتهاك قانوني (انتهاك إعلان إرادتي، انتهاك سلطتي) (ص ٢٥٦، وفي مواضع أخرى).

إن هاتين المعادلتين نقيضتان وتشتقان بكل بساطة من التناقض بين "الإنسان" و"الأنا"، وهما مجرد خلاصة لما سبق قوله.

المقدس يعاقب "الأنا" الجريمة = العداوة لقانون الإنسان (المقدس)	=	- "أنا" أعاقب "الأنا". العداوة = جريمة ضد قانوني.
المجرم = عدو أو خصم المقدس (المقدس على أنه شخص معنوي)	=	العدو أو الخصم = مجرم ضد "الأنا" المجهزة بجسد

العقاب = الدفاع الذاتي للمقدس ضد "الأنا" } - { دفاعي الذاتي = عقاب الأنا "للأنا".

العقاب = تكفير (ثأر الإنسان حيال "الأنا"). } - { التكفير (الثأر) = عقاب الأنا "للأنا".

فـي النقيضـة الأخيـرة، يمكـن أن يسـمى التكفيـر أيضـاً التكفيـر الذاتـي طالمـا أن تكفيـري أنـا، هـو فـي تعـارض مـع تكفيـر الإنسـان.

وإذا لـم نأخـذ فـي حسـابنا سـوى الطـرف الأول فـي المعـادلات النقيضـة الـواردة الذكـر أعـلاه، فـإن المـرء يحصـل علـى السلسـلة التاليـة مـن النقائـض حيـث القضيـة تتضمـن علـى الـدوام الاسـم المقـدس، والعـام، والغريـب، فـي حيـن تتضمـن النقيضـة علـى الـدوام الاسـم الدنيـوي، والشـخصي، والمناسـب.

الجريمة - العداوة

المجرم - العدو أو الخصم

العقاب - دفاعي

العقاب - تكفير، ثأر، تكفير، ذاتي.

وسـوف نقـول فـي الحـال كلمـات قليلـة عـن هـذه المعـادلات والنقائـض التـي هـي بحـدّ ذاتهـا بالغـة البسـاطة بحيـث يسـتطيع حتـى "المولـود أبلهـا" (ص ٤٣٤) أن يتقـن هـذه الطريقـة "الوحـداء" فـي التفكيـر خـلال خمـس دقائـق. لكننـا سـوف نستشـهد قبـل ذلـك ببعـض الفقـرات ذات الدلالـة بالإضافـة إلـى الفقـرات الـواردة أعـلاه.

الملاحظة الأولى:

"بالنسـبة إلـي لا يمكنـك قـط أن تكـون مجرمـاً، بـل خصمـاً فحسـب" (ص ٢٦٨)، و"عـدواً" بالمعنـى ذاتـه (ص ٢٥٦) - وأن الجريمـة علـى اعتبارهـا عـداوة الإنسـان يستشـهد عليهـا (فـي الصفحـة ٢٦٨) بمثـال "أعـداء الوطـن الأم". - "العقـاب يجـب" (مسـلمة أخلاقيـة) "أن يسـتبدل

بالتكفير، الذي بدوره لا يمكن أن يستهدف وفاء الحق أو العدالة، بل إعطاء التعويض لنا" (ص ٣١٨).

الملاحظة الثانية:

بينما يهاجم القديس سانتشو هالة (طاحونة ثرثرة) السلطة القائمة، فهو لا يستحصل حتى على معرفة بهذه السلطة، فكم بالحري أن يهاجمها؛ إنه يقتصر على صياغة المطلب الأخلاقي بوجوب أن تتغير صورياً علاقة "الأنا" بها. (أنظر المنطق).

"أنا ملزم بأن أصبر على حقيقة" (ثقة متبجحة) "أنه" (أي عدوي، الذي يقف وراءه بضعة ملايين من الشركاء) "يعاملني بوصفي عدواً له؛ لكنني لن أسمح له قط بأن يعاملني على أنني صنيعته أو أن يجعل أسبابه أو ربما انعدام الأسباب عنده مبدأي الموجه"، (ص ٢٥٦)، (حيث لا يترك للسيد سانتشو إلا حرية محدودة جداً، ألا وهي الاختيار بين التهاون بأن يعامل على أنه صنيعته أو تحمل الجلدات الثلاثة آلاف والثلاثمئة التي وجهها ميرلين إلى ردفيه(*). وإن هذه الحرية ليمنحه إياها أي قانون عقوبات، من دون أن يسأله بصورة مسبقة، بأية طريقة ينبغي له أن يعلن عن عداوته له). -"لكن حتى إذا أرهبت خصمك بفضل قوتك" (إذا كنت بالنسبة إليه "قوة مرهوبة")، فإنك لا تصبح من جراء ذلك سلطة مقدسة، إلا إذا كان لصاً. إنه لا يدين لك بالاحترام أو التبجيل، حتى إذا كان لا بدّ له أن يكون على حذر حيالك وحيال سلطانك". (ص ٢٥٨).

إن القديس سانتشو هو الذي يظهر هنا على أنه "لص"(**) يماحك بقدر كبير من الجلد بشأن الفرق بين "الفرض" و"كن موضع التبجيل"، "كن على حذر" و"انتبه" - وهو فرق يبلغ على الأكثر جزءاً من ستة عشر جزءاً. حين يكون القديس سانتشو "على حذر" حيال امرئ ما، فإنه

(*) posaderas، بالإسبانية في النص الأصلي.

(**) ثمة تلاعب بالألفاظ هنا. ففي الأصل الألماني تعني كلمة "schacher" التي يستخدمها شترنر في الفقرة الواردة الذكر "بائساً" أو "لصاً"، هذا في حين أن كلمة "schacher" تعني المساومة والمماحكة.

"يستسلم للتفكير، ويكون لديه موضوع يفكر فيه، وهو موضوع يوحي إليه بالاحترام ويستشعر حياله الانقباض والخوف". (ص ١١٥).

وفي المعادلات أعلاه، وصف العقاب، والثأر، والتكفير، الخ، فكأنها صادرة عن الأنا، فقط؛ وبقدر ما يكون القديس سانتشو موضوعاً للتكفير يمكن قلب النقيضة؛ وعندئذ يحوّل التكفير الذاتي إلى إرضاء الغير على حسابي من قبل امرئ آخر أو إلى إساءة إلى تعويضي.

الملاحظة الثالثة:

إن الإيديولوجيين الذين أمكن أن يتخيلوا أن الحق والقانون والدولة، الخ، تنشأ من مفهوم عام، مثلاً في آخر تحليل مفهوم الإنسان، وإنها تحققت إكراماً لهذا المفهوم - إن هؤلاء الإيديولوجيين أنفسهم يمكن بالطبع أن يتخيلوا كذلك أن الجرائم ضد مفهوم ما ترتكب بدافع الاستهتار وحده، إن الجرائم عامة ليست شيئاً آخرسوى السخرية من المفاهيم، وإذا هي عوقبت فما ذلك إلا لمجرد التعويض عن المفاهيم المهانة. ولقد قلنا من قبل بهذا الشأن ما كان يجب قوله فيما يتعلق بالحق، وقبل ذلك أيضاً، فيما يتعلق بالتراتب، وهو ما نحيل القارئ عليه.

وفي النقائض آنفة الذكر تعارض التعريفات المكرسة - جريمة، عقاب، - باسم تعريف آخر يستخرجه القديس سانتشو بطريقته المفضلة من هذه التعريفات الأولى ويستملكه . وإن هذا التعريف الجديد الذي لا يمثل هنا، كما قلنا، إلا بوصفه اسماً صرفاً، يفترض فيه، بوصفه اسماً دنيوياً، أنه يتضمن العلاقة الفردية المباشرة ويعبِّر عن الشروط الفعلية. (أنظر المنطق). والحال، إن تاريخ الحق يبين أن هذه الشروط الفعلية الفردية في شكلها الأكثر قسوة كانت في الحقب الباكرة الأكثر بدائية تشكل الحق بصورة مباشرة. ومع تطور المجتمع البورجوازي، وبالتالي مع تحول المصالح الخاصة إلى مصالح طبقية، تغيرت علاقات الحق واكتسبت شكلاً متحضراً. لم تعد تعتبر فردية بعد الآن، بل علاقات عامة. وفي الوقت ذاته، وضع تقسيم العمل حماية المصالح المتنازعة للأفراد المنفصلين في أيدي أشخاص قلائل، وبذلك تلاشى النمط الهمجي في تقرير الحق. إن نقد القديس سانتشو للحق في النقائض

الـواردة الذكـر أعـلاه يقتصـر بمجملـه علـى المنـاداة بـأن التعبيـر المتحضرعـن علاقـات الحـق وهـذا التقسـيم للعمـل ثمـرة "الفكـرة الثابتـة" للمقـدس، ومـن جهـة ثانيـة، الادعـاء لنفسـه بالتعبيـر الهمجـي عـن علاقـات الحـق والطريقـة الهمجيـة فـي تسـوية النزاعـات. فعنـده، إن المسـألة مسـألة أسـماء ليـس غيـر؛ أمـا الشـيء بالـذات فـلا يمسـه علـى الإطـلاق؛ وبالفعـل فإنـه لا يعـرف شـيئاً عـن العلاقـات الفعليـة التـي تقـوم عليهـا هـذه الأشـكال المختلفـة للحـق، ولا يتبيـن مـن جديـد فـي التعبيـر الحقوقـي عـن العلاقـات الطبقيـة إلا الأسـماء المؤمثلـة لهـذه العلاقـات الهمجيـة القديمـة. وهكـذا فإننـا نكتشـف مـن جديـد الضغينـة فـي إعـلان الإرادة الشـترنرية، والدفـاع الذاتـي فـي العـداوة، الـخ، ونسـخة رديئـة عـن قانـون الأقـوى وممارسـة أسـلوب الحيـاة الإقطاعيـة القديمـة، فـي الثـأر وفـي التكفيـر، الـخ [شـريعة القصـاص(١٧٣)] Jus Talianis، و[سـيادة] الجرمـان القدمـاء(١٧٤) Gewre، و[التكفيـر](١٧٥) Compensatis، و[التعويـض](١٧٦) Satisfactio - وباختصـار العناصـر الرئيسـية المتوافـرة فـي [قوانيـن البرابـرة](١٧٧) leges barbarorum و[العـادات الإقطاعيـة](١٧٨) consuuetudines feudorum التـي اسـتملكها القديـس سانتشـو ليـس مـن المكتبـات بـل مـن أقاصيـص معلمـه القديـم أماديـس الغولـي وافتتـن بهـا أيمـا افتتـان. وهكـذا فـإن القديـس سانتشـو ينتهـي فـي آخـر تحليـل إلـى وصيـة أخلاقيـة عديمـة الفعاليـة بـأن علـى كل امـرئ أن يسـتحصل التعويـض بنفسـه وينفـد العقـاب. إنـه يؤمـن مـع دون كيخـوت بأنـه يسـتطيع بواسـطة وصيـة أخلاقيـة فحسـب، ومـن دون مزيـد مـن الضوضـاء، أن يحـول القـوى الماديـة الناشـئة عـن تقسـيم العمـل إلـى قـوى شـخصية. أمـا مـدى ارتبـاط العلاقـات الحقوقيـة بتطـور تلـك القـوى الماديـة الناشـئة عـن تقسـيم العمـل، فهـذا مـا يتبيـن بـكل وضـوح مـن التطـور التاريخـي للسـلطة القضائيـة وشـكاوى السـادة الإقطاعييـن بشـأن تطـور الحـق. (أنظـر مثـلاً مونتيـل، المؤلـف المذكـور، القرنـان الرابـع عشـر والخامـس عشـر). ولقـد جعلـت سـلطة المحاكـم تـزداد أهميـة بالضبـط فـي هـذه الحقبـة المتوسـطة بيـن حكـم الأرسـتقراطية وحكـم البورجوازيـة، حيـن تصادمـت مصالـح الطبقتيـن، وحيـن اتسـعت التجـارة بيـن الأمـم الأوروبيـة أكثـر فأكثـر، وبالتالـي اتخـذت العلاقـات الأمميـة

نفسها طابعاً بورجوازياً. ولقد بلغت سلطة المحاكم ذروتها تحت حكم البورجوازية، حين أصبح هذا التقسيم الكامل للعمل أمراً لا مفرَّ منه. أما ما يتوهمه في هذا الشأن القضاة، هؤلاء الخدام لتقسيم العمل، وبالأحرى أساتذة التشريع(*)، فتلك مسألة عديمة الأهمية تماماً.

٣ - الجريمة بالمعنى العادي والمعنى فوق العادي

رأينا أعلاه أن الجريمة بالمعنى العادي قد وضعت بواسطة تزوير في "حساب الدائن" للأناني بالمعنى فوق العادي. إن هذا التزوير ليصبح بيّناً للعيان الآن. وإن الأناني فوق العادي يجد الآن أنه لا يرتكب إلا جرائم فوق عادية يجب أن يؤكد تفوقها على الجرائم العادية. وهكذا فإننا نسجل في حساب الأناني المذكور أعلاه الجرائم العادية التي سجلت من قبل في جانب الحساب الدائن.

إن صراع المجرمين العاديين ضد ملكية الغير يمكن التعبيرعنه كذلك كما يلي: (بالرغم من أن هذا ينطبق على أي منافس):

إنهم -"ينشدون خيرات الغير" (ص ٢٦٥)،

ينشدون خيرات مقدسة،

ينشدون المقدس، الذي بفضله يتحول المجرم العادي إلى "مؤمن". (ص ٢٦٥).

لكن هذا اللوم الذي يوجهه الأناني بالمعنى فوق العادي إلى المجرم بالمعنى العادي إنما هو مظهر لوم - لأنه إذا كان ثمة من يطمح إلى تطويق العالم بأسره بهالة مقدسة، فإنما هو الأناني في الحقيقة. إن ما يأخذه بالفعل على المجرم ليس السعي إلى "المقدس"، بل السعي إلى "الخيرات".

وبعدما يبني القديس سانتشو "عالماً شخصياً، سماء"، وهو في هذه المرة عالم وهمي من الضغائن ومغامرات الفرسان في ملء العالم الحديث، وبعدما يعطي في الوقت نفسه إثباتاً مزوداً بالوثائق على تفوقه، بوصفه مجرماً فروسياً، على المجرمين العاديين، فإنه ينظم

(*) professores juris، باللاتينية في النص الأصلي.

مـرة أخـرى حملـة صليبيـة ضـد "الأبالسـة والشـياطين والجنيـات" ضـد "الأشـباح والأطيـاف والأفـكار الثابتـة". إن خادمـه الأميـن، شـيليغا، يخـبُّ خلفـه بـكل تبجيـل. لكـن بينمـا همـا ماضيـان فـي طريقهمـا تقـع المغامـرة المدهشـة لأولئـك البائسـين الذيـن كانـوا يجـرون إلـى موضـع ليسـت بهـم رغبـة فـي الذهـاب إليـه، كمـا هـو موصـوف فـي الفصـل الثانـي والعشـرين عنـد سـرفانتس. ذلـك أنـه بينمـا كان فارسـنا الهائـم وخادمـه دون كيخـوت يعـدوان عـدواً وئيـداً فـي سـبيلهما، رفـع سانتشـو عينيـه ورأى حوالـى اثنـي عشـرة رجـلاً يتقدمـون نحوهمـا راجليـن، وقـد صفـدت أيديهـم وقيـدوا إلـى بعضهـم بعضـاً بسلسـلة طويلـة، يرافقهـم ضابـط وأربعـة دركييـن ينتسـبون إلـى هرمانـداد المقدسـة[١٧٩]، إلـى المقـدس بالـذات. وحيـن اقتربـوا جـداً سـأل القديـس سانتشـو الحـرس بـكل أدب أن يتلطفـوا فيخبـروه عـن السـبب الـذي سـيق مـن أجلـه هـؤلاء النـاس فـي الأغـلال. "إنهـم محكومـون مـن قبـل صاحـب الجلالـة، فـي الطريـق إلـى سـباندو[١٨٠]، ولا حاجـة بـك لمعرفـة المزيـد". فصـاح القديـس سانتشـو: "كيـف، ثمـة بشـر مكروهـون؟ أيمكـن أن يمـارس الملـك العنـف ضـد "الأنـا الخاصـة" لأي إنسـان؟ فـي هـذه الحـال آخـذ علـى نفسـي رسـالة وضـع حـدّ لهـذا العنـف". "إن سـلوك الدولـة هـو العنـف الـذي تسـميه حقـاً. أمـا العنـف الـذي يرتكبـه الفـرد فتسـميه جريمـة". وبنـاء علـى ذلـك فقـد أخـذ القديـس سانتشـو بـادئ الأمـر فـي وعـظ المجرميـن، قائـلاً إنـه يجـب عليهـم ألا يحزنـوا، وإنـه علـى الرغـم مـن كونهـم "غيـر أحـرار"، فإنهـم لا يزالـون "خاصتهـم"، وإنـه علـى الرغـم مـن أن "عظامهـم" ربمـا "طقطقـت" تحـت جلـدات السـوط، وأنـه ربمـا حـدث أن "انتزعـت منهـم سـاق واحـدة"، لكـن فيمـا قـال سـوف تنتصـرون علـى هـذا كلـه، لأنـه "ليـس هنـاك مـن امـرئ يسـتطيع أن يقيـد إرادتكـم". "وإننـي لواثـق أنـه ليـس فـي العالـم سـحر يسـتطيع أن يوجـه أو يقسـر إرادتكـم، كمـا يتصـور بعـض السـذج. ذلـك أن الإرادة عملنـا الكيفـي الحـر، وليـس ثمـة عشـب سـحري أو رقيـة يسـتطيعان قسـرها!" "أجـل، ليـس هنـاك مـن يسـتطيع أن يقيـد إرادتكـم ولسـوف تظـل إرادة الرفـض عندكـم طليقـة!".

لكـن بمـا أن هـذه الوعظـة لـم تهـدئ المحكوميـن، الذيـن أخـذوا يـروون كل بـدوره كيـف أدينـوا ظلمـاً، فقـد قـال سانتشـو: "أيهـا الأخـوة الأحبـاء، لقـد بـات واضحـاً لـي ممـا رويتـم أنـه علـى الرغـم مـن أنكـم عوقبتـم علـى جرائمكـم، فـإن العقـاب الـذي سـوف تتحملـون لا يمنحكـم مـع

ذلـك إلا تعويضـاً ضئيـلاً؛ وبالتالـي، إنكـم تتحملونـه بقـدر كبيـر مـن النفـور ومـن دون أي فـرح. وإنـه لمـن الممكـن حتـى درجـة كبيـرة أن يكـون سـبب دماركـم ضعـف النفـس أمـام الألـم الشـديد فـي الحالـة الواحـدة، والفقـر فـي الحالـة الثانيـة، وانعـدام الحمايـة فـي الحالـة الثالثـة، وأخيـراً تحيـز القاضـي، وإنكـم لـم تعطـوا العدالـة التـي كانـت مـن حقكـم. وإن هـذا كلـه ليجبرنـي علـى أن أبيـن لكم لمـاذا أرسـلتني السـماء إلـى العالـم. لكـن بمـا أن حكمـة الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه تنـص علـى عـدم اللجـوء إلـى العنـف فيمـا يمكـن الحصـول عليـه بالرضـا، فإننـي أطلـب هنـا مـن كل مـن السـادة الضابـط والدركييـن إطـلاق سـراحكم والسـماح لكـم بـأن تذهبـوا كل فـي سـبيله. وفيمـا عـدا ذلـك، يـا أحبائـي الدركييـن، فـإن هـؤلاء البائسـين لـم يسـببوا لكـم أي ضـرر. إنـه لا ينبغـي للأنانـي المتفـق مـع ذاتـه أن يصبـح جـلاد الأوحديـن الآخريـن الذيـن لـم يسـببوا لـه أي ضـرر. ومـن المؤكـد أن "مقولـة الشـيء المسـروق تحتـل المكانـة الأولـى" بالنسـبة إليكـم. لمـاذا أنتـم علـى هـذه الدرجـة مـن "الحماسـة" "ضـد الجريمـة"؟ "الحـق الحـق أقـول لكـم إنكـم متحمسـون مـن أجـل الأخـلاق، أنتـم مليئـون بفكـرة الأخـلاق". "إنكـم تضطهـدون كل مـا هـو معـاد لهـا". - "ونظـراً لقسـمكم كموظفيـن"، فإنكـم "تسـوقون هـؤلاء المحكوميـن المسـاكين إلـى السـجن" - "أنتـم المقـدس"! إذن، أطلقـوا سـبيل هـؤلاء النـاس عـن طيبـة خاطـر. وإلا فـإن عليكـم أن تواجهونـي، أنـا الـذي "أقلـب الأمـم بنفخـة واحـدة مـن الأنـا الحيـة"، الـذي "ارتكـب الدنـس الأشـد فداحـة" و"لا أخـاف حتـى مـن القمـر".

وهتـف الضابـط: "فـي الحقيقـة إن تلـك وقاحـة رائعـة! إنـه لمـن الأفضـل لـك أن تضـع هـذا الطسـت علـى رأسـك بصـورة قويمـة وتمضـي فـي سـبيلك!".

ولكـن القديـس سانتشـو، الـذي استشـاط غيظـاً لهـذه الفظاظـة البروسـية، سـدد رمحـه واندفـع في اتجـاه الضابـط بـكل سـرعة "الإبـدال"، بحيـث ألقـى بـه أرضـاً فـي الحـال. وتـلا ذلـك فوضـى عامـة تحـرر المحكومـون خلالهـا مـن قيودهـم، وألقـى دركـي بـدون كيخـوت - شـيليغا فـي قنـاة لاندويهـر[١٨١] أو حفـرة الخرفـان، بينمـا كان القديـس سانتشـو ينجـز أعظـم المآثـر بطولـة فـي الصـراع ضـد المقـدس. ولـم تمـضِ دقائـق حتـى كان رجـال الـدرك قـد تفرقـوا، وشـيليغا قـد زحـف خارجـاً مـن حفرتـه، والمقـدس قـد صفـي بصـورة مؤقتـة.

عندئـذ جمـع القديـس سانتشـو حولـه المحكوميـن المحرريـن وخاطبهـم كمـا يلـي (ص ٢٦٥، ٢٦٦ مـن "الكتـاب").

"مـا المجـرم العـادي" (المجـرم بالمعنـى العـادي) "إن لـم يكـن إنسـاناً ارتكـب الخطيئـة المميتـة" (يـا لـه مـن قـاص مميـت مـن أجـل سـكان المـدن والأريـاف) "التـي هـي الطمـوح إلـى مـا يخـص النـاس بـدلاً مـن نشـدان مـا هـو خـاص بـه؟ لقـد مـدّ يـده إلـى الخيـرات البغيضـة" (تمتمـة عامـة بيـن المحكوميـن ضـد هـذا الحكـم الأخلاقـي) "التـي تخـصّ الغيـر، لقـد فعـل مـا يفعلـه المؤمنـون الذيـن يطمحـون إلـى مـا يخـص اللـه" (الجـرم بوصفـه نفسـاً مشـرقة). "مـاذا يفعـل الكاهـن الـذي يعـظ المجـرم؟ إنـه يبيـن لـه الخطـأ الجسـيم الـذي ارتكبـه حيـن دنـس بعملـه مـا تعتبـره الدولـة مقدسـاً، ملكيـة الدولـة، التـي تتضمـن كذلـك حيـاة رعايـا هـذه الدولـة. ألـم يكـن أحـرى بـه أن يفهمـه أنـه لطـخ سـمعته" (ضحـك مكبـوت بيـن المحكوميـن علـى هـذا التملـك الأنانـي للغـو الإكليريكـي المبتـذل) "حيـن لـم يحتقـر ملكيـة الغيـر بـل اعتبرهـا جديـرة بـأن تسـرق" (همـس بيـن المحكوميـن). "لقـد كان فـي وسـعه أن يفعـل ذلـك لـو لـم يكـن كاهنـاً" (أحـد المحكوميـن: "بالمعنـى العـادي"!). وعلـى أيـة حـال، فأنـا "أتحـدث مـع المجـرم كمـا أتحـدث مـع أنانـي وسـوف يعتريـه الخجـل" (هتافـات عاليـة لا حيـاء فيهـا مـن جانـب المجرميـن الذيـن لا يستشـعرون مطلقـاً الدعـوة إلـى الخجـل)، "ليـس لأنـه ارتكـب جريمـة ضـد قوانينكـم وخيراتكـم، بـل لأنـه ارتـائ أن قوانينكـم جديـرة بـأن يحتـال عليهـا" (ليـس المقصـود هنـا سـوى "الاحتيـال بالمعنـى العـادي"؛ وعلـى أيـة حـال، ففـي موضـع آخـر: "إننـي أدور حـول صخـرة مـا دمـت عاجـزاً عـن نسـفها" وأنـا "أحتـال" مثـلاً حتـى علـى "الرقابـة") "وإن خيراتكـم جديـرة بـأن يشـتهيها" (هتافـات جديـدة). "لسـوف يعتريـه الخجـل...".

وهتـف جينيـس دي باسـامونتي[١٨٢]، زعيـم النصابيـن، الـذي لـم يكـن عامـة علـى هـذا القـدر مـن الصبـر: "ألـن نفعـل إذن، شـيئاً آخـر سـوى الإحسـاس بالخجـل، والخنـوع حيـن "يعظنـا" كاهـن بالمعنـى فـوق العـادي؟".

ويستطرد سانتشو:

"سوف يعتريه الخجل لأنه لم يحتقركم، أنتم وما تملكون، لأنه كان على درجة ضئيلة من الأنانية" (إن سانتشو يطبق هنا مقياساً غريباً على أنانية المجرم، الأمر الذي يفجر زئيراً عاماً بين المحكومين؛ ويغير سانتشو لهجته في شيء من الاضطراب، مستديراً بحركة بلاغية ضد "المواطنين الصالحين" الغائبين). "لكنكم لا تستطيعون أن تتحدثوا إليه بأنانية، لأنكم لا تضاهون المجرم، أنتم الذين... لن ترتكبوا أية جرائم".

ويقاطعه جينيس من جديد: "يا لها من سذاجة، أيها الرجل الطيب! إن حراس سجننا يرتكبون مختلف أنواع الجرائم، فهم يختلسون، ويغشون ويغتصبون[...]"(*).

[...] لا يكشف من جديد إلا عن سذاجته. لقد كان الرجعيون يعرفون سلفاً أن البورجوازيين يبطلون بالدستور الدولة الطبيعية ويقيمون ويصنعون دولة خاصة بهم، وأن "السلطة الدستورية التي تجسدت في سياق الزمن" (بصورة عفوية) "قد انتقلت إلى الإرادة البشرية"، وأن "هذه الدولة المصطنعة قد كانت مثل شجرة ملونة صناعية"، الخ. (أنظر فييفيه: [مراسلات سياسية وإدارية] Correspondance politique et administrative، باريس، ١٨١٥؛ [نداء إلى فرنسا ضد انقسام الآراء][١٨٣] Appel a la France contre la division des opinions، وساران الكبير: [الراية البيضاء] Le Drapeau blanc، ومجلة فرنسا Gazette de France في حقبة عودة الملكية، والمؤلفات السابقة لبونالد، وميستر[١٨٤] الخ. وإن البورجوازيين الليبراليين يأخذون بدورهم على الجمهوريين القدامى - ومن الواضح أنهم لا يعرفون عنهم أكثر مما يعرف القديس ماكس عن الدولة البورجوازية - إن وطنيتهم ليست شيئاً آخر سوى هوى مفتعل نحو كائن مجرد، نحو فكرة عامة(**) بنجامين كونستان: [في روح الفتوحات] (De l'esprit des conquetes)، (باريس، ١٨١٤، ص ٤٧)، في حين أن الرجعيين يتهمون البورجوازيين على أساس أن إيديولوجيتهم السياسية ليست سوى "خديعة تضلل بها الطبقة الميسورة تلك الطبقات غير الميسورة" (***) (مجلة فرنسا، ١٨١٣، شباط).

(*) إن اثنتي عشرة صفحة من المخطوطة ناقصة هنا.

(**) une passion, factice envers un être abstrait, une idée générale، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) une mystification que la classe aisée fait subir à celles qui ne le sont pas، بالفرنسية في النص الأصلي.

وفي الصفحة ٢٩٥ يعلن القديس سانتشو أن الدولة "مؤسسة تستهدف تنصير الشعب". وكل ما يستطيع قوله عن أساس الدولة هو أن "تماسكها" ينشأ عن "إسمنت" "احترام القانون"، أو أن "تماسك" المقدس ينشأ عن احترام المقدس (المقدس كصلة). (ص ٣١٤).

الملاحظة الرابعة:

"إذا كانت الدولة مقدسة، فيجب أن تكون هناك رقابة". (ص ٣١٦). "إن الحكومة الفرنسية لا تنكر حرية الصحافة بوصفها حقاً للإنسان، لكنها تطالب بضمانة من الفرد على أنه كائن بشري حقاً". (يا له من مغفل(*). إن جاك المغفل "مدعو" لدراسة قوانين أيلول/سبتمبر(١٨٥). (ص ٣٨٠).

الملاحظة الخامسة:

نصادف هنا أعمق الاستنتاجات عن الأشكال المتنوعة للدولة، التي يجعلها جاك المغفل مفاهيم مستقلة والتي لا يرى فيها إلا محاولات مختلفة من أجل تحقيق الدولة الحقيقية.

"ليست الجمهورية على وجه الدقة شيئاً آخر سوى الملكية المطلقة، ذلك أنه لا فرق بين أن يدعى العاهل ملكاً أو شعباً، طالما أن كلاهما جلالتان" (المقدس). "إن النزعة الدستورية تمضي خطوة أبعد من الجمهورية، ذلك أنها الدولة في طريق الانحلال".

ويفسر هذا الانحلال كما يلي:

"في الدولة الدستورية... تريد الحكومة أن تكون مطلقة، ويريد الشعب أن يكون مطلقاً. إن هذين المطلقين" (أي المقدسين) "سوف يدمران بعضهما بعضاً" (ص ٣٠٢) "أنا لست الدولة، أنا العدم الخلاق للدولة"؛ "وبذلك فإن جميع القضايا" (عن الدستور، الخ)، "تغوص في عدمها الحقيقي". (ص ٣٦٠).

(*) quel bonhomme، بالفرنسية في النص الأصلي.

ولقـد كان فـي وسـعه أن يضيـف أيضـاً أن جميـع القضايـا المذكـورة أعـلاه عـن أشـكال الدولـة ليسـت سـوى إسـهاب لهـذا "العـدم" الـذي صنيعتـه الوحيـدة هـي الصيغـة المعطـاة آنفـاً: أنـا لسـت الدولـة. إن القديـس سانتشـو، مثلـه مثـل معلـم مدرسـة ألمانـي بالضبـط، يتحـدث هنـا عـن "الجمهورية" التـي هـي، بـكل تأكيـد، أقـدم جـداً مـن الملكيـة الدسـتورية، مثـلاً الجمهوريـات الاغريقيـة.

أمـا أن النزاعـات الطبقيـة فـي دولـة ديمقراطيـة تمثيليـة مثـل أميـركا الشـمالية قـد بلغـت منـذ الآن شـكلاً تتجـه إليـه حاليـاً، بالقـوة، الملكيـات الدسـتورية - فمـن المؤكـد أنـه لا يعـرف شـيئاً عـن هـذا. إن ثرثرتـه عـن الملكيـة الدسـتورية تثبـت أنـه منـذ عـام ١٨٤٢ حسـب التقويـم البرلينـي لـم يتعلـم شـيئاً ولـم ينـسَ شـيئاً.

الملاحظة السادسة:

"إنمـا تديـن الدولـة بوجودهـا لـلازدراء الـذي أقابـل بـه ذاتـي"، و"مـع زوال هـذا الازدراء سـوف تضمحـل كليـاً". (يعنـي أن الأمـر يتوقـف علـى سانتشـو وحـده بشـأن السـرعة التـي سـوف "تضمحـل" بهـا جميـع الـدول الموجـودة علـى وجـه الأرض. تكـرار للملاحظـة الثالثـة فـي معادلـة مقلوبـة، أنظـر المنطـق):"إنهـا لا توجـد إلا حيـن تكـون فوقـي، إلا علـى أنهـا قـوة [macht] والقـوي [mächtiger] أو (ويـا لهـا مـن أو مرموقـة تبرهـن بالضبـط علـى عكـس المنـوي البرهـان عليـه) "هـل يمكـن تصـور دولـة سـكانها بمجموعهـم كلـه" (قفـزة مـن "أنـا" إلـى "نحـن") "يمكـن ألا يقيمـوا وزنـاً لهـا [nichts aus ihm Machen] (ص ٣٧٧).

ولا حاجـة إلـى الوقـوف عنـد "تـرادف الكلمـات" "macht" [قـوة] و"mächtige" [قـوي] و"Machen" [هنـا: يقيمـون وزنـاً].

فمـن حقيقـة أن ثمـة أناسـاً فـي كل دولـة يقيمـون لهـا وزنـاً، يعنـي أنهـم فـي الدولـة وبفضلهـا يصنعـون مـن أنفسـهم شـيئاً ذا وزن، يسـتنتج سانتشـو أن الدولـة سـلطة تسـيطرعلى هـؤلاء النـاس. ومـرة أخـرى ليـس المقصـود هنـا سـوى انتـزاع الفكـرة الثابتـة عـن الدولـة مـن ذهـن المـرء. ويسـتمر جـاك المغفـل يتوهـم أن الدولـة فكـرة صرفـة ويؤمـن بالقـوة المسـتقلة لهـذه الفكـرة عـن الدولـة. إنـه "هـو فـي الحقيقـة المخلـص للدولـة، المفتـون بالدولـة، السياسـي" (ص ٣٠٩). لقـد كان هيغـل

يمثـل تصـور الدولـة الـذي ينـادي بـه الإيديولوجيـون السياسـيون الذيـن كانـوا لا يزالـون ينطلقـون مـن الأفـراد الخاصيـن، وإن يكـن مـن إرادة هـؤلاء الأفـراد فقـط؛ فهيغـل يحـول الإرادة المشـتركة لهـؤلاء الأفـراد إلـى الإرادة المطلقـة، جـاك المغفـل يأخـذ بـكل نيـة صادقـة (de bonne foi) (*) هـذه الأمثلـة للإيديولوجيـة علـى أنهـا النظـرة الصحيحـة إلـى الدولـة، وانطلاقـاً مـن هـذا الاعتقـاد ينتقدهـا بـأن يفضـح المطلـق علـى اعتبـاره المطلـق.

٥ ـ المجتمع بوصفه المجتمع المدني

سـوف ننفـق زمنـاً أطـول نوعـاً مـا علـى هـذا الفصـل، لأنـه ليـس مـن قبيـل المصادفـة المحضـة أنـه الفصـل الأشـد تشوشـاً بيـن جميـع الفصـول المشوشـة فـي "الكتـاب"، ولأنـه فـي الوقـت ذاتـه يثبـت بطريقـة لامعـة جـداً مبلـغ عجـز قديسـنا عـن التوصـل إلـى معرفـة الأشـياء فـي هيأتهـا الدنيويـة. فبـدلاً مـن أن يجعلهـا دنيويـة يقدسـها إذ لا "يفيـد" القـارئ إلا مـن تصـوره المقـدس فحسـب. وقبـل أن نصـل إلـى المجتمـع المدنـي خصوصـاً، سـوف نسـتمع إلـى بعـض الايضاحـات الجديـدة عـن الملكيـة عامـة وعـن علاقتهـا بالدولـة. وإن هـذه الإيضاحـات لتظهـر أجـدَّ لأنهـا تعطـي القديـس سانتشـو الفرصـة كـي يطـرح مـن جديـد معادلاتـه المفضلـة عـن الحـق والدولـة، وبذلـك يعطـي "عرضـه" "انكسـارات" و"تحـولات متعـددة". ومـن الطبيعـي أننـا لا نحتـاج سـوى للاستشـهاد بالأطـراف الأخيـرة لهـذه المعادلات المعروفـة جيـداً مـا دام القـارئ لـم ينـسَ بعـد مـن دون ريـب تسلسـلها فـي الفصـل عـن "قوتـي".

الملكية الخاصة أو

الملكية البورجوازية = ليست ملكيتي

= الملكية المقدسة

= ملكية الغير

= الملكية المحترمة أو احترام ملكية الغير

= ملكية الإنسان. (ص ٣٢٧، ٣٦٩).

(*) bona fide، باللاتينية في النص الأصلي.

ويحصل المرء في الحال من هذه المعادلات على النقائض التالية:

الملكية بالمعنى البورجوازي } - { الملكية بالمعنى الأناني (ص ٣٢٧).

"ملكية الإنسان" - "ملكيتي"

"الخيرات الإنسانية" - خيراتي (ص ٣٢٤).

معادلات: الإنسان = الحق

= سلطة الدولة

الملكية الخاصة أو } - { الملكية الشرعية (ص ٣٢٤).

الملكية البورجوازية

= ملكيتي بفعل الحق (ص ٣٣٢).

= الملكية المضمونة،

= ملكية الغير،

= ملكية تخص الغير،

= ملكية تخص الحق،

= الملكية بالحق (ص ٣٣٢، ٣٦٧).

= مفهوم عن الحق،

= شيء ما مثالي،

= عام،

= وهم،

= فكر صرف،

= فكرة ثابتة،

= شبح

= ملكية الشبح (ص ٣٢٤، ٣٣٢، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩).

الملكية الخاصة = ملكية الحق.

الحق	= سلطة الدولة.
الملكية الخاصة	= الملكية في سلطة الدولة.
	= ملكية الدولة، أو أيضاً
الملكية	= ملكية الدولة.
ملكية الدولة	= غير ملكيتي.
الدولة	= المالك الوحيد. (ص ٣٣٤،٣٣٩).

ونأتي الآن إلى النقائض:

الملكية الخاصة	–	الملكية الأنانية
ملكية بموجب الحق (حق الدولة، حق الإنسان)	} - {	ملكية بموجب كامل سلطاتي (ص ٣٣٩).
ملكيتي بفعل الحق	-	ملكيتي بفعل سلطتي أو قوتي (ص ٣٣٢).
ملكية معطاة من الغير	-	ملكية مأخوذة من قبلي (ص ٣٣٩).
ملكية شرعية للغير	-	الملكية الشرعية للغير هي ما اعتبره صالحاً. (ص ٣٣٩)؛

التـي يمكـن أن تتكـرر فـي مئـة صيغـة أخـرى، مثـلاً إذا اسـتبدلنا السـلطة بالسـلطات الكاملـة أو اسـتخدمنا غيـر ذلـك مـن الصيـغ المعطـاة مـن قبـل.

الملكيـة الخاصـة = عـدم المشـاركة فـي ملكيـة الآخريـن جميعـاً.} - { ملكيتـي = ملكيـة الآخريـن جميعاً .

أو أيضاً:

ملكية بعض الأشياء = ملكية جميع الأشياء (ص ٣٤٣).

وإن الاغتـراب الـذي يمثـل بوصفـه علاقـة أو صلـة فـي المعـادلات أعـلاه يمكـن أن يعبّـر عنـه كذلـك فـي النقائـض التاليـة:

الملكية الخاصة – الملكية الأنانية

"السلوك حيال الملكية كما حيال المقدس، الشبح"، "احترامها"،	"التخلي عن العلاقة المقدسة حيال الملكية". عدم النظر إليها بعد الآن على أنها غريبة،
"الانطواء على احترام الملكية" (ص ٣٢٤)	عدم الخوف بعد الآن من الشبح، عدم الانطواء على أي احترام للملكية؛ تملك ملكية انعدام الاحترام (ص ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٦٨).

إن أنماط التملك المحتواة في المعادلات والنقائض الآنفة الذكر لن تكتمل بصورة نهائية إلا حين نأتي إلى فصل "الرابطة"؛ لكن بما أننا لا نزال في الوقت الحاضر في "المجتمع المقدس"، فإننا لن نعنى هنا إلا بالتكريس.

ملاحظة، عرضنا من قبل في الفصل عن "التراتب" كيف يستطيع الإيديولوجيين أن ينظروا إلى علاقة الملكية على أنها علاقة "الإنسان"، التي تتقرر أشكالها المختلفة في الحقب المختلفة وفقاً لفكرة الأفراد عن "الإنسان". ويكفينا هنا أن نحيل القارئ إلى ذلك التحليل.

العرض الأول: عن تجزئة الملكية العقارية، وافتداء الالتزامات الإقطاعية، وابتلاع الملكية العقارية الصغيرة من قبل الملكية العقارية الكبيرة.

هذه الأشياء جميعاً مستخلصة من الملكية المقدسة والمعادلة: الملكية البورجوازية = احترام المقدس.

١ ـ "إن الملكية بالمعنى البورجوازي تعني الملكية المقدسة، بحيث يتعين عليّ أن أحترم ملكيتك. "احترام الملكية!" وبالتالي فإن السياسيين سيودون أن يمتلك كل امرئ قطعة صغيرة من الملكية وقد تسببوا جزئياً، بفعل هذا الاتجاه، في تجزئة لا تصدق". (ص ٣٢٧، ٣٢٨) -.

٢ ـ "يهتم السياسيون الليبراليون بأن تفتدى جميع الالتزامات الإقطاعية بأقصى قدر ممكن كيما يكون كل امرئ سيداً حراً على أرضه، حتى إذا كانت هذه الأرض لا تحتوي إلا على ما يكفي بالضبط من التربة" (الأرض تحتوي على التربة!) "بحيث يكفي لإخصابها السماد المستمد من شخص واحد... لا أهمية لضآلتها، بشرط أن تكون خاصة بالمرء، أي ملكية محترمة. وبقدر ما يكثر مثل هؤلاء المالكين يكون لدى الدولة مزيد من البشرالأحرار والمواطنين الصالحين". (ص ٣٢٨).

٣ ـ "إن الليبرالية السياسية، مثلها كمثل أية نزعة دينية، تعتمد على الاحترام، والإنسانية، وفضائل المحبة. ولذا فإن آمالها تخيب باستمرار. ذلك أن البشر في الممارسة لا يحترمون شيئاً، ونحن نرى كل يوم الملكيات الصغيرة تبتاع من جديد بصورة مكثفة من قبل المالكين الكبار، و"البشر الأحرار" يتحولون إلى شغيلة مياومين. وبالمقابل، فلو أن "المالكين الصغار" فكروا أن الملكية الكبيرة تخصهم كذلك، فإنهم ما كانوا يبعدون أنفسهم عنها باحترام وما كانوا يطردون" (ص ٣٢٨).

١- وهكذا تفسر لنا قبل كل شيء كل حركة التجزئة التي لا يعرف القديس سانتشو عنها سوى أنها المقدس انطلاقاً من فكرة بسيطة "حشرها السياسيون في رؤوسهم". لأن "السياسيين" يطالبون "باحترام الملكية"، فإنهم إذن، "سيودون" التجزئة التي نفذت فيما عدا ذلك في كل مكان من جراء عدم احترام ملكية الآخرين! إن "السياسيين" بالفعل قد "تسببوا جزئياً في تجزئة لا تصدق". وهكذا فإن التجزئة توافرت طويلاً بفضل نشاط السياسيين في الزراعة في فرنسا حتى قبل الثورة، كما توافرت في أيامنا الحاضرة في إيرلندا وجزئياً في بلاد الغال، وانعدم رأس المال وجميع الشروط الأخرى من أجل الزراعة الكبرى. وعلى أي حال، فإن القديس سانتشو يستطيع أن يتبين عدد "السياسيين" الذين "سيودون" اليوم أن ينفذوا التجزئة من حقيقة أن جميع البورجوازيين الفرنسيين ساخطون على هذه التجزئة، سواء لأنها تضعف التنافس بين العمال أم لاعتبارات سياسية أيضاً؛ وفيما عدا ذلك من حقيقة أن جميع الرجعيين (وهو ما يستطيع القديس سانتشو أن يتحقق منه ولو من قراءة [ذكريات] (Erinnerungen) لارندت العجوز قد اعتبروا أن التجزئة ليست أكثر من

تحويـل الملكيـة العقاريـة إلـى ملكيـة حديثـة، صناعيـة، مسـبوقة، غيـر مقدسـة). ولـن نشـرح هنـا لقديسـنا الأسـباب الاقتصاديـة التـي تحمـل البورجوازييـن، حالمـا يبلغـون السـلطة، علـى تنفيـذ هـذا التحويـل الـذي يمكـن أن يتحقـق سـواء بنقـض الريـع العقـاري الـذي يزيـد علـى الربـح أم بتجزئـة الأراضـي. وكذلـك لـن نشـرح لـه كيـف أن الأشـكال التـي يتحقـق هـذا التحويـل بهـا تتوقـف علـى مسـتوى تطـور الصناعـة، والتجـارة، والملاحـة، الـخ، فـي البلـد صاحـب العلاقـة. إن جميـع الصيـغ المذكـورة أعـلاه بشـأن التجزئـة ليسـت أكثـر مـن نسـخة منمقـة عـن الحقيقـة البسـيطة التاليـة، ألا وهـي أن تجزئـة كبيـرة تقـوم فـي أماكـن مختلفـة "هنـا وهنـاك" - وقـد تـم الإعـراب عنهـا فـي أسـلوب الحديـث التكريسـي لصاحبنـا سانتشـو، الـذي يناسـب كل شـيء ولا يناسـب شـيئاً. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن صيـغ سانتشـو المعطـاة أعـلاه لا تتضمـن سـوى أوهـام المالـك الصغيـر الألمانـي عـن التجـزؤ الـذي يظـل طبعـاً بالنسـبة إليـه غريبـاً و"مقدسـاً". راجـع "الليبراليـة السياسـية".

٢- إن افتـداء الالتزامـات الإقطاعيـة، وهـي ظاهـرة بائسـة لا تصـادف إلا فـي ألمانيـا، حيـث ألزمـت الحكومـات بهـا مـن جـراء الشـروط الأكثـر تقدمـاً فـي البلـدان المجـاورة وبسـبب مـن مصاعبهـا الماليـة -هـذا الافتـداء يـرى فيـه قديسـنا مبـادرة مقصـودة مـن "الليبرالييـن السياسـيين" المعنييـن بتوليـد "البشـر الأحـرار والمواطنيـن الصالحيـن". إن أفـق سانتشـو لا يتجـاوز مـرة أخـرى، الجمعيـة السياسـية البوميرانيـة ومجلـس العمـوم السكسـوني. إن هـذا الافتـداء للالتزامـات الإقطاعيـة فـي ألمانيـا لـم يـؤدِ قـط إلـى أيـة نتائـج سياسـية أو اقتصاديـة، ولمـا كان إجـراء ناقصـاً فقـد ظـل مـن دون أيـة فعاليـة علـى الإطـلاق. ولا يعـرف سانتشـو بالطبـع شـيئاً عـن الافتـداء الهـام تاريخيـاً للالتزامـات الإقطاعيـة فـي القرنيـن الرابـع عشـر والخامـس عشـر الـذي كان مـرده إلـى تطـور التجـارة والصناعـة فـي أوائلـه وحاجـة المالكيـن العقارييـن إلـى المـال.

إن الأشـخاص ذاتهـم الذيـن كانـوا يريـدون، مثـل شـتاين وفينكيـه، افتـداء الالتزامـات الإقطاعيـة فـي ألمانيـا كيمـا يصنعـوا، حسـب اعتقـاد سانتشـو، مواطنيـن صالحيـن وبشـراً أحـراراً قـد وجـدوا فـي وقـت لاحـق أنـه لا بـدّ فـي سـبيل الحصـول علـى "المواطنيـن الصالحيـن والبشـر الأحـرار" مـن إعـادة الالتزامـات الإقطاعيـة، كمـا يسـعى إلـى ذلـك حاليـاً بالضبـط فـي ويسـتفاليا. وإنـه ليترتـب علـى ذلـك "الاحتـرام"، مثـل مخافـة اللـه، مفيـد لجميـع الأغـراض.

٣- إن "الاستيلاء "على الملكية العقارية الصغيرة من قبل "المالكين الكبار" يحدث، وفقاً لسانتشو، لأن "احترام الملكية" لا وجود له في الممارسة. إن نتيجتين من أكثر نتائج التنافس شيوعاً، التركز والاستيلاء، والتنافس عامة، الذي لا وجود له من دون التركز، تتراءى هنا في نظر صاحبنا سانتشو بوصفها انتهاكات للملكية البورجوازية التي تتجلى كظاهرة في مجال التنافس. إن الملكية البورجوازية منتهكة سلفاً من جراء وجودها بالذات. وفي رأي سانتشو أنه لا يمكن شراء شيء من دون الاعتداء على الملكية(*). أما العمق الذي حلل به القديس سانتشو تركز الملكية العقارية، فهذا ما يتضح سلفاً من حقيقة أنه لا يرى سوى أشد أفعال التركز بينة، أي الابتياع "بالجملة". وعلى أي حال، فإنه لا يمكن أن يتبين مما يقوله سانتشو إلى أي مدى يكف أصحاب الملكية الصغيرة عن أن يكونوا مالكين بصيرورتهم شغيلة مياومين. صحيح أن سانتشو نفسه يوضح في الصفحة التالية (ص ٣٢٩)، متحدثاً بمهابة عظيمة ضد برودون، أنهم يظلون "مالكين للحصة المتبقية لهم من إنتاج الحقل"، يعني مالكين لأجورهم. "لعله يمكن أحياناً أن يلاحظ في التاريخ" أن الملكية العقارية الكبيرة تبتلع الملكية العقارية الصغيرة تارة، وأن الملكية الصغيرة تبتلع الملكية الكبيرة تارة أخرى، وهما ظاهرتان يرى سانتشو، المسالم جداً، سببهما الكافي في أن "البشر في الممارسة لا يحترمون شيئاً". وينطبق الأمر نفسه على الأشكال المتعددة الأخرى للملكية العقارية. ومن ثم هذه النصيحة الحكيمة: "لو أن المالكين الصغار"، الخ! ولقد رأينا في العهد القديم كيف جعل القديس سانتشو، بصورة متفقة مع الطريقة الميتافيزيقية، الأجيال السابقة تفكر في تجارب الأجيال اللاحقة؛ وإننا نرى الآن كيف يشكو، على طريقة سياسيي المقاهي، من أن الأجيال السابقة أخفقت في أن تضع في اعتبارها ليس أفكار الأجيال اللاحقة عنها فحسب، بل سخافاتها الخاصة أيضاً. يا لها من "حكمة" أستاذية! لو أن رجال الإرهاب فكروا في أنهم سوف يحملون نابوليون إلى العرش، ولو أن البارونات الإنكليز في

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة :] يخلص القديس سانتشو إلى هذا الهراء لأنه يأخذ خطأ التعبير الإيديولوجي والحقوقي عن الملكية البورجوازية على أنه الملكية البورجوازية الفعلية، وهو لا يستطيع أن يفهم السبب في أن الواقع لن يطابق هذا الوهم عنده.

زمن راينميد والوثيقة الكبرى[١٨٦] فكروا في أن قوانين الحبوب سوف تلغى في عام ١٨٤٩، ولو أن كرويزوس فكر في أن روتشيلد سوف يتجاوزه في الثراء، ولو أن الاسكندر الأكبر فكر أن روتيك سوف يدينه وفي أن امبراطوريته سوف تسقط بين أيدي الأتراك، ولو أن تيميستوكاوس فكر في أنه سوف يهزم الفرس في مصلحة أوتو الطفل، ولو أن هيغل فكر في أنه سوف يستثمر بمثل هذه الطريقة "المبتذلة" من قبل القديس سانتشو، لو أن، لو أن، لو أن! عن أي نوع من "أصحاب الملكية الصغار" يتحدث القديس سانتشو؟ عن الفلاحين الذين لهم أرض والذين لم يصبحوا "أصحاب ملكية صغاراً" إلا من جراء تفكك الملكية العقارية الكبيرة! عن أولئك الذين أفلسوا في هذه الأيام بنتيجة التركز. إن هاتين الحالتين متشابهتان بالنسبة إلى القديس سانتشو، كما تشبه البيضة الواحدة البيضة الأخرى. ففي الحالة الأولى لم يُستبعد المالكون الصغار في أي حال من الأحوال عن "الملكية الكبيرة"، لكن كل واحد منهم قد استملكها بقدر ما لم يستبعد منها من قبل الآخرين وبقدر ما توفرات له الوسائل من أجل استملاكها. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الوسائل لم تكن تمت بصلة إلى تلك الوسائل التي ينادي بها، بل قد تقررت بفعل شروط تجريبية تماماً، مثل تطورها الخاص وكل التطور السابق للمجتمع البورجوازي، والسياق المحلي، وارتباطها الأكثر أو الأقل وثوقاً بالجوار، وأبعاد قطعة الأرض المستملكة وعدد أولئك الذين استملكوها، وأحوال الصناعة والتجارة ووسائل المواصلات وأدوات الإنتاج، الخ، الخ. أما إنهم لم يستبعدوا أنفسهم من الملكية العقارية الكبيرة، فهذا ما يتضح سلفاً من حقيقة أن العديد منهم قد أصبحوا بدورهم مالكين عقاريين كباراً. وإن سانتشو ليجعل من نفسه موضعاً للسخرية حتى في ألمانيا من جراء مطلبه غير المعقول بأن على هؤلاء الفلاحين أن يقفزوا من فوق مرحلة التجزئة التي لا وجود لها بعد والتي كانت في ذلك الحين الشكل الثوري الممكن الوحيد بالنسبة إليهم، كي يرتموا جماعة واحدة في أنانيته المتفقة مع نفسها. وبغض النظر عن هرائه هذا، فإنه لم يكن ممكناً بالنسبة إلى هؤلاء الفلاحين أن ينظموا أنفسهم على النمط الشيوعي طالما كانوا يفتقرون إلى جميع الوسائل الضرورية من أجل تحقيق الشرط الأول لرابطة شيوعية، ألا وهي الزراعة الجماعية، وطالما أن التجزئة، على النقيض من ذلك، لم تكن سوى أحد الشروط التي

أثـارت فـي وقـت لاحـق الحاجـة إلـى مثـل هـذه الرابطـة. وعلـى العمـوم، فـإن أيـة حركـة شـيوعية لا يمكـن أن تنطلـق قـط مـن الريـف، بـل مـن المدينـة دائمـاً.

وفـي الحالـة الثانيـة، حيـن يتحـدث القديـس سانتشـو عـن المالكيـن الصغـار المفلسـين، فـإن هـؤلاء يملكـون بعـد مصلحـة مشـتركة مـع المالكيـن العقارييـن الكبـار فـي مواجهـة الطبقـة المحرومـة مـن الملكيـة كليـاً والبورجوازيـة الصناعيـة. وإذا كانـت هـذه المصلحـة المشـتركة معدومـة، فإنهـم يفتقـرون إذن إلـى القـوة مـن أجـل تملـك الملكيـة العقاريـة الكبيـرة، لأنهـم يعيشـون مبعثريـن ولأن نشـاطهم برمتـه وأسـلوبهم فـي الحيـاة يجعـلان الرابطـة التـي هـي الشـرط الأول لمثـل هـذا التملـك أمـراً مسـتحيلاً بالنسـبة إليهـم، ومـن ثـم لأن مثـل هـذه الحركـة تفتـرض مسـبقاً، بدورهـا، حركـة أعـمّ جـداً مسـتقلة عنهـم الاسـتقلال كلـه.

وأخيـراً فـإن كل خطبـة سانتشـو المسـهبة تنتهـي إلـى اقناعهـم بـأن يتخلصـوا مـن فكرتهـم عـن احتـرام ملكيـة الآخريـن. ولسـوف نقـول كلمـة صغيـرة عـن هـذا فـي وقـت لاحـق.

وختامـاً، فلنسـجل هـذه العبـارة: "إن البشـر فـي الممارسـة لا يحترمـون شـيئاً علـى وجـه الدقـة"، بحيـث يتبيـن آخـر الأمـر أن الأمـر ليـس "علـى وجـه الدقـة" مسـألة "احتـرام".

العرض الثاني: الملكية الخاصة والدولة والحق

"لو أن، لو أن، لو أن!"

"لـو أن القديـس سانتشـو وضـع جانبـاً للحظـة واحـدة الأفـكار الشـائعة للحقوقييـن والسياسـيين عـن الملكيـة الخاصـة. وكذلـك المجادلـة التـي تثيرهـا، لـو أنـه نظـر مـرة واحـدة إلـى هـذه الملكيـة الخاصـة فـي وجودهـا التجريبـي، فـي ارتباطهـا بالقـوى المنتجـة للأفـراد، فـإن كل حكمـة سـليمان هـذه، التـي سـوف يسـلّينا الآن بهـا، كانـت سـتذهب هبـاء. لقـد كان يصعـب عليـه إذن، (بالرغـم مـن أنـه قـادر علـى كل شـيء[*] مثـل حاباكـوك (Habacuc)[١٨٧] ألا يتبيـن أن الملكيـة الخاصـة هـي شـكل للتعامـل ضـروري لمرحلـة معينـة مـن تطـور القـوى المنتجـة؛ شـكل للتعامـل لا يمكـن نقضـه ولا يمكـن الاسـتغناء عنـه فـي إنتـاج الحيـاة الماديـة المباشـرة مـا لـم يتـم خلـق القـوى المنتجـة التـي تصبـح الملكيـة الخاصـة بالنسـبة إليهـا قيـداً وعائقـاً. وفـي هـذه الحالـة

(*) Capable de tout، بالفرنسية في النص الأصلي.

لا يمكن أن يكون قد غاب عن القارئ أيضاً أنه كان "الأحرى" بسانتشو أن يعنى بالشروط المادية بدلاً من أن يحل العالم كله في جملة للأخلاق اللاهوتية كي يقيم بعدئذ ضدها جملة جديدة من الأخلاق الأنانية المزعومة. وما كان يمكن أن يغيب عنه إذن، أن المقصود أمور تختلف كل الاختلاف عن "الاحترام" أو عدم الاحترام. "لو أن، لو أن، لو أن!".

وعلى أي حال، فإن "لو أن" هذه ليست سوى صدى لجملة سانتشو المذكورة أعلاه؛ لأنه "لو أن" سانتشو فعل هذا كله، فمن الواضح أنه ما كان يمكن قط أن يكتب كتابه.

وما دام القديس سانتشو يتبنى، بسذاجته المألوفة، وهم السياسيين والحقوقيين والإيديولوجيين الآخرين الذي يستقيم في قلب جميع الشروط المادية رأساً على عقب، وفضلاً عن ذلك يضيف على الطريقة الألمانية شيئاً خاصاً به، فإن الملكية الخاصة بالنسبة إليه تتحول إلى ملكية الدولة، أو ملكية قائمة على الحق، يستطيع الآن أن يقوم بتجربة عليها كي يبرر معادلاته الواردة أعلاه. فلنر قبل كل شيء تحوّل الملكية الخاصة إلى ملكية الدولة.

"إن القوة وحدها تحسم مسألة الملكية"، (وعلى العكس من ذلك، فالملكية قد حسمت حتى الآن مسألة القوة)، "وما دامت الدولة وحدها هي الجبارة - من دون أي اعتبار لما إذا كانت دولة البورجوازيين أو دولة الصعاليك" ("رابطة" شترنر) "أو مجرد دولة البشر - فهي المالك الوحيد أيضاً" (ص ٣٣٣).

جنباً إلى جنب مع "دولة البورجوازيين" الألمانية التي هي حقيقة واقعة، تمثل مرة أخرى هنا، الرؤى الوهمية التي ابتدعها سانتشو وباور على قدم المساواة، بينما لا يرد الذكر في أي مكان لأشكال الدولة الهامة تاريخياً. فقبل كل شيء يحوّل شترنر الدولة إلى شخص، إلى "الجبار". وإن حقيقة أن الطبقة الحاكمة تشكل هيمنتها الجماعية في السلطة العامة، في الدولة، يفسرها سانتشو بصورة خاطئة على طريقة المالكين الصغار الألمان، فيجعل من "الدولة" قوة ثالثة في مواجهة هذه الطبقة السائدة تمتص في مواجهة هذه الطبقة كل سلطان في ذاتها. وإنه لينتقل الآن إلى تأكيد رأيه هذا بواسطة مجموعة من الأمثلة.

لما كانت الملكية تحت حكم البورجوازية، كما في جميع الحقب، مرتبطة بشروط معينة، اقتصادية في المكان الأول، تتوقف على درجة تطور القوى المنتجة والتعامل - هي

شـروط تكتسـب بصـورة حتميـة تعبيـراً قانونيـاً وسياسـياً - فـإن القديـس سانتشـو يعتقـد فـي بسـاطته أن:

"الدولـة تربـط حيـازة الملكيـة" "ذلـك أن تلـك هـي رغبتهـا"[*] "ببعـض الشـروط، بالضبـط كمـا تفعـل بـكل شـيء آخـر، الـزواج مثـلاً". (ص ٣٣٥).

لمـا كان البورجوازيـون لا يسـمحون للدولـة بالتدخـل فـي مصالحهـم الخاصـة ولا يمنحونهـا مـن السـلطة إلا القـدر الضـروري مـن أجـل سـلامتهم الخاصـة والمحافظـة علـى التنافـس، ولمـا كان البورجوازيـون عامـة لا يتصرفـون كمواطنيـن إلا ضمـن الحـدود التـي تتطلبهـا مصالحهـم الخاصـة، فـإن جـاك المغفـل يعتقـد أنهـم "لا شـيء" فـي نظـر الدولـة.

"ليسـت الدولـة معنيـة إلا بثروتهـا الخاصـة؛ أمـا إذا كان زيـد ثريـاً وعمـرو فقيـراً، فتلـك مسـألة لا تعنيهـا... فكلاهمـا لا شـيء فـي نظرهـا" (ص ٣٣٤).

وفي الصفحة ٣٤٥، يشتق الحكمة نفسها من حقيقة أن التنافس مجاز في الدولة.

وإذا كانـت إدارة شـركة للخطـوط الحديديـة لا تعنـى بمسـاهميها إلا بقـدر مـا يدفعـون أقسـاطهم ويقتسـمون حصصهـم مـن الأربـاح، فـإن صاحبنـا معلـم المدرسـة البرلينـي يسـتنتج بـكل سـذاجة أن المسـاهمين ليسـوا "شـيئاً فـي نظـر الإدارة بالضبـط كمـا أننـا جميعـاً خطـاة أمـام وجـه اللـه". فعنـد سانتشـو، إن عجـز الدولـة حيـال نشـاطات أصحـاب الملكيـة الخاصـة برهـان علـى عجـز أصحـاب الملكيـة الخاصـة حيـال الدولـة وعجـزه الخـاص حيـال الدولـة وأصحـاب الملكيـة الخاصـة علـى حـد سـواء.

وفيمـا عـدا ذلـك، فمنـذ نظـم البورجوازيـون الدفـاع عـن ملكيتهـم الخاصـة فـي شـكل الدولـة، ولـم تعـد "الأنـا" تسـتطيع بالتالـي أن تنتـزع "مـن هـذا الصناعـي أو ذاك" مصنعـه إلا وفـق شـروط البورجوازيـة، أي فـي شـروط التنافـس، فـإن جـاك المغفـل يعتقـد أن:

"الدولـة تحتفـظ بالمصنـع علـى أنـه ملكيـة، والصناعـي لا يحتفـظ بـه إلا علـى أنـه التـزام، بصفـة حيـازة" (ص ٣٤٧).

(*) car tel est son bon plaisir، بالفرنسية في النص الأصلي.

وبالطريقـة ذاتهـا، فـإن الكلـب الـذي يحـرس داري، "يحتفـظ" بالـدار "علـى أنهـا ملكيـة"، ولا تكـون لـي إلا "علـى أنهـا التـزام، بصفـة حيـازة" مـن جانـب الكلـب.

وبمـا أن الشـروط الماديـة الخفيـة للملكيـة الخاصـة لا بـدَّ فـي الغالـب أن تدخـل فـي تناقـض مـع الوهـم الحقوقـي عـن الملكيـة الخاصـة - كمـا يتبيـن علـى سـبيل المثـال ـ فـي اغتصابـات الملكيـة - فـإن جـاك المغفل يسـتنتج إذن، أن:

"هـذا يشـهد بـكل وضـوح علـى هـذا المبـدأ المقنـع عـادة، ألا وهـو أن الدولـة وحدهـا صاحبـة الملكيـة، بينمـا الفـرد صاحـب إقطـاع فحسـب". (ص ٣٣٥).

إن كل مـا "يُشـهد عليـه بـكل وضـوح" هنـا هـو أن واقـع الملكيـة الدنيـوي يختفـي عـن عينـي صاحبنـا البورجـوازي الفاضـل خلـف سـتارة "المقـدس"، وإنـه لا بـدّ لـه بعـد أن يسـتعير "سـلماً سـماوياً" مـن الصيـن كيمـا "يتسـلق" إلـى مرقـاة الثقافـة (échelon de la culture) التـي بلغهـا حتـى معلمـي المـدارس فـي البلـدان المتحضـرة. وحيـن يجعـل سانتشـو هنـا مـن التناقضـات اللاصقـة بوجـود الملكيـة الخاصـة إنـكاراً لهـذه الملكيـة الخاصـة، فإنـه يكـرر بـكل بسـاطة العمليـة التـي قـام بهـا، كمـا رأينـا أعـلاه، علـى التناقضـات ضمـن العائلـة البورجوازيـة.

ولأن البورجوازييـن، وعلـى العمـوم جميـع أعضـاء المجتمـع البورجـوازي، ملزمـون بـأن يشـكلوا أنفسـهم في"نحـن"، فـي شـخص معنـوي، فـي الدولـة، كيمـا يضمنـوا مصالحهـم وينتدبـوا، ولـو مـن جـراء تقسـيم العمـل فحسـب، السـلطة الجماعيـة المكونـة علـى هـذا الغـرار إلـى أشـخاص قلائـل، فـإن جـاك المغفـل يتوهـم أن:

"كل واحـد لا ينتفـع بالملكيـة إلا بقـدر مـا يحمـل ضمـن ذاتـه أنـا الدولـة، أو يظـل عضـواً مخلصـاً فـي المجتمـع... وإن ذلـك الـذي هـو أنـا دولـة، أي مواطـن صالـح أو رعيـة صالحـة، يسـتمتع بإقطاعـه بصفتـه هـذه بـكل طمأنينـة، وليـس باعتبـاره هـذه الأنـا الخاصـة"، (ص ٣٣٤، ٣٣٥).

ومـن وجهـة النظـر هـذه، لا يملـك كل واحـد سـهماً فـي سـكة الحديـد إلا بقـدر مـا "يحمـل ضمـن ذاتـه" "أنـا" الإدارة: وبنتيجـة ذلـك، فـإن المـرء لا يسـتطيع أن يملـك سـهماً فـي سـكة الحديـد إلا بصفتـه قديساً.

ولما أقنع نفسه بهذه الطريقة بهوية الملكية الخاصة وملكية الدولة، فإن في وسع القديس سانتشو أن يستطرد:

"أما إن الدولة لا تنتزع اعتباطاً من الفرد ما قد حصل عليه من الدولة نفسها، فهذا يعني فقط أن الدولة لا تسرق نفسها"، (ص ٣٣٥).

أما إن القديس سانتشو لا يستولي اعتباطاً على ملكية الآخرين، فهذا يعني أن القديس سانتشو لا يسلب نفسه، لأنه في الحقيقة "يعتبر" كل ملكية على أنها خاصته.

ولا يستطيع المرء أن يطلب منا أن نواصل معالجة بقية أوهام القديس سانتشو عن الدولة والملكية: إن الدولة "تغري" الأفراد و"تكافئهم" بالملكية، وقد اخترعت بدافع مكر خاص الضرائب المرتفعة كيما تجلب الدمار على البورجوازيين الذين لا يثبتون إخلاصهم، الخ، الخ. وعلى العموم، فإننا لن نتوقف أكثر من ذلك عند فكرة المالكين الصغار عن جبروت الدولة، وهي فكرة كانت شائعة من قبل بين الحقوقيين الألمان القدماء وهي تبسط هنا في شكل تأكيدات بليغة.

وأخيراً، فإن القديس سانتشو يحاول كذلك أن يؤكد ما برهن عليه بصورة مفصلة من هوية الملكية الخاصة وملكية الدولة بواسطة ترادف لغوي؛ ومهما يكن من أمر، فتلك فرصة له كي ينهال بالضربات القوية على كلا ردفيه(*):

"ليست ملكيتي الخاصة إلا ما تتخلى الدولة لي عنه مما تملك، بحرمانها أعضاء آخرين في الدولة؛ إنها ملكية الدولة". (ص ٣٣٩).

وتشاء المصادفة أن يكون العكس هو الصحيح. فالملكية الخاصة في روما، التي لا يمكن لهذه الحيلة اللغوية أن تنسب لغيرها، قد كانت في تناقض مباشر مع ملكية الدولة. وصحيح أن الدولة منحت العاميين ملكية خاصة، وهي حين فعلت ذلك لم تحرم "الآخرين" على أي حال من ملكيتهم الخاصة، بل حرمت هؤلاء العاميين أنفسهم من ملكية الدولة الخاصة بهم (Ager Publicus)(**) ومن حقوقهم السياسية، ولهذا السبب بالضبط

(*) En Ambas Posaderas، بالإسبانية في النص الأصلي.

(**) الملكية العامة(Domaine public) .

جـرت تسـميتهم، المسـلوبين، هـم مـن دون "أعضـاء الدولـة الآخريـن" الوهمييـن الذيـن يحلـم القديـس سانتشـو بهـم. وإن جـاك المغفـل ليفقـد اعتبـاره فـي جميـع البلـدان واللغـات والحقـب حالمـا يباشـر الحديـث عـن الوقائـع الإيجابيـة التـي لا يسـتطيع "المقـدس" أن يملـك عنهـا أيـة معرفـة قبْليـة.

وإن اليـأس لرؤيـة الدولـة تبتلـع كل ملكيـة يـرد سانتشـوالقهقرى إلـى وعيـه الخـاص العميـق "الحاقـد"، حيـث يدهـش حيـن يكتشـف أنـه رجـل أدب. وإنـه ليعـرب عـن دهشـته هـذه بالكلمـات المرموقـة التاليـة:

"فـي مواجهـة الدولـة، أشـعر بصـورة أوضـح مـن أي وقـت آخـر، أننـي لا أزال احتفـظ بسـلطة واحـدة عظمـى، السـلطة علـى نفسـي".

وفيما بعد، يشرح هذا كما يلي:

"إن أفكاري تشكل ملكية حقيقية أستطيع أن أتاجر بها". (ص ٣٣٩).

وهكـذا فـإن شـترنر "الصعلـوك"، "الإنسـان الـذي لا يملـك إلا الثـروة المثاليـة الصرفـة"، يتوصـل إلـى القـرار اليائـس بالمتاجـرة بحليـب أفـكاره الفاسـد والحامـض[١٨٨]. لكـن، مـا هـو المكـر الـذي سيسـتخدمه إذا مـا أعلنـت الدولـة أن أفـكاره محرّمـة؟ اصغـوا:

"إننـي أتخلـى عنهـا" (وممـا لا ريـب فيـه أن فـي هـذا القـرار الشـيء الكثيـر مـن الحكمـة) "وأقايضهـا بأفـكار أخـرى" (إذا كان ثمـة امـرؤ هـو رجـل أعمـال فاشـل بحيـث يقبـل بهـذا السـند الفكـري) "تصبـح إذن، ملكيتـي الجديـدة، الملكيـة المكتسـبة". (ص ٣٣٩).

إن بورجوازينـا الفاضـل لـن يهـدأ لـه بـال حتـى يسـجل لـه بالأسـود والأبيـض أنـه اكتسـب ملكيتـه الخاصـة بطريقـة شـريفة. وإن المـرء ليـرى عـزاء البورجـوازي البرلينـي حيـال جميـع كوارثـه السياسـية ومحنـه البوليسـية: "إن الأفـكار غيـر خاضعـة للضريبـة".

إن تحويـل الملكيـة الخاصـة إلـى ملكيـة الدولـة يرتـد فـي آخـر تحليـل إلـى فكـرة أن البورجـوازي لا يملـك إلا بوصفـه نموذجـاً للنـوع البورجـوازي الـذي تسـمى خلاصتـه الدولـة والـذي يمنـح الأفـراد حقـوق الملكيـة. إن الأشـياء تقلـب هنـا أيضـاً رأسـاً علـى عقـب. ففـي الطبقـة البورجوازيـة، كمـا فـي أيـة طبقـة أخـرى، نجـد أن الشـروط الشـخصية وحدهـا هـي التـي أصبحـت

الشـروط المشـتركة والعامـة التـي يعيـش فـي ظلهـا أعضـاء الطبقـة الفـرادى ويملكـون. وإذا كانـت أوهـام فلسـفية مـن هـذا النـوع قـد أمكـن أن تكـون مـن قبـل شـائعة فـي ألمانيـا، فقـد باتـت فـي الوقـت الحاضـر مضحكـة كليـاً، طالمـا أن التجـارة العالميـة أثبتـت بصـورة كافيـة أن الربـح البورجـوازي مسـتقل تمامـاً عـن السياسـة، لكـن السياسـة مـن جهـة أخـرى، مرهونـة كليـاً بالربـح البورجـوازي. ومنـذ القـرن الثامـن عشـر، كانـت السياسـة رهنـاً بالتجـارة حتـى درجـة كبيـرة بحيـث أنـه حيـن أرادت الحكومـة الفرنسـية مثـلاً أن تصـدر قرضـاً، فقـد طالبـت الحكومـة الهولنديـة بـأن يقـدم فـرد خـاص ضمانـة مـن أجـل الدولـة.

أمـا إن "تفاهتـي" أو "إملاقـي" "تحقيـق قيمـة" أو "وجـود" الدولـة (ص ٣٣٦)، فتلـك واحـدة مـن المعـادلات الشـترنرية الواحـدة والألـف التـي لا نذكرهـا هنـا إلا لأنهـا توفـر لنـا فرصـة الاسـتماع إلـى صيـغ جديـدة عـن الإمـلاق.

"إن الإمـلاق تفاهتـي، ظاهـرة عجـزي عـن تحقيـق قيمتـي. ومـن هنـا فـإن الدولـة والإمـلاق همـا الشـيء الواحـد نفسـه... إن الدولـة تسـعى أبـداً إلـى تحصيـل الربـح منـي، أي اسـتغلالي، وسـلبي، والانتفـاع بـي، حتـى إذا كان الانتفـاع يسـتقيم بـكل بسـاطة فـي توفيـر الذريـة(*) (بروليتاريـا) مـن قبلـي. إنهـا تريدنـي أن أكـون صنيعتهـا" (ص ٣٣٦).

ففيمـا عـدا ذلـك اليقيـن الـذي يتبيـن فيـه هنـا أنـه لا يتوقـف عليـه البتـة أن يحقـق قيمتـه، هـو الـذي يسـتطيع فـي كل مـكان وفـي كل حيـن أن يؤكـد فرديتـه، وفيمـا عـدا أن الماهيـة والمظهـر منفصـلان بصـورة جذريـة هنـا مـرة أخـرى، بالرغـم مـن جميـع البيانـات السـابقة، فإننـا نحصـل مـن جديـد علـى نظـرة المالـك الصغيـر الآنفـة الذكـر لصاحبنـا المغفـل، القائلـة إن "الدولـة" تريـد اسـتغلاله. وإن النقطـة الهامـة الوحيـدة الأخـرى بالنسـبة إلينـا هـي الاشـتقاق اللغـوي الرومانـي القديـم لكلمـة "بروليتاريـا"، التـي يدخلهـا هنـا خلسـة وبـكل سـذاجة إلـى الدولـة الحديثـة. أحقـاً يجهـل القديـس سانتشـو أنـه حيثمـا تطـورت الدولـة الحديثـة، فقـد كانـت هـذه "الذريـة" التـي توفرهـا البروليتاريـا أبغـض فعالياتهـا بالضبـط إلـى الدولـة، يعنـي إلـى البورجوازييـن الرسـميين؟ لعلـه يجـب عليـه، فـي مصلحتـه الخاصـة، أن يترجـم مالتـوس والوزيـر دوشـاتيل إلـى الألمانيـة؟

(*) Proles، في الأصل الألماني.

لقد "أحس" القديس سانتشو من قبل، بوصفه مالكا" صغيراً ألمانياً، "بصورة أوضح منها في أي وقت آخر"، إنه "لا يزال يحتفظ في مواجهة الدولة بسلطة واحدة عظمى"، ألا وهي سلطة خلق الأفكار لنفسه بصورة تتحدى الدولة. ولو كان بروليتارياً إنكليزياً لأحس أنه "لا يزال يحتفظ بالسلطة" على إنتاج الأولاد بالرغم من الدولة.

وهذه مناحة أخرى ضد الدولة! نظرية جديدة عن الإملاق! فقبل كل شيء هو "يخلق"، بوصفه "أنا"، "الطحين والكتان والحديد والفحم"، وبذلك ينقض منذ البداية تقسيم العمل، ومن بعد يباشر "في الشكوى" "مطولا" من أن عمله لا تدفع أجوره وفق قيمته الفعلية، وقبل كل شيء فإنه يدخل في نزاع مع ذلك الذي يدفع له أجوره. ومن ثم تقوم الدولة بينهما في دور "المصالحة".

"إذا كان السعر الذي تدفعه" (أي الدولة) "لقاء سلعتي وعملي لا يرضيني، وإذا سعيت أنا نفسي بدلاً من ذلك إلى تحديد قيمة منتجاتي، أي حاولت أن يكون مربحاً لي، فإنني أدخل في نزاع قبل كل شيء" (يا لها من "قبل كل شيء" عظيمة! - ليس مع الدولة، لكن) "مع الذين يبتاعون السلع"، (ص ٣٣٧).

وإذا أراد الآن أن يدخل في "علاقة مباشرة" مع هؤلاء الشارين، أي "أن يمسك بهم من حلوقهم"، فإن الدولة "تتدخل" إذن، و"تفصل الإنسان عن الإنسان" (بالرغم من أن الأمر لا يتعلق "بالإنسان"، بل بالعامل وصاحب العمل، أو بالنسبة إليه، هو الذي يخلط كل شيء، ببائع السلع وشاريها)؛ والأكثر من ذلك أن الدولة تفعل هذا بقصد خبيث هو "التوسط بينهما على أنها روح" (الروح القدس بكل وضوح).

"إن العمال الذين يطالبون بأجور أعلى يعاملون كمجرمين حالما يحاولون انتزاع هذه الزيادة" (ص ٣٣٧).

إن لدينا هنا مرة أخرى، باقة من السخافات. لم تكن ثمة حاجة بالسيد سنيورقط إلى كتابة رسائله عن الأجور [Lettres sur les salaires][١٨٩] لو أنه دخل قبل ذلك في "علاقة مباشرة" مع شترنر، وعلى الأخص باعتبار أن الدولة في هذه الحال ما كانت لتقدم على "فصل الإنسان عن الإنسان". إن سانتشو يكلف الدولة هنا بوظيفة ثلاثية. فهي تعمل أولاً

بصفتها "مصالحاً"، ثم بصفتها محدداً للأسعار، وأخيراً بصفتها "روحاً"، بصفتها المقدس. أما إن القديس سانتشو، بعدما وحّد بصورة مجيدة بين الملكية الخاصة وملكية الدولة، فإنه يجعل من الدولة أيضاً السلطة التي تحدد الأسعار، فتلك حقيقة تشهد على حد سواء على تماسك أفكاره وجهله بشؤون العالم. أما إن "العمال الذين يحاولون انتزاع أجور أعلى" لا يعاملون في الحال على أنهم "مجرمون" في إنكلترا وأميركا وبلجيكا، بل على العكس من ذلك ينتهون على الأغلب إلى انتزاع هذه الأجور فعلياً، فتلك حقيقة يجهلها قديسنا أيضاً، وهي تقضي قضاء مبرماً على كل أسطورته عن الأجور. وأما إن العمال لن يكسبوا شيئاً من "الإمساك" بمستخدميهم "من حلوقهم"، حتى إذا لم "تتوسط" الدولة بين الطرفين، وعلى أية حال سوف تكون مكاسبهم أقل كثيراً منها بواسطة الاتحاد والتوقف عن العمل، على الأقل بقدر ما يظلون هم عمالاً ويظل خصومهم رأسماليين - فتلك أيضاً حقيقة بيّنة حتى في برلين. وأما إن المجتمع البورجوازي، القائم على أساس التنافس، ودولته البورجوازية، لا يستطيعان، من جراء قاعدتهما المادية بالذات، أن يسمحا بأي صراع بين المواطنين باستثناء صراع التنافس، ولا بد لهما أن يتدخلا ليس بوصفهما "روحاً"، بل بالحراب إذا أمسك الناس "ببعضهم بعضاً من حلوقهم"، فتلك حقيقة لا حاجة بنا إلى البرهان عليها بعد الآن.

وفيما عدا ذلك، فحين يتوهم شترنر أن الدولة وحدها تثري حين يثري الأفراد على أساس الملكية الخاصة البورجوازية، أو أن الملكية الخاصة لم تكن قط إلا ملكية دولة، فإنه يقلب من جديد الحقيقة التاريخية رأساً على عقب. فمع تطور الملكية البورجوازية وتراكمها، أي مع تطور التجارة والصناعة، يثري الأفراد بلا انقطاع، بينما تستدين الدولة أكثر فأكثر. ولقد شوهد هذا المظهر من قبل في الجمهوريات التجارية الإيطالية الأولى، كما تجلت كظاهرة فيما بعد، في القرن الأخير، حتى درجة ملحوظة في هولندا، حيث لفت الانتباه إليها المضارب بالسندات بنتو منذ عام ١٧٥٠، وهي تتجدد في إنكلترا. إنه لمن الواضح إذن، أنه حالما تكدس البورجوازية المال، فلا بدَّ للدولة أن تتسول منها، وتنتهي لأن تكون مأجورة لها بالمعنى الحرفي للكلمة. وإن هذا ليجري في مرحلة تكون البورجوازية فيما تجابه بعد طبقة أخرى، وبنتيجة ذلك تستطيع الدولة أن تحتفظ ببعض مظاهر الاستقلال

بالنسبة إلى الطبقتين كلتيهما. وحتى بعد أن تكون الدولة مأجورة على هذا الغرار، فإنها تظل في حاجة إلى المال، وبالتالي تستمر في حالة تبعية للبورجوازيين، وإن يكن تحت تصرفها، حين تتطلب مصالح البورجوازية ذلك، مصادر أعظم مما لدى الدول الأقل تطوراً، وبالتالي الأقل إرهاقاً تحت وطأة الديون. وعلى أي حال، فإنه حتى الدول الأقل تطوراً في أوروبا، دول الحلف المقدس(١٩٠)، تقترب بصورة حتمية من هذا المصير، ولا بدَّ أن تصبح مأجورة للبورجوازية؛ وعندئذ سوف يكون في مقدور شترنر أن يعزيها بهوية الملكية الخاصة وملكية الدولة، وبصورة خاصة عاهله الخاص الذي يحاول عبثاً أن يؤجل ساعة بيع سلطة الدولة إلى "البورجوازيين" "الغاضبين".

نأتي الآن إلى العلاقة بين الملكية الخاصة والحق، حيث لا بدَّ لنا أن نستمع إلى اللغو ذاته ولكن في شكل آخر. إن هوية الملكية الخاصة وملكية الدولة تمثل في مظهر صورة جديدة. فالاعتراف السياسي بالملكية الخاصة في القانون يعلن على أنه أساس الملكية الخاصة.

"تحيا الملكية الخاصة بنعمة الحق، فالحق ضمانتها الوحيدة - ذلك أن حيازة شيء ما ليس هو ملكيتي بعد - إنها لا تصبح لي إلا بعد موافقة الحق؛ ليست الملكية الخاصة حقيقة، بل وهماً، فكرة. تلك هي الملكية بالحق، الملكية الحقة، الملكية المضمونة؛ وليست هي لي بفضلي أنا، بل بفضل الحق". (ص ٣٣٢).

إن اللغو السابق عن ملكية الدولة يصبح في هذه الفقرة أبعث على الضحك أيضاً. ولذا فسوف ننتقل في الحال إلى استغلال سانتشو لحق الاستعمال وسؤ الاستعمال(*) (Droit d'user et abuser) الوهمي.

علمنا في الصفحة ٣٣٢، إلى جانب الفقرة الرائعة أعلاه، أن الملكية:

"هي سلطان غير محدود على شيء أستطيع التصرف به كما يحلو لي". لكن "السلطان" "ليس بالشيء الموجود في ذاته، بل لا يقوم إلا في الأنا الكلية القوة، فيَّ، أنا الذي أملك السلطان". (ص ٣٦٦). وهكذا ليست الملكية "شيئاً"، "فما هو لي ليس هذه الشجرة، بل

(*) Jus utendi et abutendi، باللاتينية في النص الأصلي.

سلطاني عليها، قدرتي على التصرف بها بكل حرية". (ص ٣٦٦). إنه لا يعرف سوى"أشياء" أو "أناوات". إن هذا "السلطان" المنفصل عن "الأنا"، "المؤقنم" (Hypostasié)، المحول إلى "شبح"، هو "الحق". "إن هذا السلطان المؤبد"، (مبحث في حق الوراثة) "لا يتلاشى حتى بموتي، بل ينقل، أو يورث. إن الأشياء ليست إذن، ملكيتي بصورة فعلية، بل ملكية الحق. وعلى أي حال، فليس هذا سوى وهم، لأن سلطان الفرد لا يتحقق دائماً، لا يكتسب قوة الحق، إلا لأن أفراداً آخرين يضمون سلطانهم إلى سلطانه. وإن الوهم يستقيم في اعتقادهم بأنهم لا يستطيعون بعد الآن استرجاع سلطانهم الخاص". (ص ٣٦٦، ٣٦٧). "إن الكلب الذي يرى عظمة في فم كلب آخر لا يتنحى جانباً إلا إذا أحس أنه ضعيف جداً. أما الإنسان فيحترم حق الإنسان الآخر في عظمته... وهنا، كما في كل مكان آخر، تطلق صفة "الإنساني" على مشاهدة الروحاني في كل شيء، الحق في هذه الحال: أي حين يجعل كل شيء شبحاً ويعامل على أنه شبح... إنه لأمر إنساني أن يعتبر الفرد ليس على أنه فردي، بل على أنه عام". (ص ٣٦٨، ٣٦٩).

وهكذا فإن الشر بكامله ينشأ مرة أخرى من إيمان الأفراد بمفهوم الحق، الذي ينبغي لهم أن ينزعوه من رؤوسهم. إن القديس سانتشو لا يعرف سوى "الأشياء" و"الأناوات"، وأما فيما يتعلق بأي أمر لا يدخل تحت هذين العنوانين، فيما يتعلق بجميع العلاقات الفعلية، فإنه لا يعرف عنها سوى مفاهيم مجردة تتحول أيضاً بالنسبة إليه إلى "أشباح". "ومن جهة أخرى"، فإنه يشرق عليه أحياناً أن هذا كله "مجرد وهم"، وأن "سلطان الفرد" يتوقف حتى درجة فائقة على ما إذا كان الآخرون يضمون قوتهم إلى قوته. لكن الأشياء جميعاً تنتهي في آخر تحليل إلى "وهم" الأفراد الذين "يعتقدون أنهم لا يستطيعون بعد الآن استرجاع سلطانهم الخاص". مرة أخرى لا تخص السكك الحديدية "فعلياً" المساهمين، بل تخص الأنظمة. ويقدم سانتشو في الحال حق الوراثة على أنه مثال بارز. وهو لا يفسره انطلاقاً من ضرورة التراكم ولا من العائلة التي كانت موجودة قبل هذا الحق، بل انطلاقاً من الوهم الحقوقي لامتداد القوة ما وراء الموت. وعلى أي حال، فكلما انتقل المجتمع الإقطاعي أكثر فأكثر إلى المجتمع البورجوازي، ازداد التخلي عن هذا الوهم الحقوقي بالذات من قبل

التشـريع فـي جميـع البلـدان. (أنظـر مثـلاً: مدونـة نابوليـون[*]. ولا حاجـة لأن نبيـن هنـا مفصـلًا أن السـلطة الأبويـة المطلقـة والبكـورة - سـواء البكـورة الإقطاعيـة المترتبـة علـى الشـروط الطبيعيـة أم الشـكل اللاحـق للبكـورة - قـد قامتـا علـى شـروط ماديـة محـددة جـداً. ويصـادف الأمـر ذاتـه بيـن الشـعوب القديمـة فـي حقبـة تفـكك الجماعـة العامـة بنتيجـة تطـور الحيـاة الخاصـة (وأفضـل برهـان علـى ذلـك تاريـخ حـق الوراثـة الرومانـي). وعلـى العمـوم، فإنـه لـم يكـن فـي مقـدور سانتشـو أن يختـار مثـالاً أشـد بؤسـاً مـن حـق الوراثـة، الـذي يبيـن بأوضـح طريقـة ممكنـة تبعيـة الحـق لعلاقـات الإنتـاج، قـارن علـى سـبيل المثـال: حـق الوراثـة الرومانـي والجرمانـي. ومـن المؤكـد أنـه ليـس ثمـة كلـب صنـع قـط فوسـفوراً أو كلسـاً مـن عظمـة، كمـا أنـه لـم "يحشـر فـي رأسـه" قـط فـي أي شـيء عـن "حقـه" فـي عظمـة؛ وكذلـك فـإن القديـس سانتشـو لـم "يدخـل فـي رأسـه" قـط أن يحلـل فيمـا إذا كان الحـق فـي عظمـة، هـذا الحـق الـذي يدعيـه النـاس لأنفسـهم ولا يدعيـه الـكلاب، ليـس مرتبطـاً بالطريقـة التـي يسـتخدم النـاس لا الـكلاب بهـا هـذه العظمـة فـي الإنتـاج. وعلـى العمـوم، فـإن لدينا هنـا مثـالاً نموذجياً علـى كل أسـلوب سانتشـو فـي النقـد وإيمانـه الـذي لا يتزعـزع فـي الأوهـام الشـائعة. إن علاقـات الإنتاج السـابقة القائمـة بيـن الأفـراد تتظاهـر كذلـك بالضـرورة فـي شـكل علاقـات سياسـية وحقوقيـة. (أنظـر أعـلاه). ولا يمكـن لهـذه العلاقـات ضمـن إطـار تقسـيم العمـل إلا أن تكتسـب وجـوداً مسـتقلاً فـي مواجهـة الأفـراد. إن جميـع العلاقـات يمكـن الإعـراب عنهـا فـي اللغـة فـي شـكل المفاهيـم فحسـب. أمـا إن هـذه المفاهيـم والأفـكار العامـة تؤخـذ بعيـن الاعتبـار علـى أنهـا قـوى سـرية، فتلـك هـي النتيجـة الضروريـة لحقيقـة أن العلاقـات الفعليـة، والتـي هـي التعبيـر عنهـا، قـد اكتسـبت وجـوداً مسـتقلاً. وإلـى جانـب هـذا المعنـى الـذي تتخـذه فـي الوجـدان اليومـي، فـإن هـذه الأفـكار العامـة تعـد وتعطـى معنـى خصوصيـاً مـن قبـل السياسـيين والحقوقييـن الذيـن يجعلهـم تقسـيم العمـل فـي تبعيـة لعبـادة هـذه المفاهيـم، والذيـن يـرون فيهـا، لا فـي علاقـات الإنتـاج، الأسـاس الحقيقـي لجميـع علاقـات الملكيـة الفعليـة. ويتبنـى القديـس سانتشـو هـذا الوهـم مغمـض العينيـن، ويتمكـن بذلـك أن يجعـل مـن الملكيـة الحقوقيـة أسـاس الملكيـة الخاصـة، ومـن مفهـوم الحـق أسـاس الملكيـة الحقوقيـة؛ وإنـه ليسـتطيع بعـد

(*) Code Napoléon، بالفرنسية في النص الأصلي.

ذلـك أن يقصـر نقـده برمتـه علـى المنـاداة بـأن مفهـوم الحـق مجـرد مفهـوم، مجـرد شـبح. وتلـك هـي نهايـة الموضـوع بالنسـبة إلـى القديـس سانتشـو. وإنـه لفـي الإمـكان تذكيـره أيضـاً، فـي سـبيل راحتـه الذهنيـة، بـأن سـلوك كلبيـن عثـرا علـى عظمـة يعتبـر حقـاً فـي جميـع كتـب القانـون السـابقة: مـن المسـموح بـه رد القـوة بالقـوة(*)، هـذا مـا تقولـه خلاصـة القوانيـن[١٩١]؛ وإن هـذا الحـق قـد ثبتتـه الطبيعـة(**)، وهـو مـا يقصـد منـه حـق علمتـه الطبيعـة لجميـع الكائنـات الحيـة(***) (البشـر والـكلاب)؛ لكـن الـرد المنظـم للقـوة بالقـوة هـو "بالضبـط" الـذي أصبـح حقـاً فـي وقـت لاحـق.

إن القديـس سانتشـو، الـذي انطلـق الآن فـي طريقـه جيـداً، يبرهـن علـى سـعة اطلاعـه فـي حقـل تاريـخ الحـق بمنازعـة بـرودون علـى "عظمـة". فهـو يقـول:

"إن بـرودون يريـد أن "يضللنـا" بحيـث نعتقـد أن المجتمـع هـو الحائـز الأصلـي والمالـك الوحيـد بفعـل الحـق غيـر القابـل للتقـادم؛ وإن مـا يسـمى المالـك يصبـح مذنبـاً بجريمـة السـرقة بالنسـبة إلـى المجتمـع؛ فـإذا انتـزع مـن أي مالـك فعلـي ملكيتـه، فإنـه لا يسـرقه إذن، بـل لا يفعـل سـوى تأكيـد حقـه غيـر القابـل للتقـادم. تلـك هـي الأبعـاد التـي ينتهـي المـرء إليهـا عندمـا يجعـل مـن شـبح المجتمـع شـخصاً معنويـاً". (ص ٣٣٠، ٣٣١).

أمـا شـترنر فيريـد أن "يضللنـا بحيـث نعتقـد" (ص ٣٤٠، ٣٦٧، ٤٢٠، ومواضـع أخـرى) بأننـا، يعنـي المعدميـن، أهدينـا المالكيـن ملكيتهـم بدافـع الجهـل، أو الجبـن، أو طيبـة القلـب، الـخ، ويدعونـا لأن نسـترد هديتنـا. إن الفـرق بيـن هاتيـن المحاولتيـن للتضليـل هـو أن بـرودون يسـتند إلـى حقيقـة تاريخيـة، فـي حيـن لـم يفعـل القديـس سانتشـو أكثـر مـن أن "يحشـر فـي رأسـه" شـيئاً مـا كيمـا يعطـي الموضـوع "شـكلاً جديـداً". ذلـك أن الأبحـاث الأخيـرة فـي تاريـخ الحـق قـررت بالفعـل أن الملكيـة، سـواء فـي رومـا أم بيـن الشـعوب الجرمانيـة والسـلتية والسـلافية، تطـورت انطلاقـاً مـن الملكيـة الجماعيـة القبليـة، وإن الملكيـة الخاصـة الفعليـة تنهـض فـي كل مـكان بالاغتصـاب؛ ومـن الواضـح أن القديـس سانتشـو لـم يكـن يسـتطيع أن يسـتخلص ذلـك مـن

(*) Vim vi repellere licere، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) Idque jus natura comparatur، باللاتينية في النص الأصلي.

(***) Jus quod natura Omnia Animalia docuit، باللاتينية في النص الأصلي.

هـذا الحـدس العميـق وحـده، ألا وهـو إن مفهـوم الحـق مجـرد مفهـوم. ولقـد كان بـرودون علـى حـق تـام، فـي مواجهـة الحقوقييـن العقائدييـن، حيـن شـدد علـى هـذه الحقيقـة وكافحهـم بصـورة عامـة بواسـطة فرضياتهـم الخاصـة. "إن هـذا يبيـن إلـى أي مـدى يسـتطيع المـرء أن يمضـي مـع شـبح" مفهـوم الحـق بوصفـه مفهومـاً. ولا يمكـن مهاجمتـه بنـاء علـى صيغتـه الـواردة الذكـر أعـلاه إلا إذا دافـع عـن الشـكل الاجتماعـي الأكبـر والأقـل تطـوراً للملكيـة ضـد الملكيـة الخاصـة التـي تطـورت انطلاقـاً مـن هـذا النظـام الجماعـي البدائـي. ويلخـص سانتشـو نقـده لبـرودون فـي هـذا السـؤال الوقـح:

"لماذا هذا النداء العاطفي إلى الرحمة كما لو كنت مسلوباً بائساً؟" (ص ٤٢٠).

إن العاطفيـة، التـي لا نجـد لهـا علـى أي حـال أثـراً عنـد بـرودون، غيـر مسـموح بهـا إلا حيـال الماريتورنـات. وإن سانتشـو ليتخيـل حقـاً أنـه "فتـى" علـى مسـتوى ذلـك المؤمـن بالأطيـاف الـذي هـو بـرودون. إنـه يعتبـر أسـلوبه البيروقراطـي المفخـم ثوريـاً، هـذا الأسـلوب الـذي كان حتـى فريديريـك غويلـوم الرابـع يخجـل منـه. "طوبـى للمؤمنيـن".

ونعلم في الصفحة ٣٤٠:

"إن جميـع المحـاولات مـن أجـل سـن قوانيـن عقلانيـة عـن الملكيـة قـد نشـأت فـي خليـج للمحبـة وضاعـت فـي محيـط التنظيمـات الكئيـب".

وتتجاوب مع ذلك هذه الصيغة التي لا تقل جرأة:

"كان التعامل حتى الآن قائماً على المحبة، والمجاملة، والغيرية". (ص ٣٨٥).

إن القديـس سانتشـو يفاجـيء نفسـه هنـا بمفارقـة بـارزة عـن الحـق والتعامـل. وإذا تذكرنـا علـى أي حـال أنـه يفهـم مـن "المحبـة" حـب "الإنسـان"، أو بصـورة أعـم حـب شـيء موجـود فـي ذاتـه ولذاتـه، حـب عـام، وإنـه يـرى فـي العلاقـة بفـرد أو بشـيء الماهيـة، المقـدس، فـإن مظهـر التألـق هـذا يتبـدد إذن. وإن المنطوقـات الخطابيـة الـواردة الذكـر أعـلاه تنحـل إذن، إلـى التفاهـات القديمـة التـي أضجرتنـا عبـر "الكتـاب" برمتـه: إن الحـق والتعامـل، وهمـا أمـران لا يعـرف سانتشـو عنهمـا شـيئاً، لـم يكونـا حتـى الآن سـوى "المقـدس"؛ وعلـى أي حـال ففـي رأيـه أن "المفاهيـم

سـادت العالـم" وحدهـا حتـى أيامنـا الحاضـرة. وإن العلاقـة بالمقـدس، التـي تحمـل عـادة اسـم "الاحتـرام"، يمكـن أن توصـف أيضـاً فـي المناسـبات "بالمحبـة". (أنظـر: المنطـق).

وهـذا مثـال واحـد علـى الطريقـة التـي يحـوّل بهـا القديـس سانتشـو التشـريع إلـى علاقـة حـب والتجـارة إلـى علاقـة حـب:

"فـي مشـروع قانـون لإيرلنـدا اقترحـت الحكومـة منـح صفـة المنتخـب لأولئـك الذيـن يدفعـون ضريبـة ٥ جنيهـات للفقـراء. وبنتيجـة ذلـك فـإن ذلـك الـذي يقـدم الصدقـات يكتسـب حقوقـاً سياسـية، أو يصبـح فارسـاً فـي مـكان آخـر". (ص ٣٤٤).

ويجـب أن يلاحـظ هنـا قبـل كل شـيء أن "مشـروع القانـون" هـذا الـذي يمنـح "حقوقـاً سياسـية" لـم يكـن سـوى لائحـة بلديـة أو نقابيـة، أو بلغـة أقـرب إلـى فهـم سانتشـو "تنظيـم مدنـي" لـم يكـن يمنـح "حقوقـاً سياسـية"، بـل حقوقـاً بلديـة فقـط، حـق انتخـاب الموظفيـن المحلييـن. ثانيـاً، إن سانتشـو الـذي يترجـم ماكلـوخ لا بـد أن يعـرف علـى أحسـن وجـه معنـى "يخضـع لضريبـة رسـم الفقـراء بخمسـة جنيهـات"(*). ولا يعنـي هـذا أن "يدفـع ضريبـة ٥ جنيـات للفقـراء"، بـل يعنـي التسـجيل فـي لائحـة أولئـك الذيـن يدفعـون هـذه الضريبـة بوصفـه صاحـب دار إيجارهـا السـنوي خمسـة جنيـات. ولا يعـرف مغفلنـا البرلينـي أن رسـم الفقـراء فـي إنكلتـرا وإيرلنـدا ضريبـة محليـة تختلـف قيمتهـا حسـب المـدن والسـنين، بحيـث مـن المحـال كليـاً ربـط أي نـوع مـن الحـق بدفـع مبلـغ معيـن بصفـة هـذه الضريبـة. وأخيـراً، فـإن سانتشـو يحسـب أن رسـم الفقـراء الإنكليـزي والإيرلنـدي "صدقـة"، بينمـا هـو يقتصـر علـى توفيـر الاعتمـادات مـن أجـل حـرب هجوميـة علنيـة ومباشـرة تشـنها البورجوازيـة الحاكمـة ضـد البروليتاريـا. إنـه يغطـي نفقـة بيوتـات العمـل التـي هـي، كمـا هـو معـروف جيـداً، سـلاح إرهابـي مالتوسـي ضـد الإمـلاق. إننـا نـرى كيـف أن سانتشـو "ينشـأ فـي خليـج المحبـة ويضيـع فـي محيـط التنظيمـات الكئيـب"(**).

ولنلاحـظ بصـورة عابـرة أنـه لـم يكـن بـد للفلسـفة الألمانيـة، لأنهـا تتخـذ الوعـي وحـده منطلقـاً لهـا، أن تضيـع فـي الفلسـفة الأخلاقيـة، حيـث يثرثـر الأبطـال المختلفـون عـن الأخـلاق الحقيقيـة.

(*) To be assessed to the poor - rates at five pounds، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(**) إن عبارة Bestimmugen التي يستخدمها شترنر هنا تعني في وقت واحد "التنظيم".

إن فويرباخ يحب الإنسان إكراماً للإنسان، والقديس برونو يحبه لأنه "جدير" بذلك (ويغان، ص ١٣٧)، في حين أن القديس سانتشو يحب "كل الناس"، لأن ذلك يحلو له في ملء الوعي الأناني. ("الكتاب"، ص ٣٨٧).

لقد سبق أن رأينا أعلاه - في العرض الأول - كيف استبعد المالكون العقاريون الصغار أنفسهم بكل احترام من الملكية العقارية الكبيرة. إن هذا الاستبعاد الذاتي من ملكية الناس الآخرين، بدافع الاحترام، يوصف عامة بأنه العلاقة المميزة للملكية البورجوازية. وإن شترنر ليستطيع من هذه العلاقة المميزة أن يوضح لنفسه السبب في أنه:

"ضمن النظام البورجوازي، بالرغم من المبدأ الذي ينص على أن كل واحد يجب أن يكون مالكاً، لا يملك الكثيرون أي شيء عملياً". (ص ٣٤٨). "وإن السبب في ذلك هو أن الكثيرين يغتبطون بمجرد فكرة تملك أي شيء كان، حتى إذا كان هذا الشيء بعض الأسمال البالية". (ص ٣٤٩).

أما إن "الكثيرين" لا يملكون إلا "بعض الأسمال البالية" فهذا ما يعتبره شيليغا نتيجة طبيعية تماماً للذة التي يجنونها من ذلك.

ص ٣٤٣: "ألا يكون المرء إلا حائزاً بسيطاً؟ كلا، فحتى الآن لم يكن المرء حائزاً مطمئناً إلى حيازة قطعة من الأرض إلا بالسماح للآخرين أيضاً بحيازة قطعهم الخاصة؛ لكن جميع الأشياء تخصني الآن. أنا مالك كل الأشياء التي أحتاجها وأستطيع الاستيلاء عليها".

لقد جعل سانتشو من قَبل المالكين العقاريين الصغار يستبعدون أنفسهم باحترام من الملكية الكبيرة، وهو يفصل الآن المالكين الصغار عن بعضهم بعضاً. وإنه يستطيع الآن أن يمضي أبعد من ذلك، فيجعل الاحترام مسؤولاً عن استبعاد الملكية التجارية من الملكية العقارية، والملكية الصناعية من الملكية التجارية خاصة، الخ. وبذلك ينتهي إلى اقتصاد سياسي جديد كلياً قائم على المقدس. وعندئذ فإنه يكفيه أن ينتزع الاحترام من رأسه لينقض بضربة واحدة تقسيم العمل وبنية الملكية التي تنشأ عنه. ويعطي سانتشو مثالاً عن هذا الاقتصاد السياسي الجديد (في الصفحة ١٢٨ من "الكتاب") حيث يبتاع إبرة لا من

البقـال[*] بـل مـن الاحتـرام، وليـس بالمـال المدفـوع إلـى البقـال، بـل بالاحتـرام المقـدم إلـى الإبـرة. وعلـى أي حـال، فـإن هـذا الاسـتبعاد الذاتـي العقائـدي لـكل فـرد مـن ملكيـة الغيـر الـذي يتناولـه سانتشـو هـو وهـم حقوقـي صـرف. ففـي ظـل النظـام الحالـي للإنتـاج والتعامـل يكـذِّب كل شـخص هـذا الوهـم إذ يوجـه جميـع جهـوده بالضبـط إلـى اسـتبعاد جميـع الآخريـن مـن الملكيـة التـي تخصهـم بصـورة مؤقتـة. أمـا كيـف تنهـض المسـألة فيمـا يتعلـق "بملكيـة جميـع الأشـياء" الخاصـة بشـترنر، فذلـك مـا يتضـح بمـا فيـه الكفايـة مـن العبـارة الإضافيـة: "التـي أحتاجهـا وأسـتطيع الاسـتيلاء عليهـا". وإنـه ليوضـح ذلـك بمزيـد مـن التفصيـل (فـي الصفحـة ٣٥٣):

"إذا قلـت: إن العالـم يخصنـي، فليسـت تلـك بعـد سـوى صيغـة جوفـاء لا تتخـذ معنـى إلا بقـدر مـا لا أنطـوي علـى أي احتـرام لملكيـة الغيـر"؛

وبالتالي بقدر ما يشكل لا احترام ملكية الغير ملكيته.

إن مـا يضايـق سانتشـو بشـأن الملكيـة الخاصـة العزيـزة عليـه جـداً هـو بالضبـط كونهـا حصريـة، الأمـر الـذي مـن دونـه تكـون هـراء، حقيقـة أن هنـاك، إلـى جانبـه، مالكيـن خاصيـن آخريـن أيضـاً. ذلـك أن ملكيـة الغيـر الخاصـة شـيء مقـدس. وسـوف نـرى كيـف يتغلـب فـي "رابطتـه" علـى هـذا الوضـع المربـك. لسـوف نـرى أن ملكيتـه الأنانيـة، الملكيـة بالمعنـى فـوق العـادي، ليسـت شـيئاً سـوى الملكيـة العاديـة البورجوازيـة المتجليـة بفعـل وهمـه التكريسـي.

فلنختتـم بالحكمـة التاليـة لسـليمان: "إذا بلـغ البشـر مرحلـة يفقـدون عندهـا الاحتـرام للملكيـة، فـإن كل واحـد سـيكون مالـكاً إذن... وعندئـذ [فـي هـذا الميـدان أيضـاً سـوف تزيـد الرابطـات مـوارد الفـرد وتضمـن ملكيتـه المهـددة". (ص ٣٤٢)][**].

[العرض الثالث: في التنافس بالمعنى العادي وفوق العادي]

ذات صباح مضى المؤلف، في لباس فاخر، ليرى السيد الوزير ايشهورن:

"بمـا أن الأمـور لا تسـير بنجـاح مـع الصناعـي" (لأن وزيـر الماليـة رفـض أن يعطيـه الأرض والاعتمـادات مـن أجـل بنـاء مصنـع خـاص بـه، ووزيـر العـدل لـم يعطـه الإذن بانتـزاع المصنـع مـن

(*) Shopkeeper، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(**) إن أربع صفحات من المخطوطة مفقودة هنا.

الصناعـي - أنظـر أعـلاه بشـأن الملكيـة البورجوازيـة) "فإننـي سـوف أنافـس أسـتاذ القانـون هـذا؛ إن الرجـل أحمـق، وأنـا الـذي أعـرف مئـة مـرة أكثـر ممـا يعـرف سـوف أنتـزع منـه المسـتمعين إليـه".

ـ "لكن، يا صديقي، هل درست في جامعة وحصلت على درجة(docteur)؟"

ـ "كلا، ولكـن مـا شـأن ذلـك. إننـي أملـك سـعة المعـارف الضروريـة مـن أجـل هـذا التعليـم". "إننـي آسـف، لكـن التنافـس ليـس حـراً فـي هـذه المسـألة. أنـا ليـس عنـدي أي شـيء ضـدك شـخصياً، لكـن الشـيء الأساسـي مفقـود - شـهادة دكتـوراه - وأنـا؛ الدولـة أطالـب بهـذه الشـهادة" - وتنهـد كاتـب هـذه السـطور: "وهكـذا، فذلـك هـو التنافـس الحـر. فـلا بـد للدولـة، سـيدتي ومعلمتـي، أن تمنحنـي قبـلاً القـدرة علـى التنافـس". وعندئـذ رجـع إلـى داره محطـم المعنويـات. (ص ٣٤٧).

ومـا كان يخطـر فـي بالـه مطلقـاً، فـي بلـدان عاليـة التطـور، أن يسـأل الدولـة الأذن بمنافسـة أسـتاذ فـي القانـون. لكنـه حيـن يتوجـه إلـى الدولـة بوصفهـا مسـتخدماً ويسـألها المكافـأة، أي الأجـور، وبذلـك يدخـل هـو نفسـه مجـال التنافـس، فـإن المـرء لا يسـتطيع إذن، بعـد مباحثـه السـابقة عـن الملكيـة الخاصـة، و[المسـلوبين] Privati، والملكيـة الجماعيـة، والبروليتاريـا، والبـراءات(*)، والدولـة والأوضـاع القانونيـة(**)، الـخ، أن يفتـرض أن "التماسـه سـيتكلل بالنجـاح". وبالحكـم علـى مآثـره السـابقة، فـإن الدولـة تسـتطيع فـي أفضـل الأحـوال أن تعينـه قيمـاً (Custos)(***) "للمقـدس" فـي ملكيـة بوميرانيـة مـا فـي المناطـق الحرجيـة النائيـة.

ونسـتطيع أن "نحشـر" هنـا "بصـورة عرقيـة"، علـى سـبيل التسـلية، اكتشـاف سانتشـو العظيـم بأنـه ليـس ثمـة أي "فـرق آخـر" بيـن "الفقـراء" و"الأغنيـاء" غيـر "الفـرق" بيـن "القادريـن"(****) و"العاجزيـن"(*****) (ص ٣٥٤).

فلنغطس مرة أخرى في "المحيط الكئيب" "لتعريفات" شترنر عن التنافس.

"إن التنافـس هـو أقـل" (أوه، "أقـل"!) "ارتباطـاً بالنيـة فـي صنـع شـيء علـى أحسـن وجـه

(*) lettres patentes، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Status، باللاتينية في النص الأصلي.

(***) بالألمانية Küster (قندلفت). وهي عبارة يستخدمها ماركس وإنجلز للسخرية.

(****) في الأصل: "Der vermôgende"، وتعني القادر، والقوي، والغني.

(*****) في الأصل: "der umvermôgende"، وتعني العاجز، ومن لا حول له ولا قوة، والوضيع.

ممكن منه بالنية في صنعه على أحسن قدر من المنفعة والربح. ولهذا السبب لا يدرس البشر إلا من أجل الحصول على مركز (دراسات غذائية)، ويعمدون إلى التذلل والتملق، ويشجعون الروتين والإلمام بالأعمال؛ إنهم يشتغلون من أجل المظهر. وبالتالي فبينما يكون الهدف من ناحية المظهر هو الإنجاز الجيد، فإن البشر في حقيقة الأمر لا يستهدفون إلا صفة عمل ناجحة وربما ربحاً نقدياً. ومن المؤكد أن أحداً لا يريد أن يكون رقيباً، لكن الجميع يريدون أن يحرزوا تقدماً... وكل واحد يخشى أن يُنقل، وأكثر من ذلك أن يُسّرح". (ص ٣٥٤، ٣٥٥).

فليكتشف صاحبنا المغفل كتاباً في الاقتصاد السياسي حيث يؤكد حتى بعض المنظّرين أن المقصود في التنافس هو "الإنجاز الجيد" أو "صنع شيء على أحسن وجه ممكن" وليس "صنعه على أحسن قدر من المنفعة". وعلى أي حال، فسوف يجد في أي كتاب من هذا النوع أن التنافس العالي التطور، في إطار الملكية الخاصة، في إنكلترا على سبيل المثال: "يصنع" بالفعل "الشيء على أحسن وجه ممكن". إن الغش التجاري والصناعي على نطاق ضيق لا يزدهر إلا في إطار التنافس المحدود، بين الصينيين والألمان واليهود، وعلى العموم بين الباعة المتجولين وصغار البقالين. لكن الباعة المتجولين أنفسهم لا يرد ذكرهم على لسان قديسنا؛ فهو لا يعرف إلا التنافس بين الموظفين ومعلمي المدارس الزائدي العدد، ويفضح نفسه هنا بوصفه النموذج الكامل للموظف البروسي الملكي. ولقد كان في مقدوره أيضاً، أن يقدم كمثال على التنافس مسعى الحاشية في كل حقبة لاكتساب ود العاهل، لكن هذا الأمر يتجاوز حتى درجة كبيرة أفقه كمالك صغير.

بعد هذه المغامرات الجبارة مع الموظفين الزائدي العدد والمحاسبين وكتّاب المحاكم، يواجه القديس سانتشو مغامرته العظمى مع الحصان الشهير كلافيلينو، الذي تحدث عنه النبي سرفانتس في الفصل الحادي والأربعين من العهد الجديد. إن سانتشو يمتطي الحصان العالي للاقتصاد السياسي ويحدد الأجر الأدنى بواسطة "المقدس". وصحيح أنه يكشف هنا مرة أخرى، عن حيائه الفطري ويرفض بادئ الأمر امتطاء الجواد الطائر الذي يحمله أعلى كثيراً من السحب إلى المناطق "حيث تولد الصواعق والرعد والبرق، ووابل البرد والثلوج".

لكـن "الـدوق"، أي "الدولـة"، يشـجعه، ولا يـكاد شـيليغا - دون كيخـوت، الأكثـر جـرأة والأعظـم خبـرة منـه، يقفـز فـوق السـرج حتـى يتسـلق صاحبنـا الفاضـل سانتشـو كفـل الحصـان خلفـه. ولا تـكاد يـد شـيليغا تديـر البرغـي المثبـت علـى رأس الحصـان، حتـى يندفـع الحصـان عاليـاً فـي الهـواء وتصيـح بهـم جميـع السـيدات - وماريتـورن علـى رأسـهن: "فلترافقكمـا الأنانيـة المتفقـة مـع نفسـها، أيهـا الفـارس المقـدام، وأنـت يـا حامـل الـدروع الأكثـر إقدامـاً أيضـاً، ولتنجحـا فـي تحريرنـا مـن شـبح مالامبرونـو)[١٩٢]، مـن شـبح "المقـدس"! وأنـت أيهـا الشـجاع سانتشـو، حافـظ علـى توازنـك جيـداً، بحيـث لا تسـقط وتعانـي مصيـر فايتـون حيـن أراد أن يقـود عربـة الشـمس".

"إذا افترضنـا" (هـذا هـو يترنـح فـي الافتراضـات) "أنـه إذا كان النظـام يخـص ماهيـة الدولـة، فـإن الخضـوع أيضـاً قائـم فـي طبيعتهـا" (انتقـال بهيـج بيـن "الماهيـة" و"الطبيعـة"- تلـك هـي "العنـزات" التـي شـاهدها سانتشـو أثنـاء طيرانـه)، "فإننـا نلاحـظ إذن، أننـا إذا أخذنـا بعيـن الاعتبـار أولئـك الذيـن فـي أسـفل السـلم" (ممـا لاريـب فيـه أنـه يقصـد أولئـك الذيـن فـي الأعلـى) "أو أصحـاب الامتيـاز، فـإن المرؤوسـين مغبونـون بصـورة مطلقـة ويدفعـون ثمنـاً باهظـاً جـداً". (ص ٣٥٧).

"إذا افترضنا...فإننـا نلاحـظ إذن". كان يجـب أن نقـرأ: فإننـا نفتـرض إذن. إذا افترضنـا أن فـي الدولـة "رؤسـاء" و"مرؤوسـين"، فإننـا "نفتـرض" أيضـاً، أن أولئـك "مميـزون" بالمقارنـة مـع هـؤلاء. وعلـى أيـة حـال، فإننـا نسـتطيع أن نعـزو الجمـال الأسـلوبي لهـذه العبـارة، وكذلـك الاعتـراف المفاجـئ "بالماهيـة" و"الطبيعـة" لشـيء مـا، إلـى حيـاء وتشـوش صاحبنـا سانتشـو بينمـا هـو يحـاول فـي قلـق الاحتفـاظ بتوازنـه أثنـاء طيرانـه الهوائـي، وإلـى الأسـهم الناريـة التـي تنطلـق تحـت أنفـه. بـل إننـا لا نندهـش إذا رأينـا القديـس يفسـر عواقـب التنافـس لا مـن التنافـس نفسـه بـل مـن البيروقراطيـة، ويجعـل الدولـة مـرة أخـرى تحـدد الأجـور[*].

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إنه لا يرى هنا أيضاً أن "ابتزاز" و"استغلال" العمال في العالم الحديث مردهما إلى افتقارهم إلى الملكية، وأن الافتقار إلى الملكية يتناقض بصورة مباشرة مع التأكيدات التي يعزوها سانتشو إلى البورجوازيين الليبراليين[البورجوازيين الليبراليين...] الذين يزعمون أنهم يمنحون الملكية إلى الجميع بتجزئة الملكية العقارية.

إنـه لا يـدرك أن التذبذبـات المسـتمرة فـي الأجـور تنسـف نظريتـه الجميلـة بكاملهـا؛ وممـا لا ريـب فيـه أن دراسـة أدق للأحـوال الصناعيـة كانـت تعطيـه مـن دون شـك أمثلـة عـن صناعـي "مبتـز" و"مسـتغل" مـن قبـل عمالـه وفقـاً للقوانيـن العامـة للتنافـس، إذا لـم تكـن هـذه التعابيـر الحقوقيـة والأخلاقيـة قـد فقـدت كل معنـى ضمـن إطـار التنافـس.

لشـدّة مـا تنعكـس العلاقـات الأكثـر عموميـة فـي قحـف سانتشـو الأوحـد بطريقـة سـاذجة وبطريقـة المالكيـن الصغـار! ولشـدَّ مـا هـو معنـي، بوصفـه معلـم مدرسـة، باسـتخلاص القواعـد الأخلاقية مـن جميـع هـذه العلاقـات ودحضهـا بمسـلمات أخلاقيـة - هـذا مـا يظهـر بـكل وضـوح مـرة أخـرى بفضـل الطابـع القمـيء الـذي تقلـص التنافـس إليـه عنـده. ويجـب أن نـورد هـذه الفقـرة بصـورة كاملـة(*) "حتـى لا يضيـع شـيء علـى الإطـلاق".

"وفيمـا يتعلـق بالتنافـس مـرة أخـرى، فإنـه يديـن بوجـوده لحقيقـة أن جميـع البشـر لا يسـهرون علـى أعمالهـم، ولا ينتهـون إلـى التفاهـم فيمـا بينهـم بخصوصهـا؛ وهكـذا، علـى سـبيل المثـال، يحتـاج جميـع سـكان مدينـة مـا إلـى الخبـز؛ وبالتالـي، فـإن فـي مقدورهـم أن ينتهـوا بـكل يسـر إلـى اتفـاق لإقامـة مخبـز عـام. وبـدلاً مـن ذلـك، فإنهـم يتركـون أمـر تمويـن الخبـز للخبازيـن المتنافسـين. وكذلـك فإنهـم يتركـون أمـر تمويـن اللحـم للقصابيـن، والخمـر لتجـار الخمـرة، الـخ... إذا كنـت لا أعنـى بأعمالـي، فإنـه لا بـد لـي إذن، أن أكـون راضيـاً بمـا يحلـو لآخريـن أن يقدمـوا لـي. والحـال، إن الحصـول علـى الخبـز مـن شـأني، فأنـا أريـده وهـو يلزمنـي، ومـع ذلـك يتركـه المـرء للخبازيـن، ويأمـل علـى الأكثـر فـي الحصـول، بفضـل تنازعهـم وخصومتهـم ومحاولاتهـم للتغلـب علـى بعضهـم بعضـاً، وباختصـار يأمـل المـرء فـي الحصـول، بفضـل تنافسـهم، علـى ميـزة لا يسـتطيع المـرء أن يتوقعهـا مـن الخبازيـن أعضـاء الأصنـاف الحرفيـة، الذيـن يملكـون الاحتـكار الكامـل والحصـري للخبـازة" (ص ٣٦٥).

ممـا يميـز صاحبنـا المالـك الصغيـر أنـه يوصـي هنـا مواطنيـه المالكيـن الصغـار، ضـد التنافـس، بمؤسسـة مـن نمـط المخابـز العامـة التـي كانـت موجـودة فـي أماكـن متعـددة فـي ظـل نظـام الأصنـاف الحرفيـة والتـي وضـع حـد لهـا مـن قبـل نمـط الإنتـاج التنافسـي الأقـل كلفـة. وهـذا يعنـي أنـه يوصـي

(*) in extenso، باللاتينية في النص الأصلي.

بمؤسسة من طبيعة محلية ما كان يمكن أن تستمر إلا في ظل شروط محدودة ضيقة، وكان من المحتم أن تزول مع قيام التنافس الذي نسف الإطار المحلي. لا بل إنه لم يتعلم من االتنافس حقيقة أن "الطلب" على الخبز مثلاً يختلف من يوم إلى آخر، وإنه لا يتوقف عليه مطلقاً ما إذا كان الخبز سيظل "من شأنه" في الغداة أو ما إذا كانت حاجته إلى الخبز سوف تكون في نظر الآخرين من شأنهم، وما إذا كان سعر الخبز سوف يحدد ضمن إطار التنافس بتكاليف الإنتاج وليس بهوى الخبازين. إنه يجهل جميع تلك الشروط الجديدة التي خلقها التنافس: نقض الإطار المحلي، وإنشاء وسائل المواصلات، وتقسيم العمل المتقدم، والتعامل العالمي، والبروليتاريا، والآلات، الخ، ويتطلع القهقرى بكل حنين إلى ذهنية المالك الصغير الوسيطية. إن كل ما يعرفه عن التنافس هو أنه "تنازع وخصومة ومحاولات للتغلب على الآخر"؛ أما علاقاته الأخرى بتقسيم العمل، والعلاقة بين العرض والطلب، الخ(*)، فهذا ما لا يهتم به مطلقاً. أما إن البورجوازيين، كلما تطلبت مصالحهم ذلك (وهم أفضل حكماً في هذه الأمور من القديس سانتشو)، "ينتهون إلى تفاهم" دائماً بقدر ما يكون ذلك ممكناً في إطار التنافس والملكية الخاصة، فهذا ما تثبته الشركات المساهمة التي نشأت مع ازدهار التجارة البحرية والمانيفاكتورة، واستولت على جميع فروع الصناعة والتجارة التي كانت في متناول يدها. إن مثل هذه "الاتفاقات"، التي قادت فيما قادت إليه إلى الاستيلاء على امبراطورية في الهند الشرقية، هي بكل تأكيد أمر حقير بالمقارنة مع الوهم حسن النية عن المخابز العامة، الجدير بالمناقشة في الصحافة الوطنية. وأما البروليتاريون فقد نشأوا - على

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] كان في مقدورهم أن "ينتهوا إلى تفاهم" منذ بداية الأمر. أما إن "التفاهم" (كي نستخدم هذه الكلمة بمحتواها الأخلاقي) لا يصبح ممكناً إلا بفعل التنافس وأن "التفاهم" الكلّي على طريقة سانتشو مسألة ليست موضع البحث بسبب من المصالح الطبقية المتعارضة، فهذا آخر اهتمامات حكيمنا. إن الفلاسفة الألمان من هذا العيار يوسعون على العموم بؤسهم الخاص الضيق بحيث يعطونه أبعاد التاريخ العالمي، متوهمين أن الأحداث التاريخية التي كانت تشمل القسم الأكبر من العالم قد افتقرت إلى حكمتهم بالضبط من أجل تسويتها "بالتفاهم" وإيضاح جميع الأمور المتعلقة بها. وإن مثال سانتشو ليبين إلى أي مدى يمكن أن يمضي المرء بمثل هذه الأوهام.

الأقل في مظهرهم الحديث - من التنافس بادئ الأمر؛ ولقد سبق لهم أن أقاموا مراراً وتكراراً مشاريع جماعية انهارت دائماً على أية حال لأنها كانت عاجزة عن منافسة المخابز والملاحم الخاصة "المتنازعة"، ولأنه لم يكن أي "اتفاق" متاحاً للبروليتاريين، الذين غالباً ما تكون مصالحهم متضاربة من جراء تقسيم العمل - سوى اتفاق سياسي يستهدف تغيير الأوضاع القائمة بمجموعها. وحيث يمكّن تطور التنافس بين البروليتاريين من أن "ينتهوا إلى تفاهم" فيما بينهم، فإنهم يتفاهمون ليس بشأن المخابز العامة، بل بشأن قضايا مختلفة الاختلاف كله(*). إن انعدام "التفاهم" الذي يسجله سانتشو هنا بين أفراد متنافسين يقابل بصورة تامة عرضه اللاحق عن التنافس ويناقضه بصورة لا تقلّ عن ذلك كمالاً، هذا العرض الذي يمكننا الاستمتاع به في "التعليق". (ويغان، ص ١٧٣).

"إن التنافس قد أدخل لأنها اعتبر بركة بالنسبة إلى الجميع. إن البشر قد انتهوا إلى اتفاق بشأنه، كما أن المحاولات من أجل مقاربته قد بذلت بصورة مشتركة... إن الناس اتفقوا عليه تقريباً كما يتفق الصيادون في حملة صيد... حين يجدون أنه من المناسب لغرضهم أن يتبعثروا في الغابة ويصيدوا "إفرادياً"... وصحيح إنه يتبين الآن... إن جميع الناس لا يجدون في التنافس... مصلحتهم".

"إنه يتبين الآن" أن سانتشو لا يعرف عن الصيد أكثر مما يعرف عن التنافس. إنه لا يتحدث عن إثارة الطرائد من مكانها ولا عن القنص بواسطة كلاب الصيد، بل عن القنص بالمعنى فوق العادي. ولا يتبقى أمامه سوى أن يكتب تاريخاً جديداً للصناعة والتجارة وفقاً للمبادئ الواردة أعلاه، وإنشاء "رابطة" من أجل هذا النوع من القنص فوق العادي.

وإنه ليتحدث عن علاقة التنافس بالأخلاق بنفس الأسلوب الهادئ، الرزين الجدير بالمجلات الصادرة عن الأبرشيات.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] يجب "عليهم أن ينتهوا إلى تفاهم" بشأن مخبز عام. أما إن أولئك الذين يسميهم "هم" و"الجميع" يمثلون، حسب الحقب والأحوال، أفراداً هم أنفسهم مختلفون وأصحاب مصالح متنوعة، فإن هذا لا يعني بالطبع صاحبنا سانشو. إن الأفراد قد ارتكبوا دائماً طوال مجرى التاريخ حتى يومنا الحاضر خطيئة أنهم لم يتبنوا منذ البداية "الحكمة" الذكية جداً التي يتحدث بها أطناب الفلاسفة الألمان عن الأحداث بعد وقوعها.

"تلك الخيرات الجسدية التي لا يستطيع الإنسان بصفته هذه"(!) "الاحتفاظ بها لنفسه، يحقّ لنا أن ننتزعها منه. ذلك هو معنى التنافس، معنى حرية الصناعة. وإننا لنحصل أيضاً على جميع الخيرات الروحية التي لا يستطيع الاحتفاظ بها لنفسه. بيد أن الخيرات المكرسة محرمة. مكرسة ومضمونة - من قبل من؟... من قبل الإنسان أو المفهوم، مفهوم القضية المأخوذة بعين الاعتبار". وإنه ليورد على أنها مثل هذه الخيرات المكرسة "الحياة"، و"حرية الشخص"، والدين"، و"الشرف"، و"آداب السلوك"، و"الحياء"، الخ. (ص ٣٢٥).

في البلدان المتحضرة "يحق" لشترنر أن ينتزع جميع هذه "الخيرات المكرسة"، إن لم يكن من "الإنسان بصفته هذه"، فعلى الأقل من البشر الفعليين، بكل تأكيد بواسطة التنافس وفي ظل شروطه. إن الثورة الاجتماعية الكبرى التي حققها التنافس حوّلت علاقات البورجوازيين ببعضهم بعضاً وبالبروليتاريين إلى علاقات نقدية صرفة. وجعلت من جميع "الخيرات المكرسة" الآنفة الذكر سلعاً تجارية، ودمرت بالنسبة إلى البروليتاريين جميع العلاقات التقليدية والطبيعية، مثلاً العلاقات العائلية والسياسية، جنباً إلى جنب مع بنيتها الفوقية الإيديولوجية بأسرها - إن هذا الثورة الجبارة لم تنطلق بالتأكيد من ألمانيا. إن ألمانيا لم تلعب إلا دوراً منفعلاً فيها؛ لقد أتاحت أن تنتزع منها خيراتها المكرسة حتى من دون أن تتناول السعر الجاري لقاءها. وهكذا فإن صاحبنا المالك الصغير الألماني لا يعرف إلا تأكيدات البورجوازيين المنافقة عن الحدود الأخلاقية للتنافس البورجوازي الذي يدوس كل يوم بالأقدام "الخيرات المكرسة" للبروليتاريين، و"شرفهم"، و"حياءهم، و"حريتهم الشخصية"، بل يحرمهم حتى من التعليم الديني. أما سانتشو فيأخذ هذه "الحدود الأخلاقية"، التي هي مجرد ذريعة، على أنها "معنى" التنافس الحقيقي، وبذلك فإن واقع التنافس، أمام هذا المعنى، لا يبقى له وجود.

ويلخص سانتشو نتائج أبحاثه عن التنافس في الصيغة التالية:

"هل التنافس حر، وقد أوثقته الدولة، هذا الحاكم وفقاً للمبدأ البورجوازي، بألف عائق؟" (ص ٣٤٧).

إن "المبدأ البورجوازي" لسانتشو الصالح في كل مكان، الذي يجعل "الدولة" "الحاكم" والذي يعتبر عوائق التنافس الناشئة عن نمط الإنتاج والتعامل عوائق "توثق" بها "الدولة" التنافس، ينادى به هنا مرة أخرى، "باستياء" ملائم.

لقد سمع القديس سانتشو "في هذه الأوقات الأخيرة" مختلف أنواع المستحدثات يتردد صداها "من فرنسا" (راجع: ويغان، ص ١٩٠)، ومن ضمنها تشييءالأشخاص في التنافس والفرق بين المزاحمة والمنافسة. بيد أن صاحبنا "البرليني المسكين" قد "أفسد هذه الأشياء الرائعة بفعل الحماقة" (ويغان، المصدر ذاته، حيث ينطق وجدانه المذنب بفمه). "وهكذا، على سبيل المثال، يقول" في الصفحة ٣٤٦ من "الكتاب":

"هل المنافسة حرة فعلياً؟ هل هي في الحقيقة منافسة واقعية، يعني منافسة أشخاص كما تدعي، لأنها تؤسس حقها على هذا الحق؟"

إن السيدة المنافسة، فيما يبدو، التي تتجلى ظاهرة بأنها هذا الشيء أو ذاك، لأنها (يعني بعض الحقوقيين والسياسيين والحالمين المالكين الصغار (البورجوازيين الصغار)، المتجرجرين في ذيل حاشيتها) تؤسس حقها على هذا الحق. إن سانتشو يباشر بهذه الاستعارة في تكييف "الأشياء الرائعة" "القادمة من فرنسا" من المهاجرة البرلينية... ولسوف نظفر من فوق التأكيد السخيف الذي عالجناه أعلاه بأن "الدولة ليس لديها اعتراض ضدي شخصياً" وبذلك تعطيني الإذن بالمنافسة، لكنها تنكر عليَّ "الشيء" (ص ٣٤٧)، وننتقل بصورة مباشرة إلى برهانه على أن المنافسة ليست في أي حال من الأحوال تنافس أشخاص.

"لكن، هل هم الأشخاص الذين يتنافسون في واقع الأمر؟ كلا، بل مرة أخرى الأشياء، والأشياء وحدها! في المحل الأول - المال، الخ. إن في التنافس مغلوبين دائماً. بيد أن الأمر يختلف حسبما يكون في الإمكان الحصول على الوسائل الناقصة بواسطة الجهد الشخصي أو لا يكون في الإمكان الحصول عليها إلا بواسطة الحظوة وحدها، على أنها هدية، مثلاً: أن يكون الفقير ملزماً بأن يترك للغني ثروته، يعني أن يقدمها له كهدية". (ص ٣٤٨).

"إننا نقدم له هدية" نظريته عن الهدية. (ويغان، ص ١٩٠). فلينظر في الفصل عن

"العقد" في أي كتاب عن القانون ويعلم ما إذا كانت "الهدية" التي "يلزم بتقديمها" هي هدية بعد. وبهذه الطريقة، فإن شترنر "يقدم هدية" لنا نقدنا لكتابه، لأنه "ملزم بأن يتركه لنا، يعني أن يقدمه لنا كهدية".

إن حقيقة أن واحداً من متنافسين "أشياؤهما" متساوية يدمر الآخر لا وجود لها بالنسبة إلى سانتشو. وأما إن العمال يتنافسون بالرغم من أنهم لا يملكون أية "أشياء" (بمعنى شترنر)، فتلك حقيقة لا وجود لها أيضاً، بالنسبة إليه. وحين ينقض التنافس، فإنه يحقق الرغبات الأكثر تقوى "لاشتراكيينا الحقيقيين"، الذين من المؤكد أنه سيتلقى منهم أعمق الشكر. وهكذا فإن "الأشياء وحدها" لا "الأشخاص" هي التي تتنافس. إن الأسلحة وحدها تتقاتل، لا البشر الذين يستخدمونها، والذين تعلموا استخدامها ببراعة. فليس الناس هناك إلا كي يسقطوا صرعى. بهذه الطريقة ينعكس الصراع التنافسي في أذهان معلمي المدارس المالكين الصغار الذين يعزون أنفسهم، في مواجهة بارونات أسواق البورصة المحدثين ولوردات الأقطان، بفكرة إنما يفتقرون إلى "الأشياء" فقط كي يفرضوا "جهدهم الشخصي" على هؤلاء الطغاة. وإن هذه الفكرة الحمقاء تبدو أشد إضحاكاً إذا ما نظر المرء بمزيد من التدقيق إلى "الأشياء"، بدلاً من الاقتصار على المفاهيم الأكثر شيوعاً وشعبية، مثلاً "المال" (الذي ليس على هذا القدر من الشعبية كما يبدو). إن هذه "الأشياء" تتضمن فيما تتضمنه: إن يعيش المنافس في بلد أو مدينة حيث يستمتع بالمزايا نفسها التي يستمتع بها المتنافسون الذين يصادفهم؛ إن العلاقات بين المدينة والريف قد بلغت مرحلة متقدمة من التطور؛ إنه ينافس في شروط جغرافية وجيولوجية وهيدروغرافية ملائمة؛ إنه يجب أن يكون صانع حرير في ليون، وصانع أقطان في مانشستر، أو في مرحلة أبكر صانع سفن في هولندا؛ إن تقسيم العمل في فرعه الصناعي- كما في الفروع الأخرى المستقلة عنه الاستقلال كله - قد أصبح متقدماً جداً؛ إن وسائل المواصلات تؤمن له أسعار النقل الرخيصة ذاتها التي توفرها لمنافسيه؛ وإنه يجد عمالاً بارعين ومراقبين مؤهلين. إن جميع هذه "الأشياء"، الأساسية من أجل التنافس، وعلى العموم القدرة على التنافس في السوق العالمية (التي لا يعرفها ولا يستطيع أن يعرفها من جراء نظريته عن الدولة والمخابز العامة، لكن التي تقرر، لسوء الحظ،

التنافس والقدرة على التنافس)، هي "أشياء" لا يستطيع الحصول عليها "بواسطة الجهد الشخصي" ولا "تهدى إليه" بفعل "نعمة" "الدولة"، (راجع ص ٣٤٨). إن الدولة البروسية، التي جربت أن "تقدم" كل هذا إلى شركتها التجارية لما وراء البحار (Seehandlung)[١٩٣] تستطيع أن تقدم إليه أفضل المعلومات عن هذا الموضوع. إن سانتشو ينكشف هنا بوصفه الفيلسوف البروسي الملكي للشركة التجارية لما وراء البحار، وذلك باعطائه شرحاً مفصلاً عن وهم الدولة البروسية بشأن جبروتها وعن وهم الشركة التجارية لما وراء البحار بشأن قدرتها على التنافس. وفيما عدا ذلك، فمن المؤكد أن المزاحمة بدأت بوصفها "تنافس أشخاص" يملكون "وسائل شخصية". إن تحرير الأقنان الإقطاعيين، هذا الشرط الأولي للتنافس، والتراكم الأول "للأشياء" قد كانا عملين "شخصيين" صرفين.وبالتالي، فإذا كان سانتشو راغباً في وضع منافسة الأشخاص في مكان الأشياء، فهذا يعني أنه يريد أن يعود إلى بداية التنافس، متخيلاً أنه يستطيع إذا فعل ذلك أن يعطي، بفضل إرادته ووعيه الأناني فوق العادي، اتجاهاً مغايراً لتطور التنافس.

إن هذا الرجل العظيم، الذي ليس هناك شيء مقدس بالنسبة إليه والذي لا يأبه "لطبيعة الأشياء" أو "مفهوم العلاقة"، قد اضطر مع ذلك في آخر الأمر إلى المناداة بأن "طبيعة" الفرق بين الشخصي والمادي مقدسة، ومثل ذلك "مفهوم العلاقة" بين هاتين الصفتين، وبذلك تخلى عن دور "الخالق" في مواجهتهما. بيد أن هذا الفرق المقدس في نظره، كما يطرحه في الفقرة الواردة أعلاه، يمكن نقضه تماماً من دون أن يؤدي إلى ارتكاب "التدنيس الأشد مغالاة". فأولاً، ينقضه هو نفسه إذ يجعل الوسائل المادية تُكتسب بفعل الجهد الشخصي وبذلك يحول الجهد الشخصي إلى قوة موضوعية، ومن ثم فإنه يستطيع بكل هدوء أن يطالب الآخرين، على الصعيد الأخلاقي، بأن يتخذوا موقفاً شخصياً منه. ولقد كان في إمكان المكسيكيين، بالطريقة ذاتها بالضبط، أن يطلبوا من الاسبان ألا يطلقوا النار عليهم بالبنادق، بل أن يهاجموهم بقبضاتهم أو، وفقاً لاقتراح القديس سانتشو، أن "يمسكوا بهم من حلوقهم" كيما يتخذوا موقفاً "شخصياً" منهم. إذا كان شخص ما قد اكتسب، بفضل الغذاء الجيد والتربية اليقظة والتدريب الجسدي، قوة ورشاقة جسديتين كبيرتين، في حين أن شخصاً آخر لم يتمكن من ذلك قط، من جراء الغذاء الرديء وغير الصحي وما يترتب

عليه من سوء الهضم، وكنتيجة للإهمال في الطفولة واضطراره إلى القيام بمجهود مفرط، لاكتساب "الأشياء" الضرورية من أجل تنمية عضلاته - كي ندع جانباً مسألة التحكم فيها على هواه - فإن "الجهد الشخصي" للشخص الأول يشكل إذن، قوة مادية صرفة بالنسبة إلى الشخص الثاني. إنه لم يكتسب "الوسائل التي كان يفتقر إليها بواسطة الجهد الشخصي"، بل الأمر على النقيض من ذلك، إذ هو يدين "بجهده الشخصي" إلى الوسائل المادية المتوافرة له. وفيما عدا ذلك، فإن تحويل الوسائل الشخصية إلى وسائل مادية والوسائل المادية إلى وسائل شخصية ليس سوى مظهر من مظاهر التنافس ولا ينفصل عنه البتة. إن المطالبة بوجوب التنافس بالوسائل الشخصية وليس بالوسائل المادية يؤول إلى المسلّمة الأخلاقية بأن التنافس والشروط الموضوعية التي تتوقف عليه يجب أن تكون لها عواقب غير تلك العواقب الناجمة عنها بصورة محتومة.

وهذا تلخيص آخر، وهو هذه المرة التلخيص النهائي لفلسفة التنافس:

"يعاني التنافس من هذه السيئة الأساسية، ألا وهي أن كل امرئ لا يملك تحت تصرفه الوسائل من أجل التنافس، لأن هذه الوسائل لا تنشأ عن الشخصية بل عن المصادفة. إن الغالبية لا يملكون وسائل، وبالتالي"، (أواه، يا لها من "بالتالي"!) "لا يملكون شروى نقير". (ص ٣٤٩).

ولقد سبق أن أشرنا إليه أعلاه، بأن الشخصية نفسها في التنافس مسألة تصادفية، في حين أن المصادفة شخصية. إن "الوسائل" من أجل الدخول في التنافس، المستقلة عن الشخصية، هي شروط الإنتاج والتعامل للأشخاص أنفسهم، التي تظهر ضمن إطار التنافس على أنها قوة مستقلة بالقياس إلى هؤلاء الأشخاص، على أنها وسائل عرضية بالنسبة إليهم. إن تحرير البشر من هذه القوى يتحقق، وفقاً لسانتشو، بأن ينتزع الناس من رؤوسهم الأفكار عن هذه القوى، أو بالأحرى التشوهات الفلسفية والدينية لهذه الأفكار- سواء بالاشتقاق اللغوي ("Vermögen" و"Vermögen")(*) أم بالمسلمات الأخلاقية (مثلًا: فليكن كل

(*) Vermögen، مصدر معناه "خيرات، ثروة"، و Vermögenفعل معناه "يقدر، يستطيع". وإن شترنر يتلاعب بالكلمتين ومعنييهما المختلفين.

واحد "أنا" جبارة)، أو بالتكشيرات المضحكة والتبجح الهزلي العاطفي ضد "المقدس".

لقد استمعنا إلى الشكوى المقدمة من قبل بأن "الأنا" في المجتمع البورجوازي الحالي، بصورة خاصة بسبب من الدولة، لا تستطيع تحقيق قيمتها، أي لا تستطيع أن تستخدم "قدراتها" [Vermôgen]. وإننا لنعلم الآن بالإضافة إلى ذلك أن "الفردية" لا تمنح "الأنا" الوسائل من أجل التنافس، وأن "قوتها" ليست قوة في أي حال من الأحوال، وأنها تظل "لا تملك شروى نقير"، بالرغم من أن كل شيء باعتباره شيئها، هو ملكيتها أيضاً"[*]. إن تناقض الأنانية المتفقة مع ذاتها هو تام هنا. بيد أن جميع هذه "السيئات" الخاصة بالتنافس سوف تتلاشى حين يصبح "الكتاب" جزءاً من وعي الناس العام. وحتى ذلك الحين يثابر سانتشو في تجارته بالأفكار، من دون أن يحقق على أي حال "إنجازاً جيدا" أو "يصنع الأشياء على أحسن وجه ممكن".

٦ ـ العصيان

إن نقد المجتمع يشكل الحد الأخيرلنقد العالم القديم، العالم المقدس. وإننا نحقق بواسطة العصيان(Révolte) قفزة إلى العالم الجديد، العالم الأناني.

لقد شاهدنا من قبل في المنطق ما هو العصيان بصورة عامة: إنه رفض احترام المقدس. وعلى أية حال، فإن العصيان يكتسب هنا فضلاً عن ذلك طابعاً عملياً خاصاً.

الثورة = العصيان المقدس

العصيان = الثورة الأنانية أو الدنيوية.

الثورة = قلب النظام القائم.

العصيان = انقلاب ذاتي.

الثورة = عمل سياسي أو اجتماعي.

العصيان = عملي الأناني.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن الفرق بين الماهية والظاهرة يفرض نفسه هنا بالرغم من سانتشو.

الثورة = قلب ما هو موجود.

العصيان = وجود القلب.

الخ، الخ. ص ٤٢٢ وما يليها. إن الطريقة التي استخدمها البشر حتى الوقت الحاضر من أجل قلب العالم الذي يجدون أنفسهم فيه لا بد من إعلانها بالطبع مقدسة أيضاً، ومعارضتها بطريقة "شخصية" من أجل سحق العالم القائم.

إن الثورة "تستقيم" في قلب النظام القائم(*) أو وضع الدولة، والمجتمع؛ وبالتالي فهي "عمل سياسي أو اجتماعي". إن العصيان، "بالرغم من أن قلب النظام القائم عاقبة محتومة له، لا يملك فيه نقطة انطلاقه مطلقاً، بل يترتب عن استياء البشر من أنفسهم". إنه انتفاضة للأفراد، نهوض من دون أي اعتبار للمؤسسات التي تنبثق عنه. إن الثورة تستهدف مؤسسات جديدة؛ والعصيان يؤدي بنا إلى وضع لا نسمح فيه بعد الآن للمؤسسات أن تأسرنا، بل على العكس من ذلك ننظم أنفسنا بأنفسنا. ليس هو صراعاً ضد النظام القائم، لأنه إذا نجح فإن النظام القائم سوف ينهار من تلقاء ذاته؛ إنه مجرد الجهد الذي أبذله للتخلص من النظام القائم. إذا تخليت عن النظام القائم فإنه يموت إذن، ويتفسخ. وبما أن هدفي ليس بعد الآن قلب النظام القائم، بل الارتفاع فوقه، فإن غرضي وعملي ليسا سياسيين أو اجتماعيين، بل أنانيان لأنهما موجهان نحوي ونحو فرديتي على وجه الحصر". (ص ٤٢١ - ٤٢٢).

إن الظرفاء يتلاقون(**). إن ما نادى به الصوت الصارخ في البرية قد تحقق الآن. إن العنيد يوحنا المعمدان "شترنر" قد وجد مسيه المقدس(***) في شخص "الدكتور كوهلمان من هولستاين". أُصغوا:

"لا ينبغي لك أن تحطم أو تدمر ما يعترض طريقك، بل تدور حوله وتتركه جانباً. وحين تكون قد درت حوله وتركته جانباً، فإنه سيكف عن الوجود من تلقاء ذاته، لأنه لن يجد دعماً بعد الآن". (Das reich des Geistes auf Erden, Verkündigung) [ملكوت الروح على الأرض] ١٨٤٥، (ص ١١٦).

(*) Zustand، الأوضاع، الثروة.

(**) Les beaux esprits se rencontrent، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) ثمة تلاعب بالألفاظ هنا غير قابل للترجمة heillos = عنيد، عضال، Heilig = قديس.

إن الفـرق بيـن الثـورة والعصيـان علـى طريقـة شـترنر ليـس كمـا يحسـب شـترنر أن الثـورة عمـل سياسـي واجتماعـي بينمـا العصيـان عمـل أنانـي، بـل إن الثـورة عمـل فـي حيـن أن العصيـان ليـس عمـلاً علـى الإطـلاق. إن كل سـخف النقيضـة التـي يقدمهـا شـترنر يتضـح فـي الحـال مـن حقيقـة أنـه يتحـدث عـن "الثـورة" علـى أنهـا شـخص معنـوي يناضـل ضـد "النظـام القائـم" الـذي هـو شـخص معنـوي آخـر. ولـو أن القديـس سانتشـو اسـتعرض الثـورات المختلفـة والمحـاولات الثوريـة التـي جـرت فعـلاً، مثـلاً عنـد الكورسـيكيين، والإيرلندييـن، والأقنـان الـروس، وعلـى العمـوم عنـد الشـعوب غيـر المتحضـرة، فلعلـه كان يسـتطيع أن يجـد فيهـا الأشـكال التـي يـراوده إحسـاس غامـض عنهـا حيـن خلـق "عصيانـه" الإيديولوجـي. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإذا هـو عنـى بالأفـراد الفعلييـن، "الموجوديـن" فـي كل ثـورة، وكذلـك بشـروط وجودهـم، وبـدلاً مـن أن يكتفـي بالأنـا الصرفـة و"النظـام القائـم"، وبـكلام آخـر الجوهـر (عبـارة جوفـاء لا يتطلـب قلبهـا ثـورة، بـل يكفـي لذلـك فـارس رحالـة مثـل القديـس برونـو)، فلعلـه كان ينتهـي إذن، إلـى أن يفهـم أن كل ثـورة، وكذلـك النتائـج التـي تـؤدي إليهـا، قـد تقـررت بفعـل هـذه الشـروط الحياتيـة للأفـراد، بفعـل حاجاتهـم، وأن "العمـل السياسـي أو الاجتماعـي" لـم يكـن فـي أي حـال مـن الأحـوال متناقضـاً مـع "العمـل الأنانـي".

إن عمق نظرة القديس سانتشو إلى "الثورة" يتضح من الصيغة التالية:

"إن العصيـان، بالرغـم مـن أن قلـب النظـام القائـم عاقبـة محتومـة لـه، لا يملـك فيـه نقطـة انطلاقـه مطلقـاً".

وإن هـذا ليتضمـن، علـى سـبيل المعارضـة، أن نقطـة انطـلاق الثـورة "قلـب النظـام القائـم"، وبـكلام آخـر، إن الثـورة تنشـأ عـن الثـورة. ومـن جهـة أخـرى، فـإن العصيـان "يترتـب عـن اسـتياء البشـر مـن أنفسـهم"؛ إن هـذا "الاسـتياء مـن الـذات" يتـلاءم بصـورة رائعـة مـع العبـارات الجوفـاء التـي صادفناهـا مـن قبـل عـن الفرديـة و"الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه"، الـذي يسـتطيع علـى الـدوام أن يمضـي "فـي سـبيله الخـاص"، والـذي يغتبـط دائمـاً لوجـوده والـذي هـو فـي كل لحظـة مـا يسـتطيع أن يكونـه. إن الاسـتياء مـن الـذات هـو إمـا اسـتياء مـن الـذات فـي إطـار وضـع معيـن يحـدد الشـخصية بكاملهـا، مثـلاً الاسـتياء مـن الـذات بوصـف المـرء عامـلاً، وإمـا هـو اسـتياء أخلاقـي. وبالتالـي، فـي

الحالـة الأولـى، فإنـه فـي الوقـت ذاتـه وبصـورة رئيسـية اسـتياء مـن الشـروط القائمـة؛ وفـي الحالـة الثانيـة، تعبيـر إيديولوجـي عـن هـذه الشـروط نفسـها؛ فهـو لا يتجاوزهـا فـي أي حـال مـن الأحـوال ولا يخـرج عـن إطارهـا، بـل يشـكل أحـد عناصرهـا. إن الحالـة الأولـى تقـود إلـى الثـورة كمـا يعتقـد سانتشـو؛ وبالتالـي فإنـه لا يتبقـى مـن أجـل تفسـير العصيـان سـوى الحالـة الثانيـة، ألا وهـي الاسـتياء الأخلاقـي. إن "النظـام القائـم" هـو، كمـا نعلـم، "المقـدس"؛ وبالتالـي "الاسـتياء مـن الـذات" يرتـد إلـى الاسـتياء الأخلاقـي حيـال أنـا تعتبـر علـى أنهـا المقـدس، أي حيـال امـرئ مؤمـن بالمقـدس، وفـيّ للنظـام القائـم. ولا يمكـن أن يخطـر إلا فـي بـال معلـم مدرسـة ناقـم أن يؤسـس حجـة عـن الثـورة والعصيـان علـى الرضـى والاسـتياء، وهمـا مزاجـان يميـزان كليـاً حلقـة المالكيـن الصغـار التـي يشـتق القديـس سانتشـو إلهاماتـه منهـا، كمـا نـرى ذلـك بصـورة متصلـة.

إننـا نعـرف مـن قبـل معنـى الصيغـة التـي تنـص علـى "التخلـص مـن النظـام القائـم"، ذلـك هـو الوهـم القديـم القائـل إن الدولـة سـوف تنهـار مـن تلقـاء ذاتهـا حالمـا يتخلـى عنهـا جميـع أعضائهـا وإن المـال يفقـد كل قيمتـه إذا رفـض العمـال جميعـاً قبولـه. إن هـذه العبـارة تكشـف، حتـى فـي شـكل افتراضـي، كل الوهـم والعجـز اللذيـن تتصـف بهمـا هـذه الأمنيـة الورعة.إنـه الوهـم القديـم بـأن تغييـر الشـروط القائمـة لا يتوقـف إلا علـى إرادة البشـرالطيبة، وإن الشـروط القائمـة تتألـف مـن أفـكار. إن الرغبـة فـي تبديـل الوعـي، هـذا الوعـي المنفصـل عـن الشـروط الفعليـة (وهـو مـا جعـل الفلاسـفة منـه حرفـة، يعنـي عمـلاً تجاريـاً) ذلـك أيضـاً، نتـاج للشـروط القائمـة وعنصـر لا ينفصـل عنهـا. إن هـذا الارتفـاع بالأفـكار فـوق العالـم يشـكل التعبيـر الإيديولوجـي عـن عجـز الفلاسـفة فـي مواجهـة العالـم. إن الحيـاة العمليـة تكـذِّب كل يـوم تبجحهـم الإيديولوجـي.

ومهمـا يكـن مـن شـيء، فـإن سانتشـو لا "يعصـى" حالـة التشـوش التـي كان يعانيهـا حيـن كتـب هـذه الأسـطر.إن لديـه مـن جهـة واحـدة، "تحويـل الأوضـاع القائمـة"، ومـن جهـة ثانيـة - "البشـر"، والطرفـان منفصـلان كليـاً عـن بعضهمـا بعضـاً. ولا يخطـر فـي بـال سانتشـو مطلقـاً أن "الأوضـاع" كانـت علـى الـدوام أوضـاع هـؤلاء البشـر بالضبـط ومـا كان يمكـن لهـا قـط أن تتحـوّل مـن دون أن يتحـوّل هـؤلاء البشـر أنفسـهم، الأمـر الـذي يتطلـب أن يكونـوا "مسـتائين مـن أنفسـهم" فـي ظـل الأوضـاع السـابقة. وإنـه ليحسـب أنـه يوجـه ضربـة قاتلـة إلـى الثـورة حيـن يؤكـد أنهـا تسـتهدف

إقامة مؤسسات جديدة، في حين أن العصيان يؤدي بنا إلى وضع لا نسمح فيه بعد الآن للمؤسسات أن تأسرنا، بل على العكس من ذلك، ننظم أنفسنا بأنفسنا. لكن كوننا "نحن" ننظم أنفسنا "بأنفسنا"، يعني كوننا "نحن" العصاة، يتضمن أن الفرد، بالرغم من كل "نفور" سانتشو، لا بد له أن "يسمح" بأن "ينظم" من قبل "نحن"؛ وبالتالي فإن الثورة والعصيان لا يتميزان إلا بقدر ما يكون هذا الأمر شعورياً في الثورة، في حين أن البشر ينطوون على الأوهام بشأنه في العصيان. ومن ثم فإن سانتشو يجعل "نجاح" العصيان أو عدم نجاحه شرطياً. وليس من الواضح لماذا يجب ألا "ينجح"، وأقل وضوحاً من ذلك، لماذا يجب أن ينجح، ما دام كل عاصٍ يمضي في سبيله الخاص. ولا بد للشروط الدنيوية من التدخل كي تبين للعصاة ضرورة العمل المشترك، وهو عمل ينبغي أن يكون "سياسياً أو اجتماعياً"، من دون أي اعتبار لما إذا كان ينشأ عن دوافع أنانية أم لا. وإن "تمييزاً تافهاً" آخر، قائماً مرة أخرى على التشوش، هو التمييز الذي يرسمه سانتشو بين "قلب" النظام القائم و"النهوض" فوقه؛ فكأنه حين يقلبه لا ينهض فوقه، وحين ينهض فوقه لا يقلبه، ولو بقدر ما يشكل هو نفسه أحد عناصر وجود هذا النظام. وفيما عدا ذلك، فلا "القلب" (renverser) بحد ذاته -، ولا "النهوض" بحد ذاته، يخبرنا بأي شيء على الإطلاق: أما إن "النهوض" يمكن أن يحدث في الثورة، كذلك، فهذا ما كان في مقدور سانتشو أن يشاهده في حقيقة أن "فلننهض"(*)[١٩٤] قد كان شعاراً شهيراً في الثورة الفرنسية.

"إن الثورة تأمرنا"(!) "بأن نخلق مؤسسات، والعصيان يستحثنا إلى الانتصاب أو النهوض(**)". ولقد كانت الأذهان الثورية مشغولة باختيار دستور، والمرحلة السياسية بأكملها تغلي بالصراعات الدستورية والمسائل الدستورية، بالضبط كما أن الأشخاص الموهوبين اجتماعياً قد كشفوا عن إبداع غير عادي فيما يتعلق بالمؤسسات الاجتماعية (الكتائب[١٩٥] وما شابه). إن العاصي يطمح إلى الحياة من دون دستور". (ص ٤٢٢).

(*) "levons – nous"، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) يستخدم شترنر ثلاث كلمات تملك جذراً مشتركاً: "Einrichtung" – ترتيب، مؤسسة - والمترادفين "Empôrrichten" "Sich emporrichten" – الوقوف، النهوض، الانتفاض.

أمـا إن الثـورة الفرنسـية جـرّت المؤسسـات فـي أذيالهـا، فتلـك حقيقـة واقعـة؛ وأمـا إن "عصيـان" [Empôrung] مشـتقة مـن كلمـة [Empôr](*)، فتلـك حقيقـة واقعـة أيضـاً؛ وأمـا إن البشـرقاتلوا أثنـاء الثـورة ومـا بعدهـا مـن أجـل الدسـاتير، فتلـك حقيقـة واقعـة أخـرى، كمـا أنهـا حقيقـة أنظمـة اجتماعيـة مختلفـة قـد رسـمت خطوطهـا؛ وليسـت حقيقـة أقـل مـن ذلـك أن بـرودون تحـدث عـن الفوضـى. ولقـد لفـق سانتشـو مـن هـذه الحقائـق الخمـس الفقـرة الـواردة أعـلاه.

ويسـتنتج سانتشـو مـن حقيقـة أن الثـورة الفرنسـية قـادت إلـى "مؤسسـات" أن الثورة "تأمـر" بذلك عامـة. ويسـتخلص سانتشـو- وفيـاً لسمسـاره التاريخـي - مـن حقيقـة أن الثـورة السياسـية قـد كانـت ثـورة سياسـية فعليـاً، وأنـه كان للتحويـل الاجتماعـي فيهـا تعبيـر رسـمي أيضـاً فـي صـورة الصراعـات الدسـتورية، إن هـدف الصـراع فيهـا كان اختيـار الدسـتور الأفضـل. وإنـه ليربـط بهـذا الاكتشـاف، بواسـطة كلمتـي "بالضبـط كمـا"، ذكـراً للأنظمـة الاجتماعيـة. لقـد اهتـم البشـر، فـي حقبـة البورجوازية، بالمسـائل الدسـتورية، "بالضبـط كمـا" ابتكـرت أنظمـة اجتماعيـة متنوعـة فـي الأزمنـة الحديثـة. ذلـك هـو سـياق الفكـرة فـي الفقـرة المذكـورة أعـلاه.

ويترتـب علـى مـا قيـل أعـلاه ضـد فويربـاخ أن الثـورات التـي اندلعـت حتـى الآن ضمـن إطـار تقسـيم العمـل قـد أدت بالضـرورة إلـى مؤسسـات سياسـية جديـدة. وإنـه ليترتـب عليـه أيضـاً، أن الثـورة الشـيوعية التـي تنقـض تقسـيم العمـل أن تـؤدي فـي المطـاف الأخيـر إلـى زوال المؤسسـات السياسـية؛ وإنـه ليترتـب عليـه أخيـراً، أن الثـورة الشـيوعية سـتوجه ليـس مـن قبـل "المؤسسـات الاجتماعيـة للأشـخاص المبدعيـن الموهوبيـن اجتماعيـاً"، بـل مـن قبـل حالـة القـوى المنتجـة.

لكـن "العاصـي يطمـح إلـى الحيـاة مـن دون دسـتور"! إن ذلـك "المولـود الحـر"، الـذي حطـم منـذ البدايـة جميـع العوائـق، يطمـح فـي آخـر الزمـن للاسـتغناء عـن الدسـتور.

ولا بـد أن نذكـر فضـلاً عـن ذلـك، أن مختلـف أنـواع الأوهـام السـابقة لصاحبنـا المغفـل قـد أسـهمت فـي تكويـن مفهـوم سانتشـو عـن "العصيـان". وإنهـا لتتضمـن فيمـا تتضمنـه اعتقـاده بـأن الأفـراد الذيـن يصنعـون ثـورة مرتبطـون بربـاط إيديولوجـي وإن "رفعهـم لرايـة الثـورة" يقتصـر علـى تمجيـد مفهـوم جديـد، فكـرة ثابتـة، شـبح أو طيـف - المقـدس. ويجعلهـم سانتشـو ينتزعـون

(*) Emporung - انتفاضة، عصيان؛ "Empôr" – فوق، عالياً.

هـذا الربـاط المثالـي مـن رؤوسـهم، وبذلـك يصبحـون فـي مخيلتـه عصبـة فوضويـة مـن الرعـاع لا تسـتطيع الآن علـى الأكثـر إلا أن "تعصـى". وبالإضافـة إلـى ذلـك، فقـد سـمع أن التنافـس هـو حـرب الجميـع ضـد الجميـع، وإن هـذه الصيغـة، الممتزجـة بثورتـه المجـردة مـن طابعهـا المقـدس، تشـكل العامـل الرئيسـي "لعصيانـه".

"حيـن أبحـث عـن مقارنـة مـن أجـل مزيـد مـن الوضـوح يخطـر فـي بالـي، ضـد توقعاتـي، تأسـيس المسـيحية". (ص ٤٢٣). ونعلـم هنـا أن "المسـيح لـم يكـن ثوريـاً بـل عاصيـاً انتصـب ونهـض"[*]. ولـذا لـم يعـن إلا بأمـر واحـد: "كونـوا حكمـاء كالأفاعـي" (المصـدر ذاتـه).

وحتـى يكـون "لتوقعـات" سانتشـو وكلمـة "واحـد" معنـى، لا بـد مـن حـذف النصـف الثانـي مـن العبـارة التوراتيـة التـي يستشـهد بهـا: "وودعـاء كالحمـام" (إنجيـل متـى، ١٠: ١٦). هـذا المسـيح ملـزم بـأن يمثـل هنـا للمـرة الثانيـة بصفتـه شـخصاً تاريخيـاً كيمـا يلعـب ذات الـدور الـذي لعبـه المغـول والزنـوج أعـلاه. أمـا مـا إذا كان المسـيح مثـالاً علـى العصيـان أم أن العصيـان هـو الـذي يجـب أن يكـون مثـالاً علـى المسـيح، فهـذا أمـر مجهـول. إن سـذاجة قديسـنا المسـيحية الألمانيـة تتمركـز كليـاً فـي هـذه العبـارة: إن المسـيح قـد أنضـب ينابيـع حيـاة العالـم الوثنـي بكاملـه، الأمـر الـذي كان لا بـد أن يـؤدي علـى أيـة حـال (يجـب أن نقـرأ ذلـك: مـن دونـه[**]) "بالدولـة القائمـة إلـى الاضمحـلال مثـل نبتـة ذابلـة" (ص ٤٢٤). يـا لهـا مـن زهـرة ذابلـة للبلاغـة المقدسـة! أنظـر أعـلاه عـن "الأقدميـن". وفيمـا عـدا ذلـك، أؤمـن كـي أفهـم[***]، أو كـي أجـد "مقارنـة مـن أجـل مزيـد مـن الوضـوح".

إن أمثلـة لا تحصـى قـد بيّنـت لنـا مـن قبـل أنـه لا يخطـر فـي بـال قديسـنا فـي جميـع المناسـبات سـوى التاريـخ المقـدس، وذلـك فـي الفقـرات حيـث لا يتدخـل "ضـد جميـع التوقعـات"إلا بالنسـبة إلـى القـارئ وحـده. وإنـه ليخطـر لـه مـن جديـد، "ضـد جميـع التوقعـات"، حتـى فـي "التعليـق"، حيـث يحمـل سانتشـو فـي الصفحـة ١٥٤ "النقـاد اليهـود" فـي أورشـليم القديمـة علـى القـول،

(*) يتلاعب شترنر هنا أيضاً بمعنى الألفاظ: Empôrer = عاص، وSich emporrichten = انتصب.

(**) تلاعب بالألفاظ: "على أية حال" (Ohnehin) تشبه في الألمانية كلمة "من دونه" (Ohne ihn).

(***) Credo ut intelligam، باللاتينية في النص الأصلي.

دحضاً للتعريف المسيحي "الله محبة": "وهكذا ترون أنه إله وثني، هذا الإله الذي ينادي المسيحيون به؛ ذلك أنه إذا كان الله محبة، فهو إذن، إله الغرام، إله الحب!". ومهما يكن من أمر، فإن العهد الجديد، "ضد جميع التوقعات"، قد كتب بالإغريقية، و"التعريف" المسيحي وارد كما يلي: [الله محبة] (رسالة القديس يوحنا الأولى، ٤:١٦)، في حين أن "إله الغرام، إله الحب"، يسمى Epwc. وهكذا لا يزال أمام سانتشو أن يفسر كيف استطاع "النقاد اليهود" أن يحققوا التحول من أحيرام (Ayaram) إلى Epwc. وفي هذه الفقرة من "التعليق"، يقارن المسيح "من أجل مزيد من الوضوح" مرة أخرى مع سانتشو، وعلى أية حال فلا بد لنا أن نعترف بأن ثمة شبهاً بارزاً بينهما، فكلاهما "كائنان جسديان"، والوريث السعيد يؤمن على الأقل بوجود كليهما، بل بأوحديتهما. أما إن سانتشو هو المسيح الحديث تلك هي "الفكرة الثابتة" التي "يستهدفها" منذ البداية هذا الانشاء التاريخي بأسره.

إن فلسفة العصيان، التي قدمت إلينا تواً في شكل نقائض رديئة وزهور بلاغة ذابلة ليست في آخر تحليل سوى تبجج يعبِّر عن وصولية حديث النعمة (Emporgekômmener, Emporkômmling Empôrer [*]). إن كل عاصٍ يتصرف بصورة أنانية يواجه وضعاً معيناً خاصاً يسعى إلى الارتفاع فوقه من دون أي اعتبار للشروط العامة. إنه يسعى كي يتخلص من النظام القائم بقدر ما يمثل هذا النظام قيداً يقيده، وفيما عدا ذلك فإنه يسعى، على العكس من ذلك، إلى الاندماج فيه. إن الحائك الذي "يرتفع" كي يصبح صاحب مصنع يتخلص بذلك من نوله ويتخلى عنه؛ وفيما عدا ذلك، فإن العالم يستمر على ما كان عليه، ويقتصر عاصينا "الناجح" على حث الآخرين بصورة مرائية على أن يصبحوا وصوليين مثله[**]. وهكذا فإن سائر تفاخرات شترنر القتالية تنتهي في استنتاجات أخلاقية من خرافات غيليرت وتفسيرات تأملية لتفجعات الإنسان البورجوازي.

(*) تلاعب بمترادفات شترنر. "Emporkômmling" (إلى فوق)، "Emporkômmener" "الذي ارتفع إلى أعلى، "Empôrer"، وهي جميعاً مشتقة من "Empôr" صعود.

(**) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] تلك هي المبادئ الأخلاقية المبتذلة للمالك الصغير الذي يعتقد أن كل شيء سوف يسير على خير ما يرام في هذا العالم إذا حاول كل امرئ من تلقاء نفسه أن ينجح قدر الإمكان، من دون أن يعنى بمسألة مسيرة العالم.

لقد رأينا حتى الآن أن العصيان هو أي شيء يحلو لك، باستثناء الفعل. ونعلم في الصفحة ٣٤٢ :

أن "عملية الاستيلاء على ما يقع في متناول اليد ليست بغيضة، بل تعبِّر على العكس من ذلك عن الفعل الصرف للأناني المتفق مع ذاته".

ومن المؤكد أن هذا يجب أن يقرأ كما يلي: للأنانيين المنتفعين فيما بينهم، وإلا فإن الاستيلاء يرجع إلى "عملية" اللصوص غير المتحضرة أو "عملية" البورجوازيين المتحضرة؛ وفي الحالة الأولى لا مستقبل له، بينما هو لا يشكل "عصياناً" في الحالة الثانية. ويجب أن يلاحظ أن لدينا هنا، مقابلاً للأناني المتفق مع ذاته الذي لا يفعل شيئاً، "الفعل الصرف"، فعلاً من المؤكد أنه لا يمكن توقعه إلا من مثل هذا الفرد غير الفاعل.

ونعلم بالمناسبة أصل العامة، ويمكننا أن نكون على ثقة سلفاً أنها خلقت من قبل "عقيدة"، والإيمان بهذه العقيدة، بالمقدس، الذي يظهر هنا، على سبيل التغيير، في صورة وعي الخطيئة:

"إن الاستيلاء خطيئة، جريمة - تلك هي العقيدة التي بفضلها وجدت العامة... إن وعي الخطيئة القديم هو وحده المسؤول عن ذلك" (ص ٣٤٢).

إن الاعتقاد بأن الوعي مسؤول عن كل شيء هو عقيدته، التي جعلت منه عاصياً ومن العامة مجموعة من الخطاة، وبصورة متعارضة مع وعي الخطيئة هذا، يستحث الأناني نفسه، ويستحث العامة، من أجل الاستيلاء على ما في متناول يده بالعبارات التالية:

"أقول لنفسي، حيث يمتد سلطاني، فتلك هي ملكيتي، وأدعي ملكيتي كل ما أحس أنني على قدر كاف من القوة لبلوغه" الخ، (ص ٣٤٠).

وهكذا يقول القديس سانتشو في نفسه إنه يريد أن يقول في نفسه شيئاً ما، يستحث نفسه كي يملك ما يملك، ويصوغ وضعه الواقعي في صورة علاقة قوة، وإن هذا الإسهاب يشكل على العموم سر جميع تفاخراته. (أنظر المنطق) ومن بعد فإنه - هو الذي يكون في كل لحظة ما يستطيع أن يكونه، وبالتالي يملك ما يستطيع أن يملكه - يميز ملكيته المحققة، الفعلية، المسجلة في حساب رأسماله، من ملكيته الممكنة، "شعوره بالقوة" غير المحقق،

التـي يسـجلها فـي حسـاب الأربـاح والخسـائر. وذلـك إسـهام فـي دراسـة علـم محاسـبة الملكيـة بالمعنـى فـوق العادي.

إن الأهميـة التـي يجـب أن نسـبغها علـى هـذه العبـارة المهيبـة: "أقـول لنفسـي"، يميـط سانتشـو اللثـام عنهـا فـي فقـرة وردت مـن قبـل:

"أقول لنفسي... إذن، فتلك أيضاً، بكل ما للكلمة من معنى، ثرثرة فارغة".

ويستطرد سانتشو:

إن "الأنانـي" يقـول "للعامـة المعدميـن" (The propertyless plebs) كيمـا "يقضـي" عليهـم: "اسـتولوا علـى مـا فـي متنـاول أيديكـم وخـذوا مـا تحتاجـون إليـه!" (ص ٣٤١).

أما مبلغ "فراغ" هذه "الثرثرة"، فهذا ما يتضح للعيان في الحال من المثال التالي:

"إننـي لا أرى فـي ثـروة المصرفـي شـيئاً غريبـاً أكثـر ممـا يـرى نابوليـون فـي أراضـي الملـوك بلدانـاً غريبـة. "نحـن" (لقـد حوّلـت "أنـا" بصـورة مباغتـة إلـى "نحـن") لا نخـاف علـى الإطـلاق الاسـتيلاء علـى هـذه الثـروة، وإننـا ننشـد كذلـك الوسـائل مـن أجـل القيـام بذلـك. وهكـذا فإننـا ننـزع عنهـا طابـع الاغتـراب الـذي كنـا نخافـه" (ص ٣٦٩).

أمـا إن سانتشـو لـم "ينـزع طابـع الاغتـراب" عـن ثـروة المصرفـي إلا بصـورة ضئيلـة جـداً، فهـذا مـا يثبتـه فـي الحـال بنصيحتـه الطيبـة النيـة إلـى العامـة بـأن "تسـتولي" عليهـا عنـوة. "فلتسـتول ولتـر مـا يتبقـى بيـن يديهـا!" لـن يتبقـى بيـن يديهـا إذن، ثـروة المصرفـي، بـل ورقـة عديمـة المنفعـة، "جـدث" تلـك الثـروة التـي ليسـت هـي بعـد الآن ثـروة أكثـر ممـا يكـون "الكلـب ميتـاً كلبـاً". ليسـت ثـروة المصرفـي ثـروة إلا ضمـن إطـار علاقـات الإنتـاج وعلاقـات التعامـل القائمـة، ولا يمكـن "الاسـتيلاء" عليهـا إلا فـي الشـروط التـي تخلقهـا هـذه العلاقـات وبالوسـائل الصالحـة لهـا. إذا انتابـت سانتشـو الرغبـة فـي الاسـتيلاء علـى ثـروات أخـرى، فسـوف يـرى أن حظـه لـن يكـون أفضـل. وهكـذا فـإن "الفعـل الصـرف للأنانـي المتفـق مـع ذاتـه" يعـادل فـي آخـر تحليـل إسـاءة حقيـرة للفهـم حتـى الدرجـة القصـوى. "هـذا مـا ينتهـي المـرء إليـه مـع شـبح" المقـدس.

وإذا مـا أخبـر سانتشـو نفسـه بمـا يريـد أن يخبرهـا بـه، فإنـه يجعـل العامـة العاصيـة تنطـق بمـا أمـلاه عليهـا. ولقـد حـرر بالفعـل، فـي حالـة العصيـان، نـداء مـع تعليمـات لاسـتخدامه؛ وهـو نـداء

سوف يعلق في جميع حانات الجعة في القرى ويوزع في سائر أنحاء الريف، مع الرجاء بأن ينشر في "الرسل العرجان"(les messagers boiteux)[١٩٦] وفي التقويم الرسمي لدوقية ناسو. وفي الوقت الحاضر، فإن الميول اللاهبة[*] لسانتشو مقصورة على الريف، على الدعاية بين الشغيلة الزراعيين وخادمات المزارع، ولا تمس المدن، وهو برهان آخر على المدى الذي بلغه في "نزع طابع الاغتراب" عن الصناعة الكبرى. ومهما يكن من أمر، فإننا نود أن نقدم هنا مقتطفات كاملة قدر الإمكان من الوثيقة الثمينة، التي لا يجوز ضياعها، كي "نسهم بقدر ما في استطاعتنا في نشر شهرة مستحقة تماماً" (ويغان، ص ١٩١).

ولقد ورد النداء في الصفحة ٣٥٨ وما يليها[من الكتاب]، ويبدأ كما يلي:

"ولكن ما الذي يضمن ملكيتكم، أنتم يا أصحاب الامتيازات؟... أهي حقيقة امتناعنا عن المساس بها، وبنتيجة ذلك حمايتنا نحن لها... أهي حقيقة أنكم تستخدمون العنف ضدنا".

أولاً، حقيقة امتناعنا عن المساس بها، أي حقيقة استخدامنا العنف ضد أنفسنا، ومن بعد حقيقة أنكم تستخدمون العنف ضدنا. هذا يسير على أروع صورة[**]! فلنواصل:

"إذا كنتم ترغبون في احترامنا، إذن، فاشتروه بسعر مقبول منا... إننا لا نطلب إلا سعراً عادلاً".

أولاً، يريد العصاة أن يبيعوا احترامهم "بسعر مقبول" ومن بعد يجعلون "الإنصاف" محكاً للسعر. أولاً، سعر اعتباطي، ومن بعد سعر محدد بالقوانين التجارية، وبتكاليف الإنتاج، والعلاقة بين العرض والطلب، وذلك بصورة مستقلة عن كل اعتباط.

"إننا نوافق على أن نتخلى لكم عن ملكيتكم بشرط أن تعوضوا بصورة مناسبة عن هذا التخلي... سوف تنادون بالويل والثبور إذا لمسناها... من دون العنف لن نحصل عليها" (أي المحار التي يستمتع بها أصحاب الامتيازات)... "إننا لا ننوي أن نأخذ منكم شيئاً، لا شيء على الإطلاق".

(*) Tendances incendiaires، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(**) Celà va à merveille، بالفرنسية في النص الأصلي.

أولاً "نتخلى عنها" لكم؛ ومن بعد نأخذها منكم ولا بد لنا من استخدام "العنف"؛ وأخيراً، فإننا لا ننوي أن نأخذ منكم شيئاً على أي حال. إننا نتخلى عنها لكم في حال تخليكم عنها من تلقاء أنفسكم؛ في لحظة من الاستنارة، وهي اللحظة الوحيدة التي تمر بنا، نرى أن هذا "التخلي" يعادل "الأخذ" واستخدام "العنف"، لكن لا يمكن على أي حال أن يؤخذ علينا "أخذ" أي شيء منكم. وهنا يجب أن تستقر الأمور.

"إننا نكد اثنتي عشرة ساعة يومياً في عرق جباهنا، وأنتم تقدمون لنا بضعة بنسات لقاء ذلك. خذوا إذن، مقداراً مساوياً لقاء عملكم أيضاً... ليس ثمة مساواة على الإطلاق!".

إن الشغيلة الزراعيين "العصاة" ينكشفون على أنهم "مخلوقات" شترنرية حقيقية.

"أنتم لا توافقون على ذلك؟ أنتم تتخيلون أن عملنا يكافأ بسخاء بذلك الأجر، لكن عملكم، من جهة أخرى، يساوي عدة ألوف. لكن إذا لم تقدروا عملكم بمثل هذا السعر الباهظ وسمحتم لنا أن نحقق قيمة أفضل من عملنا. فلعلنا نحقق، إذا اقتضى الأمر، عملاً أهم مما تصنعون لقاء عدة آلاف من التالرات(Thalers)[١٩٧]، ولو أنكم لم تحصلوا إلا على الأجور التي نتناولها، فسرعان ما تكدون أكثر كي تكسبوا المزيد، ولو أنكم قدمتم عملاً يتراءى لنا أنه يساوي عشرأومئة مرة أكثر من عملنا الخاص، إذن" (آه، أيها الخادم الشجاع والوفي!)، "فقد كنتم تحصلون لقاءه على مبلغ أعظم مائة مرة؛ وإننا، من جانبنا، نفكر أيضاً في أن نصنع لكم أشياء سوف تدفعون لنا لقاءها أكثر من الأجور اليومية المعتادة".

أولا يشكو العصاة من أنهم يتناولون أجوراً ضئيلة على عملهم. وعلى أية حال، فإنهم يعدون في نهاية الأمر إذا ما أعطوا أجوراً يومية أعلى فسوف ينجزون العمل الذي سوف يستأهل أن يدفع لقاءه "أكثر من الأجور اليومية المعتادة". وفيما عدا ذلك، فإنهم يعتقدون أنهم سوف ينتجون أشياء فائقة لو أنهم تناولوا فقط أجوراً أفضل. وإن كانوا يتوقعون في الوقت ذاته منجزات فائقة من قبل الرأسمالي لو أنه خفض "أجوره" فقط إلى مستوى أجورهم. وأخيراً، بعدما أنجزوا المأثرة الاقتصادية التي تستقيم في تحويل الربح - هذا الشكل الضروري من رأس المال، الذي سوف يغنون من دونه جنباً إلى جنب مع الرأسمالي- إلى أجور، فإنهم يحققون معجزة دفع "مئة مرة أكثر" مما يتناولونه لقاء "عملهم الخاص"،

أي مئة مرة أكثر مما يكسبون. "هذا هو "معنى العبارة آنفة الذكر، إذا كان شترنر "يعني ما يقول". لكن إذا كانت تلك مجرد خطيئة أسلوب من جانبه، إذا كان يريد أن يحمل العصاة على أن يقدموا بصورة مشتركة إلى الرأسمالي مئة مرة أكثر مما يكسبه كل واحد منهم، فإن شترنر لا يفعل إذن، سوى جعلهم يقدمون إلى الرأسمالي ما يقبضه كل رأسمالي سلفاً في الوقت الحاضر، لا أكثر ولا أقل. ذلك أنه من الواضح أن عمل الرأسمالي بالاشتراك مع رأسماله يساوي عشر أو مئة مرة أكثر من عمل مجرد عامل واحد. وبالتالي، فإن سانتشو في هذه الحال، كما هي الحال دائماً، يترك الأشياء جميعاً على حالها من دون أي تبديل.

"سوف نتفاهم جيداً إذا اتفقنا فقط على أنه لا حاجة لأي امرئ بعد الآن أن يهدي أي شيء إلى الآخر. وعندئذ فإننا على الأرجح سوف نمضي حتى ندفع أسعاراً لائقة للمقعدين، والمرضى، والمسنين، كيلا يموتوا جوعاً وعوزاً، ذلك أننا إذا كنا نريدهم أن يعيشوا، فإنه من المناسب أن ندفع من أجل تحقيق إرادتنا. أقول ندفع من أجل، وبالتالي فإنني لا أقصد أية صدقات بائسة".

هذا الفصل العاطفي عن المقعدين، الخ، يقصد منه البرهان على أن شغيلة سانتشو الزراعيين العصاة قد "ارتفعوا" سلفاً إلى ذلك المستوى من الوعي البورجوازي حيث لا يريدون أن يهدوا أو يتلقوا أية هدايا، وحيث يعتبرون أن كرامة ومصالح الفريقين المرتبطين بعلاقة تؤمن حالما تحوّل هذه العلاقة إلى صفقة.

إن هذا النداء الراعد للشعب العاصي في مخيلة سانتشو متبوع بتوجيهات من أجل استخدامه في شكل حوار بين مالك عقاري وأجرائه، والسيد يتصرف هذه المرة مثل شيليغا والأجراء مثل شترنر. وفي هذه التوجيهات تفسر الاضرابات(*) الإنكليزية والتحالفات العمالية[١٩٨] الفرنسية (بصورة قبلية (a priori)، بالطريقة البرلينية.

الناطق باسم الأجراء: "ما الذي تملكه إذن"؟.

المالك العقاري: "عندي ملكية تبلغ ألف مورجن"(**).

(*) Strikes، بالإنكليزية في النص الأصلي.

(**) مقياس أرضي قديم يتراوح قدره من بلد إلى آخر. ومثال ذلك أن المورجن البروسي كان يساوي ٠,٦٥ من الفدان.

الناطق: "وأنا شغيل عندك، وبالتالي فإنني لن أزرع أرضك إلا لقاء أجر يومي يساوي تالرا".

المالك: "في هذه الحال سوف أستأجر رجلاً آخر".

الناطق: "لن تجد أحداً، لأننا نحن الأجراء لن نعمل في المستقبل بأية شروط أخرى، وإذا وجدت أحداً يقبل بأن يتناول أقل، فليأخذ حذره منا. فحتى الخادمة تطلب الآن هذا الآجر، وأنت لن تجد بعد الآن أحداً لقاء أجر أقل".

المالك: "أوه! سوف يصيبني الدمار إذن!".

الأجراء (في جوقة واحدة): "لا تتعجل الأمور هكذا! من المؤكد أنك سوف تحصل على مثل ما نحصل عليه. وإن لم يكن ذلك، فسوف نحسم ما يكفيك كي تعيش مثلنا - لا مساواة**!**".

المالك: "لكني اعتدت حياة أفضل!".

الأجراء: "ليس لدينا اعتراض على ذلك، لكن هذا لا يعنينا. إذا استطعت أن توفر أكثر، فلا بأس. أيجب علينا أن نؤجر أنفسنا بسعر أقل كي تستطيع أن تعيش أفضل؟".

المالك: "لكن أنتم الناس غير المثقفين لا تحتاجون قدر حاجتي!".

الأجراء: "حسناً، سوف نأخذ قدراً أكبر قليلاً بحيث يكون في مقدورنا أن نحصل على هذه الثقافة التي من المؤكد أننا نفتقر إليها".

المالك: "لكن إذا ألحقتم الدمار هكذا بالأغنياء، فمن يمول الفنون والعلوم؟".

الأجراء: "حسناً، إن أعدادنا سوف تعنى بهذا الشأن، سوف نسهم جميعاً فيه، وبذلك يجمع مبلغ كبير. وعلى أية حال، فأنتم الأغنياء لا تبتاعون اليوم إلا أتفه الكتب وصور العذارى الباكيات، أو زوجين من أحذية الرقص الرشيقة".

المالك: "أواه، يا لها من مساواة بائسة!".

الأجراء: "لا، أيها السيد الفاضل العزيز، فلا مساواة على الإطلاق! إننا لا نريد سوى الحصول على ما نستحق، وإذا كنت تستحق المزيد، فإنك سوف تحصل إذن، على المزيد على أية حال. إننا لا نطلب إلا السعر العادل وننوي أن نثبت أننا نستحق السعر الذي سوف تدفعه لنا".

وفـي نهايـة هـذه المأسـاوية الرائعـة يعتـرف سانتشـو بـأن "إجمـاع الأجـراء لا غنـى عنـه" بـكل تأكيـد. أمـا كيـف سـيتم ذلـك، فهـذا مـا لا يقـال لنـا. إن مـا نعلمـه هـو أن الأجـراء الزراعييـن لا ينـوون مطلقـاً أن يغيـروا فـي أي حـال علاقـات الإنتـاج وعلاقـات التعامـل القائمـة، بـل كل مـا يريدونـه هـو أن يجبـروا المالـك علـى التنـازل لهـم عـن المقـدار الـذي يزيـد مصروفـه بـه عـن مصروفهـم. ولا أهميـة علـى الإطـلاق بالنسـبة إلـى مغفلنـا الممتلـئ بالنوايـا الطيبـة أن تكـون هـذه الزيـادة فـي المصـروف، إذا مـا وزعـت علـى كتلـة البروليتارييـن، لـن توفـر لـكل واحـد منهـم إلا مبلغـاً زهيـداً جـداً لـن يحسِّـن مركـزه فـي أي حـال مـن الأحـوال. إن مرحلـة تطـور الزراعـة التـي ينتسـب إليهـا هـؤلاء الأجـراء الأبطـال تتضـح فـي الحـال بعـد اختتـام المأسـاة مباشـرة، حيـن يتحولـون إلـى "خـدم منزلييـن" بـكل بسـاطة. وهكـذا فإنهـم يعيشـون فـي نظـام رعـوي لا يـزال تقسـيم العمـل فيـه قليـل التطـور جـداً، وسـوف تبلـغ فيـه، علـى أي حـال، المؤامـرة بكاملهـا "هدفهـا الأخيـر" بـأن يأخـذ المالـك الناطـق إلـى مخـزن للحبـوب ويجلـده، بينمـا فـي البلـدان الأكثـر حضـارة ينهـي الرأسـمالي القضيـة بإغـلاق مشـروعه لبعـض الوقـت وإرسـال عمالـه "كـي يلهـون". إن الحـس العملـي الـذي يظهـره سانتشـو فـي إنشـاء عملـه الفنـي، وتمسـكه الحـازم بحـدود الإهمـال، هـذا مـا يتبيـن بصـورة خاصـة مـن تحالـف "الخادمـات" الـذي تحـدث عنـه - إذا مـا تركنـا جانبـاً فكرتـه الغريبـة عـن تنظيـم انقطـاع الأجـراء الزراعييـن عـن العمـل[١٩٩]. ومـا أحلـى أن يتخيـل المـرء أن سـعر القمـح فـي السـوق العالميـة سـوف يتوقـف علـى مطالـب أجـور هـؤلاء الأجـراء الزراعييـن فـي أقصـى بوميرانيـا (Poméranie)، وليـس علـى العلاقـة بيـن العـرض والطلـب. وإن شـعوراً حقيقيـاً ينشـأ عـن الخطـاب المذهـل للشـغيلة عـن الأدب، وآخـر معـرض فنـي، وراقصـة اليـوم الرشـيقة؛ وإن الفعـل المذهـل ليسـتمر حتـى بعـد السـؤال غيـر المتوقـع الـذي طرحـه المالـك عـن الفـن والعلـم. إن هـؤلاء النـاس يصبحـون مهذبيـن جـداً حالمـا يتطرقـون إلـى موضـوع الأدب، والمالـك الـذي يواجـه المصاعـب ينسـى لبرهـة مـن الزمـن حتـى الدمـار الـذي يتهـدده كـي يثبـت إخلاصـه لقضيـة الأدب والفـن. وأخيـراً، فـإن العصـاة يؤكـدون لـه هـم أيضـاً، نواياهـم الطيبـة ويعلنـون لـه، الأمـر الـذي يبعـث الاطمئنـان فـي نفسـه، إنهـم لا يسترشـدون بالمصالـح الدنيئـة ولا بالميـول الهدامـة، بـل بأنقـى الحوافـز الأخلاقيـة. إن كل مـا يطلبـون هـو السـعر العـادل ويتعهـدون

علـى شـرفهم وضميرهـم أن يكونـوا جديريـن بالسـعر الأعلـى الـذي سـيدفع لهـم. وإن لهـذا كلـه هدفـاً وحيـداً، ألا وهـو أن يضمـن لـكل واحـد مـا يسـتحقه، أجـوره الشـريفة والعادلـة، و"ملذاتـه المكتسـبة بصـورة شـريفة بواسـطة العمـل". أمـا إن هـذا السـعر رهـن بحالـة سـوق العمـل وليـس بالعصيـان الأخلاقـي لعـدد مـن الأجـراء الزراعييـن المولعيـن بـالأدب، فتلـك بالطبـع حقيقـة لا يتوقـع مـن أصحابنـا الفاضليـن أن يعرفوهـا.

إن هـؤلاء العصـاة مـن أقصـى بوميرانيـا لمتواضعـون جـداً بحيـث يفضلـون، بالرغم مـن "إجماعهم" الـذي يجعلهـم قادريـن علـى أشـياء أخـرى مختلفـة كليـاً، أن يبقـوا أجـراء كمـا كانـوا مـن قبـل، و"أجـرة تالـر واحـد فـي اليـوم" هـي أقصـى رغباتهـم. وبالتالـي فإنـه مـن الطبيعـي تمامـاً أنهـم ليسـوا هـم الذيـن يسـتجوبون المالـك فـي قبضتهـم، بـل هو الـذي يسـتجوبهم.

إن "الشـجاعة الهادئـة" و"الوعـي الذاتـي الصلـب للخـادم المنزلـي" يظهـران كذلـك فـي الأحاديـث "الثابتـة" و"الصلبـة" التـي ينطـق بهـا هـو ورفاقـه. "لعـل - حسـناً - أن أعدادنـا سـوف تعنـى بـأن - مبلغـاً كبيـراً - أيهـا السـيد الفاضـل العزيـز - علـى أيـة حـال". ولقـد قرأنـا مـن قبـل فـي النـداء: "إذا تطلـب الأمـر- آه - إننـا نفكـر فـي صنـع لعـل ربمـا، الـخ".إن المـرء ليحسـب أن الأجـراء الزراعييـن قـد امتطـوا هـم أيضـاً الجـواد الشـهير كلافيلينـو(٢٠٠)(*).

وهكـذا، فـإن كل "العصيـان" الصاخـب لصاحبنـا سانتشـو يرجـع فـي آخـر تحليـل إلـى انقطـاع عـن العمـل، لكنـه انقطـاع عـن العمـل بالمعنـى فـوق العـادي، يعنـي انقطاعـاً عـن العمـل علـى الطريقـة البرلينيـة. وفـي حيـن أن الإضرابـات فـي البلـدان المتحضـرة تشـكل أكثـر فأكثـر مظهـراً أساسـياً مـن الحركـة العماليـة، لأن تجمعـات العمـال الأعـم تقـود إلـى أشـكال أخـرى للنشـاط، فـإن سانتشـو يحـاول أن يصـور رسـم المالـك الصغيـر الكاريكاتـوري للانقطـاع عـن العمـل علـى أنـه الشـكل الأخيـر والأسـمى للصـراع التاريخـي العالمـي.

إن أمـواج العصيـان تلقـي بنـا الآن علـى شـطآن أرض الميعـاد، المتدفقـة لبنـاً وعسـلاً، حيـث

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] إن فرنسا تنتج نسبياً من بوميرانيا الشرقية. وحسب ميشيل شوفالييه، فإن المنتج السنوي الكامل لفرنسا يساوي في حال توزيعه بصورة منتظمة بين سكانها ٩٧ فرنكاً للشخص الواحد، وهذا يعني لكل عائلة...

يجلس كل اسرائيلي حقيقي تحت شجرة التين الخاصة به وحيث أشرق فجر الحقبة الألفية "للانسجام".

آ - الرابطة

استعرضنا بادئ الأمر، في الفصل عن العصيان أمثلة عن تبجح سانتشو، ومن بعد رسمنا الطريقة التي يجري بها في الممارسة "الفعل الصرف للأناني المتفق مع نفسه". وفيما يتعلق "بالرابطة" سوف نفعل العكس، فندرس بادئ الأمر المؤسسات الموضوعية، ومن بعد نقارن بينها وبين أوهام قديسنا عنها.

١ ـ الملكية العقارية

"إذا كنا لا نريد بعد الآن أن نترك الأرض للمالكين العقاريين، بل نتملكها لأنفسنا، فيجب إذن، أن نتحد لهذه الغاية، ونشكل رابطة، Société (جمعية)، تنصب نفسها مالكاً؛ وإذا نجحنا، فإن المالكين العقاريين السابقين سيكفون عن كونهم مالكين". إن "الأرض" سوف تصبح إذن، "ملكية أولئك الذين يستولون عليها... وإن الموقف من الأرض الذي سيتخذه هؤلاء الأفراد، الذين تشكلوا في جماعة، لن يكون أقل اعتباطاً من موقف فرد منعزل أو ما يسمى المالك[*]. وبالتالي، في هذه الحالة أيضاً، سوف تستمر الملكية في الوجود، وهنا أيضاً في شكلها "الحصري"، باعتبار أن الجنس البشري، هذا المجتمع الكبير، يستبعد الفرد من ملكيته، ربما مؤجراً له قسماً منها فقط كمكافأة... هكذا ستبقى الأمور، وهذا ما سوف يكون. إن الشيء الذي يريد الجميع أن يكون لهم نصيب فيه سوف ينتزع من الفرد الذي يريد أن يحصل عليه لذاته وحده؛ إنه يحوَّل إلى ملكية مشاعة . إن لكل واحد نصيبه الخاص فيها، كما في ملكية مشاعة، وهذا النصيب هو ملكيته. كذلك أيضاً، في نظامنا التقليدي، البيت الذي يخص خمسة ورثة هو ملكيتهم المشاعة، في حين أن خمس الدخل هو ملكية كل واحد منهم". (ص ٣٢٩، ٣٣٠).

بعدما تشكل عصاتنا الشجعان في رابطة، في جمعية، وبهذه الصفة استولوا على قطعة

(*) propriété، بالفرنسية في النص الأصلي.

مـن الأرض، فـإن هـذه "الجمعيـة"(*)، هـذا الشـخص الاعتبـاري، "ينصـب نفسـه مالـكاً". ودرءاً لـكل سـوء تفاهـم، فإنـه يقـال لنـا فـي الحـال إن "هـذه الجمعيـة تسـتبعد الفـرد مـن الملكيـة، ربمـا مؤجـرة لـه قسـماً منهـا فقـط كمكافـأة". وبهـذه الطريقـة يسـتملك القديـس سانتشـو، لحسـابه وفـي مصلحـة رابطتـه، الشـيوعية كمـا يتوهمهـا. ولسـوف يتذكـر القـارئ أن سانتشـو فـي جهالتـه أخـذ على الشـيوعيين أنهـم يريـدون أن ينصبـوا المجتمـع مالـكاً أسـمى يمنـح كل فـرد "ملكيتـه" فـي ولايـة إقطاعيـة.

وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن سانتشـو يقـدم لمجنديـه منظـور "نصيـب فـي الملكيـة المشـاعة". وفـي مناسـبة أخـرى، ينتقـد سانتشـو هـذا نفسـه الشـيوعيين بالعبـارات التاليـة:

"سـواء أكانـت الثـروة تخـص الجماعـة بكاملهـا، التـي تعهـد لـي بقسـم منهـا، أم مالكيـن فـرادى، فـإن هـذا يمثـل الإكـراه نفسـه بالنسـبة إلـيَّ، مـا دمـت عاجـزاً فـي كلتـا الحاليـن بصـورة مطلقـة عـن التصـرف بهـا".

(لهـذا السـبب أيضـاً فـإن "مجمـوع جماعتـه" ينتـزع منـه الخيـرات التـي لا تريـد أن تخصـه وحـده، وبذلـك تشـعره بقـوة الإرادة الجماعيـة).

ثالثـاً، نصـادف هنـا مـرة أخـرى، "الطابـع الحصـري" الـذي مـا أكثـر مـا لام المجتمـع البورجـوازي عليـه، بحيـث "لا تخصـه حتـى البقعـة البائسـة التـي يقـف عليهـا". وعلـى العكـس مـن ذلـك، فـإن كل ما يملكـه هـو الحـق والقـدرة علـى أن يجلـس القرفصـاء عليهـا بوصفـه فـلاح سـخرة(**) بائسـاً ومضطهـداً.

رابعـاً، يتنـاول سانتشـو هنـا النظـام الإقطاعـي الـذي يصادفـه - الأمـر الـذي يثيـر لديـه أعظـم الضجـر- فـي جميـع أشـكال المجتمـع الموجـودة أو المتخيلـة حتـى هـذا الحيـن. إن "الجمعيـة" التـي تسـتولي علـى الأرض تتصـرف حتـى درجـة كبيـرة علـى غـرار "رابطـات" الجرمـان نصـف الهمجييـن الذيـن اجتاحـوا الأقاليـم الرومانيـة وأقامـوا فيهـا نظامـاً إقطاعيـاً بدائيـاً لا يـزال مشـرّباً بنمـط الحيـاة القبلـي القديـم. إنهـا تعطـي كل فـرد قطعـة مـن الأرض "كمكافـأة". وفـي المرحلـة

(*) société، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) tenancier، ويقصد به في النظام الإقطاعي الفلاح الذي يمنح قطعة من الأرض يشتغلها بنفسه.

حيث يقف سانتشو وجرمان القرن السادس، فإن النظام الإقطاعي يملك أكثر من نقطة مشتركة واحدة مع نظام "المكافأة"(*).

وعلى أية حال، فإنه من المفروغ منه أن الملكية القبلية التي يرد إليها سانتشو الاعتبار من جديد هنا لا بد أن تتفكك خلال وقت قصير كي تؤدي إلى النظام الراهن. وهذا ما يدركه سانتشو نفسه، حين يهتف: "كذلك ستبقى الأمور و" (يا لها من "و" رائعة!) "هذا ما سوف يكون". وختاماً فإنه يبرهن، بمثاله عن البيت الذي يخص خمسة ورثة، على أنه لا يملك أدنى نية في الخروج من إطار علاقاتنا القديمة. إن لكل مشروعه الخاص بتنظيم الملكية العقارية هدفاً واحداً فقط - أن يعود بنا القهقرى، بالتفاف تاريخي، إلى الولاية الوراثية للمالكين الصغار وللملكية العائلية للمدن الامبراطورية الألمانية.

لم يتناول سانتشومن نظامنا التقليدي، يعني النظام الذي لايزال قائماً حالياً، إلا الهراء القانوني القائل إن الأفراد، أو المالكين(**)، يتصرفون بالملكية العقارية "بصورة اعتباطية". وفي الرابطة، يستمر هذا "العسف" الوهمي، منسوباً هذه المرة إلى "المجتمع". وإن ما يصنع بالأرض أمر لا تبالي به "الرابطة" مطلقاً، بحيث إن "المجتمع" "ربما" أجّر قطعاً من الأرض للأفراد وربما لم يؤجرهم.

ومن المؤكد أن سانتشو لا يستطيع أن يعرف شكلاً معيناً من النشاط خاضعاً لمرحلة معينة من تقسيم العمل، يرتبط بتنظيم(***) معين للعمل الزراعي. لكن أي امرئ آخر يستطيع أن يرى كيف أن فلاحي السخرة الصغار الذين يقترح سانتشو خلقهم هنا، هم في مركز ضعيف جداً كي "يستطيع كل واحد منهم أن يصبح أنا مهيمنة"، وكيف أن ملكيتهم لقطعة حقيرة من الأرض تتفق بصورة رديئة جداً مع "ملكية كل شيء" التي هي موضع الاطراء البالغ. إن تعامل الأفراد في العالم الواقعي رهن بنمط الإنتاج ساري المفعول، وبالتالي فإن "ربما" سانتشو ربما أطاحت برابطته بأسرها. لكن "ربما"، أو بالأحرى مما لا ريب فيه، إن

(*) تلاعب بالألفاظ بين lehn (إقطاعية) وlohn (مكافأة).

(**) propriétaires، الفرنسية في النص الأصلي.

(***) organisation، بالفرنسية في النص الأصلي.

نظرة سانتشو الحقيقية إلى علاقات التعامل في الرابطة هي التي تنبثق هنا، وما هذه النظرة إلا أن المقدس هو أساس علاقات التعامل الأنانية.

ويسلط سانتشو هنا الضوء على "المؤسسة" الأولى لرابطته المقبلة. إن العصاة الذين يطمحون إلى "الاستغناء عن الدساتير" "ينظمون أنفسهم"، بأن "يختاروا" "دستوراً" للملكية العقارية. وإننا لنرى أن سانتشو كان على حق حين لم يضع أية آمال براقة في "المؤسسات" الجديدة. ومهما يكن من أمر، فإننا نرى في الوقت ذاته أنه يحتل مرتبة عالية بين "الأشخاص الموهوبين اجتماعياً" وأنه "خصب بصورة فائقة في ابتكار المؤسسات الاجتماعية".

٢ ـ تنظيم العمل

"لا يعنى تنظيم العمل إلا بالأعمال التي يستطيع الآخرون أن يصنعوها لنا، مثل ذبح الماشية، والفلاحة، الخ؛ وتحتفظ الأعمال الأخرى بطابع أناني لأن أي امرئ لا يستطيع، على سبيل المثال، أن يؤلف موسيقاك لك، وينفذ اللوحات التي تخيلتها، الخ. لا يستطيع أي امرئ أن يبدع أعمال رافاييل من أجله، فهي أعمال فرد واحد، أعمال لا يستطيع سوى هذا الشخص الأوحد أن يحققها، في حين أن الأعمال الأولى تستحق أن تسمى إنسانية" (في الصفحة ٣٥٦ توحد هذه الصفة مع "المنفعة العامة") "باعتبار أن العنصر الفردي يتحلى بأهمية ضئيلة هنا وأن كل شخص على وجه التقريب يمكن أن يدرب للقيام بها". (ص ٣٥٥).

"إنه ليناسبنا دائماً أن ننتهي إلى اتفاق بشأن الأعمال الإنسانية كي لا تحتكر كل وقتنا وجهدنا كما هي الحال في نظام التنافس. ولكن من الذي سوف ينتفع بالوقت الموفر؟ وكيف سيستخدم المرء هذا الوقت الإضافي فوق ما يتطلبه استرداد قوة عمله المنهكة؟ هذا ما لا تعطي الشيوعية أي جواب عنه. إن الجواب هو أن المرء سوف يستخدم ذلك الوقت من أجل الاستمتاع بنفسه بصفته كائناً أوحد، بعد أن ينفذ مهمته بصفته إنساناً". (ص ٣٥٦، ٣٥٧).

"أستطيع من خلال العمل أن أنجز الواجبات الرسمية لرئيس الجمهورية، أو وزير، الخ، فهذه الوظائف لا تتطلب إلا ثقافة عامة، يعني الثقافة التي هي في متناول جميع الناس... ومهما يكن من أمر، فإذا كان كل امرئ يستطيع أن يشغل هذه المناصب، فإن قوة

الفـرد، الوحـداء التـي تخصـه وحـده، هـي وحدهـا التـي تمنحهـا، إذا جـاز التعبيـر، الحيـاة والمعنـى. فـإذا قـام بهـذه المهمـات ليـس بصفتـه إنسـاناً عاديـاً، لكـن بـأن يبـذل فيهـا القـدرات المحتـواة فـي شـخصيته الوحـداء، بـأن يبـذل فيهـا أوحديتـه، فإنـه لا يمكـن مكافـأة هـذا النشـاط إذن، بمنحـه أجـر موظـف أو وزيـر فقـط. إذا كان قـد عمـل بصـورة ترضيكـم وأردتـم لمصلحتكـم أن تحتفظـوا بهـذه القـوة الثمينـة للشـخص الأوحـد، فإنـه يتعيـن عليكـم إذن، ألّا تكافئـوه بـكل بسـاطة علـى إنـه إنسـان ينجـز عمـلاً إنسـانياً، بـل علـى أنـه إنسـان ينجـز عمـلاً أوحـد" (ص ٣٦٢، ٣٦٣).

"إذا كنـت فـي مركـز يمكنـك مـن توفيـر الفـرح لألـوف النـاس، فـإن الألـوف سـوف يكافئونـك لقـاء ذلـك، لأنـه سـوف يكـون فـي مقـدورك بـكل تأكيـد أن توقـف نشـاطك، وبالتالـي، فـإن عليهـم أن يشـتروا نشـاطك" (ص ٣٥١).

"لا يسـتطيع المـرء أن يضـع تعرفـة لمـا هـو أوحـد فـيَّ كمـا هـي حـال العمـل الـذي أنجـزه بوصفـي إنسـاناً. لا يمكـن تحديـد تعرفـة إلا مـن أجـل هـذا العمـل الأخيـر وحـده. إذن، حـددوا تعرفـة للأعمـال الإنسـانية، لكـن لا تحرمـوا أوحديتكـم مـن الكسـب الـذي هـو مـن حقهـا". (ص ٣٦٣).

وكمثـال علـى تنظيـم العمـل فـي الرابطـة، يـرد فـي الصفحـة ٣٦٥ ذكـر المخابـز العامـة آنفـة الذكـر. ومـن المؤكـد أن هـذه المؤسسـات العامـة تشـكل معجـزة حقيقيـة فـي ظـل الشـروط المفترضـة أعـلاه للملكيـة المجـزأة الفنداليـة (type vandale)[٢٠١].

قبـل كل شـيء يجـب تنظيـم العمـل الإنسـاني، وبذلـك اختصـاره بحيـث يسـتطيع الأخ شـتراوبنغر، وقـد أنهـى عملـه باكـراً، أن "يسـتمتع بنفسـه بصفتـه كائنـاً أوحـد" (ص ٣٥٧)، لكـن هـذه "المتعـة" الخاصـة بالأوحـد تتلاشـى فـي الصفحـة ٣٦٣ كـي تصبـح مكسـباً إضافيـاً. وإنـه ليقـرر فـي الصفحـة ٣٦٣ أن الفعاليـة الحيويـة للشـخص الأوحـد غيـر ملزمـة بـأن تتحقـق بصـورة متفقـة مـع العمـل الإنسـاني؛ فهـذا العمـل الأخيـر يمكـن إنجـازه بوصفـه عمـلاً أوحـد، وفـي هـذه الحالـة يتطلـب أجـوراً أعظـم. وإلا فـإن المـرء الأوحـد، غيـر المعنـي بأوحديتـه بـل بالأجـور الأعظـم، يسـتطيع أن يضـع أوحديتـه علـى الـرف، وأن يرضـى، كـي يغيـظ المجتمـع، بالتصـرف بوصفـه شـخصاً عاديـاً، محتـالاً علـى نفسـه فـي الوقـت ذاتـه.

ووفقـاً للصفحـة ٣٥٦، فـإن العمـل الإنسـاني يتطابـق مـع العمـل النافـع عامـة، لكـن وفقـاً للصفحتيـن ٣٥١ و٣٦٣، فـإن المقيـاس الحقيقـي للعمـل الأوحـد هـو أنـه نافـع عامـة، أو علـى الأقـل نافـع لعـدد كبيـر مـن النـاس ويسـتحق مـن جـراء ذلـك أجـوراً إضافيـة.

وهكـذا، فـإن تنظيـم العمـل فـي الرابطـة يسـتقيم فـي فصـل العمـل الإنسـاني عـن العمـل الأوحد، فـي إقـرار تعرفـة للعمـل الإنسـاني والمسـاومة علـى عـلاوة فـي الأجـور مـن أجـل العمـل الأوحـد. وإن هـذه العـلاوة مزدوجـة بدورهـا، الجـزء الواحـد منهـا لقـاء الإنجـاز الأوحـد للعمـل الإنسـاني، والجـزء الآخـر لقـاء الإنجـاز الأوحـد للعمـل الأوحـد، الأمـر الـذي يتطلـب محاسـبة معقـدة، وهـي محاسـبة تـزداد تعقيـداً لأن مـا كان عمـلاً أوحـد بالأمـس (مثـلاً غـزل خيـط القطـن رقـم ٢٠٠) يصبـح عمـلاً إنسـانياً اليـوم، ولأن الإنجـاز الأوحـد للعمـل الإنسـاني يتطلـب تجسسـاً ذاتيـاً مسـتمراً فـي مصلحـة المـرء الخاصـة وتجسسـاً عامـاً فـي سـبيل المصلحـة العامـة. وهكـذا، فـإن هـذا المشـروع التنظيمـي العظيـم بأسـره يسـاوي انتحـالاً علـى صعيـد مالـك صغيـر جـداً لقانـون العـرض والطلـب، كمـا هـو موجـود حاليـاً وكمـا شـرحه جميـع الاقتصادييـن. وإن سانتشـو ليسـتطيع أن يجـد عنـد آدم سـميث تفسـير ذلـك القانـون الـذي يحـدد سـعر تلـك الأنمـاط مـن العمـل الـذي ينعتـه سانتشـو بالأوحـد (مثـلاً عمـل الراقصـة، أو الطبيـب البـارع، أو المحامـي البـارز)، كمـا يسـتطيع أن يجـد تعرفـة محـددة لـه عنـد الأميركـي كوبـر. وإن الاقتصادييـن المحدثيـن ليفسـرون علـى أسـاس هـذا القانـون الأجـور العاليـة لمـا يسـمونه العمـل غيـر المنتـج والأجـور المنخفضـة للشـغيل الزراعـي الميـاوم، وعلـى العمـوم جميـع التفاوتـات في الأجـور. وهكـذا وصلنـا مـن جديـد، بمعونـة اللـه، إلـى التنافـس، لكنـه التنافـس فـي شـكل بدائـي تمامـاً، بدائـي جـداً بحيـث يسـتطيع سانتشـو أن يقتـرح تحديـداً للأجـور علـى أسـاس القوانيـن، كمـا كانـت الحـال قديمـاً فـي القرنيـن الرابـع عشـر والخامـس عشـر..

وإنـه لممـا يسـتحق الذكـر أيضـاً، أن الفكـرة التـي يقدمهـا سانتشـو هنـا يمكـن أن تصـادف، مقدمـة علـى أنهـا طرفـة لـم يسـبق لهـا مثيـل، لـدى الهـر مسـيه (Messie) - دكتـور جـورج كوهلمـان مـن هولشـتاين.

إن مـا يسـميه سانتشـو هنـا أعمـالاً إنسـانية هـو، مـن دون أي اعتبـار لأوهامـه البيروقراطيـة، مـا

يقصد عادة بالعمل الآلي، العمل الذي يقع أكثر فأكثر، مع تطور الصناعة، على عاتق الآلات. صحيح أن الآلات، في الرابطة، مع تنظيم الملكية العقارية الآنف الذكر، أمر مستحيل، وبالتالي فإن فلاحي السخرة المتفقين مع أنفسهم يفضلون الوصول إلى اتفاق مع بعضهم بعضاً من أجل القيام بهذا العمل. أما في يتعلق "برؤساء الجمهوريات" و"الوزراء"، فإن سانتشو هذا الكائن الموضَّع المسكين(*) - على حد تعبير أوين - لا يحكم على الأمور إلا وفقاً لبيئته المباشرة وحدها.

إن الحظ يخون سانتشو هنا مرة أخرى بأمثلته العملية. إنه يحسب أن "أي امرئ لا يستطيع أن يؤلف موسيقاك لك، وينفذ اللوحات التي تخيلتها. لا يستطيع أي امرئ أن يبدع أعمال رافاييل من أجله". وعلى أية حال، فقد كان في مقدور سانتشو أن يعرف أنه ليس موزارت نفسه بل شخص آخر هو الذي ألف القسم الأكبر من مقطوعته صلاة وأعطاها شكلها النهائي[٢٠٢]، وأن رافاييل لم "ينفذ" هو نفسه القسم الأكبر من جدارياته.

إنه يتوهم أن الذين يسمون منظمي العمل[٢٠٣] يطمحون إلى تنظيم كامل نشاط كل فرد، ومع ذلك فإن التمييز بين العمل المنتج مباشرة، الذي يجب تنظيمه، والعمل غير المنتج مباشرة، قد رسم لديهم بالضبط. وفيما يتعلق بالعمل غير المنتج مباشرة، فإنهم لا يعتقدون على أية حال، كما يتخيل سانتشو، أن أي امرئ يستطيع أن يأخذ مكان رافاييل، بل إن كل امرئ ينطوي فيه رافاييل كموني يجب أن يكون في وسعه التطور من دون أي عائق. ويتخيل سانتشو أن رافاييل رسم لوحاته بصورة مستقلة عن تقسيم العمل الذي كان قائماً في روما في ذلك الحين. ولو أنه قارن رافاييل مع ليوناردو دافنشي أو تيتيان، فلقد كان يعلم إلى أي مدى كانت أعمال رافاييل الفنية مشروطة بازدهار روما في تلك الحقبة، هذا الازدهار الذي ارتفعت إليه تحت التأثير الفلورنسي، في حين أن أعمال ليوناردو كانت رهناً بالأوضاع الخاصة في فلورنسا، وأعمال تيتيان في مرحلة لاحقة بتطور البندقية المختلف كل الاختلاف. إن رافاييل، مثله كمثل أي فنان آخر، قد كان مشروطاً بالتقدم التقني الذي حققه الفن قبله، وبتنظيم المجتمع وتقسيم العمل القائمين في محل سكناه، وأخيراً بتقسيم العمل

(*) this poor localized being، بالإنكليزية في النص الأصلي.

فـي جميـع البلـدان التـي كانـت المدينـة التـي يقيـم فيهـا تتعامـل معـه. أمـا مـا إذا كان فـرد مثـل رافاييـل ينجـح فـي تنميـة موهبتـه، فذلـك أمـر يتوقـف كلياً علـى الطلـب، الـذي يتوقـف بـدوره علـى تقسـيم العمـل وشـروط الثقافـة الإنسـانية الناجمـة عنـه.

وحيـن ينـادي شـترنر بالطابـع "الأوحـد" للعمـل العلمـي أو الفنـي، فإنـه يظـل مـن دون مسـتوى البورجوازيـة حتـى درجـة بعيـدة. ولقـد تبينـت فـي الوقـت الحاضـر ضـرورة تنظيـم هـذ النشـاط "الأوحـد". فمـا كان هـوراس فيرنيـه يجـد الوقـت لأن يرسـم حتـى عشـر لوحاتـه لـو أنـه اعتبرهـا أعمـالاً "لا يسـتطيع إنتاجهـا إلا هـذا الشـخص الأوحـد وحـده". وفـي باريـس، أدى الطلـب الكبيـر علـى المسـرحيات الهزليـة الغنائيـة(*) والروايـات إلـى تنظيـم إنتاجهـا، وهـو تنظيـم قـدم حتـى الآن شـيئاً أفضـل مـن منافسـيه "الأوحديـن" فـي ألمانيـا. وفـي علـم الفلـك، وجـد أنـاس مـن أمثـال أراغـو وهيرشـل وإنكيـه وبيسـيل (Arago, Herschel, Encke et Bessel) أنـه مـن الضـرورة بمـكان أن ينظمـوا أنفسـهم مـن أجـل القيـام بمشـاهدات منسـقة، ولـم يحصلـوا علـى بعـض النتائـج المثمـرة إلا ابتـداء مـن ذلـك. وفـي التاريـخ يسـتحيل كليـاً علـى "الأوحـد" أن يحقـق أي شـيء علـى الإطـلاق، وفـي هـذا الحقـل أيضـاً تجـاوز الفرنسـيون منـذ زمـن طويـل جميـع الأمـم الأخـرى بفضـل تنظيـم العمـل. وعلـى أي حـال، فإنـه مـن البديهـي أن جميـع هـذه المنظمـات المؤسسـة علـى تقسـيم العمـل الحديـث لا تـزال تـؤدي إلـى نتائـج محـدودة حتـى الدرجـة القصـوى ولا تمثـل خطـوة إلـى الأمـام إلا بالمقارنـة مـع العزلـة الضيقـة السـابقة.

وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه يجـب التشـديد بصـورة خاصـة علـى أن سانتشـو يخلـط بيـن تنظيـم العمـل والشـيوعية، بـل يبلـغ بـه الأمـر أن يتعجـب لأن "الشـيوعية" لا تعطيـه أي جـواب عـن التحفظـات التـي يصوغهـا بشـأن هـذا التنظيـم. وإنـه لتعجـب يذكرنـا بذلـك الفتـى القـروي الغاسـكوني الـذي أصابـه الذهـول لأن أراغـو لـم يسـتطع أن يخبـره علـى أي نجـم أقـام اللـه الجبـار عرشـه.

إن تركـز الموهبـة الفنيـة المقصـور علـى أفـراد خاصيـن ومـا يترتـب علـى ذلـك مـن انعدامهـا فـي الجمهـرة الغفيـرة مـن النـاس همـا نتيجـة لتقسـيم العمـل. وحتـى إذا افترضنـا أن كل امـرئ،

(*) vaudevilles، بالفرنسية في النص الأصلي.

في شروط اجتماعية معينة، رسام ممتاز، فإن هذا لن ينفي على الإطلاق إمكانية أن يكون كل امرئ رساماً أصيلاً أيضاً، بحيث أن التمييز بين العمل "الإنساني" والعمل "الأوحد" ينتهي هنا أيضاً إلى لغو صرف. ومهما يكن من أمر، فإن ما سوف ينقض في التنظيم الشيوعي للمجتمع هو العوائق المحلية والقومية، الناشئة كلياً عن تقسيم العمل، التي تقيد الفنان، في حين أن الفرد لن يكون بعد الآن أسير حدود معينة، هذه الحدود التي تقصره على أن يكون رساماً أو نحاتاً، الخ، ليس غير، والاسم المطلق على نشاطه يعبِّر وحده بصورة ملائمة عن ضيق إمكانات نشاط هذا الفرد وتبعيته لتقسيم العمل. لن يكون في المجتمع الشيوعي رسامون، بل على الأكثر بشر يتعاطون الرسم في عداد نشاطات أخرى.

إن تنظيم العمل على طريقة سانتشو يبين بكل وضوح إلى أي مدى يكتفي جميع هؤلاء الفرسان الفلسفيين "للجوهر"[٢٠٤] بمجرد العبارات الجوفاء. إن خضوع "الجوهر" "للذات" الذي يتحدثون عنه جميعاً بكل هذه البلاغة، وإرجاع "الجوهر" الذي يتحكم في "الذات" إلى مجرد "عرض" لهذه الذات، ينكشف على أنه مجرد "ثرثرة جوفاء"[*]. وهذا هو السبب في امتناعهم بكل حيطة عن الإقدام على دراسة تقسيم العمل والإنتاج المادي والتعامل المادي، التي تجعل في واقع الأمر الأفراد خاضعين لشروط اجتماعية معينة وأشكال معينة للنشاط. وباختصار فإن كل همهم هو ابتكار عبارات جديدة من أجل تفسير العالم القائم - عبارات من المؤكد أنها تؤول إلى تبجح مضحك بقدر ما يتخيل هؤلاء الناس أنهم ارتفعوا فوق العالم، وبقدر ما يضعون أنفسهم في تعارض معه، وهو ما يشكل سانتشو مثالاً محزناً عليه.

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] لو أن سانتشو حمل عباراته الجوفاء على محمل الجد، فقد كان لا بد له أن يتطرق إلى دراسة تقسيم العمل. لكنه امتنع بكل حيطة عن ذلك وارتضى من دون أي تردد تقسيم العمل كيما يستغله في مصلحة رابطته. وإن دراسة أعمق للموضوع كانت تبين له بكل تأكيد أن تقسيم العمل لا يلغى "بانتزاعه من رأس المرء". إن قتال هؤلاء الفلاسفة ضد "الجوهر" وازدراءهم التام لتقسيم العمل، هذا الأساس المادي الذي قام منه طيف الجوهر، إنما يبرهن على أن همَّ هؤلاء الأبطال ينحصر في إلغاء هذه العبارات الجوفاء، وهم لا ينشدون مطلقاً تغيير الشروط التي لا بد أن تؤدي إلى قيام هذه العبارت الجوفاء.

٣ – المال

"المـال سـلعة، وبصـورة أدق وسـيلة أو ثـروة أساسـية، لأنـه يحمـي الثـروة ضـد التعظـم(ossification)، ويحتفـظ بهـا فـي حالـة السـيولة، ويسـبب تداولهـا، وإذا كنتـم تعرفـون وسـيلة أفضـل للتبـادل، فـلا بـأس؛ لكـن هـذه الوسـيلة أيضـاً سـوف تكـون نوعـاً مـن المـال". (ص ٣٦٤).

وفي الصفحة ٣٥٣ يعّرف المال على أنه "ملكية متحركة أو ملكية في التداول".

وبالتالـي، فـإن المـال يُبقـى عليـه فـي الرابطـة، هـذه الملكيـة ذات الطابـع الاجتماعـي الصـرف التـي تجـردت عـن كل طابـع فـردي. أمـا إن سانتشـو أسـير خـط التفكيـر البورجـوازي كليـاً، فهـذا مـا يبينـه سـؤاله عـن وسـيلة أفضـل للتبـادل. وهكـذا فإنـه يفتـرض بـادئ ذي بـدء أن وسـيلة مـا للتبـادل ضروريـة، وفضـلاً عـن ذلـك فإنـه لا يعـرف وسـيلة أخـرى للتبـادل باسـتثناء المـال. إن المراكـب والخطوط الحديديـة، التـي تخـدم مـن أجـل نقـل البضائـع، هـي وسـيلة للتبـادل أيضـاً. لكنـه لا يأبـه لهـذه الحقيقـة مطلقـاً. وبالتالـي، كـي يتحـدث لا عـن وسـيلة للتبـادل بصـورة عامـة، بـل عـن المـال بصـورة خاصـة، لا بـد لـه أن يضـم مـن جديـد، كتلـة واحـدة، سـائر الخصائـص الأخـرى المميـزة للمـال، ألا وهـي أنـه وسـيلة عامـة ومتحركـة للتبـادل والتـداول، تحتفـظ بـكل ملكيـة فـي حالـة السـيولة (Liquidité)، الـخ. وتنضـم إلـى ذلـك أيضـاً المظاهرالاقتصاديـة الأخـرى التـي لا يعرفهـا سانتشـو، لكـن التـي تشـكل المـال بصـورة فعليـة؛ وفـي ركابهـا الوضـع الحالـي برمتـه، والاقتصـاد الطبقـي، وهيمنـة البورجوازيـة، الـخ.

وعلـى أيـة حـال، فإننـا نعلـم قبـل كل شـيء بعـض الأمـور عـن - يـا للغرابـة - الأزمـات الماليـة فـي الرابطـة.

وينشأ السؤال:

"مـن أيـن يتـم الحصـول علـى المـال؟... لا يدفـع النـاس بالمـال، الـذي قـد يكـون ثمـة عجـز فيـه، بـل بالملكيـة [Vermôgen](*)، التـي وحدهـا تمنـح بعـض القـدرة [Vermôgen]. ليـس المـال السـبب فـي جميـع آلامـك، بـل عـدم قدرتـك [Vermôgen] علـى الحصـول عليـه".

(*) تلاعب بكلمة [Vermôgen] مرة أخرى، وبمشتقاتها، وهي تعني القدرة، أو الأهلية، أو القوة، أو الثروة، أو الملكية.

ويأتي الآن دور التحريض الأخلاقي:

"فليكـن لقدرتـك [Vermôgen] فعاليتهـا، اسـتجمع قـواك، ولـن تفتقـر إلـى المـال [Geld]، مالـك، المـال المسـكوك مـن قبلـك... أعـرف إذن، أنـك تملـك مـن المـال بقـدر مـا تملـك مـن قـوة؛ ذلـك أنـك تسـاوي بقـدر مـا تؤكـد ذاتـك"(*). (ص ٣٥٣، ٣٦٤).

إن قـوة المـال، حقيقـة أن هـذه الوسـيلة العامـة للتبـادل تصبـح مسـتقلة عـن المجتمـع وعـن الأفـراد علـى حـد سـواء، تبيـن بوضـوح خـاص، علـى صعيـد أعـم، أن علاقـات الإنتـاج والتعامـل ككل تتخـذ وجـوداً مسـتقلاً لا يخضـع لإشـراف البشـر... وبنتيجـة ذلـك، فـإن سانتشـو، كمـا هـي العـادة، يجهـل كل شـيء عـن الروابـط القائمـة بيـن المعطيـات الماليـة مـن جهـة، والإنتـاج عامـة والتعامـل مـن جهـة أخـرى. إنـه يحافـظ مـن دون أي تـردد علـى المـال فـي حالـة القـوة، مثلـه كمثـل أي بورجـوازي صالـح؛ والحقيقـة أن الأمـر لا يمكـن أن يكـون خـلاف ذلـك مـع نظرتـه عـن تقسـيم العمـل وتنظيـم الملكيـة العقاريـة. إن قـوة المـال الماديـة، التـي تنكشـف بصـورة بـارزة فـي الأزمـات الماليـة، والتـي تئـد، فـي صـورة عجـز مالـي مزمـن، علـى المالـك الصغيـر الـذي هـو "شـار بالقـوة"، هـي كذلـك حقيقـة مزعجـة حتـى الدرجـة القصـوى بالنسـبة إلـى الأنانـي المتفـق مـع ذاتـه. وإنـه ليتخلـص مـن الصعوبـة بقلـب الفكـرة العاديـة للمالـك الصغيـر، وبذلـك يظهـر الأمـور كمـا لـو أن موقـف الأفـراد حيـال المـال والقـوة التـي يملكهـا أمـر يتوقـف علـى إرادتهـم الشـخصية أو نواياهـم بـكل بسـاطة. وإن هـذه اللفتـة الفكريـة الموفقـة تعطيـه إذن، فرصـة إلقـاء موعظـة أخلاقيـة، مؤيـدة بالتـرادف، وفقـه اللغـة، وتحـولات الأحـرف اللينـة، علـى المالـك الصغيـر المشـدوه، المتهافـت سـلفاً مـن جـراء عـوز المـال، وبذلـك يقطـع الطريـق بصـورة مسـبقة علـى جميـع الأسـئلة المزعجـة عـن أسـباب هـذه الضائقـة الماليـة.

إن الأزمــة النقديــة تســتقيم أولاً، فــي حقيقــة أن كل "ملكيــة" [Vermôgen] تنخفــض قيمتهــا بصــورة مفاجئــة نســبة إلــى وســيلة التبــادل وتفقــد "قوتهــا" [Vermôgen] علــى المــال. إن الأزمــة تظهـر بالضبـط حيـن لا يسـتطيع المـرء بعـد الآن أن يدفـع مـن "ملكيتـه" [Vermôgen]، بـل يجـب

(*) ثمة تلاعب هنا بكلمات "Gold" – المال. و"Sich Geltung verschaffen" - تأكيد الذات؛ و"Gelten" - أن يكون جديراً.

أن يدفع بالمال. وإن هذا بدوره لا يحدث بسبب من نقص المال، كما يتخيل المالك الصغير الذي يحكم على الأزمة انطلاقاً من حاجته الخاصة، بل بسبب من أن الفرق النوعي يصبح محدداً بين المال بوصفه السلعة العامة، "الملكية المتحركة والمتداولة"، وبين جميع السلع الخصوصية الأخرى التي تتوقف على حين غرة عن كونها ملكية متحركة. ولا ينتظر أحد منا أن نحلل هنا، كي نرضي سانتشو، أسباب هذه الظاهرة. إن سانتشو يغري قبل كل شيء البقالين الصغار المفلسين واليائسين بقوله: إنه ليس المال الذي يسبب نقص المال والأزمة بأسرها، بل عدم قدرتهم على الحصول عليه. ليس الزرنيخ هو المسؤول عن موت امرئ تناوله، بل عدم قدرة أعضائه على هضمه.

وبعدما عرَّف المال بادئ الأمر على أنه شكل أساسي للثروة [Vermôgen] وفي حقيقة الأمر نوعي، على أنه الوسيلة العامة للتبادل، على أنه المال بالمعنى العادي، يقلب سانتشو الأمر على حين غرة حين يرى المصاعب التي سيؤدي ذلك إليها ويعلن أن كل ملكية [Vermôgen] هي مال، كيما يخلق مظهر القوة الشخصية. إن الصعوبة أثناء الأزمة هي على وجه الدقة في أن "كل ملكية" قد كفت عن كونها "مالاً". وعلى أي حال، فإن ذلك يضاهي ممارسة البورجوازي الذي يقبل "أي ملكية" كوسيلة للدفع ما دامت مالاً ولا يباشر في رفع الصعوبات إلا حين يصبح من العسير تحويل هذه "الملكية" إلى مال، وعندئذ يكف أيضاً عن اعتبارها "ملكية". وفيما عدا ذلك، فإن الصعوبة في زمن الأزمة هي بالضبط في أنكم، أنتم المالكين الصغار الذين يخاطبكم سانتشو هنا، لا تستطيعون بعد الآن أن تحققوا تداول (circuler) المال المسكوك من قبلكم، أي سنداتكم؛ بدلاً من ذلك يطلب منكم مال لم تسكوه أنتم، ولا يثبت أنه قد مرَّ في أيديكم.

وأخيراً يحرف شترنر الشعار البورجوازي: "إنك تساوي قدر ما تملك من مال"، فيجعل منه: "إنك تملك من المال قدر ما تساوي"، الأمر الذي لا يغير شيئاً، بل يدخل فقط مظهراً للقوة الشخصية، وبذلك يعبر عن الوهم البورجوازي المبتذل بأن كل امرئ يجب أن يتوجه باللوم إلى نفسه إذا كان لا يملك مالاً. وهكذا يدحض سانتشو القول البورجوازي

الكلاسيكي المأثور: ليس للمال سيد(*)، ويستطيع الآن أن يصعد إلى المنبر وينادي: "فليكن لقدرتك فعاليتها، استجمع قواك، ولن تفتقر إلى المال!". لست أعرف مكاناً في البورصة حيث تجري التجارة بالنوايا الطيبة (**). وليس عليه إلا أن يضيف: احصل على الاعتماد؛ المعرفة قوة؛ إن كسب التالر الأول أصعب من كسب المليون الأخير؛ كن مقتصداً ودارِ مالك، وأهم من كل شيء لا تتكاثر كثيراً، الخ - وبذلك فإنه لا يكشف عن جانب من نواياه، بل عن نواياه جميعاً. وعلى العموم، فإن هذا الرجل الذي يعتبر أن كل امرئ بالنسبة إليه هو ما يستطيع أن يكونه ويفعل ما يستطيع أن يفعله ينهي جميع الفصول بالنصائح الأخلاقية.

وهكذا فإن النظام النقدي [The monetary system] في رابطة شترنر هو النظام النقدي القائم معبراً عنه على طريقة المالك الصغير الألماني التجميلية والعاطفية المتدفقة.

وبعدما تبختر سانتشو بهذه الطريقة بكلتي أذني حماره، ينتصب دون كيخوت - شيليغا بكل قامته ويلقي خطاباً مهيباً عن الفرسان الجوابين العصريين، محولاً المال في سياقه إلى دولشينيا إلى توبوزو والصناعيين والتجار كتلة واحدة (***) إلى فرسان الصناعة (****). وإن للخطاب كذلك هدفاً إضافياً هو البرهان على أنه لما كان المال "وسيلة أساسية"، فإنه كذلك "ابنة بصورة أساسية"(*****). ولقد مد يده اليمنى وقال:

"على المال تتوقف السعادة والتعاسة. إنه قوة في الحقبة البورجوازية لأنه يخطب وده مثلما يخطب ود فتاة" (بنت مزرعة: وبالإبدال دولشينيا)، "لكنه لا يرتبط بأي امرئ برباط الزواج الوثيق. إن كل الرومانسية والفروسية لخطب ود شيء عزيز تبعثان إلى الحياة في التنافس. إن المال، موضوع الرغبة اللاهبة، يختطفه فرسان الصناعة المقدامون". (ص ٣٦٤).

(*) l'argent n'a pas de maître، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) je ne connais pas de lieu à la bourse òu se fasse le transfert des bonnes intentions، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) en masse، بالفرنسية في النص الأصلي.

(****) chevaliers d'industrie، بالفرنسية في النص الأصلي.

(*****) راجع: العائلة المقدسة، ص ٢٦٦.

لقـد وصـل سانتشـو الآن إلـى تفسـير عميـق للسـبب فـي أن المـال قـوة فـي الحقبـة البورجوازيـة، ألا وهـو إن السـعادة والتعاسـة رهـن بـه فـي المحـل الأول، ومـن بعـد لأنـه فتـاة عـذراء. ولقـد تعلـم فيمـا عـدا ذلـك لمـاذا يمكـن أن يفقـد مالـه، ألا وهـو إن العـذراء لـم ترتبـط بـأي امـرئ بربـاط الـزواج الوثيـق. إن البائـس المسـكين يعـرف الآن موطـئ قدميـه.

إن شـيليغا، الـذي جعـل بذلـك مـن البورجـوازي فارسـاً، يجعـل الآن مـن الشـيوعي بورجوازيـاً، وبصـورة أدق زوجـاً بورجوازيـاً.

"إن ذلـك الـذي يبتسـم الحـظ لـه يقـود العـروس إلـى داره. إن الصعلـوك محظـوظ، فهـو يأخذهـا إلـى بيتـه، المجتمـع، وبذلـك ينتهـي أمـر العذراء.وهـي ليسـت بعـد الآن، فـي بيتـه، عروسـاً، بـل زوجـة، وهـي تفقـد مـع عذريتهـا اسـم عائلتهـا. إن العـذراء التـي كانـت مـالاً تسـمى عمـلاً بعدمـا أصبحـت زوجـة، ذلـك أن العمـل هـو اسـم الـزوج.

إنهـا ملكيـة الـزوج، وكـي تكمـل الصـورة، فـإن ولـد العمـل والمـال (هـو عـذراء بـدوره) ("بنـت بصـورة أساسـية")، "عـذراء غيـر متزوجـة" (هـل شـاهد شـيليغا قـط عـذراء أصبحـت "متزوجـة" وهـي خارجـة مـن رحـم أمهـا؟) "وبالتالـي مـال" (وفقـاً للبرهـان الـوارد أعـلاه بـأن كل مـال هـو "بنـت غيـر متزوجـة"، فإنـه مـن البديهـي أن "جميـع البنـات غيـر المتزوجـات" هـن "مـال") - "وبالتالـي، مـال، لكـن سـلالته ثابتـة، فهـو مولـود مـن العمـل الـذي هـو أبـوه" (كل بحـث عـن الأبـوة ممنـوع")[٢٠٥]. "إن هيئـة الوجـه، والمظهـر بأسـره، يحمـلان طابعـاً مختلفـاً". (ص ٣٦٤، ٣٦٥).

إن هـذه القصـة عـن الـزواج والدفـن والعمـاد تبرهـن بحـد ذاتهـا بمـا فيـه الكفايـة علـى أنهـا "بنـت بصـورة أساسـية" لشـيليغا، وفـي الحقيقـة ابنـة ذات "سـلالة ثابتـة". ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن أساسـها الأخيـر يقـوم فـي جهـل سائسـه السـابق سانتشـو. ويتضـح هـذا الجهـل فـي الخاتمـة، حيـن يهتـم الخطيـب بقلـق مـن جديـد فـي "طابـع" المـال، وبذلـك يفضـح حقيقـة أنـه لا يـزال يعتبـر العملـة المعدنيـة أهـم وسـيلة للتـداول. ولـو أنـه اهتـم بـأن يـدرس بمزيـد مـن العمـق أسـس المـال الاقتصاديـة، بـدلاً مـن أن يجـدل إكليـل عـرسٍ جميـل لـه مـن الـورق، فلقـد كان يعـرف - مـن دون الإتيـان علـى ذكـر سـندات الدولـة، والأسـهم، الـخ - أن القسـم الأعظـم مـن وسـيلة التـداول يسـتقيم

فـي سـندات، فـي حيـن أن الأوراق النقديـة تشـكل بالمقارنـة قسـماً ضئيـلاً، والعملـة المعدنيـة قسـماً أصغـر مـن ذلـك أيضـاً. وفـي إنكلتـرا علـى سـبيل المثـال، فـإن مقـدار المـال المتـداول بالسـندات والأوراق المصرفيـة يسـاوي خمـس عشـرة مـرة المقـدار المتـداول منـه فـي شـكل نقـد معدنـي. وحتـى فيمـا يتعلـق بالنقـد المعدنـي، فإنـه يحـدد بتكاليـف الإنتـاج علـى وجـه الحصـر، أي العمـل. وهكـذا فـإن العمليـة الطويلـة والمعقـدة التـي يفسـر شـترنر بهـا ولادتـه كانـت نافلـة هنـا.

إن أفـكار شـيليغا المهيبـة عـن وسـيلة للتبـادل قائمـة علـى العمـل، لكـن متميـزة مـع ذلـك مـن النقـد الراهـن، هـذه الوسـيلة التـي يزعـم أنـه اكتشـفها بيـن بعـض الشـيوعيين، لا تبرهـن مـرة أخـرى إلا علـى السـذاجة التـي يصـدق بهـا صاحبانـا كل مـا يقرآنـه مـن دون أدنـى تمحيـص.

إن كلا البطليـن، بعدمـا أنهيـا هـذه الجملـة الفروسـية و"الرومانسـية" "لخطـب الـود"، لا يسـوقان "السـعادة" إلـى الـدار، وأقـل مـن ذلـك "العـروس"، وأقـل مـن أي شـيء آخـر "المـال"، بـل إن أحـد "الصعلوكيـن" يسـوق الصعلـوك الآخـر علـى الأكثـر.

٤- الدولة

رأينـا أن سانتشـو يحتفـظ فـي "رابطتـه" ببنيـة الملكيـة العقاريـة وتقسـيم العمـل والمال، بالشـكل الـذي تمثـل بـه هـذه العناصـر فـي مخيلـة المالـك الصغيـر. وإنـه لمـن الواضـح مـن نظـرة واحـدة أن سانتشـو لا يسـتطيع بمثـل هـذه المقدمـات أن يسـتغني عـن الدولـة.

فقبـل كل شـيء لا بـد لملكيتـه المكتسـبة حديثـاً أن تتخـذ شـكل الملكيـة المكفولـة، المعتـرف بهـا مـن قبـل القانـون. ولقـد سـبق لنـا أن سـمعنا كلماتـه:

"إن مـا يريـد الجميـع أن يكـون لهـم نصيـب فيـه سـوف ينتـزع مـن الفـرد الـذي يريـده أن يكـون لـه وحـده". (ص ٣٣٠).

وبالتالـي، فـإن إرادة الجماعـة بأسـرها تؤكـد هنـا ضـد إرادة الأفـراد المنعزليـن. وبمـا أن كل واحـد مـن الأنانييـن المتفقيـن مـع ذواتهـم يمكـن أن يكـون فـي لحظـة معينـة علـى خـلاف مـع الأنانييـن الآخريـن وبذلـك يصبـح مأخـوذاً فـي هـذا التناقـض، فـإن الإرادة الجماعيـة يجـب أن تجـد كذلـك وسـيلة مـا للتعبيـر عـن نفسـها فـي مواجهـة الأفـراد المنعزليـن.

"وهذه الإرادة تسمى إرادة الدولة". (ص ٢٥٧).

وبالتالـي فـإن مـا تقـرره يملـك قـوة القانـون، فهـي قـرارات قانونيـة. وإن تنفيـذ هـذه الإرادة الجماعيـة يتطلـب بـدوره تدابيـر زجريـة وسـلطة عامـة.

"فـي هـذا الميـدان أيضـاً" (ميـدان الملكيـة) "سـوف تضاعـف الرابطـات وسـائل الفـرد وتحمـي ملكيتـه المهـددة" (وبالتالـي فهـي تكفـل الملكيـة المكفولـة، أي الملكيـة المعتـرف بهـا مـن قبـل القانـون، أي الملكيـة التـي لا يملكهـا سانتشـو "بصـورة غيـر مشـروطة" بـل "يتصـرف بهـا علـى أسـاس الولايـة الإقطاعيـة" مـن قبـل "الرابطـة"). (ص ٣٤٢).

مـن الواضـح أنـه يعـاد تقريـر كل القانـون المدنـي جنبـاً إلى جنب مـع علاقـات الملكية، وسانتشـو ذاتـه، علـى سـبيل المثـال، يقـدم نظريـة العقـد بـروح المشـرِّعين تمامـاً، كمـا يلي:

"ليـس بـذي أهميـة أيضـاً أن أحـرم نفسـي مـن هـذه الحريـة أو تلـك، مثـلاً بفعـل عقـد كائنـاً مـا كان" (ص ٤٠٩).

وكيمـا "يحمـي" العقـود "المهـددة"، فإنـه لـن "يكـون بـذي أهميـة" أيضـاً، إذا كان لا بـد لـه مـن جديـد أن يتقـدم أمـام محكمـة ويتحمـل جميـع العواقـب الفعليـة لقضيـة مرفوعـة أمـام محكمـة مدنية.

وهكـذا، "شـيئاً فشـيئاً انطلاقـاً مـن الظـل والليـل"، نقتـرب أكثـر فأكثـر مـن جديـد مـن الأوضـاع القائمـة، لكـن كمـا هـي موجـودة فـي المخيلـة الحمقـاء للمالـك الصغيـر الألمانـي وحـده.

ويعترف سانتشو:

"فيمـا يتعلـق بالحريـة ليـس ثمـة فـرق جوهـري بيـن الدولـة والرابطـة. فهـذه الرابطـة لا يمكـن أن تنهـض وتوجـد مـن دون مختلـف أنـواع القيـود علـى الحريـة، بالضبـط كمـا أن الدولـة لا تتكيـف مـع الحريـة التـي لا حـدود لهـا. إن تقييـد الحريـة محتـوم فـي كل مـكان، لأنـه مـن المحـال التخلـص مـن جميـع العوائـق؛ فالمـرء لا يسـتطيع أن يطيـر مثـل عصفـور لمجـرد أن المـرء يـود أن يطيـر، الـخ.. ففـي الرابطـة سـوف يظـل هنـاك قـدر لا بـأس بـه مـن الإلـزام وانعـدام الحريـة، ذلـك أن هدفهـا ليـس الحريـة التـي تضحـي بهـا، بـل علـى النقيـض مـن ذلـك، إنهـا تضحـي فـي سـبيل الفرديـة، لكـن فـي سـبيل الفرديـة وحدهـا". (ص ٤١٠، ٤١١).

وإذا تركنـا جانبـاً لبعـض الوقـت هـذا التمييـز العجيـب بيـن الحريـة والفرديـة، فيجـب أن

نلاحظ أن سانتشو، من دون أن يكون ذلك في نيته، قد ضحى سلفاً "بفرديته" في رابطته من جراء مؤسساتها الاقتصادية. وبوصفه "مؤمناً" حقيقياً "بالدولة"، فإنه لا يرى تقييداً إلا حيث تظهر المؤسسات السياسية. إنه يترك المجتمع القديم مستمراً في وجوده، ومعه أيضاً تصنيف الأفراد وفقاً لتقسيم العمل؛ ولا يستطيع في هذه الحال الإفلات من قدره، الذي هو حصوله على "فردية" خاصة جداً مفروضة عليه من قبل تقسيم العمل وما يترتب له على ذلك من نصيب في صورة الشغل ونمط الحياة. فإذا كان من نصيبه على سبيل المثال: أن يعمل كأجير ميكانيكي في ويلنهول[٢٠٦]، فإن "الفردية" المفروضة عليه إذن، سوف تستقيم في تشوّه عظم الحرقفة (La hanche) الذي سيؤدي إلى "العرج"؛ وإذا كان "العنوان الشبحي لكتابه"[٢٠٧] لا بد أن يعيش يوماً حياة غزالة تشتغل على نول قديم، فإن "فرديته" سوف تستقيم إذن، في ركبتين متصلبتين. وحتى إذا اقتصر صاحبنا سانتشو على مهنته القديمة بوصفه فلاح سخرة، هذه المهنة المعينة له سلفاً من قبل سرفانتس، والتي ينادي بها الآن على أنها دعوته الخاصة ويدعو نفسه إلى إنجازها، فإنه سوف تكون له إذن، من جراء تقسيم العمل وانفصال المدينة والريف، "فردية" تفصله عن كل التعامل العالمي، وبنتيجة ذلك عن كل ثقافة، وتجعل منه بكل بساطة حيواناً يتفسخ في مكانه.

وهكذا فإن سانتشو في الرابطة، من جراء التنظيم الاجتماعي، يفقد فرديته رغماً عنه(*) إذا أخذنا الفردية، على سبيل الاستثناء، بمعنى الشخصية(**). أما إنه يتخلى إذن، عن حريته أيضاً، من جراء التنظيم السياسي، فهذا أمر طبيعي تماماً، ويبين بوضوح أعظم إلى أي مدى يسعى إلى الاحتفاظ بالأوضاع الراهنة في رابطته.

وهكذا فإن التمييز الأساسي بين الحرية والفردية يشكل الفرق بين الأوضاع الراهنة والرابطة. ولقد رأينا من قبل مبلغ جوهرية هذا التمييز. ولعل غالبية أعضاء الرابطة لن يتضايقوا أيضاً بصورة خاصة من جراء هذا التمييز وسوف يسرعون إلى رسم "تخلصهم" منها، وإذا لم يرضَ سانتشو عن ذلك، فإنهم سوف يبينون له إذن، على أساس "كتابه"، أنه

(*) malgre lui، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) partout et toujours، بالفرنسية في النص الأصلي.

ليس ثمة ماهيات أولاً، بل إن الماهيات والفروق الجوهرية هي "المقدس"؛ وثانياً، إنه ليس على الرابطة أن تتكبد المشقة بشأن "طبيعة القضية" و"مفهوم العلاقة"؛ وثالثاً، إنهم لا ينتهكون في أي حال من الأحوال فرديته، بل حريته في التعبير عنها فقط. ولعلهم يثبتون له، إذا هو "سعى للاستغناء عن الدساتير"، إنهم إنما يقيدون حريته حين يزجون به في السجن، ويكيلون له الصفعات، أو ينتزعون إحدى قدميه، وإنه يبقى في كل مكان ودائماً(*) "هو نفسه"، طالما أنه لا يزال قادراً على إظهار إمارات الحياة، وأن يكن على طريقة السليخ، أو المحار، أو حتى جثة ضفدع تخضع لتجربة غالفاني. ولسوف "يحددون تعرفة" لعمله، كما سمعنا من قبل، ولن "يسمحوا بأن يستفيد من ملكيته" بطريقة "حرة حقاً"(!) طالما أنهم يقيدون حريته، وليس فرديته - وهي أمور يلوم سانتشو الدولة عليها في الصفحة ٣٣٨. "ماذا يجب أن يفعل إذن"، فلاحنا المسخّر لسانتشو؟ "أن يعتمد على نفسه فقط ولا يقلق" بشأن "الرابطة" (المصدر ذاته). وأخيراً، حيثما يأخذ في الاحتجاج ضد القيود المفروضة عليه، فإن الغالبية سوف يبينون له أنه إذا ما قادته فرديته إلى المناداة بأن الحريات "فردية"، فإنهم سوف يكونون أحراراً في اعتبار تجلي ظاهرات فرديته على أنها حرية.

وكما أن الفرق المذكور أعلاه بين العمل البشري والعمل الأوحد قد كان مجرد انتحار حقير لقانون العرض والطلب، كذلك الفرق الذي يقيمه الآن بين الحرية والفردية انتحال حقير للعلاقة بين الدولة والمجتمع المدني، أو كما يقول السيد غيزو بين الحرية الفردية (**) والسلطة العامة (***). وإن هذا لصحيح جداً بحيث يستطيع فيما يلي أن ينسخ روسو كلمة فكلمة على وجه التقريب:

"إن الاتفاق على أن امرئ يجب أن يضحي بقسم من حريته" لا يقوم "مطلقاً في سبيل المصلحة العامة أو حتى مصلحة شخص آخر"، بل الأمر على النقيض من ذلك؛ "فقد

(*) يستخدم ماركس هنا كلمة "individualität" المستعارة من الفرنسية، وهي تتخذ هنا قيمة خاصة يمكن التعبير عنها بكلمة "شخصية". ولقد كان يستخدم أعلاه كلمة eigenheit التي يستعملها شترنر، ومعناها "فردية".

(**) Liberté individuelle، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) pouvoir public، بالفرنسية في النص الأصلي.

اتخـذت هـذا السـبيل بدافـع المصلحـة الذاتيـة. وبقـدر مـا يتعلـق الأمـر بالتضحيـة، فإننـي فـي آخـر الأمـر إنمـا أضحـي فقـط بمـا هـو فـي مقـدوري، وبـكلام آخـر فإننـي لا أضحـي بـأي شـيء علـى الإطـلاق". (ص ٤١٨).

إن الفرديـة صفـة يتقاسـمها فلاحنـا المسـخَّر المتفـق مـع نفسـه مـع كل فـلاح سـخرة آخـر، وعلـى العمـوم كل فـرد عـاش علـى سـطح البسـيطة فـي يـوم مـن الأيـام. أنظـر أيضاً غودويـن، العدالـة السياسـية(political Justice)[٢٠٨].

وبالمناسـبة، فـإن سانتشـو يعتقـد فيمـا يبـدو- وهـذه علامـة علـى فرديتـه - أن الأفـراد، فـي رأي روسـو، قـد عقـدوا العـزم فـي سـبيل المصلحـة العامـة، الأمـر الـذي لـم يخطـر قـط علـى بـال روسـو. ومهما يكن من أمر، فإنه يظل له عزاء واحد.

"إن الدولـة مقدسـة... لكـن الرابطـة... ليسـت مقدسـة". وههنـا يكمـن "الفـرق الكبيـر بيـن الدولـة والرابطـة". (ص ٤١١).

وهكـذا فـإن الفـرق كلـه يعـادل مـا يلـي: إن "الرابطة"هـي الدولـة الحديثـة كمـا هـي فـي واقـع الأمـر، و"الدولـة" هـي وهـم شـترنر بشـأن الدولـة البروسـية، التـي يعتبرهـا الدولـة عمومـاً.

٥ – العصيان

إن سانتشـو لا ينطـوي، وهـو فـي هـذا علـى حـق، إلا علـى إيمـان ضئيـل بتمييزاتـه الدقيقـة بيـن الدولـة والرابطـة، والمقـدس وغيـر المقـدس، والإنسـاني والأوحـد. والفرديـة والحريـة، الـخ، بحيـث يلتجـئ فـي آخـر الأمـر إلـى الحجـة الأخيـرة(*) للأنانـي المتفـق مـع ذاتـه - إلـى العصيـان، ومهمـا يكـن مـن أمـر، فإنـه فـي هـذه المـرة لا يثـور ضـد نفسـه كمـا زعـم مـن قبـل، بـل ضـد الرابطـة. ومثلمـا حـاول بـادئ الأمـر أن يسـوي جميـع المسـائل فـي الرابطـة، فإنـه يكـرر هـذه العمليـة فيمـا يتعلـق بالعصيـان.

"إذا عاملتني الجماعة بإجحاف، فإنني أثور ضدها وأدافع عن ملكيتي". (ص ٣٤٣).

(*) ultima ratio، باللاتينية في النص الأصلي.

إذا لم "ينجح" العصيان، فإن الرابطة سوف تطرده" (تسجنه، تنفيه، الخ) (ص ٢٥٦، ٢٥٧).

إن سانتشو يحاول هنا أن ينتحل حقوق الإنسان(*) لعام ١٧٩٣، التي كانت تتضمن حق العصيان(٢٠٩)- حق إنساني يحمل بكل تأكيد ثماراً مريرة له، هو الذي يحاول استخدامه على "هواه" الخاص".

***

وهكذا فإن رابطة سانتشو بأسرها تعود إلى ما يلي: بينما كان يعتبر في نقده السابق النظام القائم من وجهة نظر الوهم وحده، فإنه حين يتحدث عن الرابطة يحاول أن يدرس هذا النظام من وجهة نظر محتواه الفعلي وأن يجابه هذا المحتوى بالأوهام السابقة. ومن المؤكد أن هذه المحاولة التي يقوم بها صاحبنا معلم المدرسة الجاهل لا بد أن تخفق بصورة مشينة. وعلى سبيل الاستثناء، فقد سعى مرة إلى العثور على "طبيعة القضية" و"مفهوم العلاقة"، لكنه أخفق في "نزع" "روح الاغتراب" عن أية قضية أو علاقة.

والآن، وقد تعرفنا إلى الرابطة في شكلها الفعلي، فإنه لا يبقى لنا إلا أن ندرس أفكار سانتشو الحماسية عنها، يعني دين الرابطة وفلسفتها.

٦ - دين الرابطة وفلسفتها

نستأنف هنا من جديد، من النقطة التي انطلقنا منها أعلاه، عرضنا الخاص بالرابطة. ويستخدم سانتشو مقولتين: الملكية والثروة؛ وإن أوهامه عن الملكية تقابل بصورة رئيسية المعطيات الإيجابية المعطاة عن الملكية العقارية، وأوهامه عن الثروة والمعطيات عن تنظيم العمل والنظام النقدي في الرابطة.

آ - الملكية

ص ٣٣١: "إن العالم يخصني".

تعليل ولايته الوراثية على قطعة من الأرض.

(*) droits de l'homme، بالفرنسية في النص الأصلي.

ص ٣٤٣: "إنني مالك جميع الأشياء التي أحتاجها".

وهـو إطنـاب يقـول بطريقـة مزينـة: إن حاجاتـه تقتصـر علـى مـا يملكـه وإن مـا يحتاجـه بوصفـه فـلاح سـخرة يتقـرر بوضعـه الخـاص. وإن الاقتصادييـن لينـادون بالطريقـة ذاتهـا بـأن العامـل مالـك جميـع الأشـياء التـي يحتاجهـا بوصفـه عامـلاً. أنظـر البحـث عـن الأجـر الأدنـى عنـد ريـكاردو [l'exposé sur le salaire minimum][٢١٠].

ص ٣٤٣: "وعلى أية حال، فإن جميع الأمور تخصني الآن".

هـذا لحـن صاحـب علـى شـرف معـدل أجـوره، وقطعتـه مـن الأرض، ومصاعبـه الماليـة الدائمـة، واسـتبعاده مـن جميـع الأشـياء الـذي لا يريـد "المجتمـع" أن يكـون مالكهـا الأوحـد. وتصـادف الفكـرة ذاتهـا مـن جديـد فـي الصفحـة ٣٢٧، معبـراً عنهـا كمـا يلـي:

"إن أملاكه" (أي أملاك الغير) "هي لي وأنا اتصرف بها بوصفي المالك حتى أقصى قوتي".

إن هـذا اللحـن العسـكري السـريع[*] ينحـل كمـا سـنرى فـي إيقـاع لطيـف كـي يسـقط بـكل هـدوء علـى قفـاه - وهـو مصيـر سانتشـو المألـوف:

ص٣٣١: "إن العالـم يخصنـي . هـل سـتقولون (أيهـا اليسـوعيون) شـيئاً مغايـراً بصيغتكـم المعارضة: إن العالـم يخـص الجميـع؟ الجميـع هـم أنـا، ومـرة أخـرى أنـا، الـخ". (مثـال ذلـك، "روبسـبيير، علـى سـبيل المثـال، سـان سـيمون، وقـس علـى ذلـك").

ص ٤١٥: "إننـي الأنـا، وأنـت الأنـا، لكـن... هـذه الأنـا التـي نحـن جميعـاً متسـاوون فيهـا هـي فكـري فقـط - فكـرة عامـة" (المقـدس).

وإن التنـوع العملـي لهـذا الموضـوع يصـادف فـي الصفحـة ٣٣٠، حيـث "الأفـراد بصفتهـم الجماعيـة" (أي الجميـع) يناهضـون بوصفهـم قـوة منظمـة "الفـرد المنعـزل" (أي الأنـا بوصفهـا متميـزة مـن الجميـع).

إن هـذه النغمـات الشـاذة تـذوب أخيـراً فـي اللحـن الأخيـر المهـدئ، بمعنـى أن مـالاً أملكـه

(*) allegro marciale، بالإيطالية في النص الأصلي.

هـو علـى أيـة حـال ملكيـة "أنـا" أخـرى. وهكـذا فـإن "ملكيـة كل شـيء" هـي مجـرد تفسـير للبيـان الـذي ينـص علـى أن كل شـخص يملـك ملكيـة مقصـورة عليه.

ص ٣٣٦: "لكـن الملكيـة لا تكـون ملكيتـي إلا إذا كنـت أتصـرف بهـا بصـورة غيـر مشـروطة. وبوصفـي أنـا غيـر مشـروطة، فإننـي أملـك الثـروة بوصفهـا ملكيتـي وأشـتري وأبيـع بـكل حريـة".

إننـا لنعـرف مـن قبـل أنـه إذا لـم تكـن حريـة التجـارة ومبـدأ التصـرف غيـر المشـروط موضـع الاحتـرام فـي الرابطـة، فـإن ذلـك يتعـدى علـى الحريـة وحدهـا مـن دون الفرديـة. إن "الملكيـة غيـر المشـروطة" ملحـق ملائـم للملكيـة "المأمونـة"، المكفولـة، المتوافـرة فـي الرابطـة.

ص ٣٤٢: "فـي رأي الشـيوعيين أن الجماعـة يجـب أن تكـون المالـك. والأمـر علـى النقيـض مـن ذلـك: فإننـي أنـا المالـك، وإننـي أتوصـل فقـط إلـى اتفـاق مـع الآخريـن بشـأن ملكيتـي".

ولقـد رأينـا فـي الصفحـة ٣٢٩ كيـف أن "المجتمـع[*] ينصـب نفسـه مالـكاً" وفـي الصفحـة ٣٣٠ كيـف "يسـتبعد الأفـراد مـن ملكيتـه". وعلـى العمـوم شـاهدنا أن نظـام الأرض الموروثـة الإقطاعـي، وهـو الشـكل الأدنـى الأكثـر بدائيـة للنظـام الإقطاعـي، قـد طبـق. ووفقـاً للصفحـة ٤١٦، فـإن "النظـام الإقطاعـي = انعـدام الملكيـة"، ونظـراً لذلـك، وفقـاً للصفحـة ذاتهـا، فـإن "الملكيـة يعتـرف بهـا فـي الرابطـة، وفـي الرابطـة فقـط"، وهـي معتـرف بهـا لهـذا السـبب الكافـي، ألا وهـو "أن أحـداً بعـد الآن لا يحتفـظ بملكـه بنـاء علـى الولايـة مـن أي شـخص كان [Wesen] (المصـدر ذاتـه). وهـذا يعنـي، فـي ظـل النظـام الإقطاعـي القائـم حتـى هـذا الحيـن، أن السـيد الإقطاعـي قـد كان هـذا "الشـخص"، وهـو المجتمـع فـي الرابطـة. ويترتـب علـى ذلـك علـى الأقـل أن لسانتشـو طريقـة "حصريـة"، لكنهـا ليسـت "مضمونـة" فـي أي حـال مـن الأحـوال، فـي امتـلاك "الشـخص"، "ماهيـة" [Wesen][**] التاريـخ مـن أصولـه حتـى أيامنـا الحاضـرة.

وفيمـا يتعلـق بالصفحـة ٣٣٠، التـي تنـص علـى أن كل فـرد مسـتبعد مـن ذلـك الـذي لا يحلـو "للمجتمـع" أن يكـون هـو مالكـه الأوحـد، وفيمـا يتعلـق بالنظـام السياسـي والقانونـي للرابطـة، فإنـه قـد تقـرر:

(*) المقصود هنا هو المجتمع بمعناه الضيق، أي الرابطة.

(**) تلاعب بكلمة "Wesen" التي يمكن أن تعني الشخص والماهية.

ص ٣٦٩: "إن ملكيـة الغيـر الحقـة والمشـروعة لـن تكـون إلا تلـك التـي يلائمـك أن تعتـرف بهـا علـى أنهـا ملكيتـه. وإذا لـم يعـد ذلـك يلائمـك، فـإن هـذه الملكيـة تفقـد شـرعيتها بالنسـبة إليـك وسـوف تهـزأ بالحـق المطلـق الـذي يدعيـه الغيـر فيهـا".

وبذلـك فإنـه يكشـف عـن حقيقـة مذهلـة: إن مـا هـو حـق فـي الرابطـة لا يلائمـه بصـورة إلزاميـة - ذلـك حـق للإنسـان لا نـزاع فيـه. وإذا وجـدت فـي الرابطـة مؤسسـة مماثلـة للبرلمانـات[٢١١] الفرنسـية القديمـة، التـي يحبهـا سانتشـو كثيـراً، فإنـه يسـتطيع إذن أن يـودع فـي قلـم المحكمـة محضـراً باسـتيائه، معزيـاً نفسـه فـي الوقـت ذاتـه بفكـرة أن "المـرء لا يسـتطيع أن يتخلـص مـن جميـع العوائـق".

إن هـذه البيانـات المتنوعـة تتناقـض فيمـا بينهـا كمـا يبـدو وتناقـض الأوضـاع الفعليـة فـي الرابطة. بيـد أن مفتـاح هـذا اللغـز موجـود فـي الوهـم الحقوقـي المذكـور سـابقاً، ألا وهـو أنـه حيـن يسـتبعد سانتشـو مـن ملكيـة الآخريـن، فإنمـا ذلـك بموجـب اتفـاق مـع هـؤلاء الآخريـن. وإن هـذا الوهـم ليشـرح بمزيـد مـن التفصيـل فـي البيانـات التاليـة:

ص ٣٦٩: "ينتهـي هـذا" (أي احتـرام ملكيـة الآخريـن) "إلـى خاتمـة حيـن أسـتطيع أن أتخلـى عـن شـجرة لشـخص آخـر، بالضبـط مثلمـا أتـرك عصـاي، الـخ، لشـخص آخـر، لكننـي لا أعتبـر هـذه الشـجرة منـذ البدايـة علـى أنهـا شـيء غريـب عنـي، يعنـي أنهـا مقـدس... بالأحـرى... تظـل ملكيتـي، مـن دون أي اعتبـار للفتـرة التـي تنازلـت عنهـا خلالهـا لشـخص آخـر؛ إنهـا لـي وتظـل لـي. إننـي لا أرى أي شـيء غريـب فـي الثـروة التـي تخـص صاحـب المصـرف".

ص ٣٢٨: "إننـي لا أتراجـع فـي خشـية أمامـك وأمـام ملكيتـك، لكننـي أعتبرهـا دائمـاً علـى أنهـا ملكيتـي، التـي لا حاجـة بـي إلـى احترامهـا. أفعـل إذن، الشـيء ذاتـه بمـا يسـميه ملكيتـي. وبوجهـة النظـر هـذه، فإننـا سـوف نبلـغ بأقصـى اليسـر اتفاقـاً فيمـا بيننـا".

إذا مـا "جلـد" سانتشـو، بموجـب أحـكام الرابطـة، حالمـا يمـس ملكيـة شـخص آخـر، فإنـه يسـتطيع بـكل تأكيـد أن يزعـم أن "فرديتـه" تسـتقيم فـي أن يكـون "سـارقاً"؛ ومـع ذلـك فـإن الرابطـة سـوف تقـرر أن سانتشـو قـد ادعـى فقـط لنفسـه "حريـة" ليـس لـه حـق فيهـا. وإذا اتخـذ سانتشـو،

"حريـة" الاسـتيلاء علـى أمـلاك شـخص آخـر، فـإن الرابطـة سـتحكم عليـه بموجـب "فرديتهـا" بالجلـد لقـاء ذلـك.

إن ماهيـة المسـألة هـي كمـا يلـي: إن الملكيـة البورجوازيـة، وعلـى الأخـص ملكيـة المالكيـن الصغـار والملكيـة الفلاحيـة الصغيـرة، يحتفـظ بهـا فـي الرابطـة كمـا رأينـا. وإن كل مـا تغيـر هو التفسـير، طريقـة "اعتبارهـا"، وهـذا هـو السـبب فـي أن سانتشـو يؤكـد باسـتمرار علـى طريقـة "الاعتبـار". ويتـم الوصـول إلـى الاتفـاق حيـن تحظـى هـذه الفلسـفة الجديـدة للاعتبـار بالاعتبـار العـام فـي الرابطـة. وتسـتقيم هـذه الفلسـفة فيمـا يلـي:

أولاً، تعتبـر كل علاقـة، سـواء أكانـت ناتجـة مـن الشـروط الاقتصاديـة أم مـن الإكـراه المباشـر، علاقـة قائمـة علـى "اتفـاق".

ثانيـاً، يتخيـل أن كل ملكيـة تخـص الآخريـن جـرى التخلـي لهـم عنهـا مـن جانبنـا، وهـم لا يتصرفون بهـا إلا حتـى نملـك القـوة علـى انتزاعهـا منهـم؛ وإذا لـم نحصـل علـى هـذه القـوة قـط، فلا بـأس(*).

ثالثـاً، أن سانتشـو ورابطتـه يضمـن كل منهمـا نظريـاً للآخـر انعـدام الاحتـرام، فـي حيـن أن الرابطـة "تتوصـل إلـى الاتفـاق" فـي الممارسـة مـع سانتشـو بفضـل الهـراوة.

أخيـراً، إن هـذا "الاتفـاق" هـو مجـرد عبـارة فارغـة، مـا دام كل امـرئ يعـرف أن الآخريـن لا يدخلونـه إلا وفـي ذهنهـم فكـرة رفضـه فـي أول فرصـة مناسـبة. إننـي أرى فـي ملكيتـك شـيئاً ليـس هـو لـك بـل لـي، مـا دام كل أنـا تفعـل الشـيء ذاتـه، فـإن هـذه الملكيـة تتخـذ فـي أنظارهـم قيمـة عامـة، وبذلـك نصـل إلـى التفسـير الفلسـفي الألمانـي الحديـث للملكيـة الخاصـة، الخصوصيـة والحصريـة، التـي نعرفهـا.

إن فلسـفة الرابطـة الخاصـة بالملكيـة تتضمـن، فيمـا تتضمنـه، الأوهـام التاليـة المشـتقة مـن نظـام سانشو:

فـي الصفحـة ٣٤٢، إن الملكيـة يمكـن أن تكتسـب فـي الرابطـة بفضـل انعـدام الاحتـرام؛ وفـي الصفحـة ٣٥١، إننـا "نسـبح جميعـاً فـي وفـرة تامـة"، وأنـه "ليـس علـيَّ إلا أن أتنـاول مـا فـي متنـاول يـدي"، فـي حيـن أن الرابطـة بأسـرها يجـب أن تصنـف بيـن بقـرات فرعـون السـبع الهزيلـة؛

(*) tant mieux، بالفرنسية في النص الأصلي.

وأخيراً، إن سانتشو "ينطوي على أفكار" "مكتوبة في كتابه" وهي ما تغنّى في الصفحة ٣٧٤ في هذه القصيدة الغنائية التي لا نظير لها والتي يوجهها سانتشو إلى نفسه، تشبهاً بقصائد هايني الغنائية الثلاث إلى شليغل [des trios odes de Heine à Shlegel][٢١٢]: "أنت، يا من تنطوي على الأفكار المكتوبة في كتابك - أن نصيبك هو... الهراء!". تلك هي الترنيمة التي يهديها سانتشو بمرسوم لنفسه على أنها مقدمة أولية، والتي ستتوصل الرابطة في وقت لاحق إلى "اتفاق" بشأنها معه.

وأخيراً، فإنه من الواضح حتى من دون الوصول إلى "اتفاق" أن الملكية بالمعنى فوق العادي، التي تحدثنا عنها من قبل في علم الظواهر، سوف تقبل في الرابطة بدلاً من المدفوعات بوصفها ملكية "مسوقة" و"متداولة". وفيما يتعلق بالحقائق البسيطة، مثلاً إنني أشعر بالتعاطف، وإنني أتحدث إلى الآخرين، وإنهم يبترون لي ساقاً (أو ينتزعونها)، فإنها سوف تفسر في الرابطة بهذا المعنى: "إن شعور الذين يشعرون يخصني أيضاً، هو ملكيتي" (ص ٣٨٧)؛ وإن آذان الناس الآخرين وألسنتهم، مثلها كمثل العلاقات الميكانيكية، هي كذلك ملكيتي. وهكذا فإن التملك في الرابطة سوف يستقيم بصورة رئيسية في كون جميع العلاقات قد حولت إلى علاقات ملكية بواسطة إسهاب بسيط. إن هذا الأسلوب الجديد في التعبير عن "الشرور" السائدة في الوقت الحاضر هو "وسيلة أساسية أو ثروة" في الرابطة وسوف يعوض بنجاح عن العجز في وسائل العيش الذي هو أمر لا مفر منه نظراً "للعطاءات الاجتماعية" التي يتحلى بها سانتشو.

ب – الثروة

ص ٢١٦: "فليكن كل واحد منكم أنا كلية القوة".

ص ٣٥٣: "فكروا في زيادة ثروتكم!".

ص ٤٢٠: "لا تستخفوا بقيمة ما تعطونه".

"حافظوا على سعره".

"لا تسمحوا لأنفسكم بأن تلزموا بالبيع من دون السعر".

"لا تسمحوا لأنفسكم بالاقتناع بأن سلعتكم لا تساوي سعرها".

"لا تجعلوا أنفسكم موضعاً للسخرية بسعر بخس".

"اقتدوا بالجريئين"، الخ!

ص ٤٢٠: "انتفعوا بملكيتكم!" "انتفعوا بأنفسكم".

إن هذه الحِكم الرخيصة، التي تعلمها سانتشو من بائع متجول يهودي أندلسي يرسم لإبنه قواعد للحياة والتجارة، والتي يستخرجها سانتشو الآن من خرجه، تشكل الثروة الرئيسية للرابطة. وإن أساس هذه الحِكم جميعاً هو المبدأ الكبير الوارد في الصفحة ٣٥١:

"إن كل ما تستطيعه ["Vermôgst" الشكل المصرَّف لـ "Vermôgen"] يشكل ثروتك" [Vermôgen].

إن هذه العبارة إما أنها لا معنى لها، أي هي لغو صرف، وإما هي هراء. إنها لغو إذا كانت تعني: أن ما تستطيع فعله تستطيع فعله. وإنها هراء إذا كان المقصود من [Vermôgen] رقم ٢ الإشارة إلى الثروة "بالمعنى العادي"، الثروة التجارية، وإذا كانت القضية قائمة بالتالي على هذا التشابه اللغوي. وإن الالتباس ليستقيم على وجه الدقة في حقيقة أن شيئاً يتوقع من قدرتي [Vermôgen] غير ما هي قمينة بفعله، إنه يتوقع مثلاً من قدرتي على نظم الشعر موهبة تحويل هذا الشعر إلى نقد رنان. إنه ليتوقع من قدرتي بالفعل أن تنتج شيئاً مختلفاً كلياً عن المنتج النوعي لهذه القدرة الخصوصية، يعني منتجاً متوقفاً على الظروف التصادفية غير الخاضعة لهذه القدرة. ويفترض أن هذه الصعوبة تنحل في الرابطة بواسطة الاشتقاق اللغوي. إننا نرى أن صاحبنا معلم المدرسة الأناني يصبو إلى منصب بارز في الرابطة. وعلى أي حال، فإن هذه الصعوبة مظهرية فقط. إن المبدأ المركزي للأخلاق البورجوازية: "كل شيء صالح لكسب المال منه"(*) يشرح هنا مطولًا بطريقة سانتشو المفخمة.

ج – الأخلاق والتعامل ونظرية الاستغلال

ص: ٣٥٢: "إنكم تتصرفون بصورة أنانية حين تعتبرون بعضكم بعضاً ليس كمالكين ولا كصعاليك أو عمال، بل كجزء من ثروتكم، كمخلوقات نافعة. عندئذ لن تعطوا شيئاً لا

(*) anything is good to make money of ، بالإنكليزية في النص الأصلي.

للمالك لقاء ملكيته، ولا للمرء الذي يعمل، بل فقط لذلك الذي يمكنكم الانتفاع منه. هل نحتاج إلى ملك؟ هذا ما يسأل الأميركيون الشماليون أنفسهم عنه"، ويجيبون: "هو وعمله لا يساويان فلساً بالنسبة إلينا".

ومن جهة ثانية، في الصفحة ٢٢٩، يأخذ على "الحقبة البورجوازية" ما يلي:

"بدلاً من أخذي كما أنا، لا يؤخذ بعين الاعتبار إلا ما أملكه، ما أستطيع فعله، ويعقد معي اتحاداً زواجياً(*) فقط حباً لما أملك. إنهم يقترنون، إذا جاز التعبير بما أملكه وليس بما أنا كائنه".

وهذا يعني بكلام آخر أنه لا يؤخذ بعين الاعتبار إلا ما أنا كائنه بالنسبة إلى الآخرين، المنفعة التي يمكن الحصول عليها مني، وإنني أعامل على اعتباري مخلوقاً نافعاً. إن سانتشو يبصق في حساء "الحقبة البورجوازية"، كي يلتهمه فيما بعد.

إذا اعتبر أفراد المجتمع الحديث بعضهم بعضاً على أنهم مالكون، على أنهم عمال، وعلى أنهم صعاليك إذا كانت تلك هي رغبة سانتشو، فإن هذا يعني فقط إنهم يعاملون بعضهم بعضاً على أنهم مخلوقات نافعة، وهي حقيقة لا يمكن أن يشك فيها إلا فرد عديم المنفعة مثل سانتشو. إن الرأسمالي الذي "يعتبر" العامل "على أنه عامل" لا يأخذه بعين الاعتبار إلا لأنه في حاجة إلى العمال؛ إن العامل ليتخذ من الرأسمالي الموقف ذاته بالضبط، تماماً كما أن الأميركيين لا يحتاجون ملكاً في رأي سانتشو (كنا نود منه لو أشار إلى المصدر الذي أخذ عنه هذه الحقيقة التاريخية)، لأنهم ليسوا في حاجة إلى عمله. لقد اختار سانتشو مقاله بخراقته المألوفة، هادفاً منه أن يبرهن بالضبط على نقيض ما يبرهن عليه فعلياً.

ص ٣٩٥: "أنت لست شيئاً بالنسبة إليَّ سوى غذاء، بالضبط كما أنني مأكول ومستهلك من قبلك. ليس بيننا سوى علاقة واحدة. ألا وهي علاقة المنفعة، الفائدة، الانتفاع".

ص ٤١٦: "ليس بالنسبة إليَّ شخص ينبغي احترامه، حتى ولا زميلي الإنساني؛ لكنه

(*) في المخطوطة: "ehelicher bund"، أي "اتحاد زواجي"؛ في كتاب شترنر: "ehelicher bund" أي "اتحاد شريف".

بالنسبة إليَّ، مثله كمثل غيره من الكائنات"[*] "مجرد موضوع قد أضمر أو لا أضمر التعاطف له، أهتم به أو لا أهتم، مخلوق نافع أو عديم النفع".

إن علاقة "الانتفاع الممكن"، التي يفترض أنها العلاقة الوحيدة بين الأفراد في الرابطة، تتحول في الحال إلى هذه الصورة عن "الغذاء" المتبادل. ومن المؤكد أن "المسيحيين الكاملين" في الرابطة يحتفلون كذلك بالمناولة المقدسة، سوى أنهم يحتفلون بها ليس بتناول القربان سوية، بل باستخدام بعضهم بعضاً كقربان.

ولقد سبق لهيغل أن أثبت في كتابه علم الظواهر كيف أن هذه النظرية للاستغلال المتبادل، التي شرحها بنتام حتى الغثيان[**]، كان يمكن في مطلع القرن الحالي أن تعتبر بعد طوراً ينتسب إلى القرن السابق. أنظروا في هذا المؤلف الفصل عن "صراع فلسفة التنوير ضد التطير"، حيث توصف نظرية المنفعة على أنها النتيجة الأخيرة لفلسفة التنوير. إن مظهر البلاغة هذا، الذي يستقيم في إرجاع كل علاقات البشر المتعددة الأشكال إلى علاقة المنفعة الواحدة. وينشأ مظهر التجريد الميتافيزيقي هذا، ينشأ عن حقيقة أن كل العلاقات، في المجتمع البورجوازي الحديث، خاضعة ومرجعة في الممارسة للعلاقة النقدية المجردة الواحدة، علاقة المقايضة (rapport du troc). ولقد برزت هذه النظرية مع هوبس ولوك، وكانت معاصرة للثورتين الإنكليزيتين الأولى والثانية، هاتين المعركتين الأوليين اللتين ارتفعت البورجوازية بفضلهما إلى السلطة السياسية. بل إنها تصادف في وقت أبكر، عند الكتّاب عن الاقتصاد السياسي، بوصفها مسلّمة ضمنية طبعاً. إن الاقتصاد السياسي هو العلم الحقيقي لهذه النظرية عن المنفعة؛ وإنها لتظهربمحتواها الحقيقي عند الفيزيوقراطيين، ذلك أنهم كانوا السباقين إلى معالجة الاقتصاد السياسي بصورة منهجية. وإن المرء ليستطيع أن يجد عند هيلفيتيوس وهولباخ أمثلة لهذه العقيدة، تقابل كلياً موقف المعارضة الذي اتخذته البورجوازية الفرنسية قبل الثورة. وإن هولباخ ليصف كل فعالية الأفراد في تعاملهم المتبادل، مثلاً،الكلام، الحب، الخ، على أنها علاقة منفعة وانتفاع. وبالتالي، فإن العلاقات الفعلية

(*) ad mauseum، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) Developpée à satiété، بالفرنسية في النص الأصلي.

المفترضة هنا هي الكلام، والحب، هذه تجليات لظاهرة محددة لصفات محددة للأفراد. بيد أن هذه العلاقات لا يفترض فيها، من هذا المنظور، أن تملك معناها الخاص، بل يفترض فيها أنها تعبير وتتجلى كظاهرة لعلاقة ثالثة مختفية تحتها، علاقة المنفعة أو الانتفاع . إن هذا التحويل، السخيف والاعتباطي، لا يكف عن كونه كذلك إلا اعتباراً من اللحظة التي لا يعود فيها للعلاقات الأولى أهمية في حد ذاتها بالنسبة إلى الأفراد، فهي لا تمثل بعد الآن فعالية تصادفية، بل قناعاً يغطي لا مقولة الانتفاع المجردة، بل هدفاً فعلياً، بالضبط تلك العلاقة التي تسمى علاقة المنفعة.

إن هذا التنكر (déguisement) على صعيد اللغة لا يملك معنى إلا حين يشكل التعبير الدستوري أو المقصود لتنكر فعلي. وفي هذه الحالة تملك علاقة المنفعة معنى محدداً، فهي تعني أنني أحصل على ربح من جراء الأذى الذي ألحقه ببعض البشر (استثمار الإنسان للإنسان)[*]؛ وفيما عدا ذلك، فإن الربح الذي أحققه في هذه الحالة من علاقة ما هو على العموم عنصر غريب عن هذه العلاقة، بالضبط كما رأينا أعلاه فيما يتعلق بالقدرة [vermôgen]. إن منتجاً غريباً عن القدرة مطلوب من كل قدرة، وهي علاقة تحددها الشروط الاجتماعية - وأن هذه العلاقة هي على وجه الدقة علاقة منفعة. وإن هذا كله ليتحقق فعلاً بالنسبة إلى البورجوازي. فعنده أن علاقة واحدة فقط تملك أهمية في حد ذاتها - علاقة الاستغلال، وليس لسائر العلاقات الأخرى صلاحية بالنسبة إليه بقدر ما يستطيع أن يضمها في هذه العلاقة الواحدة، وحتى حيث يصادف علاقات لا يمكن تصنيفها بصورة مباشرة في علاقة الاستغلال، فإنه يصنفها في هذه العلاقة في مخيلته على الأقل. وإن المال هو التعبير عن هذا الربح الذي يتم الحصول عليه من الأشياء، فهو ممثل قيمة جميع الأشياء، والبشر، والعلاقات الاجتماعية. وعلى أي حال، فإن المرء يرى منذ الوهلة الأولى أن مقولة "الانتفاع" تستخرج قبل كل شيء من علاقات التعامل الفعلية التي تربطني بالبشر الآخرين (لكن ليس في أي حال من الأحوال من التفكير ومجرد الإرادة)؛ وعندئذ، فإن تقديم هذه العلاقات على أنها براهين على واقع هذه المقولة التي استخرجت منها بالذات، فتلك طريقة في النهج

(*) Exploitation de l’homme par l’homme، بالفرنسية في النص الأصلي.

ميتافيزيقية تماماً. وبالطريقة نفسها بالضبط، وبصورة لا تقل تسويغاًعن ذلك، وصف هيغل جميع العلاقات على أنها علاقات الروح الموضوعي. وبالتالي، فإن نظرية هولباخ هي الوهم الفلسفي، المسوغ تاريخياً، عن دور البورجوازية التي قامت في ذلك الحين بالضبط في فرنسا، والتي كان يمكن أن يفسر بعد تعطشها إلى الاستغلال على أنه تعطش إلى التطور الكامل للأفراد في شروط التعامل المحررة من الأغلال الإقطاعية القديمة. إن هذا التحرر من وجهة نظر البورجوازية، يعني، التنافس، قد كان بالطبع، بالنسبة إلى القرن الثامن عشر، الطريقة الوحيدة الممكنة من أجل شق طريق جديد لتطور أكثر حرية أمام الأفراد. إن الإعلان النظري عن الوعي المقابل لهذه الممارسة البورجوازية، وعي الاستغلال المتبادل على أنه العلاقة المتبادلة الكلية لجميع الأفراد، قد كان أيضاً خطوة جريئة وصريحة إلى الأمام، تنويراً دنيوياً للاستغلال، معرى من الزخرفة السياسية والرعوية والدينية والعاطفية التي كان يتحلى بها في ظل الإقطاعية، وهي زخرفة كانت تقابل شكل الاستغلال في ذلك الحين وقد جعل منها الكتّاب النظريون للملكية المطلقة نظاماً كاملاً.

وحتى لو أن سانتشو فعل في "كتابه" ما فعله هيلفيتيوس وهولباخ في القرن السابق، فإن هذا وحده كان يشكل في حد ذاته مفارقة تاريخية مضحكة. بيد أننا رأينا أنه يضع أنانية متبجحة، الأنانية المتفقة مع نفسها، في مكان الأنانية البورجوازية الفاعلة. إن جدارته الوحيدة، وهي جدارة لا شعورية ولا إرادية، قد كانت تعبيره عن طموح المالكين الصغار الألمان الحاليين الذين يتوقون إلى أن يصبحوا بورجوازيين حقيقيين. ولقد كان من المنطقي تماماً أن يغمر "الأوحد"، ممثل هؤلاء المالكين الصغار، العالم بأسره بتبجحاته، هذا "الأوحد" الدجال والمتفاخر والواثق من نفسه بقدر حقارة هؤلاء المالكين الصغار وتهورهم وضيقهم في سلوكهم العملي. وإنه لمما يتفق تماماً مع وضعية هؤلاء المالكين الصغار أنهم لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن بطلهم النظري العالي الصوت، وإن هذا البطل لا يعرف أي شيء عنهم؛ إنهم ليسوا في تناغم مع بعضهم بعضاً، وهو ملزم بالتبشير بالأنانية المتفقة مع نفسها. ولعل سانتشو يتحقق الآن من ذلك النوع من الحبل السري الذي يربط "رابطته" بالاتحاد الجمركي[٢١٣].

إن التقدم الذي حققته نظرية المنفعة والاستغلال ومراحلها المتنوعة مرتبطة بصورة وثيقة بالأطوار المتنوعة لتطور البورجوازية. وعند هيلفيتيوس وهولباخ، فإن محتوى النظرية الفعلي لم يمض كثيراً إلى أبعد من الإطناب في أسلوب تعبير الكتّاب في زمن الملكية المطلقة. كانت الصيغ مختلفة، ولم تكن تعكس الحقيقة الفعلية حتى درجة كبيرة، بل بالأحرى الرغبة في إرجاع سائر العلاقات إلى علاقة الاستغلال، وتفسير تعامل البشر انطلاقاً من الحاجات المادية ووسائل تلبيتها. كانت القضية قد طرحت. ولقد كان أمام أبصار هوبس ولوك التطور السابق للبورجوازية الهولندية (أن كلاهما عاش في هولندا لفترة من الزمن) والأفعال السياسية الأولى التي حطمت بها البورجوازية الإنكليزية قيودها المحلية والإقليمية، وكذلك مرحلة عالية التطور نسبياً للمانيفاكتورة، والتجارة البحرية، والاستعمار. وينطبق هذا بصورة خاصة على لوك، الذي كتب خلال المرحلة الأولى للاقتصاد الإنكليزي، في زمن نهوض الشركات المساهمة، وبنك إنكلترا، والسيادة الإنكليزية على البحار. فعندهما، وبصورة خاصة عند لوك، كانت نظرية الاستغلال مرتبطة بعد بصورة مباشرة بالمحتوى الاقتصادي.

ولقد كان أمام هيلفيتيوس وهولباخ، فضلاً عن النظرية الإنكليزية والتطور الذي تحقق من قبل البورجوازية الهولندية والإنكليزية، مثال البورجوازية الفرنسية التي كانت لا تزال تناضل في سبيل تطورها الطليق. كانت الروح التجارية العامة في القرن الثامن عشر، قد استولت في فرنسا بصورة خاصة على جميع الطبقات في صورة المضاربة. إن مصاعب الحكومة المالية والنزاعات الناجمة عنها بشأن الضرائب قد شغلت انتباه فرنسا بأسرها حتى في ذلك الحين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت باريس في القرن الثامن عشر الحاضرة الوحيدة، المدينة الوحيدة التي تقوم فيها علاقات تعامل شخصي بين أفراد من جميع الأمم. إن هذه المقدمات، الممتزجة بالطابع الأعم الذي يمتاز به الفرنسيون عامة، قد منحت نظرية هيلفيتيوس وهولباخ صبغتها العامة الخاصة، لكنها حرمتها في الوقت ذاته من المحتوى الاقتصادي الإيجابي الذي كان يصادف بعد عن الإنكليز. إن النظرية التي كانت لا تزال بالنسبة إلى الإنكليز مجرد تقرير حقيقة باتت بالنسبة إلى الفرنسيين نظاماً فلسفياً. إن هذا الطابع الشمولي، المجرد من المحتوى الإيجابي، كما نصادفه لدى هيلفيتيوس وهولباخ،

يختلف بصورة جوهرية عن الشمولية المدعومة بالمعطيات الحسية التي نصادفها للمرة الأولى عند بنتام وميل. إن ذلك الطابع يقابل البورجوازية المناضلة التي هي في سبيل التطور، أما هذه الشمولية فتقابل البورجوازية الظافرة التي أنهت نموها.

إن محتوى نظرية الاستغلال الذي أهمله هيلفيتيوس وهولباخ قد طوره ومنهجه الفيزيوقراطيون في الزمن الذي كان هولباخ يكتب فيه. لكن الفيزيوقراطيين اتخذوا أساساً لتحليلهم العلاقات الاقتصادية البدائية بعد في فرنسا حيث لم تكن الإقطاعية، التي تلعب الملكية العقارية في ظلها الدور الرئيسي، قد تحطمت بعد، وبذلك ظلوا أسرى النظرة الإقطاعية بقدر ما نادوا بالملكية العقارية والعمل الزراعي على أنهما تلك [القوة المنتجة] التي تقرر بنية المجتمع بأكملها.

وتدين نظرية الاستغلال بتطورها اللاحق في إنكلترا إلى غودوين، وبصورة خاصة إلى بنتام، الذي دمج فيها من جديد شيئاً فشيئاً المحتوى الاقتصادي الذي أهمله الفرنسيون، وذلك بصورة مطردة مع توسع نفوذ البورجوازية في إنكلترا وفرنسا على حد سواء. إن كتاب غودوين العدالة السياسية (political justice) قد كتب في عهد الإرهاب، ومؤلفات بنتام الرئيسية صدرت خلال الثورة الفرنسية وبعدها وإبان تطور الصناعة الكبرى في إنكلترا. وإن الاتحاد التام لنظرية المنفعة مع الاقتصاد السياسي سوف يصادف أخيراً عند ميل.

لقد كان الاقتصاد السياسي في مرحلة أبكر موضوع استقصاء سواء من قبل ماليين أم مصرفيين أم تجار، أي على العموم من قبل أشخاص معنيين بصورة مباشرة بالمسائل الاقتصادية، أو من قبل أشخاص ذوي ثقافة شاملة مثل هوبس ولوك وهيوم، الذين كان الاقتصاد السياسي يعنيهم بوصفه فرعاً من المعرفة الموسوعية. ولقد رفع الاقتصاد السياسي بفضل الفيزيوقراطيين للمرة الأولى إلى مرتبة علم خاص وعومل بوصفه مثل هذا العلم منذ ذلك الحين. ولما كان فرعاً خاصاً من العلم فقد شمل العلاقات الأخرى -السياسية والحقوقية الخ - بقدر ما كان يرجعها إلى علاقات اقتصادية. بيد أنه اعتبر هذا الإخضاع لجميع العلاقات له كمجرد مظهر واحد من مظاهر هذه العلاقات، وترك لها فيما عدا ذلك مغزى خاصاً مستقلاً عن الاقتصاد السياسي. إن الإخضاع التام لجميع العلاقات القائمة

لعلاقة المنفعة، ورفعها غير المشروط لتكون المحتوى الوحيد لجميع العلاقات الأخرى، هذا ما نجده للمرة الأولى عند بنتام، في زمن لا تظهر فيه البورجوازية بعد الآن، في أعقاب الثورة الفرنسية وتطور الصناعة الكبرى، كطبقة خاصة في عداد طبقات أخرى، بل كالطبقة التي تشكل شروط وجودها شروط المجتمع بكامله.

وحين استهلكت الإسهابات العاطفية والأخلاقية، التي تشكل لدى الفرنسيين المحتوى الكامل لنظرية المنفعة، فإن كل ما تبقى من أصل تطورها اللاحق قد كان السؤال عن: كيف سوف يستخدم ويستغل الأفراد والعلاقات التي تقوم فيما بينهم. وفي هذه الأثناء، كان الاقتصاد السياسي قد أعطى الجواب عن هذا السؤال: إن التقدم الوحيد الممكن يقوم في احتواء المضمون الاقتصادي. ولقد حقق بنتام هذا التقدم. لكن الاقتصاد السياسي كان قد قرر من قبل الفكرة القائلة إن علاقات الاستغلال الرئيسية محددة بالإنتاج عموماً، وذلك بصورة مستقلة عن إرادة الأفراد الذين يجدونها قائمة بصورة مسبقة. وهكذا، فإنه لم يتبق أمام نظرية المنفعة أي مجال للفكر التأملي سوى موقف الأفراد من هذه العلاقات على صعيد المجتمع، الاستغلال الخاص من قبل الأفراد لعالم يصادفونه قائماً بصورة مسبقة. ولقد انساق بنتام ومدرسته في تأملات أخلاقية مطولة عن هذا الموضوع. وبذلك فإن كل النقد الذي توجهه نظرية المنفعة إلى العالم القائم قد تحرك ضمن إطار ضيق. فلما كانت هذه النظرية أسيرة قوانين البورجوازية، فإنها ما كانت تستطيع أن تنتقد إلا تلك العلاقات الموروثة عن حقبة سابقة، التي كانت تعوق تطور البورجوازية. ومن المؤكد أن نظرية المنفعة تبسط على هذا الغرار الروابط التي تصل جميع العلاقات القائمة بالعلاقات الاقتصادية، لكنها لا تفعل ذلك إلا بطريقة محدودة.

لقد كان لنظرية المنفعة منذ البداية مظهر نظرية للمنفعة العامة، ومع ذلك فإن هذا مظهر لم يكتسب محتوى مشخصاً إلا عندما دمجت فيه العلاقات الاقتصادية، وبصورة خاصة تقسيم العمل والتبادل. إن النشاط الخاص للفرد قد أصبح، مع تقسيم العمل، نافعاً بصورة عامة؛ وأرجعت المنفعة العامة لبنتام إلى نفس المنفعة العامة الفاعلة في التنافس، وحين أخذت بعين الاعتبار العلاقات الاقتصادية للريع والربح والأجور، فقد أدخلت إلى النظرية

علاقـات الاسـتغلال المحـددة لـكل طبقـة علـى حـدة، مـا دام شـكل الاسـتغلال يتوقـف علـى المركـز الـذي يشـغله فـي الحيـاة أولئـك الذيـن يسـتغلون. وحتـى هـذه النقطـة كانـت نظريـة المنفعـة قـادرة علـى الارتبـاط بحقائـق اجتماعيـة محـددة؛ لكـن حيـن سـعت إلـى دراسـة شـكل الاسـتغلال بمزيـد مـن التفصيـل، فقـد انتهـت إلـى الضيـاع فـي عبـارات مـن كتـب التعليـم الدينـي.

إن المحتـوى الاقتصـادي قـد حـوّل بصـورة تدريجيـة نظريـة المنفعـة إلـى مجـرد دفـاع عـن النظـام القائـم، يحـاول أن يثبـت أن علاقـات التبـادل بيـن البشـر اليـوم، فـي ظـل الشـروط القائمـة، هـي العلاقـات التـي تعـود علـى الجميـع بأعظـم المنفعـة والفائـدة. وإن نظريـة المنفعـة لتتحلـى بهـذا المظهرعنـد جميـع الاقتصادييـن المحدثيـن.

لكنـه فيمـا تتحلـى نظريـة المنفعـة علـى الأقـل بهـذه الميـزة، ألا وهـي الإشـارة إلـى ترابـط جميـع العلاقـات القائمـة مـع أسـس المجتمـع الاقتصاديـة، فقـد فقـدت عنـد سانتشـو كل محتـوى إيجابـي؛ إنهـا تنفصـل عـن جميـع العلاقـات الفعليـة وتصبـح مجـرد وهـم يتصـوره كل بورجـوازي علـى حـدة عـن "ذكائـه" فـي اسـتغلال العالـم. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن سانتشـو لا يعالـج إلا فـي فقـرات قليلـة نظريـة المنفعـة حتـى فـي شـكلها الرقيـق هـذا. "فالكتـاب" برمتـه علـى وجـه التقريـب مشـغول كمـا رأينـا بالأنانيـة المتفقـة مـع ذاتهـا، يعنـي بوهـم عـن هـذا الوهـم الخـاص بالمالـك الصغيـر. وحتـى هـذه الفقـرات القليلـة ينتهـي سانتشـو فـي آخـر الأمـر إلـى تبديدهـا هبـاء، كمـا سـوف نـرى.

د – الدين

"فـي هـذه االجماعـة" (يعنـي مـع البشـر الآخريـن) "لا أدرك أي شـيء آخـر سـوى تكاثـر قوتـي، ولسـت احتفـظ بهـا إلا بقـدر مـا هـي قوتـي المتكاثـرة". (ص ٤١٦).

"إننـي لا أذل نفسـي بعـد الآن أمـام أيـة قـوة، وأعتـرف بـأن جميـع القـوى هـي قوتـي، التـي لا بـد لـي مـن قهرهـا فـي الحـال إذا هـددت بـأن تصيـر قـوة معاديـة لـي أو متفوقـة علـيَّ؛ إن كلاً مـن هـذه القـوى لا يجـوز لهـا أن تكـون إلا إحـدى وسـائلي مـن أجـل فـرض إرادتـي".

إننـي "أدرك"، إننـي "أعتـرف"، لا "بـدَّ لـي مـن قهـر"، القـوة "التـي لا يجـوز لهـا أن تكـون إلا إحـدى وسـائلي". لقـد تبيـن لنـا مـن قبـل بخصـوص الرابطـة مـاذا تعنيـه هـذه المطالـب الأخلاقيـة وإلـى أي مـدى تقابـل الواقـع. إن هـذا الوهـم عـن قوتـه مرتبـط بصـورة وثيقـة بالوهـم الآخـر، ألا

وهـو "الجوهـر" قـد ألغـي فـي الرابطـة (أنظـر "الليبراليـة الإنسـانية")، وإن علاقـات أعضـاء الرابطـة لا تتخـذ قـط شـكلاً مسـتقراً بالنسـبة إلـى كل فـرد علـى حـدة.

"الرابطـة والاتحـاد، هـذا الاتحـاد المتحـرك أبـداً لجميـع العناصـر الثابتة... مـن المؤكـد أن المجتمع يمكـن أن ينشـأ مـن الرابطـة أيضـاً، لكـن فقـط مثلمـا تنشـأ فكـرة ثابتـة مـن فكـرة... وإذا تبلـورت رابطـة فـي شـكل مجتمـع بالمعنـى العـادي للكلمـة، فقـد كفـت عـن كونهـا اتحـاداً، ذلـك أن الاتحـاد يعنـي فعـل الترابـط بفضـل عمليـة متواصلـة؛ وإذا توصلـت الرابطـة إلـى التجمـع، فإنهـا تصبـح مجتمعـاً، هـي جثـة الرابطـة أو الاتحـاد... إن الرابطـة لا تتماسـك بـأي ربـاط طبيعـي أو روحـي". (ص ٢٩٤، ٤٠٨، ٤١٦).

أمـا فيمـا يتعلـق "بالربـاط الطبيعـي"، فإنـه موجـود فـي الرابطـة، بالرغـم مـن "الإرادة السـيئة" لسانتشـو، فـي شـكل الاقتصـاد القائـم علـى الـرق وتنظيـم العمـل، الـخ؛ وأمـا "الربـاط الروحـي"، فإنـه فلسـفة سانتشـو. وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه لا حاجـة بنـا لأكثـر مـن الإشـارة إلـى مـا سـبق أن رددنـاه عـدة مـرات، وقـد كررنـاه بخصـوص الرابطـة، عـن العلاقـات التـي تجابـه الأفـراد والتـي تتخـذ وجـوداً مسـتقلاً مـن جـراء تقسـيم العمـل.

"وباختصـار، فـإن المجتمـع مقـدس، والرابطـة هـي خاصتـك؛ إن المجتمـع يسـتغلك، وأنت تسـتغل الرابطة، الـخ". (ص ٤١٨).

هـ - ملاحظات تكميلية عن الرابطة

فيمـا لـم يتبيـن لنـا حتـى الآن أيـة إمكانيـة مـن أجـل بلـوغ "الرابطـة" إلا مـن خـلال العصيـان، فإننـا نعلـم الآن مـن "التعليـق" أن "رابطـة الأنانييـن" قائمـة سـلفاً فـي "مئـات الألـوف" مـن الحـالات وأنهـا تشـكل مظهـراً مـن المجتمـع البورجـوازي القائم،وأنهـا فـي متناولنـا أيضـاً مـن دون معونـة أي عصيـان ومـن دون أي "شـترنر". ومـن ثـم يبيـن سانتشـو لنـا:

"مثـل هـذه الرابطـات فـي الحيـاة الفعليـة، إن فاوسـت هـو ضمـن مثـل هـذه الرابطـات حيـن يهتف:ههنـا، أنـا كائـن إنسـاني"(!)، "هھنـا يتـاح لـي أن أكـون هـذا الكائـن"[٢١٤]، هـذا مايكتبـه غوتـه هنـا بالحبـر الأسـود" ("لكـن هومانـوس Humonus هـو اسـم شـخص قديـس، أنظـر غوتـه"[٢١٥]، راجـع "الكتـاب")... "لـو أن هيـس نظـر بانتبـاه إلـى الحيـاة الفعليـة، فإنـه سـوف يـرى عشـرات الألـوف مـن مثـل هـذه الرابطـات الأنانيـة - بعضهـا عابـر، وبعضهـا دائـم".

ومـن بعـد يرينـا سانتشـو "أطفـالاً يتجمعـون للعـب تجـاه نافـذة هيـس، و"بعـض المعـارف الطيبيـن" يأخـذون هيـس إلـى حانـة وهيـس نفسـه يذهـب لملاقـاة "عشـيقته".

"مـن المؤكـد أن هيـس لـن يلاحـظ إلـى أي حـد تصبـح هـذه الأمثلـة البسـيطة مليئـة بالمعنـى وإلـى أي حـد تختلـف عـن المجتمعـات المقدسـة، وحتـى عـن المجتمـع الإنسـاني الأخـوي للاشـتراكيين المقدسـين" (سانتشـو ضـد هيـس(Sancho contra Hess)، ويغـان، ص ١٩٣، ١٩٤).

وبالطريقـة ذاتهـا، فـي الصفحـة ٣٠٥ مـن "الكتـاب"، فـإن "الرابطـة" مـن أجـل الأغـراض والمصالـح الماديـة" تقبـل بـكل سـماحة نفـس علـى أنهـا رابطـة إراديـة للأنانييـن".

وهكـذا، فـإن الرابطـة ترجـع هنـا، مـن جهـة واحـدة، إلـى الاتحـادات البورجوازيـة والشـركات المسـاهمة، ومـن جهـة أخـرى، إلـى النـوادي البورجوازيـة، والنزهـات الجماعيـة، الـخ. أمـا إن الأولـى تخـص كليـاً الحقبـة الحاضـرة فأمـر معـروف جيـداً، وأمـا إن هـذا ينطبـق كذلـك علـى الأخيـرة فأمـر معـروف جيـداً أيضـاً. فلينظـر سانتشـو إلـى "الرابطـات" فـي حقبـة أبكـر، مثـلاً فـي الأزمنـة الإقطاعيـة، أو رابطـات الأمـم الأخـرى، مثـلاً الإيطالييـن والإنكليـز، الـخ، بمـا فيهـا "رابطـات" الأولاد، كيمـا يتحقـق مـن الفـرق. إنـه لا يؤكـد، بهـذا التفسـير الجديـد للرابطـة، إلا نزعتـه المحافظـة المتصلبـة. إن سانتشـو الـذي دمـج المجتمـع البورجـوازي بأسـره، بقـدر مـا كان يلائمـه، فـي مؤسسـته التـي يزعـم أنهـا جديـدة، يؤكـد لنـا هنـا فقـط، فـي الختـام، أن النـاس فـي رابطتـه سـوف يسـتمتعون أيضـاً، وفـي الحقيقـة بالطريقـة التقليديـة تمامـاً. إن صاحبنـا المغفـل لا يأبـه البتـة، بالطبـع، لتلـك الشـروط الموجـودة بصـورة مسـتقلة عنـه التـي تعطيـه أو لا تعطيـه الفرصـة مـن أجـل "مرافقـة بعـض المعـارف الطيبيـن إلـى الحانـة".

إن فكـرة حـل المجتمـع بأسـره إلـى جماعـات قائمـة علـى الانتسـاب الطوعـي، وهـي الفكـرة التـي راجعهـا شـترنر هنـا وصححهـا بالاسـتناد إلـى تقاريـر سـماعية مـن برليـن، تخـص فوربيـه[٢١٦]. بيـد أن هـذه النظريـة عنـد فوربيـه تفتـرض بصـورة مسـبقة تحـولاً تامـاً وثوريـاً للمجتمـع الحديـث، وهـي قائمـة علـى نقـد "الرابطـات" القائمـة التـي يعجـب بهـا سانتشـو كل هـذا الإعجـاب، ونقـد الضجـر اللامتناهـي الناجـم عنهـا. وإن فوربيـه ليصـف المحـاولات الجاريـة حاليـاً مـن أجـل

التسـلية فـي ارتباطها بشـروط الإنتاج والتعامـل القائمـة، وينخـرط فـي المناظـرة ضدهـا؛ أمـا سانتشـو، وهـو أبعـد مـا يكـون عـن أن تـراوده أيـة فكـرة لانتقادهـا، فإنـه يريـد أن يزرعهـا بكليتهـا فـي مؤسسـته الجديـدة القائمـة علـى "الاتفـاق المتبـادل" مـن أجـل تعزيـز السـعادة، وبذلـك لا يفعـل إلا أن يثبـت مـرة أخـرى مبلـغ عبوديتـه للمجتمـع البورجـوازي القائـم.

وأخيراً يلقي سانتشو الخطبة التبريرية التالية، أي دفاعاً عن "الرابطة".

"أتكـون الرابطـة التـي يسـمح الغالبيـة فيهـا لأنفسـهم بـأن يخدعـوا فيمـا يخـص مصالحهـم الأكثـر طبيعيـة ووضوحـاً رابطـة مـن الأنانييـن؟ أيكـون الأنانيـون هـم الذيـن اتحـدوا حيـث يكـون الواحـد عبـداً أو رقيقـاً للآخـر؟... مجتمعـات حيـث حاجـات الفـرد الواحـد تلبـى علـى حسـاب الآخريـن، حيـث يسـتطيع البعـض، علـى سـبيل المثـال، أن يلبـوا حاجتهـم إلـى الراحـة مـن خـلال الآخريـن بالعمـل علـى طريقتـه حتـى درجـة الإنهـاك... هيـس يوحـد هـذه "الرابطـات الأنانيـة" علـى طريقتـه الخاصـة مـع رابطـة الأنانييـن لشـترنر". (ص ١٩٢، ١٩٣).

وبالتالـي فـإن سانتشـو يعبِّـر عـن الرغبـة النقيـة بـأن يكـون جميـع الأعضـاء، فـي رابطتـه القائمـة علـى الاسـتغلال المتبـادل، سـواء فـي القـوة، والمكـر، الـخ، الـخ، بحيـث يسـتطيع كل واحـد أن يسـتغل الآخريـن بالضبـط بقـدر مـا يسـتغلونه، وبحيـث لا يمكـن أن "يخـدع" أحـد فيمـا يتعلـق "بمصالحـه الأكثـر طبيعيـة ووضوحـاً"، أو يكـون قـادراً علـى "تلبيـة حاجاتـه علـى حسـاب الآخريـن". ونلاحـظ هنـا أن سانتشـو يعتـرف بوجـود "المصالـح الطبيعيـة والواضحـة" و"الحاجـات" المشـتركة بيـن البشـر- وبنتيجـة ذلـك بالمصالـح والحاجـات المتسـاوية. وفيمـا عـدا ذلـك، فإننـا نتذكـر فـي الحـال الصفحـة ٤٥٦ مـن "الكتـاب"، التـي تنـص علـى أن "الرغبـة فـي خـداع الغيـر" "فكـرة أخلاقيـة غرسـتها فـي الأذهـان روح الأصنـاف الحرفيـة"، وهـي تظـل بالنسـبة إلـى الإنسـان الـذي نـال "ثقافـة رشـيدة" "فكـرة ثابتـة لا يمكـن أن توفـر الحمايـة منهـا أيـة حريـة فـي التفكيـر". إن سانتشـو "يحصـل علـى أفـكاره مـن علٍ ويتعلـق بها" (المصـدر ذاتـه). وإذا قبلنـا مطلبـه بـأن يكـون كل امـرئ "كلي القـوة"، يعنـي أن يكون الجميـع "عاجزين" حيـال بعضهـم بعضـاً، فـإن هـذه القـوة المتسـاوية لـدى الجميـع هـي مسـلمة منطقيـة تمامـاً تتفـق مـع الطمـوح العاطفـي للمالكيـن الصغـار إلـى عالـم مـن التجـارة الصغـرى حيـث يحصـل فيـه كل واحـد علـى

مصلحته. والحال، إن قديسنا، من جهة ثانية، يفترض مسبقاً على حين غرة تماماً مجتمعاً يستطيع كل واحد فيه أن يرضي حاجاته من دون أي عائق على الإطلاق، من دون أن يفعل ذلك "على حساب الآخرين"، وفي هذه الحال تصبح نظرية الاستغلال من جديد تلفيقاً عديم المعنى لعلاقات التبادل الفعلية بين الأفراد.

وبعدما "التهم" سانتشو في "رابطته" "الآخرين" واستهلكهم، وبذلك حوَّل التعامل مع العالم إلى التعامل مع ذاته، فإنه ينتقل من هذه المتعة الذاتية غير المباشرة إلى المتعة الذاتية المباشرة، وذلك باستهلاكه ذاته.

و ـ متعتي الذاتية

إن الفلسفة التي تبشر بالمتعة قديمة في أوروبا قدم المدرسة القورينية[٢١٧]. وكما أن الإغريق في الحقب القديمة كانوا المدافعين عن هذه الفلسفة، كذلك هم الفرنسيون في الحقب الحديثة، وذلك بدافع من المبررات ذاتها. إن مزاجهم ومجتمعهم يجعلانهم أقدر الجميع على المتعة. ولم تكن فلسفة اللذة قط شيئاً آخر سوى اللغة البارعة لبعض الدوائر الاجتماعية التي كانت تملك امتياز المتعة. وإذا تركنا جانباً حقيقة أن شكل متعتهم ومحتواها كانا على الدوام مشروطين ببنية المجتمع بأكمله وقد عانيا من جميع تناقضات هذا المجتمع، فإن هذه الفلسفة باتت لغواً صرفاً حالما بدأت تطالب بطابع كلّي وتنادي بنفسها على أنها تصور للحياة صالح للمجتمع بأسره. وعندئذ انحطت إلى مستوى التبشير الأخلاقي البناء، الذي يجمِّل بمغالطاته السفسطائية المجتمع القائم، أو تحولت إلى نقيضها، بإعلانها أن النسك الإلزامي هو المتعة.

وفي الأزمنة الحديثة نشأت فلسفة المتعة مع انحطاط الإقطاعية وتحوّل النبالة العقارية الإقطاعية إلى نبالة البلاطات المبذرة والمتعطشة إلى الحياة، في ظل الملكية المطلقة. وكان لهذه الفلسفة حتى درجة كبيرة بعد، لدى هذه النبالة، مظهر تصور عفوي يتم التعبير عنه في المذكرات والقصائد والروايات، الخ. ولم تصبح فلسفة حقيقية إلا بين أيدي عدد قليل من كتّاب البورجوازية الثورية الذين شاركوا من جهة، في ثقافة نبالة البلاط ونمط حياتها، والذين شاطروا البورجوازية من جهة ثانية، تذوقها للأفكار العامة الذي يقوم على الطابع

الأعـم لشـروط وجـود هـذه الطبقـة. ولهـذا السـبب قُبلـت هـذه الفلسـفة فـي كلتـا الطبقتيـن، وإن يكـن مـن وجهتـي نظـر مختلفتيـن الاختـلاف كلـه. وبينمـا كانـت هـذه اللغـة مقصـورة حصـراً بيـن النبالـة علـى الفئـة العليـا وعلـى شـروط حيـاة هـذه الفئـة، فقـد أعطيـت مـن قبـل البورجوازيـة طابعـاً معممـاً وطبقـت علـى كل فـرد مـن دون أي تمييـز. كان النظـر يغـض عـن شـروط حيـاة هـؤلاء الأفـراد، بحيـث تحولـت نظريـة المتعـة إلـى عقيـدة أخلاقيـة تافهـة ومرائيـة. وحيـن أدى التطـور اللاحـق إلـى سـقوط النبالـة وجعـل البورجوازيـة فـي نـزاع مـع خصمهـا، البروليتاريـا؛ فقـد تحولـت النبالـة إلـى التديـن والتقـوى والبورجوازيـة إلـى الأخـلاق المتزمتـة فـي نظرياتهمـا، أو أنسـاقاً مـع النفـاق المذكـور أعـلاه، وإن تكـن النبالـة لـم تتخـلَ فـي الممارسـة فـي أي حـال مـن الأحـوال عـن المتعـة، بينمـا اتخـذت المتعـة عنـد البورجوازيـة شـكلاً اقتصاديـاً رسـمياً، ألا وهـو التـرف (*).

هـذه العلاقـة بيـن الأفـراد فـي أي زمـان خـاص، العلاقـات الطبقيـة التـي يحيـون فيهـا وشـروط

(*) [إن الفقرة التالية قد شطبت في المخطوطة:] كانت الملذات في الحقب الوسيطة مصنفة بكل تزمت، وكان لكل فئة أشكالها المتميزة من اللذة وطريقتها المتميزة في الاستمتاع بها. وكانت النبالة الفئة التي كانت اللذة رسالتها على سبيل الحصر، بينما كان انفصال العمل والمتعة قائماً سلفاً بالنسبة إلى البورجوازية، وكانت اللذة خاضعة للعمل. ولم يكن للقن، الطبقة المعينة للعمل قسراً، إلا بعض الملذات القليلة والمحددة حتى الدرجة القصوى، وهي ملذات كانت تعترض سبيلهم بطريق الصدفة على الأغلب، بصورة مرهونة بنزوات أسيادهم والاحتمالات الأخرى، وهي تكاد لا تستحق أي اعتبار. وفي ظل حكم البورجوازية كانت طبيعة الملذات مرهونة بطبقات المجتمع.كانت ملذات البورجوازية محددة بالأساس المادي الذي أنتج هذه الطبقة في مراحل تطورها المختلفة، وقد اتخذت الطابع الممل الذي لا تزال تحتفظ به سواء من جراء الأفراد أم من جراء خضوع اللذة المتصل لكسب المال. وإن الشكل القاسي للذة البروليتاريا مرده من جهة واحدة، إلى ساعات العمل الطويلة، التي أدت إلى الاشتداد الأقصى للحاجة إلى اللهو، ومن جهة ثانية، إلى الضيق - الكيفي والكمي على حد سواء - لوسائل اللذة التي في متناول البروليتاريا. وعلى العموم، فإن متعة سائر الفئات والطبقات الموجودة حتى الوقت الحاضر كان لا بد أن تكون إما صبيانية، وإما منهكة، وإما قاسية، لأنها كانت على الدوام منفصلة كلياً عن الفعالية الحيوية، عن المحتوى الحقيقي لحياة الأفراد، وملزمة أكثر أو أقل بأن تسبغ محتوى وهمياً على فعالية خالية من كل محتوى. إن أشكال المتعة الموجودة حتى اليوم الراهن لا يمكن بالطبع أن تنقد إلا حين يبلغ التناقض بين البورجوازية والبروليتاريا درجة من التطور يمكن معها نقد النمط القائم للإنتاج وعلاقات التعامل أيضاً.

الإنتاج والتعامل التي أدت إلى قيام هذه العلاقات، وضيق أشكال المتعة الموجودة حتى الوقت الراهن، هذه الأشكال التي كانت غريبة عن المحتوى الفعلي لحياة البشر وفي تناقض معه، وارتباط كل فلسفة للمتعة مع الملذات الفعلية التي تشكل خلفيتها ومراءاة مثل هذه الفلسفة حين تتوجه إلى جميع الأفراد ومن دون أي تمييز- هذه الأمور جميعاً ما كان يمكن بالطبع أن تكتشف إلا حين أصبح في الإمكان نقد شروط الإنتاج والتعامل التي عرفها العالم في سياق تاريخه، أي حين أدى التناقض بين البورجوازية والبروليتاريا إلى نشوء النظريات الشيوعية والاشتراكية. لقد حطم هذا النقد أسس كل أخلاق، سواء أكانت أخلاق النسك أم المتعة.

إن صاحبنا سانتشو التافه، المبشر بالأخلاق، يعتقد طبعاً، كما يبين "الكتاب" بأكمله، أن المقصود هو اكتشاف أخلاق مختلفة، نظرة جديدة إلى مظاهر الحياة في نظره، إن المقصود هو أن "ينتزع المرء من رأسه" بعض "الأفكار الثابتة"، كي يستطيع كل الناس أن يكونوا سعداء بالحياة وأن يستمتعوا بها. وبالتالي فإن الفصل عن المتعة الذاتية يمكن على الأكثر أن يقدم من جديد تحت لصاقة جديدة ذات عبارات جوفاء وحِكم، والتي سبق له في أحيان كثيرة أن بشرنا بها في سبيل "متعته الذاتية". وبالفعل، فإن الصفة الأصيلة الوحيدة التي نكتشفها في هذا الفصل لا تزيد على أنه يؤلِّه كل نوع من المتعة في هذه الترجمة الألمانية والفلسفية التي تسمى"متعة ذاتية". وبينما كانت فلسفة المتعة في القرن الثامن عشر الفرنسي تصف على الأقل في شكل ذكي نمطاً فعلياً للحياة، الطافحة بالمرح والسفاهة،، فإن كل طيش سانتشو مقصور على تعابير من نمط "الاستهلاك" و"التبذير"، على صور من نمط "الضياء" (إنه يقصد الشمعة) وعلى ذكريات علمية طبيعية تؤدي إما إلى أدب رديء وسخافات من نمط النبات الذي "يمتص الهواء من الأثير"، أو "الطيور الصداحة التي تبتلع الخنافس"، أو أيضاً على مغالطات من نمط القول إن الشمعة تحرق ذاتها مثلاً. ومن جهة أخرى، فإننا نستمتع هنا من جديد بكل الجدية المهيبة التي يهاجم بها "المقدس" الذي يقال لنا إنه أفسد حتى هذا الحين متعة الناس الذاتية تحت قناع "الدعوة (المصير) الواجب" أو "المثل الأعلى". وفيما عدا ذلك، من دون التوقف عند الإشكال الأكثر أو الأقل قذارة التي يمكن فيها "للملذات"

فـي "المتعـة الذاتيـة"أن تكـون أكثـر مـن مجـرد عبـارة جوفـاء، فإنـه لا بـد لنـا مـرة أخـرى أن نرسـم للقـارئ باقتضـاب قـدر الإمـكان حيـل سانتشـو ضـد المقـدس، مـع التعديـلات الزهيـدة الـواردة فـي هـذا الفصـل.

"دعوة، مصير، واجب، مثل أعلى" هي، إذا راجعنا الأمور باقتضاب، إما

١- وعي الواجبات الثورية التي تمليها الشروط الثورية على طبقة مضطهدة، أو

٢- مجـرد اسـهابات مثاليـة، أو أيضـاً التعبيـر الواعـي عـن أنمـاط فعاليـة الأفـراد، هـذا التعبيـر الـذي يقابـل تحـول أنمـاط الفعاليـة هـذه، مـن جـراء تقسـيم العمـل، إلـى حِـرف مختلفـة ومسـتقلة؛ وإمـا

٣- التعبيـر الواعـي عـن الضـرورة التـي تجابـه فـي كل لحظـة الأفـراد والطبقـات والأمـم للدفـاع عـن مركزهـم بواسـطة نشـاط محـدد تمامـاً؛ أو

٤- التعبيـر علـى صعيـد الأفـكار، فـي شـكل القوانيـن والأخـلاق، الـخ، عـن شـروط وجـود الطبقـة الحاكمـة (المشـروطة بالتطـور السـابق للإنتـاج). هـذه الشـروط التـي جعـل منهـا، بصـورة واعيـة أكثـر أو أقـل، إيديولوجيـو تلـك الطبقـة نظريـة مسـتقلة، والتـي يمكـن أن تمثـل فـي وعـي الأفـراد الذيـن يشـكلون تلـك الطبقـة علـى أنهـا دعـوة، الـخ، والتـي تقـدم إلـى الأفـراد المنتسـبين إلـى الطبقـة المسـودة علـى أنهـا قواعـد للحيـاة، علـى أنهـا تزييـن لهـذه السـيادة أو تحقيـق جزئـي لهـا، هـذا إذا مـا لـم تكـن أداة أخلاقيـة لهـذه السـيادة بالـذات. ويجـب أن يلاحـظ هنـا، كمـا هـو الأمـر عامـة عنـد الإيديولوجييـن، أنهـم لا يسـتطيعون إلّا أن يقلبـوا الأمـر رأسـاً علـى عقـب ويعتبـروا إيديولوجيتهـم القـوة الخلاقـة وهـدف جميـع العلاقـات الاجتماعيـة علـى حـد سـواء، بينمـا ليسـت هـي سـوى تعبيـر عـن هـذه العلاقـات وعـرض لهـا.

وأمـا فيمـا يتعلـق بصاحبنـا سانتشـو، فإننـا نعـرف أنـه يملـك أيمانـاً لا يتزعـزع بأوهـام هـؤلاء الإيديولوجييـن. ولأن البشـر يملكـون، وفقـاً لشـروطهم الحياتيـة المختلفـة، أفـكاراً مختلفـة عـن أنفسـهم، أي عـن الإنسـان، فـإن سانتشـو يتوهـم أن هـذه الأفـكار المختلفـة هـي التـي خلقـت الشـروط الحياتيـة المختلفـة، وبالتالـي، فـإن صانعـي هـذه الأفـكار بالجملـة، أي الإيديولوجييـن، قـد هيمنـوا علـى العالـم (راجـع الصفحـة ٤٣٣).

"المفكرون يسودون العالم"، "الفكر يسود العالم"، "الكهنة أو معلمو المدارس" "يحشون رؤوسهم بمختلف أنواع النفايات"، "إنهم يتخيلون من أجل الإنسان مثلاً أعلى" لا بد لجميع البشر أن يتقيدوا به (٤٤٢).

بل إن سانتشو ليستطيع أيضاً، أن يبين لنا المنطق الذي أخضع البشر بموجبه، وفي بلاهتهم أخضعوا أنفسهم، لأوهام معلمي المدارس :

"لأن ذلك قابل للإدراك مني" (أنا معلم المدرسة)، "فإنه ممكن بالنسبة إلى البشر؛ ولأنه ممكن بالنسبة إلى الناس، فإن عليهم أن يكونوا هنا على هذا الغرار، ذلك هو واجبهم؛ وأخيراً، فإن المرء يجب ألا يأخذ الكائنات البشرية إلا بصورة متفقة مع الواجب، أي بوصفهم أشخاصاً أصحاب واجب. والنتيجة؟ ليس الفرد هو الإنسان؛ إن الأمر على النقيض من ذلك، فالفكرة، المثل الأعلى هو الإنسان- النوع [الإنساني] - الإنسانية". (ص ٤٤١).

إن جميع النزاعات التي ينخرط فيها البشر مع أنفسهم أو مع الآخرين من جراء شروطهم الحياتية الفعلية تتراءى لصاحبنا سانتشو معلم المدرسة نزاعات بين البشر والأفكار عن حياة "الإنسان"، هذا الأفكار التي حشروها هم أنفسهم في رؤوسهم، وسمحوا لمعلمي المدارس أن يحشروها في رؤوسهم. وإذا هم انتزعوا هذه الأفكار من رؤوسهم، "فيا للسعادة" التي يمكن "لهذه الكائنات البائسة" أن تحيا بها، ويا "للمرح" الذي سترقص به، في حين أنه لا بد لها الآن أن "ترقص على ألحان معلمي المدارس وقادة الدببة"! (ص ٤٣٥). (إن سانتشو هو آخر "قادة الدببة" هؤلاء، لأنه لا يقود إلا نفسه من طرف أنفه). فلو أن البشر لم يضعوا في رؤوسهم مثلاً، في كل مكان تقريباً وفي كل زمن على وجه التقريب، في الصين كما في فرنسا، أنهم يعانون من فرط السكان، فيا لغزارة السلع الاستهلاكية التي سوف تجدها هذه "الكائنات البائسة" في الحال تحت تصرفها.

إن سانتشو يحاول هنا مرة أخرى، بحجة أنه يكتب بحثاً عن الإمكانية والواقع، أن يفرض تاريخه عن حكم المقدس في العالم. فعنده أن الممكن هو ما يضعه معلم المدرسة في رأسه بخصوصي، وعندئذ يستطيع سانتشو أن يبرهن بكل سهولة أن هذه الإمكانية لا تملك أي واقع إلا في رأسه. إن تأكيده المهيب بأن "سوء الفهم المثقل بالعواطف الخطيرة

قد اختفى في سياق آلاف السنين خلف كلمة ممكن" يشكل برهاناً كافياً على أنه من المحال بالنسبة إليه أن يخفي خلف الكلمات عواقب عجزه عن فهم آلاف السنين من التاريخ.

إن هذا المبحث عن "إتفاق الإمكانية والواقع" (ص ٤٣٩)، حيث يعالج ما يستطيع البشر أن يكونوا، وما هم في واقع الأمر، وهي مناقشة تنسجم على خير وجه مع دعواته الملحة السابقة إلى استغلال المرء لجميع قدراته، الخ، يقوده فيما عدا ذلك إلى بعض الاستطرادات عن نظرية الظروف المادية التي سوف نعالجها الآن بمزيد من التفصيل. لكن فلنقدم قبل ذلك مثالاً آخر عن انحرافاته الإيديولوجية. ففي الصفحة ٤٢٨ يوجه السؤال التالي: "كيف يمكن للمرء أن يكتسب الحياة؟" الموحد مع هذا السؤال، "كيف يخلق المرء في نفسه الأنا الحقيقية؟" (أو "الحياة الحقيقية"). ووفقاً للصفحة ذاتها، فإن "الخوف من الحياة" ينقطع بفضل فلسفته الأخلاقية الجديدة ويأخذ المرء في "إنفاقها بسرور". إن القوة العجائبية لفلسفته الأخلاقية التي يدعي لها الجدة يعبر سليماننا (Salomon) عنها بمزيد من "البلاغة" في الحكمة التالية:

"اعتبر نفسك أقوى مما يعتبرك الآخرون، وعندئذ يكون لك مزيد من القوة؛ قدِّر نفسك أكثر وسوف تنال المزيد". (ص ٤٨٣).

أنظر أعلاه، في قسم "الرابطة"، طريقة سانتشو في الحصول على الملكية.

والآن إلى نظرية الظروف الخاصة به.

"ليس للإنسان دعوة، لكنه يملك قوى تكشف عن نفسها حيث هي موجودة، لأن وجودها لا يستقيم إلا في تجلي ظاهرتها، وهي لا تستطيع أن تظل عاطلة أكثر مما تستطيع ذلك الحياة نفسها... إن كل امرئ في كل لحظة يستخدم من القدرة بقدر ما يملك (استفد من قدراتك، اقتدِ بالشجعان، فليكن كل واحد منكم أنا كلية القوة"، الخ - هكذا تكلم سانتشو أعلاه)... "من الواضح أن قوى المرء يمكن أن تكثف وتضاعف، وعلى الأخص بفعل المقاومة المعادية أو التأييد الودي؛ لكن حيث يتحقق المرء من عدم تطبيقها، فإن في مقدوره أن يكون على ثقة من غيابها. إنه لمن الممكن إشعال النار بضربة حجر صوان، لكن لا يمكن الحصول على النار منه من دون صدمة؛ وكذلك يحتاج الإنسان حافزاً. وما دامت

القـوى تثبـت دائمـاً أنهـا فعالـة مـن تلقـاء ذاتهـا، فـإن الأمـر باسـتخدامها سـوف يكـون نافـلاً وعديـم المعنـى... ليسـت القـوة إلا تعبيـر مقتضـب عـن تجلـي ظاهـرة القـوة". (ص ٤٣٦، ٤٣٧).

إن "الأنانيـة المتفقـة مـع ذاتهـا"، التـي تشـغل أو لا تشـغل قواهـا وقدراتهـا وفقـاً لمشـيئتها والتـي تطبـق عليهـا مبـدأ حـق الاسـتعمال وسـوء الاسـتعمال، تتعثـر هنـا بصـورة مفاجئـة وتنهـار بصـورة غيـر متوقعـة. هـذه القـوى تفعـل علـى حيـن غـرة مـن تلقـاء ذاتهـا، حـال وجودهـا، مـن دون أن تعبـأ مطلقـاً "بمشـيئة" سانتشـو، مثـل القـوى الكيميائيـة والميكانيكيـة، بصـورة مسـتقلة عـن الفـرد الـذي يملكهـا. ونعلـم فيمـا عـدا ذلـك أن القـوة لا توجـد إذا تبيـن لنـا أن تجلـي ظاهراتهـا معـدوم؛ ولا بـد مـع ذلـك مـن هـذا التصحيـح، ألا وهـو أن القـوة تتطلـب حافـزاً مـن أجـل تجلـي ظاهرتهـا. وعلـى أيـة حـال، فإننـا لا نعلـم كيـف سـوف يقـرر سانتشـو أيهمـا سـيكون غائبـاً، الحافـز أو القـوة، حيـن يكـون تجلـي ظاهـرة القـوة معدومـاً. ومـن جهـة ثانيـة، فـإن صاحبنـا العالـم الفيزيائـي الأوحـد يعلمنـا أنـه مـن "الممكـن إشـعال النـار بضربـة حجـر صـوان"، وهـو مثـال لـم يكـن فـي الإمـكان، كمـا هـي الحـال دائمـاً عنـد سانتشـو، أن يقـع الاختيـار علـى أسـوأ منـه. إن سانتشـو، مثلـه كمثـل معلـم مدرسـة قـروي سـاذج، يعتقـد أن النـار التـي يشـعلها بهـذه الطريقـة تأتـي مـن الحجـر، حيـث كانـت كامنـة حتـى ذلـك الحيـن، بيـد أن أي تلميـذ فـي الصـف الرابـع يسـتطيع أن يخبـره بأنـه حيـن تصنـع النـار بمثـل هـذه الطريقـة التـي أصبحـت منسـية منـذ زمـن بعيـد فـي جميـع البلـدان المتحضـرة، فـإن جزيئـات مـن الفـولاذ وليـس مـن حجـر الصـوان هـي التـي تنفصـل مـن احتـكاك الحجـر والفـولاذ وترتفـع حرارتهـا حتـى درجـة الاحمـرار، وبالتالـي فالنـار- التـي ليسـت بالنسـبة إلـى سانتشـو تفاعـلاً محـدداً بيـن بعـض الأجسـام وبعـض الأجسـام الأخـرى (وعلـى الأخـص الأوكسـيجين) يحـدث فـي درجـة حـرارة محـددة، بـل شـيء فـي ذاتـه، "عنصـر"، فكـرة ثابتـة، "المقـدس"، إن هـذه النـار لا تأتـي مـن الحجـر ولا مـن الفـولاذ. ولقـد كان فـي مقـدور سانتشـو أن يقـول بمـا لا يقـل مـن الصحـة: يسـتطيع المـرء أن يصنـع كتانـاً مقصـوراً مـن الكلـور، لكـن إذا كان "الحافـز" معدومـاً، يعنـي الكتـان غيـر المقصـور هنـا، فـإن المـرء "لـن يحصـل علـى شـيء" إذن. وسـوف ننتهـز هـذه الفرصـة، فـي سـبيل "المتعـة الذاتيـة" لسانتشـو، فنسـجل اكتشـافاً سـابقاً للعلـم الطبيعـي "الأوحـد". لقـد ورد فـي القصيـدة عـن الجريمـة:

"أفلا تسمع الرعد يجلجل في المنتأى!

وترى كيف أن السماء تتلبد بالغيوم

وتلوذ بالصمت منذرة بشر مستطير؟"

(ص ٣١٩ من "الكتاب")

إن الرعد يجلجل والسماء تلوذ بالصمت. وهكذا فإن سانتشو يعرف مكاناً آخر غير السماء يجلجل الرعد فيه. وفيما عدا ذلك، فإن سانتشو يلاحظ صمت السماء بواسطة عضو البصر عنده - وهي مأثرة ليس في مستطاع كائن من كان أن يحاكيها - أو لعلَّ سانتشو يسمع الرعد ويرى الصمت، فالعمليتان يمكن أن تحدثا بصورة متزامنة. لقد رأينا كيف جعل سانتشو، في "الأطياف"، من الجبال رمزاً "لروح الشموخ". وهنا تمثل السماء التي تلوذ بالصمت بالنسبة إليه روح نذير الشر.

وعلى أي حال، فإننا لا نرى السبب في هذا الاستياء الشديد لدى سانتشو ضد "الأمر باستخدام المرء قواه". إن هذا الأمر يمكن أن يكون، في آخر الأمر، "الحافز" الناقص، وهو "حافز" من المؤكد أنه يخفق في تحقيق التأثير المطلوب في حالة الحجر، لكن سانتشو يستطيع أن يلاحظ فعاليته في تدريبات أية كتيبة كانت. أما أن "الأمر" يشكل "حافزاً" حتى بالنسبة إلى قواه الضعيفة، فهذا ما يتبين سلفاً من كونه "عقبة كأداء" بالنسبة إليه(*).

إن الوعي قوة أيضاً، وهي حسب العقيدة التي عرضت علينا تواً "تثبت على الدوام أنها فعالة من تلقاء ذاتها". وبالتالي، وبموجب ذلك، ما كان ينبغي لسانتشو أن ينهمك في تغيير الوعي، بل على الأكثر "الحافز" الذي يؤثر في الوعي، الأمر الذي يترتب عليه أن سانتشو كتب كتابه بكامله عبثاً. لكنه من الصحيح في هذه الحالة بالذات أنه يعتبر وعظه الأخلاقي و"أوامره" على أنها "حافز" كافٍ.

"ما يستطيع كل امرئ أن يصير إليه سوف يصير إليه. إن الشاعر المطبوع يمكن أن يعوّق، من جراء ظروف منافية، عن مواكبة زمانه وإبداع روائع فنية عظيمة لا بد لها من دراسات

(*) تلاعب بالألفاظ: "Anstoss" - حافز، صدمة، فضيحة، إهانة؛ "Ein Stein des Anstosses" - عقبة كأداء.

واسعة، لكن من المؤكد أنه سوف يكتب الشعر سواء أكان شغيلاً زراعياً أم أسعفه الحظ ليحيا في بلاط ويمار[٢١٨]. وإن الموسيقي المطبوع سوف يؤلف موسيقى، ولا أهمية لما إذا كان سيعزف على الآلات جمعياً (لقد وجد هذه النزوة عن "الآلات جميعاً" عند برودون، أنظر "الشيوعيون") "أم على مزمار راعٍ فقط" (من المؤكد أن كتاب فيرجيل Eclogues يخطر مرة أخرى في بال صاحبنا معلم المدرسة). "وإن عقلاً فلسفياً مطبوعاً يمكن أن يثبت مواهبه إما بوصفه فيلسوفاً جامعياً وإما بوصفه فيلسوفاً قروياً. وأخيراً، فإن المغفل المطبوع يظل أحمق على الدوام، وفي الحقيقة، فإن العقول المحدودة الفطرية تشكل من دون ريب الطبقة الأكثر عدداً من الجنس البشري. ولماذا لا تتجلى ظاهرة الفروق الموجودة بصورة لا جدال فيها في كل نوع من أنواع الحيوانات في النوع البشري أيضاً[*]؟" (ص ٤٣٤).

لقد انتقى سانتشو مرة أخرى، مثاله بخراقته المألوفة. فإذا قبلنا لبرهة فكرته السخيفة عن الشعراء والموسيقيين والفلاسفة المطبوعين، فإن هذا المثال إنما يبرهن إذن، من جهة واحدة، على أن الشاعر المطبوع، الخ، يظل ما هو عليه منذ الولادة - يعني شاعراً، الخ، ومن جهة أخرى، إن الشاعر المطبوع، الخ، بقدر ما يخضع لصيرورة، لتطور، يمكن "من جراء ظروف منافية" ألا يصير إلى ما كان يستطيع أن يصير إليه. وبالتالي، فإن مثاله لا يثبت من جهة واحدة، أي شيء على الإطلاق، ومن جهة ثانية، يثبت العكس مما كان في نيته أن يبرهن عليه؛ وإذا أخذنا كلا المظهرين معاً، فإنه يثبت أن سانتشو، إما منذ الولادة وإما من جراء الظروف، ينتسب إلى "الطبقة الأكثر عدداً من الجنس البشري". ومهما يكن من أمر، فإنه يتقاسم عزاء كونه "أحمق" أوحد مع تلك الطبقة ومع حماقته الخاصة على السواء.

وإن سانتشو هنا هو ضحية مغامرة الشراب السحري الذي نقعه دون كيخوت من البان وخمرة وزيت الزيتون والملح. وكما يروي سرفانتس في الفصل السابع عشر، فإن سانتشو بعدما شرب من هذا المزيج قضى ساعتين فريسة العرق والاختلاجات، ومن ثم أفرغه من كلا المجريين في بدنه. إن الشراب المادي الذي تناوله صاحبنا حامل الدروع المقدام من أجل متعته الذاتية يفرغه من كل أنانيته بالمعنى فوق العادي. ولقد رأينا أعلاه

(*) يستخدم شترنر هنا كلمة Gattung التي ترجمناها أعلاه بكلمة "نوع"(genre) .

أن سانتشو فقد على حين غرة هيبته حين جابه "الحافز" وتخلى عن "قدرته"، مثله كمثل السحرة المصريين قديماً حين واجهوا قمل موسى (des poux de moïse) . وإننا لنشاهد الآن هجمتين جديدتين من الجبن: إنه ينحني أمام "ظروف منافية"، بل يعترف أخيراً، بأن العضوية التي منحته الطبيعة إياها شيء يتعرض للتشويه من دون أن تكون له يد في ذلك. ما الذي تبقى الآن لأنانينا المفلس؟ إنه لا يملك سلطة على عضويته الأصلية، كما أنه لا يستطيع أن يتحكم "بالظروف" و"بالحوافز" التي تتطور تلك العضوية تحت تأثيرها؛ إن "ما هو عليه في كل لحظة" ليس "خليقته الخاصة"، بل خليقة التفاعلات المتبادلة بين استعداداته الفطرية والظروف الفاعلة فيها. هذا كله يسلّم به سانتشو الآن. يا له من "خالق" بائس! ويا لها من "خليقة" بالغة البؤس!

لكن الكارثة العظمى تأتي في الختام. إن سانتشو، الذي لا يكتفي بأنه تلقى قبل زمن طويل الجلدات الثلاثة آلاف والثلاثمئة على ردفيه العريضين (*)كاملة غير منقوصة، يوجه إلى نفسه في النهاية صفعة قوية أخرى بالمناداة بنفسه مؤمناً بالنوع. ويا له من مؤمن! إنه ينسب أولاً، إلى النوع تقسيم العمل، لأنه يجعله مسؤولاً عن كون بعض الناس شعراء، والبعض الآخر موسيقيين، والبعض الآخر معلمي مدارس. ثانياً، ينسب إلى النوع العيوب الجسدية والذهنية التي تشاهد عند "الطبقة الأكثر عدداً من الجنس البشري" ويجعله مسؤولاً عن كون غالبية الأفراد يشبهونه في ظلّ سيطرة البورجوازية. ووفقاً لنظريته عن العقول المحدودة الفطرية، فلا بد من تفسير الانتشار الحالي لداء الخنازير بالقول: إن "النوع" يجد لذة خبيثة في جعل البنى الخنازيرية الفطرية تشكل "الطبقة الأكثر عدداً من الجنس البشري". إن الماديين والأطباء العاديين جداً قد تجاوزوا هم أنفسهم مثل هذه الآراء الساذجة قبل زمن طويل من "دعوة" الأناني المتفق مع ذاته من قبل "النوع" و"الظروف المنافية" و"الحافز" كي يباشر ظهوره(**) أمام الجمهور الألماني. وكما أن سانتشو فسر من قبل كل عجز يصيب الأفراد، وانطلاقاً من ذلك تحوّل الشروط التي يحيون فيها، بواسطة الأفكار الثابتة لمعلمي

(*) tres mil azotes y trecientos en ambas sus valientes posaderas، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) débuts، بالفرنسية في النص الأصلي.

المـدارس، مـن دون أن يأبـه بأصـل هـذه الأفـكار، كذلـك يفسـر الآن هـذا العجـز بعمليـة التكاثـر الطبيعيـة وحدهـا. إنـه لا يخطـر فـي بالـه مطلقـاً أن قـدرة الأولاد علـى النمـو تتوقـف علـى نمـوّ ذويهـم وأن هـذا العجـز فـي ظـل الشـروط الاجتماعيـة القائمـة حتـى الآن قـد نشـأ تاريخيـاً، ويمكـن نقضـه بالطريقـة ذاتهـا مـرة أخـرى فـي سـياق التطـور التاريخـي. وحتـى الفـروق التـي نشـأت بصـورة طبيعيـة ضمـن النـوع، مثـل الفـروق العرقيـة، الـخ، التـي لا يقـول سانتشـو كلمـة واحـدة عنهـا، يمكـن ويجـب أن تنقـض فـي سـياق التطـور التاريخـي. ولعـل سانتشـو- الـذي يختلـس بهـذا الخصـوص نظـرة سـريعة إلـى علـم الحيـوان، وبذلـك يكتشـف أن "العقـول المحـدودة الفطريـة" لا تشـكل الطبقـة الأكثـر عـدداً ليـس بيـن الخرفـان والثيـران فحسـب، بـل كذلـك بيـن المرجـلات والنقاعيـات التـي لا رؤوس لهـا علـى الإطـلاق- قـد سـمع أنـه مـن الممكـن تحسـين عـروق حيوانيـة وخلـق أنـواع جديـدة كليـاً وأكثـر كمـالاً بواسـطة التهجيـن، مـن أجـل إرضـاء البشـر ومـن أجـل متعتهـا الذاتيـة الخاصـة علـى حـدّ سـواء. و"لمـاذا لا يسـتطيع" سانتشـو أن يسـتخلص مـن ذلـك نتيجـة قابلـة للتطبيـق علـى الجنـس البشـري أيضـاً؟

وسـوف ننتهـز هـذه الفرصـة كـي "نـدرج عرضيـاً" "تحـولات" سانتشـو فيمـا يتعلـق بالنـوع. ولسـوف نـرى أن موقفـه مـن النـوع هـو بالضبـط ذلـك الموقـف مـن المقـدس: فكلمـا هـدر ضـده ازداد إيمانـه بـه.

رقـم ١. رأينـا مـن قبـل أن النـوع يولـد تقسـيم العمـل والعجـز الـذي يحـدث فـي ظـل الظـروف الاجتماعيـة السـابقة والحاليـة. كيـف يحصـل علـى هـذه النتيجـة؟ إنـه يحصـل عليهـا باعتبـار النـوع ومنتجاتـه علـى السـواء شـيئاً لا يتغيـر فـي جميـع الظـروف، شـيئاً خارجـاً عـن نطـاق إشـراف البشـر.

رقـم ٢. "إن النـوع يتحقـق سـلفاً بفضـل المعطيـات الطبيعيـة؛ بالمقابـل، فـإن مـا تسـتطيع أن تصنعـه انطلاقـاً مـن هـذه المعطيـات" (وفقـاً لمـا سـبق كان يجـب أن يقـال مـا صنعـت "الظـروف" منـه) "هـو مـا تحققـه أنـت. إن يـدك تتحقـق كليـاً مـن وجهـة نظـر النـوع، وإلا لـم تكـن يـداً، بـل برثنـاً إذا جـاز التعبيـر... إنـك تصنـع منهـا مـا تريـد ومـا تسـتطيع أن تصنعـه، كمـا تريـده وكمـا تسـتطيعه". (ويغـان، ص ١٨٤، ١٨٥).

إن سانتشو يكرر هنا في شكل مغاير ما سبق له قوله في الرقم ١.

وهكـذا، فقـد رأينـا ممـا قيـل حتـى الآن، أن النـوع ينتـج جميـع الإمكانـات الجسـدية والذهنيـة، ووجـود الأفـراد المباشـر، وبصـورة جنينيـة تقسـيم العمـل، وذلـك بصـورة مسـتقلة عـن إشـراف الأفـراد ودرجـة تطورهـم التاريخـي.

رقـم ٣. نصـادف مـن جديـد النـوع بوصفـه هـذه المـرة "حافـزاً"، وهـو تعبيـر عـام عـن "الظـروف" التـي تقـرر تطـور الفـرد الأصلـي، المولـود هـو نفسـه مـن النـوع. ذلـك أن النـوع يمثـل هنـا، فـي نظـر سانتشـو بالضبـط، تلـك القـوة السـرية التـي يسـميها البورجوازيـون الآخـرون طبيعـة الأشـياء والتـي يجعلونهـا مسـؤولة عـن جميـع العلاقـات المسـتقلة عنهـم بوصفهـم بورجوازييـن، والتـي لا يفهمـون بالتالـي شـيئاً مـن علاقاتهـا الباطنـة.

رقـم ٤. إن النـوع، هـذه المـرة، فـي صـورة "مـا هـو ممكـن بالنسـبة إلـى الإنسـان"و"ما يحتاجـه الإنسـان"، يشـكل أسـاس تنظيـم العمـل فـي "رابطـة شـترنر"، حيـث مـا هـو ممكـن بالنسـبة إلـى الجميع والحاجـات المشـتركة لـدى الجميـع تعتبـر كذلـك منتجـات النـوع.

رقم ٥. لقد سمعنا من قبل عن الدور الذي يلعبه الاتفاق في الرابطة.

"ص ٤٦٢ : إذا كانـت المسـألة هـي الوصـول إلـى اتفـاق أو تبـادل الاتصـال، فإننـي لا أسـتطيع إذن، بـكل تأكيـد، إلا أن اسـتعمل الوسـائط البشـرية التـي هـي تحـت تصرفـي، لأننـي فـي الوقـت نفسـه إنسـان" (أي نمـوذج عـن النـوع).

وهكـذا فـإن اللغـة تعتبـر هنـا نتاجـاً للنـوع. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإذا كان سانتشـو ينطـق بالألمانيـة وليـس بالفرنسـية، فإنـه لا يديـن بذلـك للنـوع فـي حـال مـن الأحـوال، بـل للظـروف. وعلـى أي حـال، فـإن اللغـة، فـي أيـة لغـة حديثـة متطـورة، قـد فقـدت طابـع الظاهـرة الطبيعيـة، جزئيـاً مـن جـراء تطـور اللغـة التاريخـي انطلاقـاً مـن المـواد الموجـودة مسـبقاً، كمـا فـي اللغـات الرومانيـة والجرمانيـة، وجزئيـاً مـن جـراء تصالـب القوميـات وامتزاجهـا كمـا فـي اللغـة الإنكليزيـة، وجزئيـاً مـن جـراء انصهـار اللهجـات ضمـن أمـة وحيـدة فـي لغـة قوميـة قائمـة علـى أسـاس الانصهـار الاقتصـادي والسياسـي. ومـن المفـروغ منـه أن الأفـراد فـي يـوم مـا سـوف يتحكمـون كليـاً بهـذا النتـاج للنـوع مثلمـا يتحكمـون بمنتجاتـه الأخـرى. وبالمقابـل، فـإن النـاس سـوف ينطقـون فـي

الرابطة باللغة في ذاتها، اللغة المقدسة، لغة المقدس - العبرية، بل اللهجة الآرامية[٢١٩] التي نطق بها المسيح "الإله الذي صار جسداً". لقد "خطرت" لنا هنا هذه الفكرة "ضد توقع" سانتشو، و"في الحقيقة لأنه بدا لنا فقط أن هذا يمكن أن يسهم في إيضاح ما قبله".

رقم ٦. نعلم في الصفحتين ٢٧٧ و٢٧٨ أن "النوع يكشف عن ذاته في الأمم، والمدن، والطبقات الاجتماعية والأصناف الحرفية المتنوعة"، وأخيراً "في الأسرة"، الأمر الذي يترتب عليه بصوره منطقية أنه قد "صنع التاريخ" حتى الوقت الراهن. وهكذا، فإن التاريخ من أصوله حتى أيامنا الحاضرة، وحتى وبما فيه التاريخ البائس للأوحد، يصبح نتاجاً "للنوع"، والسبب الكافي لذلك هو أن هذا التاريخ لخص أحياناً تحت عنوان "تاريخ الجنس البشري"، يعني تاريخ النوع.

رقم ٧. إن سانتشو، الذي نسب فيما سبق إلى النوع أكثر مما فعله أي فانٍ قبله، يلخص الآن كل شيء في العبارة التالية:

"إن النوع لا شيء... إن النوع تصور فقط" (روح، شبح، الخ...) (ص ٢٣٩).

وبنتيجة ذلك، فإن هذا "اللا شيء" الذي يتحدث عنه سانتشو، المماثل "للتصور" لا يعني شيئاً على الإطلاق. ذلك أن سانتشو نفسه هو "العدم الخالق"، في حين أن النوع، كما رأينا، يخلق قدراً كبيراً – وإذ ما يفعل ذلك يمكن على خير وجه أن يكون "لا شيئاً" هو الآخر. وفضلاً عن ذلك، فإن سانتشو يخبرنا في الصفحة ٤٥٦:

"الوجود لا يبرر شيئاً على الإطلاق؛ إن شيئاً متصوراً يوجد بالضبط كمثل شيء غير متصور".

وانطلاقاً من الصفحة ٤٤٨، يلفق سانتشو قصة تستمر ثلاثين صفحة كيما يشعل "ناراً" من الفكر ومن نقد الأناني المتفق مع نفسه. ولقد اختبرنا من قبل قدراً كبيراً من منتجات فكره ونقده كيما نلحق بالقارئ "إهانة"[*] أخرى بأن نفرض عليه حساء الفقير الخاص بسانتشو. إن ملعقة واحدة منه كافية.

(*) تلاعب بالألفاظ: إن عبارة "Antsos geben" التي كثيراً ما يستعملها شترنر يمكن أن تعنى "أعطى صدمة" أو "وجه إهانة".

"هـل تعتقـدون أن الأفـكار تطيـر فـي كل مـكان، طليقـة مثـل العصافيـر، بحيـث يسـتطيع أي امـرئ أن يسـتولي علـى بعضهـا كـي يجابهنـي بهـا علـى اعتبارهـا ملكيتـه العصمـاء؟إن كل مـا يطيـر فـي كل مـكان هـو لـي". (ص ٤٥٧).

إن سانتشـو يقنـص هنـا صيـداً لا وجـود لـه إلا فـي الذهـن. ولقـد رأينـا كـم التقـط مـن هـذه الأفـكار الطائـرة فـي كل مـكان. وإنـه ليتخيـل أن فـي مقـدوره أن يلتقطهـا حالمـا يضـع حبـة ملـح المقـدس علـى أذيالهـا. إن هـذا التناقـض الهائـل بيـن ملكيتـه الفعليـة فيمـا يتعلـق بالأفـكار وأوهامـه فـي هـذا المجـال يسـتحق أن يؤخـذ كمثـال كلاسـيكي وبـارز علـى ملكيتـه بكاملهـا بالمعنـى فـوق العـادي. إن هـذا التناقـض بالضبـط هـو مـا يشـكل متعتـه الذاتيـة.

٧ – نشيد الإنشاد لسليمان أو نشيد الأوحد

Cessem de sabio Grego, e doTroiano

As navegaçoes grandes que fizeram;

Calle – se de Alexandro, e de Trajano

A fama des Victorias que tiveram

***

Cesse tudo O que a Musa Antigua canta,

Que outro valor mais alto sealevanta

E vós,Spreïdes minhas …...

Dai-me huma furia grande, e sonorosa;

E nao agreste avena, on frauta ruda;

Mas de tuba canora, e bellicosa

Que o petito accende, e o côr ao gesto mud(*)

(*) فلنعرض عن رجل طروادة، وعن حكيم اليونان
وعن الرحلات الكبرى التي قاما بها؛
فلنعرض عن الاسكندر وعن طراجان
وعن مجد الانتصارات التي حققاها.

***

=

امنحنني، يا عرائس البحر في سبري، أنشودة جديرة بالأبطال الذين قاتلوا على ضفافك ضد الجوهر والإنسان، أنشودة تنتشر فوق العالم بأجمعه وتغنى في جميع البلدان، ذلك أن المقصود هنا هو الإنسان الذي أفعاله.

Mais do que promettia força humana

أعظم مما تستطيع القوة "الإنسانية" الصرفة أن تحققه، الإنسان الذي...

Edificàra

Novo reino que tanto sublimara

الذي أسس أمبراطورية جديدة وسط شعوب بعيدة، يعني الرابطة – إن المقصود

tenor, e novo ramo flores, ente...

De huma arvore de Christo, mais amada

هو ذلك البرعم المتفتح، الزاهر، الطري، لشجرة أحبها المسيح أكثر من أية شجرة أخرى، والتي هي أيضاً

Certissimae sperança

Do augmento da pequena Christiandade

الرجاء الأوطد في العظمة الآتية للمسيحية الواهنة القلب(*) - وبكلمة واحدة، فإن المقصود أمر "لم يسبق له مثيل"، المقصود هو "الأوحد".

فلنعرض عما عنته إلاهة الشعر القديمة،

وعن غير ذلك من المآثر المجيدة.

وأنتن يا عرائس البحر في سبري(آ)...

إمنحنني الحماسة المتدفقة، المتألقة،

لا تلك الحماسة التي يغنيها الناي القروي أو المزامير الريفية

بل تلك الحماسة التي ينشدها

بوق الحرب الرنان، فينفخ النار في الصدور

ويحرك الدمار فتشتعل في الشرايين.

(آ) في الأصل تاغوس، وقد استعاض المؤلفان عنه هنا بسبري، وهو النهر الذي يجتاز برلين. والأبيات جميعاً من قصيدة للويس دي كامونيس بعنوان: Lusiadas.

(*) راجع كامونيس: Lusiadas، القسم الأول، ١ - ٧.

إن كل ما هو وارد في هذا النشيد الذي لم يسبق له مثيل، في نشيد الأنشاد هذا المكرس للأوحد، قد كان موجوداً من قبل في "الكتاب". ولسنا نأتي على ذكر هذا الفصل إلا بهدف حسن الترتيب؛ وكي نفعل ذلك كما ينبغي، فقد تركنا دراسة بعض النقاط حتى الآن، وسوف نراجع بعض النقاط الأخرى باقتضاب.

إن "أنا" سانتشو قد أنجزت تناسخاً كاملاً... ولقد سبق لنا أن صادفناها في مظهر الأناني المتفق مع نفسه، والقن، وتاجر الأفكار، والمزاحم البائس، والمالك، والعبد الذي انتزعت إحدى ساقيه، وسانتشو المقذوف في الهواء من جراء التفاعل المتبادل بين الولادة والظروف، وفي مئة صورة أخرى. وإنه ليقرئنا هنا سلام الوداع في ملامح كائن "لاإنساني"(*)، متخذاً من جديد الراية التي دخل تحتها العهد الجديد.

"إن الكائن اللا إنساني هو وحده الإنسان الواقعي". (ص ٢٣٢).

وهذه إحدى المعادلات الألف والواحدة التي يشرح بها سانتشو أسطورته عن المقدس:

ليس مفهوم "الإنسان" بالإنسان الواقعي

مفهوم "الإنسان" = "الإنسان".

"الإنسان" = ليس الإنسان الواقعي

الإنسان الواقعي = اللاإنسان

= الكائن اللا إنساني

"إن الكائن اللا إنساني هو وحده الإنسان الواقعي".

ويحاول سانتشو أن يقتنع بالطابع غير الضار لهذه العبارة بواسطة الشروح التالية:

"ليس من العسير أن نقول بكلمات قليلة واضحة ما هو الكائن اللاإنساني: إنه إنسان [...] لا يقابل مفهوم الإنساني، ويسمي المنطق هذا محاكمة سخيفة؛ أيكون للمرء الحق في الإعراب عن هذه المحاكمة بأن امرءً ما يمكن أن يكون إنساناً من دون أن يكون إنساناً،

(*) يلجأ شترنر هنا مرة أخرى إلى التلاعب بالألفاظ: فكلمة Unmensch تعني حرفياً "الكائن اللاإنساني"، لكنها في اللغة الشائعة تأخذ معنى "الشيطان، الشبح، الخ...".

إذا كان المـرء لا يعتـرف بصلاحيـة الفرضيـة القائلـة أن مفهـوم الإنسـان يمكـن أن ينفصـل عـن وجـوده، وإن الماهيـة يمكـن أن تنفصـل عـن المظهـر؟ إنـه يقـال: فـلان يملـك مظهـر الإنسـان حقـاً، لكنـه ليـس بإنسـان. ولقـد نطـق البشـر بمثـل هـذه المحاكمـة السـخيفة عبـر قـرون عديـدة؛ وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه لـم يكـن هنـاك خـلال هـذه الفتـرة الطويلـة مـن الزمـن سـوى كائنـات لاإنسـانية. أي فـرد وحيـد كان يمكـن أن يقابـل مفهومـه؟" (ص ٣٢٣).

إننـا نصـادف هنـا مـرة أخـرى الوهـم الأساسـي لصاحبنـا معلـم المدرسـة الـذي تصـور مثـلاً أعلـى عـن "الإنسـان" و"حشـره فـي رؤوس" النـاس الآخريـن، وذلـك هـو النـص الأساسـي "للكتـاب".

إن سانتشـو يسـمي فرضيـة الفكـرة القائلـة إن مفهـوم "الإنسـان" ووجـوده، وماهيتـه ومظهـره، يمكـن أن تكـون أشـياء متميـزة وكأن العبـارات التـي يسـتخدمها لا تعـرب بالـذات، بصـورة مسـبقة، عـن إمكانيـة هـذا الانفصـال. فهـو حالمـا يقـول المفهـوم، فإنـه يتحـدث عـن شـيء مختلـف عـن الوجـود ؛ وحالمـا يقـول الماهيـة، فإنـه يتحـدث عـن شـيء مختلـف عـن الظاهـرة ؛ إنـه لا يعـارض بيـن هـذه التعابيـر، بـل يعبـر عـن مجـرد تعـارض. وبالتالـي، فـإن السـؤال الوحيـد الـذي يمكـن أن يطـرح هـو مـا إذا كان يملـك الحـق فـي إعطـاء هـذه المقـولات محتـوى. وقـد كان يترتـب علـى سانتشـو، كيمـا يعالـج هـذا الأمـر، أن يأخـذ بعيـن الاعتبـار علاقـات البشـر الفعليـة، وهـي عبـارات اتخـذت أسـماء أخـرى حيـن أصبحـت ميتافيزيقيـة. وفيمـا عـدا ذلـك فـإن حجـج سانتشـو نفسـها عـن الأنانـي المتفـق مـع نفسـه وعـن العصيـان تبيـن كيـف يمكـن فصـل هـذه المقـولات، فـي حيـن أن حججـه عـن الفرديـة والإمكانيـة والواقـع - بخصـوص "المتعـة الذاتيـة"، تبيـن كيـف يمكـن أن يفصـل ويطابـق مـا بينهـا بصـورة متزامنـة.

إن محاكمـة الفلاسـفة السـخيفة القائلـة إن الإنسـان الحقيقـي ليـس إنسـاناً إنمـا هـي، علـى صعيـد التجريـد، التعبيـر الأعـم والأشـد شـمولاً عـن التناقـض العـام القائـم فعـلاً بيـن حاجـات البشـر والشـروط التـي يحيـون فيهـا. إن الشـكل السـخيف لهـذه العبـارة المجـردة يقابـل تمامـاً الطابـع اللاعقلانـي للعلاقـات القائمـة فـي المجتمـع البورجـوازي، هـذا الطابـع الـذي بلـغ حـده الأقصـى مـن اللاعقلانيـة، بالضبـط كمـا أن محاكمـة سانتشـو السـخيفة عـن بيئتـه، (إنهـم أنانيـون

وفـي الوقـت نفسـه ليسـوا بأنانييـن)- تقابـل التناقـض الفعلـي بيـن وجـود المالكيـن الصغـار الألمـان والواجبـات التـي فرضتهـا عليهـم الشـروط القائمـة (وهـي الواجبـات التـي تجسـدها رغباتهـم التقيـة ومطامحهـم الواهنـة). وعلـى أي حـال، فـإذا كان الفلاسـفة قـد أعلنـوا أن البشـر لاإنسـانيون، فليـس فـي ذلـك أنهـم لا يقابلـون مفهـوم الإنسـان، بـل السـبب فـي ذلـك أن مفهومهـم، هـم الفلاسـفة، لا يقابـل المفهـوم الحقيقـي عـن الإنسـان، أو بـكلام آخـر لأنهـم لـم يكونـوا يملكـون الوعـي الصحيـح لماهيـة الإنسـان. تماماً كمـا هـي الأمـور عندنـا(*) فـي "الكتـاب"، حيـث يعلـن سانتشـو أن البشـر غيـر أنانييـن لمجـرد أنهـم لا يملكـون معرفـة حقيقيـة بالأنانيـة.

إن هـذه العبـارة غيـر الضـارة علـى الإطـلاق - القائلـة إن فكـرة الإنسـان ليسـت بالإنسـان الحقيقي، وإن فكـرة الشـيء ليسـت بالشـيء ذاتـه - وهـي عبـارة قابلـة للتطبيـق أيضـاً، علـى الحجـر وعلـى فكـرة الحجـر، الأمـر الـذي يحمـل سانتشـو علـى التصريـح بـأن الحجـر الحقيقـي ليـس حجـراً - لـم تكـن ثمـة حاجـة إلـى الاتيـان علـى ذكرهـا، نظـراً لمـا تتحلـى بـه مـن ابتـذال أقصـى ويقيـن لا مجـال للشـك فيـه. بيـد أن الوهـم الشـهير لـدى سانتشـو الـذي يحملـه علـى الاعتقـاد بـأن سـيطرة الأفـكار والمفاهيـم هـي وحدهـا التـي قذفـت بالجنـس البشـري حتـى الآن، فـي مختلـف أنـواع المصائـب، يتيـح لـه أن يربـط اسـتنتاجاته القديمـة بهـذه العبـارة مـرة أخـرى. إن رأي سانتشـو القديـم بأنـه ليـس علـى المـرء إلا أن ينتـزع مـن رأسـه بعـض الأفـكار كيمـا يشـطب مـن العالـم الشـروط التـي أدت إلـى قيـام تلـك الأفـكار، يتكـرر هنـا فـي الشـكل التالـي: ليـس علـى المـرء إلا أن ينتـزع مـن رأسـه الفكـرة المسـماة "الإنسـان" كيمـا يضـع حـداً للشـروط الفعليـة الموصوفـة اليـوم بأنهـا لاإنسـانية، سـواء أكانـت صفـة "اللاإنسـانية" هـذه حكـم الفـرد الـذي يعبـر عـن معارضتـه للشـروط التـي يحيـا فيهـا أو حكـم المجتمـع السـائد، الـذي يعتبـر نفسـه القاعـدة، علـى الطبقـة المحكومـة التـي لا تخضـع لتلـك القاعـدة. وهكـذا، فـإن حوتـاً ينتـزع مـن المحيـط و ويوضـع فـي كوبفرغرابـن(٢٢٠) سـوف يعلـن، إذا كان يملـك الوعـي، إن هـذا الوضـع الـذي خلقتـه "شـروط منافيـة" لا يتفـق مـع طبيعـة الحـوت، بالرغـم مـن أن سانتشـو سـوف يثبـت لـه أنـه يتفـق مـع طبيعـة الحـوت، ولـو لمجـرد أنـه، وضعـه الخـاص، هكـذا بالضبـط يفكـر البشـر فـي بعـض الظـروف.

(*) tout comme chez nous، بالفرنسية في النص الأصلي.

وفي الصفحة ١٨٥، أثار سانتشو هذه المسألة الهامة:

"لكن كيف السبيل إلى كبح جماح الكائن اللاإنساني(*) الذي يقيم في كل فرد؟ كيف يستطيع المرء أن يتدبر الأمر بحيث لا يطلق الكائن اللاإنساني جنباً إلى جنب مع الكائن الإنساني؟ إن الليبرالية بمجموعها عدواً مميتاً، خصماً لا يقهر، كما أن الله له الشيطان! فإن للإنسان على الدوام رفاقاً هم الكائن اللاإنساني، والأناني، الفرد، ولا تستطيع الدولة، أو المجتمع، أو الجنس البشري، أن تسيطر على هذا الشيطان".

"وإذا تمت الألف سنة يمل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في زوايا الأرض الأربع، هاجوج وماجوج يحشدهم للقتال..

"فطلعوا على سعة الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة" ("رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي، ٢٠: ٧، ١٩").

إن المسألة تنتهي من جديد، في الشكل الذي يفهمها سانتشو به، إلى هراء صرف. إنه يتخيل أن البشر قد شكلوا حتى الآن مفهوماً عن الإنسان، ومن ثم تحرروا بقدر ما كان ذلك ضرورياً من أجل تحقيق هذه الفكرة في أنفسهم؛ وإن درجة الحرية التي توصلوا إليها في كل مرة قد تقررت بالمثل الأعلى للإنسان كما تصوروه في حينه؛ ولقد كان من المحتم في هذا المنظور أن تظل في كل فرد بقية تتنافر مع هذا المثل الأعلى، وهذه البقية المدموغة بصفة "اللاإنسانية" إما لم تسهم في تحررالبشر أو أسهمت فيه رغماً عنهم(**).

والواقع، إن الأمور جرت بصورة طبيعية كما يلي: لقد بلغ البشر في كل مرة درجة التحررالتي تمليها عليهم وتتيحها لهم القوى المنتجة القائمة لا مثلهم الأعلى عن الإنسان. ومهما يكن من أمر، فإن جميع مكاسب الحرية حتى الآن، قد كانت قائمة على قوى منتجة محدودة كان إنتاجها، القاصر عن إرضاء المجتمع بأسره، لا يتيح التقدم إلا إذا كان البعض يلبون حاجاتهم على حساب البعض الآخر، الأمر الذي كان يمنح البعض - الأقلية- احتكار التقدم، فيما البعض الآخر- الأغلبية من جراء صراعهم المتصل من أجل إرضاء أكثر حاجاتهم جوهرية، مستبعدون من أي تقدم في تلك الأثناء (أي حتى ولادة قوى منتجة

(*) هنا بمعنى المسخ، الحيوان.

(**) malgré eux، بالفرنسية في النص الأصلي.

جديـدة ذات طابـع ثـوري). وهكـذا، فـإن المجتمـع قـد تطـور دائمـاً حتـى الآن، ضمـن إطـار تناقـض التناقـض بيـن الأحـرار والعبيـد فـي الأزمنـة القديمـة، والتناقض بيـن النبالة والاقنـان في الحقب الوسـطى، والتناقـض بيـن البورجوازيـة والبروليتاريـا فـي الحقـب الحديثـة. وإن هـذا ليفسـر، مـن جهـة واحـدة، الطريقـة غيـر الطبيعيـة "اللاإنسـانية" التـي كانـت الطبقـة المسـودة تلبـي بهـا حاجاتهـا، ومـن جهـة ثانيـة، الحـدود الضيقـة التـي يتطـور ضمنهـا التعامـل، واسـتناداً إلـى ذلـك الطبقـة السـائدة بمجموعهـا، بحيـث إن هـذا الطابـع المحـدود للتقـدم لا يسـتقيم فـي اسـتبعاد طبقـة واحـدة مـن التطـور فحسـب، بـل كذلـك فـي ضيـق الفكـر عنـد الطبقـة العاملـة علـى الأبعـاد، وأن "اللاإنسـاني" يصـادف كذلـك فـي الطبقـة السـائدة. إن مـا يوصـف بأنـه "لا إنسـاني" هـو نتـاج للشـروط الراهنـة، مثلـه كمثـل "الإنسـاني" سـواء بسـواء؛ إنـه الجانـب السـالب، العصيـان -غيـر المبنـي علـى أيـة قـوى منتجـة ثوريـة جديـدة- ضـد النظـام السـائد المؤسـس علـى القـوى المنتجـة القائمـة، وضـد طريقـة تلبيـة الحاجـات التـي تقابـل هـذه الأوضـاع. إن التعبيـر الإيجابـي "إنسـاني" يقابـل االشـروط المحـددة السـائدة فـي مسـتوى معيـن للإنتـاج وطريقـة تلبيـة الحاجـات المحـددة مـن قبـل تلـك الشـروط، بالضبـط كمـا أن التعبيـر السـلبي لاإنسـاني يقابـل المحاولـة المتجـددة يوميـاً، والناجمـة عـن هـذا المسـتوى الـذي بلغـه الإنتـاج، مـن أجـل إنـكار هـذه الشـروط السـائدة وكذلـك إنـكار طريقـة تلبيـة الحاجـات السـائدة فـي ظلهـا فـي إطـار نمـط الإنتـاج القائـم.

وبالنسـبة إلـى قديسـنا، فـإن هـذه الصراعـات علـى نطـاق التاريـخ العالمـي ترجـع إلـى مجـرد نـزاع بيـن القديـس برونـو و"الجمهـور". راجـع كل نقـد الليبراليـة الإنسـانية، وخاصـة الصفحـة ١٩٢ ومـا يليهـا.

وهكــذا، فــإن صاحبنــا الســاذج سانتشــو، بكلمتــه الجامعــة الســاذجة عــن الكائــن اللاإنســاني وبطريقتــه فــي انتــزاع الإنســان مــن رأس المــرء، هــذا الانتــزاع الــذي يقضــي فــي الحــال علــى الكائــن اللاإنســاني أيضــاً ولا يتــرك بعــد الآن أي مقيــاس موضوعــي للأفــراد، ينتهــي أخيــراً إلــى النتيجـة التاليـة. إنـه يأخـذ العجـز والاسـتبعاد اللذيـن يتعـرض لهمـا الفـرد علـى الصعيـد الجسـدي والفكــري والاجتماعــي مــن جــراء الشــروط القائمــة علــى أنهمــا فرديــة ذلــك الفــرد وشــخصيته؛ وإنــه ليعتــرف بــكل هــدوء، مثلــه كمثــل أي إنســان عــادي محافــظ النزعــة، بهــذه الشــروط بعــد أن يتحــرر مــن كل قلــق بانتزاعــه مــن رأســه التصــور الــذي صنعــه الفلاســفة عــن هــذه الشــروط. وكمــا

يعلـن هنـا، أن الخصائـص التـي تفرضهـا الاحتمـالات علـى الفـرد هـي فرديتـه، كذلـك فيمـا مضـى (راجـع المنطـق)، بخصـوص الأنـا، لا يصـرف النظـر عـن أي احتمـال فحسـب، بـل كذلـك عـن أيـة فرديـة علـى العمـوم.

وإذ مـا حصـل سانتشـو علـى هـذه النتيجـة التـي تتحلـى بالعظمـة "اللاإنسـانية"، فإنـه يمجدهـا فـي استجب يـا رب[*] التاليـة التـي يضعهـا علـى شـفتي "الكائـن اللاإنسـاني":

"كنت موضع الازدراء لأنني نشدت ذاتي الفضلى خارجاً مني؛

"كنت اللاإنساني، لأنني حلمت بالإنساني،

"كنـت مثـل أولئـك الأتقيـاء الذيـن يجوعـون إلـى أناهـم الحقيقيـة ويظلـون علـى الـدوام خطـاة مسـاكين،

"ولم أكن أفكر نفسي إلا بالمقارنة مع آخر،

"ولم أكن الكل في الكل، لم أكن - الأوحد.

"لكنني أكف الآن عن الظهور في نظري بوصفي اللاإنساني،

"أكف عن قياس نفسي والسماح للآخرين بقياسي بالمقارنة مع الإنسان،

"لقد كنت اللاإنساني، لكنني لست اللاإنساني بعد الآن، إنني الأوحد!" هللويا!

ومـن دون أن نتعمـق أكثـر مـن ذلـك فـي طريقـة "اللاإنسـاني" الـذي وضـع نفسـه، كمـا يمكننـا أن نقـول بصـورة عابـرة، فـي الإطـار الذهنـي الضـروري حيـن أدار ظهـره "لنفسـه وللناقـد" القديـس برونـو - طريقـة "اللاإنسـاني" إذن، فـي "تخيـل" نفسـه، أو عـدم "تخيـل" نفسـه، فإننـا سـوف نشـير فقـط إلـى أن "الأوحـد" (بصيغـة العاقـل أو الأعجـم) يتصـف هنـا بأنـه ينتـزع المقـدس مـن رأسـه للمـرة التسـعمئة، الأمـر الـذي يترتـب عليـه، وهـذا مـا نجـد أنفسـنا بدورنـا مضطريـن إلـى تكـراره للمـرة التسـعمئة، أن يبقـى كل شـيء علـى حالـه، إذا لـم يكـن المقصـود مجـرد رغبـة تقيـة.

إن لدينـا هنـا، للمـرة الأولـى، الشـخص الأوحـد، سانتشـو، الـذي حصـل مـع الابتهـال المذكـور أعـلاه علـى وسـام الفروسـية، وهـو يمتلـك الآن لقبـه النبيـل الجديـد. إن سانتشـو يتوصـل إلـى "أوحديتـه" بانتزاعـه "الإنسـان" مـن رأسـه. وحيـن يفعـل ذلـك يكـف عـن "ألا يفكـر نفسـه إلا

(*) Kyrie eleison، باليونانية في النص الأصلي.

بالمقارنة مع آخر" وعن "الاعتراف بأن يكون أي شيء فوق نفسه". إنه يصبح لا قرين له. إننا نصادف هنا مرة أخرى وهم سانتشو القديم نفسه الذي ينص على أن التصورات، والأفكار، "المقدس" - في "صورة" الإنسان هنا- من دون حاجات البشر، هي التي تشكل عامل المقارنة(*) الوحيد، والرباط الأوحد بين الأفراد. إنه ينتزع فكرة من رأسه، وبذلك يصبح الأوحد.

وكيما يصبح "أوحد" بالمعنى الذي يقصده من الكلمة، يجب قبل كل شيء أن يثبت لنا وجوده بصورة مستقلة عن جميع الشروط المسبقة.

ص ٤٧٠: "لا يشكل الفكر الشرط المسبق لفكرك، بل أنت. لكن هذا يعني أنك تسلم بوجودك المسبق! أجل المسبق لفكري أنا. قبل فكري أنا موجود. وبالتالي فإنه يترتب على ذلك أنه ليس ثمة فكرة تسبق فكري، أو أن فكري موجود من دون أي شرط مسبق. ذلك أن الشرط المسبق الذي أشكله أنا بالنسبة إلى فكري ليس شرطاً يبتدعه الفكر، وليس شرطاً هو الفكر، بل هو صاحب الفكر، ولا يثبت سوى أن الفكر ليس شيئاً آخر سوى ملكية".

"إننا على استعداد هنا للتسليم" بأن سانتشو لا يفكر قبل أن يفكر، وإنه مثل أي إنسان آخر، بهذا المعنى، كائن مفكر من دون شروط مسبقة. وإننا لنسلم كذلك بأنه ليس ثمة فكرة تشكل الشرط المسبق لوجوده، أي ليست الأفكار هي التي خلقته. وإذا صرف سانتشو النظر لحظة واحدة عن كل هذه البضاعة التافهة من الأفكار (الأمر الذي لن يكون، نظراً لتشكيلته الهزيلة، على درجة كبيرة من الصعوبة) فإنه تتبقى أناه الحقيقية، لكن أناه الحقيقية ضمن إطار الشروط القائمة للعالم الواقعي. وبهذه الطريقة فقد تخلص للحظة من الزمن من جميع المقدمات العقائدية، لكن المقدمات الحقيقية تبدأ الآن بالمقابل، للمرة الأولى، وجودها بالنسبة إليه. وإن هذه المقدمات الحقيقية هي كذلك مقدمات مقدماته العقائدية التي سوف يصادفها من جديد في الحال، شاء ذلك أم أبى، مع الشروط الواقعية طالما أن المقدمات الحقيقية لم تتغير، ومعها المقدمات العقائدية، أم طالما يعترف بأن الشروط الفعلية تشكل

(*) tertium comparationis، باللاتينية في النص الأصلي.

مقدمـات فكـره، الأمـر الـذي سـيقضي بصـورة قاطعـة علـى المقدمـات العقائديـة. وبمـا أن تطـوره السـابق والأوسـاط البرلينيـة التـي يعاشـرها قـد قدمـت المقدمـات العقائديـة للأنانيـة المتفقـة مـع نفسـها، فإنـه يسـتطيع أن يتخيـل مـا شـاء وجـوده مـن دون شـروط مسـبقة، لكنـه سـيظل أسـير هـذا الشـرط مـا دام عاجـزاً عـن التغلـب علـى مقدماتـه الحقيقيـة.

فـلا يـزال سانتشـو، مثلـه كمثـل معلـم مدرسـة حقيقـي، ينشـر "الفكـر غيـر المشـروط" الهيغلـي الشـهير، أي الفكـر مـن دون مقدمـات عقائديـة، الـذي لا يعـدو كونـه، لـدى هيغـل أيضـاً، مجـرد رغبـة تقيـة. ولقـد حسـب سانتشـو أنـه يسـتطيع أن يحقـق ذلـك بحيلـة بارعـة، بـل أن يفعـل مـا هـو أفضـل مـن ذلـك، إذ ينطلـق بحثـاً عـن الأنـا المجـردة عـن المقدمـات. لكـن هـذا وذاك أفلتـا مـن قبضتـه علـى حـد سـواء.

يجرب سانتشو الآن بطريقة أخرى.

الصفحتـان ٢١٤، ٢١٥: "أمضـوا حتـى النهايـة فـي المطالبـة بالحريـة"! "مـن ذا سـوف يصبـح حـراً؟ أنـت، أنـا، نحـن. أحـرار ممَّ؟ مـن كل شـيء لا يكـون أنـت، أنـا، نحـن. وبالتالـي فإننـي أنـا لـب جميـع الأشـياء... مـاذا يتبقـى مـن كل شـيء لا يكـون أنـا؟ أنـا فقـط، ولا شـيء إلا أنـا".

"ذلك كان إذن، لب المشكلة!

طالب علم جوال! إن الحادث يضحكني"[٢٢١].

"كل شـيء لا يكـون أنـت، أنـا، نحـن"، تلـك بالطبـع، مـرة أخـرى، فكـرة عقائديـة، كالدولـة، والقوميـة، وتقسـيم العمـل، الـخ.. وإذا مـا خضعـت هـذه الأفـكار مـرة للنقـد- وفـي رأي سانتشـو أن هـذا مـا حققـه مـن قبـل بواسـطة "النقـد"، يعنـي النقـد النقـدي- فإنـه يتخيـل مـن جديـد أنـه قـد تحـرر أيضـاً، مـن الدولـة الفعليـة، ومـن القوميـة الفعليـة، ومـن تقسـيم العمـل الفعلـي، وبنتيجـة ذلـك، فـإن الأنـا هـي "النـواة "هنـا، التـي "أصبحـت حـرة مـن كل شـيء لا يكـون أنـا" لا تـزال الأنـا المحـررة مـن الشـروط المسـبقة، مـع كل الأشـياء التـي لـم تتخلـص منهـا بعـد.

وعلـى أيـة حـال، فـإذا كان لا بـدّ لسانتشـو أن يعالـج مـرة موضـوع "التحـرر" بوصفـه الرغبـة فـي التخلـص مـن المقـولات فحسـب، بـل مـن الأغـلال الفعليـة، فـإن مثـل هـذا الخـلاص سـوف

يفتـرض إذن، بصـورة مسـبقة، تغيـراً مشـتركاً بينـه وبيـن كتلـة عريضـة مـن النـاس الآخريـن، وسـوف يحـدث تغيـراً فـي الشـروط العامـة يسـري مفعولـه هـو الآخـر عليـه وعلـى الآخريـن. ومـن بعـد فبالرغـم مـن أن "أنـاه" "تبقـى" بعـد التحـرر، فإنهـا سـوف تكـون بمثابـة أنـا مختلفـة كليـاً عـن نشـاط الآخريـن، وعالمـاً تغيـرت أوضاعـه، وهـو يشـكل علـى وجـه الضبـط الشـرط المسـبق، المشـترك بينـه وبيـن الآخريـن، لحريتـه وحريتهـم، وبذلـك ينتهـي طابـع أنـاه الأوحـد، وفرادتهـا، واسـتقلالها.

يجرب سانتشو من جديد طريقاً ثالثة:

ص ٢٣٧: "لا ينجـم عارهـم عـن كونهـم" (اليهـود والمسـيحيون) "يسـتعبدون بعضهـم بعضـاً، بـل عـن كونهـم (لا يفعلـون ذلـك إلا بصـورة نصفيـة). لـو كان فـي مقدورهـم أن يكونـوا أنانييـن كامليـن، فقـد كانـوا، يسـتعبدون بعضهـم بعضـاً بصـورة كليـة".

ص ٢٧٣: "إذا كانـت رغبـة المـرء تقتصـر علـى حـل التناقـض، فلـن يفقـه إذن، معنـاه إلا بطريقـة صوريـة جـداً وهزيلـة جـداً. إن التناقـض يسـتأهل بالأحـرى أن تـزاد حدتـه" .

ص ٢٧٤: "أنتـم لـن تتوصلـوا بعـد الآن إلـى الاسـتمرار فـي إخفـاء تناقضكـم حيـن تعترفـون بـه مـن دون تحفظـات وحيـن يؤكـد كل امـرئ نفسـه، مـن قمـة رأسـه حتـى أخمـص قدميـه، علـى أنـه أوحـد... إن التناقـض النهائـي والأشـد حسـماً - ذلـك التناقـض الـذي يفصـل الأوحـد عـن الأوحـد - يمضـي بصـورة أساسـية لأبعـد ممـا يسـمى تناقضـاً عـادة... حيـن تكـون أوحـد، فإنـك لا تملـك بعـد الآن شـيئاً مشـتركاً مـع الآخريـن، بمـا فـي ذلـك، إذن، الفـروق والعـداوة... إن التناقـض يتلاشـى فـي... الانفصاليـة المطلقـة... التامـة، يعنـي الوحدانيـة..".

ص ١٨٣: "لسـت أريـد أن يكـون لـي شـيء خـاص أو أن أكـون شـيئاً خاصـاً يعطينـي امتيـازاً علـى الغيـر، كمـا أننـي لا أقيـس نفسـي بالمقارنـة مـع الغيـر.. إننـي أريـد أن أكـون كل شـيء أسـتطيع أن أكونـه، وأن يكـون لـي كل شـيء أسـتطيع الحصـول عليـه، ومـاذا يعنينـي أن يكـون الآخـرون أو يملكـوا شـيئاً مماثـلاً؟ إنهـم لا يسـتطيعون أن يكونـوا أو أن يملكـوا شـيئاً مسـاوياً، الشـيء نفسـه. إننـي لا أؤذيهـم مطلقـاً أكثـر ممـا أؤذي الصخـرة لأننـي أتفـوق عليهـا مـن ناحيـة الحركـة. إذا كان فـي مقدورهـم الحصـول عليـه، فإنهـم سـوف يحصلـون عليـه. عـدم إلحـاق الأذى بالآخريـن، هـذا

هـو معنـى المطلـب الـذي يقضـي بعـدم امتـلاك أي امتيـاز... يجـب علـى المـرء ألا يعتبـر نفسـه شـيئاً خاصـاً، يهوديـاً أو مسـيحياً مثـلاً. وهكـذا فإننـي لا أعتبـر نفسـي شـيئاً خاصـاً، بـل أعتبـر نفسـي أوحـد، وصحيـح أن بـي شـبهاً بالآخريـن، لكـن هـذا لا يصلـح إلا للمقارنـة أو التفكيـر؛ وعلـى أيـة حـال فالحقيقـة إننـي نسـيج وحـدي، أوحـد. ليـس جسـدي جسـدهم، وليـس روحـي روحهـم. إذا أنـت حشـرتهم فـي المقولتيـن العامتيـن "جسـد" و"روح"، فتلـك إذن، هـي أفـكارك التـي ليسـت لهـا علاقـة البتـة بجسـدي وبروحـي".

ص٢٣٤ "إن المجتمـع البشـري يسـعى إلـى دمـاره بسـبب مـن الأنانييـن، لأنهـم لا يتصرفـون حيـال بعضهـم بعضاً بوصفهـم كائنـات بشـرية، بـل يتصرفـون بأنانيـة بوصفهـم أنـا تعـارض أنـت متميـزاً كليـاً عـن تلـك الأنـا ومعاديـاً لهـا".

ص ١٨٠: "فـكأن الفـرد الواحـد لا يجـب أن ينشـد علـى الـدوام الآخـر، وكأن الواحـد ليـس مضطـراً للتكيـف مـع الآخـر حيـن يحتـاج إليـه. لكـن الفـرق هـو أن الفـرد الآن يتحـد بصـورة فعليـة مـع فـرد آخـر، بينمـا كان مـن قبـل مرتبطـاً بربـاط خارجـي".

ص ١٧٨: "إذا كان كل منكـم أوحـد، فإنكـم تسـتطيعون عندئـذ فقـط أن تقيمـوا مـع الآخريـن علاقـات علـى أسـاس مـا أنتـم فعليـاً".

فيمـا يتعلـق بوهـم سانتشـو عـن تعامـل الأوحديـن "علـى أسـاس مـا هـم فعليـاً"، عـن "اتحـاد الفـرد مـع الفـرد"، وباختصـار عـن "الرابطـة"، فتلـك مسـألة قـد بحثـت مـن قبـل بصـورة وافيـة. وسـوف نكتفـي هنـا بالإشـارة إلـى مـا يلـي: إذا كان كل واحـد فـي الرابطـة يعتبـر الآخـر علـى أنـه موضوعـه، ملكيتـه، ويعاملـه علـى هـذا الأسـاس (راجـع ص ١٦٧: نظريـة الملكيـة والاسـتغلال)، فـإن الأمـر علـى النقيـض مـن ذلـك فـي "التعليـق" (ويغـان، ص ١٥٤)، حيـث حاكـم جزيـرة باراتاريـا يـدرك ويعتـرف بـأن الآخـر يخـص نفسـه أيضـاً، هـو خاصتـه، هـو أوحـد، وهـو بهـذه الصفـة يصبـح كذلـك موضـوع سانتشـو، وإن لـم يكـن بعـد الآن ملكيـة سانتشـو. وفـي يأسـه، فـإن خشـبة الخـلاص الوحيـدة بالنسـبة إليـه هـي الفكـرة غيـر المتوقعـة بأنـه "حيـن يفعـل ذلـك ينسـى نفسـه فـي سـلوان ذاتـي عـذب"، وهـي متعـة "يحصـل عليهـا ألـف مـرة فـي كل سـاعة"، وتـزداد عذوبـة مـن

جـراء الوعـي بأنـه لـم "يتـلاشَ كلياً" مـع ذلـك. وهكـذا فـإن النتيجـة التـي تترتـب علـى ذلـك هـي تلـك الحكمـة القديمـة القاضيـة بـأن كل واحـد يوجـد لنفسـه وللآخريـن.

فلنرجع الآن بيانات سانتشو الطنانة إلى محتواها المتواضع الفعلي.

إن الصيـغ االمنمقـة عـن "التناقـض" الـذي يجـب أن تـزاد حدتـه ويدفـع إلـى حـدوده القصـوى، وعـن تلـك "الامتيـازات" الخاصـة التـي لا يريـد سانتشـو أن يحصـل عليهـا، تعـود جميعـاً إلـى الفكـرة الواحـدة نفسـها. فسانتشـو يريـد، أو بالأحـرى يعتقـد أنـه يريـد أن يتـم التعامـل بيـن الأفـراد علـى صعيد شـخصي صـرف، وألا يكـون ثالـث وسـيطاً لهـذا التعامـل (راجـع "التنافـس"). إن الثالـث هنـا هـو العنصـر "الخـاص" أو التناقـض الخـاص لا المطلـق، أي وضـع الأفـراد فـي علاقاتهـم ببعضهـم بعضـاً، المحـدد بالشـروط الاجتماعيـة القائمـة حاليـاً. ومثـال ذلـك أن سانتشـو ذلـك لا يريـد فرديـن أن يكونـا فـي "تناقـض" مـع بعضهمـا بعضـاً، بوصفهمـا بورجوازيـاً وبروليتاريـاً؛ إنـه يحتـج ضـد هـذا "العنصـر الخـاص" الـذي "يمنـح امتيـازاً" إلـى البورجـوازي علـى البروليتـاري؛ إنـه ليـود أن يدخلهمـا فـي علاقـة شـخصية صرفـة، أن يجعـل منهمـا مجـرد فرديـن يقيمـان علاقـات فيمـا بينهمـا. إنـه لا يأخـذ بعيـن الاعتبـار أن العلاقـات الشـخصية، فـي إطـار تقسـيم العمـل، تتطـور بصـورة ضروريـة وحتميـة إلـى علاقـات طبقيـة وتتبلـور بهـذه الصفـة، وبالتالـي فـإن كل حديثـه يتحـول إلـى رغبـة تقيـة يتوقـع أن يحققهـا حيـن يسـتحث أفـراد هـذه الطبقـات علـى أن ينزعـوا مـن رؤوسـهم فكـرة "تناقضهـم" و"امتيازهـم" "الخـاص". وفـي جمـل سانتشـو التـي أوردناهـا أعـلاه تـدور الأمـور حـول شـيء واحـد فقـط: رأي النـاس بأنفسـهم ورأيـه فيهـم، مـا يريدونـه هـم، ومـا يريـده هـو. إن "التناقـض" و"العنصـر الخـاص" سـوف ينقضـان مـن جـراء تعديـل يطـرأ علـى "الـرأي" و"الإرادة".

وحتـى ذلـك التفـوق الـذي يملكـه فـرد مـن حيـث هـو فـرد علـى الأفـراد الآخريـن هـو كذلـك فـي يومنـا نتـاج للمجتمـع، وحيـن يتحقـق لا بـد أن يظهـر فـي صـورة امتيـاز، كمـا بينـا ذلـك مـن قبـل لسانتشـو فيمـا يخـص التنافـس. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن الفـرد بحـد ذاتـه، مأخـوذاً بعيـن الاعتبـار لذاتـه، خاضـع لتقسـيم العمـل الـذي يجعـل تطـوره مختـلاً، ويقعـده، ويحـده.

إلام يخلص في أفضل الأحوال امتداد التناقض الذي يتحدث عنه سانتشو ونقض الصفات الخاصة؟ يخلص إلى ما يلي: إن أوضاع الأفراد يجب أن تتوحد مع سلوكهم حيال بعضهم بعضاً، في حين أن فروقهم المتبادلة يجب أن تتوحد مع تبايناتهم الذاتية (على الطريقة التي تتباين بها الذات التجريبية الواحدة من الذات الأخرى). وإن كلا هذين المطلبين إما أن يكونا، كما هي الحال عند سانتشو، تورية إيديولوجية لما هو موجود، لأن علاقات الأفراد، في جميع الظروف، لا يمكن أن تكون إلا سلوكهم المتبادل، بينما فروقهم لا يمكن أن تكون إلا تبايناتهم الذاتية، وإما أن يكونا الرغبة التقية بأن يكون في مقدورهم أن يتصرفوا بطريقة معينة وأن يتميزوا عن بعضهم بعضاً بطريقة محددة بحيث لا يكتسب سلوكهم وجوداً مستقلاً كي يصبح علاقة اجتماعية مستقلة عنهم وبحيث لا تتخذ فروقهم طابعاً موضوعياً مستقلاً عن الشخص، وهو الطابع الذي اتخذته والذي لا تزال تتخذه يومياً.

إن الأفراد قد "انطلقوا من أنفسهم"، دائماً وفي جميع الظروف، لكن بما أنهم ليسوا أوحدين بمعنى أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن قيام علاقات فيما بينهم، وبما أن هذه الحاجات، وبنتيجة ذلك طبيعتهم، وطريقة تلبية حاجاتهم، تجعلهم في تبعية لبعضهم بعضاً (العلاقات بين الجنسين، والتبادل، وتقسيم العمل)، فإنه كان من المحتم أن تقوم علاقات فيما بينهم. وفيما عدا ذلك، فقد كانوا يدخلون في علاقة تعامل بين بعضهم البعض ليس بوصفهم أنوات صرفة، بل بوصفهم أفراداً بلغوا مرحلة معينة من تطور قواهم المنتجة وتطور حاجاتهم، وكانت علاقة التعامل هذه تحدد بدورها الإنتاج والحاجات، ولذا فإن سلوك الأفراد الشخصي، في سلوكهم المتبادل بوصفهم أفراداً، هو الذي خلق العلاقات الثابتة القائمة ولا يزال يخلقها من جديد بصورة يومية. ولقد دخلوا في علاقات تعامل بين بعضهم البعض وهم على ما هم عليه، وانطلقوا "من أنفسهم" وهم على ما هم عليه، من دون أي اعتبار "لنظرتهم إلى الحياة". إن هذه "النظرة إلى الحياة" - حتى نظرة الفلاسفة الزائفة - لا يمكن بكل تأكيد أن تحدد، في جميع الأحوال، إلا بفعل حياتهم الفعلية. وبالتالي، فإنه يترتب على ذلك بصورة مؤكدة أن تطور المرء محدد بتطور جميع الآخرين الذين تقوم بينه

وبينهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة، وإن الأجيال المختلفة من الأفراد، التي قامت علاقات فيما بينها، تشترك في أن الأجيال اللاحقة تتحد في وجودها الطبيعي بالأجيال السابقة لها، وإن هذه الأجيال اللاحقة ترث القوى المنتجة وأشكال التعامل التي كرستها الأجيال السابقة لها، وبذلك تتحدد بنية العلاقات التي تقوم بين الأجيال الراهنة. وباختصار، فإنه من الواضح أن تطوراً يحدث، وأن تاريخ فرد وحيد لا يمكن أن يفصل عن تاريخ الأفراد السابقين أو المعاصرين، بل هو على العكس من ذلك محدد بهذا التاريخ.

إن انقلاب هذه العلاقة الفردية إلى نقيضها، إلى علاقة مادية صرفة، والتمييز الذي يقيمه الأفراد أنفسهم بين الفردية والمصادفة، هذا كله، كما بينا سابقاً، عملية تاريخية تتخذ في مراحل مختلفة من التطور أشكالاً مختلفة، أعظم حدة وأكثر عمومية دائماً. وفي الحقبة الحالية، فإن سيطرة الشروط المادية على الأفراد، وسحق الفردية من قبل المصادفة، قد اتخذا شكلهما الأعظم حدة والأكثر عمومية، الأمر الذي ألقى على عاتق الأفراد الموجودين مهمة محددة جداً، الاستعاضة عن سيطرة الظروف القائمة والمصادفة على الأفراد بسيطرة الأفراد على المصادفة والظروف القائمة. ليس مطلب الحقبة، كما يتوهم سانتشو، "تطوير الذات"، وهو ما صنعه كل فرد حتى الآن من دون أي نصح من سانتشو، بل إن حقبتنا تفرض علينا بالأحرى، أن نتحرر من نمط تطور محدد تماماً. إن هذه المهمة، التي تمليها الشروط الراهنة، تتطابق مع تلك المهمة التي تستقيم في تنظيم المجتمع تنظيماً شيوعياً.

ولقد سبق لنا أن بينا أعلاه، أن نقض الطابع المستقل للظروف القائمة بالنسبة إلى الأفراد وخضوع الفردية للمصادفة، وانقياد علاقات الأفراد الشخصية للعلاقات الطبقية ذات الطابع العام، الخ محددان في آخر تحليل بنقض تقسيم العمل. ولقد بينا كذلك أن نقض تقسيم العمل محدد هو نفسه بتطور التعامل والقوى المنتجة التي يجب أن تبلغ درجة من العمومية تصبح معها الملكية الخاصة وتقسيم العمل قيوداً تقيدها. ولقد بينا بالإضافة إلى ذلك أن الملكية الخاصة لا يمكن نقضها إلا بشرط إنجاز تطور شامل للأفراد، لأن الطابع القائم للتعامل والقوى المنتجة هو طابع شامل، ولا يمكن إلا لأفراد متطورين بطريقة شاملة أن يتمثلوها، يعني أن يحولوها إلى تجلي الظاهرات الحرة لحياتهم. ولقد بينا أن الأفراد

فـي الوقـت الحاضـر ملزمـون بنقـض الملكيـة الخاصـة، لأن القـوى المنتجـة وأشـكال علاقـات التعامـل قـد بلغـت مسـتوى عاليـاً مـن التطـور بحيـث أصبحـت، تحـت سـيطرة الملكيـة الخاصـة، قـوى هدامـة، ولأن التناقـض بيـن الطبقـات قـد بلـغ حـده الأقصـى. وأخيـراً، لقـد بينـا أن نقـض الملكيـة الخاصـة وتقسـيم العمـل يشـكل بحـد ذاتـه ذلـك الاتحـاد للأفـراد علـى الأسـاس الـذي خلقتـه القـوى االمنتجـة الراهنـة والتعامـل علـى النطـاق العالمـي.

وفـي قلـب المجتمـع الشـيوعي، وهـو المجتمـع الوحيـد حيـث لا يكـون تطـور الأفـراد الحـر والأصيـل عبـارة جوفـاء، فـإن هـذا التطـور محـدد علـى وجـه الدقـة بارتبـاط الأفـراد فيمـا بينهـم، وهـو ترابـط يسـتقيم جزئيـاً فـي المقدمـات الاقتصاديـة وجزئيـاً فـي التضامـن الضـروري لتطـور المجتمـع الحـر، وأخيـراً، فـي الطابـع الكلّـي لفعاليـة الأفـراد علـى أسـاس القـوى المنتجـة القائمـة. وبالتالـي فـإن المقصـود هنـا هـم الأفـراد الذيـن بلغـوا مرحلـة محـددة مـن التطـور التاريخـي، وليـس فـي أي حـال مـن الأحـوال الأفـراد الذيـن وقـع عليهـم الاختيـار كيفمـا اتفـق، بصـورة اعتباطيـة، حتـى مـن دون اعتبـار للثـورة الشـيوعية التـي لا غنـى عنهـا والتـي هـي بحـد ذاتهـا شـرط عـام لتطورهـم الحـر. إن وعـي الأفـراد لعلاقاتهـم المتبادلـة سـوف يملـك كذلـك، بـكل تأكيـد، طابعـاً مختلفـاً كل الاختـلاف، وبالتالـي، سـوف يكـون بعيـداً عـن "مبـدأ المحبـة" أو التفانـي بعـده عـن الأنانيـة.

وهكـذا فـإن "الوحدانيـة" المأخـوذة بمعنـى التطـور الأصيـل والسـلوك الفـردي، كمـا هـو مبيـن أعـلاه، لا تفتـرض أشـياء مختلفـة كل الاختـلاف عـن الإرادة الطيبـة والوعـي السـليم فحسـب، بـل تفتـرض كذلـك أمـوراً هـي بالضبـط النقيـض التـام لأوهـام سانتشـو. فليسـت "الوحدانيـة" عنـده أكثـر مـن تزييـن للشـروط القائمـة، قطـرة ضئيلـة مـن بلسـم معـزٍ للنفـس المسـكينة، العاجـزة، التـي جعلهـا العالـم البائـس شـقية بائسـة.

وإن الأمـر سـيان بالنسـبة إلـى "فـرادة سانتشـو" و"وحدانيتـه". لسـوف يتذكـر هـو نفسـه، إذا لـم يكـن قـد "ضـاع" كليـاً فـي "سـلوانه العـذب"، أن تنظيـم العمـل فـي "رابطـة الأنانييـن لشـترنر" لا يقـوم علـى تشـابه الحاجـات فحسـب، بـل علـى تسـاويها أيضـاً. وإنـه ليفتـرض ضمنيـاً لا حاجـات متسـاوية فحسـب، بـل نشـاطاً متسـاوياً أيضـاً، بحيـث يسـتطيع الفـرد الواحـد أن يأخـذ مـكان الآخـر فـي "العمـل البشـري" والمكافـأة الإضافيـة التـي يتناولهـا الشـخص "الأوحـد" تكليـلاً لنجاحاتـه

- علـى أي أسـاس ترتكـز إن لـم ترتكـز علـى المقارنـة بيـن العمـل الـذي ينجـزه وعمـل الآخريـن، وقـد نـال أجـراً أفضـل نظـراً لتفوقـه؟ وعلـى العمـوم كيـف يسـتطيع سانتشـو أن يتحـدث عـن الفـرادة حيـن يسـمح للمـال بالبقـاء - وهـو وسـيلة المقارنـة التـي تكتسـب وجـوداً مسـتقلاً فـي الممارسـة - وحيـن يخضـع نفسـه لـه، وطلبـاً للمقارنـة مـع الآخريـن يسـمح لنفسـه أن يقـاس بهـذا المعيـار الكلّـي؟ وبنتيجـة ذلـك، فإنـه لمـن الجلـي تمامـاً أنـه يكـذِّب هـو نفسـه مذهبـه عـن الفـرادة. ليـس شـيئاً أسـهل مـن تسـمية المسـاواة والتفـاوت والتشـابه والتنافـر تحديـدات للتفكيـر. وإن الفـرادة هـي كذلـك تحديـد فكـري يفتـرض فعـل المقارنـة كمقدمـة لـه. وكـي نبرهـن علـى أن المقارنـة ليسـت فـي أي حـال مـن الأحـوال تحديـداً فكريـاً اعتباطيـاً صرفـاً، يكفـي أن نعطـي مثـالاً واحـداً فقـط، المـال، عامـل المقارنـة(*) الدائـم للبشـر والأشـياء جميعـاً.

وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه يمكـن أن يكـون للفـرادة معـانٍ مختلفـة. وإن المعنـى الوحيـد المقصـود هنـا، ألا وهـو "الوحدانيـة" بمعنـى الأصالـة، يفتـرض بصـورة مسـبقة أن نشـاط الفـرد فـي مجـال معيـن يتميـز عـن فعاليـة أنـداده. إن بيرسـياني مغنيـة فريـدة بالضبـط لأنهـا مغنيـة وهـي تقـارن مـع مغنيـات أخريـات مـن قبـل أنـاس قادريـن علـى التعـرف إلـى فرادتهـا مـن خـلال المقارنـة المبنيـة علـى قـدرة سـمع طيبـة وعلـى الثقافـة الموسـيقية. إن غنـاء بيرسـياني ونقيـق ضفـدع غيـر قابليـن للمقارنـة، علـى الرغـم مـن أن المقارنـة ممكنـة حتـى مـن هـذا المجـال، لكنهـا سـوف تكـون مقارنـة بيـن كائـن إنسـاني وضفـدع، وليـس بيـن بيرسـياني وهـذا الضفـدع الخـاص. ولا يمكـن الحديـث عـن مقارنـة بيـن الأفـراد إلا فـي الحالـة الأولـى، أمـا فـي الحالـة الثانيـة فالمقارنـة تتنـاول النـوع أو إحـدى صفـات النـوع الـذي ينتسـبون إليـه. وثمـة نـوع ثالـث للفـرادة - فـرادة غنـاء بيرسـياني بالمقارنـة مـع ذيـل مذنـب - نتخلـى عـن دراسـته لسانتشـو مـن أجـل "متعتـه الذاتيـة" طالمـا أنـه يجـد، علـى أيـة حـال، لـذة كبيـرة فـي "المحاكمـة السـخيفة"؛ لكـن هـذه المحاكمـة السـخيفة تملـك هـي نفسـها شـيئاً مـن الواقعيـة فـي سـخافة الشـروط الراهنـة. إن المـال هـو المقيـاس المشـترك بيـن جميـع الأشـياء، بمـا فيهـا أعظمهـا تنافـراً.

وعلـى أيـة حـال، فـإن فـرادة سانتشـو تنتهـي إلـى نفـس الصيغـة الجوفـاء التـي تنتمـي إليهـا

(*) tertium comporationis، باللاتينية في النص الأصلي.

وحدانيته. فلا يجب أن تتم المقارنة بين الأفراد بمقياس عامل مقارنة مستقل عنهم، بل يجب أن تتحول المقارنة إلى تباين إرادي، أي إلى التطور الحر لفرديتهم، وهو الأمر الذي يتحقق، فضلاً عن ذلك، بانتزاعهم "الأفكار الثابتة" من رؤوسهم.

ومهما يكن من أمر، فإن سانتشو لا يعرف سوى المقارنة كما يجريها المؤلفون التافهون، وفلاسفة المقاهي، تلك المقارنة التي تؤدي إلى الاستنتاج العظيم بأن سانتشو ليس برونو وأن برونو ليس سانتشو.. ومن جهة أخرى، فمن المؤكد أنه يجهل العلوم كلياً، هذه العلوم التي لم تتوصل إلى تحقيق نجاحات بالغة الأهمية إلا بإجرائها المقارنة وتقريرها الفروق في مجال الأشياء القابلة للمقارنة فيما بينها والتي تكتسب المقارنة فيها طابعاً ذا أهمية شاملة - علوم مثل التشريح المقارن، وعلم النبات المقارن، وعلم اللغة المقارن، الخ.

إن أمماً عظمى - الفرنسيين والأميركيين الشماليين والإنكليز تعمد باستمرار إلى المقارنة فيما بينها على صعيد النظرية والممارسة على حد سواء، في التنافس وفي العلم. أما البقالون الصغار والمالكون الصغار مثل الألمان الذين يخافون المقارنة والتنافس فيختبئون خلف درع الفرادة التي يزودهم بها صناع لصاقاتهم الفلسفية. ولم يرفض سانتشو أن يتهاون بأية مقارنة في مصلحتهم فحسب، بل في مصلحته الخاصة أيضاً.

في الصفحة ٤١٥ يقول سانتشو:

"ليس يوجد أمرؤ قرين لي".

وفي الصفحة ٤٠٨ توصف الرابطة مع "أقراني" بحيث ينحل المجتمع في علاقات التعامل هذه بين الأفراد.

"إن الطفل يفضل التعامل مع أقرانه على المجتمع".

ومهما يكن من أمر، فإن سانتشو يستعمل من حين لآخر تعبير "قريني" أو "الند" بمعنى "الشيء ذاته"، مثال ذلك الفقرة الواردة أعلاه من الصفحة ١٨٣:

"لا يمكن أن يكونوا أو يملكوا شيئاً مساوياً، الشيء ذاته".

وهنا ينتهي إلى "تعبيره الجديد" الأخير، الذي يستخدمه بصورة خاصة في "التعليق".

إن الوحدانية والأصالة وتطور الفرد "الخاص"، التي لا تحدث على سبيل المثال، في

رأي سانتشو، في جميع "الأعمال البشرية"، بالرغم من أن أحداً لن ينكر أن أي صانع موقد لن يبنيه "بذات" الطريقة التي يبنيه بها آخر؛ تطور الأفراد "الأوحد" الذي لا يحدث، في رأي سانتشو هذا نفسه، في المجالين الديني والسياسي، الخ، (أنظر علم الظواهر)، بالرغم من أن أحداً لن ينكر أن أحداً من بين جميع أولئك الذين يؤمنون بالإسلام لا يؤمن به "بذات" الطريقة التي يؤمن بها آخر، وبهذا المعنى فإن سلوكه "أوحد"، بالضبط كما أن أحداً من بين جميع المواطنين لا يتصرف "بذات" السلوك حيال الدولة، ولو لمجرد أن هذا السلوك سلوكه هو وليس سلوك شخص آخر- كل هذه "الوحدانية" التي [يمتدحها سانتشو كثيراً]، والتي تتميز جداً من "المشابهة"، من هوية الشخص، بحيث لا يرى سانتشو في جميع الأفراد الذين عاشوا حتى هذا الحين سوى "نماذج" النوع - هذه هي تتلاشى كي ترتد هنا إلى هوية الشخص مع ذاته، مثلما يقررها البوليس، إلى حقيقة أن الفرد الواحد ليس هو الآخر. وهذا سانتشو، هذا العملاق الذي كان على أهبة الاستيلاء على العالم بعنف العاصفة، يسقط إلى مستوى كاتب في مكتب للجوازات.

وفي الصفحة ١٨٤ من "التعليق" يروي بحماسة زائدة ومتعة ذاتية عظمى أنه لا يشبع حين يأكل أمبراطورالياباب،لأن معدته ومعدة أمبراطور اليابان "وحداوان"، "فريدتان"، أي ليستا المعدة نفسها. وإذا كان سانتشو يعتقد أنه بهذه الطريقة قد نقض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة حتى ذلك الحين أو حتى قوانين الطبيعة فقط، فإن سذاجته لعظيمة إذن، بصورة تتجاوز كل حد، وهي تنشأ بكل بساطة من كون الفلاسفة لم يصفوا العلاقات الاجتماعية على أنها العلاقات المتبادلة لهؤلاء الأفراد المتماثلين مع بعضهم، ولا قوانين الطبيعة على أنها الروابط المتبادلة بين هذه الأجسام المحددة أو تلك.

ويعرف البشر جميعاً التعبير الكلاسيكي الذي أعطاه ليبنتز لهذا المبدأ القديم (الذي نجده في الصفحة الأولى من أي كتاب فيزياء تحت اسم نظرية لانفوذية الأجسام):

"وعلى أية حال، فإن كل موناد يختلف بالضرورة عن أي موناد آخر؛ ذلك أنه لا يوجد قط في الطبيعة شيئان متماثلان بصورة دقيقة".

إن وحدانية سانتشو تنحط هنا إلى مرتبة صفة يشاطر فيها كل قملة وكل حبة رمل.

ذلـك أعظـم تكذيـب يمكـن أن توجهـه فلسـفته إلـى نفسـها فـي آخـر الأمـر: إن مـا يسـتطيع كل سـاذج ريفـي وكل عريـف فـي الشـرطة أن يتحققـا منـه، ألا وهـو أن برونـو ليـس سانتشـو، هـذا مـا تعتبـره إحـدى اكتشـافاتها العظمـى، كمـا تعتبـر معجـزة حقيقيـة وجـود هـذا الاختـلاف.

وهكـذا فـإن "المرحـى النقديـة" لصاحبنـا "المفكـر القديـر" قـد تحولـت إلـى مزمـور لا شـأن للنقـد فيـه.

***

بعـد هـذه المغامـرات جميعـاً يبحـر صاحبنـا حامـل الـدروع "الأوحـد" مـن جديـد إلـى ميـنـاء كوخـه الأصلـي. وإن زوجتـه، شـبح عنـوان كتابـه، لتندفـع إلـى لقائـه "بـكل حبـور". وإن أول سـؤال تطرحـه هـو: كيـف حـال الحمـار؟

ويرد سانتشو: أفضل حالاً من سيده.

شـكراً للـه علـى مـا أسـداه لـي مـن خيـر. لكـن أخبرنـي الآن، يـا صديقـي، مـاذا جنيـت مـن ربـح مـن تجوالـك؟ أي ثـوب جديـد جئتنـي بـه؟

ويـرد سانتشـو: لـم أجلـب معـي شـيئاً مـن هـذا القبيـل، لكننـي أجلـب "العـدم الخـلاق، العـدم الـذي انطلاقـاً منـه، أنـا الخالـق، أخلـق جميـع الأشـياء". وهـذا يعنـي أنـك سـتريننـي فـي قـدرة أحـد آبـاء الكنيسـة ورئيـس أسـاقفة جزيـرة، بـل إحـدى أفضـل الجـزر التـي يمكـن مصادفتهـا.

شـكراً للـه، يـا كنـزي، وليكـن ذلـك عاجـلاً، لأننـا فـي حاجـة إلـى ذلـك بـكل تأكيـد. لكـن مـا هـذه الجزيـرة التـي تتحـدث عنهـا؟ إننـي لـم أفهـم ذلـك.

ويـرد سانتشـو: ليـس العسـل طعامـاً للخنازيـر. لسـوف تريـن ذلـك بنفسـك فـي حينـه، يـا امـرأة. لكننـي أسـتطيع منـذ الآن أن أخبـرك بأنـه لا شـيء فـي العالـم أبعـث علـى السـرور مـن شـرف أن ينشـد المـرء المغامـرات بوصفـه أنانيـاً متفقـاً مـع نفسـه وبوصفـه السـيد صاحـب المحيـا الحزيـن. وصحيـح أن معظـم هـذه المغامـرات لا "تبلـغ غايتهـا الأخيـرة" بحيـث يتـم "إرضـاء المطلـب الإنسـاني" (كمـا هـي رغبـة الكائـن البشـري(*))، ذلـك أن تسـعاً وتسـعين مغامـرة مـن

(*) tan como el hombre querria، بالإسبانية في النص الأصلي.

كل مئـة مغامـرة تخفـق وتسـلك طريقـاً شـائكاً. إننـي أعـرف ذلـك مـن خبرتـي، لإننـي خدعـت فـي بعـض هـذه المغامـرات، ورجعـت إلـى داري مـن بعضهـا الآخـر وقـد تعرضـت للضـرب والجلـد. لكنـه شـيء رائـع بالرغـم مـن هـذا كلـه، لأن المطلـب "الأوحـد" يلبـى دائمـاً فـي جميـع الأحـوال حيـن يضـرب المـرء علـى وجهـه عبـر التاريـخ بأسـره، مستشـهداً بجميـع الكتـب فـي حجـرة القـراءة فـي برليـن، مقيمـاً مخيمـه للاشـتقاق اللغـوي فـي سـائر اللغـات، مـزوراً الحقائـق التاريخيـة فـي جميـع البلـدان، متحديـاً بـكل تبجـح الأبالسـة، والشـياطين، والغيـلان، والجنيـات، و"الأشـباح"، متماسـكاً بالخنـاق مـع جميـع آبـاء الكنيسـة والفلاسـفة، ومـع ذلـك متحمـلاً فـي النهايـة تبعـات هـذه الأمـور بشـخصه وحـده (راجـع سـرفانتس، الكتـاب الأول، الفصـل ٥٢).

٢ ـ التعليق التبريري[٢٢٢]

على الرغم من أن سانتشو قد راودته مختلف أصناف "الشكوك" ذات مرة، أيام معاناته الذل (سرفانتس، الفصلان ٢٦، ٢٧) بشأن الاستفادة من رتبة إكليريكية ذات دخل، فقد قرر مع ذلك، بعدما أطال التفكير في الظروف المتبدلة وفي كون وظيفته القديمة كخادم في أخوية دينية قد هيأته من أجل هذه الرتبة الجديدة، قرر أخيراً أن "ينتزع من رأسه" هذه الشكوك. ولقد أصبح رئيس أساقفة جزيرة باراتاريا وكاردينالاً، وبهذه الصفة جلس بطلعة مهيبة ووقار فوق إكليريكي بين المتقدمين في مجلسنا. وإننا لنعود الآن، بعد الفصل الطويل من "الكتاب"، إلى هذا المجلس.

صحيح أننا نجد "الأخ سانتشو" في مركزه في الحياة قد تغير حتى درجة كبيرة. إنه يمثل الآن الكنيسة الظافرة، بصورة متعارضة مع الكنيسة المناضلة التي كان عضواً فيها من قبل. إن وقاراً مهيباً قد أعقب الجعجعات الحربية في "الكتاب"؛ إن "شترنر" قد اتخذ مكان "الأنا". وإن هذا ليبين مدى صحة المثل الفرنسي القائل: ليس بين السمو والسخف إلا خطوة واحدة (*). ومنذ أن أصبح أباً كنسياً وجُعِل يكتب رسائل رعوية، فإن سانتشو لا يسمي نفسه إلا "شترنر". لقد تعلم هذه الطريقة "الوحداء" في الانسياق مع المتعة الذاتية من فويرباخ، لكن هذا لا يلائمه لسوء الحظ أكثر مما يلائم حماره العزف على المزمار. وحين يتحدث عن نفسه في صيغة المجهول، فإن الجميع يرون أن سانتشو "الخالق" يخاطب "خليقته" شترنر بصيغة المجهول، كما يخاطب صف ضابط بروسي جنوده[٢٢٣]، ويجب ألا يخلط بينه وبين قيصر في أي حال من الأحوال.. وإن الانطباع ليبعث على مزيد من الضحك

(*) il n'ya qu'un pas du sublime au ridicule، بالفرنسية في النص الأصلي.

لأن سانتشو لا يرتكب هذا التهافت إلا لينافس فويرباخ: "إن المتعة الذاتية" التي يحققها سانتشو في تمثيل دور الرجال العظام تصبح هنا رغماً عنه(*) متعة للآخرين.

إن الشيء "الخاص" الذي يأتي به سانتشو في "تعليقه"، بقدر ما لم "نستهلكه" من قبل في الفصل العارض، يستقيم في إقناعنا بمجموعة جديدة من الألحان المتغيرة على الفكرة الرئيسية المألوفة التي سبق العزف عليها بمثل تلك الرتابة المضجرة في "الكتاب". إن موسيقى سانتشو، التي لا تعرف، مثلها مثل موسيقى كهنة الإله الهندي فيشنو، سوى نغمة واحدة، تعزف هنا بنغم أعلى عدة درجات. بيد أن مفعولها المخدر يظل هو نفسه طبعاً. هكذا على سبيل المثال: يستأنف التعارض بين "الأناني" و"المقدس" من جديد، لكن هذه المرة تحت لافتات "باعث على الاهتمام"، "وغير باعث على الاهتمام" ومن بعد "باعث على الاهتمام" و"باعث على الاهتمام في المطلق"، ويعجن هذا التعارض ويعيد عجنه كما يفعل الخباز بعجينه، وهو ابتكار لا يمكن على أية حال أن يثير الاهتمام إلا لدى عشاق الخبز غير المخمر، خبز الفطير في اللغة العامية.

ومن المؤكد أنه يجب على المرء ألا يلوم مالكاً صغيراً برلينياً "مثقفاً لأنه حوَّل الشخص صاحب العلاقة إلى موضوع باعث على الاهتمام بواسطة حيلة أدبية. إن جميع الأوهام التي ابتدعها "معلمو المدارس"، وفقاً للفكرة المدللة عند سانتشو، تظهر هنا بوصفها مصاعب - شكوكاً قد "خلقها الفكر وحده"، و"من واجب النفوس المسكينة التي انخدعت بهذه الثرثرة وتعثرت بهذه الشكوك.. أن تتغلب عليها" بفعل "عدم الاكتراث" [الانتزاع الشهير من الرأس] (ص ١٦٢). ويعقب ذلك "بحث "لمعرفة ما إذا كانت "الشكوك" يجب أن تنتزع من رأس المرء "بالتفكير" أو "بعدم الاكتراث" ومعزوفة متمهلة نقدية - أخلاقية ينوح فيها على السلم الموسيقي الثانوي:

"يجب ألا يعوق عمل الفكر بالجدل الصاخب مثلاً" (ص ١٦٦).

وكي تطمئن أوروبا، وعلى الأخص إنكلترا العجوز الشابة الحزينة(**)، التي هي عرضة

(*) malgré lui، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) old merry and young sorry England، في الإنكليزية بالنص الأصلي.

للاضطهاد، فإن سانتشو لم يستقر كيفما اتفق على مقعده المثقوب(*) الرسولي حتى أصدر من هذه النيافة الرسالة الرعوية المتسامحة التالية:

"ليس المجتمع المدني عزيزاً على شترنر في أي حال من الأحوال، وليس في نيته مطلقاً توسيعه بحيث يبتلع الدولة والعائلة". (ص ١٨٩).

فليتذكر السيد كوبدن والسيد دونواييه هذا الأمر جيداً.

ويأخذ سانتشو في الحال، بحكم منصبه كرئيس للأساقفة، زمام الشرطة الروحية في يده، وفي الصفحة ١٩٣ يوبخ هيس على تشويشاته "غير المشروعة" التي تصبح أهلاً للعقوبة أكثر فأكثر بقدر ما تعظم الجهود التي يبذلها شيخنا الكنسي باستمرار من أجل تقرير الهوية. وكيما يبرهن لهيس هذا نفسه أن "شترنر" يملك أيضاً "بطولة الكذب"، هذه الصفة القويمة للأناني المتفق مع نفسه، فإنه يغني في الصفحة ١٨٨: "لكن شترنر لا يقول مطلقاًعلى النقيض مما يجعله هيس ينطق به - إن كل خطيئة الأنانيين السابقين إنما كانت منطوية في كونهم لم يعوا أنانيتهم حتى الآن". راجع علم الظواهر و"الكتاب" بكامله. أما الصفة الأخرى للأناني المتفق مع نفسه - السذاجة - فإنه يكشفها في الصفحة ١٨٢، حيث "لا يخالف" رأي فويرباخ بأن "الفرد شيوعي". وفي الصفحة ١٥٤ يُقرِّع جميع ناقديه الأدبيين - بحكم سلطته البوليسية دائماً - لأنهم "لم يتعمقوا في فكرة الأنانية كما يتصورها شترنر". وفي الحقيقة أنهم ارتكبوا جميعاً خطيئة الاعتقاد بأن الأنانية الفعلية هي المقصودة، في حين لم يكن المقصود سوى "فكرة" شترنر عنها.

وإن "التعليق التبريري" يثبت كذلك قدرة سانتشو على أن يلعب دور الأب الكنسي بالابتداء بعملية نفاق:

"إن رداً مقتضباً قد يكون ذا فائدة، إن لم يكن للنقاد الأدبيين الذين أتيت على ذكرهم، فعلى الأقل لقراء الكتاب الآخرين" (ص ١٤٧).

وإن سانتشو ليزعم هنا أنه متفانٍ ويؤكد أنه على استعداد للتضحية بوقته القيم من أجل

(*) chaise percée، بالفرنسية في النص الأصلي.

"منفعة" الجمهور، على الرغم من أنه يؤكد لنا في كل مكان أنه يضع نصب عينيه دائماً منفعته الخاصة وحدها، وعلى الرغم من أنه لا يسعى هنا سوى لإنقاذ جلده الإكليريكي فحسب.

وبذلك فقد انتهينا من العنصر "الخاص" الذي جلبه "التعليق". ومهما يكن من أمر، فإن "الأوحد"، الذي يرد كذلك في "الكتاب" في الصفحة ٤٩١، قد احتفظنا به حتى الآن بصورة احتياطية ليس من أجل "منفعة القراء الآخرين" بقدر ما احتفظنا به من أجل منفعة "شترنر" الخاصة. إن يداً تغسل الأخرى، وهو ما يترتب عليه بصورة لا جدال فيها أن "الفرد شيوعي".

إن إحدى المهمات الأصعب بالنسبة إلى الفلاسفة هي النزول من عالم الأفكار إلى العالم الواقعي. إن اللغة هي الواقع المباشر للفكر. وكما أن الفلاسفة منحوا الفكر وجوداً مستقلاً، كذلك لا بد لهم أن ينسبوا إلى اللغة وجوداً مستقلاً ليجعلوا منها ميدانهم الخاص. وهذا هو سر اللغة الفلسفية حيث الأفكار في شكل الكلمات تملك مضمونها الخاص. إن قضية النزول من عالم الأفكار إلى العالم الواقعي تتحول إلى قضية الانتقال من اللغة إلى الحياة.

لقد بيّنا أن الأفكار تكتسب وجوداً مستقلاً بنتيجة الوجود المستقل الذي ينسب إلى ظروف الأفراد والعلاقات القائمة في ما بينهم. ولقد بيّنا أنه إذا كان الإيديولوجيون والفلاسفة يعنون بهذه الأفكار على وجه الحصر وبصورة منهجية، الأمر الذي يؤدي إلى منهجة هذه الأفكار، فإنما ذلك نتيجة لتقسيم العمل، وأن الفلسفة الألمانية بصورة خاصة هي نتيجة لبنية المالكين الصغار في ألمانيا. وليس على الفلاسفة إلا أن ينقلوا لغتهم إلى اللغة العادية التي استخلصت منها كي يعترفوا بأنها لا تعدو كونها اللغة المشوهة للعالم الواقعي وكي يتحققوا من أنه لا اللغة ولا الأفكار تشكل بحد ذاتها مجالاً خاصاً، وأنها ليست سوى تجلي الظاهرات الفعلية للحياة.

إن سانتشو، الذي يتبع الفلاسفة في السراء والضراء، لا بد بالضرورة أن ينشد حجر الفلاسفة (la pierre philosophale). وتربيع الدائرة، وأكسير الحياة، أو ينشد "كلمة" تملك بصفتها كلمة القوة العجائبية على أن تفتح له الطريق المؤدي من ميدان اللغة والأفكار إلى الحياة الفعلية. ولقد تلوث سانتشو حتى درجة كبيرة بعشرته الطويلة مع دون كيخوت

بحيث يخفق في ملاحظة أن هذه "الرسالة"، هذه "الدعوة" التي يعتبرها رسالته ودعوته، ليست إلا نتيجة لإيمانه الأعمى بالكتب الفلسفية الثقيلة للتطواف الفرساني.

ويبدأ سانتشو بأن يبين لنا مرة أخرى، سيطرة المقدس والأفكار في العالم، هذه المرة في الشكل الجديد لسيطرة اللغة أو العبارة. ومن المؤكد أن اللغة تصبح عبارة جوفاء حالما تعطى وجوداً مستقلاً.

وفي الصفحة ١٥١، يسمي سانتشو العالم الحديث "عالم العبارات، عالماً كانت الكلمة في بدايته". وإنه ليصف بمزيد من التفصيل الحافز إلى مطاردته الكلمة السحرية:

"يسعى التأمل الفلسفي لأن يجد محمولاً يكون عاماً حتى درجة عظيمة بحيث يتضمن جميع الأفراد... وكيما يتضمن هذا المحمول جميع الأفراد حقاً، يجب على كل فرد أن يظهر فيه على أنه ذات، يعني ليس كما هو فحسب، بل كمن هو أيضاً" (ص ١٥٢).

وبما أن التأمل "ينشد" مثل هذه المحمولات، التي أشار إليها سانتشو من قبل عندما تحدث عن الدعوة، والمصير، والواجب، والنوع، الخ، فإن البشر الفعليين بالتالي قد "نشدوا" أنفسهم حتى الآن "في الكلمة، في اللوغوس، في المحمول" (ص ١٥٣). فحتى الآن كان الاسم يستخدم حين يرغب المرء في أن يميز، في إطار اللغة، فرداً من فرد آخر، بوصفه شخصاً مماثلاً فحسب. لكن سانتشو لا يرضى بالأسماء العادية؛ فلما كان التأمل الفلسفي قد عيّن له مهمة إيجاد محمول عام جداً بحيث ينطوي على كل فرد على أنه ذات، فإنه ينشد الاسم الفلسفي، المجرد، "الاسم" الذي هو فوق جميع الأسماء، اسم الأسماء، الاسم المقولة الذي يميز،على سبيل المثال، سانتشو من برونو، ويميز كليهما من فويرباخ، بصورة دقيقة كما تفعل اسماؤهم الخاصة، وهو في الوقت نفسه يناسب ثلاثتهم جميعاً مثلما يناسب جميع البشر الآخرين وجميع الكائنات الحية، وهو ابتكار سوف يُدخل أعظم الاضطراب على السندات، وعقود الزواج، الخ. ويضع حداً بضربة واحدة لجميع مكاتب التسجيل وكتّاب العدل. إن هذا الاسم العجائبي، هذه الكلمة السحرية، التي تلفظ في اللغة موت اللغة، هذا الجسر الحميري (ânes) الذي يقود إلى الحياة، هذه الدرجة من السلم السماوي

الصيني هو - الأوحد. وإن الخصائص العجائبية لهذه الكلمة ترتل في المقطوعات الشعرية التالية:

"إن الأوحد يجب ألا يكون سوى تلك الطريقة الأخيرة، المائتة، من أجل التعبير عن أنت وأنا، لك ولي، يجب ألا يكون سوى البيان الذي يتحول على حين غرة ويصبح تأكيداً"؛

"تأكيداً ليس هو تأكيداً بعد الآن"،

"تأكيداً صامتاً، تأكيداً أبكم". (ص ١٥٣).

"ما لم يتم التعبير عنه هو الشيء الجوهري عنده (الأوحد)" (ص ١٤٩).

إنه "بلا تحديد" (المصدر نفسه).

"إنه يشير إلى محتواه الكامن خارج المفهوم وما وراءه" (المصدر نفسه).

إنه "مفهوم بلا تحديد وليس ثمة مفاهيم أخرى يمكن أن تجعله أكثر تحديداً" (ص ١٥٠).

إنه "التعميد" الفلسفي للأسماء الدنيوية. (ص ١٥٠).

"إن الأوحد كلمة منفصلة عن الفكر".

"إنه لا يملك أي محتوى فكري".

"إنه يعبّر عن كائن" "لا يمكن أن يوجد مرة أخرى، وبنتيجة ذلك لا يمكن التعبير عنه أيضاً"؛

"لأنه إذا كان في الإمكان التعبير عنه فعلياً وكلياً. فإنه سوف يوجد إذن، مرة ثانية، سوف يوجد في التعبير عنه" (ص ١٥١).

وبعدما غنى على هذا الغرار خصائص هذه الكلمة، فإنه يحيي في المقطوعات الشعرية التالية النتائج الحاصلة من اكتشاف قوتها العجائبية:

"إن الأوحد نهاية مملكة الأفكار المطلقة وخاتمتها" (ص ١٥٠).

"إنه حجر الزاوية لعالم العبارات الخاص بنا" (ص ١٥١).

"إنه المنطق الذي ينتهي إلى خاتمة حين يصير عبارة" (ص ١٥٣).

"في الأوحد يمكن للعلم أن ينحل في الحياة".

"لأن ما كان موضوعاً بالنسبة إليه يصبح هذا الفرد أو ذلك"،

"الذي لا ينشد نفسه بعد الآن في الكلمة، في اللوغوس، في المحمول". (ص ١٥٣).

وصحيح أن سانتشو حصل من نقاده الأدبيين على التجربة الأليمة التي جعلته يعرف أن الأوحد يمكن أيضاً أن "يثبت في صورة مفهوم"، و"أن هذا ما يفعله خصومه" (ص ١٤٩)، الذين يعارضونه بشدة بحيث لا يشعرون البتة بالمفعول السحري المتوقع للكلمة السحرية، بل يغنون بدلاً من ذلك كما في الأوبرا: ليس الأمر كذلك، ليس الأمر كذلك(*)! وإن سانتشو ليتحول بصورة خاصة، بغضب عظيم ورصانة مهيبة، ضد صاحبه دون كيخوت - شيليغا. لأن إساءة الفهم عند هذا الأخير تفترض بصورة مسبقة "عصياناً" مكشوفاً ونكراناً تاماً لمركزه بوصفه "خليقة".

"لو أن شيليغا فهم أن الأوحد، بوصفه العبارة أو المقولة الفارغة كلياً من أي محتوى، يكف من جراء ذلك عن كونه مقولة، فلعله كان يستطيع أن يعترف به على أنه اسم ذاك الذي لا يملك بعد اسماً بالنسبة إليه" (ص ١٧٩).

وبالتالي فإن سانتشو يعترف هنا بكل وضوح بأنه ودون كيخوته يسعيان إلى الهدف الواحد نفسه، مع هذا الفرق الوحيد، ألا وهو أن سانتشو يتخيل أنه اكتشف فعلياً نجمة الصباح الحقيقية، في حين أن دون كيخوت، لا يزال غارقاً في الظلمة.

Ûf dem wildin leber

Der grunt – lôsen – werlde swebt(**)

وكان فويرباخ يقول في كتابه فلسفة المستقبل، ص ٤٩:

"إن الوجود، القائم على أساس المعميات الصرفة، هو من جراء ذلك شيء معمى أيضاً. أجل، إنه المعمى الذي في غاية الجودة. هناك حيث تنتهي الكلمات، هناك فقط تبدأ الحياة، هناك فقط ينكشف سر الوجود".

(*) ce n'est pas ça, ce n'est pas ça، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) يسبح في البحر الكبدي المتوحش لعالم لا يسبر غوره. مايستر كوينرات فون وورزيبورغ: Diu guldin Smitt، المقطع ١٤٣، البحر الكبدي، بحر اسطورب متجلد تتعثر فيه المراكب وتتوقف عن الحركة.

لقد وجد سانتشو الانتقال من الواضح إلى المعمى(l'informulable)، لقد وجد الكلمة التي هي في وقت واحد أكثر وأقل من كلمة.

لقد رأينا أن كل قضية الانتقال من الفكر إلى الواقع، وبالتالي من اللغة إلى الحياة، لا وجود لها إلا في الوهم الفلسفي فحسب، يعني لا تسويغ لها إلا من أجل الوعي الفلسفي وحده، الذي لا يستطيع على الأرجح أن يرى بوضوح طبيعة وأصل انفصال مظهره عن الحياة. إن هذه القضية العظمى، بقدر ما تغلغلت في أذهان إيديولوجيينا، قد كان لا بدَّ بكل تأكيد أن تنتهي أخيراً إلى إحدى هذه الرحلات الفرسانية التائهة بحثاً عن كلمة تشكل، بوصفها كلمة، الانتقال موضوع البحث، تكف بوصفها كلمة عن أن تكون مجرد كلمة؛ كلمة تدلل بطريقة فوق لغوية عجيبة إلى طريق الخروج من اللغة إلى الشيء العقلي الذي ترمز إليه، وباختصار تلعب بين الكلمات الدور نفسه الذي يلعبه الله - الإنساني العادي بين البشر في الأسطورة المسيحية. إن ذلك الفيلسوف الذي يملك، من بين جميع الفلاسفة، الدماغ الأكثر فراغاً وشحاً لم يكن له بد من أن "ينهي" الفلسفة بإعلان أن عدمه الإيديولوجي الخاص هو نهاية الفلسفة وبالاحتفال بذلك بوصفه الدخول الظافر إلى الحياة "الجسدية". لقد كان هذا العدم الإيديولوجي الفلسفي النزعة يشكل، بحد ذاته، نهاية الفلسفة بصورة مسبقة، بالضبط مثلما كانت لغته غير المنطوقة تشكل نهاية كل لغة. لقد كان لانتصار سانتشو سبب آخر: فمن بين جميع الفلاسفة، كان هو أقلهم معرفة بمعطيات العالم الواقعي بحيث إن المقولات الفلسفية فقدت عنده آخر أثر للارتباط الواقعي، وبذلك آخر أثر للمعنى:

فامضِ الآن إذن، أيها الخادم الوديع والأمين سانتشو، امضِ أو بالأحرى اركب ظهر حمارك إلى متعتك الذاتية الفريدة و"استهلك" "أوحدك" حتى الحرف الأخير منه، هذا الذي سبق لكالديرون أن أنشد ألقابه العجائبية وقوته وشجاعته في الكلمات التالية[٢٢٤] :

L'unique

El valiente Campeon

El generoso Adalid

El gallardo Caballero,

El ilustre Paladin.

El siempre fiel Cristiano,

El almirante feliz

De Africa, el Rey soberano

De Alexandria, el Cadé

De Berbéria, de Egiph el Cid

Morabito, y gran señor

De jerusalem(*)

"وختاماً، ربما لن يكون من غير اللائق أن نذكِّر" سانتشو، سيد أورشليم العظيم، "بنقد" سرفانتس لسانتشو في دون كيخوت، الفصل العشرين، ص: ١٠١، طبعة بروكسيل، ١٦١٧. (راجع "التعليق" ص ١٩٤).

(*) المقاتل الجسور، القائد الكريم، الفارس الشهم، النصير الأشهر، المسيحي الصادق أبداً، أميرال أفريقيا السعيد، ملك الإسكندرية المطلق، قاضي أراضي البرابرة، سيد مصر، ولي أورشليم العظيم وسيدها.

خاتمة مجلس لايبزيغ

إن القديس برونو والقديس سانتشو، المدعو ماكس أيضاً، بعد ما طردا جميع معارضيهم من المجلس، قد عقدا تحالفاً أبدياً وأنشدا هذه الأغنية الثنائية المؤثرة، وهما يهزان رأسيهما بود الواحد للآخر مثل موظفين امبراطوريين كبيرين.

القديس سانتشو

"إن الناقد هو الناطق الحقيقي باسم الجماهير... إنه أميرها وقائدها العام في حرب التحرر ضد الأنانية" (الكتاب، ص ١٨٧).

القديس برونو

"إن ماكس شترنر هو الزعيم والقائد العام لجيش الصليبيين" (ضد النقد). "وهو في الوقت نفسه أشد المقاتلين جميعاً بأساً وجسارة". (ويغان، ص ١٢٤).

القديس سانتشو

"ننتقل الآن إلى تقديم الليبرالية السياسية والاجتماعية أمام محكمة الليبرالية الإنسانية أو النقدية" (أي النقد النقدي". الكتاب، ص ١٦٣).

القديس برونو

"إن الليبرالي السياسي الذي يرغب في تحطيم الإرادة الذاتية(*)، والليبرالي الاجتماعي الذي يرغب في تدمير الملكية، ينهاران جميعاً حين يجابهان الأوحد وملكيته. إنهما ينهاران تحت الحد النقدي" (أي المسروق من النقد) "للأوحد". (ويغان، ص ١٢٤).

(*) تلاعب بكلمة "eigen" - خاص، خصوصي؛ "Eigenwille" الإرادة الذاتية، "Eigentum"- ملكية.

القديس سانتشو

"ليس ثمة فكر في مأمن من النقد، لأن النقد هو الفكر المفكر بالذات... النقد أو بالأحرى هو" (أي القديس برونو). (الكتاب، ص ١٩٥، ١٩٩).

القديس برونو

(يقاطعه منحنياً)

"إن الليبرالي النقدي وحده ... لا يسقط [أمام] النقد لأنه هو نفسه [الناقد]" (ويغان، ص ١٢٤).

القديس سانتشو

"إن النقد، والنقد وحده، على مستوى حقبتنا، ولا جدال في أن النقد هو أكمل النظريات الاجتماعية... ففيه يبلغ مبدأ المحبة المسيحي، المبدأ الاجتماعي الحقيقي، تعبيره الأنقى، وتجري آخر تجربة ممكنة من أجل تحرير الإنسان من حصريته [و] غريزته المنفرة؛ إنه صراع ضد الأنانية في شكلها الأبسط، وبالتالي في شكلها الأصلب". ("الكتاب"، ص ١٧٧).

القديس برونو

"هذه الأنا هي... اكتمال حقبة تاريخية سابقة ونقطتها القمية. إن الأوحد هو الملجأ الأخير في العالم القديم، المخبأ الأخير الذي يستطيع العالم القديم أن يشن هجومه منه" على النقد التقدمي... "هذه الأنا هي الأنانية الأشد تطرفاً والأشد عنفواناً والأكثر جبروتاً للعالم القديم" (أي للمسيحية)... "هذه الأنا هي الجوهر في صلابته الأصلب". (ويغان، ص ١٢٤).

بعد هذا الحوار الودي، يحل شيخا الكنيسة الكبيران المجلس. ومن ثم يتصافحان في صمت. إن الأوحد "ينسى ذاته في سلوان ذاتي عذب" من دون أن "يضيع كلياً" على أية حال، والناقد "يبتسم" ثلاث مرات، ومن بعد "يمضي في سبيله بصورة لا تقاوم، واثقاً بالنصر وظافراً".

المجلد الثاني

[نقد الاشتراكية الألمانية
في
أشخاص أنبيائها المختلفين]

الاشتراكية الحقيقية

إن العلاقة[٢٢٥] بين الاشتراكية الألمانية والحركة البروليتارية في فرنسا وإنكلترا هي العلاقة ذاتها التي صادفناها في المجلد الأول (راجع "القديس ماكس" "الليبرالية السياسية") بين الليبرالية الألمانية كما كانت قائمة حتى ذلك الحين وحركة البورجوازية الفرنسية والإنكليزية، ولقد ظهر، جنباً إلى جنب مع الشيوعيين الألمان، عدد من الكتَّاب الذين تبنوا بعض الأفكار الشيوعية الفرنسية والإنكليزية ومزجوها مع مقدماتهم الفلسفية الألمانية الخاصة. إنَّ هؤلاء "الاشتراكيين" أو "الاشتراكيين الحقيقيين" كما يسمون أنفسهم لا يرون في الأدب الشيوعي الأجنبي التعبير عن حركة فعلية ونتاجها، بل كتابات نظرية صرفة كلياً من "الفكر الصرف"، تماماً كما يتخيلون أن تلك هي الحال بالنسبة إلى الأنظمة الفلسفية الألمانية. ولا يخطر في بالهم قط أنَّ هذه الكتابات، حتى حين تبشر بالأنظمة، فهي تنطلق من الحاجات العملية، من كل شروط الحياة الخاصة بطبقة معينة في بلدان معينة... وإنهم يثقون بكل براءة بالوهم الذي ينطوي عليه عدد كبير من هؤلاء الممثلين للأحزاب الفكرية الذين يعتقدون أنَّهم معنيون في مؤلفاتهم بالنظام الاجتماعي "الأكثر معقولية" وليس بحاجات طبقة معينة وزمن معين. إن الأوضاع الفعلية تفوت هؤلاء الاشتراكيين الحقيقيين، المنغمسين جداً في إيديولوجيتهم، وإن نشاطهم تجاه الفرنسيين والإنكليز "غير العلميين" يستقيم في المحل الأول في التسليم بسطحية هؤلاء الأجانب وتجريبيتهم "الفظة" لازدراء الجمهور الألماني، وفي التسبيح بأمجاد "العِلم الألماني" وتكليفه بمهمة الكشف عن حقيقة الشيوعية والاشتراكية[٢٢٦]، وأخيراً، التعريف بالاشتراكية الحقيقية، المطلقة. وإنهم لينصرفون في الحال إلى العمل، منفذين هذه المهمة بوصفهم ممثلين "للعِلم الألماني"، بالرغم من كونهم في معظم الأحوال غرباء عن هذا "العلم"، بقدر غربتهم عن الكتابات الأصلية للفرنسيين

والإنكليز الذين لا يعرفونهم إلا من تصنيفات شتاين وأولكرز(٢٢٧) الخ. وما هي "الحقيقة" التي يضفونها على الاشتراكية والشيوعية؟ بما أنهم يجدون الأفكار المحتواة في الأدبيات الاشتراكية والشيوعية مستعصية على إدراكهم - وذلك من جهة، من جراء جهلهم بالمؤلفات والنصوص المسجلة فيها، ومن جهة ثانية، من جراء مفهومهم الخاطئ المشار إليه أعلاه عن الأدبيات الاشتراكية والشيوعية - فإنهم يحاولون إيضاحها بالاستنجاد بالإيديولوجية الألمانية، وعلى الأخص إيديولوجية هيغل وفويرباخ. إنهم ينتزعون الأنظمة الشيوعية والكتابات النقدية والجدلية من الحركة الفعلية التي ليست تلك الأنظمة والكتابات سوى تعبير عنها، كي يقارنوها بعدئذٍ بصورة اعتباطية مع الفلسفة الألمانية. إنهم يفصلون وعي بعض مجالات الحياة المحددة تاريخياً عن هذه المجالات نفسها ويقيمونه بمصطلحات الوعي الحقيقي المطلق، يعني وعي الفلسفة الألمانية. وإنهم ليحولون بمنطق تام أوضاع هؤلاء الأفراد أو أولئك إلى أوضاع "الإنسان" ويفسرون أفكار هؤلاء الأفراد المعينين فيما يتعلق بأوضاعهم الخاصة على أنها أفكار عن "الإنسان". وحين يفعلون ذلك يغادرون ميدان الواقع، ميدان التاريخ، ويرجعون إلى ميدان الإيديولوجية، ويستطيعون عندئذٍ من دون أية صعوبة، نتيجة جهلهم للعلاقات الفعلية للأشياء، أن يستبدلوها برابطة وهمية ما،بمعونة الطريقة "المطلقة" أو أية طريقة إيديولوجية أخرى. إنَّ هذه الترجمة للأفكار الفرنسية إلى لغة الإيديولوجيين الألمان وهذه العلاقات الاعتباطية المصطنعة بين الشيوعية والإيديولوجية الألمانية تشكل إذن، ما يسميه هؤلاءالبشر "الاشتراكية الحقيقية" والتي ينادون بها على رؤوس الأشهاد بوصفها "فخر الأمة ومثار غيرة الجيران جميعاً"، على غرار حزب التوري [tories](٢٢٨) حين يمجد الدستور الإنكليزي.

وهكذا فليست الاشتراكية الحقيقية سوى صورة متسامية عن الشيوعية البروليتارية وأحزابها وفرقها التي هي من أصل واحد في فرنسا وإنكلترا، مرسومة في سماء الذهن الألماني، وسماء العاطفة الألمانية أيضاً كما سنرى. إن الاشتراكية الحقيقية، التي تزعم أنها قائمة على "العلم"، هي بدورها علم باطني في المحل الأول، وأدبياتها النظرية مخصصة لأولئك القلة الذين تدربوا على أسرار "الذهن المفكر". بيد أن لها أدبيات خارجية كذلك؛

فلما كانت معنية بالعلاقات الاجتماعية، الخارجية، كان لا بد لها من القيام بشكل ما من الدعاية. وفي هذه الأدبيات الخارجية لا تتوجه بعد الآن إلى "الذهن المفكر" الألماني، بل إلى "العاطفة"الألمانية. ويزداد هذا الأمر سهولة ما دامت الاشتراكية الحقيقية، غير المعنية بعد الآن بالكائنات البشرية الفعلية بل "بالإنسان"، قد فقدت كل حماسة ثورية، فهي تنادي بدلاً من ذلك بمحبة الجنس البشري الكلية. وهكذا فهي لا تتوجه إلى البروليتاريين، بل إلى الطبقتين الأكثر عدداً من البشر في ألمانيا، إلى المالكين الصغار بأوهامهم الخيرية وإلى إيديولوجيي هؤلاء المالكين الصغار بالذات، الفلاسفة وتلامذتهم؛ إنها تتوجه على العموم إلى ذلك الوعي "العامي" أو غير العامي الذي يسود في ألمانيا في الوقت الحاضر.

إن تشكل هذه الفرقة الهجينة ومحاولة توفيق الشيوعية مع الأفكار السائدة في ذلك الحين قد كانتا نتيجتين حتميتين للشروط القائمة حالياً في ألمانيا. وكان لا يقل حتمية عن ذلك أن يتوصل عدد من الشيوعيين الألمان، منطلقين من موقف فلسفي، إلى الشيوعية بالمرور بهذه المرحلة، بينما غيرهم من الذين لم يستطيعوا التخلص من أشراك هذه الإيديولوجية، لا بدَّ أن يستمروا في التبشير بهذه الاشتراكية الحقيقية حتى آخر أيامهم، وبالتالي فلسنا نملك وسيلة لمعرفة ما إذا كان أولئك "الاشتراكيون الحقيقيون" الذين حررت أعمالهم التي انتقدناها هنا قبل بعض الوقت، لا يزالون يحافظون على موقفهم أم ما إذا كانوا قد تجاوزوه. إننا غير معنيين بالأفراد على الإطلاق؛ إننا نأخذ فقط بعين الاعتبار الكتابات المطبوعة بوصفها أوراق مصنفٍ يعبِّر عن اتجاه محتوم في بلد هو في مثل ركود ألمانيا.

لكن الاشتراكية الحقيقية، بالإضافة إلى ذلك، قد عبّدت الطريق أمام استغلال الحركة الاجتماعية من قبل جمهرة من رجال الأدب الذين ينتسبون إلى ألمانيا الفتاة (la jeune allemagne)[٢٢٩]، ودجالين وحملة أقلام من مختلف الأصناف. إن انعدام الصراعات الحزبية الفعلية، العملية والحامية الوطيس، في ألمانيا قد كان معناه أن الحركة الاجتماعية نفسها كانت في البدء حركة أدبية. إن الاشتراكية الحقيقية تمثل الحركة الاجتماعية الأدبية في شكلها الصرف، وقد تشكل وجودها بصورة مستقلة عن المصالح الحزبية الفعلية، وهي تنوي الآن، بعد تكوّن الحزب الشيوعي، أن تستمر في الوجود رغماً عنه. ومن المفروغ منه

أنـه منـذ أن ظهـر حـزب شـيوعي حقيقـي فـي ألمانيـا، فـإن جمهـور الاشـتراكية الحقيقيـة سـوف يقتصـر أكثـر فأكثـر علـى المالكيـن الصغـار وعلـى حملـة الأقـلام العاجزيـن والمفلسـين الذيـن يمثلـون ذلـك الجمهـور.

(١)
الحوليات الرينانية
أو
فلسفة الاشتراكية الحقيقية

أ ـ "الشيوعية والاشتراكية والإنسانية"[١٣٠]

(الحو[ليات] الرينا[نية])[١٣٢] المجلد الأول ـ ص ١٦٧ وما يليها.

نبدأ بهذه المقالة لأنها تبسط بوعي تام وبثقة عظيمة بالنفس الطابع القومي الألماني للاشتراكية الحقيقية.

ص ١٦٨: "يبدو أن الفرنسيين لا يفهمون رجالهم العباقرة. ويأتي العلم الألماني لمساعدتهم عند هذه النقطة، مقدماً في الاشتراكية النظام الاجتماعي الأكثر عقلانية، إذا كان في إمكان المرء أن يتحدث بصيغة التفضيل بشأن العقل".

وهكذا فإن "العلم الألماني" يقدم هنا نظاماً اجتماعياً، بأنه "النظام الاجتماعي الأكثر عقلانية" "في الاشتراكية". إن الاشتراكية ترجع إلى فرع من ذلك العلم الألماني الكلي القوة، الحاضر في كل مكان، الشامل، الذي هو قادر حتى على تأسيس مجتمع. ومما لا ريب فيه أن الاشتراكية فرنسية الأصل، لكن الاشتراكيين الفرنسيين كانوا "ألماناً" في ذاتهم، وهذا هو السبب في أن الفرنسيين الفعليين "لم يفهموهم". وهكذا يستطيع الكاتب أن يقرر:

"إن الشيوعية فرنسية، أما الاشتراكية فألمانية: إنه لمن حسن حظ الفرنسيين أنهم يملكون مثل هذه الغريزة الاجتماعية الحادة جداً، التي سوف تخدمهم ذات يوم كبديل عن الاستقصاء العلمي. إن هذه النتيجة قد تقررت سلفاً من جراء الطريقين اللذين اتبعهما

الشعبان في تطورهما؛ فالفرنسيون وصلوا إلى الشيوعية عن طريق السياسة" (وهكذا نعرف الآن كيف توصل الشعب الفرنسي إلى الشيوعية)؛ "وقد وصل الألمان إلى الاشتراكية" (يعني الاشتراكية الحقيقية)؛ "عن طريق الميتافيزيقيا، التي تحولت في آخر الأمر إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)؛ وفي آخر المطاف، فإن كلتيهما قد انحلتا في الإنسانية".

بعد تحويل الشيوعية والاشتراكية إلى نظريتين تجريديتين، إلى مبدأين، فهل ثمة ما هو أسهل من أن تستنبط أية وحدة هيغلية تحلو لك من هذين النقيضين وأن تعطيها أي اسم غامض تختاره. وبذلك لا تكون قد ألقيت نظرة نافذة على "الطريق الذي اتبعه الشعبان في سياق تطورهما"، بل تكون قد برهنت أيضاً بصورة لامعة أن الفرد الذي ينصرف إلى هذا التأمل يتفوق على الفرنسيين والألمان على حد سواء.

وعلى أية حال، فإن العبارة منسوخة بصورة حرفية على وجه التقريب عن كتاب بوتمان، المواطن الألماني[٢٣٢]، ١٨٤٥، ص ٤٣ وغيرها؛ إن "الاستقصاء العلمي" الذي يقوم الكاتب به بشأن الاشتراكية يقتصر هو الآخر على نسخة ثانية عن جميع الأفكار المحتواة في هذا الكتاب، وفي الأوراق الإحدى والعشرون، وفي كتابات أخرى يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للشيوعية الألمانية.

ولن نقدم في هذه المقالة سوى بعض الأمثلة هنا عن الاعتراضات المرفوعة ضد الشيوعية :

ص ١٦٨: "إن الشيوعية غير قادرة على ربط الذرات لتجعل منها كلاً عضوياً".

إن من يطالب بربط "الذرات الفردة" في "كل عضوي" كمن يطالب بتربيع الدائرة.

"إن الشيوعية، كما ينادى بها في فرنسا حالياً، مركزها الرئيسي، تتخذ شكل المعارضة الفظة (grossière) ضد التفكيك الأناني لدولة البقال؛ إنها لا تتجاوز قط هذه المعارضة السياسية؛ إنها لا ترتفع قط إلى الحرية المطلقة وغير المشروطة". (المصدر نفسه).

تلك هي المسلّمة النموذجية للإيديولوجية الألمانية: "الحرية المطلقة غير المشروطة" التي ليست هي إلا الصيغة العملية "للفكر المطلق غير المشروط". وإنه لمن المؤكد أن الشيوعية الفرنسية "فظة" لأنها التعبير النظري عن معارضة واقعية؛ ومهما يكن من أمر، فإن

الكاتب يعتقد أنه كان من واجب الشيوعية الفرنسية أن تتجاوز هذه المعارضة بالافتراض الضمني بأنها قد حلت في الخيال. راجعوا على أي حال كتاب المواطن، ص ٤٣، الخ.

"يمكن للطغيان أن يستمر تماماً في ظل الشيوعية، لأنها ترفض استمرار النوع". (ص ١٦٨).

يا للنوع السيء الطالع؛ إن "النوع" و"الطغيان" قد وجدا حتى هذا الحين بصورة متزامنة، لكن الشيوعية تتيح "للطغيان" أن يستمر بالضبط لأنها تنقض "النوع". وكيف تعمل الشيوعية على نقض "النوع" في رأي اشتراكينا الحقيقي؟ إنها "تضع الجماهير نصب عينيها" (المصدر نفسه).

"في الشيوعية لا يكون الإنسان واعياً لماهيته... إن تبعيته ترجع من قبل الشيوعية إلى العلاقة الأدنى والأقسى، إلى التبعية للمادة الخام - انفصال العمل والمتعة. إن الإنسان لا يبلغ الفعالية الأخلاقية الحرة".

وكيما نقدر "الاستقصاء العلمي" الذي قاد اشتراكينا إلى هذه الفرضيات، فإنه من الضروري بمكان أن نأخذ بعين الاعتبار الفقرة التالية:

"إن الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين... لا يملكون أي فهم نظري على الإطلاق لماهية الاشتراكية... وحتى الشيوعيين الراديكاليين" (الفرنسيين) "لا يزالون عاجزين عن تجاوز نقيضة العمل والمتعة... لم يرتفعوا بعد إلى فكرة الفعالية الحرة... إن الفرق الوحيد بين الشيوعية وعالم البقال هو أن الاغتراب التام للملكية الإنسانية الواقعية يجب أن يتحرر في الشيوعية من أي مصادفة، أي يجب أن يؤمثل". (كتاب المواطن، ص ٤٣).

وهذا يعني أن اشتراكينا الحقيقي يأخذ على الفرنسيين أنهم يملكون وعياً صحيحاً لشروطهم الاجتماعية الفعلية بدلاً من أن يسلطوا الضوء على وعي الإنسان "لماهيته". إن جميع الاعتراضات التي يرفعها هؤلاء الاشتراكيون الحقيقيون ضد الفرنسيين تتلخص فيما يلي: إنهم لا يعتبرون فلسفة فويرباخ خلاصة حركتهم في مجموعها. إن ما يتخذه الكاتب منطلقاً له هي تلك الصيغة الجاهزة عن انفصال العمل والمتعة. وبدلاً من أن ينطلق من هذه القضية، فإنه يقلب إيديولوجياً الأمر كله رأساً على عقب، ويبدأ من انعدام الوعي عند

الإنسـان، ويسـتخلص منـه تبعيتـه "حيـال المـادة الخـام" ويفتـرض أن هـذه التبعيـة تتحقـق فـي "انفصال العمـل والمتعـة". وعلـى أيـة حـال، فإننـا سـوف نـرى فـي وقـت لاحـق إلـى أيـن ينتهـي اشـتراكينا الحقيقـي باسـتقلاله "عـن المـادة الخـام".

وعلـى العمـوم، فـإن هـؤلاء السـادة جميعـاً يظهـرون رقـة مرموقـة فـي الشـعور. إن الأمـور جميعـاً تصدمهـم، وعلـى الأخـص المـادة؛ وإنهـم ليشـكون مـن الفظاظـة فـي كل مـكان. ولقـد كانـت لدينـا أعـلاه "نقيضـة فظـة"، أمـا الآن فـإن لدينـا "العلاقـة الأقسـى" "للتبعيـة للمـادة الخـام".

ينادي الألماني بملء شدقيه:

لا يجوز أن يكون الحب بالغ الفظاظة،

وإلا تأذت صحتك[٢٣٣].

إن الفلسـفة الألمانيـة، فـي قناعهـا الاشـتراكي، تعنـى طبعـاً بصـورة شـكلية "بالواقـع الفـظ"، لكنهـا تبقـى دائمـاً علـى مسـافة محترمـة منـه وتصيـح بـه بنغمـات هسـتيرية هائجـة: لا تلمسـني[*]:

بعـد هـذه الاعتراضـات العلميـة علـى الشـيوعية الفرنسـية، نأتـي إلـى فقـرات تعالـج مسـائل تاريخيـة، وهـي تبرهـن بصـورة لامعـة علـى "الفعاليـة الأخلاقيـة الحـرة" و"الاسـتقصاء العلمـي" لصاحبنـا الاشـتراكي الحقيقـي، وكذلـك علـى اسـتقلاله عـن المـادة الخـام.

فـي الصفحـة ١٧٠، يتوصَّـل إلـى "النتيجـة" بـأن الشـيوعية الوحيـدة "الموجـودة" هـي "الشـيوعية الفرنسـية الفظـة" (الفظـة مـرة أخـرى). إن إنشـاء هـذه الحقيقـة بصـورة قبليـة ينفـذ "بغريـزة اجتماعية" عظيمـة ويبيـن أن "الإنسـان أصبـح واعيـاً لماهيتـه". أصغـوا إلـى مـا يلـي:

"ليـس ثمـة شـيوعية أخـرى، لأن مـا أنتجـه وايتلينـغ لا يعـدو كونـه إعـداداً للأفـكار التـي تعلمهـا فـي باريـس وجنيـف مـن فوريـه والشـيوعيين".

"ليــس ثمــة" شــيوعية إنكليزيــة، "لأن مــا أنتجــه وايتلينــغ"، الــخ. إن تومــاس مــور، ودعــاة التســوية[٢٣٤]، وأويــن، وثومبســون، وواتــس، وهوليــواك، وهارنــي، ومورغــان، وســاوثويل، وغودويــن، وبارمبـاي، وغريفـس، وأدمونـدز، وهوبسـون، وسـبينس، سـوف يذهلـون أو ينقلبـون فـي أضرحتهـم حيـن يسـمعون أنهـم ليسـوا شـيوعيين. "ذلـك" أن وايتلينـغ ذهـب إلـى باريـس وجنيـف.

(*) noli me tangere، باللاتينية في النص الأصلي.

وفيما عدا ذلك، فإن شيوعية وايتلنغ تبدو مختلفة عن "الشيوعية الفرنسية الفظة" المسماة البابوفيه بصورة مبتذلة، ما دامت تحتوي على بعض من "أفكار فورييه" أيضاً.

"كان الشيوعيون منصرفين بصورة خاصة إلى رسم أنظمة فلسفية أو أنظمة اجتماعية جاهزة (إيكاريا كابيه Icarie de cabet)، الهناءة [la félicité][٢٣٥]، وايتلينغ). ومهما يكن من أمر، فإن جميع الأنظمة ذات طبيعة عقائدية وديكتاتورية". (ص ١٧٠).

إن الاشتراكية الحقيقة، بهذا الحكم على الأنظمة عامة، قد وفرت بالطبع على نفسها مشقة دراسة الأنظمة الشيوعية ذاتها. ولقد أسقطت بضربة واحدة ليس إيكاريا[٢٣٦] وحدها بل جميع الأنظمة الفلسفية من أرسطو حتى هيغل، ونظام الطبيعة[٢٣٧]، والنظام النباتي للينيه وجوسيو، وحتى النظام الشمسي. وفيما عدا ذلك، فيما يتعلق بالأنظمة نفسها، فقد ظهرت جميعها في أوائل الحركة الشيوعية وكان لها في ذلك الحين قيمة دعائية: لقد كانت روايات شعبية تقابل على أفضل وجه وعي البروليتاريين غير المتطور بعد، هؤلاء البروليتاريون الذين أخذوا لتوهم يخطون خطاهم السريعة. وإن كابيه نفسه يسمي كتابه إيكاريا "رواية فلسفية": ولا يجوز في أي حال من الأحوال أن يحكم عليه من نظامه، بل بالحري من كتاباته الجدلية، وعلى العموم من مجمل نشاطه بوصفه زعيماً حزبياً. وإن في بعض هذه الروايات، مثلاً: نظام فورييه (le système de fourier)، نسمة من الشاعرية الحقيقية؛ أما الروايات الأخرى، مثل نظامي أوين وكابيه، فلا تبدي ذرة من خيال، وقد كتبت بطريقة الجرد التجاري، أو بأسلوب يتطلع إلى آراء الطبقة التي يجب التأثير فيها، على طريقة المحامي البارع. ومع تطور الحزب تفقد هذه الأنظمة كل أهمية، وفي أفضل الأحوال يحتفظ باسمها وحده الذي يتخذ إذن، شعاراً. من ذا في فرنسا يؤمن بإيكاريا، ومن ذا في إنكلترا يؤمن بمشاريع أوين المختلفة، المعدلة أبداً، والتي كان هو نفسه يغيرها ليأخذ بعين الاعتبار متطلبات الدعاية بين طبقات معينة أو ظروف الساعة المتغيرة؟ أما إن المحتوى الفعلي لهذه الأنظمة يستقيم قليلاً جداً في شكلها المنهجي، فهذا ما يبينه على أفضل صورة تلامذة فورييه المستقيمون من الديمقراطية السلمية [Démocratie pacifique][٢٣٨] الذين يقفون، بالرغم من كل استقامتهم، على طرفي نقيض مع فورييه باعتبارهم مذهبيين بورجوازيين. ويستقيم المحتوى الحقيقي لجميع

هـذه الأنظمـة الذائـع الصيـت فـي حاجـات الزمـن الـذي نشـأت فيـه. وإن كل نظـام منهـا يقـوم علـى أسـاس كل تطـور الأمـة السـابق، علـى الشـكل الـذي أعطـاه التاريـخ لعلاقاتهـا الطبقيـة مـع عواقبهـا السياسـية والأخلاقيـة والفلسـفية وغيرهـا. وإن التأكيـد بـأن جميـع الأنظمـة عقائديـة وديكتاتوريـة لا يملـك معنـى فيمـا يتعلـق بهـذا الأسـاس وهـذا المحتـوى للأنظمـة الشـيوعية. فالألمـان لا يواجهـون، كمـا هـي حـال الفرنسـيين والإنكليـز، علاقـات طبقيـة تامـة التطـور. وبالتالـي فإنـه لا يسـع الشـيوعيين الألمـان إلا أن يؤسسـوا نظامهـم علـى علاقـات الطبقـة التـي نشـأوا منهـا. وهكـذا فإنـه مـن الطبيعـي تمامـاً أن يكـون النظـام الشـيوعي الألمانـي الوحيـد القائـم نسـخة عـن الأفـكار الفرنسـية فـي منظـور محـدود بفعـل الظـروف الحقيـرة التـي يعيشـها الحرفـي.

"إن جنـون كابيـه، الـذي يصـر علـى أنـه مـن واجـب العالـم بأسـره أن يشـترك فـي صحيفتـه الشـعبي"، (ص ١٦٨)، للبرهـان علـى الطغيـان الـذي لا يـزال مسـتمراً فـي إطـار الشـيوعية. وإذا مـا بـدا بـأن صاحبنـا يقبـل بصـورة مشـوهة المطالـب التـي يفرضهـا زعيـم حزبـي علـى حزبـه، تحفـزه ظـروف خصوصيـة وخطـر تبذيـر وسـائل ماليـة محـدودة، كيمـا يحكـم مـن بعـد علـى هـذه المطالـب اسـتناداً إلـى مقيـاس "ماهيـة الإنسـان"، فـلا بـدَّ بـكل تأكيـد أن يسـتنتج أن هـذا الزعيـم الحزبـي وجميـع الأعضـاء الحزبييـن الآخريـن "مجانيـن"، فـي حيـن أن الوجـوه اللاحزبيـة بصـورة صرفـة، كمـا هـي حالـه وحـال "ماهيـة الإنسـان"، تتمتـع وحدهـا بعقـل سـليم. لكـن فليتجشـم عنـاء اكتشـاف الأوضـاع الحقيقيـة مـن قـراءة كتـاب كابيـه، خطـي القويـم .

وأخيـراً، فـإن كل التعـارض بيـن مؤلفنـا والاشـتراكيين الحقيقييـن والإيديولوجييـن الألمـان عامـة مـن جهـة، وبيـن الحـركات الواقعيـة للأمـم الأخـرى مـن جهـة ثانيـة، يتلخَّـص فـي عبـارة كلاسـيكية واحـدة: إن الألمـان يحكمـون علـى سـائر الأشـياء مـن وجهـة نظـر الأزليـة(*) (وفقـاً لماهيـة الإنسـان)، أمـا الأجانـب فينظـرون إلـى الأمـور جميعـاً بصـورة علميـة، وفقـاً للبشـر الفعلييـن والظـروف الفعليـة التـي يواجهونهـا. إن أفـكار الأجنبـي وأعمالـه معنيـة بالوقـت الحاضـر، أمـا أفـكار الألمانـي وأعمالـه فمعنيـة بالأزليـة. وهـذا مـا يعتـرف اشـتراكينا الحقيقـي بـه كمـا يلـي:

(*) Sub specie aeterni، باللاتينية في النص الأصلي.

"إن اسم الشيوعية بالذات، الذي يعبر عن معارضة التنافس، يكشف عن ضيقها؛ لكن هذا الإطار الذي تنحبس فيه، الذي ربما يكون صالحاً اليوم بوصفه شعاراً حزبياً، هل سيستمر إلى الأبد؟".

وبعدما تخلّص الكاتب كلياً بهذه الطريقة من الشيوعية، فإنه ينتقل إلى ضدها، الاشتراكية.

"إن الاشتراكية تقيم ذلك النظام الفوضوي الذي هو خاص جوهرياً بالنوع البشري وبالكون على حدٍّ سواء" (ص ١٧٠). ومما لا ريب فيه أن ذلك هو السبب في أنها لم توجد حتى الآن بالنسبة إلى "النوع البشري)". إن التنافس الحر لأكثر "فظاظة" من أن يظهر في نظر اشتراكينا الحقيقي على أنه "نظام فوضوي".

"إن الاشتراكية، الواثقة كل الثقة بالجوهر الأخلاقي للجنس البشري"، ترسم أن "وحدة الجنسين هي ويجب أن تكون مجرد التعبير الأعلى عن الحب؛ لأن الطبيعي وحده حقيقي، والحقيقي أخلاقي" (ص ١٧١).

إن السبب في أن "الوحدة، الخ، الخ، هي ويجب أن تكون" ينطبق على جميع الأشياء. مثال ذلك "أن الاشتراكية، الواثقة كل الثقة بالجوهر الأخلاقي" للقرود، يمكنها تماماً أن ترسم أن الاستمناء الذي يحدث بصورة طبيعية بين هذه القرود "هو ويجب أن يكون مجرد التعبير الأعلى عن الحب" الذاتي، "لأن الطبيعي وحده حقيقي، والحقيقي أخلاقي".

ولسوف يكون من العسير أن نقول بأي مقياس تحكم الاشتراكية على ما هو "طبيعي".

"إن النشاط والمتعة يتطابقان في الطبيعة الخصوصية للإنسان؛ إن هذه الطبيعة الخصوصية هي التي تحدِّد ذينك النشاط والمتعة، وليس منتجات خارجية عنا".

"لكن بما أن هذه المنتجات لا غنى عنها من أجل النشاط، يعني من أجل الحياة الحقيقية، وبما أنها قد انفصلت، إذا جاز التعبير، عن الجنس البشري من جراء النشاط المشترك للجنس البشري بمجموعه، فهي أو يجب أن تكون إذن، الأساس المشترك لكل التطور اللاحق (جماعية الخيرات)".

"إن المجتمع الحالي قد أصبح في الحقيقة متوحشاً جداً بحيث ينقض الأفراد على

منتجات عمل الغير بشراهة حيوانية، وبذلك يجعلون شخصيتهم تتفسخ (أصحاب الدخل)؛ وإنه ليترتب على ذلك بصورة حتمية أن آخرين ضمرت خاصتهم (شخصيتهم الإنسانية الخاصة) لا من جراء الكسل بل من جراء الجهد المنهك، يضطرون إلى الإنتاج مثل الآلات (البروليتاريون)... ومهما يكن من أمر، فإن طرفي مجتمعنا، أصحاب الدخل والبروليتاريين، هما على مستوى واحد من التطور، فكلاهما تابعان لأشياء خارجة عنهما"؛ إنهم "زنوج" (كما كان القديس ماكس يعبِّر عن ذلك) (ص ١٦٩، ١٧٠).

إن "النتائج" التي توصل إليها أعلاه صاحبنا "المغولي" بشأن "وضعيتنا الزنجية" هي التعبير الأكمل عما عمدت الاشتراكية الحقيقية حتى الآن" إلى فصله عن نفسها كمنتج لا غنى عنه من أجل الحياة الحقيقية"؛ إنَّه يعتقد أن "الجنس البشري بأكمله لا بد أن ينقض عليها" "بشراهة حيوانية" من جراء "طبيعة الإنسان الخصوصية".

إن المفاهيم الأربعة -"أصحاب الدخل"، "البروليتاريون"، "مثل الآلات" و"جماعية الخيرات" - هي على أية حال بالنسبة إلى صاحبنا المغولي "منتجات خارجة عنه" يستقيم "نشاطه" و"متعته" حيالها في استخدامها، بفعل الحدس الصرف، من أجل الدلالة على النتائج التي يحصل عليها "بإنتاجه مثل آلة".

ويقال لنا إن المجتمع قد أصبح متوحشاً، وبنتيجة ذلك فإن الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع بالذات يعانون مختلف أصناف العاهات. إن المجتمع ينفصل عن هؤلاء الأفراد، ويصبح كياناً مستقلاً، ويتحول إلى غابة متوحشة من تلقاء ذاته، والأفراد إنما يعانون نتيجة لتوحش هذا المجتمع. وإن العبارات - حيوان مفترس، وكسول، وصاحب "شخصية متفسخة" - هي النتيجة الأولى لذلك التوحش؛ وعندئذ يقال لنا، الأمر الذي يبعث فينا الهلع، إن هذه العبارات تشير إلى "صاحب الدخل". ولنلاحظ فقط بهذا الشأن أن عبارة "يجعل شخصيته تتفسخ" ليست سوى أسلوب يفسر به، بواسطة تضليل فلسفي، "التكاسل" الذي يبدو أن طبيعته المشخصة عسيرة على الإدراك.

إن العبارتين، "ضمور شخصيتهم الإنسانية الخاصة من جراء الجهد المنهك": و"يضطرون إلى الإنتاج مثل الآلات"، هما "العاقبة المحتومة" الثانية للنتيجة الأولى المترتبة

علـــى توحش المجتمـــع. إن هاتين العبارتيـــن هما "العاقبـــة" المحتومة "لحقيقـــة أن أصحاب الدخل يجعلـــون شـــخصيتهم الإنســـانية الخاصـــة تتفســـخ"، وإن ترجمتها إلى اللغـــة العامية، كمـــا يقال لنا بصـــورة تبعث علـــى الهلع مرة أخـــرى، هـــي "البروليتاريون".

وهكـذا فـإن العبـارة تحتـوي علـى التسلسـل التالـي للسـبب والنتيجـة: أمـا إن البروليتارييـن موجـودون وإنهـم يعملـون مثـل الآلات، فتلـك حقيقـة لا يمكننـا إلا تقريرها. ولمـاذا يضطـر البروليتاريون إلـى "الإنتـاج مثـل الآلات"؟ لأن "أصحـاب الدخـل يجعلـون شـخصيتهم الإنسـانية الخاصـة تتفسـخ". ولمـاذا يجعـل أصحـاب الدخـل شـخصيتهم الإنسـانية الخاصـة تتفسـخ؟ لأن "المجتمـع الراهـن توحـش حتـى درجـة كبيـرة". ولمـاذا توحـش المجتمـع الراهـن حتـى هـذه الدرجـة؟ هـذا مـا يجـب أن تسـأل خالقـك عنـه.

مـن الأمورالمميـزة لصاحبنـا الاشـتراكي الحقيقـي أن يـرى "قطبـي" مجتمعنـا فـي تعـارض أصحـاب الدخـل والبروليتارييـن. وبالرغـم مـن أن هـذا التعـارض كان موجـوداً فـي جميـع المجتمعـات التـي بلغت درجـة معينـة مـن التطـور، وقـد استرسـل جميـع الأخلاقييـن فـي مناقشـته منـذ أقـدم الأزمنـة، فقـد بعـث فـي أوائـل الحركـة البروليتاريـة بصـورة خاصـة، حيـن كان لا يـزال للبروليتاريـا مصالـح مشـتركة مـع البورجوازيـة الصناعيـة والمالكيـن الصغـار. راجعـوا علـى سـبيل المثـال: كتابـات كوبيـت وبـول - لويـس كورييـه أو سـان سـيمون، الـذي كان يحسـب بـادئ الأمـر الرأسـماليين الصناعييـن فـي عـداد الشـغيلة(*) بوصفهـم مناهضيـن للعاطليـن(**)، لأصحـاب الدخـل(***). إنَّ تقريـر هـذا التعـارض المبتـذل ليـس باللغـة العاديـة، بـل باللغـة المقدَّسـة، اللغة الفلسـفية، وإعطاء هـذا الاكتشـاف الصبياني ليس التعبير المناسـب، بـل تعبيـر متسـام ومجـرَّد، هـذا مـا يـؤدي إليـه، فـي هـذه الحالـة كمـا فـي حـالات أخـرى، عمـق العلـم الألمانـي الـذي تشـكِّل الاشـتراكية الحقيقية تتويجـاً له. وإن الخاتمة تضع اللمسـة الأخيرة لهـذا العمق. إن اشـتراكينا الحقيقـي يحـوّل هنـا المسـتويات المتباينة كليـاً للتطور الثقافـي للبروليتارييـن وأصحاب الدخل

(*) travailleurs، بالفرنسية في النص الأصل.

(**) oisifs، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) rentiers، بالفرنسية في النص الأصلي.

إلى "مستوى واحد من الثقافة"؛ وإنه ليستطيع بهذه الطريقة أن يغض النظر عن مستويات الثقافة الفعلية وأن يصنفها جميعاً في هذه العبارة الفلسفية الجوفاء التي تتحدَّث عن "التبعية حيال الأشياء الخارجة عنهم". إن الاشتراكية الحقيقية قد اكتشفت هنا ذلك المستوى من التطور، حيث جميع مستويات التطور في ممالك الطبيعة الثلاث، وفي الجيولوجيا وفي التاريخ، تضمحل أو تذهب هباء منثوراً.

وبالرغم من كراهيته "للتبعية حيال الأشياء الخارجة عنه"، فإن اشتراكينا الحقيقي يعترف مع ذلك بأنه تابع لها، "ما دامت المنتجات"، يعني هذه الأشياء الخارجية بالذات، "لا غنى عنها للنشاط والحياة الحقيقية". وإنه ليقدم هذا الاعتراف الخجول بحيث يستطيع أن يمهد الطريق بواسطة إنشاء فلسفي مصطنع أمام فكرة جماعية الخيرات - وهو إنشاء ينتهي في الهراء الصرف بحيث يكفينا أن نلفت انتباه القارئ إليه.

ونأتي الآن إلى الفقرة الأولى الواردة أعلاه. ههنا أيضاً ينادي "بالاستقلال عن الأشياء" فيما يتعلق بالنشاط والمتعة. إن النشاط والمتعة "محدَّدان" بفعل "طبيعة الإنسان الخصوصية". فإذا هو أثبت هذه الطبيعة الخصوصية في نشاط ومتعة البشر الذين يحيطون به، فإنه سرعان ما سيتبين إلى أي مدى تملك الأشياء الخارجة عنا صوتاً تدلي به في القضية أيضاً؛ بيد أنَّه يقرر بدلاً من ذلك أنَّ النشاط والمتعة على حدٍّ سواء "يتطابقان في طبيعة الإنسان الخصوصية". فبدلاً من أن يدرس طبيعة البشر الخصوصية في نشاطهم وفي أسلوبهم في المتعة المحدَّد بذلك النشاط، فإنه يفسر كليهما بالمناداة "بطبيعة الإنسان الخصوصية". الأمر الذي يقطع الطريق على أية مناقشة لاحقة. إنه يتخلى عن نشاط الفرد الواقعي ويلتجئ مرة أخرى إلى طبيعته الخصوصية، العصية على الإدراك وعلى الوصف. وفضلاً عن ذلك فإننا نتبين هنا ما يفهمه الاشتراكيون الحقيقيون من "النشاط الحر". إنَّ مؤلفنا يكشف لنا بتهور عن أنه النشاط "غير المحدد بالأشياء الخارجة عنا"، يعني الفعل المحض(*)، النشاط الصرف، المطلق، النشاط الذي ليس هو شيئاً سوى النشاط، ويؤول بنا في آخر الأمر، مرة أخرى، إلى "الفكر الصرف". ومن الطبيعي أن نقاء هذا النشاط يتلوث إذا نسب المرء إليه

(*) Actus purus، باللاتينية في النص الأصلي.

أساساً مادياً ونتيجة مادية؛ إنَّ الاشتراكي الحقيقي لا يعالج مثل هذا النشاط الدنس إلا في نفور، وهو يحتقر نتاجه، الذي لا يسمى "نتيجة" بعد الآن، بل "مجرد حثالة الإنسان" (ص ١٦٩). وبالتالي، فإن الذات القائمة في أصل هذا النشاط الصرف لا يمكن أن تكون إنساناً فعلياً من لحم ودم، بل لا يمكن أن تكون سوى الذهن المفكر. إن هذا "النشاط الحر"، المترجم على هذا الغرار إلى الألمانية، لا يعدو كونه صيغة جديدة من أجل "الحرية المطلقة غير المشروطة" الآنفة الذكر. وعلى أية حال، فإن حقيقة أن الكاتب يعطينا مسلمة الإدراك الحقيقي بوصفها كلمته الأخيرة تبين لنا أن كل هذه الثرثرة عن "النشاط الحر" التي لا تنفع الاشتراكيين الحقيقيين إلا في إخفاء جهلهم بالإنتاج الفعلي تؤول في آخر تحليل إلى "الفكر الصرف".

"إن هذا الانفصال بين الحزبين الرئيسيين في حقبتنا" (ألا وهما الشيوعية الفرنسية الفظة والاشتراكية الألمانية) "هو نتيجة لتطور هاتين السنتين الأخيرتين، كما بدأ بصورة خاصة في كتاب هيس فلسفة الفعل، وفي الأوراق الإحدى والعشرونلهيرويغ. وبنتيجة ذلك، فقد حان الأوان من أجل إلقاء بعض النور أيضاً على شعارات(*) الأحزاب الاجتماعية" (ص ١٧٣).

إن لدينا ههنا إذن، من جهة واحدة، الحزب الشيوعي القائم فعلياً في فرنسا مع أدبياته، ومن جهة ثانية، بعض أشياء العلماء الألمان الذين يحاولون أن يفهموا شيئاً من الأفكار المحتواة في تلك الأدبيات الشيوعية وأن يترجموها إلى اللغة الفلسفية، وأن هؤلاء الألمان ليعتبرون، على قدم المساواة مع الحزب السابق، كأحد "الأحزاب الرئيسية في حقبتنا"، وبالتالي على أنهم يملكون أهمية لامتناهية ليس بالنسبة إلى خصمهم المباشر فحسب، الشيوعيين الفرنسيين، بل كذلك بالنسبة إلى الشيوعيين والميثاقيين الإنكليز، والمصلحين الوطنيين الأميركيين، وبصورة عامة بالنسبة إلى جميع الأحزاب الأخرى "لحقبتنا"... ومن سوء الحظ أن جميع هذه الأحزاب لم تسمع قط بوجود هذا "الحزب الرئيسي". لكنه شاع طوال فترة كبيرة من الزمن بين الإيديولوجيين الألمان أن تنادي كل فرقة أدبية بنفسها، وبصورة خاصة الفرقة التي تحسب نفسها "الأكثر تقدماً"، ليس على أنها "حزب رئيسي"

(*) Schibboleths، هي كلمة عبرية في الأصل.

فحسب، بل فعلياً على أنها "الحزب الرئيسي لحقبتنا".وهكذا فإن لدينا، بين العدد العديد من الأحزاب الأخرى، "الحزب الرئيسي" للنقد النقدي، و"الحزب الرئيسي" للأنانية المتفقة مع نفسها، والآن "الحزب الرئيسي" للاشتراكيين الحقيقيين. وبهذه الطريقة، فإن في مقدور ألمانيا أن تتباهى برهط كامل من "الأحزاب الرئيسية"، غير المعروفة إلا في ألمانيا وحدها، وحتى في ألمانيا بين الفئة الصغيرة من المثقفين وأشباه المثقفين وحملة الأقلام. وإن هؤلاء البشر ليتخيلون جميعاً أنهم ينسجون شبكة التاريخ العالمي في حين أنهم لا يفعلون في حقيقة الأمر سوى غزل الخيط الطويل لتخيلاتهم الخاصة.

إن هذا "الحزب الرئيسي" للاشتراكيين الحقيقيين هو "نتيجة تطور السنتين الأخيرتين، كما بدا بصورة خاصة في كتاب هيس فلسفة الفعل". وبكلام آخر فهو "نتيجة" تطور "السنتين الأخيرتين" حين تورط مؤلفنا للمرة الأولى في الاشتراكية ووجد أنه "حان الأوان" كي ينوِّر نفسه "بعض الشيء"، بواسطة بعض الشعارات، بصدد ما يعتبره "أحزاباً اجتماعية".

وبعدما سرح مؤلفنا بهذه الطريقة الشيوعية والاشتراكية عل حدٍّ سواء، فإنه يقدم إلينا الوحدة الأعلى الناجمة عن انصهارها، أي الإنسانية. ولسوف نكون من الآن فصاعداً في مملكة "الأعلى"، وألمانيا هي بعد الآن المسرح الوحيد لكل التاريخ الحقيقي لاشتراكينا الحقيقي.

"إن جميع المماحكات بشأن الأسماء تنحل في الإنسانية؛ لماذا شيوعيون، لماذا اشتراكيون؟ إننا كائنات إنسانية (ص ١٧٢) - جميعنا أخوة، جميعنا أصدقاء[*].

لا تسبحوا، أيها الأخوة، ضد التيار،

فذلك أمر لا جدوى منه!

فلنتسلق قمة هضبة تمبلوف.

ولنهتف: عاش الملك![٢٣٩]

لماذا كائنات إنسانية، لماذا حيوانات، لماذا نباتات، لماذا حجارة؟ إننا أجسام جميعاً!

ويعقب ذلك عرض تاريخي، قائم على العلم الألماني، "سوف يستغني عنه ذات يوم"

(*) tous frères, tous amis، بالفرنسية في النص الأصلي.

الفرنسيون بفعل "غريزتهم الاجتماعية". الحقب القديمة - سذاجة؛ الحقب الوسيطة - رومانسية، الأزمنة الحديثة - إنسانية. ولقد حصلت إنسانية مؤلفنا طبعاً، بواسطة هذه التفاهات الثلاث، على أساس تاريخي، وتم البرهان على أنها تمثل الحقيقة التي سعت نحوها على الدوام العلوم الإنسانية[٢٤٠] فيما مضى من الزمن. أنظر في المجلد الأول "القديس ماكس" الذي يصطنع هذا النوع من المقالات بمزيد من الموهبة وبقدر أكبر من البراعة.

ويقال لنا في الصفحة ١٧٢ إن:

"النتيجة النهائية لنمط التفكير المدرسي هو ذلك الانشقاق لوحدة الحياة الذي وضع له هيس حداً حاسماً".

إن النظرية تقدم هنا إذن، على أنها السبب في "انشقاق الحياة". وإنه لمن العسير أن نتبين جيداً السبب في أن هؤلاء الاشتراكيين الحقيقيين يتحدثون عن المجتمع إذا كانوا يؤمنون مع الفلاسفة بأن جميع الانشقاقات الفعلية مسببة عن الانشقاقات المفهومية. وعلى أساس هذا الاعتقاد الفلسفي بقدرة المفاهيم على صنع العالم أو تدميره، فإنهم يستطيعون أن يتخيلوا أن فرداً ما قد "وضع حداً حاسماً لانشقاق وحدة الحياة" بفضل "القضاء" على المفاهيم بهذه الطريقة أو تلك. إن الاشتراكيين الحقيقيين، مثلهم كمثل جميع الإيديولوجيين الألمان، يمزجون باستمرار التاريخ الأدبي والتاريخ الفعلي على أنهما سواء في الفعالية. ومن المؤكد أن هذه الطريقة مفهومة جيداً بين الألمان الذين يخفون الدور البغيض الذي لعبوه ولا يزالون يلعبونه في التاريخ الفعلي بأن يضعوا الأوهام التي هم أغنياء جداً بها على قدم المساواة مع الواقع.

ولنأت الآن إلى "السنتين الأخيرتين" اللتين حسم العلم الألماني خلالهما بصورة تامة كلياً جميع القضايا بحيث لم يترك للأمم الأخرى شيئاً آخر سوى تنفيذ مراسيمه.

"لم ينجز فويرباخ إلا بصورة جزئية، أو بالأحرى باشر فقط، مهمة الأنثربولوجيا التي هي استرجاع الإنسان طبيعته المغتربة" (طبيعة الإنسان أم طبيعة فويرباخ؟)؛ "لقد دمر الوهم الديني، التجريد النظري، الله - الإنسان، في حين أنَّ هيس يبدد الوهم السياسي، تجريد

ثروتـه[*]، فعاليتـه" (أيكـون هيـس المقصـود أو الإنسـان؟) "هـذا يعنـي أنـه ألغـى الثـروة. إن عمـل هيـس هـو الـذي حـرر الإنسـان مـن القـوى الأخيـرة الخارجـة عنـه، وجعلـه قمينـا بالنشـاط الأخلاقـي - ذلـك أن كل مـا كانـت الأزمـان السـابقة" (قبـل هيـس) "تسـميه نزاهـة لـم يكـن إلا نزاهـة وهميـة - ورد إليـه مـن جديـد كرامتـه السـابقة؛ إذ هـل كان الإنسـان قـط مقـدراً مـن قبـل" (قبـل هيـس) علـى حقيقتـه فعليـاً؟ ألـم يكـن يحكـم عليـه وفقـاً لمـا يملكـه؟ لقـد كان المـال يعطيـه ثمنـه[**] (ص ١٧١).

إنـه مـن الأمـور المميـزة لجميـع هـذه العبـارات الطنانـة عـن التحـرر، الـخ، إن "الإنسـان" هـو المحـرَّر دائمـاً. وبالرغـم مـن أنـه يمكـن أن يتبيـن مـن المزاعـم المقدمـة أعـلاه أن "الثـروة"، و"المـال"، وقـس علـى ذلـك، قـد زالـت مـن الوجـود، فإننـا نعلـم مـع ذلـك فـي الفقـرة التاليـة:

"الآن وقـد دمـرت هـذه الأوهـام" (إن المـال، معتبـراً مـن وجهـة نظـر الأزليـة[***]، ليـس سـوى وهم فـي الحقيقـة، وليـس الذهـب إلا خرافـة) "نسـتطيع أن نفكـر فـي نظـام جديـد، إنسـاني، للمجتمـع". (ص ١٧٣).

لكن هذا بكل تأكيد أمر نافل تماماً ما دام:

"للاعتراف بماهية الإنسان نتيجة ضرورية وطبيعية هي حياة إنسانية حقاً". (ص ١٧٢).

بلـوغ الشـيوعية أو الاشـتراكية عـن طريـق الميتافيزيقيـا أو السياسـة، الـخ، الـخ - إن هـذه العبـارات الجوفـاء الحبيبـة إلـى قلـوب الاشـتراكيين لا تعنـي شـيئاً إلا أن هـذا الكاتـب أو ذاك قـد تمثَّـل الأفـكار الشـيوعية (التـي بلغتـه مـن الخـارج ونشـأت فـي ظـروف مختلفـة كل الاختـلاف عـن ظروفـه) محتفظـاً بمصطلحاتـه السـابقة ووجهـة نظـره السـابقة،ومن ثـم صاغهـا بصـورة متفقـة مـع وجهـة النظـر هـذه: وأمـا إن وجهـة النظـر هـذه أو تلـك تسـود فـي أمـة مـا، وإن الأفـكار الشـيوعية تتخـذ لونـاً سياسـياً أو ميتافيزيقيـاً أو أي لـون آخـر، فهـذا أمـر يتوقـف، بالطبـع، علـى مجمـل تطـور الأمـة. إنهـا لحقيقـة قائمـة أن أفـكار معظـم الشـيوعيين الفرنسـيين ذات لـون سياسـي.

(*) "Vermôgen" يمكن أن تعني القدرة والقوة أو الثروة والملكية.

(**) تلاعب بالكلمات. إن لكلمة geld (المال) نفس الجذر الذي لكلمة geltung (ثمن، اعتبار).

(***) sub specie aeterni، باللاتينية في النص الأصلي.

لكـن توجـد مـن جهـة أخـرى، هـذه الحقيقـة القائمـة الأخـرى، ألا وهـي أنَّ عـدداً كبيـراً جـداً مـن الاشـتراكيين الفرنسـيين قـد غضـوا النظـر عـن السياسـة كليـاً. وإن مؤلفنـا يسـتدل مـن هنـا علـى أن الفرنسـيين "توصلـوا إلـى الشـيوعية عـن طريـق السياسـة"، عـن طريـق تطورهـم السياسـي. إن هـذا الاسـتدلال، الشـائع حتـى درجـة كبيـرة فـي ألمانيـا، لا يثبـت أن مؤلفنـا يعـرف شـيئاً مـا عـن السياسـة، وعلـى الأخـص عـن التطـور السياسـي الفرنسـي، أو عـن الشـيوعية؛ إنـه يثبـت فقـط أنـه يعتبـر السياسـة ميدانـاً مسـتقلاً للنشـاط، يتطـور بطريقتـه المسـتقلة الخاصـة، وهـو اعتقـاد يشـاطر فيـه جميـع الإيديولوجييـن.

وإن شـعاراً آخـر للاشـتراكيين الحقيقييـن هـو "الملكيـة الحقيقيـة"، "الملكيـة الشـخصية الحقيقية"، الملكيـة "الواقعيـة"، "الاجتماعيـة"، "الحيـة"، "الطبيعيـة"، الـخ، فـي حيـن أنهـم يمتـازون بوجـه خـاص بأنهـم يسـمون الملكيـة الخاصـة "الملكيـة المزعومـة" . وكان أنصـار سـان سـيمون سـباقين إلـى اتخـاذ هـذا الأسـلوب فـي التعبيـر، كمـا سـبق أن أشـرنا إلـى ذلـك فـي المجلـد الأول، لكنهـم لـم يضفـوا عليـه قـط هـذا المظهـر الألمانـي الميتافيزيقـي والسـري؛ ولقـد كان لـه فـي الحقيقـة مـا يبـرره فـي أوائـل الحركـة الاشـتراكية فـي مواجهـة الهتافـات الطنانـة التـي كانـت تصـدر عـن البورجوازييـن السـخفاء. وإن الطريقـة التـي أنهـى بهـا معظـم أنصـار سـان سـيمون حياتهـم[٢٤١] تبيـن علـى أيـة حـال، بأيـة سـهولة تتحـول هـذه "الملكيـة الحقيقيـة" مـن جديـد إلـى "الملكيـة الخاصـة العاديـة".

وإذا تخيـل المـرء التعـارض بيـن الشـيوعية وعالـم الملكيـة الخاصـة فـي شـكله الأبسـط، أي فـي الشـكل الأكثـر تجريـداً الـذي لا تؤخـذ فيـه الشـروط الفعليـة لذلـك التعـارض بعيـن الاعتبـار، فـإن المـرء يواجـه إذن، التعـارض بيـن الملكيـة وانعـدام الملكيـة. وإنـه ليسـتطيع إذن، أن يتصـور طريقتيـن مـن أجـل نقـض هـذا التعـارض بنقـض هـذا الحـد أو ذاك؛ فإمـا أن تنقـض الملكيـة، الأمـر الـذي يترتـب عليـه انعـدام الملكيـة أو الإمـلاق الكلّـي، أو أن ينقـض انعـدام الملكيـة، الأمـر الـذي يعنـي إقامـة الملكيـة الحقيقيـة. وفـي الواقـع، فـإن هنـاك أصحـاب الملكيـة الفعلييـن فـي جانـب والبروليتارييـن الشـيوعيين الذيـن لا ملكيـة لهـم فـي الجانـب الآخـر. وإن هـذا التعـارض يحتـد يومـاً بعـد يـوم ويتطـور نحـو أزمـة. وبالتالـي، فـإذا كان ممثلـو البروليتاريـا النظريـون راغبيـن فـي أن

يكون لنشاطهم الأدبي أي تأثير، فإن من واجبهم في المحل الأول وقبل كل شيء أن يشددوا على حذف جميع العبارات التي تضعف وعي حدة ذلك التعارض، جميع العبارات الجوفاء التي تقنع ذلك التعارض، بل يمكن أن تعطي البورجوازيين فرصة من أجل الاقتراب من الشيوعيين طلباً لمزيد من الأمان على أساس هذياناتهم المتفائلة.ومهما يكن من أمر، فإن جميع هذه العيوب تصادف من جديد في شعارات الاشتراكيين الحقيقيين، وبصورة أخص في "الملكية الحقيقية". وإننا لندرك بالطبع أن الحركة الشيوعية لا يمكن أن تُحرف عن خطها من قبل بعض المتحذلقين الألمان. لكن في بلد مثل ألمانيا - حيث مارست العبارات الفلسفية طوال قرون بعض السلطان، وحيث الوعي الشيوعي، فضلاً عن ذلك، هو على أية حال أقل حدة وحزماً لأن التناقضات الطبقية غير متوافرة في شكل حاد كما في الأمم الأخرى - فإنه من الضروري مع ذلك مقاومة جميع العبارات الجوفاء النبي يمكن أن تشوش أكثر فأكثر وعي التناقض التام القائم بين الشيوعية والنظام العالمي القائم.

إن هذه النظرية عن الملكية الحقيقية تتصور الملكية الخاصة، كما وجدت بصورة فعلية حتى هذا الحين، كمجرد مظهر، في حين أنها تتصور الفكرة المستخلصة من هذه الملكية الفعلية على أنها حقيقة وواقع هذا المظهر؛ وبالتالي فهي إيديولوجية حتى الصميم. إنها تعبر عن أفكار المالكين الصغار الذين تستهدف مشاريعهم الخيرية ورغباتهم التقية نقض انعدام الملكية أيضاً؛ إلا أنها تعبِّر عنها بمزيد من الوضوح والدقة.

ولقد حصلنا في هذه الدراسة أيضاً على مزيد من البراهين على النظرة القومية الضيقة التي تكمن خلف ما يزعم أنه عمومية الألمان وكوزموبوليتيتهم.

إن الأرض تخص الروس والفرنسيين،

والإنكليز يملكون البحر،

أما نحن فإننا نسود بلا منازع

في مملكة الأحلام الهوائية.

إن وحدتنا كاملة هنا،

وسلطاننا لا مراء فيه؛

وفي هذه الأثناء مد الناس الآخرون

جذورهم في الأرض الصلبة(٢٤٢).

إن الألمـان يجابهـون الشـعوب الأخـرى، برضـا لا حـدود لـه، بهـذه المملكـة الأثيريـة للأحـلام، مملكـة "الماهيـة الإنسـانية"، زاعميـن أنهـا قمـة وخاتمـة التاريـخ العالمـي بأسـره؛ إنهـم ليعتبـرون فـي كل مجـال أن أوهامهـم الحالمـة هـي الحكـم النهائـي والجـازم علـى أعمـال الأمـم الأخـرى؛ وبمـا أن نصيبهـم فـي كل مـكان هـو مجـرد التفـرج علـى الأحـداث مـن دون الحصـول علـى أيـة مكافـأة عـن أتعابهـم، فإنهـم يحسـبون أنهـم مدعـوون لإصـدار الأحـكام علـى العالـم بأسـره، ولتحويـل ألمانيـا إلـى الحلبـة، حيـث يبلـغ التاريـخ بأسـره أغراضـه الأخيـرة. أمـا إن هـذه الكبريـاء القوميـة المنتفخـة الأوداج والمسـرفة تقابـل نشـاطاً عملياً مـن أحقـر الأنـواع جديـراً بالبقاليـن والحِرفييـن، فهـذا مـا لاحظنـاه مـن قبـل مـرات عديـدة. وإذا كان التعصـب القومـي بغيضـاً فـي كل مـكان فإنـه يثيـر الاشـمئزاز فـي ألمانيـا بصـورة خاصـة حيـث يلّـوح بـه، جنبـاً إلـى جنـب، مـع الوهـم بـأن الألمـان متفوقـون علـى الحـدود القوميـة وعلـى كل المصالـح الماديـة، فـي وجـه تلـك الأمـم التـي تعتـرف صراحـة بتحديداتهـا القوميـة وبتبعيتهـا للمصالـح الماديـة. وعلـى أي حـال، فـإن التعلـق العنيـد بوجهـة النظـر القوميـة لا تصـادف فـي الوقـت الحاضـر، لـدى جميـع الشـعوب، إلا بيـن البورجوازييـن وكتابهـم.

ب ـ "أحجار زاوية الاشتراكية"(٣٤٣)

(الحو[ليات] الرينا[نية])، ص ٥٥١ وما يليها

يهيـأ القـارئ قبـل كل شـيء، فـي هـذه المقالـة، لأصعـب حقائـق الاشـتراكية الحقيقيـة بمقدمـة أدبيـة وشـعرية. وتبـدأ المقدمـة بتقريـر أن "السـعادة" هـي "الهـدف الأخيـر لجميـع المطامـح، وجميـع الحـركات، وجميـع الجهـود الشـاقة وغيـر الكاملـة لآلاف السـنين الماضيـة". ويرسـم لنـا إذا جـاز التعبيـر، بضربـات مقتضبـة قليلـة، تاريـخ الطمـوح إلـى السـعادة:

"حيـن تهـاوت أسـس العالـم القديـم، التجـأ القلـب الإنسـاني بـكل مـا فيـه مـن حنيـن إلـى العالـم الآخـر حيـث نقـل إليـه سـعادته" (ص ١٥٦).

ومـن هنـا كان كل الحـظ العاثـر للعالـم الأرضـي. وفـي الأزمنـة الحديثـة صـرف الإنسـان العالـم الآخـر، واشـتراكينا الحقيقـي يسـأل الآن:

"أيمكـن للإنسـان أن يحيـي الأرض مـرة أخـرى علـى أنهـا أرض سـعادته؟ أيعتـرف مـرة أخـرى بـالأرض علـى أنهـا موطنـه الأصلـي؟ لمـاذا يفصـل إذن، بعـد الحيـاة والسـعادة؟ لـم لا يحطـم الحاجـز الأخيـر الـذي يشـق الحيـاة الأرضيـة بالـذات إلـى نصفيـن متعادييـن؟ (المصـدر نفسـه).

"يا أرض هناءتي!" الخ.

وإنـه ليدعـو "الإنسـان" الآن إلـى مرافقتـه فـي رحلـة، وهـي دعـوة يقبلهـا "الإنسـان" عـن طيـب خاطـر، ويدخـل "الإنسـان" ميـدان "الطبيعـة الحـرة"، وينغمـس فيمـا ينغمـس فيـه فـي الاعترافـات التاليـة لأحـد الاشـتراكيين الحقيقييـن:

"!... زهـور متعـددة الألـوان... أشـجار السـرو السـامقة القويـة... إن رضاهـا وسـعادتها يكمنـان فـي حياتهـا، فـي نموهـا وفـي تفتحهـا... جمهـرة لا متناهيـة مـن المخلوقـات الصغيـرة فـي المـروج... طيـور الغابـات... قطيـع متقـد نشـاطاً مـن المهـور... إننـي أرى" ("الإنسـان" هـو الـذي يتكلـم)، "إن هـذه المخلوقـات لا هـي تعـرف ولا هـي تريـد أيـة سـعادة أخـرى غيـر تلـك السـعادة التـي تسـتقيم بالنسـبة إليهـا فـي التعبيـر عـن حياتهـا والاسـتمتاع بهـا. وحيـن يهبـط الليـل تشـاهد عينـاي جمهـرة لا حصـر لهـا مـن العوالـم التـي تـدور حـول بعضهـا بعضـاً فـي فضـاء لامتنـاهٍ وفقـاً لقوانيـن أزليـة. وإننـي لأرى فـي دورانهـا وحـدة للحيـاة، والحركـة، والسـعادة". (ص ١٥٧).

إنَّ فـي إمـكان "الإنسـان" أن يشـاهد كميـة مـن الأشـياء الأخـرى فـي الطبيعـة، مثـلاً التنافـس الأشـد حـرارة بيـن النباتـات والحيوانـات؛ إنـه يسـتطيع أن يـرى علـى سـبيل المثـال فـي العالـم النباتـي، فـي "غابـة مـن أشـجار السـرو السـامقة القويـة"، كيـف أنَّ هـؤلاء الرأسـماليين الشـامخين يسـتهلكون غـذاء الشـجيرات الهزيلـة التـي تسـتطيع تمامـاً أن تشـكو هـي الأخـرى: إنَّنـا محرومـون مـن الأرض، والميـاه، والهـواء، والنـار(*)؛ إنـه يسـتطيع ان يشـاهد النباتـات الطفيليـة، إيديولوجيـي العالـم النباتـي، كمـا يسـتطيع أن يشـاهد أيضـاً الحـرب المكشـوفة بيـن "طيـور الغابـات"

(*) terra, aqua, aere et igni interdicti، باللاتينية في النص الأصلي.

و"الجمهرة اللامتناهية من المخلوقات الصغيرة"، بين أعشاب "مروجه" و"القطيع المتقد نشاطاً من المهور". إنه يستطيع أن يرى في "جمهرته التي لا حصر لها من العوالم" ملكية إقطاعية سماوية تامة بفلاحيها وأتباعها الذين يحيا بعضهم، ومن بين هؤلاء القمرمثلاً، الذي يعيش حياة بائسة جداً، محروماً من الهواء والماء(*)؛ إنه نظام، إقطاعي حتى للمشردين الذين لا موطن لهم، كالشهب المذنبة، مركزهم في الحياة، وتشهد فيه الكويكبات المتفجرة، مثلاً، على أن مآسي مؤلمة قد وقعت من حين لآخر، بينما النيازك، هذه الملائكة الساقطة، تجول في خجل عبر "الفضاء اللامتناهي" حتى تجد لها أخيراً مسكناً متواضعاً في مكان ما، وفي البعد الأنأى، يستطيع أن يصادف النجوم الثابتة الرجعية.

"إن جميع هذه الكائنات تجد سعادتها، وحتى حياتها ومنعتها، في ممارسة ظاهرة القدرات الحياتية وتجليها، التي منحتها الطبيعة إياها".

يعني أن "الإنسان" يجد في التفاعل المتبادل للإجرام الطبيعية وفي تجلي ظاهرة قواها،أن الإجرام الطبيعية تجد سعادتها في هذين الأمرين، الخ...

وإن "الإنسان" ليتلقى التوبيخ الآن من اشتراكينا الحقيقي بسبب نشازه:

"ألم ينبثق الإنسان أيضاً من العالم الأدنى، أليس هو أيضاً إبناً للطبيعة، مثله كمثل سائر المخلوقات الأخرى، أليس هو مركّباً من نفس العناصر، أليس هو مزوداً بنفس الطاقات والخصائص العامة التي تحيي جميع الأشياء؟ لماذا لا يزال ينشد سعادته في عالم دنيوي آخر؟" (ص ١٥٨).

"إن الطاقات والخصائص العامة نفسها" التي يشترك الإنسان فيها مع "جميع الأشياء" هي التماسك، وعدم قابلية النفوذ، والحجم، والجاذبية، التي يمكن أن تصادف مشروحة بكل تفصيل في الصفحة الأولى من أي كتاب عن الفيزياء. وإنه لمن العسير أن يرى كيف يمكن للمرء أن يؤول ذلك على أنه سبب في أن الإنسان لا "ينشد سعادته في عالم أرضي آخر". ومهما يكن من أمر، فإنه يعظ الإنسان كما يلي:

"أنظروا زنابق الحقل"

(*) aere et igni interdicti، باللاتينية في النص الأصلي.

أجـل، أنظـروا الزنابـق فـي الحقـل كيـف تأكلهـا الماعـز وكيـف يزرعهـا "الإنسـان" فـي عـروة سـترته وكيـف تـداس تحـت وطـأة العنـاق الدنـس لعاملـة الملبنـة وسـائس الحمـار!

"أنظروا، زنابق الحقل، كيف تنمو وكيف لا تتعب ولا تغزل، وأبوكم الذي في السماء يعيلها".

هيا واحتذوا بها!

وبعدمـا علمنـا بهـذه الطريقـة بوحـدة "الإنسـان" مـع "جميـع الأشـياء"، نعلـم الآن كيـف يختلـف عـن "جميـع الأشـياء".

"لكـن الإنسـان يكتسـب معرفـة الـذات، فهـو يملـك الوعـي الذاتـي. فبينمـا غرائـز الطبيعـة وقواهـا تتظاهـر فـي الكائنـات الأخـرى فـي عزلـة وبصـورة لا شـعورية، فهـي متحـدة فـي الإنسـان وهـو واعٍ لهـا... إن طبيعتـه مـرآة الطبيعـة بأسـرها، التـي تكتسـب معرفـة الـذات فيـه. حسـناً! إذا كانـت الطبيعـة تعـرف نفسـها فـيّ، فإننـي أعـرف نفسـي إذن، فـي الطبيعـة وأرى فـي حياتهـا حياتـي الخاصـة [...] وهكـذا نسـتطيع أن نعطـي تعبيـراً حيـاً لمـا شـرّبتنا الطبيعـة بـه" (ص ١٥٨).

إن هـذه المقدمـة بكاملهـا تشـكل نموذجـاً للتضليـل الفلسـفي السـاذج. إن الاشـتراكي الحقيقـي ينطلـق مـن فكـرة أن انشـطار الحيـاة والسـعادة يجـب أن ينتهـي، وكيمـا يثبـت هـذه الأطروحـة، فإنـه يسـتنجد بالطبيعـة ويفتـرض أنـه لا وجـود لهـذا الانشـطار فيهـا؛ وإنـه يسـتخلص مـن ذلـك أنـه بمـا أن الإنسـان جسـم طبيعـي هـو الآخـر ويملـك جميـع الخصائـص العامـة لمثل هـذا الجسـم، فيجـب ألا يكون ثمـة وجـود لأي انشـطار بالنسـبة إليـه هـو الآخـر. لقـد كان لـدى هوبس أسـباب أفضـل كي يبرهـن بمثال الطبيعـة علـى نظريتـه bellum omnium contra omnes (*). إن هيغـل، الـذي تخـدم إنشـاءاته كأسـاس مـن أجـل اشـتراكينا الحقيقـي، يشـاهد بصـورة فعليـة فـي الطبيعـة الانشـطار، المرحلـة المضطربـة للفكـرة المطلقـة، بلـه يسـمي الحيـوان: الكـرب المشـخص الـذي يحسـه اللـه. إن اشـتراكينا الحقيقـي، بعدمـا لف الطبيعـة علـى هـذا الغـرار بالأسـرار، يلـف الوعـي الإنسـاني بالأسـرار أيضـاً، وذلك حيـن يجعله "مـرآة" تلك الطبيعـة المـزورة. وبالطبـع فإنـه حالمـا تصبح تظاهـرة الوعي تعبيـراً ذهنياً منسـوباً إلى الطبيعـة بالذات،

(*) حرب الكل ضد الكل، (la guerre de tous contre tous).

رغبـة نقيـة بشـأن مـا يجـب أن يـؤول إليـه مركـز الإنسـان، فإنـه مـن المفـروغ منـه أن الوعـي لـن يكـون سـوى المـرآة التـي تتأمـل الطبيعـة نفسـها فيهـا. وأمـا إن "الإنسـان" يجـب أن ينقـض الانشـطار فـي مجالـه الخـاص، هـذا الانشـطار الـذي يفتـرض أنـه موجـود فـي الطبيعـة، فهـذا مـا يتـم إثباتـه الآن بالإسـناد إلـى الإنسـان بوصفـه محـض مـرآة منفعلـة تبلـغ الطبيعـة الوعـي الذاتـي فيهـا، بالضبـط كمـا تـمَّ إثبـات ذلـك مـن قبـل بالإسـناد إلـى الإنسـان بوصفـه محـض جسـم طبيعـي. لكـن فلنتفحـص بمزيـد مـن الدقـة العبـارة الأخيـرة التـي تلخـص كل هـذا اللغـو.

إن الحقيقـة الأولـى المؤكـدة هـي أن الإنسـان يملـك الوعـي الذاتـي. إن غرائـز وطاقـات الكائنـات الطبيعيـة الفرديـة تحـوّل إلـى غرائـز وقـوى "الطبيعـة"، هـذه الغرائـز والقـوى التـي "التـي تتظاهـر" إذن، فـي عزلـة، وهـذا أمـر مفـروغ منـه، فـي هـذه الكائنـات الفرديـة. ولـم يكـن بـد مـن الاسـتعانة بهـذا التضليـل كيمـا يحقـق فـي وقـت لاحـق توحيـد هـذه الغرائـز والقـوى الخاصـة "بالطبيعـة" فـي الوعـي الذاتـي الإنسـاني، وبذلـك فـإن الوعـي الذاتـي للإنسـان يحـوّل، كأمـر مفـروغ منـه، إلـى الوعـي الذاتـي الـذي تكتسـبه الطبيعـة فيـه. وإن هـذا التضليـل ينتهـي إلـى مظهـر كاذب: إن الإنسـان ينتقـم مـن الطبيعـة، وبمـا أن الطبيعـة تكتسـب وعيهـا الذاتـي فيـه، فإنـه ينشـد بـدوره، فـي الطبيعـة، وعيـه الذاتـي، وهـي عمليـة تمكنـه، بالطبـع، مـن ألا يجـد فـي الطبيعـة شـيئاً سـوى مـا ينسـبه إليهـا بواسـطة التضليـل المشـار إليـه أعـلاه.

لقـد وصـل الآونـة بسـلام إلـى النقطـة التـي انطلـق منهـا فـي الأصـل، لقـد دار علـى عقبيـه تمامـاً - وهـذا هـو مـا يسـمونه فـي ألمانيـا فـي الوقـت الحاضـر... تطويـر الفكـرة .

بعد هذه المقدمة يأتي العرض الفعلي للاشتراكية الحقيقية.

حجر الزاوية الأول

ص ١٦٠: "قـال سـان سـيمون لتلاميـذه وهـو علـى فـراش المـوت: تتلخـص حياتـي بأسـرها فـي فكـرة واحـدة: يجـب أن يضمـن لجميـع البشـر التطورالأكثـر حريـة لقدراتهـم الطبيعيـة. لقـد كان سـان سـيمون رسـولاً للاشـتراكية".

إن هـذه العبـارة تعالـج الآن وفقـاً لطريقـة الاشـتراكي الحقيقـي الموصوفـة أعـلاه، بارتبـاط مـع تلـك التعميـة للطبيعـة التـي شـاهدناها فـي المقدمـة.

"إن الطبيعـة بوصفهـا أساسـاً لـكل حيـاة هـي وحـدة تنطلـق مـن ذاتهـا وتعـود إلـى ذاتهـا، وهـي تشـتمل علـى التعـدد الـذي لا حصـر لـه لظاهراتهـا، ومـن دونهـا لا يوجـد شـيء علـى الإطـلاق". (ص ١٥٨).

ولقـد رأينـا كيـف يسـعى المـرء إلـى تحويـل الأجسـام الطبيعيـة المختلفـة وعلاقاتهـا المتبادلـة إلـى "الظاهـرات" المتعـددة الأشـكال للماهيـة المسـتترة لهـذه "الوحـدة" العجيبـة. وإن العنصـر الجديـد الوحيـد فـي هـذه العبـارة هـو أن الطبيعـة تسـمى أولاً "أسـاس كل حيـاة"، ومـن ثـم يقـال علـى الفـور إنـه مـن دونهـا لا يوجـد شـيء علـى الإطـلاق، الأمـر الـذي يتضمـن أنهـا تشـتمل علـى "الحيـاة" أيضـاً، وبالتالـي لا يمكـن أن تكـون مجـرد أسـاس لهـا.

بعد هذه الكلمات الصاعقة يأتي محور المقالة بكاملها:

"كل واحـدة مـن هـذه االظاهـرات، كل حيـاة فرديـة، إنمـا توجـد وتتطـور عبـر نقيضتهـا، صراعهـا مـع العالـم الخارجـي، وليـس لهـا وجـود إلا علـى أسـاس تفاعلهـا مـع كليـة الحيـاة التـي ترتبـط معهـا مـن جهـة أخـرى، بفعـل طبيعتهـا، فـي كل واحـد، وحـدة الكـون العضويـة" . (ص ١٥٨، ١٥٩).

وإن هذه العبارة المحورية توضح أكثر كما يلي:

"تجـد الحيـاة الفرديـة، مـن جهـة واحـدة، أساسـها وينبوعهـا وجوهرهـا فـي كليـة الحيـاة، ومـن جهـة أخـرى، فـإن كليـة الحيـاة تسـعى، وهـي فـي صـراع متصـل مـع الحيـاة الفرديـة، إلـى التهامهـا وامتصاصهـا". (ص ١٥٩).

ومـا دام هـذا التقريـر ينطبـق علـى كل حيـاة فرديـة، فإنـه يمكـن "بالتالـي" ان ينطبـق علـى البشـر أيضـاً، وهـو مـا يتـمُّ بالفعل.

"وبالتالـي فالإنسـان لا يسـتطيع أن يتطـور إلا فـي كليـة الحيـاة ومـن خلالهـا". (رقـم ٢، المصـدر نفسـه).

إن الحيـاة الفرديـة الواعيـة تقـارن الآن مـع الحيـاة الفرديـة غيـر الواعيـة، والمجتمـع البشـري مـع الحيـاة الطبيعيـة الكليـة؛ ومـن ثـم فـإن العبـارة التـي استشـهدنا بهـا أخيـراً تكـرر فـي الشـكل التالـي:

"بفعل طبيعتي لا أستطيع أن أتطور، لا أستطيع أن أبلغ نصيبي من السعادة، المتعة الواعية ذاتياً بحياتي، إلا في الجماعية مع البشر الآخرين ومن خلالها". (رقم ٢، المصدر نفسه).

إن هذا الازدهار للفردي في المجتمع يوصف لنا الآن بكل تفاصيله، مثلما وصفت لنا أعلاه "الحياة الفردية" بصورة عامة:

"في المجتمع أيضاً، يصبح تعارض الحياة الفردية والحياة العامة شرط التطور الإنساني الواعي. إنني لا أتطور كي أتوصل إلى حرية التصرف بذاتي، إلى الحرية التي لا سعادة من دونها، إلا من خلال الصراع المتصل من خلال المعارضة المتصلة للمجتمع الذي يناهضني على أنه قوة تحاول تقييدي. إن حياتي عملية تحرر متواصلة، صراع متواصل ضد العالم الخارجي الشعوري وغير الشعوري وانتصار عليه، صراع أحاول به إخضاعه واستخدامه كيما أستمتع بحياتي. فغريزة حفظ البقاء، والسعي إلى السعادة الشخصية، وإلى الحرية، وإلى إرضاء الرغبات، هذه هي إذن، تظاهرات طبيعية، يعني عقلانية، تعبيرات عن الحياة". (المصدر نفسه).

ولنستطرد:

"إنني أطلب بنتيجة ذلك من المجتمع أن يوفر لي إمكانية أن أنتزع منه عنوة سعادتي وإرضاء رغباتي، أن يوفر ميدان قتال من أجل حميتي المولعة بالقتال، وبالضبط كما أن كل نبتة تحتاج إلى الأرض والدفء والشمس والهواء والمطر كي تنمو، كي تحمل أوراقاً وأزهاراً وثمراً، كذلك يرغب الإنسان في أن يجد في المجتمع شروط الازدهار التام وإرضاء جميع حاجاته وميوله وقدراته. إن من واجب المجتمع أن يقدم إليه إمكانية كسب سعادته. أما كيف سوف يستخدم هذه الفرصة، وما سوف يصنع بنفسه، بحياته، فهذا ما يتوقف عليه، على فرديته. أنا وحدي أستطيع أن أقرر سعادتي الخاصة". (ص ١٥٩- ١٦٠).

ويعقب ذلك، كنتيجة للحجة بكاملها، عبارة سان سيمون التي أوردناها في مطلع هذا العرض. وهكذا فإن الفكرة الفرنسية قد أسست عقلانياً من قبل العلم الألماني، وكيف كان ذلك؟

لقد سبق للاشتراكي الحقيقي أن نسب الى الطبيعة أفكاراً متنوعة يود أن يراها قد تحققت في المجتمع البشري. وكما جعل قبلاً من الكائن الإنساني الفردي مرآة الطبيعة، فإنه يجعل الآن من المجتمع ككل مثل هذه المرآة. ويمكن الآن أن ترسم انطلاقاً من الأفكار المنسوبة إلى الطبيعة، إذا ما مضينا بهذه المحاكمة قدماً، نتيجة قابلة للتطبيق على المجتمع الإنساني. وبما أن المؤلف لا يتخلف كي يعالج تطور المجتمع التاريخي ويكتفي بهذه المقارنة الهزيلة، فإنه يظل أمراً عصياً على الفهم أن المجتمع لم يكن بصورة دائمة انعكاساً أميناً للطبيعة. وبالتالي، فإن العبارات الطنانة عن المجتمع الذي يناهض الفرد في صورة قوة تحاول تقييده، الخ، تنطبق على جميع أشكال المجتمع. وإنه لمن الطبيعي تماماً أن تكون بعض التفاهات قد تسللت إلى هذا التفسير للمجتمع. وهكذا فإن من واجب المرء الآن أن يعترف بأن صراعاً يجري في الطبيعة، بصورة متعارضة مع التناغم الموصوف في المقدمة. إن المجتمع، "كلية الحياة"، لا يتصوره مؤلفنا تفاعلاً بين "الحيوات الفردية" التي تؤلفه، بل وجوداً منفصلاً تتم تفاعلاته مع هذه "الحيوات الفردية" على صعيد آخر، خاص تماماً، وإذا كان ثمة أية إشارة إلى الأوضاع الفعلية في هذا كله، فإنه الوهم الذي يجعل من الدولة وجوداً مستقلاً في مواجهة الحياة الشخصية والإيمان بهذا الاستقلال المظهري على أنه شيء مطلق. لكن حقيقة الأمر أن مسألة الطبيعة أو المجتمع لا تطرح على الإطلاق لا هنا ولا في أي موضع آخر من المقالة بأكملها، بل تقتصر المسألة بكاملها على هاتين المقولتين: الفردية والعمومية، اللتين تعطيان أسماء متنوعة واللتين يقال إنهما تشكلان قطبين متعارضين مصالحتهما أمر مرغوب فيه حتى الدرجة القصوى.

وبنتيجة تبرير "الحياة الفردية" بوصفها متعارضة مع "كلية الحياة"، يصبح إرضاء الحاجات، وتطوير القدرات، والمصلحة الشخصية، الخ...، "تعابير طبيعية وعقلانية عن الحياة". وبنتيجة تصور المجتمع على أنه انعكاس للطبيعة، يستنتج أن تعابير الحياة هذه، في جميع أشكال المجتمع التي وجدت حتى الوقت الحاضر، بما فيها المجتمع الحالي، قد بلغت نضوجها الكامل، واعترف بمسوغيتها.

لكننـا نعـرف علـى حيـن غـرة، فـي الصفحـة ١٥٩، أن هـذه التعابيـر العقلانيـة والطبيعيـة عـن الحيـاة "فـي مجتمعنـا الحالـي" "معوقـة فـي غالـب الأحيان"و"هـي تتفسـخ عـادة، لهـذا السـبب وحـده، فـي أفعـال مضـادة للطبيعـة، وعيـوب تتنـاول الجسـد والنفـس، وفـي الأنانيـة والشـر، الـخ...".

وبمـا أن المجتمـع، رغـم كل شـيء، لا يقابـل إذن، نموذجـه الأصلـي، الطبيعـة، فـإن الاشـتراكي الحقيقـي، "يتطلـب" منـه أن ينتظـم بصـورة متفقـة مـع الطبيعـة ويسـوغ مطلبـه بإيـراده مثـال النبتـة غيـر الموفـق علـى الإطـلاق. ففـي المحـل الأول "لا تتطلـب" النبتـة مـن الطبيعـة جميـع شـروط الوجـود المعـددة أعـلاه؛ فهـي إذا لـم تجـد هـذه الشـروط مهيـأة بصـورة مسـبقة لا تصبـح نبتـة فـي أي حـال من الأحـوال، بـل تبقـى حبـة بـذار. وفيمـا عـدا ذلـك، فـإن تركيـب "الأوراق والأزهـار والثمـر" يتوقـف حتـى درجـة كبيـرة علـى "الأرض"، و"الـدفء" الـخ...، الشـروط المناخيـة والجيولوجيـة التـي تنمـو النبتـة فيهـا. وهكـذا بينمـا يرتـد "المطلـب" المنسـوب إلـى النبتـة إلـى تبعيـة تامـة حيـال شـروط الوجـود الفعليـة، فـإن اشـتراكينا الحقيقـي يقيـم علـى هـذا المطلـب المزعـوم مطالبتـه الخاصـة بتنظيـم للمجتمـع يتطابق مـع "فرديتـه". إن المطالبـة بمجتمـع يتطابـق مـع الاشـتراكية الحقيقيـة يقـوم علـى الطلـب الوهمـي الـذي تتقـدم بـه شـجرة نخيـل إلـى "كليـة الحيـاة" كـي تزودهـا بـالأرض، والـدفء، والشـمس، والهـواء، والمطـر، فـي القطـب الشـمالي.

إن هـذا المطلـب الـذي يتوجـه بـه الفـرد إلـى المجتمـع لا يسـتخلص مـن تطـور المجتمـع الفعلي، بـل مـن العلاقـة المزعومـة لهاتيـن الشـخصيتين الميتافيزيقيتيـن، الفرديـة والعموميـة. ويكفـي مـن أجـل ذلـك أن يعتبـر الأفـراد الخاصـون ممثليـن للفرديـة، تجسـيدات لهـا، والمجتمـع تجسـيداً للعموميـة، وبذلـك تكـون الحيلـة قـد نجحـت. وفـي الوقـت نفسـه تكـون عبـارة سـان سـيمون بشـأن التطـور الحـر للاسـتعدادات الطبيعيـة قـد وجـدت تعبيرهـا المضبـوط، وتكتشـف المحاكمـة التـي تقـوم عليهـا. إن التعبيـر المضبـوط عنهـا هـي تلـك الحجـة السـخيفة القائلـة إن الأفـراد الذيـن يشـكلون المجتمـع سـوف يحافظـون علـى "فرديتهـم" سـوف يظلـون كمـا هـم، بينمـا هـم يطالبـون المجتمـع بتحويـل لا يمكـن أن يصـدر إلـى عـن تحوّلهـم الخـاص.

حجر الزاوية الثاني

"وإذا كنت لا تعرف الخاتمة،

فما عليك إلا أن تكرر اللازمة أبداً"[٢٤٤].

"إن العضوية العالمية هي التنوع اللامتناهي لجميع الكائنات الفردية، المأخوذة على أنها وحدة" (ص ١٦٠).

هكذا نجد أنفسنا وقد دفعنا القهقرى من جديد إلى بداية المقالة، ولا بد لنا أن نشاهد مرة ثانية كل مهزلة الحياة الفردية وكلية الحياة. إننا نطلع من جديد على السر العميق لتفاعل هاتين الحياتين، وقد صقل هذه المرة بإدخال عبارة جديدة هي "العلاقة القطبية" وتحوّل الحياة الفردية إلى مجرد رمز، "صورة"، عن كلية الحياة. إن هذه المقالة، مثلها كمثل لوحة مشكالية، تتركب من انعكاسات عن ذاتها، وهي طريقة مشتركة في المحاكمة بين جميع الاشتراكيين الحقيقيين. إنهم يوزعون حججهم مثل بائعة الكرز التي كانت تبيع سلعتها من دون سعر كلفتها، عاملة وفقاً للمبدأ الاقتصادي القديم بأن الكمية المباعة هي الشيء الهام الوحيد. وإنها لطريقة ضرورية بالنسبة إلى الاشتراكية الحقيقية، ما دام كرزها قد فسد حتى قبل نضوجه.

وتعقب ذلك أمثلة قليلة على هذا الازدواج البصري:

حجر الزاوية رقم ١، ص ١٥٨ - ١٥٩:

"كل حياة فردية إنما توجد وتتطور من خلال نقيضتها... لا توجد إلا على أساس تفاعلها مع كلية الحياة".

"وهي ترتبط معها من جهة أخرى، بفعل طبيعتها، لتشكلا كلاً واحداً".

"وحدة الكون العضوية".

حجر الزاوية رقم ٢، ص ١٦٠- ١٦١:

"كل حياة فردية توجد وتتطور في كلية الحياة ومن خلالها؛ وكلية الحياة لا توجد وتتطور إلا في الحياة الفردية ومن خلالها". (تفاعل)

"إن الحياة الفردية تتطور... بوصفها جزءاً من الحياة بصورة عامة.

"إن الحياة الفردية، من جهة واحدة، تجد أساسها ومصدرها وجوهرها في كلية الحياة".	"إن العضوية العالمية تتألف من جميع الأفراد الملزمين بالوحدة.
"من جهة أخرى، فإن كلية الحياة تسعى، في صراع متواصل مع الحياة الفردية، إلى التهامها".	"التي" (كلية الحياة) "تصبح تربة تطورها وجوهرها" (الحياة الفردية)... "بحيث تقوم الواحدة على الأخرى".
"وبنتيجة ذلك (ص ١٥٩):	
"إن المجتمع الإنساني هو بالنسبة إلى الحياة ... الشعورية كما الحياة غير الشعورية العامة بالنسبة إلى الحياة الفردية غير الشعورية".	"بحيث تتصارعان وتتجابهان. يترتب على ذلك (ص ١٦٠): "إن الحياة الفردية الشعورية تتحد أيضاً بكلية الحياة الشعورية و"... (العكس بالعكس).
"لا أستطيع أن أتطور إلا في الجماعية مع البشر الآخرين ومن خلالها... وفي المجتمع أيضاً، فإن تعارض الحياة الفردية، والحياة بصورة عامة يصبح"، الخ...	"إن الكائن الإنساني الفردي لا يتطور إلا في المجتمع ومن خلاله، والمجتمع"، العكس بالعكس. الخ...
"الطبيعة... وحدة... تشتمل على التعدد الذي لا حصر له لظواهرها".	"المجتمع وحدة تضم وتلخص تعدد مصائر البشر الفردية".

لكن مؤلفنا لا يكتفي بهذا العرض المشكالي، بل يمضي فيكرر ملاحظاته الخرقاء عن الفردية والعمومية في شكل آخر أيضاً. إنه يضع أولاً، هذه التجريدات القاحلة على أنها مبادئ مطلقة، ويستنتج أن العلاقة نفسها يجب أن تنشأ في العالم الواقعي. وإن هذا ليمنحه بصورة مسبقة فرصة أن يقول كل شيء مرتين (وعذره أنه يصنع استدلالات)، في شكل مجرد ظاهرياً، ثم في شكل مشخص كاذب كنتيجة تستخلص منه. ومهما يكن من أمر، فإنه يعمد إلى التلاعب بالأسماء التي أعطاها لمقولتيه المجردتين. وهكذا، فإن مظهر العمومية

علـى التتالـي بوصفهـا طبيعـة، وكليـة غيـر شـعورية للحيـاة، ونسـخة شـعورية طبـق الأصـل، والحيـاة بصـورة عامـة، والعضويـة العالميـة، والوحـدة الجامعـة، والمجتمـع الإنسـاني، والجماعيـة، ووحـدة الكـون العضويـة، والسـعادة العامـة، والرخـاء العـام، الـخ...، وتظهـر الفرديـة تحـت الأسـماء المقابلـة للحيـاة الفرديـة غيـر الشـعورية والشـعورية. والسـعادة الفرديـة، ورخـاء الفـرد الخـاص، الـخ. ولا بـد لنـا، بخصـوص كل مـن هـذه الأسـماء بـدوره، أن نصغـي إلـى العبـارات الجوفـاء نفسـها التـي سـبق أن سـمعناها مـراراً حتـى التخمـة بخصـوص الفرديـة والعموميـة.

وهكـذا فـإن "حجـر الزاويـة" الثانـي لا يتضمـن شـيئاً لـم يتضمنـه مـن قبـل حجـر الزاويـة الأول. لكـن بمـا أن كلمـات المسـاواة والتضامـن ووحـدة المصالـح(*) تصـادف لـدى الاشـتراكيين الفرنسـيين، فـإن مؤلفنـا يحـاول أن يترجمهـا إلـى الألمانيـة، وأن يحولهـا بذلـك إلـى "أحجـار زاويـة" لاشـتراكيته الحقيقيـة.

"بوصفـي عضـواً واعيـاً فـي المجتمـع اعتـرف بـكل عضـو آخـر علـى أنـه كائـن مختلـف عنـي، معـارض لـي، مشـابه لـي، وفـي الوقـت نفسـه مغـروس فـي الأسـاس الأصلـي المشـترك للوجـود ومشـتق منـه. إن كل واحـد مـن زملائـي البشـر يظهـر لـي علـى أنـه معـارض لـي مـن جـراء طبيعتـه الخصوصيـة، ومـع ذلـك فهـو مشـابه لـي مـن جـراء طبيعتـه العامـة. إن الاعتـراف بالمسـاواة الإنسـانية، بحـق كل إنسـان فـي الوجـود، يتوقـف بنتيجـة ذلـك علـى الوعـي بـأن الطبيعـة الإنسـانية مشـتركة بيـن الجميـع؛ وبالطريقـة نفسـها، فـإن الحـب، والصداقـة، والعدالـة، وجميـع الفضائـل الاجتماعيـة تقـوم هـي الأخـرى علـى الشـعور بالتضامـن والوحـدة الإنسـانيتين الطبيعيتيـن. وإذا كانـت هـذه الأمـور قـد اعتبـرت حتـى الوقـت الراهـن واجبـات وفرضـت علـى البشـر، فإنهـا تصبـح علـى هـذا الغـرار فـي مجتمـع مؤسـس علـى الوعـي بطبيعـة الإنسـان الباطنـة، أي علـى العقـل وليـس علـى الإلـزام الخارجـي، تعبيـرات حـرة للحيـاة. فـي مجتمـع يتطابـق مـع الطبيعـة، أي مـع العقـل، يجـب علـى شـروط الوجـود بالتالـي أن تكـون متسـاوية بالنسـبة إلـى جميـع أعضائـه، أي يجـب أن تتحلـى بطابـع عـام". (ص ١٦١ - ١٦٢).

إن المؤلـف يبرهـن علـى براعـة مرموقـة إذ يطـرح بـادئ الأمـر فرضيـة بوصفهـا بديهيـة ومـن

(*) égalité, solidarité, unité des intérêts، بالفرنسية في النص الأصلي.

ثـم يبررهـا انطلاقـاً مـن ذاتهـا بواسـطة كلمـة بالتالـي، أو بنتيجـة ذلـك، الـخ...، وإنـه لحـاذق بصـورة لا تقـل عـن ذلـك حيـن يُهـرِّب بصـورة عارضـة إلـى اسـتدلالاته ذات الطابـع الخصوصـي جـداً بيانـات تقليديـة اشـتراكية النزعـة باسـتخدام "إذا كان المـرء"، أو "إذا كان الأمـر"، أو "هكـذا يجـب عليهـم"، أو "لكنـه سـوف يصبـح"، الـخ...

فـي "حجـر الزاويـة" الأول شـاهدنا الفـرد مـن جهـة واحـدة، ومـن جهـة ثانيـة، العموميـة التـي جابهتـه تحـت قنـاع المجتمـع. وإن هـذا التعـارض ليظهـر الآن بشـكل آخـر، إذ ينقسـم الفـرد الآن ضمـن ذاتـه إلـى طبيعـة خصوصيـة وطبيعـة عامـة. وتسـتخلص مـن هـذه الطبيعـة العامـة للفـرد "المسـاواة الإنسـانية"، والمصيـر المشـترك. وإن تلـك الشـروط الحياتيـة المشـتركة بيـن جميـع البشـر تتـراءى هنـا إذن، بوصفهـا نتاجـاً "لماهيـة الإنسـان"، للطبيعـة، فـي حيـن أنهـا منتجـات تاريخيـة، مثلهـا كمثـل وعـي المسـاواة بالضبـط. ولا يكتفـي المؤلـف بهـذا، بـل يقـدم البرهـان الحسـي علـى مسـاواته بتقريـر أنهـا مغروسـة، محتـواة، "فـي الأسـاس الأصلـي للوجـود". وقـد علمنـا فـي المقدمـة، ص ١٥٨، أن الإنسـان "يتألـف مـن العناصـر نفسـها، وهـو مـزود بتلـك القـدرات والخصائـص الهامـة التـي تحيـي جميـع الأشـياء". ولقـد علمنـا فـي "حجـر الزاويـة" الأول أن الطبيعـة هـي "أسـاس كل الحيـاة"، وبذلـك فهـي ""الأسـاس الأصلـي المشـترك للوجـود". وهكـذا، فـإن مؤلفنـا قـد بـزّ الفرنسـيين حتـى درجـة كبيـرة، فلـم يبرهـن، "بوصفـه عضـواً واعيـاً فـي المجتمـع"، علـى مسـاواة البشـر فيمـا بينهـم فحسـب، بـل علـى مسـاواتهم مـع كل برغـوث، وكل عـود قـش، وكل حجـر.

ولسـوف نكـون سـعداء جـداً بالاعتقـاد بـأن "جميـع الفضائـل الاجتماعيـة" لصاحبنـا الاشـتراكي الحقيقـي قائمـة "علـى شـعور التضامـن والوحـدة الإنسـانيين الطبيعييـن"، حتـى إذا كان الـرق الإقطاعـي، والعبوديـة، والتفاوتـات الاجتماعيـة لسـائر الحقـب، قـد كانـت قائمـة بذلـك علـى هـذا "التضامـن الإنسـاني الطبيعـي". وبالمناسـبة، فـإن هـذا "التضامـن الإنسـاني الطبيعـي" نتـاج تاريخـي يتغيـر يوميـاً فـي أيـدي البشـر، ولقـد كان علـى الـدوام طبيعيـاً جـداً، مهمـا أمكـن أن يبـدو لا إنسـانياً ومضـاداً للطبيعـة ليـس فـي حكـم "الإنسـان" فحسـب، بـل فـي حكـم جيـل ثـوري لاحـق أيضـاً.

ونعلـم فيمـا بعـد، بطريـق المصادفـة المحضـة، أن المجتمـع الحالـي قائم علـى "الإلـزام الخارجي"، إن الاشـتراكيين الحقيقيين لا يقصـدون مـن "الإلـزام الخارجـي" القيـود التـي تفرضهـا الشـروط الحياتيـة الماديـة علـى أفـراد معينيـن. بـل يقصـدون الإلـزام الـذي تمارسـه الدولـة فـي شـكل الحـراب، والشـرطة، والمدافـع، التـي هـي أبعـد مـا تكـون عـن كونهـا أسـاس المجتمـع، بـل هـي محـض نتيجـة لبنيتـه. ولقـد نوقشـت هـذه المسـألة مـن قبـل فـي العائلـة المقدسـة، كمـا نوقشـت فـي المجلـد الأول مـن هـذا المؤلف.

إن الاشـتراكي يعـارض المجتمـع الحالـي، "القائـم علـى الإلـزام الخارجـي"، بالمثـل الأعلـى للمجتمع الحقيقـي، القائـم علـى "وعـي طبيعـة الإنسـان الباطنـة، أي علـى العقـل". وهـذا يعنـي أنـه قائـم علـى وعـي الوعـي، علـى فكـر الفكـر. إن الاشـتراكي الحقيقـي لا يختلـف عـن الفلاسـفة حتـى فـي انتقائـه التعابيـر. إنـه ينسـى أن "الطبيعـة الباطنـة" للبشـر، مثلهـا كمثـل "وعيهـم" لهـا، "أي" "عقلهـم". قـد كانـت فـي سـائر الأزمنةنتاجـاً تاريخيـاً. وإنـه حتـى إذا كان مجتمـع البشـر يقـوم، كمـا يعتقـد، علـى "الإلـزام الخارجـي"، فـإن "طبيعتهـم الباطنـة" سـوف تقابـل هـذا "الإلـزام الخارجـي".

ونصـادف مـن جديـد فـي الصفحـة ١٦٣ الفرديـة والعموميـة بموكبهمـا المألـوف، فـي شـكل الرخـاء الفـردي والعـام. وإنكـم لتسـتطيعون أن تجـدوا تفسـيرات مماثلـة لعلاقاتهمـا المتبادلةفـي أي كتـاب عـن الاقتصـاد السياسـي تحـت عنـوان التنافـس، وكذلـك فـي هيغـل، حيـث تعـرض بصـورة أفضـل.

مثال ذلك، الحوليات الرينانية، ص ١٦٣:

"بتعزيز الرخاء العام أعزز رخائي الخاص، وبتعزيز رخائي الخاص أعزز الرخاء العام".

راجع هيغل، فلسفة الحق، (ص ٢٤٨، ١٨٣٣):

"حين ألاحق أغراضي، أخدم المصلحة العامة التي تخدم بدورها أغراضي".

قارن كذلك فلسفة الحق، (ص ٣٢٣ وما يليها)، بخصوص علاقة المواطن بالدولة.

"وبالتالـي فـإن لدينـا، كنتيجـة نهائيـة، الوحـدة الشـعورية للحيـاة الخاصـة والحيـاة العموميـة، التناغـم". (الحو[ليـات] الرينا[نيـة]، ص ١٦٣).

"كنتيجة نهائية" لأي شيء؟ للحقيقة التالية: ألا وهي أن:

"هـذه العلاقـة القطبيـة بيـن الحيـاة الفرديـة والحيـاة العموميـة تسـتقيم فـي تصارعهمـا تـارة، وفـي كـون إحداهمـا شـرطاً للأخـرى وأساسـها تـارة أخـرى".

إن "النتيجـة النهائيـة" لذلـك كلـه هـي علـى الأكثـر تناغـم اللاتناغـم مـع التناغـم، (وأن كل مـا يترتـب علـى التكـرار المسـتمر لهـذه العبـارات الطنانـة المألوفـة جيـداً هـو اعتقـاد المؤلـف بـأن صراعـه المجـدب مـع المقولتيـن المجردتيـن للفرديـة والعموميـة يشـكل الطريقـة المناسـبة مـن أجـل حـل المسـائل الاجتماعيـة).

ويختتم المؤلف حديثه بهذا التعبير الأنيق:

"إن المسـاواة الكليـة تشـكل أسـاس المجتمـع العضـوي الـذي يتطـور عبـر النزاعـات التـي تقـوم بيـن الأفـراد والنظـام العـام كـي يبلـغ الاتفـاق الطليـق، وحـدة السـعادة الفرديـة والعموميـة، التناغـم الاجتماعـي" (!) "الجماعـي"(!) "الـذي هـو انعـكاس للتناغـم الكلـي". (ص ١٦٤).

إنـه لمـن قبيـل التواضـع حقـاً ان تسـمى هـذه العبـارة "حجـر زاويـة". إنهـا صخـرة الحقـب التـي تقـوم عليهـا الاشـتراكية الحقيقيـة بكاملهـا.

حجر الزاوية الثالث

"هـذا التعـارض القطبـي، هـذا التفاعـل بيـن الحيـاة الخاصـة والحيـاة العامـة للطبيعـة هـو الـذي يشـكل أسـاس صـراع الإنسـان ضـد الطبيعـة. وحيـن يرتـدي هـذا الصـراع مظهـر الفعاليـة الشـعورية، فإنـه يسـمى العمـل". (ص ١٦٤).

ألـم يكـن حريـاً بنـا أن نقـول: إن هـذه الفكـرة عـن "التعـارض القطبـي" تقـوم علـى أسـاس مشـاهدة الصـراع الـذي يخوضـه الإنسـان ضـد الطبيعـة؟ فـأولاً يصنـع تجريـداً مـن حقيقـة قائمـة، ومـن ثـم يقـال: إن هـذه الحقيقـة القائمـة مؤسسـة علـى ذلـك التجريـد. هكـذا يجـب أن تتصـرف إذا كنـت تريـد أن تبـدو متمكنـاً مـن العمـق الألمانـي ومـن موهبـة التأمـل الفلسـفي.

مثال ذلك: حقيقة قائمة: القط يأكل الفأر.

تفكيـر: قـط - طبيعـة، فـأر- طبيعـة، اسـتهلاك للفـأر مـن قِبـل القـط - اسـتهلاك الطبيعـة مـن قِبـل الطبيعـة = اسـتهلاك ذاتـي للطبيعـة.

التصور الفلسفي للحقيقة القائمة: إن التهام الفأر من قِبل القط قائم على أساس الاستهلاك الذاتي للطبيعة.

وبعدما أعطي صراع الإنسان ضد الطبيعة مثل هذه الصورة المضللة، يمضي المؤلف كي يعطي فعالية الإنسان الشعورية في علاقتها بالطبيعة صورة مضللة بأن يتصورها تظاهرة هذا التجريد البسيط للصراعات الفعلية. وإن كلمة العمل الدنسة تحشر أخيراً، في الموضوع كنتيجة لتلك العملية من التضليل. لقد كانت هذه الكلمة على رأس لسان صاحبنا الاشتراكي الحقيقي منذ البداية، لكنه لم يجرؤ على التفوه بها قبل أن يسبغ عليها صفة الشرعية بالطريقة المناسبة. إن العمل يصبح خاتمة إنشاء، منطلقه التصور المجرد البسيط للإنسان والطبيعة، وبذلك فإنه يعرف بطريقة هي مناسبة وغير مناسبة على حدٍّ سواء لجميع مراحل تطور العمل.

"وبالتالي، فإن العمل هو أية فعالية شعورية من جانب الإنسان يحاول أن يحقق بها السطوة على الطبيعة بمعنى روحي ومادي، بحيث يستطيع أن يجعل منها أداة الاستمتاع الواعي بحياته ويستخدمها من أجل حاجاته الروحية والجسدية"، (المصدر نفسه).

ولسوف نكتفي بأن نلفت الانتباه إلى هذا الاستدلال اللامع:

"عندما يظهر النزاع على أنه فعالية شعورية، فإنه يسمى العمل - وبالتالي، فإن العمل هو أية فعالية شعورية من جانب الإنسان". الخ...

وإننا لندين بهذا الاكتشاف العميق إلى "التعارض القطبي".

وسوف يتذكر القارئ بيان سان سيمون المذكور أعلاه بخصوص التطور الحر لجميع قدرات الإنسان ويتذكر في الوقت نفسه أن فورييه كان راغباً في مشاهدة العمل الجذاب(*) يحل مكان العمل البغيض(**). وإننا لندين "للتعارض القطبي" بالتبرير والتفسير الفلسفيين التاليين لهذه الموضوعات:

"لكن بما أن" (إن "لكن" هذه يقصد بها الإشارة إلى أنه ليس ثمة أية رابطة بين ما يلي وما سبق) "كل تظاهرة وممارسة وتعبير عن قوى الحياة وإمكاناتها يجب أن تكون

(*) travail attrayant، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) travail répugnante، بالفرنسية في النص الأصلي.

بالنسبة إلى الحياة مصدر متعة ورضا، فإنه يترتب على ذلك أن العمل يجب أن يكون هو نفسه تظاهرة وتطوراً للقدرات الإنسانية، ويجب أن يكون مصدراً للمتعة والرضا والهناءة. وبنتيجة ذلك، فإن العمل يجب هو نفسه أن يصبح تعبيراً حراً من الحياة"، وبذلك مصدراً "للمتعة". (المصدر نفسه).

إننا نطّلع هنا على ما وعدنا به في مقدمة الحوليات الرينانية، وهو "إلى أي مدى يختلف العلم الاجتماعي الألماني في تطوره حتى الوقت الحاضر عن كل من العلم الاجتماعي الفرنسي والعلم الاجتماعي الإنكليزي" وما معنى "عرض مذهب الشيوعية في شكل علمي".

وإنها لتكون عملية مطولة ومضجرة أن تعرض كل ثغرة منطقية ترد في سياق هذه الأسطر القليلة. لكن فلنأخذ أولاً،بعين الاعتبار، الإهانات الموجهة إلى المنطق الصوري .

إنه ليفترض ضمناً، سعياً وراء البرهان على أن العمل، تعبير الحياة، يجب أن يكون مصدر متعة، أن الحياة يجب أن توفر المتعة في جميع تعبيراتها، ويستنبط من ذلك هذه النتيجة، ألا وهي أنه: ما دام العمل تعبيراً للحياة، فإنه يجب أن يكون هو الآخر مصدراً للمتعة. وإن المؤلف، الذي لا يكتفي بما حققه بواسطة هذه المراوغة من تحويل المسلّمة الى نتيجة، يستخلص فضلاً عن ذلك نتيجة كاذبة. إنه يترتب بالنسبة إليه على كون "كل تعبير يجب أن يكون بالنسبة إلى الحياة مصدر متعة". إن العمل، الذي هو إحدى تظاهرات الحياة هذه، "يجب أن يكون هو نفسه تظاهرة وتطوراً للقدرات الإنسانية"، يعني للحياة مرة أخرى. وفي حقيقة الأمر يجب أن يكون ما هو كائنه. كيف يمكن للعمل ألا يكون، في برهة معينة، "تظاهرة للقدرات الإنسانية" لكن هذا ليس كل شيء. فلأن العمل يجب أن يكون كذلك، فإنه "ينبغي" "بنتيجة ذلك" أن يكون كذلك، أو بصورة أدق: لأن العمل "يجب أن يكون تظاهرة وتطوراً للقدرات الإنسانية"، فإنه ينبغي بنتيجة ذلك أن يصبح شيئاً ما مختلفاً كل الاختلاف، ألا وهو، "تعبير حر للحياة"، الأمر الذي لم يكن موضوع بحث حتى الآن، وفيما كانت مسلّمة العمل من حيث هو متعة قد استنتجت أعلاه من مسلمة متعة الحياة، فإن المسلمة السابقة تقدم الآن كنتيجة للمسلمة الجديدة عن "التعبير الحرللحياة في العمل".

وبقدر ما يتعلق الأمر بمحتوى الفقرة، فإن المرء لا يستطيع أن يتبين تماماً السبب في أن العمل لم يكن على الدوام ما يجب أن يكونه، وفي أنه يجب أن يصبح الآن ما يجب أن يكونه، ولا السبب في أنه يجب أن يصبح شيئاً لم يكن ملزماً حتى الوقت الراهن بأن يكونه. لكن من المؤكد أن من واجب المرء أن يتذكر أن ماهية الإنسان والتعارض الفعلي بين الإنسان والطبيعة لم يكونا قد فسرا بعد تفسيراً كاملاً حتى الوقت الراهن.

ويتلو ذلك "تسويغ علمي" للمبدأ الشيوعي عن الملكية الجماعية لمنتجات العمل:

"ولكن نتاج العمل" (إن "لكن" الجديدة هذه تملك نفس المعنى الذي تملكه "لكن" السابقة) "يجب أن يخدم في وقتٍ واحدٍ سعادة الفرد، الفرد العامل، والسعادة العامة. وإن هذا ليتحقق من جراء حقيقة أن جميع الفعاليات الاجتماعية متكاملة ومتقابلة". (المصدر نفسه).

ليست هذه العبارة سوى نسخة من المديح الذي يكيله أي اقتصاد سياسي، للتنافس وتقسيم العمل، باستثناء ما طرأ على هذه الحجة من وهن جراء إدخال كلمة "سعادة".

وأخيراً، نعطى تسويغاً فلسفياً لتنظيم العمل لدى المؤلفين الفرنسيين:

"إن العمل من حيث هو فعالية حرة توفر المتعة والرضا وتخدم الرخاء العام في الوقت نفسه، هو أساس تنظيم العمل". (ص ١٦٥).

لكن بما أن العمل يجب مثلاً أن يصبح فعالية حرة توفر المتعة، الخ، وبما أنه ينبغي أن يصبح كذلك، وبالتالي فإنَّه لم يصبح كذلك بعد، فإن المرء لا بد أن يتوقع، على العكس من ذلك، أن يكون تنظيم العمل أساس "العمل من حيث هو فعالية توفير المتعة"، بيد أن مفهوم العمل بوصفه فعالية حرة كافٍ تماماً بالنسبة إلى المؤلِّف.

وفي نهاية المقالة يحسب المؤلف أنه انتهى إلى "نتائج".

إن "أحجار الزاوية" و"النتائج" هذه، بالإضافة إلى تلك الجلاميد الغرانيتية الأخرى التي تصادف في الأوراق الإحدى والعشرون، وكتاب المواطن، والمقالات غير المنشورة

الجديـدة[٢٤٥]، تشـكل الصخـرة التـي تنـوي الاشـتراكية الحقيقيـة، الشـهيرة بالفلسـفة الاجتماعيـة الألمانية، أن تبنـي كنيسـتها عليها.

ولسـوف تسـنح لنـا الفرصـة للإصغـاء إلـى بعـض التراتيـل، إلـى مقاطـع قليلـة مـن النشـيد العبراني الرمـزي والصوفـي[*]، التـي ترتـل فـي هذه الكنيسـة.

(*) Cantique Allégorique hébraïque et mysthique، بالفرنسية في النص الأصلي

(٤)
كارل غرون
الحركة الاجتماعية في فرنسا وبلجيكا (دارمستادت ١٨٤٥)
أو
كيف تكتب الاشتراكية الحقيقية التاريخ

"فـي حقيقـة الأمـر، لـو لـم تكـن المسـألة هنـا هـي معالجـة الرهـط بكاملـه... فالأرجـح أننـا كنـا نرمـي القلـم جانبـاً... والآن، هـذا هـو" (كتـاب مونـدت، تاريـخ المجتمـع [l'histoire de la société]) "يتقـدم بالعجرفـة نفسـها أمـام حلقـة القـراء العريضـة، أمـام ذلـك الجمهـور الـذي ينقـض بجشـع علـى كل شـيء يحمـل علـى واجهتـه كلمـة اجتماعـي لأن غريـزة صادقـة تخبـره عـن أسـرار الأزمنـة المقبلـة المخبـأة فـي هـذه الكلمـة الصغيـرة. ومـن هنـا كانـت مسـؤولية الكائـن المزدوجـة وعقوبتـه المضاعفـة، إذا هـو اندفـع فـي مشـروع ليـس مؤهـلاً لـه"!

"إننـا لـن نأخـذ علـى الهـر مونـدت عـدم معرفتـه بـأي شـيء مـن الإنجـازات الحاليـة لـلأدب الاجتماعـي الفرنسـي والإنكليـزي باسـتثناء مـا كشـفه لنـا الهـر ل. شـتاين. إن كتـاب شـتاين كان يمكـن أن يعتبـر حيـن ظهـر خليقـاً بالملاحظـة. أمـا أن نسـبك فـي هـذه الأيـام العبـارات الجوفـاء عـن سـان سـيمون، وأن نسـمي بـازار وأنفانتـان فرعـي السـان سـيمونية، وأن نتبـع ذلـك بفورييـه وبـكل اللغـو التافـه عـن بـرودون، الـخ!... ومـع ذلـك فقـد كنـا نتغاضـى بـكل طيبـة خاطـر عـن ذلـك لـو أن تكويـن الأفـكار الاجتماعيـة كان معروضـاً علـى الأقـل بطريقـة جديـدة وأصيلـة" .

إن الهرغـرون يبـدأ، بهـذا الإعـلان المتكبـر والخليـق برادامانتـي[٢٤٦]، اسـتعراض كتـاب

موندت: تاريخ المجتمع (في المقالات غير المنشورة الجديدة (Nouveaux Inédits)، ص ١٢٢، ١٢٣).

وسوف يدهش القارئ للموهبة الفنية التي يتحلى بها الهرغرون الذي يقدم في واقع الأمر، تحت هذا القناع، نقداً لكتابه الخاص الذي لم يكن قد شاهد النور بعد في ذلك الحين.

إننا نشاهد عند الهرغرون انصهاراً للاشتراكية الحقيقية مع الأسلوب الأدبي المستلهم من ألمانيا الفتاة ـ وهو مشهد مسلٍ حتى الدرجة القصوى. إن للكتاب المذكور أعلاه شكل رسائل موجهة إلى سيدة، ومن هنا يستطيع القارئ أن يحدس أن الآلهة الحبلى بالأفكار العميقة للاشتراكية الحقيقية تتهاوى مكللة بأزهار وأعواد مرَّ "الأدب الحديث". فلنسرع ونلتقط بعض الأزهار.

"كانت الكارمانيول[*] تتردد من تلقاء نفسها في رأسي... وعلى أي حال فإنه أمر رهيب بالنسبة إلى الكارمانيول أن تتناول طعام الإفطار في رأس كاتب ألماني، حتى إذا لم تعمد بصورة فعلية إلى الإقامة الدائمة هناك". (ص ٣).

"لو كان هيغل العجوز أمامي لأمسكت بخناقه: ماذا! فالطبيعة إذن، هي الأسلوب الآخر لوجود الفكر؟ ماذا؟ أيها المغفل!" (ص ١١).

"إن بروكسيل هي حتى درجة ما نسخة ثانية عن الجمعية الفرنسية: إن لها حزبيها للجبل والوادي". (ص ٢٤).

"مستشفى مجانين السياسة". (ص ٨٠).

"يرقات مرحة، شاعرية، متهافتة، وهمية". (ص ٨٢).

"ليبرالية، عودة الملكية، الصبّار الذي تذهب جذوره في الهواء والذي يلتف مثل نبات طفيلي حول مقاعد مجلس النواب". (ص ٨٧، ٨٨).

أما أنَّ الصبار "لا تذهب جذوره في الهواء" ولا هو "نبات طفيلي"، وأن اليرقات أو "الخادرات[**]" "المرحة"، "الشاعرية"، أو المتهافتة" لا وجود لها، فهذا ما لا يفسد في أي حال من الأحوال جمال هذه الصور المليحة:

(*) Carmagnole، نشيد فرنسي من أيام الثورة.

(**) الخادرة، الحشرة بين دوري اليرقة والحشرة التامة.

"فــي مــلء هـــذا البحـر الهائـج" (مـن الصحـف والصحفييـن فـي قاعـة مطالعـة مونبانسـيه) [٢٤٧] "أحسـني علـى أي حـال مثـل نـوح ثـانٍ، يرسـل حماماتـه ليتأكـد ممـا إذا كان فـي مقـدوره أن يبنـي مسـكناً أو يـزرع كرمـاً فـي أي موضـع أو يتوصـل إلـى اتفـاق معقـول مـع آلهتـه الغاضبـة". (ص ٢٥٩).

مما لا ريب فيه أن الهر غرون يتحدث هنا عن نشاطه كمراسل صحفي.

"كان كاميـل ديمـولان رجـلاً. وكانـت الجمعيـة التأسيسـية تتشـكل مـن مالكيـن صغـار. وكان روبسـبيير سـاحراً فاضـلاً. وبكلمـة واحـدة، فـإن التاريـخ الحديـث هـو صـراع الحيـاة أو المـوت ضـد البقاليــن والســحرة!!!" (ص ١١١).

"إن السعادة زائد، لكن زائد مرفوع إلى القوة س.) (ص ٢٠٣).

وفـي حقيقـة الأمـر، فالسـعادة = + س، وهـي حقيقـة لا يمكـن أن تصـادف إلا فـي الرياضيـات الجماليـة للهـر غـرون.

"تنظيـم العمـل، مـا هـو؟ وردّت الشـعوب علـى أبـي الهـول بأصـوات ألـف صحيفـة... إن فرنسـا تغنـي المقطـع الشـعري، وألمانيـا تغنـي المقطـع المضـاد[٢٤٨]، ألمانيـا الصوفيـة العجـوز". (ص ٢٥٩).

"إن أميـركا الشـمالية لأبغـض إلـي مـن العالـم القديـم، لأن أنانيتهـا البقاليـة تحمـل علـى خديهـا تـوّرد الصحـة الوقحـة... لأن كل شـيء هنـاك سـطحي جـداً، ضحـل الجـذور جـداً، ويـكاد يكـون فـي إمكانـي أن أقـول إقليمـي جـداً!!! أنتـم تسـمون أميـركا العالـم الجديـد؟ إنهـا أقـدم جميـع العوالـم القديمـة؛ إن ثيابنـا الباليـة أصبحـت الـزي هنـاك". (ص ١٠١، ٣٢٤).

إننـا لا نعـرف حتـى الوقـت الحاضـر سـوى أن الجـوارب الألمانيـة الصنـع التـي تلبـس عندنـا كانـت تلبـس هنـاك، بالرغـم مـن أنهـا مـن نوعيـة سيئة جـداً لا يمكـن أن تصبـح "زيـاً".

"استقرار هذه المؤسسات المنطقي والوطيد" (ص ٤٦١).

ما لم تفرح هذه الورود قلبك.

فليس لك حق في أن تكون "إنساناً"![٢٤٩].

يـا لـه مـن ظـرف داعـر، يـا لهـا مـن بـراءة ماكـرة! يـا لـه مـن صـراع بطولـي مـع القضايـا الجماليـة! إن هـذه اللامبـالاة وهـذه الأصالـة جديرتان بهاينـي(Heine) !

لقـد خدعنـا القـارئ. إن ملامـح الهرغـرون الأدبيـة ليسـت زينـة للعلـم الاشـتراكي الحقيقـي، بـل ليـس هـذا العلـم سـوى حشـو يمـلأ فجـوات هـذه الثرثـرة الأدبيـة، ويشـكل إذا جـاز التعبيـر "خلفيتهـا الاجتماعيـة".

وفـي مقالـة للهـر غـرون بعنـوان "فويربـاخ والاشـتراكيون" يـرد مـا يلـي (كتـاب المواطـن الألماني) (ص ٧٤):

"عندمـا نلفـظ اسـم فويربـاخ نلخـص جميـع المخاضـات الفلسـفية مـن بيكـون أوف فيـرولام حتـى الوقـت الراهـن، ونحـدد فـي وقـت واحـد غـرض الفلسـفة ومعناهـا الأخيريـن، ونصـادف الإنسـان مـن حيـث هـو النتيجـة الأخيـرة للتاريـخ العالمـي. وعندمـا نسـلك هـذه الطريـق نتقـدم بصـورة أوثـق، لأنهـا أعمـق، ممـا لـو طرحنـا علـى بسـاط البحـث الأجـور، والتنافـس، ومسـاوئ الدسـاتير وأنظمـة الحكـم... لقـد ربحنـا الإنسـان، الإنسـان الـذي تخلـص مـن الديـن، ومـن الأفـكار المحتضـرة، ومـن كل مـا هـو غريـب عنـه، مـع كل مـا يفترضـه ذلـك مـن التطـورات فـي الممارسـة، لقـد ربحنـا الإنسـان النقـي، الجوهـري".

إن هـذه الجملـة الوحيـدة تكفـي لتبيـن لنـا أي صنـف مـن "اليقيـن" و"العمـق" يجـب أن نتوقـع مـن الهرغـرون. إنـه يجهـل المسـائل الصغـرى. فـإذا مـا تسـلح بإيمانـه الـذي لا يتزعـزع بنتائـج الفلسـفة كمـا صاغهـا فويربـاخ، ألا وهـي أن "الإنسـان"، "الإنسـان النقـي، الجوهـري"، هـو الغـرض الأخيـر للتاريـخ العالمـي، وأن الديـن ماهيـة إنسـانية مغتربـة، وأن الماهيـة الإنسـانية هـي ماهيـة إنسـانية ومقيـاس الأشـياء جميعـاً - وقـد تسـلح فضـلاً عـن ذلـك بالحقائـق الأخـرى للاشـتراكية الحقيقيـة (أنظـر أعـلاه)، ألا وهـي إن المـال، والعمـل المأجـور، الـخ...، هـي كذلـك اغتـراب للماهيـة الإنسـانية، وإن الاشـتراكية الألمانيـة هـي إدراك الفلسـفة الألمانيـة والحقيقـة النظريـة للاشـتراكية والشـيوعية الأجنبيتيـن، الـخ... فـإن الهـر غـرون يسـافر إلـى بروكسـيل وباريـس بـكل رضـا الاشـتراكي الحقيقـي.

إن هـذه التبويقـات العظمـى التـي يطلقهـا الهـر غـرون إشـادة بالاشـتراكية الحقيقيـة وبالعلـم الألمانـي تتجـاوز كل مـا حققـه فـي هـذا المجـال زمـلاؤه فـي الإيمـان، وبقـدر مـا تتعلـق هـذه المدائـح بالاشـتراكية الحقيقيـة فمـن الواضـح أنهـا صادقـة كل الصـدق. إن تواضـع الهـر غـرون لا يسـمح

لـه بـأن يتفـوه بعبـارة واحـدة لـم ينطـق بهـا مـن قبـل اشـتراكي حقيقـي آخـر فـي الأوراق الإحـدى والعشـرون، وكتـاب المواطـن، والمقـالات غيـر المنشـورة الجديـدة. وفـي الحقيقـة أنـه ليـس لكتابـه هـدف آخـر سـوى تكملـة موجـز للحركـة الاجتماعيـة الفرنسـية رسـمت خطوطـه العامـة فـي الأوراق الإحـدى والعشـرون (ص ٧٤ - ٨٨) مـن قبـل هيـس، وبذلـك فإنـه يلبـي حاجـة تـمَّ التعبيـر عنهـا فـي المؤلـف نفسـه فـي الصفحـة ٨٨[٢٥٠]. ولا بـد أن تكـون الفلسـفة الألمانيـة مدينـة لـه بعمـق لثنائـه عليهـا، نظـراً لضآلـة معلوماتـه عنهـا. إن الكبريـاء القومـي عنـد الاشـتراكيين الحقيقييـن، الفخوريـن بألمانيـا باعتبارهـا أرض "الإنسـان"، أرض "الماهيـة الإنسـانية"، فـي مواجهـة القوميـات الدنسـة الأخـرى، هـذه الكبريـاء تبلـغ أوجهـا عنـده. وإننـا نقـدم أدنـاه نمـاذج قليلـة عنهـا:

"لكننـي كنـت أود أن أعـرف مـا إذا كانـوا لا يريـدون جميعـاً أن يتعلمـوا منـا، هـؤلاء الفرنسـيين، والإنكليـز، والبلجيكييـن، والأميركييـن الشـماليين. (ص ٢٨).

وإنه ليسهب الآن في هذا الأمر:

"يبـدو لـي الأميركيـون الشـماليون مبتدئيـن كليـاً، وعلـى الرغـم مـن تشـريعهم الليبرالـي، فمـن المرجـح أنهـم سـوف يتعلمـون منـا أن يعرفـوا الاشـتراكية". (ص ١٠١).

وعلـى الأخـص إذا عرفنـا أن لديهـم، منـذ عـام ١٨٢٩، مدرسـتهم الاشـتراكية والديمقراطيـة الخاصـة التـي كان اقتصاديهـم كوبـر يناهضهـا منـذ عـام ١٨٣٠.

"الديمقراطيـون البلجيكيـون؟ هـل تعتقـدون أنهـم تقدمـوا نصـف المسـافة التـي قطعناهـا نحـن الألمـان؟ لقـد دخلـت فـي مشـادة مـع واحـد منهـم كان يعتبـر أن تحقيـق حريـة الوجـود الإنسـاني خرافـة!" (ص ٢٨).

إن قوميـة "الإنسـان"، "الماهيـة الإنسـانية"، "حريـة الوجـود الإنسـاني"، تثبـت هنـا أنهـا متفوقـة حتـى درجـة بعيـدة علـى القوميـة البلجيكيـة.

"الفرنسـيون! دعـوا هيغـل فـي سـلام حتـى تفهمـوه". (إننـا نعتقـد أن نقـد ليرمينيـه لفلسـفة الحـق[٢٥١]، وهـو نقـد ضعيـف جـداً علـى أي حـال، يبرهـن علـى فهـم لهيغـل أعمـق مـن كل مـا كتبـه الهـر غـرون باسـمه أو تحـت الاسـم المسـتعار "أرنسـت فـون ديرهايـد". "جربـوا ألا تشـربوا

قهوة أو خمرة على الإطلاق لمدة سنة؛ لا تنساقوا مع أي هوى مثير؛ دعوا غيزو يحكم ودعوا الجزائر تسقط تحت سيطرة مراكش" (كيف يمكن للجزائر أن تسقط تحت حكم مراكش حتى إذا تخلى الفرنسيون عنها؟)؛ "اجلسوا في علية وادرسوا المنطق وعلم الظواهر وعندما تهبطون بعد سنة، هزيلي القوام حمر العيون، وتمضون إلى الشارع وتتعثرون بمتأنق أو ببائع متجول فلا ترتبكوا. ذلك أنكم سوف تكونون قد أصبحتم في هذه الأثناء رجالاً كباراً وأقوياء، وسوف يكون ذهنكم أشبه بسروة تتغذى بنسغ عجائبي"؛ "وإن كل ما سوف ترونه سوف يسلمكم نقاط ضعفه الأكثر سرية؛ وبالرغم من كونكم أرواحاً مخلوقة، فسوف تتغلغلون مع ذلك إلى قلب الطبيعة؛ ولسوف تكون نظرتكم قاضية، وكلمتكم سوف تحرك الجبال، وسوف يكون جوابكم أحدّ من الشفرة الأحدّ. وسوف تتقدمون إلى أوتيل دو فيل - فإذا البورجوازية شيء من الماضي. وسوف تخطون إلى قصر بوربون- فإذا به ينهار. إن مجلس النواب بأسره سوف يذهب هباءً منثوراً(*)، ويختفي غيزو، ولن يكون لويس فيليب الشاحب سوى شبح تاريخي، بينما تنهض من جميع هذه العناصر التي محقتموها الفكرة المطلقة للمجتمع الحر ظافرة. وإذا تركنا المزاح جانباً، فإنكم لن تستطيعوا أن تفهموا هيغل إلا إذا أصبحتم هيغل أنتم أنفسكم قبلاً. وكما قلت أعلاه: "إن معشوقة مور لا يمكن أن تموت إلا على يدي مور نفسه"[٢٥٢]. (ص ١١٥- ١١٦).

إن الأريج الأدبي لهذه البيانات الاشتراكية الحقيقية سوف يدغدغ أنوف جميع الناس. إن الهر غرون، مثله كمثل جميع الاشتراكيين الحقيقيين، لا ينسى أن يقدم إلينا من جديد الثرثرة القديمة عن سطحية الفرنسيين:

"ذلك أنه محكوم علي أن أجد الفكر الفرنسي قاصراً وسطحياً كلما احتككت به عن قرب". (ص ٣٧).

ولا يخفي الهر غرون عنا حقيقة أن القصد من كتابه تمجيد الاشتراكية الألمانية من حيث هي نقد للاشتراكية الفرنسية:

"إن الدهماء الأدبية في ألمانيا المعاصرة تسمي محاولاتنا الاشتراكية محاكاة

(*) nihilum album، باللاتينية في النص الأصلي.

للضلالات الفرنسية. ولم يجد أحد حتى الآن أن مثل هذا الكلام يستحق الرد عليه. ولا بد للدهماء أن تحس الخجل، إن كان لديها أي إحساس بالخجل على الإطلاق، عندما تقرأ هذا الكتاب. ومن المرجح أنها لم تتخيل قط أن الاشتراكية الألمانية هي نقد للاشتراكية الفرنسية، وأنها أبعد ما تكون عن اعتبار الفرنسيين مبتكري عقد اجتماعي[*] جديد، بل هي تطالب الاشتراكية الفرنسية بتقويم نقائصها في مدرسة العلم الألماني. وإن إصدار ترجمة كتاب فويرباخ جوهر المسيحية هو قيد التحضير حالياً في باريس. ألا فلينتفع الفرنسيون أيما انتفاع من المدرسة الألمانية! ومهما ترتب على الوضع الاقتصادي لهذه البلاد أو على كوكبة السياسة الحالية، فإن النظرة الإنسانية وحدها سوف تجعل الوجود الإنساني أمراً ممكناً في المستقبل. إن الألمان، هذا الشعب اللاسياسي، هذا الشعب المنبوذ، هذا الشعب الذي ليس هو شعباً، سوف يضعون حجر الزاوية من أجل بناء المستقبل". (ص ٣٥٣).

ومن المؤكد أن الاشتراكي الحقيقي، المستغرق في ألفته مع "الماهية الإنسانية"، لا يحس حاجة إلى معرفة أي شيء عما "يمكن أن يترتب على الوضع الاقتصادي والكوكبة السياسية" لبلد ما.

إن الهر غرون، بوصفه رسولاً للاشتراكية الحقيقية، لا يكتفي، كما هي حال الرسل الآخرين، بالمباهاة بالعلم الجامع لدى الألمان بالمقارنة مع جهل الأمم الأخرى. إنه يفرض نفسه بكل رباطة جأش مستخدماً خبرته الطويلة كأديب، مثله كمثل عابر الكرة الأرضية الشهير، على ممثلي الأحزاب الاشتراكية والديمقراطية والشيوعية المختلفة. وبعدما يشمهم من جميع الزوايا، يتقدم إليهم على أنه رسول الاشتراكية الحقيقية. وإن كل ما يتبقى له كي يفعله هو أن يلقنهم الدروس، أن ينقل إليهم أعمق الاكتشافات المتعلقة بالإنسانية الحرة. إن تفوق الاشتراكية الحقيقية على الأحزاب الفرنسية يتخذ الآونة شكل التفوق الشخصي للهر غرون على ممثلي تلك الأحزاب. وأخيراً، فإن هذا لا يوفر له الفرصة لاستخدام زعماء الأحزاب الفرنسية كمواطئ قدم للهر غرون فحسب، بل للنطق بمختلف أنواع الثرثرة أيضاً،

(*) Contrat social، بالفرنسية في النص الأصلي.

وبذلك يعوض الإقليمي الألماني عن الجهود التي تكبدها في قراءة البيانات الأخصب للاشتراكية الحقيقية.

"لقد ارتسمت على وجه كاتس ملامح الغبطة العامية عندما أكدت له رضاي التام عن خطابه" (ص ٥٠).

ولم يُضِع الهر غرون وقتاً في تثقيف كاتس في موضوع الإرهاب الفرنسي(*) و"أسعدت بكسب تأييد صديقي الجديد" (ص ٥١). وكان تأثيره على برودون هاماً أيضاً، لكن بطريقة مختلفة.

"وسررت أيما سرور إذا أصبحت، إذا جاز التعبير، معلماً خاصاً(**)، للرجل الذي ربما لم يكن لفطنته مثيل منذ ليسنغ وكانط". (ص ٤٠٤).

وليس لويس بلان إلا "صديقه الشاب" (ص ٣١٤).

"استفسرني بلهفة عظيمة، لكن بجهل عظيم أيضاً، عن أوضاعنا، نحن الألمان"(؟) "نعرف الأوضاع الفرنسية بصورة لا تقل على وجه التقريب عن معرفة الفرنسيين أنفسهم؛ إننا على الأقل ندرسها" (؟) (ص ٣١٥).

ونعلم عن "بابا كابيه" أنه "محدود" (ص ٣٨٢). لقد طرح الهر غرون عليه عدداً من المسائل، وكابيه

"اعترف بأنه لم يستطع على وجه الدقة أن يسبر غورها. إنني" (غرون) "لاحظت ذلك منذ زمن طويل؛ ومن الطبيعي أن هذا وضع حداً لكل مناقشة، خاصة وقد أدركت أن مهمة كابيه انتهت منذ زمن طويل". (ص ٣٨١).

وسوف نرى فيما بعد كيف يسعى الهر غرون إلى إعطاء كابيه "مهمة" جديدة.

فلنعالج قبلاً الخطوط الرئيسية والأفكار التقليدية البالية تماماً التي تشكل صقل كتاب غرون. إن هذه الأفكار وتلك الخطوط منسوخة عن هيس، الذي ينتحله الهر غرون على أية حال بالطريقة الأفخم. إن القضايا التي كانت غامضة وصوفية كلياً عند هيس، لكن التي

(*) مما لا شك فيه أن المقصود عهد الإرهاب.

(**) في الألمانية Privatdozent، وهو أستاذ الجامعة الذي يعطي دروساً خاصة في الألمانية.

كانت في الأصل - في الأوراق الإحدى والعشرون - جديرة بالإدراك، ولم تصبح مضجرة ورجعية إلا بنتيجة ظهورها المتكرر أبداً في المواطن الألماني والمقالات غير المنشورة الجديدة والحوليات الرينانية. في وقت كانت قد باتت فيه عتيقة بالية - هذه القضايا تصبح هراءً صرفاً بين يدي الهر غرون.

إن هيس ينشئ مقارنة بين تطور الاشتراكية الفرنسية وتطور الفلسفة الألمانية - سان سيمون وشيلينغ، فورييه وهيغل، برودون وفويرباخ، انظروا على سبيل المثال الأوراق الإحدى والعشرون، ص ٧٨، ٧٩، ٣٢٦، ٣٢٧؛ المقالات غير المنشورة الجديدة، ص ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٢ وما يليها ("المقارنة بين فويرباخ وبرودون")، مثلاً هيس: "إن فويرباخ هو برودون الألماني"، الخ، المقالات غير المنشورة الجديدة، ص ٢٠٢، غرون: (إن برودون هو فويرباخ الفرنسي" ص ٤٠٤).

إن هذا العرض التخطيطي المستلهم من هيس هو الشيء الوحيد الذي يعطي تماسكاً باطنياً لكتاب غرون. لكن من المؤكد أن الهر غرون لا يتوانى عن إضافة مسحة أدبية على عبارات هيس. بل الأكثر من ذلك أن أخطاء واضحة من جانب هيس، مثلاً، إن التحليلات النظرية تشكل "الخلفية النظرية" و"الأساس النظري" للحركات الواقعية (مثلاً: المقالات غير المنشورة الجديدة، ص ١٩٢) ينسخها الهر غرون بصورة أمينة (مثلاً: غرون، ص ٢٦٤: "إن الخلفية الاجتماعية للمسألة السياسية في القرن الثامن عشر... كانت النتاج المتزامن لاتجاهين فلسفيين"- اتجاه الحسيين واتجاه الحلوليين (deïste)). وإنه لينسخ كذلك الرأي القائل إنه يكفي نقل فويرباخ إلى الممارسة، تطبيقه بكل بساطه على الحياة الاجتماعية، كي يُصنع النقد التام للمجتمع القائم. وإذا أضاف المرء الملاحظات النقدية التي وجهها هيس في مكان آخر إلى الشيوعية والاشتراكية الفرنسيتين، مثال ذلك: "إن فورييه، وبرودون، الخ، لم يمضيا إلى أبعد من مقولة العمل المأجور" (كتاب المواطن الألماني، ص ٤٦، ومواضع أخرى)، و"إن فورييه ليود أن يصنع سعادة العالم بواسطة رابطات جديدة على أساس الأنانية": (المقالات غير المنشورة الجديدة، ص ١٩٦)، وإنه "حتى الشيوعيين الراديكاليين الفرنسيين لم يتخطوا بعد التعارض بين العمل والمتعة، ولم يتوصلوا بعد إلى فكرة وحدة

الإنتـاج والاسـتهلاك"، الـخ، (كتـاب المواطـن الألمانـي، ص ٤٣)؛ و"الفوضويـة إنـكار مفهـوم السـلطة السياسـية" (الأوراق الإحـدى والعشـرون؛ ص ٧٧)، الـخ، فإنـه يضـع فـي جيبـه نقـد الهـر غرون للفرنسـيين بكاملـه، كمـا كان الهـر غـرون قـد وضـع هـذا النقـد فـي جيبـه قبـل ذهابـه إلـى باريـس بوقـت طويـل. وإذ يصفـي الهـر غـرون حسـاباته مـع الاشـتراكيين والشـيوعيين الفرنسـيين، فإنـه يحصـل كذلـك، فضـلاً عمـا سـبقت الإشـارة إليـه أعـلاه، علـى مسـاعدة كبيـرة مـن العبـارات التقليديـة المختلفـة الشـائعة فـي ألمانيـا بخصـوص الديـن، والسياسـة، والقوميـة، والإنسـاني واللاإنسـاني، الـخ، التـي تناولهـا الاشـتراكيون الحقيقيـون مـن الفلاسـفة. إن كل مـا ينبغـي لـه فعلـه هـو أن يتصيـد فـي كل مـكان كلمتـي "الإنسـان" و"الإنسـاني" وأن يغتـاظ حيـن لا يجدهمـا. مثـال ذلـك: "أنـت سياسـي، فأنـت ضيـق التفكيـر إذن" (ص ٢٨٣). وإن الهـر غـرون ليتمكـن بالطريقـة نفسـها مـن الهتـاف: "أنـت قومـي، متديـن، تتعاطـى الاقتصـاد السياسـي، وأن لـك إلهـاً - فأنـت لسـت إنسـانياً إذن، أنـت ضيـق التفكيـر". هـذه عمليـة يتبعهـا عبـر كتابـه بكاملـه. ومـن المفـروغ منـه أن هـذا يشـكل نقـداً كامـلاً للسياسـة، والفكـرة القوميـة، والديـن، الـخ، وفـي الوقـت نفسـه يوضـح حتـى درجـة مرموقـة خصائـص الكتّـاب الذيـن ينقدهـم وارتباطهـم بالتطـور الاجتماعـي.

ويسـتطيع المـرء أن يـرى مـن هـذه الأمثلـة أن بضاعـة غـرون هـي حتـى درجـة كبيـرة دون كتـاب شـتاين، الـذي حـاول علـى الأقـل أن يبيـن العلاقـة بيـن الأدب الاشـتراكي والتطـور الواقعـي للمجتمـع الفرنسـي. ونـكاد لا نحتـاج إلـى الإشـارة إلـى أن الهـر غـرون يتخـذ، سـواء فـي الكتـاب موضـع المناقشـة أم فـي المقـالات غيـر المنشـورة الجديـدة، أسـلوباً اسـتعلائياً حيـال سـلفه.

لكـن هـل نجـح الهـر غـرون حتـى فـي أن ينسـخ بصـورة مضبوطـة مـا أخـذه مـن هيـس وآخريـن؟ هـل دمـج العناصـر الضروريـة فـي إطـار الخطـوط الرئيسـية التـي تناولهـا مغمـض العينيـن مـن دون أدنـى تمحيـص؟ هـل أعطـى عرضـاً كامـلاً وصحيحـاً عـن المؤلفيـن الاشـتراكيين الفـرادى وفقـاً للمصـادر؟ مـن المؤكـد أنَّ هـذا أقـل مـا يمكـن للمـرء أن يتطلبـه مـن الرجـل الـذي ينبغـي للأميركييـن الشـماليين والفرنسـيين والإنكليـز والبلجيكييـن أن يتعلمـوا منـه، الرجـل الـذي كان معلمـاً خاصـاً لبـرودون، والـذي يلـوّح أبـداً بضلاعتـه الألمانيـة فـي وجـه الفرنسـيين السـطحيين.

السان سيمونية

لا يملك الهر غرون أية معرفة أولية بكتاب واحد من الأدبيات السان سيمونية . إن مصادره الرئيسية هي: أولاً، لورنز(*) شتاين المحتقر جداً؛ وفيما عدا ذلك، المصدر الرئيسي لشتاين، ل. ريبو[٢٥٣] (ولقاء ذلك فإنه ينوي أن يجعل من الهر ريبو مثالاً ويدعوه مرائياً، ص ٢٦٠؛ وإنه ليزعم في الصفحة نفسها أن كتاب ريبو لم يقع بمحض الصدفة بين يديه إلا بعد وقت طويل من تصفية حساباته مع السان سيمونيين)؛ ومن وقت لآخر لويس بلان. ولسوف نقدم على ذلك براهين مباشرة.

لنر بادئ الأمر ما يكتبه الهر غرون عن حياة سان سيمون.

إن المصادر الرئيسية عن حياة سان سيمون هي مقتطفات من ترجمته الذاتية الواردة في (مؤلفات سان سيمون التي نشرها أولاند رودريغز)، وفي عدد التاسع عشر من أيار (مايو) ١٨٣٠ من المنظم [L'organisateur][٢٥٤]. وهكذا فإن لدينا ههنا جميع الوثائق أمامنا: ١- المصادر الأصلية؛ ٢- ريبو الذي لخصها؛ ٣- شتاين الذي استخدم ريبو؛ ٤- التدفق الأدبي عند الهر غرون.

الهرغرون:

"أسهم سان سيمون في الصراع الأميركي من أجل الاستقلال من دون أن يكون له أي اهتمام خاص في الحرب نفسها؛ لقد خطر له أن ثمَّة إمكانية من أجل الربط بين المحيطين الكبيرين". (ص ٨٤).

شتاين، ص ١٤٣:

"بادئ الأمر التحق بالخدمة العسكرية... وذهب إلى أميركا مع بوييه... في هذه الحرب، التي من المؤكد أنه أدرك مغزاها... لقد قال: إن الحرب، باعتبارها حرباً، لا تهمني بل غرض هذه الحرب فقط، الخ"... "بعد أن حاول عبثاً أن يثير اهتمام نائب الملك في مكسيكو بخطة عظيمة من أجل ربط المحيطين الكبيرين بواسطة قنال".

(*) في المخطوطة لودفيغ.

ريبو، ص ٧٧:

"مقاتل من أجل الاستقلال الأميركي، خدم تحت قيادة واشنطن... لقد قال: إن الحرب بحدِّ ذاتها لا تهمني؛ لكن الهدف من الحرب كان وحده يثير فيَّ أعظم الاهتمام، وكان هذا الاهتمام يجعلني أتحمل الأعمال من دون أي نفور"(*).

ولا يعمل الهر غورن سوى أن ينسخ حقيقة أن سان سيمون نفسه "لم يكن له أي اهتمام خاص بالحرب نفسها"؛ إنه يحذف النقطة الرئيسية: اهتمامه بالهدف من الحرب.

وفضلاً عن ذلك، فإن الهر غرون يسهو عن تقرير أن سان سيمون كان راغباً في كسب تأييد نائب الملك لمشروعه، وبذلك يعطي الانطباع بأن المشروع كان مجرد "فكرة" عرضت له. وإنه ليسهو كذلك عن ذكر أن سان سيمون لم يفعل ذلك إلا بعدما تمَّ "السلم"، والسبب في ذلك أن شتاين يكتفي بالإشارة إلى ذلك ضمنياً بإعطاء التاريخ.

ويستطرد الهر غرون من دون توقف:

"فيما بعد" (متى؟) "رسم مشروعاً من أجل حملة فرنسية هولندية إلى جزر الهند البريطانية". (المصدر نفسه).

شتاين:

"قصد هولندا في عام ١٧٨٥ كي يرسم مشروعاً من أجل حملة فرنسية – هولندية مشتركة ضد المستعمرات البريطانية في الهند". (ص ١٤٣).

يخطئ شتاين هنا، وينسخه غرون بأمانة. وفقاً لسان سيمون نفسه، فإن الدوق دي لا فوغيون قد حثَّ مجلس الطبقات الثلاث[٢٥٥] على القيام بحملة مشتركة مع فرنسا إلى المستعمرات البريطانية في الهند. وفيما يخصه شخصياً، فإن كل ما يقوله هو أنه "لاحق" " طوال عام تنفيذ هذه الخطة".

(*) -Soldat de l´indépendance américaine , il servait sous washington...la guerre, elle-même, ne m´intéressait vivement, et cet interêt m´en faisait supporter sans répugnance

بالفرنسية في النص الأصلي.

الهرغرون:

"حين كان في إسبانيا، أراد أن يحفر قناة من مدريد إلى البحر". (المصدر نفسه).

لقد أراد سان سيمون أن يحفر قناة؟ يا للهراء من قبل خطر له، والآن يريد. إن غرون يحرف الحقائق هنا ليس لأنه ينسخ شتاين بأمانة مفرطة كما فعل من قبل، بل لأنه ينسخه بصورة سطحية جداً هذه المرة.

شتاين، ص ١٤٤:

"وبعدما عاد إلى فرنسا في عام ١٧٨٦، زار إسبانيا من جديد، في السنة الثانية بالضبط، كي يقدم إلى الحكومة مشروعاً من أجل إنجاز قنال من مدريد إلى البحر".

وكان في مقدور الهر غرون أن يشتق العبارة السابقة وهو يتصفح شتاين، لأن الأمر كان يبدو على الأقل عند شتاين كما لو أن خطة البناء وفكرة المشروع بكامله هما من سان سيمون. وحقيقة الأمر أن سان سيمون لم يفعل سوى رسم خطة من أجل التغلب على المصاعب المالية التي تعوق إنشاء القنال. هذا الإنشاء الذي كان قد بوشر به قبل وقت طويل.

ريبو:

"بعد ست سنوات اقترح على الحكومة الإسبانية خطة للقنال كان يجب أن تنشئ خطاً ملاحياً من مدريد إلى البحر"(*). (ص ٧٨).

إنها الخطيئة نفسها التي ارتكبها شتاين.

سان سيمون، (P. XVII)

"كانت الحكومة الإسبانية قد باشرت قنالاً من المفروض أن تصل مدريد بالبحر؛ وكان هذا المشروع نائماً لأن هذه الحكومة كانت تفتقر إلى العمال والمال؛ وتشاورت مع الكونت دي كاباروس، وهو اليوم وزير المالية، وقدمنا للحكومة المشروع التالي"(**)، الخ.

(*) (six ans plus tard, il proposa au gouvernement espagnol un plan du canal qui devait établir une voie navigable de Madrid à la mer. P. 78)، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) (le gouvernement espagnol avait entrepris un canal qui devait faire communiquer Madrid à la mer; cette entreprise languissait parce que ce gouvernement manquait d'ouvriers et d'argent; je me concentrai avec M. le comte de Cabarrus (aujourd'hui ministre des finances, et nous présentâmes au gouvernement le projet suivant… etc)، بالفرنسية في النص الأصلي.

الهر غرون:

"في فرنسا ضارب (spécule) في الأملاك الوطنية".

إن شتاين يرسم بادئ الأمر موقف سان سيمون خلال الثورة، ومن ثم ينتقل إلى مضاربته في الأملاك الوطنية، ص ١٤٤ وما يليها. لكن من أين حصل الهر غرون على هذا التعبير السخيف: "ضارب في الأملاك الوطنية"، بدلاً من أنه تاجر في الأملاك الوطنية، هذا ما نستطيع أن نوضحه على أفضل صورة بأن نقدم الأصل إلى القارئ.

ريبو، ص ٧٨:

"حين عاد إلى باريس، وجه فعاليته نحو المضاربات، وتاجر في الأملاك الوطنية"(*).

إن الهر غرون يقدم البيان السابق من دون أن يعطي أي إيضاح، إنه لا يشير إلى السبب في أن سان سيمون سوف يتاجر في الأملاك الوطنية، وفي أن هذه الحقيقة، التافهة بحدِّ ذاتها، سوف يكون لها شأن في حياته. ذلك أن الهر غرون يجد من النافل أن ينقل عن شتاين وريبو حقيقة أن سان سيمون كان راغباً في تأسيس مدرسة علمية ومشروع صناعي كبير يصفه التجربة، وأنه كان ينوي جمع رأس المال الضروري بواسطة الإتجار، وهذه هي الأسباب التي يقدمها سان سيمون نفسه من أجل متاجراته (المؤلفات، ص XIX).

الهر غرون:

"ويتزوج بحيث يكون في مقدوره أن يعمل مضيفاً للعلم، أن يتقصى بالتجربة حياة البشر ويستغل البشر سيكولوجياً". (المصدر نفسه).

إن الهر غرون هنا يقفز بصورة مفاجئة من فوق إحدى أهم المراحل في حياة سان سيمون - مرحلة دراساته العلمية وأسفاره لهذا الغرض. ما معنى أن يتزوج المرء ليكون مضيفاً للعلم؟ ما معنى أن يتزوج كي يستغل سيكولوجيا البشر (الذين لا يتزوجهم المرء)، الخ؟ هذا هو التفسير الكامل لذلك: لقد تزوج سان سيمون بحيث يستطيع أن يقيم صالوناً ويدرس فيه، في عداد الأشخاص الآخرين، رجال المعرفة أيضاً.

(*) (Revenu à Paris, il tourna son activité vers des spéculations, et trafiqua sur les domaines nationaux)، بالفرنسية في النص الأصلي.

ويعبر شتاين عن ذلك كما يلي، ص ١٤٩:

"يتـزوج عـام ١٨٠١... انتفعـت مـن حياتـي الزوجيـة كـي أدرس رجـال المعرفـة". (راجـع سـان سـيمون، ص ٢٣).

إن عبـارة الهـر غـرون السـخيفة تصبـح قابلـة للتفسـير ومفهومـة الآن، بعدمـا تمـت مقارنتهـا بالأصـل.

إن "الاسـتغلال السـيكولوجي للبشـر"، هـذه الكلمـات الضخمـة ترجـع عنـد شـتاين وعنـد سـان سيمون نفسـه إلـى مجـرد مشـاهدة رجـال المعرفـة فـي حياتهـم الاجتماعيـة. لقـد كان ممـا يتفـق مـع نظـرة سـان سـيمون الاشـتراكية أن يرغـب فـي التعـرف إلـى تأثيـر العلـم فـي شـخصية رجـال المعرفـة وفـي سـلوكهم فـي الحيـاة العاديـة. وإن هـذه الرغبـة تنقلـب بالنسـبة إلـى الهـر غـرون إلـى نـزوة غامضـة، عديمـة المعنـى، لهـا طعـم الأقصوصـة.

الهر غرون:

"أصبح فقيـراً" (كيـف؟ بأيـة طريقـة؟)، "فهـو كاتـب فـي مكتـب لإقـراض المـال بأجـرة ألـف فرنـك سـنوياً – هـو الكونـت، سـليل شـارلمان؛ ومـن بعـد" (متـى ولمـاذا؟) "عـاش علـى نفقـة أحـد خدمـه السـابقين، وفـي وقـت لاحـق" (متـى ولمـاذا؟) "حـاول أن يقتـل نفسـه بالرصـاص، وأنقـذ، وبـدأ حيـاة جديـدة مـن الدراسـة والدعايـة - ووقتئـذٍ فقـط كتـب مؤلفيـه الرئيسـيين".

"أصبـح"- "ومـن بعـد" - "وفـي وقـت لاحـق" - "وقتئـذٍ" - إن مثـل هـذه العبـارات فـي مؤلـف الهـر غـرون تقـوم مقـام التقويـم وتوضـح تسلسـل المراحـل المختلفـة فـي حياة سـان سـيمون.

شتاين، ص ١٥٦، ١٥٧:

"وفضـلاً عـن ذلـك، ظهـر عـدو جديـد ورهيـب - الفقـر الفعلـي، الـذي يـزداد وقعـاً يومـاً بعـد يـوم... وبعـد انتظـار أليـم طـوال سـتة أشـهر... حصـل علـى عمـل- " (إن الهـر غـرون يسـتعير حتـى هـذا الخلـط مـن شـتاين، لكنـه علـى قـدر كافٍ مـن الحيلـة بحيـث يحشـره بعـد مكتـب إقـراض المـال) "ككاتـب فـي مكتـب إقـراض المـال" (ليـس كمـا يكتـب ذلـك الهـر غـرون بحـذق، "فـي مكتـب لإقـراض المـال"، طالمـا أنـه مـن المعـروف أنـه لا يوجـد فـي باريـس سـوى مؤسسـة واحـدة

من هذا النوع، وهي مؤسسة عامة) "بأجر ألف فرنك سنوياً. يا لانقلاب الحظ الغريب في تلك الأيام! حفيد الجليس الشهير للويس الرابع عشر، وريث تاج دوقي وثروة هائلة، أحد أشراف فرنسا ونبلاء إسبانيا بالولادة - كاتب في مكتب لإقراض المال!".

إننا نرى الآن مصدر خطيئة الهر غرون بخصوص مكتب إقراض المال؛ إن التعبير هنا، عند شتاين، في مكانه المناسب تماماً. وإن غرون، كي يؤكد على الفرق بينه وبين شتاين، يكتفي بأن يسمي سان سيمون "كونتاً و"سليلاً لشارلمان". إنه يستعير هذه الحقيقة الأخيرة من شتاين (ص ١٤٢) وريبو (ص ٧٧)، اللذين هما بالمقابل على قدر كافٍ من الحكمة كي يقولا: إن سان سيمون نفسه هو الذي يزعم أنه سليل شارلمان. ويقدم شتاين حقائق إيجابية تجعل فقر سان سيمون يبدو باعثاً على الدهشة في ظل حكم عودة الملكية؛ وبدلاً من ذلك فإن الهر غرون لا يفعل سوى التعبير عن دهشته لأن كونتاً وسليلاً مزعوماً لشارلمان يمكن أن يجد نفسه في ظروف قاهرة.

شتاين:

"عاش سنتين أخريين" (بعد محاولته الانتحار) "ولعله أنجز خلالهما أكثر مما أنجزه خلال أي عقدين سابقين في حياته. إن كتاب التعليم المسيحي للصناعيين قد اكتمل(le catéchisme des industriels fut terminé) "(إن الهر غرون يحول إكمال مؤلف كان قيد التحضير منذ زمن طويل إلى: "وقتئذٍ فقط كتب"، الخ...) "والمسيحية الجديدة (le nouveau christianisme)، الخ..." (ص ١٦٤، ١٦٥).

وفي الصفحة ١٦٩، يسمي شتاين هذين الكتابين "المؤلفين الرئيسيين لحياته".

وهكذا، فإن غرون لم ينسخ أخطاء شتاين فحسب، بل صنع أخطاء جديدة أيضاً، انطلاقاً من مقاطع غامضة من شتاين. وإنه لينتقي، إخفاء لانتحاله، الحقائق البارزة فحسب، بيد أنه يجردها من طابعها بوصفها حقائق إذ ينتزعها من سياقها الزمني ويحذف، لا الحوافز المتحكمة فيها فحسب، بل حتى الحلقات الجامعة الأكثر حيوية. إن ما قدمناه أعلاه هو، بصورة حرفية، كل ما لدى غرون ليرويه عن حياة سان سيمون. ففي روايته تصبح حياة سان سيمون النشيطة والعاصفة مجرد سلسلة من الأفكار والأحداث التي هي أقل أهمية من حياة

أي فلاح أو مضارب عاش إبان تلك الأزمنة العاصفة في أحد الأقاليم الفرنسية. وبعد أن يلقي على الورق بهذه القطعة المزورة من ترجمة حياة مثالية الطابع يهتف: "هذه الحياة المليئة، المتمدنة بصورة صادقة!" بل إنه لا يتوانى عن القول (ص ٨٥): "إن حياة سان سيمون مرآة للسان سيمونية نفسها" - فكأن "حياة" سان سيمون بقلم غرون هي مرآة أي شيء سوى طريقة الهر غرون في تجميع كتاب من رقعٍ مبعثرة.

لقد قضينا بعض الوقت في مناقشة ترجمة الحياة هذه لأنها مثال كلاسيكي على طريقة الهر غرون في معالجة الاشتراكيين الفرنسيين بصورة جامعة. وكما أن الهر غرون في هذه الحالة، كي يخفي انتحاله، يقفز من فوق مقاطع كاملة في لا مبالاة تامة، ويحذف حقائق، ويزوِّر، ويغير مواضع الأمور، فسوف نتفرج عليه في وقت لاحق وهو يظهر جمع أعراض المنتحل الذي يتآكله ضيق باطن: اختلاط مصطنع، الغاية منه جعل المقارنة عسيرة؛ حذف عبارات وكلمات لا يفهمها جيداً، من جراء جهله بالأصل حين يستشهد بمصادره؛ تزيين شاعري في شكل عبارات غامضة المعنى؛ تهجمات غادرة على نفس الأشخاص الذين ينقل عنهم. وفي الحقيقة، إن الهر غرون على عجلة وتهور عظيمين في انتحاله، بحيث كثيراً ما يستشهد بأمور لم يذكرها قط لقرائه، لكنها موجودة في رأسه الخاص، باعتباره أحد قراء شتاين.

ننتقل الآن إلى العرض الذي يقدمه غرون عن مذهب سان سيمون.

١- رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه[٢٥٦]

لم يفهم الهر غرون بوضوح، حين قرأ شتاين، العلاقة القائمة بين خطة مساعدة رجال المعرفة، المرسومة في المؤلف الآنف الذكر، والنظريات العجيبة التي يتضمنها ملحق الكراسة. حين يتحدث عن هذا المؤلف فكأنه يعالج بصورة رئيسية تنظيماً جديداً للمجتمع ويختتم كما يلي:

"السلطة الروحية في أيدي رجال المعرفة، والسلطة الزمنية في أيدي أصحاب الملكية، وحق الانتخاب للجميع"(ص ٨٥). (راجع شتاين، ص ١٥١، وريبو، ص ٨٣).

إن عبارة: "يجب أن تكون سلطة تسمية الأفراد المدعوين إلى ملء وظائف زعماء

الإنسانية بين أيدي جميع الناس"(*) التي يستشهد بها ريبو من سان سيمون (ص ٤٧) والتي يترجمها شتاين بطريقة خرقاء جداً، تؤول عند الهر غرون إلى "حق الانتخاب للجميع"، الأمر الذي يجردها من مغزاها كلياً. إن سان سيمون يشير إلى انتخاب مجلس نيوتن، والهر غرون يشير إلى الانتخاب عامة.

ويتخلص الهر غرون من الرسائل(les lettres) في أربع أو خمس عبارات منسوخة عن شتاين وريبو، لكنه يعود إليها على حين غرة بعد وقت طويل، حين يكون قد مضى بعيداً حتى بلغ المسيحية الجديدة.

"لكن من المؤكد أن العلم المجرد لن يكون كافياً". (وأقل من ذلك الجهل المشخص كما نلاحظ). "من وجهة نظر العلم المجرد، كان ولا يزال هناك، بالطبع، انفصال" بين "أصحاب الملكية" و"جميع الناس" (ص ٨٧).

وينسى الهرغرون أنه حتى الآن لم يأتِ على ذكر سوى "حق الانتخاب للجميع" ولم يأت على ذكر "جميع الناس". وبما أنه يعثر على "جميع الناس" عند شتاين وريبو فيجب أن يضع "جميع الناس" بين قوسين صغيرين. وفيما عدا ذلك، فإنه ينسى أنه لم يستشهد بالعبارة التالية عند شتاين، وهي العبارة التي تسوغ كلمة " بالطبع" في عبارته الخاصة.

"إنه": (سان سيمون) "يميز" فيما عدا الحكماء أو رجال المعرفة، بين أصحاب الملكية وجميع الناس. وصحيح أنه لا يوجد بعد أية حدود مرسومة بوضوح بين هؤلاء وأولئك... ومع ذلك فإن هذه الصورة الغامضة عن "جميع الناس" تتضمن بذرة تلك الطبقة التي توجهت نظريته في وقت لاحق نحو تفهمها، ألا وهي الطبقة الأكثر عدداً والأعظم فقراً(**)؛ وفي الحقيقة، إن هذا القسم من الشعب لم يكن في ذلك الوقت حاضراً إلا "بصورة كمونية" (ص ١٥٤).

إن شتاين يؤكد على حقيقة أن سان سيمون يميز سلفاً بين "أصحاب الملكية" و"جميع

(*) (le pouvoir de nommer les individus appelés à remplir les fonctions des chefs de l'humanité entre les mains de tout le monde)، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) (la classe la plus nombreuse et la plus pauvre, p. 154).، بالفرنسية في النص الأصلي.

البشـر"، لكنـه تمييـز غامـض جـداً بعـد. ويشـوه الهـر غـرون العبـارة بحيـث يبـدو أنـه ممـا يبعـث علـى الدهشـة أن يكـون سـان سـيمون يقيـم بعـد أي تمييـز علـى الإطـلاق. ومـن الطبيعـي أن تلـك خطيئـة كبيـرة مـن جانـب سـان سـيمون ولا يمكـن تفسـيرها إلا بحقيقـة أن سـان سـيمون يتخـذ فـي الرسـائل وجهـة نظـر العلـم المجـرد. ومـن المؤسـف أن سـان سـيمون، فـي الفقـرة المذكـورة، لا يتحـدث مطلقـاً عـن الفـروق فـي نظـام اجتماعـي مقبـل، كمـا يحسـب الهـر غـرون. إنـه يتوجـه، بهـدف الكتابـة، إلـى كل الجنـس البشـري الـذي يبـدو لـه، فـي شـكله الحالـي، منقسـماً إلـى ثـلاث طبقـات ليسـت هـي، كمـا يعتقـد شـتاين، رجـال المعرفـة، وأصحـاب الملكيـة، وجميـع النـاس، بـل:

١- رجال المعرفة والفنانون وجميع أصحاب الأفكار الليبرالية؛

٢- خصوم التجديد، أي المالكون بقدر ما يرتبطون بالطبقة الأولى؛

٣- فائض الجنس البشري الذي يتجمع حول كلمة المساواة.

إن هـذه الطبقـات الثـلاث هـي التـي تشـكل "جميـع النـاس". راجـع سـان سـيمون، الرسـائل، (ص ٢١ - ٢٢). وبمـا أن سـان سـيمون، فضـلاً عـن ذلـك، يقـول فـي وقـت لاحـق إنـه يعتبـر توزيعـه للسـلطة مفيـداً لجميـع الطبقـات، فإنـه فـي مقدورنـا أن نأخـذ ذلـك علـى أن عبـارة "جميـع البشـر"، فـي الموضـوع حيـث يتحـدَّث عـن ذلـك التوزيـع، (ص ٤٧): تقابـل بـكل وضـوح "الفائـض" الـذي يتجمـع حـول شـعار "المسـاواة"، مـن دون اسـتبعاد الطبقـات الأخـرى علـى أيـة حـال. إن شـتاين مصيـب بصـورة تقريبيـة، علـى الرغـم مـن أنـه لا يعيـر انتباهـاً إلـى الفقـرة الـواردة (فـي الصفحتيـن ٢١، ٢٢). وإن الهرغـرون، الـذي لا يعـرف شـيئاً مـن الأصـل، يتشـبث بخطيئـة شـتاين الهزيلـة وينجـح فـي أن يجعـل محاكمتـه هـراءً صرفـاً.

ونصـادف فـي الحـال مثـالاً أشـد بـروزاً علـى ذلـك؛ إننـا نعلـم علـى حيـن غـرة، (ص ٩٤)، حيـث لـم يعـد الهـر غـرون يتحـدَّث عـن سـان سـيمون، بـل عـن مدرسـته:

"يتفـوه سـان سـيمون فـي أحـد كتبـه بهـذه الكلمـات العجيبـة: "سـوف تُقبـل النسـاء، بـل يمكـن تسـميتهن". إن كل القـدرة العملاقـة الخاصـة بتحريـر النسـاء قـد انبثقـت مـن هـذه الحبـة (graine) نصـف المجدبـة".

بالطبـع، إذا كان سـان سـيمون قـد تحـدَّث فـي هـذا المؤلـف أو ذاك عـن قبـول النسـاء وتسـميتهن مـن دون أن نعـرف الغـرض مـن ذلـك، فتلـك سـوف تكـون "كلمـات عجيبـة" حقـاً. بيـد أن العجـب لا وجـود لـه إلَّا فـي رأس الهـر غـرون وحـده. ليـس مـا يسـميه "أحـد كتـب سـان سـيمون" إلا: رسـائل أحـد سـكان جنيـف [les lettres d'un habitant de genéve] بالـذات. وفـي هـذا المؤلَّـف، بعدمـا يقـرر أن كل امـرئ مؤهـل للاكتتـاب فـي مجلـس نيوتـن أو أحـد فروعـه، يسـتطرد قائـلاً: "إن النسـاء يقبلـن للاكتتـاب، بـل يمكـن تسـميتهن(*)،يعني لمركـز فـي هـذا المجلـس أو أحـد فروعـه بالطبـع. وإن شـتاين يستشـهد بهـذه الفقـرة فـي سـياق مناقشـته للكتـاب نفسـه ويعلـق عليهـا كمـا يلـي:

"... هنـا يجـب أن تصـادف بـذور آرائـه اللاحقـة وحتـى آراء مدرسـته؛ وحتـى الفكـرة الأولـى عـن تحريـر النسـاء". (ص ١٥٢).

إن شـتاين يشـير بصـواب تـام، فـي هامـش، إلـى أن أولنـد رودريغـز طبـع هـذه الفقـرة بأحـرف عريضـة فـي طبعتـه لعـام ١٨٣٢، مـا دامـت تشـكل الإشـارة الوحيـدة إلـى تحريـر النسـاء عنـد سـان سـيمون، وذلـك لأسـباب المناظـرة. وإن الهـر غـرون، كـي يخفـي انتحالـه، يشـير إلـى هـذه الفقـرة فـي حديثـه عـن المدرسـة السـان سـيمونية وليـس بخصـوص الكتـاب، كمـا يجـب أن يفعـل، الأمـر الـذي يـؤدي إلـى الهـراء الـوارد أعـلاه، ويحـول "بـذرة" شـتاين إلـى "حبـة"، ويزعـم بصـورة صبيانيـة أن هـذه الفقـرة هـي أصـل مذهـب تحريـر النسـاء.

ويجـازف الهرغـرون بـرأي عـن التناقـض الـذي يعتقـد بوجـوده بيـن رسـائل أحـد سـكان جنيـف والتعليـم المسـيحي للصناعييـن، هـذا التناقـض الـذي يسـتقيم فـي حقيقـة أن حقـوق العمـال مؤكـدة فـي التعليـم المسـيحي. وفـي الحقيقـة أنـه لـم يكـن للهـر غـرون بـد مـن اكتشـاف هـذا التناقـض حتـى يقـارن الرسـائل والتعليـم المسـيحي كمـا وصـلا إليـه عـن طريـق شـتاين وريبـو. ولـو أنـه قـرأ سـان سـيمون بنفسـه، فقـد كان يكتشـف فـي الرسـائل لا تناقضـاً، بـل "حبـة" المفاهيـم التـي شـرحت فـي وقـت لاحـق، وعلـى الأخـص فـي التعليـم المسـيحي. مثـال ذلـك:

(*) Les femmes seront admises à souscrire, elles pourront être nommées.، بالفرنسية في النص الأصلي.

"إن جميع الرجال سوف يشتغلون(*)" (الرسائل، ص ٦٠) "إذا كان نخاعه" (نخاع الرجل الغني) "غير ملائم للعمل، فسوف يكون مضطراً لتشغيل يديه، ذلك أنه من المؤكد أن نيوتن لن يترك على هذه الكرة الأرضية... عمالاً في المشغل لا جدوى منهم بملء إرادتهم"(**). (ص ٦٤).

٢- التعليم المسيحي السياسي للصناعيين(٧٥٢)

لما كان شتاين يستشهد عادة بهذا المؤلف معطياً إياه اسم التعليم المسيحي للصناعيين، فإن الهرغرون لا يعرف بالطبع عنواناً آخر له. لكن بما انه يكرّس عشرة أسطر لهذا المؤلف حين يأتي إلى الحديث عنه بحكم المنصب(***)، فإن المرء يتوقع منه على الأقل أن يعطيه عنوانه الصحيح.

وبعدما نقل عن شتاين حقيقة أن سان سيمون يقترح في هذا المؤلف وضع السلطة في أيدي العمال، فهو يستطرد قائلاً:

"إن العالم ينقسم الآن بالنسبة إليه إلى عاطلين وصناعيين". (ص ٨٥).

يخطئ الهرغرون هنا. إنه ينسب إلى التعليم المسيحي التمييز الذي يصادفه مقرراً بعد ذلك بوقت طويل عند شتاين، بمناسبة مدرسة سان سيمون.

شتاين، (ص ٢٠٦):

"لا يتألف المجتمع في الوقت الراهن إلا من عاطلين وعمال" (أنفانتان).

وبدلاً من هذا التقسيم المزعوم الذي لا وجود له في التعليم المسيحي، نصادف في هذا الكتاب تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، الطبقات الإقطاعية والمتوسطة

(*) tous les hommes travaillerant، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) si ca cervelle" (celle du riche) "ne sera pas propre au travail, il sera bien obligé de faire travailler ses bras; car Newton") (ne laissera sûrement pas sur cette planéte… des ouvriers volontairement inutiles dans l'atelier" P. 64)، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) ex officio، باللاتينية في النص الأصلي..

والصناعيـة(*)(٢٥٨)، وهـو التقسـيم الـذي لايسـتطيع الهـر غـرون طبعـاً أن يتوسـع فيـه مـن دون انتحـال شـتاين، طالمـا أنـه لا يعـرف هـو نفسـه التعليـم المسـيحي.

عندئـذٍ يكـرر الهرغـرون مـرة أخـرى أن أولويـة العمـل تشـكل محتـوى التعليـم المسـيحي، ويختتم تقريـره عـن المؤلـف كمـا يلـي:

"بالضبـط كمـا أن النزعـة الجمهوريـة تنـادي: كل شـيء للشـعب، كل شـيء بالشـعب، فـإن سـان سـيمون ينـادي، كل شـيء بالصناعـة، كل شـيء لهـا". (المصـدر نفسـه).

شتاين، (ص ١٦٥):

"بما أن الصناعة هي مصدر جميع الأشياء، فإن جميع الأشياء يجب أن تخدمها".

ويقررشـتاين بحـق (ص ١٦٠، الهامـش) أن مؤلفـاً لسـان سـيمون صـادراً منـذ عـام ١٨١٧، الصناعـة [L'Industrie]، يحمـل هـذا الشـعار: كل شـيء بالصناعـة، كل شـيء لهـا(**)، وبالتالـي فـإن الهـر غـرون، فـي سـياق تقريـره عـن التعليـم المسـيحي، لا يرتكـب فحسـب الخطيئـة المذكـورة أعـلاه بـل يخطـئ فـي الاستشـهاد بشـعار مؤلـف صـادر قبـل زمـن طويـل، وهـو لا يملـك عنـه أيـة معرفـة علـى الإطـلاق.

ووفقـاً لمقاييـس التعمـق الألمانـي، فـإن هـذا يشـكل نقـداً كافيـاً للتعليـم المسـيحي السياسـي للصناعييـن. بيـد أننـا نصـادف بصـورة مبعثـرة فـي أرجـاء خليـط(***) غـرون حواشـي منعزلـة تخـص هـذا القسـم علـى وجـه الدقـة. إن الهرغـرون، ضاحـكاً بينـه وبيـن نفسـه مـن براعتـه، يـوزع المـواد التـي يصادفهـا فـي نقـد شـتاين للمؤلـف ويسـتخدمها بشـجاعة جديـرة بالإطـراء:

الهرغرون، (ص ٨٧):

"كان التنافـس الحـر مفهومـاً دنسـاً ومختلطـاً، مفهومـاً ينطـوي علـى عالـم جديـد مـن النـزاع والبـؤس، الصـراع بيـن رأس المـال والعمـل وبـؤس العامـل المحـروم مـن رأس المـال. إن سـان

(*) Les classes féodale, intermédiaire et industrielle، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) tout par l'industrie, tout pour elle، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) Omnium gatherum، باللاتينية في النص الأصلي.

سيمون قد طهر مفهوم الصناعة، لقد أرجعه إلى مفهوم عالم العمال، وصاغ حقوقه وآلام الطبقة الرابعة، البروليتاريا. لقد كان ملزماً بأن ينقض حق الوراثة لأن هذا الحق قد أصبح إنكاراً لحق العامل، لحق الصناعي، هذا هو معنى التنظيم المسيحي للصناعيين".

ولقد وجد الهرغرون لدى شتاين، بخصوص التعليم المسيحي (ص ١٦٩):

"إن لدينا ههنا، إذن، المدلول الحقيقي لسان سيمون. لقد تنبأ بأن هذا التناقض" (بين البورجوازية والشعب) "قد كان تناقضاً محتوماً".

هذا هو مصدر فكرة الهرغرون عن "مدلول" التعليم المسيحي.

شتاين:

"إنه" (سان سيمون في التعليم المسيحي) "يبدأ بمفهوم العامل الصناعي".

ويجعل الهرغرون من هذا لغواً تاماً عندما يقول: إن سان سيمون، أمام "المفهوم الدنس" للتنافس الحر، قد "طهر مفهوم الصناعة وأرجعه إلى مفهوم عالم العمال". إن الهرغرون يبين في كل مكان أن مفهومه عن التنافس الصناعي الحر "دنس" جداً و"مختلط" جداً في الحقيقة.

وأما لم يكتف بهذا الهراء، فإن الهرغرون يجازف بكذبة مباشرة ويقرر أن سان سيمون طالب بنقض حق الوراثة.

في الصفحة ٨٨ يخبرنا، معتمداً على تفسيره لرواية شتاين عن التعليم المسيحي:

"لقد حدد سان سيمون حقوق البروليتاريا. لقد أطلق الشعار الجديد: إن الصناعيين، العمال، يجب أن يرفعوا إلى مركز السلطة العليا. لقد كان هذا تحيزاً، لكن كل صراع يتضمن التحيز، وذلك الذي ليس متحيزاً لا يستطيع أن يناضل".

بالرغم من حكمه البليغة عن التحيز، فإن الهرغرون نفسه يرتكب هذه الخطيئة المتحيزة حين يفهم شتاين بصورة منحرفة ويجعله يقول: إن سان سيمون كان يريد أن "يرفع" العمال بكل معنى الكلمة، البروليتاريين، إلى "مركز السلطة العليا". راجع ص ١٠٢، حيث يقول عن ميشيل شوفالييه:

"لا يزال السيد شوفالييه يشير إلى الصناعيين بقدر كبير من التعاطف... بيد أن

الصناعيين ليسوا بعد الآن بالنسبة إلى التلميذ، كما كانوا بالنسبة إلى معلمه، البروليتاريين؛ إنه يجمع الرأسماليين "المتعهدين" والعمال تحت اسم واحد، يعني أنه يضم العاطلين إلى مقولة يجب أن تشمل الطبقة الأفقر والأكثر عدداً وحدها".

وعند سان سيمون أن أصحاب الحرف اليدوية، والتجار، وباختصار جميع الرأسماليين الصناعيين، يشكلون قسماً من الصناعيين إلى جانب العمال، وفي الحقيقة أنه يتوجه إليهم في الدرجة الأولى. ولقد كان في مقدور الهرغرون أن يجد ذلك في الصفحة الأولى بالضبط من التعليم المسيحي. بيد أن المرء يستطيع أن يرى كيف أنه يلفق من السماع عبارات رائعة عن الكتاب من دون أن يكون قد شاهده قط.

يقول شتاين، في مناقشته التعليم المسيحي:

"من بعد... يأتي سان سيمون إلى تاريخ الصناعة في علاقتها بسلطة الدولة... إنه السباق إلى الوعي بأن عوامل سياسية تكمن مختبئة في علم الصناعة... ومما لا ينكر أنه نجح في إعطاء انطلاقة حاسمة، ذلك أن فرنسا لا تملك تاريخاً للاقتصاد إلا ابتداء من سان سيمون"، الخ، (ص ١٦٥، ١٧٠).

إن شتاين نفسه غامض حتى الدرجة القصوى عندما يتحدث عن "العوامل السياسية" في "علم الصناعة". لكنه يبين أن حدسه كان صائباً عندما يضيف أن تاريخ الدولة مرتبط بصورة وثيقة بتاريخ الاقتصاد الوطني.

لنر كيف أن الهرغرون، في مناقشته لمدرسة سان سيمون، ينتحل هذه المقاطع من شتاين:

"لقد حاول سان سيمون أن يكتب تاريخاً للصناعة في كتابه التعليم المسيحي للصناعيين يؤكد على العنصر السياسي فيه. وبالتالي كان المعلم نفسه قد عبد الطريق إلى الاقتصاد السياسي". (ص ٩٩).

و"بالتالي" فإن الهر غرون يحوّل بادئ الأمر "العامل السياسي" لشتاين إلى "عنصر سياسي" ويقلبه إلى عبارة لا معنى لها من جراء حذف التفاصيل التي يعطيها شتاين. إن هذا "الحجر"(*) الذي رفعه "البناؤون" قد أصبح بالفعل بالنسبة إلى الهر غرون "حجر الزاوية"

(*) تلاعب بكلمة Stein التي تعني في الألمانية حجراً.

لرسائله ودراساته. بيد أنه أصبح كذلك بالنسبة إليه حجر عثرة. وليس هذا بكل شيء. فبينما يقول شتاين: إن سان سيمون قد عبد الطريق أمام تاريخ للاقتصاد السياسي بتأكيده على العامل السياسي في علم الصناعة، فإن الهر غرون يجعل منه رائد الاقتصاد السياسي بالذات. وهذه هي محاكمة الهر غرون على وجه التقريب: لقد كان العلم الاقتصادي معروفاً بصورة مسبقة قبل سان سيمون، لكن سان سيمون، كما يروي شتاين، قد أكد على العامل السياسي في الصناعة، وبذلك فقد جعل علم الاقتصاد سياسياً - علم الاقتصاد السياسي = الاقتصاد + السياسة، وبذلك عبّد سان سيمون الطريق أمام الاقتصاد السياسي. مما لا ريب فيه أن الهر غرون يبرهن، في تخميناته، على روح عبقري.

وبالضبط كما يجعل من سان سيمون رائد الاقتصاد السياسي، فإنه يجعل منه رائد الاشتراكية العلمية:

"إنها" (السان سيمونية) "تتضمن... الاشتراكية العلمية، لأن سان سيمون قد قضى حياته بأسرها يبحث عن هذا العلم الجديد"! (ص ٨٢).

٣- المسيحية الجديدة[٩٥٢]

يواصل الهرغرون، بألمعيته المألوفة، إعطاءنا مقتطفات من شتاين وريبو، ويضيف إليها زخارف أدبية ويقطع أوصالها بطريقة لا تعرف معنى للرحمة. وإن مثالاً واحداً سوف يكفي ليبين أنه لم يلق قط نظرة واحدة على أصل هذا الكتاب أيضاً.

"لقد استهدف سان سيمون إنشاء نظرة فلسفية متماسكة إلى الحياة، متكيفة مع المراحل العضوية للتاريخ، التي يقيم التعارض بصورة واضحة بينها وبين المراحل النقدية. ووفقاً له، فإننا نحيا منذ لوثر في مرحلة نقدية، وكان يفكر في استهلال مرحلة عضوية جديدة. ومن هنا كان عنوان المسيحية الجديدة [Nouveau christianisme]". (ص ٨٨).

إن سان سيمون لم يقم التعارض في أي وقت وفي أي مكان بين المراحل العضوية والنقدية من التاريخ. هذا تزوير فعلي من جانب الهرغرون. كان بازار أول من صنع هذا التمييز. ولقد اكتشف الهر غرون عند شتاين وريبو أن سان سيمون في المسيحية الجديدة

يجد نقد لوثر صالحاً، لكنه يجد مذهبه الوضعي، العقائدي، مغلوطاً. ويخلط الهرغرون هذه العبارة مع ما يتذكر أنه قيل في المصادر نفسها عن مدرسة سان سيمون، ويختلق من كليهما التأكيد السابق.

وبعد بضع تعليقات مزخرفة عن حياة سان سيمون وعن مؤلفات أنتجها الهرغرون بالطريقة التي وصفناها سابقاً والتي تستخدم بصورة حصرية شتاين وكوكبة المرشد ريبو، يختتم الهرغرون بالهتاف:

"وإن أولئك المرائين الأخلاقيين، الهر ريبو وكل تلك الغوغاء من الببغاوات الألمان، يعتقدون أن من واجبهم الدفاع عن سان سيمون إذ يعلنون بحكمتهم المألوفة أن مثل هذا الإنسان ومثل هذه الحياة يجب ألا يقاسا بالمقاييس العادية: أخبروني هل مقاييسكم مصنوعة من خشب؟ قولوا الحقيقة! سوف يسرنا تماماً أن تكون مصنوعة من جذع سنديانة صلبة. ناولوني إياها! سوف نقبلها كهدية ثمينة: ولن نحرقها، حاشا الله! سوف نستعملها لنقيس ظهور المرائين". (ص ٨٩).

إن الهرغرون يحاول بمثل هذا التبجح المدعي أن يبرهن تفوقه على الرجال الذين ينسخهم.

٤ ـ مدرسة سان سيمون

بما أن الهرغرون لم يقرأ عن مدرسة سان سيمون [L´école saint-simonieme] إلا ما قرأه من سان سيمون نفسه، يعني لا شيء على الإطلاق، فقد كان من واجبه على الأقل أن يقدم خلاصة مناسبة لشتاين وريبو، وكان من واجبه أن يحترم الترتيب الزمني، وكان من واجبه أن يقدم رواية متماسكة عن مجرى الأحداث، وكان من واجبه أن يأتي على ذكر النقاط الأساسية. لكنه لا يبالي بذلك، ويفعل العكس تماماً، يدفعه إحساسه بالخطأ، فيخلط كل الأشياء قدر المستطاع، ويسقط المواد الأكثر جوهرية، ويسبب تشويشاً أعظم من ذلك الذي شاهدناه في الفصل المكرس لسان سيمون نفسه. وسوف نكون أكثر إيجازاً هنا، لأن تسجيل كل انتحال وكل خطيئة سيتطلب منا مجلداً لا يقل ضخامة عن مجلد الهرغرون.

ولا نعطي أية معلومات عن المرحلة التي انقضت بين وفاة سان سيمون واندلاع ثورة تموز (يوليو)-وهي مرحلة تغطي قسماً من التطور النظري الأهم للسان سيمونية. وهكذا فإن النقد السان سيموني للنظام القائم، وهو الجانب الأهم من السان سيمونية، لا وجود له بكل بساطة بالنسبة إلى الهرغرون. ومما لا ريب فيه أنه سيكون من الشاق عليه أن يقول أي شيء عن ذلك النقد من دون معرفة المصادر، والصحف بصورة خاصة.

يفتتح الهرغرون محاضرته عن السان سيمونية بالكلمات التالية:

"لكل حسب قدرته، ولكل قدرة حسب أعمالها، تلك هي العقيدة العملية لأنصار سان سيمون".

ويقدم الهرغرون هذه العبارات، مثله مثل ريبو (ص ٩٦)، على أنها انتقال من سان سيمون إلى السان سيمونية ويستطرد:

"إن هذه العقيدة مستقاة بصورة مباشرة من كلمات سان سيمون الأخيرة: يجب أن يضمن لسائر البشر التطور الأكثر حرية لمواهبهم الطبيعية".

ولقد أراد الهرغرون في هذه الحالة أن يصوغ روايته بطريقة مختلفة عن ريبو الذي يربط هذه العقيدة "العقيدة العملية" مع المسيحية الجديدة. وإنه ليعتقد أن ذلك ابتكاراً من صنع ريبو ولا يتردد في إحلال كلمات سان سيمون الأخيرة محل المسيحية الجديدة. إنه لا يدرك أن ريبو لا يفعل سوى الاستشهاد حرفياً بكتاب مذهب سان سيمون، شرح، السنة الأولى، (ص ٧٠).

ولا يستطيع الهرغرون أن يفهم السبب في أن "العقيدة العملية" تسقط هنا من السماء على حين غرة، عند ريبو، بعد الاستشهاد بمقتطفات عديدة متعلقة بالتراتب الديني للسان سيمونية. ويتخيل الهر غرون أن التراتب يترتب بصورة مباشرة عن هذه العبارة، في حين أن هذه العبارة عن العقيدة العملية لا يمكن في حقيقة الأمر أن تنطوي على إشارة إلى تراتب جديد إلا حين تؤخذ بصورة متضافرة مع الأفكار الدينية للمسيحية الجديدة، أما إذا فصلت عن هذه الأفكار فإنها لا يمكن أن تعبِّر إلا عن الإرادة في إقامة تراتب زمني صرف للمجتمع! ويلاحظ (ص ٩١):

"لـكل حسـب قدرتـه، هـذا يعنـي جعـل التراتـب الكاثوليكـي قانـون النظـام الاجتماعـي. لـكل قـدرة حسـب أعمالهـا، هـذا يعنـي، فضـلاً عـن ذلـك، تحويـل المشـغل إلـى حجـرة المقدسـات وكل الحيـاة المدنيـة إلـى حكـر كهنوتـي"

ذلك أن الهر غرون يجد في المقتطف من التعليق المذكور أعلاه في كتاب ريبو ما يلي:

"إن الكنيسـة العامـة حقـاً سـوف تظهـر... إن الكنيسـة العامـة تحكـم الزمنـي والروحـي علـى حـدٍّ سـواء... العلـم مقـدَّس. والصناعـة مقدسـة... وكل ملكيـة هـي ملكيـة الكنيسـة وكل حرفـة هـي وظيفـة كنسـية، رتبـة فـي التراتـب الاجتماعي.لـكل حسـب قدرتـه، ولـكل قـدرة حسـب أعمالهـا"[*].

وليـس علـى الهرغـرون، كـي يحصـل علـى عبارتـه الخاصـة غيـر المفهومـة علـى الإطـلاق، إلا أن يقلـب هـذا المقطـع ويحـوِّل العبـارات التـي تسـبق النتيجـة إلـى نتيجـة لهـا.

إن الصـورة التـي يعطينـا إياهـا الهرغـرون عـن السـان سـيمونية "مشوشـة وشـائكة جـداً" بحيـث يشـتق بـادئ الأمـر (ص ٩٠) "بروليتاريـا روحيـة" مـن "العقيـدة العمليـة"، ومـن ثم يصنـع مـن البروليتاريا الروحيـة "تراتبـاً للعقـول". وأخيـراً، فإنـه يصنـع مـن تراتـب العقـول قمـة التراتـب. ولـو أنـه قـرأ التعليـق فقـط، فقـد كان رأى كيـف أن التصـور الدينـي للمسـيحية الجديـدة، جنبـاً إلـى جنـب مـع قضيـة كيـف يتـم تحديـد "المقـدرة"، هـو الـذي يـؤدي إلـى ضـرورة التراتـب وقمتـه.

إن هـذه العبـارة الوحيـدة: "لـكل حسـب قدرتـه، ولـكل قـدرة حسـب أعمالهـا"، تشـكل وحدهـا العـرض والنقـد اللذيـن يكرسـهما الهرغـرون للتعليـق فـي ١٨٢٨- ١٨٢٩. وفيمـا عـدا ذلـك، فإنـه يـكاد لا يأتـي حتـى علـى ذكـر المنتـج والمنظـم [Le producteur et l'organisateur] (٢٦٠). إنـه يتصفـح ريبـو ويجـد فـي فصـل "الحقبـة الثالثـة للسـان سـيمونية" (ص ١٢٦) شـتاين (ص ٢٠٥):

(*) (L'Église vraiment universelle va paraître… L'Église universelle gouverne le temporel) le spirituel… la science est" sainte, l'industrie est sainte… et tout bien est bien d'Église et toute profession est une fonction religieuse, un grade dans la hiérarchie sociale- A chacum selon sa capacité, à chaque capacité selon ses œuvres.")، إن هذه الفقرة بكاملها بالفرنسية في النص الأصلي.

"... وفـي الأيـام التاليـة ظهـرت الكـرة الأرضيـة [Le Globe](٢٦١) تحمـل العنـوان الصغيـر التالـي: "صحيفـة مذهـب سـان سـيمون، التـي كانـت ملخصـة فـي الصفحـة الأولـى كمـا يلـي:

الدين

العلم **الصناعة**

الرابطة الكلية"(*)

ويقفـز الهرغـرون مـن العبـارة التـي أوردناهـا لتونـا إلـى عـام ١٨٣١، مـن دون توقـف، مفسـراً ريبـو بالطريقـة التاليـة (ص ٩١):

"يطـرح أنصـار سـان سـيمون الخلاصـة التاليـة لنظامهـم؛ وكانـت الصياغـة مـن صنـع بـازار بصـورة رئيسية:

الدين

العلم **الصناعة**

الرابطة الكلية

ويسـقط الهرغـرون ثـلاث عبـارات تصـادف كذلـك فـي الصفحـة الأولـى مـن الكـرة الأرضيـة (Globe) وتتعلـق جميعـاً بإصلاحـات اجتماعيـة عمليـة، وهـذه العبـارات تصـادف أيضـاً عنـد شـتاين وريبـو علـى حـد سـواء. وإن هـذا يمكنـه مـن تحويـل مـا هـو مجـرد دعايـة للصحيفـة إذا جـاز التعبيـر إلـى "خلاصـة" للنظـام. وإنـه يخفـي حقيقـة أن هـذه "الخلاصـة" ظهـرت علـى الصفحـة

(*) et les jours suivants le Globe parut avec le sous-titre de Journal de la doctrine de Saint-Simon, laquelle était resumée .ainsi sur la première page

Religion

Science Industry

Association universelle

إن هذه الفقرة بكاملها بالفرنسية في النص الأصلي.

الأولى من الكرة الأرضية، وبذلك يستطيع أن ينتقد كل مذهب سان سيمون، كما هو محتوى في عنوان الصحيفة المشوه، مشيراً بكل حصافة إلى أن الدين يحتل مكان الشرف. ولقد كان في مقدوره أن يكتشف عند شتاين أن هذا ليس صحيحاً على الإطلاق بخصوص الكرة الأرضية. فالكرة الأرضية تتضمن نقداً مفصلاً وقيماً جداً للشروط القائمة، وبصورة خاصة الشروط الاقتصادية - وهي حقيقة لا يتوقع من الهرغرون معرفتها.

وإنه لمن الصعب أن نقول من أين حصل الهرغرون على الخبر الجيد والهام بأن "صياغة الخلاصة"، التي يبلغ طولها أربع كلمات، كانت "من صنع بازار بصورة رئيسية".

ويقفز الهرغرون القهقرى الآن من كانون الثاني (يناير) ١٨٣١ إلى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٣٠:

"بعد ثورة تموز بوقت قصير، خلال مرحلة بازار" (من اين جاءت هذه المرحلة؟) "وجه أنصار سان سيمون بياناً مقتضباً لكن شاملاً عن معتقداتهم إلى مجلس النواب، بعدما اتهمهم السيدان دوبان وموغان من على المنبر أنهم يبشرون بجماعية الخيرات والنساء".

ويتلو ذلك نص البيان مع تعليق غرون:

"ذلك كله معقول ومتزن بعد! وأن بازار هو الذي حرر المذكرة إلى المجلس". (ص ٩٢ – ٩٤).

ويمكننا أن نلاحظ، بخصوص هذه الملاحظة الختامية، أن شتاين يقول في الصفحة ٢٠٥:

"إذا حكمنا عليها من شكلها ولهجتها ـ فلن نتردد في أن ننسبها" (الوثيقة) "كما يفعل ريبو إلى بازار أكثر من أنفانتان".

ويقول ريبو (ص ١٢٣):

"من السهل أن نرى، من شكل هذه الوثيقة ومطالبها المعتدلة جداً، أنها تصدر عن تأثير السيد بازار بالأحرى من تأثير زميله"[*].

(*) Aux formes, aux prétentions assez modérées de cet écrit, il est facile de voir qu'il provenait plutôt de l'implusion de")
M.Bazard que de celle de son collégue.")، بالفرنسية في النص الأصلي.

إن الهرغـرون، بمـا يميـزه مـن براعـة وإقـدام، يحـول تخميـن ريبـو بـأن بـازار بالأحـرى مـن أنفانتـان كان خلـف البيـان إلـى التأكيـد بأنـه حـرره بكاملـه. وإن فقـرة مترجمـة عـن ريبـو (ص ١٢٢) هـي التـي تـؤدي بـه إلـى الحديـث عـن هـذه الوثيقـة.

"أشـار السـيدان دوبـان وموغـان مـن علـى المنبـر إلـى فرقـة تبشـر بجماعيـة الخيـرات وجماعيـة النسـاء"(*).

ويغـض الهرغـرون النظـر عـن التاريـخ الـذي أعطـاه ريبـو ويكتفـي بالقـول: "بعـد ثـورة تمـوز (يوليـو) بوقـت قصيـر". وعلـى العمـوم، فـإن التقويـم الصـارم لا يناسـب طريقـة الهرغـرون فـي التخلـص مـن أولئـك الذيـن وطـأوا الأرض قبلـه. إنـه يتميـز هنـا عـن شـتاين بأنـه يحشـر فـي النـص مـا يبعـده شـتاين إلـى الهامـش، ويحـذف الفقـرة التـي تشـكل مقدمـة البيـان، ويترجـم اعتمـادات الإنتـاج (رأس المـال المنتـج) علـى أنهـا "رأس المـال الأساسـي"، وتصنيـف الأفـراد الاجتماعـي علـى أنـه "رتبـة الأفـراد الاجتماعيـة".

ويعقـب ذلـك بعـض الملاحظـات الطائشـة عـن تاريـخ مدرسـة سـان سـيمون، وقـد حزمـت إلـى بعضهـا بعضـاً مـن مقاطـع شـتاين وريبـو ولويـس بـلان بتلـك البراعـة الفنيـة التـي لاحظناهـا فـي ترجمـة غـرون لحيـاة سـان سـيمون. ويسـتطيع القـارئ أن ينظـر إليهـا مـن تلقـاء نفسـه فـي الكتـاب.

أمـام القـارئ الآن كل مـا لـدى الهرغـرون مـن أقـوال عـن السـان سـيمونية فـي مرحلـة بـازار، أي المرحلـة مـن مـوت سـان سـيمون إلـى الانشـقاق الأول. إن غـرون لفـي مركـز حاليـاً يمكنـه مـن أن يوجـه الضربـة القاسـية وأن يسـمي بـازار "جدليـاً رديئـاً". ومـن ثـم يسـتطرد:

> "لكـن كذلـك هـم الجمهوريـون. إنهـم لا يعرفـون إلا كيـف يموتـون، كاتـو وبـازار سـواء بسـواء؛ فـإذا لـم يقومـوا بطعـن أنفسـهم حتـى المـوت، فإنهـم سـيموتون مـن تحطـم قلوبهـم". (ص ٩٥).

> "بعـد أشـهر قليلـة مـن هـذا الخصـام. تحطـم قلبـه" (قلـب بـازار) (شـتاين، ص ٢١٠).

(*) ("MM.Dupin et Mauguin signalérent du haut de la tribune une secte qui prêchait lacommunauté des biens et la communauté des femmes.")، بالفرنسية في النص الأصلي.

أمـا إن ملاحظـة الهرغـرون هـذه بالغـة الفطنـة، فـإن جمهورييـن مـن أمثـال لوفاسـور، وكارنـو، وباريـر، وبيللـو- فاريـن، وبيوناروتـي، وتيسـت، وأرغانسـون،.. يثبتـون ذلـك.

ويقـدم إلينـا الآن بعـض الترهـات عـن أنفانتـان سـوف نقتصـر بخصوصهـا علـى توجيـه الانتبـاه إلـى الاكتشـاف التالـي الـذي حققـه الهرغـرون:

"أفـلا تبيـن هـذه الظاهـرة التاريخيـة أخيـراً أن الديـن ليـس شـيئاً آخـر سـوى الحسـية، وأن الماديـة تسـتطيع بـكل جـرأة أن تدعـي الأصـول نفسـها التـي للعقيـدة المقدسـة نفسـها". (ص ٩٧).

ويتطلـع الهرغـرون حواليـه راضيـاً: "أثمـة امـرؤ آخـر خطـرت لـه هـذه الفكـرة؟" أمـا هـو، فـإن هـذه الفكـرة مـا كانـت تخطـر لـه قـط لـو أن حوليـات هـال لـم "تخطـر لهـا هـذه الفكـرة" مـن قبـل بخصـوص الرومانسـيين[٢٦٢]. ولقـد كان المـرء يتوقـع مـن الهـر غـرون أن تكـون قـد خطـرت لـه أفـكاراً أخـرى منـذ ذلـك الحيـن.

رأينـا أن الهرغـرون لا يعـرف شـيئاً مـن كل النقـد الاقتصـادي لأنصـار سـان سـيمون. ومـع ذلـك فإنـه يسـتغل أنفانتـان ليقـول شـيئاً عـن العواقـب الاقتصاديـة لعمـل سـان سـيمون، التـي سـبق أن كانـت ذريعـة لبعـض الهذيانـات مـن جانبـه. إنـه يجـد فـي ريبـو (ص ١٢٩ ومـا يليهـا) وفـي شـتاين (ص ٢٠٦) مقتطفـات مـن الاقتصـاد السياسـي) لأنفانتـان [des extraits de l'économie politique d'enfantin]، لكنـه يـزوّر الأصـل هنـا أيضـاً، إذ جعـل مـن نقـض الضرائـب علـى السـلع الأكثـر ضـرورة، هـذا النقـض الـذي يقدمـه ريبـو وشـتاين (اللـذان يعتمـدان فـي تقاريرهمـا علـى أنفانتـان) بصـورة صائبـة علـى أنـه نتيجـة للمقترحـات المتعلقـة بحـق الإرث- إجـراء عاديـاً، منعـزلاً، مسـتقلاً عـن المقترحـات. وإنـه ليقيـم برهانـاً آخـر علـى أصالتـه بتزويـر الترتيـب الزمنـي؛ فيشـير بـادئ الأمـر إلـى الكاهـن أنفانتـان ومونيلمونتـان[٢٦٣]، ومـن بعـد إلـى الاقتصـادي أنفانتـان، فـي حيـن أن سـلفيه يعالجـان النظريـة الاقتصاديـة لأنفانتـان خـلال مرحلـة بـازار حيـن يتحدثـان عـن الكـرة الأرضيـة التـي كتبـت تلـك النظريـة لهـا[٢٦٤]. وإذا هو خلـط مرحلة بـازار مـع مرحلـة مونيلمونتـان هنـا، فإنـه سـوف يحـدد فيمـا بعـد مرحلـة مونيلمونتـان مـع مـا يقولـه عـن الاقتصـاد وعـن السـيد شـوفالييه. وإن مناسـبة ذلك هـو الكتـاب الجديـد [Le livre nouveau][٢٦٥]؛ وكما

هـي العـادة فإنـه يحـوّل فرضيـة ريبـو، القائلـة إن السـيد شـوفاليه هـو كاتـب هـذا المؤلـف، إلـى تأكيـد جازم.

لقـد قـدم لنـا الهرغـرون الآن السـان سـيمونية فـي "كلّيتهـا" (ص ٨٢). لقـد وفـى بالوعـد الـذي قطعـه "بـألا يخضـع أدبياتهـا لتمحيـص نقـدي" (المصـدر نفسـه)، وبـدلاً مـن ذلـك تـورط بصـورة لا نقديـة علـى الإطـلاق فـي "أدب" مختلـف كل الاختـلاف، ألا وهـو أدب شـتاين وريبـو. وإنـه ليقـدم إلينـا علـى سـبيل التعويـض بعـض الحقائـق عـن محاضـرات السـيد شـوفالييه الاقتصاديـة لعـام ١٨٤١ - ١٨٤٢، حيـن كان هـذا الأخيـر قـد كـف منـذ زمـن طويـل عـن كونـه تلميـذاً لسـان سـيمون. ولقـد كان أمـام الهرغـرون، وهـو يكتـب عـن السـان سـيمونية، نقـداً لهـذه المحاضـرات فـي مجلـة العالميـن(Revue des deux mondes) اسـتخدمه بالطريقـة نفسـها التـي اسـتخدمها بهـا كل مـن شـتاين وريبـو، وإليكـم نموذجـاً عـن هـذه الفطنـة النقديـة:

"يؤكـد فيـه أنـه لا ينتـج مـا يكفـي مـن الحاجـات. وإن هـذا لتقريـر جديـر بالمدرسـة الاقتصاديـة القديمـة بمسـتبقياتها الصدئـة... وطالمـا أن الاقتصـاد السياسـي لا يفهـم أن الإنتـاج تابـع للاسـتهلاك، فـإن هـذا العلـم المزعـوم لـن يحقـق أي تقـدم" (ص ١٢٠).

ويسـتطيع المـرء أن يتبيـن الامتيـاز السـائد الـذي يتمتـع بـه الهرغـرون علـى أي عمـل اقتصـادي، وذلـك بواسـطة هـذه العبـارات عـن الاسـتهلاك والإنتـاج التـي ورثهـا عـن الاشـتراكية الحقيقيـة. وإذا تركنـا جانبـاً حقيقـة أن أي اقتصـادي يسـتطيع أن يخبـره أن العـرض تابـع للطلـب أيضـاً، يعنـي أن الإنتـاج تابـع للاسـتهلاك، فإننـا نصـادف بالفعـل فـي فرنسـا مدرسـة اقتصاديـة خاصـة هـي مدرسـة سيسـموندي ترغـب فـي جعـل الإنتـاج تابعـاً للاسـتهلاك بشـكل يختلـف عـن الشـكل السـاري المفعـول فـي ظـل التنافـس الحـر، وهـي تقـف فـي تعـارض حـاد مـع الاقتصادييـن الذيـن يهاجمهـم الهـر غـرون. ومهمـا يكـن مـن امـر، فـلا بـد لنـا مـن الانتظـار حتـى وقـت لاحـق كـي نـرى الهرغـرون يسـتخرج ربحـاً مـن هـذا الرأسـمال الذهنـي الصغيـر الـذي عهـد إليـه - فكـرة وحـدة الإنتـاج والاسـتهلاك.

ويسـتحق القـارئ بعـض التعويـض عـن الضجـر الـذي عانـاه مـن جـراء هـذه المقتطفـات

المقتضبة، المزورة والمغشوشة والغامضة المستقاة من شتاين وريبو. وهكذا فإنه يدعى إلى هذا العرض للألعاب النارية الذي تقدمه حركة ألمانيا الفتاة، وهو عرض يتألق بالإنسانية والاشتراكية:

"لم يكن مذهب سان سيمون، بوصفه نظاماً اجتماعياً، أكثر من شلال من الأفكار التي تدفقت بنتائج حميدة على الأرض الفرنسية". (في وقت سابق، في الصفحتين ٨٢ و٨٣، وصف هذا المذهب على أنه "طوفان من النور، لكنه عماء من النور"(!) "بعد وليس وضوحاً منتظماً"(!)) "لقد كان عرضاً جارفاً ومسلياً حتى الدرجة القصوى. ولقد مات المؤلف قبل إخراج العرض، ومات أحد المنتجين أثناء العرض، أما بقية المنتجين وجميع الممثلين فقد خلعوا أزياءهم، وارتدوا ثيابهم المدنية، ومضوا إلى بيوتهم، وتصرفوا كأن شيئاً لم يحدث. لقد كان مشهداً، مشهداً باعثاً على الاهتمام، وإن يكن مضطرباً قرب خاتمته؛ وأن بعض الممثلين قد أبدعوا في التمثيل - وهذا كل شيء". (ص ١٠٤).

لشد ما كان هايني على حق في تأنيبه مقلديه: "لقد زرعت أسنان التنين وحصدت براغيثاً".

مذهب فورييه

فيما عدا ترجمة لبعض المقاطع من الحركات الأربع [Quatre mouvements][٢٦٦] في موضوع الحب، فليس ثمة شيء هنا لا يمكن أن نجده في شكل أكمل عند شتاين. وإن الهر غرون ليطرد الأخلاق بعبارة تفوّه بها مائة كاتب آخر قبل فورييه بوقت طويل:

"ليست الأخلاق في رأي فورييه سوى محاولة منهجية لقمع الأهواء البشرية" (ص ١٤٧).

هكذا عرفت الأخلاق المسيحية نفسها على الدوام. ولا يبذل الهر غرون أية محاولة لتقصي نقد فورييه للزراعة والصناعة الراهنتين، وبقدر ما يتعلق الأمر بالتجارة يقتصر على ترجمة بعض الملاحظات العامة من (أصل الاقتصاد السياسي والجدال التجاري [origine

[de l'économie politique et de la controverse mercantile]، ص ٣٣٢، ٣٣٤ وهــو مدخــل إلــى قســم مــن الحـركات الأربـع). ثـم تأتـي بعـض المقتطفـات مـن الحـركات الأربـع ومقتطـف واحـد مـن مبحـث المشــاركة [traité de l'association][٢٦٧]، عــن الثــورة الفرنســية، جنبــاً إلــى جنــب مــن الجــداول عــن الحضـارة المعروفـة مـن قبـل شـتاين. وهكـذا فـإن الجانـب النقـدي مـن فورييـه، عملـه الأهـم، يطـرح جانبـاً بالطريقـة الأكثـر عجالـة وسـطحية فـي ثمـانٍ وعشـرين صفحـة مـن الترجمـة الحرفيـة؛ وفـي هـذه الصفحـات بالـذات، مـع بعـض الاسـتثناءات النـادرة، لا تناقـش سـوى المواضيـع الأكثـر عموميـة وتجريـداً، فالمواضيـع التافهـة والهامـة تلقـى جنبـاً إلـى جنـب بالأسـلوب الأكثـر فوضويـة.

ويقـدم لنـا الهـر غـرون الآن عرضـاً عـن نظـام فورييـه. إن شـوروا[٢٦٨]، الـذي يستشـهد شـتاين بمؤلفـه، قـد أعطانـا قبيـل ذلـك بوقـت طويـل نصـاً أفضـل وأكمـل. ومـن المؤكـد أن الهـر غـرون يعتبـر أنـه "مـن الضـروري بصـورة حيويـة" أن يقـدم تفسـيراً عميقـاً لمجموعـات فورييـه؛ ومهمـا يكـن مـن أمـر، فإنـه ليـس فـي مقـدوره أن يفكـر فـي شـيء أفضـل مـن الاستشـهاد الحرفـي بفورييـه نفسـه، وكمـا سـوف نـرى فـي وقـت لاحـق مـن سـبك بعـض العبـارات القليلـة الرائعـة عـن الأعـداد... إنـه لا يفكـر قـط فـي أن يبيـن كيـف انتهـى فورييـه إلـى التبـادل مـع المجموعـات[٢٦٩]، وكيـف بناهـا هـو وتلامذتـه؛ وهـو لا يكشـف عـن أي شـيء علـى الإطـلاق بخصـوص تناقـض المجموعـات. فليـس فـي الإمـكان نقـد مثـل هـذه الإنشـاءات (وهـذا ينطبـق أيضـاً علـى الطريقـة الهيغليـة) إلا بالإبانـة عـن كيفيـة صنعهـا، وبالتالـي إثبـات أن المـرء يتحكـم فيهـا.

وأخيـراً، فـإن الهـر غـرون يهمـل بصـورة كاملـة علـى وجـه التقريـب موضوعـاً يخصـه شـتاين علـى أيـة حـال ببعـض الانتبـاه، ألا وهـو التعـارض بيـن العمـل البغيـض والعمـل الجـذاب.

إن المظهـر الأهـم مـن العـرض بأكملـه هـو نقـد الهـر غـرون لفورييـه. وإن القـارئ يسـتطيع أن يتذكـر مـا قيـل أعـلاه بشـأن مصـادر نقـد غـرون، ولسـوف يـرى الآن مـن الأمثلـة القليلـة التاليـة كيـف يقبـل الهـر غـرون بـادئ الأمـر مسـلمات الاشـتراكية الحقيقيـة ومـن ثـم يأخـذ فـي المبالغـة فيهـا وتشـويهها. ونحـن نـكاد لا نحتـاج إلـى الإشـارة إلـى أن التمييـز الـذي يقيمـه فورييـه بيـن رأس المـال والعمـل والموهبـة فرصـة رائعـة مـن أجـل عـرض الحصافـة المدعيـة؛ إن المـرء ليسـتطيع أن

يتحدث مطولاً عن إجحاف هذا التمييز وعدم قابليته للتطبيق، وعن تطبيق العمل المأجور، الخ، من دون أن ينتقده بالإشارة إلى العلاقة الفعلية بين العمل ورأس المال. ولقد تحدث برودون من قبل عن هذه الأمور بصورة أفضل بما لا يقاس من الهر غرون، لكنه أخفق في الوقوع على النقطة الفاصلة الفعلية.

إن الهر غرون يبني نقده لكتاب فورييه علم النفس[psycologie] - كما يبني بالفعل نقده برمته - على "ماهية الإنسان":

"ذلك أن الماهية الإنسانية هي الكل في الكل" (ص ١٩٠).

"ويستنجد فورييه هو الآخر بهذه الماهية الإنسانية التي يكشف لنا عن لبها"(!) "الباطن على طريقته الخاصة في لوحة الأهواء الاثني عشر؛ إنه يريد هو الآخر، مثله مثل جميع المفكرين الشرفاء والعاقلين، أن يجعل من ماهية الإنسان الباطنة شيئاً واقعياً، واقعاً عملياً. إن ما هو في الباطن يجب أن يكون في الظاهر أيضاً، وبذلك فإن الفرق بين الباطن والظاهر يجب أن ينقض بصورة عامة. إن تاريخ البشرية يعج بالاشتراكيين، إذا كانت تلك هي صفتهم الفارقة... وإن الشيء الهام بالنسبة إلى كل واحد منهم هو ما يدركه من ماهية الإنسان" (ص ٩٠).

لنقل بالأحرى إن الشيء الهام بالنسبة إلى الاشتراكيين الحقيقيين هو أن ينسبوا إلى كل واحد أفكاراً عن ماهية الإنسان، وأن يحولوا مراحل الاشتراكية المختلفة إلى فلسفات مختلفة عن ماهية الإنسان. إن هذه الطريقة في معالجة التجريد، التي تضرب بالتاريخ عرض الحائط، تؤدي بالهرغرون إلى المناداة بأن كل تمييز بين الباطن والظاهر قد نقض، وهو نقض يضع كذلك حداً لانتشار الماهية الإنسانية. ولكن ما الذي يحمل الألمان، على أي حال، على التبجح بمثل هذه الصورة بمعرفتهم عن الماهية الإنسانية، ما دامت معرفتهم لا تتجاوز الصفات الثلاث العامة: العقل والعاطفة والإرادة، وهي الصفات المعروفة بصورة شائعة منذ أرسطو والرواقيين. وإن الهرغرون ليأخذ على فورييه من وجهة النظر هذه أنه "شق" الإنسان إلى اثني عشر هوى.

"أتكـون هـذه اللوحـة كاملـة مـن وجهـة النظـر السـيكولوجية؟ هـذا مـا لـن أناقشـه؛ إننـي اعتبرهـا ناقصـة" (وبذلـك يسـتطيع الجمهـور أن ينعـم بالراحـة "مـن وجهـة النظـر السـيكولوجية"). "أيعطينـا هـذا العـدد اثنـا عشـر أيـة معرفـة عـن ماهيـة الإنسـان؟ أبـداً. لقـد كان فـي مقـدور فورييـه أيضـاً ألا يشـير سـوى إلـى أشـكال الحـس الخمسـة؛ إن الإنسـان بأكملـه محتـوى فيهـا إذا هـي فسـرت كمـا ينبغـي وأميـط اللثـام عـن محتواهـا الإنسـاني" (فـكأن هـذا "المحتـوى الإنسـاني" لا يتوقـف كليـاً علـى المرحلـة التـي بلغهـا البشـر فـي الإنتـاج وعلاقـات التعامـل). "والأكثـر مـن ذلـك إن الإنسـان موجـود برمتـه فـي حاسـة واحـدة، اللمـس"[*]. "إن الإنسـان لا يشـعر مثـل شـعور الحيـوان"، الـخ، (ص ٢٠٥).

مـن الواضـح أن الهرغـرون يبـذل بعـض الجهـد، للمـرة الأولـى فـي كتابـه برمتـه، كـي يقـول شـيئاً مـا، أي شـيء، عـن علـم النفـس عنـد فورييـه مـن وجهـة نظـر فويربـاخ. وإنـه لمـن الواضـح كذلـك أن هـذا "الإنسـان بأكملـه" الـذي هـو "محتـوى" فـي صفـة وحيـدة مـن صفـات الفـرد الواقعـي والـذي يفسـره الفلاسـفة بالاسـتناد إليهـا يشـكل وهمـاً صرفـاً. يجـب أن يؤخـذ الإنسـان بعيـن الاعتبـار فـي فعاليتـه ووجـوده التاريخييـن الواقعييـن. أي ضـرب مـن "الإنسـان" يمكـن أن يكـون ذلـك الكائـن الـذي يمكـن إنشـاؤه، بالاسـتقراء، انطلاقـاً مـن شـحمة أذنـه أو مـن أيـة صفـة أخـرى تميـزه مـن الحيـوان؟... هـذا الإنسـان "محتـوى" فـي ذاتـه، مثلـه كمثـل العـدد فـي وجهـه. أمـا إن الشـعور الإنسـاني إنسـاني وليـس حيوانيـاً، فـإن ذلـك اكتشـاف لا يجعـل كل اختبـار سـيكولوجي أمـراً نافـلاً، بـل يشـكل كذلـك نقـداً لـكل علـم النفـس علـى الإطـلاق.

إن نقـد آراء فورييـه عـن الحـب أمـر يسـير بالنسـبة إلـى الهـر غـرون الـذي يقيـس النقـد الـذي يسـلطه فورييـه علـى علاقـات الحـب فـي المجتمـع الحالـي بمقيـاس الأوهـام التـي كان فورييـه يحـاول بهـا أن يصطنـع صـورة عـن الحـب الحـر. وإن الهرغـرون، بوصفـه مالـكاً صغيـراً ألمانيـاً حقيقيـاً، يحمـل هـذه الأوهـام علـى محمـل الجـد. وفـي الحقيقـة إنهـا الشـيء الوحيـد الـذي يحملـه علـى محمـل الجـد. وإذا كان هـو راغبـاً فـي معالجـة هـذا الجانـب مـن النظـام، فإننـا لا نـرى علـى

(*) Das Gefühl تعني الحس والإحساس في وقت واحد.

الإطلاق السبب في إعراضه عن آراء فورييه عن التربية التي هي أفضل الآراء في هذا الموضوع والتي تشتمل على ملاحظات عبقرية حقاً. وعلى أي حال، فإن الهر غرون عندما يتحدث عن الحب، فإنه يفضح، شأنه شأن أي أديب من جماعة ألمانيا الفتاة، جهله المطبق بنقد فورييه. فعنده سيان انطلقنا من نقض الزواج أم من نقض الملكية الخاصة، طالما أن نقض الواحد لا بد أن يستتبع نقض الآخر. لكنه من قبيل الوهم الأدبي الصرف السعي إلى الانطلاق من أي شكل لانحلال الزواج غير الشكل الذي نصادفه عملياً منذ اليوم في المجتمع البورجوازي؟ ولو أنه قرأ فورييه بالذات، فقد يرى أنه ينطلق دائماً وفي جميع الأحوال من تحوّل الإنتاج .

وإن الهرغرون ليعجب لأن فورييه، الذي ينطلق دائماً من الميل (يجب أن نقرأ ذلك: الانجذاب) ينساق مع أنواع مختلفة من التراكيب "الرياضية" التي يسميه بسببها، في الصفحة ٢٠٣، "الاشتراكي الرياضي". وحتى إذا تركنا أحداث حياة فورييه، بكل ما تخبرنا عنه، فقد كان من واجب الهرغرون أن يدرس الانجذاب بمزيد من الدقة، وعندئذ فقد كان يكتشف عاجلاً أن علاقة طبيعية من هذا النوع لا يمكن تحديدها بصورة دقيقة من دون حساب رياضي. وبدلاً من ذلك، فإنه يتحفنا بخطبة بليغة ضد العدد، خطبة تمتزج فيها التزويقات الأدبية والذكريات الهيغلية، ونصادف فيها فقرات من هذا النمط:

"يأخذ فورييه ذوقك الأكثر شذوذاً ويحسب محتواه الجزيئي".

إنها لمعجزة في الحقيقة. - وبعد قليل:

"إن الحضارة التي تعرضت لمثل هذا الهجوم القاسي كانت تقوم على هذا الشيء الذي لا شعور له - لائحة فيثاغوروس... ليس العدد بالشيء المحدد... ما هو العدد واحد؟ إن الواحد لا يعرف الراحة، فهو يصير اثنين، وثلاثاً، وأربعاً".

إن مثل العدد كمثل القسيس المقيم في الريف الألماني، الذي "لا يعرف الراحة" هو الآخر حتى يصبح له زوجة وتسعة أولاد...

"إن العدد يقتل كل ما هو جوهري وواقعي. أيمكننا أن نقسم العقل إلى شطرين، أو أن نتحدث عن ثلث الحقيقة".

ولقد كان في مقدوره أن يطرح هذا السؤال أيضاً: أيمكننا أن نتحدث عن لوغاريتما خضراء اللون؟(*)...

"عندما يتعلق الأمر بالنمو العضوي، فإن العدد يصبح هراء صرفاً...".

ذلك هو المبدأ الأساسي بالنسبة إلى الفيزيولوجيا والكيمياء العضوية (ص٢٠٤ - ٢٠٣).

"إن ذلك الذي يجعل من العدد مقياس جميع الأمور يصبح، بل هو أناني".

ويستطيع أن يربط بهذه العبارة تلك العبارة التي زوده بها هيس (أنظر أعلاه)، مع المبالغة بها :

"إن الخطة التنظيمية لفورييه ترتكز بأكملها على الأنانية من دون أي شيء آخر... إن فورييه هو التعبير الأسوأ عن الأنانية المتحضرة". (ص ٢٠٨،٢٠٦).

ويقدم لنا في الحال البرهان على ذلك، قائلاً إن أفقر البشر، في نظام فورييه العالمي، يتذوق يومياً أربعين صنفاً من الطعام، ويتناول خمس وجبات، وإن البشر يعيشون ١٤٤ عاماً، وقس على ذلك. إن فورييه يقدم هذه الصورة العملاقة للإنسان، معارضاً بها في شيء من الدعابة الساذجة التفاهة الحقيرة لرجال مرحلة عودة الملكية. لكن الهرغرون لا يرى في ذلك إلا مناسبة لإلقاء المواعظ الأخلاقية بطريقته المرائية، بعد عزله هذا الجانب البريء من التصور الفورييري.

وفيما هو يأخذ على فورييه تصوره عن الثورة الفرنسية، يقدم لنا الهر غرون لمحة خاطفة عن طريقته الخاصة في فهم الحقبة الثورية.

"لو ان الرابطة عرفت قبل أربعين عاماً فقط" (إنه يضع هذا الكلام في فم فورييه)، "فقد كان في الإمكان تفادي الثورة إذن. لكن كيف يحدث" (أن الهرغرون هو الذي يطرح السؤال) "أن يعترف الوزير تورغو(Turgot) بحق

(*) ثمة تلاعب بالألفاظ هنا: غرون Grûn، أخضر.

العمل، وأن يسقط رأس لويس السادس عشر مع ذلك؟ وعلى أي حال، فقد كان من الأيسر تسديد الدين العام بواسطة حق العمل منه بواسطة بيض الدجاج". (ص ٢١١).

وينسى الهر غرون حقيقة تافهة: إن هذا الحق في العمل الذي يتحدث عنه تورغو هو التنافس الحر،وقد كان هذا التنافس الحر بحاجة بالضبط إلى الثورة كي يفرض نفسه.

إن في مقدور الهرغرون أن يلخص كل نقده لفورييه في جملة واحدة: إن فورييه لم يخضع "الحضارة" "لنقد أساسي". وما السبب في هذا التصور من جانب فورييه؟ هذا هو السبب:

"إن تجليات ظاهرة الحضارة قد خضعت للنقد من دون أسسها . إنها موضع السخرية والهزء كما هي موجودة، لكن جذورها لا تخضع للدراسة مطلقاً. فلا السياسة ولا الدين قد تقدما أمام منبر النقد، وهذا هو السبب في أن ماهية الإنسان لم تستقص بعد". (ص ٢٠٩).

وهكذا فإن الشروط الواقعية لحياة البشرهي هنا، بالنسبة إلى الهرغرون، تجليات لظاهرة خارجية؛ وبالمقابل فإن الدين والسياسة يشكلان أساس هذه الظاهرات وجذورها. وإننا لنتبين من هذه العبارة الخرقاء كيف يعتمد الاشتراكيون الحقيقيون على الإيديولوجية وعلى العبارات الجوفاء للفلسفة الألمانية التي يعارضونها، منادين بها حقائق تسمو على الأوصاف المشخصة للاشتراكيين الفرنسيين، وكيف يجهدون في الوقت نفسه كي يربطوا الموضوع الحقيقي لأبحاثهم الخاصة، ماهية الإنسان، بنتائج النقد الاجتماعي الفرنسي. فإذا كان الدين والسياسة يعتبران أساس شروط العيش المادية، فإن الأمور جميعاً تؤول، في آخر الأمر، إلى دراسة ماهية الإنسان، وبعبارات أخرى إلى دراسة وعي الإنسان لذاته، وهذا أمر واضح كل الوضوح. وعلى أي حال، فإننا نرى في الوقت نفسه مبلغ استخفاف الهرغرون بالأمور التي ينسخها. ففي فقرة لاحقة، وكذلك في الحوليات الرينانية، ينتحل من جديد ما قالته الحوليات الفرنسية الألمانية عن علاقة المواطن والبورجوازي، وهو ما يناقض على طول الخط البيان الذي تقدم به أعلاه[٢٧٠].

احتفظنا حتى النهاية بالشروحات عن الإنتاج والاستهلاك التي كلفت الاشتراكية الحقيقية الهرغرون بعرضها: وإننا لنجد فيها مثالاً بارزاً على الطريقة التي يجعل بها الهر غرون من بديهيات الاشتراكية الحقيقية مقياساً يحكم به على أعمال الفرنسيين، الأمر الذي يميط اللثام عن البلاهة التامة التي تتصف بها هذه البديهيات حالما تنتزع من غموضها العام.

"يمكن فصل الإنتاج والاستهلاك في الزمان وفي المكان، على صعيد النظرية وعلى صعيد الواقع الخارجي على حدٍّ سواء، بيد أنهما يشكلان في جوهرهما كلاً واحداً. أليس عمل الحرفة الأكثر ابتذالاً، حرفة الخباز على سبيل المثال، إنتاجاً يتحول إلى استهلاك بالنسبة إلى مئة شخص آخر؟ أليس هو استهلاكاً بالنسبة إلى الخباز نفسه مع ذلك، هذا الخباز الذي يستهلك قمحاً وماءً وحليباً وبيضاً، الخ؟ أليس استهلاك الأحذية والملابس إنتاجاً بالنسبة إلى الحذائين والخياطين؟... ألست منتجاً حين آكل الخبز؟ إنني أنتج على نطاق هائل، أنتج طواحين، وأجران العجن، وأفراناً وبنتيجة ذلك محاريث، ومساحي، ومدقات، وأحجار طاحون، وأعمال النجارة والبناء" ("وبنتيجة ذلك" نجارين ومعماريين وفلاحين، و"بنتيجة ذلك" ذويهم و"بنتيجة ذلك" أسلافهم جميعاً، و"بنتيجة ذلك" آدم). "ألست مستهلكاً حين أنتج؟ إنني لكذلك على نطاق عريض أيضاً. إذا قرأت كتاباً، فإنني استهلك بادئ الأمر نتاج سنوات كاملة من العمل؛ وإذا احتفظت به أو أتلفته، فإنني استهلك إنتاج وفعالية مصنع الورق، وآلة الطباعة، ومجلد الكتب. ولكن أتراني لا أنتج شيئاً؟ لعلي أنتج كتاباً جديداً، وبالتالي ورقاً جديداً، وحرفاً جديداً، وحبراً جديداً للطباعة، وأدوات جديدة لتجليد الكتب؛ أما إذا قرأته فحسب وقرأه آلاف آخرون أيضاً، فإننا ننتج باستهلاكنا طبعة جديدة وبذلك كل المواد الضرورية التي يتطلبها إصدار هذه الطبعة.وإن صانعي هذه الأشياء جميعاً يستهلكون من جانبهم كتلة من الخامات لا بد من إنتاجها وهي لا يمكن إنتاجها إلا من خلال وساطة الاستهلاك... وبكلمة واحدة، فإن الفعالية والمتعة شيء واحد، ولم

يشـطرهما إلا عالـم فاسـد ويحشـر مـا بينهمـا فكـرة القيمـة، والسـعر؛ وحيـن فعـل ذلـك، فقـد شـطر الإنسـان. ومـع الإنسـان المجتمـع". (ص ١٩١، ١٩٢).

فـي واقـع الأمـر أن الإنتـاج والاسـتهلاك يتعارضـان مـن وجهـات نظـر متعـددة. لكـن المـرء لا يحتـاج، كيمـا يعيـد وحدتهمـا ويحـل التناقضـات جميعـاً، إلا أن يفسـر هـذه التناقضـات بصـورة صحيحـة ويتفهـم الطبيعـة الحقيقيـة للإنتـاج والاسـتهلاك، وهكـذا، فـإن هـذه النظريـة التـي هـي ثمـرة الإيديولوجيـة الألمانيـة تناسـب العالـم القائـم علـى أفضـل وجـه؛ إن وحـدة الإنتـاج والاسـتهلاك تثبـت بواسـطة أمثلـة مسـتمدة مـن المجتمـع الحالـي، وهـي قائمـة فـي ذاتهـا. وينجـح الهرغـرون فـي البرهـان أولاً، علـى أنـه توجـد فعليـاً علاقـة مـا بيـن الإنتـاج والاسـتهلاك، ويشـرح لنـا أنـه لا يسـتطيع أن يرتـدي معطفـاً أو يـأكل خبـزاً مـا لـم يتـم إنتـاج كلا المعطـف والخبـز ومـا لـم يوجـد فـي المجتمـع الحديـث بشـر ينتجـون المعاطـف والأحذيـة والخبـز التـي يسـتهلكها آخـرون. وإن هـذه الفكـرة هـي، فـي رأي الهرغـرون، فكـرة جديـدة. وإنـه ليعبـر عنهـا بلغتـه الكلاسـيكية، حيـث تمتـزج الإيديولوجيـة والأدب. مثـال ذلـك:

"يعتقـد أن الاسـتمتاع بتنـاول القهـوة، وأكل السـكر، الـخ، مجـرد اسـتهلاك، لكـن أليـس هـذا الاسـتهلاك، فـي الوقـت نفسـه، إنتاجـاً فـي المسـتعمرات؟".

ولقـد كان فـي مقـدوره أن يسـأل: أفـلا يجعـل هـذا الاسـتهلاك مـن العبيـد الزنـوج مسـتهلكين لجلـدات السـياط، وهـو فـي الوقـت نفسـه إنتـاج للهـراوات فـي المسـتعمرات؟ ويسـتطيع المـرء أن يـرى كيـف أن مثـل هـذه المبالغـة إنمـا تخفـي دفاعـاً عـن الشـروط القائمـة. وإن فكـرة الهرغـرون الثانيـة هـي أنـه عندمـا ينتـج فإنـه يسـتهلك الخامـات، وبصـورة عامـة تكاليـف الإنتـاج؛ وبهـذا اكتشـف أنـه لا يمكـن لأي شـيء أن يخـرج مـن لا شـيء، بـل لا بـد لـه مـن مـواد. ولقـد كان يسـتطيع أن يجـد فـي أي كتـاب عـن الاقتصـاد السياسـي، فـي فصـل "الاسـتهلاك المنتج"،العـرض المفصـل للعلاقـات المعقـدة التـي تتضمنهـا هـذه التبعيـة المتبادلـة، بشـرط ألا يكتفـي المـرء، كمـا يفعـل الهرغـرون، بهـذه الحقيقـة المبتذلـة جـداً بـأن الأحذيـة لا يمكـن أن تصنـع مـن دون جلـد.

إن الهرغـرون قـد أقنـع نفسـه حتـى الآن بأنـه لا بـد لـك أن تنتـج كـي تسـتطيع أن تسـتهلك فـي سـياق العمليـة الإنتاجيـة. وتبـدأ صعوباتـه الفعليـة حيـن يرغـب فـي البرهـان علـى أنـه ينتـج حيـن يسـتهلك. ويبـوء الهرغـرون بإخفـاق تـام حيـن يحـاول أن يلقـي بعـض النـور علـى العلاقـة المبتذلـة

جـداً أو الشـائعة جـداً التـي تقـوم بيـن العـرض والطلـب. إنـه ليكتشـف أن اسـتهلاكه، يعنـي طلبـه، ينتج عرضاً جديداً. بيـد أنـه ينسـى أن طلبـه يجـب أن يكـون فعـالاً، وأن عليـه أن يقـدم معـادلاً للمنتج المطلـوب إذا كان لا بـد لطلبـه أن يـؤول إلـى إنتـاج جديـد. إن الاقتصاديـين يشـيرون كذلـك إلـى تلاحـم الاسـتهلاك والإنتـاج وإلـى الهويـة المطلقـة للعـرض والطلـب حيـن يريـدون أن يثبتـوا أن فـرط الإنتـاج لا يوجـد مطلقـاً؛ بيـد أنهـم لا يقدمـون مطلقـاً أقـوالاً علـى هـذا القـدر مـن السـخف وفـي كلمـات علـى هـذا القـدر مـن الخراقـة كمـا يفعـل الهرغـرون. وعلـى أيـة حـال، فتلـك هـي الحجـة التـي اسـتخدمها فـي جميـع الأزمنـة الأرسـتقراطيون واسـتخدمها الأكليـروس وأصحـاب الدخـل، الـخ، كـي يثبتـوا إنتاجيتهـم الخاصـة. وفضـلاً عـن ذلـك، فـإن الهرغـرون ينسـى أن الخبـز الـذي يتـم إنتاجـه اليـوم بواسـطة الطواحيـن البخاريـة كان ينتـج فـي وقـت سـابق بواسـطة الطواحيـن الهوائيـة والطواحيـن المائيـة، وفـي وقـت أبكـر أيضـاً بواسـطة الطواحيـن اليدويـة؛ وإنـه لينسـى أن هـذه الطـرق المختلفـة للإنتـاج مسـتقلة كل الاسـتقلال عـن اسـتهلاك الخبـز بـكل معنـى الكلمـة، وإن عامـلاً آخـر يتدخـل فـي الأمـر إذن، ألا وهـو التطـور التاريخـي للعمليـة الإنتاجيـة الـذي مـن المؤكـد أن الهرغـرون -"هـذا المنتـج الهائـل" - لا يفكـر فيـه مطلقـاً. إنـه لا يملـك أدنـى فكـرة غامضـة عـن حقيقـة أن هـذه المراحـل المختلفـة مـن تطـور الإنتـاج تتضمـن علاقـات مختلفـة للإنتـاج بالاسـتهلاك، تناقضـات مختلفـة لكليهمـا؛ إنـه لا يخطـر فـي بالـه أنـه لا بـد للمـرء، كـي يفهـم هـذه التناقضـات، أن يأخـذ بعيـن الاعتبـار نمـط الإنتـاج الخـاص فـي كل حقبـة إلـى جانـب النظـام الاجتماعـي الـذي هـو أسـاس لـه وأن هـذه التناقضـات لا يمكـن حلهـا إلا بتغييـر هـذا النمـط الإنتاجـي وهـذا النظـام الاجتماعـي تغييـراً فعليـاً. وإذا كانـت الأمثلـة التـي يقدمهـا الهرغـرون تثبـت بسـخافتها أنـه يتجـاوز حتـى الآن أكثـر الاقتصاديـين المغموريـن فـي الابتـذال، فـإن مثالـه عـن الكتّـاب يبيـن أن هـؤلاء الاقتصاديـين أكثـر "إنسـانية" منـه بمـا لا يقـاس. إنهـم لا يطالبـون بـأن عليـه، حالمـا يسـتهلك كتابـاً، أن ينتـج كتابـاً آخـر! إنهـم يكتفـون بـأن ينتـج ثقافتـه الخاصـة حيـن يقـرأ وبذلـك يمـارس تأثيـراً نافعـاً فـي الإنتـاج عامـة. وحيـن يسـقط الهـر غـرون الحلقـة الجامعـة التـي هـي الدفـع نقـداً، جاعـلاً مـن هـذا الدفـع أمـراً نافـلاً أو غاضـاً الطـرف عنـه بـكل بسـاطة، فـي حيـن أن هـذه الحلقـة وحدهـا تمنـح الطلـب طابعـه الفعـال، فإنـه يحـوّل الاسـتهلاك المنتـج إلـى قصـة خرافيـة صرفـة. إنـه يقـرأ، وهـو بمجـرد قراءتـه يمكـن لصانعـي الحـروف الطباعيـة وصنـاع

الورق وعمال الطباعة إنتاج حرف جديد، وورق جديد، وكتب جديدة. إن مجرد استهلاكه يعوضهم عن جميع تكاليف الإنتاج التي تكبدوها، ولقد بيّنا بما فيه الكفاية، وفي الصفحات السابقة، البراعة التي ينتج بها الهرغرون كتباً جديدة من الكتب القديمة بمجرد مطالعته إياها، وبذلك ينال امتنان العالم التجاري بأسره من جراء فعالياته بوصفه منتجاً لورق جديد وحرف جديد وحبر طباعي جديد وأدوات جديدة من أجل تجليد الكتب. إن الحرف الأول من كتاب الهر غرون ينتهي بهذه الكلمات:

"إنني على وشك الانغماس في الصناعة".

وإن الهرغرون، في كتابه بأسره، لا يكذّب مرة واحدة هذا الشعار الذي انتقاه.

إلامَ يعود نشاطه بكامله؟ إن الهرغرون يلتجئ، كيما يثبت البديهية التي تنادي بها الاشتراكية الحقيقية عن وحدة الإنتاج والاستهلاك، إلى أكثر البيانات الاقتصادية ابتذالاً بخصوص العرض والطلب؛ وفيما عدا ذلك، فإنه يكيّف هذه البيانات مع غرضه بمجرد إسقاط الحلقات الجامعة التي لا غنى عنها، وبذلك يحوّلها إلى أوهام صرفة. وبالتالي، فإن جوهر هذه الأمور جميعاً أمثلة وهمية وجاهلة للشروط القائمة.

وفي استنتاجه الاشتراكي النزعة يتلعثم بطريقة مميزة بالعبارات التي تعلمها من سابقيه الألمان. إن الإنتاج والاستهلاك منفصلان لأن عالِماً فاسداً قد شطرهما. وكيف فعل هذا العالِم الفاسد ذلك؟ لقد حشر مفهوماً فيما بينهما. وحين فعل ذلك مزق وحدة الإنسان. ولما لم يكتف بذلك، فقد مزق وحدة المجتمع، أي مزق نفسه أيضاً. ولقد وقعت هذه المأساة عام ١٨٤٥.

إن الاشتراكيين الحقيقيين قد فهموا في الأصل من وحدة الإنتاج والاستهلاك أن الفعالية يجب أن تنطوي هي نفسها على المتعة (وتلك فكرة وهمية صرفة بالطبع بالنسبة إليهم). لكن الهرغرون يعطي هذه الوحدة معنى أكثر دقة: إن "الاستهلاك والإنتاج، من وجهة النظر الاقتصادية، يجب أن يتطابقا" (ص ١٩٦)؛ يجب ألا يكون هناك فائض من المنتجات على حاجات الاستهلاك الفورية، الأمر الذي يعني بالطبع نهاية أية حركة اقتصادية مهما تكن. وبالتالي فإنه يأخذ بكل مهابة على فورييه أنه يريد أن يعكر هذه الوحدة بفرط الإنتاج . وينسى الهرغرون أن فرط الإنتاج لم يسبب الأزمات إلا من خلال تأثيره في القيمة التبادلية

للمنتجات، وأن القيمة التبادلية لم تختلف عند فورييه فحسب، بل في أفضل عوالم الهر غرون أيضاً. إن كل ما يستطيع المرء أن يقوله عن هذا اللغو المالك الصغير هو أنه جدير تماماً بالاشتراكية الحقيقية.

ويعود الهرغرون مراراً وتكراراً، بأعظم الرضا عن الذات، إلى تعليقه على نظرية الاشتراكية الحقيقية عن الإنتاج والاستهلاك. مثال ذلك أنه يخبرنا في سياق الحديث عن برودون:

"بشروا بحرية المستهلك الاجتماعية تحصلون على المساواة الحقيقية في الإنتاج". (ص ٤٣٣).

إن التبشير بذلك أمر سهل؛ وكانت الخطيئة بكل بساطة حتى الآن أن:

"المستهلكين لم يتم تثقيفهم وتكوينهم بحيث يستهلكون جميعاً بطريقة إنسانية". (ص ٤٣٢)."إن الرأي بأن الاستهلاك ينظم الإنتاج، وليس العكس، يشكل موتاً لكل نظرية اقتصادية حتى الوقت الراهن". (المصدر نفسه). "إن التضامن الحقيقي للجنس البشري يجعل من البديهي القول إن استهلاك كل واحد لا يمكن أن يدرك بمعزل عن استهلاك الجميع كحقيقة مقررة" (المصدر نفسه).

ضمن نظام التنافس، لا يدرك استهلاك كل واحد بمعزل عن استهلاك الجميع، تلك حقيقة أكثر أو أقل ثبوتاً، الأمر الذي ينطبق أيضاً على إنتاج كل واحد وإنتاج الجميع. والمقصود هو فقط معرفة كيف، بأية طريقة يتحقق ذلك. وإن جواب الهرغرون الوحيد على ذلك هو المسلّمة الأخلاقية عن الاستهلاك الإنساني، الاعتراف "بطبيعة الاستهلاك الجوهرية" (ص ٤٣٢). وبما أنه يجهل كل شيء عن شروط الإنتاج والاستهلاك الفعلية فإنه يلتجئ إلى الماهية الإنسانية، الموئل الأخير للاشتراكيين الحقيقيين. وإن هذا السبب نفسه هو الذي يحمله بكل عناد على الانطلاق من الاستهلاك بدلاً من الإنتاج. فإذا انطلقنا من الإنتاج وجب علينا أن نهتم بشروط الإنتاج الفعلية وبفعالية البشر الإنتاجية. لكن إذا انطلقنا من الاستهلاك، فإنه يمكن بكل بساطة الاكتفاء بالمناداة بأن الاستهلاك ليس "إنسانياً" في الوقت الحاضر، وبالمطالبة "بالاستهلاك الإنساني"، وبالتعليم الذي يتيح الاستهلاك الحقيقي، وبصيغ أخرى من النمط نفسه، من دون النظر مطلقاً إلى الشروط الحياتية الفعلية للبشر أو فعاليتهم.

ويجب أن نذكر في الختام أن أولئك الاقتصاديين الذين اتخذوا الاستهلاك منطلقاً لهم هم بالضبط الذين تبين أنهم كانوا رجعيين وأنهم تجاهلوا العنصر الثوري في المزاحمة والصناعة الكبرى.

"بابا كابيه هذا الفكر المحدود" والهر غرون

يختتم الهرغرون استطراده عن ريبو ومدرسة فورييه بالكلمات التالية:

"أريد أن أجعل منظمي العمل واعين لماهيتهم، أريد ان أبين لهم تاريخياً ممن ينحدرون... هؤلاء الكائنات الهجينة الذين لم يستخلصوا من أنفسهم أدنى فكرة. ولعلي أجد في وقت لاحق مكاناً كي أجعل من الهر ريبو مثالاً، وليس الهر ريبو وحده، بل الهر ساي أيضاً. وفي الحقيقة، إن الأول ليس بهذا القدر من الرداءة، فهو مجرد أبله؛ أما الآخر فأكثر من أبله، فهو علامة".

"وإذن"... (ص ٢٦٠).

إن الموقف الصراعي الذي يتخذه الهرغرون، وتهديداته ضد ريبو، وازدراءه للتوسع في العلم، ووعوده الطنانة، هذه جميعاً دلائل أكيدة على أن شيئاً مثقلاً بالاحتمالات ينتفض في داخله. وبما أننا "واعون لماهيته" كل الوعي، فإننا نستدل من هذه الأعراض أن الهرغرون على أهبة أن ينفذ ضربة انتحالية هائلة جداً. وبالنسبة إلى أي امرئ اختبر تكتيكه، فإنه ليس في تبجحه ذرة من براءة؛ إننا نعرف أن ذلك موضوع حساب ماكر تماماً.

يتلو ذلك فصل يحمل هذا العنوان:

"تنظيم العمل!"

"أين نشأت هذه الفكرة؟ - في فرنسا - لكن كيف؟".

وإنه ليحمل كذلك هذه اللصاقة:

"استعراض للقرن الثامن عشر".

أين نشأ هذا الفصل للهرغرون؟ - "في فرنسا - لكن كيف؟" سوف يعلم القارئ ذلك من دون تأخير. ويجب ألا ينسى أن الهرغرون يريد أن يجعل منظمي العمل الفرنسيين واعين لماهيتهم بواسطة عرض تاريخي بالأسلوب الألماني العميق.

"وإذن!":

عندما تحقق الهر غرون من أن كابيه "محدود" ومن أن "رسالته قد تحققت منذ زمن طويل" (الأمر الذي تحقق منه بالتأكيد منذ وقت طويل)، فإن ذلك، "بالطبع، لم يكن يعني نهاية كل شيء". إن الأمر على النقيض من ذلك، فإنه بانتقائه الاعتباطي لبعض المقتطفات من كابيه وجمعها إلى بعضها بعضاً قد كلف كابيه برسالة جديدة: أن يزود "بالخلفية" الفرنسية التأريخ الألماني للهرغرون عن التطور الاشتراكي في القرن الثامن عشر.

كيف انصرف إلى مهمته؟ إنه يقرأ "بصورة منتجة".

إن الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من كتاب كابيه رحلة إلى ايكاريا [voyage en Icarie] يتضمنان مجموعة متنوعة من آراء المراجع القديمة والحديثة في مصلحة الشيوعية. وهو لا يزعم في أي حال من الأحوال أنه يرسم حركة تاريخية. إن البورجوازيين الفرنسيين ينظرون إلى الشيوعي على أنه شخص مشكوك فيه. ويقول كابيه: حسناً، في هذه الحال سوف أقدم إليكم، في مصلحة زبوني، شهادات أناس يتمتعون بأعظم الاحترام ومن جميع الحقب؛ ويتصرف كابيه مثل المحامي على وجه الدقة، بحيث أن الإثبات الأكثر تجريماً يصبح بين يديه شهادة تخدم زبونه. ولا يستطيع المرء أن يطالب بالدقة التاريخية في دفاع قانوني. فإذا صادف أن أطلق رجل شهير، بمناسبة ما، كلمة ضد المال، أو التفاوت، أو الثروة، أو الشرورالاجتماعية، فإن كابيه يطبق عليها، ويتوسل إليه أن يكررها، ويجعل منها دستور إيمان الرجل، يطبعها، ويصفق لها، ويصيح في شيء من السخرية في وجه أصحابه البورجوازيين الناقمين: "اسمعوا ما قاله! أفلم يكن شيوعياً؟" "ولا يفلت أحد منه، لا مونتسيكيو ولا ساييس، ولا لامارتين، ولا حتى غيزو - جميعهم شيوعيون بالرغم منهم. هذا صاحبي الشيوعي وقد وجدته جاهزاً تماماً!"[*].

إن الهرغرون في مزاج منتج: إنه يقرأ المقتطفات التي جمعها كابيه، والتي تمثل القرن الثامن عشر؛ وهو لا يشك لحظة واحدة في صوابها الجوهري جميعاً؛ وإنه ليرتجل لفائدة القارئ رابطة صوفية بين الكتّاب الذين وردت أسماؤهم مصادفة في إحدى صفحات كابيه، ويصب على الكل الحثالة التي حصل عليها من اسطبلات آداب ألمانيا الفتاة، ومن ثم يعطيه العنوان الذي رأيناه أعلاه.

"وإذن!".

(*) Voilà mon communiste tout trouvé!، بالفرنسية في النص الأصلي.

الهرغرون:

يقـدم الهرغـرون اسـتعراضه بالكلمـات التاليـة:

"إن الفكـرة الاجتماعيـة لـم تسـقط مـن السـماء، فهـي عضويـة، أي أنهـا نشـأت فـي سـياق تطـور تدريجـي. ولا أسـتطيع أن أكتـب هنـا تاريخهـا الكامـل. لا أسـتطيع أن أبـدأ بالهنـود والصينييـن، وأمـر ببـلاد فـارس ومصـر ويهـوذا. لا أستطيع أن أسـأل الإغريـق والرومـان عـن وعيهـم الاجتماعـي، ولا أسـتطيع أن أسـجل شـهادة المسـيحية،والأفلاطونية الجديـدة، وآبـاء الكنيسـة. ولا أسـتطيع أن أصغـي إلـى مـا لـدى الحقـب الوسـيطة والعـرب مـن أقـوال، كمـا أننـي لا أسـتطيع أن أدرس الإصـلاح والفلسـفة خـلال مرحلـة يقظتهـا، وهكـذا حتـى القـرن الثامـن عشـر". (ص ٢٦١).

كابيه:

يقدم كابيه مقتطفاته بالكلمات التالية:

"إنكـم تزعمـون، يـا خصـوم الملكيـة الجماعيـة، أنـه لا يؤيدهـا إلا بعـض الآراء التـي لا تملـك رصيـداً ولا وزنـاً؛ حسـناً، سـوف أسـأل فـي حضوركـم التاريـخ وجميـع الفلاسـفة: اسـمعوا! لـن أتوقـف لأتحـدث إليكـم عـن شـعوب قديمـة عديـدة كانـت تمـارس أو مارسـت جماعيـة الخيـرات، ولـن أتوقـف كذلـك عنـد العبرانييـن... ولا عنـد الكهنـة المصرييـن، ولا عنـد مينـوس... وليكورغـوس، وفيثاغـورس... ولـن أتحـدث إليكـم عـن كونفوشـيوس أو زرادشـت، اللذيـن ناديـا، أحدهمـا فـي الصيـن والآخـر فـي إيـران، بهـذا المبـدأ"[*]. (رحلـة إلـى إيكاريـا، الطبعـة الثانيـة، ص ٤٧٠).

(*) vous prétendez, adversaires de la communauté, qu'elle n'a pour elle que quelques opinions sans crédit et sans poids;") eh bien! Je vais interroger devant vous l'histoire et tous les philosophes: écoutez! Je ne m'arrête pas à vous parler de plusieurs peuples anciens, qui pratiqué la communauté des biens! Je ne m'arrête pas non plus aux hébreux ni aux prêtres égyptiens,ni à minos… lycurgue et pythagore… je ne vous parle pas non plus de confucins et de zaroastre qui (l'un en Chine et l'autre en Perse… proclamèrent ce principe.") (voyage en Icaire, deuxiéme édition, p.470)، بالفرنسية في النص الأصلي.

بعد المقاطع أعلاه، يستقصي كابيه التاريخ الإغريقي والروماني، ويتناول شهادة المسيحية، والأفلاطونية الجديدة، وآباء الكنيسة، والحقب الوسيطة، والإصلاح، والفلسفة خلال مرحلة يقظتها. (راجع كابيه، ص: ٤٧١، ٤٨٢). وإن الهر غرون يترك لآخرين "أكثر صبراً منه" أن ينسخوا هذه الصفحات الإحدى عشر، "بشرط أن تكون حذلقتهم قد تركت لهم الإنسانية الضرورية من أجل القيام بذلك" (يعني نسخ تلك الصفحات) (غرون، ص ٢٦١). إن وعي العرب الاجتماعي وحده يخص الهر غرون. وإننا ننتظر بلهفة الكشوف التي سيقدمها إلى العالم بهذا الشأن. "يجب أن اقتصر على القرن الثامن عشر". فلنتتبع الهر غرون في القرن الثامن عشر، مشيرين فقط إلى أن غرون يؤكد على الكلمات نفسها تقريباً التي يؤكدها كابيه.

الهرغرون:

"إن لوك، مؤسس الحسية، يقول: ذلك الذي تتجاوز ممتلكاته حاجاته يطفر من فوق حدود العقل والعدالة البدئية ويسرق ما يخص الآخرين. إن كل فائض هو اغتصاب، ويجب أن يثير مشهد المعوز الندامة في نفس الثري. أنتم أيها الفاسدون، الذين تتقلبون في الترف والملذات، ارتجفوا مخافة أن ينتهي ذات يوم البائس الذي يفتقر إلى ضرورات الحياة إلى إدراك حقوق الإنسان بصورة حقيقية.

كابيه:

"لكن هذا لوك، فاصغوا إليه يهتف في كتابه الرائع الحكم المدني: ذلك الذي يملك ما يتجاوز حاجاته يطفر من فوق حدود العقل والعدالة البدئية ويستولي على ما يخص الآخرين. إن كل فائض هو اغتصاب، ولا بد أن يثير مشهد المعوز الندم في نفس الثري. إيها الفاسدون، أنتم الذين تتقلبون في الثروات والملذات، ارتجفوا مخافة أن ينتهي ذات يوم البائس الذي يفتقر إلى ضرورات الحياة إلى إدراك حقوق الإنسان بصورة حقيقية".

إن الغش وسوء النية والخجل قد أنتجت ذلك التفاوت في الثروات الذي يشكل شؤم الجنس البشري بتكديسه جميع الشرور، من جهة واحدة، مع الثروة، ومن جهة أخرى، مع الفقر المدقع. ولذا لا بد للفيلسوف أن يعتبر استخدام النقد على أنه أحد المبتكرات الأكثر شؤماً للصناعة البشرية". (ص ٢٦٦).

اصغوا إليه يهتف أيضاً: "إن الغش، وسوء النية، والخجل، قد أنتجت ذلك التفاوت في الثروات الذي يشكل شؤم الجنس البشري بتكديسه من جهة واحدة، جميع الشرور مع الثروة ومن جهة أخرى، الآلام مع البؤس" (وهو ما يترجمه الهر غرون بحيث يجعل منه لغواً). "لذا يجب على الفيلسوف أن يعتبر استخدام النقد على أنه أحد المبتكرات الأكثر شؤماً للصناعة البشرية"(*) (٢٧١) (ص ٤٨٥).

ويستنتج الهرغرون من هذه المقتطفات من كابيه أن لوك كان "عدواً للنظام النقدي" (ص ٢٦٤) و"خصماً صريحاً جداً للمال وكل ملكية تتجاوز حدود الحاجة" (ص ٢٦٦). ومن سوء الحظ أن لوك كان أحد أولئك المدافعين العلميين عن النظام النقدي، ومن أكثر الدعاة حزماً لجلد المشردين المعدمين، وأحد عمداء الاقتصاد السياسي الحديث.

(*) Cabet: "Mais voice locke, écoutez-le s'écrier dans son admirable gouvernement civil: "celui qui possède au-delà de ses besoins passe les bornes de la raison et de la justice primitive et enlève ce qui appartient aux autres. Toute super-fluité est une usurpation, et la vue de l'indigent devrait éveiller le remords dans l'âme du riche. Hommes pervers qui nagez dans l'opulence et les voluptés, tremblez qu'un jour l'infortuné qui manque du nécessaire n'apprenne à connaître vrai-".ment les droits de l'homme

الهرغرون:

"إن بوسـويه (Boussuet)، أسـقف مـو (Meaux)، يقـول فـي كتابـه السياسـة المشـتقة مـن الكتـاب المقـدس (politique tirée de l'Écriture sainte): "مـن دون حكومـات" ("مـن دون سياسـة" - إضافـة سـخيفة مـن قبـل الهرغـرون) سـوف تكـون الأرض مـع جميـع خيراتهـا الملكيـة المشـاعة للبشـر، مثلهـا مثـل الهـواء والنـور تمامـاً؛ وحسـب القانـون البدئـي للطبيعـة، فإن أي إنسـان لا يملـك حقـاً خصوصيـاً فـي أي شـيء.

"إن جميـع الأشـياء تخـص جميـع البشـر؛ والملكيـة الخاصـة إنمـا نشـأت عـن الحكـم المدنـي". إن كاهنـاً فـي القـرن السـابع عشـر قـد كان يملـك النزاهـة ليقـول مثـل هـذه الأشـياء ويعبـر عـن مثـل هـذه الآراء: "وإن بافنـدورف الألمانـي غيـر المعـروف" (أي غيـر المعـروف مـن الهرغـرون) "إلا مـن

كابيه:

"اصغـوا إلـى البـارون بافنـدورف، أسـتاذ الحـق الطبيعـي فـي ألمانيـا ومستشـار الدولـة في سـتوكهولم وبرليـن، الـذي يدحـض فـي حقوقـه الطبيعيـة والعامـة مذهـب هوبـس وغروسـيوس عـن الملكيـة المطلقـة، والـذي ينـادي بالمسـاواة الطبيعيـة، والأخـاء، والجماعيـة البدئيـة للخيـرات، والـذي يعتـرف بـأن الملكيـة مؤسسـة بشـرية، وأنهـا تنتـج عـن اقتسـام مقبـول بـه يسـتهدف أن يضمـن لـكل فـرد، وبصـورة خاصـة للشـغيل، حيـازة دائمـة، مشـاعة أو خاصـة، وبالتالـي، إن تفـاوت الثـروة الحالـي هـو ظلـم "يسـتتبع المظالـم الأخـرى" (وهـو مـا ترجمـه الهـر غـرون بصـورة سـخيفة) "إلا مـن جـراء وقاحـة الأغنيـاء وجبـن الفقـراء".

وإن بوسـويه، أسـقف مـو، ومعلـم ولـي عهد فرنسـا، بوسـويه الشـهير، فـي كتابـه "السياسـة المشـتقة مـن الكتـاب المقـدس"، المحـرر مـن أجـل تثقيـف ولـي العهـد، ألا يعتـرف كذلـك أن الأرض وجميـع الخيـرات سـوف تكـون، لـولا الحكومـات، مشـاعة بين البشـر مثلها كمثـل الهواء

خلال إحدى قصائد شيللرالهجائية، قد كان من الرأي التالي: إن التفاوت الحالي في الثروات ظلم يمكن أن يستتبع جميع المظالم الأخرى من جراء وقاحة الغني وجبن الفقير". (ص ٢٧٠). ويضيف الهرغرون: "ولن نستطرد؛ فلنبق في فرنسا".

والنور. ووفقاً لحق الطبيعة البدئي لا يملك أي امرئ أي حق خصوصي على أي شيء كان: فكل شيء للجميع، وأن الملكية لتنشأ عن الحكم المدني". (ص ٤٨٦).(*)

إن ما يسميه الهرغرون انحرافاً عن فرنسا، استطراداً، هو كابيه الذي يستشهد برجل ألماني. بل إن غرون يتهجأ الاسم الألماني بالطريقة الفرنسية المغلوطة. وفيما عدا أن ترجمته خاطئة أحياناً وأنه يتجاوز بعض المقاطع، فإنه يدهشنا بما يأتي به من لمسات. فكابيه يتحدث أولاً، عن بافندورف ومن ثم عن بوسويه؛ أما الهرغرون فيتحدث أولاً عن بوسويه ومن ثم عن بافندورف. ويتحدث كابيه عن بوسويه بصفته رجلاً شهيراً؛ أما الهرغرون

(*) Cabetآ :

Écoutes le baron de Puffendorff, professeur de droit naturel en Allemagne et conseiller d'État à Stockholm et à Berlin," qui dans sen droit de la natures et des gens réfute la doctrine d'Hobbes et de Grotius sur la monarchie absolue, qui proclame l'égalité naturelle, la fraternité, la communauté des biens primitrive et qui reconnaây que la propriété est une institutio humaine, qu'elle résulte d'un protage consenti pour assurer à chacun et surtout au travailleur une possession perpétuelle, indivise ou divise, et que par conséquent l'intégaliteé actuelle de la fortune est une inductice qui n'entraîne ".les autres inégalités" (traduit de façon absurde par M. Grün) "que par l'insolence des riches et la lâcheté des pauvres Et Bossuet, l'évêque de Meaux, le précepteur du dauphin de France, le célèbre Bossuet dans sa Politique tirées de l'Écriture sainte, rédigèe pour l'instruction du Dauphin, ne reconnaît-il pas aussi que, sans les gouvernements, la terre et tous les biens seraient aussi communs entre et tous les hommes que l'air et la lumière: Selon le droit primitif de la nature, nul n'a le droit particuler sur quoi que ce soit: tout est àtous, et c'est du gouvernement civil que naît la proprieté*." (p.486). بالفرنسية في النص الأصلي.

فيدعوه "كاهناً". ويستشهد كابيه ببافندورف بجميع ألقابه؛ أما الهر غرون فيعترف في نوبة من الصراحة بأنه ليس معروفاً إلا من خلال إحدى قصائد شيللر الهجائية. وإنه ليعرفه الآن أيضاً، من أحد مقتطفات كابيه؛ ومن الواضح أن كابيه، هذا الفرنسي المحدود، لم يتعمق أكثر من الهر غرون في دراسة مواطنيه فحسب، بل وفي دراسة الألمان أيضاً.

يقول كابيه، "أتعجل معالجة الفلاسفة الكبار للقرن الثامن عشر؛ سوف أبدأ بمونتسيكيو" (ص ٤٨٧). أما الهر غرون فيبدأ، بغرض الوصول إلى مونتسيكيو، بلمحة عن "العبقرية التشريعية للقرن الثامن عشر" (ص ٢٨٢). قارنوا بين مقتطفات كل منهما من مونتسيكيو ومابلي وروسو وتورغو. ويكفي هنا أن نقارن بين كابيه والهرغرون في موضوع روسو وتورغو، فكابيه ينطلق من مونتسيكيو إلى روسو، أما الهرغرون فيتخيل هذا الانتقال: "كان روسو السياسي الراديكالي، كما كان مونتسيكيو السياسي الدستوري".

يستشهد الهر غرون بروسو:

"لقد وقع الشر الأعظم مسبقاً حين يكون هناك فقراء يجب الدفاع عنهم وأغنياء يجب كبحهم، الخ"... (وهو مقطع ينتهي بالكلمات التالية): "وإنه ليترتب على ذلك أن الحالة الاجتماعية لا تعود بالفائدة على البشر إلا إذا كانوا يملكون جميعاً شيئاً ما ولا يملك أي منهم قدراً كبيراً". وحسب الهر غرون، فإن روسو يصبح "مشوشاً وعظيم التردد عندما يتوجب عليه أن يجيب عن السؤال: ما هو التحوّل الذي تتعرض له الملكية البدئية حين يدخل الإنسان البدئي المجتمع؛ بمَ يجيب؟ إنه يجيب: لقد جعلت

كابيه:

اصغوا الآن إلى روسو، مؤلف الكتاب الخالد العقد الاجتماعي(contrat social) ... اسمعوا: "إن البشر متساوون في الحقوق. ولقد جعلت الطبيعة جميع الخيرات مشاعة... وفي حالة الاقتسام، يصبح نصيب كل واحد ملكيته. وفي جميع الحالات، فإن المجتمع هو على الدوام المالك الوحيد لجميع الخيرات" (وهو إيضاح بالغ الأهمية يسقطه الهر غرون عمداً). "اسمعوا أيضاً: ..." (النتيجة) "الأمر الذي يترتب عليه أن الحالة الاجتماعية لا تعود بالفائدة على البشر إلا بقدر ما يملكون الطبيعة جميع

الخيـرات مشـاعة"... (وينتهـي المقطـع بهـذه الكلمـات): "إذا حـدث اقتسـام، فـإن نصيـب كل واحـد يصبـح ملكيتـه". (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

جميعاً شيئاً ما ولا يملك أي منهم قدراً كبيراً".

اصغـوا، اصغـوا أيضـاً إلـى روسـو فـي كتابـه الاقتصـاد السياسـي(Économie politique) : "لقـد وقـع الشـر الأعظـم مسـبقاً حيـن يكـون هنـاك فقـراء يجـب الدفـاع عنهـم وأغنيـاء يجـب كبحهـم"، الـخ، الـخ،(*) (ص ٤٨٩، ٤٩٠).

إن الهرغـرون يقـوم بابتكاريـن عبقرييـن: أولاً، يصهـر المقتطفيـن مـن العقـد الاجتماعـي والاقتصـاد السياسـي، وثانيـاً، يبـدأ حيـث ينتهـي كابيـه. وإن كابيـه يسـمي عنوانـي مؤلفـي روسـو اللذيـن يستشـهد بهمـا، أمـا الهـر غـرون فيحذفهمـا؟ ولعـل تفسـير هـذا التكتيـك هـو أن كابيـه يتحـدث عـن الاقتصـاد السياسـي لروسـو الـذي لا يمكـن أن يعرفـه الهرغـرون حتـى ولا مـن قصيـدة هجائيـة لشـيللر. وبالرغـم مـن أن الهرغـرون ملـم بجميـع أسـرار الموسـوعة (L'Encyclopédie) (أنظـر ص ٢٦٣)، فيبـدو أنـه كان يجهـل أن الاقتصـاد السياسـي لروسـو ليـس شـيئاً آخـر سـوى مقالـة الموسـوعة عـن الاقتصـاد السياسـي.

فلننتقـل إلـى تورغـو: إن الهرغـرون لا يكتفـي هنـا بمجـرد نسـخ المقتطفـات، بـل ينسـخ فعليـاً اللمحـة التـي يقدمهـا كابيـه عـن تورغـو.

(*) Cabet: "Écoutez, maintenant Rousseau l'auteur de cet immortel Contrat social… écoutez: "les hommes sont égaux en droit. La nature a rendu tous les biens communs… dans le cas de partage la part de chacum devient sa propriété. Dans tous les cas, la société est toujours seule propriétaire de tous les biens." (Précision bien intéressante que M.Grün laisse tomber.) "Écoutez encore:…" (Conclusion) : "d'où il suit que l'état social n'est avantageux aux hommes qu'autant qu'ils ont tous quelque chose et qu'aucun d'eux n'a rien de trop."

Écoutez, écoutez encore Rousseau dans son Économie politique: "Le plus grand mal est déjà fait quand on a des pauvres a défendre et des riches à contenir", etc., etc (p. 489,490)، باللغة الفرنسية في النص الأصلي.

الهرغرون:

"لقد كان عمل تورغو إحدى المحاولات الأعظم نبلاً والأكثر عبثاً من أجل إقامة نظام جديد على أسس النظام القديم الذي يوشك على الانهيار في جميع جوانبه. جهد ضائع. إن الأرستقراطية قد أحدثت مجاعة مصطنعة، ونظمت العصيانات، وافترت عليه حتى أن لويس السادس عشر الطيب القلب أقال وزيره. ولم تشأ الأرستقراطية أن تصغي إلى النصائح، فلم يكن لها بد من التعرض للإكراه. إن التطور الإنساني ينتقم دائماً بصورة رهيبة لأولئك الملائكة الصالحين الذين يطلقون إنذاراً عاجلاً وأخيراً قبل الكارثة. إن الشعب الفرنسي قد بارك تورغو، وكان فولتير يتمنى أن يقبّل يده قبل أن يموت، وسماه الملك صديقاً له... إن تورغو، البارون والوزير، وأحد السادة الإقطاعيين الأخيرين، قد كان يداعب فكرة اختراع مطبعة منزلية إذا كان لا بد من ضمان حرية تامة للصحافة" (ص ٢٨٩ - ٢٩٠).

كابيه:

"ومع ذلك، بينما يعلن الملك أنه هو وحده ووزيره" (تورغو) "هما في البلاط صديقا الشعب، وبينما الشعب يغمره ببركاته، وبينما الفلاسفة يكيلون له الإعجاب، وبينما فولتير يريد قبل أن يموت أن يقبِّل اليد التي وقّعت كل هذه التحسينات الشعبية، كانت الأرستقراطية تتآمر، بل تنظم مجاعة كبيرة واضطرابات كي تقضي عليه، وقد ثابرت على مؤامراتها وافتراءاتها طويلاً حتى تمكنت من إثارة صالونات باريس ضد المصلح والقضاء على لويس السادس عشر نفسه بإجباره على فصل الوزير الفاضل الذي كان سينقذه". (ص ٤٩٧). "لنعد إلى تورغو، البارون ووزير لويس السادس عشر خلال السنة الأولى من حكمه، الذي يريد أن يصلح المساوئ، والذي حقق عدداً كبيراً من الإصلاحات، والذي يريد أن ينشئ لغة جديدة، والذي كان يعمل بنفسه من أجل اختراع مطبعة منزلية في سبيل ضمان حرية الصحافة"[(*)]. (ص ٤٩٥).

(*) Cabet: "Et cependant, tandis que le roi déclare que lui seul et son ministre" (Turgot) "sont dans la cour les amis du peuple, tandis que le peuple le comble de ses =

إن كابيه يدعو تورغو باروناً ووزيراً، والهر غرون ينسخ ذلك عنه، لكنه على سبيل التفوق على كابيه يحوّل الابن الأصغر لعمدة تجار باريس إلى "أحد السادة الإقطاعيين الأقدم"(*). ويخطئ كابيه حين ينسب المجاعة وعصيان عام ١٧٧٥ إلى مؤامرات الأرستقراطية. فنحن تعوزنا المعلومات عن هوية أولئك الذين كانوا أول من تحدثوا عن المجاعة وكانوا مسؤولين عن الحركات التي أعقبت ذلك. ومهما يكن من أمر، فقد كان للمجالس النيابية والمستبقيات الشعبية شأن بها أعظم من شأن الأرستقراطية. وإنه مما يناسب الهر غرون كلياً أن ينسخ هذه الخطيئة التي وقع بها "البابا كابيه"، "هذا الفكر المحدود". إنه يؤمن به كما يؤمن بالإنجيل. وإنه ليحسب تورغو، استناداً إلى سلطة كابيه، بين الشيوعيين، تورغو الذي هو أحد قادة المدرسة الفيزيوقراطية، والنصير الأشد حزماً للتنافس الحر، والمدافع عن الربا، ومعلم آدم سميث. ولقد كان تورغو رجلاً عظيماً لأنه كان يتجاوب مع متطلبات الحقبة التي عاش فيها وليس مع أوهام الهرغرون التي بيّنا من قبل كيف نشأت.

فلننتقل الآن إلى رجال الثورة الفرنسية. إن كابيه يسبب ارتباكاً عظيماً لخصمه البورجوازي حين يُعِد سييس بين رواد الشيوعية لأن هذا الأخير كان يعترف بالمساواة في الحقوق وكان يخضع الملكية لتكريس الدولة (كابيه، ص ٤٩٩ -٥٠٢). إن الهرغرون، "المقدر له أن يجد الفكر الفرنسي أخرق وسطحياً كلما احتك به احتكاكاً وثيقاً"، ينسخ هذا

= bénédictions, tandis que les philosophes le couvrent de leur admiration, tandis que Voltaire veut avant de mourir baiser la main qui a signé tant d'améliorations populaires, l'aristocratie conspire, organise même une vaste famine et des émeutes pour le perdre et fait tant par ses intrigues et calomnies qu'elle parvient à déchaîner les salons de Paris contre le réformateur et à perdre Louis XVI lui-même en le forçant à renvoyer le vertueux ministre qui le sauverait." (p 497). "Revenons à Turgot, baron, ministre de Louis XVI pendant la première année de son règne, qui veut réformer les abus, qui fait une foule de réformes, qui veut établir une nouvelle langue et qui, pour assurer la liberté de la presse, travaille lui-même à l'invention d'une presse à domicile." (p 495).، بالفرنسية في النص الأصلي.

(*) كتب غرون letzten، "أحد الأخيرين" وليس âltesten "الأقدم".

مـن دون تـردد، ويتخيـل أن زعيمـاً قديمـاً مثـل كابيـه مقـدر لـه أن يقـي "إنسـانية" الهرغـرون مـن "الحذلقـة". ويسـتطرد كابيـه: "اصغـوا إلـى ميرابـو الشـهير!" (ص ٥٠٤). ويقـول الهرغـرون: "اصغـوا إلـى ميرابـو!" (ص ٢٩٢) ويستشـهد ببعـض المقاطـع التـي يشـدد كابيـه عليهـا، والتـي يؤيـد ميرابـو فيهـا الانقسـام المتسـاوي لـلإرث بيـن الأخـوة والأخـوات، ويهتـف الهرغـرون: "تلـك هـي الشـيوعية مـن أجـل العائلـة!" (ص ٢٩٢). وعلـى هـذا المبـدأ يسـتطيع الهرغرون أن يسـتعرض جميـع المؤسسـات البورجوازية مـن دون اسـتثناء، مصادفـاً فـي كل منهـا آثـاراً للشـيوعية، بحيـث يمكـن أن يقـال عنهـا، إذا مـا أخـذت بمجموعهـا، إنهـا تمثـل الشـيوعية الكاملـة. وإنـه ليسـتطيع أن يعمـد مدونـة نابوليـون مدونـة الملكيـة الجماعيـة! وإنـه ليسـتطيع أن يكتشـف المسـتعمرات الشـيوعية فـي المواخيـر، والثكنـات، والسـجون.

فلنختتـم هـذه المقتطفـات المضجـرة بكوندورسـيه. إن مقارنـة بيـن الكتابيـن سـوف تبيـن للقـارئ بـكل وضـوح طريقـة الهرغـرون الـذي يحـذف مقاطـع هنـا، ويصهـر بينهـا هنـاك، ويستشـهد بعناويـن هنـا، ويحذفهـا هنـاك، ويتخلـى عـن المعطيـات التاريخيـة، لكنـه يقتفـي كابيـه خطـوة خطـوة، حتـى حيـن لا يحتـرم هـذا الأخيـر التقويـم الزمنـي. ولا ينتهـي آخـر الأمـر إلـى أكثـر مـن تقويـم ملخـص لكابيـه ومموـه بصـورة رديئـة ووجلـة.

الهر غرون:

"إن كوندورسيه هو الجيروندي الراديكالي. إنه يعترف بإجحاف توزيع الملكية، ويعذر الشعب الفقير... فإذا كان الشعب سارقاً مبدئياً حتى درجة ما، فإن الذنب في ذلك يقع، في رأيه على كاهل المؤسسات نفسها".

"في صحيفة التعليم الاجتماعي [L'instruction sociale] ... يتسامح حتى مع الرأسماليين الكبار".

"لقد اقترح كوندورسيه على المجلس التشريعي أن يقسم المئة مليونٍ التي كان يملكها الأمراء الثلاثة الذين هاجروا إلى ١٠٠,٠٠٠ حصة... ولقد نظم التعليم وأنشأ الإغاثة العامة".

(راجع النص الأصلي).

في تقريره عن التعليم العام إلى المجلس التشريعي، يقول كوندورسيه: "إن هدف التعليم وواجب السلطة العامة أن يوفرا لكل فرد من الجنس البشري الوسائل

كابيه:

"أصغوا إلى كوندورسيه يؤكد في جوابه إلى أكاديمية برلين"... (يعقب ذلك مقطع طويل عن كابيه ينتهي كما يلي): "وهكذا فإن السبب في أن الشعب على الأغلب سارق مبدئياً حتى درجة ما هو أن المؤسسات رديئة".

"أصغوا إليه في صحيفته التعليم الاجتماعي... إنه يتسامح حتى مع الرأسماليين الكبار"، الخ.

"اسمعوا أحد الزعماء الجيرونديين، الفيلسوف كوندورسيه، في السادس من تموز (يوليو) ١٧٩٢ على منبر المجلس التشريعي": "ارسموا أن تباع في الحال أملاك الأمراء الفرنسيين الثلاثة" (لويس الثامن عشر وشارل العاشر وأمير كونديه) - إن الهر غرون يحذف هذا الإيضاح: "..إنها تساوي حوالى مئة مليون، وتستعيضون عن ثلاثة أمراء بمئة ألف مواطن... نظموا التعليم ومؤسسات الإغاثة العامة".

مـن أجـل تلبيـة حاجاتـه، الـخ". (يغيّـر الهـر غـرون تقريــر اللجنــة عــن مشــروع كوندورســيه، إلــى تقريــر قدمــه كوندورســيه نفســه) (غــرون، ص ٢٩٣، ٢٩٤).

لكــن أصغــوا إلــى لجنــة التعليــم العــام تقــدم إلـى المجلـس التشـريعي تقريرهـا عـن مشـروع التربيـة الـذي حـرره كوندورسـيه، فـي ٢٠ نيسـان (أبريـل) ١٧٩٢: "بحيـث أن يوفـر التعليـم العـام لجميـع الأفـراد وسـائل تلبيـة حاجاتهـم الخاصـة... ذلــك يجــب أن يكــون الهــدف الأول لتعليــم وطنــي، ومــن وجهــة النظــر هــذه فهــو بالنســبة إلــى الســلطة السياســية واجــب عــادل"(*). (ص ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٥، ٥٠٩).

(*) Cabet: "Entendez Condorcet soutenir dans sa réponse à l'académie de Berlin…" (suit un long passage chez Cabet qui se termine ainsi:) "C'est donc uniquement parce que les institutions sont mauvaises que le peuple est si souvent un .peu voleur par principe

Écoutez-le dans son journal l'Instruction sociale... il tolère même de grands capitalistes." etc "Écoutez l'un des chefs girondins, le philosophe Condorcet, le 6 juillet 1792 à la tribune de l'Assemblée législative: "Décrétez que les biens des trois princes français" (Louis XVIII, Charles X et le prince de Condé - précision omise par M. Grün)- "soient sur-le-champ mis en vente… ils montent à près de 100 millions, et vous remplacerez trois princes par cent mille citoyens… ".organisez l'instruction et les établissements de secours publics

Mais écoutez le Comité d'instruction publique presentant a l'Assemblée législative son rapport sur le plan d'education redige par Condorcet, le 20 avril 1792: "L'education publique doit offrir à tous les individus les moyens de pourvoir à leurs besoins… tel doit être le premier but d'une instruction nationale et sous ce point de vue elle est pour la puissance politique un devoir de justice", etc. (p 502,503,505,509). باللغة الفرنسية في النص الأصلي.

بهـذا الانتحـال الوقـح لكابيـه يسـعى الهرغـرون، الـذي يسـتخدم الطريقـة التاريخيـة، لأن يجعـل منظمـي العمـل الفرنسـيين واعيـن لماهيتهـم، والأكثـر مـن ذلـك، إنـه ينطلـق وفقـاً لهـذا المبـدأ: فـرِّق تسـد(*). وإنـه لا يتـردد فـي أن يحشـر بيـن مقتطفاتـه حكمـه الأخيـر علـى الأشـخاص الذيـن تعـرّف إليهـم قبـل لحظـة واحـدة مـن مطالعـة فقـرة عنهـم؛ ومـن بعـد يحشـر بعـض العبـارات الجوفـاء عـن الثـورة الفرنسـية ويقسـم المجمـوع إلـى نصفيـن باسـتخدام بعـض المقتطفـات مـن موريللـي الـذي جعلـه فيلغارديـل الـزي الشـائع فـي باريـس فـي لحظـة مناسـبة جـداً للهرغـرون، والـذي كانـت أهـم الفقـرات مـن مؤلفـه قـد ترجمـت فـي "إلـى الأمـام" [Vorwarts] (٢٧٢) الباريسـية قبـل وقـت طويـل مـن ترجمـة الهـر غـرون لهـا. وهـذه أمثلـة قليلـة بـارزة عـن طريقـة الهرغـرون المسـتهترة فـي الترجمـة.

موريللي:

"المصلحـة تفسـد القلـوب وتنشـر المـرارة علـى أعـذب الروابـط التـي تحولهـا إلـى سلاسـل ثقيلـة يكرههـا الأزواج عندنـا حيـن يكرهون أنفسـهم".

الهرغرون:

"المصلحـة تفسـد القلـوب وتنشـر المـرارة علـى أعـذب الروابـط التـي تحولهـا إلـى سلاسـل ثقيلـة يكرههـا المتزوجـون عندنـا حيـن ويكرهـون أنفسـهم فضـلاً عـن ذلـك"(**) (ص ٢٧٤).

هراء مطلق.

موريللي:

"إن نفسنا... تصاب بعطش قاسٍ جداً بحيث تغص في سبيل إروائه".

(*) Divide et impera، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) "L'intérêt rend les cœurs dénaturés et répant l'amertune sur les plus douxx lieus, qu'ils change en de pesantés chaïnes que detestent nous les eqoux en se dïtestant eus-mêmes"، بالفرنسية في النص الأصلي.

الهرغرون:

"إن نفسنا تصاب بعطش قاسٍ جداً حتى أنها تختنق كيما ترويه" (المصدر نفسه)(*).

هراء مطلق مرة أخرى.

موريللي:

"أولئك الذين يزعمون تنظيم العادات وإملاء القوانين"، الخ.

الهرغرون:

"أولئك الذين يدعون أنهم بشر ينظمون العادات ويملون القوانين"، الخ. (ص ٢٧٥)(**).

إن الهرغرون يرتكب هذه الأخطاء الثلاثة في سياق أربعة عشر سطراً في ترجمته لفقرة واحدة من موريللي. وإن في عرضه لموريللي عدة انتحالات أيضاً من فيلغارديل.

ويستطيع الهرغرون أن يلخص كل معرفته بالقرن الثامن عشر والثورة في الأسطر التالية:

"الحسية والربوبية والتوحيديةعصفت جميعاً بالعالم القديم. وتهاوى العالم القديم. وحين بني عالم جديد، كانت الربوبية منتصرة في الجمعية التأسيسية، والتوحيدية في مجلس النواب، بينما الحسية الصرفة قطع رأسها أو أسكتت". (ص ٢٦٣).

وكما نرى، فإن الحيلة الفلسفية القائمة على التخلص من التاريخ ببعض المقولات العقائدية تصادف هنا من جديد عند الهرغرون في أدنى مستوى، في شكلها الأشد ابتذالاً، وقد أرجعت إلى أبعاد العبارة الجوفاء التي تتقمص مظهر الأدب، والتي دورها الوحيد أن توفر الزخرفة لانتحاله. انذار إلى الفلاسفة!(***).

(*) "Notre âme… contracte une soil fi furnieuse qu'elle se suffoque pour l'étancher."، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) "Ceus qui pretandent règles les mœurs et dicter des lois", etc.، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) Avis aux philosophes، بالفرنسية في النص الأصلي.

لـن نتوقـف عنـد مـا يقولـه الهـر غـرون عـن الشـيوعية. إن مذكراتـه التاريخيـة منقولـة عـن كراسـات كابيـه، وكتـاب الرحلـة إلـى إيكاريـا يفسَّـر مـن وجهـة النظـر التـي أصبحـت مـن الآن فصاعـداً تقليديـة بالنسـبة للاشـتراكية الحقيقيـة (راجـع كتـاب المواطـن الألمانـي والحوليـات الرينانيـة)[٢٧٣]. ويبيـن الهرغـرون معرفتـه بالأوضـاع القائمـة فـي فرنسـا وإنكلتـرا علـى حـد سـواء حيـن يسـمى كابيـه "أوكونيـل الشـيوعي الفرنسـي" (ص ٣٨٢)، ومـن ثـم يقـول:

"إنـه سـيكون قمينـاً بتعليقـي علـى المشـنقة لـو كان يملـك القـدرة علـى ذلـك وكان يعـرف مـا يجـول فـي خاطـري ومـا أكتبـه عنـه. إن هـؤلاء المحرضيـن خطـرون بالنسـبة إلـى رجـال مثلنـا، لأنهـم محـدودون" (ص ٣٨٢).

برودون

"لقـد اثبـت شـتاين بلاهتـه بطريقـة غيـر مشـكوك فيهـا حيـن عالـج بـرودون باسـتخفاف". (راجـع: الأوراق الإحـدى والعشـرون، ص ٨٤). "والمؤكـد أن المـرء محتـاج إلـى مـا هـو أكثـر مـن الهـذر الهيغلـي القديـم كـي يتتبـع هـذا المنطـق المجسـد". (ص ٤١١).

ويمكن لبعض الأمثلة أن تبين أن الهر غرون قد بقي مخلصاً لطبيعته في هذا القسم أيضاً.

إنـه يترجـم (فـي الصفحـات ٤٣٧ - ٤٤٤) مقتطفـات عديـدة مـن الحجـج الاقتصاديـة التـي يقدمهـا بـرودون للبرهـان علـى أن الملكيـة أمـر لا يحتمـل، ويهتـف أخيـراً:

"لا توجـد حاجـة بنـا أن نضيـف شـيئاً إلـى هـذا النقـد للملكيـة الـذي يشـكل التصفيـة التامـة لهـا! ولا ننـوي أن نكتـب هنـا نقـداً جديـداً يلغـي بـدوره مسـاواة الإنتـاج وتشـتت الكلتـة العماليـة إلـى أفـراد متسـاوين ومنعزليـن. لقـد قدمـت أعـلاه الملاحظـات الضروريـة. أمـا الباقـي" (يعنـي مـا لـم يبينـه الهـر غـرون) "فسـوف يأتـي مـن تلقـاء نفسـه حيـن يعـاد بنـاء المجتمـع، حيـن تنشـأ العلاقـات الحقيقيـة للملكيـة". (ص ٤٤٤).

هكـذا يحـاول الهـر غـرون، وهـو يتهـرب مـن ضـرورة الاسـتقصاء الوثيـق لحجـج بـرودون عـن الاقتصـاد السياسـي، أن يتجاوزهـا بطريقتـه الخاصـة. إن براهيـن بـرودون مغلوطـة برمتهـا؛ ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن ذلـك سـوف يتضـح للهرغـرون حالمـا يقـدم لـه آخـرون البرهـان عليـه.

إن التعليقـات الـواردة فـي العائلـة المقدسـة عـن بـرودون - وبصـورة خاصـة حقيقـة أن بـرودون ينتقـد الاقتصـاد السياسـي مـن موقـف رجـل الاقتصـاد السياسـي، والقانـون مـن موقـف الفقيـه - ينسـخها الهـر غـرون. بيـد أنـه لـم يفهـم علـى أي حـال إلا الشـيء القليـل جـداً عـن القضيـة المقصـودة بحيـث يحـذف النقطـة الأساسـية مـن النقـد، [ألا وهـي] إن بـرودون يعـارض الأوهـام التـي ينطـوي عليهـا الفقهـاء والاقتصاديـون بممارسـتهم؛ وإنـه يسـتعيض عـن ذلـك بمجموعـة مـن [العبـارات] الجوفـاء الخاليـة مـن أي معنـى علـى الإطـلاق.

إن العنصـر الأهـم فـي كتـاب بـرودون فـي خلـق النظـام فـي الإنسـانية هـي جدليتـه التسلسـلية(*)، محاولـة إنشـاء منهـج فـي الفكـر يسـتعاض فيـه بعمليـة التفكيـر نفسـها عـن الأفـكار المأخـوذة علـى أنهـا وحـدات مسـتقلة. إن بـرودون يبحـث، مـن وجهـة النظـر الفرنسـية، عـن نظـام جدلـي كـذاك الـذي زودنـا بـه هيغـل فعـلاً. وبالتالـي فـإن ثمـة صلـة فعليـة بهيغـل هنـا، لا مجـرد تظاهـر وهمـي صـرف. وبالتالـي فقـد كان مـن اليسـير القيـام هنـا بنقـد جدليـة بـرودون لـو أنـه تحقـق بعـض النجـاح فـي نقـد الجدليـة الهيغليـة. بيـد أن هـذا الأمـر مـن الصعـب توقعـه مـن الاشـتراكيين الحقيقييـن، مـا دام الفيلسـوف فويربـاخ نفسـه، الـذي يدعـون الانتسـاب إليـه، لـم يعمـل علـى القيـام بمثـل ذلـك النقـد. ويبـذل الهرغـرون محاولـة مضحكـة كـي يتهـرب مـن القضيـة التـي مـن واجبـه حلهـا، ففـي الوقـت الـذي كان يتوجـب عليـه أن يلقـي فيـه إلـى الميـدان بمدفعيتـه الألمانيـة الثقيلـة، ينسـحب بحركـة غيـر لائقـة. إنـه يبـدأ بـأن يمـلأ صفحـات عديـدة بمقاطـع مترجمـة، ومـن ثـم يعلـن لبـرودون، بمحـاولات أدبيـة متبجحـة لكسـب الـود(**)، أن جدليتـه المتسلسـلة إنمـا هـي ذريعـة لـه كـي يلعـب دور العالـم. وفـي الحقيقـة إنـه يحـاول تعزيتـه كمـا يلـي:

(*) de la création de l´ordre dans l´humanité، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**)- Captatio benevolentiae، باللاتينية في النص الأصلي، وهي ذلك المقطع من المرافعة الذي كان الخطيب اللاتيني يحاول فيه أن يستجلب ود القضاة بواسطة التملق.

"آه، يا صديقي العزيز، لا تنسق مع الأوهام بخصوص كونك رجلاً عالماً" أو (معلماً خصوصياً). "لم يكن لنا من بد أن ننسى كل ما حاول معلمونا في المدرسة وكدشنا (Hacks) في الجامعة" (باستثناء شتاين وريبو وكابيه) "أن يعلمونا إياه بقدر كبير من العناء وبقدر كبير من الاشمئزاز المتبادل فيما بيننا". (ص ٤٥٧).

إن البرهان على أن الهرغرون لا يبتلع في الوقت الحاضر المعرفة "بقدر كبير من العناء"، وربما بقدر من الاشمئزاز لا يقل عن ذلك، ليقول إنه يبدأ دراساته الاشتراكية النزعة ورسائله في باريس في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر)، ولا يطل العشرون من كانون الثاني (يناير) حتى يكون قد أنهى ليس دراساته فحسب، بل يكون قد اختتم كذلك [عرض]

"انطباعه العام عن المجرى الضروري والتام الذي اتخذته الأشياء".

(٥)
الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين
أو
نبي الاشتراكية الحقيقية
"العالم الجديد"
أو
"ملكوت الرُّوح على الأرض البشارة"

"كان ثمة حاجة إلى إنسان" هكذا تقول المقدمة[٢٧٤] "يعبّر عن جميع أحزاننا، وجميع مطامحنا، وجميع آمالنا، وباختصار عن كل ما تضطرب به حقبتنا في أعماقها. وكان لا بد أن يبرز هذا الرجل، في ملء هذه الاختلاجات من الشكوك والآمال اللاهبة، كان لا بد أن يخرج من عزلة الروح، حاملاً حل اللغز، الذي تطوقنا رموزه الحية جميعاً. إن هذا الإنسان، الذي كانت حقبتنا تنتظره، هو الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين".

إن أوغست بيكر[*]، كاتب هذه الأسطر، قد انساق مع القناعة التي أملاها عليه شخص بسيط الذهن جداً تحوم حول أخلاقه الشبهات[**] بأن أي لغز لم يحل بعد، وبأن أي طاقة حيوية لم تستنهض في أي مكان - بأن الحركة الشيوعية، التي انتشرت حتى الآن في جميع البلدان المتحضرة، هي جوزة مدودة، قوقعة فارغة، بيضة على قياس العالم باضتها دجاجة

(*) La moralité forte douteuse، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Le Dr Kuhlman se révélera être un agent provocateur، بالفرنسية في النص الأصلي.

الكون الكبرى من دون تدخل أي ديك - بأن الجوزة الحقيقية وديك القن الحقيقي هو الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين !...

لكن هذا الديك الكلي الكبير قد تبين أنه طير مخصي عادي تغذى لفترة من الزمن على الحرفيين الألمان في سويسرا وهو لا يستطيع أن يفلت من مصيره المحتوم؟

حاشا أن نعتبر الدكتور كوهلمان من هولشتاين دجالاً عادياً ومحتالاً ماكراً لا يؤمن هو نفسه بالفعالية الشافية لأكسيره الحياتي ويقتصر على تطبيق علمه الخاص بإطالة الحياة على ضمان وجود شخصه الخاص - لا، فنحن ندرك جيداً أن هذا الدكتور الملهم دجال يؤمن بالروح، محتال تقي، داهية صوفي لا يتورع مطلقاً على أي حال، مثله مثل جميع أفراد نوعه، في اختيار وسائله، ما دام شخصه الخاص يتوحد بصورة وثيقة مع رسالته المقدسة. وبالفعل، فإن الرسائل المقدسة تتوحد دائماً بصورة وثيقة مع الشخصيات المقدسة، نظراً لأن مثل هذه الرسائل هي من طبيعة مثالية صرفة وليس لها وجود إلا في الرؤوس. إن جميع المثاليين، الفلسفيين والدينيين، والقدماء والمعاصرين، يؤمنون بالوحي، بالإلهام، بالمخلِّصين، بصنعة العجائب؛ أما ما إذا كان إيمانهم يتخذ شكلاً دينياً مبدئياً أم شكلاً فلسفياً منقى، فهذا لا يتوقف إلا على مستواهم الثقافي، بالضبط كما أن درجة الطاقة التي يملكونها، ومزاجهم، ومركزهم الاجتماعي، الخ، تحدد ما إذا كان موقفهم من الإيمان بالمعجزات هو موقف منفعل أو فاعل، أي ما إذا كانوا رعاة يجترحون العجائب أو خرافاً ثاغية؛ أو فضلاً عن ذلك فإنها تقرر ما إذا كانت الأهداف التي يلاحقونها نظرية أو عملية.

وكوهلمان شخص فائق النشاط في الحقيقة لا يفتقر إلى الثقافة الفلسفية؛ إن موقفه من المعجزات ليس بالموقف المفتعل في أي حال من الأحوال والأهداف التي يلاحقها أهداف عملية جداً.

إن كل ما يتقاسمه أوغست بيكر معه هي الآفة العقلية القومية. إن هذا الرجل الطيب:

"يشفق على أولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على إدراك أن إرادة حقبتنا وأفكارها لا يمكن أن يعبر عنها إلا الأفراد".

فعند المثالي ليس للحركات التي تغير وجه العالم وجود إلا في رأس فرد مصطفى،

ومصير العالم يتوقف على ما إذا كان هذا الرأس، الذي جعل الحكمة بأسرها ملكيته الخاصة، قد أصيب أو لم يصب بجرح قاتل بفعل بعض الأحجار الواقعية قبل أن يتوافر له الوقت من أجل إنجاز وحيه. ويضيف أوغست بيكر بلهجة التحدي:

"أيمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟ اجمعوا سائر فلاسفة الحقبة ولاهوتييها، ودعوهم يتشاوروا ويقترعوا، وانظروا ما الذي ينتج من ذلك!".

إن كل التطور التاريخي يرتد، في رأي المثالي، إلى تلك الأفكار المجردة عن التطور التاريخي كما تشكلت في "رؤوس" سائر فلاسفة الحقبة ولاهوتييها، وبما أنه من المحال "جمع هذه الرؤوس" جميعاً وحملها على "التشاور والاقتراع"، فلا بد بالضرورة أن يكون ثمة رأس مقدس واحد يتزعم جميع هذه الرؤوس الفلسفية واللاهوتية، ورأس الحربة هذه يمثل على المستوى التأملي وحدة جميع هذه الرؤوس الحمقاء - ذلك هو المخلص(*).

إن هذا النظام "القحفي" قديم قدم الإهرامات المصرية التي يشاركها في العديد من أوجه الشبه، وحديث حداثة الملكية البروسية التي بعث أخيراً، في عاصمتها، وقد استعاد شبابه. إن الدالايلامات المثاليين يتقاسمون حتى درجة بعيدة مع الدالاي لاما الحقيقي الأمر التالي: إنهم ليودون أن يقتنعوا بأن العالم الذي يستمدون عيشهم منه لا يمكن أن يوجد من دون برازهم المقدس. ولا يكاد هذا الجنون المثالي يوضع موضع الممارسة حتى تتضح طبيعته الخبيثة في الحال: تلهفه الرهباني إلى السلطة، وهوسه الديني، ودجله، ومراءاته التقوية، وخداعه المداهن. إن المعجزات هي جسر الحمير الذي يقود من مملكة الفكر إلى الممارسة. وإن الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين هو بالضبط هذا الجسر- إنه ملهم- وكلمته السحرية لا يمكن أن تخفق في تحريك أكثر الجبال استقراراً. ولشدة ما يحمل هذا من عزاء إلى تلك المخلوقات الصابرة التي لا تستطيع أن تستجمع ما يكفي من قدرة كي

(*) تلاعب بالألفاظ: في الألمانية Die Spitze، الرأس، وبالمعنى المجازي القيادة أو الزعيم، أما Der Spitzkopf فمعناها رأس الحربة - لكن الكلمة تعني في الوقت نفسه الخبيث أو الماكر، وهي في النص تعارض الكلمة Dickkopf، أو الرأس المسطح أو الأبله.

تنسف الجبل بالبارود العادي: ويا له من ينبوع ثقة بالنسبة إلى الأعمى والحائر العاجزين عن رؤية الروابط المادية التي تجمع تجلي الظاهرات المتعددة المشتتة للحركة الثورية!

يقول أوغست بيكر: "كانت نقطة التجمع تعوزنا حتى الآن".

إن القديس جورج يتغلب ومن دون عناء على جميع العقبات العقلية بتحويل جميع الأشياء المشخصة إلى أفكار، وبإنشاء تأملات تجعل منه نفسه وحدة كل هذه الأفكار، الأمر الذي يمكنه من "التحكم فيها وتنظيمها":

> "إن مجتمع الأفكار هو العالم. وإن وحدتها حتى التي تنظم العالم وتتحكم فيه". (ص ١٣٨).

وإن نبينا يسود ويحكم كما يحلو له في "مجتمع الأفكار" هذا.

> "فلنصرب إذن، على وجوهنا، تقودنا فكرتنا الخاصة، هنا وهناك، ونتأمل جميع الأشياء في أدق تفاصيلها، حسب متطلبات حقبتنا". (ص ١٣٨).

يا لها من وحدة تأملية للحماقة:

بيد أن الورق يتحمل كل شيء، والجمهور الألماني الذي يصور نبينا نبوءاته له يعرف الشيء القليل جداً عن تطور الأفكار الفلسفية في بلده الخاص بحيث لم يلحظ كيف أن نبينا العظيم، في نبوءاته التأملية، لا يفعل سوى تكرار العبارات الأشد تهافتاً بعد تكييفها مع أغراضه الخاصة.

وكما أن صنّاع المعجزات في الطب والعقاقير العجائبية يعولون على الجهل بقوانين العالم الطبيعي، كذلك يعتمد صنّاع المعجزات على الصعيد الاجتماعي والعقاقير الاجتماعية العجائبية على الجهل بقوانين العالم الاجتماعي - وليس الطبيب الساحر من هولشتاين من بين الاشتراكيين غير ذلك الراعي صانع المعجزات من نييديرامبت(Niederempt) .

إن الوحي الأول الذي يقدمه هذا الراعي صانع المعجزات إلى رعيته هو التالي:

> "أرى أمامي جماعة من المختارين الذين تقدموني والذين عملوا بالكلمة والفعل على خلاص حقبتنا، والذين قدموا الآن ليسمعوا ما عندي من أقوال بخصوص أفراح الجنس البشري وأتراحه".

"الكثيـرون تكلمـوا وكتبـوا مـن قبـل باسـم الجنـس البشـري، لكـن أيـاً منهـم لـم يعبـر عـن الطبيعـة الحقيقيـة لآلام الإنسـان وآمالـه وتوقعاتـه، أو أخبَـره كيـف يسـتطيع أن يحقـق رغباتـه. وهـذا بالضبـط مـا سـوف أصنعـه أنـا لكـم".

وقد آمنت به رعيته.

ليـس ثمـة فكـرة أصيلـة وحيـدة فـي كل عمـل هـذا "الـروح القـدس" الـذي يرجـع النظريـات الاشـتراكية الباليـة إلـى تجريـدات مـن النـوع الأعقـم والأعـم. وليـس ثمـة شـيء أصيـل حتـى فـي الشـكل أو الأسـلوب. إن آخريـن قـد قلـدوا بتوفيـق أعظـم الأسـلوب المقـدس للتـوراة. ولقـد اتخـذ كوهلمـان طريقـة لامينيـه (Lamennais) فـي الكتابـة نموذجـاً لـه، لكنـه ليـس سـوى صـورة كاريكاتوريـة للامينيـه، وسـوف نقـدم إلـى قرائنـا نموذجـاً عـن روائـع أسـلوبه.

"أخبرني أولاً، ما هو شعورك حين تفكر فيما ستؤول إليه في الأزلية؟

"في الحقيقة إن الكثيرين يسخرون ويقولون: ما شأني والأزلية؟

"ويفرك آخرون عيونهم ويسألون: الأزلية - ما عسى أن تكون؟

"ما هو شعورك حين تفكر في تلك الساعة التي سيبتلعك القبر فيها؟

"وأسمع أصواتاً عديدة - وفي عدادها صوت يقول:

"لقـد علمـوا فـي السـنوات الأخيـرة أن الـروح خالـدة، وأنـه إنمـا فـي المـوت ينحـل مـرة أخـرى فـي اللـه الـذي انبثـق منـه. بيـد أن أولئـك الذيـن يبشـرون بمثـل هـذه الأشـياء لا يسـتطيعون أن يخبرونـي مـا الـذي يبقـى منـي إذن. أواه، لـو أننـي لـم ارَ ضيـاء النهـار قـط؟ ومـع افتـراض أننـي لا أمـوت – أيـه، يـا والـدي، يـا أخوتـي، يـا أولادي، ويـا جميـع الذيـن أحبهـم، هـل أراكـم قـط مـرة أخـرى؟ لـو أننـي لـم أركـم أبـداً!" الـخ.

"وما هو شعورك، فيما عدا، ذلك، إذا فكرت في اللانهاية؟"...

إنـك تثيـر عندنـا الغثيـان، أيهـا الهـر كوهلمـان - ليـس لأنـك تحملنـا علـى التفكيـر فـي المـوت، بـل مـن جـراء هذياناتـك عـن المـوت، مـن جـراء أسـلوبك، مـن جـراء الوسـائل الباليـة التـي تسـتخدمها للتأثيـر فـي مشـاعر الآخريـن.

"مـا هـو شـعورك"، أيهـا القـارئ العزيـز، عندمـا تسـمع كاهنـاً يصـور لرعيتـه نيـران الجحيـم اللاهبـة كـي يخيفهـم ويجعـل عقولهـم بالغـة الترهـل، كاهنـاً تقتصـر بلاغتـه علـى تحريـض الغـدد الدمعيـة لسـامعيه وهـو يقامـر علـى جبـن أبنـاء أبرشـيته!

وبقـدر مـا يتعلـق الأمـر بمحتـوى "البشـارة" الهزيـل، فـإن القسـم الأول، أو المقدمـة إلـى "العالـم الجديـد"، يمكـن تلخيصـه بفكـرة بسـيطة: إن الهـر كوهلمـان قـدم مـن هولشـتاين كـي يؤسـس "ملكـوت الـروح"، "ملكـوت السـماوات"على الأرض؛ ولـم يعـرف أحـد قبلـه علـى وجـه الدقـة مـا هـو الجحيـم ومـا هـي السـماء - فالجحيـم هـو المجتمـع الماضـي بينمـا السـماء هـي المجتمـع الآتـي: "مملكـة الـروح"، وإنـه هـو نفسـه "الـروح" القـدس الـذي تتـوق إليـه الأنفـس...

هـذه الأفـكار العظيمـة ليسـت علـى وجـه الدقـة أفـكاراً أصيلـة جـداً للقديـس جـورج، ولـم تكـن بـه فـي الحقيقـة حاجـة لأن يجهـد نفسـه ويأتـي مـن هولشـتاين إلـى سويسـرا، ولا أن يخـرج مـن عزلـة "الـروح" وينـزل إلـى مـا بيـن الحِرفييـن[*]، ولا أن "يكشـف عـن نفسـه" كـي يقـدم هـذه "الرؤيـا" إلـى "العالـم".

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فأمـا إن الدكتـور كوهلمـان مـن هولشـتاين هـو "الـروح القـدس الـذي تتـوق إليـه الأنفـس"، فتلـك فكـرة تخصـه علـى وجـه الحصـر- والأرجـح أنهـا سـوف تبقـى ملكيتـه وحـده.

ووفقـاً "لرؤيـا" القديـس جـورج الخاصـة، فـإن كتابـه المقـدس سـوف يتخـذ الآن الاتجـاه التالـي: إنـه يقـول:

"سـوف تفتـح مملكـة الـروح أبوابهـا لكـم فـي شـكلها الأرضـي كـي تعاينـوا مجدهـا وتتبينـوا أنـه ليـس ثمـة خـلاص إلا فـي مملكـة الـروح. ومـن جهـة أخـرى، فـإن وادي دموعكـم سـوف ينكشـف لكـم كـي تعاينـوا بؤسـكم وتفهمـوا السـبب فـي جميـع آلامكـم. وعندئـذٍ سـوف أبيّـن الطريـق التـي تـؤدي مـن هـذا الحاضـر التعيـس إلـى المسـتقبل المليـء بالأفـراح. ولهـذا الغـرض اتبعونـي بالـروح إلـى قمـة نسـتطيع منهـا أن نتأمـل بمـلء الحريـة المنظـر العريـض".

(*) كان للدكتور كوهلمان وبيكر نفوذ على بعض العمال، وخصوصاً الحِرفيين الألمان المقيمين في سويسرا.

وهكذا، فإن النبي يمكننا بادئ الأمر أن نتأمل "منظره الجميل"، ملكوته السماوي. أما نحن فلسنا نرى شيئاً سوى إخراج بائس للسان سيمونية التي أسيء فهمها، في ثياب هي تقليد ساخر للامينية مزخرف بمقاطع من الهر شتاين.

وسوف نستشهد الآن بأهم الرؤى من ملكوت السماوات التي تقرر المنهج النبوئي (prophétique) بصورة حاسمة. مثال ذلك في الصفحة ٣٧:

"إن الاختيار سوف يكون حراً ومقرراً بميول كل شخص على حدة. وإن الميول مقررة بمواهب المرء الطبيعية".

"إذا كان كل امرئ في المجتمع" (يتنبأ القديس جورج) "يتبع ميله الخاص، فإن جميع قدرات المجتمع من دون استثناء سوف تزدهر، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه سوف يتم إنتاج ما يتفق مع حاجات المجتمع من دون استثناء، في مجال الروح وفي مجال المادة على حد سواء. ذلك أن المجتمع يملك على الدوام من القدرات والطاقات بقدر ما يحتاجه"... "إن الجاذبيات تتناسب بصورة مطردة مع المصائر"(*). (راجع برودون أيضاً).

إن الهر كوهلمان يختلف هنا عن الاشتراكيين والشيوعيين بمجرد سوء فهم ينبغي البحث عن أسبابه في ملاحقته للأهداف العملية ومن دون ريب في افتقاره إلى الذكاء أيضاً. إنه يخلط بين تنوع القدرات والمواهب وبين تفاوتالخيرات والمتعة الذي تحدد الملكية مداه، وبالتالي يندد بالشيوعية.

"يجب ألا يكون لأي امرئ هناك" (يعني في ظل الشيوعية) "أي ميزة على غيره"، هذا ما يصرح النبي به، "ويجب ألا يملك أي امرئ أكثر من سواه أو يعيش بصورة أفضل منه... وإذا انطويت على شكوك بهذا الشأن وتخلفت عن الانضمام إلى جوقتهم، فسوف يسيئون إليك، ويدينونك، ويضطهدونك، ويشنقونك على مشنقة. (ص ١٠٠).

ولا بد للمرء من القبول بأن كوهلمان يتنبأ أحياناً بصورة صائبة.

(*) Les attractions sont proportionnelles aux destinées، بالفرنسية في النص الأصلي.

"وفيمـا عـدا ذلـك سـوف يوجـد فـي صفوفهـم جميـع أولئـك الذيـن يهتفـون: لتسـقط التـوراة! ليسـقط قبـل كل شـيء الديـن المسـيحي، ذلـك أنـه ديـن الـذل والعبوديـة! ليسـقط كل إيمـان عامـة! إننـا لا نعـرف مـا هـو اللـه أو الخلـود! إنهمـا مـن صنـع الخيـال وحـده، وقـد اسـتغلا ولفقـا بصـورة متصلـة مـن قبـل المخاتليـن والكذبـة فـي مصلحتهـم الخاصـة" (يجـب أن يقـرأ هـذا: وقـد اسـتغلا مـن قبـل الكهنـة فـي مصلحتهـم الخاصـة). "إن ذلـك الـذي لا يـزال يؤمـن بمثـل هـذه الأشـياء هـو مـن أكبـر الحمقـى!".

إن كوهلمـان يهاجـم بعنـف خـاص أولئـك الذيـن يعارضـون بصـورة مبدئيـة عقيـدة الإيمـان، والتواضـع، والتفـاوت، أي عقيـدة "فـوارق الظـرف والمولـد" (différence de coudition et de naissance).

إنـه يؤسـس اشـتراكيته علـى المذهـب البغيـض للعبوديـة المقـدرة - الـذي يذكـر المـرء بشـدة، كمـا صاغـه كوهلمـان، بفريديريـك روهمـر- علـى التراتـب التسـلطي. وفـي المحـل الأخيـر علـى شـخصه المقـدس الخـاص!

ونجد في الصفحة ٣٤:

"كل فـرع للعمـل يديـره العامـل الأحـذق الـذي يشـارك فيـه بنفسـه، وكل مجـال فـي مملكـة المتعـة يديـره العضـو الأكثـر مرحـاً الـذي يسـهم هـو نفسـه بنصيبـه فـي المتـع جميعـاً. لكـن بمـا أن المجتمـع غيـر منقسـم ويملـك روحـاً واحـدة فقـط، فـإن النظـام بكاملـه سـوف ينظـم ويسـاس مـن قبـل رجـل واحـد - ولسـوف يكـون هـذا الرجـل الأكثـر حكمـة والأكثـر فضيلـة والأكثـر غبطـة".

ونعلم في الصفحة ٣٤:

"إذا سـعى الإنسـان إلـى الفضيلـة بالـروح، فإنـه يحـرض ويحـرك أعضـاءه إذن، ويحـوّل ويقولـب ويصنـع جميـع الأشـياء التـي تسـمه وتحيـط بـه كمـا يحلـو لـه. وإذا هـو اختبـر الرفاهيـة فـي الـروح فإنـه يجـب إذن، أن يختبرهـا فـي جميـع حـركات جسـده وحياتـه. ولـذا فـإن الإنسـان يـأكل ويشـرب ويلتـذ بذلـك، ولـذا، فإنـه يغنـي، ويلعـب، ويرقـص، ويقبـل، ويبكـي، ويضحـك".

مما لا شك فيه أن التأثير الذي يمارسه تأمل الله على القابلية، والذي تمارسه الغبطة الروحية على الغريزة الجنسية، ليس في أي حال من الأحوال فكرة تستطيع الكوهلمانية أن تزعم ملكيتها الحصرية، بيد أنها تلقي النور على فقرات غامضة عديدة عند هذا النبي.

مثال ذلك، في الصفحة ٣٦:

"إن كلتيهما" (الملكية والمتعة) "تسترشدان بعمله" (يعني عمل الإنسان). "إن العمل هو مقياس حاجاته". (بهذه الطريقة يشوه كوهلمان المطلب القائل: إن المجتمع الشيوعي يملك بمجموعه من المواهب والقدرات بقدر ما يملك من الحاجات). "ذلك أن العمل هو التعبير عن الأفكار والغرائز، والأفكار والغرائز تشكل أساس الحاجات. ولكن بما أن مواهب البشر وحاجاتهم مختلفة ومقسمة بحيث إن المواهب لا يمكن أن تنمو والحاجات لا يمكن أن تلبى إلا إذا عمل كل فرد باستمرار من أجل الجميع وإلا إذا تم تبادل وتقسيم ما ينتجه الجميع وفقاً لاستحقاق" (؟) "كل فرد - لهذا السبب لا يتلقى كل واحد إلا قيمة عمله".

إن هذا الهراء الاجتراري بأسره سوف يكون - مثله كمثل الجمل التالية وعدد كبير من الجمل الأخرى التي نوفرها عن القارئ - غامضاً كلياً، بالرغم من "البساطة والوضوح الرائعين" اللذين يثني عليهما أ. بيكر أيما ثناء في هذا "الوحي"، لو لم نكن نملك مفتاحاً من أجل دراسة الأغراض العملية التي ينشدها النبي. إن الأمور جميعاً سوف تتضح في الحال.

ويستطرد النبي الناطق بفم الهر كوهلمان:

"إن القيمة تتحدد وفقاً لحاجات الجميع" (؟). "في القيمة يكون عمل كل فرد محتوى دائماً، ولقاءه" (؟) "يستطيع أن يتناول كل ما يرغب فؤاده به".

وفي الصفحة ٣٩ يرد ما يلي:

"أنظروا يا اصدقائي، إن مجتمع البشر الحقيقيين يعتبر الحياة دائماً كمدرسة... يجب على الإنسان أن يتثقف فيها. وبذلك يريد هذا المجتمع أن يبلغ السعادة. لكن مثل هذا الشيء"؟ "يجب أن يتجلى كظاهرة ويصبح مرئياً"(!) "وإلا فإنه"(؟) "يكون مستحيلاً".

ما الذي يقصده الهر جورج كوهلمان من هولشتاين حين يقول إن "مثل هذا الشيء"، (الحياة أم الغبطة؟) يجب "أن يتجلى كظاهرة" و"يصبح مرئياً"، لأنه سوف "يكون" لولا ذلك "مستحيلاً" - وإن "العمل" "محتوى في القيمة" - وإن المرء يستطيع أن يحصل لقاءه (لقاء ماذا) على ما يرغب فؤاده فيه - وأخيراً، إن (القيمة) تتحدد وفقاً "للحاجات"؛ إنه ليكون من المحال أن يفهم المرء هذا ما لم يأخذ مرة أخرى بعين الاعتبار نقطة الوحي برمته، الأساس العملي لذلك كله.

لنجرب إذن، أن نقدم تفسيراً عملياً.

إننا نعلم من أوغست بيكر أن القديس جورج كوهلمان من هولشتاين لم يحظ بالنجاح في بلده الخاص. ولقد جاء إلى سويسرا ووجد هناك "عالماً جديداً" كل الجدة، الجمعيات الشيوعية للحرفيين الألمان. إن هذا بالضبط ما يحتاجه - وفي الحال ارتبط بالشيوعية والشيوعيين. وكما يخبرنا أوغست بيكر، فإنه "عمل من دون هوادة على تطوير مذهبه وعلى رفعه إلى مستوى ذلك العصر العظيم"، يعني شيوعياً بين الشيوعيين لمجد الله العظيم(*). ولقد كانت الأشياء جميعاً حتى الآن تسير على ما يرام.

لكن بين المبادئ الشيوعية مبدأ حيوياً يميزها من الاشتراكية الرجعية في جميع أشكالها: تلك هي الفكرة التجريبية، القائمة على معرفة طبيعة الإنسان، بأن الفوارق في الدماغ والقدرة الذهنية لا تشترط في أي حال من الأحوال االفروق في طبيعة المعدة والحاجات الجسدية؛ وبالتالي فإن المبدأ الخاطئ القائم على النظام الراهن، "لكل حسب قدراته"، يجب أن يتغير، بقدر ما يتعلق بالمتعة بمعناها الأضيق، إلى المبدأ التالي: "لكل حسب حاجاته" ؛ وبكلام آخر، فإن الفروق في النشاط، في الأعمال، لا تسوغ أي تفاوت وأي امتياز على صعيد الثروة والمتعة.

وهذا ما لا يستطيع نبينا الاعتراف به؛ ذلك أن الامتيازات، هي محاسن مركزه، الشعور بأنه مصطفى، هذا هو بالضبط حافز النبي.

"لكن مثل هذا الشيء يجب أن يتجلى كظاهرة ويصبح مرئياً، وإلا فإنه يكون مستحيلاً".

(*) ad majorem Dei gloriam، باللاتينية في النص الأصلي، وهو شعار اليسوعيين.

إن النبـي لـن يكـون نبيـاً البتـة مـن دون بعـض الأفضليـات العمليـة، مـن دون بعـض الحوافـز الماديـة؟ لسـوف يكـون رجـلاً للـه ليـس فـي الممارسـة، بـل فـي النظريـة فحسـب، يعنـي فيلسـوفاً. وبنـاء علـى ذلـك يجـب علـى النبـي أن يفهـم الشـيوعيين أن الأشـكال المختلفـة للنشـاط، للعمـل، تسـوغ الفـروق فـي القيمـة والغبطـة (أو المتعـة والجـدارة واللـذة، فذلـك كلـه شـيء واحـد)، وبمـا أن كل فـرد يحـدد بنفسـه مـا يلزمـه مـن أجـل غبطتـه كمـا يحـدد نـوع عملـه، فإنـه يحـق لـه، هـو النبـي - وهـذه هـي نقطـة الوحـي العمليـة - أن يطالـب بحيـاة أفضـل مـن الحرفـي المـادي (*).

إن جميـع الفقـرات الغامضـة تتضـح بعـد مـا تقـدم: إن "تملـك" كل فـرد و"متعتـه" يجـب أن يكونـا رهنـاً "بعملـه"؛ وإن "عمـل" الإنسـان يجـب أن يكـون مقيـاس "حاجاتـه"؛ وبالتالـي ينبغـي لـكل فـرد أن يحصـل علـى "قيمـة" عملـه؛ وأن "القيمـة" تتحـدد هـي نفسـها وفقـاً "للحاجـة"؛ وإن عمـل كل فـرد "محتـوى" فـي القيمـة وأنـه يسـتطيع الحصـول لقـاءه علـى مـا يرغـب فيـه فـؤاده؛ وأخيـراً، إن "غبطـة" المصطفـى يجـب أن "تصبـح جليـة ومرئيـة". لأنهـا تكـون "محالـة" لـولا ذلـك. إن هـذا الهـراء كلـه يصبـح الآن مفهومـاً.

ولسـنا نعـرف إلـى أي مـدى تمضـي علـى وجـه الدقـة المطالـب العمليـة التـي يفرضهـا الدكتـور كوهلمـان علـى الحرفييـن. بيـد أننـا نعـرف أن مذهبـه عقيـدة أساسـية لـكل طمـوح روحـي أو زمنـي إلـى السـلطة، نقـاب صوفـي يسـتتر وراءه كل نشـدان للـذة عنـد جميـع المنافقيـن والماكريـن. نعـرف أنـه الحجـة التـي تخفـي كل عمـل شـائن وأنـه مصـدر قـدر كبيـر مـن الاضطـراب الذهنـي.

ويجـب ألا ننسـى أن نبيـن للقـارئ الطريـق الـذي، فـي رأي الهـر كوهلمـان مـن هولشـتاين، "يقـود هـذا الحاضـر الكئيـب إلـى المسـتقبل الفـرح". إن هـذا الطريـق بهيـج ونشـيط مثـل الربيـع فـي مـرج مزهـر أو مثـل مـرج مزهـر فـي الربيـع.

> "فـي لطـف ونعومـة، بأصابـع أدفأتهـا الشـمس. تخـرج البراعـم، والبراعـم تصبـح أزهـاراً، وتصـدح القُبّـرة والهـزار، وينهـض الجنـدب مـن بيـن العشـب. فليـأت العالـم الجديـد إذن، مثلمـا يأتـي الربيـع". (ص ١١٤ ومـا يليهـا).

إن النبـي يرسـم الانتقـال مـن العزلـة الاجتماعيـة الراهنـة إلـى الحيـاة الجماعيـة بألـوان

(*) وفضلًا عن ذلك، فإن النبي يعترف بذلك صراحة في محاضرة لم تنشر (ملاحظة من المؤلفين).

شاعرية حقاً. ومثلما حوّل "المجتمع الحقيقي إلى مجتمع أفكار"، بحيث "يستطيع أن يطوف هنا وهناك، تقوده فكرته الخاصة، ويتأمل كل شيء في أدق تفاصيله وفقاً لمطالب حقبته"، يحوّل بالطريقة نفسها الحركة الاجتماعية الفعلية التي تنادي منذ الآن، في جميع البلدان المتحضرة، باقتراب انتفاضة اجتماعية هائلة، إلى عملية اهتداء هادئ ومسالم، إلى حياة هادئة سوف تتيح للمالكين والحاكمين في العالم أن يهجعوا في راحة ذهنية تامة. إن التجريدات النظرية المستخرجة من الأحداث الواقعية، التي تشكل دلالة على صعيد الأفكار هي الواقع بالنسبة إلى المثالي، وليست الأحداث الواقعية سوى دلائل على "أن العالم القديم يسير إلى حتفه".

إن النبي يضيف في الصفحة ١١٨:

"لماذا تسعون بكل هذا القلق خلف أشياء اللحظة الراهنة التي لا تعدو كونها دلائل على أن العالم القديم يسير إلى حتفه؛ ولماذا تبددون قواكم في جهود لا يمكن أن تحقق آمالكم ومطامحكم؟".

"لا تدمروا ولا تهدموا ما يعوق طريقكم، بل دوروا حوله واتركوه جانباً. وعندما تدورون حول الحاجز وتتركونه جانباً فإنه سوف يكف عن الوجود من تلقاء ذاته، ذلك أنه لن يجد قوتاً آخر بعد الأن".

"إذا نشدتم الحقيقة ونشرتم النور، فإن الكذب والظلام سوف يتلاشيان من وسطكم إذن". (ص ١١٦).

"لكن سوف يكون هناك كثيرون يقولون: كيف نشيد حياة جديدة ما دام النظام القديم سائداً وهو يعوقنا عن ذلك؟ ألا يجب تدميره قبلاً؟ ويرد الأكثر حكمة والأكثر فضيلة والأكثر سعادة" أبداً، أبداً. إذا كنتم تقيمون مع آخرين في منزل أصبح مع الزمن متداعياً وهو ضيق جداً وغير مريح بالنسبة إليكم، ويريد الآخرون أن يبقوا فيه، فيجب إذن، ألا تهدموه وتقيموا في العراء، بل يجب أن تبنوا قبلاً بيتاً جديداً، وحين يصبح جاهزاً تدخلونه وتتخلون عن البيت القديم لمصيره". (ص ١٢٠).

ويقـدم النبـي الآن صفحتيـن مـن القواعـد التـي يجـب أن يتبعهـا المـرء كـي يتغلغـل فـي هـذا العالـم الجديـد. ومـن ثـم يصبـح عدوانيـاً:

"لكنـه لا يكفـي أن تتكاتفـوا وتتخلـوا عـن العالـم القديـم - يجـب أيضـاً، أن تحملوا السـلاح ضـده لتعلنـوا الحـرب عليـه وتوسـعوا مملكتكـم وتقووهـا. وعلـى أي حـال، لـن يكـون ذلـك باسـتعمال العنـف، بـل بالأحـرى باسـتعمال الإقنـاع الحـر".

لكـن إذا وجـد المـرء نفسـه مجبـراً، بعـد كل شـيء، علـى أن يتنـاول سـيفاً فعليـاً ويغامـر بحياتـه الخاصـة فعليـاً "كـي يسـتولي علـى السـماء بقـوة السـلاح" فـإن النبـي يعـد كتائبـه المقدسـة بخلـود علـى الطريقـة الروسـية (إن الـروس يؤمنـون بأنهـم سـينهضون مـن جديـد كل فـي محلتـه الخاصـة إذا قتلـوا فـي المعركـة ضـد العـدو):

"وأولئـك الذيـن سيسـقطون علـى جانـب الطريـق سـوف يولـدون مـن جديـد وينهضـون وهـم أجمـل ممـا كانـوا عليـه مـن قبـل. وبالتالـي" (بالتالـي!) "لا تفكـروا فـي حياتكـم ولا تخافـوا المـوت". (ص ١٢٩).

إن النبـي يطمئـن كتائبـه المقدسـة قائـلاً: حتـى فـي نـزاع بالأسـلحة الفعليـة، فإنكـم لا تخاطـرون فعليـاً بحياتكـم، بـل تتظاهـرون بأنكـم تخاطـرون بذلـك .

إن مذهـب النبـي مهـدئ بـكل معنـى. وبعـد هـذه النمـاذج مـن كتابـه المقـدس، لا يمكـن للمـرء أن يعجـب مـن التصفيـق الـذي لقيـه بيـن بعـض البورجوازييـن المسـالمين الذيـن يرتـدون ملابـس النـوم.

فريدريك إنجلز
الاشتراكيون الحقيقيون[٢٧٥]

انقضت عدة أشهر منذ كتبت الأوصاف الواردة أعلاه عن الاشتراكيين الحقيقيين، لكن الاشتراكية الحقيقية، التي لم تظهر حتى الآن إلا بصورة متفرقة هنا وهناك، قد تلقت خلال هذه المرحلة دفعاً كبيراً، ووجدت ممثلين لها في جميع أجزاء الوطن، بل بلغت بعض الأهمية بوصفها حزباً أدبياً. وفيما عدا ذلك، فقد انقسمت في الوقت الحاضر إلى فرق عديدة انفصلت بصورة حاسمة عن بعضها بعضاً من جراء فردية كل منها على حدة، وذلك بالرغم من تلاحمها الوثيق بفعل الرابطة المشتركة للشعور الألماني والروح العلمية، وبفعل الجهود والأهداف المشتركة. وبهذه الطريقة فإن "كتلة النور العمائية" - حسب التعبير الظريف للهرغرون عن ذلك - للاشتراكية الحقيقية التي انتقلت في سياق الزمن إلى حالة من "التألق المنتظم"؛ لقد باتت متمركزة في نجوم وكواكب يستطيع البورجوازي الألماني في إشعاعها اللطيف والهادئ أن يفكر مرتاح البال في مشاريعه الخاصة بصدد الحصول على ملكية صغيرة وآماله بصدد رفع الطبقات الدنيا للأمة.

ولا يجوز لنا أن نستأذن من الاشتراكية الحقيقية قبل أن ندرس قبلاً بمزيد من العمق على الأقل أكثر هذه الفرق تطوراً. وسوف نرى كيف أن كلاً منها انتشر بادئ الأمر في درب التبان الخاص بالحب الكلّي للجنس البشري، ومن بعد، بنتيجة حدوث التخمر الحامض، تشكلت "الحماسة الحقيقية من أجل الجنس البشري" (على حد تعبير الهر الدكتور لونينغ، وهو بكل تأكيد مصدر موثوق) بوصفها رقاقة منفصلة وانفصلت عن المصل الليبرالي البورجوازي؛ ولسوف نرى كيف مثلت لفترة من الزمن على أنها بقعة سديمية في السموات

الاشـتراكية، وكيـف ازدادت البقعـة السـديمية حجمـاً وتألقـاً وانقسـمت أخيـراً، مثـل صـاروخ سـماوي، إلـى مجموعـة متألقـة مـن النجـوم والكواكـب.

إن الفريـق الأقـدم الـذي كان سـباقاً إلـى التطـور بصـورة مسـتقلة هـو فريـق الاشـتراكية الويسـتفالية. بفضـل المشـاجرات الهامـة بيـن هـذا الفريـق والشـرطة البروسـية الملكيـة، وبفضـل مـا أبـداه هـؤلاء الرجـال التقدميـون الويسـتفاليون مـن حماسـة لاكتسـاب الشـهرة، اسـتطاع الـرأي العـام الألمانـي أن يطالـع كل تاريـخ هـذا الفريـق فـي صحـف كولونيـا وتريـر وغيرهـا مـن الصحـف. ولـذا فليسـت بنـا حاجـة هنـا لأكثـر مـن الإشـارة إلـى الأمـور الأكثـر جوهريـة.

إن الاشـتراكية الويسـتفالية هـي فـي موطنهـا فـي إقليـم بييليفلـد، فـي توتوبورجـر وودز. وكانـت الصحـف فـي ذلـك الحيـن تشـتمل علـى تلميحـات سـرية إلـى الطبيعـة الصوفيـة لمرحلتهـا الباكـرة. بيـد أنهـا سـرعان مـا انتقلـت إلـى طـور البقعـة السـديمية... فمـع العـدد الأول مـن المركـب البخـاري الويسـتفالي انفتحـت وكشـفت للعيـن المذهولـة عـن جمهـرة مـن النجـوم البراقـة. وإننـا لنجـد أنفسـنا إلـى الشـمال مـن خـط الاسـتواء، وعلـى حـد تعبيـر أغنيـة قديمـة:

في الشمال يرى المرء برج الحمل وبرج الثور

والتوأمين والسرطان والأسد والعذراء أيضاً.

إن "الصحافـة الجيـدة" قـد أكـدت فـي وقـت مبكـر جـداً وجـود "العـذارى"؛ ولقـد كان "الأسـد" وهـو أرمينويـوس الشيروسـكي(Arminius Cheruscan) نفسـه. الـذي غـادر رفاقـه الأعـزاء بعـد وقـت قصيـر مـن انفتـاح البقعـة السـديمية الويسـتفالية، وهـو يهـز حاليـاً، بوصفـه منبـراً للشـعب[٢٧٦]، عرفـه الأشـقر مـن أميـركا. ولـم تمـض فتـرة قصيـرة حتـى لحـق السـرطان بـه "مـن جـراء بعـض الأعمـال التجاريـة غيـر السـارة"، وعلـى الرغـم مـن أن الاشـتراكية الويسـتفالية أصبحـت أرمـلاً بعـد ذلـك، فقـد اسـتمرت مـع ذلـك فـي إدارة شـؤونها. وأمـا التوأمـان، فـإن أحدهمـا ذهـب كذلـك إلـى أميـركا، كيمـا يؤسـس هنـاك مسـتعمرة؛ وفيمـا هـو اختفـى هنالـك، فـإن التـوأم الآخـر اكتشـف "الاقتصـاد القومـي فـي أشـكاله المقبلـة" (راجـع لونينـغ: هـذا كتـاب يخـص الشـعب، المجلـد الثانـي)[٢٧٧]. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن جميـع هـذه الوجـوه المتنوعـة تافهـة بالمقارنـة. فثقـل الفريـق متمركـز فـي الحمـل والثـور، ذينـك الكوكبيـن الويسـتفاليين الحقيقييـن، اللذيـن يشـق المركـب البخـاري الويسـتفالي الأمـواج بـكل أمـان تحـت حمايتهمـا[٢٧٨].

لقـد تمسـك المركـب البخـاري الويسـتفالي لفتـرة طويلـة مـن الزمـن بالأسـلوب البسـيط(*) للاشـتراكية الحقيقية."لـم تمـض سـاعة واحـدة مـن الليـل"[٢٧٩] لـم يـذرف فيهـا دموعـاً مريـرة علـى بـؤس الإنسـانية المعذبـة. لقـد بشـر بإنجيـل الإنسـان - الإنسـان الحقيقـي، الإنسـان الواقعـي الحقيقـي - بـكل قوتـه، لكـن هـذه القـوة لـم تكـن بالطبـع كبيـرة بصـورة خاصـة. لقـد كان مـن طبيعـة لينـة، وكان يفضـل حلـوى دقيـق الأرز بالحليـب علـى الفلفـل الأسـباني. ولـذا فقـد كانـت انتقاداتـه مـن طبيعـة لطيفـة جـداً، وكان يفضـل أن يتعـاون مـع نقـاد يضاهونـه فـي الرحمـة والمحبـة بالأحـرى مـن تلـك القسـوة البـاردة وعديمـة الرحمـة فـي إصـدار الأحـكام، هـذه القسـوة التـي كانـت تشـق طريقهـا الآن إلـى الصفـوف الأولـى. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فقـد كان قلبـه كبيـراً، لكـن شـجاعته كانـت ضئيلـة، بحيـث أن العائلـة المقدسـة عديمـة الشـعور قـد لاقـت هـي الأخـرى الاستحسـان عنـده. ولقـد كان ينشـر التقاريـر بأمانـة عظمـى عـن الأطـوار المختلفـة للروابـط المحليـة فـي بييلفيلـد، ومونسـتر، الـخ، مـن أجـل ارتقـاء الطبقـات الكادحـة. وكان أعظـم الانتبـاه يكـرس للأحـداث الهامـة فـي متحـف بييلفيلـد. وكيمـا يكـون الحضـري والريفـي الويسـتفاليان علـى علـم بالأوضـاع، فقـد كان الثنـاء يغـدق فـي المجلـة الشـهرية عـن الأحـداث العالميـة [٢٨٠]، فـي ختـام كل عـدد، علـى نفـس أولئـك الليبرالييـن الذيـن هوجمـوا فـي المقـالات الأخـرى مـن ذلـك العـدد. وبالمناسـبة، فـإن الحضـري والريفـي الويسـتفاليين قـد نقلـت إليهمـا الأخبـار عـن مخـاض الملكـة فكتوريـا، وانتشـار الطاعـون فـي مصـر، وهزيمـة الـروس فـي إحـدى المعـارك فـي القوقـاز.

لقـد كان مـن الواضـح أن المركـب البخـاري الويسـتفالي كان مجلـة دوريـة لهـا كل الحـق فـي المطالبـة بشـكر جميـع الأشـخاص أصحـاب النوايـا الطيبـة والمديـح المتدفـق مـن قبـل الهـر فـر. شـنيك فـي مـرآة المجتمـع [Gesellschaftsspiegel][٢٨١]. لقـد كان الثـور ينجـز، راضيـاً مبتسـماً، مقالاتـه عـن الـروح المسـتنقعية للاشـتراكية الحقيقيـة. وبالرغـم مـن أن الرقيـب كان يحـز فـي جسـده أحيانـاً هـو الآخـر، فإنـه لـم تكـن بـه حاجـة قـط لأن يتـأوه: "تلـك كانـت الفقـرة الفضلـى"؛ لقـد كان الثـور الويسـتفالي حيوانـاً للجـر لا ثـوراً أصيـلاً. وإن [The Rheinische Beobachter] نفسـها لـم تأخـذ قـط، سـواء علـى المركـب البخـاري الويسـتفالي عامـة أم علـى

(*) mode simple، بالفرنسية في النص الأصلي.

الدكتـور أوتـو لونينـغ خاصـة، التهجـم علـى الأخـلاق. وباختصـار، فـإن فـي مقـدور المـرء أن يفتـرض أن المركـب البخـاري، منـذ حظـر عليـه نهـر ويـزر، لا يطوف إلا علـى النهـر الأسـطوري إريدانـوس[Eridanus] المنقـول إلـى مـا بيـن الكواكـب (ذلـك أنـه ليـس ثمـة ميـاه أخـرى تتدفـق فـي بييلفيلـد)، وإن[٢٨٢] المركـب البخـاري قـد بلـغ الدرجـة العليـا مـن الكمـال الإنسـاني.

لكـن المركـب البخـاري، فـي سـائر الجهـود التـي بذلهـا حتـى الآن، لـم يشـرح إلا الطـور الأوسـط مـن الاشـتراكية الحقيقيـة، وحوالـى صيـف ١٨٤٦ تـرك علامـة الثـور واقتـرب مـن علامـة الحمـل، أو بالأحـرى، كـي نصـوغ ذلـك بصـورة أصـح تاريخيـاً، اقتـرب الحمـل منـه، ولقـد كان الحمـل رجـلاً كثيـر- الأسـفار وعلـى مسـتوى زمانـه تمامـاً. ولقـد أوضـح للثـور أوضـاع العالـم حاليـاً، وأن "العلاقـات الواقعيـة" هـي الشـيء الرئيسـي فـي الوقـت الحاضـر، وأنـه يجـب بالتالـي القيـام بانعطافـة جديـدة. وكان الثـور متفقـاً معـه كل الاتفـاق، ومنـذ ذلـك الحيـن قـدم المركـب البخـاري الويسـتفالي مشـهداً أعظـم رفعـة بمـا لا يقـاس: الأسـلوب المركـب(*) للاشـتراكية الحقيقيـة.

لقـد ظـن "الحمـل والثـور" أنـه لا يمكـن أن يكـون هنـاك طريقـة مـن أجـل تحقيـق هـذه الانعطافـة الكريمـة أفضـل مـن إعـادة نشـر نقدنـا لصحيفـة منبـر الشـعب النيويوركيـة(The New York Volks-Tribun)[٢٨٣] الـذي أرسـلناه مخطوطـاً إلـى الصحيفـة التـي قبلتـه، إن المركـب البخـاري، الـذي لـم يعـد يتـردد الآن مـن التهجـم علـى أسـده الخـاص، الـذي كان بعيـداً فـي أميـركا (إن الأسـلوب المركـب للاشـتراكية الحقيقيـة يظهـر قـدراً مـن الشـجاعة أعظـم حتـى درجـة بعيـدة مـن الأسـلوب البسـيط)، قـد كان فضـلاً عـن ذلـك علـى قـدر كافٍ مـن المكـر بحيـث ربـط الملاحظـة المتسـامحة التاليـة بالنقـد المذكـور أعـلاه:

"إذا شـاء أي امـرئ أن يجـد فـي المقالـة أعـلاه نقـداً ذاتيـاً (؟!) للمركـب البخـاري، فليـس لدينـا شـيء ضـد ذلـك".

وبذلـك أدخـل الأسـلوب المركـب للاشـتراكية الحقيقـة بصـورة مناسـبة، وهـو الآن ينطلـق خببـاً فـي المسـيرة الجديـدة. إن الحمـل، وهـو مخلـوق مقاتـل بطبيعتـه، لا يمكـن أن يرضـى بالنـوع

(*) mode composé، بالفرنسية في النص الأصلي.

اللين السابق من النقد؛ إن الكبش المخصي الجديد حامل الجرس للقطيع الويستفالي قد تملكه شبق القتال، وها هو يندفع خافضاً قرنيه قبل أن يتمكن رفاقه الأكثر حياء من منعه، هاجماً على الدكتور جورج شيرغس في هامبورغ. ومن قبل، لم يكن مديرو الدفة في المركب البخاري ينظرون إلى الدكتور شيرغس بمثل هذا الاستياء، لكن الأمور أصبحت مختلفة الآن. إن الدكتور شيرغس المسكين يمثل الأسلوب البسيط(*) للاشتراكية الحقيقية، والأسلوب المركب لا يغفر له هذه البساطة التي كان يشاطره إياها ذات يوم. وبنتيجة ذلك، في عدد أيلول (سبتمبر) من المركب البخاري، ص ٤٠٩ - ٤١٤، أحدث الحمل الشقوق الأشد رهبة في جدران ورشته[٢٨٤]. لنستمتع بهذا المنظر لبرهة من الزمن.

إن بعض الاشتراكيين الحقيقيين والشيوعيين المزعومين(**) قد ترجموا إلى لغة الأخلاقية البورجوازية الألمانية هجاءات فورييه اللامعة ضد شروط حياة البورجوازية، وذلك بقدر ما علموا أي شيء عنها. ولقد اكتشفوا بهذا الصدد نظرية بؤس الأغنياء، المعروفة من قبل لدى التنويريين وكتاب الخرافات في القرن السابق، وبذلك حصلوا على مواد من أجل الخطب الأخلاقية التقريعية المسهبة. وإن الدكتور شيرغس، الذي لم يلقن بعد بما يكفي من العمق أسرار العقيدة الحقيقية، لأبعد ما يكون عن المناداة بالرأي القائل إن "الأغنياء والفقراء سواء في التعاسة". ويوجه له الكبش المخصي حامل الجرس الويستفالي صفعة حانقة لهذا السبب، كما يستحق رجل "يمكن أن يجعله الربح في اليانصيب... أسعد وأرضى رجل في العالم".

ويصرخ رواقينا الحمل:

> "أجل، رغم أنف الدكتور شيرغس، فإنه صحيح أن الممتلكات لا تكفي لجعل الناس سعداء، وأن قسماً كبيراً جداً من الأغنياء... هم كل شيء ما عدا أنهم سعداء". (أنت على حق، أيها الحمل الشريف، فالصحة كنز لا يمكن أن يعادله أي قدر من الذهب). "وعلى الرغم من أنه لن يعاني من الجوع والبرد،

(*) mode simplicissimus، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) soi-disant، بالفرنسية في النص الأصلي.

فـإن ثمـة شـروراً أخـرى" (مثـال ذلـك الأمـراض التناسـلية، والطقـس الماطـر باسـتمرار، وفـي ألمانيـا أحيانـاً وخـزات الضميـر أيضـاً) "لا يسـتطيع الإفـلات مـن ضغطهـا". (بصـورة خاصـة لا دواء للمـوت). "نظـرة إلـى الحيـاة الداخليـة لمعظـم العائـلات... كل شـيء عفـن متفسـخ... إن الـزوج مسـتغرق كليـاً فـي شـؤون البورصـة والأعمـال" (سـعيد هـو ذلـك البعيـد عـن الأعمـال[٢٨٥] - إنـه لمـن المدهـش أن الرجـل المسـكين يملـك بعـد مـا يكفـي مـن الوقـت لينتـج بعـض الأولاد)... "قـد انحـط إلـى عبـد للمـال" (يـا للرجـل المسـكين!). "وقـد جبلـت الزوجـة فـي سـيدة صالـون هزيلـة فارغـة" (إلا حيـن تكـون حامـلاً) "أو أنشـأت كـي تكـون سـيدة بيـت لا تملـك اهتمامـاً بـأي شـيء باسـتثناء الطهي والغسـيل والعنايـة بالأطفـال" (أمـا يـزال الحمـل يتحـدث عـن "الغنـي"؟)، "وعلـى الأكثـر بعـض الحلقـات المتاجـرة بالفضائـح" (يـرى المـرء أننـا لا نـزال علـى أرض ألمانيـة حصـراً، حيـث تملـك "ربـة البيـت الصالحـة" أفضـل الفـرص كـي تكـرس نفسـها "لمـا هـي معنيـة بـه"؛ وتلـك أسـباب كافيـة كـي تكـون "تعيسـة" كليـاً)؛ "وبذلـك يكـون كلاهمـا علـى الأغلـب فـي حالـة الحـرب المسـتمرة ضـد بعضهمـا بعضـاً... وحتـى الربـاط بيـن الأهـل والأولاد غالبـاً مـا يتحطـم بفعـل الشـروط الاجتماعيـة"، الـخ، الـخ.

لقـد نسـي مؤلفنـا العـذاب الأسـوأ. إن أي رب عائلـة ألمانـي "غنـي" يسـتطيع ان يخبـره بـأن الخلافـات الزوجيـة تصبـح حاجـة فـي سـياق الزمـن، وإن الأولاد الفاشـلين يمكـن أن يرسـلوا إلـى باتافيـا ويُنسـوا، لكـن الخـدم اللصـوص والعصـاة "شـر" لا يطـاق، وفـي ظـروف المعنويـات المتدهـورة باسـتمرار للرجـل والمـرأة العاميـن "شـر" يـكاد أن يكـون محتومـاً فـي الأيـام الراهنـة.

ولـو أن السـادة روتشـيلد وفولشـيرون وديـكاز فـي باريـس، وصموئيـل جونـز لويـد وبيرنـغ ولـورد ويستمنسـتر فـي لنـدن، قـرأوا هـذا الوصـف لمتاعـب "الأغنيـاء"، فكيـف سـيتعاطفون مـع الحمـل الويسـتفالي الوديـع.

... "ومهمـا يكـن مـن أمـر، فحيـن نثبـت" (كمـا حـدث أعـلاه) "أن ضغـط

شروطنا" (يعني الضغط الجوي البالغ ١٥ ليبرة بالأنش المربع) "يثقل على الأغنياء أيضاً. وإن لم يكن يفعل ذلك بمثل القوة التي يثقل بها على الفقراء، فإننا نحقق كنتيجة لذلك - هذه النتيجة التي تترتب على وصف شروطنا وظروفنا عامة - استنارة كل من يسعى إلى التعرف إليه". (يبدو على وجه التقريب أن "النتائج" المترتبة على الأسلوب المركب للاشتراكية الحقيقية، أقل من "النتائج" المترتبة على الأسلوب البسيط. "ومن المؤكد أنه لن تنهض من استياء الأغنياء أية ثورة في مصلحة البروليتاريين، فذلك يتطلب بواعث قوية" (يعني أقلام الكتّاب)؛ "وفيما عدا ذلك، فإنها لا تتحقق بالكلمات التالية: تعانقوا، يا أيها الملايين. هذه القبلة إلى العالم أجمع[٢٨٦]؛ لكنه لا ينفع شيئاً كذلك أن يعذب المرء نفسه بالترقيعات والمهدئات" (ربما محاولات المصالحة في البيت التعيس السابق الذكر)، "وينسى بالتالي كلياً الشيء الكبير، الإصلاحات الفعلية" (طلاق فيما يبدو).

إن تركيب الكلمات الواردة أعلاه: "من المؤكد" مع "فيما عدا ذلك" التالية لها و"لكنه لا ينفع شيئاً" يقدم لنا "بالتأكيد" مثالاً بائساً على الاختلاط الذي يدخله إلى ذهن الويستفالي الانتقال من الاشتراكية الحقيقية البسيطة إلى المركبة؛ "وفيما عدا ذلك"، فإن استياءنا لن يتضاءل عندما نقرأ في الصفحة التالية (ص ٤١٣) أنه "يوجد في البلدان المتطورة سياسياً... أوضاع بلا حدود"، "لكنه لا ينفع شيئاً في الشهادة على المعرفة التاريخية للاشتراكية الويستفالية أنه"، حسب الصفحة نفسها، "في المرحلة الأشد تألقاً من الثورة، في مرحلة مجلس الشعب، لم تكن الأنانية تعاقب حتى نادراً" - على الأرجح بالجلد. ومهما يكن من أمر، "فليس لدينا أسباب لنتوقع أي شيء أفضل من النشاط اللاحق "لحملنا"، ولذا فإننا لن نعود إليه عاجلاً جداً".

لنلق نظرة بالأحرى على الثور. لقد كان في هذه الأثناء معنياً "بالأحداث العالمية"، وفي الصفحة ٤٢١ (عدد أيلول (سبتمبر) ١٨٤٦) لا يطرح "إلا مسائل يجب أن تطرح" ويغطس حتى أذنيه في السياسة التي أطلق عليها السيد غيزو، متأثراً بالشاريفاري، لقب

السياسـة "الكبـرى". هنـا أيضـاً، يتضـح بـكل جـلاء التقـدم الـذي تحقـق بالمقارنـة مـع المرحلـة السـابقة للاشـتراكية البسـيطة. ونجـد أدنـاه بعـض الأمثلـة:

لقـد بلغـت الشـائعات ويسـتفاليا بـأن الحكومـة البروسـية، مـن جـراء المصاعـب الماليـة التـي تعانيهـا، يمكـن أن تجبـر بـكل سـهولة علـى منـح دسـتور. وفـي الوقـت نفسـه، ذكـرت الصحـف أن المصاعـب الماليـة تسـود أيضـاً فـي بورصـة برليـن. إن ثـور الجـر الويسـتفالي، الـذي ليـس قويـاً جـداً فـي الاقتصـاد السياسـي، يوحـد بـكل سـذاجة(*) المصاعـب الماليـة لحكومـة برليـن مـع المصاعـب الماليـة المختلفـة تمامـاً لتجار(**) برليـن ويعـد الفرضيـة العميقـة التاليـة:

"... ربمـا بصـورة باكـرة هـذا العـام سـوف تسـمى الممتلـكات الإقليميـة جميعـاً علـى أنهـا ممتلـكات المملكـة. ذلـك أن المصاعـب الماليـة تظـل كمـا هـي، ويبـدو أن المصـرف عاجـزاً عـن إيجـاد حـل لهـا. وفـي حقيقـة الأمـر، فحتـى أعمـال تمديـد الخطـوط الحديديـة التـي بوشـرت والتـي هـي قيـد الإعـداد يمكـن أن تتعـرض للخطـر الجـدي مـن جـراء نـدرة المـال، وفـي هـذه الحـال يمكـن أن تعمـد الدولـة بـكل سـهولة" (أواه، يـا للبسـاطة المقدسـة!)(***) "إلـى الاسـتيلاء علـى بعـض الخطـوط" (ذكـي جـداً)، "الأمـر الـذي لـن يكـون هـو الآخـر ممكنـاً مـن دون قـرض".

إن العبـارة الأخيـرة حقيقيـة تمامـاً. ففـي ويسـتفاليا يعتقـد النـاس حقـاً أنهـم يحيـون فـي ظـل حكومـة أبويـة. وحتـى اشـتراكينا المتطـرف المنتسـب إلـى الأسـلوب المركـب يعتقـد أن الحكومـة البروسـية علـى قـدر كافٍ مـن السـذاجة بحيـث تمنـح دسـتوراً لمجـرد أن تتخلـص مـن مصاعـب بورصـة برليـن بواسـطة قـرض أجنبـي. يـا للإيمـان الأعمـى السـعيد!

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن الأنـف الحـاد لثـور الجـر الويسـتفالي ينكشـف علـى أحـده فـي

(*) tout bonnement، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) commerçants، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) O, sancta simplicitas، باللاتينية في النص الأصلي.

ملاحظاته بشأن السياسة الخارجية. فقبل أشهر شم الأسلوب المركّب للاشتراكية الحقيقية رائحة الأسرار الباريسية واللندنية الجديدة التالية التي ننقلها هنا لتسلية قرائنا:

عدد أيلول (سبتمبر):

فرنسا -"لقد خرجت الوزارة ظافرة من الانتخابات، كما كان "يجب أن يتوقع" (متى توقع رجل ويستفالي أي شيء "غير" ما "كان يجب أن يتوقع"؟). "وبالرغم من أنه كان في مقدورها أن تحرك جميع روافع الفساد، وبالرغم من أنه كان في مقدورها ذلك... محاولة هنري، كفى - فإن المعارضة القديمة (تييرس، باروت) لقيت هزيمة شديدة. لكن السيد غيزو، أيضاً، لن يكون قادراً بعد الآن على الاعتماد على مثل هذا الحزب الصلب والمحافظ، مصوتاً للوزارة مع ذلك(*)؛ ذلك أن الحزب المحافظ انقسم إلى فئتين، إلى المحافظين المحدودين(**) ومجلتهم ديبا وأيبوك، والمحافظين التقدميين(***) وصحيفتهم برس". (كل ما ينساه الثور هو أن السيد غيزو نفسه، في حديثه إلى ناخبيه في ليزبو، هوالذي كان سباقاً إلى استغلال عبارة "نزعة المحافظة التقدمية".) "على العموم" (هنا يبدأ من جديد التهافت الذي سبقت ملاحظته أعلاه لدى الحمل، "كما كان يجب أن يتوقع")، "فإن المسائل الحزبية السياسية المجردة، التي كانت تدور فقط حول من سيكون وزيراً هل يكون تييرس أو غيزو "(يسمى هذا في ويستفاليا "مسائل حزبية سياسية مجردة"، ويعتقد الناس هناك بعد أنها في فرنسا حتى الآن "دارت حول ذلك فقط")، "سوف تدفع بالتأكيد إلى المؤخرة. إن الاقتصاديين السياسيين، بلانكي... - قد انتخبوا إلى المجلس ومعهم بالتأكيد" (من أجل تنوير الويستفاليين) "سوف تطرح على

(*) Quand même، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) Conservateurs bornés، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) conservateurs progressifs، بالفرنسية في النص الأصلي.

المناقشة هناك أيضاً مسائل من الاقتصاد السياسي" (يا لها من فكرة لا بد أن تكون لدى الويستفاليين عن "المسائل" التي "طرحت على المناقشة هناك" حتى الآن!) (ص ٤٢٦، ٤٢٧).

سؤال: لماذا تصر الأرستقراطية الإنكليزية على جلد الجنود؟ جواب:

"إذا ألغي الجلد، فلا بد إذن، من تنظيم نظام جديد للتعبئة، وإذا كان ثمة جنود أفضل فلا بد إذن، من ضباط أفضل أيضاً" (!) "يدينون بمركزهم للجدارة وليس لشراء المراكز أو الحظوة". ولهذا السبب تعارض الأرستقراطية "إلغاء الجلد"، لأنها ستفقد بذلك متراساً جديداً، احتياطياً "لأبنائها الأصغر". وعلى أية حال، فإن الطبقة الوسطى تلاحق امتيازها خطوة فخطوة وسوف تحقق النصر هنا أيضاً".

(يا لها من خرافة!) إن حملات البريطانيين في الهند وأفغانستان الخ...، تثبت أنهم ليسوا في الوقت الحاضر "في حاجة إلى ضباط أفضل"، والطبقة الإنكليزية المتوسطة لا ترغب في جنود أفضل، ولا في نظام مختلف للتعبئة، كما أنها ليست معنية كثيراً بإلغاء الجلد، لكن المركب البخاري لا يشاهد في إنكلترا، لفترة من الزمان انقضت، سوى الصراع بين الفئات المتوسطة والأرستقراطية، (ص ٤٢٨).

عدد تشرين الأول (أكتوبر):

فرنسا - "خسر السيد تييرس الدستوري، وهي صحيفته طوال سنوات، فقد اشتراها نائب محافظ، وهي سوف تؤخذ الآن ببطء وبصورة غير ملموسة" (في الحقيقة "بصورة ملموسة" فقط بالنسبة إلى الأسلوب المركب للاشتراكية الحقيقية) "إلى المعسكر المحافظ. إن السيد تييرس، الذي سبق أن هدد بأنه سيشرع قلمه القديم من جديد في ناسيونال إذا جعلت الأمور مضايقة له، فقد ابتاع حالياً ناسيونال فيما يقال".

(من سوء الحظ "أن ناسيونال لعام ١٨٣٠" كانت ناسيونال [National] دستورية

وأورليانيـة، مختلفـة كل الاختـلاف عـن ناسـيونال الجمهوريـة لعـام ١٨٣٤ التـي "يقـال إن السـيد تييـرس قـد ابتاعهـا فعليـاً فـي عـام ١٨٤٦". وبالمناسـبة، فـإن المركـب البخـاري قـد وقـع ضحيـة عمليـة خـداع غيـر مسـؤولة. لقـد دس وغـد عديـم المبـادئ ومعـاد للقضيـة الصالحـة قـد دس بعـض الأعـداد مـن القرصـان - الإبليـس[Corsaire-satan] إلـى الناشـر، وينشـرالمركب البخـاري الآن بـكل طيبـة قلـب(*) الشـائعات السـارية الـواردة فـي هـذه الصحيفـة علـى أنهـا الحقيقـة الموحـى بهـا، وهـي شـائعات لاتتحلـى فـي أي حـال مـن الأحـوال بقـدر كاف مـن الأخلاقيـة بالنسـبة إلـى القـراء الويسـتفاليين. وفـي الحقيقـة، كيـف يسـتطيع المركـب البخـاري أن يرتـاب فـي أن القرصـان - الإبليـس يملـك علـى الأقـل مـن الحـزم الأخلاقـي والوعـي برسـالة الصحافـة الرفيعـة بقـدر مـا يملـك هـو نفسـه؟).

"أمـا مـا إذا كان السـيد تييـرس بهـذه الخطـوة قـد انتقـل إلـى صفـوف الجمهوريين فمسـألة لا تـزال قيـد النظر".

يـا شيروسـكي الشـريف، إنـك لا تديـن بهـذه "مـا إذا" للقرصـان، فرائحـة الغابـة التوتوبورجيـه تفـوح منهـا علـى بعـد فرسـخ كامـل(**)! وعلـى أي حـال، فإنـه يسـمح لنفسـه مـن جهـة ثانيـة، بـأن تضللـه القرصـان التـي تدعـم التجـارة الحـرة، بحيـث ينسـب إلـى التبـادل الحـر(***) فـي فرنسـا نجاحـاً وأهميـة مـا أبعدهـا عـن امتلاكهمـا.

"إن تكهناتنـا بـأن جميـع البلـدان الصناعيـة يجـب أن تسـلك الطريـق نفسـها التـي سـلكتها إنكلتـرا وتبلـغ الهـدف نفسـه... تبـدو إذن، أنهـا ليسـت علـى هـذا القـدر الكبيـر مـن الخطـأ، مـا دامـت تتحقـق الآن. وبالتالـي، فإنـه يبـدو أننـا، نحـن "المنظريـن غيـر العمليـين"، نعـرف الشـروط الواقعيـة" (مرحـى!) "بالضبـط قـدر معرفـة "الرجـال العمليـين"، ونحكـم عليهـا بصـورة أفضـل منهـم، هـؤلاء الذيـن يتباهـون بعنفـوان بتجربتهـم ومعرفتهـم بالشـروط العمليـة".

(*) bona fida، باللاتينية في النص الأصلي.

(**) Cela sent la forêt teutoburgienne d'une liene، بالفرنسية في النص الأصلي.

(***) libre échange، بالفرنسية في النص الأصلي.

يـا "للمنظـر" التوتوبورجـي التاعـس! إنـك لا "تعـرف" حتـى "الشـروط الواقعيـة" للقرصـان - الإبليـس! (هـذه الأشـياء الجميلـة تـرد فـي الصفحـات ٤٧٩).

عدد تشرين الثاني (نوفمبر):

فرنسـا - "يحطـم العلمـاء رؤوسـهم عبثـاً بصـدد مصـدر الفيضانـات المتكـررة غالبـاً. قبـل بعـض الوقـت، اقتطعـت بمرسـوم مـن الأكاديميـة الغابـات المزدهـرة فـوق الجبـال باعتبارهـا سـبب الشـر؛ ولقـد أعيـد غرسـها فـي وقـت لاحـق، وظـل الشـر كمـا كان مـن قبـل" (ص ٥٢٢).

"عبثاً" سوف "يحطم العلماء رؤوسهم" بشأن أين يكمن الهراء الأعظم:

١- هـل يعتقـد الويسـتفالي أن الأكاديميـة فـي فرنسـا تسـتطيع أن تصـدر المراسـيم وتحصـل علـى اقتطـاع الغابات؟

٢- هـل يعتقـد أن الغابـات تقطـع مـن أجـل الخشـب والمـال الحاصـل مـن بيعـه، أم مـن أجـل الفيضانـات؟

٣- هل يعتقد أن العلماء يحطمون رؤوسهم بشأن سبب هذه الفيضانات؟

٤- هـل يعتقـد أن الغابـات كانـت تعتبـر فـي أي زمـن أنهـا سـبب الفيضانـات، فـي حيـن يعـرف كل طفـل فـي فرنسـا أن دمـار الغابـات بالضبـط هـو السـبب؟

٥- هـل يعتقـد أن الغابـات يعـاد غرسـها، بينمـا لا نجـد فـي أي مـكان شـكاوى أكثـر ممـا نجـد فـي فرنسـا بشـأن إهمـال الغابـات وبشـأن القضـاء علـى الغابـات المتعاظـم أبـداً مـن دون أي اعتبـار للتكاثر؟ (راجـع، فضـلاً عـن المجـلات المتخصصـة، الإصـلاح [Reforme]، وناسـيونال [National]، والديمقراطيـة السـلمية [Démocratie pacifique]، وصحفـاً أخـرى تنتسـب إلـى المعارضـة خـلال شـهري تشـرين الأول(أكتوبـر) وتشـرين الثانـي (نوفمبـر) ١٨٤٦). إن الثـور الويسـتفالي سـيىء الحـظ بـكل المعانـي. فهو إذا اتبـع القرصـان - الإبليـس وقـع فـي مـأزق؛ وهـو إذا اتبـع عبقريتـه الخاصـة وقـع فـي مـأزق أيضـاً.

إن الاشـتراكية الحقيقيـة، المرفوعـة إلـى القـوة الثانيـة، قـد حققـت كمـا رأينـا مآثـر كبـرى فـي مجـال السياسـة العليـا. يـا لهـا مـن حصافـة، ويـا لـه مـن حـدس بالمقارنـة مـع التقاريـر السـابقة عـن

"الأحـداث العالميـة"! يـا لهـا مـن معرفـة شـاملة "بالشـروط الواقعيـة"! ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإن "الشـرط الواقعـي" الأهـم بالنسـبة إلـى المركـب البخـاري هـو مركـز الضبـاط البروسـيين الملكييـن. إن المـلازم أنيكيـه، الـذي لـم يكـن ثمـة سـبيل إلـى اجتنابـه فـي الصحافـة الدوريـة الألمانيـة طـوال فتـرة مـن الزمـن، والمناقشـة الهامـة فـي متحـف بييليفلـد عـن حمـل الخناجـر ومـا يترتـب علـى ذلـك مـن الإجـراءات الشـرفية، الـخ، تشـكل المحتـوى الرئيسـي لأعـداد تشـرين الأول (أكتوبـر) وتشـرين الثانـي (نوفمبـر). وإننـا لنعطـي كذلـك معلومـات مثيـرة للاهتمـام عـن المجلـة الألمانيـة [Deutsche zeitung] التـي لـم تبصـر النـور، ومملكـة الشـحاذين الفرنسـية التـي هلكـت فـي القـرن السـابع عشـر، جـرى وصفهـا مـن قبـل مونتيـل، وشـروط أخـرى لا تقـل عـن ذلـك "واقعيـة". وفـي خـلال ذلـك تظهـر مـن حيـن لآخـر إشـارة ضـرب (multiplication)[٢٨٧] لا تـزال تمثـل تمامـاً الأسـلوب البسـيط للاشـتراكية الحقيقيـة وهـي تكـدس جميـع شـعاراتها ببراعـة فائقـة. إن النظريـة الألمانيـة والممارسـة الفرنسـية يجـب أن تتحـدا، ويجـب أن توضـع الشـيوعية موضـع العمـل كيمـا تسـتطيع الإنسـانية أن توضـع موضـع العمـل (ص ٤٥٥ - ٤٥٨)، الـخ. ومـن حيـن إلـى آخـر فـإن دليـلاً مماثـلاً يذكـر بالماضـي يفلـت بعـد مـن الحمـل أو حتـى مـن الثـور نفسـه، مـن دون أن يعكـر علـى أيـة حـال أدنـى تعكيـر التناسـق الإلهـي "للشـروط الواقعيـة".

فلنـدع الآن الجسـم الرئيسـي مـن الجيـش الويسـتفالي كيمـا نتابـع منـاورات فرقـة منفصلـة عنـه اتخـذت اسـتحكاماتها فـي وادي فويـر المبـارك تحـت تنـورة نميزيـس(Nemesis) عملاقـة[٢٨٨]. إن الهـر فـر. شـنيك (فـي دور بيرسـوس Persus) قـد حمـل لفتـرة طويلـة مـن الزمـن درع غورغـون الخـاص بمـرآة المجتمـع أمـام الجمهـور، والحقيقـة إنـه حقـق فـي ذلـك نجاحـاً باهـراً، بحيـث لـم يمـض الجمهور وحـده لينـام فـوق مـرآة المجتمـع، بـل إن مـرآة المجتمـع قـد مضـت هـي الأخـرى لتنـام علـى الجمهـور. ومهمـا يكـن مـن أمـر فـإن صاحبنـا بيرسـوس رجـل ماجـن. ذلـك أنـه يسـجل، بعدمـا بلـغ هـذه النتيجـة التـي يحسـد عليهـا (العـدد الأخيـر، الصفحـة الأخيـرة):

١- إن مرآة المجتمع قد دالت؛

٢- إنـه، مـن المستحسـن فـي المسـتقبل، تفاديـاً لأي تأخيـر، أن يوصـي عليهـا بواسـطة البريـد. وبنـاء علـى ذلـك، وبعدمـا صحـح آخـر أخطائـه المطبعيـة، فإنـه يمضـي خارجـاً.

ويستطيع المرء أن يرى سلفاً من هذا الاهتمام "بالشروط الواقعية" أننا نتعامل هنا أيضاً، مع الأسلوب المركب للاشتراكية الحقيقية. وعلى أية حال، فإن ثمة فارقاً هاماً بين الحمل والثور وصاحبنا بيرسوس. فلا بد للمرء أن يعترف للحمل والثور ببقائهما مخلصين قدر الإمكان "للشروط الواقعية"، ألا وهي الشروط القائمة في ويستفاليا وفي ألمانيا عامة. وإن الدليل على ذلك مشهد الحمل المؤثر المذكور أعلاه. وإن الدليل على ذلك الأوصاف الدافئة التي يقدمها الثور عن الحياة السياسية الألمانية والتي لم يكن لنا بد من حذفها. فحين انتقلوا إلى وجهة نظرهم الجديدة، فإن ما اصطحبوه بصورة خاصة من الأسلوب البسيط هو المراءاة البسيطة وغير المزينة، الواقع الألماني؛ أما تبرئة الإنسان، والنظرية الألمانية، الخ، فقد تركت مختلف أنواع إشارات الضرب والنجوم الثانوية الأخرى. وإن الأمر مع مرآة المجتمع لعلى النقيض من ذلك تماماً. إن قائد الجيش بيرسوس يتعرى هنا قدر الإمكان من واقع المالكين الصغار الذي يترك أمر استغلاله لحاشيته ويرتفع، أميناً للخرافة، عالياً جداً في هواء النظرية الألمانية. وإنه لأعظم قدرة على إظهار بعض الاحتقار "للشروط الواقعية" لأنه يتخذ موقفاً أكثر تحديداً حتى درجة كبيرة. فإذا كانت النجوم الويستفالية المباشرة تمثل الأسلوب المركب، فإن بيرسوس إذن، هو كل ما في ألمانيا من أشياء أكثر تركيباً[*]. وعلى اي حال، فإنه يتخذ دائماً في طيراناته الإيديولوجية الأعظم جسارة موقفه على "القاعدة المادية"، وهذا الأساس الأمين يمنحه الجرأة في الصراع الذي سوف يستذكره السادة غوتزكوف واوبيتز وشتاينمان وغيرهم من الأشخاص الهامين طوال السنوات المقبلة. ومهما يكن من أمر، فإن "القاعدة المادية" لصاحبنا بيرسوس تتألف بصورة رئيسية مما يلي[٢٨٩]:

١- "لن يصبح الإنسان مختلفاً إلا مع نقض القاعدة المادية لمجتمعنا، التي هي الكسب الفردي" (العدد العاشر، ص ٥٣).

لو أن الأسلوب البسيط، الذي كثيراً ما تفوه بهذه الفكرة القديمة، عرف فقط أن الكسب الفردي هو القاعدة المادية لمجتمعنا، فقد كان يصيِّر الأسلوب المركب، وكان في مقدوره أن

(*) tout ce qu'il y a de plus composé en Allemagne، بالفرنسية في النص الأصلي.

يمضـي، تحـت رعايـة صاحبنـا بيرسـوس، ليعيـش حيـاة متواضعـة وهادئـة بـورع وشـرف عظيميـن. لكنـه بذلـك لا يملـك هـو نفسـه أيـة قاعـدة ماديـة، وقـد جـرت الأمـور مثلمـا كتـب النبـي غوتـه:

وإذا لم يكن يملك مؤخرة،

كيف يستطيع الإنسان النبيل أن يجلس؟[٢٩٠].

أمـا مبلـغ هـذه القاعـدة، الكسـب الفـردي، "مـن الماديـة"، فهـذا مـا يمكـن أن نتبينـه، فيمـا تبينـه، مـن الفقـرة التالية:

"إن الأنانيـة، الكسـب الفـردي" (وبالتالـي فهمـا متماثـلان، وإذن، فـإن "الأنانيـة" هـي "قاعـدة ماديـة أيضـاً") "تمـزق العالـم بمبـدأ كل لنفسـه"، الـخ. (ص ٥٣).

وهكـذا، فـإن" القاعـدة المادية"هـي التـي "تشـوش"، ليـس بواسـطة حقائـق "ماديـة"، بـل بواسـطة "مبـادئ مثاليـة". إن الفقـر، كمـا هـو معـروف (أن بيرسـوس نفسـه يشـرح ذلـك فـي الموضـع المذكـور أعـلاه لـكل مـن ليـس ذلـك معروفـاً لديـه بعـد)، هـو كذلـك أحـد مظاهـر "مجتمعنـا". وإننـا لنعلـم علـى أيـة حـال أنـه ليسـت "القاعـدة الماديـة، الكسـب الفـردي"، بـل علـى النقيـض مـن ذلـك:

"المتسـامي هـو الـذي أغـرق الجنس البشـري فـي الفقـر". (ص ٥٤ - إن المقتطفات الثـلاث جميعـاً هي مـن مقالـة واحدة).

ألا فليحـرر "المتسـامي" بأسـرع وقـت بيرسـوس التاعـس "مـن الفقـر الـذي أغرقتـه القاعـدة الماديـة" فيـه!

٢- "إن الكتلـة الفعليـة تدفـع إلـى الحركـة لا بفعـل فكـرة، بـل بفعـل "مصلحـة مفهومـة جيـداً"... وفـي الثـورة الاجتماعيـة، سـوف تعـدل أنانيـة الحـزب المحافـظ بالأنانيـة الأنبـل للشـعب الـذي هـو فـي "حاجـة إلـى الخـلاص" (شـعب "فـي حاجـة إلـى الخـلاص" يقـوم بثـورة)... "إن الشـعب يقاتـل فـي الحقيقـة مـن أجـل "مصلحتـه المفهومـة جيـداً" ضـد المصلحـة الوحشـية والحصريـة للأشـخاص الفردييـن، تدعمـه وتؤيـده قـوة أخلاقيـة وحميـة لا تعـرف الراحـة" (العـدد الثانـي عشـر، ص ٨٦).

إن "المصلحة المفهومة جيداً" لصاحبنا بيرسوس "الذي هو في حاجة إلى لخلاص"، والذي مما لا ريب فيه أنه "تدعمه وتؤيده قوة أخلاقية وحمية لا تعرف الراحة"، تستقيم في "مواجهة" "أنانية الحزب المحافظ" بواسطة "الأنانية الأنبل" الخاصة بالصمت، ذلك أنه لا "يدفع إلى الحركة حتى فكرة واحدة" من دون ان يعرّض للشبهة في الوقت نفسه الأسلوب المركب للاشتراكية الحقيقية.

٣- "إن البؤس عاقبة للملكية، التي هي ملكية خاصة وحصرية بطبيعتها!!" (العدد الثاني عشر، ص ٧٩).

٤- "لا يمكن تحديد أية رابطات مقصودة هنا، وعلى أية حال، فإذا كان المؤلف يقصد الرابطات الأنانية للرأسماليين، فقد نسي إذن، الرابطات الهامة للعمال اليدويين ضد السلطة الاعتباطية لأصحاب العمل!!" (العدد الثاني عشر، ص ٨٠).

إن بيرسوس أسعد حظاً. "فلا يمكن تحديد" أي نوع من الهراء كان يريد تأليفه. لكنه إذا كان قد "قصد" مجرد النوع الأسلوبي، فإنه إذن، لم "ينسَ" في أي حال من الأحوال الهراء المنطقي المتساوي "الأهمية". وفيما يتعلق بالرابطات، فإننا نشير فيما عدا ذلك إلى أننا نعطي المعلومات في الصفحة ٨٤ عن "رابطات بالمعنى الحقيقي للكلمة، ترفع وعي البروليتاريا وتطور المعارضة العنيفة"(!) "البروليتارية"(!!) "الكلية"(!!!) "ضد الشروط القائمة".

ولقد سبق لنا أن تحدثنا أعلاه، بخصوص الهر غرون، عن عادة الاشتراكيين الحقيقيين في تمثل النظريات التي لم يفهموها، وذلك بواسطة حفظ عبارات وشعارات منعزلة عن ظهر قلب[٢٩١]. لا يختلف الأسلوب المركب عن الأسلوب البسيط إلا بمقدار ما يتوافر بطريقة ملتوية من مثل هذه العبارات الطويلة غير المهضومة، وبالتالي المبتلعة على عجالة كبيرة، وبما يترتب على ذلك من مغص معوي رهيب. ولقد رأينا كيف أن "الشروط الواقعية" و"مسائل الاقتصاد السياسي" تبرز على نحو غير متوقع عند الويستفاليين عند كل كلمة، وكيف يجاهد بيرسوس المقدام بخصوص "القاعدة المادية" و"المصلحة المفهومة جيداً"

"للمعارضة البروليتارية". وفيما عدا ذلك، فإن هذا الفارس الأخير للمرآة يستخدم على هواه "إقطاعية المال" التي كان الأحرى به أن يتركها لمبتكرها فورييه. ولقد كان فهمه لمعنى هذا الشعار ضئيلاً جداً بحيث يؤكد في العدد الثاني عشر، ص ٧٨، أن "أرستقراطية مالكة قد خلقت في مكان الأرستقراطية الإقطاعية" بواسطة تلك الإقطاعية، الأمر الذي يترتب عليه:

١- أن "إقطاعية المال"، تعني أن "الأرستقراطية المالكة"، "تخلق" نفسها؛

٢- وأن "الأرستقراطية الإقطاعية" لم تكن أي نوع من "الأرستقراطية المالكة"، ومن ثم، فإنه يثني على الرأي القائل، في الصفحة ٢٩، إن "إقطاعية المال" (تعني أن المصرفيين الذين يشكل الرأسماليون الصغار والصناعيون الأصغر أتباعاً لهم، هذا إذا أراد المرء أن يتقيد بالصورة المجازية) وإقطاعية "الصناعة" (التي يشكل البروليتاريين أتباعاً لها) هما "إقطاعية واحدة فقط".

وإن الرغبة الفعلية التالية التي يعبر عنها فارس المرآة، وهي الرغبة التي تذكر المرء بأمل الويستفاليين البهيج، ترتبط كذلك بكل حرية "بالقاعدة المادية"، ألا وهي الرغبة في أن يعمد مجلس النواب الفرنسي لإلقاء سلسلة من المحاضرات في الاقتصاد السياسي عليهم من أجل بنائهم التوتوبورجي.

> "لكنه لا بد لنا من الإشارة إلى أننا لم نتعلم حتى الآن، من الأعداد المرسلة إلينا من فولكس تريبيون (النيويوركية) أي شيء على الإطلاق عن التجارة والصناعة في أميركا... إن نقص المعلومات المفيدة عن الشروط الصناعية والاقتصادية في أميركا، التي ينطلق منها دائماً "على أي حال" (حقاً؟) الإصلاح الاجتماعي"، الخ (العدد العاشر، ص ٥٦).

وهكذا فإن فولكس تريبيون، وهي صحيفة تسعى إلى القيام بالدعاية المباشرة في أميركا، هي موضع اللوم ليس لأنها تقوم بعملها بصورة خاطئة، بل لأنها توانت عن إعطاء "مرآة المجتمع" المعلومات المنورة" عن أشياء ليست لها بها أدنى علاقة على الإطلاق، على أي حال بالطريقة المطلوبة هنا. فمنذ أن أمسك بيرسوس "بالقاعدة المادية"، التي لا يدري ما عساه أن يصنع بها، فإنه يطلب من الجميع أن يقدموا إليه المعلومات عنها.

وفضلاً عن ذلك، فإن بيرسوس يخبرنا دائماً أن التنافس يجلب الدمار على الفئة الوسطى الصغيرة وأن:

> "الترف في أسلوب اللباس... المسبب عن مواد ثقيلة... لباعث على الضجر والملل" (العدد الثاني عشر، ص ٨٣ - المرجح أن بيرسوس يعتقد أن ثوباً من الحرير يضاهي في ثقله لباساً كاملاً من الدروع)، وقس على ذلك.

وحتى لا يراود القارئ أدنى شك بخصوص "القاعدة المادية" لأفكار بيرسوس فإنه يرد في الصفحة ٥٣ من العدد العاشر:

> "إن الهر غوتزكوف يفعل حسناً إذا تعرف بادئ الأمر إلى العلم الألماني للمجتمع بحيث لا تعترض سبيله... ذكريات عن الشيوعيين الفرنسيين المحرمين، بابوف وكابيه".

وفي الصفحة ٥٢:

> "تريد الشيوعية الألمانية أن تصور مجتمعاً يكون فيه العمل والمتعة أمراً واحداً ولا يكونان بعد الآن منفصلين بمكافأة خارجية".

ولقد راينا أعلاه مما يستقيم كلا "العلم الألماني للمجتمع" والمجتمع الذي ينبغي "تصويره"، ولم نجد بذلك أنفسنا في المجتمع الأفضل على وجه الدقة.

وبقدر ما يتعلق الأمر برفاق فارس المرآة، فإنهم "يصورون" "مجتمعاً" باعثاً على الضجر حتى الدرجة القصوى. ولقد أخذوا على أنفسهم لفترة من الزمن أن يمثلوا دور العناية الإلهية بالنسبة إلى رجل المدينة والريف في ألمانيا. فليس ثمة قرميدة تقع من السطح أو طفل يسقط في الماء من دون معرفة وإرادة مرآة المجتمع. ومن حسن حظ الصحيفة القروية [Dorfzeitung]، التي جعلت هذا التنافس يشكل خطراً عليها، أن أخوية المرآة سرعان ما أقلعت عن هذا النشاط المتعب؛ لقد مضوا الواحد تلو الآخر يطلبون النوم من جراء الإعياء الشديد. وعبثاً جربت جميع الوسائل في سبيل إيقاظهم، في سبيل ضخ دماء حياتيه جديدة في الصحيفة؛ إن التأثير المتحجر لدرع غورغون قد أصاب المحررين أيضاً. وفي الختام وقف بيرسوس هناك وحده حاملاً درعه و"قاعدته المادية" - الصدر الحساس

الوحيـد بيـن الأجـداث"[٢٩٢]، وأن خـط الخصـر المسـتحيل لنميسـيس العملاقـة قـد انهـار أنقاضـاً، وتوقفـت مـرآة المجتمـع مـن الوجـود.

السـلام لرمادهـا؛ وفـي هـذه الأثنـاء، فلنسـتدر ونتطلـع إلـى كوكبـة أخـرى أكثـر بريقـاً فـي منطقـة مجـاورة مـن نصـف الكـرة الشـمالي. إن الـدب الأكبـر أو الماجـور بيتمـان الدبـي المظهـر، يندفـع نحونـا متألقـاً بذيـل لامـع؛ وإنـه يسـمى كذلـك الكوكبـة ذات السـبعة كواكـب، لأنـه يظهـر علـى الـدوام برفقـة سـتة آخريـن كيمـا يكمـل الأوراق المطبوعـة العشـرين المطلوبـة[٢٩٣]. يـا لـه مـن بطـل مغـوار! وإذ مـا ضجـر مـن موقفـه علـى أرجـل أربـع فـي الخريطـة السـماوية، فقـد نهـض أخيـراً علـى قائمتيـه الخلفيتين، وتسـلح كمـا هـو مكتـوب: ارتـدي إذن، بـزة الخلـق ونطـاق القناعـة؛ ثبـت إلـى كتفيـك كتافتـي الـكلام المنمـق وضـع قبـة الحماسـة المثلثـة الزوايـا؛ زيـن صـدرك الرجولـي بصليـب رتبـة التضحيـة بالـذات مـن الصنـف الثالـث؛ تقلـد سـيف كراهيـة الطغـاة، وضـع حـذاء فـي قدميـك كـي تسـتطيع القيـام بالدعايـة بأقـل قـدر ممكـن مـن تكاليـف الإنتـاج. إن ماجورنـا، وقـد تجهـز علـى هـذا الغـرار، يتقـدم فـي طليعـة كتيبتـه، ويسـتل سـيفه، ويصـدر الأمـر: إنتبـه! وإنـه ليلقـي الخطبـة التاليـة:

أيهـا الجنـود! مـن أعالـي تلـك النافـذة لـدار النشـر تتطلـع إليكـم أربعـون ليـرة ذهبيـة، أنظـروا فيمـا حولكـم، أيهـا الحمـاة المغاويـر "للإصـلاح الكلـي للمجتمـع"، هـل تـرون الشـمس؟ إنهـا شـمس أوسـترليتز، التـي تبشـر بانتصارنـا أيهـا الجنـود!

> "إن الوعـي بأننـا نقاتـل فقـط مـن أجـل الفقـراء والمحروميـن، مـن أجـل المضللين والبائسـين، ليعطينـا الشـجاعة والإقـدام علـى المقاومـة حتـى النهايـة. ليـس مـا ندافـع عنـه شـيئاً فاتـراً علـى الإطـلاق، وليـس ثمـة شـيء غيـر واضـح"، (بـل بالأحـرى شـيء مضطـرب كل الاضطـراب) "فيمـا نسـعى إليـه؛ وبالتالـي فإننـا مصممـون، وعلـى الرغـم مـن كل شـيء نظـل مخلصيـن أبـداً" "للشـعب، للشـعب المضطهـد!" (المجلـة الرينانيـة، المجلـد الثانـي، المقدمـة).

تنكّـب سـلاحك! انتبـه! - قـدم سـلاحك! - عـاش النظـام الاجتماعـي الجديـد، الـذي نقحنـاه وفقـاً لبابـوف فـي ١٤ فصـلاً و٦٣ بنـداً مـن التضحيـات الميدانيـة:

"ومـن المؤكـد أنـه ليـس مـن الأهميـة بمـكان فـي آخـر الأمـر مـا إذا كانـت الأمـور سـتصير إلـى مـا قررنـاه، لكنهاسـتكون مغايـرة لمـا توهمـه العـدو، مغايـرة لمـا كانـت عليـه حتـى هـذا الحيـن! إن جميـع المؤسسـات البغيضـة، التـي نشـأت عـن عمـل دنـيء اسـتمر طـوال قـرون مـن أجـل دمـار الأمـم والشـعوب، سـوف تفنـى!" (المجلـة الرينانيـة، المجلـد الثانـي، ص ٢٤٠).

فلتحـل اللعنـة علـى كل ذلـك! انتبـه! - انـزل سـلاحك! - يسـاراً در! - تفقـد سـلاحك! - اسـترح! - إلـى الأمـام سـر! - لكـن الـدب هـو بطبيعتـه حيـوان ألمانـي حقيقـي. فبعدمـا أثـار بهـذا الخطـاب مرحى صاخبـة عامـة، وبذلـك أنجـز مأثـرة مـن أعظـم مآثـر حقبتنـا، فقـد جلـس فـي داره وأطلـق العنـان لقلبـه العاشـق الرقيـق فـي قصيـدة غنائيـة طويلـة مؤثـرة عـن "النفـاق" (المجلـة الرينانيـة، المجلـد الثانـي، ص ١٢٩- ١٤٩). ففـي حقبتنـا التـي تفسـخت وفسـدت باطنيـاً بالجسـد والـروح علـى حـد سـواء بفعـل دودة البحـث عـن الـذات، ونصـادف - يـا لسـؤ الحـظ! - أفـراداً لا يملكـون قلوبـاً دافئـة وخفاقـة فـي صدورهـم، ولـم تمتلـئ عيونهـم قـط بدمعـة عطـوف، ولا يمـر فـي جماجمهـم الجوفـاء قـط أي شـعاع باهـر مـن الحماسـة للجنـس البشـري. أيهـا القـارئ، إذا صادفـت مثـل هـذا المـرء فاجعلـه يقـرأ "نفـاق" الـدب الأكبـر، ولسـوف يبكـي، ويبكـي، ويبكـي! لسـوف يـرى ههنـا مبلـغ بؤسـه وشـقائه وعريـه، ذلـك أنـه سـواء أكان رجـل لاهـوت أم رجـل قانـون، فيزيائيـاً أم رجـل دولـة، تاجـراً أم صانـع مقشـات أم حوذيـاً، فسـوف يجـد هنـا كشـفاً خاصـاً عـن النفـاق الصـرف الـذي يميـز كل حرفـة علـى حـدة، ولسـوف يجـد كيـف أن النفـاق يتخفـى فـي كل مـكان، وعلـى الأخـص كيـف أن "لعنـة المحاميـن لعنـة ثقيلـة الوطـأة"، وإذا لـم يحملـه هـذا كلـه علـى النـدم وتعديـل أسـاليبه، فإنـه ليـس إذن، أهـلاً لأن يكـون مولـوداً فـي عصرالـدب الأكبـر. وفـي الحقيقـة إنـه لا بـد للمـرء أن يكـون دبـاً شـريفاً، أو "طاهـر الذيـل" كمـا يقـول الإنكليـز، حتـى يستشـم نفـاق العالـم الشـرير لـدى كل خطـوة. فحيثمـا تلفـت الـدب الأكبـر يصـادف النفـاق، ولقـد جـرى لـه مـا جـرى لسـابقيه فـي "حديقـة الليلـك"[٢٩٤].

آه! لو أنني قبعت في الزاوية

وأصغيت إلى الأحاديث البعيدة،

وشاهدت الهياج والارتباك،

فسوف استدير،

وأزمجر،

وأهرب إلى مكان ما،

وأتطلع حولي،

وأزمجر،

وأهرب مرة أخرى إلى مكان ما،

وأخيراً أستدير من جديد.

طبعاً، إذ كيف للمرء أن يفلت من النفاق في مجتمعنا المتفسح كلياً! لكن ذلك بائس!

"كل امرئ يستطيع أن يكون مفترياً، مغروراً، دنيئاً، ماكراً، وأي شيء آخر يخطر في بالك، لأن الشكل المناسب قد وجد". (ص ١٤٥).

وإن ذلك ليكفي في الحقيقة كي يبعث اليأس في المرء، على الأخص إذا كان الدب الأكبر.

و"أواه" "فإن العائلة قد تلوثت كذلك بالأكاذيب... وأن شبكة الأكاذيب تخترق العائلة مباشرة وتنتقل بالوراثة من عضو إلى آخر".

الويل، الويل ثلاثاً مضاعفة لرؤساء الأسر في وطن الإباء الألماني!

وعندئذٍ يعصف الجنون دفعة واحدة،

وتنفخ روح جبارة من الأنف،

وتنكشف الطبيعة الباطنة المتوحشة -

وينهض الدب الأكبر على قائمتيه الخلفيتين من جديد!

"اللعنة على الأنانية! ما أرهب تحويمك فوق رؤوس البشر! بأجنحتك السوداء... بزعيقك الحاد... اللعنة على الأنانية! ملايين وملايين العبيد المساكين... يبكون وينتحبون، ويشكون، وينوحون... اللعنة على الأنانية!... اللعنة على الأنانية!... عصابة من كهنة بعل!... أنفاس الطاعون... اللعنة على

الأنانية! شيطان الأنانية..." (ص ١٤٦- ١٤٨).

وبعد ذلك هذا هو شعري الخشن يرتفع

راغباً عن الخدمة...

كل شجرة صغيرة مزروعة

تسخر مني! أولي هارباً من الخضرة اليانعة

والعشب الطري النظيف؛

إن شجرة البقس تهز أشواكها في وجهي.

***

أعمل حتى درجة الإعياء، وإذا بلغ التعب مني أشده

أستلقي عند الشلال الصناعي

وأفكر ملياً، وأبكي، وأقلق حتى أشارف على الموت.

لكن أواه! فليس من يسمع بؤسي

إلا الحوريات الزجاجية!

***

إن "النفاق"الأعظم الذي تتصف به هذه المناحة برمتها يستقيم في تبيان أن مثل هذا المزمور المصنوع من عبارات أدبية بالية وذكريات من الروايات هو وصف "للنفاق" في المجتمع الراهن، وفي الادعاء بأن المرء سوف يثور بصورة عنيفة من جراء هذا المصدر الباعث على القلق في سبيل الإنسانية المعذبة.

إن كل امرئ يملك بعض الاطلاع على خارطة السماء يعرف أن الدب الأكبر يصادف هنالك في حوار وثيق مع شخص ذي مظهر باعث على الضجر يمسك بعدد من الكلاب مقيدة إلى رسن ويدعى العواء. وإن هذا الحوار ليورد مجدداً في سماء الاشتراكية الحقيقية في الصفحات ٢٤١ - ٢٥٦ من المجلة الرينانية، المجلد الثاني. وإن دور العواء ليضطلع به الهر سيميغ نفسه الذي سبق أن ناقشنا أعلاه دراسته عن "الاشتراكية والشيوعية والإنسانية".

وإننا لنجد في حالته أننا في المجموعة السكسونية [The saxon group] التي يشكل هو كوكبها الأبرز، وهو كتب لهذا السبب مجلداً صغيراً عن الظروف في سكسونيا [Sächsische Zustande]. وفي المقطع الذي أوردناه يطلق الدب الأكبر زمجرة راضية بخصوص هذا المجلد الصغير ويتلو صفحات كاملة منه "بأعظم الرضا"[٢٩٥]. وإن هذه المقتطفات لكافية من أجل وسم الكتيب برمته، وهي على الرحب والسعة ما دامت كتابات العواء لا يمكن الحصول عليها في الخارج بأية طريقة أخرى.

وعلى الرغم من أن العواء هبط في الظروف السكسونية من أعالي تأمله إلى "الظروف الواقعية"، فإنه لا يزال ينتمي، مع مجموعته السكسونية بكاملها، وكذلك الدب الأكبر، جسداً وروحاً، إلى الأسلوب البسيط للاشتراكية الحقيقية. وعلى العموم، فإن الأسلوب المركب قد استنفد مع الويستفاليين وأخوية المرآة، وخاصة مع الحمل والثور وبيرسوس. وبالتالي، فإن المجموعة السكسكونية وسائر المجموعات الأخرى لا تقدم لنا سوى تطورات تالية للاشتراكية الحقيقية البسيطة التي وصفناها أعلاه.

إن العواء، بوصفه بورجوازياً وواصفاً للدولة الدستورية الألمانية النموذجية، يطلق بادئ الأمر أحد كلابه ضد الليبراليين. وليست بنا حاجة ماسة إلى دراسة هذه الخطبة التقريعية الرائعة ما دامت لا تزيد، مثلها كمثل جميع الخطب الأخرى المماثلة للاشتراكيين الحقيقيين، عن كونها جرمنة تافهة لنقد الموضوع نفسه من قبل الاشتراكيين الفرنسيين. إن العواء ليقف بالضبط مثل موقف الرأسماليين؛ وإذا شئنا أن نستخدم كلماته بالذات، فإنه يملك "المنتجات الإنتاجية من قبل العمال" الفرنسيين وممثليهم الأدبيين "كنتيجة للميراث الأعمى لرؤوس الأموال الأجنبية" (المجلة الرينانية، المجلد الثاني، ص ٢٥٦). وهو لم يفعل حتى جرمنتها، لأن آخرين قد فعلوا ذلك قبله، (راجع الحوليات الألمانية والمجلة الرينانية، المجلد الأول، الخ.) إن كل ما فعله هو توسيع هذا "الميراث الأعمى" بنوع خاص من "العمى" ليس هو ألمانياً فحسب، بل سكسونياً بصورة خاصة. وهكذا فإنه يقول: (المصدر نفسه، ص ٢٤٣) إن الليبراليين قد "أيدوا الإجراءات القضائية العامة كيما يتمكنوا من إلقاء تمارينهم البلاغية أمام مجلس القضاء"! وهكذا فإن العواء، بالرغم من حماسته

القائمة ضد البورجوازية والرأسماليين، الخ، لا يرى في الليبراليين صورة أولئك بقدر ما يرى فيهم خدمهم المأجورين، يعني المحامين.

إن نتيجة الاستقصاءات التي يقوم بها صاحبنا العواء في الليبرالية لجديرة بالإشارة إليها. إن الاشتراكية الحقيقية لم يسبق لها قط من قبل أن عبّرت بمثل هذا الوضوح عن اتجاهها الرجعي سياسياً:

"لكن أنتم... البروليتاريون... الذين سمحتم لأنفسكم من قبل بأن تتحركوا بفضل هؤلاء البورجوازيين الليبراليين وبأن تنحرفوا عن جادة الصواب إلى الشغب (فكروا في عام ١٨٣٠)، كونوا حذرين ألا تؤيدوهم في جهودهم وصراعاتهم... دعوهم يقاتلون لوحدهم من أجل... ما بدأوا القتال من أجله في سبيل مصالحهم الخاصة وحدها؛ وقبل كل شيء، لا تشتركوا في الثورات السياسية في أي وقت كان. هذه الثورات التي صدرت على الدوام عن أقلية ساخطة تود، من جراء شبقها إلى السلطة، أن تقلب السلطة الحاكمة وتستولي على الحكم". (ص ٢٤٦ - ٢٥٤).

إن للعواء حقاً مشروعاً حتى الدرجة القصوى في شكر الحكومة السكسونية الملكية - إن أكليل الفيجن[٢٩٦] هو أقل مكافأة يمكن أن تقدمها الحكومة إليه. وإذا أمكن أن يخطر في البال أن البروليتاريا الألمانية سوف تتبع نصيحته، فإن وجود الدولة الإقطاعية، وفئة المالكين الصغار، الفلاحية البيروقراطية النموذجية لسكسونيا سوف يصبح مضموناً لفترة طويلة من الزمن. إن العواء يحلم في أن ما يصلح لفرنسا وإنكلترا، حيث تحكم البورجوازية، يجب أن يكون صالحاً أيضاً، من أجل سكسونيا، حيث لاتزال البورجوازية بعيدة عن تسلم مقاليد الحكم، وفيما عدا ذلك، فإن العواء يستطيع أن يقرأ كل يوم في الصحف البروليتارية الصادرة في فرنسا وإنكلترا كيف أنه من المحال على البروليتاريا حتى في هذين البلدين أن تظل لا مبالية بالمسائل التي لا تتعلق في حقيقة الأمر إلا بالمصلحة المباشرة للبورجوازية أو قسم من هذه البورجوازية. وإن مثل هذه المسائل، في عداد مسائل عديدة، هي في إنكلترا سحب اعتراف الدولة بالكنيسة، وما يسمى التسوية العادلة للدين الوطني، والضرائب المباشرة؛

وفي فرنسا توسيع الضرائب بحيث تشمل فئة المالكين الصغار، ونقض المكوس المدنية، الخ.

وأخيراً، فإن كل ما ينادى به في سكسونيا من "حرية الفكر هو مجرد زبد ضائع... صراع شفهي"، وليس السبب في ذلك أن شيئاً لم يتحقق بفضلها وأن البورجوازية لم تتقدم خطوة واحدة، بل إن السبب في ذلك هو أنكم، "أنتم" الليبراليون، "لا تتمكنون بذلك من تحقيق أي علاج أساسي للمجتمع المريض" (ص ٢٤٩)؛ وإن قدرتهم على ذلك لتتضاءل ما داموا لا يعتبرون مطلقاً أن المجتمع يعاني المرض.

ولنكتف بهذا القدر. في الصفحة ٢٤٨ يطلق العواء كلباً نباحاً اقتصادياً آخر.

> في لايبزيغ..."نهضت من جديد أقسام كاملة من المدينة" (إن العواء يعرف أقساماً من المدينة "نهضت" ليس "من جديد"، بل قديماً منذ البداية). "وعلى أي حال، فقد نشأ في هذا المجال تفاوت جائر فيما يتعلق بالمباني، بمعنى انعدام المساكن لقاء" (!) "سعر متوسط. إن كل بانٍ لبيت جديد لا يهيئ المباني، في سبيل فائدة أعلى" (!) كان يجب أن يقول في سبيل أجر أعلى "إلا من أجل استخدامها من قبل أسر كبيرة؛ ومن جراء نقص الأنواع الأخرى من المساكن، فإن عائلات كثيرة تضطر أن تستأجر مباني أكبر مما تحتاج إليه أو تستطيع أن تدفع أجراً لقاءه، وهكذا تتراكم الديون، والحجوزات، والاعتراضات على الكمبيالات، وقس على ذلك!" (إن هذه (!) تستأهل (!) أخرى). "وباختصار، فإن الطبقة المتوسطة مقدر لها بكل وضوح أن تعتصر".

ولا يستطيع المرء إلا أن يعجب بالبساطة البدائية لهذا الكلب الاقتصادي النباح! إن العواء يرى أن فئة المالكين الصغارفي مدينة لايبزيغ المستنيرة تتعرض للدمار بطريقة تبعث فينا قدراً كبيراً من البهجة، "وفي أيامنا الحاضرة، حيث طمست جميع الفروق في النوع الإنساني" (ص ٢٥١)، كان يجب أن تلقى هذه الظاهرة الترحيب نفسه من قبله. وعلى أية حال: فإن العكس هو ما يحدث، إذ إن هذه الظاهرة تقلقه وتحمله على البحث عن سببها. وإنه ليجد هذا السبب في خبث بناة المساكن المضاربين، الذين يسعون إلى إسكان كل خياط

أو صانع قفازات في قصر لقاء أجر باهظ. إن "بناة المساكن الجديدة" في لايبزيغ هم- كما يشرح العواء ذلك في اللغة السكسونية الأشد خراقة وغموضاً - فلا يمكن أن تسمى ألمانية - متفوقون على جميع قوانين التنافس. إنهم يبنون مساكن أغلى مما يتطلبه الزبائن لها، ولا يتكيفون مع حالة السوق، بل مع "فائدة أعلى"؛ وفيما كان يجب أن تكون عاقبة ذلك في كل مكان أن يؤجروا مساكنهم بسعر أدنى، فإنهم ينجحون في لايبزيغ في إخضاع السوق لرغباتهم ويجبرون المستأجرين على تدمير أنفسهم بالأجور الأعلى؛ إن العواء قد حسب البعوضة فيلاً، والتفاوت المؤقت بين العرض والطلب في سوق الإسكان أوضاعاً دائمة، والحقيقة أنه حسبه السبب في إفلاس فئة المالكين الصغار. بيد أن الاشتراكية السكسونية يمكن أن تغتفر لها مثل هذه البساطة في التفكير ما دامت:

"تنجز عملاً جديراً بالإنسان، وسوف يباركها من أجله البشر جميعاً" (ص ٢٤٢).

إننا نعرف من قبل أن الاشتراكية الحقيقية مصابة بوسواس عظيم، ومهما يكن من أمر، فإن المرء يمكن أن ينطوي على الأمل في أن العواء، الذي أبان عن مثل تلك الجرأة الرائعة في الحكم في المجلد الأول من المجلة الرينانية، سوف يكون بريئاً من ذلك الداء أبداً. إن العواء يطلق، في الصفحتين ٢٥٢، ٢٥٣، الكلب النباح التالي، وبذلك يبعث الإشراق في قلب الدب الأكبر.

"مباراة الرماية في درسدن... احتفال شعبي، ولا يستطيع المرء إلا بكل صعوبة أن يخطو إلى المروج قبل أن يصادف المزامير النائحة التي ينفخ فيها العميان الذين لا يرضيهم الدستور... ويثور من جراء الصيحات السوقية التي يطلقها "الفنانون" الذين يسلون بالتواءات أعضائهم مجتمعاً ذو بنية ملتوية، باعثة على النفوربصورة شيطانية".

(حين يقف راقص على الحبل على رأسه، فإن ذلك يعني بالنسبة إلى العواء العالم الحاضر المقلوب رأساً على عقب؛ إن المعنى الصوفي لدولاب دائر هو الإفلاس؛ إن سر سباق البيضة والملعقة هو مسلك كاتب اشتراكي حقاً يخطو في بعض الأحيان، بالرغم

مـن جميـع "الالتـواءات"، خطـوة فاسـدة ويلطـخ "قاعدتـه الماديـة" بأسـرها بمـح البيـض؛ وإن المزمـار يعنـي دسـتوراً لا يرضـي؛ وإن قيثـارة اليهـودي تعنـي حريـة الصحافـة التـي لا ترضـي؛ وإن دكانـاً لبيـع الثيـاب العتيقـة يعنـي الاشـتراكية الحقيقيـة، التـي لا ترضـي هـي الأخـرى. وإن العـواء، الغـارق فـي هـذه الرمزيـة، ليضـرب علـى وجهـه متنهـداً وسـط الحشـد وينتهـي، كمـا فعـل بيرسـوس مـن قبلـه، إلـى الإحسـاس الفخـور بأنـه "القلـب الوحيـد بيـن الأبالسـة").

"وهنـاك فـي الخيـم يمـارس أصحـاب بيـوت الدعـارة... تجارتهـم المخزيـة" (ويتلـو ذلـك خطبـة طويلـة فـي الموضـوع)... "أيهـا البغـاء، أيهـا الشـيطان التـي تنفـث الطاعون، أنـت الثمـرة الأخيـرة لمجتمعنـا الراهـن" (ليسـت الأخيـرة دائمـاً، فلربمـا كان ثمـة ابـن غيـر شـرعي فـي وقـت لاحـق)... "أسـتطيع أن أروي قصصـاً عـن كيـف رمت فتاة بنفسـها عنـد قدمـي رجـل غريـب"... (وتعقـب القصـة ذلـك)... "أسـتطيع أن أروي قصصـاً، لكن لا، لـن أفعـل" (فـي الحقيقـة إنـه روى القصـة لتـوه). "كلا، إنـه لا يتهـم الضحايـا المسـاكين للعـوز والإغـواء، لكنـه يجـر أمـام مقعـد القاضـي القواديـن الوقحيـن... لا، لا، حتـى ليـس هـؤلاء! مـا الـذي فعلـوه غيـر مـا يفعلـه الآخـرون، فهـم يمارسـون تجارتهـم، حيـث يمـارس الجميـع التجـارة"، الـخ.

وهكـذا فـإن الاشـتراكي الحقيقـي ينقـل اللـوم بأسـره عـن عاتـق الأفـراد ويضعـه علـى عاتـق "المجتمـع" الـذي هـو معصـوم. الجميـع يفعلـون ذلـك[٢٩٧]، والمسـألة هـي فـي آخـر الأمـر أن نظـل أصدقـاء طيبيـن مـع العالـم جميعـاً. إن المظهـر المميـز للبغـاء، ألا وهـو كونـه الاسـتثمار الأكثـر حسـية، الاسـتثمار الـذي يتنـاول الجسـد الحـي، للبروليتاريـا مـن قبـل البورجوازيـة، المظهـر حيـث يعانـي "محـور العمليـة" (ص ٢٥٣) الإفـلاس مـع حسـاء الفقيـر الأخلاقـي الخـاص بـه، وحيـث يبـدأ الهـوى، الحقـد الطبقـي المتعطـش إلـى الثـأر هـذا المظهـر مجهـول مـن الاشـتراكية الحقيقيـة، وبـدلاً مـن ذلـك فإنهـا تتفجـع فـي العاهـرات علـى مسـاعدات البقاليـن المفلسـين ورئيسـات العامـلات الحقيـرات اللائـي لـم يعـد يسـتطيع بعـد الآن أن يعجـب فيهـن

"بمأثـرة الإبـداع"، "الـوردة المتفتحـة المغمـورة بعطـر المشـاعر الأقـدس والألطـف" أيهـا المغفـل الصغيـر المسـكين(*)!

إن وردة الاشـتراكية السكسـونية [The Flower of saxon socialism] هـي صحيفـة أسـبوعية صغيـرة بعنـوان: البنفسـج. أوراق غيـر ضـارة مـن أجـل النقـد الحديـث [Velcherr Blâtter fûr die harmlose moderne kritik][298]، يحررهـا ويصدرهـا غ. شلوسـيل فـي باوتـزن. وهكـذا فـإن "البنفسـج" هـو فـي واقـع الأمـر زهـر الربيـع(**)، وإن هـذه الـورود الرقيقـة قـد وصفـت كمـا يلـي فـي مجلـة تريـر [Trier´sche Zeitung][299] (١٢ كانـون الثانـي (ينايـر) مـن هـذا العـام) مـن قبـل مراسـل مـن لايبزيـغ هـو كذلـك أحـد أفـراد هـذا الفريـق:

"يمكننـا أن نحقـق تقدمـاً فـي البنفسـج، وتطـوراً فـي الآداب السكسـونية؛ وإن هـذه الصحيفـة، بالرغـم مـن صغـر سـنها، توفـق بـكل حميـة بيـن الفتـور السياسـي السكسـوني القديـم والنظريـة الاجتماعيـة للأيـام الحاضـرة".

إن "الفتـور السكسـوني القديـم" ليـس علـى مـا يكفـي من الفتور بالنسـبة إلـى هؤلاء السكسـونيين الرؤسـاء، فـلا بـد لهـم أن يقسـموه إلـى نصفيـن مـرة أخـرى بواسـطة "مصالحتـه" [reconciling]، ليـس فـي ذلـك أي "ضـرر" علـى الإطـلاق!

ولقد تدبرنا أمرنا كي نطلع على واحدة فقط من هذه البنفسجات؛ لكن:

كانت بنفسجية حبيبة؛

وإن تكن محنية الرأس ومجهولة[300].

وفـي هـذا العـدد - الأول لعـام ١٨٤٧ - يضـع العـواء بعـض الأشـعار الصغيـرة التزينيـة كتقديـر عنـد أقـدام سـيدات "حديثـات غيـر ضـارات". وإنـه ليتقـرر هنـاك، فيمـا يتقـرر:

وإن شوكة حقد الطغاة.

تزين حتى قلوب النساء الرقيقة[301].

(*) Pauvre petit bonhomme، بالفرنسية في النص الأصلي.

(**) إن الكلمة الألمانية من أجل زهرة الربيع "Schlusselblumen"(زهرة شلوسيل).

وتلك مقارنة لا بد أن جرأتها قد "زينت" في هذه الأثناء "القلب الرقيق" لصاحبنا العواء "بشوكة" وخزات الضمير.

"وليس الغنج السبب الوحيد في توردها".

أيمكن للعواء، الذي "يستطيع أن يروي قصصاً" في الحقيقة، لكنه "لن" يرويها لأنه قد سبق له أن رواها، والذي لا يتحدث عن شوكة أخرى غير شوكة "حقد الطغاة"، أيمكن لهذا الرجل المثقف والمحترم أن يكون قادراً حقاً على جعل "الوجنات الجميلة" للنساء والآنسات "تتورد" بواسطة "الغنج" الغامض؟

وليس الغنج السبب الوحيد في توردها.

إنها تتورد من جراء غضب حب الحرية،

متألقة مقدسة، هذه الخدود الجميلة

التي تزهر جذابة مثل الورود.

ومما لا ريب فيه أن تورد "غضب حب الحرية" يجب أن يتميز بكل سهولة، بفضل لون أكثر حياء وأخلاقية "ولمعاناً" من تورد "الغنج" الأحمر الغامق، وبصورة خاصة بالنسبة إلى رجل مثل العواء الذي لا يستطيع أن يميز "شوكة حقد الطغاة" من جميع "الأشواك" الأخرى.

إن البنفسج يعطينا فرصة مباشرة للتعرف إلى إحدى تلك الجميلات اللائي "تزين شوكة حقد الطغاة قلوبهن الرقيقة" واللائي "تتورد خدودهن الجميلة بغضب حب الحرية، متألقة مقدسة"، إنني أقصد أندروميدا السماء الاشتراكية حقاً (فرولن لويز أوتو)، المرأة الحديثة المقيدة إلى صخرة الشروط غير الطبيعية والمغتسلة بزبد المستبقيات القديمة، التي تقدم "نقداً حديثاً غير ضار" للأعمال الشعرية لألفريد مايسنر. إنه لمشهد غريب، لكنه مشهد فاتن، كيف تناضل الحماسة المتدفقة هنا ضد التواضع الرقيق عند الفتاة الألمانية، الحماسة "لملك الشعراء" الذي يهز الأوتار الأعمق للقلب الأنثوي ويستخرج منها ألحاناً من التكريم تحاذي المشاعر الأعمق والأرق، ألحاناً هي في صراحتها البريئة أروع مكافأة ينالها المغني.

وإن المـرء ليصغـي إلـى هـذه الاعترافـات المتملقـة الصـادرة عـن نفـس عـذراء فـي كل بدائيتهـا الساذجة، هـذه العـذراء التـي تظـل أشـياء كثيـرة فـي هـذا العالـم الشـرير غامضـة بالنسـبة إليهـا. وإن المـرء ليسـمع ويتذكـر أن جميـع الأشـياء طاهـرة عنـد النفـس الطاهـرة.

فـي الحقيقـة إن "العاطفيـة العميقـة التـي تسـود قصائـد مايسـنر لا يمكـن إلا أن يحـس بهـا فحسـب، لكـن لا يمكـن فـي أي حـال مـن الأحـوال أن تعـزى إلـى أولئـك العاجزيـن عـن الإحسـاس بهـا. إن هـذه الأغانـي هـي الانعـكاس الذهبـي للنيـران اللاهبـة التـي سـمح لهـا الشـاعر فـي قداسـة قلبـه أن تتأجـج كذبيحـة علـى مذبـح الحريـة، انعـكاس يذكرنـا لمعانـه بكلمـات شـيللر: إن الأجيـال اللاحقـة سـوف تغفـل المؤلـف الـذي لـم يكـن أكثـر مـن أعمالـه - إننـا نشـعر هنـا، أن هـذ الشـاعر نفسـه هـو شـيء أكثـر مـن أغانيـه الجميلـة" (بـكل تأكيـد، يـا فرولـن أندروميـدا، بـكل تأكيـد)، "وإن فيـه شـيئاً لا يمكـن التعبيـر عنـه، شـيئاً "فـوق جميـع المظاهـر"، علـى حـد تعبيـر هاملـت". (إيـه، أنـت أيهـا المالـك المنـذر، أنـت!)[٣٠٢] "إن هـذا الشـيء هـو مـا يفتقـر إليـه العديـدون مـن شـعراء الحريـة، علـى سـبيل المثـال كليـاً فـي هوفمـان فـون فالرسـليبن وبروتـز" (أتلـك هـي الحـال حقـاً؟): "وجزئيـاً أيضـاً فـي هيرفيـغ وفرايليغـر، إن هـذا الشـيء ربمـا كان العبقريـة".

ربما كانت "شوكة" العواء، أيتها الآنسة الجميلة!

وتقرر المقالة نفسها:

"ومهمـا يكـن مـن شـيء: فـإن للنقـد واجبـه - بيـد أن النقـد يتـراءى لـي متخشـباً حتـى درجـة كبيـرة بالقيـاس إلـى مثـل هـذا الشـاعر".

يـا للعذريـة! مـن المؤكـد أن نفسـاً نقيـة شـابة، نفسـاً تخـص فتـاة عـذراء، لا بـد أن "تتـراءى" فـي عينـي ذاتهـا "متخشـبة حتـى درجـة كبيـرة" بالقيـاس إلـى شـاعر يملـك مثـل هـذا "الشـيء" الرائـع.

ونمضي في القراءة حتى آخر مقطع شعري، مما ينبغي أن يبقى وفياً لذكرانا جميعاً:

"في ذاكرة كل واحد منا:

ومع ذلك فلا بد أن ذلك اليوم

سيأتي أخيراً...

عندئذ تجلس الشعوب، متعاقدة الأيدي،

مثل الأطفال في قاعة السموات الكبرى،

ومرة أخرى سوف تدار الكأس،

كأس الحب في عرس حب الشعوب".

وعندئذ فإن فرولن أندروميدا سوف تستغرق في صمت بليغ، "مثل طفل متعاقد اليدين". فلنأخذ حذرنا من أن نعكر صفوها.

ولا بد أن قراءنا أصبحوا في لهفة بعد هذا كله إلى معرفة أوثق "بملك الشعراء"، ألفرد مايسنر، و"بشيئه" (Alfred Meissner and his "something") . إنه الجوزاء في السماء الاشتراكية الحقيقية، وفي الحقيقة إنه لا يعيب مركزه مطلقاً. إنه يتقلد سيف الشعر المتألق، ويلتف "بمعطفه من الحزن" (ص ٦٧ وص ٢٦٠ من ديوان مايسنر: قصائد [Gedichte]، الطبعة الثانية، لايبزيغ ١٨٤٦)، ويلوح في قبضته القوية بعصا الغموض الذي يبطح بها أرضاً جميع خصوم القضية الصالحة. وعند عقبيه بتأثره مثل كلب صغير رجل يدعى موريتز هارتمان يطلق هو الآخر في سبيل القضية الصالحة نباحاً قوياً تحت عنوان: الكأس والسيف [Kelch und Sehwert] (لايبزيغ ١٨٤٥). وإذا شئنا أن نتحدث بعبارات أرضية، فإننا دخلنا مع هذين البطلين منطقة قد قدمت لفترة طويلة من الزمن فيما مضى مجندين أقوياء عديدين للاشتراكية الحقيقية... تلك هي الغابات البوهيمية.

وكما هو معروف جيداً، فقد كان كارل مور الاشتراكي الحقيقي الأول في الغابات البوهيمية. ولم يحالفه النجاح في إنجاز عمل التجديد حتى النهاية؛ لم تفهمه حقبته، وقد سلم نفسه للعدالة. ولقد عمد مايسنر الجوزاء إلى تأثر خطوات هذا الوجه النبيل وأراد - بروحه على الأقل - أن يقرب عمله الرفيع من هدفه. ولقد كان إلى جانبه، هو كارل مور الثاني، مساعده سابق الذكر موريتز هارتمان، الكلب الأصغر [Canis minor][٣٠٣] - في دور شوايتزر المحترم - الذي يحيي الله والملك والوطن والأم بطريقة غنائية، ويذرف بصورة خاصة دموع الذكرى الشاكرة عند ضريح ذلك الإنسان البسيط، القيصر جوزيف.

وفيما يتعلق ببقية الجماعة، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى أن أياً منهم لم يظهر بعد فيما يبدو ما يكفي من الفهم والذكاء كي يقوم بدور شبيغيلبرغ(٣٠٤).

وإنه لمن الواضح من النظرة الأولى أن كارل مور الثاني ليس بالرجل العادي. لقد تعلم الألمانية في مدرسة كارل بيك، وبالتالي كان أسلوبه في الحديث يتحلى بأكثر من الأبهة الشرقية. فعنده أن الإيمان "فراشة" (ص ١٣) والقلب "وردة" (ص ١٦)، وفيما بعد "غابة مهجورة" (ص ٢٤)، وأخيراً "نسر" (ص ٣١). وعنده أن السماء في الأمسيات هي: (ص ٦٥).

حمراء مرصعة بالنجوم، مثل محجر العين

من دون عين ومن دون ضياء ومن دون نفس.

إن ابتسامة حبيبته "طفل من أبناء الأرض يداعب أبناء لله" (ص ١٩).

ومهما يكن من أمر، فإن ما يميزه من الفنانين العاديين أكثر من لغته المبهرجة المليئة بالصور هو سأمه الهائل من العالم. وبذلك فإنه يبرهن على أنه ابن حقيقي وخليفة لكارل مور الأول، بالضبط مثلما يبرهن في الصفحة ٦٥ على أن "السأم العاصف من العالم" هو أحد المتطلبات الأولى عند كل "مخلص للعالم". وفي الحقيقة إن مور- الجوزاء، بقدر ما يتعلق الأمر بالسأم من العالم، يتجاوز جميع سابقيه ومنافسيه. فلنصغ إلى ما يقوله هو نفسه:

"إذا ما صلبت بالأسى، فقد مت" (ص ٧). "هذا القلب المهدى إلى الموت" (ص ٨). "ذهني مظلم" (ص ١٠). وعنده أن " العذاب القديم يردد عويله في غابة القلب المهجورة" (ص ٢٤). "إنه ليكون من الأفضل ألا يكون المرء قد ولد قط، لكن الموت أيضاً يكون حسناً" (ص ٢٩).

في هذه الساعة الشريرة المرة،

حين ينساك العالم البارد،

اعترف يا قلبي من خلال شفتيك الشاحبتين

بأنك بائس بصورة لا يمكن التعبير عنها (ص ٣٠).

وفي الصفحة ١٠٠ "يدمى من جراح خفية عديدة"، وفي الصفحة ١٠١ يحس بأنه

منزعـج جـداً مـن أجـل الجنـس البشـري، بحيـث لا بـد لـه أن يضغـط ذراعيـه "بشـدة مثـل ملقطيـن... حـول صـدره الـذي يهـدد بالانفجـار". وفـي الصفحـة ٧٩ يكـون طائـراً كركيـاً قـد أطلقـت عليـه النـار، فهـو لا يسـتطيع أن يطيـر إلـى الجنـوب فـي الخريـف مـع رفاقـه، فهـو يتعثـر فـي الأدغـال "بقوادمـه التـي اخترقهـا الرصـاص" و"يصفـق بجناحيـه العريضيـن الملطخيـن بالدمـاء" (ص ٧٨). مـن أيـن تصـدر جميـع هـذه الآلام؟ أتكـون جميـع هـذه التفجعـات مجـرد أنيـن حـب يومـي علـى طريقـة فرثـر، وقـد ضاعـف الاسـتياء منهـا بسـبب الآلام الشـخصية لشـاعرنا؟ أبـداً. إن شـاعرنا قـد عانـى بالفعـل قـدراً كبيـراً مـن الألـم، لكنـه عـرف كيـف يشـتق مظهـراً عامـاً مـن جميـع آلامـه، وإنـه كثيـراً مـا يشـير، مثـلاً فـي الصفحـة ٦٤، إلـى أن النسـاء قـد مارسـن بحقـه خدعـاً مزعجـة عديـدة (وذلـك هـو القـدر المألـوف للألمـان، وبصـورة خاصـة الشـعراء)، وأنـه مـر بتجـارب عديـدة فـي حياتـه، ولكـن ذلـك كلـه إنمـا يبرهـن لـه علـى شـر العالـم والحاجـة إلـى تغييـر الشـروط الاجتماعيـة. وليـس ألفريـد مايسـنر هـو الـذي تألـم فـي شـخصه، بـل الجنـس البشـري، وبالتالـي، فإنـه يسـتخلص مـن جميـع عذاباتـه أن كـون المـرء إنسـاناً يشـكل قـدراً عظيمـاً وعبئـاً ثقيـلاً مـن العـذاب.

إيه ايها العذاب العذب للكينونة إنساناً (ص ٩٠). مهما تقلبت بك الأحوال،

كيف تتحمل بكل شجاعة النير الثقيل لكونك إنساناً (ص ٦٦).

إيه أيها الألم العذب، إيه أيتها اللعنة المباركة،

إيه أيها العذاب العذب للكينونة إنساناً (ص ٩٠)

وفـي عالمنـا الجاحـد لا يمكـن لمثـل هـذا الألـم النبيـل أن يعتمـد إلا علـى اللامبـالاة والصـد المهيـن والاسـتهزاء. وتلـك هـي تجربـة كارل مـور الثانـي أيضـاً، ولقـد سـبق أن رأينـا أعـلاه أن "العالـم البـارد ينسـاه"، وبهـذا الصـدد، فـإن الإخفـاق المريـع هومـن نصيبـه حقـاً:

كيما أتقي سخرية البشر الباردة

بنيت لنفسي سجناً بارداً مثل القبر (ص ٢٢٧).

وإنه ليسعى بعد في إحدى المناسبات كي يرفع من شجاعته:

أنت، أيها المنافق الشاحب، الذي تسعى إلي كي تبغضني

سمٍّ لي ألماً لم يحز في قلبي،

أو هوىً رفيعاً لم يلهب صدري (ص ٢١٢).

لكن الأمر يصبح في آخر الأمر شاقاً جداً بالنسبة إليه؛ إنه ينسحب، وفي الصفحة ٦٥ يمضي "إلى البرية"، وفي الصفحة ٧٠ "إلى الصحراء الجبلية"؛ مثل كارل مور الأول بالضبط. وإنه ليوضح الأمر هنا له بتيار متدفق من الأمثلة - لأن جميع الأشياء تتألم، مثلاً: الحمل الذي يمزقه النسر إرباً يتألم، والصقر يتألم، والقصب الذي يخشخش في الريح يتألم - "ما أصغر الآلام البشرية"، وما أقل ما تبقى له في الحقيقة، سوى "أن يفرح ويغني". ومهما يكن من أمر، فلما كان "الفرح" لا يتفق وذوقه كلياً، ولما كان "الغناء" لا يناسبه مطلقاً فيما يبدو، فإنه ينطلق قدماً كيما يسمع "الأصوات في المروج". وإن نصيبه لأسوأ هنا. إن ثلاثة فرسان يتجهون إليه الواحد تلو الآخر ويقدمون إليه بكلمات جافة النصيحة الطيبة بأن عليه أن يدفن نفسه:

إصغ! ليكون من الأفضل لك...

لو دفنت نفسك تحت أوراق جافة

ومت مغطى بالعشب والأرض الندية (ص ٧٥).

تلك قمة عذاباته. إن الكائنات البشرية تزدريه وتزدري حزنه؛ ويلتفت إلى الطبيعة، لكنه لا يصادف هنا أيضاً سوى وجوه بغيضة وأجوبة قاسية، وبعدما أبرز الألم الموجع الذي ينتاب كارل مور الثاني أمامنا "جناحيه العريضين الملطخين بالدماء" حتى بعث فينا القرف، نجد (ص ٢١١) رباعية يعتقد الشاعر فيها أن من واجبه الدفاع عن نفسه:

... لأنني أعنى بجراحي وأتحمل ألمي

بصمت وبصورة دفينة

لأن فمي يرفض أن يشكو

ولا يستعرض المساوئ الرهيبة!

لكن "مخلص العالم" لا يكفي أن يكون مبتلياً بالألم، بل يجب أن يكون متوحشاً أيضاً. وبالتالي فإن "عاصفة متوحشة من الهوى تهب في صدره" (ص ٢٤)، وحين يحب،

فإن "شموسه تلتهب بحرارة" (ص ١٧)؛ إن "عشقه بريق صاعقة، وشعره عاصفة" (ص ٦٨). وسرعان ما سوف نصادف أمثلة عن مقدار وحشية همجيته.

فلنلقِ نظرة سريعة إلى بعض القصائد الاشتراكية لمور - الجوزاء.

من الصفحة ١٠٠ حتى الصفحة ١٠٦ بسط "جناحيه العريضين الملطخين بالدماء" كيما يراقب أثناء طيرانه شرور المجتمع الراهن. وإنه ليركض عبر شوارع لايبزيغ في صورة هائجة من "السأم المتوحش من العالم". إن الليل فيما حوله وفي قلبه. وأخيراً يتوقف. إن شيطاناً غريباً يتقدم إليه ويسأله في لهجة حارس ليلي عما يفعله في الشارع في مثل هذا الوقت المتأخر. إن كارل مور الثاني، الذي كان في تلك اللحظة بالذات مشغولاً بضغط "ملقطي" ذراعيه على جوف صدره الذي كان "يهدد بالانفجار" ليحدق "بالشموس المتألقة بحرارة" في عينيه في وجه الشيطان بوحشية وينفجر أخيراً قائلاً (ص ١٠٢):

إذا ما استيقظت في سماء الإيمان المرصعة بالنجوم،

فقد رأيت بكل وضوح في ضوء الروح:

إن ذلك الذي كان في الجلجلة

لم يحقق بعد خلاص العالم!

هذا ما يراه كارل مور الثاني "بكل وضوح"! بحق "الصحراء المهجورة" لقلبه، وبحق "معطف الحزن" الذي يرتديه، وبحق النير الثقيل لكينونة المرء إنساناً، وبحق اصطفاف قوادم شاعرنا المثقبة بالرصاص وبكل شيء آخر يقدسه كارل مور الثاني - لم يكن ذلك يستحق عناء أن يركض عبر الشوارع في الليل، وأن يعرِّض صدره لخطر الانفجار وذات الرئة، وأن يستحضر شيطاناً خاصاً، كيما ينقل إلينا هذا الاكتشاف آخر الأمر! لكن فلنصغ إلى المزيد. إن الشيطان لم يهدأ بعد. إن كارل مور الثاني ليروي إذن، كيف أمسكت عاهرة شابة بيده، وبذلك أثارت في نفسه جميع أنواع الأفكار الأليمة التي تعبِّر عن نفسها أخيراً في المقاطع التالية:

يا امرأة، إن اللوم في بؤسك

يقع على عاتق المجتمع الذي لا يرحم!

أيتها الضحية الشاحبة التي تؤسي رؤيتك،

أنت ذبيحة على مذبح الخطيئة الوثني(!)

بحيث أن براءة النساء الأخريات

تحفظ طاهرة في الدار! (ص ١٠٣).

إن الشيطان، الذي يتبين الآن أنه بورجوازي عادي تماماً، لا يوافق على النظرية الاشتراكية الحقيقية عن البغاء المجسدة في هذه الأسطر، ويجيب بدلاً من ذلك ببساطة تامة: كل إنسان يصنع سعادته الخاصة، و"كل إنسان مسؤول عن خطيئته الخاصة"، ومثل ذلك من العبارات البورجوازية، وأنه ليلاحظ: "إن المجتمع كلمة جوفاء" (مما لا ريب فيه أنه قرأ شترنر)، ويطلب من كارل مور الثاني أن يواصل تقريره. ويروي هذا الأخير كيف نظر إلى المساكن البروليتارية وسمع بكاء الأطفال:

لما كان صدر الأم قد جف،

فإنه لا يمنح قطرة من الإنعاش العذب،

ويموت الولدان الأبرياء تحت رعاية أمهاتهم!

ومع ذلك (!!) فإنها لمعجزة تبعث على أعظم الفرح

أن يستطيع صدر الأم، انطلاقاً من دم على هذا القدر من الاحمرار،

أن يحمل ويعطي حليباً ناصع البياض (ص ١٠٤).

وإنه ليعلن أن كل من شاهد هذه المعجزة يجب ألا يحزن إذا لم يستطع أن يؤمن بأن المسيح حول الماء إلى خمر. إن قصة عرس قانا الجليل قد جعلت شاعرنا فيما يبدو مؤيداً للمسيحية. إن السأم من العالم يصبح هنا عميقاً جداً بحيث يفقد كارل مور الثاني كل تماسك. وإن البورجوازي الشيطاني ليحاول أن يهدئه ويحمله على مواصلة تقريره:

وشاهدت أطفالاً آخرين، فئة شاحبة،

هناك حيث تدخن المداخن الطويلة،

وحيث لهيب الدواليب الحامية

تقوم برقصة مضجرة على إيقاع ثقيل (ص ١٠٥).

أي مصنع هو ذاك، حيث شاهد كارل مور الثاني "لهيب الدواليب"، والأكثر من ذلك أنه شاهدها "تقوم برقصة"! لا بد أنه المصنع نفسه حيث تصنع أشعار شاعرنا التي "تقوم برقصة مضجرة على أيقاع ثقيل"؟ ويتلو ذلك شيء عن نصيب أولاد المصنع. ويمس ذلك محفظة البورجوازي الشيطاني الذي لا بد أنه صاحب مصنع أيضاً. وإنه ليثور إذن، هو الآخر، ويرد بأن ذلك لغو وهراء، وبأن تلك الحزمة البالية من الأطفال البروليتاريين لا أهمية لها، وأنه ليس ثمة عبقري قد قضى بعد من جراء مثل هذه التفاهات، وأنه ليس الأفراد على العموم هم المهمون بل الجنس البشري بمجموعه، الذي سوف يتدبر أمره حتى من دون ألفريد مايسنر، هو المهم. إن الحاجة والبؤس نصيب الكائنات البشرية، وعلى أية حال:

لن يصلح الإنسان قط

ما صنعه الخالق بصورة رديئة (ص ١٠٧).

وعندئذٍ يختفي، ويظل شاعرنا المحزون واقفاً لوحده. ويهز الشاعر رأسه المضطرب، ولا يستطيع أن يفكر في شيء يفعله أفضل من أن يمضي إلى داره ويسجل ذلك كله على الورق، كلمة كلمة، وينشره:

وفي الصفحة ١٠٩ نرى "رجلاً مسكيناً" يريد أن يغرق نفسه؛ ويرده كارل مور الثاني بكل نبل عن ذلك ويسأله عن دوافعه. ويروي الرجل المسكين أنه سافر كثيراً:

حيث مداخن إنكلترا ترسل نيراناً دامية (!)

شاهدت في ألم - أصم أخرس - أنواعاً جديدة من الجحيم

وأولئك الذين يسكنون في اللعنة.

إن "الرجل المسكين" قد شاهد أشياء غريبة في إنكلترا حيث أظهر الميثاقيون في كل مدينة صناعية نشاطاً أعظم مما قامت به جميع الأحزاب السياسية والاشتراكية والدينية مجتمعة في جميع أرجاء ألمانيا. ومما لا ريب فيه أنه كان هو نفسه "أصم أخرس".

ومن بعد، وقد جئت إلى فرنسا عبر البحر

شاهدت بعينين أعماهما الرعب والهلع،

جماهير العمال تغلي من حولي

مثل حمم البركان اللاهبة.

لقد نظر إلى ذلك "بعينين أعماهما الرعب والهلع" هو "الرجل المسكين"! وهكذا فقد شاهد في كل مكان الصراع بين الفقراء والأغنياء، وهو نفسه" واحد من العبيد"؛ ولما كان الأغنياء يرفضون الإصغاء وكان "يوم الشعب بعيداً جداً بعد"، فإنه لا يستطيع أن يفكر في شيء يفعله أفضل من أن يلقي بنفسه في الماء. وإن مايسنر، وقد اقتنع بأقواله، يخلي سبيله: "وداعاً، لا أستطيع بعد الآن أن أردعك!".

ولقد فعل شاعرنا حسناً حين ترك بكل هدوء هذا الجبان الأحمق يغرق نفسه، هذا الذي لم يشاهد في إنكلترا أي شيء على الإطلاق، والذي لا تفعل الحركة البروليتارية في فرنسا إلا أن تبعث فيه "الرعب والهلع"، والذي كان أجبن من أن ينضم إلى صراع طبقته ضد مضطهديها. وعلى أي حال، فإن صاحبنا لم يكن يصلح لأي شي آخر.

وفي الصفحة ٢٣٧، يوجه مور- الجوزاء [Orion - Moor] أنشودة جديرة بإله الحرب تير [Tyratian] "إلى النساء". "الآن، حين يزني الرجال بطريقة جبانة"، فإن بنات ألمانيا الشقراوات مدعوات إلى النهوض وإلى "المناداة بكلمة الحرية". ولم تنتظر شقراواتنا الناعمات دعوته؛ لقد شاهد الجمهور "بعيون أعماها الهلع والرعب" أمثلة عن الأعمال الرفيعة التي تستطيع نساء ألمانيا القيام بها حالما يستطعن أن يلبسن البنطال ويدخن السيجار.

وبعد هذا النقد الذي قام به شاعرنا للمجتمع، فلنر ما هي رغباته الورعة من وجهة النظر الاجتماعية. إننا نجد في الختام "مصالحة" محررة بنثر متكسر، هي أكثر من مجرد محاكاة "للانبعاث" في نهاية مجموعة أشعار ك.بيك. وإنها لتقرر فيما تقرره:

"لا يحيا الجنس البشري ويناضل لأنه يعطي الفرد مولداً. إن الجنس البشري إنسان واحد". ووفقاً لذلك فإن شاعرنا "ألفرد" من دون ريب "ليس إنساناً". "ولسوف يحين ذلك الأوان... عندئذ سوف ينهض الجنس البشري، مسياً، إلهاً في انتشاره..." لكن هذا المسي لن يأتي إلا بعد "آلاف عديدة من السنين، المخلص الجديد الذي سوف يتحدث" (أما الفعل فسوف يتركه

للآخريـن) "عـن تقسـيم العمـل الـذي سـوف يكـون أخويـاً متسـاوياً مـن أجـل جميـع أبنـاء الأرض"... وعندئـذ فـإن "حـد المحـراث، رمـز الأرض التـي تخيـم الـروح عليهـا... علامـة الاحتـرام العميـق... سـوف ينهـض متألقـاً، متوجـاً بالزهـور، وأجمـل حتـى مـن الصليـب المسـيحي القديـم".

إن مـا سـوف يحـدث بعـد "آلاف عديـدة مـن السـنين" أمـر لسـنا نبالـي بـه مطلقـاً بصـورة أساسـية، إذن، فليسـت بنـا حاجـة إلـى البحـث عمـا إذا كان البشـر الذيـن سـوف يوجـدون وقتـذاك سـوف يتقدمـون قيـد أنملـة بفضـل "حديـث" المخلـص الجديـد، ومـا إذا كانـت النظريـة الأخويـة لهـذا "المخلـص" قمينـة بـأن تتحقـق، وهـي فـي مأمـن مـن أهـوال الإفـلاس. هـذا مـا لا "يـراه" شـاعرنا "بـكل وضـوح": هـذه المـرة. إن الشـيء الوحيـد الجديـر بالاهتمـام فـي هـذا المقطـع بكاملـه هـي حركـة الانحنـاء التبجيليـة التـي يقـوم بهـا أمـام قـدس أقـداس المسـتقبل "حـد المحـراث" الشـاعري. إننـا لـم نصـادف حتـى الآن فـي صفـوف الاشـتراكيين الحقيقييـن سـوى الحضـري وحـده، أمـا هنـا فنلاحـظ أن كارل مـور الثانـي سـوف يرينـا كذلـك الريفـي فـي هندامـه الأحـدي. وبالفعـل فإننـا نشـاهده (ص ١٥٤) يتطلـع مـن الجبـل إلـى وادٍ لطيـف بهيـج حيـث الفلاحـون والرعـاة يقومـون بأعمالهـم اليوميـة بفـرح تـام، وغبطـة، وإيمـان باللـه، و:

كانت الصرخة عالية في قلبي المفعم بالشكوك.

أواه أصغوا! إن الفقر يغني بغبطة فائقة؛

ليس الفقر هنا "امرأة تبيع نفسها، بل طفل عريه ظاهر!"

وفهمت أن الجنس البشري الذي عانى الكثير

سوف يصبح تقياً، سعيداً، وصالحاً،

في العمل الصحي على صدر أمنا الأرض

عندما يجد الراحة، وقد غمره النسيان السعيد.

وفيمـا يعبـر بمزيـد مـن الوضـوح عـن رأيـه الجـاد، فإنـه يصـف (ص ١٥٩) الهنـاءة العائليـة لحـداد ريفـي ويتمنـى أن أولاده

... لن يعرفوا تلك العدوى قط

التي يمنحها الأشرار أو الحمقى،

مهللين ظافرين،

اسم الحضارة أو المدنية.

إن الاشتراكية الحقيقة لا يمكن أن تعرف الراحة قبل أن يرد الاعتبار إلى الأغنية الفلاحية جنباً إلى جنب مع الأغنية الحضرية، وإلى مشاهد غيسنر الرعوية جنباً إلى جنب مع روايات لافونتين. إن الاشتراكية الحقيقية، في شخص ألفريد مايسنر، قد تبنت موقف كتاب روشوف صديق الأطفال [Kinderfreund](٣٠٥)، وأعلنت من وجهة النظر الرفيعة هذه أن مصير الإنسان هو أن يصبح مريفاً. من ذا كان يتوقع مثل هذه الصبيانية من شاعر "السأم المتوحش من العالم"، من صاحب "الشموس اللاهبة بحرارة"، ومن كارل مور الأصغر "المبرق المرعد"؟

وعلى الرغم من حنينه شبه الفلاحي إلى سلام الحياة الريفية، فإنه يعلن أن المدن الكبرى هي الميدان الصالح للنشاط. ووفقاً لذلك، فإن شاعرنا يرحل إلى باريس كيما يرى هنا أيضاً.

... بعينين صعقهما الرعب والهلع

جماهير العمال تغلي

مثل حمم البراكين فيما حوله (ص ١١١).

أواه! لم يترتب أي شيء على ذلك. وإنه ليعلن في رسالة من باريس نشرت في مجلة المواطن أن آماله قد خابت بصورة رهيبة. إن الشاعر الفاضل قد بحث في كل مكان عن هذه الجماهير الغالية من البروليتاريين، حتى في السيرك الأولمبي(٣٠٦) حيث كانت الثورة الفرنسية تمثل على أصوات الطبول والمدافع؛ لكنه لم يجد، في مكان أبطال الفضيلة السود والجمهوريين المتوحشين الذين كان يبحث عنهم، سوى بشر ضاحكين، مرحين، لا يعكر صفو سعادتهم شيء، معنيين بالفتيات الجميلات أكثر حتى درجة كبيرة من عنايتهم بالقضايا الكبرى للإنسانية. ولقد بحث بالطريقة ذاتها بالضبط عن "ممثلي الشعب الفرنسي" في مجلس النواب ولم يجد إلا حشداً من أصحاب الكروش السمان، الذين يثرثرون بصورة غير مفهومة على الإطلاق.

في الحقيقة إنه لم يكن جديراً بالبروليتاريين الباريسيين ألا يمثلوا ثورة حزيران صغيرة على شرف كارل مور الأصغر بحيث يوفرون له الفرصة، "بعينين صعقهما الهلع والرعب"، كي يكون عنهم رأياً أفضل. إن شاعرنا الفاضل يطلق صيحة جبارة من الأسى على هذه المصائب جميعاً، ويتنبأ مثله مثل يونس [Jonah] جديد لفظته معدة الاشتراكية الحقيقية بسقوط نينوى على السين، كما يمكن للمرء أن يطالع بكل تفصيل في عدد (١٤) من مجلة المواطن لعام ١٨٤٧، تحت عنوان مراسلات "من باريس"، حيث يحكي شاعرنا كذلك بصورة مسلية جداً كيف أخطأ فحسب أحد البورجوازيين المحترمين بروليتارياً ويصف سوء التفاهم الخاص الذي نشأ من ذلك الخطأ.

سوف ندع زيسكا جانباً، لأنه يبعث على الضجر فعلاً.

وما دمنا نتحدث عن القصائد بالضبط، فإننا نود أن نقول كلمات قليلة عن النداءات الستة إلى الثورة التي أصدرها صاحبنا فرايليغراث تحت عنوان ça ira، هيريسيو، ١٨٤٦. إن النداء الأول منها مارسيلييز ألمانية (German Marseillaise) تنشد قصة "قرصان جريء" "يسمي الثورة في النمسا وبروسيا على السواء". وإن الطلب الثاني ليقدم إلى هذه السفينة التي تبحر تحت رايتها الخاصة، والتي تشكل دعماً هاماً للأسطول الألماني الشهير الذي لا وجود له في الحقيقة[٣٠٧]:

وجه فوهة المدفع بكل شجاعة

ضد أساطيل الثروة الفضية،

واجعل كنوز البخل تتعفن

على سطح المحيط المتكسر (ص ٩).

وعلى أي حال، فإن الأغنية بكاملها مكتوبة بأسلوب سلس جداً، بحيث من الأفضل أن تغنى، بالرغم من الوزن، على لحن: "انهضوا أيها البحارة، وارفعوا المرساة".

وإن قصيدة "كيف العمل"، يعني كيف يصنع فرايليغراث الثورة، لذات طابع مميز حتى الدرجة القصوى. لقد قامت أيام رديئة، وبات الناس على الطوى، وهم يتجولون في الأسمال: "من أين يمكن الحصول على الخبز والثياب؟" وفي هذه الأوضاع برز "فتى

مقدام"، يعرف ما يجب أن يعمل. إنه يقود الجماهير بأكملها إلى مستودعات الميليشيا ويوزع البزات التي يجدها هناك؛ فيرتديها الناس في الحال. وتستولي الجماهير على البنادق أيضاً "كتجربة" وتعتبر أنه من قبيل المزاح" الاستيلاء عليها. وفي هذه الأوضاع يخطر في بال "الفتى المقدام" أن هذه "المزحة بالثياب ربما أمكن أن تسمى أيضاً، عصياناً وسطواً وسرقة"، ولذلك فإن على المرء "أن يكون على استعداد للقتال من أجل ثيابه". وهكذا يتم الاستيلاء أيضاً، على الخوذ والسيوف وأحزمة الذخيرة، ويرفع كيس شحاذ في مكان الراية... وإنهم ليأتون إلى الشوارع بهذه الطريقة. عندئذٍ تظهر "القوات الملكية"، ويعطي الجنرال الأمر بإطلاق النار، لكن الجنود يعانقون بسرور الميليشيا ذات المظهر المسلي. وبما أنهم انساقوا مع الأمر، فإنهم يتقدمون "على سبيل المزاح"، إلى العاصمة ويجدون الدعم هناك، وهكذا بفضل "مزحة بشأن الثياب": "ينهار العرش والتاج وتهتز المملكة على قواعدها" و"يرفع الناس ظافرين رؤوسهم التي طال انحناؤها". إن جميع الأمور تجري بسرعة فائقة ويسر عظيم حيث من المؤكد أن فرداً واحداً من "الكتيبة البروليتارية" لم يجد خلال العملية بأسرها أن غليونه قد انطفأ. ولا بد للمرء أن يعترف بأن الثورات لم تتحقق في أي مكان بمرح أكبر أو بسهولة أعظم منها في رأس صاحبنا فرايليغراث. وفي الحقيقة إنه لا بد من كل المزاج السوداوي للمجلة البروسية [Allgemeine preussische zeitung] لاكتشاف الخيانة العظمى في مثل هذه النزهة الريفية الشاعرية البريئة.

إن الفريق الأخير من الاشتراكيين الحقيقيين الذي نلتفت إليه هو فريق برلين، وسوف نختار من هذا الفريق أيضاً فرداً مميزاً واحداً، ألا وهو الهر أرنست درونكه، لأنه حقق خدمة أبدية للأدب الألماني باكتشافه نوعاً جديداً من الكتابة الفنية. لقد كان الروائيون وكتاب القصص القصيرة في وطننا الأم، لفترة مديدة من الزمن، مفتقرين إلى المواد. أبداً لم تكن مثل هذه الندرة من المواد الخام من أجل صناعتهم محسوسة من قبل. وصحيح أن المصانع الفرنسية وفرت قدراً كبيراً من الأشياء النافعة، لكن هذه المؤونة كانت قليلة الصلاحية لتلبية الطلب لأن الشيء الكثير منها قد قدم من قبل للمستهلكين في صورة الترجمات، وبذلك شكل منافسة خطيرة لكتّاب الروايات. وعندئذ برزت إلى الوجود عبقرية الهر درونكه؛ ففي

صورة أوفيوكوس(Ophiuchus)، حامل الأفعى في السماء الاشتراكية الحقيقية، رفع الأفعى العملاقة المتلوية للتشريع البوليسي الألماني، كيما يصنع منه في كتابه قصص بوليسية [Polizei - Geschichten] سلسلة من الروايات القصيرة بالغة الأهمية. وبالفعل، فإن هذا التشريع المعقد الناعم الملمس كالأفعى يحتوي على مواد ثرية جداً من أجل هذا النوع من الكتابة الفنية. إن رواية تكمن في كل فقرة، ومأساة في كل تنظيم. وإن الهر درونكه الذي خاض هو نفسه، بوصفه أديباً برلينياً، معارك قاسية ضد رئاسة الشرطة، ليستطيع أن يتحدث هنا عن تجربته الخاصة. ولن نفتقر إلى الخلفاء على طول هذه الطريق التي مهدها، فهي حقل غني، وبالمناسبة، فإن القانون البروسي يشكل ينبوعاً لا ينضب من النزاعات الحادة والنتائج الباهرة. ففي التشريع الخاص بالطلاق، والتغذية، وأكليل العرس - إذا تركنا جانباً الفصول عن الملذات الخاصة الشاذة - تملك الصناعة الروائية الألمانية بكاملها خامات تكفي لقرون عديدة. وفيما عدا ذلك، فليس ثمة ما هو أسهل من صياغة مثل هذه الفقرة في قالب شعري، فالنزاع وحله جاهزان فيها، وليس على المرء إلا أن يضيف بعض المواد الملحقة التي يمكن تداركها من أية رواية في متناول اليد لبولفر ودوماس وسو وتقويمها بعض الشيء، وعندئذٍ تكون الرواية جاهزة. وهكذا فإنه من المؤمل أن ينتهي الحضري والريفي الألماني، وكذلك المحامي الجاد أو القاضي [studiosus juris or cameralium]، لأن يمتلكوا بصورة تدريجية سلسلة من التعليقات على التشريع تمكنهم بسهولة وانعدام تام للتحذلق من أن يصبحوا على إلمام تام بهذا المجال.

وإننا لنتبين من مثال الهر درونكه أن توقعاتنا ليست مبالغاً فيها. فقد ألف من التشريع الخاص بالأحوال المدنية وحدها قصتين في إحداهما ("طلاق بوليسي" [Police divorce]) يتزوج كاتب (إن أبطال فرسان القلم الألمان كتاب دائماً) من مقاطعة هيس امرأة بروسية من دون الإذن المطلوب قانونياً من مجلسه البلدي.وبنتيجة ذلك، فإن امرأته وأبناءه يفقدون أي حق في أن يكونوا رعايا في مقاطعة هيس، ويترتب على ذلك طلاق الزوجين من جراء تدخل البوليس. ويثور الكاتب غضباً، ويعبر عن استيائه من نظام الأشياء القائم، فيدعى بسبب من ذلك إلى المبارزة من قبل ملازم، ويقتل. ولقد كانت مداخلات الشرطة قد كلفته نفقات

دمرته مالياً من قبل. وإن زوجته، التي فقدت مواطنيتها البروسية من جراء زواجها من أجنبي، لتعاني الآن الفاقة القصوى.

وفي الرواية الثانية عن الأحوال المدنية، ينقل إنسان مسكين طوال أربعة عشر عاماً من هامبورغ إلى هانوفر ومن هانوفر إلى هامبورغ كي يتذوق مباهج دولاب التعذيب في المكان الواحد والسجن في المكان الآخر ويختبر الجلد على كلا الضفتين من نهر الألب. وبالطريقة نفسها يعالج الكاتب هذا الشر، ألا وهو أن الشكاوى من سوء المعاملة التي تطبقها الشرطة لا يمكن أن تقدم إلا إلى الشرطة وحدها. ويقدم إلينا وصفاً مؤثراً جداً عن كيفية مساعدة شرطة برلين للبغاء بواسطة نظامها الخاص بطرد الخدم المنزليين غير المستخدمين، وعن نزاعات مؤثرة أخرى.

لقد سمحت الاشتراكية الحقيقية للهردرونكه بأن يغرر بها بالطريقة الأبسط. لقد تناولت القصص البوليسية، هذه اللوحات الرسمية الدامعة عن شقاء المالك الصغير الألماني المكتوبة بلهجة البغضاء والندامة[٣٠٨]، على أنها صور للنزاعات في المجتمع الحديث، ولقد اعتقدت أن تلك دعاية اشتراكية، ولم تفكر لحظة واحدة في أن مثل هذه المشاهد التي تفطر القلوب مستحيلة كلياً في فرنسا وإنكلترا وأميركا، حيث يسود أي شيء ما عدا الاشتراكية، وبالتالي، أن الهر درونكه لا يقوم بدعاية ليبرالية. وإن الاشتراكية الحقيقية لمعذورة في ذلك نظراً لأن الهر درونكه نفسه لم يفكر في كل ذلك هو الآخر.

ولقد كتب الهر درونكه أيضاً قصصاً بعنوان من الشعب [Aus dem volke]، إن لدينا هنا مرة أخرى، قصة تصف الفقر المدقع الذي يعاني منه الكتّاب المحترفون بخصوص كسب عطف الرأي العام. ويبدو أن هذه الحكاية هي التي ألهمت فرايليغراث أن يكتب القصيدة المؤثرة التي يتوسل فيها من أجل العطف على الكاتب ويهتف: "إنه بروليتاري هو الآخر"![٣٠٩]. عندما تبلغ الأمور المرحلة التي يسوي فيها البروليتاريون الألمان حساباتهم مع البورجوازية والطبقات المالكة الأخرى، فإنهم سوف يبينون، بواسطة أعمدة المصابيح، لفرسان القلم، هذه الطبقة الدنيا من بين جميع الطبقات الفاسدة، إلى أي مدى هم بروليتاريون. وإن القصص الأخرى في كتاب درونكه قد جمعت بصورة خرقاء تماماً.

بانعدام مطلق للمخيلة وبجهالة عظيمة للحياة الواقعية، ولا فائدة منها سوى أن تضع أفكار الهر درونكه الاشتراكية في أفواه البشر الذين هم أقل صلاحية لها.

وفضلاً عن ذلك، فقد كتب الهر درونكه كتاباً عن برلين هو على المستوى الأعلى من العلم الحديث، يعني أنه يحتوي على خليط مرقش من الأفكار الاشتراكية الحقيقية والشيوعية للهيغليين الشباب وباور وفويرباخ وشترنر، كما أصبح في التداول في الأدب في السنوات الأخيرة. وإن خلاصة ذلك كله هو أن برلين، رغماً عن كل شيء، هي مركز الثقافة الحديثة والذكاء،وتظل مدينة عالمية يعد سكانها خمسي مليون نسمة، ولا بد لباريس ولندن أن تأخذا على عاتقهما منافستها. بل إن في برلين فتيات عاملات(*)، لكنهن - وهذا ما تعرفه السماء - لائقات!

إن الحلقة البرلينية من الاشتراكيين الحقيقيين تضم الهر فريدريك ساس، الذي كتب هو الآخر كتاباً عن المدينة التي هي داره الروحية(٣١٠). ولم تسنح لنا الفرصة حتى الآن للاطلاع على أكثر من قصيدة واحدة لهذا المؤلف، مطبوعة في الصفحة ٢٩ من مجموعة بوتمان [Puttman's album]، وسوف نناقشها الآن بمزيد من التفصيل. إن هذه القصيدة تغني" مستقبل أوروبا العجوز" [Des alten Europa´s Zukunft] على لحن "ليونورا" بيرغر بعبارات لم يستطع مؤلفنا أن يجد ما هو أبعث منها على النفور في اللغة الألمانية بكاملها وبأكبر قدر ممكن من الأخطاء اللغوية. إن اشتراكية الهر ساس تتقلص إلى الفكرة القائلة إن أوروبا، هذه "المرأة الفاسدة"، سوف تغني:

دودة القبر هي التي تتودد إليك.

ألست تسمعين في ملء عاصفة الزواج

عصابة القوزاق والتتر

التي تخب فوق سريرك المتعفن؟...

إن نواويسك سوف تجد لها مكاناً

على طول ضريح آسيا الفارغ -

(*) Grisette، بالفرنسية في النص الأصلي.

إن الأجداث العملاقة القديمة الرمادية

تنفجر (تفو، عليها اللعنة) وتنهار-

مثلما انفجرت ممفيس وتدمر(!)

إن الصقر المتوحش قد بنى عشه

فوق جبهتك المتفسخة،

أيتها البغي التي أصبحت قديمة جداً الآن!

من الواضح أن مخيلة الشاعر ولغته قد "انفجرتا" بصورة لا تقل عن مفهومه عن التاريخ.

بهذه النظرة إلى المستقبل نختتم استعراضنا للكوكبات المختلفة للاشتراكية الحقيقية. وفي الحقيقة إنها مجموعة متألقة من الكوكبات قد مرت أمام مرصدنا، وكان النصف الأشد تألقاً من السماء قد شغلته الاشتراكية الحقيقة مع جيشها! وإن هناك، مثلها مثل درب التبان الذي يشتمل جميع هذه النجوم البراقة بلمعانها العذب من الغيرية، مجلة ترير، وهي صحيفة توحدت جسداً وروحاً مع الاشتراكية الحقيقية. فليس ثمة حدث يمكن أن يمس الاشتراكية الحقيقية ولو عن أقصى البعد يمكن أن يجري من دون أن تتدخل فيه هذه المجلة بكل حماسة. فمن الملازم إنيكه إلى الكونتيسه هاتزفيلد، ومن متحف بييلفيلد إلى مدام استون، كافحت مجلة ترير في مصلحة الاشتراكية الحقيقية بعنفوان جعل جبينها يغتسل بعرق نبيل. ذلك بالمعنى الحرفي للكلمة درب تبان من الحنان والرأفة وحب البشرية، وهو لا يقدم حليباً حامضاً إلا في حالات نادرة جداً. ألا فليستمر في طريقه بكل هدوء وطمأنينة، كما يناسب درب تبان حقيقياً، مزوداً البورجوازيين الألمان الشجعان بزبدة الحنان وجبنة روح المالكين الصغار! وليس ثمة داعٍ للخوف من أن يقشط كائن ما القشدة عنه، فهو مائي جداً بحيث لا يمكن أن يحتوي على أية قشدة على الإطلاق.

ومهما يكن من أمر، فكيما نتمكن من الاستئذان من الاشتراكية الحقيقية بسرور هادئ، فقد هيأت لنا وليمة أخيرة في صورة المجموعة التي نشرها هـ. بوتمان، بورنا [Borna]، قرب رايخ، ١٨٤٧. إن حفلة من الألعاب النارية تقام هنا تحت رعاية الدب الأكبر، ولا يقل

بريقها عن أية حفلة يمكن مشاهدتها في احتفالات عيد الفصح في روما. إن جميع الشعراء الاشتراكيين، عن طيبة خاطر أو قسراً، قد أسهموا بصواريخ تصعد في السماء بحزم متألقة مهسهسة، وتنفجر في الهواء بدوي مرتفع إلى مليون نجمة، محولة بصورة سحرية ليل الشروط القائمة فيما حولنا إلى نور النهار. لكن، واأسفاه! إن المشهد الجميل لا يدوم سوى ثانية واحدة - إن الألعاب النارية تنطفئ ولا تخلف وراءها إلا دخاناً كثيفاً يجعل الليل يبدو أشد ظلمة مما هو عليه في واقع الأمر، دخاناً لا يتألق من خلاله، كنجوم ثابتة براقة، سوى قصائد هايني السبع [The seven poems of Heine] التي تصادف في هذا المجتمع بحيث تبعث فينا دهشة عظيمة وتبعث في الدب الأكبر ضيقاً لا يقل عظمة عن ذلك. ومهما يكن من أمر، فإن علينا ألا نضطرب لذلك، ولا نستاء لأن العديد من أشياء ويرث التي يعاد هنا طبعها لا بد أن تستشعر الانزعاج في هذه الرفقة، بل يجب علينا أن نستمتع كلياً بأثر هذه الألعاب النارية.

إننا نجد مواضيع بالغة الأهمية تعالج هنا. إن الربيع يغني هنا ثلاث أو أربع مرات بكل الحبور الذي هو في مستطاع الاشتراكية الحقيقية. وإنه ليعرض أمامنا من جميع وجهات النظر الممكنة ما لا يقل عن ثماني فتيات مغرر بهن. وإنه لفي مقدورنا أن نشاهد هنا ليس فعل التغرير فحسب، بل نتائجه أيضاً: فكل مرحلة رئيسية من الحمل تمثل بفرد واحد على الأقل. ومن بعد كما هومناسب، تأتي الولادة، وفي أعقابها قتل الولد أو الانتحار. وإنه لمما يدعو إلى الأسف فحسب أن "قاتلة الطفل" [Child Murders] لشيللرلم تقدم هنا أيضاً؛ ومهما يكن من أمر، فلعل الناشر قد فكر أنه يكفينا أن نحصل على الصرخة الشهيرة "ستانزا، ستانزا" إلخ[٣١١] يتردد صداها عبر الكتاب بأسره. إن بيتاً من الشعر- على لحن تهويدة شهيرة -يمكن أن يقدم إلينا برهاناً على نوعية هذه الأغاني المغوية. إن الهر لودفيغ كوهلر ينشد (ص ٢٩٩):

أيتها الأم، لا بد لك أن تبكي وتبكي!

لأن ابنتك تشكو الضجر!.

أيتها الأم، لا بد لك أن تبكي وتبكي!

وقد رأيت طهارتها تزول!

إن نصيحتك: يا ابنتي حافظي على شرفك!

قد ضاعت بصورة داعرة عندها!

وعلى العموم، فإن المجموعة تمجيد حقيقي للجريمة. فإلى جانب الحالات العديدة من قتل الأبناء المذكورة أعلاه، يغني الهر كارل أيك عن "جرم في غابة"، كما أن هيللر السوابي (The Swabian Hiller) الذي قتل ابناءه الخمسة يمجد في قصيدة قصيرة من نظم الهر جوهانس شير وفي قصيدة لا نهاية لها من نظم الدب الأكبر نفسه. وإن المرء ليحسب أنه في سوق ألمانية، حيث عازفو الأرغن لا يتوقفون عن عزف أنغام أقاصيصهم الإجرامية:

أيها الولد القرمزي، يا ابن الجحيم

قل، ما وجودك هنا!

أنت وجريمتك

جعلتما الجميع يرتعشون خوفاً.

إن ستة وتسعين كائناً بشرياً

سقطوا ضحايا أفعاله الشريرة،

ذلك أن الوغد انتزع منهم الحياة،

وقصف أعناقهم بسرعة فائقة، الخ.

إنه لمن الصعب أن يختار الإنسان بين هؤلاء الشعراء الشباب وإنتاجهم الذي يفور بالدفء الحيوي، لأنه ليس ثمة أهمية في حقيقة الأمر لما إذا كان الاسم تيودور أو بنز أو كارل إيك، أو جوهانس شير أو جوزيف شوايتزر، فالأشياء جميعاً على قدم المساواة من الجمال. فلنأخذ واحداً منهم لا على التعيين.

قبل كل شيء، نصادف من جديد صديقنا العواء - سيميغ، المشغول في رفع الربيع إلى المرتفعات التأملية للاشتراكية الحقيقية (ص ٣٥):

استيقظوا!! استيقظوا!! فالربيع مقبل –

عبر الجبال والوديان، منطلقاً بصورة عاصفة

فالحرية الطليقة تشق طريقها.

وما نوع هذه الحرية، هذا ما يخبرنا به في الحال:

لماذا نحملق بعبودية في علامة الصليب؟

ليس إنساناً حراً من يطوي ركبته لله،

ذلك الإله الذي قلع سنديانة الدار،

وحمل آلهة الحرية على الفرار!

وهذا يعني حرية الغابات الألمانية البدائية التي يستطيع العواء في ظلالها أن يفكر بكل طمأنينة في "الاشتراكية والشيوعية والإنسانية" ويرعى على هواه "شوكة حقد الطغاة". وإننا لنعلم بخصوص هذه الشوكة:

ليست وردة تزهر من دون شوكتها،

وبنتيجة ذلك فإنه يمكن أن يؤمل في أن "الوردة" المتفتحة اندروميدا سوف تجد عاجلاً هي الأخرى "شوكتها" المناسبة، وبالتالي لا "تبدو متخشبة جداً" بعد الآن في نظر نفسها كما كانت حالها من قبل. وإن العواء ليتصرف كذلك في مصلحة البنفسج، التي لم يكن لها وجود حقاً في ذلك الحين، وذلك بنشره هنا قصيدة منفصلة يتألف عنوانها ولازمتها من هذه الكلمات: "اشتر بنفسجاً! اشتر بنفسجاً! اشتر بنفسجاً" (ص ٣٨).

إن الهر ن.هـ.س.(*) يجهد نفسه بحمية مشكورة كي ينشئ ٣٢ صفحة من الشعر طويل النفس من دون أن يقدم فكرة واحدة فيه. فثمة على سبيل المثال "أغنية بروليتارية" [Proletarierlied] (ص ١٦٦). إن البروليتاريين يخرجون إلى أحضان الطبيعة - إذا شئنا أن نقول من أين يخرجون فلن تكون لذلك نهاية- وبعد مقدمات طويلة يستقر رأيهم أخيراً على النداء التالي:

إيه أيتها الطبيعة! يا أم جميع الكائنات،

أنت التي يجدد حبك كل شيء،

(*) نوهاوس(Neuehauss) .

وقد هيأت جميع الأشياء للهناءة القصوى،

أنت عظيمة ورفيعة بصورة لا يسبر غورها!

اسمعي إذن، قراراتنا الأقدس!

اسمعي ما نقسم لك عليه بكل أخلاص!

وأنت أيتها الأنهار انقلي الأنباء إلى المحيط،

ويا ريح الربيعردديه عبر أشجار الصنوبر!

إن موضوعاً جديداً يفتتح بذلك، وتستمر القصيدة في هذا المنحى قدراً كبيراً. وأخيراً، في المقطوعة الرابعة عشرة. نعلم ما الذي يريده الشعب فعلياً، لكنه لا يستحق عناء أن نسجله هنا.

وإن التعرف إلى الهر جوزيف شوايتزر لأمر هام أيضاً:

الفكر هو الروح والفعل هو الجسد!

وشرارة النار هي الزوج والعمل زوجة.

ويضم إلى ذلك بصورة غير مصطنعة ما يريده الهر شوايتزر، ألا وهو:

سوف أفرقع وسوف التهب، مثل نور الحرية المشتعل

في الغابة وفي السهل.

حتى الوقت الذي يعمل فيه ذلك الدلو الكبير للمياه الذي يدعى الموت

على إبحار سفينتي من جديد (ص ٢١٣).

وتتحقق رغبته. ففي هذه القصائد "يفرقع" ما طاب له، وهو كذلك "سفينة" مثلما يتضح من النظرة الأولى، لكنه "سفينة" مضحكة:

برأس مرتفع وأصابع مطبقة

أقف منتصباً، سعيداً، حراً (ص ٢١٦).

ولا بد أنه لا يقدر بثمن في هذه الوضعية. ومن سوء الحظ أن شغب آب (أغسطس) في لايبزيغ[٣١٢] قد جره إلى الشارع حيث شاهد أشياء مؤثرة:

أمام ناظري -يا للعار والرعب -

كان برعم إنساني طري

يمتص في جرعات نهمة حصته القاتلة من الدم (ص ٢١٧).

وإن هرمـان أوربيـك لا يخـزي، هـو الآخـر، اسـمه المسـيحي: إنـه يبـدأ (ص ٢٢٧) "أنشـودة قتاليـة" [Battle-song] ممـا لا ريـب فيـه أن الشيروشـيين فـي وادي توتربرغـر كانـوا يزمجـرون بهـا فيمـا مضـى:

إننا نقاتل بكل شجاعة من أجل الحرية

من أجل الوجود في صدورنا.

لعل تلك أنشودة قتالية مؤثرة للنساء الحاملات؟

وليس بدافع الذهب أو الأوسمة،

ولا بدافع الشبق التافه.

إننا نقاتل من أجل الأجيال القادمة، الخ.

ونعلم في قصيدة ثانية (ص ٢٢٩):

المشاعر الإنسانية مقدسة جميعاً.

والفكر الأنقى مقدس هو الآخر.

عندما تلتقي بالفكر والمشاعر،

تزول جميع الأرواح.

بالضبط كما أن مثل هذه الأشعار قمينة بأن تجعل "فكرنا ومشاعرنا" "تزول".

في عالمنا هذا نحب بصورة دافئة

الخير والجمال اللذين يكثران فيه.

إننا نعمل بكد ونخلق من دون انقطاع.

حيث حقل الإنسان الحقيقي قائم إلى الأبد.

وإن كدّنـا فـي هـذا الحقـل يجـازى بمحصـول مـن الشـعر الـرديء العاطفـي الـذي لـم يكـن فـي مقـدور حتـى لودفيـغ البافـاري أن ينتجـه.

إن الهرريتشـارد اينهـارت شـاب هـادئ ورصيـن. إنـه "يسـير بـكل هـدوء علـى طـول طريـق التطـور الذاتـي الهـادئ" ويزودنـا بقصيـدة عيـد ميـلاد بعنـوان: [An die junge Menschheit] يكتفـي فيهـا بـأن يغنـي:

الشمس الحبيبة للحرية الطاهرة

وضوء الحرية للحب النقي،

والنور الودود للسلام الحبيب (ص ٢٣٤- ٢٣٦).

إن هـذه الصفحـات السـت ترفـع مـن معنوياتنـا. إن "الحـب" يـرد فيها سـت عشـرة مـرة، و"الضوء" سـبع مـرات، و"الشـمس" خمـس مـرات، و"الحريـة" ثمانـي مـرات، هـذا إذا تركنـا جانبـاً "النجـوم" و"بعـد النظـر" و"الأيـام" و"الهنـاءات" و"الأفـراح"، و"السـلام" و"الزهـور"، و"النيـران" و"الحقائـق"، وغيـر ذلـك مـن التوابـل الإضافيـة للوجـود الإنسـاني. ولـو أن امـرئً أتـاه الحـظ فغنـى بهـذه الطريقـة، فإنـه يسـتطيع أن يمضـي بسـلام إلـى القبـر.

ولكـن لمـاذا نتوقـف عنـد هـؤلاء التافهيـن حيـن نسـتطيع أن نشـاهد أسـاتذة مـن أمثـال الهـر رودلـف شـوبردتلاين -والـدب الأكبـر نفسـه؟ فلنـدع لمصيرهـا جميـع هـذه المحـاولات، التـي ربمـا كانـت لطيفـة لكنهـا ناقصـة جـداً، ولنلتفـت إلـى اكتمـال الشـعر الاشـتراكي!

إن الهر رودلف شوبردتلاين ينشد:

"تقدموا بشجاعة!"

نحن فرسان الحياة. مرحى! (ثلاث مرات).

إلى أين تنطلقون يا فرسان الحياة؟

إننا ننطلق إلى الموت. مرحى!

إننا ننفخ في أبواقنا. مرحى! (ثلاث مرات).

لماذا تبوقون بأبواقكم؟

إنها تبوق للموت وترعد به. مرحى!

إن الجيش قد خلف بعيداً في المؤخرة. مرحى! (ثلاث مرات).

ماذا يفعل جيشكم في المؤخرة؟

إنه يرقد رقدته الأزلية. مرحى!

أصغوا! هل تسمعون أبواق العدو؟ مرحى! (ثلاث مرات).

ويلاه، أيها البواقون المساكين!

إننا ننطلق الآن إلى الموت. مرحى! (ص ١٩٩، ٢٠٠).

ويلاه، أيها البواقون ! إننا نرى أن فارس الحياة لا ينطلق بشجاعة متهللة إلى الموت فحسب، بل ينطلق بشجاعة لا تقل عن ذلك إلى الهراء الذي ما بعده هراء، حيث يحس الغرور مثل بقعة في سجادة، وبعد صفحات قليلة يفتح فارس الحياة "النار":

إننا حكماء جداً، ونعرف ألف شيء وشيء

والتقدم الجموح قد حملنا بعيداً جداً-

ومع ذلك فحين توجه مركبك عبر الأمواج،

فإن الأرواح سوف تخشخش أبداً حول أذنيك. (ص ٢٠٤)

وإن المرء ليتمنى أن "يخشخش" حول أذني فارس الحياة، في وقت قريب جداً، جسم صلب حقاً كيما يطرد بعيداً خشخشة الأرواح.

اقضم تفاحة! خذها بين أسنانك،

وإن شبحاً سوف ينهض ويجابهك في الحال؛

أمسك بالعرف القوي لفرس أصيل،

وإن طيفاً يشب قرب أذن المهر.

إن شيئاً آخر "يشب" أيضاً على كلا جانبي رأس فارس الحياة، لكنه ليس "أذن المهر".-

حواليك تنبثق الأفكار مثل الضباع

فعانق منها تلك التي يختارها قلبك.

إن حال فارس الحياة كمثل حال المحاربين الشجعان الآخرين. إنه لا يخاف الموت، بل يخاف "الأشباح"، و"الأطياف" و"الأفكار" بصورة خاصة تجعله يرتعش كريشة في مهب الريح. وإنه ليقرر، كيما ينقذ نفسه منها، أن يحرق العالم، أن "يشعل نزاعاً عالمياً":

دمر - ذلك هو الشعار الجبار لهذا الزمن.

دمر- تلك هي التسوية الوحيدة للنزاع.

أعمل على أن يحترق الجسد والنفس على حد سواء،

فالطبيعة والوجود يجب أن يطهرا كلياً؛

إن العالم يجب أن يعاد تشكيله بواسطة النار،

مثل معدن في بوتقة لاهبة.

إن الشيطان يسجل بداية تاريخ العالم الجديد

بواسطة الدينونة النارية الملقاة عليه. (ص ٢٠٦).

إن فارس الحياة قد أصاب المرمى. إن نزاع التسوية الوحيدة في الشعار الجبار لهذا الزمن من التطهير التام للطبيعة والوجود هو على وجه الدقة أن المعدن في البوتقة يحرق جسداً ونفساً، يعني أن دمار تاريخ العالم الجديد هو التكوين الجديد للدينونة النارية للعالم، أو بكلمات أخرى، إن الشيطان يتناول العالم في نيران البداية.

والآن إلى صديقنا القديم الدب الأكبر [Ursa Major] . لقد سبق لنا أن أتينا على ذكر قصيدة [Hilleriad]. إن هذه القصيدة تبدأ بحقيقة "عظمى"

أنتم أيها البشر الذين تنعمون بنعمة الله

لا يمكنكم قط أن تدركوا كم يبدو العالم قاسياً في نظر الصعلوك

إن المرء لا يستطيع قط أن يتحرر (ص ٢٥٦).

وإن الدب الأكبر، بعد أن يلزمنا بالاستماع إلى قصة الحزن الكاملة بأدق تفاصيلها، يسقط من جديد في "النفاق":

الويل، الويل لك، أيها العالم الشرير القاسي القلب -

لتكن ملعوناً إلى الأبد! وأنت أيضاً، أيها الذهب اللعين!

فلقد كنت السبب في وقوع هذه الجريمة؛

لقد لعبت دورك، أنت أيتها المحفظة الشيطانية!

إن دماء الأطفال تقع على رأسك وحدك!

إن الحقيقة ينطق بها بفمي الذي هو فم شاعر،

وإنني لألقي بها في وجهك، وانتظر

أن تدق ساعة الثأر المنتظر! (ص ٢٦٢).

لا تحسـبن أن الـدب الأكبـر يرتكـب هنـا عمـلاً تبعـث جرأتـه علـى الهلـع حيـن "يلقـي الحقائـق مـن فمـه الـذي هـو فـم شـاعر فـي وجـوه النـاس"! وعلـى أيـة حـال، فليـس ثمـة داع للقلـق، ولا حاجـة أن يرتجـف المـرء خوفـاً علـى كبـده وعلـى سـلامته. إن الأغنيـاء لـم يسـيئوا للـدب الأكبـر كمـا أنـه لـم يسـيء إليهـم. لكـن مـن واجـب المـرء، فـي رأيـه، إمـا أن يحصـل علـى رأس هيللـر العجـوز مقطوعـة وإمـا:

عليك أن تنشر أرق العشب على الأرض

بكل عناية تحت رأس القاتل

وهكذا - النعمتك - بينما هو يغط في النوم

ينسى الحب الذي حرمته منه.

وعندما يستيقظ يجب أن يكون حواليه

مئتا قيثارة تعزف أعذب الألحان.

وهكذا، فإن صرخات الأطفال الذين يموتون

لن تخدش بعد الآن أذنه أو تحطم قلبه.

وأكثر من ذلك من أجل الكفارة.

هذه الكفارة التي ستكون أروع ما يمكن للحب أن يستنبطه.

فلعل ذلك يحرك شعورك بالذنب،

ويحقق لك وجداناً مطمئناً. (ص ٢٦٣)

فـي الحقيقـة أن تلـك أسـمى طبيعـة جيـدة بيـن كل الطبائـع الجيـدة، الحقيقـة الصميميـة للاشـتراكية الحقيقيـة! "النعمتـك!"، "وجـدان مطمئـن!" لقـد أصبـح الـدب الأكبـر صبيانيـاً وهـا هـو يـروي الأقاصيـص للأطفـال الصغـار. ومهمـا يكـن مـن أمـر، فمـن المعـروف أنـه لا يـزال "ينتظـر أن تـدق سـاعة الثـأر المنتظـر".

لكـن "أغانـي القبـر" [Graveyard] لأعظـم مرحـاً أيضـاً مـن أنشـودة الهضـاب. فـأولاً، يشـاهد دفـن رجـل فقيـر ويسـمع عويـل أرملتـه، ومـن ثـم دفـن شـاب قتـل فـي الحـرب وقـد كان

العضد الوحيد لوالده العجوز، ومن ثم دفن طفل قتلته أمه، وأخيراً، دفن رجل غني. وأما شاهد ذلك كله، فإنه يأخذ في التفكير، ويا عجباً:

تصير رؤياي واضحة متألقة

وينفذ شعاعها إلى القبر عميقاً؛ (ص ٢٨٤).

ومن سوء الحظ أن هذا الشعاع لم يكن على ما يكفي من "الوضوح" كي ينفذ إلى شعره "عميقاً".

وانكشفت لي أعمق الأسرار.

ومن جهة أخرى، فإن ما انكشف للعالم أجمع، ألا وهو التفاهة الرهيبة لشعره، قد ظل بالنسبة إليه "سراً" مغلقاً. ولقد شاهد الدب النافذ البصيرة كيف "تجري أعظم المعجزات في لمح البصر"، إن أصابع الرجل الفقير قد تحولت إلى مرجان وشعره إلى حرير، وبفضل ذلك حصلت أرملته على ثروة عظيمة. ومن قبر الجندي انطلقت ألسنة لهب التهمت قصر الملك، كما أن زهرة نبتت من قبر الطفل نفذ أريجها إلى الأم في سجنها. أما الغني فقد أصبح بفضل تقمص الأرواح أفعى منح الدب الأكبر نفسه رضاً خاصاً حين جعل ابنه الأصغر يدوسها بقدميه! وهكذا، في نظر الدب الأكبر، فإننا "سنبلغ الخلود جميعاً مع ذلك".

وفيما عدا ذلك، فإن لدى دبنا بعض الشجاعة على أية حال. ففي الصفحة ٢٧٣، يتحدى "مصيبته" بلهجة راعدة؛ إنه يتحداها لأنه:

في قلبي يجلس أسد جبار،

مقدام، قوي، خفيف الحركة،

ولا بد لك أن تكوني على حذر أمام براثنه!

في الحقيقة إن الدب الأكبر "يستشعر الحنين إلى القتال" و"لا يخاف الجرح".

كتب بين كانون الثاني (يناير) ونيسان (أبريل) ١٨٤٧

نشر للمرة الأولى من قبل مؤسسة الماركسية اللينينية

التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد

السوفياتي، بالألمانية عام ١٩٣٢وبالروسية عام ١٩٣٣

إضافات

كارل ماركس
موضوعات عن فيورباخ[٣١٣]

١

إن العيب الرئيسي للمادية السابقة كلها - بما فيها مادية فويرباخ - هو أن تصور الشيء، الواقع، العالم الحسي، لا يتم فيها إلا على صورة الموضوع أو الحدس، وليس كفاعلية حسية، كممارسة، ليس بصورة ذاتية. ولذا حصل أن المثالية طورت الجانب الفاعل، بصورة متعارضة مع المادية، لكن بصورة تجريدية فقط، لأن المثالية بطبيعة الحال لا تعرف الفاعلية الواقعية الحسية بصفتها هذه. إن فويرباخ يريد أشياء حسية، متميزة بصورة فعلية من أغراض الفكر، لكنه لا يعتبر الفاعلية الإنسانية ذاتها كفاعلية موضوعية. ولذا يعتبر في جوهر المسيحية النشاط النظري على أنه النشاط الإنساني الحقيقي الوحيد، بينما يتصور الممارسة ويحددها في التجلي الشحيح جداً لظاهراتها. وهذا هو السبب في أنه لا يفهم أهمية الفاعلية "الثورية"، الفاعلية العملية - النقدية.

٢

إن مسألة ما إذا كان يمكن أن تنسب حقيقة موضوعية إلى الفكر البشري ليست مسألة نظرية بل علمية. فالإنسان يجب أن يثبت في الممارسة حقيقة فكره، يعني واقعية هذا الفكر وقوته في هذا العالم وفي هذه الحقبة. إن الجدال بشأن واقعية أو لاواقعية فكر ينعزل عن الممارسة مسألة مدرسية صرفة.

٣

إن المذهب المادي القائل إن البشر نتاج الظروف والتربية، وبالتالي، إن البشر المتغيرين نتاج ظروف أخرى وتربية متغيرة، ينسى أن البشر هم الذين يغيرون الظروف وأنه من الأمور الأساسية تربية المربي نفسه. ولذا ينتهي هذا المذهب بالضرورة إلى تقسيم المجتمع إلى جزءين يعلو أحدهما على المجتمع (عند روبرت أوين على سبيل المثال).

إن التطابق بين تغيرالظروف وبين تغير الفاعلية الإنسانية لا يمكن تصوره وفهمه بصورة عقلانية إلا من حيث هو ممارسة ثورية.

٤

ينطلق فويرباخ من حقيقة الاغتراب الذاتي الديني، من ازدواج العالم إلى عالم ديني وهمي وعالم واقعي. وإن عالمه يستقيم في إرجاع العالم الديني إلى أساسه الزمني. فهو لا يرى أنه لا بد، وقد أنجز هذا العمل، من القيام بالشيء الرئيسي بعد. فحقيقة أن الأساس الزمني ينفصل عن ذاته ويستقر في السحب، مشكلاً ميداناً مستقلاً، لا يمكن تفسيرها إلا بالتمزق والتناقض الباطنيين لهذا الأساس الزمني. ولذا فإنه من الواجب أولاً، فهم هذا الأساس الزمني في تناقضه، ومن بعد تثويره في الممارسة بحذف ذلك التناقض. وهكذا، على سبيل المثال، بعد أن يتبين أن العائلة الأرضية هي سر العائلة المقدسة، فإنه من الواجب نقد تلك العائلة في النظرية وتثويرها في الممارسة.

٥

إن فويرباخ، الذي لا يكتفي بالفكر المجرد، يستنجد بالحدس الحسي، لكنه لا يعتبر العالم الحسي بمثابة فاعلية عملية حسية إنسانية.

٦

يحـل فويربـاخ الماهيـة الدينيـة فـي الماهيـة الإنسـانية. لكـن ماهيـة الإنسـان ليسـت تجريـداً لاصقـاً بـكل فـرد علـى حـدة، بـل هـي فـي واقعهـا كل العلاقـات الاجتماعيـة.

وإن فويرباخ، الذي لا يقدم على نقد هذه الماهية الواقعية، ملزم بنتيجة ذلك:

١- أن يتجـرد عـن مجـرى التاريـخ وأن يجعـل مـن الـروح الدينـي شـيئاً ثابتـاً، قائمـاً بذاتـه، مفترضـاً الوجـود السـابق لفـرد إنسـاني مجـرد، منعـزل.

٢- وبالتالـي، أن يعتبـر الماهيـة الإنسـانية بمثابـة "نـوع" فحسـب، مـن حيـث هـي كليـة باطنـة خرسـاء تجمـع بصـورة طبيعيـة صرفـة بيـن أفـراد عديديـن.

٧

وبنتيجـة ذلـك، لا يـرى فويربـاخ أن "الـروح الدينـي" هـو نفسـه نتـاج اجتماعـي، وأن الفـرد المجرد الـذي يحللـه ينتمـي فـي واقـع الأمـر إلـى شـكل اجتماعـي معين.

٨

إن الحيـاة الاجتماعيـة عمليـة بصـورة جوهريـة. وإن جميـع الأسـرار التـي تنحـرف بالنظريـة فـي اتجـاه الصوفيـة تجـد حلهـا العقلانـي فـي الممارسـة الإنسـانية وفـي فهـم هـذه الممارسـة.

٩

إن أرفـع نقطـة بلغتهـا الماديـة الحدسـية، يعنـي الماديـة التـي لا تعتبـر نشـاط الحـواس بمثابـة فاعليـة عمليـة، هـي مشـاهدة أفـراد منعزليـن فـي "مجتمـع مدنـي".

١٠

إن وجهـة نظـر الماديـة القديمـة هـي المجتمـع "المدنـي". أمـا وجهـة نظـر الماديـة الجديـدة فهـي المجتمـع الإنسـاني أو الإنسـانية المشـتركة.

١١

لـم يفعـل الفلاسـفة حتـى اليـوم سـوى تفسـير العالـم بطـرق مختلفـة، لكـن الأمـر الهـام هـو تغييـره.

كتبت في ربيع ١٨٤٥، نشرها إنجلز للمرة الأولى عام ١٨٨٨ في ملحق الطبعة المنفصلة لكتاب لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. وقد نشرت هنا وفقاً لهذه الطبعة .

كارل ماركس
إنشاء هيغل للظواهرية(٣١٤)

١- الوعي الذاتي بدلاً من الإنسان. الذات – الموضوع.

٢- إن الفروق بين الأشياء غير هامة لأن الجوهر يتصور على أنه تمييز ذاتي أو لأن التمييز الذاتي، القدرة على التمييز، الفعالية الذهنية تعتبر بمثابة الشيء الأساسي. وبالتالي، فإن هيغل يقوم، ضمن إطار التأمل، بتمييزات تطبق بصورة فعلية على النقطة الحيوية.

٣- نقض الاغتراب يوحد مع نقض الموضوعية (وهو مظهر شرحه فويرباخ بصورة خاصة).

٤- إن نقضك الموضوع المتخيل، الموضوع من حيث هو موضوع الوعي، يوحد مع النقض الموضوعي الفعلي، مع الفعل الحسي، الممارسة والنشاط الواقعي بوصفه متميزاً من التفكير. (لا بد من شرحه بعد).

يفترض أن هذا النص كتب في كانون الثاني (يناير) ١٨٤٥. نشر لأول مرة بالألمانية عام ١٩٣٢ من قبل مؤسسة الماركسية اللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

كارل ماركس

مشروع مؤلف عن الدولة الحديثة(٣١٥)

١- تاريخ أصل الدولة الحديثة أو الثورة الفرنسية.

التصور الذاتي للمجال السياسي – يعتبر خطأ الدولة القديمة. موقف الثوريين من المجتمع المدني. جميع العناصر موجودة في شكل مزدوج، بوصفها عناصر مدنية وبوصفها عناصر الدولة.

٢- إعلان حقوق الإنسان وتشكيل الدولة. الحرية الفردية والسلطة العامة. حرية، مساواة، ووحدة، سيادة الشعب.

٣- الدولة والمجتمع المدني.

٤- الدولة التمثيلية والميثاق.

٥- تقسيم السلطة. السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية.

٦- السلطة التشريعية والهيئات التشريعية، النوادي السياسية.

٧- السلطة التنفيذية. المركزية والتراتب. المركزية والمدنية السياسية. النظام الفيدرالي والصناعة. إدارة الدولة والحكومة المحلية.

٨- السلطة القضائية والقانون.

٩- القومية والشعب.

١٠- الأحزاب السياسية.

١١- الاقتراع، النضال في سبيل نقض الدولة والمجتمع البورجوازي.

كتب على الأرجح في كانون الثاني (يناير) ١٨٤٨. نشر للمرة الأولى بالألمانية عام ١٩٣٢ من قبل مؤسسة الماركسية اللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

من دفتر ملاحظات كارل ماركس[٣١٦] عن فويرباخ

الأناني الإلهي في تعارضه مع الإنسان الإناني النزعة.

الوهم بشأن الدولة القديمة السائد خلال الثورة.

"المفهوم" و"الجوهر".

التاريخ الثوري لأصل الدولة الحديثة.

كتب في ربيع ١٨٤٥ نشر للمرة الأولى بالألمانية عام ١٩٣٢ من قبل مؤسسة الماركسيةاللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

فريدريك إنجلز
فويرباخ(٣١٧)

أ) إن فلسفة فويرباخ بأسرها تعود إلى:

١- الفلسفة الطبيعية - العبادة الانفعالية للطبيعة والسجود المغتبط أمام روعتها وجبروتها.

٢- الانثربولوجيا، ألا وهي: أ- الفيزيولوجيا، حيث لا يضاف أي شيء جديد إلى ما سبق أن قاله المادي عن وحدة الجسد والروح، لكنه يقال بصورة أقل آلية وبمزيد من الحيوية. ب- البسيكولوجيا التي ترجع إلى قصائد حماسية تمجد الحب، مماثلة لعبادة الطبيعة، وفيما عدا ذلك فلا شيء جديداً.

٣- الأخلاق، المطلب بالارتفاع في الحياة إلى مفهوم "الإنسان"، العجز الموضوع موضع الفعل(*). قارن الفقرة ٥٤، ص ٨١: "إن الموقف الخلقي والعقلاني الذي يتخذه الإنسان حيال معدته يستقيم في معاملة هذه المعدة ليس على اعتبارها شيئاً حيوانياً، بل على اعتبارها شيئاً إنسانياً". الفقرة ٦١: "الإنسان... من حيث هو كائن أخلاقي" وكل الحديث عن الأخلاقية في جوهر المسيحية.

***

ب) إن حقيقة أن البشر لا يستطيعون في المرحلة الحاضرة من التطور أن يلبوا حاجاتهم إلا ضمن المجتمع، وإن البشر على أية حال، منذ البداية، منذ وجودهم، قد احتاجوا بعضهم، وما كانوا يستطيعون أن يطوروا حاجاتهم وقدراتهم إلا بالتشارك فيما بينهم، هذه الحقيقة يعبِّر عنها فويرباخ كما يلي:

(*) impuissance mise en action، بالفرنسية في النص الأصلي.

"الإنسـان المنعـزل بحـد ذاتـه لا يملـك جوهـر الإنسـان فـي ذاتـه"؛ "إن جوهـر الإنسـان لا وجـود لـه إلا فـي الجماعة، فـي وحدة الإنسـان والإنسـان (L'unité de l'homme avec l'homme)، وهـي وحـدة إنمـا تتوقـف علـى أيـة حـال علـى حقيقـة الفـرق بيـن أنـا وأنـت. إن الإنسـان بحـد ذاتـه هـو الإنسـان (بالمعنـى العـادي)، أمـا الإنسـان والإنسـان، وحـدة أنـا وأنـت، فهـي اللـه" (يعنـي الإنسـان بالمعنـى فـوق العـادي) (الفقرتـان ٦١ و٦٢، ص ٨٣).

لقـد بلغـت الفلسـفة نقطـة حيـث الحقيقـة المبتذلـة لحتميـة التعامـل بيـن الكائنـات البشـرية - وهـي حقيقـة مـا كان يمكـن مـن دون معرفتهـا للجيـل الثانـي الـذي شـاهد النـور فـي يـوم مـن الأيـام أن يوجـد قـط، حقيقـة متضمنـة بصـورة مسبقة فـي الفـرق الجنسـي - تقدمهـا الفلسـفة فـي ختـام تطورهـا التـام علـى اعتبارهـا النتيجـة العظمـى. والأكثـر مـن ذلـك، إنهـا تقدمهـا فـي الصـورة السـرية "لوحـدة أنـا وأنـت". ولقـد كادت هـذه العبـارة تصبـح مسـتحيلة كليـاً لـو أن فويربـاخ لـم يفكـر بصـورة رئيسـية(*) فـي العمليـة الجنسـية، فـي عمليـة الـزواج، فـي جماعيـة أنـا وأنـت(**). وبقـدر مـا تصبـح جماعيتـه عمليـة، فإنهـا مقصـورة علـى العمليـة الجنسـية وعلـى التوصـل إلـى فهـم للأفكاروالقضايـا الفلسـفية، "الجـدل الحقيقـي"، الفقـرة ٦٤، الحـوار؛ علـى "إنجـاب الإنسـان، الإنسـان الروحـي والجسـدي علـى حـد سـواء" (ص ٦٧). وليـس ثمـة ذكـر لمـا يفعلـه فـي وقـت لاحـق هـذا الإنسـان المنجـب، باسـتثناء أنـه "ينجـب الإنسـان" مـن جديـد "روحيـاً" و"جسـدياً". إن فويربـاخ لا يعـرف إلا التعامـل بيـن كائنيـن.

"حقيقـة أنـه ليـس ثمـة كائـن حقيقـي وكامـل ومطلـق مـن تلقـاء ذاتـه، وأن الحقيقـة والكمـال إنمـا همـا التقـاء ووحـدة كائنيـن يكونـان متسـاويين بصـورة جوهريـة" (ص ٨٣، ٨٤).

***

(*) بالإغريقية في النص الأصلي.

(**) ذلك أنه ما دام الكائن الإنساني = دماغ + قلب، ولا بد من اثنين كي يمثلا الكائن الإنساني، أحدهما يتصرف بوصفه الدماغ، والآخر بوصفه القلب في تعاملهما – الرجل والمرأة. وإلا يكون من المحال أن نفهم السبب في أن شخصين أكثر إنسانية من شخص واحد. فرد القديس سمعان (ملاحظة من إنجلز).

ج) إن مطلع فلسفة المستقبل تبين في الحال الفرق بيننا وبينه:

الفقـرة ١: "كانـت مهمـة الحقـب الحديثـة تحقيـق اللـه وأنسـنته، تحويـل اللاهـوت وانحلالـه فـي الانثربولوجيـا". هامـش: "إن إنـكار اللاهـوت هـو جوهـر الحقـب الحديثـة". (فلسـفة المسـتقبل، ص ٢٣).

***

د) إن التمييـز الـذي ينشـئه فويربـاخ بيـن الكاثوليكيـة والبروتسـتانتية فـي الفقـرة ٢- الكاثوليكيـة: "اللاهـوت" "يعنـي بمـا هـو اللـه فـي ذاتـه"، وعندهـا "اتجـاه إلـى التأمـل والحـدس"؛ البروتسـتانتية مجـرد علـم للمسيح، وهـي تـدع اللـه لنفسـه والتأمـل والحـدس للفلسـفة - هـذ التمييـز ليـس سـوى تقسـيم للعمـل نشـأ مـن الحاجـات الخاصـة بعلـم غيـر ناضـج. وإن فويربـاخ ليفسـر البروتسـتانتية مـن مجـرد هـذه الحاجـة ضمـن اللاهـوت، وبنـاء عليـه يعقـب ذلـك بصـورة طبيعيـة تاريـخ مسـتقل للفلسـفة.

***

هــ) "ليـس الوجـود مفهومـاً عامـاً يمكـن فصلـه عـن الأشـياء. إنـه يشـكل وحـدة مـع الأشـياء التـي توجـد... إن الوجـود موضـع الماهيـة. إن ماهيتـي هـي وجـودي. إن السـمكة فـي المـاء، لكـن ماهيتهـا لا يمكـن أن تنفصـل عـن هـذا الوجـود. بـل إن اللغـة نفسـها توحـد الوجـود والماهيـة. ولا ينفصـل الوجـود عـن الماهيـة إلا فـي الحيـاة الإنسـانية - ولكـن فـي حـالات اسـتثنائية وبائسـة فقـط، فقـد يحـدث ألا تكـون ماهيـة شـخص مـا فـي المـكان حيـث هـو موجـود، لكـن نفسـه لا تكـون حقـاً، مـن جـراء هـذا التقسـيم بالضبـط، فـي المـكان حيـث يكـون جسـده موجـوداً فعليـاً. إنـك لا تكـون إلا حيـث يكـون قلبـك. بيـد أن جميـع الأشـياء - فيمـا عـدا الحـالات الشـاذة - هـي سـعيدة بـأن تكـون فـي المـكان حيـث هـي كائنـة، وهـي سـعيدة بـأن تكـون مـا هـي كائنـة عليـه" (ص ٤٧).

ذلـك مديـح رائـع للأوضـاع القائمـة. حـالات اسـتثنائية، وفيمـا عـدا بعـض الحـالات الشـاذة،

فإنـك سـعيد حيـن تكـون فـي السـابعة مـن العمـر بـأن تصبـح بوابـاً فـي منجـم للفحـم وبـأن تظـل وحيـداً فـي الظـلام أربـع عشـرة سـاعة فـي اليـوم، وبمـا أن ذلـك هـو وجـودك، فإنـه بالتالـي ماهيتـك أيضـاً. وإن الشـيء نفسـه ينطبـق علـى أيـة قطعـة مـن آلـة ذاتيـة الحركـة. إن "ماهيتـك" أن تكـون خاضعـاً لفـرع مـن العمـل. راجـع جوهـر الإيمـان (٣١٨)، ص ١١، "الجـوع غيـر المشـبع"، هـذه[...]

و) الفقـرة ٤٨، ص ٧٣: "الزمـن هـو الوسـيلة الوحيـدة التـي تمكـن مـن دون تناقـض مـن جمـع القـرارات المتعارضـة أو المتناقضـة فـي كائـن واحـد. وينطبـق هـذا علـى الكائنـات الحيـة فـي جميـع الأحـداث. ولا ينكشـف التناقـض إلا بهـذه الطريقـة وحدهـا - هنـا، مثـلاً، فـي الإنسـان - إن هـذا القـرار، هـذا العـزم، يسـودني ويشـغلني، ومـن بعـد قـرار مختلـف كل الاختـلاف وعلـى طرفـي نقيـض مـع القـرار السـابق".

ويصـف فويربـاخ هـذا علـى أنـه ١- تناقـض، ٢- جمـع بيـن التناقضـات، و٣- يزعـم أن الزمـن يفعـل ذلـك. وبالفعـل الزمـن "الملـيء": بالأحـداث، لكـن الزمـن الثابـت وليـس ذلـك الزمـن الـذي يحـدث(*). إن الموضوعـة ترجـع إلـى تقريـر أن التغيـرات غيـر ممكنـة إلا فـي سـياق الزمـن.

كتب على الأرجح في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٥.نشرللمرة الأولى بالألمانية عام ١٩٣٢ من قبل مؤسسة الماركسيةاللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

(*) إنجلز لم ينهِ هذه الجملة، الفكرة نفسها معبَّر عنها في الفصل الأول من هذا الكتاب. [الناشر].

كارل ماركس وفريدريك إنجلز
رد على النقد المعتاد
لبرونو باور[٣١٩]

بروكسيل، ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، في مجلة ويغان الفصلية، المجلد الثالث، ص ١٣٨، يتمتم برونو باور ببضع كلمات رداً على العائلة المقدسة، أو نقد النقد النقدي، ١٨٤٥، بقلم إنجلز وماركس. ويعلن برونوباور، في البداية، أن إنجلز وماركس أساءا فهمه؛ وإنه ليردد بسذاجة خرقاء عباراته القديمة المتبجحة، التي أحيلت هباء منذ زمن طويل، ويأسف لأن هذين المؤلفين لا يعرفان شعاراته بشأن "النضال الدائم والنصر، والدمار والخلق المتصلين للنقد"، ومزاعمه بأن النقد هو "القوة التاريخية الوحيدة" وأن "النقد والنقد وحده قد سحق الدين بمجموعه والدولة التاريخية الوحيدة" في تجلي ظاهراتها المختلفة. وأن "النقد قد عمل ولا يزال يعمل"، وغير ذلك من في رده برهاناً جديداً وبارزاً على "كيف عمل الناقد ولا يزال يعمل". ذلك أن الناقد "الكادح" يرى أنه من الأفضل لغرضه ألا يجعل الكتاب الذي حرره ماركس وإنجلز موضوعاً لهتافاته واستشهاداته، بل نقداً تافهاً وملتبساً لهذا الكتاب نشرته مجلة المركب البخاري الويستفالي (عدد أيار (مايو)، ص ٢٠٨) - وهي حيلة دنيئة يخفيها عن القارئ بحذر نقدي.

وفيما ينسخ باورعن المركب البخاري، فإنه يقطع "عمله الشاق" بمجرد هزات وحيدة المقطع، لكن عظيمة المغزى، من كتفيه. إن النقد النقدي يقتصر على هز كتفيه طالما أن ليس لديه مزيد من القول: إنه يجد الخلاص في لوحي الكتف رغماً عن كراهيته للحسية، التي لا يستطيع أن يتصورها إلا في صورة "عصا" (أنظر مجلة ويغان الفصلية، ص ١٣٠)، هذه الأداة من أجل معاقبة عريه اللاهوتي.

إن الناقد الويستفالي، في اندفاعه السطحي، يقدم خلاصة مضحكة تغاير كلياً الكتاب الذي ينتقده. وإن الناقد "الكادح" ينسخ اختلاقات الناقد الأدبي، ويلصقها بإنجلز وماركس، ويهتف ظافراً بالجمهور غير النقدي - الذي يسحقه بعين واحدة، بينما يدعوه بالعين الأخرى متملقاً كي يقترب منه – أنظر، هؤلاء هم خصومي!

فلنضع الآن جنباً إلى جنب كلمات هذه الوثائق.

إن الناقد الأدبي يكتب في المركب البخاري الويستفالي:

"كيما يقتل اليهود فإنه (برونو باور) يحوّلهم إلى لاهوتيين، ويحول مشكلة التحرر السياسي إلى مشكلة التحرر الإنساني؛ وكيما يمحق هيغل فإنه يحوله إلى الهر هنريك؛ وكيما يتخلص من الثورة الفرنسية والشيوعية وفويرباخ فإنه يهتف "الجمهور، الجمهور، الجمهور!" ومرة أخرى "الجمهور، الجمهور، الجمهور!" ويصلبه لمجد الروح الذي هو النقد، التجسيد الحقيقي للفكرة المطلقة في برونو من شارلو تنبورغ (المركب البخاري الويستفالي، العدد الأول، ص ٢١٢).

وإن الناقد "الكادح" يكتب الآن:

"ناقد النقد النقدي" يصبح "آخر الأمر صبيانياً"، و"يمثل دور المهرج على المسرح الشعبي" و"يريدنا أن نصدق"، "مؤكداً بكل جدية أن برونو بوير كيما يقتل اليهود"، الخ - ومن ثم يرد بصورة حرفية كامل المقطع من المركب البخاري الويستفالي الذي لا وجود له في أي مكان من العائلة المقدسة (مجلة ويغان الفصلية، ص ١٤٢).

قارن ذلك بموقف النقد النقدي من المسألة اليهودية ومن التحرر السياسي في العائلة المقدسة، بصورة متفرقة في الصفحات ١٦٣-١٨٥، وبشأن موقفه من الثورة الفرنسية راجع الصفحات ١٨٥-١٩٥، وبشأن موقفه من الاشتراكية والشيوعية راجع الصفحات ٢٢-٧٤، والصفحة ٢١١ وما يليها، والصفحات ٢٤٣-٢٤٤، وكامل الفصل عن النقد النقدي في شخص رودولف أمير جيرولدشتاين، الصفحات ٢٥٨- ٣٣٣. وبشأن موقف النقد النقدي

من هيغل أنظر: سر الإنشاء التأملي والتعليق التالي في الصفحة ٧٩ وما يليها، وكذلك الصفحات ١٢١-١٢٢-١٢٦-١٢٨-٢٠٨-٢٠٩-٢٠٩- ٢١٥-٢٢٧-٣٠٤-٣٠٨؛ أما عن موقف النقد النقدي من فويرباخ فانظر الصفحات ١٣٨- ١٤١، وأخيراً عن نتيجة واتجاه القتال النقدي ضد الثورة الفرنسية والمادية والاشتراكية فانظر الصفحات ٢١٤- ٢١٥.

إن هذه المقاطع تبين أن الناقد الأدبي الويستفالي، الذي يشوه الحجج كلياً ويسيء فهمها بصورة تبعث على الضحك، لا يعطي إلا خلاصة متخيلة، وإن الناقد "النقي" و"الكادح"، برشاقة "خلاقة ومدمرة"، يستبدل الخلاصة بالأصل.

وأكثر من ذلك. إن الناقد يكتب في المركب الويستفالي:

> [على] "تمجيده الذاتي السخيف" (المقصود برونو بوير) "الذي يسعى فيه لأن يثبت أنه حيثما كان فيما مضى عبداً لأوهام الجمهور فإن هذه العبودية لم تكن إلا مجرد قناع ضروري للنقد، يرد ماركس بعرض تقديم المبحث المدرسي الصغير التالي: لماذا يجب أن يكون الهر برونو باور الشخص الوحيد الذي يجب أن يبرهن على حمل العذراء مريم" (الخ، الخ، المركب البخاري، ص ٢١٣).

الناقد "الكادح":

> "إنه" (ناقد النقد النقدي) "يريدنا أن نصدق، وفي النهاية يصدق هو نفسه حيلته، إنه حيثما كان بوير فيما مضى عبداً لأوهام الجمهور، فإنه يحب أن يقدم هذه العبودية على أنها مجرد قناع ضروري للنقد وليس على النقيض من ذلك على أنها نتيجة التطور الضروري للنقد؛ ورداً على هذا "التمجيد الذاتي السخيف" يقدم إذن، المبحث المدرسي الصغير التالي: "لماذا يجب أن يكون الهر برونو باور" (الخ، الخ، مجلة ويغان الفصلية، ص ١٤٢- ١٤٣).

لسوف يجد القارئ في العائلة المقدسة، ص ١٥٠-١٦٣، قسماً خاصاً عن المديح الذاتي لبرونو باور، لكن شيئاً لم يكتب هناك لسوء الحظ عن المبحث المدرسي الصغير الذي لم يقدم إذن، في أي حال من الأحوال، كرد على المديح الذاتي لبرونو باور، كما يكتب

الناقد الأدبي الويستفالي؛ وينسخ برونوباور عنه بكل لهفة ذلك، بل يحشر بعض الكلمات بين فواصل مقلوبة على افتراض أنها مقتطفة من العائلة المقدسة، إن ذكر المبحث الصغير يرد في قسم آخر وفي سياق مختلف (أنظر العائلة المقدسة، ص ١٦٤ و١٦٥). وأما ما يعنيه هذ المبحث هناك، فهذا ما يستطيع القارئ أن يتبينه من تلقاء نفسه ويعجب مرة أخرى بالمكر "النقي" "للناقد الكادح".

وختاماً يهتف الناقد "الكادح":

> "إن هذه" (ويقصد المقتطفات التي استعارها برونو باور من المركب البخاري الويستفالي ونسبها إلى مؤلفي العائلة المقدسة) "قد ألزمت طبعاً برونوباور بالصمت وردت النقد إلى شعوره. وعلى العكس من ذلك، فإن ماركس قد قدم لنا مشهداً إذ لعب هو نفسه في آخر الأمر دور الممثل الهزلي المسلي" (مجلة ويغان الفصلية، ص ١٤٣).

وكيما يفهم المرء هذه "على العكس من ذلك"، فلا بد له أن يعرف أن الناقد الأدبي الويستفالي، الذي يعمل برونوباور لحسابه كناسخ، يملي على كاتبه النقدي والكادح:

"إن المأساة التاريخية العالمية" (يعني قتال نقد باور ضد الجمهور) "قد تفسخت كلياً إلى مجرد تمثيلية مسلية جداً" (المركب البخاري الويستفالي، ص ٢١٣).

إن الناسخ سيء الحظ يقفز هنا واقفاً على قدميه: إن تدوين الحكم الصادر ضده لأمر يتجاوز قواه. ويهتف مقاطعاً إملاء الناقد الأدبي الويستفالي: "على العكس من ذلك... إن ماركس... هو الممثل المسلي جداً"، ويمسح العرق البارد عن جبينه.

إن برونو باور، بلجوئه إلى الاحتيال الأخرق، إلى الخداع الدنيء موضع الرثاء قد أثبت في آخر تحليل حكم الإعدام الذي أصدره بحقه ماركس وإنجلز في العائلة المقدسة.

كتب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٥

ونشر في مرآة المجتمع

العدد السابع، كانون الثاني(يناير) ١٨٤٦.

فهارس

فهرس هوامش

١- يسمي ماركس بالتتالي موقف لودفيغ فويرباخ وبرونو باور وماكس شترنر.

٢- تتضمن مخطوطة الإيديولوجية الألمانية مقاطع عديدة تالفة. ولقد عمد الناشرون الروس، كلما كان ذلك ممكناً، إلى تصويب الفقرة أو الكلمة اللتين جعلهما التلف غير مقروءتين، وفي هذه الحال وضعت هذه التصويبات بين أقواس كبيرة. وفيما عدا ذلك، فإن في هذه المخطوطة ملاحظات هامشية من - المؤلفين ومقاطع مشطوبة بصورة عمودية، وقد أوردت جميعاً في الهوامش في أسفل الصفحات .

٣- شتراوس، دايفيد فريدريك (١٨٠٨- ١٨٧٤) - فيلسوف ألماني حمل الشهرة إليه كتابه "حياة يسوع".

٤- من المعروف أن قادة الاسكندر المقدوني خاضوا، بعد وفاته، صراعاً محموماً على السلطة انتهت نتيجته إلى انقسام امبراطورية الاسكندر إلى دول عديدة .

٥- إن كلمة "Verkehr" تستعمل في الإيديولوجية الألمانية بمعنى واسع جداً يتناول التعامل المادي والروحي للأفراد المنفصلين والجماعات الاجتماعية والبلدان الكاملة. وقد ترجمها ماركس نفسه بكلمة التعامل (commerce) في إحدى رسائله إلى أنينكوف(Annenkov) . ويبين ماركس وإنجلز أن التعامل المادي، وقبل كل شيء تعامل البشر في عملية الإنتاج، هو أساس جميع أشكال التعامل الأخرى.

وإن عبارات "Verkehrsform" "شكل التعامل" و"Verkehrsweise" (نمط التعامل) و"Verkehrsverhältnisse" (علاقات أو شروط التعامل) التي نصادفها في الإيديولوجية الألمانية تعبِّر بالنسبة إلى ماركس وإنجلز عن مفهوم "علاقات الإنتاج" الذي كان يتكون في ذهنهما في تلك الفترة .

٦- إن عبارة "Stamm" التي نترجمها هنا بكلمة "قبيلة" قد لعبت دوراً أعظم في المؤلفات

التاريخية المكتوبة في الأربعينيات من القرن الماضي، بما لا يقاس منه في الوقت الحاضر. وكانت تستخدم للدلالة على جماعة من البشر تتحدر من جد مشترك وتشتمل على المفهومين الحديثين "للجانس" و"القبيلة". وكان لويس هنري مورغان أول من حدد وميز هذين المفهومين في المجتمع القديم، أو أبحاث في خطوط التقدم البشري من التوحش عبر الهجمية إلى الحضارة، لندن ١٨٧٧. إن هذا العالم الأميركي البارز كان سباقاً إلى بيان أهمية الجانس(Gens) من حيث هو نواة النظام المشاعي البدائي، وبذلك وضع الأسس العلمية من أجل تاريخ المجتمع القديم ككل واحد. ومن المعروف أن إنجلز استخلص النتائج العامة من اكتشافات مورغان وقام بتحليل جامع لمعنى مفهومي "الجانس" و"القبيلة" في كتابه أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (L'origine de la famille, de la propriété privée et de l'Etat) (١٨٨٤).

٧- ليسينوس(Licinus) (حوالى٣٥٠ ق.م): خطيب شعبي نشر مع سيكستيوس (Sextiun) عام (٣٦٧ق.م.) قوانين في مصلحة العاميين. وبموجب هذه النصوص لا يحق لأي مواطن روماني أن يملك أكثر من ٥٠٠ جوجر (حوالى ١٢٥ هكتاراً) من ملكية الدولة (Ager Publicus). وبعد عام ٣٦٧ هدأ "الجوع إلى الأرض" لدى العاميين حتى درجة ما بفضل الفتوحات العسكرية. فقد تقاسموا قسماً من الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة.

٨- الحوليات الألمانية-الفرنسية [Deutsh - Franzosische Jahrbücher]، مجلة أصدرها كارل ماركس وأرنولد روج وكانت تصدر باللغة الألمانية في باريس. ولم يظهر منها إلا العدد الأول، وهو عدد مضاعف (في شباط ١٨٤٤) وكان يشتمل على مقالتين بقلم كارل ماركس "في المسألة اليهودية" [sur la question juive] و"إسهام في نقد فلسفة الحقوق عند هيغل. مدخل" [Zur Kritik der Hegelschen Rechtspilosophie. Einleitung] ومقالتين بقلم فريدريك إنجلز "موجز نقد الاقتصاد السياسي" و"مركز بريطانيا: الماضي والحاضر، بقلم توماس كارلايل، لندن ١٨٤٣". وإن هذه المؤلفات تسجل الانتقال النهائي لماركس وإنجلز إلى المادية والشيوعية. وقد توقفت المجلة عن الصدور بسبب خلافات في الرأي بين ماركس وروج. أما العائلة المقدسة، أو نقد

النقـد النقـدي. ضـد برونـو بويـر وشـركاه، [Die heilige Familie, oder Kritik der Kritischen Kritik. GegenBruno Bauer] فهـو المؤلـف الأول المشـترك بيـن كارل ماركـس وفريديريـك إنجلـز.

٩- الإشارة إلى باور، الذي كان يبغي تزعم مدرسة فلسفية "نقدية"..

١٠- عنـوان مختصـر لمجلـة أصدرهـا الهيغليـون الشـباب مـن ١٨٣٨ حتـى ١٨٤٣ فـي شـكل وريقـات يوميـة. ولقـد كان عنوانهـا مـن كانـون الثانـي (ينايـر) ١٨٣٨ حتـى حزيـران (يونيـو) ١٨٤١: "حوليـات هـال للعلـم والفـن الألمانييـن" [Hallische Jahrbücher für deutsche Wissenschaft und Kunst]،تحـت إدارة أرنولـد روج وتيـودور أيكتريـر. ولمـا تعرضـت للخطـر فـي بروسـيا، هاجـرت إلـى السـاكس واتخـذت فـي تمـوز (يوليـو) ١٨٤١ عنـوان: "الحوليـات الألمانيـة للعلـم والفـن" [Deutsche Jahrbücher für Wissenschaft und Kunst]. لكـن الحكومـة حظـرت فـي كانـون الثانـي (ينايـر) ١٨٤٣ المجلـة عـن الصـدور، وهـو الحظـر الـذي شـمل ألمانيـا بكاملهـا بأمـر البوندسـتاغ.

١١- برونـو بـاور، "تاريـخ السياسـة والثقافـة والتنويـر فـي القـرن الثامـن عشـر" [Geschichte der Politik, Cultur und Aufklärung des achtezehten jahrhunderts] شـارلوتنبورغ ١٨٤٣- ١٨٤٥، المجلد الأول.

١٢- نشـيد قومـي لنقـولا بيكـر، الرايـن الألمانـي[Le Rhin allemand]، وقـد وضـع عـام ١٨٤٠، واسـتغله القوميـون الألمـان. ولقـد أثـار رديـن مختلفيـن، أحدهمـا وطنـي متزمـت مـن جانـب موسـيه، والآخـر مسـالم مـن جانـب لامارتيـن.

١٣- فينيدي جاكوب (١٨٠٥-١٨٧١): صحافي سياسي ألماني يساري.

١٤- مجلـة ويغـان الفصليـة [Wigand´s Vierteljahrsschrif]، وهـي مجلـة للهيغلييـن الشـباب أصدرهـا فـي لايبزيـغ مـن عـام ١٨٤٤ حتـى ١٨٤٥ أوتـو ويغـان. وقـد كتـب فويربـاخ فـي المجلـد الثانـي منهـا مقالـة ناظـر فيهـا ضـد شـترنر وكان عنوانهـا "فـي جوهـر المسـيحية بالمقارنـة مـع الأوحـد وخاصتـه". ومـن المعـروف أن الكتـاب الأول مـن تأليـف فويربـاخ والكتـاب الثانـي مـن تأليـف شـترنر..

١٥- كتاب لفويرباخ، مبادئ فلسفة المستقبل [Grundsätze der philosophie der Zunkunft]، زوريخ وونترثور ١٨٤٣.

١٦- منظمة إنكليزية للتبادل الحر [Libre échangiste] تأسست في مانشستر عام ١٨٣٨ من قبل كوبدن وبرايت (Cobden & Bright)، وكان غرضها نقض الضرائب على استيراد القمح. وكانت تناضل ضد المالكين العقاريين الذين كانوا يعملون من جانبهم للإبقاء على هذه الضرائب، وكانت تخضع لتحريض بعض الصناعيين الذين كانوا يتوقعون أن يؤدي الاستيراد الحر للقمح إلى انخفاض سعر الخبز والأجور. وقد حققت المنظمة مطالبها عام ١٨٤٦.

١٧- قوانين أصدرها كromويل عام ١٦٥١، وقد تجددت فيما بعد، وكانت تنص على أن معظم السلع المستوردة من أوروبا وروسيا وتركيا لا يجوز نقلها إلا بواسطة سفن إنكليزية أو سفن البلدان المصدرة، كما أن المساحة على طول الشواطئ الإنكليزية يجب أن تكون محصورة بالزوارق الإنكليزية. وإن هذه القوانين، التي كان الغرض منها تشجيع البحرية الإنكليزية، كانت موجهة ضد هولندا بصورة رئيسية، وقد نقضت من عام ١٧٩٣ حتى ١٨٥٤.

١٨- كانت هذه الضرائب التفاضلية تفرض رسوماً مختلفة على نفس السلع وفقاً لمصدرها.

١٩- جون إيكن (١٧٤٧- ١٨٢٢): طبيب إنكليزي ومؤرخ في الوقت نفسه.

٢٠- اسحق بنتو (١٧١٥-١٧٨٧): تاجر واقتصادي هولندي، والاقتباسات الواردة بالفرنسية في النص مأخوذة من "رسالة عن غيرة التجارة" الواردة في كتابه: مبحث التداول والائتمان [Traité de la circulation et du crédit]، امستردام، ١٧٧١.

٢١- كان ماركس يعرف آدم سميث في ذلك الحين من الترجمة الفرنسية: بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم، ص٧١. [An inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of the Nations].

٢٢- العقد الاجتماعي [Du Contrat Social]، وهو المؤلف الشهير لجان جاك روسو.

٢٣- سيسموندي (١٧٧٣-١٨٤٢): اقتصادي سويسري، ناقد للرأسمالية. أما شيربولييه

(١٧٩٧- ١٨٦٩)، فهـو أحـد تلامـذة سيسـموندي، وقـد مـزج أفـكار أسـتاذه بـآراء مسـتعارة مـن ريـكاردو.

٢٤- أمالفـي: (Amalfi) مدينـة إيطاليـة تقـع جنوبـي نابولـي، وكانـت فـي القرنيـن العاشـر والحـادي عشـر مرفـأ مزدهـراً، وقـد تبنـت إيطاليـا بأسـرها قانونهـا البحـري.

٢٥- "مجلـس لايبزيـغ" [The Leipzig Council] إشـارة سـاخرة إلـى أن مؤلفـات "الأبويـن الكنائسـيين" (Pères de L'Église) باوروشـترنر، اللذيـن سيعمد ماركـس وإنجلـز إلـى نقدهمـا مـن الآن وصاعـداً، قـد نشـرت عنـد ويغـان فـي لايبزيـغ. إن الإيديولوجيـة الألمانيـة سـتتخذ ابتـداء مـن هنـا شـكل تعليـق علـى النصـوص، ومـن هنـا كانـت كثـرة الاستشـهادات بالقديـس برونـو (بـاور) والقديـس ماكـس (شـترنر).

٢٦- لوحـة شـهيرة لفيلهلـم فـون كولبـاخ يعـود تاريخهـا إلـى ١٨٣٤ - ١٨٣٧ تمثـل المجابهـة فـي الهـواء بيـن أرواح المقاتليـن الذيـن سـقطوا فـي سـاحات القتـال الكاتالونيـة.

٢٧- المركـب البخـاري الويسـتفالي [Das Westaphälische Dampfboot]، مجلـة شـهرية كان يصدرهـا "الاشـتراكي الحقيقـي" أوتـو لونينـغ، وقـد صـدرت مـن كانـون الثانـي (ينايـر) ١٨٤٥ حتـى كانـون الأول (ديسـمبر) ١٨٤٦، ومـن ثـم مـن كانـون الثانـي (ينايـر) ١٨٤٧ حتـى آذار (مـارس) ١٨٤٨. وقـد نشـرت فـي هـذه المجلـة، عـام ١٨٤٦، المقالـة المغفلـة مـن دون التوقيـع تحمـل عنـوان "العائلـة المقدسـة أو نقـد النقـد النقـدي" ضـد باوروشـركاه، بقلـم ف. إنجلـز وك. ماركـس، فرانكفـورت علـى الميـن(sur-main)، ١٨٤٥".

٢٨- إشـارة إلـى مقالـة ماكـس شـترنر التـي ظهـرت فـي ١٨٤٥ فـي مجلـة ويغـان [la revue de Wigand]، المجلـد الثالث ["نقـاد شـترنر"] "Recensenten Stirners".

٢٩- في النص (البيت المقدس) Santa Casa، وهو اسم مركز قيادة محاكم التفتيش في مدريد.

٣٠- الدكتـور غرازيانـو مـن شـخصيات المسـرح الهزلـي الإيطالـي، وهـو نمـوذج العالـم الـكاذب. وينعـت ماركـس وإنجلـز أرنولـد روج بهـذا النعـت فـي مناسـبات عديـدة، كمـا يسـميانه أحيانـاً "الدكتـور غرازيانـو للعلـم الألمانـي".

٣١- المقصـود مـن بـاب السـخرية بالمجلـد الثانـي مـن مؤلـف برونـو القضيـة الصالحـة للحريـة

وقضيتي الخاصة مقالة عنوانها "خصائص لودفيغ فيورباخ" ظهرت في مجلة ويغان الفصلية، ١٨٤٥، المجلد الثالث.

٣٢- أنظر مقالة برونو بوير: "لودفيغ فيورباخ"، في أوراق شمال ألمانيا [Nord deutsche Blätter]، الدفتر الرابع. وقد صدرت هذه المجلة في مجلدين، الأول في ١٨٤٤، والثاني في ١٨٤٥، تحت عنوان إسهامات في حملة النقد.

٣٣- الإشارة إلى مؤلفات فيورباخ: تاريخ الفلسفة الحديثة. عرض وتحليل ونقد لفلسفة، بيير بايلي؛ إسهام في تاريخ الفلسفة والبشرية؛ جوهر المسيحية [L'essence du christianisme] ؛ ومقالته "إسهام في نقد الفلسفة الوضعية" [contribution à la critique de la philosophie positives]، الذي نشر من دون توقيع في حوليات هال عام ١٨٣٨.

وتشير عبارة "الفلسفة الوضعية" هنا إلى الاتجاه الديني والصوفي في الفلسفة الذي يمثله ك.هـ ويس، والشاب ج.غ. فيخته، وأ. غونتر، وف. بادروف. و.شيلينغ خلال السنوات الأخيرة من حياته، وكان هذا الاتجاه ينتقد فلسفة هيغل من اليمين. وكان "الفلاسفة الوضعيّون" يسعون إلى إخضاع الفلسفة للدين، وينكرون إمكانية المعرفة العقلانية وينظرون إلى الوحي الإلهي على أنه مصدر المعرفة "الوضعية" وكانوا يسمون جميع الأنظمة القائمة على المعرفة العقلانية أنظمة سلبية.

٣٤- العائلة المقدسة [La sainte famille]، المؤلف الذي نشره ماركس وإنجلز في نقد فلسفة النقد لباور وشركاه .

٣٥- كانت منطقة أوريغون على الساحل الهادئ متنازعاً عليها في ذلك الوقت بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وقد حسم النزاع عام ١٨٤٦، فأعطي الجنوب إلى الولايات المتحدة، والشمال إلى إنكلترا، وكان خط العرض ٤٩ هو الفاصل بينهما.

٣٦- إشارة إلى مؤلفين لبرونو باور: نقد التاريخ الإنجيلي للأناجيل [critique de l'histoire évangélique des synoptiques]، لايبزيغ ١٨٤١، والمسيحية المنزلة [le christianisme révélé]، زوريخ ١٨٤٣.

٣٧- المقصود كتاب هيغل علم ظواهر الفكر، [Phänomenologie des Geistes] وقد صدر عام ١٨٠٧.

٣٨- أنظر الترجمة العربية لكتاب ماركس وإنجلز، العائلة المقدسة، منشورات دار دمشق.

٣٩- أنظر المصدر نفسه.

٤٠- إشارة إلى المقالة المغفلة في مجلة ويغان الفصلية والمعنونة "في حق الفرد المبرأ؟ في المطالبة بنسخه عن الحكم الصادر بحقه" [Du droit de l´individu acquité une ampliation de la sentence]، ١٨٤٥، المجلد الرابع.

٤١- إن شارون هو نوتي الجحيم، وكان يطلب رسماً لقاء نقل أشباح الموتى عبر نهر أشيرون.

٤٢- أنظر الترجمة العربية لكتاب العائلة المقدسة، دار دمشق، ص ٩٧.

٤٣- إن الصفات "المضطربة، الدفاقة، المرتعشة" غير واردة في مقالة باور، وقد أضافها ماركس وإنجلز اللذين استعاراها من قصيدة شهيرة لشيللر: الغواص [Der Taΰcher].

٤٤- إشارة إلى مسرحية شكسبير الليلة الثانية عشرة، الفصل الثالث، المشهد الثاني. وإن الترجمة الألمانية لنص شكسبير تقول (معروف) Gunst بدلاً من (فن) Kunst.

٤٥- إن جميع المقتبسات التوراتية الواردة في الدفتر الثالث، ص ٣٨، قد استشهد بها في العائلة المقدسة (أنظر الصفحة ١٩٠ من الترجمة العربية). أما المجلة الأدبية، وهي العنوان المختصر لمجلة: المجلة الأدبية العامة [Allgemeine literatur-zeitung]، فهي مجلة شهرية كان يصدرها الهيغلي الشاب برونو في مدينة شارلتنبرغ من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٣ حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٤.

٤٦- المصدر السابق نفسه، الصفحة ٣٨ من الكراس الرابع من المجلة الأدبية العامة.

٤٧- أنظر: العائلة المقدسة، الترجمة العربية، دار دمشق، ص ٨ - ١٧.

٤٨- المسائل الإنكليزية المحلية [Englische Tagesfragen]، عنوان مقالة لفوشر نشرت في المجلة الأدبية. وقد كرس ماركس وإنجلز الفصل الثاني من العائلة المقدسة لنقد فوشر.

٤٩- إشارة إلى نزاع نشب بين كارل نوفيرك وكلية الفلسفة في برلين. راجع الفصل الثالث من العائلة المقدسة.

٥٠- أنظر الترجمة العربية للعائلة المقدسة، ص: ١٥٠- ١٥١.

٥١- مقتطفات من مقالة برونو التي صدرت مغفلة من التوقيع في الدفتر الرابع من المجلة الأدبية بعنوان: أعمال حديثة عن المسألة اليهودية.

٥٢- مقتطفات من مقالة لبرونو من دون توقيع في المجلة الأدبية بعنوان: ما هو غرض النقد حالياً؟.

٥٣- صدرت المجلة الرينانية [La Gazette Rhénane] في كولونيا من كانون الثاني (يناير) ١٨٤٢ حتى ٣١ آذار (مارس) ١٨٤٣. ومن المعروف أن ماركس ساهم ابتداءً من نيسان (أبريل) ١٨٤٢ في تحرير هذه الصحيفة التي أسسها بورجوازيون رينانيون معارضون للحكم المطلق البروسي، وقد أصبح رئيساً لتحريرها في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٢. وقد دافعت عن وجهة النظر الديمقراطية بمزيد من العزم. وقد حظرت الحكومة البروسية المجلة بمرسوم صادر في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٣. وقد توقف ماركس عن المساهمة في تحريرها منذ ١٧ آذار (مارس) ١٨٤٣، لمعارضته المساهمين فيها الذين كانوا يعتقدون أنه في الإمكان محاباة الحكومة باتخاذ لهجة أكثر اعتدالاً .

٥٤- عبارة عن مأساة شيللر: موت فالنشتاين [La Mort de vallenstein]، الفصل الرابع، المشهد الثاني عشر.

٥٥- فريدريك فيلهلم هرمان هنريكس، هيغلي عجوز، أستاذ في الفلسفة.

٥٦- أنظر الترجمة العربية للعائلة المقدسة.

٥٧- الفلاسفة الأخيرون [Les derniers philosophes]، كتاب لموزيس هيس صدر في دار مستادت عام ١٨٤٥

٥٨- نشر برونو باور مقالة في المجلة الأدبية العامة، الدفتر الأول، بعنوان: هنريكس، مطالعات سياسية .

٥٩- من المعروف أن اليهود ينكرون أن يكون يسوع المسيح هو المسيح المنتظر، فهم لا يزالون ينتظرون مجيئه إذن.

٦٠- المقصود هو تشارلز شيroوود ستراتون، وهو قزم أميركي اختار لقب الجنرال عقلة الأصبع.

٦١- يـورد ماركـس وإنجلـز هنـا شـاهداً مـن روايـة هاينـي حمامـات لـوك [Les Bains de lucques]، مـع تحويـر بسـيط.

٦٢- إن كتـاب الأوحـد وخاصتـه قـد طبـع فـي نهايـة عـام ١٨٤٤ فـي لايبزيـغ عنـد أوتـو ويغـان. وإن تاريـخ النشـر الـوارد فـي الكتـاب هـو ١٨٤٥. ومـن المعـروف أن ماكـس شـترنر اسـم مسـتعار لجوهـان كاسـبار شـميدت، وهـذا هـو السـبب فـي أن ماركـس وإنجلـز غالبـاً مـا يضعـان اسـم شـترنر بيـن قوسـين صغيريـن.

٦٣- إشـارة إلـى المقـالات التاليـة: "الأوحـد وخاصتـه"، وهـي مقالـة لشـيليغا ظهـرت فـي Nord [deutsche] Blätter، المجلـد التاسـع، ١٨٤٥، ومقالـة فويربـاخ (غيـر الموقعـة): "فـي موضـوع جوهـر المسـيحية بالإشـارة إلـى الأوحـد وخاصتـه"، وقـد نشـرت فـي مجلـة ويغـان الفصليـة، المجلـد الثانـي، ١٨٤٥؛ وكراسـة لهيـس بعنـوان الفلاسـفة الأخيـرون. وقـد رد شـترنر بمقالـة نشـرت فـي مجلـة ويغـان الفصليـة (١٨٤٥) بعنـوان: "نقـاد شـترنر"، مدافعـاً عـن كتابـه. وهـذا النـص هـو مـا يسـميه ماركـس وإنجلـز فـي الإيديولوجيـة الألمانيـة "التعليـق التبريـري".

٦٤- ينقـل ماركـس وإنجلـز هنـا وأدنـاه الأسـطر الأولـى مـن قصيدة غوتـه الشـهيرة: "الغـرور! الغـرور!": "أسسـت قضيتـي علـى لا شـيء. مرحـى". وإن القسـم الأول مـن كتـاب شـترنر يحمـل عنـوان : "أسسـت قضيتـي مـن لا شـيء".

٦٥- العـذارى المنتقمـات، [Eumenides]، بطـلات مـن الميثولوجيـا الإغريقيـة، مكلفـات بالانتقـام للجرائـم الرجسـة. أمـا بوزيـدون فهـو إلـه البحـر فـي الأسـاطير الإغريقيـة.

٦٦- ميـزة التـروي والجـرد [Sine Beneficio Deliberandi atque inventarii] مبـدأ قديـم لقانـون الإرث كان يمنـح الوريـث وقتـاً ليقـرر مـا إذا كان يريـد أن يقبـل الميـراث أو يرفضـه.

٦٧- إن مؤلـف هيغـل، موسـوعة العلوم الفلسـفية في شـكل موجـز [Encyclopädie der philosophischen Wissenschaften in Grundrisse]، يتألـف مـن ثلاثـة أقسـام، نشـرت فـي فواصـل متباعـدة، مـن ١٨١٧ حتـى ١٨٤٢. ١- "علـم المنطـق" [La science de la logique] ٢- "فلسـفة الطبيعيـة" [La philosophie de la nature]، ٣ - "فلسـفة الـروح" [La philosophie de l'esprit].

٦٨- راجع محاضرات في الفلسفة الطبيعية [Vorlesungen Űber die Naturphilosophie] لهيغل.

٦٩- جاك المغفل [Jacques le Bonhomme]، لقب الفلاح الفرنسي. ويطلق ماركس وإنجلز هذا اللقب في الإيديولوجية الألمانية على ماكس شترنر للتحقير.

٧٠- قصيدة من مؤلف مجهول، عنوانها: [Jockellied].

٧١- حملات أسطورية قام بها الفراعنة وقادتهم إلى أعماق أسيا وأوروبا.

٧٢- راجع ديوجين دو لايرتوس، عشرة كتب عن الحياة، أو مفاهيم وأقوال الفلاسفة الشهيرين.

٧٣- إيكارت، أحد أبطال الأساطير الألمانية في الحقبة الوسيطة، وهو رمز للحارس الأمين والرفيق المخلص الموثوق.

٧٤- أراغو، دومينيك - فرنسوا، عالم فلكي وفيزيائي وعالم رياضي فرنسي.

٧٥- فلسفة إغريقية من زعمائها تاليس وأناكسميندر وهيراكليطس، وهي مادية الاتجاه، جدلية من بعض وجهات النظر، وكانت موجهة ضد المعتقدات الدينية.

٧٦- بنات داناوس اللائي قتلن الأزواج الذين فرضوا عليهن، وقد حكم عليهن بأن يصببن الماء بصورة أزلية في برميل لا قعر له، وهو رمز للعمل المستحيل الذي لا نهاية له.

٧٧- الاقتباس مأخوذ من مقالة لودفيغ فويرباخ "موضوعات أولية عن إصلاح الفلسفة"، التي ظهرت في المجلد الثاني من مؤلفات فلسفية ألمانية حديثة غير منشورة وغيرها، التي نشرها أرنولد روج في سويسرا عام ١٨٤٣.

٧٨- كان محظوراً حتى ثورة ١٨٤٨، وتحت طائلة الجزاء المادي، التدخين في شوارع برلين وحديقة تييرغارتن، وهي حديقة كبيرة تقع في قلب المدينة. وكان الواشون يحصلون على قسم من الغرامة.

٧٩- في الأصل الألماني [Wasserpolacken]، ومعناها الحرفي بولونيو المياه، وهو اللقب الذي أعطي للبولونيين السيليزيين في ألمانيا، ربما لأن النوتيين الأوائل على نهر أودر كانوا في الأغلب من أصل بولوني.

٨٠- إشارة إلى حرب الأفيون الأولى (١٨٣٨- ١٨٤٢)، وهي أول محاولة بذلها البريطانيون

ليجعلـوا مـن الصيـن نصـف مسـتعمرة. وقـد اسـتخدم البريطانيـون فـي هـذه الحـرب أسـلحة جديـدة.

٨١- [Eece iterum Crispinus]، باللاتينيـة فـي النـص الأصلـي، وهـي الكلمـات التـي تفتتـح المقالـة الهجائيـة الرابعـة لجوفينـال ضـد كريسـبينوس، وهـو أحـد المقربيـن للأمبراطـور دوميتيـان. وإنهـا لتعنـي مجـازاً: [اللازمـة عينهـا مـرة أخـرى].

٨٢- الجيرونديـون، حـزب جمهـوري إبـان الثـورة الفرنسـية، فـي أواخـر القـرن الثامـن عشـر، وقد سـمي كذلـك لأن عـدداً كبيـراً مـن زعمائـه مـن مقاطعـة جيرونـد. وكان هـذا الحـزب يمثـل البورجوازيـة الصناعيـة والتجاريـة، وقـد تأرجـح بيـن الثـورة والثـورة المضـادة، وعقـد الصفقـات مـع النظـام الملكـي.

التيرميدوريـون - أطلـق هـذا الاسـم علـى جماعـة مـن السياسـيين اشـتركوا فـي الانقـلاب المضـاد للثـورة الـذي أطـاح باليعقوبييـن فـي ٢٧ تمـوز (يوليـو) عـام ١٧٩٤، وهـو يوافـق التاسـع مـن تيرمـدور حسـب التقويـم الثـوري، وقـد تـم القضـاء فيـه علـى روبسـبيير.

٨٣- لوفاسور، رينيه دي لاسارت، مذكرات [Memoires]، في أربعة مجلدات، باريس، ١٨٢٩- ١٨٣١.

٨٤- نوغاريـه، بييـر جـان - بابتيسـت، تواريـخ سـجون باريـس والمحافظـات [Histoires des prisons de paris et des départements]، وهـو يحتـوي علـى مذكـرات نـادرة وثمينـة. وإنـه ليقصـد مـن ذلـك كلـه أن يقـدم تاريخـاً للثـورة الفرنسـية، وبخاصـة طغيـان روبسـبيير وعملائـه وشـركائه. والمؤلـف مهـدى إلـى جميـع الذيـن اعتقلـوا علـى أنهـم مشـتبه فيهـم. باريـس ١٧٩٧، فـي أربعـة مجلـدات.

٨٥- صديقـان للحريـة والتجـارة، اسـمان مسـتعاران اسـتخدمهما كيرفيرسـو وكلافـلان، مؤلفـا تاريـخ ثـورة ١٧٨٩ [Histoire de la revolution de 1789]، وهـو مؤلـف يقـع فـي عـدة مجلـدات نشـر فـي باريـس فـي أواخـر القـرن الثامـن عشـر وأوائـل القـرن التاسـع عشـر.

٨٦- مونتغايـار، غويلـوم - أونوريـه، عـرض زمنـي لتاريـخ فرنسـا مـن ١٧٨٧ حتـى ١٨١٨ [Revue chronologique de l´histoire de France 1787- 1818]، باريـس ١٨٢٠.

٨٧- رولان دي لبلاتييـر، جـان - مانـون، نـداء إلـى الأجيـال القادمـة غيـر المنحـازة، بقلـم

المواطنـة رولان... [Appel à l´impartiale Postérité par la Citoyen Roland]، مجموعـة مـن المقـالات حررتهـا إبـان اعتقالهـا فـي سـجني أبيـي وسـانت بيلاجـي - باريـس ١٨٠١ - ١٨٠٣.

٨٨- لوفيه دي كوفري، جان – بابتيست، مذكرات، ١٨٢٢.

٨٩- بوليـو، كلـود - فرنسـوا، أبحـاث تاريخيـة عـن أسـباب ونتائـج الثـورة الفرنسـية [Essais historiques sur les causes et les effets de a revolution de france]، باريـس ١٨٠١ - ١٨٠٣.

٩٠- رينيه ديستوربيه هيبوليت هو المؤلف الذي يستتر وراء الحرفين م. ر.

٩١- مونجـوا، فيليكـس - كريسـتوف - لويـس فانتـر دي لا تولوبـر، تاريـخ مؤامـرة مكسـيميليان روبسـبيير[Histoire de la conjuration de maximilien robespierre]، باريـس ١٧٩٥.

٩٢- إن هذه الكلمات مقطع من نشيد بروتستانتي.

٩٣- يبـدو هنـا للوهلـة الأولـى أن ماركـس وإنجلـز يضعـان بـرودون علـى صعيـد روبسـبيير. والحـال، إن ماركـس، فـي رسـالته إلـى أنينكـوف بتاريـخ كانـون الأول (ديسـمبر) ١٨٤٦، يعنـي فـي السـنة نفسـها التـي حـررت فيهـا الإيديولوجيـة الألمانيـة، وفـي بـؤس الفلسـفة [Misère de la philosophie] بعـد أشـهر قليلـة، يوجـه إلـى بـرودون الانتقـادات الحـادة التـي نعرفهـا.

٩٤- الثيـاب الـزرق - اسـم أطلـق علـى جنـود جيـوش الجمهوريـة الفرنسـية بسـبب لـون بزاتهـم؛ وعلـى العمـوم، فقـد كان هـذا الاسـم يطلـق علـى الجمهوريـين تمييـزاً لهـم مـن الملكيـين الذيـن كانـوا يسـمون البيـض.

اللامتسـرولون [Les Sans - Culottes]، الاسـم الـذي أطلـق علـى الجماهيـر الفرنسـية الثوريـة فـي أواخـر القـرن الثامـن عشـر. ولقـد كان الاسـم يشـير فـي الأصـل إلـى الشـخص الـذي لا يرتـدي سـروالاً طويـلاً، بـل السـروال القصيـر الـذي لا يتجـاوز الركبتيـن، الخـاص بركـوب الخيـل وكان الأرسـتقراطيون والبورجوازيـون الأغنيـاء يرتدونـه. أمـا فقـراء

المـدن، الذيـن كانـوا لا يرتـدون سـراويل طويلـة، فقـد كان الأرسـتقراطيون يسـخرون منهـم ويطلقـون عليهـم اسـم اللامتسـرولين.

٩٥- ج. براوننـغ، الأوضـاع المحليـة والماليـة فـي بريطانيـا العظمـى: مسـبوق بنبـذة عـن سياسـتها الخارجيـة وبمعلومـات إحصائيـة وسياسـية عـن فرنسـا وروسـيا والنمسـا وبروسـيا، لنـدن ١٨٣٤.

[The Domestic Financial condition of Great Britain : preceded by a Brief sketch if her Foreign Policy and of the statico and politics of France, Russia, Austria, London, 1834].

٩٦- المقصود كارل لودفيغ ميشيليه، مؤلـف كتاب عنوانـه، تـاريخ الأنظمة الفلسفية الأخيرة في ألمانيا، من كـانط إلى هيغـل، برلين ١٨٣٧- ١٨٣٨

[Geschichte der letzten systeme der philosophie in Deutschland von Kant bis Hegel, T.1- 2, Berlin, 1837- 1838].

٩٧- كارل تيـودور بابيروهوفـر، فكـرة وتاريـخ الفلسـفة [Die Idee und Geschchte der philosophie]، ماربـورغ ١٨٣٨.

٩٨- البوابة [Le portique]، حيث كان الفيلسوف زينون(zénon) (رواقي) يعلم عقيدته.

٩٩- كوبفرغرابـن [Kupfergraben]، اسـم قنـاة فـي برليـن، وشـارع باسـمها، وكان هيغـل يعيـش فـي هـذا الشارع.

١٠٠- بيتـان مـن أغنيـة بعنـوان "فـي ألمانيـا وحدهـا" [Nur in Deutschland] للشـاعرهوفمان فـون فالرسـليبن، الـذي نشـر هنريـخ غيرسـنبرغ مؤلفاتـه الكاملـة فـي برليـن عـام ١٨٩٠.

١٠١- إن الحصار القاري الذي فرضه نابوليون قد أدى إلى فقدان القهوة بشكل تام.

١٠٢- Tugenbdund جمعيـة سياسـية سـرية نشـأت فـي بروسـيا عـام ١٨٠٨، وكان مـن أهدافهـا تسـعير المشـاعر الوطنيـة عنـد السـكان والنضـال فـي سـبيل تحريـر ألمانيـا مـن الاحتـلال النابوليونـي وإقامـة حكومـة دسـتورية. وقـد أصـدر ملـك بروسـيا، نـزولاً عنـد رغبـة نابوليـون، أوامـره بحـل هـذه الجمعيـة عـام ١٨٠٩، لكنهـا اسـتمرت فـي الوجـود حتـى عـام ١٨١٥.

١٠٣- ثورة تموز (يوليو) عام ١٨٣٠ في فرنسا، وقد حملت إلى العرش الفرنسي لويس فيليب خليفة لشارل العاشر.

١٠٤- إن كتاب لويس بلان، تاريخ عشر سنوات (١٨٣٠- ١٨٤٠)، ترجمه إلى الألمانية لودفيغ بوهل ونشر في برلين في ١٨٤٤ - ١٨٤٥.

١٠٥- الفيزيوقراطيون-اقتصاديون فرنسيون من القرن الثالث عشر، أمثال كنزي، وميرسيه دي لاريفيير، وتورغو، وقد كان ماركس يقدر أعمالهم تقديراً عالياً، ففي رأيه أنهم وضعوا أسس "تحليل الإنتاج الرأسمالي".

١٠٦- حلقة أسسها ممثلو الأوساط الديمقراطية، وكانت نشيطة بصور خاصة منذ أوائل الثورة، وكان فوشيه قلبها النابض. وإن الحلقة الاجتماعية لتحتل مكانها في تاريخ الأفكار الشيوعية نظراً لأن كلود فوشيه تقدم بطلبات توزيع الأرض توزيعاً متكافئاً، والحد من الثروات الكبيرة، والعمل لجميع المواطنين القادرين على العمل.

١٠٧- المقصود هو تاليران، الذي كان أسقف أوتون من ١٧٨٨ حتى ١٧٩١.

١٠٨- كان اقتراح أسقف أوتون ينص على أن مناقشات الجمعية يجب ألا تقتصر بعد الآن على القضايا المدرجة في الكراسات (انظر الهامش ١٠٩).وكان هذا الاقتراح ينص على أن تواصل الكراسات تحديد الخط العام للمناقشات، لكنه يحق للنواب أن يقدروا كل مسألة وفقاً لتقديرهم الخاص. وكان تاليران يناظر بأنه يجب على النائب ألا يرتبط برأي معين منذ البداية، لأنه كثيراً ما لا تتضح آراؤه وتتخذ شكلها الأخير إلا في سياق المناقشات.

١٠٩- كراسات المظالم [Cahiers de doléances]، هي قائمة بالشكاوى والتعليمات التي تنظمها الطبقات الثلاث، وهي الوكالات التي كان الناخبون يقدمونها إلى نوابهم في المجلس.

١١٠- [Lot bailliages et 431 divisions des ordres] هي النواحي الانتخابية في فرنسا ما قبل الثورة.

١١١- لعبة التنس: في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٧٨٩ التقى نواب الطبقة الثالثة، الذين نادوا بأنفسهم قبل ثلاثة أيام جمعية وطنية، في ملعب التنس في فرساي (ذلك أن قاعة

تسـليات الملـك الصغـرى، وهـي مقـر اجتماعهـم الرسـمي، قـد أغلقـت بأمـر مـن الملـك)، وأقسـموا ألا يتفرقـوا حتـى تحصـل فرنسـا علـى دسـتور.

سـرير العدالـة :المقصـود اجتمـاع مجلـس الدولـة فـي ٢٣ حزيـران (يونيـو) ١٧٨٩. وقـد أعلـن الملـك فـي هـذا الاجتمـاع أن القـرارات التـي اتخذتهـا الطبقـة الثالثـة فـي ١٧ حزيـران (يونيـو) ملغـاة وطلـب حـل الجمعيـة فـوراً، لكـن نـواب الطبقـة الثالثـة رفضـوا، بالرغـم مـن أوامـر الملـك، أن يغـادروا القاعـة وتابعـوا مناقشـاتهم.

١١٢- يشربون في برلين جعة خاصة، [Weissbier]، أو الجعة البيضاء.

١١٣- عبـارة مأخـوذة مـن مقالـة مغفلـة مـن التوقيـع بعنـوان: بروسـيا منـذ تعييـن أرنـدت حتـى إقالـة بومـر، وقـد نشـرت فـي : إحـدى وعشـرين ورقـة مـن سويسـرا، وهـي مجموعـة مـن المقـالات نشـرها الشـاعر الألمانـي جـورج هيرويـغ فـي زوريـخ وونترتـور فـي عـام ١٨٤٣.

١١٤- جون ويد، تاريخ الطبقات المتوسطة والعاملة [History of the Middle and working classes].

١١٥- العاميـة [la jacquerie] - انتفاضـة فلاحيـة وقعـت عـام ١٣٥٨ فـي الأقاليـم الواقعـة إلـى الشـمال الغربـي مـن باريـس ضـد مسـاوئ النبـلاء والعصابـات المسـلحة، أثنـاء أسـر الملـك جـان الصالـح فـي إنكلتـرا، وقـد سـحقها النبـلاء بـكل قسـوة.

١١٦- كان وات تايلر زعيماً لانتفاضة فلاحية وقعت عام ١٣٨١.

١١٧- [Evil May Day]، هـو الاسـم الـذي أطلـق علـى انتفاضـة قـام بهـا سـكان مدينـة لنـدن فـي الأول مـن أيـار (مايـو) عـام ١٥١٨، وكانـت ثـورة قامـت بهـا الطبقـات الدنيـا مـن سـكان المدينـة ضـد التجـار الأجانـب الذيـن كانـت قوتهـم تتعاظـم بصـورة رهيبـة.

١١٨- قـاد روبـرت كيـت عـام ١٥٤٩ أكبـر انتفاضـة فلاحيـة حدثـت فـي شـرقي إنكلتـرا، بحيـث لـم يكـن بـد مـن جلـب جيـش مـزود بالمدفعيـة ضـد الثائريـن الذيـن قتـل ثلاثـة آلاف منهـم فـي المعركـة، ونفـذ حكـم الإعـدام بعـدد أكبـر. وقـد شـنق روبـرت كيـت فـي إحـدى سـاحات نورفيتـش.

١١٩- تفاقمت الأزمة الاقتصادية في إنكلترا عام ١٨٤٢، وانتشرت الحركة الميثاقية انتشاراً عظيماً.

١٢٠- إن انتفاضة ويلش التي اندلعت بصورة باكرة جداً عام ١٨٣٩ قد انتهت نهاية دامية.

١٢١- المقصود نقض شرط البروليتاري، يعني نقض العمل المأجور. ويستخدم المؤلفان هنا العبارة الهيغلية [Aufheben]، التي تعني الإلغاء مع التجاوز.

١٢٢- المفكرون لأحرار [Freijester]، وقد أضفى المؤلفان على الاسم مسحة من السخرية باستخدامهما تعبيراً من اللهجة العامية البرلينية، والمقصود هم "الأحرار"، وهو اسم استخدمته جماعة من رجال الأدب الهيغليين الشباب، وكانت تعمل في برلين في أوائل الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وتتشكل نواتها من برونو وإدغار باور، وإدوارد ماين، ولودفيغ بوهل، وماكس شترنر، وآخرين. وقد انتقد ماركس الأحرار في رسائله منذ عام ١٨٤٢، ورفض أن ينشر مقالاتهم التافهة والمدعية في المجلة الرينانية عندما كان يصدرها.

١٢٣- صحيفة كانت تصدر في باريس وتحمل هذا العنوان الصغير، صحيفة التنظيم الاجتماعي [Journal de l´organisation sociale].

١٢٤- كانت الحركة الميثاقية الانكليزية في أوجها إذن، وسرعان ما سوف تبدأ بالتفسخ.

١٢٥- أنظر بصورة خاصة مقالات ماركس بصدد "المسألة اليهودية"و"إسهام في نقد فلسفة الحق عند هيغل"، ومقالة إنجلز "موجز نقد الاقتصاد السياسي" [Esquisse d'une critique de l'économie politique] في الحوليات الفرنسية الألمانية، منشورات ديتز، المجلد الأول.

١٢٦- في عام ١٨٤٣، ظهر في زوريخ مؤلف مغفل من التوقيع حمل عنوان، الشيوعيون في سويسرا، حسب الوثائق التي عثر عليها عند ويتلينغ. نسخة طبق الأصل عن التقرير المرفوع إلى الحكومة العليا لمقاطعة زوريخ

[Die Kommunisten in der Schweiz nach den bei Weitling vorgefundenen Paperien. Wörticher Abdruck des Kommissionalberichtes an die H. Rgierung des standes ZŰrich, 1843].

كان مؤلف هذا الكتاب حقوقياً رجعياً هو الدكتور جوهان غاسبار بلونتشلي، ومن هنا كان عنوان تقرير بلونتشلي الذي يطلقه عليه ماركس وإنجلز في سياق الكتاب.

١٢٧- كان ج. لورنز فون شتاين أستاذاً للفلسفة والحقوق في جامعة كييل وعميلاً سرياً للحكومة البروسية، وقد نشر عام ١٨٤٢ في لا يبزيغ مؤلفين بعنوان: الاشتراكية والشيوعية في فرنسا الحالية. وإسهام في التاريخ المعاصر.

١٢٨- جون واتس، حقائق وأوهام الاقتصاديين السياسيين، الخ [The Facts and Fictions of political economists]. مانشستر ١٨٤٢. أما جوشواه هوبسون فقد كان رئيس تحرير الصحيفة الإنكليزية (نجمة الشمال Northern star)، التي كثيراً ما يستشهد إنجلز بها في كتابه أوضاع الطبقات الكادحة في إنكلترا [La situation de la classe laboreuse Angleterre] .

١٢٩- أنظر الترجمة العربية لكتاب العائلة المقدسة.

١٣٠- جماعة نشر الإيمان [Congrégation de propeganda fide]، منظمة أسسها البابا من أجل نشر الكاثوليكية ومحاربة جميع أنواع الهرطقة.

١٣١- النقد في هيئة مجلد حاذق [Kritik in Buchbindermeistergestalt]، لقب ساخر أطلقه ماركس وإنجلز في العائلة المقدسة على كارل رينهاردت الذي أصدر في الدفترين الأولين من المجلة الأدبية الجديدة مقالة بعنوان: "كتابات عن الإملاق" [Écrits sur le pauperisme] انتقد فيها، فيما انتقده مقالة بقلم أ. ت. فونيكلر بعنوان: "أسباب نمو الإملاق" [Les raisons de l´accroissement paupérisme] مقتطفة من كتابه عروض صحفية. [exposés journalistiques] وإن هذا الكتاب هو المقصود هنا.

١٣٢- عنوان الكتاب الأصلي: أوضاع الفقراء، أو تاريخ الطبقات الكادحة في إنكلترا [The state of the poor: or, an history of the labouring classes in England].

١٣٣- صدر مؤلف غيزو عام ١٨٤٠؛ أما مؤلف مونتي فيقع في عشرة مجلدات صدرت من ١٨٢٧ حتى ١٨٤٢، وهي تدرس أوضاع الفرنسيين خلال "القرون الخمسة الأخيرة".

١٣٤- هنود حمر كانوا يقيمون فيما مضى بين بحيرة ميشيغان وبحيرة هورن، على الحدود الفاصلة بين الولايات المتحدة وكندا.

١٣٥- نقول اليوم: إن المنظرين الاشتراكيين من أصل بورجوازي، الذين لا يؤيدون إسقاط النظام الاجتماعي بواسطة العنف.

١٣٦- شكسبير، تيمون الأثيني [Timon of Athens]، الفصل الرابع، المشهد الثالث.

١٣٧- إن اسحق بيرير هو أخ يعقوب بيرير، هو مؤلف هذا الكتاب [Leçons sur l´industrie et les finances]. وكلا الأخوين مصرفيان.

١٣٨- جزيرة وهمية سمي سانتشو بانزا حاكماً لها في دون كيخوت لسرفانتس.

١٣٩- في الميثولوجيا الإغريقية التوأمان كاستور وبولوكس [Castor et Pollux]، وهما يعتبران، في صورة كوكبة التوأمين، نصيري البحارة.

١٤٠- الإفلاس الفوضوي [Banqueroute cochonne]: النوع الثاني والثلاثون من أصل الأنواع الستة والثلاثين للإفلاس عند فورييه. وإن فورييه ليصف هذا النوع من الإفلاس، في مؤلفه غير الكامل عن الوحدات الخارجية الثلاث، كما يلي: "إن الإفلاس الفوضوي هو إفلاس الرجل البسيط الذي، بدلاً من أن يتصرف وفقاً للقواعد العامة، يجلب الدمار على زوجته، وأبنائه، وعلى نفسه، وفي الوقت نفسه يعرض نفسه للخطر المزدوج: القبض عليه من قبل السلطات، وازدراء أصدقائه التجار الذين لا يوافقون على إفلاس ذلك الرجل الذي لا يعرف كيف يخلص نفسه ويتصرف وفقاً للمبادئ العامة".

١٤١- سلسلة جبال في إسبانيا تفصل قشطالة الجديدة (La Nouvelle Castille de l´Andalosie) عن الأندلس.

١٤٢- لنتذكر بأن ماركس يستخدم عبارة Verkehr، التي نترجمها بعبارة "تعامل"، كما يستخدمها في رسالته إلى أنينكوف بتاريخ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٦، بمعنى العلاقات الاجتماعية. ويقول ماركس في هذه الرسالة: "أخذ كلمة "التعامل" بمعناها الأوسع، كما نقول بالألمانية: Verkehr. مثال ذلك أن الامتياز، ومؤسسة الأصناف الحرفية والجيروندات، والنظام التنظيمي في الحقبة الوسيطة قد كانت علاقات اجتماعية.. الخ" "رسائل عن رأس المال" [Lettres sur le Capital].

١٤٣- يقول النص: (Middleman)، ومعناها عامة وسيط، أو سمسار، أو بائع بالمفرق. ولقد كان يوجد في إيرلندا مزارعون وسطاء، أو على حد تعبير إنجلز مزارعون بصفة رؤساء (des Fermiers en chefs)، وكانوا يستأجرون الأرض من بعض المالكين

العقاريين كي يعودوا فيؤجرونها، في شكل قطع صغيرة، بمعدل ربح أعلى. ولقد كان يوجد في إيرلندا، فيما عدا المالك العقاري والفلاحين الذين يستثمرون الأرض، عشرة وسطاء من هذا النمط أو أكثر.

١٤٤- حسب مناقبية بنتام، فإن أعمال الإنسان الأخلاقية هي تلك الأعمال التي تكون حصيلة الأفراح فيها أعظم من حصيلة الأتراح، وإن عملية تنظيم لوائح طويلة عن الأفراح والأتراح ومقارنتها ببعضها البعض لتقرير مناقبية كل عمل هي ما يسميه ماركس وإنجلز "محاسبة بنتام" (comptabilité de Bentham) .

١٤٥- موابيت وكوبينيك (Moabit et Köpenick)، ضاحيتان قديمتان لبرلين احتوتهما المدينة فيما بعد. وبوابة هامبورغ هي بوابة المدينة عند حدودها الشمالية، وقد تهدمت فيما بعد.

١٤٦- البائع المتجول نانت: شخصية من مأساة الكاتب الألماني ك. فون هوليتي، مأساة برلين [Ein trauerspiel in Berlin]. وقد صنع منها الممثل الهزلي الألماني ف. بكمان تمثيلية تهريجية شعبية بعنوان استجواب البائع المتجول نانت. وقد بات اسم نانت رمزاً للمهرج المرح الذي يتفلسف ويثرثر ويتفوه بمناسبة وغير مناسبة بالفكاهات الرائجة باللهجة الشعبية البرلينية.

١٤٧- بلوكسبرغ قمة السلسلة الجبلية هارز في ألمانيا الوسطى. وتجعل منها الأساطير الشعبية نقطة تجمع الساحرات اللائي يأتين للاحتفال بعيدهن في ليلة البورجيس (راجع غوته: فاوست).وإن قمماً عديدة أخرى في ميكلمبورغ وألمانيا الوسطى تحمل اسم بلوكسبرغ التي ترتبط بها تصورات وهمية من "الأرواح الشريرة".

١٤٨- إشارة إلى فصل من دون كيخوت .

١٤٩- بروكرست قاطع طريق من الأساطير اليونانية، وقد كان يجبر جميع الذين يقعون في قبضة يده على الاستلقاء في فراش خاص، فإذا كانوا قصاراً أطالهم بضربات المطرقة، وإذا كانوا طوالاً قصرهم عنوة. وفراش بروكرست يشير إلى وضع إلزامي يقحم فيه شيء ما عنوة.

١٥٠- اسم لاتيني يستخدم في نظرية المنطق للدلالة على أي كائن إنساني. مثلاً: البشر جميعاً فانون. وكايوس إنسان؛ فكايوس فانٍ إذن.

١٥١- هذه الكلمات مأخوذة من مقالة لشيليغا نشرت في المجلة الأدبية الجديدة، الكراسة السابعة: أوجين سو، أسرار باريس [les mystères de paris].

١٥٢- ابن الصحراء [Der sohn der wildniss]، مأساة من تأليف فريدريك هالم، وقد مثلت للمرة الأولى عام ١٨٤٢، ونشرت عام ١٨٤٣.

١٥٣- ظهر هذا المؤلف عام ١٨٣٦ في باريس، وفي عام ١٨٤٥، أصدر السيد شوفالييه في بروكسيل: بحث في الاقتصاد السياسي ألقي في كوليج دي فرانس [un cours d´écomomie politique].

١٥٤- سبانسو بوتشو (Spanso bocho) -عقاب جسدي رهيب كان المستعمرون يطبقونه في سورينام (أميركا الجنوبية). ويصف شارك كونت، في كتابه مبحث التشريع، هذا العقاب كما يلي: تقيد يدا المحكوم ويجبر على وضع ركبتيه بين ذراعيه، ثم يضجع على جانبه ويحتفظ به مقيداً بصورة وثيقة على هذا الغرار، مثل فروج معد للشي، بواسطة وتد مغروز في الأرض، وهو لا يستطيع في هذه الوضعية أن يتحرك أكثر مما لو كان ميتاً. ثم يأتي زنجي مسلح بقبضة من أغصان الصبار العقدة ويجلده حتى ينتزع الجلد عن جسده. عندئذ يقلبه على الجانب الآخر، ويستأنف جلده، والدم يروي الأرض من تحته. وفي نهاية العقوبة، يغسل جسد الرجل البائس بعصير البرتقال الممزوج بمسحوق البارود، تفادياً لموت الجسد. وعندما تنتهي هذه العملية، يرسل إلى كوخه كي يسترد عافيته، إن كان هذا الأمر ممكناً بعد بالنسبة إليه".

١٥٥- في عام ١٧٩١ اندلعت في جزيرة هاييتي ثورة العبيد السود التي استمرت حتى عام ١٧٩٣. وكان العصاة، يتزعمهم توسان لوفرتور، يقاتلون أصحاب المزارع والمستعمرين طلباً للحرية والأرض والاستقلال، ولقد انتزعوا بنضالهم نقض العبودية.

١٥٦- كان المحكوم عليهم غالباً ما يلزمون بإدارة الطواحين بأقدامهم.

١٥٧- المدرسة التاريخية (L'école (de droit) historique) اتجاه في العلوم

التاريخيـة والحقوقيـة ظهـر فـي ألمانيـا فـي أواخـر القـرن الثامـن عشـر. الرومانسـيون (Romanticists)، اتجـاه إيديولوجـي قريـب مـن المدرسـة التاريخيـة فـي النصـف الأول مـن القـرن التاسـع عشـر، وقـد حـلل ماركـس بالتفصيـل هذيـن الاتجاهيـن فـي البيـان الفلسـفي لمدرسـة الحقـوق التاريخيـة وفـي إسهـام فـي نقـد فلسـفة الحـق عنـد هيغـل

[The philosophical manifesto of the historical school of law& Contribution to the critique of Hegels philosophy of law- introduction.]

١٥٨- بيـت شـعري مـن قصيـدة لشاميشـو، قصـة مأسـوية [Histoire tragique]. ويمكـن أن تعنـي هـذه العبـارة أيضـاً، أنـه يكـرر أبـداً القصـة المملـة ذاتهـا.

١٥٩- الجـداول العشـرة وهـي النسـخة الأصليـة لقانـون الجـداول الاثنـي عشـر [La loi des douze tables] وهـو أقـدم منصـب تشـريعي فـي الدولـة الرومانيـة وقـد اتخـذ هـذا القانـون فـي ختـام الصـراع بيـن العاميين والأشـراف، وفـي ظـل الجمهوريـة، فـي أواسـط القـرن الخامـس قبـل الميـلاد، وقـد كان نقطـة الانطـلاق بالنسـبة إلـى تطـور الحـق المدنـي الرومانـي.

١٦٠- سـتيهلي: صاحـب مقهـى فـي برليـن اعتـاد البورجوازيـون مـن أصحـاب الآراء الراديكاليـة، والكتّـاب بصـورة خاصـة، أن يلتقـوا عنـده فـي الأربعينيـات مـن القـرن التاسـع عشـر.

١٦١- مـن المعـروف أن أنصـار التبـادل الحـر، وصناعييـن مـن أمثـال كوبـدن بصـورة خاصـة، قـد طالبـوا بنقـض الرسـوم المفروضـة علـى الحبـوب التـي كان ينتفـع منهـا المالكـون العقاريـون. وقـد تحققـت مطالبهـم عـام ١٨٤٦.

١٦٢- حديقة في برلين.

١٦٣- إن الكلمات المستشهد بها هي من رسالة القديس يعقوب، العهد الجديد.

١٦٤- هـذا التعبيـر مأخـوذ عـن غوتـه، فاوسـت [Le cabinet du travail]، القسـم الأول، المشـهد الثانـي، حيـث ورد مـا يلـي: "إن القانـون والحـق يورثـان، مثـل داء أزلـي".

١٦٥- فاوست، المشهد الأول، على لسان ميستفيلوس: "هذا الشيء الأخرق الذي هو العالم".

١٦٦- بيتان من قصيدة هايني، أنشودة الجبل [Idylle de montagne].

١٦٧- يقصد المؤلفان كتاب باور، الاتجاهات الليبرالية في ألمانيا [Die liberalen Bestrebungen in Deutschland].

١٦٨- يقصد المؤلفان كتاب سكولوزر، تاريخ القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر حتى سقوط الأمبراطورية الفرنسية [Geschichte des achtzehnten Jahrhunderts und des neunzehunten bis zum sturz des französischen Kaiserreichs]. .

١٦٩- يقصد المؤلفان كتاب موزيس هيس، الحكم الثلاثي الأوروبي [Die europaïsche triarchie].

١٧٠- يقصد المؤلفان الخطاب الذي ألقاه غيزو في جلسة مجلس أعيان باريس بتاريخ ٢٥ نيسان (أبريل) ١٨٤٤.

١٧١- يقصد المؤلفان كتاب كارل نويرك، في الإسهام في الدولة [Ueber die Theilnahme am staate]

١٧٢- مأساة من تأليف ليسينغ.

١٧٣- شريعة القصاص [Jus talianis]، شريعة العين بالعين والسن بالسن.

١٧٤- الجرمان القدماء [Gewere]، السيادة الشرعية للرجل الحر على أرضه، فهو سيدها بلا منازع، ويضع تحت حمايته كل الأشياء والكائنات الموجودة عليها.

١٧٥- [Conpemsatio]، التكفير عن جنحة أو إثم ارتكبه المرء.

١٧٦- [Satisfctio]،التعويض على الدائن بأداء مختلف عن الدين المعقود.

١٧٧- [Leges barrorum]،قوانين البرابرة (Lois des barbares) : وقد حررت بين القرنين الخامس والتاسع، ولم تكن في جوهرها سوى لائحة بالحق المألوف عند القبائل الجرمانية المختلفة (الغرنكيين والغريزونيين وغيرهم).

١٧٨- [consuetudines feudorum]، العادات الإقطاعية: خلاصة للحق الإقطاعي الوسيطي، وقد حررت في مقاطعة بولونيا في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر.

١٧٩- هرمانداد المقدسة [La sainte Hermandad] اتحاد للمدن الإسبانية أسس حوالى أواخر القرن الخامس عشر بتأييد من السلطات الملكية التي كانت تستهدف استغلال

البورجوازيـة لمصلحتهـا فـي النضـال الـذي كانـت تخوضـه ضـد الإقطاعييـن الكبـار، وقـد مارسـت القـوات المسـلحة لهرمانـداد المقدسـة، ابتـداء مـن القـرن السـادس عشـر، وظائـف الشـرطة. وقـد أطلـق هـذا الاسـم فـي وقـت لاحـق علـى الشـرطة، بمعنـى ينطـوي علـى السـخرية والاحتقـار.

١٨٠- سـباندو (Spandu): فـي ذلـك الحيـن قلعـة تقـع إلـى الغـرب مـن برليـن، وكانـت سـجناً للمعتقليـن السياسـيين الذيـن اسـتخدموا فـي أعمـال التحصينات.

١٨١- قناة لاندويهر في برلين.

١٨٢- شخصية من دون كيخوت.

١٨٣- إن مؤلــف "نــداء إلــى فرنســا ضــد انقســام الآراء" (L'"appel à la france contre" la division des opinions) هــو البــارون دي لوردوريكــس، ورئيــس تحريــر [مجلــة فرنســا] Gazette de France.

١٨٤- ساران الكبير هو داعية للملكية، أما بونالد وميستر فمفكران وملكيان.

١٨٥- قوانيـن أيلـول [Les lois de Septembre] قوانيـن أصدرتهـا الحكومـة الفرنسـية فـي أيلول(سـبتمبر) مـن عـام ١٨٣٥. ولقـد تذرعـت الحكومـة بمحاولـة اغتيـال لويـس فيليـب التـي جـرت فـي ٢٨ تمـوز (يوليـو)، فحـدت مـن اختصاصـات لجـان المحلفيـن وفرضـت قيـوداً قاسـية علـى الصحافـة، ونصـت علـى زيـادة الكفـالات بالنسـبة إلـى المجـلات الدوريـة، والاعتقـال والغرامـات الباهظـة علـى نشـر أي مقـال ضـد الملكيـة وضـد النظـام السياسـي القائـم.

١٨٦- الوثيقـة الكبـرى [Magna Charta]، وثيقـة فرضهـا الإقطاعيـون الإنكليـز الكبـار علـى الملـك جـان الـذي لا أرض لـه، يدعمهـم فـي ذلـك الفرسـان والمـدن. إن الوثيقـة التـي جـرى توقيعهـا فـي ١٥ حزيـران (يونيـو) عـام ١٢١٥ فـي حقـل رينمـاد (Runnymede) علـى ضفـاف التايمـز قـد حـدت مـن امتيـازات الملـك فـي مصلحـة الإقطاعييـن الكبار(البارونـات) بصـورة رئيسـية، كمـا تضمنـت بعـض التنـازلات فـي مصلحـة الفرسـان والمـدن. أمـا كتلـة السـكان، والرقيـق، فلـم تعـد عليهـم الوثيقـة بأيـة منفعـة.

١٨٧- حاباكوك (Habacuc)، أحد أنبياء التوراة، إن كتاب حاباكوك يحتوي على خليط من التصورات الأشد تنوعاً ويعبِّر عن عجز مؤلفه عن إدراك الحقيقة القائمة.

١٨٨- إشارة إلى الحقيقة التالية، ألا وهي أن شترنر حاول في صيف عام ١٨٤٥ أن يكسب قوته بافتتاحه محلاً للتجارة بالحليب بعد أن أفلس نشاطه على الصعيد الأدبي. وقد استطاع أن يحصل على الحليب، لكن أحداً لم يشتريه منه، ولم يكن له بد من طرح هذا الحليب الذي فسد.

١٨٩- أنظر ناسو وليم سنيور، ثلاث محاضرات عن معدل الأجور [Trois cours sur le taux des] salaires.

١٩٠- الحلف المقدس [La sainte Alliance] - حلف عقدته الدول المناهضة للثورة ضد جميع الحركات التقدمية في أوروبا. وقد تأسس الحلف في ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٨١٥ في باريس (بمبادرة من القيصر الكسندر الأول) من روسيا والنمسا وبروسيا، ثم انضمت إليه معظم الدول الأوروبية، باستثناء إنكلترا التي ظلت خارجه بصورة مبدئية. وإن الوثيقة الأساسية للحلف، وهي "مبادئ الحلف المقدس"، قد صيغت بلهجة دينية وصوفية. وقد تعهدت الدول الأعضاء في الحلف المقدس على تبادل التأييد في قمع جميع الحركات الشعبية الثورية حيثما اندلعت. وقد تفكك الحلف المقدس في مطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر.

١٩١- في الأصل (Les Pandectes)، وهي عبارة إغريقية (باللاتينية Digesta، خلاصة) تشير إلى القسم الأهم من الحق الروماني، وهي خلاصة مقتطفات المشرّعين الرومان التي تعكس مصالح أصحاب العبيد. وقد نشرت أثناء حكم الامبراطور جوستينيان.

١٩٢- إحدى شخصيات دون كيخوت.

١٩٣- الشركة البروسية التجارية لما وراء البحار، تأسست عام ١٧٧٢ وزودت بمجموعة من الامتيازات الهامة من قبل الدولة. وقد وضعت قروضاً كبيرة تحت تصرف الحكومة ولعبت عملياً دور المصرفي والوسيط حيالها. وإن مرسوم ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) لعام ١٨١٠ حوّل أسهم والتزامات الشركة إلى سندات للدين العام، وبذلك وضع حداً

لنظـام الشـركة القديـم. وإن الشـركة البروسـية التجاريـة لمـا وراء البحـار قـد تحوّلـت فيمـا بعـد إلــى مصـرف الدولـة البروسـية.

١٩٤- "Levons-nous"، بالفرنسـية فــي النــص الأصلــي. ذلــك كان شــعار المجلــة الأســبوعية الثوريــة، ثــورات باريــس [Les revolutions de Paris] التــي صــدرت فــي باريــس مــن تمــوز (يوليــو) ١٧٨٩ حتــى شــباط (فبرايــر) ١٧٩٤. وكان النــص الكامــل يقــول: "إن الكبــار لا يبــدون لنــا كبــاراً إلا لأننــا نجثــو علــى ركبنــا. فلننهــض!".

١٩٥- الكتائـب Phalanstères: اسـم كان شـارل فورييـه يطلقـه علـى "المسـتعمرات الاشـتراكية" (colonies socialistes) التــي كان يطمــح إلــى تأسيســها.

١٩٦- الرســل العرجــان [The lame Messenger] منشــورات أشــبه بتقويــم ظهــرت حوالــى عــام ١٥٩٠ وكانــت تشــكل تكملــة للصحــف الجديــدة التــي كانــت تنشــر أنبــاء ســريعة جــداً وزائفــة فــي أغلــب الأحيــان. أمــا الرســل العرجــان، فكانــت علــى العكــس مــن ذلــك تلخــص أحــداث الســنة الســابقة وتؤكــد علــى صحتهــا بالأحــرى مــن مغزاهــا. وكثيــراً مــا كان هــذا البــطء فــي التعليــق علــى الأحــداث يثيــر الســخرية. مثــلاً نشــرت صــوراً كاريكاتوريــة محفــورة علــى الخشــب تمثــل كســيحاً مســتلقياً بصــورة مقلوبــة علــى حصــان عجــوز يــكاد لا يقــف علــى قوائمــه، بينمــا ســاعي البريــد يتجــاوزه خببــاً علــى جــواد جمــوح.

١٩٧- التالر [Taler]، عملة ألمانية قديمة تساوي ثلاثة ماركات ذهبية.

١٩٨- كانت الاضرابات تسمى "تحالفات" [coalistions] في فرنسا في القرن التاسع عشر.

١٩٩- انقطــاع عــن العمــل (Turnout) [cessation de travail] بالإنكليزيــة، فــي ذلــك الحيــن لــم يكــن لكلمــة اضــراب Streik وجــود فــي القامــوس الألمانــي بعــد.

٢٠٠- كلافيلينـو، حصـان خشـبي أركـب الماجنـون دون كيخـوت عليـه وقـد عصبـوا عينيـه موحيـن إليـه أنـه يطيـر عبـر النظـام الشمسـي.

٢٠١- الفندالیــون، شــعب جرمانــي اجتــاح بــلاد المغــول وإســبانيا وأفريقيــا الشــمالية فــي القرنيــن الخامــس والســادس، وكان ســلوكه بالــغ الهمجيــة. وللكلمــة فــي وقتنــا الحاضــر معنــى الابتــزاز والتخريــب. وماركــس يســتأنف هنــا تلميحاتــه الســابقة إلــى "الجرمــان فــي القــرن الســادس".

٢٠٢- إن مقطوعة [Les Requiem]، التي بدأها موزارت، قد أتمها فرانز خافرسوسماير (süssmaye).

٢٠٣- المقصود هم الاشتراكيون الطوباويون، وعلى الأخص فورييه وتلامذته، أنصار خطة من أجل تحويل المجتمع بواسطة الإصلاحات، بما يسمونه "تنظيم العمل"، بصورة تتعارض مع فوضى الإنتاج في النظام الرأسمالي.

٢٠٤- الجوهر،يقصد من هذه الكلمة في الفلسفة الكلاسيكية ما يملك، في كائن ما، وجوداً دائماً، مستقلاً عن مظهره في هذه اللحظة أو تلك. مثال ذلك أن البنية الكيميائية لجسم ما يمكن اعتبارها "جوهراً" مستقلاً عن حالته السائلة أو الصلبة أو الغازية. وإن نقيض ذلك هو "العرض"، المظهر الطارئ والمتحول الذي يتظاهر الجوهر به. ويسخر ماركس من الفلاسفة الذين جعلوا من هذا التمييز، المفيد في بعض الأحوال، حقيقة في ذاتها. (إنهم يدرسون الإنسان المجرد لا البشر كما هم في واقع الأمر، كمنتجات تاريخهم وبيئتهم). وهذا هو السبب في أن ماركس يصفهم بأنهم شخصيات من دون كيخوت. لقد كان دون كيخوت، هو الآخر، يأخذ العالم الوهمي لروايات الفروسية على أنه الواقع القائم.

٢٠٥- "كل بحث عن الأبوة ممنوع" [Toute recherche de la paternité est interdite]، البند ٣٤٠ من مدونة نابوليون (code napoléon) .

٢٠٦- ويلنهول، مدينة صغيرة في كونتية ستافورد شاير في إنكلترا، حيث مركز صناعة الحديد.

٢٠٧- إشارة إلى أن شترنر أهدى كتابه إلى زوجته، ماري دانهاردت. وإن "روح عنوان كتابه" صيغة خطها شترنر نفسه. وفي مؤلفه الأوحد وخاصته يطبق شترنر هذه الصيغة على بيتنا فون أرنيم تنويهاً بمؤلفها الذي حمل عنوان: هذا الكتاب يخص الملك [Ce livre appartient au Roi].

٢٠٨- تحقيق عن العدالة السياسية وأثرها في الأخلاق والسعادة [Enquiry Concerning Political Justice' and its Influence on Morals and Happiness]، لندن ١٧٩٦، الطبعة الثانية، المجلد ١ -٢.

٢٠٩- المقصود إحدى الموضوعات الأهم لإعلان حقوق الإنسان والمواطن لعام ١٧٩٣، هذا الإعلان الذي حرره روبسبيير ووافق المجلس عليه إبان المرحلة التي مارس فيها اليعاقبة السلطة. إن بنداً من الإعلان ينص على ما يلي: "إذا انتهكت الحكومة حقوق الشعب، فإن العصيان هو الحق المقدس والواجب الأسمى للشعب بأسره ولكل فرد من أفراده".

٢١٠- أنظر: ريكاردو، [مبادئ الاقتصاد السياسي والضرائب]، On the Principles of Political Economy and Taxation، ص ١٨١٧.

٢١١- كانت البرلمانات في فرنسا ما قبل الثورة في أصل المحاكم.

٢١٢- أنظر: هايني، "إكليل من القصائد الغنائية القصيرة إلى أ. و. شليغل"، في كتاب الأغاني [Sonettenkranzan A.W.von Schlegel , In: Junge Leiden] .

٢١٣- تلاعب لغوي بكلمتي (رابطة) Verein و (اتحاد جمركي) Zollverein. ولقد أنشئ هذا الاتحاد الجمركي للدول الألمانية عام ١٨٣٤. بإشراف بروسيا، من أجل نقض التعريفات الجمركية الداخلية وتقرير تعريفات جمركية موحدة، وقد شمل جميع الدول الألمانية بصورة تدريجية، باستثناء النمسا وبعض الدول الألمانية الصغرى. ولقد كان الهدف من هذا الاتحاد الجمركي خلق سوق داخلية موحدة، كما أسهم في وقت لاحق في تحقيق التوحيد السياسي لألمانيا.

٢١٤- غوته: فاوست (Faust)، الجزء الأول، نزهة باسكال [Promenade Pascale] .

٢١٥- هومانوس (Humanus) : شخصية من قصيدة غوته الناقصة، الأسرار [secrets] .

٢١٦- فورييه، "نظرية الوحدة العامة" [Théorie de l´unité universelle]، وهي دراسة نشرت في المجلدات ٢ - ٥ من المؤلفات الكاملة لشارل فورييه، باريس ١٨٤١- ١٨٤٥، وتشكل صياغة جديدة لدراسة سابقة بعنوان: مبحث الرابطة المنزلية- الزراعية [Traité de l´association domestique - agricole]، باريس، لندن، ١٨٢٢.

٢١٧- المدرسة القورينية [L´école cyrénaique] أسسها الفيلسوف الإغريقي أريستيوس (حوالى ٤٠٠ ق.م) في مدينة قورينيا من أعمال ليبيا، وكان ينادي بأن اللذة الحسية والروحية هي الخير الأسمى. وإن كان من الواجب إخضاع هذه اللذة للحرية الباطنة.

٢١٨- إشارة إلى الشاعر الألماني الكبير غوته الذي قضى قسماً كبيراً من حياته في بلاط الدوق دي ساكس - ويمار.

٢١٩- الآراميون [les Araméens] شعب سامي قطن شمالي سورية في القرن الثاني قبل المسيح، وكانت لهجته منتشرة في فلسطين في مطلع حقبتنا، وقد حلت اللغة العربية محل الآرامية انطلاقاً من القرن السابع. ومن المعروف أن المسيح كان يتكلم الآرامية.

٢٢٠- كوبفرغرابن، هوأحد فروع نهر سبري في برلين.

٢٢١- غوته، فاوست، القسم الأول، المشهد الثالث.

٢٢٢- إن المنشورات التالية التي تنتقد كتاب شترنر يستشهد بها هنا:١- مقالة لشيليغا بعنوان، الأوحد وخاصته في مجلة أوراق شمالي ألمانيا، ٢- مقالة فويرباخ، في جوهر المسيحية بالنسبة إلى الأوحد وخاصته في مجلة ويغان الفصلية، ٣- كراسة لهيس، الفلاسفة الأخيرون. وقد رد شترنر على هذا النقد ودافع عن كتابه في المجلد الثالث من مجلة ويغان الفصلية بمقالة شترنر وقضاته، وهي المقالة التي يسميها ماركس وإنجلز بسخرية "التعليق التبريري" في الإيديولوجية الألمانية.

٢٢٣- فيما مضى كانت اللغة الألمانية تستخدم صيغة المجهول بالمفرد عند مخاطبة خادم أو موظف أدنى رتبة.

٢٢٤- كالديرون، جسر مانتيبل [Le pont de Mantible] الفصل الأول.

٢٢٥- المخطوطة بيد إنجلز.

٢٢٦- إن هاتين العبارتين متعادلتان على وجه التقريب في هذا المؤلف، وتشملان كل الحركة الاشتراكية، والميثاقية، الخ.

٢٢٧- لورنز فون شتاين: أستاذ فلسفة وعميل سري. تيودور أولكرز، الحركة الاشتراكية والشيوعية.

٢٢٨- تشكل حزب التوري بعد عودة آل ستيورات إلى عرش إنكلترا عام ١٦٦٠، وهم يمثلون النبالة الإقطاعية وحدها، ويناصرون في الميدان السياسي الملكية المطلقة، وبالتالي فليس لهم فضل في انتصار الدستور البريطاني الذي كان يتفق بالأحرى مع

مصالح البورجوازية الصاعدة التي تحقق انتصارها إبان الثورة بالمساهمة الفعالة والحاسمة للجماهير الشعبية.

٢٢٩- كانت الحركة الأدبية لألمانيا الفتاة [Junges deutschland] تجمع عدداً من الكتاب والنقاد من أصحاب الاتجاه الليبرالي في ألمانيا حوالى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وقد خضع هؤلاء الكتاب والنقاد لنفوذ هايني وبورن لفترة من الزمن. إن كتّاب ألمانيا الفتاة (غوتزوف ولوب وينبرغ وموندت وغيرهم) هم الذين كانوا يعكسون في مؤلفاتهم الأدبية والصحفية التيارات المعارضة للمالكين الصغار وقد ناضلوا في سبيل حرية الفكر والصحافة. وقد تفسخ معظمهم إلى ليبراليين بورجوازيين. وتفرقت الجماعة بعد عام ١٨٤٨.

٢٣٠- عنوان مقالة بقلم هرمان سيمينغ، نشرت في المجلد الأول من الحوليات الرينانية.

٢٣١- الحوليات الرينانية بشأن قضايا الاصلاح الاجتماعي، [Die Rheinischen Jahrbűcher zur gesellschaftlichen Reform] وقد أصدرها هرمان بوتمان، ولم يظهر منها سوى مجلدين، الأول في آب (أغسطس) ١٨٤٥ في دار مستادت والثاني في أواخر عام ١٨٤١ في محلة صغيرة تسمى المنظر الجميل قرب كونستانس، على الحدود الألمانية السويسرية. ولما كان ماركس وإنجلز راغبين في إيجاد نقاط استناد في ألمانيا من أجل نشر أفكارهما الشيوعية، فقد وجدا من الضرورة بمكان استخدام تلك المجلة لهذا الغرض. وهكذا كان المجلد الأول يتضمن خطابات إنجلز في تجمعات البرفيلد في ٨ و١٥ شباط (فبراير) ١٨٤٥ (خطابات البرفيلد)، والمجلد الثاني يتضمن المقالة التي تحمل عنوان "عيد الأمم في لندن". وكان الاتجاه العام للحوليات محدداً على أي حال من قبل ممثلي الاشتراكية "الحقيقية" الذين كانوا يسهمون في تحريرها.

٢٣٢- المقصود مقال لموزيس هيس "البؤس في مجتمعنا وعلاجاته" مقتطف من كتاب المواطن الألماني لعام ١٨٤٥، ص ٢٢ - ٤٨.

أما كتاب المواطن الألماني لعام ١٨٤٥ فنشرة أصدرها هرمان بوتمان في دار مستادت عام ١٨٤٤، وكان اتجاهها العام محدداً باشتراك ممثلي الاشتراكية "الحقيقية" في

تحريرها. أما كتاب المواطن الألماني لعام ١٨٤٦ فقد ظهر في مانهايم في صيف ١٨٤٦.

٢٣٣- شاهد من هايني عدَّله ماركس، وهذه أصله:

إن الحب البالغ الفظاظة مرفوض وإلا ألمت بك عاهة.

٢٣٤- دعاة التسوية [The Levellers]: اسم اتخذته إبان الثورة الإنكليزية جماعة تتألف من حرفيين وفلاحين كان لها نفوذ عظيم بين الجنود في جيش كروميل. وكانت هذه الجماعة تنادي بأن الناس قد ولدوا أحراراً ومتساوين، وتطالب بالاقتراع العام، ونقض الملكية، وإعادة الأراضي "المسورة" إلى الفلاحين. ولما كانت في الوقت نفسه مدافعة حازمة عن الملكية الخاصة، فقد كانت تريد أن تحرم العمال والخدم من حق الاقتراع لأنهم غير مالكين. وفي أعقاب هذا الموقف الذي اتخذه دعاة التسوية، وبنتيجة الآلام التي عاناها الشعب من جراء الفقر والجوع والاضطرابات، فقد انفصل دعاة التسوية الحقيقيون أو الحفارون (les vrais levellers ou diggers) عن دعاة التسوية. وكان الحفارون ينادون بأن الشعب العامل يجب أن يستثمر الأراضي البلدية من دون أن يدفع أية ضريبة، وقد احتلوا في بعض القرى، بإرادتهم الخاصة، الأراضي المهجورة وحرثوها من أجل البذار. وعندما فرقهم جنود كروميل لم يبدوا أية مقاومة، لأنهم ما كانوا يريدون أن يستخدموا في نضالهم إلا الوسائل السلمية، واثقين كل الثقة من قوة الاقناع.

٢٣٥- أنظر شاستيلوكس (Chastelleux) : في الهناءة العامة [De la Félicité Publique]، أمستردام، ١٧٧٢.

٢٣٦- كابيه، رحلة إلى إيكاريا، رواية فلسفية واجتماعية، الطبعة الثانية، باريس ١٨٤٢. ولقد أصدر كابيه الطبعة الأولى من كتابه عام ١٨٤٠ في مجلدين بعنوان: رحلات ومغامرات اللورد وليم كاريسدال في إيكاريا [Voyages et aventures de Lord William Carisdall en Icarie].

٢٣٧- المقصود كتاب نظام الطبيعة [Système de la nature]، الذي وضعه المادي الفرنسي بول هنري تييري هولباخ. وفي سبيل الإفلات من الملاحقات البوليسية، فقد وقعه باسم ج. ب. ميرابو، سكرتير الأكاديمية الفرنسية، المتوفى عام ١٧٦٠.

٢٣٨- الديمقراطية السلمية، صحيفة يومية كان يصدرها فكتور كونسديران، وقد ظهرت في باريس من آب (أغسطس) ١٨٤٣ حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١.

٢٣٩- مقتطف من قصيدة هايني "العالم المقلوب" [verkehrte welt]، من ديوان قصائد راهنة [Zeitgedichte].

٢٤٠- العلوم الإنسانية (Humanités)، هي مجموع العلوم التي كان تعليمها يستهدف دراسة الثقافة الكلاسيكية القديمة. وكان الإنسانيون في حقبة النهضة وخلفاؤهم يعتبرون هذه العلوم أساساً للثقافة والتعليم في زمنهم.

٢٤١- إن عدداً من أنصار سان سيمون قد أصبحوا رجال أعمال ومصرفيين شديدي البأس (الأخوة بيرير مثلاً).

٢٤٢- مقطوعة من قصيدة هايني، ألمانيا، من قصص الشتاء [Deutscland, ein winter märchem]. ولم تكن ألمانيا قد حققت وحدتها بعد حين كتب هايني هذه القصيدة.

٢٤٣- المقصود مقالة بقلم رودولف ماتاي نشرت في الحوليات الرينانية.

٢٤٤- لازمة أغنية ألمانية للأطفال.

٢٤٥- المقصود مجموعة المقالات غير المنشورة الجديدة [New Anekdota] التي ظهرت في دارمستادت في أواخر أيار (مايو) ١٨٤٥، وكانت هذه المجموعة تضم مقالات بقلم موزيس هيس وكارل غرون وأوتو لونينغ وآخرين كانت الرقابة قد حظرت نشرها، وكان معظمها قد كتب في النصف الأول من عام ١٨٤٤. وقد كتب ماركس وإنجلز، بعد صدور هذه المجموعة بوقت قصير، سلسلة من الملاحظات النقدية عن محتواها، كما يتضح من رسالة وجهاها إلى هيس.

٢٤٦- رادا مانتي [Rhadamante] - أحد قضاة الجحيم في الأساطير الإغريقية.

٢٤٧- غرفة مطالعة في باريس يتردد إليها الصحفيون.

٢٤٨- في المأساة الإغريقية المقطع الشعري والمقطع المضاد هما مقطوعات شعرية أو أناشيد تتلوها الجوقة (يعني تلك الجماعة من الممثلين الذين يعلقون على الأحداث الدائرة من دون أن يشاركوا فيها) كأجوبة متناوبة.

٢٤٩- شـاهد مـن المزمـار المسـحور لمـوزارت (الفصـل الثانـي: نشـيد ساراسـترو) (Acte II: Air de sarastro) وقـد عدلـه ماركـس.

٢٥٠- المقصود مقالة هيس: الاشتراكية والشيوعية.

٢٥١- ليرمينيه، فلسفة الحق [Philosophie du droit].

٢٥٢- مقطـع مـن مأسـاة شـيلر الشـهيرة، اللصـوص [Die Raäuber]، الفصـل الخامـس، المشـهد الثانـي. وإن معنـى هـذه العبـارة، وفقـاً لـروح المسـرحية، هـو أنـه لا بـد للمـرء كـي ينجـز أي عمـل، حتـى إذا كان العمـل رديئـاً وهدامـاً، مـن أن يكـون جديـراً بـه.

٢٥٣- لويـس ريبـو، دراسـات فـي الإصلاحييـن أو الاشـتراكيين المحدثيـن [Études sur les réformateurs ou socialestes modernes]، باريـس، ١٨٤٠.

٢٥٤- المنظـم [L'organisateur]، صحيفـة أسـبوعية كان تلامـذة سـان سـيمون يصدورنهـا فـي باريـس مـن ١٨٢٩ حتـى ١٨٣١. وإن العـدد الـوارد الذكـر مـن الصحيفـة يشـتمل علـى المقالـة التاليـة. "إلـى كاثوليكـي. بشـأن حيـاة سـان سـيمون وشـخصيته".

٢٥٥- الاسـم الـذي كان يطلـق، فـي فتـرة مـن الزمـن، علـى البرلمـان، وفـي فتـرة أخـرى مـن الزمـن علـى الحكومـة الهولندية.

٢٥٦- مؤلف لسان سيمون كتب عام ١٨٠٢ ونشر عام ١٨٠٣ من دون أن يحمل اسم مؤلفه.

٢٥٧- ظهـرت الطبعـة الأولـى مـن هـذا المؤلـف لسـان سـيمون فـي باريـس فـي ١٨٢٣ - ١٨٢٤ بعنـوان: التعليـم المسـيحي للصناعييـن [Catéchisme des industriels]. وإن العنـوان الـوارد هنـا هـو العنـوان المذكـور فـي مؤلفـات سـان سـيمون المنشـورة فـي باريـس عـام ١٨٤١.

٢٥٨- إن الطبقــة الإقطاعيــة، أو طبقــة النبالــة، هــي بالنســبة إلــى ســان ســيمون النبالــة الإقطاعيــة القديمـة. أمـا الفئـة المتوسـطة أو الوسـطى فقـد كانـت تتألـف، قبـل الثـورة عـام ١٧٨٩، مـن نبالـة الثـوب والعسـكريين المتحدريـن مـن أصـل بورجـوازي والمالكيـن العقاريـين البورجوازيـين الذيـن يحصلـون علـى ريـع مـن ملكيتهـم. وإن هـذه الفئـة المتوسـطة هـي التـي اسـتخدمت الشـعب عـام ١٧٨٩ لتصنـع الثـورة وفقـاً لمصالحهـا، وهـي التـي تسـود الشـعب والدولـة منـذ الثـورة، مـن دون أن تنتـج أي شـيء نافـع مـن أجـل المجتمـع.

وينتسـب إلـى فئـة الصناعييـن جميـع أولئـك الذيـن ينتجـون أو يحملـون الآخريـن علـى إنتـاج السـلع الماديـة وجميـع أولئـك الذيـن يشـتغلون فـي تـداول هـذه السـلع. وإنهـم يشـكلون ثـلاث جماعـات كبيـرة: الفلاحيـن والصناعييـن والتجـار. وإن هـذه الفئةهـي الفئةالأهـم فـي المجتمـع، وهـي الفئـة الوحيـدة ذات النشـاط النافـع مـن أجـل المجتمـع، ولهـذا السـبب يجـب أن تحتـل المركـز الأول وتوجـه شـؤون الدولـة. راجـع بهـذا الشـأن كتـاب سـان سـيمون: التعليـم المسـيحي السياسـي للصناعييـن.

٢٥٩- المقصود كتاب سان سيمون، المسيحية الجديدة [Nouveau christianisme].

٢٦٠- المنتـج [Le Producteur]، أول صحيفـة للمدرسـة السـان سـيمونية، وقـد صـدرت فـي باريـس فـي ١٨٢٥ - ١٨٢٦. والمنظـم [L'organisateur]، راجـع الهامـش رقـم ٢٥٤.

٢٦١- الكـرة الأرضيـة [Le Globe]، صحيفـة يوميـة ظهـرت فـي باريـس مـن عـام ١٨٢٤ حتـى عـام ١٨٣٢. وكانـت الصحيفـة الناطقـة بلسـان السـان سـيمونية ابتـداء مـن ١٨ كانـون الثانـي (ينايـر) ١٨٣١.

٢٦٢- إشـارة إلـى مقالـة بقلـم كارل روزنكرانـز بعنـوان "لودفيـغ تييـك والمدرسـة الرومانسـية" [Ludwig Tieck und romantische schule]، نشـرت فـي حوليـات هـال عـام ١٨٣٨.

٢٦٣- مونيلمونتـان– كانـت ضاحيـة مـن ضواحـي باريـس وقتئـذٍ، وهـي اليـوم الدائـرة العشـرون. ولقـد كان أنفانتـان، "الأب الأسـمى" لأنصـار سـان سـيمون، يملـك هنـاك ملكيـة انسـحب إليهـا عـام ١٨٣٢ بعـد نزاعـه مـع بـازار، يصحبـه أربعـون مـن تلامذتـه، وقـد جـرب أن يؤسـس هنـاك معهـم مشـاعة للشـغيلة.

٢٦٤- المقصـود مؤلـف أنفانتـان: الاقتصـاد السياسـي والسياسـة [Économie politique et politique] الـذي نشـر فـي مجلـد فـي باريـس عـام ١٨٣٢، بعـد أن ظهـر فـي الأصـل فـي صحيفـة الكـرة الأرضيـة عـام ١٨٣١ علـى هيئـة سلسـلة مـن المقـالات.

٢٦٥- الكتـــاب الجديـــد [Le livre nouveau] مخطوطـــة تتضمـــن عرضـــاً لمذهـــب الســـان ســـيمونيين يجـــب أن تتحـــول فـــي ذهـــن مؤلفيهـــا إلـــى "الكتـــاب المقـــدس الجديـــد" لديانـــة الســـان ســـيمونيين. ولقـــد حـــررت فـــي ســـياق اجتماعـــات فريـــق مدرســـة الســـان ســـيمونية التـــي كان يديرهـــا أنفانتـــان. ونجـــد عنـــد ريبـــو: دراســـات عـــن مصلحـــي الاشـــتراكية الحديثـــة، مقتطفـــات

من الكتاب الجديد ومعلومات عن تكوينه [Études sur les reformateurs où socialistes modernes].

٢٦٦- إن الطبعة الأولى من مؤلف فورييه، نظرية الحركات الأربع والمصائر العامة [Théorie des quatres mouvements et des destinées générales] قد ظهرت عام ١٨٠٨ في ليون من دون أن تحمل اسم المؤلف.

٢٦٧- أنظر الهامش رقم ٢١٦.

٢٦٨- أنظر أ. ل. شورو عرض نقدي لنظرية فورييه الاجتماعية. وإن شورو، وليس شوروا كما يكتب ماركس، هو الاسم المستعار لأوغست لودفيغ فون روشو، الذي صدر كتابه في برونشويك عام ١٨٤٠.

٢٦٩- المجموعات نوع من المدخل إلى الجماعيات ويعتبر نموذجها الأكمل جماعية فورييه المسماة الكتائب [Phalanstére].

٢٧٠- الإشارة إلى مقالة ماركس [Sur Judenfrage] المنشورة في الحوليات الفرنسية الألمانية.

٢٧١- لم يكن في الإمكان تمييز اقتباس كابيه من لوك. ويبدو أن هذا المقطع يورد بصورة غير دقيقة بعض المقاطع من بحثي لوك في الحكومة وفي الحكومة المدنية [Two treatises on Civil Government]، راجع خاصة الفصل الرابع من البحث الأول.

٢٧٢- (إلى الإمام) [Vorwarts]: صحيفة ألمانية كانت تصدر مرتين في الأسبوع في باريس، وذلك من كانون الثاني (يناير) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٤، وقد أسهم فيها كل من ماركس وإنجلز ببعض المقالات. وتحت تأثير ماركس، الذي شارك بنشاط في عملها التحريري ابتداء من صيف ١٨٤٤، جعلت الصحيفة تتبنى اتجاهاً شيوعياً، وانتقدت بعنف النظام الرجعي في بروسيا. وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٤٥، بناء على طلب من الحكومة البروسية، طردت وزارة غيزو ماركس وعدداً آخر من أعضاء هيئة التحرير من فرنسا، وبذلك توقفت الصحيفة عن الصدور.

وإن مقالة "مقتطفات من قانون الطبيعة" لموريللي [Auszűge aus Morelly´s code de la nature]، قد نشرت في العددين ٧٢ و٧٣ من إلى الإمام، أما مقالة "فريدريك

فيلهلم الرابع وموريللي" [Fréderic- Guillaume IVet Morelly]، فقد نشرت في العدد ٨٧.

٢٧٣- أنظر مقالتي كارل غرون: "فويرباخ والاشتراكية" [Feuerbach und die Socialisten]، المنشورة في كتاب المواطن الألماني لعام ١٨٤٥، و"السياسة والاشتراكية" [Politik und Socialismus]،المنشورة في الحوليات الرينانية لعام ١٨٤٥، ص ٩٨ - ١٤٤.

٢٧٤- العالم الجديد، أو ملكوت الروح على الأرض. البشارة [Die Neue oder das Reich des Geistes auf Erden]، جنيف ١٨٤٥، مجلد يتألف من محاضرات ألقاها جورج كوهلمان على التجمعات العمالية من أتباع ويتلنغ في سويسرا. أنظر رأي إنجلز في هذا الكتاب في مقالته: "إسهام في تاريخ المسيحية الأولى" [contribution à l'histoire du christianisme primitif] (١٨٩٤).

إن مخطوطة الفصل "٥- الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين، أو نبوءات الاشتراكية الحقيقية" هي بقلم ويديميير، والهامش "م. هيس" قد كتب على الصفحة الأخيرة منها. ويفترض أن الفصل قد حرره هيس، ونسخه ويديميير، ونشره ماركس وإنجلز أخيراً.

٢٧٥- إن عمل إنجلز الاشتراكيون الحقيقيون يشكل تكملة مباشرة للمجلد الثاني من الإيديولوجية الألمانية. ففي أوائل ١٨٤٧، كان نمو الاشتراكية "الحقيقية" قد أدى إلى تشكل جماعات عديدة (مثلاً الجماعة الويستفالية والسكسونية والبرلينية) داخل الخط العام لهذا الاتجاه. وعندئذ قرر إنجلز أن يراجع ويوسع المجلد الثاني من الإيديولوجية الألمانية الذي يعالج الاشتراكية "الحقيقية" وأن يعطي نقداً للجماعات الاشتراكية "الحقيقية" المختلفة. وقد وضع مسودة مشروعه في رسالة إلى ماركس بتاريخ ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٧. وإن العمل في هذا المشروع، الذي وصلنا في صورة مخطوطة الاشتراكيون الحقيقيون، قد استمر على الأقل حتى نيسان (أبريل)، ذلك أن عدد ١٠ نيسان (أبريل) ١٨٤٧ من صحيفة المواطن مذكور في النص. وإذا حكمنا على نهاية المخطوطة، فإن العمل لم يكتمل. وقد نشر للمرة الأولى في الطبعة الألمانية للأعمال الكاملة لماركس وإنجلز التي هيأتها مؤسسة الماركسية اللينينية في موسكو.

٢٧٦- إشارة إلى حقيقة أن هرمان كريغ هو ناشر صحيفة منبر الشعب [Tribune of the people]، وهي صحيفة أسبوعية أسسها الاشتراكيون "الحقيقيون" الألمان في نيويورك وصدرت من ٥ كانون الثاني (يناير) حتى ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٦.

٢٧٧- يشير إنجلز إلى مقالة جوليوس مير "الاقتصاد الوطني في شكله المقبل" المنشورة في المجلد الثاني من هذا الكتاب يخص الشعب [Dies Buch gehört volke]، وهو كتاب سنوي كان يصدره أوتو لونينغ في بييلفيلد في عامي ١٨٤٥ و١٨٤٦، وفي بادربورن في عام ١٨٤٧. ولم يصدر منه سوى ثلاثة مجلدات.

٢٧٨- إن أسماء الكوكبات المختلفة تستخدم هنا للدلالة الساخرة على ممثلي الاشتراكية "الحقيقية". فالأسد يدل على هرمان كريغ و"السرطان" على جوليس هيلميخ؛ والمرجح أن رودولف رمبل هو أحد التوأمين والآخر هو جوليوس مير. وإن "الحمل" دلالة على جوزيف ويديمير، أما "الثور" فالمقصود به أوتو لونينغ.

٢٧٩- بيت شعر من الأغنية الشعبية الألمانية: "لو كنت عصفوراً" [wenn ich vöglein war].

٢٨٠- إن إسهامات أوتو لونبنغ التي كانت تعالج الأحداث السياسية في بلدان مختلفة قد نشرت تحت عنوان: أحداث عالمية في مجلة المركب البخاري الويستفالي عام ١٨٤٩.

٢٨١- مرآة المجتمع - مجلة شهرية للاشتراكيين "الحقيقيين" أصدرها موزيس هيس في البرفيلد في ١٨٤٥ - ١٨٤٦، ولم يصدر منها سوى اثني عشر عدداً.

٢٨٢- يشير إنجلز إلى حظر مجلة مركب ويش البخاري، وهي مجلة تعبر عن المالكين الصغار، تحوّلت بصورة تدريجية إلى نشرة للاشتراكيين "الحقيقيين"، وكانت تصدر في موندن عام ١٨٤٤ من كانون الثاني (يناير) حتى تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٤٤ مرتين في الأسبوع، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) مرة في الشهر. ولقد أوقفت المجلة في نهاية عام ١٨٤٤ من قبل السلطات وعاودت الصدور بعنوان المركب البخاري الويستفالي ابتداء من ١٨٤٥. وقد شارك أوتو لونينغ في تحرير المجلة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٤.

إريدانوس [Eridanos] كوكبة في نصف الكرة السماوية الجنوبي، وترسم على صورة نهر.

٢٨٣- إشارة إلى "رسالة ضد كريغ" [Zirkular gegen Kreige]،بقلم ماركس وإنجلز.

٢٨٤- يشير إنجلز إلى مقالة جوزيف ويديميير "الورشة" [Die werkstatt]، ينشرها جورج شيرغس، المنشورة في المركب البخاري الويستفالي عام ١٨٤٥. و"الورشة" مجلة للاشتراكيين "الحقيقيين" صدرت في هامبورغ من ١٨٤٥ حتى ١٨٤٧.

٢٨٥- "سعيد هو ذلك البعيد عن الأعمال هو رأس، الأنشودة الثانية، السطر الأول.

٢٨٦- من قصيدة شيللر أنشودة للفرح [An die Freude].

٢٨٧- إن إشارة الضرب (X) كانت تستخدم كتوقيع من قبل أحد المشتركين في تحرير مجلة المركب البخاري الويستفالي.

٢٨٨- إن نميزيس[Nemesis]، آلهة الجزاء، كانت صورتها على غلاف مجلة مرآة المجتمع.

٢٨٩- إن الاقتباسات التالية هي من مقالات ف. شنيك ضد غوتزكوف وشتاينمان وأوبيتز المنشورة في مرآة المجتمع.

٢٩٠- مقطوعة من قصيدة غوته بعنوان: الكلية [Totalität].

٢٩١- يقصد إنجلز مقطعاً من بحثه "الاشتراكية الألمانية في النثر والشعر" [Deutscher Socalismus in versen prose]وهو بحث وثيق الارتباط بالمجلد الثاني من الإيديولوجية الألمانية، (راجع رسالة إلى ماركس بتاريخ ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٧).

٢٩٢- تعديل بيت من قصيدة شيللر "الغواص" [Der taucher]، وقد استبدلت كلمة (أبالسة) "Leavern" بكلمة (أحداث) "Leicehen". ويستشهد إنجلز في وقت لاحق، في الصفحة ٦٢١ من هذا الكتاب، بالبيت كما هو.

٢٩٣- إن الكتب التي تضم أكثر من عشرين ورقة مطبوعة كانت معفاة من الرقابة حسب القوانين السارية المفعول في عدد من الدول الألمانية.

٢٩٤- يستشهد إنجلز بثلاثة مقاطع من قصيدة غوته: "حديقة الليلك" [Lilis park].

٢٩٥- من كتاب غوته، فاوست، الجزء الأول.

٢٩٦- "إكليل الفيجن" [Rautenkrone]، أعلى وسام في سكسونيا.

٢٩٧- الجميـع يفعلـون ذلـك، (Cosi fa tutte) شـعار مبنـي علـى عنـوان أوبـرا هزليـة لمـوزارت بعنـوان: جميـع النسـاء يفعلـن ذلـك [cosi fan tutti].

٢٩٨- البنفسـج، أوراق غيـر ضـارة مـن أجـل النقـد الحديـث، مجلـة أسـبوعية للاشـتراكية "الحقيقيـة" كانـت تصـدر فـي بوتـزن (سكسـونيا) فـي عـام ١٨٤٦- ١٨٤٧.

٢٩٩- مجلـة تراييـر[Trier´sche Zeitung]، تأسسـت فـي تريـف عـام ١٧٥٧، وكانـت تصـدر بهـذا الاسـم اعتبـاراً مـن عـام ١٨١٥ وكانـت فـي أوائـل الأربعينيـات صحيفـة بورجوازيـة راديكاليـة، لكنهـا وقعـت فـي منتصـف الأربعينيـات تحـت نفـوذ الاشـتراكيين "الحقيقييـن" وتعرضـت للنقـد مـن قبـل ماركـس وإنجلـز.

٣٠٠- مقطوعة من قصيدة غوته "البنفسجة" [Das veilchen].

٣٠١- من قصيدة سيميغ "من أجل مجموعة سيدة" [Einer Frau ins stamm buch].

٣٠٢- من كتاب غوته: فاوست، الجزء الأول، "حديقة غارتن" [Marthens Garten].

٣٠٣- الكلب الأصغر [Canis Minor (the lesser dog)]: كوكبة إلى الشرق من الجوزاء.

٣٠٤- كارل مور وشوايزر وشبيغيلبرغ – شخصيات من مأساة شيللر: اللصوص.

٣٠٥- ف. إ. روشـوف: صديـق الأطفـال. كتـاب قـراءة مـن أجـل المـدارس الريفيـة، براندنبـرغ ولايبزيـغ، ١٧٧٦. وقـد تعـرض إنجلـز لهـذا الكتـاب فـي "أنتـي دوهرنـغ" [Anti Dohring]، القسـم الثانـي، الفصـل الخامـس.

٣٠٦- السيرك الأولمبي- مسرح في باريس.

٣٠٧- [In Partibus infidelium]، ومعناهـا الحرفـي: فـي بـلاد يقطنهـا غيـر المؤمنيـن، ومعناهـا غيـر موجـودة فـي واقـع الأمـر، وإن هـذه الكلمـات تضـاف عـادة إلـى لقـب أسـقف كاثوليكـي يعيـن لكرسـي إسـمي فـي بلـد غيـر مسـيحي.

ويلمـح إنجلـز هنـا إلـى القصائـد الوطنيـة التي نظمهـا هيرفيـغ، وعلى الأخـص "الأسـطول الألماني" المنشـورة عـام ١٨٤١، وفرايليغـراث "أحـلام عن الأسـطول"[Die deutsch Flotte] و"الرايتـان" [Zewei Flaggen]، المنشـورتين عـام ١٨٤٣ و١٨٤٤، وفيهمـا يمجـدان مسـتقبل الأسـطول الألمانـي الـذي لـم يكـن لـه وجـود بعد.

٣٠٨- البغضاء والندامة [Menschenhass und Reue] مأساة من تأليف أ. كوتزبو.

٣٠٩- يشير إنجلز إلى قصيدة فرايليغراث: "صلاة لراحة النفس" [Requiescat].

٣١٠- الإشارة إلى كتاب فريدريك ساس: تطور برلين في الحقب الحديثة.

٣١١- من قصيدة شيللر: قاتلة الطفل [Am die freude].

٣١٢- الإشارة إلى الحادث الذي وقع في ١٢ آب (أغسطس) ١٨٤٥، حين فتحت قوات سكسونية النار على مظاهرة جماهيرية جرت في لايبزيغ، وكانت تندد باضطهاد الحكومة السكسونية للحركة "الألمانية" البورجوازية.

٣١٣- موضوعات عن فويرباخ كتبها ماركس في بروكسيل في ربيع ١٨٤٥، وهي موجودة في دفاتره لأعوام ١٨٤٤ - ١٨٤٧ تحت عنوان: "١- بخصوص فويرباخ". وقد نشرت هنا كما أصدرها إنجلز في ختام كتابه لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية عام ١٨٨٨.

٣١٤- هذه الملاحظات دونها ماركس في الصفحة ١٦ من دفاتره للأعوام ١٨٤٤- ١٨٤٧.

٣١٥- هذه الملاحظات موجودة في الصفحتين ٢٢ و٢٣ من دفاتر ماركس للأعوام ١٨٤٤-١٨٤٧. أما العنوان فقد وضعته مؤسسة الماركسية اللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

٣١٦- هذه الملاحظات تسبق مباشرة "الموضوعات عن فويرباخ" في دفاتر ١٨٤٤-١٨٤٧. أما العنوان فوضعته مؤسسة الماركسية اللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

٣١٧- من المرجح أن هذه الملاحظات قد خصصها إنجلز في الأصل للفصل الأول من المجلدالأول من الإيديولوجية الألمانية، ويستشهد فيها بكتاب فويرباخ فلسفة المستقبل.

٣١٨- ل. فويرباخ: جوهر الإيمان كما يفسره لوثر. إسهام في "جوهر المسيحية". لايبزيغ، ١٨٤٤.

٣١٩- إن هذه الفقرة التي نشرت مغفلة من التوقيع هي رد على النقد المضاد للعائلة المقدسة الواردة في مقالة لباور في مجلة ويغان الفصلية، المجلد الثالث، ١٨٤٥، ص ٨٦ -١٤٦، بعنوان، خصائص لودفيغ فويرباخ . إن قسماً منه مماثل لمقطع وارد في

الفصل الثاني من المجلد الأول من الإيديولوجية الألمانية، أما العنوان فقد وضعته مؤسسة الماركسية اللينينية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

***

فهرس أسماء الاعلام

(أ)

- ابن سينا (IBN-SINA)، (٩٨٠-١٠٣٧)، من أبرز فلاسفة الحقب الوسيطة. طبيب وشاعر وعالم.
- أبيقور (Epicure)، (٣٤١-٢٧٠ ق.م)، فيلسوف مادي بارز في اليونان القديمة.
- أدموندز (Edmonds)، توماس رو (١٨٠٣-١٨٨٩)، اقتصادي إنكليزي ومن أتباع آدم سميث.
- إدوارد الرابع (Edward IV) (١٥٣٧-١٥٥٣)، ملك إنكلترا من (١٥٤٧-١٥٥٣).
- أراغو (Arago)، دومينيك - فرانسوا (١٧٨٦-١٨٥٣)، فلكي ورياضي وفيزيائي وسياسي فرنسي.
- أرجنسون (Argenson)، مارك رينيه (١٧٧١-١٨٤٢)، سياسي فرنسي. شارك في الثورة البورجوازية الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر وفي حركة الجمهوريين في فرنسا خلال مرحلة عودة الملكية وفي ملكية تموز (يوليو). وقد كان من أتباع بابوف.
- أرسطو (Aristote) (٣٨٤-٣٢٢ ق. م.)، فيلسوف إغريقي كبير، تأرجح بين المادية والمثالية وكان الممثل الإيديولوجي لطبقة أصحاب العبيد.
- أرندت (Arndt)، أرنست موريتز (١٧٦٩-١٨٦٠)، كاتب ومؤرخ وعالم لغوي ألماني، لعب دوراً فعالاً في حرب التحرير الشعبية الألمانية ضد حكم نابليون في

١٨٤٨-١٨٤٩ عضـو فـي المجلـس الوطنـي لمدينـة فرانكفـورت (وسـط اليميـن) ومـن أنصـار الملكيـة الدسـتورية.

- أرنيـم (Arnim)، بيتينـا فـون (١٧٨٥-١٨٥٩)، كاتـب ألمانـي مـن المدرسـة الرومانسـية، نـادى بالأفـكار الليبراليـة فـي الأربعينيـات.
- أستون (Aston)، لويس (١٨١٤-١٨٧١)، كاتب ديموقراطي.
- الإسـكندر الكبيـر (Alexandre le grand) (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)، قائـد ورجـل دولـة مشـهور فـي الحقـب القديمـة. وملـك مقدونيـا (٣٣٦-٣٢٣ ق.م).
- أغسطس (August)، يوليوس قيصر (٦٣ ق.م-١٤ ق.م)، امبراطور روماني.
- أفلاطـون (Platon) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م)، فيلسـوف مثالـي مـن اليونـان القديمـة. إيديولوجـي طبقـة أصحـاب العبيـد والأرسـتقراطية.
- أندروميـدا (Endromida)، أوتـو لويـز (١٨١٩-١٨٩٥)، كاتبـة ألمانيـة فـي منتصـف الأربعينيـات مـن القـرن التاسـع عشـر. كانـت اشـتراكية "حقيقيـة" شـاركت فـي الحركـة النسـائية.
- أنفانتـان (Enfantan)، بارتيلمـي بروسـبير (١٧٩٦-١٨٦٤)، اشـتراكي فرنسـي، مـن أتبـاع سـان سـيمون. تـرأس مـع بـازار المدرسـة السـان سـيمونية.
- إنكيـه (Enke)، فريدريـك (١٨١٨-١٨٧٢)، ضابـط بروسـي فـي سـلاح المدفعيـة فـي عـام (١٨٤٦). سـرح مـن الخدمـة لآرائـه السياسـية. عضـو جماعـة كولونيـا فـي العصبـة الشـيوعية. شـارك فـي الثـورة الألمانيـة لعـام ١٨٤٨-١٨٤٩ وقاتـل فـي الحـرب الأميركيـة الأهليـة إلـى جانـب الشـمال.
- أوبيتز(Opitz)، تيودور، كاتب ألماني من الهيغليين الشباب.
- أوتو الأول (أوتو الأبن) (١٨١٥-١٨٦٧)، ملك بافاريا و ملك اليونان من ١٨٣٢ حتى ١٨٦٢.
- أوكونيل (O'connel)، دانيال، محام ايرلندي وسياسي. أحد قادة حركة التحرر الوطني الايرلندية.
- أولكرز (œlckers)، هيرمان تيودور (١٨١٦-١٨٦٩)، كاتب ألماني ديمقراطي.

- بازار (Bazar)، أرماند (١٧٩١-١٨٣٢)، اشتراكي فرنسي. قاد مع أنفانتان الحركة السان سيمونية.
- بافنــدورف (Puffendorf)، صموئيــل بــارون فــون (١٦٣٢-١٦٩٤)، عالــم ألمانــي، قــاضٍ ومــؤرخ. وممثــل النظريــة البورجوازيــة "لقانــون الطبيعــة"
- بـاور (Bauer)، برونـو (١٨٠٩-١٨٨٢)، فيلسـوف مثالـي ألمانـي مـن الهيغلييـن الشـباب، وقـد أصبـح راديكاليـاً بورجوازيـاً بعـد عـام ١٨٦٦.
- باور(Bauer)، إدغار (١٨٢٠-١٨٨٦)، معلق ألماني وهيغلي شاب وشقيق برونو بوير.
- بايرهوفر (BayrHoffer)، كارل ثيودور (١٨١٢-١٨٨٨)، فيلسوف هيغلي ألماني.
- بايلـي (Baily)، جـان سـيلفان (١٧٣٦-١٧٩٣)، فلكـي وسياسـي فرنسـي وأحـد قـادة الليبراليـة خـلال الثـورة الفرنسـية فـي نهايـة القـرن الثامـن عشـر.
- بايلي (Bayle)، بيير (١٦٤٧-١٧٠٦)، فيلسوف فرنسي، أحد نقاد الدوغمائية الدينية.
- بروتـز(Prutz)، روبـرت ادوارد (١٨١٦-١٨٧٢)، شـاعر ألمانـي ومـؤرخ لـلأدب خـلال ثـورة ١٨٤٨ ١٨٤٩ البورجوازيـة الديمقراطيـة.
- بـرودون (Proudhon)، بييـر جوزيـف (١٨٠٩-١٨٦٥)، كاتـب فرنسـي، وأحـد مؤسسـي المذهـب الفوضـوي.
- بروغلـي (Broglie)، فرنسـوا-فيكتور (١٧١٨-١٨٠٤)، مارشـال فرنسـا فـي بدايـة ثـورة عـام ١٧٨٩، قـاد اتحـاد جماعـات الثـورة المضـادة فـي فرسـاي. ثـم هاجـر إلـى ألمانيـا حيـث قـاد المهاجريـن الذيـن قاتلـوا ضـد ثوريـي فرنسـا.
- بريسـو (Brissot)، جـاك - بييـر (١٧٥٤-١٧٩٣)، مـن أبـرز سياسـيي الثـورة الفرنسـية فـي نهايـة القـرن الثامـن عشـر. وكان فـي بدايـة الثـورة عضـواً فـي نـادي اليعاقبـة، وأصبـح فيمـا بعـد زعيمـاً لحـزب الجيرونديـيـن ومفكـراً لـه.
- بطليموس (Ptolemy)، اسم إحدى سلالات ملوك مصر.
- بفيستر (Pfister)، يوهان كريستيان (١٧٧٢-١٨٣٥)، كاهن ألماني ومؤرخ.
- بفيفل (Pfeffel)، غوتلب كونراد (١٧٣٦-١٧٩٣)، من كتّاب الخرافات الألمان .

- بلان (Blanc)، لويس (١٨١١-١٨٨٢)، اشتراكي ومؤرخ. أحد قادة ثورة ١٨٤٨ – ١٨٤٩.
- بلانكي(Blanqui)، جيروم أدولف (١٧٩٨-١٨٤٥)، اقتصادي فرنسي.
- بلتييه (Peltier)، جان غابرييل (١٧٦٥- ١٨٢٥)، كاتب ملكي فرنسي.
- بلوتارك (Plutarch)، (٤٦-١٢٥)، كاتب يوناني قديم. فيلسوف مثالي وأخلاقي.
- بلونتشلي (Bluntschli)، يوهان كاسبار (١٨٠٨-١٨٨١)، محام سويسري، وسياسي رجعي.
- بنتام (Bentham)، جيريمي (١٧٤٨-١٨٣٢)، عالم اجتماع إنكليزي.واضع نظرية المنفعة.
- بنتو (Pento)، إسحاق (١٧١٥-١٧٨٧)، اقتصادي هولندي واحتكاري كبير.
- بواغيلبر (Boisguillebert)، بيير لوبيزان سير دو (١٦٤٦-١٧١٤)، اقتصادي فرنسي. مهد لمذهب الفيزيوقراطيين ومؤسس الاقتصاد السياسي الكلاسيكي في فرنسا.
- بوتمان (Puttman)، هيرمان (١٨١١-١٨٩٤)، شاعر وصحافي راديكالي ألماني، واشتراكي "حقيقي" في منتصف الأربعينيات.
- بودان (Bodin)، جان (١٥٣٠-١٥٩٦)، عالم اجتماع فرنسي. إيديولوجي الحكم المطلق.
- بوسيه (Busset)، جاك بينين (١٦٢٧-١٧٠٤)، كاتب لاهوتي وكنسي فرنسي..
- بوشيه (Buchez)، فيليب جوزيف بنجامين (١٧٩٦-١٨٦٥)، سياسي ومؤرخ فرنسي. جمهوري وأحد إيديولوجيي الاشتراكية المسيحية.
- بوليو (Beaulieu)، كلود فرانسوا (١٧٥٤-١٨٢٧)، مؤرخ وناشر وملكي فرنسي.
- بونالد (Bonald)، فيكونت دو لويز غابرييل امبرواز (١٧٥٤-١٨٤٠)، ناشر وسياسي ملكي فرنسي.
- بونيفاس (Boniface)، واينفريد (٦٨٠-٧٥٥)، كاهن، شغل منصب سفير بابوي بين القبائل الألمانية. ثم أصبح مطراناً.

- بوهل (Buhl)، لودفيغ هاينريتس فرانتز (١٨١٤-١٨٨٠)، ناشر ألماني. وهيغلي شاب.
- بوييه (Bouillée)، فرنسوا كلود ماركيز دو (١٧٣٩-١٨٠٠)، قائد فرنسي خلال حرب الاستقلال الأميركية (١٧٧٥-١٧٨٣). قاتل ضد الإنكليز للدفاع عن المستعمرات الفرنسية في جزر الأنتيل.
- بيتي (Petty)، سير وليام (١٦٢٣-١٦٨٧)، من أبرز الاقتصاديين وعلماء الإحصاء الإنكليز. مؤسس المدرسة الكلاسيكية للاقتصاد السياسي في إنكلترا.
- بيرسياني (Persiani)، فاني (١٨١٢-١٨٦٧)، مغنية إيطالية.
- بيركليس (Periclés)، (٤٩٠-٤٢٩ ق.م)، رجل دولة أثيني. ساعد في توطيد الديموقراطية في أثينا.
- بيسيل (Bessel)، فريدريك فيلهلم (١٧٨٤-١٨٤٦)، فلكي ألماني معروف.
- بيك (Beck)، كارل (١٨١٧- ١٨٧٩)، شاعر ألماني في منتصف الأربعينيات واشتراكي "حقيقي".
- بيكر (Becker)، نيكولاوس (١٨٠٩- ١٨٤٥)، شاعر ألماني.
- بيكر (Becker)، أوغست (١٨١٤-١٨٧١)، ناشر ألماني في الأربعينيات وأحد قادة أتباع ويتلينغ السويسريين.
- بيوناروتي (Buonarrotti)، فيليب ميشيل (١٧٦١- ١٨٣٧)، ثوري إيطالي. لعب دوراً قيادياً في الحركة الثورية في فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. شيوعي طوباوي وزميل بابوف في السلاح. كتابه: التآمر من أجل المساواة (١٨٢٨) ساهم في إحياء التقاليد البابوفية في الحركة العمالية الثورية.

(ت)

- تاليران (Talleyrand)، بيريغور شارل-موريس (١٧٥٤-١٨٣٨)، ديبلوماسي فرنسي. أسقف من عام ١٧٨٨ حتى ١٧٩١. عاش في المنفى بين سنتي ١٧٩٢-١٧٩٦. وزير للخارجية في ١٧٩٧-١٧٩٩ (تحت حكم الإدارة)، وفي ١٧٩٩-

١٨٠٠ (في فترة حكم نابوليون القنصلي والأمبراطوري). وفي سنة ١٨١٤-١٨١٥ سفير في لندن.

- تايلر (Tyler)، واط (توفي عام ١٣٨١)، زعيم الثورة الفلاحية الإنكليزية الكبرى لعام ١٣٨١.
- تراجان (Trajan)، ماركوس أولبيوس تراجانوس كريتستوس (٥٣-١١٧)، أمبراطور روماني.
- ترتوليان (Tertullien)، كوينكتوس سبتيموس فلورنس (١٥٠-٢٢٢)، كاتب ولاهوتي مسيحي.
- تستي (Teste)، شارل (توفي عام ١٨٤٨)، شيوعي طوباوي فرنسي. من أتباع بابوف. لعب دوراً في الحركة الجمهورية خلال ملكية تموز (يوليو).
- تشايلد (Child)، سير جوزيف (١٦٣٠-١٦٩٩)، اقتصادي إنكليزي من أنصار المذهب التجاري. صاحب مصرف وتاجر.
- تورغو (Turgot)، آن روبرت جاك بارون دو لولن (L'Aulne) (١٧٢٧-١٧٨١)، رجل دولة واقتصادي فرنسي. ممثل بارز للمدرسة الفيزيوقراطية.
- تيتيان (Titien)، تيزيانو فاسيليو (١٤٧٧-١٥٧٦)، من أبرز رسامي حقبة النهضة الإيطالية وواحد من كبار ممثلي مدرسة البندقية.
- تيمون (Timon)، دو فليوس (٣٢٠-٢٣٠ ق. م.)، فيلسوف ريبي وقاص خرافي يوناني قديم.
- تييرس (Tierrs)، أدولف (١٧٩٧- ١٨٧٧)، رجل دولة ومؤرخ فرنسي. رئيس وزراء من (١٨٣٦-١٨٤٠) ورئيس الجمهورية من (١٨٤٠-١٨٧١) وجلاد كومونة في باريس.

(ث)

- ثومبسون (Thompson)، سير بنجامين كونت دو رامفورد (١٧٥٣- ١٨١٤)، ضابط إنكليزي من أصل أميركي، مغامر، كان لمدة ما في خدمة الحكومة البافارية. نظم بيوت العمل للمعدمين وجمع الهبات من أجل حساء الفقراء المصنوع من المواد الرخيصة.

- ثومبسون (Thompson)، وليام (١٧٨٥- ١٨٣٣)، اقتصادي إيرلندي توصل إلى استنتاجات اشتراكية بالاستناد إلى نظرية ريكاردو. من أتباع أوين.
- ثيميستوكليس (Thémistocles)، (٥٢٥-٤٦٠ ق. م.)، قائد ورجل دولة إغريقي من أيام الحرب الفارسية الإغريقية وممثل النزعة الراديكالية الديمقراطية في أثينا.

(ج)

- جان بول (Jean-Paul)، الاسم المستعار ليوهان بول فريدريك ريختر (١٧٦٣- ١٨٢٥)، كاتب هجائي.
- جاي (Jay)، أنطوان (١٧٧٠-١٨٥٤)، ناشر فرنسي وأديب. عضو في الأكاديمية الفرنسية من سنة ١٨٣٢.
- جوزيف الثاني(Joseph II)، (١٧٤١ -١٧٩٠)، أمبراطور روماني مقدس.
- جوسيو (Jussieu)، انطوان لوران (١٧٤٨ - ١٨٣٦)، عالم نبات فرنسي معروف.
- جوفنال (Juvenal)، دوسينيوس جونيوس (ولد عام ٦٠ وتوفي بعد العام ١٢٧)، شاعر روماني.
- جيسنر(Gessener)، سالومون (١٧٣٠-١٧٨٨)، شاعر ورسام سويسري.
- جيلرت (Gellert)، كريستيان فورشتغوت (١٧١٥- ١٧٦٩)، كاتب ألماني.

(د)

- دالتون (Dalton)، جون (١٧٦٦-١٨٤٤)، عالم كيميائي وفيزيائي مشهور. قدم النظرية الذرية للتفاعلات الكيميائية.
- دانتون (Danton)، جورج جاك (١٧٥٩- ١٧٩٤)، زعيم مشهور من زعماء الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر. أحد قادة اليعاقبة.
- دانهارد (Danhard)، ماري فلهلمين (١٨١٨- ١٩٠٢)، عضوة في "الأحرار"، وهي حلقة هيغلية شابة في برلين، زوجة ماكس شترنر. (ويسميها المؤلفون أيضاً دولسينا أوف ثوبوزو وماريتورونا ونورالفا وسمسترس).

- دورنكـه (Dronkeh)، أرنسـت (١٨٢٢-١٨٩١)، كاتـب ألمانـي. اشـتراكي "حقيقـي" بـادئ الأمـر، ثـم عضـو فـي العصبـة الشـيوعية. وأحـد محـرري المجلـة الرينانيـة الجديـدة. هاجـر بعـد ثـورة ١٨٤٨-١٨٤٩ إلـى إنكلتـرا وتـرك السياسـة.
- دوبـان (Dupen)، اندريـه - مـاري - جـان - جـاك (١٧٨٣- ١٨٦٥)، سياسـي ومحـام فرنسـي أورليانـي. رئيـس الجمعيـة التشـريعية (١٨٤٩-١٨٥١). ثـم أصبـح بونابرتياً.
- دوشـاتل (Dechatel)، الكونـت شـارل - مـاري تانوغـي (١٨٠٣- ١٨٦٧)، رجـل دولـة فرنسـي. وزيـر للداخليـة. مـن أنصـار مالتـوس.
- دوفيرجيه (Duvergie)، دوهوران بروسبيير (١٧٩١-١٨٨١)، كاتب وسياسي ليبرالي فرنسي.
- دوماس (Dumas)، الكسندر(دوماس الأب) (١٨٠٣-١٨٧٠)، كاتب فرنسي مشهور.
- دونوييـه (Dunoyer)، بارثيليمـي شـارل- بييـر- جوزيـف (١٧٨٦-١٨٦٢)، سياسـي واقتصـادي فرنسـي.
- ديسـتوت دو تراسـي (Destutt de traci)، أنطـون لويـس كلـود، كونـت (١٧٥٤- ١٨٣٦)، اقتصـادي فرنسـي، فيلسـوف المذهـب الحسـي. مـن أنصـار الملكيـة الدسـتورية.
- ديكارت (Descartes)، رينيه (١٥٩٦-١٦٥٠)، اقتصادي فرنسي مشهور، رياضي وفيزيائي.
- ديكازيـس(Decazes)، دوق إيلـي (١٧٨٠-١٨٦٠)، رجـل أعمـال فرنسـي. رجـل دولـة فـي مرحلـة عـودة الملكيـة.
- ديموقريطـس (Democritus of Abdera)، أبديـرا (٤٦٠-٣٧٠ ق. م.)، فيلسـوف مـادي كبيـر مـن اليونـان القديمـة، وأحـد مؤسسـي النظريـة القائلـة بـأن المـادة تتشـكل مـن ذرات.
- ديمـولان (Desmoulins)، كاميـل (١٧٨٦- ١٧٩٤)، كاتـب فرنسـي، لعـب دوراً فعـالاً فـي الثـورة الفرنسـية فـي نهايـة القـرن الثامـن عشـر. مـن اليعاقبـة. حكمـت عليـه محكمـة الثـورة بالمـوت علـى المقصلـة.

- ديوجين (Diogenes)، دو ليرثيوس (القرن الثالث ق.م)، فيلسوف ومؤرخ يوناني قديم، جمع كثيراً من الأعمال لفلاسفة قدماء.

(ر)

- رابليه (Rabelais)، فرنسوا (١٤٩٤-١٥٥٣)، كاتب إنساني فرنسي كبير.
- رافاييل (Raphael)، (١٤٦٣-١٥٢٠)، رسام إيطالي واقعي كبير.
- رانكه (Ranke)، ليوبولد (١٧٩٥-١٨٨٦)، مؤرخ ألماني.
- روبسبيير (Robespierre)، ماكسيميليان فرنسوا ماري إيزيدور (١٧٥٨-١٧٩٤)، من أبرز الوجوه السياسية للثورة الفرنسية، زعيم اليعاقبة ورئيس الحكومة الثورية من (١٧٩٣-١٧٩٤).
- روتنبرغ (Rutenberg)، أدولف (١٨٠٨-١٨٦٩)، كاتب ألماني، وهيغلي شاب. ليبرالي بعد عام ١٨٦٦.
- روتيك (Rotteck)، كارل فينزيسلاس رديكر فون (١٧٧٥-١٨٤٠)، مؤرخ ألماني، وسياسي ليبرالي.
- روج (Ruge)، أرنولد (١٨٠٢-١٨٨٠)، كاتب ألماني وهيغلي شاب، راديكالي. أصبح ليبرالياً بعد سنة ١٨٦٦ (وكان يدعى أيضاً الدكتور غرازيانو).
- رودريغ (Rodrigues)، بنجامين - أولاند (١٧٩٤-١٨٥١)، ناشر ومالي فرنسي. من تلاميذ سان سيمون وأحد مؤسسي وزعماء الحركة السان سيمونية.
- روسو (Rousseau)، جان جاك (١٧١٢- ١٧٧٨)، كاتب فرنسي معروف وفيلسوف حركة التنوير. صاحب المذهب الطبيعي. ديموقراطي.
- روشو (Rochow)، فريدريك أيبرهارد (١٧٣٤-١٨٠٥)، معلم ألماني. ومؤلف كتب أخلاقية مبتذلة للشبيبة.
- روشو (Rochau)، أوغست لودفيغ فون (١٨١٠-١٨٧٣)، مؤرخ وناشر ليبرالي ألماني.
- رولاند (Roland)، دو لابلاتيير- جان - مانون - فينون (١٧٥٤-١٧٩٣)، كاتبة

فرنسية لعبت دوراً فعالاً في الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر. كانت من حزب الجيرونديين.

- روهمر (Rohmer)، فريدريك (١٨١٤-١٨٥٦)، فيلسوف مثالي ألماني.
- ريبو (Reybaud)، ماري- روش- لويس (١٧٩٩-١٨٧٩)، كاتب فرنسي، واقتصادي وناشر ليبرالي.
- ريتشارد (Reichardt)، كارل أرنست، مجلِّد كتب ماهر عاش في برلين. موزع المجلة الألمانية العامة.
- ريكاردو (Ricardo)، دايفيد (١٧٧٢-١٨٢٣)، اقتصادي إنكليزي. وأحد كبار ممثلي الاقتصاد السياسي الكلاسيكي.
- ريمبل (Rempel)، رودولف (١٨١٥-١٨٦٨)، مقاول ألماني. أصبح في منتصف الأربعينات اشتراكياً "حقيقياً".
- رينهاردت، ريتشارد (١٨٢٩-١٨٩٨)، شاعر ألماني هاجر إلى باريس.
- رينييه (Régnier)، ديستوربه هيبوليت، كان اسمه المستعار م. ر. (١٨٠٤-١٨٣٢)، مؤرخ وكاتب فرنسي.

(ز)

- زرادشت (أو زارا شوسترا) (Zoroaster or Zarathustra) ، نبي أسطوري. مجدد الديانة الفارسية القديمة.
- زينو (Zéno) (٤٣٠-٤٩١)، أمبراطور بيزنطي.
- زينون (Zénon)، من سيتيوم (٣٣٦-٢٦٤ ق. م.)، فيلسوف يوناني قديم. ومؤسس المدرسة الرواقية.

(س)

- ساران (Sarran)، جان ريمون - باسكال (١٧٨٠-١٨٤٤)، كاتب فرنسي.
- ساس (Sass)، فريدريك (١٨١٩-١٨٥١)، كاتب ألماني، واشتراكي "حقيقي".

- ســان -جوســت (Saint-Just)، لويــس - أنطــوان - ليــون دي (١٧٦٧-١٧٩٤)، وجــه لامــع مــن وجــوه الثــورة الفرنســية فــي نهايــة القــرن الثامــن عشــر. وأحــد قــادة اليعاقبــة.
- ســان ســيمون (Saint-Simon)، كلــود - هنــري - دي روفــروي كونــت دي (١٧٦٠- ١٨٢٥)، اشــتراكي فرنســي كبيــر.
- ســبارتاكوس (Spartacus)، (توفــي عــام ٧١ ق. م.)، مصــارع رومانــي. زعيــم أكبــر ثــورة للعبيــد فــي رومــا القديمــة.
- سبينس (Spence)، توماس (١٧٥٠-١٨١٤)، اشتراكي إنكليزي.
- سبينوزا (Spinoza)، باروخ (١٦٣٢-١٦٧٧)، فيلسوف مادي هولندي معروف، ملحد.
- ســتراتون (Stratton)، تشــارلز شــيروود (١٨٣٨-١٨٨٣)، قــزم اميركــي مشــهور معــروف باســم الجنــرال "عقلــة الأصبع".
- سقراط (Socrates) (٤٦٩-٣٩٩ ق. م.)، فيلسوف مثالي يوناني قديم..
- سكلوسر (Schlosser)، فريدريك كريستوف (١٧٧٦-١٨٦١)، مؤرخ وليبرالي ألماني.
- سليمان (Salamon) (٩٧٠-٩٣٠ ق. م.)، أحد ملوك اسرائيل.
- ســميث (Smith)، آدم (١٧٢٣-١٧٩٠)، اقتصــادي إنكليــزي وأحــد كبــار ممثلــي الاقتصــاد السياســي الكلاســيكي.
- سنيور (Senior)، ناساو ويليام (١٧٩٠-١٨٦٤)، اقتصادي إنكليزي.
- سو (Sue)، اوجين (١٨٠٤-١٨٥٧)، كاتب فرنسي.
- سوثويل (Southwell)، تشارلز (١٨١٤-١٨٦٠)، اشتراكي إنكليزي، من أتباع أوين.
- ســوفوكليس (Sophocles) (٤٩٧-٤٠٦ ق. م.)، كاتــب مســرحي معــروف مــن اليونــان القديمــة، ومؤلــف العديــد مــن المآســي الكلاســيكية.
- سيسموندي (Sismonde)، جان شارل ليونارد سيموند دو (١٧٧٣-١٨٤٢)، اقتصادي سويسري.
- سيغيسموند (Sigismund)، (١٣٦١-١٤٧١)، أمبراطور روماني.

(ش)

- شوفالييه (Chevallier) ميشيل (١٨٠٦-١٨٧٩)، مهندس واقتصادي وناشر فرنسي صار من أتباع سان سيمون في الثلاثينيات ثم أصبح بعد ذلك ممثلاً لطبقة التجار الأحرار.
- شويردوتلين (Schwerdtlein)، رودولف، شاعر ألماني، اشتراكي "حقيقي".
- شير، جوهانز (١٨١٧-١٨٨٦)، كاتب ومؤرخ ليبرالي ألماني.
- شيربولييه (Cherbuliez) أنطوان - إليزيه (١٧٩٧-١٨٦٩)، اقتصادي سويسري من أتباع سيسموندي، وقد وحد نظريته مع عناصر من نظرية ريكاردو.
- شيرغز(Shirges)، جورج غوتلب (١٨١١-١٨٧٩)، كاتب ألماني واشتراكي "حقيقي".
- شيللر (Shiller)، فريدريك فون (١٧٥٩-١٨٠٥)، كاتب ألماني كبير.
- شيليغا (Szeliga) (الاسم المستعار لفرانز شيليغازينكين فون زيكلنسكي) (١٨١٦- ١٩٠٠)، قائد بروسي. هيغلي شاب. ساهم في تحرير المجلة الأدبية الجديدة ومجلة الرسول الشمالي. يسمى أيضاً في الكتاب دون كيخوت.
- شيلينغ (Shelling)، فريدريك فيلهلم جوزيف فون (١٧٧٥-١٨٥٤)، فيلسوف ألماني.

(ص)

- صاند (Sand)، جورج (١٨٠٤-١٨٧٦)، كاتبة فرنسية .

(ع)

- عبد القادر (Abed El-Kader) الجزائري (١٨٠٨-١٨٨٣)، زعيم النضال الوطني للشعب الجزائري في سبيل التحرر من سنة ١٨٣٢ حتى ١٨٤٧.

(غ)

- غروتيوس (Grotius)، هيوغو (١٥٨٣-١٦٤٥)، عالم طبيعيات هولندي .

- غروسفينور(Grosvenor)، ريتشارد (١٧٩٥- ١٨٦٩)، مالك إنكليزي كبير.
- غرون (Grün)، كارل (١٨١٧- ١٨٨٧)،كاتب ألماني- اشتراكي "حقيقي"
- غريغوري السابع (هيلد براند)، (Hildebrand) (١٠٢٠- ١٠٨٥)، بابا.
- غريفس (Greaves)، جيمس بييرمونت (١٧٧٧-١٨٤٢)، عالم تربوي إنكليزي.
- غوتزكو(Gutzkow)، كارل (١٨١١-١٨٧٨)، كاتب ألماني، وممثل للحركة الأدبية "ألمانيا الفتاة" ومحرر.
- غوته (Goethe)، يوهان وولفغانغ فون (١٧٤٩-١٨٣٢)، مفكر وكاتب ألماني.
- غودوين (Godwin)، ويليام (١٧٥٦-١٨٣٦)، فيلسوف وكاتب إنكليزي، من أنصار المذهب العقلاني وأحد مؤسسي النظرية الفوضوية.
- غيزو (Guizot)، فرانسوا بيير غيلوم (١٧٨٧-١٨٧٤)، رجل دولة ومؤرخ فرنسي.

(ف)

- فرانك (Francke)، أوغست هيرمان (١٦٦٣-١٧٢٧)، لاهوتي ألماني.
- فرايليغراث (Freiligrath)، فرديناند (١٨١٠-١٨٧٦)، شاعر ألماني، وأحد محرري المجلة الرينانية الجديدة. وعضو في عصبة الشيوعيين، انسحب من النضال الثوري في الخمسينيات.
- فرنسوا الأول (François I)، (١٤٩٤-١٥٤٧)، ملك فرنسا.
- فرنيه (Vernet)، جان هوراس (١٧٨٩-١٨٦٣)، رسام فرنسي لمشاهد المعارك.
- فريدريك غويلوم الرابع (Frédéric-Guillaume IV) (١٧٩٥-١٨٦١)، ملك بروسيا .
- فورييه (Fourier)، فرانسوا ماري شارل (١٧٧٢-١٨٣٧)، اشتراكي فرنسي بارز.
- فوشر (Faucher)، يوليوس (١٨٢٠-١٨٧٨)، كاتب ألماني وهيغلي شاب.
- فوشيه (Fauchet)، كلود (١٧٤٤-١٧٩٣)، أسقف فرنسي. لعب دوراً فعالاً في الثورة الفرنسية.
- فوغيون (Vauguyon)، بول فرنسوا- دوق (١٧٤٦- ١٨٢٨)، ديبلوماسي فرنسي.

- فولتشيرون (Fulchiron)، جان كلود (١٧٧٤- ١٨٥٩) ، سياسي فرنسي ورأسمالي كبير.
- فولتير (Voltaire)، فرانسوا ماري أرويه (١٦٩٤-١٧٧٨)، فيلسوف فرنسي ومؤرخ وكاتب .
- فويرباخ (Feuerbach)، لودفيغ اندرياس (١٨٠٤- ١٨٧٢)، فيلسوف مادي ألماني كبير في مرحلة ما قبل الماركسية.
- فيثاغورس (Pythagores)، (٥٧١-٤٩٧ ق. م.)، فيلسوف وعالم رياضي يوناني.
- فيخته (Fichté)، يوهان غوتلب (١٧٦٢-١٨١٤)، ممثل طبقة الفلاسفة الألمان، مثالي.
- فيرجيل (Virgil)، (٧٠- ١٩ ق. م.)، شاعر روماني كبير.
- فيكتوريا (Victoria)، (١٨١٩- ١٩٠١)، ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا وأمبراطورة الهند.
- فيلغارديل (VilleGardelle)، فرانسوا (١٨١٠-١٨٥٦)، كاتب فرنسي، من أتباع فورييه.
- فيليبسون (Philipson)، لودفيغ (١٨١١- ١٨٨٩)، حاخام ألماني، قاتل ليضمن المساواة لليهود.
- فينكه (Vincke)، فريدريك لودفيغ فيلهلم فيليب بارون فون (١٧٧٤- ١٨٤٤)، رجل دولة بروسي.
- فينيدي (Venedy)، جاكوب (١٨٠٥-١٨٧١)، سياسي وكاتب راديكالي ألماني. ثم أصبح ليبرالياً بعد ثورة ١٨٤٨- ١٨٤٩.
- فييفه (Fiévée)، جوزيف (١٧٦٧-١٨٣٩)، كاتب وصحافي فرنسي.

(ق)

- قيصر (César)، كايوس يوليوس (١٠٠-٤٤ ق. م.)، قائد ورجل دولة روماني شهير.
- كاباروس (Cabarrus)، فرانسوا كونت دو (١٧٥٢-١٨١٠)، وزير مالية إسبانيا خلال حكم فرديناند السابع وجوزيف بونابرت.

(ك)

- الكسيس (Alexis)، ويلليسبالد (الاسم المستعار لجورج فيلهلم هارينغ) (١٧٩٨-١٨٧١)، كاتب ألماني. مؤلف عدة روايات تاريخية من بينها رواية كابانيس.
- كلوبستوك (Klopstock)، فريدريك غوتلب (١٧٢٤-١٨٠٣)، شاعر ألماني
- كليمنت أوف الكساندريا (Clément d'alexandria)، تيتوس فلافيوس كليمنز (١٥٠- ٢١٥)، لاهوتي مسيحي وفيلسوف.
- كوبدن (Cobden)، ريتشارد (١٨٠٤-١٨٦٥)، صناعي إنكليزي ورجل دولة، من أنصار التجارة الحرة، وأحد مؤسسي العصبة المناهضة لقانون الحبوب.
- كوبر (Cooper)، توماس (١٧٥٩-١٨٤٠)، عالم وسياسي أميركي. داعية للتنوير. وممثل بارز للاقتصاد السياسي في الولايات المتحدة الأميركية.
- كوبيت (Cobbett)، ويليام (١٧٦٣-١٨٣٥)، كاتب وسياسي إنكليزي، ناضل من أجل التحويل الديموقراطي للنظام السياسي في إنكلترا.
- كورنير (Korner)، كارل تيودور (١٧٩١-١٨١٣)، شاعر مسرحي وورومانسي ألماني. قتل في حرب التحرير ضد نابليون.
- كورييه، دو مير (Courrier de Mére)، بول لويس (١٧٧٢-١٨٢٥)، كاتب ولغوي فرنسي، وخصم للأرستقراطية والرجعية الإكليريكية.
- كولباخ (Kaulbach)، فيلهلم فون (١٨٠٥-١٨٧٤)، رسام ألماني.
- كونت (Comte)، فرنسوا - شارل - لويس (١٧٨٢ -١٨٣٧)، كاتب ليبرالي فرنسي واقتصادي.
- كوندورسيه (Condorcet)، ماري جان أنطوان نيقولا ماركيز دو (١٧٤٣-١٧٩٤)، عالم اجتماع فرنسي. ممثل للمتنورين. انضم إلى الجيرونديين خلال الثورة الفرنسية.
- كونديه (Condé)، لويس - جوزيف - دو بوربون (١٧٥٦-١٨٣٠)، أمير فرنسي أثناء الثورة الفرنسية، قائد الجيش الفرنسي المضاد للثورة في المنفى.
- كونرا د (Conrad)، فون وزربورك (توفي عام١٢٨٧)، شاعر ألماني من القرون الوسطى.
- كونستانت دو ربيك (Constant de Rebecque)، هنري بنجامين (١٧٦٧-١٨٣٠)، كاتب وسياسي ليبرالي فرنسي. كان متخصصاً في مسائل القانون التشريعي.

- كونفوشيوس (Confucius) (٥٥١-٤٧٩ ق. م.)، فيلسوف صيني مشهور، وضع مذهباً سياسياً وأخلاقياً كان تقدمياً بالنسبة لحقبته.
- كوهلر (Kohler)، لودفيغ (١٨١٩-١٨٦٢) ، كاتب ألماني، واشتراكي "حقيقي".
- كوهلمان (Kuhlman)، جورج (ولد ١٨١٢)، بشّر بالاشتراكية "الحقيقية" المدثرة بعبارات دينية للعمال الحرفيين الألمان من أتباع ويتلينغ المقيمين في سويسرا (يشار إليه أيضاً باسم القديس جورج).
- كيت (Kett)، روبرت (أعدم عام ١٥٤٩)، زعيم ثورة الفلاحين في إنكلترا سنة ١٥٤٩.

(ل)

- لافاييت (LaFayette)، ماري جوزيف بول، ماركيز (١٧٥٧-١٨٣٤)، جنرال فرنسي. أحد زعماء البورجوازية الكبيرة خلال الثورة الفرنسية.
- لامارتين (LaMartine)، ألفونس ماري لويس دو (١٧٩٠-١٨٦٩)، شاعر فرنسي، مؤرخ وسياسي، وليبرالي من زعماء البورجوازيين الجمهوريين المعتدلين في عام ١٨٤٨. أصبح وزيراً للخارجية والرئيس الفعلي للحكومة المؤقتة.
- لامينيه (Lamennais)، فيليسيته - روبرت - دو (١٧٨٢-١٨٥٤)، راهب فرنسي، كاتب وأحد إيديولوجيي الاشتراكية المسيحية.
- لايتون (Lytton)، إدوارد جورج ايرل لايتون، بوليفر-لايتون (١٨٠٣-١٨٧٣)، كاتب وسياسي إنكليزي.
- لوثر (Luther)، مارتن (١٤٨٣-١٥٤٦)، من ألمع وجوه الإصلاح ومؤسس المذهب البروتستانتي في ألمانيا (اللوثرية). وفي عام ١٥٢٥، خلال حرب الفلاحين في ألمانيا، انحاز إلى جانب الأمراء ضد الفلاحين الثائرين وسكان المدن الفقراء.
- لودفيغ الأول (Ludwig I)،(١٧٨٦-١٨٦٨)، ملك بافاريا.
- لورو (Leroux)، بيير (١٧٩٧-١٨٧١)، ناشر فرنسي، اشتراكي من أتباع سان سيمون.
- لوسيان (Lucian)، (١٢٠-١٨٠)، كاتب يوناني ساخر مشهور، ملحد.

- لوفاسور (Levasseur) (دولا سارت) رينه (١٧٤٧-١٨٣٤)، طبيب. شارك في الثورة الفرنسية. يعقوبي. مذكراته عن الثورة الفرنسية معروفة جداً.
- لوفه دوكوفريه (Louvet de couvray)، جان بابتيست (١٧٦٠-١٧٩٧)، كاتب فرنسي، شارك في الثورة الفرنسية. جيروندي.
- لوك (Locke)، جون (١٦٣٢-١٧٠٤)، فيلسوف إنكليزي من أصحاب المذهب الثنائي ومن أنصار المذهب الحسي، اقتصادي.
- لوكريتيوس (Lucretius)، تيتوس لوكريتيوس كاروس (٩٩-٥٥ ق. م.)، شاعر وفيلسوف روماني قديم، مادي وملحد.
- لونينغ (Luning)، أوتو (١٨١٨-١٨٦٨)، طبيب وكاتب ألماني. اشتراكي "حقيقي" في منتصف الأربعينيات وليبرالي وطني بعد سنة ١٨٦٦. (يشار إليه أيضاً باسم الثور).
- لويد (Lloyd)، صاموئيل جونز بارون أوفرستون (١٧٩٦-١٨٨٣)، اقتصادي وصاحب مصرف إنكليزي. من أتباع ريكاردو.
- لويس الثامن عشر (Louis XVIII) (١٧٥٥-١٨٢٤)، ملك فرنسا (١٨١٤-١٨١٥ و١٨١٥ -١٨٢٤).
- لويس الرابع عشر (Louis XIV) (١٦٣٨-١٧١٥)، ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥).
- لويس السادس عشر (Louis XVI) (١٧٥٤-١٧٩٢)، ملك فرنسا (١٧٧٤-١٧٩٢).
- لويس فيليب (Louis-philipe) (١٧٧٣-١٨٥٠)، دوق أورليانز. ملك فرنسا (١٨٣٠- ١٨٤٨).
- ليبنيز (Leibniz)، غوتفريد فيلهلم، فريهر فون (١٦٤٦-١٧١٦)، عالم رياضي ألماني وفيلسوف.
- ليرمينيه (Lerminier)، جان-لويس - أوجين (١٨٠٣-١٨٥٧)، محام فرنسي وناشر ليبرالي، أصبح محافظاً حوالى أواخر الثلاثينيات.
- ليسينغ (Lessing)، غوتهولد إبرام (١٧٢٩-١٧٨١)، كاتب ألماني كبير، فيلسوف وناقد. ممثل لامع لحركة التنوير في القرن الثامن عشر.
- ليسينيوس (Licinius) (كايوس ليسينيوس ستولو)، رجل دولة روماني في منتصف

القـرن الرابـع قبـل الميـلاد، بوصفـه ممثـلاً للشـعب أصـدر مـع ستيلسـنيوس القوانيـن التـي تحمـي العامـة.

- ليكورغـوس (Lycurgus)، مشـرِّع إسـبارطي أسـطوري تنسـب إليـه أقـدم القوانيـن المعروفـة التـي يعـود تاريخهـا لسـنة (٨٢٠ ق. م.).
- لينغيـه (Linguet)، سـيمون - نيقـولاوس - هنـري (١٧٣٦-١٧٩٤)، محـام فرنسـي. مـؤرخ وناشـر واقتصـادي، وناقـد شـهير للفيزيوقراطييـن.
- لينيـه (Linné)، كارل (فـون لينيـه) (١٧٠٧-١٧٧٨)، عالـم طبيعـي سـويدي كبيـر. واضـع نظـام لتصنيـف النباتـات والحيوانـات.
- ليونـاردو دو فينتشـي (Leonardo de vinci)، (١٤٥٢-١٥١٩)، فنـان أيطالـي شـهير مـن حقبـة النهضة، مهنـدس ومحـام ذو معرفة موسـوعية.

(م)

- مابلــي (Mably)، غابرييــل بونــوت دو (١٧٠٩-١٧٨٥)، عالــم اجتماعــي فرنســي مشــهور، ممثـل للشــيوعية الطوباويــة التــي تنــادي بالمســاواة.
- ماثاي (Mathai)، رودولف ، ناشر ألماني واشتراكي "حقيقي".
- مــارا (Marat)، جــان بــول (١٧٤٣-١٧٩٣)، كاتــب فرنســي وأحــد الوجــوه البــارزة فــي الثــورة الفرنســية. وأحــد قــادة اليعاقبــة.
- ماريتورنا (Maritorne)، إحدى شخصيات دون كيخوت. راجع داهنهاردت، ماري فيلهلمن.
- ماكلوخ (Macculloch)، جون رامزي (١٧٨٩-١٨٦٤)، اقتصادي إنكليزي. ممثل للاقتصاد السياسي.
- ماكيافللــي (Machiavelli)، نيكولــو (١٤٦٩-١٥٢٧)، رجــل دولــة إيطالــي، مــؤرخ وكاتــب، وأحـد إيديولوجــي البورجوازيــة الإيطاليــة فــي مســتهل العلاقــات الرأســمالية.
- مالتــوس (Malthus)، تومــاس روبــرت (١٧٦٦-١٨٣٤)، كاهــن واقتصــادي إنكليــزي، إيديولوجــي النبالــة المتبرجــزة. داعيــة للرأســمالية وصاحــب نظريــة تشــاؤمية عــن الســكان.

- مايسنر (Meissner)، ألفرد (١٨٢٢-١٨٨٥)، كاتب ألماني، ديموقراطي، واشتراكي "حقيقي" ومن ثم ليبرالي.
- مترنيخ (Metternich)، كليمانز (١٧٧٣-١٨٥٩)، رجل دولة وديبلوماسي نمساوي. وزير خارجية (١٨٠٩-١٨٢١) وقاضي قضاة (١٨٢١- ١٨٤٨). أحد مؤسسي الحلف المقدس.
- محمد علي (Mohamed Ali) (١٧٦٩-١٨٤٩)، والي مصر من (١٨٠٥-١٨٤٩). أدخل سلسلة من الإصلاحات التقدمية.
- مور (Moor)، كارل الثاني. راجع مايسنر ألفرد.
- مور (More)، سير توماس (١٤٧٨-١٥٣٥)، رجل دولة إنكليزي، لورد وقاضي القضاة، وكاتب إنساني من أوائل الممثلين للشيوعية الطوباوية، مؤلف كتاب الطوباوية.
- مورغان (Morgan)، جون مينيتر (١٧٨٢-١٨٥٤)، كاتب إنكليزي، من أتباع أوين.
- موريللي (Morrelly)، (القرن الثامن عشر)، ممثل مشهور للشيوعية الطوباوية التي تنادي بالمساواة في فرنسا.
- موزارت (Mozart)، ولفغانغ أمادوس (١٧٥٦-١٧٩١)، مؤلف موسيقي نمساوي كبير.
- موغان (Mogun)، فرانسوا (١٧٨٥ – ١٨٥٤)، محام فرنسي، عضو في الجمعيتين التأسسية والتشريعية.
- مونتغايار (Montgaillard)، غويليوم أورنوريه روك (١٧٧٢-١٨٢٥)، راهب ومؤرخ.
- مونتيسكيو (Montesquieu)، شارل دو سيكونوا، بارون دولا بريد (١٦٨٩-١٧٥٥)، عالم اجتماعي فرنسي مشهور، اقتصادي وكاتب وتنويري في القرن الثامن عشر. مُنظر الملكية الدستورية.
- مونتجوا (Montgoie)، فيليكس كريستوف لويس (١٧٤٦-١٨١٦)، كاتب فرنسي.
- مونتيل (Monteil)، أمانس ألكسيس (١٧٦٩-١٨٥٠)، مؤرخ فرنسي.
- موندت (Mundt)، تيودور (١٨٠٨ -١٨٦١)، كاتب ألماني، ممثل الحركة الأدبية "ألمانيا الفتاة"، وبعد ذلك أستاذ الأدب والتاريخ في جامعتي بريسلو وبرلين.

- ميرابو (Mirabeau)، أونوريه غابرييل فيكتور ريكيتي، كونيادي (١٧٤٩-١٧٩١)، وجه سياسي لامع من وجوه الثورة الفرنسية.
- ميرسييه (Mercier)، لويس سيباستيان (١٧٤٠-١٨١٤)، مؤلف فرنسي من حركة التنوير. انضم إلى الجيرونديين خلال الثورة الفرنسية.
- ميستر (Maistre)، جوزيف-ماري-كونت دو (١٧٥٣-١٨٢١)، كاتب فرنسي، ملكي، أحد إيديولوجي الأرستقراطية والإكليريكية. عدو لدود للثورة الفرنسية.
- ميشيليه (Michelet)، كارل لودفيغ (١٨٠١-١٨٩٣)، فيلسوف ألماني، هيغلي وأستاذ في جامعة برلين.
- ميل (Mill)، جيمس (١٧٧٣-١٨٣٦)، فيلسوف واقتصادي انكليزي. عمم نظرية ريكاردو، وكان داعية لنظرية المنفعة لبنتام.
- مينوس (Minos)، ملك أسطوري من كريت.
- ميير (Meyer)، جوليوس (توفي عام ١٨٦٧)، كاتب ومتعهد ويستفالي. اشتراكي "حقيقي".

(ن)

- نابوليون الأول (Napoleon I) (بونابرت) (Bonaparte) (١٧٦٩-١٨٢١)، أمبراطور فرنسا لسنة (١٨٠٤-١٨١٤ و١٥).
- نوغاريت (Nougaret)، بيير جان بابتيست (١٧٤٢-١٨٢٣)، كاتب ومؤرخ فرنسي.
- نوفيرك (Nauwerck)، كارل (١٨١٠-١٨٩١)، ناشر وسياسي ألماني، عضو في جمعية "الأحرار"، وهي حلقة من الهيغليين الشباب في برلين.
- نوهوس (Neuehaus)، غوستاف رينهارد (١٨٢٣-١٨٩٢)، شاعر ألماني واشتراكي "حقيقي".
- نيوتن (Newton)، سير اسحاق (١٦٤٢-١٧٢٧)، عالم فيزيائي وفلكي ورياضي إنكليزي كبير. مؤسس الميكانيك الكلاسيكي.

(هـ)

- هاتزفيلد (Hatzfeld)، صوفيا، كونتيس (١٨٠٥-١٨٨١)، صديقة، ومؤيدة للاسال.
- هارتمان (Hartman)، موريتز (١٨٢١-١٨٧٢)، كاتب نمساوي واشتراكي "حقيقي".
- هارني (Harney)، جورج جوليان (١٨١٧-١٨٩٧)، وجه بارز من وجوه حركة العمال البريطانية. وأحد زعماء الجناح اليساري للحركة الميثاقية. ناشر مجلة (نجمة الشمال) The Northern Star ومنشورات أخرى لهذه الحركة.
- هالم (Halm)، فريدريك (١٨٠٦-١٨٧١)،شاعر نمساوي.
- هامبدن (Hampden)، جون (١٥٩٤-١٦٤٣)، رجل دولة إنكليزي، من القادة المعارضين للملك خلال الثورة الإنكليزية..
- هانيبعل (Hannibal)، (٢٤٧-١٨٣ ق. م.)، قائد قرطاجي مشهور.
- هايني (Heine)، هنريخ (١٧٩٧-١٨٥٦)، شاعر ثوري ألماني كبير.
- هرفيغ (Herwegh)، جورج فريدريك (١٨١٧-١٨٧٥)، شاعر ألماني معروف جداً.
- هلفيتيوس (Helvétius)، كلود أدريان (١٧١٥- ١٧٧١)، فيلسوف فرنسي لامع، وممثل للمادية الميكانيكية، ملحد وأحد إيديولوجيي الثورة الفرنسية.
- هنري الثامن (Henri VIII)، (١٤٩١- ١٥٤٧)، ملك إنكلترا في (١٥٠٩-١٥٤٧).
- هنري (Henri)، جوزيف (ولد عام ١٧٩٥)، رجل أعمال فرنسي، قام في ٢٩ تموز (يوليو) ١٨٤٦ بمحاولة اعتداء فاشلة على حياة لويس فيليب وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.
- هنريخ الثاني والسبعون (Henrich LXXII) (١٧٩٧-١٨٥٣)، أمير الدولة الألمانية القزمة.
- هوبس (Hobbes)، توماس (١٥٨٨-١٦٧٩)، فيلسوف إنكليزي كبير، وممثل للمادية الميكانيكة، آراؤه الاجتماعية والسياسية كانت مناهضة للديموقراطية.
- هوبسون (Hobson)، جوشوا، صحافي إنكليزي من الشارتيين.

- هوراس (Horace)، كانتوس هوراتيوس فلاكسوس (٦٥-٨ ق. م.)، شاعر روماني.
- هوفمان (Hoffman)، فون فالرسلبن، أوغست هنريخ (١٧٩٨-١٨٧٤)، شاعر ولغوي ألماني.
- هولباخ (Holbach)، بول-هنري-دثيرى، بارون (١٧٢٣-١٧٨٩)، فيلسوف فرنسي مشهور، ممثل للمادية الميكانيكية، ملحد، وأحد إيديولوجيي الثورة الفرنسية.
- هيراكليطس (Heraclitus)، من أفسس (٥٤٠-٤٨٠ ق. م.)، فيلسوف يوناني قديم مشهور، أحد مؤسسي الجدلية والمادية العفوية.
- هيرشيل (Hérschel)، سيرجون فريدريك ويليام (١٧٩٢-١٨٧١)، عالم فلكي إنكليزي .
- هيس (Hess)، موزيس (١٨١٢-١٨٧٥)، كاتب ألماني. أحد الممثلين الرئيسيين للاشتراكية "الحقيقية".
- هيغل (Hegel)، جورج فيلهلم فريدريك (١٧٧٠-١٨٣١)، ممثل بارز للفلسفة الكلاسيكية الألمانية. إيديولوجي موضوعي، أعد الجدلية بصورة جامعة.
- هيلميش (Helmich)، جوليوس، ناشر وبائع كتب ويستفالي. اشتراكي "حقيقي"، (ويشار إليه أيضاً باسم السرطان).
- هيوم (Hume)، دايفيد (١٧١١-١٧٧٦)، فيلسوف مادي اسكتلندي، مؤرخ واقتصادي، لا أدري.

(و)

- واشنطن (Washington)، جورج (١٧٣٢-١٧٩٩)، رجل دولة أميركي معروف، قائد القوات الأميركية الشمالية خلال حرب الاستقلال وأول رئيس للولايات المتحدة الأميركية.
- واطس (Watts)، جون (١٨١٨-١٨٨٧)، اشتراكي إنكليزي، من أتباع أوين ومن ثم ليبرالي.
- وايتلينغ (Weitling)، كريستيان فيلهلم (١٨٠٨-١٨٧١)، من الوجوه البارزة خلال

الفتـرة المبكـرة مـن حركـة الطبقـة العاملـة فـي ألمانيـا وأحـد واضعـي نظرية المسـاواة الشـيوعية الطوباويـة، كانـت الخياطـة حرفتـه.

- وايد (Wade)، جون (١٧٨٨-١٨٧٥)، كاتب إنكليزي. اقتصادي ومؤرخ.
- ويديمييـر (Weydemeyer)، جوزيـف (١٨١٨-١٨٦٦)، أحـد زعمـاء حركـة الطبقـة العاملـة فـي أميـركا وألمانيـا، اشـتراكي "حقيقـي" مـن سـنة (١٨٤٦-١٨٤٧) وتحـت تأثيـر ماركـس وإنجلـز أصبـح نصيـراً للشـيوعية وعضـواً فـي العصبـة الشـيوعية. شـارك فـي ثـورة (١٨٤٨-١٨٤٩) فـي ألمانيـا وقاتـل خـلال الحـرب الأهليـة الأميركيـة فـي جيـش الشـمال.، وهـو الـذي نشـر الأفـكار الماركسـية فـي الولايـات المتحـدة الأميركيـة. (يشـار إليـه أيضـاً باسـم الحمـل).
- ويـرث (Weerth)، جـورج (١٨٢٢-١٨٥٦) ، شـاعر وصحافـي بروليتـاري ألمانـي، عضـو فـي العصبـة الشـيوعية. وفـي سـنة (١٨٤٨-١٨٤٩) أحـد محـرري المجلـة الرينانيـة الجديـدة. صديـق لماركـس وإنجلـز.
- ويستمنستر (Westminster)، أنظر غروسفينز، ريتشارد.
- ويغـان (Wigand)، أوتـو (١٧٩٥-١٨٧٠)، ناشـر وبائـع كتـب ألمانـي. صاحـب دار نشـر فـي لايبزيـغ كانـت تنشـر مؤلفـات الكتـاب الراديكالييـن.

المحتويات

إن ماركس وإنجلز ينشدان في الأيديولوجية الألمانية دراسة الإنسان الفعلي، الإنسان الحي، الإنسان في التاريخ. وإنهما ليؤكدان بلا كلل على فعالية الإنسان العملية، الثورية، التي سوف تغير الإنسان نفسه من جراء تغيير الشروط الاجتماعية التي يحيا فيها. إن وجود البشر الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم الاجتماعي. ولذا فإن الواجب يدعونا لأن نبدأ بدراسة الواقع الاجتماعي الحسي، دراسة «العلاقات التجريبية»، لأن هذه العلاقات هي التي تفسر تصوراتنا وأفكارنا، وليس العكس كما يحسب الأيديولوجيون الذين «تصبح الفكرة المجردة عندهم القوة المحركة للتاريخ.. بحيث يرتد التاريخ إلى تاريخ الفلسفة»، أو إلى «مجرد عملية تطور الوعي».

وكونهما يرفضان هذا التصور، فإن ماركس وإنجلز يرسمان الخطوط الكبرى لتصور جديد للتاريخ. إنهما «يهبطان من السماء إلى الأرض»، وينطلقان في دراسة تاريخ البشر، ويستخلصان الفكرة الخصبة القائلة إنّ المحرك الفعلي للتاريخ هو، من دون الفكر، إنتاج الحاجات الإنسانية.

إن جميع الثورات وما آلت إليه من عواقب تحددها شروط وجود الناس وحاجاتهم المادية. ومن هنا فإن العمل، العمل المنتج، وأشكال تقسيمه هي التي تشكل «مسرح التاريخ الحقيقي». ولما كانت حاجات البشر تتغير باستمرار، وتتطور، وتتعدد، وتختلف من عصر إلى عصر، فإن هذه التبدلات هي التي تقوم في أصل التحولات الاجتماعية.

ولذا كانت بنية المجتمع وقفاً على نمط الإنتاج القائم تاريخياً، وأن كل نمط للإنتاج ينطوي على نمط معين للتعاون، وبالتالي على شكل معين للعلاقات الاجتماعية. وعلى العموم، فإن نمط الإنتاج مرتبط بطبيعة القوى الإنتاجية التي كوّنها وطورها التاريخ السابق للجنس البشري.


ISBN 978-614-432-521-6